



سينا
للنشر

الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والوسلهم



تأليف: هنري لورنس

شارل جيليسي - جان - كلود جولقان - كلود ترونيكر

ترجمة: بشير السباعي

الحملة الفرنسية
في مصر
بونابرت والاسلام

الكتاب : الحملة الفرنسية في مصر

بولابورت والإسلام

الكاتب : هنري لورنس وآخرين

ترجمة : بشير المسبahi

الطبعة الأولى ١٩٩٥

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : سيدنا للنشر

المدير المسؤول : رابحة عبد العظيم

١٨ في طريق محمد - القصر القوي -

القاهرة - جمهورية مصر العربية -

تليفون / فاكس : ٢٠٢ / ٢٥٨٧١٧٨

هذه ترجمة لكتاب :

L'EXPÉDITION D'ÉGYPTÉ

1798 - 1801

تأليف :

HENRY LAURENS

الناشر :

ARMAND COLIN

مركز الدراسات والبحوث
الحملة الفرنسية
للأبحاث والتأليف
قسم الترجمة - القاهرة



الطبعة الأولى : منير الشعراوي

الاخراج الداخلي : إيناس حسني

الطبعة الأولى : سيدنا للنشر

تأليف: هنري لورنس
شارلجيبي . جان . كلود جولقان . كلود ترونيكر

الحملة الفرنسية في مصر بونا برك والوسلام

ترجمة: بشير السباعي



إلى القارئ

شكلت حملة مصر الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) نقطة تحول مهمة في التاريخ المصري، وهو واقع يسلّم به المؤرخون على اختلاف مدارسهم، ويسلط أضواء جديدة عليه هذا الكتاب المهم الذي صدر بالفرنسية في عام ١٩٨٩ ضمن الجهود العلمية للوكالة لإحياء الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية الكبرى. ويصدر هذا الكتاب بالعربية مع اقتراب الذكرى المئوية الثانية لحملة مصر الفرنسية، والتي نأمل أن تواكبها جهود علمية من جانب المؤرخين المصريين، من شأنها توضيح دلالات هذا الحدث المهم، بالنسبة لأجل تطور المجتمع المصري الحديث والمعاصر.

ولابد من الاعتراف بأن ما حلزنا إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية هو الرغبة في تشييط نقاش جاد بين المؤرخين المصريين، حول سياق ونتائج هذا الحدث، وهو نقاش طال أمد انتظاره، بالرغم من عدد من الإسهامات - النادرة - التي لا يخامرنا شك في أهميتها.

بشير الصباصي

شكر وتقدير

ما كان يمكن إنجاز هذا العمل دون تصور معين للتاريخ والمجتمع الشرقي، تهللوا عبر مشاركة دامت أكثر من عشر سنوات في نشاطات مركز تاريخ الإسلام المعاصر بجامعة السوربون - باريس (باريس ٤). وبيني كبير بوجه خاص للأستاذ دومينيك شوثالبييه مؤسس المركز ومحرره. أما جورج بوهاس، مدير المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، فقد أتاح لي، ضمن إطار منحة دراسية لمدة سنة قدمها معهد في علم ١٩٨١ - ١٩٨٢، أن أكرس جانباً كبيراً من وقتي للقراءة للتأنيح حوليات الجبرتي، بصحبة الأستاذ الأخير بجامعة حلب. وقد وفر لي جان - لوي باكي - جرامون، مدير المعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية بإسطنبول، كل تسهيلات العمل بمعهد خلال إقامتي المتعاقبة في تلك المدينة. وهكذا تصنى لي الاطلاع على الحقائق التاريخية العثمانية بشكل أفضل. أما السيدة هوزينه، مديرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، فقد تكرمت باستقبالني في معهدنا خلال زيارتي للخطلة لمصر وأبنت اهتماماً خاصاً بدراساتي حول الجنرال كليبر. وكان عونها ضرورياً بالنسبة لنهر الأوراق الشخصية لهذه الشخصية الكبيرة. وأما الأب مارتان بكلية العائلة للقصة بالقاهرة فقد أتاح لي كل الحرية للاستفادة من المكتبة الضخمة التي يتولى إدارتها والنقاش معه بعد - دائماً - إثراء - لمعارف المستمع إليه. وقد استقبلني أندريه ريمون وجيلبير ديلانو موجهين في مناسبات عديدة وساعداً علياً إثراء معارفي بعلمهما الغزير بأحوال مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفتح لي جان تولار أبواب معهد نابوليون بينما فتح لي ميهيل ثوفيل أبواب مكتبة كليبر - سوربون.

وخلال كل هذه الأعوام، حظيت بمعاملة كريمة فائقة من جانب جميع أفراد قسم التاريخ بالجيش البري بقلة فائسان. إن مخاض العمل للمقاز بهذا القسم إنما يدين لهم كثيراً.

وقد أعاد جان لورنس والسيدة مها باكليتي لورنس ونيكولا فالتان عن طيب خاطر قراءة مخطوط هذا العمل وقدموا عونهم.

تجريد

بالرغم من مؤلفات مؤرخين كبار، كمؤلفات جورج لوفاتر وهاك جونسون، فإن فترة الثورة الفرنسية التي تبدأ مع (حكومة) الإطاحة تقطع بوجه علم موضوع إهمال وإزدياء. وبالنسبة لعدد من بيننا أيضاً، فإن الثورة تنتهي مع سقوط روبسبير، وما يحدث، بين عامي ١٧٩٤ و ١٧٩٩، ليس غير لاحتضار طويل للنظام الجمهوري، والملحمة النابوليونية الوليدة هي وحدها التي تُعدّ جذوة بالاهتمام والتحول جميع الأبصار نحو رجل، نحو الفاتح. أما للناقدات الأيديولوجية والسياسية التي شارك فيها بنشاط فهي لا تُدرس إلا من زاوية سيرته.

وهكذا فإن حملة مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) وحروب الائتلاف الثاني قد شكلت تلاحق وقصات غريباً وبلا طائل. وخلال السنة الأولى، يجتنب وجود بوناپارت في مصر الانتباه، ثم يعود تعزز الوضع الفرنسي في أوروبا، بلطعل عمل القنصل الأول، إلى إعمال المقامرة المصرية التي تستمر سنتين.

على أن الحملة، حتى خلال تروانها، قد حركت مشاعر أوروبا. وقد تسببت صحافة العصر في نقل أخبارها للباشرة. وظهر تمثيل كامل لأحداثها. وفي السنوات التالية، تُدم عمل فيثان ديون، ثم اوصف مصر، تعميماً لصورها إلى درجة خلق جمالية متمصرة ومتمشقة، نجدها ماثلة في جميع فنون مستهل القرن التاسع عشر. وقد دام هذا الائتقان إلى أيامنا. ومنذ عام ١٨١٥، وعلى مدار الأوام، تظهر مذكرات أو دراسات عن الحملة. والواقع أن صورة الفاتح - المؤلف على لوحة أهرامات مصرية - إنما ترمز بشكل بليغ إلى هذا اللقاء بين عجائب مصرية سرمدية والقدر الفريد لبطل.

فما الذي يمكن إننا لكتاب جديد أن يقدمه إلى مثل هذه الأدبيات التي لا أول لها ولا آخر؟ سؤال لا مفر من طرحه على النفس. لكننا إذا ما درسنا الأمور من قرب، نصوف نرصد جهود ثغرات مهمة. إن الأسطورة النابوليونية والأسطورة السوء التي تراكمتها قد

جعلنا من أحداث معينة موضوعات للجدل. والفترة التي تلتو وحيل بونابارت تظل مهمة، خاصة فترة قيادة كليبر. والأثر الملقم للحملة في العمل العلمي بحاجة إلى تقييمه بدقة؛ وتاريخ الشرق الإسلامي ما يزال بحاجة إلى دراسة.

إن الكتابة التاريخية الليبرالية في الشطر الثاني للقرن التاسع عشر، في أوروبا كما في الشرق، قد جعلت من حملة مصر نقطة بداية للجدل في الشرق العربي. فهي تذهب إلى أن عالمًا مقللاً وراكناً قد شهد - عبر العنف - انفتاحاً تصريباً على العالم الحديث أدى إلى نهوض ثقافي وقومي ما يزال تأثيره محسوساً في أيامنا. وتجد صورة غير مغايرة جذرياً لهذه الفكرة عند الإسلاميين المعاصرين، فهم يذهبون إلى أن تجانس وانسجام الحضارة الإسلامية المصرية وشرق الأوسطية قد تمرقنا بشكل لا يمكن علاجه من جراء العدوان الثقلي الذي وافق هذه الحملة العسكرية وتلاها - وهي صورة باطلة - في نظر عدد من المؤرخين الأنجلو - ساكسونيين، الذين أعلنوا منذ وقت مبكر أن هذه المسألة لم تك غير حدث بلا أثر ملق في تاريخ مصر العارم في أواخر القرن الثامن عشر.

وبالنسبة للمشجعين على الحملة، كان الشرق يبدو على حافة التمرد، وكان العالم العثماني يبدو مفعماً بالحركة، وعلى وشك أن يشهد «أحداثاً جساماً». وهذا التصور له مبرراته، هناك في ذلك شأن واقع التطورات السياسية والاجتماعية في الولايات العربية للإمبراطورية العثمانية.

لقد كان الثوار الفرنسيون ينتمون إلى عالم التنوير، ولم يك يوسع تناول اقتصادي للمشكلات لن يكافئهم. ومن المؤكد أن فكرة الاستيلاء على مصانع المواد الأولية والاستحواذ على أسواق جديدة لمنتجات المتروبول المصنعة لم تك غريبة عليهم. لكنهم - تمسحياً مع ما قاموا به في أوروبا - كانوا يفكرون من زاوية إسفال تحويل شامل على للمجتمعات الإسلامية. وقد أكتوا على ذلك باستمرار وحاولوا تحقيقه.

وبعبارة من المغامرة الشخصية لبونابارت وعن ملحمة جيش الشرق الفرنسي الأول، فمن المؤكد أن حملة مصر هي مواجهة بين ثورة فرنسية على طريق التوسع العسكري وإسلام، عزيز بتراته التقليد، لكنه في معمران تجد اجتماعي واقتصادي.

فلماذا تنتهي الثورة الفرنسية بحملة استعمارية ؟ وما هو واقع المجتمعات العربية شرق الأوسطية في أواخر القرن الثامن عشر؟ وما الذي كانت عليه العلاقات بين الفرنسيين والمصريين خلال تلك الفترة للوارة بالحركة ؟ وما هي الأهمية الفعلية التي

مثلاً هذا الحدث بالخصبة للشرق الأوسط ؟ إن دراسة الهياكل والأحداث هي وحدها التي تسمح بتقديم إجابات على هذه التساؤلات. وهذا ليس اختصاراً، هذا، المنظور كرونولوجي (متتبع لتسلسل الأحداث) صارم.

ومن نواحٍ عديدة تبدو تلك المصادر الثلاث بمثابة نبوءة بالمعقود التالية. وتكشف كل لحظة من أصلاتها وتستغرق دراستها في نفسها. وهذا هو الصعب في أثناء مجازلين بالاتجاه إلى استشهائات طويلة، قد تركنا الكلام قدر الإمكان للأدبي الأنوار أنفسهم. إن كلامهم - الذي غالباً ما يجري إيراد من جديد بالعسنتهم - إنما يحمل قوة وشحنة لزمنة البدايات.

وسعيًا إلى الإبقاء على نكهته، فقد حافظنا في غالبية الحالات على تهجئة للكلمات الشرقية الغربية من التهجئة المستخدمة في أواخر القرن الثامن عشر. لكن الأمر قد استلزم - حرصاً على التماسك - توحيدها، بما في ذلك في غالبية الاستشهائات، ونأمل أن المستعربين سوف يستفيدون - نون صعبة - الصيغ العربية الأصلية. ومن جهة أخرى، فقد اخترنا تهجئة علمية مبسطة، مستخدمين الأحرف الإيطالية (الملاحظة)، للمصطلحات المتصلة بمؤسسات ووظائف المجتمع شرق الأوسط سعيًا إلى إبراز أصلاتها للراصة في وجه محاولات الغائعين.

الفصل الأول

الحملة

جيولوجيا التلويح للغالب القطر

شهد القرن الثاني للقرن الثامن عشر تحولاً ملحوظاً للجغرافيا السياسية العالمية، التي كانت شبه مستقرة منذ الكشوف الكبرى. فبطلة واحدة، توحد أمريكا أبوابها في وجه التوسع الأوروبي، فحرب السنوات السبع تؤدي إلى طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية (١٧٦٣)، وحرب استقلال الولايات المتحدة تختزل حصة إنجلترا التي تضطر إلى التسليم باستقلال ثلاثي متزايد الأهمية لممتلكاتها الأخيرة. وجزر الأنتيل يبدو أنها تضطر - في مستقبل قريب - إلى الاعتماد على الولايات المتحدة. وكل الاعتبارات تسمح بتصور أن أمريكا اللاتينية - التي تملكها القوتان الأيبيريتان (إسبانيا والبرتغال) - سوف تتبع تطوراً مماثلاً لتطور أمريكا الشمالية. وينتهي الفصل الأوروبي في تاريخ القارتين الأمريكيتين وبانتهائه تنتهي أول إمبراطورية استعمارية قامتها القوى البحرية الأوروبية الغربية. ومع إبراء تحرر القارتين الأمريكيتين، يحل مصطلح «الغرب» محل مصطلح أوروبا، للإشارة إلى المجال الجغرافي للثقافة الأوروبية.^(١)

لم يكن العالم القديم قد تعرض بالكاد لتغير يذكر منذ القرن السادس عشر. ففي أثر التوسع الأوروبي في هذه الأجزاء يشهد القرن التالي انكفاءً، فالصين واليابان توصدان أبوابهما، والإمبراطورية العثمانية وفارس لا تسمحان إلا بعلاقات تجارية وببلوماسية. والانفراس الإقليمي الأوروبي الحقيقي لا يوجد إلا في أرخبيلات المحيطين الهندي والهادئ وفي بعض القاليم الأفريقية.

إلا أن هناك استثناءً ملحوظاً، الهند. إن انهيار القوة المغولية يسمح ب بروز توازن محلي بين القوى التي تستخدم في نهاية الأمر مرتزقة أوروبيين لتدريب جيوشها، ومنذ

تلك الحين، في القرن الثامن عشر، يلقب الفرنسيون والإنجليز وجهاً لوجه بالفعل في «لعبة كبرى» قاصرة على شبه القارة (الهندية - المترجم) هدفها للسيطرة على تجارتها. وقد كسبتها إنجلترا خلال حرب السنوات السبع، فأصبحت بذلك قوة إقليمية، تشارك بلا مواربة في لعبة التوازن المحلي المعقدة، حيث يؤدي نظام سياسي جديد مزيج إلى الحفاظ في آسيا على توازن أوروبي هش، لفرنسا يمكنها العودة بشكل هجومي إلى هذه الأقاليم بحشدها حولها جميع القوى المحلية للناوچ لإنجلترا؛ وروسيا كاترين الثانية تبدأ في التفكير في تغلغل صوب المحيط الهندي، مروراً بأفغانستان، الطريق التقليدي للغزوات البرية التي تستهدف شبه القارة الهندية.

إن الهند غالية وإنجلترا نموذج. أما فارس فهي غير متاحة إلا لروسيا. ومنذ عصر بطرس الأكبر، كانت روسيا قد بدأت تعدياتها، مستفيدة من انهيار الإمبراطورية الصفوية. لكن البلد ليس ضعيفاً بالدرجة التي يبدو عليها. والمغامرة قريبة العهد التي قام بها فادرشاه، الذي سارت جهوده في بغداد إلى نيل في ثلاثينيات وأربعينيات القرن، ما تزال حية في الأذهان للتذكير بذلك. ومع صعود سلالة القاجاريين الحاكمة، يبدو أن البلد يستقر بعد أكثر من نصف قرن من الاضطرابات التي أثارت مشاعر أوروبا.

الإمبراطورية العثمانية

والإمبراطورية العثمانية أقرب (إلى أوروبا - المترجم)، وهي تجمع تحت سلطتها كل غرب الإسلام باستثناء المغرب الأقصى وتوسع نفوذها، في القرن السابع عشر أيضاً، على حساب أوروبا المسيحية. وهذه الدولة العظمى قُعدت - منذ القرن السادس عشر - منمنجة في النظام السياسي الأوروبي، وتُوجد في عاصمتها بشكل دائم سفارات أوروبية. ومن حين لآخر، تولد الحكومة العثمانية رسلاً مفوضين إلى كبرى بلدان أوروبا، ويوجد تحالف تقليدي مع فرنسا.

لكن هذه الإمبراطورية تبتدي علامات اضمحلال، والظاهرة معقدة، لعملية انهيار للمركزية السياسية، والتي بدأت منذ أواخر القرن السادس عشر، تشهد عندئذ لوجهاً. وتحت قيادة سلطوية من جانب الباشاوات الولاء على الولايات، تتشكل إشهاد دول في الأقاليم الرئيسية للإمبراطورية والسلطة المركزية - الباب العالي - تجد صعوبة كبيرة في كسب

الانضباع لها، لكن للجميع يظلون داخل النظام العثماني. وإذا كان توسع حروب أن تنود بين الولاء، فإنه لا توجد في الواقع حدود غير الحدود الإدارية، وجميع هؤلاء الموظفين الإمبراطوريين الكبار شركاء في اللعبة السياسية. والباب العالي، العاجز عن اختزال درجات هذا الاستقلال، بالشكل الذي يتصاه، إنما يلعب على هذه التناقضات ويدير بمفرده ما يمكن تسميته بالتوازن العثماني.

ويتمشى مع هذا الانهيار للمركزية ضعف الانضباط الداخلي. ومن جراء التعرض لضغوط قوية، تجعل من الوحدات العسكرية تعبيراً عن المجتمع المدني الإسلامي، لا تتمتع السلطة للمركزية بعد بأداة عسكرية متماسكة ومنضبطة بدرجة تماسك وانضباط الأداة العسكرية التي عرفها زمن العصور العثمانية الأولى. وبهذا يبلغ التحكم في سلوك الرجال، في أوروبا، ذروته في الانضباط البروسي، فإن الجيش العثماني يبدو مفككاً بشكل مطرد.

والشيء الأهم هو أن الإمبراطورية لا تعرف - في القرن الثامن عشر - نمو سكاني معاكساً لنمو سكان أوروبا، التي تنمو من الأسباب الرئيسية للارتفاع الكبير لنسبة الولادات، فتتدفق بذلك ثروتها الديموغرافية. ففي المجال العثماني الضام، تتكرر لبيئة الطاعون بصورة منتظمة ويصبح البناء متوطناً هناك، وثقل البندوة وانعدام الأمن - اللذين يؤكد البندو والتركمانيون هيمنتهم - يحثان من المجال الزداعي. وتزايد الضرائب ونظام جباية غير ملائم - بالرغم من التناهي الذي اتخذتها السلطة المركزية لإصلاحه - لا يحفزان الفلاحين على زيادة إنتاجهم، على الرغم من ظهور تدوير للمحاصيل، بسبب طلبات السوق الأوروبية للتزاييد. وعلى المستوى الديموغرافي، تظل الإمبراطورية العثمانية في مرحلة تأخير ولكد، مرحلة تهاين لعدد السكان بين فواحد متغيرة وسقف لن يتسنى تجاوزه إلا في القرن التاسع عشر مع إعادة فرض سلطة مركزية قوية. وعلى مدار زمن جد طويل (من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر) يمكننا رصد ارتفاع لعدد السكان في الولايات الآسيوية على الأقل، لكن هذا الارتفاع لا يتناسب قبة مع الأرقام الأوروبية.

وهكذا فإن وزن الإمبراطورية من الناحية الديموغرافية يصبح أقل تأثراً لنياساً إلى جارتها الطموحتين اللتين - تحت قيادة مستبدين مستنيرين - تعززان قوة الدولة مع تعبيرها العسكري وتُشرفان بذلك - عبر الانضباط - على النمو الملحوظ لعدد السكان. وفي الشطر الثاني للقرن، يختل التوازن بين الإمبراطورية العثمانية، من جهة، والنمسا

وروسيا، من جهة أخرى، لاختلالا حاسما. وتوضح ذلك حرب ١٧٦٨ - ١٧٧٤، حيث ذهب الإمبراطورية العثمانية، استجابة لنداء من فرنسا، إلى مساعدة بولندا ضد روسيا كاترين الثانية؛ وتمتّى الإمبراطورية بهزائم مريعة بحيث أن مستقبلها أصبح محل شك. وحرب ١٧٨٧-١٧٩٢، حيث تدخلت النمسا إلى روسيا، متصورة أن يوسعها للمشاركة بذلك في انقسام الليتلان مطابق لاقتسام بولندا، أما فرنسا للفرقة في قلاقل ما قبل الثورة، ثم في الثورة نفسها، فهي لا تهتم باللعبة، ويخطر العثمانيون للحاصرون إلى مثلثة بروسيا وإنجلترا، القابضتين الجديدتين إلى الساحة. ويؤدي التوتر للتزايد الذي اقترن الثورة والتقسيم الثاني لبولندا إلى إنقاذ الإمبراطورية العثمانية - مؤقتا في نظر المعاصرين - من الفناء الذي تواجهه المراقبون الأنكباء.

فرنسا والشرق

بينما تبدأ الثورة، يرى الحس المشترك الأوروبي أن «السألة الشرقية»، أي مستقبل الأراضي العثمانية، هي السألة الجوهرية التي سوف تهيمن على لواخر القرن. وما جرى في فرنسا يبدو لكثيرين بمثابة حادث عابر لن يدوم طويلا، فسوف يحدث استقرار مؤقت للثورة ثم يرجع بالضرورة إلى الاهتمام بالشرق. (٧)

إن فرنسا النظام القديم هي الشريك الأكبر للإمبراطورية العثمانية، والشبكة التجارية الرائعة في ثغور شرقي البحر المتوسط، والتي لقامتها بأناة غرفة مارسيليا التجارية ولماة الدولة للبحرية منذ زمن كولبير، إنما تجعل من فرنسا الدولة الأوروبية الأفضل انفراسا في العالم العثماني. ويعمل كبار مؤلف من الفناصل والتراجعة (الترجمين العليمين باللفات الشرقية) على مساعدة التجار الفرنسيين ويطلع الملكية (الفرنسية- المترجم) بشكل دقيق على شتى المجريات المهمة في تلك المنطقة من العالم، ويؤدي مجمل إلزامي من الأحكام التنظيمية، تم إضفاء للبر من المرونة عليه في لواخر القرن - تحت تأثير الاقتصاديين - إلى احتواء كافة نشاطات للثغور، والحال أن تجارة شرقي البحر للمتوسط، المراقبة بحراسة من جهة أخرى في فرنسا، إنما تشهد مَرَكَزَةً حقيقية لها حول مارسيليا، دون تأخيرها بشركة قانونية. وهذا الراسمال الراسخ في الدراية والخبرة يسمح بانتهاج سياسة متماسكة ومتماشية مع الحقائق الواقعية. (٨)

لكن ذلك ليس ممكناً تماماً إلا إذا ما واصلت الإمبراطورية الوجود، ومن هنا أهمية الجدل الذي تب بين القويّات السياسية الفرنسية منذ أواخر عهد لويس الخامس عشر، ما هو الموقف الذي يجب اتخاذه إذا ما تفككت الإمبراطورية العثمانية وانحلت؟

لم تك هذه المناقشة تنتمي إلى عالم التجار المارسيين. فالنظرة السياسية إلى المدى البعيد لم تكن تهمهم وهم لا يمارسون ضغطاً على حكومتهم. والأشخاص المعنيون هم في أن واحد بعيدون عن الغرفة التجارية للمارسيين وإلى جانبها. (٤)

فإلى جانبها، نجد ترجمة مستشرقين، مثل فيكتور فو بارادي، وقناصل، مثل ماجالون، وضباطاً ومستشارين عسكريين للباب العالي في ظل الملكية، كالبارون بوتوت، وفي ظل الثورة، مثل لازوفسكي. وهؤلاء كلهم موظفون يحتلون مناصب مرموقة، وتدخلاتهم، على شكل خطط فتوحات، لا تستند شهرتها إلا من الكفاءة التقنية لأصحابها. وهي أراء خبراء لا أكثر ولا أقل. وبعبارة عنها (عن الغرفة التجارية المارسية - المترجم)، نجد المستوى الأعلى للعولة، مديري الإدارة المركزية، كسان - بيبية، ومفراء فرنسا لدى القسطنطينية، كسان - بريبه أو شواسول - جوفيه. وشخصيات بارزة، كلافاييت، ووزراء، كساروتين أو قاليبان في ظل (حكومة - المترجم) الإدارة، بل ووزير أول، كشواسول. (٥)

وأولئك الذين يمكن وصفهم بنمعة التدخل يدون أن شبكة النفوذ محكوم عليها بالدمار من جراء وجود الإمبراطورية العثمانية ذلك. فإذا ما استولت روسيا والنمسا على الجزء الأكبر من للجال العثماني، فإن سياستهما التجارية سوف تؤدي إلى طرد الفرنسيين من هناك لا محالة. والصداقة العثمانية التقليدية لم يعد لها مبرر مع ضعف النظام القديم لتحالف ذكيات؛ فالسويد لم تعد قوة عظمى؛ وبولندا بسبيلها إلى الزوال؛ والنمسا - منذ قلب تحالفات حرب السنوات السبع - تصبح الشريك المحتسب لفرنسا. ومن ثم، فإن هذه الأخيرة لا يمكنها بعد دعم إمبراطورية عثمانية مصيرها زوال سريع. على العكس، إن إنشاء إمبراطورية استعمارية فرنسية في شرقي البحر المتوسط سوف يسمح بتعويض الخسارة المحتملة لجزر السكر، وذلك بفضل استثمار هائل في إمكانيات ضخمة غير مستغلة بسبب الاستبعاد الشرقي. ومن شأنه أن يوفر لفرنسا السيطرة على تجارة ترانزيت، من شأنها أن تصبح إحدى أهم تجارات الترانزيت في العالم إذا ما توصلت إلى إعادة فتح طرق تجارية كطريق السويس، قليل الاستغلال منذ الدوران حول أفريقيا. وهناك

حجة إضافية تتمثل في أن النمسا وروسيا تعرضان تعويضاً لتوسيعهما بمنح فرنسا حصّة كبرى من الأراضي الآسيوية والأفريقية للإمبراطورية العثمانية تُعدّ مصر مركزها، ونادراً ما يُشار إلى إنجلترا في مشاريع الفتح الاستعماري هذه، وهي لا تظهر إلا في ثمانينيات القرن الثامن عشر حيث تعزى إليها أطماع في مصر وهذا التأكيد هو بوجه خاص وسيلة لانتزاع القوار الذهبية من الهيئات الحاكمة.

والواقع الأساسي هو أن دعاة التدخل لا يفكرون من زاوية للجريات الواقعية المباشرة كالأوساط الاقتصادية للمرسيلية، بل وفق تحليلات جيوسياسية وتوقعات بعيدة الأجل. ومثل هذا التصور للمشكلات إنما ينتمي إلى مجال جهاز الدولة لا إلى مجال تجار يفكرون على المدى القصير.

وبالرغم من تصوراتهم للذهلة للمستقبل ومواقفهم الراسخة في الإدارة، فإن دعاة التدخل يفسلون في محاولاتهم الرامية إلى تحويل سياسة الملكية الأتلة. فحرب أمريكا التي تعبر جميع الإمكانيات المتاحة وتحرك ائتلافاً قارياً ضد إنجلترا التي لا تتمتع (وهو واقع نريد في التاريخ الحديث) بتحالف تكهات ضد فرنسا، إنما تعنى بالتحديد عدم تدخل في مجال جد حساس (كالمجال العثماني - للترجم) بالنسبة لروسيا والنمسا. ثم إن الأزمة المالية التي سجلت بها خلفات هذه الحرب نفسها سرعان ما تحول إلى أزمة سياسية وتلقى في التو والحال كل مشروع مكلف لمغامرة شرقية.

وثمة رجل يحمّد السياسة المضادة، هو فيرجان. فالعالم الأوروبي يبدو بالنسبة له قائماً على توازن قارى يحد من دور إنجلترا ويشكل عقبة أمام توسع روسيا الإقليمى. وهو يشارك بنشاط في النهضة السياسية للسويد في ظل جوستاف الثالث، الذي يجنب هذا البلد مصيراً مماثلاً لمصير بولندا. وهو يحسب التحالف النمساوى بمرص حتى لا يزجج للمصالح الأساسية لفرنسا. كما أنه يرى أن الإمبراطورية العثمانية، التي يعرفها معرفة جيدة لأنه كان سفيراً لوقت طويل لدى القسطنطينية، بعيداً عن أن يكون محكوماً عليها بالزوال، يمكنها على العكس من ذلك تهديد نفسها وتحديث نفسها. وهو يرى أن دور فرنسا هو أن تكون مهتمّة هذا المشروع، الضروري للتوازن الأوروبي، والمفيد للجميع. إن فرنسا سوف تكسب من ذلك، علاوة على صون صلاحتها في الإمبراطورية، الفائدة الأدبية والسياسية للتمثلة في كونها ملهمة أفكار التنوير التي يجرى إدخالها إلى العالم الإسلامى. وشأنه في ذلك شأن خصومه، لم يكن يوسع فيرجان أن يتصور إمبراطورية عثمانية

غاية في ركوبها الواضح. فمثل هذا الوضع إنما يعنى بنواجلها. وتتصل معارضة
 فبرهان لدعاة التدخل بطابع التحولات التي لا يمكن للشرق الإنفلات منها، فهو نتيجة
 فرعية حتمية لتحول الغرب الذي حاز، عشية الثورة الصناعية، الأسس العلمية
 والتكنولوجية والتربوية والثقافية الضرورية للتأكيد سيطرته على الطبيعة وعلى العالم.
 وبالنسبة لآخر وزهر عقليم للملكية، فإن هذه التحولات لابد لها من أن تجيء من الداخل لا
 أن تفرض عن طريق سيطرة استعمارية. ومع بقاءه ضمن استمرارية سياسة شرقية
 قرامها للصداقة مع الإمبراطورية العثمانية وترجع إلى القرن السادس عشر، فإنه يوسع
 حدودها بإرساء أسس تعاون ثقافي وعلمي في إطار تجهيزات الشرق. إنه ليس بالمعانيظ
 الذي يصله خصومه، بل هو حامل توقع سياسي للمستقبل أغنى من توقع دعاة التدخل.
 وموته لا يدع الساحة مفتوحة أمامهم، فمئذ ذلك الحين تؤدي مقدمات الثورة إلى إصابة
 للدولة الملكية بالشلل. (٦)

مفهوم جديد، الحضارة

إن المسألة تنتقل من المجال السياسي البسيط لتمس أسس التحليل الاجتماعي
 والثقافي عيناها. فلعلمة الفكر لم تعد تصح بوضع المسيحية في مواجهة الإسلام. ولما
 كانت السيطرة الاستعمارية ذات أهداف اقتصادية خالصة، شأنها في ذلك شأن السياسة
 التي ينتهجها الانجليز في الهند، فإنها تستثير انتقادات مهمة في عصر جد «أخلاقي»،
 كالأخر القرن الثامن عشر. وكان نقد الاستعمار الذي صاغه أنصار التنوير قد نصف
 التبريرات الدينية المقدمة خلال تأسيس أول إمبراطورية استعمارية أوروبية. ولتنوير
 سيطرة جديدة، لابد من أيديولوجية جديدة، ترتبط ارتباطاً عضوياً بأيديولوجية للتنوير
 الأهم.

ونقطة الانطلاق هي إدراك أوروبا لتفوقها للمادى على مجمل البيئات الثقافية الأخرى.
 وهذا الحدث يرجع بشكل تقريبي إلى عام ١٧٥٠. فمئذ ذلك الحين، تظهر فكرة تأخر
 شرقي بشكل، بالإحالة إلى ماضي أوروبا، العلم الذي لا غنى عنه لقياس التكلم الأوروبي.
 وإذا كان للشروع الاستعماري ممكناً، فإن ذلك لا يرجع إلى انغمصال شرقي ظاهر، يمكن
 التشكيك فيه في الواقع، بل يرجع بالأحرى إلى أن أوروبا تملك إمكانات جديدة أرقى - بما
 لا يقلس - من إمكاناتها السابقة.

وهذا التفرق يفسره الغربيون من زاوية العقل، وهو عقل له تاريخ بل هو التاريخ

نفسه، فهو قد ولد في مصر، وانتقل عبر الإغريق والرومان، ثم عبر العرب ووجد أخيراً مستقره النهائي في أوروبا، وهذه الأسطورة / التاريخ حديثة النشأة، حتى وإن كانت تستند إلى عناصر قديمة، وهي تقوم إلى التأكيد على أن كل ثقافة، لا تنتمي إلى مسيرة العقل في المكان كما في الزمان، إنما تُعدُّ بلا أهمية ومن ثم بلا شرعية، وهي تدار من جانب خصم العقل هيته، الاستبداد. وهذا الأخير، الذي لم يك شرقياً إلا من باب الاصطلاح لدى المنظرين الأوائل، يتمشّق في التحليلات السياسية عندما يتصل الأمر بتفسير ولهم تأخر الشرق، فالصينيون والفرس، نماذج الحكمة اللغناء، والعثمانيون، موضع الرهبة والإعجاب في الماضي، لمعوا بعد غير ضحايا تعساء خاضعين لخير لا يرحم يفرطه استبداد عدو للازدهار العام مثلما هو عدو لهناء الأفراد.

إن لهم تأخر الشرق إنما يعنى العثور من جديد على تقدم أوروبا، وظهور مفهوم الغرب إنما يولد من هذه المقابلة مع الشرق. والحدس الرثبى للعلوم الإنسانية لزمان التنوير هو الاتصاف الذي لا ينفصل للمادى والمعنوى في إطار التحليل الانتقائى. وكل مؤسسة، كل ممارسة، كل سلوك لابد من فحصه بدقة عبر هذا التحليل للزوج المعيار. وهو واثق علاوة على ذلك من أن درجة الازدهار (العام) وهناء (الأفراد) واحدة دائماً.

ومثل هذا التصور للعالم يسمح بتجاوز التناقض الذى طرحه رومو بين الطبيعة والمجتمع. لمع حالة الطبيعة، نقطة انطلاق للتاريخ الإنسانى، تتطابق حالة طبيعة في المجتمع، تتريج التاريخ ذاته، المتميز بالقوى درجة ممكنة من الازدهار والهناء. وحركة التاريخ هذه اسمها الحضارة، التى لا تعتبر شيئاً آخر غير عملية تدجين العنف ومن ثم تدجين مشاعر الأفراد، وما التقدم التقنى غير أحد أشكال هذه العملية، فمجمال الخبرة الإنسانية إنما يقاس وفق معيار الحضارة.

وهذا للمهم الدهنامى للتاريخ لا يجد تعريفاً محدداً له بالعمل إلا في زمن الثورة. وإذا كانت كلمة «الحضارة» نفسها تظهر في منتصف القرن، فإنها لا تكتسب كامل مغزاها إلا في تسعينيات القرن الثامن عشر، في أوساط الأيديولوجيين، الجيل الأخير من مفكرى التنوير، والمشاركين النشطين في الثورة. إنهم يسعون إلى تغيير العالم وفق الواعد عقلانية وقد لعبوا دوراً عظيماً في مستهل الثورة، وكانوا ضحايا للإرهاب (اليعاقبى - المترجم)، لكنهم، بعد سقوط روبسبير، يصبحون من جديد مؤثرين في الأوساط الحاكمة.

والحال أن المفهوم الجديد إنما يتضمن، بنزوعه إلى إعانة تعريف الممارسات الإنسانية تعريفاً عقلانياً، مجمل الطموح البروميثيوسى للثوار الفرنسيين، والحضارة، حركة التاريخ، تسمح أيضاً بتأسيس مفهوم مراتبى للمضى بين العصور والبلدان المنتجة لـ العقيدة. وهى إذ تستعيد مراحل لسطورة - تاريخ العقل، إنما تسمح باستخلاص لحظاتها الأساسية.

والحضارة شرقية فى نشأتها. فهى تولد فى مصر حيث تتجلى على شكل الحكمة. وهى تنتقل بعد ذلك إلى اليونان وإلى روما حيث تصبح قبل كل شيء نزعة مواطنة. ويعتاد العرب حمل الراية فيبرزون الحضارة على شكل علوم. وهى تصل أخيراً إلى أوروبا وترث على مظهر الزمن كافة خصائصها، أولاً للعلم، وهو جزء من التراث العربى، ثم، مع الثورة، نزعة المواطنة. والتاريخ الذى للثورة حائل بالصورة الرومانسية واليهودية والمصرية، ويجرى زمن الحكمة مع إنجاز البرنامج الثورى لإعانة تعريف التجربة الإنسانية تعريفاً كاملاً. وهكذا فإن عقلانية التنوير والأيدولوجيين للعلة تعود لاستعادة التصورات الفخوصية والباطنية القديمة وتعتبر للناسونية عن ذلك تعبيراً جيداً فى إعلانها الدائم لانتسابها إلى مصلو مصرية وشرقية. وهى تندثر بشكل راجع إلى هذا الحد أو ذلك هذه الأفكار وهذه الأساطير، التى تتغلغل من ثم فى الألمان، وبشكل مخوش، يشعر الجميع أن الشرق لا يمكن إلا أن يكون «الأصل». (٧)

وتسمح الحضارة بالحكم على حالة العلم مشبه الثورة. فأوروبا هى الأكثر تقدماً فى طريق الحضارة وهى بوجه خاص تتحرك. أما الشرق فإنه يظل فى الخلف بسبب حاجز الحركة الذى لا يحتمل والذى يتمثل فى الاستبداد. وأما للتوحشون فإنهم ليسوا إلا فى بداية العملية. وبشكل مشروع، يمكن للمرء أن يتصور أن الشعوب التى كانت، قديماً، حليلة للحضارة، للشعوب المصرية والإفريقية - الرومانية والعرب، تعدُّ مؤهلة للمشاركة فى التجربة الجديدة للحضارة، والتى لن تكون بالنسبة لها غير استعادة لطبيعتها الحقيقية. وما يدعو للنهضة أن البرنامج الثورى ينزع إلى أن يكون عودة إلى الأصول (هذا هو لحد معانى الكلاسيكية الجديدة للميزة للعصر الثورى). بل إن الأتراك الذين يمارسون الاضطهاد سوف يحرمون من اضطهادهم الخاص. ومن الواضح تماماً أن مثل هذا للمشروع إنما يفترض تدمير هذا الوحش المتمثل فى الاستبداد الشرقى. وهذا التدمير، الذى ترجوه كافة شعوب الشرق، لا يمكن أن يجرى إلا من الخارج.

وهي الثورة، تجد فرنسا نفسها على رأس الحضارة. والثوار يعلنون طابعها العالمي. فمثل هذا البرنامج لا يمكن أن يكون قاصراً على أوروبا وحدها. وما أن يتم صد الأعداء للبشرين، سوف تمتد الثورة إلى مجمل الجنس البشري.

بونابارت والثورة والشوق

إخفاق الجمهورية

يؤدي فتح بونابارت لإيطاليا وانتهاء الحرب مع النمسا (١٧٩٧) إلى إطلاق ليدى المسؤولين الفرنسيين لخير. وهكذا يمكن أن يبدأ عهد جديد. والحال أن تحرير الشرق، ونشر الحضارة، والتوسع الاقتصادي والسياسي لـ «الأمة الكبرى» والمتمتع تماماً لهذا المشروع، قد وجدت، في بونابارت الشاب، الرجل العظيم ذا الأبعاد المناسبة مع أبعاد مثل هذا البرنامج. لكن الثورة، حتى في اللحظة التي تبلغ فيها أيضاً أكبر توسع إقليمي لها، يظل بالإمكان تصور، كما تصور ذلك بعض معاصريها، أنها قد انتهت بالفعل.

والواقع أنه إذا كان يبدو أن على الثورة أن تمتد إلى مجمل العالم، فإنها قد أخفقت في عملها الداخلي. وكان الإلهاب قد أشار بالفعل إلى «انزلاق» في مشروع تأسيس حكومة نهائية، لكن التسع من ثيرميدور (شهر الحرارة بحسب التقويم الثوري، ويوافق هذا اليوم التاسع ٢٧ يوليو ١٧٩٤، تاريخ الانقلاب المعادي لليعاقبة - المترجم) قد سمح بالتفكير في إمكانية إقامة جمهورية معتدلة تحترم شرعيتها الخاصة. والواقع أن الجمهوريين كانوا أقلية في عالم الوجهاء الذين أعطوهم السلطة مع دستور العام الثالث (الثورة - المترجم). وإذا يسمى الثيرميدوريون إلى تخليد وجودهم في مناصب المسؤولية. وهي مسألة وجود شخصي بالنسبة لهم، فإنهم يصطلمون بالغالبية المنيعة من التجديدات السنوية للمجلس النيابية. وهذه الغالبية، والتي لا تعتبر بالضرورة ملكية بل ليبرالية، إنما تهدد غلبة الكابري السياسي المذبذب من إعدامات المؤتمر (القيادي اليقوي - المترجم). فهي، برعونة، تحارب الثيرميدوريين حول المسألة الجوهرية المتعلقة بمصير الفتوحات العسكرية التي شهدتها السدترات السابقة. فالمعتدلون، المتحرقون إلى السلم، مستعدون للتنازل عن الجزء الأكبر من الفتوحات. وقد أتركوا أن أوروبا لا يمكنها قبول هزيمة فرنسية ساحقة وأن الوصول إلى الاستقرار الداخلي إنما يمر عبر التسوية الإقليمية مع الخارج. ومثل هذا

للوفاء يدفع العسكريين إلى مساندة الكابو الجمهوري، ولكي يحافظ هذا الأخير على وجوده فإن عليه قبول مواصلة حرب الفترحات والتجارب مع مطالب الهنرالات، والتواطؤ بين العسكريين والجمهوريين بالغ السهولة بقدر ما أنهم يتكلمون بلغة سياسية واحدة ويقدروا ما أنهم آخر معنيين للزخم العظيم لعامي ١٧٩٢ - ١٧٩٣. ومن ثم فإن هوش على ضللك الراين ويوناهايت في إيطاليا سوف يحفز ان احتجاجات «جمهورية» من جانب جنودهما وسوف يعملان بوجه خاص على تزويد السلطة الثنيلية بالعسكريين الضروريين لانقلاب ١٨ فروكتيدور من العام الخامس (الثورة - المترجم) (١ سبتمبر ١٧٩٧) الذي يلغى الانتخابات ويلغى بالقوة على معارضة للجالس.

وحتى إذا كانت الوثائق التي تم العثور عليها بعد الانقلاب تسمح بكشف تواطؤ بعض الزعماء المعتقلين مع الملكيين والدول للمانية، فإن الضرر للوجهة إلى الجمهورية كانت قاتلة. فلم يعد هناك أحد يخافه وهم حول طابع حكومة لم تنجح قط في أن تكون تمثيلية.

وهكذا يندرج العسكريون في اللعبة السياسية. والحال أن مورد هوش ويوناهايت قد ورطوا حاشيتهم للباشرة. إن هيزيه ودينيه وكلبير ومينو، قادة ثورة جيش الشرق فيها بعد، هم في أن واحد شهود على صيف ١٧٩٧ المضطرب هذا وفاعلون فيه. (٨) ومع احتفاظهم بإيمانهم بمبادئ الثورة، يضمن عليهم التصالح مع الاعتراف بإخلاق يستور العام الثالث. وسوف يكون وزن كل ذلك عظيماً في موقفهم تجاه يوناهايت، للنقد المحتمل.

والحال أن استئناف حكومة الإدارة لسياسة توسع إيديولوجي وإقليمي إنما يندرج ضمن منطوق خيار فروكتيدور. والحرب النابوليونية تنبع منه بشكل مباشر. وفي خريف ١٧٩٧ هذا، يقدم يوناهايت للشعار السياسي الذي يحدد هذا البرنامج، «الامة للعظمى». وأصل هذا التعبير غنى بالإحاطات. فهو ينبع من الاسم الذي يعطيه، في مراسلاتهم الرسمية مع الفرنسيين، مختلف القادة العثمانيين لولايات البلقان في بحثهم عن صيغة بروتوكولية جديدة لمخاطبة هذا الواقع غير الواضح والذي تمثله الجمهورية الفرنسية. ونجد في ذلك صدق البيانات التي وجهها الفرنسيون إلى العالم في السنوات السابقة وعنفداً يدرك يوناهايت أهمية هذه الصيغة التي تصبح بعد معاهدة كامبو - فورميو مع النمسا (٢٦ فينديمير من العام السادس، ١٧ أكتوبر ١٧٩٧)، التهمة الدائمة في البيانات للحكومة. (٩)

بونابارت والشرق

إن الانتصارات الخرافية لعملة إيطاليا تبرز بونابارت في صدارة المسرح، وجيشه يحبه، والفرنسيون - للعالمون في غلبتهم للحكومة الجمهورية - يرون فيه منقذاً محتملاً، ذلك الذي سوف يضع نهاية للثورة مع حفاظه على مكانتها. وهو، مناسه الرئيس الذي قام مثله، وربما أكثر منه، بدعم حكومة الإنارة ضد أغلبية للجلال، يموت في ١٩ سبتمبر ١٧٩٧. لكن فاتح إيطاليا يدرك أن من شأن فترة عدم نشاط عسكري، أو إخلال في محاولة إنزال في إنجلترا، التهديد بتعرض وضع لم يتعزز بعد للخطر.

ثم إن الشرق يجلبه بشكل علوي.

في شبابه، قرأ وسجل ملاحظات على أعمال ماريش (تاريخ العرب) والبارون بو توت (مذكرات حول الأتراك والتتر). وعشية الثورة، كتب حكاية «عربية» قصيرة، «الغاف للنبي»، تحكي قصة شخصية حقيقية من شخصيات التاريخ الإسلامي تحول الظهور - بدافع من الرغبة في نيل المجد والقوة - في مظهر رسول للرب عبر اللجوء إلى مختلف أشكال الحيل، وينتهي بونابارت الشاب عندئذ حكايته بالتساؤل: «إلى أي مدى يمكن للمرء دفع جنون الشهرة؟» (١٠). وسوف يرى نابليون في هذا العشق للشرق وخاصة لمصر أثر «عقبة جوزيف» لدى بونابارت، إرادة الانتقام من الأخ الأكبر، للناس المكروه والذي يصبح فيما بعد أكثر من محبوب، بعد تسلط الكراهية على أشياء أخرى. إن الذهاب إلى مصر، الأرض الأثيرة ليوسف (جوزيف) للتوبة، أو الزواج من جوزيفين (يوسف)، مؤنث جوزيف، يوسف - للترجم) لن يكونا غير تجليات لهذه العقدة الأصلية التي يستمد منها نابليون كل قوته. (١١)

والحال أن إخوته يشاركون تماماً لحلامه الشرقية. في عام ١٧٩٣، يعبر لوسيان عن رغبته في إيطانه إلى السفارة الفرنسية في القسطنطينية (عاصمة الإمبراطورية العثمانية، اسطنبول - للترجم). وفي السنة التالية، كان يوسف جوزيف أن يكرر إلى استغلال الساحات الشاسعة للإمبراطورية العثمانية، بفضل زواجه من فتاة اسمها كلاري كانت أسرتها مرتبطة بالتجارة المارسلية في شرق البحر المتوسط. وقد أثنى نابليون نفسه عن ذلك مع تفكيره في عام ١٧٩٥ في الانخراط في صفوف الخبراء العسكريين المرسلين لخدمة سليم الثالث. وقد حالت أحداث ١٣ فينيمير دون أن يصبح رئيساً للبعثة العسكرية الفرنسية في القسطنطينية. (١٢)

وشأنه في ذلك شأن كثيرين من معاصريه، فإن مفهومه عن الشرق كان مزيجاً

فمن جهة، نجد نقداً صارماً للاقتصاد السياسي، ولد استبداداً واخبطاً، ليس فيه أى شيء إيجابى بالفعل، حيث يتوجب إعادة بناء كل شيء عبر إدخال الحضارة. ومن جهة أخرى، فإن هذا الغياب نفسه (للحضارة - المترجم) بالتحديد هو الذى يفتته. فالشرق، بسبب تأخره، هو المكان الذى يمكن للمرء أن يحقق فيه الأشياء عظيمة، إنه أرض الطامحين والمشرعين للعظماء. وبونابارت هو ممثل الروح البروميهيوسية للثورة. وهو يرى أن بوسع اللوم تحويل كل شيء وإبتكار كل شيء فى الشرق، بأكثر مما فى أوروبا. (١٣)

وفى تأملاته، يقدم الشرق اللبزة للزوجة التى تتمثل فى انتظار رجل وعدم الحد من لشوائه. إن ثورات تعلن عن نفسها فى أرض الإسلام، وهى لا تستطيع بلوغ مراتبها إلا عبره. وعلى مدار حياته، وخاصة فى زمن الأسف هذا الذى يمثل أسره فى سلاط - هيلين (فى جنوب المحيط الأطلسى - المترجم)، سوف يشهد بونابارت على هذا الدور الذى كان مدهواً إلى لعبه والذى لم يتسن له تحقيقه إلا بشكل جزئى. (١٤) وهو ينظر إلى نفسه باعتباره فاتحاً لا تمثل قوة السلاح بالنسبة له غير وسيلة. فهو سوف يحول هذا العالم بقوة للكلمات أساساً، ونموذج هو محمد نولتير. والشخصية وحالة الشرق المعاصر تبدو أن له متماثلين،

انظر ماذا يكون محمد. نحن وحدنا؛ انصت!

طموح أنا، ولا مرء أن كل إنسان طموح!

لكن أى ملك لو حَبَّر أو زعيم أو مواطن لم تدر بخلده قط رسالة فى عظمة رسالتى.
كل شعب تلوق بدوره على الأرض بالقوانين، بالفنون، وبالحرث خاصة. وأخيراً جاء زمن بلاد العرب

هذا الشعب السخى، للنسى منذ زمن بعيد، سمح بلفظ مجده فى صحرائه؛

والآن تحين الأيام الجديدة التى تحمل شارة النصر.

انظروا من الشمال إلى الجنوب خراب العالم، ما تزال فارس تنزف الدماء وعرشها يذهب لنراج الرياح؛

والبهاء يهيب عن أسوار السطنتين،

انظروا إمبراطورية الروم تسقط من جميع الجهات،

هذا الجسد الهائل الممزق، الذى يهوى أعضائه للهدون

مشقتين أذلاء بلا رفق،

على انقراض العالم هذه سوف تبني بلاد العرب. لا بد من ديانة جديدة، لا بد من
نصال جديدة، لا بد من رب جديد للكون الضروب.

[٠٠٠]

اجيء بعد ألف عام، لتهديل هذه الشرائع الضالة،

أحمل إلى أمم باكملها عبودية أنبل؛ أزيل الأرباب الزائفين؛ وديانتى الطاهرة

أول درجات عظمتى الوليدة.

لا تتهمونى البتة بأننى أفسد وطنى

لأننا أبنو ضعفه ورثتيه.

لجئ لتوحيدى فى ظل ملك، فى ظل إله، ولا مفر من إخضاعه حتى يكتب له
للجدة (١٥)

الاستشراف والثورة

هذا الشرق، الرومانسى بالفعل، هو محصلة قرن من الاستشراف. ويونانها لا
يخترع شيئاً، لكنه، بشكل أحسن من أى أحد آخر، يترجم كلية المعارف الاستشرافية
لزمانه إلى عدد من الهادئ البسيطة.

إن هذا العلم، الذى تكون فى البداية ضمن إطار اهتمام عادى بالمعرفة الإنسانية، يجد
دفعه مواجهاً بالضرورات التى أوجدها الانزلاق الذى لا يقاوم للتوسع الأوروبى نحو العالم
القديم.

وفى زمن التنوير، لا يمكن بعد لنشر الدين المسيحى أن يكون مبرراً ذى مصداقية
للنضال ضد الإسلام. لكن الإسلام بالتحديد، من حيث كونه القوة التى تكفل التلاحم
للإمبراطورية العثمانية، إنما يظل العدو الذى تجب محاربتة. والإمبراطورية العثمانية يُنظر
إليها آنذاك على أنها النموذج الكامل للنظام الاستبدادى فى مظهره العسكرى. والأوروبيون
يضعون عنصراً تركياً فاتحاً ومطلقاً فى تعارض مع كتلة من الجماعات السكانية المستقلة
ولكن المستعدة للتمرد. وهم يشعرون بإيجاد معادلة، فالأتراك هم المثلليون الشرقيون

للأرسطوطاليات الإسطاسية في أوروبا، وهو الأتراك يشكلون لغة تلك شرقية حقيقية (مماثلة للغة الثالثة الفرنسية التي كانت تتكلم من غير النبل ومن غير رجال الأكليروس؛ أي من الفلاحين والحرثيين والبودجوانية - المترجم). واستطاع لصيغة سيبيس الشهيرة (في كتابه: ملهى اللغة الثالثة؟ [١٧٨٩] - المترجم)، لأن هذه اللغة الثالثة الشرقية هي كل شيء في المجال الاجتماعي ولا شيء في المجال السياسي وتتوق إلى أن تصبح شيئاً.

والتميزت اليونانية في أواخر القرن الثامن عشر هي اليونان اللاموس على صحة هذا التفسير. فهذه الحركات، الدينية في جوهرها، تمكنت من اختلا الشكل الخارجي المطلوب لكي تكون مقبولة في نظر الغرب. والغرام الأوربي باليهانية يرى فيها البحث القريب لليونان القديمة. أما بعد الدين، واقع أن كلمة «يوناني» إنما تعني في ذلك العصر، حتى في اليونان، أحد أتباع المسيحية الأرثوذكسية وليس شخصاً يعبر عن نفسه باستخدام اللغة اليونانية، فهو بعد لا يوضع في المقامة. إن الطائفة الدينية تعامل بوصفها أمة.

وكل شيء يجري إسقاطه على مجمل هذه اللغة الثالثة الشرقية، للعرب والمصريون والأرمن واليهود وبما كانت لديهم قدرة على أن يصبحوا أو بالأحرى يصبحوا من جديد أمة. ومن ثم فإن الحضارة سوف تهر، ليس عبر إنشائها لم جديدة، بل عبر بحث الأمم القديمة. وهذا التصور طرحه الأيديولوجي والمشتق لولتي منذ عام ١٧٨٧ وإعادة التأكيد عليه في عام ١٧٩١ في «الأطلال». وقد استخدم بوناپارت إيطاليا كمخضبة تجريب لهذا المشروع الإحيائي النهائي.

إن هذا البحث العميق للأمم هو الرافعة التي يخطط الجنرال الناتج للاعتماد عليها. فالإمبراطورية العثمانية سوف تتفكك عبر ثورة شرقية عظمى، والأمم سوف تصطف خلف مصرها، بوناپارت وجيش الشرق.

والحال أن الإشارة إلى العصور الذهبية سوف تكون السمة الدائمة للخطاب الثوري الصائر من بوناپارت. فسوف يجري تذكر الفرنسيين بالغالين وخاصة بالمآثر الحربية لإغريق الأسكندر ورومان القيصر، وسوف يجري تذكر المصريين بجلال مصر القديمة، والعرب بأمجاد سلاطنتهم الحاكمة في زمن الخلافة.

مفارقة بونابارت

إن مصدر قوة بونابارت إنما يكمن في هيمنته الأبدية على الوسائل والقدرته، في ذلك العصر على الأقل، على حسابها بصفة في الوقت الذي تعتبر فيه الغايات زائدة عن الحد. وعلى الرغم من أنه كثير الكلام، فإنه رجل وحيد. وما أثمر الأفراد الكبار الذين كان يمكنه الإصاح لهم بما يعتدل في صدره. وخلال صيف ١٧٩٧، يكتشف تاليران، العائد من منفاه في الولايات المتحدة ليصبح - بفضل حسه التأمري - وزيراً للعلاقات الخارجية (١٦ يوليو ١٧٩٧)، والرجلان لم يلتقيا من قبل. إنهما يتبادلان رسائل مهمة يكتشف بونابارت فيها أن الوزير يكرر مثله في مصر، وهو يكشف له أنذاك عن التوتر القائم في فكرة بين الخطاب السياسي للتهوس الذي يوحى به الأيديولوجيون - والاثنان تلميذان لهما - ولبعد شبه الكوني لغاياته وقوانينه الناجمة من الحساب الدائم للوسائل. (١٦)

وهو يشير إلى أنه لا يؤمن، من زلوية الفعالية على الأقل، ببياناته الخاصة بإحياء الإيطاليين. «منذ أن كنت في إيطاليا، لم نجد البتة عوناً في حب للشعوب للحرية والمسواة، أو أن هذا العون، بالأحرى، كان عوناً هزئياً للغاية. لكن الانضباط الرائع للجيش، مع الاحترام الكبير الذي ذكته كلنا للجمهورية، والذي وصلنا به إلى حد التزلف لرؤساء العدل، وخاصة النشاط الكبير والسريعة الكبيرة في قمع قوى النوايا الشريرة وفي معاقبة أولئك الذين يجهرون بالعناء لنا، كان العون الحقيقي لجيش (حملة - المترجم) إيطاليا؛ ذلك هو الواقع التاريخي. وكل ما لا يكون جميلاً إلا إذا قيل في بيانات وخطابات مطبوعة لا يعدو أن يكون روايات».

إن الشيء الجوهرى يكمن في حسابات الوسائل، فالمرء لا يمكنه الوصول إلى غايات عظيمة ولا يمكنه اجتياح جميع العقبات إلا بالتعقل، بالحكمة، بالحدق الكبير؛ والأمر أنه لن ينجح في أى شيء. ولا يفصل بين النصر والصفوط غير خطوة واحدة. وقد رأيت، في أضخم الظروف، أن مالا يُحسب له حساب قد قرر دائماً مصير أعظم الأحداث».

وتكمن المفارقة في اجتماع وهج الخيال وبهودة الوسائل، «إننا إذا ما اتخذنا كأساس لجميع العمليات السياسية الحقيقية، وهي ليست غير نتيجة للحساب والتوليفات والفرص، فسوف نكون لزمان طويل الأمة العظمى وحكم أوروبا، وأنا أقول علاوة على ذلك أننا يجب أن نحافظ على التوازن، وأننا سوف نجعله يميل كما نشتي، بل إنني - وهذا هو حكم القدر - لا أرى استحالة في أن يصل المرء في غضون سنوات قليلة إلى هذه النتائج العظيمة التي يحلم بها الخيال الجامح والمتقدم، وأن الإنسان البارد في تقديره للأمور والنحوب والمحكم إلى أقصى حد هو وحده القادر على بلوغها».

إن هذا الاجتماع لجموح الخيال وبهودة الحسابات، والذي سوف يميز بوناپارت في مصر، إنما يتكون في إيطاليا عندما يفتتح طريق الشرق مع تنحير البندالية وفتح الجزر الأيونية خلال صيف ١٧٩٧. وهو يرى، منذ تلك اللحظة، أن هذا الفوز الجديد يعدّ حيوياً بصورة مطلقة، فهو القاعدة الضرورية لكل مشروع في شرق البحر المتوسط.

الانزعاجات الروسية

هذا التوسع الثوري الجديد يزج كثيرين، خاصة العثمانيين والروس، في انصبه للأوائل، تأسس التحالف مع فرنسا على البعد الجغرافي، لملكية النظام القديم لم يك يومها أن تستهدف الأرض العثمانية. لكن استقرار الفرنسيين في الجزر الأيونية، واتصالهم مع اليونانيين للمستعدين دائماً للتمرد، بينما يميل كبار البلشوات (الولاة - المترجم) إلى زيادة درجة استقلالهم (عن الباب العالي - المترجم) بلا توقف، ليس من شأنه إلا أن يزيد انزعاجات الباب العالي، أمّا فيما يتعلق بالروس، فإن هذه الدعاية لنفسها الموجهة إلى اليونانيين، إنما تهدف بخلق منافسة رهيبه لهم بين صفوف هؤلاء العملاء جد الميدين لهم منذ عام ١٧٧٠. ثم إن سان بطرسبورغ، وهو ما يشكل مفارقة مميزة لكل وضع دبلوماسي معقد، تخشى من أن يؤدي التدخل الفرنسي إلى تقديم عون لإمبراطورية عثمانية يسببها إلى الاستسلام في أوروبا تحت ضربات الهجمات الروسية. إن عملاً فرنسياً في البلقان انطلاقاً من البحر الأيبراتي إنما يشكل خطراً أكيداً بالنسبة لتحقيق المشاريع الروسية الخاصة بالصهولة على تلك المنطقة، والوجود الفرنسي في البحر الأيبراتي يعطل التوازن السياسي في البحر المتوسط ومن ثم في أوروبا.

تالييران

إن المشجع الآخر على سياسة فرنسا هذه في البحر المتوسط هو تالييران. فهو ورث

دعلة قتلخل فى زمن لللكية الآخذة بالزوال. وقد عرف شواسول وتعريف على المسائل الخرافية من الديقولوماسيين الذين تولوا مناصب فى الشرق. وتردد فى الولايات المتحدة، على قولنى الذى كان عليه أن يكون أول من يطلعه على شخصية بوناپارت وعلى مصر نفسها. (١٧)

وعلى للمستوى السيلسى، لم يعد التحالف مع الإمبراطورية العثمانية يثمر شيئاً وقد أنت الحرب البحرية إلى تدمير تجارة الثغور. والانصطاط العثمانى لا علاج له. وقد استندلت فرنسا نفسها بلا طائل فى دعم إصلاحات مستحيلة. واحتلال مصر يفرض نفسه بوصفه الرسالة الوحيدة لهاجة انجلترا فى الهند.

والهند، فى أواخر القرن الثامن عشر هذه، هى العماد للرئيسى للقوة الإنجليزية. إنها لم تصبح بعد موقفاً كبيرة مصيرها استقبال المنتجات المصنعة التى زانتها الثورة الصناعية الإنجليزية. ومفك جهود الأوروبيين هو السيطرة على الصادرات الهندية. وفى ذلك العصر، بفضل عمل جماهير غفيرة من الحرليين، تعتبر صناعة القطن أول صناعة فى العالم، أكان ذلك من حيث نوعية أم من حيث كمية منتجاتها، وحجم صادراتها. ثم إن الهند، عبر شبكاتنا التجارية، تفتح أمام الأوروبيين مجمل الأسواق الآسيوية. وفى أواخر القرن الثامن عشر، تسيطر إنجلترا، بفضل عملها الدمو، على نسبة ٨٥ إلى ٩٠ فى المائة من تجارة الهند الخارجية. (١٨)

والحال أنه إذا كان هناك من درس هذا الاقتصاد، فإنه فاليران أساساً. وخلال إقامته فى الولايات المتحدة، فكر فى عدة مشاريع للمضاربات التجارية. (١٩)

ومن المؤكد أن التجارة الإنجليزية مع الفارتين الأمريكيتين تظل الأهم. والشىء الرئيسى هو أن الفرنسيين يجهلون الدور الذى تلعبه بداية الثورة الصناعية فى اقتصاد الجزر البريطانية، وذلك بالرغم من احتجاجات على الدخول جد السهل للمنتجات البريطانية إلى فرنسا فى السنوات الأخيرة للنظام القديم. وبالنسبة لأهل القارة، فإن سر القوة الإنجليزية لا يمكن إلا أن يكون كامناً فى تجارة إنجلترا، وهى ظاهرة جد مصطنعة، قياساً إلى الرسوخ الطبيعى، الزراعى، للسكان الفرنسيين، وهذا البنيان التجارى للهش سوف ينهار بسرعة إذا ما جرد من عنصره الحيوى، التجارة الهندية. (٢٠) والمسؤولون الإنجليز يتناسمون هذا التفسير نفسه للمجربات الواقعية. فبالنسبة لهم هم أيضاً، لا تعد إنجلترا دولة أوروبية عظمى إلا بفضل تجارتها مع الهند. وقبل أن يمر أسبوع على تعيينه

وندى، بوجه تاليران إلى (حكومة) الإدارة، في ٢٣ يوليو ١٧٩٧، ثلاث مذكرات تدمو في النهاية إلى الاضطلاع بعمل مشترك مع الأمراء الهنود ضد السيطرة الإنجليزية انطلاقاً من الجزر الفرنسية في المحيط الهندي. (٢١)

ومن ثم يجرى تنفيذ المشروع الهندي عندما يبلغ بوناپارت (حكومة) الإدارة، في ١٦ أغسطس ١٧٩٧، بفتح الجزر الأيونية ويختتم رسالته قائلاً: «لن يمر وقت طويل حتى ندرك أننا لكي ندمر إنجلترا فعلاً، يجب أن نستولى على مصر. إن الامبراطورية العثمانية للمترامية الأطراف والتي تهلك كل يوم إنما تملي علينا التفكير في اللحظة المناسبة لاتخاذ الوسائل التي نسمح لنا بالحفاظ على تجارتنا في شرقي البحر المتوسط».

وفي اليوم نفسه، يكتب إلى تاليران: إن مما لا طائل من ورائه أن نسعى إلى دعم إمبراطورية تركيا؛ إنما سوف نشهد سقوطها في أيامنا [١٨٠٠] وكودفو وذات جعلاننا سادة للبحر الأبيض وشرقي البحر المتوسط».

ويحمل رد تاليران تاريخ ٢٣ أغسطس، «لا شيء أكثر أهمية من اعتمادنا على ألبانيا واليونان ومقدونيا والولايات الأخرى للإمبراطورية التركية في أوروبا، بل وجميع الولايات المطلة على البحر المتوسط، كمصر خاصة، التي يمكنها أن تصبح عظمة الخلع لنا». (٢٢)

القوار

بوناپارت في باريس

وهكذا، فعند صيف ١٧٩٧، تلتقى أفكار تاليران وبوناپارت، رغم اختلاف النواحي، حول حملة مصر. وهما بحاجة إلى مفاوضات واحدة. ففي ٢ يوليو ١٧٩٧، ذكر تاليران للجمهور في مذكرته للوجهة إلى المعهد الوطني، حول الفوائد المترتبة على إيجاء مستعمرات جديدة في الظروف الحاضرة، بمشروع شواسول. والحال أن المعهد الوطني، حديث التأسيس، إنما يهتم من وسط الأيديولوجيين جد للثوارين في السياسة الجمهورية. (٢٣)

وبوناپارت يدرك ذلك، فهو عند عودته من إيطاليا، يصبح منتخباً هو أيضاً في المعهد ويبرز في بياناته إلى الجنود انتماءه إلى تلك المؤسسة. وهكذا يظهر بوناپارت وتاليران، في تلك اللحظة من تاريخهما، كمتباينين للأيديولوجيين في الأوساط الحاكمة. (٢٤)

والواقع أن العودة إلى استقلال أودوي نصبي، منذ معاهدات بال في عام ١٧٩٥، إنما

تسمح بحرية ظهور مذكرات، موجهة إلى المسئولين السياسيين الفرنسيين، ترى إيجاد مستعمرة فرنسية في مصر. وما ذلك غير أمانة على أن تراعى الحرب الثورية بعيد المسئولين السياسيين تدريجياً إلى مشكلات ما قبل عام ١٧٩٢.

وصلح كامبو - فورميو (١٨ أكتوبر ١٧٩٧) مع النمسا لا يتوك بعد غير خصم عنيد واحد، هو إنجلترا. وبما أنها لا تملك بعد قاعدة للعمل على القارة فإن الصراع لا يمكن مواصلته إلا عبر «نزول» على الجزر البريطانية أو عبر عمل يتم الاضطلاع به ضد الهند. هذا هو الخيار الذي تفرضه قوة الأشياء على زعماء «الأمة العظمى».

وفي ٢٦ أكتوبر ١٧٩٧، يحمل بورثيه ومونج، رفيقا بوناپارت الوفيان، نص معاهدة كامبو - فورميو إلى باريس. ويتمثل القرار، المتخذ في اليوم نفسه من جانب (حكومة) الإدارة، في الأمر بتكوين جيش لحملة إنجلترا تحت قيادة بوناپارت. ويتولى ديزيه قيادته مؤقتاً بينما يشارك بوناپارت في مفاوضات واستات حول تطهيق بنود معاهدة كامبو - فورميو على ألمانيا. (٢٥)

ومنذ نهاية أكتوبر ١٧٩٧، يبدأ الجهاز الإداري لحكومة الإدارة في تنظيم جيش إنجلترا، إن النزول ممكن، إذا ما توافرت، في لحظة محددة في نقطة محددة، هيمنة على البحر تكفي لنقل الجيش الفرنسي. ولكي يتسنى ذلك، لابد من توافر المبادرة في العمليات ولابد من توافر مدة نقاط ممكنة لحشد القوات سعيًا إلى إرباك إنجلترا فيما يتصل بنوايا القيادة الفرنسية. وسوف يجرى الجانب الرئيسي من «الجيش الكبير» في إيطاليا بينما يصعد بوناپارت الموجود بعد في موقعه، الأوامر الضرورية.

وهو يصل إلى باريس في ديسمبر ١٧٩٧. ويقابل لأول مرة داليران. ويحمل ناتج إيطاليا معه التصديق الذي قدمه الإمبراطور على معاهدة كامبو - فورميو. ويقدمه إلى حكومة الإدارة في اجتماع مهيب في ١٠ ديسمبر ١٧٩٧. ويتميز خطابه بالتصور السياسي شبه الخلاص الذي تبناه الأيديولوجيون «إن أجمل جزأين في أوروبا، جد الشهيرين في سلف الزمان بالفنون وبالعلوم وبالعظماء واللذين كانا مهلكاً لهم، يتطلعان بأعظم الآمال إلى انبثاق روح الحرية من لرماس لسلاهما».

والحال أن روح الحرية، الفكرة المألوفة للبلاغة الثورية، قد أبرزها فولني في «الأطلال» في عام ١٧٩١. وفي هذا النص، فإنه يجعل الروح (بالف ولام التعريف - المترجم) تقتنها بانهباء الإمبراطورية العثمانية ويبحث الأمم المكونة لها وبالدور القائد لـ «الأمة العظمى» في هذا المشروع. وفي ذلك العصر، يعدُّ الأيديولوجي فولني الولي الفكري والسياسي لبوناپارت الشاب. (٢٦)

والصورة واضحة، فالمسألة هي مسألة بحث قومي، كما أن بوناپارت ينه حكومة الإدارة، اعتماداً لترتكز سعادة الشعب الفرنسي على الفضل القوانين الأساسية، سوف تصبح أوروبا كلها حرة».

والحال أن دستور العام الثالث، بعد انقلاب ١٨ بروكتيدور، هو دستور بالغ للهشاشة بالرغم من استثناء الزخم الثوري لـ «الأمة العظيمة». وفي مراسلاته مع تاليران، كان بوناپارت قد فكر بالفعل في مشروع إصلاح دستوري ينطوي على تعزيز ملحوظ للسلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية. (٢٧)

الجيش وحكومة الإسطوة

عند وصوله إلى باريس، اقترح عليه جنرالات مثل مورو وكليبر وكالارييلي تنظيم انقلاب جديد يضع حداً لنظام حكومة الإدارة، وهم يقدمون إليه هيبتهم في جيش حملة لمانيا. وهؤلاء الجنرالات كلهم يواجهون بهذه الدرجة أو تلك صعوبات مع حكومة الإدارة. لمورو، بسبب موقفه في ١٨ بروكتيدور، كان قد أُحيل إلى الاستبداد. أما كليبر، الجمهوري المخلص، فقد عانى باستمرار من تمرد لجهة الخلاص العام في وقت كان يمكن لذلك أن يعنى فيه إعطائه ولم يك يحتمل عيوب الحكومة. وهو يلوم الحكومة على أنها، خلال حملة لمانيا الكبرى في عام ١٧٩٦، قد تركت الجيش الجمهورية في شقاء مريع مع سيطرتها جد القصارمة على تحركاتها من باريس. وهو يحكم حكومة الإدارة للمستولية من فشل الحملة بينما تمكن بوناپارت في إيطاليا من التخلص من تعليمات كارنو ونجح، اعتماداً على خبرات البلاد، في أن يوفر للجند أخيراً شروط وجود لائقة. وقد أثر الجنرال الأكراسي عندئذ لتتضح.

لما كالارييلي، المولود في عام ١٧٥٦ لأسرة تنتمي إلى صفار النبلاء، فهو نتاج المدارس الحربية التي عرفها النظام القديم، خاصة مدرسة ميوزيهو الهندسية. وهذا القاري لأعمال الفلاسفة، يرشح نفسه للأركان العامة، لكنه لا ينتخب. وهو يستأنف الخدمة في عام ١٧٩١ ويجرب الاعتقال في زمن الإرهاب (اليعقوبي - للترجم). وهو يشارك كليبر في حملات ١٧٩٥ و ١٧٩٦. ولما كان صاحب عقل رائع، فهو ينتخب عضواً في المعهد في عام ١٧٩٦ في شعبة العلوم الأدبية والسياسية. ويعتبره مؤرخون تالون له أحد رواد الاشتراكية الطوباوية. ونحن لا نعرف متى أصبح صديقاً حميماً لبوناپارت، الذي يقدم إليه كليبر.

لما بهزيه، المولود في عام ١٧٦٨، فهو ينحدر هو الآخر من صفوف النبلاء وهو

خريج مدرّس عسكرية في زمن الملكية. وبالرغم من أن تأييده للثورة كان مخلصاً بالرغم من الضغوط العائلية، فقد أداته الليعاقبة مواراً بوصفه أرسطوكراتياً. وقد ألمح في العمليات في ألمانيا، وخلال صيف ١٧٩٧، استفاد من توقف الأعمال الحربية لكي يزور ماتح إيطاليا وقد أصبح أحد المقربين إليه. وقد حمله بونابارت عن مطروحاته الشرقية. (٢٨) ولا يبدو أنه كان شريكاً في المؤامرة، التي أصبحت أسهل من جراء موت هوش الذي كان هو نفسه ضحية لليعاقبة. وقد اقترح في المقابل على بونابارت انقلاباً بقيادته هو. (٢٩)

ويرى بونابارت أن من السابق لأوانه التخطيط للإطاحة بحكومة الإدارة عبر انقلاب عسكري (٣٠). لكنه يعرف الآن أن كوابر جيش حملة ألمانيا مستعدة لدعمه وأن عداء الجيش الليعاقبية، والذي يتراق مع ضغط متزايد على عجز حكومة الإدارة عن تصريف شئون الحكم بشكل جيد، يمكن أن يكون سناً له في تحقيق طموحاته. وعليه أن ينتظر تآكلاً أكبر للسلطة، مع حفاظه على رأس مال الثقة الذي عادت عليه به انتصاراته في إيطاليا وسمايته حول فكرة «الامة العظيمة». وحتى إذا كانت حكومة الإدارة تجهل تفاصيل الكار بونابارت السياسية، فإنها تملك أسساً جيدة للانزعاج من الكاره ومن مشاريعه.

في الحادي عشر من ديسمبر، تعدد حكومة الإدارة المواقف المختلفة للحشد البحري، من البحر الأترياتي إلى بحر الشمال. وهذه الحكومة التي سوف يصورها الأحقاد على أنها ضعيفة وعديمة الكفاءة، إنما تمتلك خبرة وهبة في استخدام الإمكانيات الحربية، وهي خبرة موروثة من نحو ست سنوات من الحرب المستمرة. وتبدأ بشكل عام حركة نقل لوحدات بحرية وهرية من إيطاليا إلى فرنسا.

وفي يناير ١٧٩٨، يبدو مشروع النزول (على الجزر البريطانية - المترجم) بصيبل إلى التحقيق، لكن تعقيدات سياسية تظهر على المسرح. ففي روما، يلقي الجنرال دولو حمله خلال عصيان، وتآمر حكومة الإدارة بيرثويه، الذي خلف بونابارت في قيادة جيش حملة إيطاليا، باحتلال روما. ويستولي الفرنسيون أيضاً على ميناء سيقينا - فيتشيا للهم، وهو ما سوف يسمح بتخفيف أعباء ميناء طولون. ويجري طرد البابا من روما ويتم إعلان جمهورية رومانية (نسبة إلى روما لا إلى رومانيا - المترجم) في ١٥ فبراير ١٧٩٨.

وفي ١٢ يناير ١٧٩٨، تحدد حكومة الإدارة الوحدات المشاركة في جيش حملة إنجلترا. وهي تعزز أعماده للقائمة من جيش حملة إيطاليا بقوات قائمة من جيوش أخرى. ويقود هذا الجيش الهائل الكبير ثمانية عشر جنرال فرق وسبعة وأربعون جنرال ألوية وواحد وعشرون جنرالاً مصاعداً وثلاثة عشر قائد ألوية مدفعية وأربعة قادة ألوية هندسة.

إنجلترا أو مصر

في فبراير ١٧٩٨، توجه بوناپارت إلى فحص الإمكانيات التي تتيحها الموانئ المواجهة للبلاد الواقعة (بلجيكا - المثلث) بينما يتفقد كافاريلي الشمال، ويتفقد كليبر نورماندي، ويتفقد ديزيه بريتانيا. ويدرس جميع هؤلاء الجحترالات ببالغ الدقة إمكانيات نجاح النزول ويبحثون على الساحة في أعمال تهيئية.

وخلال تلك الوقت، فإن أسطول البحر الأبيض، تحت قيادة بروي، بدلا من أن يتجه إلى بريست كما كان متوقعا، يتجه إلى طولون. والصوب الرئيسي هو نقص للوقت الذي لا يفتح له بالإبحار مباشرة في البحر الأبيض. ولا يعود بإمكان بوناپارت الاعتماد على هذا الأسطول لحماية الإنزال في إنجلترا.

وفي ٢٣ فبراير، توجه بوناپارت إلى حكومة الإدارة تقريرا لا يخلو مصاعب للمشروع: «إن حملة إنجلترا لا تبدو من ثم ممكنة إلا في العام القادم؛ على أن من المرجح أن المتاعب التي سوف تحدث في القارة سوف تعترض سبيلها، وربما تكون اللحظة المناسبة للاستعداد لهذه الحملة قد ضاعت إلى الأبد».

ولذا ما تخطى للوه من النزول في إنجلترا، فإنه لا يبقى عندئذ غير حائل للنضال ضد هذه القوة البحرية، والحل الأول هو انتزاع هانوفر منها والاستيلاء على هامبورج في ألمانيا، وبمعنى أعم، تكثيف الحصار الاقتصادي الذي خاضته حكومة الإدارة ضد إنجلترا منذ الانتصارات الفرنسية لعام ١٧٩٧. ويتكف هذا الحل من الانقراض في عملية توسع لا حدود له سعيا إلى صد ثغرات الحصار القاري. وسيكون ذلك هو حل ناپوليون بعد عشر سنوات، بما يشير إلى التوافق بين سياسة حكومة الإدارة وسياسة الإمبراطور.

أما الحل الثاني فهو: القيام بحملة في شرق البحر المتوسط من شأنها تهديد تجارة الهند. ولابد من ملاحظة أن بوناپارت يدرك خطر «العقبات الأوروبية»، تشكل «ائتلاف ثان» ضد فرنسا، حتى وهو يقترح حملة شرقية.

وتجرى دراسة تقرير بوناپارت في ٢٤ و ٢٥ فبراير. وعلى مدار أسبوع أيضا، تكثف حكومة الإدارة للتدابير التحضيرية للنزول. لكن ديزيه، الذي يرجع من بريتانيا في ٢٧ فبراير، يبدو جد متشائم بشأن حالة القاعدة البحرية الفرنسية الرئيسية، قاعدة بريست. ووزير البحرية يؤكد مشروعية مخاوف ديزيه.

منبذًا لتخلي حكومة الإنارة من مشروع النزول. والحق أن تاليران يقترح عليها، منذ بعض الوقت، خطة عمل أخرى.

إن تاليران هو ممثل الاتجاه الاستعماري للثيوق من النظام القديم. ومنذ صعوده إلى منصب وزير العلاقات الخارجية، تسقى له جمع المشاريع المتراكمة منذ ثلاثين سنة. وتعليماته المؤرخة في ١٩ يناير ١٧٩٨ والموجهة إلى برتادوت، الذي عهدَ سفيراً في فيينا، إنما تتميز بهذه الشراغل التدخلية، «من المؤكد أن كاترين وجوزيف قد فكرا في التسام تركيا. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن ورثتهما لم يتخلوا عن هذه الخطة. وقد سعت فرنسا في الزمن الفاهر مراراً إلى تعزيز هذه الدولة إلى حد ما؛ لكن جميع هذه المحاولات ظلت غير مثمرة، ولم تؤد إلا إلى التعجيل بخراب العثمانية. واليوم، إن للجمهورية عازمة بذات على عدم السماح لخراب الباب العالي أن يتم دون أن تكفل لنفسها حصة جد ملحوظة حتى لا يتسنى تجريدنا من تجارة البحر المتوسط». (٣١)

وترد مذكرات جديدة في تلك اللحظة، خاصة مذكرات لازوفسكي، مفيد سلاح الهندسة البولوني الأصل (كانت أسيرة قد وافقت ستانيسلاس ليهينيسكي في اللودين) والذي أوفدته الجمهورية كمدرّب للجيش العثماني، ومذكرات ماجالون، فنصل فرنسا في الإسكندرية.

والحال أن لازوفسكي، الذي تحمل مذكرته تاريخ ٤ يناير ١٧٩٨، إنما يؤكد على الانحطاط العسكري للإمبراطورية العثمانية. وعلى ضرورة اشتراك فرنسا في التسلم الإمبراطورية وفتح مصر، الذي سوف ينتزع «المصري المجدّ من العبودية التي يذبح تحت نيرها منذ زمن طويل». (٣٢)

أمّا ماجالون الذي أقام في مصر لمدة ثلاثين سنة كتاجر ولدة خمس سنوات كفنصل للجمهورية، فهو نصير قديم لفتح مصر. وشأنه في ذلك شأن فينتور دو پارادي، إنّه يقدم برائة متخصص بالشئون المحلية. وهو يقضى أجازته في باريس في الفترة الحاسمة لأواخر عام ١٧٩٧. وتاليران يطلب منه إعداد مذكّرة عن مصر، يفرغ من كتابتها في ٩ فبراير ١٧٩٨. وينهل تاليران منها عندما يقدم مذكرته الخاصة إلى حكومة الإنارة في ١٤ فبراير ١٧٩٨.

والأسلوب قريب من أسلوب بوناپارت، «لقد كانت مصر ولاية من ولايات الجمهورية الرومانية. ولا بد من أن تصبح ولاية من ولايات الجمهورية الفرنسية. لقد كان فتح الرومان

(لمصر - للترجم) عصر انحطاط لهذا البلد الجميل. أما فتح الفرنسيين له فسوف يكون عصر ازدهاره.

وهو يصف بشكل سريع النظام السياسي المصري ليتوصل إلى أن مصر لا يمكن أن تعتبر - متتمية بعد - إلى الإمبراطورية العثمانية. إن للملك يسطهيدون التجار الفرنسيين والسكان المصريين ومصر تحمل «الأمة العظمى» الازدهار إلى الجميع بلخيل استقلال عتلاى للبلد. وعبر إعادة فتح طريق السويس، سوف يجرى توجيه ضربة قاتلة إلى التجارة الإنجليزية فى الهند.

والحكومة العثمانية جد منشطة بالتصاحب البلقانية بحيث لا يمكنها التدخل فى مصر ومصر يكون موسم مفاوضات بارع (يلكر تليهان فى نفسه)، يجرى إرساله إلى القسطنطينية، أن يحصل على اعتراف من الباب العلى بالوجود الفرنسى (فى مصر - للترجم) فى مقابل الاعتراف بالسلطة الاسمية للسلطان على البلد، لماً إنجلترا هى مشغولة بالخوف من نزول الفرنسيين القريب فى الجزر البريطانية. ودول القارة الأوروبية تخشى من حرب مع فرنسا. وإن تصمد قوة للملك العسكرية طويلا فى وجه الفرنسيين الذين سوف يستقبلهم المصريون كمحررين. والحال أن الفتح سوف يكون سريعاً ويمكن إرسال قوة حملة فرنسية ثلثية عبر البحر الأحمر سوف تدغم انتفاضة شاملة من جانب الأمراء الهنود ضد الإنجليز. ومن ثم فإن فتح مصر يعتبر «سهلاً بل ومضموناً». ولابد من اتخاذ القرار فوراً بسحب نظام الرياح فى البحر المتوسط وفى البحر الأحمر.

وربما لم يحدث من قبل قط أن مذكرة لعددا دبلوماسى كبير وسيلسى شهير قد كذبتها الأحداث التى تلتها كما حدث لهذه المذكرة...

القوار

إن حكومة الإنلرة تجد نفسها مضطرة إلى التخلي عن مشروع النزول فى إنجلترا والذي اعتبره العسكريون غير عملى. ومن شأن التدخل فى ألمانيا أن يعقد وضعاً شائكاً بالفعل وأن يهدد بإشعال الحرب القارية. ومشروع فتح مصر مشروع بلغ الجاهلية. وبوسعه أن يجرى إنجلترا على عقد صلح يعترف بهيمنة الأمة العظمى على القارة الأوروبية. وهناك احتمال لثورة من جانب الفئة الثالثة الثورية بحسب كراء للتخصصين

وهي تتطلب مع مالية البرنامج الثوري. وسوف تنتزع الأمة العظمى من ذلك مكاسب اقتصادية وتجارية ملحوظة. ويبدو أن تاليران وبونابارت على اقتناع بحججهما ويبدو أنهما على ثقة من أن مخاطر المشروع قليلة. والنشر العلني لبادئ الثورة يستهوي جميع أولئك الرجال السياسيين القريبين إلى هذا الحد أو ذلك من الأيديولوجيين. ثم إن بونابارت جد مزعج في فرنسا، ومن شأن إبتعاده عنها أن يكون مريحا.

ومن ثم فإن السلطة التنفيذية تقبل المشروع في ٥ مارس ١٧٩٨.

ويبدو أن الجميع قد نسوا، وأولهم بونابارت، خطر «الإحراج» الأوروبي المنتظر في عام ١٧٩٩، والذي كان قد أشير إليه مع ذلك قبل أيام قليلة.

لتخطيط الحملة

الجهش

كان تاليران قد أكد في تقريره على ضرورة الوصول بسرعة إلى مصر. على أن السرعة التي جرى بها تجهيز الحملة تعتبر مذهلة. لقد كانت التنبهات للتخلف للنزول في إنجلترا جد مفيدة، إلا أنه لابد الآن من تركيز كل شيء على طولون وبشكل إضافي على كهاشيرو وجنود وسيقيتا - فييتشيا. وفي يوم صدور القرار نالعه، كثلت حكومة الإدارة القرارات المنظمة للمجهود الحربي. ويجري إنشاء لجنة تسليح لسواحل البحر المتوسط، وتلقى القوات أمر التحرك إلى طولون.

ويحصل ديزيه على قيادة سيقيتا - فييتشيا، المنطقة الثانية لحشد القوات (٦ مارس ١٧٩٨). وفي ٢ أبريل، يصل إلى طولون أسطول البحر الأبيض تحت قيادة بروي. وفي ١٢ أبريل، تنظم حكومة الإدارة بشكل نهائي جيش للشرق الذي ما يزال يسمى رسمياً بـ «فصيل جيش حملة إنجلترا للرباط على سواحل البحر المتوسط». ومعياً إلى خداع العدو، يجري الحفاظ في الإعلان على مشروع النزول في إنجلترا. وتنتشر أكثر للشائعات تنوعاً عن غايات المهمة؛ وتسمح الإشاعات عديدة للأسرار في الصحافة بتصوير أن مصر هي الهدف، لكن الحيرة عظيمة بحيث أن جميع التخمينات تجد مجالا وحباً لها. وفي ٤ مايو، يخادر بونابارت باريس ليشرح على الاستعدادات الأخيرة. وفي ٦ مايو تبدأ القوات في ركوب البحر.

وما يشكو منه الجيش الفرنسي، في تلك اللحظة كما خلال كل الفترة الثورية، هو نقص النلود. إن وحدات عديدة لم تحصل على رواتبها منذ وقت طويل، وحتى في جيش حملة إيطاليا، الذي استفاد مع ذلك كثيراً من الضرائب المتنوعة المفروضة على البلد، حدثت حالات عصيان. والجنود يحتجون على تأخر رواتبهم بينما يثرى بعض الضباط الكبار كما سينا على حساب البلد. وكثيراً ما كان من الصعب العثور على الإمكانيات المالية للضرورة لتسوية حساب المشتريات اللازمة لمطروح هذه الضخامة. وسعى إلى التمتع بموارد جديدة وتدعيم وضع الأمة العظمى في أوروبا، فإن حكومة الإنارة تأمر باحتلال سويسرا بجيوش فرنسية وتخفيف الجمهورية السويسرية إلى الجمهوريات للشعبية الأخرى (يناير - أبريل ١٧٩٨). وهذه العملية تسمح فعلاً بضمان تصفية متأخرات النفقات إلا أنه لا يمكن ضمان أي احتياطي مالي ثابت.

والجيش الذي يتم تكوينه في النهاية يضم نحو ستة وثلاثين ألف جندي منهم أكثر من ألفين ومائتي ضابط. وهذا العدد الزائد عن الحد للضباط إنما يجد تفسيره في الانخفاض المتواصل لأعداد جنود الجيوش الجمهورية بعد التجنيبت الضخمة التي شهدتها بداية الثورة. فبعد عام ١٧٩٤ لم يتم تجنيد خبر أملاء الليلة وقد انخفض إجمالي الجنود العاملين من أكثر من سبعمئة ألف إلى أقل من أربعمئة ألف في عام ١٧٩٧. وعدد الضباط ينخفض بنسبة أقل بكثير ويصبح من الضروري الاتجاه إلى تركيبة ثانية في عامي ١٧٩٥ و ١٧٩٦. ومن ثم فسوف يستفيد جيش الشرق من إمكانية الاحتفاظ بقيادة جيدة بالرغم من خسائره. وكان نصف الضباط جنوداً أو نصف ضباط في جيوش النظام القديم، أما النصف الآخر فقد جاء من متطوعي عامي ١٧٩١ و ١٧٩٢. (٣٣) ويوجه علم، فإن مزاج الضباط مزاج (جمهوري).

وتجيء القوات من جيش حملة لمانيا (في خريف ١٧٩٧ تم تجميع كافة الجيوش المختلفة التي حاربت وراء الراين) ومن جيش حملة إيطاليا. وسوف توجد دائماً منافسة معينة بين هذين العنصرين. فحاشية بونابارت سوف تنبثق من جيش حملة إيطاليا، أما هالبية قانة للفرق وسوف تنبثق من جيش حملة لمانيا. وتتألف للوحدات العسكرية من مخضرمي حروب الثورة. ومن المؤكد أنها تشكل أفضل جيش في ذلك الزمان. ولما كانت تعرف معرفة تامة كافة تقنيات القتال، فإنها قادرة على الزحف زمناً طويلاً. والضباط يتميزون بروح مهارة عظيمة. وسوف يتمكن الجيش على المستوى للتغلب من التكيف مع

الصعوبات الجسيمة لحملة مصر. وينبع تفوق القوات الفرنسية على جميع الجيوش الشرائية من القدرة الرائعة على الابتكار والتكيف مع الأسلحة والتي يتميز بها جندي منبثق من الطبقات الشعبية للمجتمع الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر. ولعبت الكفاءة التكنولوجية حركاً على الأجهزة الفنية وأعضاء لجنة العلوم والفنون، فهي ماثلة على جميع مستويات الهيراركية العسكرية، بما في ذلك أدائها. ويتراقب الانضباط في المعركة مع قدر كبير من اللزوجة. والهيئة الشخصية للانضباط وصف الانضباط لها نور كبير، والخطر الدائم هو أن ينهار هذا الجهاز العسكري الرائع إثر تفشي تدريجي، وقد أدرك الإنجليز ذلك. وسوف يخوضون حرباً سيكولوجية حقيقية ضد الفرنسيين.

بونابارت والعلماء

إن بونابارت، وهو أيدولوجي حقيقي، قد حرص على أن يصحب معه علماء ومهندسين، ومبرراته لذلك عديدة. فالعقل الذري الذي يهيئ تجاه العلوم يعود عليه بقدر كبير من العطف من جانب جماعة الأيديولوجيين البالغة الأهمية. ومع رغبة الفاتح في المهمة على العالم، تتطابق، في مجال العلوم، رغبة توحيد كافة (المعارف - المترجم) في معرفة موحدة. ومجد «الرجل العظيم» إنما يستند أيضاً إلى العلماء والفنانين والكتاب الذين يحشدون حوله، والحال إن بونابارت يريد أن يقدم نفسه، اعتماداً على قوة المفاهيم الجديدة، بوصفه البطل نصير الحضارة بامتياز. وبرنامجاً الخاص بالحضارة التي تواصل مسيرتها إنما يتلخص على الفكرة المستعانة بلا ملل والتي تتمثل في أن حملة مصر تشكل عودة العلوم والفنون إلى وطنها الأصلي. والعمل الذي يتوجب الاضطلاع به كان قد تم تحديده في الإنسيكلوبيديا نفسها في مادتها عن «مصر»، «لقد كانت في الزمن الغابر بلداً يستحق الإعجاب وهي اليوم بلد يستحق الدراسة». وفي هذا المشروع، فإنه يجد عوناً قريباً من كافاريللي، الذي يبدو في أعين الجمهور بوصفه أحد ملهمي هذا المشروع للمثير (٢١).

وفي باريس ينشغل بونابارت بكل شيء. فهو مهووم باختيار الانضباط كما باختيار العلماء. والاهتمام الذي تستثيره الحملة، التي يظل هدفها لغزاً، هو اهتمام عظيم. لكن الخيار الذي يتجه إليه، يتميز أيضاً باعتبارات سياسية. ففي هذا المجتمع جد الممزق، مجتمع فرنسي التي تحكمها حكومة الإدارة، يقترح بالفعل صيغة وحدة قومية حول

شخصه. والجانب الرئيسي من التجديد يتلّف بوجه خاص من مهتصين شأن، خاصة خريجي المدرسة الهندسية حديثة الإنشاء، بالرغم من وجود جنود مضمومين متفانين براسل مثل مونج أو نولومير.

وسوف تتمثل مهمة العلماء في توحيد جميع المعلومات للتجارة عن مصر. وهذا العمل الضخم، وهو رصد للأحوال الغائبة والحاضرة على شكل بيان وتبيان للتحويلات التي يجب الاصطلاح بها، سوف يصبح ذلك للمصنف الرائع الذي يحمل عنوان «وصف مصر» (٢٥).

التعليمات

في ١٢ جبرمينال من العام السادس (١٢ أبريل ١٧٩٨) جرى تحرير التعليمات النهائية للصارفة عن حكومة الإنارة: إن المالك هم حلفاء إنجلترا ومن هنا إهانتهم للفرنسيين، ولابد من فتح طريق جديد إلى الهند لأن الانجليز قد احتلوا مستعمرة الكاب الهولندية، وخيار (فتح - المترجم) مصر يفرض نفسه، إن بونابارت: «سوف يطرد الانجليز من جميع الممتلكات الشرقية التي يمكن الوصول إليها وسوف يقضى بشكل خاص على جميع وكالاتهم التجارية على البحر الأحمر [...] وسوف يحتل خليج السويس، ويتخذ جميع التدابير الضرورية لضمان تمتع الجمهورية الفرنسية بالملكية الحرة والقاصرة عليها للبحر الأحمر. [...] وسوف يحسن، بحيثى الإمكانيات التي تتوافر له، حالة أهل مصر. [...] وسوف يحافظ، بقدر توانف ذلك عليه، على وفاق مع السلطان (العثماني - المترجم) ورعاياه للباشرين، (٢٦).

ولا يتفلى بونابارت بالكامل عن مشروع النزول في إنجلترا. وهو يدرس إمكانيته خلال غيابها. فالجمهورية تتمتع بقوات مسلحة كالية ومشروعة للشرقى ورغم إنجلترا على بعثرة أسطولها في الأطلسى لحاصرة الأسبان حلفاء الفرنسيين، وفي البحر المتوسط للتضال ضده، وفي البحر الأحمر والمحيط الهندي لحماية الهند (٢٧). إن الحرب مع إنجلترا تتخذ أبعاد حرب عالمية.

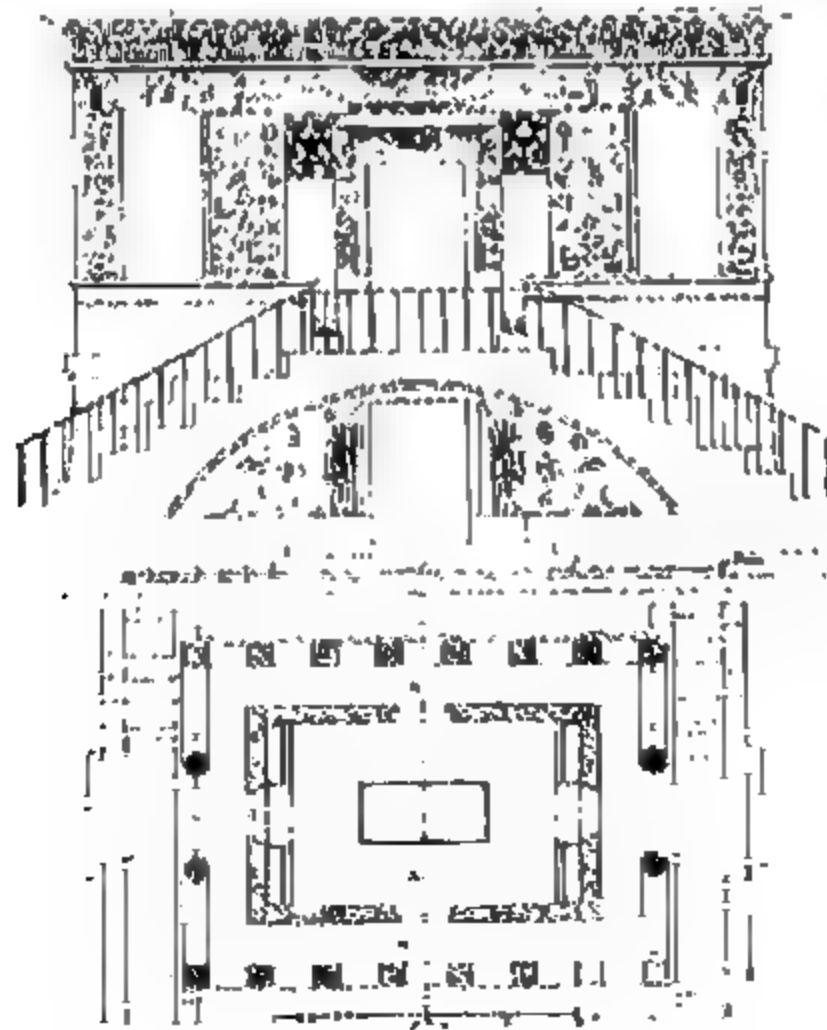
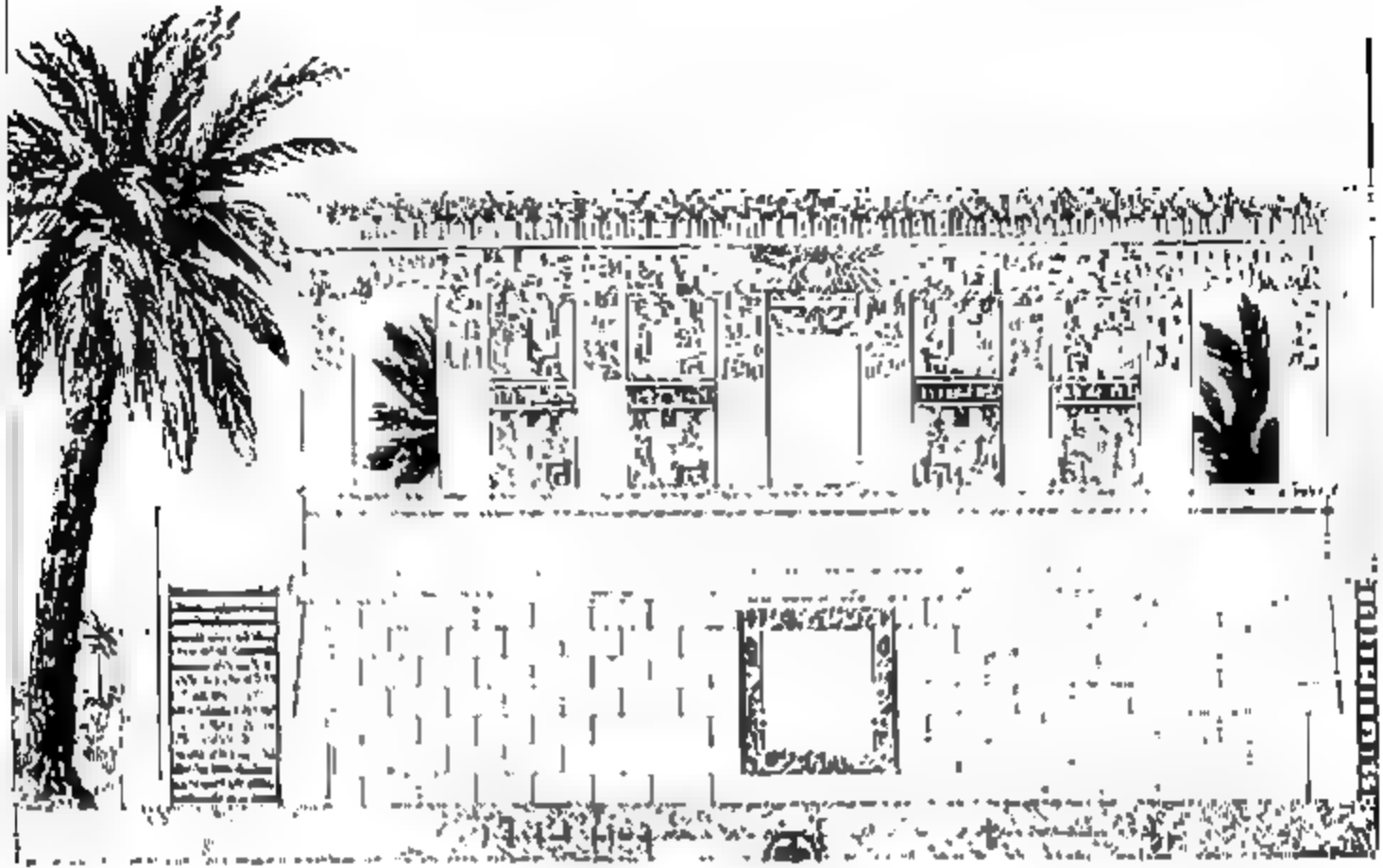
وفي ٢٢ أبريل تصدر حكومة الإنارة أوداق اعتماد الرسل الفرنسيين إلى الأمراء الهنود لحثهم على التحالف مع الفرنسيين:

«السلطان المعظم

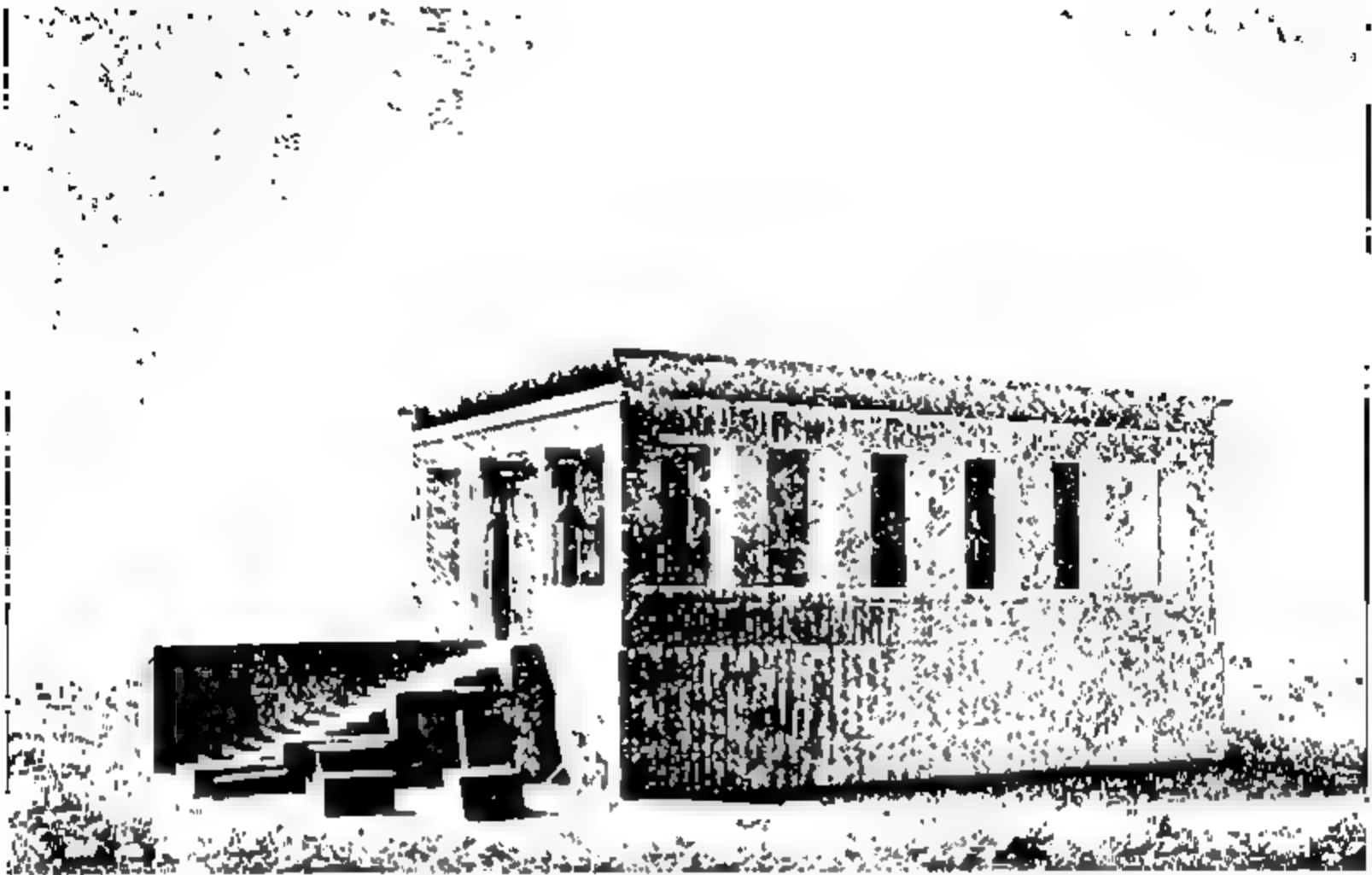




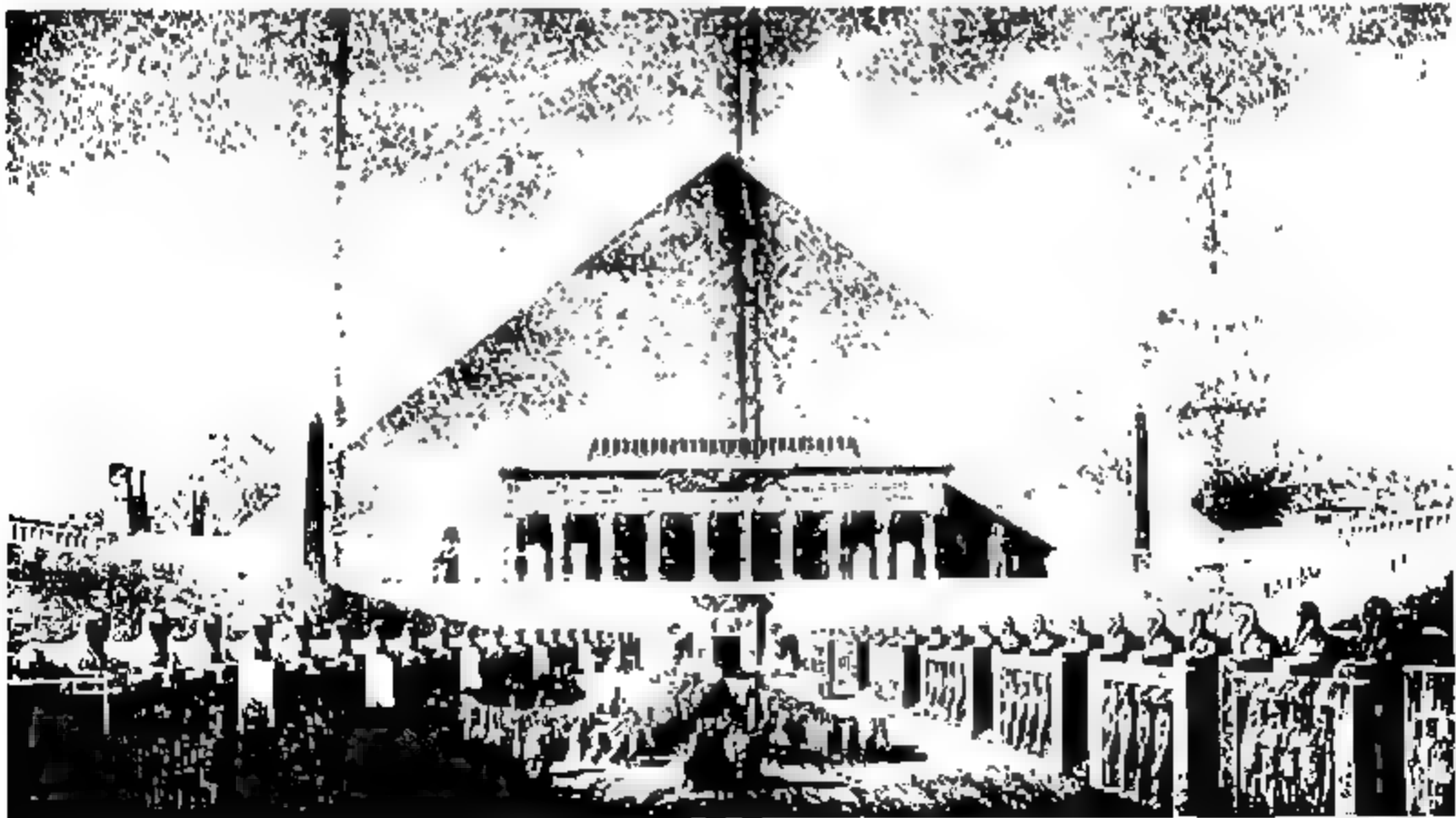
٢ - ساحات القصر والمعابد.



٣ - الجناح المصري كما رسمه كليبر، الجنرال لوما بعد.
(ب) الواجهة.



٤- (١) معهد أمهنوليس الثالث ذو الأعمدة في اللنتون.



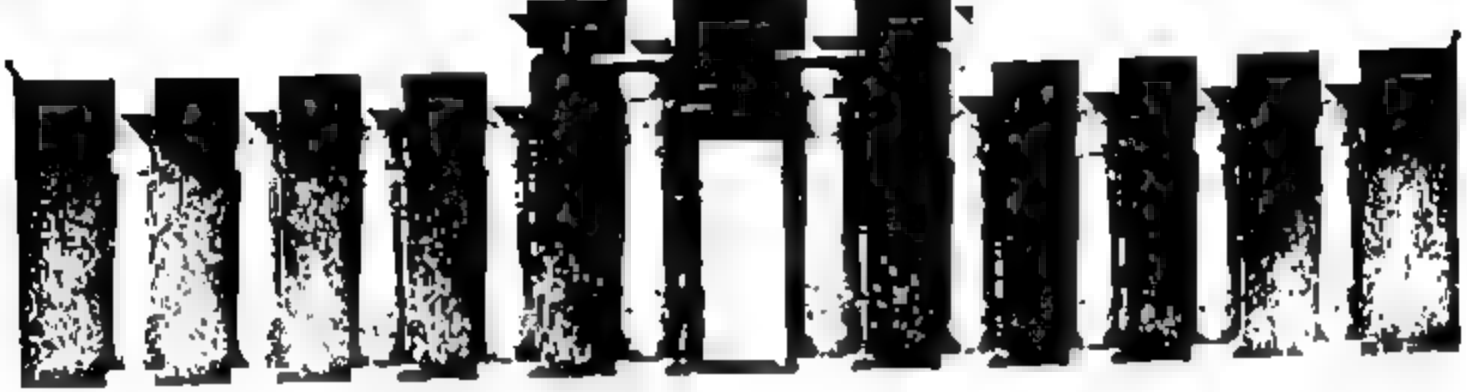
(ب) موكب.

١٧٧

١١١١١١١١

١٧٧

١١١١١١١١



٥ - «مجمع الآلهة» المجتمعين في فناء معبد مدينة - هابو - «إملاء شرائع الحكمة» على الملك.



٦ - (أ) بيرتوليه.



(ب) تولوميو.



(ج) استقبال بونابارت في المعهد.



۷ - (ا) کالاریلی.



(ب) بلزاک.



(ج) جومار.



إبارك الله أيامكم وعزّز معتكم

امند وقت طويل والإدارة التنفيذية للجمهورية الفرنسية تود إشعاركم بتوليها الحكم. ووسط مشاغل ضخمة تسببت لها فيها عصبة هائلة، غالباً ما وجهت لكرها إليكم. ولم يك برسعها نسيان أن فرنسا تعتبركم من بين أصيقاتها، وقد تأملت لكاً يفوق الوصف وهي تراكم عرضة لهجمات أعدائكم، دون أن تتوالى لها إمكانية تزويكم، بوصلكم حليفاً مخلصاً، بإمكانات صعبهم. لكن الأزمّة تغيرت. فالجمهورية الفرنسية ظفيرة، وقد أملت الصلح على أعدائها، باستثناء عدو واحد ما يزال عدواً لها وعدواً لكم أيضاً. إن اللحظة التي نعيشها فيها بالقضاء على الأهد على طفيلاته في أوروبا، لابد من أن تهبو لكم مواتية لنزع الغير الذي يخيخ بكنلكه على أسياء (٣٨).

والحال أن هذه الأوراق - الرسائل لن تستخدم أبداً وذلك بسبب الحصار الذي فرضه الأسطول الإنجليزي على مصر. وهي غير مفيدة على أية حال. ذلك أن ريتشارد كولي ولسلي، كرنث مورنجنجتون الثاني (شقيق من سوف يصبح في المستقبل دوق ويلينجتون)، يسافر بالفعل إلى الهند كحلكم عام. وهو، منذ وصوله في مايو ١٧٩٨، يشرع بهذا إمبراطورية إنجليزية حقيقية عبر القضاء على قوى الأمراء الهنود. وحتى دون أن يكون لديه علم بمشاريع الفرنسيين، وخروجاً على تعليمات حكومته، فإنه يهتمهم بأنهم على اتصال بفرنسا، وفي غضون شهور قليلة يجعل من الأراضي التي استولى عليها الإنجليز القوة المهيمنة في الهند. إن الهيمنة البريطانية قد حلت محل توازن السلطات للحلى، وقد أصبح الأمراء الهنود ضحايا الالتقاء الآراء بين تاليران ولسلي (٣٩).

وفي أواخر أبريل هذه، فإن تصرفاً في فيينا خدم سفارة فرنسا استشارته رهوة برناتوت، قليل للرغبة فيما يتعلق بالديبلوماسية، إنما يهدد بإعادة الحرب إلى القارة. وعندئذ تفكر حكومة الإدارة في وقف استعدادات الحملة سعياً إلى مواجهة هذا الخطر الجديد. ويتأخر رحيل برناتوت إلى طولون. وفي النهاية، سعياً إلى تجنب التضحية بالعمل الضخم للهنول في الإغلة للحملة، تبحث الحكومة عن تسوية مع النمساويين، لصوف يجرى التراج جزء من الغنينة العثمانية عليهم. لكن النمساويين لا يهتمون إلا بتعديلات إقليمية مع إيطاليا وألمانيا (٤٠).

على أنه يتعين الإسراع بالرحيل. وأوروبا كلها تتساءل عن غاية الاستعدادات في طولون. لمى نابلي أم البرتغال أم شرق البحر المتوسط؟ إن الإنجليز ما يزالون منشغلين

بمحاصرة اللوانج الأسبانية والفرنسية على المحيط الأطلسي، لكن بوسعهم من حين لآخر إنضال أسطول إلى البحر المتوسط. ومن شأن أي تأخير إضافي زيادة المخاطر زيادة ملحوظة. ويفكر بوناپارت المحطة في أن يترك في فرنسا كليبر ويميزه لقيادة الجيوش في حلة استئناف الحرب في القارة. لكن حكومة الإدارة ترفض، فهي ترتاب كثيراً في هذين الجنرالين، اللذين من المقتبة فيه موردو خلال ١٨ بروكتيدور، والمقرين الآن من بوناپارت.

بوناپارت في طولون

يصل بوناپارت إلى طولون في ٩ مايو. وكعادته، يوجه بياناً إلى الجيش:

«أيها الجنود!

«لقد كنتم أحد أجنحة جيش حملة إنجلترا. وقد خضتم حرب الجبال والسهول والحصارات؛ وبقي أمامكم خوض الحرب البحرية.

«إن الفيلق الروماني، التي قلنتوها أحياناً، ولكن دون مدائناتها بعد، قد حاربت الرماحية فيلقاً إثر آخر في هذا البحر نفسه وفي سهل زامبا. إن النصر لم يتخل عنها قط، لأنها كانت على الدوام مقدمة وصابرة على الشدائد ومنضبطة ومتحدة فيما بينها.

«أيها الجنود! إن أوروبا تحول أبحارها شطركم. وأمامكم حصم مصائر عظيمة ومعارك تخوضونها ومخاطر ومناهب تتغلّبون عليها. إنكم سوف تفعّلون للمستحيل من أجل ازدهار الوطن وسعادة البشر ومجيدكم أنتم أنفسكم.

«أيها الجنود، أيها البحارة، أيها المشاة، يارجال المدفعية لو الفرنسيان، اتحدوا؛ تذكروا إنكم ساحة المعركة، بحاجة أحكمكم إلى الآخر.

«أيها الجنود - البحارة، لقد كنتم حتى الآن مهملين. أما اليوم فإن أولر اهتمام من جانب الجمهورية إنما يتركز عليكم. وسوف تكونون أهلاً للجيش، الذي تشكلون جزءاً لا يتجزأ منه.

«إن روح الحرية، التي جعلت الجمهورية منذ ميلادها حكماً أوروبا، نشاء أن تجعل منها حكماً البحار والامسى البلبلان»^(١١).

إن تأثير قولتي واضح. وهذه الحملة هي بالفعل تحقيق لبرنامج الأطلال، في الأمة العظمى، سوف تعد ملكوت الحرية إلى كل الإنسانية.

والإحالة إلى العصر القديم ثابتة، فإنجلترا، القوة التجارية والبحرية، هي قرطاجنة الجديدة التي يجب تدميرها. وبوتانيات هو سبيرون الأفريقي الجديد، الذي يمكن التوحد معه دون صعوبة. ومن المعروف إلى أي أحد كانت الجمهورية الرومانية تخشى على مؤسساتها من مجد قاهر قرطاجنة.

والفائد العام يعرف أيضا العداوة الدائمة بين القوات البحرية، التي حققت كثيراً من الانتصارات للجمهورية، والقوات البحرية، الأتني دائماً من قوات الإنجليز البحرية. ولعلاج ذلك، يجرى توحيد البحرية بالجيش البري. فالبحارة «جنود» والأسطول الفرنسي هو «الجيش البحري».

الأسطول

هذا الجيش البحري للجمهورية هو وريث الأسطول الرائع الذي كانت الملكية الفرنسية الأخذة بالزوال قد أعانت بنائه بعناية. وإذا كانت توجد بعض الوحدات القديمة التي لا تحظى برعاية جيدة في أسطول طولون، فإن هذا الأسطول يضم أيضاً سفناً حديثة مثل لوريان (الشرق)، أضخم سفينة حربية في تلك الزمان، والتي بُنيت في عام ١٧٩٠ وكذلك سفينة لوفرانكلين، حديثة البناء، والتي تعتبر مواصفاتها العامة لرقى بكثير من مواصفات السفن الإنجليزية من النوع نفسه، ويبدو مؤكداً أن البناء البحري الفرنسي قد بلغ أوجه في أواخر القرن الثامن عشر مع بناء سفن حربية متفوقة على للوحدات الإنجليزية للناظرة من حيث قوة نيرانها (١٢).

على أن للهجرة قد اختزلت بشكل ملحوظ سلاح ضباط البحرية الذين يصعب إحلال ضباط جدد محلهم بشكل سريع. والحال أن هوش، خلال استعمالاته للإنزال في أيرلندا في عام ١٧٩٦، قد وجد الأميرال فيلانو جويوز يرد عليه: «ضباط البحرية؟ لقد ماتوا كلهم في كيبيرون» (١٣).

أما نقص البحارة للتدربين، الجسم جسمامة نقص الضباط الجيدين على الأقل، فهو يرجع إلى حروب العصيان الملكي البريتوني التي كانت قد أدت إلى عزل بريست على مدار شهور، مما قاد إلى نسبة وفيات متوقعة بين البحارة وإلى وقف التجنيد. كما أن معارك طولون في عام ١٧٩٣ قد أدت بدورها إلى التأثير بشكل قاسي على أعداد بحارة البحر

للتوسط. وقد حانت البحرية الفرنسية من الحروب الأهلية للثورة بكثير مما حانت من المعارك ضد الإنجليز. وهي تفتقر بشكل قاسي إلى الكوادر الزهقة.

إن الشجاعة القومية لجنود بحرية الجمهورية لا جنال فيها. وسوف تثبت أبواق ذلك. لكن إسرائك التفوق التقني لجنود البحرية الإنجليز، الأوفر عددًا، والأفضل تأهيلاً والأكثر سرعة، وإسرائك مدم كفاية الأطقم الفرنسية في حالة القتال إنما ينحط في أغلب الأحوال إلى شلل للإنارة وإلى رفض لكل عمل جسور. وهذا الضعف للمعوى للبحرية سوف يكلف الحملة هلاكاً جدياً.

وعندما يصل بروي إلى طولون، فإنه سوف يسعى إلى إعادة تنظيم أطقمه. وهو يتجه إلى تغييرات في القيادة وإلى عمليات تجنيد إضافية. وهو يحظر على أطقمه النزول إلى البر، خوفاً من تزايد حالات الفرار. وهذا الوضع يزيد ضغط رجال البحرية الذين ينتظرون منذ عدة أشهر تسلم رواتبهم. (١١)

والأسطول الذي يتمتع به بوناپارت ضخم: ١٣ سفينة حربية، ٦ فرقاطات، حراسة و ٢٥ سفينة أخرى من أحجام مختلفة لابد من أن تضيق إليها سفن الدقل (أكثر من ٣٠٠). وتؤدي إضافة جنود البحرية إلى الجنود وإلى الكوادر الأخرى التي تتركب البحر إلى إجمالي نحو أربعة وخمسين ألف رجل يتحركون من موانئ مختلفة. ولا يملك للره غير الإحجاب بالجهد الإنلري الذي بذلته حكومة الإنارة في مثل هذا الوقت القصير.

اجتياز البحر المتوسط

مألفه

بدأ بحيل أسطول طولون في ١٩ مايو ١٧٩٨. وتتمثل مهمته الأولى في تحريك الحشد مع القوافل الأخرى القادمة من موانئ البحر المتوسط الأخرى. وتنضم إليه قافلة جنوة في مرض هذا لليناء بعد يومين. ثم يحاذي الأسطول كورسيكا حيث يتم الارتباط بقافلة أجلاسيو. وامتباراً من ٢٩ مايو، تجرى محاولة ساحل سردينيا بحثاً عن قافلة سيقيتا - فيتشيا. وعندئذ يبلغ أحد المراسنة بونابارت بوجود نيلسون في البحر المتوسط، ويثير مصير القافلة الأخيرة حيرة وانزعاج المسؤولين الفرنسيين. وتقدم سفن محايدة تم اعتراضها معلومات تؤكد ضعف الأسطول البريطاني. وعندئذ يقرر بونابارت عدم انتظار نهزيه والتحرك مباشرة صوب مالطة. والواقع أن قافلة سيقيتا - فيتشيا توجد بالفعل أمام هذه الجزيرة ويتم الارتباط بها في ٩ يونيو أمام الهدف الأول للحملة.

والحال أن الاستيلاء على مالطة يعتبر مشروعاً قديماً من مشاريع بونابارت. وقد خطط لذلك منذ فتح الجزر الأيونية في يوليو ١٧٩٧. وقد ظلت أخوية ملطة محايدة خلال حروب الاقتتال الأول. وكانت الجمعية التأسيسية قد حظرت في ٣٠ يونيو ١٧٩١، تحت طائلة فقد الجنسية، انتماء الفرنسيين إلى أخوية فرسان أجنوية. وكانت ممتلكات الأخوية في فرنسا قد صودرت وضمت إلى الممتلكات القومية (الفرنسية - المترجم) الأخرى (في ١٩ سبتمبر ١٧٩٢، وهذا القرار هو أحد القرارات الأخيرة للجمعية التشريعية). وحتى تتمكن الأخوية من البقاء، فقد كان عليها عندئذ التقارب مع روسيا والنمسا. وخلال صيف ١٧٩٧، يكتب بونابارت عدة مرات إلى حكومة الإنارة وإلى تاليران حول ضرورة الاستيلاء على مالطة، القاعدة الأساسية للعمليات في شرق البحر المتوسط.

وهو يورد إلى ملطة بوسيلج، الأمين الأول للمفاوضة الفرنسية في جنوة، وذلك بحجة تفقد ثغور شرق البحر المتوسط، وإن كان الهدف الفعلي هو الاطلاع على دفاعات الجزيرة وعقد صلات ملية في الساحة. وفي تلك اللحظة (نوفمبر ١٧٩٧)، يخطط للاستيلاء على الجزيرة من جانب أسطول البحر الأبيض الذي يتوجه بروي في تحركه نحو الأطلسي للمشاركة في النزول في إنجلترا. ويتحرك بروي متأخراً عن الموعد وهو

بفضل خلاصة التحرك مباشرة إلى طولون بسبب نقص مؤته. ويسمح تحرك الحملة بتطبيق هذا المشروع للزجل حتى تلك الحين، ومن ثم يفتح هذا للواقع الاستراتيجي الرئيسي.

والواقع أن أخوية مالطة كانت قد اضمحلت كثيراً منذ زمن مهندما في القرن السادس عشر وأوتها العسكرية لا تعدو أن تكون ظاهرية. لكن أعمال التحصين ضخمة ويمكنها أن تشكل عقبة حقيقية في وجه الفرنسيين. وهي القوة الوحيدة القائمة، لأن الأخوية لا تتمتع إلا بالكف وخمسمائة مقاتل متفرغ أما الليكيشيات فهي لا توجد إلا على الورق.

والواقع أن الفرسان - وكثير منهم من أصل فرنسي - لا ينفون القتال. ورجال الليكيشيا المهندسون من بين المقاتلين الأصليين لا يشتبهون الموت من أجل الفرسان. وقد نجح بوسيلج وقنصل فرنسا في اجتذاب كثير من المتعاطفين.

ويطلب بونابارت السماح له بدخول ميناء مالطا للتزود بالمياه. لكن الفرسان، المرتابين عن حق، لا يسمحون إلا بتواجد أربع سفن في المرة الواحدة، الأمر الذي من شأنه تلخير تحرك الأسطول. ويجري استخدام هذه الذريعة لتبرير الهجوم على الجزيرة. وكما كتب قنصل فرنسا إلى الراعي الأكبر لأخوية مالطة، فإن: «الجنرال بونابارت عازم على أن يأخذ بالقوة ما يتعين تقديمه له. استرشدنا بمبادئ كرم الضيافة، التي تعد أساس أخويتكم. [...] والجنرال لا يريد شيئاً غير أن يعود إلى ميناء بونابارت مضطراً منذ ذلك الحين إلى معاملتها كعدو وأنها لم يعد لها أمل إلا في استقامة الجنرال بونابارت. وقد أصدر الأوامر الأكثر صرامة بالاحترام التام لديانة وعادات وممتلكات المالطين» (١٠).

وقد أصدر القائد العام الأوامر في ٩ يونيو ١٧٩٨. وينجح إنزال رياضي في ١٠ يونيو. ومنذ ١١ يونيو، يطلب الراعي الأكبر وفقاً لإطلاق النار وإجراء مفاوضات. وسوف يلعب دولومير، عالم اللغتين، والفارس القديم، دور الوسيط مع بوسيلج. ويتم توقيع اتفاق في ١٢ يونيو، إن الأخوية تتنازل لفرنسا عن جميع حقوقها في السيادة على مالطة وتوابعها. وسوف يحصل الراعي الأكبر على تعويض مناسب ويحصل الفرسان على معاش مزيل سوف يتلقونه في بلدانهم الأصلي.

ويقبل عدد معين في فرسان مالطة الانضمام إلى الحملة. وأحال أن بعضاً منهم، مثل شاندليليس ولاسكاريس، سوف يلعبون دوراً مهماً في إنارة مصر. لكن جميع

الأخرين، إذا كانوا دون الستين من العمر، يجرى طرحهم على الفور. ويلقى التسامح الذين ليست لهم أصول مالطية المصير نفسه. ويتعين على رجال الدين الباقين الامتناع من الاعتراف بسلطة البابا في إقامة الشئون الدينية.

ويجرى الامتناع بنهب جميع نور الخزائن العامة وكنائس الأخوية سعياً إلى التمتع بإمكانات نقدية في مصر. ولا تتمتع الحملة باحتياطات نقدية كافية، ثم إن المصارفات التي جرت في ملطه سرعان ما سوف يتضح أنها غير كافية.

ويتهمل بوناپارت بتنظيم فتحه الجديد. فهو يعين لجنة حكومية لتكثف من تسعة وجهاء محليين ومن مفوض فرنسي، وهي مكلفة بالتنظيم المدني والخصائي والإداري. والمفوض الفرنسي هو الذي يملك بطبيعة الحال سلطة القرار.

ويغرض بوناپارت على اللاطين النظام الفرنسي. فهم يصبحون متساوين أمام القانون، ويجري حظر جميع الألقاب والعلامات الأرستقراطية. والشارة الثلاثية الأكران إلزامية، لكن ارتداء الزى القومي الفرنسي، وهو علامة للواطنة الفرنسية، ليس مصرحاً به إلا لأولئك الذين يثبتون تعلقتهم بالجمهورية الفرنسية أو يتميزون بلخبطلاهم بعمل رائع ما. ويصبح الانتماء إلى الأمة العنلمي شرفاً في ذاته. ويتعين إرسال الأبناء الذكور للوجهاء إلى فرنسا على نفقة عائلاتهم والحصول على تعليم فرنسي؛ ومن للتأكد أن هذا يمثل تذكراً لممارسات الرومان القدماء. ويجري إنشاء بلديات وحرس قومي تحت قيادة ضباط فرنسيين. ويتم تقسيم البلد إلى كانتونات وبنات. ويحصل الأرثوذكس اليونانيون واليهود على حق ممارسة عباداتهم بحرية.

والواقع أن كل شيء يعتمد على الحاكم العسكري الفرنسي، الجنرال فوبوا، الذي يتعين عليه البقاء هناك مع نحو ثلاثة آلاف جندي. ويجري إجبار جنود الأخوية السابقين على الانضمام إلى الحملة. وبشكل ما، فإن ملطه تمثل التطبيق الأول للأفكار النابوليونية في مجال الحكم.

والواقع أن سقوط أخوية ملطه سوف يخدم سياسة بوناپارت الإسلامية. وهو يخبر فنلصل (فرنسا - لترجم) في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بما حدث، ويكلفهم بإعلان الخبر السعيد لنهايات هذه الولايات التي تتمتع بقدر من الاستقلال. وهو يأمر بتحرير العبيد المسلمين الألفين الذين كانوا يخدمون في السفن الشراعية للأخوية ويطلب معاملة معاملة من القوى المغربية. وهو يرسل مرافقه لاقليات إلى الجزر الأيونية للاتصال

بعلی باشا الهانیناری والترح عروض سیاسیه علیہ. القوائع أن باشا البانیا يمكنه التلیم بعمل مهم فی البلقان من شأنه تحويل أنظار العدو من بؤرة الصراع.

كما أن الاستحالة علی مالطه وسمح بتهدید مملكة نابولی تهدیداً مباشراً وفرض حغوط قوية علیها. لكن لسطول نيلسون یرسو فی الترو والحال فی نابولی.

الرحلة البحرية

فی ١٨ يونيو، يستأنف الأسطول الفرنسى طريقه إلى مصر. وهو بالغ الهشاشة فی مواجهة معركة بحرية. وصحيح أن بوناپارت كان قد ارتأى إجراء مناورات تدريب یومیه حيث یتمین علی رجال مدفعية الجيش البری مساعدة رجال مدفعية البحرية. والقائد العام یقنع نفسه بهذا الشكل بقوة وضعه. لكن جنود البحرية كانوا أقل ثقة بشكل واضح، فالسفن محملة أكثر من الممكن بالرجال والمعدات، الأمر الذى یختزل قدرتهم علی المناورة.

وفی المساء، تعزف فرقة للموسيقى العسكرية الحاداً حربیه تهدف إلى الحفاظ علی العزيمة القتالية لدى الجنود وإلى إعلانهم لمواجهة تالية مع الأسطول الإنجليزى. وعندما تتقارب السفن، تتوقف للموسيقى ویجرى التنازل عن أنباء المبحرين الآخرين. وبعد غروب الشمس، یمثل الجنود كوميدیات من بنات خیالهم «كان موضوعها ظمناً تقريباً هو تخليص جارية من جوارى السراى واختطافها من أیدی تركى عجوز وزواجها من الجندى الفرنسى محرراً». (٤٦)

كما یجرى اللعب كثيراً بأوراق الكوتشيد ویتعین علی الجدران لتتخلل لولف القمار. ويشكو الجميع من الازدحام والتكدس وتتفجر شجارات صغيرة عديدة علی الصندرة وعلى مكانة متميزة بین ضباط البحرية وضباط الجيش البری والعلماء.

وعلى متن «لوريان»، سفينة الأميرالية وأضخم سفينة فی ذلك العصر، یحب بوناپارت التناقش مع العلماء وضباطه الرئیسیین. ومحادثوه المعتادون هم مونج وپیرثولیه وكالاريللى. وتتصل موضوعات الحديث بالكیمياء والرياضیات والدين. ويعرض كالاريللى نظریاته، المستلهمة من روسو، حول إلغاء الملكية. كما یقف القائد العام علی شئون المخلوقات البحرية من بوى. (٤٧)

ویبدى دیزیه وكلیبر الفضول الفکرى نفسه مع حاشيتهما. أما رينيه، وهو أحد

لرؤس ضباط الجيش (قائد لواء وهو في الرابعة والعشرين من عمره في عام ١٧٩٥ وقائد فرقة في العام التالي) والمعروف بشخصيته المتفجرة، فقد طلب أن يحضر إلى سفينة هيلبروا سانت - هيلبر وهو من نفس عمره، لكي يتحدثا سوياً عن التاريخ الطبيعي، أحد موضوعي شغفه الكهويين (حيث كان موضوع شغفه الكبير الآخر هو البحث عن اللجد كما هو واضح) (٤٨).

وعند رحيلهم عن مالطة يهدأ العسكريون للبحرون في إيراك الوجهة الحقيقية للحملة، الأمر الذي يشكل مفاجأة للكثيرين (٤٩). لكن سفينة منفصلة عن الأسطول كانت قد رصدت أسطولاً إنجليزياً يتجه نحو القرب، ويترك بوناپارت أن عليه إصرار الحركة. ويحول بيته وبين ذلك عدم تجانس السفن التي تشكل القافلة الفرنسية وتؤدي عاصفة عابئة إلى تفرق السفن. ومن ثم فإن السير أمام كريت يتعطل.

نيلسون

من الواضح أن الانجليز كانوا على علم بحشد القوات الفرنسية في طولون، لكن الفرنسيين كانوا قد استخدموا هذا للبقاء دائماً للالتفاف على الحصار الإنجليزي لموانئ المحيط الأطلسي. وعندما ترى القيادة البحرية أن الأولوية يجب أن تولي للدفاع عن الجزر البريطانية ضد نزول الفرنسيين الذي ذاع الحديث عنه. ومن ثم فإن الحصار يمتد من نيكسيل إلى كاديكس، لأن إسبانيا حليفة لفرنسا في الحرب ضد إنجلترا.

وفي ١٧ أبريل، تفرض الحكومة الإنجليزية على القيادة البحرية إرسال قوة بحرية إلى البحر المتوسط في مستهل يونيو. وفي أواخر أبريل، تطلق جميع السفن للتوالية الأمر بالاتجاه إلى البحر المتوسط. ومن ثم فإن الحكومة الإنجليزية تغامر بتعرية الجزر البريطانية من الحماية لحساب الدفاع عن الهند.

ويتولى نيلسون قيادة هذه القوة البحرية التي تتعاطم بسرمة. إلا أنه ينقصه الأكثر أهمية: السفن الصغيرة السريعة التي يمكنها قطع شوط أطول في مجال الاستطلاع وإبلاغ الأسطول بالمعلومات الضرورية حول تحركات الفرنسيين. ولا يعرف الإنجليز أية وجهة يتخذون، فإن لم يهاجم الفرنسيون الجزر البريطانية، فلابد أنهم يستهدفون الهند. إلا أن بوسعهم السعي إلى الوصول إليها عن طريق المحيط أو مصر أو بقية شرق البحر المتوسط. وتؤكد تقارير جواسيس كثيرة أن الهدف هو مصر، لكن للمعلومات متناقضة. ويبدو طريق الهند عبر سوريا وبلاد الرافدين والخليج الفارسي بوصفه الطريق الأرجح في نظر المسئولين البريطانيين.

والى ١٥ يونيو، لم يخطر نيلسون على شيء فى غربى البحر المتوسط. وهو يرى أن الفرنسيين قد وصلوا بالفعل إلى شرقى صقلية، والأرجح أنهم قد وصلوا إلى الإسكندرية. وبدأ الاستيلاء على مالطة، الذى عرفه فى ميسينا فى ٢٠ يونيو، يؤكد بأنه. وهو يتجه بسرعة إلى مصر بمحاذاة الساحل الأفريقى وفى ليلة ٢٢/٢٢ يونيو يتجاوز الأسطول الفرنسى. والحال أن الغمام والعاصفة التى اشتدت إليها بالفعل بمنعته من رؤية الفرنسيين. ويؤدى تأخر الأسطول (الفرنسى - المترجم) إلى إنقاذ بوناپارت. وفى عصر البحرية الشراعية، يصعب تحديد موقع أسطول متحرك. وكانت المعارك تدور قرب المراسى.

والى ٢٨ يونيو و٢٩ يونيو، يصل نيلسون إلى الإسكندرية. وهو يثير الانزعاج فى المدينة، لكن أحداً لم ير الفرنسيين. ومن ثم فإنه يتجه إلى الساحل السورى، ثم إلى قبرص. وإذا لا يرى مجيء شيء فى جميع الأحوال، فإنه يرجع إلى غربى البحر المتوسط ويرسو فى سيراكوز وهو بحاجة إلى التزود من جديد باحتياجاته من المياه ومن المؤن كما أنه بحاجة إلى الاضطلاع بأعمال على سفنه. وهو لا يعرف البتة نوايا الفرنسيين عندما يغادر سيراكوز فى ٢٥ يوليو. وفى ٢٨ يوليو فقط يعرف أن الأسطول الفرنسى قد شوهد متوجهاً إلى مصر قبل شهر. وهو (نيلسون - المترجم) يصل أتم الإسكندرية فى ٢١ يوليو.

بيان بوناپارت إلى الجيش

فى اللحظة التى يصيب فيها نيلسون بوناپارت فى توجيهه إلى الإسكندرية، يحدد الأخير بيانه إلى الجيش، والذى يعلن تخيراً بشكل رسمى غلبة الحملة:

إلى الجيش البهى،

«من على متن لوريان، فى ٤ ميسيدور من العلم الرابع [٢٢ يونيو ١٧٩٨]

«أيها الجنود!

«إنكم سوف تفتحون فتحاً يصعب قياس آثاره على الحضارة وتجارة العالم

«إنكم سوف ترجعون إلى إنجلترا الضربة الأكيدة أكثر من سواها والمحسوسة أكثر من سواها انتظاراً للحظة التى يتسنى لكم فيها توجيه الضربة القاتلة إليها.

«إننا سوف نقوم ببعض التحركات للرهقة، وسوف نخوض عدة معارك وسوف ننجح فى جميع معاميلنا؛ فالأقدار معنا.

والبنوك للمال، الذين لا يحملون غير التجارة الإنجليزية والذين كانوا لتجارنا
صدوف للهائات ويستثمون بسلطان خفاف الذيل للتصام، لن تقوم لهم قائمة بعد أيام
قليل من وصولنا.

إن الشعوب التي سوف نحيا معها شعوب محمية؛ وأول أعراف إيمانها هو شهادة
أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فلا تخالفونهم: تعاملوا معهم مثلما تعاملنا مع
اليهود، ومع الإيطاليين؛ احترموا رجال الفتوى بينهم واحترموا أئمتهم، مثلما فعلتم مع
المسيحيين والقساوسة. ولتهدو تجاه الشمائر التي يوحى بها القرآن، وتجاه المساجد
التسامح عيه الذي أبدىتموه تجاه الأنبياء للمسيحية والمعابد اليهودية، تجاه ديانة موسى
وديانة يسوع المسيح.

لقد حمت القبائل الرومانية جميع الأديان

وسوف تجدون هنا أعرافاً مختلفة من أعراف أوروبا، وعليكم التصرف على ذلك.

والشعوب التي سوف نتجه إليها تعامل النساء معاملة مختلفة عن معاملتنا لهن؛
لكن من يمارس الاحتساب هو، في جميع البلدان، وحش.

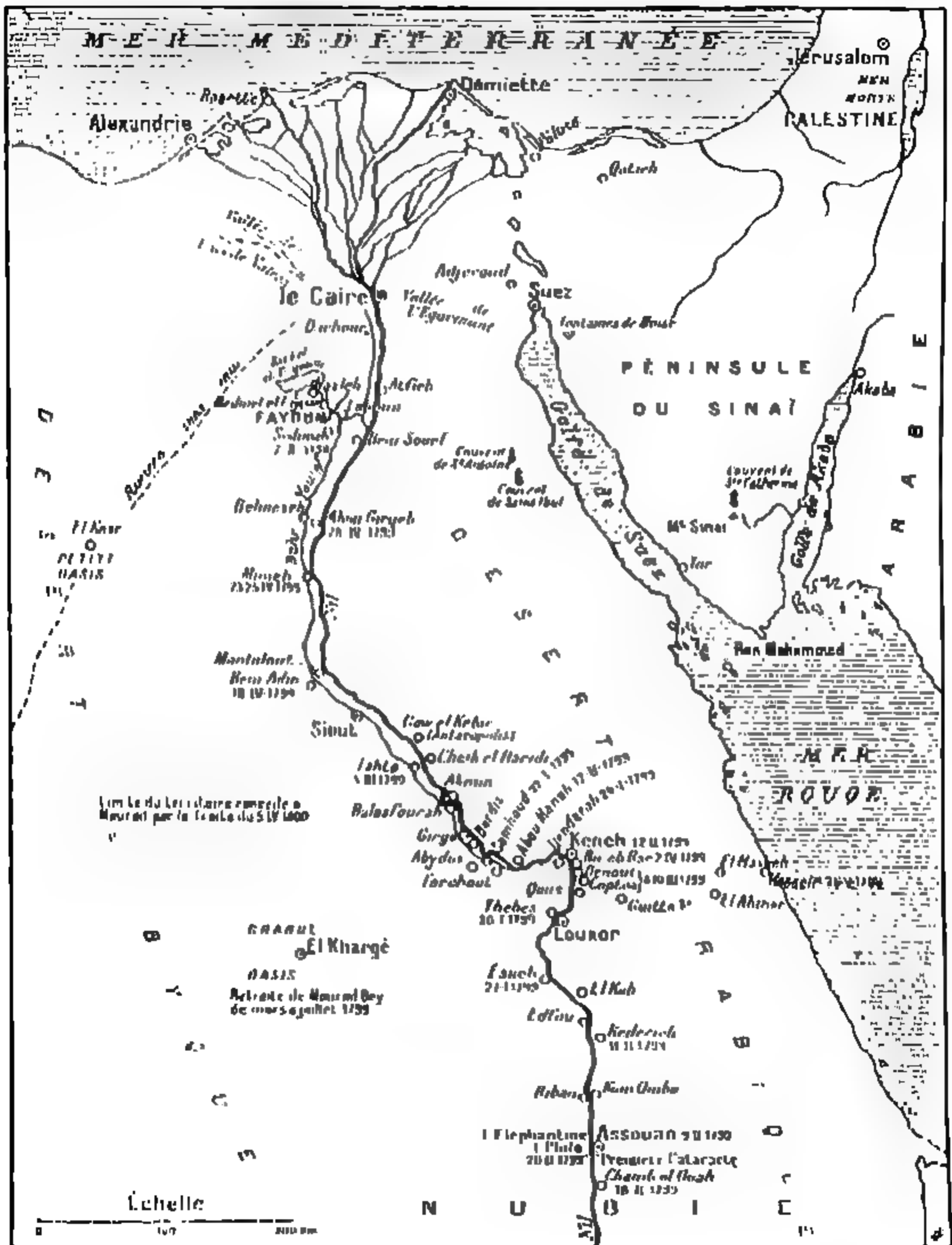
والذهب لا يثرى غير عدد قليل من الرجال؛ وهو يجربنا من الشرف، إنه يدمر
مواردنا؛ ويجعلنا أعداء للشعوب، التي من صالحنا أن تكون صديقة لنا.

إن المدينة الأولى التي سوف نقابلها قد بناها الإسكندر. وسوف نجد في كل خطوة
تذكارات عظيمة جديرة بأن يستلهمها الفرنسيون.

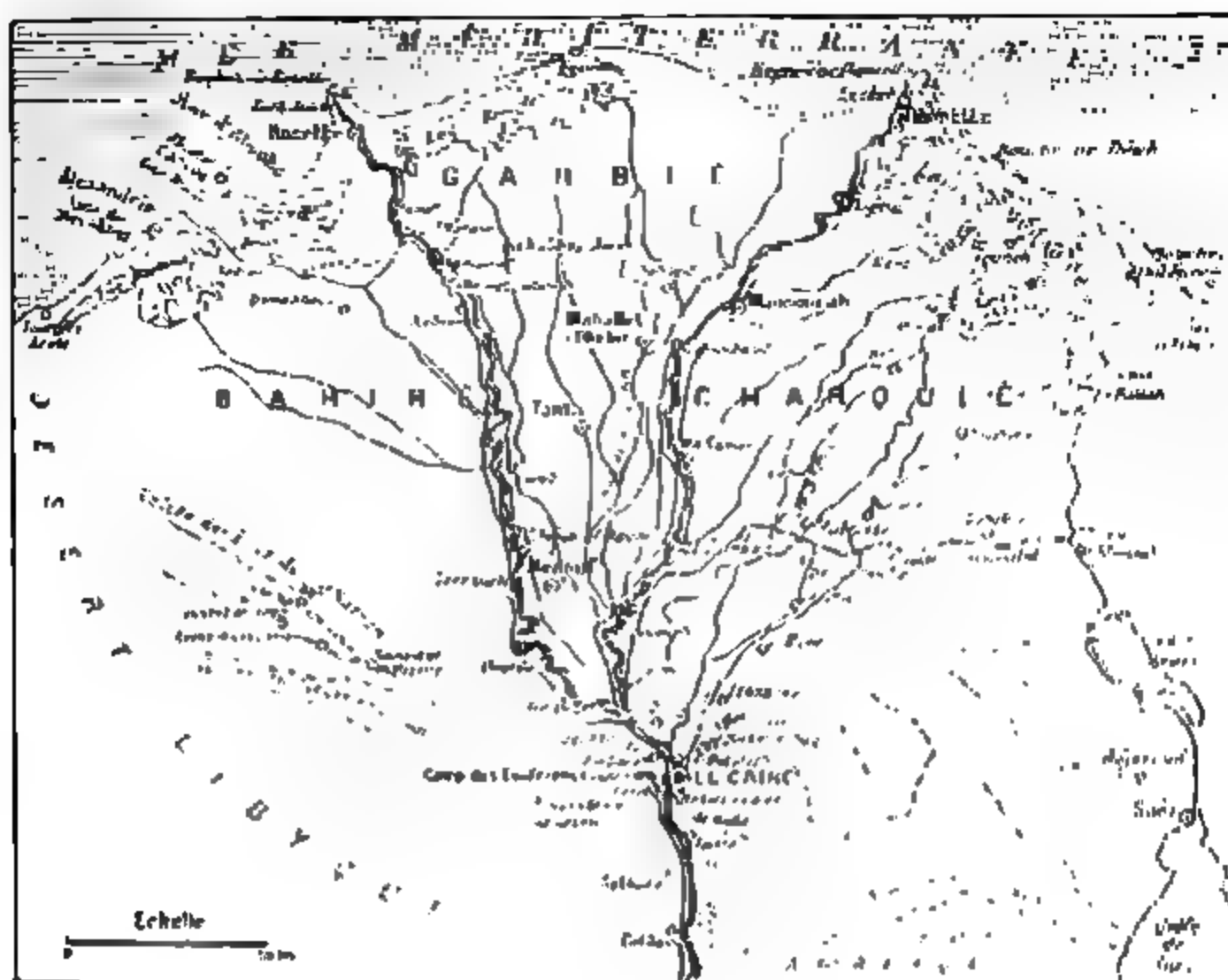
إن الإسكندر الأكبر، ففتح آسيا الشاب، ذلك الذي رعى امتزاج الغرب والشرق، من
الواضح أنه الأسطورة الأسطورية لهونابارت الشاب مثله والذي ينهي لتجديد ماثرة الزحف
مع جيشه على ضفاف البحر المتوسط إلى الهند وتوحيد العالمين في ثقافة واحدة.

وسوف ينهي لأول اتصال فعلي بين عالم التنوير وعالم الإسلام أن يتأسس.
فالحقيقة الفريدة في التاريخ هي أن هذا الجيش الفرنسي لا يتألف إلا من ملحدين
ومؤلهين للطبيعة ولا لربين. وهذا التسامح، الذي يضع الديانات التوحيدية الثلاث على
قدم المساواة، إنما هو تعبير أصيل عن تيار أعمق يعبر عن نفسه في مفهوم الحضارة.
والمصطلح، الذي يظهر هنا لأول مرة في نص سياسي بشكل مباشر، إنما يملك قوة
الأفكار الجديدة. ومكانته لا تنحصر بعد من جراء استهلاكه المفرط وتخطيته لقطبها
مريبة.

والحضارة، انعكس الغرب على نفسه، على تاريخه، على مستقبله، هي أيضا
برنامج لتدريب الآخرين. وسوف تكون مصر أول أرض من أراضي الإسلام، أول أرض غير
غربية، تواجه هذا التحدي العظيم.
لكن مصر هذه، ما هي؟



L'EXPÉDITION



البلتا ومصر السفلى.



فلسطين وسوريا.

حواشي الفصل الأول

١ - يظهر الغرب بمعناه الحديث منذ كودوريوس.

Sur la vision culturelle et politique de l'Orient musulman en France - ٢
au XVIII^e siècle, voir mon ouvrage sur les *Origines intellectuelles de l'expédition d'Égypte, l'orientalisme islamisant en France 1698 - 1798*, éditions Isis, Institut Français d'Etudes Anatoliennes, Istanbul - Paris, 1987.

Voir Paul Masson, *Histoire du commerce Français dans le Levant - ٣*
au XVIII^e siècle, Paris, 1911.

Sur l'absence du rôle de Mareille dans la formulation des projets - ٤
d'intervention, voir Charles CARRIÈRE, "Économie et Imaginaire" in *Le Miroir Égyptien*, Robert Ilbert et Philippe Joutard Editeurs, Marseille, 1984, pp. 133 - 138. La position inverse, celle de Peter GRAN, "The changing meaning of merchant capital in Egypt", in *L'Égypte au XIX siècle*, C.N.R.S., 1982, pp. 267 - 282, n'est pas convaincante.

Sur les projets de conquêtes de l'Égypte, voir les travaux de F. - ٥
CHARLES - ROUX, *Les origines de l'Expédition d'Égypte*, Paris, 1910; *Autour d'une route. l'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Égypte au XVIII^e siècle*, Paris, 1922; *Le projet français de conquête de l'Égypte sous le règne de Louis XV*, Le Caire, 1929. Sur La Fayette en particulier, Charles L. LOKKE, "La Fayette et l'Expédition d'Égypte", *Annales Historiques de la Révolution Française*, 1954.

Sur ces problèmes, voir mon article, "Le siècle des Lumières face à - ٦
l'Empire Ottoman : l'élaboration d'une image", in *L'Empire Ottoman, la République de Turquie et la France*, Jean - Louis Bacqué - Grammont et Hâmit Batu éditeurs, Éditions Isis, Institut Français d'Études Anatoliennes d'Istanbul, Istanbul - Paris, 1986.

Sur ces thèmes, voir H. LAURENS, "La Raison dans l'histoire", in - ٧
Le Miroir Égyptien, Marseille, 1984; "La vision de l'Orient aux XVII^e et XVIII^e siècles", in *L'Orient : Concept et images*, XV^e colloque de l'Institut de Recherches sur les civilisations de l'Occident moderne, Presse de

l'Université de Paris - Sorbonne, 1988; "Orient et origine", in *Primitivisme et mythes des origines, 1680 - 1820*, chez le même éditeur.

Sur cette question, voir Jacques GODECHOT, *Regards sur - A l'époque révolutionnaire*, Toulouse, édition Privat, 1980. En particulier, pp. 159 - 161, *Moreau et les papiers de Klinglin*, et son livre sur *La Contre - Révolution*, Paris, 1984, pp. 282 - 314.

Volr H. Laurens, "Bonaparte, l'Orient et la Grande Nation", *Annales - Historiques de la Révolution Française*, n° 273, juillet - septembre 1988, pp. 289 - 301.

Tous ces textes dans MASSON et BIAGI, *Napoléon, manuscrits - ١٠ inédits*, Paris, 1910.

Ernest JONES, *La vie et l'oeuvre de Freud*, Paris, 1969, III, pp. - ١١

520 - 521, lettre de Freud à Thomas Mann, le 29 novembre 1936
هرامه بهوزيفين برلونه نتيجة إكراه نفسي، وذلك بسبب الاسم الذي حملته، لكن ذلك بالطبع لم يكن لوحده مع جوزيف. إن هذا التوحد يتجلى بأكثر الأشكال وضوحاً في حملته المصرية الشهيرة. فإلى أين يذهب المرء، إن لم يكن إلى مصر، عندما يكون جوزيف [يوسف] الذي يريد أن يبدو عظيماً في نظر إخوته ؟ وإذا ما درسنا عن قرب أكثر الدوالع السياسية لهذه الظاهرة التي قام بها الجنرال الشاب، فسوف نجد بلا ريب أنها لم تكن غير تبريرات عنيفة لفكرة استيهامية [...].

وإن الدنيا التي نطقت ناهولايون إلى الذهاب إلى مصر فتتعلق فيما بعد في أوروبا، فهو يرتب لإخوته مكائد يجعلهم أمراء وملوكاً. [...] وفيما بعد، يصبح خائفاً لأسطوريته ويسمح لنفسه بأن تجره اعتبارات واقعية إلى حجر جوزيفين للصهبة حياً حياً. وإلى هذا العمل يرجع تاريخ انحداره. إن المدمر العظيم يعمل منذ ذلك الحين على تعمير نفسه. رحلته روسيا، الخطرة، السيرة الإملاء، تجر إلى سلوطه. ويبدو ذلك كما لو كان عقاباً ذاتياً على خيائته لجوزيفين، على ارتداد حبه إلى العبارة الأصلية لجوزيف. لكن القدر، هنا أيضاً، وخلافاً لنهولايون، قد استنسخ جزءاً آخر من قصة جوزيف [يوسف]. إن حلم يوسف، الذي سجلت فيه الشمس والقمر والنجوم له، قد ترتب عليه رمية في الحية (Voir aussi pp. 218 - 219 du même ouvrage la lettre à Arnold Zweig du 6 novembre 1934 et le commentaire de Jones).

MASSONE, Napoléon et sa famille, Paris, 1902, T.I, p. 81, pp. 96 - ١٢ - 97, pp. 120 - 124.

١٢ - إن السر الذي باح به فيما بعد لمعلم نور ريموسا هو سر شهير : إلى مصر، وجدت نفسي متحرراً من كوابح حضارة مزعجة. لقد كان يوسف أن أحلم بكل شيء وأن أرى وسائل تحقيق كل ما حلمت به. فسوف أؤمن نهائياً، وسأجد نفسي على طريق آسيا، ولكنني قبلت، وعلى راسي عمامة وبين يدي قرآن جديد أؤلفه على هواي. وسوف أجمع في مشاريعي بين تجارب وخبرات العالمين، نابضاً لحسابي ملكوت جميع التواريخ والتخصص، مهاجماً الجبهوت الإنجليزى

في الهند ومستعبد بهذا الفتح ربط صلاتي مع أوروبا العجوز. لقد كان ذلك الوقت الذي قضيت في مصر لجمال أوقات عمري. لأنه كان الوقت الأكثر مثالية». *Mémoires de Madame de Rémusat*, Paris, 1881, p. 274.

١٤ - بشكل غريب، سوف تعارو هذه الفكرة الظهور عند عبد الناصر الشاب : «إن ظروف التاريخ أبعدنا مليئة بالثورات البطولية للجهينة التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحها، ولست أرى لماذا يخيّل إليّ دائماً أن في هذه المنطقة التي تعيش فيها ثوراً هائلاً على وجهه يبحث من البطل الذي يقوم به، ثم لست أرى لماذا يخيّل إليّ أن هذا الدور الذي لزمه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا، قد استقر به اللطف متعباً مذهوك القوى على حدود بلادنا بخير إلينا أن نتحرك، وأن ننهض بالدور ودرتدي ملابسنا فإن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به. «وأبأنو هنا فأتول إن الدور ليس دور زعامة.

إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل، يكون من شأنه تجميع الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات للحيطة بهاء. جمال عبد الناصر، «فلسفة الثورة»، القاهرة، جون تاريخ، ص ٦٠.

١٥ - VOLTAIRE, *Mahomet ou le fanatisme*, acte II. في عام ١٨١٧، في سانت - هيلين، عاد نابوليون إلى قراءة هذه المسرحية وألقى بالملاحظات التالية :

«هذه أبهى جميلة، لكن هذا [العمل] يجرى على التاريخ. [إنه يزعم] أن محمداً كان شعباً ثم ماذا ؟ [إنه يزعم] أنه قد لها إلى الانحطاط، وأن هذا هو كل ما في الأمر. فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذاً نخل إلى مكة وكوناً إلى الهند ؟ لقد جاء إليها بعد معركة بدر البطولية.

ولماذا لا نتحدث عن الجهاد ؟ وهذا القسم القسم الذي يتم في الوقت المناسب تماماً ! إن فولتير يريد تحقيق كل شيء، لقد اعتدى على يسوع - المسيح في شخص محمد ! وهو يتصور أن العظماء يستخدمون وسائل ذهنية؛ يستخدمون نص القسم، لكن الأمر لم يكن كذلك. لقد جاء محمد في وقت كان الرأى العلم كله مهيباً فيه للإيمان بآله واحد. ومن المرجح أن شبه الجزيرة العربية كلها كانت تصور بحروب أهلية، هي، وحناء، التي تنجب الشجعان. ومنذ بدر، أخذ الناس ينتظرون إليه بوصفه بطلاً. إن أي إنسان لا يعدو أن يكون إنساناً في جميع الأحوال، لكنه، غالباً، ما يستطيع حمل الكثير : إنه، غالباً، ما يكون قنطرة شدة وسط مواد قابلة للاشتعال. إنني لا أعتقد أنه كان يوسع محمد أن ينجح لو كان قد ظهر في شبه الجزيرة العربية الآن.

إن ديانة يسوع تنبع من أخلاق سقراط؛ وفي ذلك الزمن البعيد أيضاً، كان الرأى العام مهالاً إلى الإيمان بآله واحد. وما هو أرقى في محمد، هو أنه قد تمكن في غضون عشر سنوات من فتح نصف الأرض، بينما احتاجت للمسيحية إلى ثلاثمائة سنة لكي تثبت وجودها.

«إن ديانة للمسيح جد مرهقة [بحيث يصعب] على الشرقيين [إتباعها]، فهم بحاجة إلى أراء سياسية أكثر. والحال أن محمداً يبدو في نظريهم أرقى من يسوع، لقد رآه الناس يتحرك ويقبل [...]

إنه مثلي [...] لقد كان هناك سأم من الفوضى، وكانت هناك رهبة في وضع حد لها. إنني

ما كنت لأظهر لو كان من المرجح أن يجيء شخص آخر ويقوم بما فعلت به. لقد كان بوسع فرنسا أن تنتهي إلى فتح العالم ! إنني أكرر، إن أي إنسان لا يدعو أن يكون إنساناً. ووساظة لا طائل من ورائها إن لم تكن الظروف، إن لم يكن الرأي العام مؤيداً لها. إن الرأي العام يحكم كل شيء. هل تظنون أن لوثر هو الذي أتى بالإصلاح ؟ كلا، إن الرأي العام هو الذي هب ضد الباباوات، [...] .

« لم يترا جلالته [مسرحية] محمد، ويوجد فيها أحياناً جميلة. «الكثنا» نحن للمسلمين الآخرين، نود لو أنها كانت على مستوى أعلى من حيث الصديق التاريخي، لو أنها كانت لها نكهة مربية أكثر. » GÉNÉRAL BARON GOURGAUD, Sainte - Hélène, Journal inédit de 1815 à 1818 avec préface et notes de M. le Vicomte de Grouchy et Antoine Guillois. Paris, 1889, pp. 77 et 152. ويسجل برتران من جهته فيما يتعلق بالحديث نفسه : « إن أي إنسان لا يدعو أن يكون إنساناً. وهو بحاجة إلى قوى لكن يتحرك ويفعل. ما هي النار التي أتت إلى غليان الرجل ؟ لابد من معرفة وضع شبه الجزيرة العربية قبل قرنين من ظهور محمد.

ما هو البلد الذي وجدته ؟ هذا مالا نعرفه. هذا ما ينبغي لنا معرفته. كيف يمكن لمحمد ولخلفائه أن يقوموا بمثل هذه الفتوحات الكثيرة والدهشة بشعب هزيل ؟ إنهم ما كانوا ليفلحوا في التعليم بها اليوم بالعرب على نحو ما هم عليه الآن. إن الناس إنما يتقدمون إلى اجترار مآثر عظيمة في أعقاب الثورات دائماً. وإذا كانت فرنسا قد نجحت في السيطرة على أوروبا، فإن مرجع ذلك إلى الثورة. ولا مرء في أنني الذي توليت قضايتها [فرنسا]، لكنني فعلت ذلك مستفيداً من قروء. » BERTRAND, Cahiers de Sainte - Hélène, Manuscrit déchiffré et annoté par Paul Fleuriot de Langle, Paris, Albin Michel, 1959 I, p. 225.

١٦ - *Correspondance inédite*, III, pp. 209, lettre confidentielle à Talleyrand le 16 vendémiaire an VII (7 octobre 1797). Comme pour beaucoup de textes de la *Correspondance inédite*, on peut toujours avoir un doute sur l'authenticité. Mais il m'est arrivé de retrouver les originaux de certaines lettres avec des variantes non significatives. G. DOUIN, dans *La Flotte de Bonaparte sur les côtes d'Égypte, les prodromes d'Aboukir*, Le Caire, 1922, a démontré que ce regroupement de textes correspond à ce que les éditeurs de la *Correspondance de Napoléon* appellent la Collection Napoléon.

١٧ - في نص كتبه تاليران في عام ١٨١٦، وإن كان، بما يمثل شيئاً له دلالة، قد أورد في مذكراته حول نهاية التنظيم القديم، يحدد [تاليران] مستقبل فرنسا في البحر المتوسط، فعلى فرنسا أن تكف عن الاهتمام بالقارتين الأمريكيتين وأن توجه أبصارها شطر البحر المتوسط. وتجيء الفكرة من مواسلي تاليران في الشرق :

« إن عدة سنوات من المراسلات المتصلة مع السيد شواسول - جونغيه، الذي كان آنذاك سفيراً لدى القسطنطينية، ومع السيد هيسونيل، القنصل في ثغور شرقى البحر المتوسط، قد

انتمنى دوماً بجميع الزايات التي كان يمكن أن يحققها لنا، واليوم أيضاً، تحول إحصائنا السياسية والتجارية خطر العلم القديم أساساً. -
TALLEYRAND, *Mémoires*, I, 1754 - 1807, introduction, notes et établissement du texte par Paul - Louis Gouchoud et Jean - Paul Gouchoud, Paris, Plon, 1957, pp. 63 et suivantes.

وقد تسنى لتاليران أن يقابل فولتي، قبل الثورة، في المحادثات الثقافية كصالون سوار وصالون مدام هيلفيتيوس. وكانا زميلين في الجمعية الفلسفية. وتواجدنا في الولايات المتحدة التي لم يكن فولتي قد عاد منها بعد في بداية الحملة. كما تردد فينتور دو پارادي أيضاً على صالون سوار، انظر Attia AMER, *Venture de Paradis, Orientaliste et Voyageur*, 1739 - 1799, Thèse de doctorat, Université de Paris, s.d., multigraphiée p. 61. وفي مذكراته، يشهد تاليران على دور الصالونات، على دور ما يسمى بالمجتمع،

«إن قوة ما يسمى في فرنسا بالمجتمع كانت عظيمة في السنوات التي سبقت الثورة، بل وفي مجمل القرن الثامن عشر، ومن المرجح أن الأشكال الخفية والمتنوعة التي تميز بها قد منعت مؤرخينا من رصد أصل، وتبع هذا الأثر للحضارة الحديثة العظيمة».

Pour l'Inde au XVIII^e siècle, je m'inspire directement de Fernand - ١٨
BRAUDEL, *Civilisation matérielle, Économie et Capitalisme*, Paris, Armand Colln, 1979 tome III, *Le temps du monde*, pp. 428 - 450.

Sur Talleyrand et l'Inde, voir M. Michel PONIATOWSKI, - ١٩
Talleyrand aux États - Unis, Paris, Librairie Académique Perrin, pp. 236 - 356.

Sur les Français et l'économie anglaise au XVIII^e siècle, voir M. - ٢٠
Français CROUZET, "Les sources de la richesse de l'Angleterre vues par les Français du XVIII^e siècle", in *De la supériorité de l'Angleterre sur la France*, Paris, 1985, pp. 105 - 119.

CHARLES - ROUX, *Les origines de l'Expédition d'Égypte*, Paris - ٢١
1910, p. 320. Les différents ouvrages de Charles - Roux sur les origines de l'expédition d'Égypte restent essentiels et sont suivis ici pour tout ce qui concerne l'élaboration des différents projets.

LA JONQUÈRE, *L'Expédition d'Égypte*, I, pp. 29 - 30. - ٢٢

٢٣ - بشكل تدريجي بالغ فقط، تتمكن الكتابة التاريخية عن الثورة الفرنسية من إبراز أهمية حركة الأيديولوجيين كحركة سياسية متميزة عن القوى السياسية التي كان يجري تلقيها عادة. وعلى الرغم من أنها كانت قريبة من حركة الهيرونتد، فإنه ليس بالإمكان التوحيد بينهما، وذلك بالرغم من وجود عدو مشترك هو الجبل. كما أن جانباً كبيراً من العمل التأسيسي لحكومة الإنارة إنما يرجع إليهم، ومن شأن الاكتفاء بتحليل حكومة الإنارة على أنها مجرد وسط بورجوازي

موزع بين الهيكلية للتطرفة من جانب والقوة المضادة من الجانب الآخر، أن يكون إعمالاً جسيماً لما لا يدعو أن يكون استمرارية للتجربة الثورية في محاولة تأسيس وطيد. حول الطبيعة السياسية للأيديولوجيين، انظر، Brigitte SCHIEBEN - LANGE et Franz KNAPSTEIN, "Les idéologues avant et après Thermidor", *Annales Historiques de la Révolution Française*, 217 (1988), pp. 35 - 59, en particulier pp. 37 - 38. من يدرس النشاطات السياسية للأيديولوجيين، سرعان ما يتوصل ليس إلى مجرد تعدد الطابع النسبي لأفكارهم، وإنما أيضاً إلى القطيعة مع الأسطورة التي تتحدث عن براءتهم السياسية. إن الأيديولوجيين - ويوسع المرء قول ذلك دون مبالغة - هم أيضاً سياسيون يتحركون ويريدون التحرك من أجل تحقيق غايات فلسفية مع مراعاة «القوانين السياسية» التي يجب الخضوع لها بادئ ذي بدء، وإلا فإنه سوف يكون من الصعب إحراز الانتصار الضروري لصوغ مجتمع جديد والحمل، بالتأكيد. [...] وسعيًا إلى تجنب أية تورية خادعة في تحليل الممارسة العيسية للأيديولوجيين، فإنه لا يجب حجب النظر عن واقع أنهم قد شاركوا بنشاط في النشاط من أجل الفوز بالسلطة، وهو نشاط كان ينطوي بالضرورة على قدر معين من الواقعية القاسية.

٢٤ - لا يتصلل الأيديولوجيون عن بوناهارت إلا اعتباراً من نهاية القرنية. وفي ظل الإمبراطورية، سوف يخوضون نوعاً من المعارضة الأدبية للنظام. إن ناهوليون الذي يتقلب بطراد مع النظام القديم سوف يأخذ عليهم قبحي فكر مجرد لا يأخذ في اعتباره دروس التاريخ. وليس هناك ما هو أكثر توضيحاً لهذا الأمر من خطابه في مجلس الدولة في أواخر سبتمبر ١٨١٢ إثر حملة روسيا الكارثية.

والى الأيديولوجية، إلى تلك الليتافيزمات للدولة، التي، في بحثها برهانة من الأسباب الأولى، تريد على هذه الأسس تأسيس شرائع الشعوب، بدلاً من استخلاص القوانين من احساس القلب الإنساني ومن دروس التاريخ، [إلى الأيديولوجية] يجب إرجاع جميع المصلب التي حلت ببلدنا الجميل فرنسا. وكان لابد لهذه الأخطاء أن تهتدب وقد لعتبت بالفعل حكم رجال دمويين، للواقع، من هو الذي أعلن مبدأ الانتفاضة بوصفه واجباً؟ ومن هو الذي شلق الشعب معكاً له سيادة كان عاجزاً عن ممارستها؟ ومن هو الذي نمر قدسية واحترام القوانين، بجعلها متوقفة، ليس على المبادئ المقدسة للعدالة، وطبيعة الأشياء والعادلة المدنية، وإنما فقط على إرادة جمعية، مؤلفة من رجال غرباء عن معرفة القوانين المدنية، والجنائية والإدارية والسياسية والعسكرية؟

وعندما يكون للمرء مدعواً إلى تجديد دولة، فإن عليه اتباع مبادئ متقابلة باستمرار. إن التاريخ هو الذي يلون قلب الإنسان؛ وفي التاريخ يجب البحث عن مزايا وعيوب مختلف التشريعات. ذلكم هو المبدأ الذي لا يجب أبداً أن يغيب عن نظر مجلس دولة إمبراطورية عظمى؛ وعندئذ يجب عليه أن يواجه كل محنة بشجاعة وأن يكون مستعداً، على غرار لرتيسين مارلاي وموليه، لأن يهلك في الدفاع عن الملك والعرش والقوانين. P.J.B. BUCHEZ et P.C. ROUX, *Histoire parlementaire de la Révolution Française*, Paris, 1838, T. 39, p. 395. إن بوناهارت حملة مصر ليس بعد معهد العروش والكنيسة. فالواقع أن الحكومات النهائية هي التي يريد نشرها بين البشرية كلها. وإذا كان يخدم الأيديولوجيين، فمن الواضح أن

لديه دية في أن يمحى إلى ما هو أبعد من ذلك. وإلى حد ما، فإن مشاريع [الأيديولوجيين
وبونابارت] مغلقة، لكن الاتفاق لن يزدل إلا فيما بعد.

Pour tous les détails d'ordre militaire et administratif, je suis - ٢٥
l'ouvrage fondamental de C. DE LA JONQUIÈRE, *L'Expédition d'Égypte*,
Paris, 1899 - 1907, 5 volumes. Les quelques trois mille pages de ce grand
historien militaire ont été la base de toutes les études sur la première année
de l'Expédition. La richesse en documents cités a été d'une très grande
utilité, en particulier pour les historiens égyptiens qui n'avaient pas accès
aux sources archivistiques.

٢٦ - كان فولني قد استقر في كورسيكا في عام ١٧٩١ لكي ينهي استعمارة زراعية
جديدة وقد لعب دوراً سياسياً مهماً في الصراع بين بونابارت وبونابارت. وولاً لـ «تال لي
فولني» ذلك مرة إنه عندما رأى بونابارت، فيها بعد، وهو يتجه إلى التمسك بالملك وتوزيع التيجان،
تذكر أنه، خلال إقامتهما في كورسيكا، قد لزمه تقريباً على أن يتنازل له، لي مقابل مبلغ جد
زهيد، عن جزء من مزرعته؛ وقد لفت أنه ربما لمكن القول إنه كان يهدد بتقسيم حلقى
الملوك. CHAPTAL, *Mes souvenirs sur Napoléon*, Paris, 1893, p. 188.

TALLEYRAND, *Mémoires*, pp. 262 - 264. - ٢٧

Arthur CHUQUET, *Journal de voyage du général Desaix, Suisse - ٢٨
et Italie (1797)*, Paris, 1907. Desaix s'est enthousiasmé pour le projet de
conquête de l'Égypte (pp. 254 - 255).

Mathieu DUMAS, *Souvenirs du comte Mathieu Dumas de 1700 - ٢٩
à 1836 publiés par son fils*, Paris, 1839, III, pp. 156 - 157.

Sur cette affaire, voir l'introduction historique de l'édition de la - ٣٠
correspondance de Kléber en Égypte, H. LAURENS, *Kléber en Égypte*,
Kléber et Bonaparte (par abréviation *Kléber et Bonaparte*..) Le Caire,
I.F.A.O., 1988, pp. 93 - 95.

H. DE SYBEL, *Histoire de l'Europe pendant la Révolution - ٣١
française*, Paris, 1886, T.V, p. 168.

Sur LAZOWSKI, Adam SKALKOWSKI, *Les polonais en - ٣٢
Égypte, 1798 - 1801*, Paris, 1910, et Frédéric HITZEL, *Le rôle des militaires
français à Constantinople, 1784 - 1789*, mémoire de maîtrise, Université de
Paris - Sorbonne, 1987. Son compatriote Joseph Sulkowski aussi est
important : il avait été chargé par la République en 1793 - 1794 d'une
mission d'information en Inde. Il ne dépassa pas Constantinople. Un peu

plus tard, il devint l'un des aides de camp de Bonaparte en Italie. Il avait épousé la fille de Venture de Paradis, lui - même fervent partisan d'une conquête de l'Égypte depuis les années 1770. Voir aussi Marcel REINHARD, *Avec Bonaparte en Italie d'après les lettres de son aide de camp Joseph Sulkowski*, Paris, 1946.

Jean Paul BERTAUD, *La Révolution armée, les soldats - citoyens* - ٢٢ et la Révolution française, Paris, Robert Laffont, 1979, p. 271. Sur les officiers de l'armée d'Orient, voir G. RIGAULT, *Inventaire des états de services des officiers de L'armée d'Égypte*, Paris, 1911.

٢٤ - يجعل مذهبنا من كاتاريللي المسؤول الرئيسي عن الجانب العلمي للحملة ؛ إن هذه الآلة العظيمة قد جهزت، ليس على طريق ألتان، في بيت جونين الصغير، بشارع هاتريان، بل في باريس الخلة اليسرى، الأقل شهرة بكثير، والأوسع خيالاً. [...]

وعلى رأس كل ذلك، ومن أجل بث الفلك، كان هناك [وهو شيء نادر]، كان هناك رجل، كاتاريللي، وهو رجل محب، ومحب حبه للناس كلهم. *Histoire du XIXe siècle, II, Jusqu'au 18 brumaire*, Paris, 1875, pp. 260 - 261.

٢٥ - إن شهادة تيبو دولها دلائلها ؛

القد اتخذ بونابارت موقف الكائن الأكبر الذي يملك وحده مفتاح سر عميق، ومارس هيمنة عظيمة على كل ما يتعلق بالحملة. وبالنسبة له، لم يكن هناك فرق بين جمهوري أو ملكي، أرسطراطي أو يعلوي، خريطة أن يتسنى له استخدامهم جميعاً في تحقيق أهدافه [...].

القد جند الهندال بونابارت من كل حبيب وصوب خباطاً وجذوراً، علماء وأبناء، عمالا وفنانين. وحشد معدات وأدوات وكتباً وآلات، ونماذج؛ والواقع أنه بدأ بكل هذه الاستعدادات كما لو كان يتجه، في صورة كولومبوس جديد، إلى اكتشاف عالم وإلى نقل الحضارة إليه. وقد تجمع كل ذلك في طرولون؛ وكان يمكن القول إن باريس سوف تهاجر إلى البحر المتوسط. وبالرغم من كل جهاز الحرب، لقد جرى الرحيل كما لو كان إلى نزعة استمتاع. وكان الأمر يشبه بمهرجان؛ وكان عند أولئك الذين اشركوا فيها حماسة جد مختلفة عن تلك التي تسبق للمعارك؛ ولم يكن بينهم يتحدث إلا عن الرافعات الشرفيات، وعن صفوف السماء وعن العطور التي تفوح بها أرض للمعالي. THIBAudeau, *Mémoires sur la Convention et le Directoire*, Paris, 1824, II, p. 348.

٢٦ - *Correspondance de Napoléon*, IV, pp. 68 - 71.

٢٧ - LA JONQUIÈRE, I, pp. 351 - 352, Note sur la guerre à l'Angleterre datée du 13 avril 1798.

٢٨ - LA JONQUIÈRE, I, pp. 368 - 369.

٢٩ - Edward INGRAM, *Commitment to Empire : Prophecies of the*

Great Game in Asia, 1797 - 1800, pp. 115 - 195, Oxford, Clarendon Press, 1981.

٤٠ - لقد قدمت هذه الاقتراحات من جانب فرانسوا دو تيلهاستو إلى مؤتمر سيلز للكلف بتسوية الخلاف مع فرنسا، في ٥ يونيو ١٧٩٨، وبما أن كويينزل قد قُوم بحزم فيما يتعلق بالمسألة الألمانية، فقد صاح فرانسوا، لنر إلا ما هي الوسيلة الأخرى التي يمكن أن نرضيكم. ما الذي نلجسبكم ؟ إن تختم ولايات تركية مشاريعكم ؟ ومن جديد يرفض كويينزل، فهو يقول إنه لكي يتم ذلك لابد من حرب جديدة لم يقدم لنا الباب العالي حتى الآن أبسط ذريعة لها. وبطبيعة الحال فإن ذلك سوف يحدث يوماً ما، وسوف يكون من السهل عليكم أن تتفاهموا حول هذه المسألة معنا ومع روسيا؛ لكن ذلك لن يحدث إلا عندما تتم تسوية كل شيء في راسلت H. DB SYBEL, *Histoire de l'Europe pendant la Révolution française*, Paris, 1886, T.V, p. 274.

٤١ - LA JONQUIÈRE, I, pp. 416 - 465. كان بونابارت قد ألقى خطبة أولى على الجنود بأسلوب أبسط منكراً بمكاسب حرب إيطاليا وواعداً كل جندي بأنه اعد العدة من هذه الحملة، سوف يكون معه ما يمكنه أن يشتري به ستة أقدح من الأخرى. والواقع أن هذه إشارة أخرى إلى الفيلق الروماني.

٤٢ - Georges DOUIN, *La flotte de Bonaparte sur les côtes de l'Égypte, les prodromes d'Aboukir*, Le Caire, Société Royale de Géographie, 1922, pp. 34 - 35.

٤٣ - Robert GARNIER, *Hoche*, Paris, Payot, 1986, p. 272. في عام ١٧٩٥، كان جيش من المهاجرين قد نزل في كيبيريون لشن انتفاضة ملكية جديدة في غربى فرنسا، وقد ألحق بهم هوش الهزيمة وتم إعدام جميع المهاجرين الأسرى ومها بالرصاصة.

ومن أول يناير ١٧٩٣ إلى ٣١ ديسمبر ١٧٩٧، كان الأسطول الفرنسي قد خسر ٢٠٤ سفن، من بينها ٣٥ بارجة و ٦١ فرقاطة و ١٠٨ سفن من درجة أخرى. ولم تكن الفسائر الإنجليزية سوى ٧٧ سفينة، من بينها ١٤ بارجة و ٢٠ فرقاطة و ٤٢ سفينة من درجة أخرى. (LA JONQUIÈRE, I, P. 17).

٤٤ - DOUIN, op. cit. pp. 40 - 42.

٤٥ - Le 10 juin 1798. LA JONQUIÈRE, I, P. 585.

٤٦ - A. MARTIN, *Histoire de l'Expédition française en Égypte*, Paris, 1815, p. 148. Ce livre très précieux est la première histoire de l'Expédition écrite par un de ses témoins, qui ne soit pas un ouvrage de propagande napoléonienne.

٤٧ - *Mémoires de M. de Bourrienne sur Napoléon*, édition de Désiré Lacroix, Paris, s.d., I, pp. 247 - 249.

Étienne GEOFFROY SAINT - HILAIRE, *Lettres d'Égypte*, Paris, - ٤٨
1910, p. 27 et pp. 44 - 45 ; *Dictionnaire Napoléon*.

١٩ - فكرة كليبر ، « لم يكن هناك ١٠ شخصاً من الحملة على علم بالرجعة التي ستجدها إليها. احتياج بالانكسار على حملة مصر ، التي لم يشأ تصديقها. إنه يريد الذهاب إلى القرم ، لماذا ؟ إن آخرين في الليرة ، وآخرين في صقلية ، وآخرين ثالثاً في البرتغال ، وإن كنا قد تجاوزنا الطريق ؛ وأخيراً يجرى الإعلان من الوجهة - وهناك يسود كثير من الشك ، ويتبادل [المراد الحملة] النظرات... إننا لقد كنّا على علم بها ؟ ... وانت ؟ إلخ » . *Kléber et Bonaparte*, I, p. 534.

الفصل الثالث

السلطة والمجتمع في مصر العثمانية

الإمبراطورية العثمانية ومصر

الفتح العثماني

قضى العثمانيون على السلطة للملوكية وفتحوا سوريا ومصر في ١٥١٦ - ١٥١٧، بما يشكل مرحلة كبرى في العملية للزوجة الخامسة بتكوين اقتصاد - عالم عثماني وإعادة بناء جماعة موحدة من المؤمنين. وينبع إجماع العالم العربي في النظام العثماني من هذه الأزمة للزوجة، بداية تحول الطرق التجارية التقليدية إلى الهند، والراجع إلى اكتشاف قهرتغايين للطريق البحري الذي يمر برأس الرجاء الصالح، وتصعد للجال الإسلامي السني في القرون الأخيرة للعصور الوسطى، والناشئ عن تحول الإسلام الشيعي في فارس إلى دين للدولة تحت قيادة الأتراك الصفويين.

والحال أن السلطة العثمانية، البارزة بالفعل في عالم الإسلام السني بفضل فتحها للبلقان على حساب القوى المسيحية وبفضل الاستيلاء على القسطنطينية الذي يمنحها الاستمرارية الإمبراطورية لروما ولبيزنطة، إنما تصبح أكثر من ضرورية للقطاع عن مصالح الجماعة في وجه هذا الخطر القاتل المزيج. وبعد سنوات قليلة من فتح مصر، فإن أفريقيا الشمالية، فيما عدا المغرب الأقصى، تنضم بدورها إلى العثمانيين، ومما له دلالة أن خلافة العباسيين الشيعية في القاهرة تختفى دون ضجيج وأن الشارات التي ترمز إلى شرعية واستمرارية الخلافة تنتقل إلى السلالة الحاكمة العثمانية التي تصبح حارسة للمعبد المقدسة وحامية للحج. وخلال الأزمة التالية، يكتفى الباباهاوات، أو السلاطين من آل عثمان، بدمج القاب الخلافة في الألقاب السلطانية، للتوفرة بما يكفي بالفعل. لكن أحدا لا

تخافه شكوك حول ذلك، فهم يمارسون بالفعل كامل الوثائق الضرورية للدفاع من الإسلام السنّي ضد جميع خصومه.

والواقع أن الصليبيين، في إثر نزاعات عسكرية عديدة خاضت منها مواجهة أيديولوجية وحرب معادية بين الإسلام الشيعي والإسلام السنّي، قد جرى ردم إلى الحدود السياسية الحالية بين الإسلام الشيعي والإسلام السنّي. وفي ملخل الإمبراطورية العثمانية، تعرض السكان الشيعة لقمع قاس من جراء محارلاتهم الانتفاضية وتعرضوا بشكل متواصل للتصميم والسيطرة وغالباً ما جرى إبعادهم أو دفعهم إلى الهرب بعيداً عن المناطق الاستراتيجية. وهذا التصديق لمجال الإسلام يجعل من الإمبراطورية العثمانية للمثل الجديد للجماعة الإسلامية. فهي لا جاز لها غير للقرب الأقصى الذي يتميز بتقاليد الدينية الخاصة والإمبراطورية الفارسية الشيعية وهي (الإمبراطورية العثمانية - المترجم) لا تحتفظ إلا بعلاقات باهتة مع القوى الهندية في أفغانستان والهند.

وفي البحر الأحمر وفي الخليج الفارسي وفي للبحر الهندي، يبني العثمانيون أساطيل ويحاربون البرتغاليين. بل إن أسطولاً عثمانياً يتحرك في عام ١٥٢٨ من السويس لكي يصل إلى الهند، ويجري إنشاء قاعدة أمامية في اليمن. وتستمر الحرب البحرية أكثر من عشرين سنة وتكفل للعثمانيين السيطرة على البحر الأحمر، ويعاد مؤقتاً لنج الطريق التقليدي لتجارة الهند. ولم يك يوسع البرتغاليين تدبير القوة والإمكانات الضرورية لوقف تجارة البحر الأحمر بصفة مستدامة.

وكان لابد من انتظار الشكل التقدم التقني التي عرقلها القرنان التاليان وظهور سطن الإنجليز والهولنديين البحرية الضخمة حتى يمكن للبحر الأحمر، المحظور على الأوروبيين، أن يكف عن أن يكون مهماً من الناحية الاقتصادية كطريق للمرور بين أوروبا والهند، وقد رأى المستشرقون والمؤرخون في القرن الثامن عشر في نهاية تجارة التوابل بين الهند وأوروبا أحد الأسباب الرئيسية للانحطاط المتصور للإمبراطورية العثمانية.

تجارة مصر

الواقع أنه بتشكيل اقتصاد - عالم يتميز بإبعاد هذه الإمبراطورية المتزامنة الأطراف، وهي أكبر إمبراطورية محلة على البحر المتوسط منذ زمن الرومان (١). وقد انتقدت الإمبراطورية مشروعها التوسعي الخاص بإعادة بناء المجال الإسلامي.

إن تجارة منتوج جديد، هو بن اليمن، تحل محل تجارة التوابل التي يجري نقلها إلى

الأوروبيين. ويصمم تلامي أطراف للجمال العثماني يتكوّن شبكة رائعة من الطرق التجارية البرية التي تستخدمها قوافل الجمال. والتي تضامنها طرق بحرية تستعار بشكل متزايد في البحر المتوسط من سفن أوروبية مؤجرة من جانب تجار عثمانيين، مسلمين بشكل خاص (٢).

والواقع الرئيسي هو أن اتصالات العالم الإمبراطورية المختلفة تصبح مكملة لبعضها للأخر. وتتراكب وحدة الجماعة، بالرغم من التنوع الديني والإنسي، مع الوحدة التجارية، وبالرغم من الاتجاهات المائلة إلى تدعيم الولايات بقدر من الاستقلال، فإن الواقع الإمبراطوري يظل واقعاً دائماً وإطاراً دائماً ضرورياً.

وهكذا، ففي البحر الأحمر، لا يتردد التجار والبحارة المصريون كثيراً على الهند مثلما كانوا يفعلون في العصور الوسطى. وإذا يتحركون من السويس، فإنهم لا يتجاوزون جدة حيث يتولون شحن المنتجات القادمة من اليمن والمحيط الهندي. كما أن بحارة الأقاليم الأخرى للبحر الأحمر والمحيط الهندي لا يتجاوزون للدنيتين للنفستين. ويضطر الأوروبيون إلى الإعانة لهذا المنع الذي تعلنه السلطات العثمانية رسمياً، في حالتهم (٣).

ويصير المصريون إلى الحجاز منتجات أوروبية (منسوجات) ومنتجات محلية (مؤن غذائية بشكل خاص)، مصحوبة بكميات مهمة من العملات النقدية. وهم يستوردون من الحجاز بن اليمن وتوابل وعقاقير متنوعة ومنسوجات وأرودة من الهند. ومن ثم فإن اقتصاد الحجاز يعتمد بشكل حيوي على اقتصاد مصر لكن التجارة المصرية تتفادى، بدورها، على نقل منتجات من البحر الأحمر إلى أوروبا وبقية الإمبراطورية العثمانية.

وترحل تجارة قوافل عبر الصحراء من خلال «طريق الأربعين يوماً» نحو نواكشوت وسنار. وهي تتألف بشكل خاص من استيراد منتجات القوقازية متنوعة (العبيد، الجمال، الصمغ، الجلود...)، وتصدير منسوجات ومصنوعات حرفية. وهي أقل أهمية بكثير من التوجهات التجارية الأخرى (٤).

وإذا كانت التجارة مع أوروبا مهمة (سُبح إجمالي تجارة مصر)، فإنها لا تمثل غير جزء صغير من التبادلات مع بقية العالم العثماني (نصف إجمالي تجارة مصر). واقتصاد - العالم العثماني ليس متفهماً بعد بالفعل في السوق العالمية التي تهيمن عليها أوروبا. وهذه التجارة يهيمن عليها أفراد غير منحصرين من سكان مصر الأصليين.

العلاقات مع أوروبا في أيدي الإيطاليين وخاصة الفرنسيين. والصلات مع المغرب يحتكرها مغاربة مقيمون في القاهرة وفي الإسكندرية (بوجه عام، يلعب المغاربة دوراً متزايداً في مصر في القرن الثامن عشر). والسوريون المسيحيون والمسلمون يسيطرون على التجارة مع سوريا الطبيعية (٥)، بينما يسيطر الأتراك على التجارة، جد المهمة، مع إسطنبول. وتجارة البن هي وحدها التي تظل مصرية بشكل لخص، وسوف يتعين الانتظار حتى نهاية القرن الثامن عشر لكي تشهد انفتاح السوريين للمسيحيين لها.

والحال أن وجود هذه العناصر غير المضمرة من صفوف سكان البلد الأصليين إنما يفسر الوجه الكوزموبوليتي والعثماني الخاص لمصر في القرن الثامن عشر كما يفسر صعوبة انبثاق هوية مصرية بشكل حقيقي.

التنظيم السياسي

إن ترامي أطراف المجال العثماني واستحقاق السيطرة على كل شيء من العاصمة قد فرضاً على الباب العالي ضرورة نزع مركزية السلطة. ومنح سلطة جد واسعة للوالى، الباشا - الحاكم للولاية، إنما يعنى السماح بالفعل بقدر كبير من إغرامات الانفصال السياسى. والحال أن أول والٍ عثماني على مصر قد تعمد، منذ عام ١٥٢٤، على السلطان معتمداً على المعاليك قبل أن يتم اغتياله في تمرد شعبي في السنة التالية. ويضطر العثمانيون إلى القيام بحملة جديدة على مصر وإلى إعادة تنظيم البنية المحلية للسلطة.

وتشير التجربة إلى أنه يتمين الحد من هامش سلطة كل جهاز من الأجهزة المحلية للدولة. وعندئذ فإن المسؤولين العثمانيين يمشون نظاماً مركباً من التوازن والكوابح المتبادلة، وهو نظام، بالرغم من اختلالاته، سوف يثبت لعاليته على مدار أكثر من قرنين.

وتصبح مصر التزاماً ضريبياً خفيفاً يديره الوالى، وهو يلشأ بحمل رتبة وزير، يتمين عليه أن يرسل سنوياً خزينة إلى الباب العالي (الإدارة المركزية العثمانية) وأن يلى بعدد معين من الراجيات للدولة عن السلطة المملوكية، كتنظيم قافلة الحج للقائمة من أريقتها وإمداد للبهنتين للقدسيتين في الحجاز بالمؤن. أما كبار الموظفين الآخرين فهم يمينون من قبل الباب العالي مباشرة ويصرفون في أن واحد على الوالى، الذى تعتبر مدة ولايته قصيرة الأجل، وأعمال زملائهم و، بوجه عام، على حسن تطبيق القوانين السلطانية.

ويقيم في البلد بشكل دائم عدد معين من فرق القوات المشاة (الإنكشارية خاصة)

والفرسان. وهذه الأوجاكت أو الليليشيات بحسب المصطلح الذي استخدمه الرحالة الأوروبيون، والمؤلفة من أنصوايين أو بلقانيين، هي وحدات عسكرية نظامية تحصل على رواتبها من الخزنة المحلية. وحيازة أى امتياز عروبى محظورة بشكل صارم على أفرادها. وفى حالة حرب كبرى، فإنها تخدم خارج مصر.

ويعهد بإدارة الأقاليم إلى الكُشاف (أربعة عشر كاشفاً فى القرن السادس عشر)، وهى وظيفة كانت موجودة بالفعل فى ظل النظام السابق، وهم يستقنون إلى حاشيتهم المؤلفة من ممالك. أما مصطلح السنديق بك، «الفارس القائد»، والذي يساوى مصطلح الأمير فى العربية، فهو مصطلح عروبى بشكل خالص ويستخدم فى الإشارة إلى أكثر الممالك أهمية. وتدرجياً، يجرى تجنيد الكُشاف من بين الممالك ويحملون رتبة السنديق بك، والتي تختصر إلى بك. ومن ثم فإن كل جماعات السلطة هذه ذات تجنيد مختلف وتراقب إحداها الأخرى، الأمر الذى لا بد له، بحسب تصورات الباب العلى، أن يحول دون أية محاولة للانفصال وأن يسمح بإدارة عائلة ومفيدة بالنسبة لجموع السكان. أما الجهاز الرئيسى فهو الديوان الذى يمثل فيه مختلف ضباط الميليشيات، وكبار موظفى الإدارة وكبار رجال الدين المسلمين فى القاهرة. ويدير ديوان مصفر الشئون الجارية.

الهياكل

قام نظام الممالك فى القرن الثالث عشر لمواجهة الخطر الذى شكله، بالنسبة للإسلام، المغول ثم الصليبيون. ويتعلق الأمر بالاضطلاح، إثر تجنيد بشرى حثيلى، بتأميل عبيد فتیان من أصل مسيحى، يجيئون غالباً من القوقاز، لكى يصبحوا محاربين محترفين ومنضبطين. والواقع أن النتيجة قد حققت التوقعات، ذلك أن للممالك قد صدوا للمغول. وأدزلوا الهزيمة بصليبيى القديس لويى، الذين كانوا قد انخرطوا فى حملة أولى على مصر وسوريا مستعمرات الفرنجة الأخيرة فى الأرض المقدسة. لكن هؤلاء العبيد قد استولوا أيضاً على الحكم ومع تأييدهم لنظام تجنيد العبيد شيعوا سلطنة هيمنت على مصر وسوريا على مدار نحو قرنين.

ولا يرى العثمانيون أية مشكلة فى تعدد هذا النظام شرط للتمكن من السيطرة عليه. ويصح وجود وحدات عسكرية أخرى ذات أصل غير عروبى بموازنة دور الممالك. وهكذا فإن الميليشيات والممالك يقدمون الموظفين الرئيسيين لإدارة مصر.

وفى العصر العثمانى، كانت غالبية الممالك منحدره من القوقاز، حيث كان

الشراكسة يتمتعون بالتقدير الأعلى. لكننا نجد بينهم منحدرين من الهللكان بل ومن أوروبا الغربية. بل إن بعض المصريين الأصلاء والعبيد السود يصبحون ممالك - وخلافا لما كان عليه الحال في العصور الوسطى - فإنه لا يبدو أنه قد حدث تنلمو بسبب الأصول الاثنى والعرقية.

وغالبا ما كان يتم تأهيل أولى في اسطنبول أو في أجزاء أخرى من الإمبراطورية، قبل الوصول إلى مصر. وفي العصور الوسطى، لم يك توسع أبناء الممالك اتخذ وطعية كإتاهم. وفي العصر العثماني، يصبح ذلك ممكنا وإن كان قليل الشهور، بينما تلعب الارتباطات الزوجية دوراً أهم. ويتأيد النظام عبر لجوء دائم إلى عبيد جدد. ولا يستشير ذلك أية صدمة لأن للتصور أن الإنارة السلطانية لا تتألف إلا من عبيد (الول) للسلطان، فيما عدا الهيئات القضائية الدينية كما هو واضح.

وبوجه عام فإن العبيد يباعون لمملوك محدد، عضو بيت مملوكي. وهم يتلقون تدريباً تأهلياً عسكرياً طويلاً يجعل منهم لرسائاً مرهوبى الجانب. ويتألف البيت للمملوكي من مجموعة من الممالك حول رئيس مؤسس (أمجاد، أب، مولى، سيد). وهؤلاء الممالك إما أنهم أحرار بالفعل أو ما يزالون عبيداً. ويترافق التحرير مع الصعود إلى وظيفة مهمة في الإنارة لكنه لا يلقى أواصر الولاء تجاه السيد السابق. وهذا الأخير محاط أيضاً بأخوية من الممالك المنبثقين من البيت نفسه ويواصلون ويدعمون مسيرته العملية (خُشداشية). والمملوك الذى يصل إلى أرفع مكانة، ينشئ بيته الخاص. وتؤدي روح التصيل إلى توحيد كل أفراد البيت الواحد وتدفعهم إلى ازدياد أفراد البيوت الأخرى (٦).

كما أن المعارنين الرئيسيين يرتبطون بسادتهم عبر أواصر زواجية، فهم يتزوجون لخت أو ابنة أو مطللة أو جارية سيدهم. وتشكل النساء للمملوكيات وسطاً على حدة لهن يتميزون بنسب الأصل الأثنى والعبدى. وبوجه عام فإن بنات الممالك يتزوجن ممالك. بل إن بعض النساء يلعبن دوراً بالغ الأهمية في السياسة المصرية.

وعلى الرغم من أن للممالك ليسوا مصريين من حيث أرومتهم، فهم الوحيدون الذين يحملون اسم «المصريين»، تحت شكل المصرية للتُرك المشتق من مصطلح مصر الذى يعنى في آن واحد مصر على اتساعها والقاهرة. ومعناه الأول على الأرجح هو «الحضري» وهو يتطابق مع مصطلح «العثماني»، أى عضو الطبقة الحاكمة. وفي تيار القرن الثامن عشر، يبدو من الواضح أن شكلاً معيناً من الوعي «المصري» يظهر في أوساط الأمراء الممالك الكبار.

المصطلح ٥٤٤

وأيًا كان الأمر، فإن أولئك الذين تسميهم بـ «المصريين الأصلاء» لا يشار إليهم بهذا الاسم. فالتمييز القوي، الضروري لتعريف الهوية، إنما يمر أولاً بالطريق الذي بين المسلمين وغير المسلمين. وبالنسبة للأقليات، فإن هذا التعريف كافٍ. وأيًا كان الأمر، فإن مصطلح القبطي يحيل بالفعل إلى مصر ما قبل الإسلام وقد استخدم في البداية للإشارة إلى مجموع للصوريين.

ولتسمية المسلمين للصوريين، يجرى استخدام عدة مصطلحات: لمصطلح «ابن الهلد» ضائع وضئيل الاتصال بمعناه، فهو يتطابق مع مصطلح «الأصيل»، ومصطلح «أولاد العرب» يحيل إلى خليط اثني عرقي الفتوحات العربية في القرون الأولى للإسلام. وهو أقرب إلى «المعربين» من «العرب». ويوجد هؤلاء الأخيرون في مصر على شكل البائل بدوية تنسب لنفسها عبر سلاسل نسب طويلة أصلاً يرجع إلى العرب الأوائل والحقيقيين في شبه الجزيرة للجاورة. وحتى اليوم، فإن كلمة «عربي» في اللهجة الشائعة في مصر تعني «البدوي» ولا تستثير توحداً تلقائياً معها من جانب المصري العادي.

ومصطلح «الفلاح» يستخدم استخفافاً تحقيراً ويستوعب أبرز المصريين بمن في ذلك رجال الدين الأشهر بعلمهم أو أحفاد النبي. وهو مصطلح لحتقار يستخدمه كبار الموظفين العثمانيين الذين لا يعرفون أنفسهم هم أنفسهم بأنهم «أتراك» والذين يسميهم المصريون على نحو بليغ الدلالة بالروميين^(٧) للتذكير بالخضوع المفروض على هؤلاء الرعيين من جانب السلطة المركزية^(٨). وهو يتطابق (مصطلح الفلاح - المترجم) مع مصطلح الرعية، أي ذلك الذي لا ينتمي إلى الطبقة الحاكمة. وهكذا فإننا نجد في مصر في القرن الثامن عشر جماعة من المالك نوى الأصل المصري وتلعب دوراً مهماً في السياسة المملوكية، تحمل بشكل له دلالة اسم جماعة الفلاح^(٩).

أما الأقباط، وهم مصريون مسيحيون قليلون بوحدة طبيعة المسيح، فهم الأحفاد للهاشرون أكثر من سواهم لمصريي العصر القديم. وهم معربون بالكامل على المستوى اللغوي منذ نهاية العصر المملوكي. ومن حيث كونهم جماعة سكانية فلاحية، فإننا لا نجد لهم إلا في مصر الوسطى بين بني سويف وجرجا، وذلك إثر تقلبات التاريخ. وهم لا يشكلون غير نسبة نحو ٧ في المائة من إجمالي سكان مصر. وفي القرن الثامن عشر، عرفت كنيسةهم انحطاطاً مادياً عميقاً، بعد الأسقفيات يقل؛ وقد تم هجر الأنيسة فيما عدا

استلذذات قليلة؛ ولا تجمع حملات عديدة من الأقطاب بكنائس. والآباء هائبون ومنما يوجعون، فإنهم يوجه علم جهلاء ومضعون. وقد قامت كنيسة روما القوية بعمل تبشيري موجه إلى مساعدة هؤلاء المسيحيين الشرقيين للتحقق سعيًا إلى إعلانهم إلى حظيرة الكاثوليكية. وإذا كانت المحاولات الرامية إلى توحيد الكنائس تفشل، فإن لشكال الولاء التي ولت في أوروبا من الإصلاح للضاد يجرى إنقاذها، بما يسمح بإحياء معين للأب العربي - المسيحي.

وهذا العمل يمس بشكل أساسي الأعيان المستنيرين لكنه لا يمس رجال الدين والجمهير الشعبية القبطية المتعلقة بالطقوس، للآذ الأخير نوعي الانتماء إلى جماعة متميزة. هؤلاء الأعيان الحضريون يشكلون جماعة الأمناء المسئولين عن الضرائب وعن إيرادات الدولة والالتزامات الضريبية، بما يشكل تخصصًا طائفيًا حقيقيًا لأن الأقطاب دائمًا هم الذين يتولون على المستوى الأدنى للإدارة الضريبية مهمة أعمال مسك الدفاتر الحسابية والكتابة، والحال أن ثقل الأعيان في الطائفة يعتبر بالغ الأهمية بحيث أن وضع الهيراركية الكنسية يخط بشكل متواصل. والواقع أن الأعيان المنفتحين نسبيًا على الغرب بفضل المبشرين ولعمية التعليم في عملهم، إنما يلعبون دورًا أساسيًا في إدارة مصر العثمانية (١٠).

تحويلات القرنين السابع عشر والثامن عشر التحويلات السياسية

لا يعمل النظام العثماني بشكل دقيق إلا لهضمة عقود. وهو يتأسس على المبدأ المزدوج للسلطات وعلى تهميشها قياسًا إلى المجتمع. وواقع أن تجنيد وتمويل الطبقة الحاكمة يجب أن يمتا دون علاقة مباشرة مع الجماعات الاجتماعية المختلفة إنما يشكل ضمانًا حماية متساوية بالنسبة للجميع.

على أن العسكريين يندمجون بسرعة بالغة في المجتمع. ومنذ أواخر القرن السادس عشر، يدخل المصاليك في الميليشيات وينتخون بنفوذ البيوت المملوكية على السلطة النظرية للضادة لهم. وهذه الميليشيات نفسها، بدلا من أن تجرى تجنيدها خارج مصر، إنما تفتح صلوفاها لأرسلات التجار والحرفيين الحضريين. والحال أن الانتماء إلى قوة ميليشيا

إنما يؤول إلى ضمان دخل منتظم وإلى الاستفادة من شكل معين من أشكال الحماية. وفي المقابل، فإن رجال الميليشيا يريدون في المطالبة بطرح تصحيحات مالية على النشاطات الاقتصادية الحضرية. وهذه العملية تعود الظهور في مجمل الإمبراطورية العثمانية، وذلك بقدر ما إن من الصحيح أن تطور مصر يتبع تطور البلدان العثمانية الأخرى.

وتتمثل ظاهرة أكثر أهمية أيضاً في أن سلطة الوالي العثماني تأخذ في الانحطاط. فالمعسكريون يشعرون أنهم جد اقوياء بحيث يمكنهم تنمية الباشاوات عن مناصبهم وتعيين مسئول كبير من صفوفهم ليتولى مهام الحكم للوقت، إلى حين إرسال الباب العالي والياً جديداً إلى مصر. وقد حدثت أول تنحية في عام ١٥٨٦.

ويسمح ضياع سلطة الوالي بإعادة توزيع الالتزامات الضريبية الحضرية والريفية لحساب الطبقة الحاكمة المحلية وعلى حساب الإيرادات الإمبراطورية ودافعي الضرائب. ويستمر إرسال الخزينة إلى القسطنطينية، ولكن مع الحفاظ على قيمتها الاسمية في فترة تضخم لسعار واضحة. وسعياً إلى تجنب تدفق جديد لسلطته، يتجه الباب العالي من جهته إلى زيادة حدة التناقضات الداخلية. والجانب الرئيسي من نشاط الباشاوات، للمجردين من بقية سلطاتهم، إنما يتمثل في صون روح الفصيل لدى الطبقة الحاكمة. وتشغل جميع المحاولات الرامية إلى قطع شوط أبعد في تعزيز مرجعية السلطة للركزية.

والواقع أن هذه الصراعات تعتبر بالغة العنف بقدر ما إن رهنتها هو إعادة توزيع الإيرادات الضريبية. والسلطة القائمة تنقسم إلى مجموعات، إلى أحزاب يوحد كل منها بكوات ماليك وميليشيات بل وأنصاراً حضريين وأحلافاً بدوية. وخلال القرن السابع عشر، تشهد هذه الصراعات غلبة البكوات للتغلبة، ثم، في أواخر القرن، غلبة ميليشيا الأنكشارية. واعتباراً من عام ١٧١١، يستعيد البكوات تدريجياً هيمنتهم. والواقع أن للماليك كانوا يسيرونهم إلى إعادة توحيد الطبقة الحاكمة باحتكارهم لحسابهم جميع للمناصب الرسمية، في الإدارة كما في الميليشيات على حد سواء.

والحال أن الانحطاط الحاسم لقوة الميليشيات، التي تحولت في أواخر القرن الثامن عشر إلى قوات شرطة مالية وأصبحت تحت سيطرة الماليك للحكمة، إنما يعد بالغ الضرر بالنسبة للحرفيين وللتجار الحضريين. وهذه المهنة، للوظيفة تأطيراً واسعاً عن طريق نظم طوائف كايك يكتف للذاتية ويبدو معانها لكل روح تجديدية، كانت، في آن واحد، مستغلة بشكل جيد نسبياً من جانبها، في الوقت نفسه. أما البكوات للماليك لهم يبدون أكثر

جسماً بقدر ما أنهم، خلافاً لوجهال المياليهيا المصرون، يعتبرون معزولين تماماً من السكان الحضريين. وفي أعقاب تنظيم اجتماعى سياسى مفتوح نصيباً بحىء نظام مطلق لا يزدى فيه أى شىء بعد إلى تخفيف حرامة استقلال الرهايا من جانب حكاهم الجدد. (١١)

الاقتصاد

هذا التحول السياسى معاصر لتطور بالغ الخطورة بالنسبة للاقتصاد المصرى. فلو اتع أن التغفل الاقتصادى الأوروبى يبدأ فى ممارسة آثاره على التجارة والإنتاج الحرفى للبلد.

إن اقتصاد - العلم العثمانى ينشطر. فالبن، المنتوج الرئيسى البديل لتجارة التوابل التى عرفتها المصور الوسطى، يجد نفسه محل منافسة فى الأسواق الأوروبية من جانب بن جزر الأنتيل الذى تبعاً زراعته فى تلك الجزر اعتباراً من عام ١٧٢٦، وهو، بفضل نظام الزراعة، ينتج بتكلفة أقل وبكميات أضخم. ومنذ عام ١٧٢٠، يجرى إدخال هذا البن الجديد إلى أوروبا، وسرعان ما يتجه العثمانيون إلى استيراده بينما يتجه المصريون أنفسهم إلى استهلاكه. والنتيجة أن تجارة البن الكبرى تدخل فى انحطاط، وهو عين ما يحدث لتجارة الأقمشة الهندية عن طريق البحر الأحمر. فالكميات تنخفض بشكل ملحوظ بسبب تزايد حظر الأوروبية ومنافسة المنتجات الأوروبية.

ويشهد إنتاج السكر تطوراً مماثلاً فى وجه منافسة الجزر الأمريكية. ويتراجع السكر المصرى فى جميع أسواقه المعتادة وينهار نشاط أسلسى للصناعة التقليدية المصرية. وتنحط تجارة وحرف المنسوجات المصرية فى الفترة نفسها. فالمنتجات الأوروبية وأسابعاً الفرنسية تحمل محلها جزئياً فى السوق العثمانية وفى مصر نفسها. وتعتبر النتائج جد سلبية بالنسبة للأوساط الحضرية المصرية (١٢)، لكن جماعات أخرى تلهد من هذا التطور.

وهكذا فإن بورجوازية من المسيحيين السوريين، من الكاثوليك اليونانيين أساساً (من اللة الأرثوذكسية وإن كانت عربية الأصل)، تترى عن طريق دورها كوسيط وتصبح إحدى القوى الصاعدة فى المجتمع المصرى. وهذه الطائفة حديثة النشأة. ويرجع أصلها إلى المدن التجارية الكبرى فى أعماق سوريا، دمشق وحلب، لكنها تتطور مع نمو المدن الساحلية فى سوريا ومصر والموتيط بالتجارة مع أوروبا. والحال أن تحول العرب

الأرثوذكس إلى الكاثوليكية، في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، إنما يجد تفسيره في الحاجة إلى تأكيد درجة من الاستقلال المحلي تجاه الكنيسة الأرثوذكسية التي يهيمن عليها رجال دين من أصل إثنى يوناني، على ارتباط وثيق بهيكلية القسطنطينية والتي تمثل الرீثا كنسياً للسلطة المركزية التي يمثلها الباب العالي. ويرمز (هذا التحول - للترجم) أيضاً إلى رغبة في التقارب مع أوروبا الكاثوليكية المطلّة على البحر المتوسط. ومن جهة أخرى، فإنه إذا كانت روما تدعم الانشقاق من خلال مبشرينها، فإن فرنسا تعد معادية له بسبب التعهيدات الديبلوماسية التي يخلقها لحيثياتها الدينية وبسبب المنافسة التجارية التي يمكن أن تتسبب لها فيها الشبكة الكاثوليكية اليونانية في موانئ شرق البحر المتوسط. على أن النشاط التجاري للكاثوليك اليونانيين غالباً ما أصبح مكملاً لنشاط التجار الإفرنج (الفرنسيين - للترجم). وفي مصر، حصل عندهم إلى نحو أربعة آلاف يقيمون في القاهرة والإسكندرية وخلصه بمياط، مبداء العلاقات مع سوريا.

والباب العالي لا يعترف رسمياً بهذه الطائفة الجديدة التي تضعف الكنيسة الأرثوذكسية، إحدى الروافع الأساسية للإدارة المركزية للإمبراطورية. ثم إن الكاثوليك اليونانيين يتضامنون مع نزعات الاستقلال المحلية. كما أنهم يدخلون في تنافس مع الشبكة اليهودية التي تمتد إلى القسطنطينية في حين أن هيكلتهم تقتصر على الشرق الأدنى. وهناك الصراع هو الإدارة المالية لأشياء الدول (شبه المستقلة - للترجم). وفي عكا كما في مصر، ينجحون في الحلول محل اليهود في إدارة الجمارك وفي وظيفة ممولى السلطات شبه المستقلة. ويكمن مفتاح نجاحهم في كفاءتهم التقنية وتضامن جماعتهم كما يكمن في تبعيتهم الوثيقة تجاه المحاكم المحليين. ولما كانوا يدينون بكل شيء للسيد المحلي، فإنهم لا يخافون بالخيانة.

ويؤدى الانشقاق الباهوى إلى إنشاء جماعة من رجال الدين العرب بشكل خالص والمنفصلين عن النفوذ اليوناني. وفي التسميات المحلية، غالباً ما يسمى أفراد الطائفة الجديدة بأولاد العرب بدلا من الروم. ويوجد هذا الإحياء العربى في الإبداع الأدبى والثقافى الذى يلهمونه فى اللغة العربية والذى يستشرف النهضة. الحركة الكبرى للتجديد الأدبى العربى فى القرن التالى والتي تبشر بالعروبة. ومع ارتباطهم بأوروبا وانفتاحهم عليها، فإن الكاثوليك اليونانيين يشكلون أحد أهم عوامل تجديد الشرق الأدنى (١٢).

ويؤدى انحطاط السلطة العثمانية والتدخل الاقتصادى الأوروبى إلى تعديل هياكل الإنتاج الزراعى بشكل ملحوظ (١٤).

الأوصاف

في القرن الثامن عشر، نجد أنفسنا في المرحلة النهائية لنظام الزراعة للرؤس على فرشة الفيضان النيل. لكل فيضان يفيض على مختلف النهر أثقل الجزئيات التي يحملها الماء. ومن ثم، فإن النهر يصبح مؤطراً بهطانتين غرينيتين تصيحان، بفضل الجهد البشري، سدين شطيين عظيمين أعلى من أعلى مستوى مياه الفيضان، في حين أن السهل التحتي يبدو منخفضاً بشكل انسيابي حتى بداية النجد الصحراوي حيث تترسب المياه الأكثر صلابة.

ومنذ العصر الفرعوني، كانت الأرض الزراعية المصرية تدار عبر سلسلة من لحواض فرشة الفيضان التي تقضى بقنوات تبعاً لاتحاد الوادي. وهذا الفيضان نحو منعطف الصيف وينفتح السد الشطى نحو منتصف المسطس. وكانت الأحواض تملأ بالتدالي من الأقرب إلى النهر إلى الأبعد.

وفي العصر الوسيط، حسن العرب النظام بتوسيع طرائق رفع المياه في مصر السفلى حيث كان ارتفاع الفيضان اضعف بكثير مما في مصر العليا. ومنذ ذلك الحين، ظلت مصر العليا في ظل استغلال جماعي من جانب الجماعة القروية مع دفع ضرائب معينة بينما عرفت مصر السفلى عملية فريدة لقطع الأرض في إطار الاستغلال العائلي والمخول في مجال الاقتصاد النقدي.

والحال أن الخيار الذي اتخذه العثمانيون في القرن السادس عشر باستغلال مصر إنلياً من طريق الالتزام الضريبي قد أدى إلى نظام الالتزام. فشريعة الدرع المقدم لضريبة (مهرى) واجبة السداد للدولة، وحصل الملتزم، الحاصل على الامتياز الضريبي، على حق الانتفاع بجزء من الأملاك العامة. وهو يلتزم بجباية المهرى من الفلاحين وبرعاية السدود والقنوات. ويتولى تحصيل إيراده هو الفاضل، ثمناً لخدماته.

ويغطي الالتزام قرية أو عدة قرى. وهو ينقسم، من جهة، إلى الأراضي الزراعية (ملاح) التي تلتج الضريبة وتتولى أعمال السخرة، ومن جهة أخرى، الأراضي المخصصة للملتزم، أراضي الرسمية، وهي الأفضل عموماً. وفي أغلب الأحوال يتولى الملتزم استغلالها عن طريق عمل مقابل أجور أو من طريق تأجيرها. ومن الناحية النظرية، فإن الأراضي المخصصة للملتزم (لوسية) تشكل الجانب الرئيسي من الفاضل.

والحال أن الملتزم، للقيام بوجه عام في المدينة، يقسم التزامه إلى قطع تشمل نوصى الأرض (أرض الفلاح وأرض الوسية) ويعهد بهما إلى أهم فلاح في الجماعة القروية، وهو شيخ البلد (رئيس القرية). وهذا الأخير هو الشخصية الأهم في العالم الفلاحي لأنه يقسم ويجمع الضرائب ويتولى مهمل نظام استغلال الأرض الزراعية القروية (١٥). ومن ثم فإن الدولة ليست لها اتصالات مباشرة مع العالم الفلاحي. وشيخ البلد يمثلها في الساحة، لكن الملتزم يتوسط بالكامل بينه وبينه النظام الإداري.

وفي القرن الثامن عشر، يتحول الالتزام من التزام ضريبي مؤقت بسيط إلى شبه ملكية خالصة لحساب الملتزم. ويفضل حيل قانونية، يصبح قابلاً للتوريث، وقابلاً للرهن بل وقابلاً للبيع. ثم إن الملتزم يزيد الحيل التي تسمح له بزيادة حصته على حساب الأراضي الفلاحية ويختلق ضرائب جديدة تنبئ بكلئها على الفلاح. ومن القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، تزيد غلة الضرائب المفروضة على الفلاحين أربعة أضعاف. ولا تحصل الدولة منها إلا على ثلث (١٦).

ويتعزز العبء الضريبي الإضافي على الفلاحين من جراء الاتاوات التي يُلغونها البدو المجاورون عليهم لوضاً تعسفاً. وهؤلاء البدو يهيمنون بشكل خاص في مصر العليا وعلى تخوم النيل، وهم يفرضون على الفلاحين التمسك لتارات حماية بأهظة.

إلا أنه لا يجب لنا أن نستنتج من ذلك أن القرى المصرية، على الأقل قرى مصر السفلى، تجد نفسها خارج اقتصاد التبادل وأنها في حالة اكتفاء وعزلة. على العكس، فالريف المصري يرتبط بالمدن من طريق شبكة من الأسواق الدورية في المدن والقرى (١٧). كما أن الأوساط الحضرية تلعب مبالغ ملحوظة للفلاحين مقدماً مقابل للمحاصيل.

والانتقال الواسع للثروات يسمح بتمايز معين للمجتمع الفلاحي إلى منتفعين كبار ومتوسطين وصغار وأناس محرومين من الأرض، كما يسمح بصوق حقيقية للانتفاع الفلاحي الذي يصبح هو أيضاً شكلاً من أشكال الملكية (١٨). وهذا الوضع يسمح بتعزيز دور مشايخ البلد الذين هم في آن واحد رؤساء شبه وراثيين للجماعات الفلاحية ومنتفعون بأهم الاستثمارات الزراعية ووكلاء للطبقة للسيطرة. ويورهم الإداري يعزز سلطتهم كما يعزز دخولهم، للزلفة أساساً من حصانات ضريبية مهمة. ومن الواضح أن العلاقات الزوجية تعزز تلاحم هذه الجماعة الاجتماعية التي تعزز السلطة الفعلية في الأرياف (١٩).

وتساعد فئة مشايخ العرب الاجتماعية على توسيع فئة مشايخ البلد. وتتكلف الفئة

الأولى من شيوخ من أصل يهودى يتفخرون بنسب عرس يرجع إلى شبه الجزيرة العربية. وهم يقيمون في قرى اليهود المستقرين خاصة في مصر العليا والوسطى. وغالباً ما يختصب أمم مهاجر البلد صفة شيخ العرب. وهذا الأخير يتزعم عمومًا قرية توية تجمع انتلافات من اليهود والفلاحين. وهو يمارس دوراً شبيهاً بدور شيخ البلد، لكنه خلافاً له، يستطيع أن يضيف إلى هذه الصفة صفة الملتزم. وكل هذه الخصائص تمنحه قوة محلية مظمى قياساً إلى السلطات العامة وذلك بقدر ما أنه، خلافاً للملتزمين الآخرين، يقيم في الأرياف وليس في المدن (٢٠). وهذا التدخل اليهودي - الفلاحى يعود إلى حروب بين القرى، سعيًا للاستيلاء على الأرض، وخاصة للياه. وتسمى كل قرية إلى أن تدير لحسابها لقرب جزء إليها من نظام القرى، وذلك على حساب المصالح العلم كما هو واضح. وما أن ننحط مرجعية السلطة للركزية، حتى يتوقف المنطق العام لنظام القرى عن أن يكون محل مراعاة. وفي المقابل، فإن هذا التدخل يسمح للسلطات المحلية بالتصدي على نحو فعال لتعديلات للمالك. وعندئذ فإن جهاية الضرائب من جانب السلطة المركزية لا تتم إلا عبر مفاوضات، وهي ظاهرة واضحة بشكل خاص في الجزء الشرقى من الدلتا.

على أن العلاقة بين الفلاحين واليهود إنما تنهض، بوجه عام، على حساب الفلاح. والد رسم لنا جومار منها لوحة جد كالمة، وإن عدد المضائق والأوزار الصغيرة التي يرتكبوها [العرب] يفرق للتصور؛ وعلى سبيل المثال، ففي أسواق القرية، حيث يتجمع الناس لبيع الموالى والأبلح والذرة والخبز... إلخ، يتمتعون بكل ميزة عصبينهم، ويهيمنون بسهولة على الجمع. ولا يمكن لك أن تجد فلاحاً يملك الجرة على منازعتهم في أى شيء أو على الامتناع عن تقديم سلعته إليهم بالسعر الذى يحدونه. والشومة التي يفرزها العربى برفاحة إلى جانبه في قلب السوق، يبدو أنها تقول: أنا الذى أفرز القانون هنا.

إن أعمال السلب والعنف على حساب الفلاحين جد متكررة ومتواترة وهي لا تتعرض للعقاب البتة. وتراجع للماحيل بسبب تعديلات اليهود (٢١).

وانعلم الاستقرار السياسى في الربع الأخير من القرن الثامن عشر يجد ترجمة له في تدميرات دورية للأرياف من جانب الأحزاب للموكية للتخلفسة ومن جراء تفاقم غارات البدو للمستفيدين من فترات انعدام الأمن. كما أن لويته الطاهون والجهري والأمراض للمعوية تنزل كوارث رهبة بمجموع السكان. والنتيجة هي ثبات لسكان مصر حول أربعة ملايين وخمسمائة ألف نسمة وتراجع للماحيل قياساً إلى عصور سابقة معينة. (٢٢)

الاستثمار الريفي والروح الجديدة

إن الالتزامات الريفية هي أساس القوة الاقتصادية للمعاليك. وهم يسيطرون على نحو ثلثها. أما الالتزامات الأخرى فيحوزها كبار القادة الدينيين وكبار التجار المصريين، لكن للملتزمين غير المعاليك يعانون في أواخر القرن من تعديات كثيرة يفرضها البكوات على الأرياف، وقيمة التزامهم تصل إلى القصور.

ويرمز انتصار المعاليك على الميليشيات الحضرية في منتصف القرن إلى انتصار الاستغلال الريفي الزائد على علاقات الاستغلال المعتدل للأوجهات. كما أن الارتفاع السريع للضرائب المفروضة على الأوساط الحضرية يشير إلى تراجع للاستغلال الحضري مع الاستغلال الريفي. كما يمكن تفسيره على أنه انعكاس للاقتصاد الحضري لحساب الاقتصاد الريفي.

وبدأت التقليل الاقتصادي الأوربي غير مواتية للعالم الحضري، لكنها تجعل الاستثمار الريفي أكثر جاذبية. وتشير خصخصة الالتزام إلى ذلك بشكل واضح. وتبدأ السوق الأوروبية في طلب مواد أولية زراعية، كالقطن، وبلغ غلاتها. وفي حين أن أسعار السلع المصنعة تظل مستقرة من حيث القيمة الثابتة بسبب المنافسة الأوروبية، فإن المنتجات الزراعية تشهد ارتفاعاً مماثلاً لارتفاع المنتجات الأوروبية (٢٣).

ويتفكك اقتصاد - العالم العثماني لصالح البناء البطيء لهيكل جديد لمباشرة للوارد الأولية للشرقية بالمنتجات المصنعة الأوروبية والتي تصاحبها غلبة على التباين العثماني الداخلي، لعلاقات مباشرة بين كل جزء من أجزاء العالم العثماني وأوروبا.

وهذا التطور الذي يبدأ في أواخر القرن الثامن عشر لن ينجز إلا في النصف الثاني من القرن التالي. وفي مصر نهاية القرن الثامن عشر، تتواجد هذه العملية في إرساء وفي توسيع تقنيات زراعية جديدة، خاصة في الإقليم الشمالي للبلد، بشكل كـ ذلك قرب مرفأى بحياط ورشيد كما في إقليم المنصورة. وفي هذا الجزء من مصر السلس (٢٤)، فإن مستوى مياه النيل المنخفضة يتطابق مع مستوى السهل الخريفي.

وهذا الوضع يسمح بإيجاد رى دائم لا يعود بحاجة إلى فيضان النيل ويعود إلى استغلال مكثف للأرض دون أية إراحة لها. وهذه الثورة الزراعية ترتبط على نحو مباشر بتوسيع زراعة الأرز (٢٥)، لكن هذا الأخير يزدح في تفاوت مع الحبوب والخضروات (٢٦).

ولا يمكن لنا أن نحدد بدقة لحظة ظهور الأسلوب الجديد للرى. والأرجح أنه يرجع

إلى العقود الأخيرة للسلطنة المملوكية، لكن توسعه وخصبطه النهمي يصبحان كنهين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. والحال أن إدخال الري الدائم بشكل تحولاً أساسياً سوف يمتد، بفضل نظام السندود، إلى مجمل مصر السفلى في القرن التاسع عشر وإلى الوادي بأكمله في القرن العشرين. وهذا التحول الرثيمى الأساسى بالقياس إلى النظام للورود، من الفرامنة، إنما يستلزم الطلب للتزايد السوق العثمانية والسوق الأوروبية بالفعل (٢٧). إلا أنه يظل في منتهى كما في تطبيقه من فعل للمجتمع المصري، فهو يرتبط بإملاء استثمار رؤوس الأموال الحضرية في الريف المصري (٢٨).

ومن الواضح أن مصر في القرن الثامن عشر، تتحرك بالفعل، ولكن ليس في الاتجاه الذى يتخيله الثوار الفرنسيون.

ملك بك ومصر وإنشاء المملوكية المحيطة

ملك بك

إن صعود للملك في اتجاه السلطة هو حركة طويلة الأمد. وهو يتخذ طابعاً ملموساً نحو عام ١٧٢٠ عبر ظهور وظيفة جديدة في الهيراركية للمملوكية، هي وظيفة شريف البلد، السيد للبلاد (هنا لا تعني البلد القرية بل مصر كلها). وهذه الوظيفة يعهد بها إلى أهم زعيم مملوكي، التزاميم الذي يتجج في لومس سلطته على البيوت الآخرين. والحال أن شخصية غير عادية سوف تنجز هذا التطور بإنشاء ما يمكن للمؤرخين تسميته بالنبوة للمملوكية الجديدة. إنه على بك الكبير (الكبير سنًا). وهو ينحدر من بيت مملوكي، بيت القازينلية (من اسم مؤسسه مصطفى كَتَخَا القازينغلي، الذي مات نحو ١٧٠٢ - ١٧٠٤). وهذا البيت، في النظام السياسي، يستفيد من النزاعات التي تستند البيوت الأخرى ويصبح في أربعينيات القرن الثامن عشر البيت للهيمن (٢٩).

ويخطر على بك الخطوات العنيفة لملوك. وفي عام ١٧٦٠ يصبح شيفاً للبلد. ونحو ذلك التاريخ، يحصل على مملوك شاب، محمد، أبو الذهب فيما بعد، الذي يرفع بسرعة إلى وظائف مهمة. وفي عام ١٧٦٤، يجري التصريح لهذا الأخير بإطلاق لقبه، رمز الإعتاق، ويعد نفسه وقد صعد إلى رتبة قلبك ذات الاعتبار. وبدلاً من القيام بفعل السفاه للعتاد المتمثل في توزيع قطع من الفضة على الجمهور خلال الاحتفال، يستعير منها محمد بك بقطع من الذهب، ومن هنا لقبه، أبو الذهب.

وعلى بك رجل طموح وله أعداء كثيرون. وخلق بكوات جدد هو بالنسبة له وسيلة لتعزيز سلطته. وهو يشرع في تحويل بيته إلى أهم بيت بين جميع البيوت للمملوكية. وفي عام ١٧٦٦، يضم هذا البيت ثلاثة آلاف مملوك من مملوك مصر الذين يصل عددهم إلى عشرة آلاف. ولا بد من توافر الفرق كبير من المال لإعاشة مثل هذا الجيش الشخصي الخاص. ويعد على بك التمويل اللازم بزيادة الضرائب غير العادية وفير المشروعة المفروضة على التجار اليهود أو للمسيحيين أو الأجانب، «الأتاوات»، وبزيادة التعصبات والمظالم المفروضة على الأوساط الحضرية للسلطة.

وفي عام ١٧٦٦. بعد فترة غلى قصيرة إلى سوريا من جراء مسائل الوالي

العثماني، يرجع على بك إلى مصر عازماً على الاستيلاء على السلطة للطلقة. ومنذ لواخر عام ١٧٦٧ وحتى عام ١٧٧٠، يتمكن، عبر القتل أو التلوي، من القضاء على جميع الممالك للهمين الذين لا ينتمون إلى بيته. ولأول مرة، تتركز قوة الممالك في بيت واحد تمت زعملة زعيم طموح وليس في عدة بيوت منشغلة بالتنازع فيما بينها. ويجري اختزال ميليشيات للشاة المختلفة لاختزالاً حاسماً إلى مستوى قوات شرطة هادية (٢٠).

واعتباراً من عام ١٧٧٠، فإن توازن السلطات، للبدأ الرئيسي للسياسة العثمانية، لا يعود له وجود في مصر. وتلاحظ الظاهرة نفسها في مهمل الإمبراطورية حيث تبدأ أشباه بول حليفية في الظهور في أفريقيا كما في آسيا وفي أوروبا.

والحال أن أحد صحابة (خُصّاشية) على بك، أحمد الجزار (الذي يبدو أنه حمل هذا اللقب بسبب وحشية)، وهو مملوك من أصل بوسني، يرفض للمشاركة في نهج لصيقائه، وذلك بالرغم من أن على بك كان قد رفعه إلى سنة البكوية. وإذا يتحسس نحو انتقام على بك، فإنه ينجح في الهرب في الوقت المناسب إلى الإسكندرية ثم إلى القسطنطينية حيث يدخل في خدمة الباب العالي. ويترك هذا الأخير أهمية استخدام هذه الشخصية القوية لإخضاع سوريا الثائرة. وهكذا يبدأ أحمد باشا الجزار مهمته الصورية التي سوف تقوده إلى التصدي ليهوديات أمام عكا. وفي السنة نفسها (١٧٦٨)، يشتري أبو الذهب لبيته مراد الشهاب الذي يجري تصعيده على الفور تقريباً إلى رتبة البك.

إحياء المأزجات في مصر

يطرح على بك، سيد القاهرة، في إخماد الفتن في مصر. وهو يصطدم بالتحالفات البهوية الثوية. وفي مصر السفلى، ينهيا تحالف نصف صعد لتمرد في ناحية البحيرة بتحريض من الجزار الذي قِيمَ صراً من سوريا. وعن طريق التمع، ينتج إسماعيل بك، أحد مساعدي على بك، في إرهاب بقو مصر السفلى الذين سوف يعتصمون بالمسكنة في الأوامر التالية.

وفي مصر العليا، كان تحالف الهوارة القوي تمت قيادة الطيخ همام قد شكل بولة مستقلة حليفية تستند بشكل خاص إلى محصول قصب السكر. وكان اليهود قد تجاوزوا مرحلة الذهب صعباً إلى مرحلة الزراعة التجارية. وفي عام ١٧٦٩، يقضي أبو الذهب على

سلطة الهوارة. ويتمثل واقع جدير بالانتباه في أن جهته، إلى جانب للمالك التقليديين، يضم قوات تحصل على رواتب مؤلفة من مغاربة وإبانيين ومثاول (شعبة من جنوب لبنان الحالي) بل ومن مسيحيين سوريين. وهو ما يعنى أن على بك يبدأ في استهداف سوريا وفي تنفيذ سياسة مسيحية حقيقية. وكما هو شأن حرب للمالك، فإن النشائس والمفاوضات تلعب دوراً أعظم من الصدام المباشر. والحال أن إصفاة فتح مصر العليا إنما تتم أساساً عن طريق تفكيك التحالفات المحلية إلى جماعات مختلة.

ويصبح إخلاء الفتق في مصر انقلاحة كبرى للسكان الفلاحين الذين يتخلصون من جانب من الاضطهاد البدوي. لكن سياسة سيد مصر التوسعية تستتبع ثقلات باهظة ومن ثم تعزيزاً لزيادة العبء الضريبي على المدن والأرياف.

والواقع أن نزاع السلطة العثمانية في مصر يتحقق في اللحظة التي تجد فيها الإمبراطورية نفسها مواجهة بأول امتحان رئيسي لقدرتها على البقاء الحرب مع روسيا كاترين الثانية التي تبدأ في عام ١٧٦٨.

وفي البداية، يبدو على بك متصاعاً إذ يرسل وحدات الجيش التي يطلبها الباب العالي. وما يهمه بشكل خاص هو تجارة البحر الأحمر، فهو يرى فيها وسيلة تمويل تكوين قوات مسلحة قوية ضرورية لحسن سلطته. وتتكلف حاشيته في جانب منها من تجار لوردوبيين كالتاجر البندقى كارلو روزيتي، ومن مسيحيين الباط متخصصين في للشئون المالية ومن مسيحيين سوريين مهتمين على نحو متزايد بتجارة بن البحر الأحمر. ويرى مجمل هذا الفريق أن من الضروري إعانة فتح طريق البحر الأحمر أمام التجارة الدولية الكبرى. وفي فرنسا وفي إنجلترا، يتجمع تجار وقناصل لتكوين جماعة ضغط تهدف إلى دفع حكوماتها أيضاً في هذا الاتجاه وذلك بالرغم من امتيازات الشركات الاحتكارية التي تباشر تجارة الهند وبالرغم من العقوبة الحازمة التي يبدونها الباب العالي الذي لا يريد السماع عن وجود سفن لوردوبية على مقربة من المدينتين المقدستين في الحجاز (٢١).

والحال أن نزاعاً على وراثته الإمارة في صفوف الأسرة الشريفة (المنتسبة إلى النبي) التي تحوز إمارة مكة تحت السلطة الاسمية للإمبراطورية العثمانية، سوف يكون ذريعة للتدخل المملوكي. والباب العالي نفسه هو الذي يطلب إلى على بك تأمين صعود المرشح الذي تدعمه إسطنبول. ويؤود أبو الذهب قوة الحملة التي تحتل الحجاز خلال صيف

١٧٧٠. وتذكر بعض المصادر الأوروبية أن علي بك حصل عندئذ من الشريف مكة على لقب سلطان مصر. بما يعيد دولة المماليك التي مر عليها العصر الرسيط. ويبدو لك قليل الرجحان، لكن انتشار هذه الشهادة يشير إلى الأهمية التي اكتسبها عمل سيد مصر. بل إن الأمر سوف يصل به إلى حد حروب العملة في مصر باسمه إلى جانب اسم سلطان القسطنطينية.

بيان علي بك

في أواخر عام ١٧٧٠، يخطوط علي بك في مشروع لومع بكثير، فتح فلسطين وسوريا. وهو يتمتع هناك منذ وقت طويل بحليف مضمون، ضاهر العمر الزيداني، سيد مكا. وسعيًا إلى تبرير مسلكه، فإنه يفتح ديوان القاهرة إلى توجيه بيان إلى سكان سوريا. وهذا النص، الذي أوردته وأصف القندي، للتؤرخ الرسمي للباب العالي، في حولياته، يمكن اعتباره أفضل مثال للوظائف السياسية العثمانية في ذلك العصر: «صدر هذا فرمان الجليل الشأن من ديوان مصر المحروسة العالي، بامت له للفاخر والعالي، بأمر من من به الكريم للنان على أهل هذا الزمان، فأنظر العمل والأمان، وهم بالفضل والإحسان جميع أهل القرى والبلدان، ورغم أنوف أهل الجور والظلمة؛ أمير الأمراء الكرام، كبير الكبراء العظام، المختص بمزيد عناية لذلك العلام، أمير اللواء الشريف السلطاني، والعلم للضيف الخاقاني، الأمير علي بك أمير الحج سابقًا وقائم مقام بمصر المحروسة حالاً بام مره ويقاضه أمين.

المضمون حمد لبارئ النعم ومحبي النعم. الذي قدس وعظم قدر الحرم وبارك حوله بجزيل النعم، وأمر بالعمل في سائر الأمم، وأوعد الظلم بالهلاك والنقم، القائل في كتابه للبين، والله لا يحب الظالمين، أن الله لا يصلح عمل للفسدين [...]

«وبعد مزيد السلام والتحيات، ونوامي الأمن والبركات وجزيل النعم والخيرات في سائر الأوقات والساعات إلى حضرات العلماء العاملين، والفقهاء المحققين للفتين بشرية سيد الأنام، وفضيلة الإسلام، وأرباب المناصب والحكام، والأكابر والأعيان الكرام، والخواص والعوام من أهل مدينة دمشق الشام، أمرهم الله بنور العمل وأحكامه وأجارهم من الظلم وظلامه وعاملهم بالطاعة وإكرامه، وقاض عليهم جزيل إنعامه أمين

والذي يحيط به كريم علمكم وسليم فهمكم أن الأمة لا تجتمع على الضلالة. وقد علمتم ما فعله عثمان بأهلها في أرضكم وإلى غيرها من الظلم والجهالة، وأنه قد تعرض للحجاج والزوار وسلط عليهم الأشرار والقجار بالآنية والأهوار وظلم المسافرين والتجار، ولأدى أهل الأماكن الشريفة وعمل أمن الحرميين الشريفين بالخيلة، وتعدي على حدود الدين وصنع مالا يليل بالمسلمين [...] ولما بلغنا منه ما بلغ وأنه في إثناء الأرض المقدسة قد بلغ، فهايرنا لعمرك فعله بالتفرض [...] وأردنا أن نطهر منه تلك الأرض حصوة للدين وطيرة على للمسلمين [...].

أولفنا أيضاً ما فعله بالعلماء في غزة، وقد ألتهم الذلة بعد العزة، وبطنهم في الأرض بالحياة، والتحديث للقدس من الإله من أدى وأباً فقد أتته بالحرب. والعلماء لا شك أولياء الله لقوله في كتابه الأسمى إنما يخشى الله من عباده العلماء، وإذا كنتم بذلك واضحين، وعلى دفع ضرره خير قارين، فمن إن شاء الله قارين على إزالة ما هنالك وقد اقتتدنا المذهب الأربعة بذلك، فاستخرنا الله، وهو نعم الولي، وسألناه أن ينصر بين محمد وعلى. وقد صرفنا القهمة والأموال في خدمة الملك للعمال، ووجهنا المعسكر والأبطال ليرفعوا يد الظالم ويستردوا للظالم [...].

أولقصود منكم ترك الظالمين والبعد عنهم. ومن يتوله منكم فإنه منهم. وأن تجهلوا فيما يرفع الشرور ويوجب لكم الفرحة والسرور والخيطة والعبود [...].

أوما نحن قد أخبرناكم، والمعونة على الخير قد اخترناكم. ومن قبول هذا الظالم في أرضكم حزنناكم. فالمعسكر قاصدة إليه وجميع ما لديه، وقد سلطها غضب الله وسخطه عليه، فاحفظوا منه سائر أموالكم وأحوالكم ولا تنصروهم يقيم في أرضكم وبين عيالكم ورجال العلماء والأكابر على وأنتم بالمعونة على الخير أولى.

وعلى التريب منكم والعبود والطارف والتلبد، والأحرار والعبود، أمان الله ورسوله وإماننا للسعيد، والله يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد. والخير يكون والصعب يهون بعون الله والسلام، (٣٧).

ضلعو الغمور

كما في بقية أرجاء الإمبراطورية العثمانية، فإن الهيكل الاتصالي الرئيسي في

سوريا - فلسطين هو الالتزام الضريبي، المقاطعة، التي تصبح، في القرن الثامن عشر، وراثية تحت اسم الملكية. ويعتمد الأعيان المحليون قوتهم من هذه الالتزامات الضريبية التي تنطوي، بشكل أكبر مما في مصر، على تفويض حقيقي للسلطات من جانب الدولة العثمانية. وهكذا ففي فلسطين، تتمكن عائلة عربية من أصل بدوي، هي عائلة الزيداني، من أن تركز لحسابها عدداً كبيراً من الالتزامات الضريبية إلى درجة إنشاء شبه دولة لها عاصمتها، عكا، وتعتمد من البحر المتوسط إلى الجليل. والحال أن رئيس العائلة، ضاهر العمر، وهو عجوز ما يزال بالغ الحيوية برغم أنه في الثمانين من عمره في عام ١٧٧٠، قد حارب نائباً للبشاورات العثمانيين في المنطقة بالتعاون مع كبار أعيان الجبل اللبناني، الشيعة والدروز والمولدة. وهو يطور في ممتلكاته زراعة القطن بهدف التصدير إلى الأسواق الأوروبية، الأمر الذي يشكل هناك أيضاً علامة على التحويل التدريجي لتوجه اقتصاد الشرق الأدنى.

وهو على ارتباط وثيق بالكاثوليك اليونانيين الذين يمثلهم بشكل خاص صرافه وحائز ثقله، الشهير إبراهيم الصباح. وفي بداية صعوده، كان ضاهر قد سعى إلى التحالف مع يهود طبرية، الذين كان يوسعهم التوسط لحسابه لدى الباب العالي من خلال المراجع اليهودية في القسطنطينية. ووعده للتزاييد في تول قدر من الاستقلال تقوده إلى الاعتماد على الكاثوليك اليونانيين إلى درجة جعله إبراهيم الصباح أغنى رجل في المنطقة وصفيته الأمين على سره. وهكذا فإن عائلة الصباح تتوحد مع عائلة ضاهر (٣١).

وكان على بك قد تعرف على ضاهر العمر خلال فترة نظبه القصيرة في عام ١٧٦٦ (٣٥). وقد ظل على علاقات طيبة وقد قدم له سيد فلسطين الشمالية وحملت مسلحة خلال حملاته. والواقع أن الهزائم العثمانية في مواجهة الروس الذين أرسلوا أسطولاً إلى البحر المتوسط، يبدو أنها تقبح لهما فرصة فريدة لتأكيد استقلالهما بشكل حاسم ونهائي. وإبراهيم الصباح هو الذي يدفع إلى التحالف بين الرجلين مصحفاً إلى إنشاء تول مستقلة تماماً. وينسب إلى الرجل المتمتع بثقله ضاهر التصريح الذي يذهب إلى أن الإمبراطورية العثمانية لم يمد لها وجود، وأنه لا يوجد على الأرض غير أمة واحدة، هي روسيا، مثلما لا يوجد في السماء غير رب واحد (٣٦).

الجليل

يجند على بك آمداك ضخمة من الجنود، بل ويلجأ إلى مستشارين عسكريين

لأوروبيين. وهو يبقى في القاهرة، بينما يسلم القيادة الليثانية لإسماعيل الرثيبين إسماعيل وأبو الذهب. وفي ٨ يونيو ١٧٧١، يستولى أبو الذهب على دمشق. لكنه نور ذلك - وبما يشكل مفاجأة للجميع - يتسحب إلى مصر ويرجع إلى القاهرة. ويبدو أن أسباب هذا التغير المفاجئ إنما تكمن في عزوف المالكة عن الاتحاد من مصر. فهم يتخصصون تجاه هذه الأرض المثناة تعلقاً حقيقياً. وسوريا تبدو لهم منفى. ثم إن محاربة السلطان العثماني خارج مصر وليس مجهود الاحتلال من الانصياع له إنما تبدو لهم بمثابة خيانة للإسلام. وقد تعرضوا لدعاية جد فعالة من جانب الباب العالي الذي يدعو، سعياً إلى مواجهة ملعات الحرب مع روسيا، إلى اتحاد جميع الملتزمين للثورة من الإسلام للهند من المسيحيين.

وليس من شأن عودة أبو الذهب إلى مصر إلا أن تفتتح على حرب أهلية بين صفوف المالكة. ويتعرض على بك للهزيمة ويضطر إلى اللجوء إلى فلسطين (أبريل ١٧٧٢) بينما يصبح أبو الذهب شيخ البلد الجديد. ويدخل على بك في تحالف منفر مع الروس ويحشد مع آل الزيداني حصار باقيا، وهو أول حصار بين حصارات طويلة لدن فلسطين الساحلية. وتسلط المدينة في فبراير ١٧٧٣، بعد صمودها لمدة ثمانية أشهر. ويتصور على بك أن يوسع وسط الاضطراب الفسائد إمارة فتح مصر بحشد جميع العناصر المخلوثة لخصمه، ويمول إبراهيم الصباح عودة على بك إلى مصر.

وعندئذ يدعو أبو الذهب إلى اتحاد جميع المالكة ضد هذا الخائن عميل للصليبيين. وهو يذكر بما حدث للهند التي سقطت في أيدي الإنجليز الذين لعبوا إليها في البداية كتجار عابدين. ويزيدى التشنج ضد على بك إلى تعبئة مجمل السكان المصريين. وسرعان ما يمتلئ بالهزيمة ويموت متأثراً بجراحه في ٨ فبراير ١٧٧٣.

التحور الأوروبي

لقد جعل على بك مصر مستقلة عن الباب العالي وسياساته تهدف بشكل راع إلى إحياء السلطنة المملوكية القديمة. وفي عام ١٧٧٢، أمر بأن يوضع في الخصر، الذي قام بترميمه، والذي يضم رفات الخلفاء الإسلاميين الكبار، الإمام الشافعي، لوح يحمل اسم عزيز مصر، وهو مصطلح مستخدم في القرآن للإشارة إلى يوسف، وزير فرعون، والذي يستخدمه الكتاب في العصر العثماني أحياناً للإشارة إلى السلاطين المالكة السابقين (٣٧). لكن مصر تلك هي مصر للمالكة. أما جمهرة السكان المصريين فهي تعيد صياغة الهوية الإسلامية في مواجهة عدو الإسلام الذي أصبح للزميم للملوكي رمزاً له.

والى أوروبا، خلافاً لذلك، يجرى تتبع مغامرة على بك بحماس. فالصحف تنشر كل يوم تقريباً أخبار الزعيم للملوكى الكبير. بل إن الجازيت دو فرانس تنهب إلى حد وصفه بـ «سودان [سلطان] مصر، خليفة الفراعنة، محرو لرض الملوك ومكة». وينظر الأوروبيون إلى مغامرة على بك بوصفها تهلياً لانتعاش الشخصية المصرية وإلى مغامرة ضاهر العمر بوصفها علامة النهضة العربية (٢٨).

كما يرى البعض، فى النهاية للتوقعة للهيمنة العثمانية فى فلسطين، إمكانية إنشاء دولة يهودية فى ذلك البلد. وينسب إلى على بك، خاصة فى الأثناء، إجراء اتصالات مع يهود ليفورنو بهذا الصدد (٢٩). والواقع أنه يتخذ بالأحرى مواقف العداء تجاه يهود مصر الذين يجريهم من صلاحيات التصاية عديمة لحساب الكاثوليك اليونانيين مباشرة، خاصة فى إنارة الجمارك (٤٠).

وهكذا فإن على بك يجد نفسه حائزاً - فى الخيلة السياسية الأوروبية - لنور رجل عظيم، فاتح ومجدد للدولة. وهذا النور، بالنسبة للأوروبيين، إنما تعلقه طبيعة المجتمع الشرقى ذاتها (٤١). أما خلفته، أبو الذهب، وخليفته، أحمد باشا الجزار، وهما من كبار السياسيين، فقد جرى تصويرهما خلافاً لذلك - وإن كان بموجب منطق الخيلة ذات - كممثلين للاستبداد الأكثر عقماً والأكثر تدميراً.

أبو الذهب والحكم الإسلامى الصالح المقالة

فى ٢١ يوليو ١٧٧٤، توقع الإمبراطورية العثمانية معاهدة صلح كوتشوك كايبارجا مع روسيا، ويتميز هذا الصلح، بين أمور أخرى، بالتنازل عن السيادة العثمانية على القرم، التى تصبح بذلك من الناحية النظرية مستقلة ثم تضمها روسيا بصرمة. وعلى قرار حق الحماية الدينية لمسيحيى الشرق الذى حصلت عليه الدول الأوروبية، يجد سلطان القسطنطينية نفسه وقد تم الاعتراف له بسلطة دينية على مسلمى القرم، التتر، وسحباً إلى إيجاد أساس حقوقى لهذه الخدمة للرعية. يتخذ السلطان لقب الخليفة، القليل الاستخدام منذ القرن السادس عشر. ووقع ذلك شديد بالمر ما أن الأوروبيين يتصورون هذا المنصب الدينى كنوع من باهوية إسلامية (٤٢).

ومصالة الأساس الحقوقى للادعاء العثمانى محقة. فمن جهة، من المؤكد أن العلماء

بوجه عام يدون أنه منذ نهاية الخلافة العباسية لا يوجد خليفة في أرض الإسلام مع أن وجود ضروري لتأمين نظم الجماعة. ومواقع الزمن هي التي تحول دون تحقيق هذه الحالة المنشودة (٤٢).

ومن جهة أخرى، من المؤكد بدرجة غير أقل أننا نجد بين الألقاب السلطانية العثمانية مبدأ معيناً من الألقاب للربط على نحو مباشر بفكرة الخلافة (٤٣). والأرجح أنه يتعين البحث من حل في تصورات سياسية كتصورات ابن خلدون الذي يعاد اكتشافه من جهة أخرى في تلك العصر في الأوساط الحاكمة في إسطنبول. والحال أن هذا الكاتب المسلم العظيم الذي عاش في أواخر العصر الوسيط، في زمن لم تكن الخلافة موجودة فيه من الناحية العملية، قد ميز بين النظم السياسية بحسب قيمتها الأخلاقية، وإن للملك الطهري هو حمل الكلفة على مقتضى الغرض والشهوة؛ والسياسي هو حمل الكلفة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية، وبلغ الضرر؛ والخلافة هي حمل الكلفة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ تحول الدنيا ترجع كلها عند الشارح إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة من صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به (٤٤).

ومن ثم فإن النظام السياسي الأمثل هو النظام الذي تصود فيه شريعة الله، وجميع الأشكال الأخرى للحكم يمكن أن تكون لها قيمتها ووجوه استحقاقها الخاصة، لاسيما تلك الأشكال المؤسسة على النظر العقلي، لكنها تظل أفضى منزلة من شكل الخلافة المعروف على هذا النحو. وهذه الوظيفة الزوجية للتمثلة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به كانت على الدوام وظيفة السلاطين العثمانيين. والكون العثماني بحكم اتساعه نفسه يضم إجمالي علم الإسلام السنّي الغربي. ومن المؤكد أن بولاً صنية قد توجد خارج الإمبراطورية، لكن هذا الواقع إنما يترتب على موانع جغرافية بشكل خالص (تحول دون اندراجها فيها - للترجم). وبشكل أساسي، فإن الإمبراطورية يجرى النظر إليها من الناحية الأيديولوجية بوصفها جماعة للزمنين التي أعيد توحيدها. وجيوشها التي يشار إليها في النصوص، كنصوص واصف، هي جيوش المسلمين. ولا وجود لإشارة إثنية محددة.

وبالنسبة للباب العقلي، فإن بحث الخلافة إنما يسهر في اتجاه دعوة اللود من الإسلام التي تستخدم كأداة للتصدي لتمهيلات روسيا ويظهر كآلة لتعزيز تلاحم

الإمبراطورية في وجه التأكيد للتواصل لأشباه دول في الولايات. لكن حكام الولايات يرون فيه أيضاً إمكانية مؤسسية لإقامة نوع من كومنولث عثماني كما في زمن هابسبورغ في بلاد المتاخرين.

توطيد سلطة أبو الذهب

في مصر، ينجز أبو الذهب تطبيق قنر من الاستقلال الفعلي لدولته. ويسيطر معاليك بيته على جميع وظائف الإدارة الرئيسية. ويجري التصريح للمباشرة العثماني بالعودة إلى القاهرة، لكنه لا يزيد عن كونه لشبه ما يكون بـ«مستشار» للباب العالي، مهمته التصديق على قرارات شيخ البلد.

وهذا الأخير يتزوج زوجة على بك الأولى بينما يتزوج مراد بك زوجته الثانية، الست نفيسة خاتون بنت عبد الله البهضاء، السيدة نفيسة ابنة عبد الله (أى التى تحولت من دينها إلى اعتناق الإسلام) البهضاء (الشركسية الأصل). وهى تقدم إليه ثروات زوجها الراحل وللمزيد من الهيبة السياسية. أما للمساعد الآخر لأبو الذهب، إبراهيم بك، وهو أكبر سنًا من مراد بقليل، فهو بنال أخت سيده كما بنال جاريتة المعتقة. وهذه المصاهرات تعزز الأواصر بين المراد المجموعة الحاكمة للنهضة الآن من بيت أبو الذهب، بيت الحمدي.

وتسيطر هذه المجموعة على أهم الالتزامات في مصر. وتتواصل زيادة للعبء الضريبي، لكن النظام الذى يستتب في مصر يخلص الملاحين من الجانب الرئيسى من الضغط البدوي ويسمح للتجار بتوزيع سلعهم بحرية.

العلماء

يرر أبو الذهب تموده على سيده بالذود عن الإسلام. وهو يلتزم بالحكم عبر مراعاة كبار رجال الدين في البلد، العلماء. وهؤلاء العلماء، جهابذة الفقه الدينى، إنما ينقسمون إلى فريقين.

الفريق الأول يتطابق مع الهيراركية القضائية، وهى عنصر أساسى من عناصر السلطة العثمانية وأحدى أدوات صون مرجعية السلطة المركزية. ورئيس الهيراركية القضائية في مصر هو القاضي «مسكر»، «قاضي الجبل»، المهتم على محاكم مصر الست

والثلاثين، التي يتولى مهامها القضاة بمساعدتهم قواب. وفي الأصل، كان جميع هؤلاء القضاة مثمانين من مثقلين من نظام العلمية، وهي وظيفة إدارية جهنة التنظيم لها عدة درجات وعدة مراتب في لخل كل درجة. وكانوا يعينون لسنوات قليلة في مصر وكانوا على راية الفضل بالتركية، اللغة الإدارية المستخدمة في المراسلات مع السلطة المركزية، من رايتهم بالعربية لغة موعوسيههم وتابعيههم. وكانوا تابعين من النظمية الإدارية للقاضي عسكري الأناضول الذي يصهر على التعيينات والتحركات. أما نوابهم، خلافاً لذلك، فقد كانوا بوجه عام من أرومة مصرية. وهؤلاء القضاة موظفون عثمانيون حقيقيون بالرغم من أنهم يعتبرون أحراراً لا عبيداً للسلطان. وعمل على بك وأبو الدعب على تقليل عدد القضاة القادمين من الهيراركية العثمانية كما يعملان على تمصير الهيراركية القضائية، ففي عام ١٧٩٨ لن نجد مثمانين غير القاضي عسكري وخمسة قضاة آخرين. وسوف يكون الآخرون كلهم مصري الأرومة، يدينون بمناصبهم لعلاقاتهم مع الأمراء للمالك وللمال المدعوم، ومن هنا تزايد برطة النظام القضائي وانحطاطه (١٦). والمفارقة، التي سوف نرصدها في القرن التاسع عشر من جديد إنما تكمن في واقع أن هذه التأكيدات الإقليمية، والتي تتمثل محصلتها للمنطقة في تعريب وتمصير الدولة، هي من عمل فريق حاكم، يتحدث بالتركية أساساً، وغير قادر غالباً على التعبير عن نفسه بالعربية. والحال أن التأكيد من جانب السلاطين على الخلافة إنما يعد، بين أمور أخرى، وسيلة لمواجهة هذا التطور السلسي والاستعانة السيطرة على الهيراركية القضائية في الولايات.

لما الفريق الثاني فهو يمثل الوظيفة الدينية ويتولى إقراة الوعظ والتدريس في للمساجد ورفعها منزلة هو الجامع الأزهر في القاهرة. وهم يمثلون العنصر للمصري الأرومة في جهاز السلطة، ويعتبرون أنفسهم مستشارين ضروريين للأمراء. ولما كانوا ينتمون قانوناً إلى القديوان، فإنهم يصرون على تمهي القرارات المتخذة مع مبادئ الشريعة الإسلامية كما أنهم يعتبرون أنفسهم وسطاء لا غنى عنهم بين الأقوياء والشعب يلتزمون بمراعاة جانب الضعفاء لصون الوحدة الاجتماعية لجماعة المؤمنين.

وقررتهم الاتصالية مهمة. فهم يسيطرون على الأوقاف، المؤسسات الخيرية للكلية بتمويل جميع النشاطات الدينية للمجتمع. وهم جزاً لا يتجزأ من استغلال الالتزامات الحضرية والريفية، لكن حصتهم أقل بكثير وأكثر تشرداً من حصة كبار للمالك. وعندما تسنح الفرصة، فإن بعضهم يشاركون في المضاربات التجارية. وجماعاتهم العلنية تحالف

مع كبار التجار لكنها تتحالف أيضاً مع المملوك أنفسهم الذين يشكلون معهم طبقة حاكمة حقيقية (١٧).

لكن قوتهم الاجتماعية بشكل أساسي، فهم عين معالي الإسلام، وهيبته ملحوظة، ثم إن عدداً من بينهم يحوزون نفوذاً قوياً أو يقدرون طرقاً صوفية تغذي الجانب الرئيسي من الحياة الدينية للشعب وتؤطر النشاطات الدينية والاجتماعية لجمامير السكان المصريين. ويستذكر عدد صغير، من أنصار إسلام أكثر نقاء، انحرافات بين الصوفية الشعبي ويتحمسون قريتهم من الإصلاحية الدينية التي يروج لها شخص كمحمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية المجاورة. أما الشعب فإن يعتبر إسلامه الإسلام الحقيقي الوحيد والضغط الاجتماعي شديد بحيث أن المصلحين للمسلمين يترددون في البوح بأرائهم (١٨).

وهذا الوسط من العلماء حامل لدور من الإحياء الفكري خلال السنوات المائة الأولى. فالثقافة الإسلامية الكلاسيكية تصبح من جديد محل تكريم، إذ يجري إعداد القواميس وبحوث في النحو وتعليقات على النصوص للقدسة. كما أن الشعر ممارسة شائعة بين هؤلاء العلماء. وبعضهم، كالشيخ حسن الجبرتي، والد للزورخ، يهتمون بالعلوم وخاصة الفلك. وقد قد هذا النشاط من جهة أخرى إلى دراسة الميكانيكا. بل إن ابنه، عبد الرحمن الجبرتي، سوف يصل به الأمر إلى حد الانعلاء بأنه قبل نصف قرن من حملة مصر، كان عدد من الإنجليز (الفرنسيين - المترجم) يتلقون العلم من والده في القاهرة وأنهم، في انتقالهم من النظرية إلى التطبيق، قد اخترعوا طاحونة لهوائية وماكينات نقل (١٩).

ولا يجب للبلغة من شأن النهضة الفكرية. فهي تظل قاصرة على دائرة محدودة تماماً من المثقفين وتعتمد بالكامل على تداول نصوص مخطوطة. فالمطبعة، النسخة والمروجة الهائلة للمعارف، والمعروفة بالفعل في لبنان في بعض الأوساط المسيحية، مجهولة في مصر. والبحوث التقنية التي تستهدف تحسين أدوات العمل لا تهم طوائف الحرف، للعقل الحقيقي للنزعة المحافظة. على أن علماء الحملة سوف يتسنى لهم العثور على بعض المحاورين التواقيين إلى المعرفة في مجال العلوم.

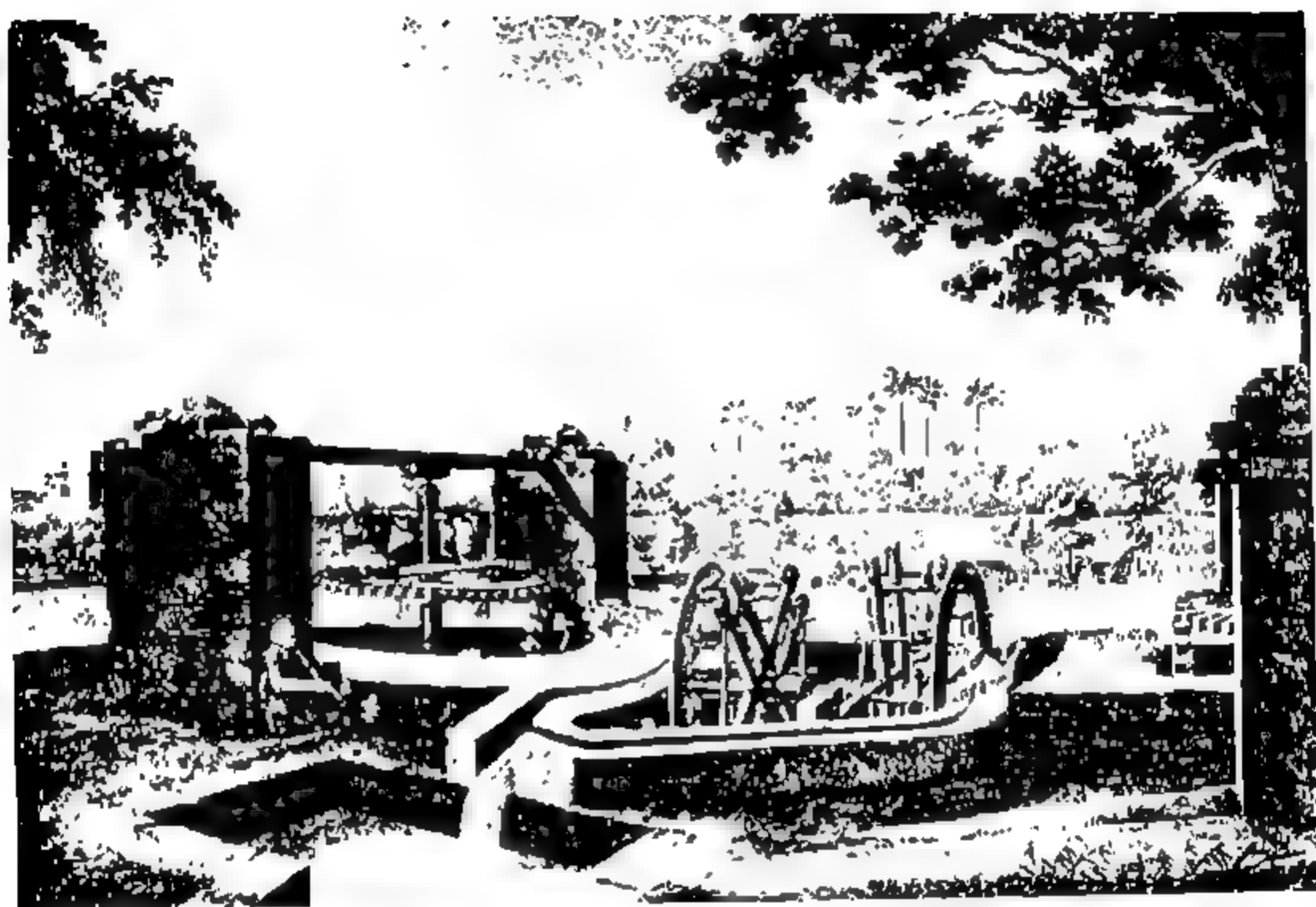
حملة سوريا الثانية

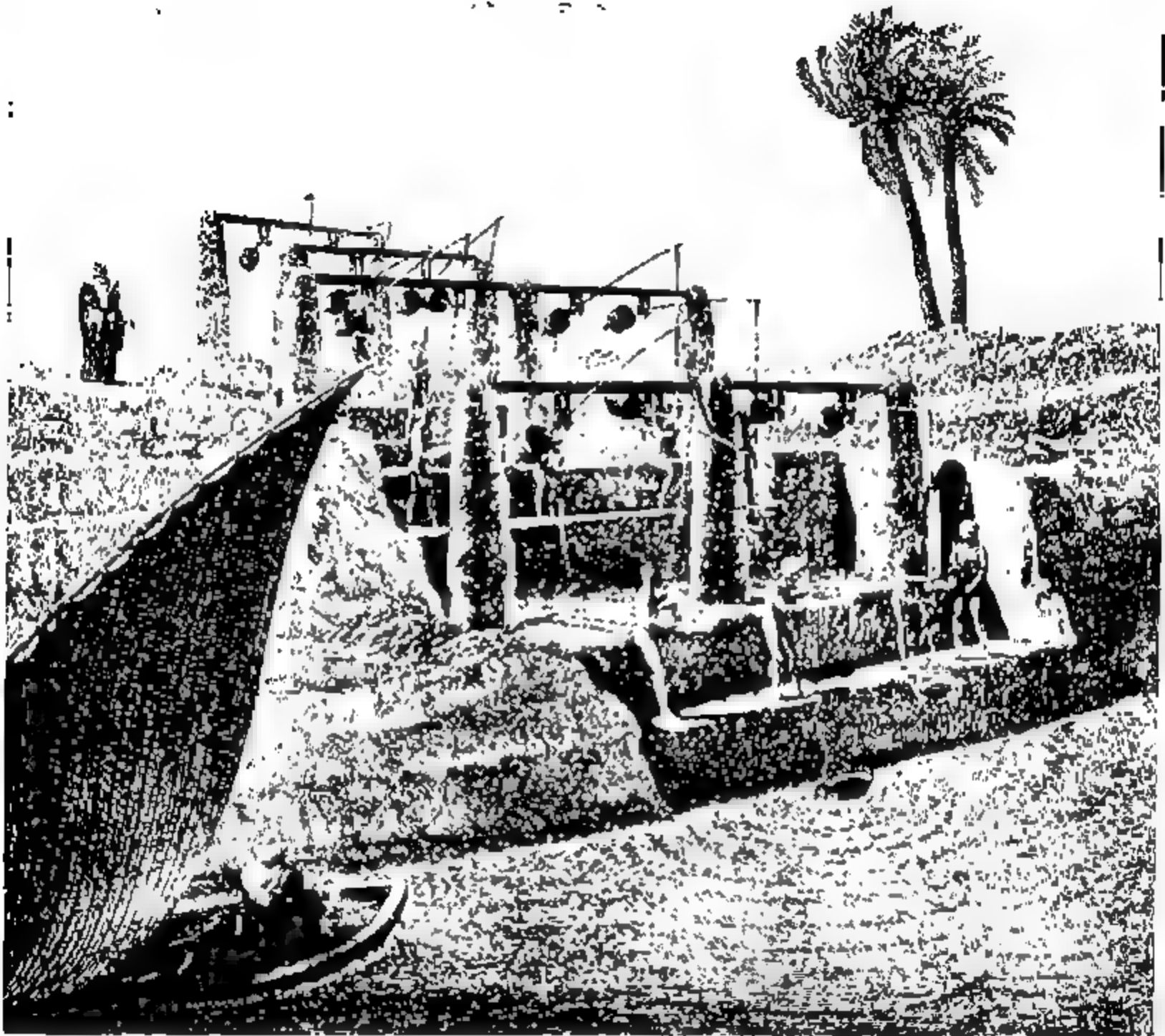
بالنسبة للعلماء، يمثل حكم أبو الذهب (١٧٧٢ - ١٧٧٥) مصر نهياً حقيقياً. فهو يقبل مشوراتهم ويكن المودة لأشخاصهم ويتخذ مواقف سخياً تجاه نشاطاتهم. وعديدون





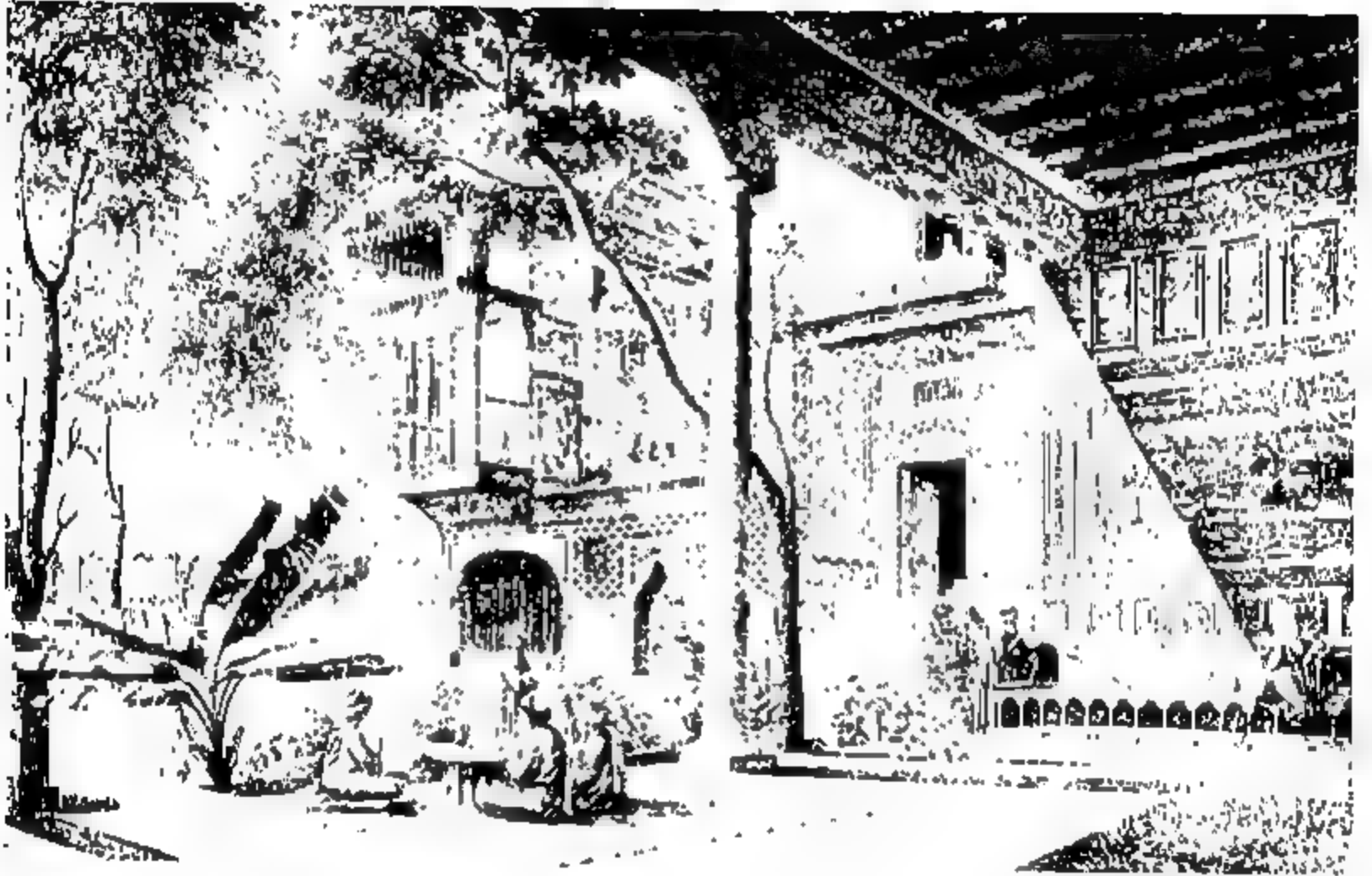






١٣ - نولاب الأوعية لوكالة البحر.





١٥ - مشهد داخلي للقصر قاسم بك.



منهم يصبحون أصدقاء حميمين له. وهو يبدو بالنسبة لهم تيسيراً لئلا الأمر للصالح.

وإذا كان يراعى جانب الأتباع، فإنه يتخذ موقفاً معادياً من الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية. وخلال حملته الثانية على سوريا، سوف يمارس عدداً حقيقياً تجاه رجال الدين الكاثوليك في الأرض المقدسة.

وقد استأنف العلاقات الطيبة مع الباب العالي. فهو يدفع الخزينة للقسطنطينية إلى جانب الأقساط السنوية للتأخرة منذ زمن على بك، وهو يستخدم لقب الخليفة عندما يتعين عليه ذكر سلطان القسطنطينية (٥٠).

لكن هذا الاعتراف بالسلطة العثمانية اعتراف شكلي. فهو يواصل، مثلاً، التفاوض مع التجار الإنجليز على إعانة فتح البحر الأحمر أمام تجارة الهند.

ومعياً إلى استنهاضه ضد ضاهر العمر، كان الباب العالي قد منحه التزام جنوب فلسطين (غزة، يافا، نابلس، الرملة). ومنذ عام ١٧٧٤، يجهز أبو النعب الحملة الثانية القادمة من مصر على سوريا. ويبدأ الغزو الذي طال انتظاره في مستهل ربيع عام ١٧٧٥. وبعد الاستيلاء على غزة والرملة، تهرى محاصرة يافا في ٢ أبريل ١٧٧٥. وتصد المدينة حتى ٢٩ مايو. وعندما تسقط، يقرر أبو النعب ضرب مثل لترويع السكان الفلسطينيين؛ إن جيشه يذبح للناقمين عن المدينة وسكانها.

وهذا التكتيك فعال لكل للراكز الحضرية في فلسطين تصلط دون مقاومة حتمياً. وسوف يتذكر بونابارت هذه الحادثة ويستلهمها في عام ١٧٩٩.

وفي عكا، يهدى أبو النعب عنفاً فائداً، ويهدد للسحيين بمنبحة جماعية، لكنه يموت لجأ في ١٠ يونيو ١٧٧٥. ويؤدي موته إلى الإخفاق الثاني لمحاولة إنشاء دولة مملوكية سورية - مصرية. والحال أن الأمراء للماليك، الذين كانوا معانين لفكرة الرحيل عن مصر، يسارعون إلى العودة إلى القاهرة للانخراط في صراعات وراثية الحكم. ويستشعر مراد بك ضعفاً خاصاً وقد أزعجته كثيراً مشيئة سيده في إبقائه في سوريا.

لكن الحملة المصرية الثانية قد كسرت مع تلك شوكة ضاهر العمر. وأحمد باشا الجزائر هو للاستفيد من ذلك في نهاية الأمر. فهو يدمر القوى الأخيرة لآل الزيداني ويصبح السيد الجديد لعكا والجليل. ويهرى إلقاء القبض على إبراهيم الصباغ ومصابة ثرواته. وهو يموت بعد وقت قصير من ذلك في ظروف غامضة (٥١). وتلجأ أسرته إلى مصر.

وكان أبو الذهب قد آمن بأن يخلص على قهره وهو ضريح بالغ التواضع قرب الأزهر، ما يفيد أنه نهر عزيز مصر، مقتنياً بذلك أثر سيده الذي خلفه. والحال أن الجبرتي، الشاهد الرئيسي على التاريخ المصري، والمعبر عن وجهة نظر العلماء، يشير بشكل واضح إلى أن حكم أبو الذهب هو آخر حكم صالح عرفته مصر.

والجملة، كان (أبو الذهب - المترجم) آخر من أدركتنا من الأمراء المصريين شهامة وصرامة وسعياً وحزماً وحكماً وسماحة وحلماً وكان قريباً للخير يحب العلماء والصلحاء ويميل بطبعه إليهم ويمتدق فيهم ويمتدحهم وينصت لكلامهم ويمعطيهم العطايا الجزيلة ويكره المخلفين للدين، ولم يشتهر عنه شيء من اللويقات والحرمان ولا ما يشينه في دينه أو يخل بمروءته، بهي الطلعة جميل الصورة أبيض اللون معتدل القامة والبدن مسترسل اللحية مهيب الشكل وقوراً محتشماً قليل الكلام والالتفات ليس بمهتاز ولا خوار ولا عجول، مبجل في وكوره وجلوسه يباشر الأحكام بنفسه ولولا ما فعله أخيراً من الإسراف في قتل أهل يافا بإشارة من وزيره لكانت حصانه أكثر من سيئاته، ولم يلق لأمر مثله في كثرة الممالك وظهور شأنهم في الدنيا الصغيرة وعظم أمرهم بعده وانحرفت طباعهم عن قبول العدالة ومالوا إلى طرق الجاهالة واشتروا الممالك ففشتوا على طرائقهم وذابوا من سوابقهم وألغوا للظلم وظنوها مفاد وتعاونا على القور وتلاحقوا في البغي على القور إلى أن حصل ما حصل ونزل بهم وبالناس ما نزل وسيتلى عليك من أنباء وأخبار وما حل بالإقليم بسببهم من الخراب والدمار والله تعالى أعلم. (٥٢)

عودة العثمانيين ومشكلة المجتمع المذنب الإسلامي

إبراهيم وبساط

يرجع لنا الجبرتي أن زمن الفتن، والذي سوف تكون حملة مصر (الفرنسية - المترجم) إحدى لحظاته القوية، إنما يبدأ مع موت أبو الذهب. فلكروج الحزبية تستأنف غلبتها والصرار على السلطة ينشب في التو والحال وينقسم للملك إلى فصليين: لفصيل العلوية الذي يجمع أنصار على بك السابقين وعلى رأسهم إسماعيل بك، وفصيل للمحمدية للنبلي من بيت محمد بك أبو الذهب عيت والذي يقوده مساعده إبراهيم بك ومراد بك. وعلاوة على ذلك، فإن هذين الزعيمين الأخيرين يتنافسان فيما بينهما ويحازان بالمدخول في حرب لا تهدأ أحدهما ضد الآخر.

أمّا إبراهيم بك فهو رجل يتميز بشخصية متزنة ودينية. ولما كان مقاتلاً معتزلاً لكنه يكره إراقة الدماء، فإنه يسعى إلى تجنب احتدام النزاعات فيما بين الأمراء. وروح الاعتدال هذه تحول بينه، خلافاً لسلفيه، وبين لعب دور الزعيم الأوحيد للمماليك. وهو لا يملك السلطة الكافية لمنع تعدييات وتجاوزات الأمراء (٩٣).

ولمّا مراد بك فهو يتميز، على العكس من ذلك، بمزاج عنيف وأهوج. وريثهما الجبرتي بالجهن وباتعلم الكفامة في الشأن العسكري، إلا أنه لابد من الاعتراف له بسمعة أساسية في هذا المجال، الإصرار والمثابرة في وجه المحن. وسوف تؤدي تعديياته الكثيرة وعنفه إلى خراب النظام المملوكي، لكن أحد أسباب احتياجه للنائم إلى المال هو إيراكه لضرورة تغيير وتصحيح الجيوش المملوكية. وشأنه في ذلك شأن كثير من الأمراء، فإنه يحب محاربة العلماء والمثقفين. وهذه المحاورات لا غنى عنها لهم لإنجاز تكويدهم كمماليك في شأن معين من شئون الحكم كإدارة القضاء (٩٤).

زمن الفتن

عندما تكتب الفخية لحزب، فإنه يطرد الحزب الآخر من القاهرة. وحدثت يلجأ هذا الحزب الأخير إلى مصر العليا أو إلى فلسطين وبعد لعنته الهجومية. كما أن للمماليك يلجأون إلى طلب عون البدو والمرتزقة الذين يدمرون الأرياف. وهذه الصراعات المتواصلة تبقى على حافة من الفوضى والخراب. وحتى عندما يصبح للممالية القوة السائدة، فإن النظام العام لا يعود. وهكذا يقدم لنا الجبرتي صورة جد كالحة لعام ١١٩٨ للهجرة (١٧٨٢-١٧٨٤) :

«انقضت السنة كلفتني قبلها في الشدة والفلاء والصور للنيل والفتن المستمرة وثورات المصائب والمظلم من الأمراء وانتشار اتباعهم في القواص لجبي الأموال من القرى والبلدان وإحداث أنواع للمظلم وبعثونها من الجهات ورفع للمظالم والفردة حتى أهلكوا الفلاحين وضاق نرحهم واشتد كربهم وطفشوا من بلائهم فحاولوا للطلب على الملتزمين وبعثوا لهم المعينين في بيوتهم فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم وبيعهم ومواسيتهم بسبب ذلك مع ما هم فيه من المصائب الخارجة عن ذلك وتبع من يشم فيه رائحة الفنى فيلخذ ويحبس ويكلف بطلب أضغاث ما يقدر عليه وتوالى طلب السلف من تجار القن والبهار من المكوسات المستقبلية ولما تحقق للتجار عدم الرد استعوضوا خسارتهم من زيادة الأسعار ثم منوا أيديهم إلى الثواريت فلذا مات الميت لحاطوا بموجوبه سواء كان له وارث أو

لا. [...] وأسست النيات وتغيرت القلوب [...] وكثر الحسد والحقد في الناس لبعضهم البعض فابتدع الشخص هويات أخيه ويطلق به إلى الظالم حتى خرب الإقليم وانقطعت الطرق وعريت أولاد الحوام ولقد الأمن ومنعت السبل إلا بالخفارة وركوب الغرور وجلت الفلاحون من بلادهم من الشراقي والظلم وانتشروا في المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الزبال شيئاً يكتسبه من ذلك. [...] ومات الكثير من الفراء بالجوع. [...] ولولا لطف الله تعالى ومجيء الغلال من نواحي الشام (سوريا) والروم (البلاد التركية) لهلك أهل مصر من الجوع».

وهكذا فإن مصر المصدرة تقليدياً للحبوب تجد نفسها مضطرة إلى استيرادها من بقية الإمبراطورية العثمانية. والمدينتان اللقيمتان في الحجاز، للعثمانيان اعتماداً وثيقاً على مصر في مؤنهما، تعانيان بفورهما معاناة جسيمة. ويتم السخط مجمل البلد.

ماجاللون

كما أن التجار الفرنسيين هم أيضاً ضحايا للتعهدات المفروضة من جانب البهكين. ويبدو مورد، قنصل فرنسا، عاجزاً عن التصدي لهذا الوضع. ويرجع الدور الرئيسي إلى تاجر شهر هادي، هو شارل ماجاللون. وهو أحد ممثلي الأمة الفرنسية منذ عام ١٧٦٨. وفي عام ١٧٧١، يستقر في البلد ويعمل لحسابه الخاص. وهو يتزوج ونزوحته، وهي أرملة تاجر بندي، تقوم بتجارة الأقمشة، وهو ما يسمح لها بالاتصال بنساء المماليك الأعلى مكانة. وبسبب هذا الوضع، جرى إعفاء ماجاللون من جانب السلطات الفرنسية من الحظر المفروض على تجار الثغور والذي يحرم عليهم اصطحاب زوجاتهم معهم.

وتتوسط منام ماجاللون بصورة منتظمة لدى الست نفيسة وتحصل في أغلب الأحيان على تخفيضات التعديلات التي يتعرض لها الفرنسيون. وفي عام ١٧٧٧، إثر البعثة التفقدية التي قام بها البارون بورت، والمكلف في واقع الأمر بدراسة إمكانية الاستيلاء على مصر، يجري نقل قنصلية القاهرة إلى الإسكندرية وذلك من جراء انعدام الأمن المهيمن على عاصمة مصر. ولا يؤدي ذلك إلا إلى تعزيز دور ماجاللون. وفي عام ١٧٨٥، يوقع البهكان مع للبعوث الفرنسي تروحيه معاهدة تسمح للفرنسيين والملاحا في البحر الأحمر، ومن المؤكد أن دور ماجاللون في المسألة دور مهم. لقد شغل إلى حد ما المكانة التي كان يتمتع بها روزيتي، عتد على بك (٥٥).

وفي عام ١٧٨٦، حصل مراد إلى الإسكندرية، ويزيد التعديلات المفروضة على الإلرنج

(الفرنسيين) ويهدد بهدم كنيساتهم. ويطلب القناصل عون سفاراتهم في القسطنطينية. ومن جديد لتوصل مدام ماجالون إلى الست نفيسة التي تتدخل لدى زوجها وتتوصل إلى وضع حد للتعديات، لكن السفراء الأوروبيين في القسطنطينية كانوا قد احتجوا احتجاجاً شديداً بالفعل لدى الباب العالي وطلبوا مراعاة لنق اللامتيازات (٥٦).

الباب الثالث وهو

في عاصمة الإمبراطورية العثمانية، تبدأ السلطة المركزية ببطء في التفكير في إصلاح نلسها وإعادة تدعيم صلاحياتها. وهي لا يمكنها التصليم بأن يكف مراد وإبراهيم، وقد أصبحا سادة مصر، عن إرسال الخزينة السنوية إلى الباب العالي وبأن يتصرفا كحكم «الولايات» التي لها الشمالية ليوطنان على العلاقات تجارية مع الدول الأوروبية. ولا يقتصر الأمر على أنهما يتجاوزان حدود صلاحياتهما الإدارية، بل إنهما يتصرفان أيضاً بشكل يتعارض مع الأوامر الرسمية للباب العالي في مجال حصص هو مجال حماية المدينتين المقدستين، وهو اختصاص رئيسي من اختصاصات الخلافة. ثم إنهما يستلزان بعد ذلك الدول الأوروبية في لحظة يجري فيها ضم القرم إلى روسيا وتحتاج فيها الإمبراطورية تماماً إلى مؤازرات في النزاع الجديد الذي يوشك أن ينشب مع روسيا والنمسا. وتصرفهما يعتبر غير محتمل بل غير ما أن الظرف السياسي المصري يهدو ملائماً لاستعادة سلطة الباب العالي المباشرة. ومنذ عام ١٧٨٥، فإن الباب العالي، وقد استحوذ عليه بدوره الجنس الأدنى جد الرائج في جهاز الدولة الفرنسي، يطلب إلى الرجل القوي أحمد باشا الجزائر، سيد فلسطين وحائز السلطة الأهم في سوريا، أن يقدم إليه تقريراً عن إمكانية فتح مصر (٥٧).

ويفكر الجزائر فوراً في قيادة الحملة. وهو يقترح حشد قوات عثمانية في غزة بحجة النضال ضد آخر أمجاد ضاهر العمر، خصومه في فلسطين. ومن هناك، سوف يؤدي زحف سريع (لا تزيد منه عن اثنين وثمانين ساعة) إلى تمكين القوات العثمانية من الوصول إلى بركة الحاج التي لا تفصلها عن القاهرة غير مسيرة أربع ساعات. وسوف تنلوا المفاجأة التامة حرب دعائية من شأنها نسف قوة للماليك. ويؤكد للجزائر على المبدأ الأساسي لكل سياسة مصرية: الاعتماد على كبار العلماء، ومشايخ الطرق الصوفية، خاصة الشيخ البكري، سليل أول خليفة مسلم، والشيخ الساعات، سليل النبي من علي، واللايين سوف يحاورون بونابارت فيما بعد. فهذان الرجلان «بوسعهما أن يجمعا في يوم واحد قوة ضخمة من الجنود الوامها ما بين سبعين ألفاً وثمانين ألفاً على الأقل من الرجال للتابعين والمخلصين لهما. ومن ثم فإن بوسعهما مساعدة لوالى».

ويعد مدين العللين لكبيرين، لا بد من الحصول على مساعدة رجال الأزهر الذين يقومون مفتو مصر الأربعة، فلما كان طفاة مصر قد اعتنوا عليهم واهتموا بحلهم، فإنهم سوف يكونون على اتفاق مع الجماعة الأولى في النعمة والرفعة في التخلص (من الطفاة) (٥٨).

ولإثارة السكان على المالك، لا بد من وعد الفلاحين بالتضامن على جميع الضرائب التي أضيفت بشكل غير مشروع في العقود السابقة والتي تعتبر مخالفة للشرعية. وسوف يجرى التصرف بهر بيانات، توزع في مجمل البلد وتتلى على السكان من جانب موظفين، تعد السكان بالعودة إلى تشريعات القرن السادس عشر الصالحة، وهكذا يتسنى بسرعة التضامن على «الطفاة» عبر التمرد الشعبي وتبدأ إعادة تنظيم تامة لمصر وفق نموذج إعادة التنظيم التي عرفها القرن السادس عشر.

ويحتفظ الباب العالي بالنصائح، إلا أنه من الواضح تماماً أنه يفضل أن يعهد بتنفيذها إلى رجل آخر غير باشا عكا القوي، الذي يسمى، بشكل واضح، إلى تحقيق وحدة سوريا ومصر، شأنه في ذلك شأن سلفيه، على بك وأبو النعب.

إضفاء الشوعية الإسلامية على التمردات

إن الحملة العثمانية، تمت قيادة حسن باشا الجزائرلي (الجزائري)، وهو أحد المصلحين العثمانيين الكبار الأوائل، تهبط في رشيد في يوليو ١٧٨٦، واعتقاداً منهم أن الفرنسيين يتحملون المسئولية عن هذا التدخل، يطلب البكوات إلى ماجالون، عبر الست دليسه، للتدخل لدى قنصل فرنسا حتى يتوصل إلى وقف الحملة العثمانية. وهم يجهلون أن لوائح العثمانيين لكبر أهمية بكثير من شكايات التجار الفرنسيين. على أن فكرة عمل مشترك من جانب الباب العالي والفرنسيين ضد المالك تبدو وجيهة في نظر البكوات. وسوف نجد هذه الفكرة من جديد في عام ١٧٩٨. أما فيما يتعلق بال ماجالون، فسوف يتعرضون للخراب من جراء المشروع، لأن لهم ديوناً تزيد عن خمسمائة ألف جنيه مستحقة على البكوات الرئيسيين.

ويشرح العثمانيون على الفور بتطبيق السياسة التي أوصى بها الجزائر. فحسن باشا يرسل بيانات إلى السكان احتفظ الجبرتي لنا بنموذج منها،

«إلى مشايخ العرب أولاد حبيب بذاتية نجوة ولقهم الله تعالى، نعرفكم أنه بلغ
حضرة مولانا السلطان نصره الله ما هو واقع بالقطر المصري من الجور والظلم للفقراء
وكافة الناس وأن سبب هذا خائنوا الدين إبراهيم بيك ومرك بيك واتباعهما فتعيننا بخط
شريف من حضرة مولانا السلطان ليده الله بعسكر منصوره بحراً لدفع الظلم ولايقاع
الانتقام من اللصوصين وتعين عليهم عسكر منصوره برّاً يسارى عسكر عليهم من حضرة
مولانا السلطان نصره الله وقد وصلنا إلى ثغر إسكندرية ثم إلى رشيد في السادس عشر
رمضان فحضرنا لكم هذا الفرمان التحضروا تقابلونا وترجعوا إلى أوطانكم مجبورين
مضطرين إن شاء الله تعالى لحين وصوله إليكم تعلموا به وتعتمدوه والحذر ثم الحذر من
المخالفة وقد عرفناكم».

ويُدعى علماء القاهرة ويذهبون في وفد إلى رشيد لمقابلة قائد الحملة العثمانية. وهم
يشكون عجزهم أمام قوة المماليك. ويذكر الجبرتي:

«دعاهم (حسن باشا الجزارلى - المترجم) في ثاني يوم وكلمهم كلمات قليلة وقال
له الشيخ العروسي بامولانا رعية مصر قوم ضعاف ويهوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس
فقال لا تخشوا من شيء فإن أول ما أوصاني مولانا السلطان أوصاني بالرعية وقال إن
الرعية راحة الله هندي وأنا استودعتك ما أوعنيه الله تعالى فدموا له بخير ثم قال كيف
ترضون أن يملككم مملوك كان كافران وتروضونهم حكماً عليكم يسومونكم بالعذاب والظلم
لماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من بينكم فأجابه إسماعيل الهندي الخلوني بقوله يا
سلطانم هؤلاء عصبة شديرو اللباس ويد واحدة للضرب من قوله ونهره وقال تخوفني
ببأسهم وقال إنما أعني بذلك أنفسنا لأنهم بظلمهم أضغوا للناس ثم أمرهم بالانصراف».

وبالرغم من شبه الفشل هذا، فإن بوسع العثمانيين أن يصلوا بسهولة إلى القاهرة.
وتحركهم ثوري بشكل مناسب، فهو يتمثل لأول مرة في إبراز التعارض المباشر بين طبقة
المظلومين (رعية مصر) وطبقة الحاكمين للمصرية المساوية في بقية الإمبراطورية
للعثمانية. ولا يمكن فهم مثل هذا التحرك إلا في إطار الفكر السياسي الإسلامي السني.
فالسلطة السياسية لا أساس لها إلا بقدر ما تحمي جملة المؤمنين من التهديدات الخارجية
والأ بقدر ما تطبق الشريعة في الداخل. وهذه الشريعة هي من ثم دعامة ما يمكن تسميته،
بوزن أية مبالغة، بالمجتمع السني الإسلامي. ومن ثم فالسلطة السياسية لا تملك غير وجود
وظيفي: فهي قائمة خارج المجتمع. ولهذا بالتحديد تتألف الطبقة الحاكمة العثمانية

(العثمانية) أو للمملوكية (المصرية) من الناحية القانونية من صيد (قول). وإذا تعدت السلطة السياسية على المجتمع لطلعت وظلمت وذهبت، فإنها تنتهك الشريعة الإسلامية نفسها التي تكفل أمن الأفراد والممتلكات. وسامعتها فإن الثورة التي يقرر العلماء مشروعيتها تصبح فريضة. ومن ثم فإن هذا المفهوم عن المجتمع الإسلامي يؤكد شرعية الحق في مقاومة الجور. والثورة على انتهاك الحقوق للتضمة في الشريعة الإسلامية شرعية، وهو ما يحيل إلى جوانب معينة من جوانب الثورة الفرنسية (٥٩).

والحال أن إضفاء الشرعية الإسلامية على التمرد هو من ثوابت تاريخ الإمبراطورية العثمانية من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر؛ كما أن مشاريع التحديث الغربي الطراز سوف تعتبر انتهاكاً للشريعة الإسلامية وسوف يجرى تفسير تعزيز الدولة التحديثية اعتباراً من أواسط القرن التاسع عشر باعتباره انتمسكاً لاستبداد خلف الغرب (٦٠).

والواقع الرئيسي هنا هو أن العثمانيين يخاطبون السكان باسم الإسلام لكنهم يسمونهم أيضاً بالمصريين، ولو أن من الصحيح أن الهوية المصرية (أو العربية) في ذلك العصر إنما توجد أولاً في نظر الآخر، العثماني أو الأوروبي سواء بسواء.

الفشل العثماني

ينهج مراد وإبراهيم النهج المعتاد من جانب المماليك في هذه الظروف، لهما يدسحبان إلى مصر العليا لخوض حرب عصابات نشيطة ضد أعدائهما، ويصائر العثمانيون ممتلكات المماليك المتمردون ويتبعونهم حتى أسوان عند الشلال الأول للنيل. وكما سوف يترك الفرنسيون ذلك بعد اثني عشرة سنة، فإن المماليك هم سادة هذه الحرب للتحركة، ويتعذر القضاء عليهم بسبب استحالة الإمساك بهم. وهم (العثمانيون) يحاولون، في مصر السفلى، استعادة سلطة المماليكيات (الأوجهات) لكنهم يلحظون أن هذه الأخيرة لم تعد لها قوة عسكرية حقيقية. ومن ثم يتعين عليهم الاعتماد على العلوية، الحزب للمملوكي المنزلي لمراد وإبراهيم. ويعيدون إسماعيل بك إلى سدة السلطة في القاهرة.

وكل هذه الحملات تكلف ثمناً جدياً باهظ وسرعان ما يضطر العثمانيون إلى إعادة فرض اللغز الثقيلة وغير المشروعة التي كان من المتصور أنهم إنما جأوا للقضاء عليها.

وقد سعوا إلى إصلاح تسجيل مسح الأرض وتحصيل إيرادات الالتزامات، وذلك سعياً من جهة أخرى، إلى زيادة الخزينة المدفوعة للباب العالي، لكن ذلك يبدو غير كافٍ وتصير العمر بشكل خاص^(٦١). وتصبح خيبة أمل السكان المصريين كلمة. وفي عام ١٧٨٧، يجرى استثناء القوات العثمانية، بسبب استئناف الحرب مع روسيا. ويوضح الجبرتي أبعاد الفشل العثماني بإشارته إلى مرور حسن باشا بمصر، ولم يحصل من مجيئه إلى مصر ونهايه إلا الضرر ولم يهطل بدعة ولم يرفع مظلمة بل تقروا به المظالم والحوادث فإنهم كانوا يفعلونها قبل ذلك مثل السرقة ويخالفون من إشاعتها ويلوغ خبرها إلى الدولة (الدولة العثمانية) فينكرون عليهم ذلك وخابت فيه الآمال والظنون وهلك بقدمه البهائم التي عليها مدبر نظام العالم وزاد في المظالم والتحرير لأنه كان عندما قدم أهطل ورفع المظالم ثم أهله بإشارة إسماعيل بك وسماء التحرير ليجعله مظلمة زائفة ويقل رفع المظالم والتحرير ليعاد يلبس من البلاد خلاف أموال الخراج عدة القلام منها المضاف والبراني وعوائد الكشوفية والفرد المتعبد ورفع المظالم والتحرير وحال الجهات وغير ذلك ولو مات حسن باشا بالإسكندرية أو شهيد لهلك عليه أهل الإقليم أسفاً وبدوا على قبره مزاراً وقبة وضريحاً بقصد للزيارة.

ومن عام ١٧٨٧ إلى عام ١٧٩١، يحكم إسماعيل بك مصر السفلى. وغالباً ما يدخل ممالك مصر العليا في صدام معه بل ويحاولون إعادة صوغ التحالف مع الروس كما حدث في زمن علي بك. وتدفع السلطات العثمانية ممالك القاهرة والعلماء إلى مطاردة متمردى الجنوب. ويدرك إسماعيل بك ضرورة تسليح أراقى، ويرسل إلى ملجائون، وهو مجرد تاجر آنذاك، في مارس ١٧٨٩، طلباً بإرسال بعثة عسكرية فرنسية^(٦٢). وكانت الرغبة في التخلص من الشئون العثمانية في وقت تخوض فيه الإمبراطورية حرباً مع روسيا والنمسا قد أدت إلى سحب البعثة العسكرية الفرنسية من القسطنطينية منذ عام ١٧٨٧. والحق أن فيرجان يموت في تلك اللحظة. وهذا السبب، علاوة على الظروف السياسية المتقلب في عام ١٧٨٩، يفسران واقع أن السلطات الفرنسية لا تستجيب لهذا الطلب.

عوطة إبراهيم ومراط

في نهاية الأمر، يصيب وباء طاعون رهيب مصر السفلى في عام ١٧٩١، بما يؤدي إلى وفيات خطيرة بين السكان. كما يسقط إسماعيل بك ومساعدوه الرئيسيون ضحايا له. وهكذا يصبح بوسع مراد وإبراهيم استعادة مصر السفلى بسهولة. ويضطر الباب العالي

إلى الاعتراف بالأمر الواقع. لكنه عازم بشكل واضح على عودة مصلحة ما إن تتيح له الظروف إمكانية ذلك. وهذا أحد ثوابت سياسة السلطة للوكنية في عصر سليم الثالث، أول سلطان مصلح للدولة العثمانية.

وفي مدن مصر السفلى، تتم عودة الأميرين في متاح عتف وأزمات. ويحاول العلماء استخدام نفوذهم على الشعب للحد من تعديت الممالك. وهذا واضح بشكل خاص في الإسكندرية حيث لا يتستى للشريف الكريم، وكيل مراد بك، السيطرة على إيرادات الجمارك إلا بالقوة، وذلك بسبب مقاومة العلماء للملحين الذين يتزعمهم الشيخ المسهرى ويدعمهم جزء مهم من السكان (٦٣)؛ وفي هذه الحالة المحددة، فإن العلماء يدافعون، علاوة على الإنصاف والعتلة، عن المصالح التجارية في الأهل الطويل لدهنتهم. وهكذا فإن الشيخ المسهرى يجعل من نفسه حامياً للتجار الفرنسيين في المدينة ويحاول التصدي، والقراء بيمية، لهوى الطاغية (٦٤).

سياسة مراد بك العسكرية

لواجهة عودة محتملة للعثمانيين، ينظم مراد بك أسطولاً حربيّاً صغيراً على النيل، وهو يعهد بتنظيمه إلى مفامر يوناني هو نيكولاس باياس لونغلو، الذي تحول إلى اعتناق الإسلام، والمعروف باسم الحاج نقولا أو الرئيس نقولا. وتتألف أسطول الصفيهر من يونانيين مخلصين لرئيسهم (٦٥)، بل إنهم على استعداد لحمل السلاح ضد الزعيم للملوكي عندما يحاول هذا الأخير الانتفاض عليهم إثر مشاجرات مع سكان القاهرة. ويضطر مراد إلى التراجع بحكمة، الأمر الذي يثير عظيم سخط الجبرتي الذي يتهمه بمحاباة للصحيين على حساب المسلمين (٦٦).

كما أنه لكي يجهز نفسه بالدفعية، يلجأ إلى يونانيين من زانت (وهي من ممتلكات البندقية آنذاك)، هم الأخوة جايتا الثلاثة. وإذا يتحولون هم أيضاً إلى اعتناق الإسلام بل ويصبحون ممالك، فإنهم ينظمون مسبكاً للمدافع قرب قصر مراد في الجزيرة. والحل أن الأخ الأكبر، أحمد أفاء، سوف يتهمك في عام ١٧٦٩، تحت رعاية روزيتي، في إنشاء سلاح مدفعية لملكة دارفور السودانية. وهو يصبح مستشاراً عسكرياً للملك في الوقت الذي يعد فيه لغزو للبلد من جانب رجال مراد بك. وطبيعي أن لغزو الفرنسي يقلب خططه (٦٧). وفي تلك الأثناء، كان أخواه قد نجحوا في تزويد مراد بمدفعية خفيفة وخاصة بعمال قارين على إنتاج المدافع.

وهكذا نفى مصر كما في بقية الإمبراطورية العثمانية يصبح اليونانيون وسطاء في إدخال التقنيات الغربية. وحركة الالتجاء إلى المستشارين العسكريين الأوروبيين، والتي بدأها على يد، تتواصل في ظل مراد.

التهديدات

إن أشكال الكيد للتجار الفرنسيين تصبح جسيمة بشكل مطرد. وماجاللون، الذي جاء إلى باريس لنقل شكايات زملائه، تعيينه الجمهورية، في ٣٠ يناير ١٧٩٣، اتصالا للجمهورية الفرنسية في القاهرة. وعندما يصل إلى مقصده، فإنه يستلم بعناية كارلو روزيتي، المستشار السابق لدى بك، والذي أصبح وكيلًا قنصليًا إمبراطوريًا (للنمسا)، وعاد إلى القوز بحظوة البكوات للمالكيك (٦٨). ويكتب الفرنسي مسئلة الست نفيسة. لكن ذلك لا يكفي، وفي عام ١٧٩٤، ينقل ماجاللون القنصلية التي كان قد أعيد فتحها في القاهرة إلى الإسكندرية لتجنب ضراوة الأمراء. وعند فشل جميع التدخلات الدبلوماسية، يصبح ماجاللون نصيرًا لحملة فرنسية ويصائر لتأييد هذه القضية في يوليو ١٧٩٧ في اللحظة ذاتها التي يبدأ فيها تالهران في طرح للوضوح (٦٩).

والصدمات المتوالية بشكل مطرد بين العلماء والمالكيك تصل إلى ذروتها في عام ١٧٩٥ في القاهرة حيث يثير أحد العلماء، وهو الشيخ الشرفاوي، تمردًا شعبيًا عظيمًا ضد المالكيك إثر تعديلات جديدة على الفلاحين. ويضطر الأمراء إلى الصلحة وتقبل مختلف المطالب الشعبية، ثم إنهم :

«الترزما [...] بأن يصيروا في الناس مسيرة حسنة وكان القاضي حاضراً بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفرمن عليها بالبشا وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك ليعتم عليها أيضاً وانجلت الفتنة ورجع للشارخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم يتناون حسب ما رسم سافتنا العلماء بأن جميع للظالم والحوادث والمكوس بطلانة من مملكة الديار المصرية وفرج الناس وظنوا صحتهم وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيانة ونزل عقيب ذلك مراد بك إلى معياط وضرب عليها الضرائب العظيمة وغير ذلك» (٧٠).

وبحسب الجبرتي، فإنه لا يحدث شيء مهم بين عامي ١٧٩٥، ١٧٩٨. وهو يذكر لنا في سطور قليلة أن الأمراء يزيدون بشكل متواصل تعدياتهم وأن الوضع لا يأخذ إلا في التزايد سوءًا.

أزمة نهاية القرون

على هذا النحو ينتهي بالنسبة له عهد الكوارث الأول الذي بدأ عند موت أبو الذهب. والواقع أن الوضع الاقتصادي يصبح متروكاً بإطراد. فالفتن السياسية التي أعقبت موت أبو الذهب وأعمال التخريب والتدمير والمهاجمات وتعديات البكوات للمماليك قد وضعت نهاية للألم الصاعدة لأواسط القرن. بل إن التوجهات الجديدة، التي حفز إليها التفلغل الاقتصادي الأوروبي، تشهد فشلاً محققاً. وقيمة الالتزامات، أي الاستثمارات في الاقتصاد الريفي، تأخذ في الانحطاط. والتجارة مع الأوروبيين لتتدهور ويشهد رخاء الكاثوليك الهولنديين للتطور نفسه. وتعديات البكوات على القجار يصبح من الصعب بإطراد احتمالها. وانحصار التجارة مع مصر يصبح أحد للبريات الرئيسية لحملة على مصر في الأوساط الحكومية الفرنسية.

وتتزايد حسارة البدر. ويعيداً من أن تملك مصر الدولة القوية والمركزة التي جرى العرف على تخيلها، فإنها تجد نفسها بالأحرى في واحدة من فترات الانهيار التي تتداخل فيها الفتن السياسية والأزمات الاقتصادية مع صعود نزعات استقلالية محلية.

لكن هذه الفترة ثورية أيضاً. فالجماعات الاجتماعية المختلفة تنخرط في التنافس على السلطة منذ أن توجه العثمانيون إلى الشعور الإسلامي سعيًا إلى إثارة المصوبين تحت لاية العلماء ضد للمماليك. وقد نجح رجال الدين في خلق تحالف مع الشعب ضد للمماليك فلم يعربوا مجرد وسطاء وانفصلوا عن الجماعة السائدة المملوكية بالرغم من الروابط الاقتصادية والعائلية التي جعلتهم شركاء للطبقة الحاكمة. والواقع أن إضفاء الشرعية الإسلامية على التمردات مع التأكيد على حق مقاومة الجور إنما يمثل النظير الشرقي للثورة الفرنسية. والحال أن بونابارت، بفضل مستشاريه من أمثال ماجالون وفينتور دو بارادى اللذين كانا شاهدين على التطورات السياسية المصرية، سوف يسعى إلى أن يستغل لحسابه هذه القوى وإلى إحياء الائتلاف المعادي للمماليك والذي خلقه العثمانيون في عام ١٧٨٦.

وبالنسبة للجبرتي، فإن عام ١٧٩٨ إنما يرمز إلى بداية نهاية العلم، سنة ثلاث عشرة ومائتين والفاء، هي أول سنة للملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشهور وترايف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس للطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأحوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان يك يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (٧١).

حواشي الفصل الثالث

١ - حول الاقتصاد - العالم العثماني، انظر BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, Tome III, *Le temps du monde*, pp. 402 - 417. بمصطلح «الاقتصاد - عالم» مجالاً جغرافياً تهيمن فيه التبادلات الداخلية هيمنة كبيرة بحيث يمكن اعتبار التبادلات الخارجية هامشية.

٢ - Sur le commerce maritime dans l'Empire Ottoman, voir les travaux de Daniel PANZAC, par exemple "Négociants ottomans et capitaines français : la caravane maritime en Crète au XVIII^e siècle", in Hamit BATU et Jean - Louis BACQUÉ - GRAMMONT, *L'Empire Ottoman, la République de Turquie et la France*, Istanbul - Paris, éditions Isis, 1986, pp. 99 - 118.

٣ - Pour tout ce passage sur le commerce, je suis étroitement les analyses de M. André RAYMOND dans ses *Artisans et commerçants au Caire au XVIII^e siècle*, Damas, Institut Français d'Études Arabes, 1973.

٤ - Ce commerce a été étudié par Terence WALZ, *Trade between Egypt and bilâd as - Sûdân*, Le Caire, I.F.A.O., 1978.

• - La Grande Syrie ou bilâd al sham (pays de Damas), d'où le nom générique donné à ces Syriens en Égypte, Shami pluriel Shawwam.

٦ - David AYALON, "Studies in Al - Jabarti, Notes on the transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans", *Journal of Economic and Social History of Orient*, III, 1960, pp. 148 - 174 et pp. 275 - 325.

٧ - أي «بينظليين». وفي مصر كما في الولايات العربية الأخرى في الإمبراطورية العثمانية، انتهى هذا المصطلح إلى الإشارة إلى جميع فروع التاطلقين بالعربية، من مسيحيين أو مسلمين الإمبراطورية، من أصل انتقضي أو بلقاني. والحال أن هاتين، الذي عمل مترجماً في الجيش الإنجليزي في عام ١٨٠١، قد حدد على النحو التالي الفرق بين «التركي» و«العثماني»، «إن الوصف بـ «التركي» ينتظر إليه على أنه مهين، فكان ذلك على لسان الغربي، لم على لسان العثماني، وإذا ما اتجهنا إلى أساس الأمور، فسوف نجد أن نواح ذلك واحدة عند الغربي والعثماني على حد سواء. ففي نظر العثماني، ليس «التركي» غير الابن الفظ والجلف للبراري، الذي يظل غربياً عن كل ثقافة وكل تمدن؛ وفي نظر الأوروبي، فإنه [التركي] البربري الأسوي، المتفريع لأشكال حكمه وديانته. ويعمل العثماني التركماني الجلف على أنه تركي بينما يخلع الأوروبي هذا

Histoire de l'Empire Ottoman, postface, Paris, 1841, pp. XXXVI - XXXVII. نظر لهذا في Bernard LEWIS, *Islam et laïcité*, رد فعل السفير التركي في فرنسا، الذي «إذ يهتف نفسه على إحباط متاوردة معادية» [...] يشير إلى أنهم لم يكونوا هذه المرة يولجعون «السفير التركي» - أي الفلاح الأحمر - الذي كلنوا يتخيلونه». Paris, 1988, p. 292.

Cette analyse des termes ethniques s'appuie sur les usages trouvés - A chez le grand chroniqueur égyptien JABARTI (mort en 1825) et sur l'article de M. Louis AWAD, "L'Égypte face à son passé", in Robert Ilbert et Philippe Joutard éditeurs, *Le Miroir Égyptien*, Marseille, Jeanne Lafitte, 1984, pp. 271 - 280.

AYALON, op. cit. p. 314.

- ٩

Synthèse essentielle de la question dans l'article du Père Maurice - ١٠ MARTIN, "Note sur la communauté copte entre 1650 et 1850", *Annales Islamologiques*, XVIII, Le Caire, I.F.A.O., 1982, pp. 193 - 216.

André RAYMOND, *Artisans et commerçants au Caire...*, II, 817. - ١١

Sur ce sujet, voir André RAYMOND, "L'impact de la pénétration- ١٢ européenne sur l'économie de l'Égypte au XVIII^e siècle", in *Annales Islamologiques*, Le Caire, Institut Français d'Etudes Orientales, 1982, XVIII, pp. 217 - 235; du même "Les effets négatifs de la pénétration commerciale européenne sur l'économie égyptienne", in *Le Miroir Égyptien*, pp. 101 - 109.

Sur les Grecs catholiques, le livre essentiel est celui de Thomas - ١٣ PHILIPP, *The Syrians in Egypt, 1725 - 1975*. Stuttgart, 1985.

Pour l'évolution de l'agriculture égyptienne, je suis de près le - ١٤ travail de Mlle Christine de SAINTE - MARIE, *Les agricultures égyptiennes, les transformations du système agraire de la vallée du Nil dans l'Égypte indépendante*, thèse de III^e cycle, Université de Paris I, juin 1987, multigraphiée.

Description de l'Égypte, Paris, 1822, XI, pp. 477 et suivantes, - ١٥ Michel - Ange LANCRET, *Mémoires sur le système d'imposition de l'Égypte dans les dernières années du gouvernement des Mamlouks* :

«إن كل ملتزم يختار من الفلاحين الذين يحوزون الأرض والذين يدفعون له الضريبة، مزارعاً رئيسياً، هو رئيس الآخرين، ويحمل اسم شيخ البلاد. ويحدث أيضاً أنه إذا كانت حيانات أحد

للملئمين جد واسعة في القرية الواحدة، فإنه يقسمها بما يتراضى له إلى عدة أقسام، ويوزع المسؤولية عنها على مشايخ مختلفين، بحيث إن هناك قرى [...] يوجد فيها عدد كبير من المشايخ. والعدد المتوسط ثمانية أو عشرة؛ إلا أنه ليس من النادر أن تشهد لوتظلمه إلى عشرين وأكثر. ويمارس شيخ البلد مسؤولية الإشراف على الفلاحين الذين يزرعون ذلك القسم من الأرض الذي يتحمل المسؤولية عنه، وإليه هو وحده يطلب الالتزام غلة القرية، وهو يترك له الاهتمام بجمعها من أيدي فلاحين مختلفين « ومن ثم، فإن له حق شرعيهم بالقصا أو سجنهم [...] حتى يؤدوا ما عليهم. والمشايخ لهم مصلحة أيضاً في عدم التمسير في دفع الفلاحين إلى سنك ما عليهم وذلك بقدر ما أنه إذا ما تعرض الملئمون لحالات تخلف في تحصيل إيراداتهم، فإن المشايخ هم الذين سوف يعتصمون على ذلك. [...]».

«ولى كل قرية، يوجد شيخ بلد أول، هو بحق نائب البلد، وهو الذي يؤدي بشكل شخصي وظائف القاضي الصلح، ويتناشأ أمامه الخلافات التي تتميز بقدر من الأهمية. وتمتد سلطته ليس فقط على الفلاحين المزارعين، وإنما أيضاً على جميع سكان القرية. وهذه المكانة ليست مجرد مكانة شرعية، فهي تعود عليه أيضاً بحدود منافع مالية « وعلى سبيل المثال، فإنه إذا ما طلب للمالك التبرع صيداً من اللال، أو من الزراد الفلانية، من إحدى القرى، فإن الشيخ الأول يقرر بتقديم المطلوب دون أن يدخل فيه شيء من ممتلكاته الخاصة. وهذا الحق لا يتنازعه أحد فيه. [...]» ولى جميع الحالات تقريباً، فإن مكانة الشيخ الأول إنما يحوزها الأختى، وهي تنتقل غلة من الأب إلى الابن. على أنه ليس من النادر أن نراها تخرج من الأسرة التي كانت تعوزها لتصبح من نصيب أسرة أخرى أكثر ثراءً وتلك مكانة أعلى».

Sur l'évolution de structures rurales au XVIII^e siècle, voir l'article - ١٦ de synthèse de Kenneth M. CUNO "The Origins of Private ownership of Land in Egypt : a reappraisal". in *International Journal of Middle East Studies*, 12, 1980, pp. 245 - 275. Cette évolution se retrouve dans l'ensemble de l'Empire Ottoman.

CUNO, *Landholding, Society and Economy in Rural Egypt, 1750 - ١٧*
- 1850, *A Case Study of al Daqahliyya Province*, thèse multigraphiée, University of California, Los Angeles, p. 188.

Ibid, pp. 280 - 291. - ١٨

Ibid, pp. 332 - 345. - ١٩

Ibid, pp. 345 - 352. - ٢٠

٢١ - إن أحد مظاهر العنف الذي لا يمكن للفلاحين كبحه، هو تلك العنف الذي تكتفه قبيلة عندما تستأجر أراضيهم. ففي البداية يخيم جزء من القبيلة في حقل بعد كلاء بالوفرة؛ وما إن يصبح المكان ملائماً للعرب وما إن يقيموا فيه، فإنهم يتخلون في مساهمة مع المزارعين على ثمن الإيجار « لكن الجمال والحياد تكون قد اكتمت بالفعل جزءاً كبيراً من الكلاء وتكون الضياع مملوكة في كل مكان. فكيف يحدث ذلك ؟ إن زعيم العرب يعرض ثمناً غالباً مالا يكون غير مشهور القيمة، ولا يملك الفلاح خياراً آخر غير القبول. [...]» إنه لشيء محزن أن نجد أناسهم يأكملها شبه

مواجهة من انبثاها إلى اتصالها بمخيمات العرب ، فالواقع أن المخيمات هناك منتشرة انتشار القرى ، وهي تزود دون تولف بفروسان جيد لا يشكلون البنية جزءاً من القبيلة ، لكنهم يجهنون للفوز بحق النهب والسلب ، لأن للضايخ يحرفون ملكيات. وما أكثر الأراخس للهور والمهجورة في مواقع الخيام والمنطق للجائرة لها وما أكثر الأراخس التي قضت فيها الأعشاب الفسلفة على الحبوب لأن الفلاحين قد اضطروا إلى الهرب ولا يتجرأون على معارضة الظهور لا في موسم الحصاد ولا في موسم إلقاء البذور « JOMARD, "Observations sur les Arabes de l'Égypte « moyenne", in *Description de l'Égypte*, Paris, 1823, T. XII, pp. 285 - 290.

Voir Daniel PANZAC, "Endémies, Epidémies et Population en - ٢٢ Égypte au XIX^e siècle", in "*L'Égypte au XIX^e siècle*", op. cit., pp. 83 - 100; du même, "The population of Egypt in the nineteenth century", *Asian and African Studies*, Vol. 21, 1987, pp. 11 - 32.

CUNO, *Landholding...* p. 60.

- ٢٣

٢٤ - يرى دولوميو أن هذه المنطقة قد تمتد من الخط الذي يقود من الرحمانية إلى المنصورة ، "Quelques notices sur l'agriculture de la Basse - Égypte", in *Dolomieu en Égypte*, Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte par A. LACROIX et G. DARESSY, T. III, Le Caire, 1922, pp. 81 - 82.

٢٥ - ربما أن النيل يفيض بدرجة جد قليلة على الدلتا، خاصة نحو الجزء الشمالي الذي يزرع الأرز فيه، فإن يجري غمر الأراخس بالمياه بمساعدة آلات هيدروليكية، وهكذا فإن زراعة الأرز لا تتوقف على ارتفاع منسوب النيل، كزراعة الحبوب التي تنتجها مصر العليا، ومن الممكن أن تكون جد رابرة، حتى عندما لا يكون هذا الارتفاع موهجاً بالمرء. Jean - Baptiste TRÉCOURT, *Mémoires sur l'Égypte, année 1791*, édité et annoté par Gaston WIET, Publication de la Société Royale de Géographie, Le Caire, 1942, p. 8. Ce mémoire très important a appartenu à Monge, mais il semble n'avoir été connu qu'après le retour de Bonaparte d'Égypte.

Pour une vue comparative, voir l'article de Halil INALCIK, "Rice Cultivation and the *Celtûkci* - *Re'aya* System in the Ottoman Empire", *Turcica*, XIV (1982), pp. 69 - 141.

٢٦ - DOLOMIEU, pp. 87 - 88 يوضح هذا الأخير أن زراعة الأرز تمارس في القاهم أرشيد وبعباط والمنصورة والريتين فقط في الغربية (P. 86) . ولهما يتعلق ببعض أساليب الري، يلاحظ أن : « للزارعين ليسوا محرومين من كل نكاه (P. 85) .

٢٧ - إن تصدير الأرز يخضع لعقبات أقل، إذ يسمح بتصديره إلى تركيا، بل إن الحكومة تسمح في بعض سنوات الوفرة بتصديره إلى أوروبا وذلك في مقابل نسبة ١٥ في المائ. وكانت عمليات شحنه تتم في دمياط. وفي عام ١٧٧٦، صدر منه ٧٠٠٠٠ قنطاراً إلى مرسيليا، TRÉCOURT, p. 27.

٢٨ - لا يكاد يوجد ملاك أو مستأجرون أجنبياء بما يكفي لتدفع مقدمات التملك التي تتطلبها مزارع الأرز؛ وهم لا يقومون عادة بهذه التملكات إلا اعتماداً على المال الذي يقرضونه من التجار، الذين لا يقرضون إلا بالشرط المعلن والذي يتمثل في شراء كل أرز الحصاد بسعر يقل عن سعر السوق بهبوطاتين للأوقية. DOLOMIEU, p. 106. ويعد لهذه هذه النوع من الاستثمار في جميع المحاصيل، لكنه مهم في هذا المجال.

٢٩ - l'étude la plus complète sur le début du régime néo - mamlouk, est le livre de Daniel CRECELIUS, *The roots of modern Egypt, a Study of the Regimes of Ali Bey al Kabir and Muhammad Bey Abu Dahab, 1760 - 1775*, Minneapolis, Bibliotheca Islamica, 1981. Voir aussi André RAYMOND, ALI BEY AL KABIR, in *Les Africains*, Paris, 1977, II, pp. 17 - 41, et John W. LIVINGSTON, "The rise of shaykh al - balad Ali Bey al - Kabir : A study in the accuracy of the chronicle of Al Jabarti", *Bulletin of the school of Oriental and African Studies*, 1970, pp. 282 - 294.

٣٠ - حول الأجهات في أواخر القرن الثامن عشر انظر عراقى يوسف محمد، الوجود العثماني للملك في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥، ١٥٧ صفحة.

٣١ - L'étude essentielle reste celle de F. CHARLES - ROUX, *Autour d'une route, l'Angleterre, l'isthme de Suez, et l'Égypte au XVIII^e siècle*. Paris, 1922. Voir aussi David KIMCHE, "The Opening of the Red Sea to European ships in the late Eighteen Century", *Middle Eastern Studies*, VIII, 1972, pp. 63 - 71.

Vasif WASSIF, Istanbul, 1805, II, pp. 215 - 216. - ٣٢

٣٢ - Bibliographie essentielle dans Abdul Karim RAFAQ, *The Provinces of Damascus*, Beyrouth, 1966, Amnon COHEN, *Palestine in the 18th Century*, Jérusalem, 1973 et Moshe Ma' oz éditeur, *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jérusalem, 1975. Je n'ai pu consulter le livre de Ahmad Hasan JOUDAH, *Revolt in Palestine in the Eighteenth Century : The Era of Shaykh Zahir al - Umar*, Princeton, Kingston Press, 1987.

PHILIPP, op. cit., pp. 28 - 29. - ٣٣

٣٤ - Sur les relations entre les Mamlouks égyptiens et la Palestine, voir - ٣٥ Daniel CRECELIUS, "Egypt's Reawakening Interest in Palestine During the Regimes of Ali Bey al Kabir and Muhammad Abu al Dahab, 1760 - 1775",

in David Kushner (ed.), *Palestine in the Late Ottoman Period, Political, Social and Economic Transformation*, Jerusalem, 1986, pp. 247 - 262.

PHILIPP, p. 29.

- ٣٦

P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, Londres, 1966, p. 96. - ٣٧

Voir mes *Origines intellectuelles de l'Expédition d'Égypte*, pp. 159- ٣٨ - 169, "Soudan" terme médiéval pour "Sultan".

Ben HALPERN, "A Note on Ali Bey's "Jewish State "Project", - ٣٩
Jewish Social Studies, XVIII, pp. 284 - 286.

John W. LIVINGSTON, "Ali Bey al Kabir and the Jews", - ٤٠
Middle Eastern Studies, 1971, VII, pp. 221 - 228.

٤١ - لقد استمد بونابارت الكثير من أسطورة علي بك الكبير. وقد أمر بمعاملة خاصة
للسنة نفيسة أرملة التي تزوجت فيما بعد مراد بك. وفي ١١ يوليو من العلم السابع (٢٠ يناير
١٧٩٩)، كتب إلى برسوليخ: «إن السيدة السنة نفيسة، أرملة علي بك وزوجة مراد بك الآن، يجب
أن تحتفظ بذلك الجزء من ممتلكاتها الذي ورثته عن علي بك، فممن ذريد بذلك أن تقدم دليل
احترام للتكري هذا الرجل الشهير». *Correspondance...*, V, p. 376.

٤٢ - إن لقب «الخلافة الحمدي الأعلى» - في اللغة الثالثة - والذي يشير إليه النص
الأصلي، الإيطالي، للمعاصرة إنما يجد تروسيماً له في الترجمة الفردسية ليصبح «خليفة الدولة
الحمدي صاحب السيادة»؛ أما في النسخة التركية، فهو لا يبدو أن يكون «إمام المؤمنين وخليفة
للمؤمنين» [...]. وهو لقب لا ينطوي على الانحاء شديد العمومية والاتساع الذي ترومه الصيغ
التي يستخدمها الأجانب». Bernard LEWIS, *Islam et laïcité...*, p. 470.

والواقع أن كل شيء يبدأ منذ عام ١٧٧٢ عندما يرسل الباب العالي مفوضين عثمانيين
للتفاوض مع الروس على خلاف الدادوب. وكان أحد الرجلين العثمانيين هو ياسينجي زاده الشيخ
أبا - صوفيا، الذي يتمتع برتبة قاضي القسطنطينية [...] والكلف بشكل خاص بمناقشة المواد
التي قد تكون لها صلة بالدين. وحرصاً منه على ألا تغيب عن بابه «مبادئ شريعة الأوروبيين»،
فإن ينكب على قراءة العهد الجديد. ونحن نرى في ذلك تليلاً على عدم فهم السياسة الغربية في
ذلك العصر.

وخلال اللقاء الثاني، يطالب الروس باستقلال التتر، أي بالحماية الروسية على القوم في
واقع الأمر: «وقد رفض القوملمان التركمان بقوة للطلب الخاص باستقلال التتر، وهو مطلب أملاً
أنه لن يكون بوسعهما أبداً تلبيته، لأنه يتعارض مع شريعة ديانتهم». وقد أشار إلى أن السلطان،
بوصفه خليفة، إنما يمارس السلطة الروحية على جميع أهل السنة، وأنه إذا كان لا يدعي لنفسه
هذه السلطة في الهند، وفي بخارى وفي إمبراطورية المغرب الأقصى، التي يحكم شعوبها كلها
أمره وتنتمون إلى المذهب السني، فإن السبب الوحيد لذلك إنما يتمثل في بعد هذه البلاد، وقد
زعما أنه إذا ما تخلى في أي وقت عن سيطرته على التتر، فإنه سوف يكون بذلك منتهكاً للواجبات

التي تفرغها عليه صفته كخليفة». HAMMER, *Histoire de l'Empire Ottoman*, T. XVI, pp. 319 - 325.

ويستند هامر بشكل أساسي على نصوص عثمانية وعلى الأرشيفات الدبلوماسية النمساوية. أما وأصف القدي، وهو أحد مصنفه الأساسية، فهو أكثر تعديلاً فيما يتعلق بهذا الجانب.

«لقد أثار الرزاء العثمانيون إلى أنه إذا ما كف خان القرم عن الخضوع للسلطان، فإنه سوف يصبح خليفة ثانياً للنبي».

CAUSSIN DE PERCEVAL, *Récit historique de la guerre des Turcs contre les Russes, tiré des Annales de L'historien turc Wassif Effendy*, Paris, 1822, pp. 207 - 208.

وهذه الدخلة الأساسية تعود إلى قطع المفاصل التي لا يجرى استثنائها إلا بعد ذلك بحامين. وتجب الإشارة إلى أن الروس يقومون على الفور بحملة إعلامية لدى الدول الأوروبية لكي يثبتوا لها التفكير الانحياز العثماني إلى الأسس. وهم يشهدون على واقع أنه قد وجد، في فترات معينة من تاريخ الإسلام، عدة خلفاء في وقت واحد وأن «المسألة لا تتعلق من ثم بديانة محمد، بل بالسياسة العثمانية» (voir mes *Origines intellectuelles*, pp. 32 - 33) ومن المؤكد أن التشديد الذي قلمت به الدول الأوروبية على فكرة الخلافة للهوية على غرار البابوية الكاثوليكية هو الذي يعود للسلوطين العثمانيين إلى تكثيف دور الخلافة في العلاقات الدولية. والحال أنني لم أجد على أي شيء استند لوى ماسينيون عندما قال في عام ١٩٢٠ إن عودة الخلافة إلى الظهور هي الفكرة [...] تصورها بنكاه الكونت سان - بريست بمناسبة معاهدة كوتشوك كينارجا. "Introduction à l'étude des revendications islamiques (1920)", in *Opera Minora*, Paris, 1969, I, p. 273.

Gilbert DELANOUE, "La doctrine scolaire de l'Imamât", in - ٤٣ *Moralistes et politiques musulmans dans l'Égypte du XIXe siècle*, Le Caire, I.F.A.O., 1982, I, pp. 32 - 41.

Samir GIRGIS, *The Predominance of the Islamic Tradition of - ٤٤ Leadership in Egypt during Bonaparte's Expedition*, Frankfurt, 1975, pp. 5 - 30.

Discours sur l'Histoire Universelle, traduction nouvelle, préface - ٤٥ et notes par Vincent Monteil, Paris, 1967, I, p. 370.

S.J. SHAW, *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution*, - ٤٦ Harvard University Press, 1966, pp. 95 - 100, et Charles BACHATLY, "L'administration de la justice en Égypte à la veille des réformes de l'an IX", *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, XVIII, 1935, pp. 1 - 18.

Sur le groupe familial du alim al Jabarti, voir André RAYMOND, - 1v
 "La Fortune des Gabarti et leurs liens avec la caste dominante et les milieux
 commerçants", in Ahmad Bizzat Abd al Karim éditeur, Abd al Rahman al
 Jabarti, *dirasat wa buhuth*, Le Caire, 1974, pp. 73 - 84.

Sur les ulama dans la société égyptienne, voir André RAYMOND, - 1A
 "Le Caire, économie et société urbaines à la fin du XVIII^e siècle", in
l'Égypte au XIX^e siècle, op. cit. pp. 121 - 139. Afaf Lutfi al - Sayyid Marsot,
 "The Political and Economic Functions of the ulama in the 18th Century",
Journal of the Economic and Social History of Orient, Vol. XXVI, pp. 130 -
 154.

A la lecture de Jabarti, se dégage un esprit très proche finalement des
 réformistes de la Salafiyya du XIX^e siècle. D'ailleurs, Jabarti a été attiré par
 la prédication wahabite (Gilbert DELANOUE, op. cit. I, pp. 49 - 53).

JABARTI, nécrologie de l'année 1188. Cet épisode se situe au - 1v
 temps du voyage de l'abbé d'Orvalle qui est arrivé en Égypte en 1747 et qui
 prétend avoir fréquenté des shaykh d'Al Azhar. Il avait été chargé de faire
 l'acquisition de manuscrits orientaux (R. CLÉMENT, *Les Français d'Égypte*
aux XVII^e et XVIII^e siècles, Le Caire, I.F.A.O., 1960, pp. 188 - 189).

CRECELIUS, *The Roots of Modern Egypt*, p. 148. - 11

PHILIPP, op. cit. p. 30. - 11

JABARTI, nécrologie de l'année 1189. - 12

JABARTI, nécrologie de l'année 1231. - 12

JABARTI, nécrologie de l'année 1215. - 11

Voir Moustapha FAHMY, "La première convention commerciale - 11
 franco - égyptienne au XVIII^e siècle (10 janvier 1785)", *Cahiers d'Histoire*
Égyptienne, VII, 1955, pp. 21 - 34. Sur la réaction anglaise, Edward
 INGRAM, "From Trade to Empire in the Near East - I : The End of the
 Specie of the Overland Trade, 1775 - 1801," *Middle Eastern Studies*, XIV,
 1977, pp. 3 - 21.

Sur cette affaire, R. CLÉMENT, *Les Français d'Égypte aux - 11*
XVII^e , et XVIII^e siècles, Le Caire, I.F.A.O., 1960, pp. 219 - 229.

L'étude essentielle et novatrice sur l'expédition ottomane est celle - 1v
 de Abd AL WAHAB BAKR, *Al dawlat al utmāniyya wa misr fi al nisf al*

thâni min al qarn al tâmin ashâr, Le Caire, 1982, dâr al ma ârif, p. 240 (l'État ottoman et l'Égypte dans la seconde moitié du XVIII^e siècle).

Standford J. SHAW, *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century*, - ٥٨
The Nizamname -i Misir, Oxford University Press, 1964, pp. 22 - 23.

٥٩ - هل يجب التذكير بالمادة الثانية من إعلان حقوق الإنسان الصادر في عام ١٧٨٩ ؟ إن غاية كل اجتماع سياسي هي ضمان حقوق الإنسان الطبيعية والثابتة. وهذه الحقوق هي الحرية والملكية والأمن ومقاومة الاضطهاد ؟ وإذا كانت الحقوق متعاقبة، فإن الضرعية هنا لا تنبع من الطبيعة، بل من الله.

يرى برنارد لويس أن هذا للذهب الإسلامي الخاص بواجب مقاومة الحكومة الجائرة هو أقل أهمية برفض من للذهب للقبول والذي يدعو إلى الطاعة لأطول زمن ممكن سعيًا إلى تجنب حدوث فتنة في الأمة. *Le retour de l'Islam*, Paris, 1986, pp. 50 - 63). ("Les concepts islamiques de révolution", in *Le retour de l'Islam*, Paris, 1986, pp. 50 - 63). وإذا كان صحيحاً أن العلماء قد كثفوا للوائح في وجه تحولات من ذهب واجب العصيان، فإن ما لا يعتبر أقل صحة هو أن الإسلام العثماني، في إطار تحديثه في القرن الثامن عشر، قد عرف تحولاً سياسياً - دينياً عميقاً (والأمانة على ذلك هي نص على بك الكبير الذي ألهته، ومسألة الخلافة، وسياسة أبو الذهب).

٦٠ - Je m'inspire ici très directement de la pensée de M. Sherif MARDIN et, en particulier, du cycle de conférences qu'il a tenues à Paris en 1986 sur la légitimation islamique des révoltes.

S.J. SHAW, *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution...*, pp. 164 - 167. - ٦١

٦٢ - إن رغبة إسماعيل بك في استقبال رئيس مهندسين مع ما بين أربعة وخمسة أشخاص يمكنهم معاونته، وضابط مدفعية معه عدد مماثل من الأشخاص ورئيس سبائك مع عدد من العمال يمكنهم أن يسبقوا له مدافع، ومدافع هاون، وقنابل وكرات مدافع، ويتعين يمكنهم أن يبنوا له عمارات خلصة بالنيل وجسوراً خشبية، إلخ، وسوف يلقي هؤلاء الفنيون معاملة لائقة، لأن إذا كان البلد غير مهذب بالطبع، فإنه لا يضر مالاً عندما يكون بوسع هذا المال أن يسهم في توليد الأمن له. cité par H. DEHÉRAIN, "L'Égypte turque", in *Histoire de la nation égyptienne*, T.V, p. 148.

٦٣ - Sur la situation intérieure à Alexandrie dans les années 1790, voir *Kléber et Bonaparte...*, T.I., pp. 31 - 37.

DEHÉRAIN, op. cit., p. 217. - ٦٤

GUÉMARD, *Les réformes en Égypte, d' Ali Bey El Kébir à Méhémet Ali*, Le Caire, 1936, pp. 63 - 65. - ٦٥

JABARTI, nécrologie de l'année 1215. - ٦٦

AURIANT, "Histoire d'Ahmed Aga le Zantiote, un projet de - ١٧
conquête du Darfour", *Revue d'Histoire des Colonies Françaises*, 1926, pp.
181 - 234.

١٨ - كان موزيلي قد تزوج امرأة يوسف البيطار، وهو كاثوليكي يوناني من حلب ينتمي
إلى حاشية إبراهيم الصياغ، وزير مالية قسطنطين

(GIBB and BOWEN, *Islamic Society and the West*, T. II, Londres,
(1957) ثم مسئول دمياط الجمركي ومنظم عودة علي بك الكارثية إلى مصر. (PHILIPP,
op. cit. p. 48). ومن ثم فإنه حليف لطائفة الكاثوليك اليونانيين السوريين المساعدة.

١٩ - يرى سكالكرامسكي (*Les Polonais en Égypte*, Paris, 1910, p. V) معتمداً
على ديبر نور التاريخ العلمي، أن ماجالون هو مؤلف التكملة السياسية المنشورة في عام
١٧٨٣ والتي أعيد نشرها في عام ١٧٩٨، والتي ترى فتح مصر (sur ce texte, voir mes
Origines Intellectuelles, pp. 180 - 181). ويبدو ذلك قليل المصداقية، بقدر ما أن مصير
ماجالون، في عام ١٧٨٣، كان يتوقف بدرجة وثيقة على مصير المماليك.

C'est le récit de Jabarti. Sur ce sujet, voir les commentaires de - ٧٠
Peter HOLT, "The last phase of the neo - mamluk regime in Égypt", in
L'Égypte au XIX^e siècle, op. cit., pp. 142 - 151. Voir aussi Afaf LUTFI AL
SAYYID, "The role of the ulama in Egypt during the early nineteenth
Century", in P.M. Holt éditeur, *Political and Social change in Modern
Egypt*, Londres, Oxford University Press, 1968. pp. 264 - 291. Dans le
même ouvrage, voir pour une vision d'ensemble des révoltes cairotes,
l'article d'André RAYMOND, "Quartiers et mouvements populaires au
Caire au XVIII^e siècle", pp. 104 - 117, du même. "Deux leaders populaires
au Caire à la fin du XVIII^e siècle, et au début du XIX^e siècle", *La Nouvelle
Revue du Caire*, 1, Le Caire 1975, pp. 281 - 298. Voir aussi Gabriel BAER,
"Popular Revolt in Ottoman Cairo", *Der Islam*, 54, 1977, pp. 212 - 242.

Traduction de Gilbert DELANOUE *Moralistes et politiques - ٧١
musulmans dans l'Égypte du XIX^e siècle*, (1798 - 1882), Le Caire, Institut
Français d'Archéologie Orientale, 1982, p. 82.

الفصل الثالث

الانتصارات والانتكاسات

الاستيلاء على الإسكندرية

البيان الموجة إلى الشعب المصري

في ٩ ميسينور من العام السادس (٢٧ يونيو ١٧٩٨)، يصدر بوناپارت من على متن لوريان تعليماته بشأن إنزال ثلاثي في الإسكندرية ورشيد ودمياط. فبفضل السيطرة السريعة على موانئ مصر الثلاثة الكبرى على البحر المتوسط، يرى أنه سيكون بوسعهم تمكين القوات الفرنسية من التعلق على القاهرة. وهو يرى أن للملك، وقد فرجئوا، لن يجدوا الوقت لتنظيم المقاومة، وكل ذلك يتطلب التزام والصراحة في العمليات. وفي اليوم نفسه، يحرر الفاتح بيانه الشهير للوجه إلى المصريين. ويصاعده في ذلك فينتور دو بارادي الذي يقدم إليه مشورته في تحرير البيان ويتولى ترجمته. والحال أن المترجمان للمستشرق المعجوز عليهم جيد يشئون مصر، التي كان قد عاش فيها سفرات عديدة في عهد على بك، كما أنه أحد واضعي خطط فتح مصر. ونحن نحوز نسختين من البيان، واحدة عربية والأخرى فرنسية. وهذه الأخيرة مسخ مقصود للنص العربي خاصة فيما يتعلق بدعوى بوناپارت الإسلامية^(١). ويجري استخدام الرطانة الثورية للقوة للأمة العظمى، والسلام للأكواخ، الحرب على القصور، والتي مهزت الحروب الأولى للثورة. لكن هناك سعيًا، في تيار الفكر نفسه، إلى أسلمتها وتمصيرها باستعانة لغة بياني على بك وحسن باشا.

وفي تمشٍ تام مع المشروع العثماني لعامي ١٧٨٦ و ١٧٨٧، يحارب بوناپارت، بمساعدة مستشاريه، أن يصور نفسه في صورة القائم للقضاء على الظالم وإعانة تأكيد السلطة الشرعية العثمانية. فهو يريد استعانة (خطاب - المترجم) إضفاء الشرعية الإسلامية الذي استخدمه حسن باشا الجزائري، قبل ذلك باثنتي عشرة سنة، لكنه يضيف إليه استيهاماته كفاتح شرقي،

باسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك في ملكه.

امن طرف الجمهور الفرنسي الذي على أساس الحرية والتسوية، مصر مصر الكبير بونابارت، أمير الجيوش الفرنسية، يعرف أهالي مصر جميعهم أنه من زمان مديد، السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الأمة الفرنسية ويظلمون تجاهها بأنواع القبح والتعدي، فعند الآن سامة عقوبتهم. واحسرتنا من مدة مصر طويلة، هذه الزمرة المماليك للجلوبون من بلاد الأبهزة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كورة الأرض كلها، فأما رب العاملين القادر على كل شيء فقد حكم على انتقضاء دولتهم.

يا أيها المصريين قد يقولون لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، لذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفتريين، إنني ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص حاكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم دينه محمداً والقرآن العظيم.

وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس يتساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم من بعضهم بعضاً هو العقل والفضائل والعلوم فقط.

وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فمادام يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجوارى الحسن والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية ملتزمة للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم. ولكن رب العالمين رحوف وعادل وحليم، ويعونه تعالى من الآن فصاعداً لا يباس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب للراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة.

أوسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال تلك كله إلا للظلم والطمع من المماليك.

أيها المشايخ والفضة والأئمة والجريجية وأعيان البلد قولوا لأممكم إن الفرنسية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسى البابا الذي كان دائماً يحث للتصاري على محاربة الإسلام ثم تصدوا جزيرة مالطة

وطردوا منها الكوالمهوية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة للمسلمين، ومع ذلك للفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لخدمة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أمام الله ملكه، ومع ذلك إن للماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتلقون معنا بلا تأخير ليصلح حالهم وتعالى مراتبهم. طوبى أيضاً للذين يلقعون في مسلكهم غير مائلين لأحد من الفريقين للتحاربين فإننا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الريل ثم الريل للذين يعتمدون على للماليك في محاربتنا فلا يجهنون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قرية بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر فرنساوية فواجب عليها أن ترسل للعسكر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم فرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر. (٢)

المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر فرنساوي تحرق بالدار.

المادة الثالثة: كل قرية تطيع للعسكر فرنساوي أيضاً تنصب صنجد السلطان العثماني محبباً نام بقاؤه.

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد يختمون حالا جميع الأبناق واليهود والأملاك التي تتبع للماليك وعليهم الاجتهاد لنلا يضيع أمشي شيء منها.

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلزمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة للماليك قاتلين بصوت عال أمام الله إجلال السلطان العثماني، أمام الله إجلال للعسكر فرنساوي، لعن الله للماليك وأصلح حال الأمة المصرية. (٣)

الإنزال في الإسكندرية

منذ مرور نيلسون، من ٢٢ إلى ٢٥ يونيو، بحثاً عن الأسطول الفرنسي، وسلطات الإسكندرية منزوعة. وتهيمن القرية على الشريف محمد كريم^(٤) الذي يحكم المدينة

لحساب مراد بك. لقد قبل تزويد الأسطول الإنجليزي بالماء واللبن الفلثية بشرط رحيله بأسرع ما يمكن. وطلب هون بنو البحيرة، سعياً إلى تعزيز دفاعات المدينة الهزيلة. (*) لكن الإسكندرية التي لا يتجاوز سكانها ستة آلاف نسمة بعد أوبئة الطاعون الكارثية في أواخر القرن الثامن عشر لا يمكن اعتبارها مكاناً حصيناً. ويستمر الانزعاج بالرغم من رحيل الأسطول الإنجليزي. ووجود سفينة حربية عثمانية مهمة، هي الريال، في مرسى الميدام القديم، لا يكفي لتهدئة الخواطر.

ويرسل بوناپارت في مهمة استطلاعية فرقاطة، هي جوتون، لجمع المعلومات الأخيرة عن حالة المدينة ولكي تأخذ على متنها القنصل الفرنسي، وهو ابن أخ لماجاللون. وتود السلطات الاعتراض على رحيل القنصل، لكن قبطان الريال يعطى موافقته شريطة أن يصحب القنصل مسلمان. (٦)

وعندئذ يعلم الفرنسيون بمرور الأسطول الإنجليزي ويقلون على الاستعدادات الدفاعية للإسكندرية. وعندئذ يجري تغيير خطط بوناپارت الأولية (٧). فهو يقرر تحقيق الإنزال الرئيسي في الإسكندرية.

ويصبح الاستيلاء على وشيد عملية تكملية لا تتميز بأثر رئيسي على سير العمليات. والخيار جسيم، لأنه يعود الجيش من نقل عتله الثقيل عبر النهر، انطلاقاً من مصب رشيد ومياط، ويخوض، بالنسبة للزحف، اجتيازاً جدياً صعباً للصحراء لا يملك الجنود الفرنسيون استعداداً له بالمرة. ولابد من الإقدام على هذه المخاطرة لأنه من غير الوارد إبقاء الجنود على الأسطول بسبب خطر معركة بحرية. وكان من شأن مياط ورشيد أن تشكلا موقعي إنزال أكثر ملاءمة للزحف التالي للجيش، إلا أنه لا يمكن التفكير في ذلك بقدر ما أن المماليك يحوزون الإمكانيات، مع شئ من الجهود، لجعل صعود فرمى السلطان صعباً.

ومن ثم فإن الأسطول يتمركز، في أول يوليو، في جوين مربوط في غربي الإسكندرية (٨). ويتمين القيام بعملياتين: ففرق كليبو وبون، للرابطة على سفين الجبهة، تظل تحت سلطة بوناپارت؛ وفرق مينو وبيزيه ورينييه التي تنقلها القوارب، تظل تحت قيادة جنرالات فرقها.

وبهذا الإنزال في ليلة ١ - ٢ يوليو، بالرغم من ثورة أمواج البحر. فبوناپارت يفضل

عند الانتظار. وتصل مرفقة مينو إلى الشاطئ قبل الفرق الأخرى. وتحو ساعتين ونصف صباحاً، يتمتع القائد العام بما يكفي من القوات من فرق يون ورومانيه ومينو لكي يتسنى له الزحف في ثلاثة طوابير نحو الإسكندرية، بالرغم من هيب الدفاعية والفرسان.

وقبل الفجر، يبدأ بعض الجنود في مطاردة الطوابير إلى جانب وحدة فرسان قابعة من الإسكندرية بقيادة كاشف المنطقة. ويسبب هيب الهيباء، يكتفى الفرنسيون بالزحف في نظام. وعند الاقتراب من المدينة، تتوزع الفرق الثلاث على أنحاء مختلفة من النطاق المسمى بـ «برج العرب»، القريب من المدينة الحديثة. وعندئذ يتصحب الكاشف إلى رشيد بحثاً عن المعون. ويحاول بوناپارت التفاوض، لكن مكان الإسكندرية للمحتشدين على الأسوار يلجأون إلى المقاومة. ويون منطعية، لا يملك القائد العام إلا إصدار الأمر باجتياح الأسوار في ثلاث هجمات متزامنة. وتحت قيادة الجنرالات والضباط، يتمكن الجنود من الاستيلاء على الحصون بسهولة ويصاب كثير بجرح في الرأس خلال تلك الهجوم، ويصاب مينو إصابة أقل جسيمة.

وفي بداية ما بعد الظهر، يجري تراشق نسيط بالرصاص في المدينة نفسها، فالسكان يواصلون المقاومة. وفي نهاية الأمر، فإن السكان، الذين يقوهم الأعيان، يستسلمون، وذلك بسبب تفوق أعداد (الجنود الفرنسيين) وبسبب التفارهم إلى الأخيرة. ومحمد كريم هو آخر من يستسلم.

وبالنسبة للسكندريين، تعتبر الصفحة قاسية، فالفرنسيون جد عديدين بحيث أنهم يظهرون حول المدينة، بحسب تعبير الجبرتي، «كالجراة»^(٩). وعرب البحيرة، تحت قيادة الكاشف الملوكي، ينسحبون فوراً إلى الداخل. أما الأعيان، وفي صفاتهم العلماء، فقد تفارضوا على إنهاء للمعارك.

وبوناپارت، المقتنع بالطابع الثوري للوضع المصري، يفسر للمقاومة على إنها سوء فهم^(١٠). وهو يأمر السكان على الفور بحمل الشارة الثلاثية الألوان ويحفظ للعلماء حق الاحتفاظ بأسلحتهم ولربناء الفصال الثلاثي الألوان^(١١). ومن الواضح أن الهدف هو جعل المصريين «جمهوريين».

سياسة الأعيان

يعتبر بوناپارت الإسكندرية منسقة لاختبار لسياسة الخرتية. وخلال المعارك من أجل الاستيلاء على المدينة، جرى البدء بتوزيع البيان الشهير والاكتفاء بنزع سلاح المقاتلين

وتركهم يعودون إلى بيوتهم (١٧). ويصدر القائد العام لأمر صارمة بأن يحترم الجنود السكان وأماكن العبادة. وهو يرسى بشكل خاص سياسة تجاه الأعيان. ففي ٤ يوليو، يحصل على التوقيع على اتفاق بينه والعلماء بشكل ميثاقاً حقيقياً للعلاقات بين الفرنسيين والمصريين. (ويعوجب هذا الاتفاق) يحتفظ العلماء بإدارة القضاء، ويتمتعون بعدم إثارة الفتنة والمؤامرات ضد الفرنسيين. ويعد الفرنسيون بعدم المساس بالسكان وباحترام الممتلكات وعدم إكراه السكان على تغيير ديانتهم وعدم إدخال بدعة في الممارسات الدينية (١٨).

ويتقبل العلماء عن طيب خاطر عروض بوناپارت والتي تمثل بالنسبة لهم ثاراً من المهانات التي خللتها نظام مراد بك. وخلال الحملة العثمانية، كان رجال الدين قد توصلوا، تحت قيادة للشيخ المسيحي، إلى السيطرة على المدينة التي أصبحت، إن صحتنا الجبرتي، للمجتمع الإسلامي المثالي (١٩).

وبعد عام ١٧٩١، اضطر محمد كريم، وكيل مراد بك، إلى فرض سلطته بالقوة، بما في ذلك اللجوء على ما يبدو إلى اغتيال شريف. وبالنسبة للشيخ المسيحي، فإن وصول الفرنسيين إنما يسمح باستعادة السيطرة على المدينة. وهذا هو معنى حلفه واتفاقه الموقع في ٤ يوليو. ومن سوء الحظ بالنسبة له، إن الفرنسيين يجهلون هذا للوضع السياسي ويعتقدون أن من المناسب كسب كرههم نفسه إلى النظام الجديد. ومن ثم فإن رجل مراد يحتفظ بالسلطة في المدينة حيث يحمل اللقب الجديد عليه، لقب «محافظ دائرة الإسكندرية» (٢٠) ويفضل العلماء التوقيع والانتظار.

وبشكل مواز، يجري التوصل إلى اتفاق مع بدو المنطقة. ويصل الأمر بهم إلى حد ادعاء أن المعارك الأولى إنما كانت نتيجة سوء فهم والقباض، ولقد قلتم لنا إنكم إنما جئتم من أجل صالحنا وإنكم لا تعارضون غير المصالح، ظالمينا، لكنكم هبطتم عراً وزحفتم بأسلحتكم علينا، ولم نك نرى أنكم فرنسيون ولم يك يوسعنا أن نتصور إلا أنكم روس، أعداء صديقنا السلطان (٢١).

ويبدو أن السياسة المصرية تبدأ بداية طيبة. لكن السفارة البهوية تصطدم بوحدة فرنسية لم يتم إخطارها بالاتفاق ولا تتحمل لتقراً تصريح المبرور الذي يبرزه البهوي. ويلقى أربعة من بينهم مصوعهم وتنقطع الاتصالات (بين البهوي والفرنسيين).

وفي لحظة الاستيلاء على الإسكندرية عيبتها، كانت القوات الأخرى قد نزلت. وتجرى الاستفانة من توقف العمليات في المدينة لإعانة تنظيم الوحدات التي كان الانتقال قد بعثها بالكامل. وبالنسبة للجنود، الذين يتذكرون راحة للحارب الهائلة في إيطاليا، فإن خيبة الأمل مريعة. فالصاحل الصحراوي والمدينة شبه الخربة والسوة للناخ وعدوة السكان تسمح بتوقع أن الإقامة في مصر سوف تكون أقل هناك. ومنذ البداية، بهذا الجيش في النور من مصر، بينما لا يملك بونابارت غير تعزيز الانضباط مراعاة للسكان.

وهنا بونابارت

مع استكمال الإنزال، تبرز مسألة الأسطول المهدد على الدوام بعودة هجومية من جانب الإنجليز. ويمك بونابارت خيار إدخاله إلى ميناء الإسكندرية لإعادته إلى أوروبا أو توجيهه إلى المراقبة في خليج أبو قير شرق الإسكندرية، المرص الحقيقى الوحيد الآمن من الرياح على الساحل.

ويلزم من إصرار الأدميرال بروي، فإن بونابارت الذى يريد التمتع بإمكانية العودة إلى فرنسا في أية لحظة، يرفض فكرة إعادة الأسطول إلى كورفو. والاختبارات التي أجريت في الميناء تشير إلى أن للموت خطيرة. وهذا التقييم يؤكد بشكل محزن غرق سفينة النقل لوپاتريوت التي كانت تحمل معها من المعدات العلمية، تمهيداً في مصر كان قد تم مع ذلك استكشافه بشكل جيد (٤ يوليو). ومن ثم يرفض بروي إدخال السفن إلى الميناء ولا يبقى عندئذ غير الحمل الوسط الذي يمثل مرمى أبو قير.

وبما أن الإسكندرية، بسبب ضعف سكانها، لا تستطيع تقديم المؤن الضرورية، فإن يجرى استنزاف احتياطيات البحرية بشكل واسع لتغذية الجيش. ومنذ ذلك الحين، يتعين انتظار فتح مصر السفلى كلها حتى يتسنى جمع ما يكفي من الإمدادات الغذائية والسماح للأسطول بالعودة إلى كورفو. لكنه، في الواقع، يظل حبيس أبو قير حيث يستقر في ٧ يوليو.

وهكذا يجرب بونابارت الحظ، إن حملته المصرية سوف تكون سلسلة من الرهانات الجسرة ومن العقبات غير المتوقعة. وسوف يكون الأسطول، فضلاً عن الجيش، محببها.

ومع إملة تنظيم الجيش وإرسال السفن إلى أبو القهر، يتقل بونايات قيادة الإسكندرية إلى كليبر الذى يضطر، بسبب جرحه، إلى ترك قيادة فرقته. ويتمتع الأكراسى فى الساحة بنصف لواء كامل يتلف من ألف وثمانمائة رجل وعناصر احتياطية من الجيش تصل بالإجمالى إلى أكثر من ستة آلاف وخمسمائة رجل، أى أكثر من إجمالى سكان المدينة.

متمثداً يمكن استئناف الزحف على القاهرة. والطريق الأفضل هو الطريق المحاذى للنيل على امتداد فرع ممياط، لكنه يفرض إعادة صعود الجنود إلى السفن ومسيرة ست وثلاثين ساعة، وهو ما ينطوى على قدر كبير من المخاطر بسبب احتمال عودة نهلسون. ومن ثم يتعين الارتداد إلى فرع رشيد (١٧). ولاعتبارات تتعلق بالسرعة وسعيًا إلى تجنب الهجمات للمماليك للمعكة على النيل، يفضل بونايات اجتياز طريق الصحراء عبر المنهور، ويتعين على فرقة بوجا الاستيلاء على رشيد وشغل المماليك ثم تحقيق للتوحد مع بقية الجيش عند نقطة التقاء طريق النهر وطريق الصحراء (١٨).

الزحف على القاهرة

ومما فعل المالكة

ولما لما ذكره كلوت بك، الطبيب والناحية الذي خدم محمد علي، قام روزيتي، بعد استيلاء الفرنسيين على ملطه، بزيارة مراد بك لتخليصه من الخطر المحدق بمصر. ويقال إن مراد بك قد رد عليه :

«لنحسب أن هناك ما يدعونا إلى الخوف من الفرنسيين، خاصة إن كانوا كهؤلاء الكاثاريات (التجار) للوجهين عندها ؟ عندما يهبط منهم مائة ألف، يكفيني أن أرسل للقائم التلاميذ المالك لشبان، الذين سوف يقطعون رؤوسهم بعد ركاب سروج خيولهم».

ولا تحصل الإسكندرية على قدر من النخائر إلا بعد إلحاح من روزيتي.

وبعد الاستيلاء على المدينة، يستدعي مراد القنصل الإمبراطوري ويهوج إليه بامتياز أن يكتب إلى الفرنسيين لإنذارهم بالرحيل فوراً «فيشير روزيتي» لكنهم لم يجيبوا إلى هذا البلد لكي يرحلوا عنه لدى أول إنذار.

«ويواصل مراد ذلك الصبر ما الذي يريد إننا هؤلاء الكفار؟ هؤلاء الموتى من الجوع؟ أرسلوا إليهم عدة آلاف من البوظاقات (نحو خمسين ألف لوتك)، وسوف يرحلون. اعتنئ برد القنصل، لكن ذلك للبالغ يا سيدي لا يكفي لسداد ولو نول أصغر السفن التي حملتهم. إن عليكم الاستعداد للطاع» (١٩).

ويؤكد الجبرتي تقلل الأمراء. على ٢٧ يونيو ١٧٩٨، يصل خبر مرور الأسطول الانجليزي بالإسكندرية وهو ما يستثير انزعاجاً قوياً بين صفوف سكان القاهرة. لكن الأمراء يردون بالتأكيد على أنهم سوف يحمرون الأودوبيين بسهولة عبر حملات للفرسان. والواقع أن نزول الفرنسيين سوف يكشف عن التوتر القائم بين المالك والعثمانيين. وكان محمد كريم قد كتب للرسالات لإبلاغ القاهرة بالوضع. وخبر الاستيلاء على الإسكندرية يهيج سكان القاهرة. ويقرر الأمراء عقد ديوان بحضور الوالي العثماني ومهاجر الدين الرنسيون وأهم الأعيان.

ويقوم الشيخ الساعات مراد علنا على تحدياته على الفرنسيين والتي تعتبر سبب

الفرد. ولا يرد للزعم المملوكي بشيء، لأنه مضطر إلى ملزمة الشيخ القوي، لكنه يقرر
الثار لنفسه عندما تسنح الفرصة لذلك (٢٠). ويتهم شيخ آخر للملك بأنهم تركوا موانئ
مصر بلا دفاعات. ويرد عليه مواد بأنه لو كان الأمراء قد اتجهوا إلى تحصين الموانئ،
لأتهمهم العلماء بالتحضير لتمرد على السلطان (٢١).

والأرجح أنه كان على علم بمحتوى بيان بونابارت، بل وربما برسائله إلى والي مصر
والتي جرى التأكيد فيها على أن الفرنسيين لم يجهتوا إلا لإنزال العقاب بالمماليك الذين
كاثروا المهانات للتجار الفرنسيين، وأن الباب العالي قد أعلن أن الهكوات، وهم أناس يحركهم
الهوى والشه، لا يراعون مبادئ العدل وأنه ليس فقط لا يجيز اللطائف التي يرتكبونها في
حق أصدقائه الفرنسيين الصالحين والقديماء، بل إنه يشملهم بحمايته (٢٢).

ويهاجم مراد بك العثمانيين الذين يشتبه في تواطؤهم مع الفرنسيين. وهو يهاجم
بشكل خاص والي العثماني، بكر باشا:

«- إن هؤلاء الفرنسيين ما دخلوا على هذه الفيار إلا بإذن الدولة العثمانية، ولا بد أن
الوزير عنده علم بتلك النية، ولكن القدرة تساعدا عليكم وعليهم.

«فاجابه الوزير - لا يجب عليك أيها الأمير أن تتكلم بهذا الكلام العظيم. ولا يمكن
أن دولة بني عثمان تسمح بدخول الفرنسيين على بلاد الإسلام. فدموا عنكم ذلك المقال
وانهضوا نهوض الأبطال واستعدوا للحرب والقتال» (٢٣).

ولاستجلاء الأمر، يقرر الديوان الكتابة إلى الباب العالي. وكان قد جرى قبل ذلك
إرسال رسول إلى الفرنسيين لصفالهم عن أسباب مثل هذه الأعمال التي تتعارض مع
الصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. لكن التأكيد، الوارد من روزيتي،
والخاص بالاستيلاء على الإسكندرية يضع حدا للترددات. وعندئذ يقرر الديوان أن يعلن
العلماء الجهاد - فمصر تعتبر أرضاً للإسلام - كما يقرر طلب العون العاجل من الباب
العالي (٢٤).

وفي مرحلة أولى، يحدد تكتيك الفصل بين العثمانيين والمماليك نجاحاً. ومن المؤكد
أن التعارض بين الطبقتين الحكمتين القوي من التعارض بين المماليك والمصريين الأصلاء.
والدفاع عن الإسلام هو الشعار الوحيد الذي يسمح بخلق جبهة مشتركة ضد الفرنسيين.
وهذا الوضع ليس إلا وضعاً مؤقتاً وخلال السنوات الثلاث للحملة، يفكر العثمانيون

والمماليك في الصراع الذي لابد أن يجرى في أثرها من أجل السيطرة على مصر. والمماليك المعرضون للتهديد بالفعل من جانب العثمانيين، عليهم أيضاً أن يواجهوا تمرد العلماء. وقد شهدت الأمور السايقة تعاظم الخلافات بين أرباب السيف وأرباب الشرع والآن يتهم هؤلاء الآخرون للمماليك بالعجز عن التصدي للفرنسيين. والانتهاك من أخطر الاتهامات لأنه يشكك في مبرر وجود هذه الجماعة العسكرية عيثة. لفقدان الشرعية هو جزاء هزائم المماليك وهؤلاء يعرفون ذلك جيداً.

كما يناقش النيهان مصير للمسيحيين والأرمن في القاهرة، والذين يهددون بتشكيل طابور خامس في داخل المدينة. ويؤيد الوالي العثماني لاحتجاز الأرمن وتفتيش بيوت للمسيحيين بحثاً عن الأسلحة التي قد تكون هناك. وبعض المماليك، بدعمهم من مكرم، نقيب الأشراف، يقترحون تعذيب أكثر تجاوزاً كإبادة النصارى قبل الخروج لمحاربة الكفار. لكن الوالي يغلّب رأيه بمساعدة إبراهيم بك ملكاً بالمهادى الأساسية للسياسة العثمانية، «غير ممكن أننا نسلم إلى هذا الغرور والرأي. لأن هؤلاء رعية مولانا السلطان، صاحب النصر والشان» (٢٥).

ويحصل مراد بك على تكليف بالخروج لمحاربة الفرنسيين، بينما يجرى حشد بقية القوات في القاهرة. ويكلف الجنود للصادرات التعسفية على حساب سكان القاهرة بينما ينتاب النصارى الذعر. وينشغل إبراهيم بك والوالي العثماني يومياً بتهنئة خواطريهم. ومن جهة أخرى فإن الأرمن، ومن بينهم بونيهي، يجرى لاحتجازهم في القلعة. ويجد آخرون من بينهم مأمناً في بيت الست نفيسة (٢٦).

طولهوور

إن الطريق الذي اختاره بوناپارت هو الطريق الذي يحاذي الترعة التي تربط الإسكندرية بالنيل. وهذه الترعة، قبل تعميق حفرها من جديد في القرن التاسع عشر، ترعة جافة في الجزء الأعظم من السنة. وهي لا تحتلئ بالماء إلا خلال فيضان النيل. وفي تلك الفترة القصيرة، تساعد على ري الماصيل وتخزين خزانات الإسكندرية، وهي تعتبر المحور الرئيسي لها بالماء. ومن جهة أخرى فإن توزيع هذه المياه هو رهان نزاع سنوي قاس بين المدينة والريف. على أن المسؤولين الفرنسيين يأملون في أن يجنوا الماء بكمية تكفي لتغذية الجيش.

ومنذ ٢ يوليو فإن نهريه، الذي حصل على قيادة القوة الامامية، يرحل مع فرقته

ونصف لواء من المشاة الخفيفة بقيادة مارمون. وخيبة الأمل مريعة، فالأمر يتطلب اجتياز منطقة جافة لا يوجد بها خير القليل من مصادر المياه. وهذا الوضع ورغم القيادة الفرنسية على توزيع قواتها حتى يتسنى لها الاستيلاء على الآبار والخزانات النادرة. والجنود غير المهينين لتهته ليلاد حارة والذين يحملون أمتعتهم يشكون من الحر. ويخافون وينهبون وفروقتهم بدورهما الإسكندرية في ٥ يوليو ويتمان الالتقاء مع دينيا في مهنود. في ٧ يوليو. وكان القائد العام قد أمرهما بمراعاة السكان إلى أقصى حد ممكن وبأن يدفعوا بصورة منتظمة ثمن مشترياتهما، وبأن يوزعا للبيانات الشهيرة. ويتعين عليهما اختزال استخلام للدفعه قدر الإمكان سعياً إلى توفير الأخيرة والتحضير بشكل خاص للمجاهة لتقنيات المعارك الأوروبية، إن الفن هنا إنما يتمثل في إخفاء كلفة إمكانات غير العادية، وعدم اللجوء إلى استخلامها، وبالأحرى عدم مفاجاتهم باستخلامها، إلا عندما يكون علينا قتل قوات ضخمة (٢٧).

والواقع أن زحف القوات الفرنسية يتم دون مشكلات عظيمة مع المصريين باستثناء هجمات البدر. أما التهدة التي تمت في الإسكندرية فإنها لا تدوم طويلاً، وربما كان ذلك بسبب صحة الجهاد التي أطلقها العلماء (٢٨). ويجري إلزام الجنود بالمراماة الصارمة لانضباط الزحف (٢٩) وفي الليل، تتكاثر الاستنفارات التجريبية.

وفي مهنود، فإن أحد كبار رجال الدين هو الذي يستقبل الفرنسيين بأمارات الصداقة. على أن جندياً يلقى مصرعه. ويتم إلقاء القبض على الجناة، إلى جانب رجل الدين المشار إليه، ويجري إعدام أربعة أشخاص رمياً بالرصاص ويتم نزع سلاح للديته.

وشيط

في الإسكندرية. كان هوناهارت قد قرر أن يعهد بالعتاد الثقيل للجيش (خاصة المعلمية) إلى دوجا الذي تولى قيادة فرقة كليبر. ويتعين عليه الزحف بمحاذاة الساحل على رشيد وصمود للنيل من هناك. وهو يفادر الإسكندرية في ١٦ يوليو ويخيم في العراء مسلةً في أبو قير في اللحظة ذاتها التي يتمركز فيها الأسطول في الخليج. ويقدم له السكان الزوارق الضرورية لاجتياز الممر بين بحيرة للمعدة والبحر. وتبوء الساعات الأخيرة للزحف جد مرهقة ويموت عدة جنود من العطش والتعب. على أن الفرنسيين لا يصادفون أية مقاومة. بل إن عدداً من الفلاحين يرتدون للشارية الثلاثية الألوان.

وفي القرن الثامن عشر، كانت رشيد هي المدينة المصرية الأكثر انفتاحاً على

الأوروبيين في رأى الرحلة، ومن هناك شهرتها بأنها تسبب مكان في مصر. وكان تدفق اللاجئين من الإسكندرية قد أدى إلى إثارة نفور السكان. ويوجد عدد من التجار الكريتيين المسلمين حمل السلاح وذبح الأوروبيين الموجودين. ويلقى خاتم فرنسي مصرعه على أيدي للعوام. لكن تلاوة بيان بوناپارت تساعد على تهدئة الخواطر وتقرر السلطات جعل رشيد مدينة مفتوحة. أما لولئك الذين يريدون المقاومة والصراع فإنهم يدخلون إلى اللخل(٢٠). ويبدو أن السكان يؤمنون على نحو خاص بجهنم المماليك ويخشون من وقوع أعمال انتقامية في حالة تقديم خدمة للفرنسة(٢١).

ويصدر نوجا بياناً يهدف إلى دعوة الأعيان الذين فروا إلى العودة إلى المدينة. وهو يضع تحت الحراسة مختلف الخزائن العامة التي سوف تخضع لرقابة لجنة مؤلفة من التاجر الفرنسي فانسى وجان بلوكى، وهو تاجر يونانى على ما يبدو، وثلاثة أعيان مسلمين من بينهم السيد بدوى، تقيب الإشراف(٢٢). وبعد أن أراح القوات وحصل على تعزيزات، يواصل الترحيل في ٩ يوليو محاذياً النيل في اتجاه الرحمانية. ويصحبه أسطول صغير من الزوارق المسلحة للكلية بمساندة الجيش. وعندئذ يتولى مينو قيادة رشيد ودواحيها.

زحف الجيش

اعتباراً من ٦ يوليو تزحف بقية الجيش - فيما عدا حامية الإسكندرية - على دمنهور. ويغادر بوناپارت وأركان حربه للبناء في اليوم التالي ويتولون حشد القوات في دمنهور في يومي ٨ و ٩ يوليو. وكانت القوة الأمامية قد استنفدت احتياطات المياه المحلية إلى حد بعيد. وتعد الخزانات يبدو أكثر شحاً بالوحد مما بالوسائل الثمين. كما أن أوجاع الجرد مبرحة. فهم يرتدون بذات عسكرية تتلاءم مع المناخات الأوروبية. وظناً منهم أن بوسعهم شن غارات صلب ونهب كما في إيطاليا، فإن كثيرين منهم قد تخلصوا من احتياطات المؤن الغذائية التي تكفى لأربعة أيام والتي كانت قد سلمت إليهم. وعندئذ يضرب الجوع إلى العطش. وتتحول خيبة الأمل التي أصيبت بها في الإسكندرية إلى نفور تام من بلد الحرمانات هنا. وتتدخل القوات وتفتقر همتها. بل إن البعض سوف ينتحرون. ثم إن جنرالاً من سلاح الفرسان، هو ميريور، إذ يرى أن شرفه العسكري قد أهدر بنقله من وحدة إلى أخرى، يبحث عن الموت طوعاً على أيدي العدو. ويتصور الجندي أن هذا المصير إنما يرجع إلى شكوى الجنرال إلى بوناپارت من معاذاة القوات.

والواقع أن الفاتح لم يك أمله أى حل آخر غير الإسراع بالتحرك مع صون انضباط الجيش. وانطلاقاً من مفهومه، تبدأ المناوشات الأولى مع المماليك، ولكن هؤلاء لا يصمدون أمام تلاحم القوات. وفي ١١ يوليو، تصل الوحدات الأمامية إلى ضفاف النيل وتتوزع بخوض النهر وبالتدقيق على حقل البطيخ. ويتم الالتقاء مع قوات توجا التي صنعت النيل دون صعوبات. ويلتقي الجيش الاتصال بقاعدته في المنصورة، الإسكندرية وأبو قير ورشيد. ويتصرف كجسم فريد تماماً في الطبيعة المصرية. وقد أجاد سولكويسكي وصف هذا الوضع:

«ربما كان من الهائز تشبيه مجهود الجيش بمجهود كتلة لا تقاوم تدفق من جسم لندن مطاط، لكن هذا الجسم صرعان ما ينكمش بعد خروجها. ولم يك يعيننا إلا ما يوجد في مرمى أسلحتنا؛ وكان للجال التالي مأمولا بالعرب والمماليك. وكنا نجهل أيضاً وضع العدو، نجهل تلك المعلومات الضرورية التي لا يمكن دون توافرها تحديد أية حركة بإيمان كامل بالذخاج». (٣٣)

المماليك والحروب

كان مراد بك قد تولى مسئولية التصدي لغزو الفرنسيين بينما حشد إبراهيم بك بقية القوات في بولاق، قرب القاهرة. والواقع أن المماليك لم يكونوا مهينين البتة لهذا النوع من المعارك، وهم يجهلون تماماً الانضباط الأوروبي. ثم إنهم، باستثناء حملات على بك وأبو الذهب السورية، لا يملكون أية معارضة قتالية في المعارك. والحرب، بالنسبة لهم، ليست غير إحدى أدوات سياسة قائمة على المكائد والخصائس. ويقدم قولنى وصفاً مهماً لذلك: «إن الفريق الأقوى أو الأكثر جسارة يطارد الآخر؛ فإذا كانا ندين في الشجاعة، فإنهما يتمهلان أو يتواعدان، وعندئذ، بدون مراعاة لمزايا الوضع، تتقارب القوتان على شكل ركاب؛ وتختار كل قوة رجلها، ويبدأ الدمى، إن أمكن، ويجري الانتقال بسروعة إلى الحسام؛ عندئذ يتجلى فن الفارس ومرونة الجواد. وإذا ما سقط الجواد، ضاع الفارس [...] وغالباً ما تحسم المعركة بمصرع رجلين أو ثلاثة رجال». (٣٤)

أمّا جوزيف كنت، وهو مبشر ألماني عاش في القاهرة من عام ١٧٧٠ إلى عام ١٧٨٢، فإنه يقدم هذه الصورة الأعم: «ما زال في القاهرة الكبرى كتاب أخبار حرب يروون الأخبار الأكثر تهجماً عن معركة تالها وبلا طائل بين البكوات المصريين، لا يموت فيها على الأرجح غير خمسة أو ستة رجال من عدة آلاف. وإذا على ثقة من أن لكرم لو قرأ رواياتهم

بعد بضعة قرون لتصور أن مثل هذه المعارك كانت أعظم بكثير من أية معركة بين ملك بروسيا والنمساويين خلال حرب السنوات السبع^(٣٥).

على المستوى الفردي، يعتبر الفارس المملوكي أكثر تفوقاً من الفارس الفرنسي؛ فهو أكثر سرعة وأكثر صلابة. وقبل أن يهجم، يستخدم ستة أسلحة، الخنجر، والخنجر، وخنجر من المسدسات، حيث يحمل الزوج الأول في اليمين السرج والزوج الآخر على صدره. وخلال الهجوم، يعيد خاتم السلاح لحن أسلحة سيده الذي يمكنه بذلك تكثيف الهجمات. على أن نابليون يرى أن سلاح الفرسان الفرنسي الكبير العدد (أكثر من مائتي جواد) يعتبر أكثر تفوقاً من سلاح فرسان المماليك وذلك بسبب الانضباط الجماعي والمساندة التي يقدمها سلاح المشاة^(٣٦).

ومثل على بك، تطور البكوات قوات من المرتزقة للدخول من أصول مختلفة، وذلك لتخفيف نقص المشاة المراجع إلى انحطاط القيمة العسكرية للوحدات العثمانية القديمة. وقد رأينا أنهم كانوا مدركين لضعف منفعيتهم وقد بدأوا في علاج ذلك بالضعف. وهم يتمتعون في المقابل بقدرة بالغة على الحركة وهم متخصصون في حرب العصابات في مصر العليا. والواقع أن الفريق للملوكي الذي ينسحب إلى مصر العليا يستحيل عملياً القضاء عليه أو استحصال الإمساك به على الأقل. على أن مراد وإبراهيم سوف يتبعان، بسبب عدم الإثراء أو بسبب واجب اللطائف من جماعة المسلمين، نوع الحرب الذي يفرضه الفرنسيون. وسوف يبدو أن حلزون من المزاوجة بين التطور الجديد لأسلحتهم (المنفعة، المشاة، الأسطول النهرى) وسلوكهما التقليدي كفارسيين والذي سرعان ما سوف يعود إلى الصلابة.

شهوراً هبت

يقرر بوناپارت تحقيق الحشد الجديد لإمكاناته في الرحمانية عند مخرج طريق الصحراء. ويسمح له ذلك بإراحة رجاله. وفي ١٢ يوليو، يعلم أن مراد يقترب، وعندئذ يأمر قواته بالخروج. وفي ١٣ يوليو، تبدأ المعركة قرب شبراخيت، على الأرض وعلى النيل^(٣٧). وكان للمماليك قد نصبوا بطارية مدفعية تغطي النهر وتساند أسطولهم الحربي الصغير.

وعلى الأرض، يتسنى لبوناپارت استغلال مفاجاته الشهيرة، التشكيل الذي يأخذ شكل مربع. وكان النمساويون والروس قد طوروا هذا النوع من التشكيل في حروبهم ضد

العثمانيين في مستهل القرن الثامن عشر. لمواجهة سلاح الفرسان العثماني للماتل لسلاح فرسان المماليك. والجهش الفرنسي يعرف هذه للتأخرة لأنها مقرر منذ عام ١٧٧٦، لكنه لم يمارسها قط من قبل (٢٨). وهي الابتكار العسكري الكبير للحملة؛ وسوف يجرى تعميمها خلال حروب القنصلية والإمبراطورية. وعلاوة على مجرد الأشكال الكلاسيكية التي عرفها القرن الثامن عشر، فإن التشكيل الذي يأخذ شكل مربع إنما يرمز إلى ازدهار القيمة العسكرية لجندوة الثورة بعد الأصوام الأولى حيث كان المجلس يعوض انعدام الخبرة. ومن ثم تتخذ الفرق الخمس شكل مربعات أو بشكل اتقى شكل متوازيات أضلاع يتم داخلها حماية معدات الفرق والقليل من سلاح الفرسان (١٠). وعلى الزوايا، يجرى توزيع قطع المدفعية، ويجرى توزيع القوات بشكل يسمح بتغطية إحداها للأخرى.

وبحكم جدة التشكيل بالنسبة للجندى الفرنسي، لقد كان يتوجب الأخذ بالصعائل والكثائب باليد واحدة إثر الأخرى لتوزيعها على المواقع التي يتعين عليها شغلها في التوزيع العام، (١١).

ويحيط المماليك بالمربعات بحثاً عن نقطة ضعيفة، ولا يجدون نقطة كهذه، ويبدون أنهم يهشرون لدقة تراشقات الجنود الذين يقتلون عدداً من المهاجمين. والواقع أن هذه الخسائر الطفيفة إنما تكفى، بحسب المنطق المملوكي، لوقف معركة تبدأ بدلية سيئة. وعندما ينسحبون، يتركون بطارية المدفعية للفرنسيين، وهو ما سوف يسمح بتخليص الأسطول النهري من وضع صعب.

والواقع أن مراد وباباس لوغلو كانا قد وضعا نواياهما ومدافعهما في منحني للنهر، وهو ما يسمح لهما بإخطاع الوادي لنيران متتابعة على امتداد فرسخ. ويطلق رجال المدفعية نيرانهم بدقة على الهدف ويلحقون خسائر جسيمة بالسفن الفرنسية التي يتولى قياداتها بيريه. وتخرج عدة سفن من المعركة النهرية وتتخذ أطقمها والجنود النازلون منها تشكيل مربعات على الضفة انتظاراً لحيء بقية الجيش لنجبتها، وهو ما يصبح ممكناً من جراء انسحاب المماليك. وهذا الحادث يثبت كفاءة بحرية مراد بك النهرية التي كانت أن تجهز بالكامل على بحرية الفرنسيين بالرغم من الخسائر الفادحة التي لحقت بها. وفي الجانبين، فإن العدد الرئيسي من القتلى والجرحى إنما يجرى من المعركة النهرية. وبالنسبة للمستوليين الفرنسيين، فإن الشيء الأهم هو البرهان الماتل، إن توسع الجيش الصمود أمام هجمات سلاح الفرسان المملوكي.

سأمر الجيش

محدث يمكن استئناف الزحف. لكن الجنود، الذين يعانون من الحر، وتموزهم المؤن ويتأهبهم للسخط على الوجود في بلد يؤس جد مختلف عن إيطاليا للثرية، بينهمكون في نهب كل ما يجدونه في طريقهم. بل إنهم يفعلون ذلك أمام القائد العام. ويوجاء للكلف باستماعة النظام في فرقته، يجد أن جنرالات الألوية يفعلون سخطهم على حال الجنود. ويمتد الضيق إلى الكواثر الوسطى التي لا تفهم سبب وجودها في مصر. وسوف يتذكر ناهوليون ذلك في سانت - هيلين.

«كان الجيش مصاباً بمزاج سوءاوى كثيف لم يك يوسع أى شى قهره؛ وكان هناك للسام؛ وقد رمى عدة جنود بأنفسهم في النيل حتى يجدوا فيه موتاً عاجلاً. وعلى مدار الأيام، بعد أخذ للخيمات في العراء، كانت الضرورة الأولى للرجال هي السباحة. وعند خروجهم من النيل، كان الجنود يهتلون في الانشغال بالسياسة. وفي الإعراب من سخطهم، وفي إهداء الأسف تجاه الحالة المزعجة للأمور. «لأجل أى شىء جئنا إلى هنا؟ إن حكومة الإنارة قد حكمت علينا بالنفى». وأحياناً ما كانوا يهتلون على قائدهم، الذى يخهم بشكل متواصل على ضفاف النيل، وللحروم من كل شىء شأنه شأن آخر جندى؛ فعشاء أركان الحرب يتألف غالباً من طبق من العنيس. وكانوا يقولون «لقد أرادوا للتخلص من؛ لكن بدلاً من أن يقوموا إلى هنا، كانت تكفى منه إشارة واحدة حتى نطرد أعداءه من القصر كما طردنا الكليشييين من قبل» (٤٢)

والأوامر اليومية تذكر الجيش بأنه لم يأت إلى مصر لمحاربة المصريين، بل لمحاربة للماليك، وتجعل الضباط مسئولين عن مصك جنودهم. لكن أعمال النهب، الراجعة أساساً إلى نقص المؤن، تستمر بالرغم من الأوامر التي تنهى عنها. وللمرة الأولى منذ الإنزال، يهرب السكان جماعات هند وصول الفرنسيين. وبما أن الفترة فترة انخفاض للمياه، فإن الأسطول النهري يجد صعوبة في صعود النيل ويتخلف عن زحف الجيش. وهذا يزعم كثيراً القيادة الفرنسية التي تجد نفسها أمام استحالة إصغار الأمر للجنود بعبور النيل. وإذا حشد للماليك قواتهم على الضفة اليمنى (ضفة القاهرة)، فسوف يخطر الفرنسيون إلى المعونة إلى الدلتا، لتعزيز مؤنهم قبل بدء الفيضان مباشرة. ومن ثم يخامر بونابارت بالزحف لندماً، للحصول على معلومات وإرهاب العدو وإرغامه على القتال (٤٣).

الفرنسيون والمماليك

يؤدى خبر معركة شبراخيت وانسحاب مراد بك إلى إثارة الذعر فى القاهرة. وعندئذ يقرر الأمراء للمماليك إقامة تحصينات على ضفتى النيل على مشارف للقاهرة. ويتولى إبراهيم بك المسئولية عن الضفة اليمنى بدءاً من مدينة بولاق، بينما يتولى مراد بك المسئولية عن الضفة اليسرى، مجاله التقليدى (كان قصره فى الجيزة). بدءاً من امبابه، وتجرى دعوة سكان الناحية إلى العمل من أجل إقامة هذه للتحصينات. كما يطلب الأمراء من الأحلاف البدوية الكبرى حتى أحلاف مصر العليا. ويؤدى وصول للبدو إلى إثارة رعب سكان عاصمة مصر. ويجرى إغلاق المكاكين والأسواق.

وينزعج الجميع من بيان بوناپارت: «من الناس من يقول هذا امر سلطانى وان الفرنج صحتهم بشوات من عند السلطان والمالب بلاد للريف والفلاحين يعتقد ذلك بسبب للمكاتبه التى أرسلوها إلى البلاد» (١٤).

وكلما ازداد الفرنسيون الثراء من المدينة، كلما تجلى لتقسام للمماليك وعجزهم عن اتخاذ قرار. وبالمناسبة للجبروتى، فإن القوة حقيقة بين سلوك كل من الخصمين، والفرنسيون يتحلون بالنظام والانضباط، وهما خاصيتان تقربهما من مجاهدى الإسلام الأوائل. أما المماليك فإنهم لا يستحقون بالمرة مثل هذه الصفة. لقد كانوا «منحليين العزائم متناظرين للقلوب، مختلفين الآراء، متحاسدين لبعضهم، حرسين على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مغرورين فى غفلتهم وغرورهم، مختالين فى زينتهم وكبرهم، خائفين من نقص عندهم، متبخترين فى حكمهم وحليهم، غير ملكرين فى عاقبة أمرهم، محتقرين لعبودهم، فاسدين القتل فى دينهم وديارهم، بخلاف الطائفة الأخرى الفرنسية، فإنهم بالعكس فى جميع ما ذكر كأنهم مفتلين لأثار الأمة فى صدر الإسلام، ويرون أنفسهم مجاهدين ولا يستكثرون عند عدوهم ولا يبالون بمن قتل منهم، ويعود أن من ولى منهم كفر ملته وخرج من بيته وطريقته، يظفون لأمر أميرهم ويمثلون طاعة لكبيرهم، مثله لحدهم شبهته التى على رأسه، ومركبه قدميه، وطعامه وشرايه بلغة وجرة معلقان تحت إبطه، ومتاعه وما يغيره من ملبوسه معلق خلف ظهره كالرسالة، فإذا نام اضطجع عليها كالعادة ولهم علامات وإشارات فيما بينهم باللون عندها ولا يتعمدون حدها» (١٥).

الأهرام

عندما يصل بوناهارت على مقربة من الواقع للملوكية، في ٢١ يوليو ١٧٩٨، يأمر جيشه باتخاذ تشكيل للرمات ويهبط مع فرقة نوجا. وهو يلقى خطبة قصيرة في الرجال المحيطين به، وهو يشير إلى الأهرام، «لقد سموا، دخلوا في امتباركم أن أرى من قرناً تطل علينا من فوق هذه الأتار». وهذه الكلمات القصيرة سوف تستعاد بشيء من التحوير من جانب كاتب القرن التاسع عشر لتصبح العبارة الشهيرة: «إن أرى من قرناً ترقبكم من نرى هذه الأهرامات» (٤٦). ويهاجم المماليك القوات الفرنسية، لكن هجماتهم تتحطم تحت وابل من نيران مدعية ومشاة الخزانة للتلاقي. وفي تلك الأثناء، تحتاج فرقتا بون ومينو تحصينات مراد بك وتشنان هجوماً مضاداً على القوات للملوكية ويتبعثر شمل هذه القوات الأخيرة وتلقى بنفسها في النهر بما يؤدي إلى خرق الكثيرين. وفي ختام هذه المعركة القصيرة، التي لا تقوم أكثر من ساعتين، يجمع مراد مملوكه للرئيسيين وينسحب إلى مصر العليا.

وهذه المعركة، التي دارت في أمبابة، سوف تسمى، لاعتبارات الفخر والهيبة، بـ «معركة الأهرام». ولحق أن بالإمكان رؤية الأهرام على بعد مسافة معينة. وسوف يتفاخر بوناهارت أمام حكومة الإنارة بأنه قد دمر الجانب الرئيسي من للملكية: «إنني أقدر خسائر للمماليك يلقى رجل من صفوف الفرسان. إن جزءاً كبيراً من البكوات قد جرحوا أو قتلوا» (٤٧). والواقع أن خسائر للمماليك بالمعنى الحقيقي للمصطلح ناهية، فالجانب الرئيسي من القتلى يتألف من للشاة وخدم الصلاح. ويذكر الجبروتى «لم يمت في هذه الواقعة إلا أيوب بك الدفتردار، وإبراهيم بك الوالى الذى بنفسه ولزمه إلى البحر لفرق ومات وثلاثة كشاف ونحو العشرين مملوك وأسروا منهم جماعة» (٤٨).

والأرجح أن الخسائر كانت أكثر من تلك بكثير، وهو ما لا يذكره المؤرخ المصرى، لكن اتساع للقارمة للملوكية اللاحقة يشير بوضوح إلى أن الجانب الرئيسى من قوات للمماليك للقتلة يظل سليماً. والمماليك، مرة أخرى، أولياء لعائلاتهم الحربية: فإذا كان عدد القتلى في صفوفهم يأخذ في أن يصبح مهماً، فإنهم يتسحبون، حتى لو ترتب على ذلك هجر عاصمة مصر.

وفي مثل هذه الظروف، يحمل للمماليك معهم الحد الأقصى من الذهب والمجوهرات،

لهم يتركون بقية ممتلكاتهم في القاهرة. كما أن الجنود الفرنسيين ينقضون على جثث المماليك القتلى في المعركة، ويستولون على ثروات حقيقية.

وعلى الضفة الأخرى للنيل، يرى إبراهيم هزيمة مراد. وعلى الرغم من أنه في وضع قوة على النمام، لأن الفرنسيين لا يحوزون إمكانيات عبور النهر، فإنه يفضل الهرب إلى السلا مع ممتلكاته والوالى العثماني، تاركاً القاهرة بلا أية سلطة شرعية.

وكان السكان قد تابعوا المعارك من بولاق. وقد أكثر أفراد الطرق الصوفية جد العديد من صيحات التوصل إلى الله. ويشير الجبرتي إلى فشلها التام. وبعد لتحصار بوناهارت على الضفة اليسرى، فإنه يأمر بالقصف بالضفة اليمنى. وهذا يرد السكان إلى القاهرة.

وسرعان ما ينتشر الذعر هناك. وما أكثر الأعيان والسكان للمسيحيين الذين يسعون إلى الهرب دون أن يعرفوا ما إذا كان الأفضل هو التوجه إلى الجنوب ثم التوجه إلى الشمال. وما أن يبتعدوا قليلاً عن المدينة، حتى يجرى عليهم من كل ما معهم، من الأشياء الثمينة إلى جميع ثيابهم، على أيدي البدو، المستفيدين الرئيسيين، هم والجنود الفرنسيون، من هذه المعركة.

استسلام القاهرة

في المدينة نفسها يتهكم السكان - الغاضبون من تخلي السلطات الشرعية عنهم - في نهب دور وقصور المماليك. ويتزايد الرعب بقدر ما أن أسطول مراد بك النهري يأخذ في الاحتراق وتؤدي أسنة القهب والانفجارات إلى تصور أن الفرنسيين يزحفون في الليل وهم يحرقون ويحرقون كل شيء.

وفي صباح اليوم التالي، يجتمع العلماء في جامع - جامعة الأزهر، وهم يمثلون ما بقي من السلطة الشرعية. وكان بعضهم قد حاول الهرب من المدينة لكنهم تراجعوا عن ذلك خوفاً من البدر. وتمكن بعضهم الآخر من اللحاق بإبراهيم بك. وتلك هي حالة عمر مكرم، نقيب إشراف القاهرة.

ويذكر الجبرتي أنه جرى اتخاذ قرار بإرسال تاجر مغربي يتحدث بالفرنسية إلى الغزاة، سعياً إلى دخول سلمى من جانب الفرنسيين. أما نقولا الترك، فهو يذكر أن تجار

فرنسيين هم الذين اختيروا لهذه المهمة. ويبقى أن بوناپارت يرد بأنه يريد لقاء وفد من العلماء وأنه سيعهد بجزء ملحوظ من الإثارة إلى هذه الجماعة الاجتماعية من خلال ديوان. ويوجه بوناپارت إلى الوفد الذي وصل مؤخراً بياناً يشكّل استمراراً لسياسته، «ها أهل القاهرة، إثنى وأثنى من ممتلككم. لقد احسبتم عملاً بالامتناع عن الوقوف ضدي. لقد جئت للقضاء على جنس المملوك ولحماية التجارة وأهل البلد».

«الليطمئن كل من انتابه الفزع؛ وليوجه كل من رحلوا إلى بيوتهم؛ وليهرأ أبناء الحسنة اليوم كالمعتاد، فأنا أود أن تستمر على الدوام. لا تخافوا من شيء على عائلاتكم ويهولكم وممتلكاتكم، وخاصة على دين الذي أحبه. وبما أن من اللجأ الأ يعكر الطمأنينة شيء، فسوف يكون هناك ديوان من سبعة أشخاص سوف يجتمعون في الجامع الأزهر. وسوف يوجد منهم هناك بشكل دائم اثنان إلى جانب قائد الموضع، وسوف يهتم أربعة بحفظ للسكينة العامة والسهر على الأمن» (١٩).

وهذا الضمان اللقيد إلى السكان يطمئن أهل القاهرة ويعود الهدوء تدريجياً. كما يذبح بوناپارت في الحصول من الأعيان على القوارب الضرورية لنقل وحدة كانية من الجنود إلى الضفة الأخرى. ومنذ مساء ٢٢ يوليو، تدخل القوات الفرنسية إلى القاهرة، وفي ٢٢ يوليو، يكتمل احتلال لليلة.

القاهرة

بالحارات في القاهرة

إذ العصر العثماني - بعيداً من أن يكون عهد انحطاط - قد عرف نمواً حضرياً وديموغرافياً قوياً للقاهرة بما يجعل من هذا التجمع مركزاً حضرياً غير متناسب مع المدن المصرية الأخرى نظراً لما هو عليه من ضخامة. إذ يبدو أن المدينة قد انتقلت من نحو مائة وخمسين ألف نسمة في أوائل القرن السادس عشر إلى مائتين وستين ألف نسمة في أواخر القرن الثامن عشر. وهذا التطور يرجع إلى السقوط العثمانية الواحدة الضخمة إثر الفتح، وعلاوة على أرسنقراطية للماليك وكبار العلماء السائبة، تضم المدينة بورجوانزية مهمة من التجار والصرفيين. على أن الأزمة السياسية والاقتصادية في أواخر القرن قد عرقلت بالتأكيد نمو عدد البهر، وعززت وجود بروليتاريا مهمة تتألف من مئتين ألف شخص، بما يشكل طبقة خطيرة، حقلية في نظر الأرثوذكسية الهندية، لأنها غالباً ذات دين محل شك وسريعة إلى المشاركة في التمردات. والأحيان ينزعجون نائماً من أعمال هذه الجماعة السكادية (الجميحية، أو بعلش الناس)، حتى مضوا بنجحون في نهاية الأمر في تسريح حركاتها، بفضل الطرق الصوفية (٥٠).

ويقيم بونابارت في الهندية في الجزيرة، في سكن مراد بك السابق. وهو ينشغل بإعادة نشر الجيش في اتجاه الوجهتين اللتين اتخذهما إبراهيم ومراد. ويتخذ بيزيه موقفاً في جنوب الجزيرة التصدي لعودة هجومية محتملة من جانب مراد. ومنذ ٢٤ يوليو، وسعيًا إلى حل للسالة المالية، يشكل القائد العام لجنة، مؤلفة من مونج وماجاللون وبيرتوليه، مكلفة بالمسطرة على جميع الولد الخيرية ووضع الاختتام على كافة ممتلكات الماليك، التي يجري اعتبارها ممتلكات عامة، شأنها في ذلك شأن ممتلكات المنفيين السياسيين الفرنسيين (٥١).

ويجري إرسال بوجين بوارنيه من جانب صهره إلى الست نفيسة، لطمأنتها، هي وجميع نساء الماليك. وتقدم إليه ماسة جميلة، شكرًا له.

ويتم تعيين قائد اللواء دويوى قائدًا لمدينة القاهرة. وهذه المناسبة تجرى ترقبته إلى رتبة جنرال لواء (٥٢).

والى اليوم نفسه، يدخل بونابارت إلى القاهرة ويقوم فى مصر محمد بك الألفى فى سلعة الأنكية، حتى الأعيان والأمراء للمالية بهركة المتصلة بالنيل خلال الفيضان ويحافظه الواسعة. وكان القصر قد تم الانتهاء من بنائه للتور ولم يك مأهولا بعد.

ويكتب القائد العلم تقريره إلى حكومة الإدارة حول زحفه الظاهر على القاهرة. ويمجد ثروات مصر للمكتة بالرخم من فقر السكان الرهيب ويشير إلى ضرورة استثمار وشهد. ويهتم بسفر نابليون إلى القسطنطينية، ويرى أن وجوده لدى الباب العالي ضرورى للحيلولة دون دخول إلى الحرب من جانب الإمبراطورية العثمانية.

على أن بونابارت يمر فى القفلة بأزمة فتور همة معينة. فالحملة - على أية حال- كانت أصعب مما تصور والجهش كاد يشهد فى موات عديدة قدرًا سيئًا. وكان على بونابارت أن يحافظ على رباطة جأشه وسط فتور الهمم العام وأن يكثف المخامرات الجسورة. لكنه، وسط كل هذه اللحن، يسمع من جانب رفاته ضائعات عن خيانة زوجته له. وهو يصف لأخيه جوزيف، فى رسالة سوف تسقط فى أيدي الإنجليز، شعوره للتزايد بالظهور من الناس وحاجته إلى الوحدة: «حاول أن توفر لى منتجماً ريفياً حال وصولى، إمّا قرب باريس، أو فى بوجونيا؛ فلنا أريد قضاء الشتاء هناك والخلو إلى نفسى؛ إننى متبرم من طبايع البشر. وأنا بحاجة إلى الوحدة والعزلة؛ والأمجاد تصيبنى بالضجر؛ ويذابيح الحملات تجف. والمجد بلا مطلق فى التاسعة والعشرين؛ لقد استنفدت كل شىء» ولم يعد لعملى غير أن أصبح متوحداً حقاً. إننى أريد حماية بيتى؛ فلن أضعه أبداً لاي كان ولم أعد أملك ما يلبسنى على ظهر الفخياء» (٥٤).

السياسة الإسلامية

لكن هذه الانهزامية لا يجب أن تتكشف أمام حاشيته. وعليه يادى ذى بدء أن يعيد النظام إلى القاهرة نفسها وأن يطبق خلاصة سياسته «الإسلامية» (٥٥) للديكتة من تأملاته ومناقشات مع المستشرقين.

وكان فولتى قد كتب منذ عام ١٧٨٨ بأنه «الإقامة فى مصر لابد من تحمل ثلاث حروب، الأولى ضد انجلترا، والثانية ضد الباب العالي، لكن الثالثة، والأصعب مما عداها، هى الحرب ضد المسلمين، الذين يشكلون سكان هذا البلد. وسوف تتسبب هذه الحرب الأخيرة فى كثير من الخسائر، الأمر الذى قد يجعل من للحتم اعتبارها عقبة يستحيل التغلب عليها».

والد أمعن بوناهاوت للنظر في هذه التحليلات، ويحاول، بمساعدة مستشاريه المستشرقين، دمج الخطاب الثوري الفرنسي بالوطنية السياسية الإسلامية المصرية. وفي الترو والبال، يصطدم بعبادة السكان العميلة: «لقد كانت ذبوة قولنى بسبيلها إلى التحقق؛ فإما الرحيل أو التوافق مع الأفكار الدينية، الإلانات من لعنات النبى، عدم السماح للعات بالاندرج فى صفوف أعداء الإسلام؛ وكان لابد من اقناع وكسب رجال الإلقاء والعلماء والأشراف والأئمة، حتى يتولوا تفسير القرآن بما يناسب الجيش».

وكما قال أحمد باشا الجزار للباب العالي، قبل إحدى عشرة سنة، فإن عماد السلطة إنما يكمن فى كبار العلماء ومشايخ الأزهر، وهو مؤسسة يسميها بوناهاوت بـ «سوربون الشرق». فهم الذين يصوغون الرأى العام. ومن ثم فإن عليه ربط السلطة الفرنسية ربطاً وثيقاً برجال الدين هؤلاء. فسوف تجد الأمة للعظمى فيهم الوسطاء الضروريين لمد مجال الحكومات النيابية إلى الشرق (٥٦).

ويجرى تشكيل ديوان مؤلف من علماء وكبار موظفين، ويصدر الأمر بتاريخ ٢٥ يوليه

بوناهاوت، عضو المعهد الوطنى، القائد العام، ليرد:

١ - تحكم القاهرة من جانب ديوان مؤلف من تسعة أشخاص.

٢ - يجتمع الشيوخ السادات والشرقاوى والصارى والبكرى والديومى والعريشى وموسى السرسى ونقيب الأشراف السيد عمر (مكرم) ومحمد الأمير هذا المساء، فى الساعة الخامسة فى دار كيايا الشوييد (٩). ويشكلون الديوان.

«يتولون تعيين واحد منهم رئيساً، واتخاذ أمين من خارج صفوفهم، وأمينين مترجمين يعرفان الفرنسية والعربية.

«يتولون تعيين لجنة من ثلاثة أشخاص لمراقبة الأسواق وتزويد المدينة بالمؤن. ويعينون لجنة مكلفة بملء جميع المؤن الذين يموتون فى القاهرة على بعد نحو لرسخين.

٣ - يجتمع الديوان كل يوم ظهراً ويوجد فيه بشكل دائم ثلاثة أعضاء بلا انقطاع.

٤ - يوجد عند باب الديوان حرس فرنسى وحرس تركى.

٥ - يوجد الجنرال بيرتييه وقائد اللواء هذا المساء، فى الساعة الخامسة، فى

الديوان. لإقامته وأخذ التهمين من أعضائه بعدم فعل شى يتعارض مع مصالح الجيش» (٥٧).

ويطلب الفرنسيون ألا يوجد أى مملوك (جنس مملوك) بين كبار الموظفين؛ لكن رجال الدين يردون بأن للمالك وحدهم هم الذين يمكنهم توفير الاحترام من جانب سكان القاهرة. وفى المقابل، يطلب المحتلون اشتراك موظفين عثمانيين باقين فى القاهرة، مصطفى بك كَتَّخْفا الباشا (المعتمد، نائب الباشا) والقصى للعسكر (رئيس الهيراركية القضائية). ويتمشى ذلك مع رغبة بوناپارت فى التوصل إلى ترغيبية مع الباب العالى. ومن جهة أخرى فإنه يكتب عدة مرات إلى الباشا سعياً إلى حثه على العودة إلى القاهرة. (٥٨)

إنشاء إدارة جديده

ويستمر نهب منازل المالك، بالرغم من الاختام التى وضعها الفرنسيون عليها. ويشارك الجنود الفرنسيون بنشاط فى هذا الفعل، فاتحين الطريق على رعايته أمام اللصوص المصريين. ويتغلب الديوان عن أية مسئولية فى مجال حفظ النظام العام الذى يختص به الحكام وحدهم. عندئذ يعين الفاتحون مغامراً، هو بارثيليمى سيرا، وهو يونانى من شير (٥٩)، ومضى سابق فى خدمة الأتلى بك، رئيساً (كَتَّخْفا) للمستحفظان، قوة للحياة للكلفة باستمارة الهند. ويعيد سيرا تنظيم وحدته ويقمع الفتن قمعا لا يرحم، مما يثير عظيم سخط سكان القاهرة الذين يرون مصيحياً (من الشرق) يحتل مثل هذا المنصب (٦٠). وسرعان ما يرجع السلم إلى عاصمة مصر.

هكذا ينظر الجبروتى إلى إعادة تشكيل القوات المحلية للكلفة بحفظ النظام. والواقع أن الفرنسيين قد شكلوا خمس سرايا من رجال الشرطة منبهة من الميليشيات العثمانية السابقة. وقائدها، أغا للشرطة، يتبع بشكل وثيق قائد الموقع، الجنرال ديبوى. (٦١)

وفى البداية كان دور الديوان استشارياً وكان يلعب دور وسيط مع السكان المصريين (٦٢). وأعماله الأولى تتمثل فى استصدار تصاريح مرور تسمح للأعيان بالعودة إلى القاهرة (٦٣).

ومنذ ٢٧ يوليو، يمد بوناپارت إلى مجمل الأراضى المفتوحة نموذج التنظيم الإدارى للطبق فى القاهرة: ديوان لكل مديرية، أغا إنكشارية مسئول عن الأمن، أمين مسئول عن الضرائب وإيرادات ممتلكات المالك، وكيل فرنسى يشرف على عمله (٦٤).

وفى ٢٨ يوليو، يجرى تطبيق نظام القاهرة فى الضواحي للجاذرة، حيث تصبح

بولاى ومصر العتيلة الدائرتين التاسعة والعاشره بحسب الترتيب من نواثر القاهرة. وتحصل كل ضاحية من الضاحيتين على تنظيم الشرطة لكه وتنظيم العاصمة. وفى ٢٠ يوليو، يتم تعيين القبطى جرجس الجوهري اميناً عاماً لجمل مصر يملك سلطة على أمناء المديرية. والحال أن جميع الموظفين للبلديات، بمن فى ذلك موظفى التزامات المالىك، يجرى الإبقاء عليهم فى مناصبهم. وفى ٢١ يوليو، يتم إقرار جميع للممتلكات، ما عدا ممتلكات المالىك. ويتعين على السكان تسليم أسلحتهم. وفى أول أغسطس، يجرى فرض ضرائب باهظة على نساء للمالىك حتى يتسنى لهن الحفاظ بشكل شرمى على ممتلكات أزواجهن. ويتعين على الست نفيسة وحدها أن تدفع خمسمائة ألف جنيه. وأمام فداحة هذه الضريبة، تتصور أن بوأرنيه للشاب قد خدعها (٦٥). وهى تبرز سخطها بالتخلى عن ساعة مشفولة بالماس كان ماجاللون قد لعمها إليها منذ عهد قريب باسم الحكومة الجمهورية اعترافاً بالامتدان لمساعدتها الحميدة (٦٦). على أن يهرتبه. بناءً على طلب ماجاللون، قدم إليها اماناً عاماً لها ولجميع أهل بيتها (٦٧).

وتبدو العلاقات الأولى بين الجنود والسكان طيبة. وصحيح أنهم يجدون متعة فى المحاكاة الساخرة للشعائر الإسلامية بتقليد شعائر الصلاة فى كنائهم (٦٨)، لكن ذلك يحدث بون أن يلحقه السكان. وينشأ نشاط تجارى حقيقى حولهم. فالمسلمون يلتفتون محل للمأكولات والمشروبات؛ وبما أن الفرنسيين يشترون كل شىء بأعلى من سعره الجارى، فإن حالات الفس تتزايد من حيث الدوميات والكميات. ويتخصص المسيحيون فى الفخارات، وتشير للرائد والكراسى والأسعار المعلن عنها إلى إدخال أسلوب الحياة الأوروبية (٦٩).

وسمياً إلى تدهور إمكانات مالية بسرعة، يجرى فرض ضريبة باهظة على تجار المدن الرئيسية. وتتكاثر لجان جرد للممتلكات العامة. ويلعب ماجاللون دور مستشار مالى ويهين المصادر الرئيسية لإيرادات مصر. (٧٠) وعلى المستوى العسكرى، يجرى إنشاء مستشفيات فى القاهرة. وسمياً إلى تأمين وكوب الفرسان، تجرى مصادرة جميع الجياد المتوافرة. ويتم تكوين مجلس للكساء للقائد العام يميل إلى تغيير للزى للرسمى الفرنسى يقربه من اللبس الشرقى. لكن الضباط يعاونون ذلك ويتقرو الإبقاء على الأنهاء الأوروبية (٧١).

ويتخذ بوناهاوت تدابير وقائية للتصدي لتعدد محتمل. ويتم تأسيس نظام للاستنفار، يسمح للقوات أن تتخذ مواقع لها فى المدينة بأسرع ما يمكن. ويتم الإصباح

بزماء العاصمة، بلخزل بقطة نورية، من جانب مالا يزيد عن اللين من الرجال. ومن جديد تصبح قلعة القاهرة موقعا حصينا تعرضه المظمية في جانب منه. ويصدر الأمر بتنفيذ جميع الهويات التي من شأنها إضلاق الدروب وقطع اللواصلات. وتتبع على السكان تسليم جميع أسلحتهم، ويجازف اللخالقون لهذا الأمر بالتعرض لعقوبات بدنية (ماتة جلدة) ولغرامات فاسحة، ولذا كانت للخالفة تتعلق بحيازة مدافع أو احتياطات من البارود، فإن للخالقين يجازلون بالتعرض للإعدام. وهذان الإجراطن سوف يكونان باعثين على ضيق شديد، فهما يطالان على نحو مباشر التمثيلات اللذهنية للأفراد والجماعات، فالرجل الأعزل يكف من أن يكون رجلا كاملا ويجرى النظر بوجه خاص إلى فتح الأحياء بوصفه انتهاكا حقيقيا لتضامات الجماعات. (٧٢)

ويرى بوناپارت أن يكون للمستبد اللخرقي الجموح ولكن اللعابل. وهو يكتب من تلك إلى ميرو، في ٢١ يوليو: «إن الأتراك لا يحسنون التصرف إلا عبر أكبر قدر من القسوة؛ إننى أصدر الأمر كل يوم بقطع خمس أو ست رؤوس في شوارع القاهرة. وكان قد تعين علينا حتى البارحة أن نرأى جانبهم سعيا إلى تجديد سمعة الإرهاب تلك التي سببناها أمّا اليوم، خلافا لذلك، فلا مفر من استخدام اللغة الللائمة حتى ينصاع هؤلاء الناس والانصياع، بالنسبة لهم، مستحيل دون اللخوف». (٧٣).

الأثر القوي للبيان

لكن كان على حق تماما في تصور أن المسلمين يكونون له عدوة عميقة. ولم يك لبهان بوناپارت أن يكون مؤثرا إلا بقدر تمكنه من إقناع عدد كبير من المصريين بأن الفرنسيين قد تحركوا بالاتفاق مع الباب العالي لتحريرهم من المالكين أو بتعبير أكثر تمهيدا مع لغة ذلك الزمان، لعاقبة هؤلاء الأخيرين على اللظالم التي اقترلوها في حق السكان.

لكن أحدا لم يك من الممكن أن يتخدد بالمظهر الإسلامى لدعاية الفرنسيين. فالمرج بين اللغة الثورية الأوروبية التي تدخل مفاهيم لم يك لها بعد معنى في الشرق والمصطلحات الإسلامية اللغة السياسية العثمانية إنما يمثل مظهر شذوذ كامل في نظر النخبة المصرية. ويقدم لنا الجبرتي، في تاريخ مدة الفرنسيين بمصر، شرحا حقيقيا لنص لبهان بوناپارت إلى الشعب المصري بعد تفديكا تاما له.





١٨ - شيخ من القاهرة (إلى اليسار)، ترجمان مراد بك (إلى اليمين).



١٩ - بَحَّارٌ مِنَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ.



٢٠ - بوناپارت يمنح سيفاً للثائد العسكرى للإسكندرية.



٢١ - (أ) عرب بلعنة رشيد.

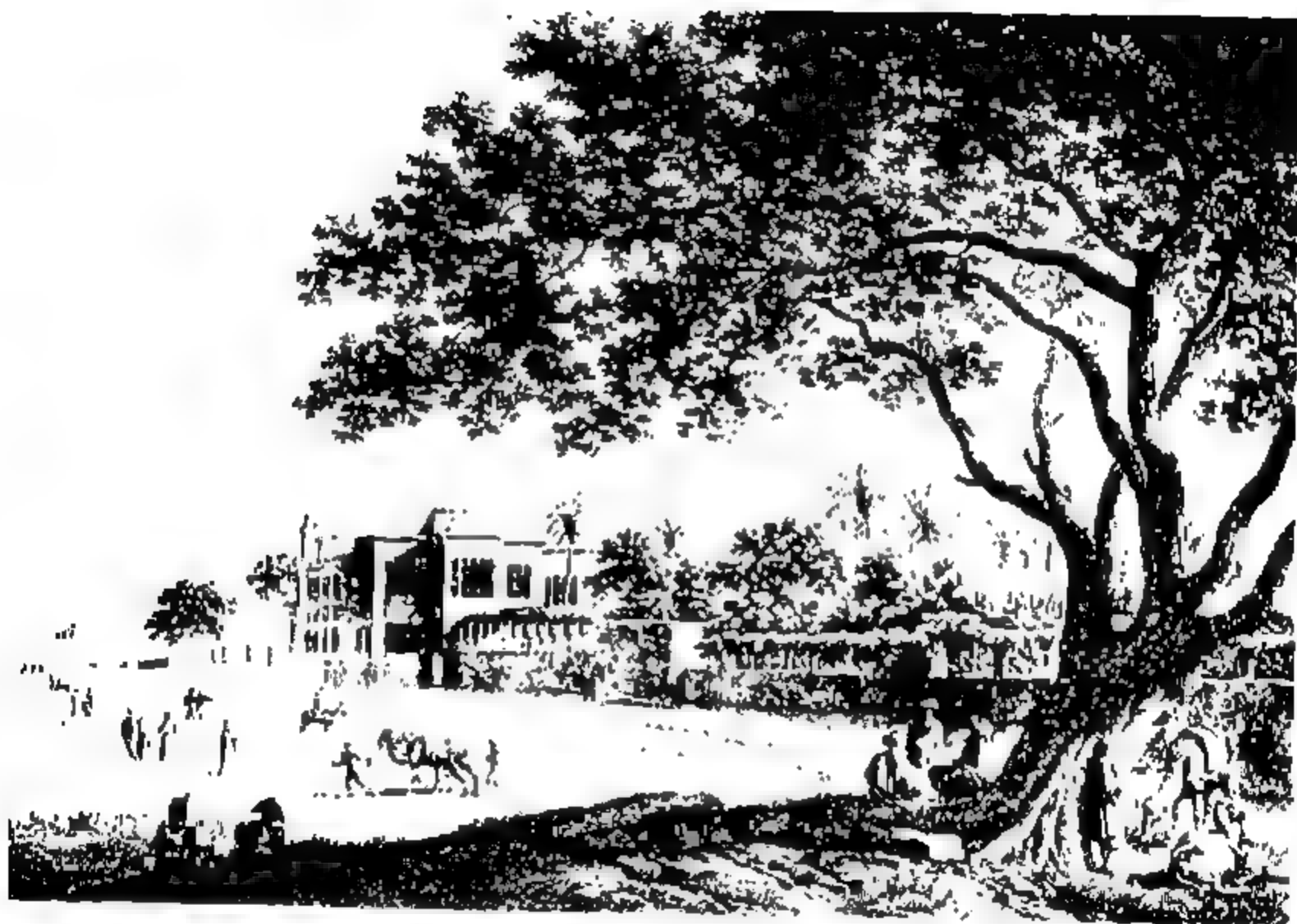


1881. Member of Government of Alexandria

" 1881. Member of Government of Alexandria

" 1881. Member of Government of Alexandria

(ب) عضوان بحكومة الإسكندرية (إلى اليسار)، رأس عربي (في الوسط)، الشريف كريم، حاكم الإسكندرية (إلى اليمين).





إنه يشير غير مرة إلى الأخطاء النصوية والأسلوبية. وجانب (البيان) المعادي للكلتوليكية، بدلاً من أن يخدع المسلمين كما يظن كاتبه، يصممهم على الضد من ذلك صدمة عميقة: «قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه»، في ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون للملل الثلاث ومخالفون لهم بل وجميع الملل، موافقون للمسلمين في ذكر التسمية ونفي الولد والشريك ومخالفون لهم في عدم الإتيان بالشهادتين وجحد الرسالة ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة وموافقون للنصارى في تحالب أقوالهم وأفعالهم ومخالفون لهم في القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضاً ورفض دياناتهم وقتل القسوس وهدم الكنائس».

والحادثة الجمهورية لا تستثير في حد ذاتها مواقفًا صليبية:

«وقولهم: «من طرف الجمهور» إلخ، أي هذه الرسالة مرسلة من جهة جمهورهم أي جمعيتهم لأنهم ليس لهم كبير ولا سلطان تجتمع كلمتهم عليه كغيرهم ويختص بالخطاب عنهم فإنهم لما خرجوا على سلطانهم من مدة ست سنوات وقتلوه وأجمع رأى الجمهور منهم على عدم الانفراد بل يكون أمر دولتهم وممالكهم وتديبر أمورهم لأصحاب الرأي والمعلل ليهم ورتبوا أشخاصاً اختاروهم وجعلوهم رؤساء للمساكن ويونهم قواداً وأمراء لوف ومثنيين وعشوروات وأصحاب تنبير ومشورة بشرط المساواة وعدم الترفع على بعضهم نظراً للمساواة في أصل الخلقة والطبقة وجعلوا ذلك قاعدة وأساساً لطريقتهم، فهذا معنى قولهم «المبنى على أساس الحرية والتسوية». فقولهم الحرية أي ليسوا أرقاء كالمالِك والتسوية للمعنى السابق [...] وعلى هذا القانون سلخوا فالكبير والصغير والجليل والحقير والذكر والأنثى متساويان، وبهذا ارتكبوا خلاف ذلك في بعض الأحيان بحسب شهواتهم وميل نفوسهم وتحكيم عقولهم».

أما مواقف نسائهم فهو في المقابل موقف صادم تماماً: «نسائهم لا يستترون ولا يحتشمون ولا يهابون يكشف العورات [...]». قوله: «هونا بارت» هنا لقب صارى عسكري وليس باسم ومعناه المجلس الطيب لأن هونا معناه الطيب وبارته المجلس. [...] قوله: «يتعاملوا... بالذل والاحتقار» (في حق الملة الفرنسية - المترجم)... هم لحق بتلك للعاملة [...]».

لكن الأمر كله، في الواقع، كذاب ورياء، «قوله: «فأما رب العالمين»، كلام مستأنف، القادر على كل شيء، ومن قدوته الباهرة وأياته الظاهرة جلب هؤلاء الشياطين إلى مراتع

للملوك والسيلاطين ودجور الكفرة عليهم والطغ نابرهم ونواصيهم. وقوله: «الد حتم، إلخ، هذا تحكم على الغيب وما بعد الكفر عيب». [...] قوله: «والولوا للمفترين»، جمع مفترى وهو الكاذب، وما أحقهم بهذا الوصف ومصداق ذلك قوله: «إننى ما قنعت إليكم إلا لكيما أخلص حلقكم من يد الظالمين». هذه أول كلمة ابتدعها ولرية ابتكرها، ثم ترقى إلى ما هو أعظم من ذلك وماه الله في الهالك بقوله: «وإننى أكثر من للمالك لعبد الله، إلخ، لا شك أن هذا خبل في العقل وغلو في الجهل، أى عبادة فضلا عن كثرتها مع كفر خطي على هؤلاء وحجبه عن الوصول إلى طريق رشده». [...].

«قوله: «وأحترم نبيه»، معطوف على ما قبله عطف الكذب على الكذب، لأنه لو أحترمه وأمن به صفقه واحترم أمته.

«قوله: «والقرآن العظيم» [...]، هذا كذب أيضاً، فإن احترام القرآن تعظيمه وتعظيمه بالتصديق بما فيه وهو من آيات النبو النبالة على صفقه وأنه نبي آخر الزمان وأن أمته أشرف الأمم، وهؤلاء لجميع ذلك نظرون ولهما عبادة كالبهون وكأين من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم منها معرضون. قوله: «متسلون عند الله تعالى»، هذا كذب وجهل وحمالة، كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض وشهد بذلك أهل السموات والأرض. [...] قوله: «الحجة التي كتبها لهم الله»، هذا من الجهل والكفر بمكان، فإن الله لا يملك الناس شيئاً بحجة يكتبها لهم. غاية أن القوم يتنولون البلاد عن أسبانهم كهؤلاء لو من أعقابهم أو بالظلمة والنهر. [...]».

والواقع أنه يبدو أيضاً أنه كانت هناك خيبة أمل من جانب العلماء تجاه وعود الفرنسيين الزائفة، «قوله: «أنى للمناصب السامية»، أى المرتفعة، فيه لمترار من طبع القوم عنهم بتقليدهم مناصب الأحكام الجلييلة للأسافل والرعاع منهم كجعلهم برطلمان الطهجي كتحذا مستحفظان. قوله: «وبذلك يصلح»، نعم بتدبير العللا والفضلا والعلماء يصلح حال الأمة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك [...]».

وتتكشف طبيعة الفرنسيين الحقيقية: «إن إسلامهم نصب. قوله: «وأخربوا فيها كرمسى البابا»، بهذه الفعلة خالفوا النصارى كما سهلت الإشارة إليه، فهؤلاء القوم خالفوا النصارى والمسلمين ولم يتمسكوا من الأنيان بين، فتراهم بخرية معطلون وللمعاد والحشر منكرون وللنبوة والرسالة جاحدون ويقولون بأنهم للعالم وتأثير العلوية والحوادث للكونية بالحركات العلوية وظهور الليل وانتقال الدول بموجب طبع القرانينات وامتزاج

المناظرات، وربما امتنعوا تناسخ الأرواح إلى غيرها من الأشباح، لذلك لا ينبغي حيواناً ياكلوه ولا يقطعون رأس الثيل حتى يقطعوه لئلا يتفرق أجزاء روحه ويتناثر فلا يلتئم في جسم آخر ومثل ذلك من الخيالات وأنواع الضلالات. [...].

«عجل الله لهم الويال والنكال وأخوس منهم عضو الخال وفرق جمعهم وشئت جعلهم والعد رايهم وأحمد أنفسهم إنه على ذلك قدير وبالإجابة جديره».

والحال أن الثوار الفرنسيين، بدلا من أن يظهروا في أعين العلماء في صورة مبتكرين لعلم جديد، إنما يجرى النظر إليهم بوصفهم ادعاءا لما بهي العصر القديم وضمن الإسلام الكلاسيكي. ويعتمد الجبرتي على عقد مقارنات، فما دام الفرنسيون نالون للديانات السماوية، فإنهم يتوحدون مع من تسميهم كتب العلم الإسلامي عن الملل والنحل المارقة بالملاحدة، في أحسن الأحوال مع أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالعقل، أي بنمط معرفة انسي من نمط المعرفة الذي يوفره الوحي، وفي أسوأ الأحوال مع عبدة النجوم، الذين يؤمنون بالتناسخ.

ومسلكتهم العام، خاصة ماياتهم السيئة، إنما تجعل منهم كائنات قليلة التمدن وجديرة بالاحتقار، وما يستحق الإعجاب فيهم هو ما يتوصلون إلى استخلاصه، في العلوم والتقنيات، من إعمال العقل. أما فيما يتعلق بما هنا ذلك، فإن مسلكهم وخطابهم إنما يدلان بشكل واضح على أنهم ليسوا أكثر من منافقين.

إخراجه إبراهيم بك من ساحة النراج

سوف يستسلم بوناپارت للأوهام حتى النهاية فيما يتعلق بمشاعر العلماء الحقيقية، وسوف يواصل ذلك الخطاب الذي يضطر الآخرون، بحكم الضرورة السياسية، إلى سماعه، أما الآن، فإن عليه الانشغال بإنجاز فتح مصر السفلى.

ومنذ ٢٥ يوليو، أصدر الأمر باحتلال منفى، القريبة من القاهرة، وصباح اليوم التالي، يبدأ فيال مع فرقة زحفه على مياط. وفي ٤ أغسطس، يصل الفرنسيون إلى المنصورة ويخلون مياط في ٦ أغسطس. وتتم هذه العملية بون صعوبة. فالقوى تستقبل الجنود بأمارات الصداقة ويؤدي المشايخ يمين الولاء للجمهورية الفرنسية والسلام مع السلطان والحرب على المماليك والعرب، حيث يرجح أن هذا الشعور الأخير كان الأكثر إخلاصاً. (٧١)

ولما وصل إلى علم بونابارت أن مراد قد انسحب إلى مسافة بعيدة عن القاهرة، فإن
بالترح عليه تصوية، يتقلها روزيتي الذي يزور الزعيم المملوكي (س). والفرنسيون
مستعدون لمنحه مصر العليا من جرجا إلى الشمال الأول بشرط اعتراكه بالقبيلة لهم وللم
القبيلة لهم.

وفي تلك الأثناء، يركز القائد العام عمله على إبراهيم للوجود في بلبيس على بعد
عدة كيلو مترات من القاهرة. وبالمناسبة للقائد، فإن من الأهمية بمكان إنجاز فتح الدلتا
وتأمين حرية مرور قافلة الحج العائنة من مكة لإظهار أن الفرنسيين قادرين على حفظ
النظام والقناع محمل لثريتها الشمالية بأن العلاقات التجارية والدينية تظل ممكنة دائماً.
والحال أن القوات الأمامية، تمت قيادة الجنرال لوكليوك، تتحرك في اتجاه إبراهيم بك
اعتباراً من ٢ أغسطس. وفي ٥ أغسطس، في الخانكة، تصطدم بالمعاليك للتحالفين مع
الفلاحين المحليين. وتستمر المعركة، لكن انضباط الفرنسيين يجعلهم مثقلة للساحة. وفي
ذلك اليوم، يغادر الجانب الرئيسي من القوات العائنة في ترتيب مجزأ. ومن جديد، يتلهم
الجنود أمام صورة الحملة. (٧٥)

ويتم حشد الفرق المختلفة في الخانكة، في ٨ أغسطس. وفي ٩ أغسطس، يدخل
الجيش إلى بلبيس التي رحل عنها للمعاليك. وهو يجد هناك جزءاً من قافلة الحج ويكمل لها
حرية المرور إلى القاهرة. وكان الجزء الآخر قد ترك لقدره من جانب أمير الحج، صالح
بك (٧٦)، حائزاً لحد أعلى للناصب في مصر العثمانية، الذي فشل للحاق بمعاليك إبراهيم
بك.

وكان الحجاج قد طلبوا من الهدو توفير حمايتهم. ويعتمد هؤلاء الأخيرين مقسمين
بعدم خيانتهم، لكنهم ينهبون القافلة بالكامل في منتصف الطريق. وسوف يرفع
الفرنسيون الهدو على يد جزء كبير من أسلابهم. وكان للصوفى، رئيس تجار القاهرة،
والذي كان مشاركاً في القافلة، قد قدم طلباً فورياً بذلك إلى السلطات. وهو أيضاً الذي
سوف يوجه البحث عن القافلة وتقدير ثمن الأسلاب لإعانة سداد (٧٧).

وفي ١١ أغسطس، يتم الوصول إلى الحد الشرقي للدلتا عند الصالحية. وتتلقى
وحدة الفرسان الفرنسية الأمامية ضربة للمعاليك. ويدرك الفرسان قدرة المعاليك الرهيبة في
هذا النوع من القتال، فإن عين الفرنسي الذي يصاب بضربة خطيرة يتلقى في الساحة
ضربة سيف من اليد نفسها، هكذا يرسم ديتروا صورة لما يحدث في يوميات. (٧٨) لكن

للمالك يفضلون الاستقالة من المهزة التي يتمتعون بها للإسراع بانصيحابهم إلى سوريا. وعندئذ يوقف بونا هارت المطاردة ويعرض على إبراهيم بك إمكانية تسوية. يمكن بموجبها التنازل له وللمالك كلهم عن جميع ممتلكاتهم في مصر في مقابل تعهدهم بخدمة الجمهورية. ويبدو أن إبراهيم يهتم بالعرض ويرسل رسولا مكلفا بالتفاوض بشأنه (٧٩).

وخلال تلك الزحف، تبدو ردود أفعال السكان متباينة. وهكذا، ففي جهات معينة، يتكون لدى الجنود الانطباع بأنهم محل ترحيب (حيث يصل الأمر إلى حد الامتناع عن أخذ ثمن ما يحصلون عليه) بينما يضطرون بعد وقت قصير من ذلك إلى مواجهة تجمعات الملاحين الذين يقتلونهم بالحجارة التي يردون عليها بأعيرة نارية قاتلة؛ وبحجة البحث عن الخبز، يقترب الجنود «تجهيزات» في القرى، وهو ما يدفع الضباط إلى فرض عقوبات قاسية ومن هنا «الشكايات والسخط الشامل» (٨٠).

وقبل العودة إلى القاهرة، يأمر بونا هارت بإقامة موقع حصين في الصالحية، سوف يسمح بتغطية اللتأ وبأن يكون قاعدة انطلاق للعمليات التالية ضد سوريا (٨١).

وعندئذ يمتد الانتشار العسكري الفرنسي إلى كل اللتأ، ويتعين على لوجا بشكل خاص احتلال إقليم النصوة. وفي ١٢ أغسطس، على طريق العودة، يصل إلى علم القائد العام من خلال أحد مساعدي كليهر دبا كارثة أبو قير.

الإسكندرية ورشيد وأبو قير

كليبر فتح الإسكندرية

على مدار نحو ثلاثة أسابيع، اعتباراً من ٨ يوليو ١٧٩٨، لا تصل إلى الساحل، الذي يحتله الفرنسيون، أنباء عن أحداث الداخل. لكن الانتشار العسكري القوي: فكليبر في الإسكندرية ومينو في رشيد يحوزان قوات كافية، بغضل احتياطي الجيش، للإمساك بزملم الضواحي وللهذه في السيطرة على بلاد المؤخرة؛ ويوجه خاص فإن الأسطول قد اتخذ موقعه في خليج أبو قير بين المدينتين بالضبط. (٨٢)

وفي الإسكندرية، فإن العلماء هم أول من يتم اجتذابهم، ثم يليهم الشريف محمد كريم، ممثل مراد بك. إلا أنه، منذ ٨ يوليو ١٧٩٨، تتردد شائعة في المدينة بإبادة الجيش الفرنسي، ويضطر كليبر إلى تهديد أولئك الذين يروجون هذا النوع من الشائعات بعقوبات جسيمة. وإثر حوارات مع السكان، يشكل الجنرال الفرنسي دوريات مشتركة مكونة من فرنسيين ومسلمين ويحظر على الجهود الإتيان بأية أعمال من شأنها استفزاز السكان. وهو ينهك بنشاط في تحصين المدينة للتمردى لهجوم محتمل من البحر. وشاغله الرئيسي هو نقص الأموال الذي يقوده إلى أن يطلب من أمين صندوق الجيش، باسم ضرورات حيوية للخمعة، أكثر مما صرح له بوظائفه بتسليمه.

وفي الظاهر، يتعارف محمد كريم دون تردد. لكن جندي مدغمية فرنسية يتعرض في ١٢ يوليو لاعتداء عليه في الليل، الأمر الذي يستثير هاجاً عاماً بين صفوف الفرنسيين والمصريين. ويطلب كليبر من الأعيان الرثاسيين أن يسلموا إليه رهائن. ويهدى الشيخ المصري استعداده للتعاون. والواقع أنه يبدو من الواضح أن ما حدث هو محاولة للتمرد نظمها كريم الذي يعتمد على مشاركة بحارة السفن العثمانية للراعية في ميناء الإسكندرية القديم. ويستفيد الجنرال من الموقف لكي يعيد النظام والانضباط إلى الحامية ويبدأ في الارتياح في إخلاص القائد المسلم.

وبناءً على تعليمات من بوناپارت، يرسل طابوراً متحركاً تحت قيادة الجنرال دوموى مكلفاً بتذكير سكان دمهور بتواجد سلطة الفرنسيين (١٧ يوليو). ويشكو الطابور من نقص حيوانات الجر، التي اختفت بشكل غريب من الإسكندرية. وعلى بعد مسافة قليلة من دمهور، يتعرض للهجوم من جانب البدو الذين جاؤوا بأعداد ضخمة. وفي المدينة

نفسها، يجرى لقاء الفرنسيين بأمراء الصداقة الخارجية، ثم يحاطون فجأة بعدة آلاف من الرجال الذين ينقضون عليهم. ولأول مرة، يواجهون ائتلافاً من الفلاحين والبدو بتزعمه الأعيان المحليون، وهو ما سوف يكون الشكل المعتاد للمقاومة في الوسط الريفي. ويتمكن دوماً من الإفلات بفضل مدفعيه، لكن الطاهور يضطر إلى العودة إلى الإسكندرية ويخمن رئيسه أن متمردي الداخل قد حصلوا من الإسكندرية على معلومات عن تحركات الطاهور (٨٢).

وفي ١٩ يوليو، تتفجر الأزمة بين كليبر وكريم. فلما كان الفرنسيون بحاجة إلى المال، فإنهم يجمعون التجار لإبلاغهم بحماية قرض إيجاري قدره ثلاثون ألف جنيه موزعة بالتساوي بين المسلمين وغير المسلمين. ويصل الشريف والمنويون للمسلمون متأخرين سامتين ويوتون بشكل خاص أن يتحمل اليهود وحدهم الجزء الرئيسي من المساهمة المطلوبة منهم. وعندئذ ينفذ صبر كليبر، ويأمر بالقبض على محمد كريم الذي يشتبه في خيانتك منذ حادثة الطاهور المتحرك، ويحتجزه على متن إحدى سفن الأسطول ويلزم التجار المسلمين بنطح مائة ألف جنيه تحت تهديد المساس بالرهائن.

ويسمح إصماء كريم لطريق العلماء بالصعود إلى مناصب المسئولية. ويجري تعيين محافظ مسلم جديد، هو محمد شوريجي اليهودي، لكن القائد الحقيقي لهذه الجماعة ليس أحداً آخر غير الشيخ المسهرى. لكن حزب الماليك لا تقطع رأسه مع ذلك. فهو ينظم نفسه تحت قيادة عميل آخر لمراد بك اسمه عبد الله باشي. وهو تاجر من أصل مغربي، كان قد تزوج أخت أحد كبار التجار في المدينة ويبدو أنه كان واسع الثراء لقد فكر الفرنسيون في تحويل داره إلى مستشفى. وقد عمل بالتناظر مع محمد كريم على تأمين هيمنة مراد على الإسكندرية وشكل شبكة واسعة من العلاقات مع قبيلة لولاء على البدوية القوية التي ترسل بين الإسكندرية وبراقة. وعند الاستيلاء على الإسكندرية، قدمه محمد كريم إلى بوناپارت الذي منحه جواز مرور. وقد استفاد منه للخروج من المدينة، وشارك على الأرجح في معركة الأهرام، وهو الآن يحرك المقاومة ضد الفرنسيين. (٨٤)

وفي ٢٥ يوليو، تصل السفينة أوتيميس إلى الإسكندرية، وعلى متنها الجنرال لانوس وتاليان. ووصول هذا السياسي يثير استياء العسكريين. وفي اللأية التي اتهمت على شرفه، يهاجم كليبر عجز السياسيين. وبدأ على تاليان، الذي يحاول للدفاع عن المؤتمر، يشهر كليبر إلى «الإبرة المسية لتلك الجمعية. ويصورها في صورة ذليلة

ومحترمة، ويشير إلى أن الأمة أصبحت عظيمة ومحترمة في الخارج بحسب الرعب الذي تستثيره حروبها، ويقارن بين الاحتقار الذي يستثيره العدد الأكبر من هؤلاء المشرعين والاحترام والإعجاب الذي يستثيره في البلدان الأجنبية خاصة، لسم ووجود ضباط فرنسي. (٨٥).

ويشير الحادث إلى مدى تهاعد العسكريين عن سياسيين الثورة. ويدفع نجاح بمشهور الهند إلى الاحتشاد بأعداد كبيرة حول الإسكندرية. ويرسل كليبر وحدات من الخيالة تدجج في مواجهة الهندو مواجهة ظالمة. وفي ٣٠ يوليو، يحمل إلى علمه من خلال مينو خبر الانتصار الفرنسي في معركة الأهرام. وتحتفل الحامية بالحدث عبر طلقات المدفعية. وفي النساء، تضاء بكاكون وأسواق الإسكندرية. بينما يختلط الأعيان المسلمون بالضباط الفرنسيين خلال حفل الاستقبال الرسمي. «مكت الزعماء للمسلمون في قاعة رحبة يدخلها الفرنسيون والأتراك على حد سواء. وقد بقيت هناك قليلاً ورأيت توزيع للمطبات هناك بشكل واسع ودون مقابل على من يريد تناولها. وشوهدت هناك بعض زوجات الضباط والتجار الإفرنج اللاتي ظهرن لأول مرة في حياتهن، في هذا المكان. وبوجه عام، فقد بدأ الحبور وبدأ شهر مصطنع» (٨٦).

وموافق المسلمين تجاه النساء الأوروبيات يبدو في أعين الضباط الفرنسيين بالاً على التنهات الأخذة في الحسوت. «بالإمكان الإشارة، قليلاً على أن الأتراك يتجربون بشكل محسوس من انطاعة سلوكهم، إلى أن النساء الأوروبيات اللاتي كن في السابق، عند مرورهن في الشوارع، يتعرضن للكثير من الإهانات، وربما للملاحقة والقتل بالحجارة، وهناك عند من الأمثلة على ذلك، أصبحن يُعاملن معاملة مهينة من جانب الأتراك، الذين يقفون احتراماً لهن عند اقترابهن» (٨٧).

ويحاول محمد كريم الاتصال مع الفرنسيين، لكن كليبر يتخذ موقفاً متصلباً. إذ يجرى إرسال المحافظ للمسلم السابق، بأكثر قدر من الرعاية، إلى أسطول أبو قهر، حيث يتسنى الاطمئنان إلى أنه لن يتمكن من إجراء أية اتصالات مع سكان الإسكندرية. ويجري تولب أن يبت بوناپارت في قضيت.

ميلو أمك وشيخ

شخصية مينو جد مختلفة عن شخصية كليبر. إن هذا الرجل، الذي ولد في عام ١٧٥٠، هو أكبر قادة فرق بوناپارت سنًا (لا يصغره كليبر إلا بثلاث سنوات). ولما كان له

لتحدر من أسرة تنتمي إلى نبالة جد قديمة (تراجع إلى القرن الحادي عشر)، فقد خدم في جيوش الملكية حيث حصل، لكونه من غير العوام، إلى رتبة الكولونيل. وفي عام ١٧٨٩، حين كان نائباً في المجالس العامة، يشارك بنشاط في الثورة في صفوف النبالة الليبرالية التي تقبل انتماء الفئات الثلاث. وفي الجمعية التأسيسية، يصبح مشروعاً نشيطاً، خاصة في المجال العسكري، وينتمي إلى أنصار الملكية الدستورية، مما يجر عليه عداوة وسطه الأصلي. وهو يستأنف في عام ١٧٩١ الخدمة في الجيش، بالرغم من أن دوره كان بالأحرى سياسياً؛ لهذا للمستول العسكري من قصر التويليري في ١٠ أغسطس ١٧٩٢، يدع الكرميون الثوري بأسر الملك. وفي السنة التالية، تجرى ترقيته إلى جنرال فرقة في الثاندييه، حيث يهزم عدة مرات. وإذا تواصل الخدمة في الحروب الأهلية، فإنه يصبح قائداً عسكرياً نابريص في عام ١٧٩٥، ويقع تمرد ٢ بريريال الشعبي الكبير الأخير. وفي الوضع السياسي المضطرب خلال الأشهر التالية، وبالرغم من صفته كقائد عام لجيش الداخل، فإنه يتصرف بشكل ملتبس في وجه خطر العميان الملكي بحيث أن باراً يفضل تنحيته ويعين في مكانه يوناپارت الذي سوف يصبح بذلك رجل ١٢ فينديمير. ولن ينسى فاتح المستقبل أبداً أنه يدين ببداية صعوده الخاطف لتربلات مهنو وسوف يتصرف نحوه بتواطؤ غير هادي مع أشكال اقتفاره للخططة للانضباط العسكري. ويوناپارت هو الذي يدعوه إلى الخدمة في حملة مصر بعد أن كانت حكومة الإدارة للرتابة فيه قد لحاقته إلى التقاعد. وعلى الرغم من أنه يملك العمر الوظيفي العسكري الأطول بين قادة فرق جيش الشرق، فإنه لا يملك من الناحية العملية أية خبرة حربية حقيقية، خلافاً لزملائه اللذين يرون فيه بالدرجة الأولى باراً من صفوف الأرستقراطية ورجلاً سياسياً ذا ماضٍ مشعور. والواقع أنه لن يفعل شيئاً لتعديل هذا المظهر للأمور، فهو يفضل الأعمال الإدارية على المعارك، بالرغم من أن جراحه العديدة في الثاندييه وخلال الاستيلاء على الإسكندرية تشهد على شجاعة شخصية مؤكدة.

وفي رشيد، حيث تولى مهام القيادة في ١٠ يوليو، يتمتع مينو بأعداد جنود أقل أهمية بكثير من الأعداد التي يتوقع بها كليبر، فهي تتراوح بين أربعمئة وخمسمئة جندي تقريباً. والحق أنه يواجه مصاعب أقل في المدينة نفسها. فأنصار الماليك يهربون. ثم إن التجار الفرنسيين، خاصة أسرة فارسي للمستقرة في المدينة منذ زمن بعيد، قد ساعدوه كثيراً في تهدئة السكان. ولا يبقى غير حزب «المحمديين الأنقياء» وهو الحزب الأوفر عدداً،

«إن حزب الرجال للخصوب عليهم من الحكم ليس وفير العدد؛ لكنه سوف يوجه ويقاد بسهولة لحسابنا شأنه في ذلك شأن الحزب الثاني». والموقف السائد بين صفوف السكان هو مواقف الترقب والانتظار؛ «إن الاستيلاء على القاهرة سوف يتم توظيف الجميع بما يتمشى مع مصالحنا. فجميع الأفراد يخشون الممالك أكثر بكثير من خشيتهم منا؛ وهذا هو ما يبقئهم في انحناء اليقين» (٨٨).

وهكذا يتسنى لمينو الاتجاه إلى تشكيل مجلس من ثلاثة أميان يسميه بشكل له دلالة بهلية رشيد، عبد الله بدوى الذى كان نوجا قد عينه بالفعل، وصيد أحمد الخازندار وعلى شاويش. ويتمين عليهم العمل على استتباب الأمن والانضباط فى دائرة رشيد، وهم يتمتعون لذلك الهدف بصلاحيات شرطة واسعة، تطل إجمالاً الفرنسيين الذين يعكرون النظام والذين سوف يصلحون فوراً إلى قائد للمواقع كما أنهم يعملون على كفالة انتظام المعاملات فى الأسواق. (٨٩)

وبعد وقت قصير من ذلك، يحصل بدوى على رتبة الأغا، محافظ رشيد للمسلم (٩٠). ومينو، خلافاً لكليبر، ينهمك فى الجنس الأدبى الخالص بتوجيه بيانات إلى السكان؛ فهو سوف يحمى الدين الإسلامى، وغاية الفرنسيين فى القضاء على الممالك وإنهاء للنظام العديدة التى يعانى منها السكان؛ وهم يريدون «تشجيع التجار والمزارعين وتأمين السعادة للجميع تحت حكمهم. إن الفرنسيين يحبون عظمة السلطان ويساندونه، إنهم الله عزه. وهم ليسوا أعداء إلا للممالك وحدهم» (٩١).

والواقع أنه، شأنه فى ذلك شأن كليبر، لا يسيطر بصورة مطلقة على داخل الأراضى، وهو يتعرض لهجمات من البدو. ومن ثم فإنه يكتفى بتأمين الاتصال بين رشيد وأبو قير حيث يوجد الأسطول.

وشاغله الرئيسى يتميز بطابع مالى. إذ تعوزه الأموال اللازمة للمهام المختلفة التى عهد بها إليه بوناپارت قبل رحيله. وكان هذا الأخير قد أصدر تعليمات صارمة فيما يتعلق بالمصادرات، المحرمة، مالم يصدر تصريح من القائد العام، إلا فى حالة الضرورة الملحة (٩٢). ثم إن مينو، وهو نصير مخلص بالفعل للمشروع الاستعماري ومقتنع بضرورة اجتذاب السكان المصريين، يتفر من اللجوء إلى هذه الأساليب.

مشكلة الأسطول

الرابع أن اجتياز البحر المتوسط قد أدى إلى استهلاك جزء كبير من احتياطات مؤن

الأسطول. ثم إن الجيش، في زحفه على القاهرة، قد سحب الكثير مما تبقى. ومن ثم فإن المسؤولين الفرنسيين يجدون أنفسهم في الوضع المخرج الذي يتمثل في ضرورة إعادة تكوين احتياطيات دون أن يتوافر لديهم الإمكانيات المالية لإتمام المشتريات الضرورية أو الرغبة السياسية في طلب تسليمات إلزامية وقروض إجبارية تتناسب مع الاحتياجات. والإسكندرية، وهي موقع تجاري بشكل خالص جد قريب من الصحراء، لا يمكنها تقديم مؤن هائلة. ويتوافر كل شيء على رشيد ومينو، لكن إمكانياته محدودة. «وسط الوفرة، لا يستطيع عمل شيء، لأنني لا أملك الأرض الزراعية. على أن للمستشفيات والأفران والبحاريات، وتغذية القوات، وموز الجيش البحري والإسكندرية، تلك هي الأشياء التي تتطلب إنفاقاً يومياً بالغ الأهمية. وسوف أسمى إلى عقد قروض، باسمي الخاص والشخصي... والخلاصة، أيها الجنرال، إنني أملك حماسة تزيد ألف مرة عن الإمكانيات التي أملكها...» (٩٢).

وفي ٢٠ يوليو، يقرر جبهة ضريبة من المدينة، بالاتفاق مع بوسليج واستيف، المسؤولين عن ملية جيش الشرق، «لقد كابدنا الكثير حتى نجعلها تتماشى مع قراركم المؤرخ في ٢ ميسيدور؛ لكنني أخشى تماماً من أن نكون قد تجاوزنا صلاحياتنا إلى حد ما» (٩٣).

ولا يهبط إشباع طلبات الفرنسيين إلا في أواخر الشهر.

وفي ٣٠ يوليو، يجري نقل محمد كريم إلى السفينة لوريان في رشيد، ويحتفى السكان بالرجل. وعندئذ يأمر مينو باحتجازه في سفينة حربية صغيرة. ولا يثق الشريف بعد إلا في مينو. فهو يكتب إليه في عدة مناسبات، ويطلب إليه أن يرسل إليه صديقهما المشترك، جان باسكي، لأنه يريد التنبيه إلى أشياء مهمة، فوضع الإسكندرية ينذر بأن يتدهور تدهوراً جسيماً، إذا لم يجر الاهتمام بإصلاح الخزانات والأجهزة الهيدروليكية التي الحق بها الجنود الفرنسيون الأخضر، وأنا ما تركت الحرية للقرويين وللعرب في عملهم الرامس إلى تحويل مياه القرعة التي تربط الإسكندرية بالنيل، والتي لا تعمل إلا خلال فيضان النيل؛ إن الحرمان من المياه «سوف يؤثر تأثيراً سلبياً على الأسطول والقوات» (٩٤). وسوف تؤدي أحداث الأيام التالية إلى دفع الفرنسيين إلى إهمال تحذير الشريف.

وفي ٣١ يوليو، يتوجه بالنداء من جديد إلى مينو ويطلب إرسال أحد أفراد عائلة فارسى إليه، حتى يتسنى له أن يوجه عبره تهانيه إلى السلطات الفرنسية على نجاحها. وفي أول أغسطس، يكرر طلبه (٩٥)، لكن ذلك اليوم هو يوم معركة أبو قير.

وكانت السلطات العثمانية قد حظرت على الدوام دخول السفن الأوروبية إلى الميناء القديم. وهكذا فإن البحارة الفرنسيين كانوا يجهلون عمق ممرات هذا الميناء. ومن ثم فقد اضطر بروي إلى اتخاذ موقع في خليج أبو قير لأن الميناء الجديد لا يكلل أمناً كافياً بسبب انفتاحه على موانئ البحر المتوسط العنيفة. وهو ينتظر نتائج اختبارات ممرات الميناء القديم التي اضطلع بها القبطان باري. ومنعما تصله في ١٢ يوليو فإنه يرى، محققاً على ما يبدو، أنها غير مرضية. إن أضخم السفن لن يكون بوسعها دخول الميناء القديم دون المجازفة على نحو خطير بأن تنقلب على جوانبها.

ولم أبو قير نفسها، لا يملك بروي الخرائط الدقيقة ولا الليل. وهو يأمر باصطفاف أسطوله على مسافة بعيدة من الضفة. وبسبب ضعف إمكاناته، فإنه يفضل الاستعداد لصد هجوم محتمل من جانب العدو في وضع ثابت، وصفته واسعة وليست متحركة. ويتخذ عند من مرسومه هنا هذا الاختيار. وأحال أن البحر البالغ الاضطراب والألوية للمنوحة لمواصلة تفريغ سفن الأسطول بمنعائهم من الاتجاه إلى اختبارات ليق لخليج أبو قير. وكان من شأن هذه الاختبارات أن توضح لهم أن بوسع العدو للناوذة بين الضفة وصف السفن الفرنسية. وأيا كان الأمر فإن بروي يرى أن موقفه بالغ الهشاشة في وجه هجوم من جانب العدو. وشأنه في ذلك شأن مينو وكليبر، فإنه لا يتلقى أي نداء من القائد العام، وذلك في لحظة كان بحاجة فيها إلى تعليمات واضحة.

وتصبح حالة اللؤن كارثية، وإن الأسطول لم يجد في وضع يسمح بالتصحر، إنه يجازف بأن يسلط ضربة للجوع؛ كما أنه لا يمكن البقاء في المرسى دون الحصول على مؤن غذائية فهو يجازف بأن يجد نفسه مختزلاً إلى آخر كسرة خبز. ومن المهم ألا يضطر، من جراء إعانات متأخرة، إلى أن يستهلك ما بقي له من الخبز، لأن مما لا مراء فيه أن غذاءً يومياً يتألف من الأرض إنما يهدد صحة الأطقم (١٧).

ولا يملك مينو سفناً قادرة على اجتياز فتحة مصب النيل، ذلك أن جميع الزوارق قد استخدمت للحاق بالجيش على طول النهر. ولا يبدأ اللؤن في التحسن إلا في أواخر الشهر بالفعل.

محرقة أبو قير البحرية

لكن نيلسون هو الذي يصل، في أول أغسطس، مع أسطوله. والفرنسيون لا يتوقعون وصوله بعد، فقد ركنوا إلى أنه قد اضطر إلى العودة إلى مرسى البحر المتوسط

لإعادة التزود بالمؤن والاهتمام بالإصلاحات التي تتطلبها إقامة طويلة في البحر. ولم يتوقعوا الاستقبال الذي تم في سيراكوز والذي سمح للإنجليز بكسب وقت ملحوظ للتزود بالمياه والمؤن الغذائية بفضل نفوذ السير ويليام هاميلتون والليدي هاميلتون على بلاط نابولي. وقد تسنى لنيلسون العودة بسرعة إلى عرض البحر، لكن مملكة نابولي تعتبر في نظر الجمهورية الفرنسية متهمة بانتهاك خطير لحيلاتها، وهو ما سوف يكون أحد الأسباب الرئيسية لاستئناف الحرب في إيطاليا.

وفي أول أغسطس، في بداية ما بعد الظهيرة، يرصد البحارة الفرنسيون السفن الشراعية الإنجليزية. وبعد اجتماع مجلس حرب قصير، يقرر بروي التمسك بقراره الخاص بالقتال من المواقع الثابتة. ويمسك نيلسون بزمam للقيادة في العمليات، ويرى تركيز زهران سفنه، للوضوعة في المواقع الأنسب، على رأس ووسط صف السفن الفرنسية. وعندئذ يلاحظ أنه يملك للموقع وخاصة العمق الكافي اللازم للسماح لسفنه بالمناورة بين الضفة والصف الفرنسي. ومن ثم يمكنه اجتياح هذا الأخير بين نارين (٩٨). وجسارته تسمح له بالآ يقوم إلا باختبارات سريعة في منطقة لم يتم فيها البحارة الفرنسيون بأي شيء على مدار شهر.

وعند غروب الشمس، يتخذ الأسطول الإنجليزي تشكيكه للقتلى. والمدفعية الفرنسية على البو، جد للهيبة، لا يمكنها أن تطل الإنجليز. وعندئذ تبدأ المعركة. وبسرعة بالغة، بنهار رأس الصف الفرنسي تحت زهران السفن الإنجليزية للتلاقي. ويبدى البحارة الفرنسيون شجاعة واثقة في ضراوة مقاومتهم للهجمات الإنجليزية. لكن الموقف يتدهور أكثر وأكثر. ويصاب بروي بجراح في بداية المعركة ويلقى حتفه على متن سفينة الأميرالية، في الساعة السابعة والنصف، حيث يتمزق فخذه. ومع اختفاء الأميرال، لا يوجد بعد من يحصر الأمر إلى فيلنوف، الذي يقود آخر الصف الفرنسي غير المشارك في المعركة، بالإقلاع والهجوم على السفن الإنجليزية.

ونحو الساعة التاسعة، ينشب حريق على متن السفينة لوريان، بينما يواصل البحارة القتال بضراوة. ونحو الساعة العاشرة، يأمر العميد البحري جانتوم بإخلاء السفينة، عندما يرى أن من المستحيل إغراق البارود. وبعد ذلك بربع ساعة، تنفجر أعظم سفينة حربية في ذلك العصر. ويعقب انفجار سفينة الأميرالية صمت طويل، ثم يجري استئناف المعركة. وتدرجياً يخطر رأس الصف الفرنسي إلى الاستسلام.

وأخيراً، نحو ظهيرة اليوم التالي، يقرر فيلنيف (الذى سوف يهزم فيما بعد في الطرف الأخرى)، والذي يلوذ للمؤخرة الفرنسية، الاتجاه إلى لودوها بالسفن التي ما تزال قادرة على الإبحار. تاركاً للسفن غير القادرة على الإبحار، بالرغم من أنها لم تستسلم. وفي ٢ أغسطس فقط تستسلم السفن الفرنسية الأخيرة أو يتم إحراقها على أيدي أطقمها. والخسائر الفرنسية جسيمة، فقد تم إغراق أو إحراق سفينتين عظيمتين وفرقاطتين، وسقطت تسع سفن في أيدي الإنجليز، بينما تعكنت سفينتان وفرقاطتان من الإفلات مع فيلنيف. وقتل أو جرح ألف وسبعمئة من البحارة الفرنسيين، وجرح ألف وخمسمائة، سقط ثلثاهما في الأسر. وكان الإنجليز قد أسروا ثلاثة آلاف، لكنهم أخرجوا عنهم، بسبب نقص مؤنهم، في ختام أيام قليلة، وذلك بشرط عدم للمشاركة في بقية قوات الحملة. والحال أن موقف هؤلاء الأسرى السابقين الذين لا يريدون سوى العودة إلى فرنسا سوف يثير غضب ضباط القوات البحرية وعضب كليبر^(٩٩). وفي الأعوام التالية، سوف يتهم الإنجليز الفرنسيين على نحو منتظم بأنهم قد أخلفوا الوعد حول هذه المسألة. وإذا كانت أية سفينة إنجليزية لم تفرق أو تحرق، فإن الجانب الأكبر من هذه السفن يشكو من إصابات بالغة، الأمر الذي يفرض العجز عن مطاردة فيلنيف. ويرتفع حجم خسائرها في الرجال إلى ٢١٨ قتيلًا و ٦٧٧ جريحاً.

وفي الإسكندرية كما في رشيد، سمعت على مدار الليل أصوات نوى مدافع المعركة وشعر الناس برجة انفجار السفينة لوريان. ولا يمكن كليبر إلا بعد ظهيرة لليوم التالي من إبراء حجم الكارثة الفرنسية، ويبلغ بوناپارت بها.

وسوف يحمل هذا الأخير بروي، في تقريره إلى حكومة الإنلرة، كامل المسؤولية عن الهزيمة. فهو يذكر أن الأميرال قد خرج على طاعته بالبقاء في أبو نير بدلا من أن يذهب إلى ليناء القديم أو ينسحب إلى كورفو. والواقع أن ممرات الليناء القديم كانت جد خطيرة بالنسبة للسفن الفرنسية للضخمة ولم يصدر بوناپارت قط أمراً واضحاً بالذهاب إلى كورفو، الذي يبدو علاوة على ذلك مسيراً بسبب نقص المياه ومؤن الأسطول (وإن كان فيلنيف قد تمكن من الوصول إلى مالطة). وعملاً لرؤيته، يقدم القائد إتمام مقتطفات مزيلة من مراسلاته مع الأميرال. ثم إنه، ما أن يصبح قنصلاً أول، سوف ينتزع من الأرشيفات العسكرية الوثائق الأكثر إساءة إليه وسوف يدخل تعديلات على وثائق أخرى^(١٠٠).

ومن الواضح أن الأسباب الرئيسية للهزيمة الفرنسية إنما تكمن في الموقع السيء الذي تمثله أبو قير - الموقع الوحيد الممكن بمجرد اتخاذ قرار بإبقاء الأسطول قرب الساحل المصري - وفي النقص العددي وهزال تكوين البحرية، وهي أمور لم يك بإمكان أعمال البطولة الفردية العديدة أن تعوضها. ومن المرجح أن رسوا أكثر قريبا من الساحل ما كان يوسع أن يغير شيئا من حيث الجوهر. والأسطول عاجز عن كسب معركة بحرية واسعة للنطاق لا يملك حلاً سوى اللجوء إلى ميناء. ولما كان ميناء الإسكندرية غير آمن، فلم يبق هناك سوى كورفو. لكن بونابارت اتخذ قراراً آخر.

إعادة تنظيم الانتشار الفرنسي

بعد المعركة، ينهمك كليبر بنشاط في التصدي لهجوم عسكري إنجليزي مباغت محتمل على الساحل وهو يحرك سلسلة كاملة من البطاريات لحماية الإسكندرية، ويرسل نومي و طابوره المتحرك للتمركز في أبو قير. وهو يكلف جانتوم بإعادة تنظيم البحرية الذين يتنقلون على اللينة. وهو يشكر من جهة أخرى من مسلكتهم السيء. ويجري تدريجياً نقل البحرية إلى لشباه القوة الجيش البري أو أنهم يشكلون وحدة خاصة سوف تسمى بالفيلق البحري. كما ينزعج كليبر في هذه الظروف المضطربة من عدم تلقي تعليمات من القائد العام. وهو يفضل تكريس الأموال للهزيمة المتاحة له لتلبية احتياجات الجيش البري بدلاً من تلبية احتياجات البحرية وذلك بالرغم من أوامر سابقة. ويبدو له أن للوائف يبرر هذا الانتهاك لتعليمات بونابارت.

وفي ١٥ أغسطس فقط، في لحظة يبدو فيها أن الأسطول الإنجليزي يريد اتخاذ مواقع القصف اللينة، يتلقى رسالة من بونابارت مؤرخة بتاريخ يوم معركة أبو قير نفسه. لمبررات احتجاج محمد كريم تؤكد معلومات تم الحصول عليها في القاهرة عن رياه، وهو ما يسمح بالتراض أن المندوب السابق لمراء يك له أعداء في العاصمة. وعندئذ يتجه كليبر إلى إلقاء القبض على القارب محافظ الإسكندرية السابق. ويتعين على نومي و طابوره المتمركز في الرحمانية بينما يتعين على كليبر سحب قوات من الإسكندرية للحفاظ على أبو قير. وفي الرحمانية، يتعين على نومي أن يعهد بطابوره المتحرك إلى العميد بريي المكلف بالخروج لتأنيب سكان معنهور على سوء مسلكتهم.

ويواصل مينو عمله التنظيمي في رشيد ويهتم بتأمين الاتصال مع الداخل. وسعي

إلى ذلك، فإنه لا يتردد في انتهاج سياسة إرهاب (لقد ختم ميخو شكه في ذلك شأن كليبر في الثانية). وبياته، الموزع في ١٢ أغسطس في الإقليم كله، حول تدمير قرية السالمية الواقعة على ضفاف النيل ببيان واضح، ولقد كان سكان السالمية إشراراً ومتوحشين. إن مديناً منهم، وعلى رأسهم شيخهم الكرويه سلامة وأكد، قد قتلوا، منذ شهر، ثمانية فرنسيين كنت قد أرسلتهم إلى القاهرة، لحمل رسائل إلى الجنرال بوناپارت. وأمس، انتقلت إلى السالمية مع جنود فرنسيين؛ وأصبحت الأمر بقتل جميع المسلحين؛ وأموت بمصاهرة البهائم؛ كما أموت بإحراق القرية، حتى تعرف مصر كلها لأي شيء يتعرض الناس إذا ما قتلوا فرنسيين... (١٠١).

وفي ١٢ أغسطس، يعاود مخاطبة سكان القرية بمتهم عفو، ويدلى شيخ القرية ويصلي ممتلكاته. ويعلن شيخاً آخر يبدو أنه كان قد جرد فيما سبق من هذه الوظيفة على يد الشيخ الذي تم نفيه. (١٠٢)

ومذ ٥ أغسطس، كان قد أمر بنقل محمد كريم إلى القاهرة. ويبدى ميخو منذ بداية حياته خصاله كلباري، بالرغم من تظاهره بأنه يفضل العمل العسكري على الحياة في رشيد. هذا هو ما يكتب عنه، بأسلوبه اللباغ نائماً، إلى بيرتييه: «إن ما يهمني بشكل خاص، عزيزي الجنرال، هو ألا أترك طويلاً هنا، فأنت تعرف أنني أفضل مائة مرة أن أكون على رأس فرقتي بدلاً من الهرب في هذا المكان. لقد جئت إلى مصر طلباً للمجد، لو أن قتل فيها، لا لكي أجمع المال منها» (١٠٣).

ويرد عليه بيرتييه بأن الوضع الذي خلقته معركة أبو قير يجعل وجود ميخو في رشيد ضرورياً في الوقت الحالي (١٠٤).

وفي ١١ أغسطس، يرجه ميخو دعوة إلى جميع مشايخ البلد لحضور اجتماع في ١٧ أغسطس. وهو يخبرهم بأن عليهم أن يمارسوا مهام الحكم بالقوانين وليس بالتعسف ويطلبهم على التنظيم الجديد للبلدية. (١٠٥)

ويترقب بريب نائماً لوموى للزحف على مذهب، فهو لا يتمتع بقوات كالية، وخاصة الفرسان، لواجهة البدو. والحال أن أعيان تلك المدينة، المنزعجين، يرسلون إليه رسائل ولاء لا يثق فيها. (١٠٦)

رحيل الأنجليز

يتأخر كليبر، بالرغم من تحذيرات محمد كريم، في إبداء الضرورة القصوى،

بالنسبة لبقاء الإسكندرية، والخاصة بمنع القوى القوية من «استنزاف» القناة التي تربط المدينة بالنيل، خلال الفيضان. وينشغل الشيخ المسيحي باستئناف الاتصالات مع إيهان بمنهور. ويتم التوصل إلى تهدئة ويتعهد الأعيان بأن يقدموا، كما في الماضي، الجياد والرجال الضروريين لتنظيف القناة وتشغيل الآلات الهيدروليكية. (١٠٧) ويتحمل الأمير إبراهيم الشوريحي المسئولية عن هذا العمل، وهو يتعهد بتسليم رهائن لضمان حسن سلوك بمنهور والقبائل المجاورة.

ويثق كليبر في خطر هجوم إنجليزى على الإسكندرية. ويذكر له بوناپارت مآثره الخاصة في طولون، لكن الأوامر يكره بعدم كفاية للدفع للناحية في المهناء للمصري (١٠٨). ويتزايد انزعاجه من جراء محاولة بريطانية رامية إلى حفر انتفاضة شعبية في الإسكندرية، في ١٧ أغسطس ١٧٩٨. وكان الإنجليز قد سعوا إلى الاتصال بالأعيان للعينين من جانب الفرنسيين عبر تجار مغاربة كانوا يقيمون فيما قبل في الإسكندرية. ويسارع من يخاطبهم هذا البريد الخطر، وعلى رأسهم للشيخ المسيحي، إلى لقاء للقائد الفرنسي بمجرد وصول الرسائل، ويون أن يفتحوها، يقومون بتسليمها إلى كليبر. وبعد قراءة الرسائل، سألت الشيخ ما إذا كان يعتقد أن من شأن النزول على مقترحات الإنجليز أن يسهم في هذه الإسكندريين، فأجابني «إنني أهد ما أكون من تصور ذلك»، فمثل هذه الخيانة ليس من شأنها، على العكس من ذلك، غير أن تجر عليهم سلسلة طويلة من التوائب والكوارث. وأضاف إنني ليس هناك ما يدعو إلى الخوف من حدوث شيء كهذا من جانبهم (١٠٩).

والواقع أن نيلسون جد ضعيف فيما يتعلق بالهجوم على المواقع الفرنسية. فعليه قضاء خمسة عشر يوماً لإصلاح الأعطال التي تسببت فيها المعركة. وهو يستقر في جزيرة أبو قير الصغيرة. ويكتفى بوموى بمراقبته دون استفزازة. ويحاول الفرنسيون الحيلولة دون أي اتصال مع المصريين، بينما يمنع الإنجليز كل استخدام للطريق البحري بين رشيد والإسكندرية، ويهدمون في حصار للوائى المصرية. وفي ١٢ أغسطس، يتلقى نيلسون تعزيزات، هي الفرقاطات التي افتقدتها خلال بحثه عن أسطول العدو. ويأمر بالرحيل التدريجي للجانب الرئيسي من سفنه إلى غربي البحر المتوسط. ويقابل هو نفسه الضفة المصرية في ١٩ أغسطس، تاركاً ست سفن، تحت قيادة القبطان هود لمراقبة الشواطئ البحرية المصرية. ثم يتجه إلى نابولي التي يصل إليها في ٢٢ سبتمبر. ويجري استقبال الأسطول بحماس من جانب السكان ثم يذهب هو نفسه إلى لقاء الليدى هاميلتون...

حواشي الفصل الثالث

١ - خلال زمن الإمبراطورية، لم يهجر سيلفستر نو ساسي على نشر هذا النص العربي في كتابه *Chrestomathie arabe* ، دعد إصدار الطبعة الأولى للمختارات، طبعت الترجمة العربية لهذا النص في المجلد الأول، وكنت خائفاً من إتهامي بسوء النية إذا ما وضعت تحت نظر الجمهور هذا البيان الذي يتفاخر فيه قائد الجيش الفرنسي بأنه قضى على قبلنا ، للواقع أن ذلك الزمن كان هو الزمن الذي توصل فيه، وقد تبينت مبادئه مع غايات طموحه، إلى عقد اتفاق مع الحبر الأعظم. ومن ثم فقد حلت ورقة النص العربي التي كان موجهاً فيها واستهدفت به نصاً آخر. وقد رأيت أن من واجبي أن أعيده، في هذه الطبعة الثانية، وضع هذا النص الذي يستحق، بما يتميز به من غرابة ومن أسلوب متعجرف ومثير للسخرية، أن يحفظ للأجيال القادمة. SILVESTRE DE SACY, *Chrestomathie arabe*, Paris, 1827, III, pp. 368.

والموقوف على تحليل للمعجم المستخدم والمفارق بين النسخين الفرنسي والعربي، انظر دراسة عبد العزيز محمد الشناوي، صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، القاهرة، ١٩٧١، ص ١٤ - ١٧.

٢ - في ذلك الزمن، كان العلم الثلاثي الألوان يتلف عموماً من معين كهر أو مربع أبيض في وسط العلم، بينما كان اللونان الأزرق والأحمر يتخذان في الزوايا الأربعة توزيعات متباينة. (LA JONQUIÈRE, II, p. 63)

٣ - ينتهي المنصور العربي للوزع بعد الاستيلاء على الإسكندرية على النحو التالي ، تحريراً بمعسكر إسكندرية في ١٢ شهر ميسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنسي، يعني في آخر شهر محرم سنة ١٢١٢ هجرية (الأول من يوليو ١٧٩٨).

٤ - الشريف هو أحد ألقاب النبى. وهذا اللقب يتيح حق احترام معين يتميز بطابع ديني (ومن هنا العدد الكبير للأشراف في الهيئات القضائية الدينية)، لكنه لا يشكل في حد ذاته علامة من علامات الأرستقراطية. ونحن نجد أشرافاً في جميع الفئات الاجتماعية المصرية في الإمبراطورية العثمانية وهم يشكلون جماعة قوية، تمارس نفوذاً قوياً على صوام المدن. وسوف نرى فيما بعد أن محمد كريم يمكن النظر إليه بوصفه منفصلاً على جماعته الاجتماعية.

• - Je préfère utiliser la graphie Bahireh, extrêmement courante dans les texte européens du temps plutôt que celle de Buhaira plus proche de l'original arabe. C'est la province occidentale de la Basse - Égypte, entre Alexandrie et le Nil.

٦ - Je me réfère ici le récit envoyé par le diwan du Caire à la Porte pour l'informer du débarquement des Français. Ce texte a été publié dans une translittération en turc moderne par Enver ZIYA KARAL dans son

Fransa - Misir ve Osmanlı Imperatorlugu, 1797 - 1802. (France - Égypte et Empire Ottoman), Istanbul, 1938, pp. 160 - 163. Je remercie M. Nicolas VATIN de m'avoir fourni une traduction littérale de ce texte difficile.

Pour tout le détail des opérations militaires, je suis les analyses de - ۷ La Jonquière. Ce dernier a bien démontré la modification de plan originel en raison du passage de Nelson, mais n'insiste pas suffisamment sur les implications concernant la marche sur le Caire.

۸ - محطة حملات العجمي الآن.

CUOQ, op. cit. p. 23.

- ۹

۱۰ - انظر تقرير بيرتيني إلى حكومة الإدارة في ۱۸ ديسمبر من العام السادس (٦ يوليو ۱۷۹۸) ، بعد فشل محاولة الدخول السلمي إلى الوادي ، «توجب اتخاذ قرار بمهاجمة لولئك الذين كادت هناك رغبة في أن يكونوا أصدقاء» ، وعقد الاستسلام ، وجاء الأتمة والمهاجرين والشريف إليها ، كأصدقاء ، مؤكدين أنهم قد أخطأوا في فهم نوايا الفرنسيين ، (LA JONQUIÈRE, II, pp. 42 - 49).

۱۱ - Ordre du 15 messidor (3 juillet 1798), LA JONQUIÈRE, II, p. 64, voir aussi CUOQ, p. 23 : Jabarti compare la cocarde à un tournesol.

۱۲ - فنان (الهيئة التاريخية للجيش البري) ، B6 4 ، تقرير للمواطن سوريه ، رئيس مكتبة الهندسة ، حول أحداث يومي ۱۲ و ۱۴ ديسمبر من العام السادس ، وهو ينكر ، «إن البرابرة قد ضربوا بلا رحمة ، من الفوائد ، جنونا أعت مروهم وانضباطهم إلى كبح الميل إلى النار» . La série B 6 regroupe l'ensemble des archives concernant l'armée d'Orient.

Texte dans LA JONQUIÈRE, II, pp. 65 - 66.

- ۱۳

۱۴ - توجد الشهادة الأسفلية من الإسكندرية في «تاريخ مدة الفرنسيين بمصر» الذي حلقه وترجمه سي. موريه تحت عنوان *Al Jabarti's chronicle of the first seven months of the French occupation of Egypt*, Leyde, 1975. النص العربي ومن ص ۶۸ - ۷۰ من الترجمة الإنجليزية. وهذا النص هو التحرير الأول لروايته من الاحتلال الفرنسي، والتي تعتبر معاصرة للأحداث من الناحية العملية، ومن هنا أهميته بالقياس إلى هجائب الآثار، الذي يرجع تحريره الأخير إلى ما بعد الحملة بعدة سنوات ، «وعندهم رجل من الفقهاء المالكية يسمى الشيخ محمد المسيري يلقي لهم الدروس ويقرر لهم لغة الإمام مالك ويظهر التزامه عما بأيديهم ويقترح من الشبهات [...] فاجتمعت قلوبهم على محبته وعكفوا على طامته بحيث صار مرجعهم في كل الأمور، فإذا بهم أمر فزعوا إليه وعرضوه عليه وانتظروا رايه فيه [...] فإن أمرهم بأمر امتثلوه أو نهامهم عنه اجتنبوه، فإذا أراد أحد من الحكام أو غيرهم التعرض لأبني شخص منهم من غير وجه وأعلموه بذلك، أمرهم فيه بأمر بانروا جميعاً إليه وربما ضربوه وأخرجوه من بيوتهم».

أما نص هجائي الأكار في جزئه المتعلق بالحملة الفرنسية في مصر، فقد ترجمه جوزيف كرك، تحت العنوان غير الدقيق : *Journal d'un notable du Caire durant l'expédition française*, Paris, 1979.

وبعيداً من أن يكون نصاً كتب يوماً بيوم، فإنه قد عرف إشارات تحرير متتالية تتألف من عمليات حذف وإضافات مهمة أحياناً. وهناك نص متوسط بين اللغة والنسخة النهائية [من هجائي الأكار]، معروف تحت عنوان : *مظهر التقييس* بذهاب نولة الفرنسيين. وهو عمل كتب بناء على طلب المصدر الأعظم منذ هوية العثمانيين في عام ١٨٠١. وهو يتميز بالرغبة في مراعاة جانب العثمانيين وفي تبرئة سلحة العلماء الذين، شأنهم في ذلك شأن الكاتب نفسه، كانوا قد تعاونوا مع النظام الفرنسي. وسوف أملى الأولوية هذا لتاريخ اللغة، الذي لم يستخدم حتى الآن إلا بدرجة قليلة والذي يعتبر أقرب من الأحداث والهجائي الأكار الذي يقدم صورة ملطخة أكثر لما جرى. وبالنظر إلى تعدد طبعات هذا النص الأخير، فسوف أشهر إلى اليوم والشهر سعياً إلى تبسيط الإحالات أو إلى ترجمة كرك الفرنسية عندما استشهد بها على نحو مباشر.

Sur ces questions, voir Gilbert DELANOUE, *Moralistes et politiques musulmans...*, essentiel pour la compréhension de l'œuvre de Jabarti et dont je m'inspire pour analyser le texte de Jabarti et Ismail K. POONAWALA, "The Evolution of Al Gabarti's Historical Thinking as reflected in the *Muzhir* and the *Aja'ib*", *Arabica*, 15, 1968. pp. 270 - 288.

Acte de nomination dans *La Jonquière*, II, pp. 101 - 102. - ١٥

LA JONQUIÈRE qui cite Laugier, II, p. 66. - ١٦

SULKOWSKI, "Notes sur l'expédition d'Égypte". in- ١٧
SKALKOWSKI, *Les Polonais en Égypte*, Paris, 1910, pp. 29 - 30.

١٨ - يرى لاجونكيير (II, pp. 103 - 104) اعتماداً على المعلومات التي قدمها للهنسيون - الجغرافيون، أن اتخذ طريق النيل لم يكن من شأنه تأخير بونابارت غير يومين أو ثلاثة أيام. لكن بونابارت لم يكن يحوز في تلك اللحظة هذه المعلومات، علاوة على أنه قد جرى تصوير طريق بمنهول له على أنه طريق سهل؛ وشهر سولكوفسكي إلى ذلك : «إن هذا الطريق أقصر من الطريق الآخر، ويبدو أن الوصول إليه يحتاج إلى مسيرة يوم؛ وقد قيل لنا إنه مأهول؛ وجرى الإشارة إلى أسماء المناطق للأهول؛ والحق أنها توجد وسط هذه الصحراء، لكن ذلك ليس من شأنه إلا أن يجعلها أكثر بهامة». Ibid, p. 30.

Clot BEY, *Aperçu général sur l'Égypte*, Bruxelles, 1840, T. II. pp. - ١٩

164 - 165 وهو يؤكد أن هذه الحكاية «صحيحة تماماً». والحال أنه لم يتمكن من سماعها من روزيتي نفسه الذي كان قد مات قبل وصوله. ومن المحتمل أن هذه الشهادة، التي انتقلت شفاهة، إنما ترجع بالأحرى إلى مهمة روزيتي التالية لدى مراد بك.

JABARTI, nécrologie de l'année 1228. - ٢٠

٢١ - الجبروتى، للنداء، النص العربى، ص ٤. فى نسخة نصه، يرى الجبروتى فى زعم مولد بك
أملات سوء دية جد كبير. فبالنسبة لكاتب الحوليات، يتلخص الأمر فى أن الأمراء قد حولوا،
لاستعمالهم الشخصى، الأموال المرسومة للدفاع عن مصر.

٢٢ - *Correspondance de Napoléon, IV, p. 267. Rédigé à bord de l'Orient, le 12 messidor an VI (30 juin 1798).*

٢٣ - Nicolas TURC, *Chronique d'Égypte, 1798 - 1840*, éditée et traduite par Gaston WIET, Le Caire, 1950, p. 19.
الكبير الآخر حول الحملة الفرنسية فى مصر. وهو كاثوليكي يونانى ولد فى عام ١٧٦٣ فى دير
القر فى لبنان. وهو أحد أفضل مصطلحى النهضة الأدبية العربية للكاثوليك اليونانيين. ولما كان
شاعر بلاط بشير الثانى، أمير الجبل اللبناني، فإننا نملك ديواناً شعرياً مهماً له. وقد كانت له
أسرة فى دمياط، المركز الكبير للكاثوليك اليونانيين وقد زار مصر فى عدة مناسبات، وفى عام
١٧٩٨، أرسله بشير الثانى إلى هذا البلد لى يجمع معلومات عن عمل الفرنسيين الذين يدخل فى
اتصال معهم، خاصة مع المستشرق ج. ج. مارسيل. وهو يرجع فى عام ١٨٠٤ إلى دير القر
ويموت فى عام ١٨٢٨ بعد أن صانى من أمراض جعلته شبه عاجز على ملو عشر سنوات.

ونحن نملك نصين جد مختلفين أحدهما من الآخر عن تاريخه للحملة الفرنسية، يحمل
الأول عنوان *الذكور تلك جمهور الفرنسية الأقطار المصرية والبلاد الشامية*، ويحمل الثانى عنوان
مذكرات نغولا الترك. وقد نشر بيجرانج نص التملك فى عام ١٨٢٩ وجرى نسخه فى كتاب
حوليات حيدر الشهابى (الذى كان قريباً من نغولا الترك)، الذى نشره أسد رستم وفؤاد البستاني،
وأعيد نشره عدة مرات منذ عام ١٩٢٢. أما نص المذكرات فقد نشر جزء منه على يد كارديان فى عام
١٨٢٨ (تكملة لطبعة الأولى للجبروتى) ونشر كاملاً على يد جاستون ويت (انظر أملاء). وتشير
دراسة المخطوطات والمقارنة بين النصوص إلى أن التملك هو النص الأصلى الذى يرجع له قد كتب
قبل عام ١٨١٠ فى حين أن المذكرات تنقح سابق على عام ١٨٢٩، فلم به شخص مجهول لابد أن
قد عاش فى مصر فى زمن الأحداث وكان، هو الآخر، قريباً من الفرنسيين. ولا خبرى إلى أى من
الكاتبين يمكن رد الجزء التالى لعام ١٨٠١ فى المذكرات. والدراسة الأساسية التى تنبع منها كل
هذه التعميمات هى عمل Margarethe Elise WEYERGANG, *Nigula al Turk as a source on the French Occupation of Egypt*, Thesis for the Master of Arts
Degree, Université Américaine du Caire, juin 1985.

٢٤ - إنتى إتبع هنا النص الذى قدمه كارال للمرسلة المرسلة إلى الباب العالي - (pp. 160
163) ومصر لرخ مفسدة من حيث إنها ألغى إسلام ومن حيث إنها مجاورة للمعبدتين المقدستين
فى الحجاز.

Nicolas TURC, pp. 19 - 20.

- ٢٥

٢٦ - يتحدث نغولا للترك عن القلعة، ويشير سولكوفاكى بشكل واضح إلى أن فرنسيين
آخرين قد وجدوا ملائناً عند زوجة مراد بك (P. 44) : أما الجبروتى (العدة، ص ٤٩)، فهو يتحدث عن
البيوت الأمراء.

٢٨ – إن العرب – الهنود هما أئمة قد تمركزوا لتسليم الجهاد والجمال التي كانوا ملزمين بتقديمها بموجب معاهدتهم في الإسكندرية، قد حصلوا على فتوى من العلماء ومن مشايخ القاهرة، تأمرهم باللجوء إلى السلاح للثوار عن دين النبي، للهند من الكفار. وقد أعلنوا لمحمد كريم أنه بما أن بينهم قد تعرضوا للانتهاك، فإنهم يعتبرون المعاهدة كأن لم تكن: : NAPOLÉON, *Campagne d'Égypte et de Syrie, in Correspondance de Napoléon I^{er}, Tome XXIX, Oeuvres à Sainte - Hélène, Paris, 1869, p. 524.*

٢٩ – إن الطواشيح الفرنسية المحاطة بالهنود، قد بدت كاستغلال تتبعها اسمك الترش حيث، كما كان الجندي يقول، «كانت للاريسالية هي التي تحافظ على الأمن». وكان هذا الحفظ على الأمن أساسياً، لكنه كان يساعد على النظام، وقد تعود الجندي على ذلك. Ibid, p. 525.

٣٠ – La principale source pour les événements de Rosette est le livre de souvenirs tardifs de CHALBRAND, *Les Français en Égypte ou souvenirs des campagnes d'Égypte et de Syrie par un officier de l'expédition, recueillis et mis en ordre par J.J.E. Roy, Tours, 1875, pp. 51 - 53.*

٣١ – انظر المقتطف من يوميات لوجيه في LA JONQUIÈRE, II, pp. 123 - 127، «إن المصريين خائفون كما أنهم شحيحون؛ ولذا فإنهم لم يتجرأوا على عمل شيء لضمة الفرنسيين، وذلك خوفاً من هزيمة المماليك، وفقدوا قلوبهم بعمل أبسط شيء، فإنهم يعتبرون من أكثر امذياتهم حسنة في أن ننحصر على المماليك. ولم تكن لديهم فكرة من استبعاد قواتنا لغرض الحرب، ولي هذا الحسد كان الفرنسيون المليون في رشيد يشاطرونهم خوفهم».

٣٢ – B6 4, du général Dugua du 21 messidor an VI (9 juillet 1798).

٣٣ – SKALKOWSKI, op. cit. p. 70.

٣٤ – *Voyage en Égypte et en Syrie, publié avec une introduction et des notes par Jean Gaulmier, Paris - La Haye, 1959, p. 106.*

٣٥ – Cité par CRECELIUS, *Roots of Modern Egypt...*, op. cit. p. 61.

٣٦ – *Campagne d'Égypte, Correspondance...*, op. cit., XXIX, p. 615.

٣٧ – Pour le nom de Shubrâkhî, je suis la graphie arabe de la carte de Jacotin dans la *Description de l'Égypte*. SHANAWI propose Shubrârî (op. cit. p. 24).

٣٨ – Colonel Roger MICHALON et chef de bataillon J. VERNET, *L'adaptation d'une armée française de la fin du XVIII^e siècle à un théâtre*

d'opérations proche - oriental, Colloque International d' Histoire Militaire, Téhéran, juillet 1976, Château de Vincennes, 1976, p. 9.

Voir l'article Infanterie du *Dictionnaire Napoléon*. — ٢٩

١٠ - من منا المسيحية الشهيرة والحمير والعلماء في الوسط.

Le général Pelleport cité par Jacques BAINVILLE, *Bonaparte*, — ١١
Paris, 1936, p. 32.

Campagne d'Égypte..., op. cit., pp. 534 - 535. Les Clichyens sont — ١٢
les royalistes et les constitutionnels battus au 18 fructidor.

Sulkowski, in SKALKOWSKI, op. cit. p. 72. — ١٣

JABARTI, *Mudda*, 19 (texte arabe). — ١٤

Ibid, pp. 20 - 21. — ١٥

Voir l'étude de LA JONQUIÈRE, II, pp. 584 - 586. — ١٦

LA JONQUIÈRE, II, p. 181. *L'Histoire Scientifique* reprend ce — ١٧
chiffre.

Mudda, p. 23. — ١٨

١٩ - *Correspondance de Napoléon I^{er}*, IV, p. 431. يلاحظ الجبرتي أن كلمات
البيان محرفة وأن الفظة محرفة (للغة، من ٢٧)، وقد كتبه فيكتور: «لقد كان المستشرق الأول في
أوروبا» وكان يتحدث دائماً بلهجة ويسهولة وبأسلوب من شأنه إحياء الأثر المظلم.
(Napoléon I^{er}, *Campagne d'Égypte...*, XXXIX, p. 541).

Sur le Caire au XVIII^e siècle, voir l'ensemble des travaux de M. — ٥٠
André RAYMOND et, en particulier "Le Caire sous les Ottomans, 1517 -
1798, in *Palais et maisons du Caire, II, époque Ottomane*, Paris, 1983, pp.
15 - 90 et *Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, Paris, 1985.

LA JONQUIÈRE, II, p. 203. — ٥١

LA JONQUIÈRE, II, p. 198. — ٥٢

Sur ce quartier, voir Doris BEHRENS - ABOUSEIF, *Azbakiyya — ٥٣*
and its environs from Azbak to Isma'il, 1476 - 1879, Le Caire, I.F.A.O.,
1985.

LA JONQUIÈRE, II, p. 208 et MASSON, *Napoléon et sa famille*, — ٥٤
Paris, 1902, I, p. 236. لم تصل هذه الرسالة إلى المرسل إليه وأحال أن جوزيفين في نفسها
التي سوف تختار في نهاية الأمر للنزل الشهير «للإليزيون» (MASSON, "La Malmaison

(pendant le Consulat", in *Jadis*, Paris, 1905, I, p. 294).
هذه الرسالة إلى جوزيف بشأن جوزيفين تصويهاً واقعياً لـ «عقيدة جوزيف» تلك التي شخصها
فرويد لدى ثابوليون (انظر أملاه)

وومن نجد الشعور نفسه لدى كثيرين آخرين من السلوانين الفرنسيين، وهكذا، فإن تلك
اللقاء الهنري بلناس يكتب، في ٢٧ يوليو ١٧٩٨ إلى صديقه الحميم كليبر :

«لقد وصلت أخيراً إلى البلد الذي طالما اشتبهته. لما أبحرته حتى عما تصوره الخيال الأكثر
اتزاناً. [...] إن حي للملك وحده هو الحي الصالح للسكنى، ويسكن القلعة العلم في منزل جميل
لأحد البكوات [...] وقد سكنا ضمن كلنا في بيوت مهجورة وجد رديئة. [...] وقد ظن الهنري
أن لمراً بالتحرك لتولى القلعة مرة مبدؤ بدلاً من ثيال الذي تحرك مع كتيبة إلى دميلا، وهو يؤكد
في أنه سوف يرفض تنفيذ الأمر Vincennes, B6 4, copie certifiée d'un original
communiqué par M. Charavay.

•• - يستخدم المؤرخون المصريون الحاليون عادة هذا المصطلح للإشارة إلى سياسة
بونابارت خلال الحملة. كما يستخدمون مصطلح «السياسة الإسلامية القومية».

•٦ - NAPOLÉON I^{er}, *Campagne d'Égypte...*, T. XXIX, pp. 572 - 573.
C'est lui - même qui cite Volney.

•٧ - *Correspondance de Napoléon I^{er}*, IV, p. 359. J'ai ici modifié les
transcriptions des éditeurs de la correspondance. يحدد الجبرتي عدد الأشخاص في
الدهوان عشرة، ولا يحضر السفات الجلسة الأولى لأنه يريد الخطأ من الأذى لنفسه الذي
تعرض له (كان الهند قد اعتلوا عليه عندما حاول الهرب من القاهرة)، أما عمر مكرم فهو مع
إبراهيم بك ولا يريد العودة بالرقم من عهد الأمان الذي أرسل إليه الفرنسيين، وأما الأمير فهو
خائب من القاهرة، وهذا أيضاً شأن محمد للهدى ومصطفى المنهورى وپرسف الشهبانخيتي
ومحمد التواخلي. ولا يتحدث نقولا الترك إلا عن ثمانية علماء واثنين من التجار، إلا أن من الواضح
أنه يشير إلى التركيب التالي للدهوان. وتشير بطاقات الدعوة للرسالة إلى الأشخاص الفلانيين إشارة
واضحة إلى أننا بإزاء قائمة أعدت سلفاً من جانب فيكتور دو بارادي بالتحديد. وفقاً لـ ج. ج.
مارسيل، وهو شاهد من الدرجة الأولى، فإن فيكتور قد تبع الحملة «بوصفه ترجماناً أول للقلعة
للعام، لكنه كان في الواقع بالأحرى وزيره الأول في كل ما يتعلق بالبلد ويسكان الشرق».

*Supplément à toutes les biographies, Souvenir de quelques amis
d'Égypte*, Paris, 1834, p. 7.

SHANAWI, op. cit. pp. 30 - 31. - •٨

•٩ - بوناتي، أي رومي، ومن هنا لقبه بالعربية، فرط الرمان.
على أن الجبرتي، في هذه الفقرة، يسميه بالإفريقي.

JABARTI, *Mudda*, pp. 29 - 30. - ٦٠

LA JONQUIÈRE, II, pp. 283 - 284, et B 6 4. - ٦١

La Correspondance de Napoléon (IV, p. 367), à la suite de la - ٦٢
Correspondance inédite, met une Correspondance entre Bonaparte et le
 diwan sur les réformes essentielles à faire. C'est une erreur chronologique,
 car il s'agit des questions posées au diwan général d'octobre 1798, voir infra:

B 6 5, le août 1798; c'est la seule trace conservée par les archives - ٦٣
 d'activités du diwan du Caire dans cette période.

٦٤ - بوناپارت إلى اللجنة الإدارية، ٢٨ يوليو ١٧٩٨ : «إن ما أرمى إليه، أيها المواطنين،
 ليس هو أن يكون الأمين فوق المقوض الفرنسي [فكل ما هناك] هو أنني على ثقة من أنه يجب ترك
 المسؤولية كلها إلى الأقباط وإلى أن يتمكن الفرنسي من أن يكون أكثر رعاية بمعايير ولغة البلد.
 ويجب على الفرنسي أن يكون هناك فقط للوقوف على المعايير للشار إليها والإشراف والتمكن
 من تقديم جميع المعلومات التي قد تكون مطلوبة. إنه أشبه ما يكون بمراقبه.
Correspondance de Napoléon, IV, p. 380.

٦٥ - هذا هو ما سوف توطئته لهرن كيث في مارس ١٨٠٠ : «لقد كانت هذه السيدة
 ضمت اسم الفرنسي نفسه. وقد حدثتني من الحصة التالية لضمهم. لقد جاء الشاب بونزيه
 ليراهنا، وأقم لها سواراً جميلاً من اللؤلؤ. والحال أن بوناپارت، عندما رأى الجمهرة، أصبح قارلاً بأن
 تنطج ضريبة قدرها ٥٠ كيساً [من الدراهم] لهرت على سدائها. Public Record Office,
 Adm 402.

Histoire Scientifique, III, pp. 228 - 229. - ٦٦

٦٧ - LA JONQUIÈRE, II, 288 : «سبعة أو ثمانية وثلاثين من الخصيان من Le texte
 est conservé dans B 6 6.

Histoire Scientifique, III, p. 132. - ٦٨

JABARTI, 12 safar 1213. - ٦٩

LA JONQUIÈRE, II, p. 291. - ٧٠

LA JONQUIÈRE, II, p. 335. - ٧١

٧٢ - LA JONQUIÈRE, II, pp. 327 - 332. حول التعابير، انظر Domminique
 CHEVALLIER ed., *L'espace social de la ville arabe*, Paris, 1979.
 مشكلة المجال الاجتماعي، انظر Domminique CHEVALLIER, *La ville arabe : notre*
vision historique, p. 11. إنه «مجال يصوغه هيكل للمجتمع العربي، الذي تعتبر الجماعات
 العائلية والقبلية، على أساس نظام قرابة أصلي، أساساً له، والذي يؤدي إلى انزواء وحجب الهويات
 والأحياء وجميع عناصر الشبكة الحضرية، وهكذا فإن التخطيط الحضري ينتج التماسك الداخلي
 للمجتمع» إن تعابير فتح الأحياء إنما تمثل عدواناً حقيقياً، جد اضطرابي، من جانب الفرنسيين.

٧٣ - *Correspondance de Napoléon*, IV, 403. يبلغ بوناپارت في معنى
 سياسته، وهو يستلهم قولاً مباشراً : «إن الباشا، على شوار السلطان، هو رئيس كل شرطة

حكومتها، وتحت هذه الصفة، يجب أن نلهم القضاء الجنائي أيضاً. فهو يملك الحق المطلق تماماً على الحياة والموت؛ وهو يمارسه دون مراعاة للشكليات، ودون استئناف. وحيثما صلب جريمة، فإن الأمر بإلقاء القبض على اللص؛ ويقاوم الجانيون الذين يراقبونه هناك أو قطع رأسه فوراً. Voyage..., p. 366.

LA JONQUIÈRE, II, pp. 305 - 306.

- ٧٤

٧٥ - إن الجيش «ما إن صوف أتت سوف يفتخر القاهرة، قد أخذ يعبر عن الثمرات. وقد اتخذ السخط لون مصيان وتامر، لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين. وقد أرسلت الوحدات مخدومين عنها. وأخذ عدد من الجنرالات يتساقون الأمور بينهم. فقد كان من الغريب أن يدور حديث، في من القبط، من إسماعيل أمر بتصويره القوات في صحراء بلا ماء، وتعريضها، دون ظل، لشمس الصيف الحارقة». NAPOLÉON I^{er}, *Campagne...*, XXX, pp. 543 - 544.

٧٦ - إن صلاح بك هذا سوف يابجا إلى القدس لكي يودع هناك مهمات الحج، وسوف يستقر بعد ذلك في غزة حيث يسقط مريضاً ويموت (الجهنمي، المدة). وفي مذكراته، يزعم رستم، مملوك نابوليون، الذي كان ينتمي إلى هذا الأمير، والذي رافق سيده إلى هناك، أن هذا الأخير قد جرى نص القسم له من جانب الجنرال وأنه مات بعد ذلك مباشرة. *Souvenirs de Roustam*, introduction et notes de Pal COTTIN, Paris, s.d. pp. 40 - 41. لوكوندييه دو ليهبيت. فهي تذكر في عدد ٢٠ فيفيمير من العام السابع (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) «إن صلاح بك، أمير الحج السابق، قد مات في القدس. وهناك تأكيدات بأنه قد جرى نص القسم له سعيًا إلى الاستحواذ على خزائنه». ويقدم خولوا الترك رواية أخرى :

«الحينما شاعروه أمالي للدينه [القدس] بدوا يشتمون ويقولون «لكنكم إله يملعون، وبنا انظلم الظالمين، سلمتم مدينة الإسلام إلى الفرنسيات للثام، وهربتم من وجه الكفار، وابتديتم تخريبها هذه الديار. فلما سمع صلاح بك تلك الشتمات للغة والألفاظ للصفة، أثقلت بقلبه الخبران وخلص في البهران. ونزل في منزله وهو مثل الخشون، ومرضى جملة أيام من قهرة ثم قوارى في قهره. وهكذا جأ إلى إبراهيم بك وابن معه لما حضروا إلى لوانس الشام؛ فكانوا يسمعون من الناس غليظ الكلام وقد ذاقوا المخلعة والاعتاب وتقصوا الإملاء والعتاب، في البراري والقفار من اللذل والإصرار، وكانوا أمالي الشام يهرونهم في الكلام، ويلومونهم وهم لا يستحقون لللام». (WIET, pp. 29 - 30).

Voir sa correspondance avec les Français, Vincennes, B 6. 2. - ٧٧
JABARTI (CUOQ, p. 45) minimise l'ampleur des restitutions.

LA JONQUIÈRE, II, p. 375.

- ٧٨

NAPOLÉON I^{er}, *Campagne d'Égypte...*, XXX, p. 564.

- ٧٩

B 6 6, Mouvements de la division aux ordres du général de - ٨٠
brigade Lannes depuis le 19 thermidor jusqu' au 28 thermidor
inclusivement.

Textes dans LA JONQUIÈRE, II, pp. 380 - 381. - ٨١

Sur Alexandrie durant l'été 1798, voir *Kléber et Bonaparte*. - ٨٢

B6 5 , Rapport de Dumuy du 3 thermidor an VI, 21 juillet 1798. - ٨٣

٨٤ - B6 15 , سلسلة الشهادات المتعلقة بعبد الله بلقي ، « لقد انتقل إلى معسكر العرب الذين يجمع على إيمانهم بسطوة كبيرة شأنهم في ذلك شأن سكان وندسين في مدن إقليم البحيرة ، والذين تعلم معهم - هؤلاء وأولئك - على حمل السلاح ضد الفرنسيين ، وذلك تأكيدات في الوقت نفسه بأن هذا للفريق يلق على رأس تلك القوة من الجنود المسلمين التي تقوم الآن بأعمال الرصنة في البحيرة وتعرض سبل المواصلات وتهدمك في جميع التجهيزات ضد الفرنسيين ».

٨٥ - *Kléber et Bonaparte...*, I, pp. 161 - 162. Sur Tallien, la réhabilitation du personnage par Marie - Hélène BOURQUIN, *Monsieur et Madame Tallien*, Paris, 1987. كان تاليان صديقاً لليونابارت (كان هامداً على نواجه) ، وبعد أن عرف فعلاً سياسياً إثر فشل سياسي ، أخذ يطمح في التمكن من الاستفادة من صعود الناجح.

٨٦ - *Kléber à Bonaparte*, le 13 thermidor (31 juillet 1798), *Kléber en Égypte...*, pp. 166 - 167.

٨٧ - *Journal des opérations du général Kléber pendant toute la durée du commandement qu'il exerça à Alexandrie*, in LA JONQUIÈRE, II, p. 234. L'intégralité de ce manuscrit a été publiée par la *Revue d'Égypte*, 1895, II, pp. 17 - 50, et pp. 31 - 111.

٨٨ - *Menou à Bonaparte*, le 27 messidor an VI, 15 juillet 1798, LA JONQUIÈRE, II, pp. 238 - 239 et B 6 4. يشكو إليه من أنه وقع ضحية للمعاليك مقلداً إليه رواية مشوشة عن عدم الإصناف ، ويطلب أن يأخذ الفرنسيون مصالحه في الحصان (B6 2 ، دون تاريخ) . والأرجح أن هذا الشخص هو [عبد الله] بدوي أها (انظر إناه).

٨٩ - B 6 2, Instruction pour le commandement égyptien de la ville de Rosette.

٩٠ - إن بدوي ، الذي لابد وأنه كان نظيفاً للأشراف ، كان يحمل بالفعل رتبة شويجي أعلياً ميليشيا [أوجان] الإنكشارية. (B 6 4, sans date mais mois de juillet, nomination de l'aga de Rosette).

B6 2, sans date.

- ٩١

Ordre du 6 messidor an VI, 24 juin 1798, LA JONQUIÈRE, II, p. – ٩٧
25.

Menou à Bonaparte, le 28 messidor VI, 16 juillet, LA – ٩٨
JONQUIÈRE, II, p. 239.

Menou à Bonaparte, LA JONQUIÈRE, II, p. 239. – ٩٩

Al Kurayyim à Menou, B6 5, sans date, mais à bord d'un navire – ١٠٠
français, extrait dans *Kléber en Égypte...*, I, pp. 168 - 169.

B6 4, lettres de al Kurayyim à Menou, textes arabes et – ١٠١
traductions.

Jaubert, ordonnateur en chef de l'armée navale, à Menou, le 18 – ١٠٢
juillet, DOUIN, *La flotte de Bonaparte...*, p. 99. C'est le livre indispensable
sur cette question, je ne fais qu'en suivre la démonstration.

Pour le récit de la bataille, je suis essentiellement les analyses et – ١٠٣
les nombreux documents cités par La Jonquiére.

٩٩ – كان كليبر قد صرف أيضاً اتفاق تسليمه ولزمه ادبياً بعدم العودة إلى القتال خلال
الخدمة ما ينص في بداية حروب الثورة، لكنه استأنف الخدمة على الفور مقاتلاً في الثانية. وكانت
السلطات الثورية قد رأت أن ينود الاتفاق لا تنسحب على الحرب الأهلية.

١٠٠ – تلقى تحليلات لاجود كليبر ودوان تلمحاً بشأن التزييفات التي قام بها بوناپارت.

LA JONQUIÈRE, II, 453 et B6 5. Voir aussi pour cette affaire, – ١٠٤
Histoire Scientifique, III, pp. 259 - 261. Vivant Denon assiste à la
destruction du village et en fait un dessin à lueur de l'incendie (*Voyage dans
la Basse et Haute - Égypte pendant les campagnes du général Bonaparte*,
Paris, 1802, p. 33).

B6 5. – ١٠٥

LA JONQUIÈRE, II, p. 452. – ١٠٦

Berthier à Menou, le 14 août 1798, B6 5. – ١٠٧

Proclamation de Menou, B6 5. – ١٠٨

Bribes à Menou, le 16 août 1798, B6 5. – ١٠٩

Kléber à Bonaparte, le 20 août 1798, *Kléber en Égypte...*, I, p. – 107
223.

Kléber en Égypte..., I, p. 263. – 108

Kléber à Bonaparte, le 19 août 1798, *Ibid*, I, pp. 226 - 229. – 109

الفصل الرابع

التعاون والمقاومة

محاولة الإغواء

حفظ بونابارت

إن كارثة أبو قير بعد مرور نيلسون الأول بالإسكندرية، إنما تبدو لبونابارت بوصفها تجلياً مئثياً جديداً من جانب القدر. لكن الحظ لم يحنه، كما يوضح ذلك لحكومة الإنارة، لقد هامت الأقنعة في هذا الطرف كما في كثير من الظروف الأخرى، إن تثبت لنا أنها إذا كانت تمنحنا هيمنة عظمى على القارة (الأوروبية - للترجم)، فإنها قد وهبت إمبراطورية البحر لخصومنا (البريطانيين - للترجم). إلا أنه على الرغم من جسامه هذه النكسة، فإنها لا يمكن أن تُعزى إلى خيانة الحظ؛ وهو لم يخنا أصلاً؛ على العكس، لقد خدمنا في هذه العملية بأكثر مما فعل من قبل [... فقد كان الإنجليز غائبين لوقت طويل بما يكفي للسماح بالاستيلاء على مصر السفلى]. ولم يترك الحظ أسطولنا لقدره، إلا عندما أبرك أن كل محاولاتنا بلا طائل، (١).

على أن هذا الحظ، يحرمه الآن من أي أمل في العودة إلى أوروبا، وهي إمكانية لم يتخل عن التفكير فيها. وإذا وجد نفسه حبيس فتحه، فإنه يتعين عليه إنجازه ويعاود تأمل أحلامه في إنشاء إمبراطورية شرقية. وفي سانت - هيلين، سوف يروق له أن يحكى كيف أنه، في مراجعة فتور همه جنونه، جعل لهم بهذا الخطاب، دحضاً، ما نحن ملزمون باجتراح أشياء عظيمة، وسوف نجتريها؛ إننا ملزمون بتأسيس إمبراطورية عظمى، وسوف نؤسسها. إن محاربا، لا تهيمن عليها، تفصلنا عن الوطن؛ لكن أي بحر لا يوصلنا لا من أفريقيا ولا عن آسيا. إن عددنا كبير، ولن يعوزنا وجاه لا اختيار كواثرنا. ولن تعوزنا لخيرة حربية، لدينا منها كثير؛ وعند الحاجة، سوف ينتجها لنا شامبي وكورتية، (٢).

والواقع أن الحالة النفسية لجنود الثورة هي من الرفاهة بحيث لن رد الفعل على

الهزيمة في صفوف الجيش الهوى يتميز على نحو خاص بالرفقة في الثار. والحق أن البحارة هم الذين هُزموا...

هبط ونهاه النيل

عندما يصل بونابارت إلى العاصمة في ١٥ أغسطس، يتخذ التناهي التي يحتمها تغير الوضع والمصاعب التي قويت في النلتا. والحال أن الاحتفال بعملية كاملة من الأعياد يبدو له وسيلة لتخفيف الأثر للعنوى على السكان المصريين لهزيمة أبو البر، التي يحاول من جهة أخرى لتستر عليها لأطول وقت ممكن.

وفي مواجهة القاهرة، على جزيرة الروضة، يوجد مقياس النيل. وعندما يصل لارتفاع الماء إلى ستة عشر ذراعاً، يجرى فتح السد المقام عند مدخل القناة التي تربط النيل بالقاهرة ويستند يغمر الماء جزءاً من المدينة. وهذا العيد هو لعيد الأعياد الرئيسية التي تحدد إيقاع حياة السكان القاهريين. ويحتفل به بونابارت بالقصى حد ممكن من قبهارج في الأول من فبروكتيدور من العام السادس (١٨ أغسطس ١٧٩٨). والعند الأول من الصحيفة الأولى المطبوعة في مصر، لوكورنيه نو ليهيهت، يقدم وصفاً لما حدث: وفي الساعة السابعة صباحاً، حضر إلى المقياس القائد العام، يرافقه جميع الهنرالات وأركان حرب الجيش، وكتخذاً البلسا والديوان والقلبي وأما الأنكشارية. وقد أعطى جمع ظهر من الناس جميع الكثمان المتاخمة للنيل والقناة.

أوشكل كل الأسطول الصغير للزينة بالأعلام وجزء من الحامية المسلحة مشهياً بالغ العظمة وبألف الجلال والحصن. وجرى استقبال وصول الموكب إلى المقياس بإطلاق عدة طلقات من المدافع. وعزفت للموسيقى، الفرنسية والعربية، عدة أغان خلال عملية فتح السد.

أوبعد ذلك مباشرة، عبر النيل السد وتدفق كسيل في القناة التي ينقل عبرها الخصوية إلى ريف القاهرة.

«ونثر الجنرال عدة آلاف من الهدينات على الناس [...]». ثم عاد الموكب إلى صاحة الأنبيكة، يتبعه جمع غفير من الناس الذين يتغنون بمدح النني والجيش الفرنسي، لاعنين البكوات وطفيلانهم. وقيل بلى لقد جهتم من أجل إنقاذنا بأمر الله الرحمن الرحيم؛ لقد حالفكم النصر وجاء لجعل ليضمان للنيل منذ قرن، وهاتان نعمتان لا يقدر على الإنعام بهما سوى الله وحده (٣).

ويرسم الجبرتي صورة للحادث لقل تفلألا بشكل واضح. لعل لا مرأه فيه أن الفرنسيين مرصون حين يطلون من النلس التتره والاستمتاع لى الولت الذى يزيدون فيه الخمرائب والأكلوات على سكان القاهرة. لم إله. فهما هنا قليل من البطالين (الصنادلة)، لم يشارك فى الأفراح النهارية والليلية هير الإفرنج و الأقباط والنصارى الشوام .

مولد الله

فى اليوم نفسه ، يؤدى الرحيل السريع لوحداث فرنسية متجهة إلى تعزيز دفاع الساحل إلى تأكيد الشائمة التى تتحدث عن نمار للأسطول الفرنسى على أهدى الإنجليز، ولتى تروج فى القاهرة منذ بعض الولت (٤). ويحظر الفرنسيون لى تعليق على هذا للموضوع، ويلرفهم من تدخلات القويوان، يفرضون غرامات فاسحة على كل مخالف. ويستفيد الجبرتي من الحادث لكى يتحدث عن تطوق الإنجليز البحرى وتلقى الفرنسيين البحرى وكذلك عن رهان حملة مصر، السيطرة على الهند. (٥)

ويعرف بوناپارت أن للهاين لا ينون تنظيم احتفال عام بالعيد السنوى لمولد الذى. ومن المرجح أن ذلك كان شكلا من أشكال الاحتجاج للمردى. وعند مثلهم، يجيب كبار رجال الدين بأنهم لا يحوزون الأموال الضرورية للاحتفال. وسعياً إلى تعزيز صورته كصديق للإسلام، يعطى لقاء العام للشيوخ البكرى للبلغ الضرورية للمصاييح والفرائيس والمشاعل للمدانة. (٦)

ويستمر مولد الذى عدة أيام منذ ٢١ أغسطس. ويهش الفرنسيون لعروض البهلوانات القصيرة والرقصات للتنشبة التى يقوم بها أفراد الطرق الصوفية. وهذه للموسيقى تبدو لدميترو باروكية غريبة. (٧)

ويشارك الجيش فى الأفراح باستعراضات عسكرية وبحللات موسيقية والحاب نارية. ويستفيد بوناپارت من الاحتفالات ليخلق على الشيخ البكرى منصب نقيب الأشرف، حيث تكون له السلطة على جميع أشرف مصر. وكان حائز المنصب، عمر مكرم، قد لحق بإبراهيم بك فى سوريا. وقد تم التنصيب فى دار الشيخ. وفى المنبة التى تعلقو ذلك، يكاد الفرنسيون من الاضطراب إلى أن يأكلوا بأيديهم اصنافاً جد متبلة تعالها نفوسهم (٨). ويجرى طبع منشور بالعربية عن العيدن لتوزيعه فى مصر وفى البلدان المجاورة. (٩)

وكل هذه الأعياد توحى للجنترال نيهوى، قائد مواقع القاهرة، بملاحظات متفائلة، «إننا نخدع المصريين بتعلقنا بالصورة بديانتهم التي لا يؤمن بها بونابارت ولا نحن بأكثر من إيماننا بديانة [البابا الكاثوليكي - المترجم] في الراحل. إلا أنه، ومهما كان رأى المرء في ذلك، فإن ذلك البلد سوف يصبح بالنسبة لفرنسا بلداً لا يقدر بثمن، ولعل أن يخلق [كذا] هذا الشعب الجاهل من غيبوبته، سوف يفتح الوقت لجميع الكولون لتدبير شئونهم. إننا نحل هنا محل مجرمين لم يتركوا للشعب غير ما يستر العورة، وسوف يشهد أيضاً تغيراً عظيماً حين نجعلهم يسهمون بشكل موحد. والحال أن فظاظة السكان تأخذ بالفعل في التحول إلى لطف. وتبدو رأتنا بالنسبة لهم غير غريبة؛ وشيئاً فشيئاً سوف نجعلهم أقل فظاظاً، وإن كنا سوف نضطر إلى كبحهم في ظل نظام قسري حتى نثبت قسراً من الخوف الضروري في نفوسهم، فمن شأن معالجة بعضهم من أن لاخر إن تبيهم هذا الحد الذي يجب عليهم عدم تجاوزه» (١٠).

إنشاء المعهد المصري

هذا التفاضل يعاود الظهور في قيام بونابارت بإنشاء المعهد (المجمع العلمي) المصري، في ٥ فبروايبر من العام السادس (٢٢ أغسطس ١٧٩٨)، وهدف هذه المؤسسة يتطابق تماماً مع الفلسفة الأيديولوجية، فهو معهد «العلوم والفنون»، يهدف إلى:

١ - ترقية ونشر الأنوار في مصر؛

٢ - بحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر؛

٣ - إبداء رأيه حول مختلف المسائل التي تستشير فيها الحكومة.

وهو ينقسم إلى أربع شعب (الرياضيات، الفيزياء، الاقتصاد السياسي، الآداب والفنون) من اثني عشر عضواً. وسوف تعقد جلستان موسميان كل عشرة أيام. ومن بين المنكرات التي تتلى في هذه الاجتماعات، سوف يجرى نشر المنكرات التي تعتبر الأكثر أهمية؛ وأخيراً فسوف يقدم المعهد كل ستة جائزتين الأولى لموضوع يتصل بتقديم الحضارة المصرية، والثانية لموضوع يتصل بتقديم الصناعة» (١١).

ويجرى تعيين ستة وثلاثين عضواً للمعهد. وهم أهم شخصيات لجنة العلوم والفنون. والحال أن الأزمات الأولى لإقامة العلماء لم تكن جد سعيدة وذلك بسبب الضرورات

الثورة. والمصريون ليسوا غير فينتور هو هارادى وسكوتير بوناهارت، بوريان. والصحيفة صحفية رسمية تقدم المعلومات بما يتماشى مع آراء القائد العام (١٢).

وهكذا، يجرى التذكير بمسلك بروى البطولى فى أبو قير، حتى يتسنى بعد ذلك على نحو أفضل إلقاء مسئولية الهزيمة على كامله (١٣). ويجرى الحديث عن النجاحات الباهرة للانتفاضة الأيونية ضد السيطرة الإنجليزية (١٤). ويجرى اختراع رسالة منسوبة إلى بحار إنجليزى مرسلة إلى عضو فى البرلمان واستولت عليها سفينة مالطية من سفينة إنجليزية وأرسلت إلى مصر عن طريق تونس، حيث يجرى التهوين من شأن الانتصار الإنجليزي فى أبو قير بينما يجرى الادعاء بأن فتح مصر قد جعل من البحر المتوسط بحيرة فرنسية بل وربما أكثر من ذلك.

والقد أصبحت مصر بشكل حاسم تحت هممة الفرنسيين، الذين يمكنهم فى غضون خمسين يوماً تلقى الرد على رسائلهم للرسالة إلى الهند. إنهم سوف يعززون أمل انتصارهم، ويستثيرون سخط أعدائهم؛ وسوف يحتلّون كل التجارة عبر السويس. ولكن ماذا أقول ؟ من يرى الآن أين هم بالفعل ؟ ولماذا لا يصنع هذا الجيش الذى اجتاز الأكب الجوليانية والسودانية، وهى طريق غير معروفة فى التاريخ الحديث، لكى ينقض على قلب للنداء، ما صنعه المليونيون والرومان ؟ وإذا ما وصل مجرد ظل هذا الجيش، غير المتهور حتى الآن، إلى هناك، فما هو مصير القوة الإنجليزية... إنها ستصبح لثأ بعد حين (١٥).

بوناهارت والأعيان

فى الأول من سبتمبر، يجرى تعيين مصطفى كنفذا (وكيل) الباشا، للمستول العثمانى الكبير الوحيد الذى اختار البقاء، أميناً للحج مسئولاً عن القافلة (المحمل) التى تحمل كسوة الكعبة، حرم مكة (١٦). ويعتهد بوناهارت بتأمين الأموال اللازمة لمحمل استعبدات قافلة العلم التالى.

وفى اليوم نفسه، يجد مشايخ الديوان أخيراً استجابة لطلباتهم المتكررة حول الاتعاب للتصلة بوظائفهم. وهم ينعشون إذ يعرفون أنهم سوف يحصلون على راتب منتظم وليس، كما هى العادة العثمانية، على حقوق ضريبية. وهذه الهدمة تستلهم خسارة ملحوظة للمدخل قياساً إلى النظام القديم (١٧).

ثم إن الفرنسيين يطلبون مقننات (حكوان) عن إيرادات الالتزامات لكثير أهمية من تلك التي لرتأما لتنظيم العثماني الذي ما يزال ساري للفعول من الناحية النظرية. وهم يعدون بأخذ ذلك في الحسبان عند تصوية الحساب الإجمالي القائمة على تسجيل مجهول الحقوق الضريبية. وهذا الإجراء يمس بوجه خاص للشايخ الذين يشكلون الفئة الأهم بين حائزي الالتزامات، منذ مصافرة الالتزامات للمالك. على أن بعض أعضاء الديوان يتمكنون من الاستفانة من وظائفهم للاستيلاء على ممتلكات تخص للمالك أو لتقاضى أموال لقاء دوسطاتهم لدى الفرنسيين. والحال أن نساء للمالك سوف يكن ضحايا بشكل خاص لهذه التصرفات.

ويرجع ذلك إلى أن الفرنسيين قد قرروا الإبقاء على النظام الضريبي القائم. فلم تله لديهم بعد غير أفكار مشوهة من تنظيم الإيرادات الضريبية وتوزيعها الجغرافي. لكنهم قد أصبحوا ملاكاً للالتزامات للملوكية وهم يستغلونها بشكل عام (١٩). وبما أن خزائن الجيش تشكو بشكل فائم من نقص الأموال، فإنهم يجعون، في الأرياف، رسماً إضافية يعدون بخصمها من إجمالي الضريبة المقررة. والحال أن الاتباط، وهم الوكلاء للمعتلبن للإدارة الضريبية، هم الذين يتولون جباية هذه الضرائب. وهم يعدون متشددين بشكل خاص، فلا يترددون أمام الاستخفاف للتواصل للتهديد باستدعاء الجنود الفرنسيين (٢٠). والحق أن المصريين قد تكلمت سمعتهم على مدار القرون بأنهم لا ينفعون خسرانهم إلا بعد استخدام القوة.

وفي ٦ سبتمبر، جرى إعلام محمد كريم. وكان هولاهارت على ثقة من خيانتة، وقد تردد لحظة قبل إبلاغته. وكان المفروض أنه يتوقف بشكل وثيق على الهموم المالية للفرنسيين. وكان هؤلاء الأخيرون قد بحثوا بلا جدوى، بما في ذلك في خزانات الإسكندرية، عن كنوز الشريف التي تقدرها الشائعات العامة بأنها بالغة الأهمية. ولما لم يجدوا شيئاً له قيمته، فإنهم يترددون أن يدمروا له إمكانية القضاء حياته. ووجه الشريف التماساته إلى العلماء، للمعين له من جهة أخرى، وأحمد للحرواني، كبير التجار. وكلهم مهتمون بما يكفي بنجاتهم الشخصية ويرفضون مساعدته. وعقلاً جرى إعلام محمد كريم ومبا بالرمصاص على اللأ والطع رأس جثته. ويرى الجبرتي في ذلك عقاباً يستحقه لعجزته ورفيقته في الاستعلاء. (٢١) لكن كريم يصبح بالنسبة لمكان القاهرة. خلافاً لذلك، فهذه من شهيد الإسلام.

الإسلام والشارقة الثلاثية الألوان

كما أنه لا غرابة في أن يتبها أعضاء الديوان للمعارضة. وفي يوم إعدام كريم ذلك، يدعوهم بوناهارت إلى الاجتماع (٢٣). وهو يريد أن يفرض على رئيس الديوان، الشيخ للشرقاني، ارتداء وشاح أو شال ثلاثي الألوان. وهذا الأخير يرمي به إلى الأرض. ويعبر بوناهارت عن استيائه بينما يطلب المشايخ مهلة للتفكير قبل ارتداء الشارة. ويجد الشيخ السكان نفسه هدفاً لمحاولة إغراء حقيقتية (مالقائد العام يتوسط إلى أبعد حد في التعامل معه ويقدم إليه هدايا ثمينة) لكنه ينزع شارته بمجرد خروجه من الاجتماع مع الفرنسيين. وبصورة مؤقتة، يجد السكان أنفسهم ملزمين بارتداء هذه الشارة، لكن ذلك سرعان ما يقتصر على الأعيان. وأخيراً، وبسبب تطور الأحداث، تسقط هذه القاعدة في مرة النسيان. فغالبيت المسلمين بدون فيها رمز انحطاط جديد لوضعهم (٢٤). وينظر البعض، بموجب مقولات الشريعة، إلى فعلة ارتداء الشارة على أنها مجرد مكروه، وإن كانت لا تستحق عقاباً؛ ومن ثم، فإنهم يرتدونها لتفادي اللخصات (٢٥).

وتشير صحيفة الكوريري دو ليهيهيت إلى الحدث مستحضرة ذكرى (المسوف عليه كاميل ديمولان الذي كان قد أعلن في ١٢ يوليو ١٧٨٩ أن: «الشارقة لثلاثية الألوان سوف تعم للعالم»؛ وبسبب انزعاجات سكان القاهرة، توجه بوناهارت إلى الديوان والأعيان، ولقد استمع إلى اعتراضاتهم؛ وانتقدتها على نحو مفيد؛ بل إنه قد دخل في هذا الصدد في مناقشات ليلية أدهشت بل وانعمت الأتراك. وهكذا بدأ انزعاجات الرجال الذين استولت عليهم القواسوس، وبعد اجتماعين جد طويلين جاء أعضاء الديوان إليه مرتدين الشارة لثلاثية الألوان، وأكدوا أن جميع سكان مصر سوف يرتدونها في أقرب وقت ممكن» (٢٦).

بل إن الفاتح الشاب يفكر في إحدى اللحظات في ارتداء الملابس الشرقية لكي يظهر به أمام الديوان ويجعله يرى أنه لا يتردد في تبني ما يميز الطرف الآخر. لكن قائليان ينجح في إقناعه بأنه سوف يكون مضحكاً إلى أبعد حد ويتخلى عن الفكرة. (٢٧)

ويشكر بوناهارت السيرى على حسن سلوكه في القاهرة. ويكلف مأمون بإبلاغه «إننى أمقد ثلاثة أو أربعة اجتماعات كل عشرة أيام مع الأئمة وإشراف القاهرة الرئيسيين وإن أحداً لا يفوقنى إيماناً بطهارة وقدسيتها الدينية المحمدية» (٢٨).

ثم إن رسالته إلى الشيخ أكثر وضوحاً: «إنك تعرف الاحترام الخاص الذى تكون لدى نحوك في اللحظة الأولى التي التقيت بك فيها؛ وأرجوك ألا تتأخر اللحظة التي يتسنى لي

فيها جمع كل الرجال الحكماء والمتقنين في البلاد، وإقامة نظام متصق، قائم على مبادئ القرآن، وهي للمبادئ الصحيحة الوحيدة، والقائنة وحدها على تحقيق سعادة للبشر (٢٩).

وقد فرض الإنجليز حصارهم على سواحل البحر المتوسط، لكنهم لا يوجدون بعد في البحر الأحمر. ويعلق بوناپارت الكثير من الآمال على العلاقات مع شريف مكة الذي يتحمل المسئولية أيضاً عن إنارة الميهنتين المقدستين. وفي ٢٥ و ٢٧ أغسطس، يتوجه إليه بالخطاب لطمانته على نواياه السلمية وعلى رغبته في الحفاظ على قافلة الحج وتزويد الحجاز بالمؤن وعلى الأوقات الخيرية التي تعمل في مصر من أجل رعاية الأماكن المقدسة. «إننا أصدقاء للمسلمين ولديانة النبي، ونحن نود عمل كل ما من شأنه أن يرضيكم وأن نكون مفيدين للمدين» (٣٠).

ويضيف بوناپارت إلى هذه الرسائل رسالة طويلة إلى ديوان القاهرة، هي نوع من منشور معمم مطبوع بالعربية يهدف إلى نشر الأفكار الرئيسية للدعاية الفرنسية. ويجري توزيعها في البلدان المجاورة لمصر. وهي تذكر جميع الأحداث منذ نزول الفرنسيين؛ فهؤلاء لم يجيئوا إلا لمحاربة للملك؛ وهم حلفاء السلطان؛ ويحترمون الدين الإسلامي؛ وقد انضموا على ألبان وأخوية فرسان ماطة، العدو الأزلي للإسلام ويحرصون على إرسال قافلة (الحج) القليلة. (٣١)

ومنذ ٢٢ أغسطس، كتب بوناپارت إلى الصدر الأعظم في القسطنطينية، طالباً إليه تفهم إيضاحات تاليان الذي من المفترض وصوله إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية كرسول. وإذا لم يك هذا الأخير قد وصل إلى عاصمة الإمبراطورية، فإن بوناپارت مستعد لأن يرسل هو نفسه رسولا إلى الباب العالي. إن الفرنسيين والعثمانيين لهم عدو مشترك، للملك، ومن ثم فإن عليهم التوصل إلى تفاهم متبادل. (٣٢)

وقد وجهت رسائل أخرى ذات طابع مماثل إلى والي مصر للوجود في المنفى لحث على العودة، وإلى باشا دمشق، للإعراب له عن صداقة الفرنسيين ورغبتهم في الجيش في سلام (٣٣). وبشكل خاص، يسعى بوناپارت إلى الاتصال بالقوى شخصية في المنطقة، أحمد باشا الجزائر.

بعثة بوفوازان

في ٥ أروكتيدور (٢٢ أغسطس)، كلف بوناپارت قائد الأسطول النهري، والمفوض

لدى نيهوان القاهرة، بوفوازان، بالذهاب إلى سيد عكا. حاملاً رسالة من بوناپارت تتضمن التأكيدات المعتادة التي تتميز بها دعايته حول نوايا الفرنسيين السلمية. كما كلفه بتكذيب الشائعات الخاصة باعتزام الفرنسيين الزحف على القدس، حيث راجت شائعة بذلك في سوريا، وطمأنه الباشا على رغبة الجنرال الفرنسي في اعتباره صديقاً. (٣٤)

ويبحر الرسول الفرنسي من صيدا في ٣٠ أغسطس على متن سفينة تنتمي إلى الجزائر. ويقبل القبطان المستتر عليه خلال اعتراض السفن الإنجليزية التي تمارس حصار الساحل المصري. وفي يافا، تحظر السلطات نزوله إلى البر وتبلغه بأن الجزائر قد حصلت على قيادة جميع الولايات السورية. وهو يصل أخيراً إلى عكا في ١٨ أوكتوبر (٤ سبتمبر ١٧٩٨). وهناك أيضاً، يجري منعه من النزول. ويهدده سكان وجنود عكا بسوء التصير. ويأمر الباشا بإبلاغ بوفوازان بأنه لا يستطيع مقابلته بسبب وجود رسل عثمانيين وبأنه اسوف يلتقي به كما سوف يلتقى به أكان ذلك في غزة، أم في الصحراء، وأخيراً في القاهرة الكبرى إلى الحد الذي يمكنه اللحاق بنا عنده. وقد جرى ترديد هذا التهجيج على مسامعي [...] أكثر من عشر مرات، حتى لا أنساه.

وأمام هذه التهديدات، لا يملك الفرنسي إلا أن يعمل بعونه إلى مصر التي يصل إليها في ٧ سبتمبر (٣٥).

وكان بوفوازان قد أخذ معه فاجرين مسيحيين من المؤكد أنهما من الكاثوليك اليونانيين. وقد أمرهما الجزائر بالنزول إلى البر وأمر بحبسهما. ووفقاً لحيدر شهاب ونقولا الترك، فإن قبطان السفينة عندما تحدث عنهما مع الباشا قد قدمهما على أنهما «عساري من أبناء العرب». وهذه واحدة من الحالات النادرة التي نجد فيها ذكر مصطلح «العرب» بملهوم جد جماعي في نص عربي في ذلك العصر. وهذه الإحالة إلى العروبة، بالشكل الكلامي تماماً عن طريق النسب والأصل، إنما يكتسب ملامحه عندما يسامد على تمييز مسيحيي الشرق عن مسيحيي الغرب. لكن ذلك لا يؤثر صاعتها على الجزل الذي يأمر بإعدامهما بعد وقت قصير من ذلك. (٣٦)

وهكذا فإن الجزائر، بتأكيدات التشجيع كما بمسلكه الذي يحظر أي اتصال مع الفرنسيين المرحوبين في مصر، إنما يشير إلى عزمه على عدم الاعتراف بالوجود الفرنسي وتحريك المقارعة المضادة لأهدافه التوسعية. والحال أن الرجل الذي يمثل في نظر الفرنسيين منذ وقت طويل التجسيد الأكمل والأكثر دموية لاستبداد الشرقيين العسكري،

إنما يصبح في نظر السكان المسلمين السوريين وفي نظر مهمل مسلمي الإمبراطورية العثمانية بشكل أعم بطل الإسلام الذي يتصدى للثوار الفرنسيين. ويخاطر بوناپارت إلى مراعاة ذلك ويفكر بالفعل في حملة على سوريا للقضاء على هذا الخطر. وهو يطمح الآن مع ذلك إلى كسب ولاء الجزائر ويتصرف على أية حال كما لو أن هذا الأخير قد أصبح صديقاً للفرنسيين.^(٣٧) وهو يختار رسولا جديداً للذهاب إلى باشا حلب. وهذا الرسول هو مهلى نو شلتورنو، وهو ابن نائب في الجمعية التأسيسية وفي المؤتمر. ويجري معه في السجن عند وصوله إلى اللاذقية وسوف يجري إعلامه بأمر من الجزائر خلال الحملة على سوريا^(٣٨).

حصار مصر وتزايد الضغط الضريبي

إن الخطر جدى بقدر ما أن المؤشرات على تهدد عثمانى تتزايد منذ بداية سبتمبر. وهكذا فإن سفينة تجارية تنتمي إلى أحد سكان دمياط تصل إلى هذا الميناء قادمة من تارص بعد تفادي الحصار الإنجليزي. ويشير استهواب ريلها إلى ضغط مسلمي الإمبراطورية العام للترتب على ضياع أرض من أراضي الإسلام جد قريبة من المدن المقدسة وإلى ضرورة أن يبنو السلطان حازماً في هذه المسألة حتى لا يجرى انهزم بالتواطؤ مع الفرنسيين وإلى ضرورة فرض حظر عام على جميع الصلات مع مصر وهو ما يعزز الحصار الإنجليزي^(٣٩).

وتصل معلومات من جميع الجهات حول تدابير إلقاء القبض على القناصل والتجار الفرنسيين في ثغور شرق البحر المتوسط. وفي ١٢ سبتمبر ١٧٩٨، يحتج بوناپارت لدى باشا حلب ويرجع هذه التدابير^(٤٠) إلى سوء تفاهم مؤقت. وهو يأمر بتوزيع بياناته بالعربية في جميع الأراضي العثمانية المجاورة^(٤١).

وتسمح التدابير العثمانية الأولية بالاعتقاد بأن حرباً مع الباب العالي وليس مع الجزائر باشا وحده قد أصبحت واردة. وفي التو والحال، لا يمكن للعزلة التجارية التي تجد مصر نفسها فيها إلا أن تؤدي إلى زيادة مشاكل الوضع المالي للحملة. ولا يتسنى للمستولين الفرنسيين الأمل في دخول متوترة على الرسوم الجمركية، التي تعتبر أحد المصادر الرئيسية لإيرادات الدولة. وهم يضطرون إلى زيادة الضغط الضريبي على السكان ومن ثم مواصلة «الظالم» التي اقترعها أسلافهم للمالك. ومما أثار في ذلك شأن العثمانيين في عام ١٧٨٧، فإن السكان المصريين سوف ينظرون إليهم على أنهم متآلقون.

وتتم هذه الزيادة للضغط الضريبي عبر إعادة تنظيم الشبكة التجارية والضريبية المصرية، ففي ١٠ سبتمبر ١٧٩٨، ينشئ بوناپارت محكمة تجارية في القاهرة وفي الإسكندرية وفي رشيد وفي دمياط. وأعضاء هذه المحكمة تجار يمارسون وظائفهم بلا مقابل. وتجرى تغطية النفقات عبر رسم قضائي نسبته القصوى ٢ في كل مائة من المبالغ للمحصلة من الأحكام^(١٢).

لما الإجراء الألفج من حيث النتائج فهو إنشاء مكتب لتسجيل الممتلكات، ومهمته هي التحقق مما يخص للمالك ومن ثم الجمهورية وما يخص الأفراد، ويتوجب على هؤلاء الأخيرين إثبات ملكيتهم بحجة. ويجرى فرض ضرائب على جميع حالات نقل للحيازة، كما يجرى فرض ضرائب على جميع الأوراق الشرعية كصكوك الزواج والتوصية، بما يعنى إدخال الإدارة الفرنسية إلى داخل خصوصيات الأمور نفسها. ويتعين على جميع التجار الحصول على رخصة، إلخ. و باختصار، فإن يجرى نفقة واحدة تطبيق النظام الفرنسي الخاص بالضرائب غير المباشرة والأوراق المدفوعة، حيث يتعين عمل كل شيء في غضون شهرين. ويجرى إنشاء إدارة لضريبة التسجيل وإدارة للممتلكات من أجل إدارة كل هذه الضرائب والممتلكات العامة. وبين آخرين، يتولى قيامها تليان وهاليانو وملطى ومصطفى الخدي^(١٣). ويسمح التطبيق الفردي لهذه الترتيبات بالأمل في عوائد مالية مهمة والتخلص من الضرائب غير العادية القابضة التي تم اللجوء إليها منذ دخول القاهرة مع إقامة إدارة من النمط الأوروبي^(١٤).

الزجاج السكان

بالنسبة للمصريين، يشكل مجموع هذه للتدابير كارثة حقيقية. إن المحكمة التجارية في القاهرة تعطي مصاراة عديدة للمسيحيين والمسلمين (سنة مسلمين وستة أنباط)، والذي يرأسها قبطى، هو ملطى، بينما يمتد مجال اختصاصها إلى شئون الميراث والشكاوى الرسمية. وبعبارة أخرى، فإن المحكمة لها صلاحيات في مجال الأحوال الشخصية، أحد المجالات الأكثر أساسية للشرعية الإسلامية. وينظر الجبروت إليها باستياء على أن لها اقراعد من الخبز وأساساً من الكفر ودعائم من الظلم وأركاناً من الهدم المسية.

أما الوثائق المقدمة لإثبات ملكية للممتلكات فلا يُنظر إليها البتة على أنها جديرة بالاعتبار ولا يستطيع عدد كبير من الملاك إثبات حقوقهم بالرغم من شهادة الشهود (تولى الشرعية الإسلامية أهمية كبيرة لشهادة الشهود)^(١٥).

وتستولى الريب على الفرنسيين لأنهم يخشون من إلالات ممتلكات للمالك من الخزنة من جراء تلبير شكلية لنقل الحياة. وهم يعتمدون على الوكلاء الأنباط الذين يجتهدون في زيادة المصالحات بهم إلى الدرجة التي يتوجب معها التخفيف منها. (١٦) وهكذا يجدد عدد معين من الملتزمين أنفسهم بلا حياة. بل إن الحائزين على الأوقاف، للممتلكات الدينية للصوم، والتي لا تعتبر، من الناحية النظرية بالنسبة للشرعية، ممتلكات خاصة، يتعين عليهم تسجيل ممتلكاتهم.

ويصبح مناخ القاهرة بالغ التوتر. وتصل رسائل من إبراهيم بك، تعلن أن الباب العالي سوف يرسل قريباً جيوشه لطرد الفرنسيين. ويرد هؤلاء الآخرون بأن هذا الكلام كذب يروج له للمالك. ويرحل كليبر إلى القاهرة وجيهاً عثمانياً، كان قد تم حبسه في الإسكندرية. ويميل السكان إلى أن يروا في ذلك علامة وصول قريب لجيش عثماني. وفي ١٥ سبتمبر، يذهب بوناپارت إلى الشيخ الصلوات ليطرح عليه عدة أسئلة بشأن رسالة يقال إن الشيخ تلقاها من العثمانيين. وينفي الشيخ وجود مثل هذه الرسالة (١٧). وينزعج السكان على الشيخ ويشكلون تجمهراً أمام البيت. ويتصور بعضهم أن بوناپارت سوف يطلب من الشيخ تصريحاً بآمان لمفادرة مصر، ويقول كثيرون إنه يخطئ من تمرد شعبي وإنه، خوفاً على حياته، أصبح مستعداً للتحويل إلى امتناق الإسلام، وهم يتلون الفاتحة عند خروج القائد العام. وينزعج هذا الأخير، إلا أنه تهري طمانته بإبلاغه أن السكان يدعون له. والواقع أن الموقف صار قريباً جداً من التمرد الشعبي. (١٨).

المقاومة

في هذه الفترة نفسها، يشتبه الفرنسيون في وجود شبكة للمقاومة. ويبدأ كل شيء في أواخر شهر أغسطس عندما يقومون، إثر معلومات القمها عملاء أنباط، بتفتيش بيت زوجة وضوان كاشف الشعراوي، إحدى نساء للمالك الباقيات في القاهرة. وهم يجدون فيه ملابس للممالك وبشكل خاص أسلحة. ويجري احتجاز السيدة ثلاثة أيام ثم الإفراج عنها بشرط دفع حرامة جد باهظة (١٩). ويرى الفرنسيون أن هناك مؤامرة تحركها قسوة نفيسة. ويقومون بتفتيش بيتها بحجج مختلفة، لكن مشايخ الديوان وأمير الحج وقاضي القاهرة يتولون الدفاع عن زوجة مراد بك. وفي النهاية، يفرض الفرنسيون عليها آتاة جديدة وباهظة. (٢٠)

وبعد ذلك بشهر، يفشلون في آخر لحظة في القبض على تاجر مغربي تصني له

الإفلات بفضل تدخل مُعَوَّظٍ من جانب الشيوخ الشرقيين، الأمر الذي يستلزم غضب بوناپارت، ويبحث الفرنسيون عنه بسبب صلاته مع عهد الله باشي (أو باشا)، وهو، بحسب تعبير الجبرتي «من شياطين الإنس يقتل القليل ويمشي في جنازته». وتتلق رواية كاتب الحوادث للمصري مع رواية الفرنسيين. فلقد تظاهر عهد الله بخدمة للفرنسيين ليكون في وضع أنسب للتجسس عليهم، فهو عميل لمراد بك (٥١) وقد ذهب للقاء في مصر للعليا بصحية روزيتي (٥٢). وقد اضطر إلى العودة إلى القاهرة بعد فشله في محاولته الرامية إلى احتجاز مياه قناة الإسكندرية. ولما كان رجلاً من رجال مراد يتمتع بثقة منذ زمن بعيد شأت في تلك شأن محمد كريم ومستعداً لاستئناف الاتصال به، فليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب في اتصاله بالسبت نفيسة. وكما يقول الجبرتي في خاتمته: «والله أعلم بحقيقة الحال».

النظام العام والصحة واحتياط الجهاد

تجد إعادة تنظيم قوات الشرطة للحلقة ترجمة لها في إنشاء سرية جنود «تركية»، يتولونها أنكشاري سابق، لسمه عمر. ويجري إدخال للماليك الذين تقل أعمارهم عن ستة عشر عاماً في الجيش، حيث يتولى أصغرهم سنّاً ضرب الطبول. ويتم إنشاء حرس وطني لوديس في القاهرة. (٥٣)

كما يهتم بوناپارت بالجيش. ويجري اتخاذ احتياطات صحية بكنسبة للقوات وفي المستشفيات. ويتم تكليف أشخاص برعاية الحمامات، وتصدر أوامر بإنتاج زى جديد، يتألف من ثوب قصير دون ثنيات، وينظفون ذى الثاليت تحتية، وتبعا من جلد الماعز للدهوخ تثني على الأذنين، ولها واقية وجه و «بروفة» (أو خصلة خيوط) من الصوف في جزئها الأعلى. والثوب من القطن، إلا أنه يصيب برودة الليل وبداية الشتاء، يضاف إليه معطف عسكري. ويترقب على هذه التدابير ظهور حاجة ماسة إلى الأقمشة في السوق المصرية (٥٤).

ويجري اتخاذ تدابير لمكافحة أوبئة الطاعون. ووفقاً للاعتقاد الشائع في القرن الثامن عشر في أوروبا، فإن للقاهر هي بؤر الوباء بسبب الأبخرة المنبعثة من تحلل الجثث. وهكذا فإن نظرية الأبخرة الناسدة قد قادت السلطات إلى إزالة المقابر المنيئة وطرد الموتى إلى خارج الضواحي. وكان الحادث الأشهر هو للقيام، في عام ١٧٨٦، بإزالة جبهة سانت - اينوسينت في باريس. ويجري تكليف للقاهرة مع الواقع الأوديس، ويتم إغلاق المقابر

للموجهة داخل المدينة ويتوجب بشكل إلزامي نفي الناس إلى خارج المدينة. ويسجل الجمهورى هذه التنازلات ويأخذها بون إلى تعليق محدد. (٥٥)

وتتكاثر التنازلات للموجهة إلى الهذرات في الأتاليك لتنشيط توفير الخيل لصلاح الفرسان. ففي ١٨ أغسطس، لا تجد غير ثمانمائة وستة وأربعين جوناكاً لألفين وتسعمائة وخمسة عشر فارساً. ولا يصبح هناك مناص من اللجوء إلى مشتريات إهبارية ومصارفات تؤدي إلى زيادة عدد الفرسان الراكبين في بداية ديسمبر إلى ألف وثلاثة وعشرين فارساً (٥٦). وينشئ هامبي ونوى وكوتتيه معملًا للبارود. (٥٧) وتجرى إقامة سلسلة من الاستحكامات الدفاعية حول نطال القاهرة لتخدم في حالة هجوم خارجي كما في حالة تمرد بلخلى (٥٨). ويتم إخلاء قلعة القاهرة من ساكنيها لكي تستعيد مهمتها العسكرية الخاصة. وتؤدي تنازلات الفرنسيين إلى أعمال فهد ملحوظة تحزن سكان العاصمة. (٥٩)

ويصبح من الضروري السهر على انضباط الجيش. ويسير الترجماتات والأترك الذين يعملون في خدمة الفرنسيين استغلال مناصبهم لكي يتغلوا بهوت أفراد غير رسميين في الخدمة، وينشئ بوناپارت لجنة مكونة من روزيتي وجونو والشيوخ السائبات مكلفة بتلقى الشكاوى (٦٠). وكان الجنود قد اكتسبوا عادة استنجاز الصمير في القاهرة وكانوا يعملون أنفسهم بتنظيم سباقات حلقية في الشوارع مما أثار عظيم هلع السكان. ويجرى إنذارهم بأنهم في حالة وقوع حوادث وتلقى شكاوى فإنهم سوف يحكم عليهم بلفع لمن الطسائر... (٦١)

ويجرى إصدار كلمات سر محددة للحراس، حيث أن العرب قد اعتادوا الرد على أي سؤال بكلمة «الرائس» (٦٢). ويتجهل الضباط في المدينة للتأكد من عدم جرح الجنود أحياء نساء البلد. (٦٣)

خبط الجمهورية

في القاهرة وفي كبرى مدن الأقاليم، يجرى الاحتفال في صغف بالعيد السنوى للجمهورية، الأول من أئنهيمير (٢١ سبتمبر ١٧٩٨)، اليوم الأول من العام السابع. وفي العاصمة، يجرى رسم دائرة واسعة في ساحة الأزبكية تتوسطها محلة خشبية تحمل أسماء البراسل الذين لقوا حتفهم خلال فتح مصر. ويتحرك الجيش في أرتال أمام الأركان العامة والأعيان للمصريين. ثم يجرى تنظيم سباقات عدو على الأقدام وسباقات جرى على الجهاد. وكان بوناپارت قد أمر باستدعاء أكبر عدد ممكن من القوات للتأثير على سكان القاهرة. وتتبارى أعداد الجنود والوة الدفاعية وبقة للتاورات في تحقيق هذه النتيجة. (٦٤)

وتعقب الاحتفال مائدة عظيمة حيث، «تتحد الأعلام الفرنسية بالأعلام التركية وتصطف على خط واحد قلنسوة الحرية والهلال ولانحة حقوق الإنسان والقرآن. وتترك الحرية للمسلمين لاختيار أصناف الطعام والشراب ويبدو أنهم جد مرتاحين لأشكال المراجعة التي تُبدى لهم». (٦٥)

ولا يسمح هذا الاحتفال الصاخب بإخفاء واقع أن معنويات الفرنسيين هي في أدنى مستوى. إنهم يدركون شيئاً فشيئاً أن دخول الباب العالي في الحرب قد أصبح حتمياً وأنهم سوف يبقون في مصر مدة أطول. (٦٦) وعقب تلاوة بيان القائد العام الذي يشيد فيه بمآثر الجنود، يخيم صمت شبه شامل، بدلاً من هتاف «عاشت الجمهورية» المعتاد. (٦٧)

لوايا بوناپارت

تجرى مواصلة الأعياد بعيد مولد الحسين. ولم تك لدى الشيخ الساعات نية في الاحتفال به، لكنه، إذ يجرى إخبار الفرنسيين بعزمه، يجد نفسه ملزماً بتنظيم الاحتفالات. وفي تلك المساء، يتناول بوناپارت العشاء عند الشيخ. (٦٨)

ولون أن يصاب الجنرال بخيبة الأمل في فتحه الشرقي، فإنه يواصل متابعة الموقف الأوربي. على أن الأخبار تصبح نادرة باطراد من جراء الحصار الإنجليزي. وتقريره إلى حكومة الإدارة والمؤرخ في ١٦ فينديمير صريح: «عندما يصل إلى علمي القرار النهائي الذي سوف يتخذه الباب العالي، ويصبح البلد أكثر تقدماً، وهو ما لن يتأخر حدوثه، سأخذ قراراً بالانتقال إلى أوروبا، ويوجه خاص، فإنه إذا ما دعيتي الأخبار الأولية إلى الاعتقاد بأن السكينة لم تسد أوروبا بعد، فسوف أقرر الانتقال». (٦٩)

لكن يؤمن بقدره. ومما له دلالة أنه يأمر بالاحتفال بعيد ١٢ فينديمير (٤ أكتوبر ١٧٩٨)، التاريخ التذكاري لنهاية صعوده السياسي (من الناحية الرسمية، يجرى الاحتفال بذكرى سحق للكيين) (٧٠). وفي إحدى المناسبات، يجرى رفع سلسلة من الأنخاب. والنخب الخامس هو النخب الأفتى بالإحلامات:

«النشوب نخب حضارة مصر»

«إننا نضرب للعالم أول مثال على مُشْرِع فاتح. وقبلنا، كان الغالبون يتبنون دائماً شرائع المغلوبين. فلنحرز عليهم انتصار العقل، والأصعب من انتصار السلاح ولنظهر لهم أننا أرقى من الأمم الأخرى، بقدر ما أن بوناپارت أرقى من جنكيز». (٧١) ومن الواضح أن هذا الرهان الثقافي هو الهدف الرئيسي للحملة...

فتح الدلتا

الانتشار الفولسي

منذ غداة دخوله إلى القاهرة، أصدر بوناپارت أوامره، بتنظيم احتلال الدلتا، ويجري تكليف الجنرال فيال بالاستيلاء على دمياط، المهتاء الأخير على البحر للمتوسط الذي لا يسيطر عليه الفرنسيون، بينما يجري تكليف زايونشيك بالاستيلاء على الجزء الجنوبي من الدلتا بدءاً من متوف (٢٥ يوليو ١٧٩٨). ويتعين على القلنديين نزع سلاح البلاد، وتأمين جبهة الخسراشب وإنشاء إدارة جديدة قائمة على الدواوين المحلية، التي يساعدوا وكيل فرنسي وأمين قبطي للتعامل مع المسائل المالية.

ويتم زحف فيال على دمياط دون مشكلات، بل إن القوات الفرنسية ستكون لديها انطباع بأن الأعيان والسكان يرحبون بها (٧٢). ويكتمل استقرار المهمة في ٦ أغسطس، على أن زايونشيك، الذي لحق به الجنرال فوجيبر، يواجه صعوبات أمام مقاومة قريتي خميرين وقتا، وهو مضطر إلى خوض معركة شوارع حثيثة ويقدّر خسائر الللاحين بما يتراوح بين أربعمئة وخمسمئة. وهو يفشل في محاولته للرامية إلى أسر أبو شاعر، الشيخ - الملتزم العربي القوي في المنطقة. وفي متوف، يأمر بإلقاء القبض على الديوان الذي يشتبه في توطئه مع المتمردين كما يأمر بإلقاء القبض على الأمين القبطي. (٧٣)

وهذه التدابير تستتبع توبيحاً من جانب بوناپارت: «إنني لم أنظر بعين الرضا إلى الأسلوب الذي تصرفت به تجاه القبطي؛ إن مقصدي هو مراعاة هؤلاء الناس وإبداء حسن النوايا نحوهم. قل ما هي موضوعات شكواك منه وعندئذ أقوم بإحلال شخص آخر محله. كما أنني لا أوافق على إصدارك الأمر بإلقاء القبض على الديوان دون التأكد مما إذا كان ملتبساً أم لا، ثم الإفراج عنه بعد ساعتين؛ ليست تلك هي الوسيلة للتصالح مع طرف من الأطراف. أدرس الناس الذين تجد نفسك بهم ظهرايتهم؛ وميز لولئك الأكثر استعداداً لتوظيفهم؛ واضرب أحياناً أمثلة عاتلة وقاسية، دون أن تقلّم أبداً على أي شيء يقترب من الهرى والاستخفاف» (٧٤).

ويسمح انتهاء العمليات ضد إبراهيم بك بتعزيز انتشار القوات. فيبقى رينيه في الصالحية لمراقبة طريق سوريا، ويحصل موريا على إقليم قليوب، بينما يحصل بوجا على

المنصورة وإقليم الدلتا لشرقي (١٢ - ١٣ أغسطس ١٧٩٨). وتصيح الطريق البرية نهر عملية من جراء فيضان مياه النيل، ومن هنا ضرورة التزود بزوارق بعزف الفلاحون من تقديمها (٧٥). ويشير ذلك إلى الوضع الصعب الذي كان يمكن أن يشهده بوناپارت، لو كان مراد قد رفض القتال على الضفة الغربية للنيل.

الملصورة

بعد وصول نوجا إلى المنصورة، في ١٧ أغسطس، لا يجد الجنود للذين كان من المفترض أن يتركهم فيال هناك. وهو يعلم أنذاك أن الحامية الفرنسية المؤلفة من مائة وعشرين رجلاً قد هوجمت من جانب العرب وأنها قد خرجت بعد ذلك لمطاردتهم. ولا يرضى ذلك نوجا الذي يرسل قواته للنهب في القرى المجاورة. وهذه القوات، خلال نهبها لإحدى القرى، تكتشف جندياً لاجئاً عند الفلاحين وأن الوحيد الذي بقي من الحامية. ومنذ رحيل فيال، كانت الوحدة الصغيرة ضحية لهجمات من جانب السكان وقد تحصنت في ثكناتها. على أن الأعيان قد واصلوا تزويدها بالمؤن الغذائية. وفي نهاية الأمر، في مجازلة بالاجتياح من جانب حشد مسلح تمكن من حصار منالذ الثكنة الفرنسية، يقوم الجنود بعملية خروج من أجل التخلص من هذا المأزق والعودة إلى القاهرة. وفي القرى، يتعرض للطاير الفرنسي باستمرار لهجمات من جانب الفلاحين والعرب ويجد نفسه وقد أبعد من الناحية العملية (١٠ أغسطس ١٧٩٨) (٧٦).

وعندئذ يحاول نوجا المنصورة للتوصل من المسئولية عما حدث بتقديم روايت للأحداث: إن للعثنين قد جاءوا من الشرق ومن الغرب بأعداد لا حصر لها، وقد حارب السكان إلى جانب الفرنسيين. وبعد انسحاب هؤلاء الأخيرين، فر الجزء الأعظم من السكان، والديوان يطلب ضمانات للسماح لهم بالعودة إلى المدينة (٧٧).

ويهتم نوجا بادئ ذي بدء باستعادة الثقة وذلك بإظهار الاعتدال في التمع وفي جباية الضرائب والمصارف. ونقص المدفعية وخامسة الأخيرة يبرر هذا المسلك، الذي ينتقده مع ذلك مرموسه (٧٨)، على أنه يهتم بمعاقبة المذنبين بالإقليم على هجمات ضد الفرنسيين سبقت تمرد المنصورة. وفي ٢٨ أغسطس، يطلب إلى بوناپارت منح عفو لسكان المدينة ولكن ليس لسكان القرى التي تعتبر، على أية حال، عصية المثال بسبب فيضان النيل. والواقع أن جزءاً عظيماً من السكان لا يرجع البيت، بسبب الخوف، الأمر الذي يؤدي إلى

إصابة الحياة الاقتصادية بالشلل. وبالتحديد لبونابارت، فإن القمع هو بوجه خاص وسيلة
للمرض ضرائب جديدة مهمتها إنتاج خزائن الجيش الخافية بشكل مثير من؛ وهذا هو
معنى تعليمات الصادرة إلى بوجا. (٨٠)

مديان

في ٢٢ أغسطس، كان فيال، للوجود في مديان، قد أبلغه بأن جماعة من سكان
للمنصورة قد لجأوا عند حسن طوبار. وهذا الأخير هو الفصل مثل على ظهور سلطة شبه
مستقلة في الأقاليم في لواخر العصر للملوكي الجديد. فهو ملتزم لجميع عمليات الصيد
التي تتم في بحيرة للنزلة. لكن ذلك ليس غير قاعدة واحدة من قواعد قوته. وولف
لأنديوس، فإنه كان علاوة على ذلك أحد الحزبي لللاك في مصر، وربما كان الوحيد الذي
تجاسر على مراكمة مقاربات بالصفحة التي توافرت له، لعائلته من للنزلة؛ وخلفها ما بين
أربعة إلى خمسة أجيال من للشايخ. لقد كانت سلطة حسن طوبار جد ملحوظة؛ وقد
تأسست على سمعته وثروته ووضامة عند قاريه والعند الكبير للأجراء للمعتمدين عليه
ومعانة البند الذين قدم لهم أراضى لفلاحيتها وغمر زعمائهم بالهدايا (٨١).

وهكذا فإنه يجمع شتى الخصائص التي جعلت من كبار مشايخ العرب والمسلمين
قوى محلية يتعين على للمالك مراعاتها. ويغفل الجنرال الفرنسي في مراسلات مع
الشيخ الذي أعلن ولاءه للسلطة الجديدة. لكن اللاهثيون، بالرغم من تأكيدات بوجا الذي
وصل به الأمر إلى حد التمسك بالسماح لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم وجيادهم، يرفضون
العونة. (٨٢)

الهدو

يسمح احتلال المحلة الكبيرة الذي قام به فوجيبر بإيجاد ارتباط بين مختلف
الوحدات الفرنسية، مع إثارة لمشكلات تصيد إلهيمي لعوائد اختصاصها المختلفة، بينما
تستفيد أربع قرى على فرع رشيد من الفيضان لتنجز انفصالها (٨٣). وسرعان ما يتعين
على فوجيبر طلب المعون من بوجا، لأن ائتلاف القرى يهدد بمهاجمة المحلة الكبيرة التي
تجد نفسها مزودة بعدد غير كاف من القوات (٨٤). ثم إن فيال لا يستطيع تقديم عون له من
مديان، وذلك بسبب انقطاع المواصلات للترتب على الفيضان (٨٥).

وبعد مصاصب بداية استقرار زايونشيك، فإنه يتجعب، بالرغم من ضعف عدد قواته، في استعادة النظام في إقليم مندوف. وإذا يجد أن أسلحته في الإنارة يواجه اعتراضاً في القاهرة، فإنه يطلب استبعاد لتولى مهمة أخرى، وهو طلب يلبى في نهاية شهر أغسطس، ويحل الجنرال لانوس محله. أما موراء للوجود في إقليم قلوبوب الأكثر قرباً من القاهرة، فإنه لا يصطدم أيضاً بمصاصب رئيسية. ويوسع أن يسمح لنفسه بأن يقترح تقديم مساعدته في حالة للضرورة إلى نوجا (٨٦) ويتجه إلى الجزء الشمالي من إقليمه لمواجهة احتشادات العرب (٨٧). وهو يجد نفسه مواجهاً بمسألة نزع سلاح الفلاحين في حين أن هؤلاء الأخيرين مهندون دائماً بأن يكونوا عرضة لهجمات البدو. وهو يقترح إرجاء اتخاذ هذا الإجراء، وهنا يعتبر العرب المزارعون المسلحون ثلغين، إنهم حماة للبلد من العرب للترحلين [...] وأنا أعتقد أن من المستحيل، من الآن ولوقت جد طويل - دون التسبب في تصرفات شبيهة مثلاً لها في أقاليم أخرى - تهديد هؤلاء الناس - الذين يحسنون معاملتنا من جهة أخرى - من الأسلحة التي يمتدونها ملكية طبيعية لهم والتي يحتاجون إليها كل يوم للنفاع من بلادهم وممتلكاتهم ضد أعدائهم. ومن ثم فإنني أعتقد أنكم سوف تدرك أن من الحكمة انتظار تعزيز الحكم الجديد قبل التفكير في تنفيذ إجراء على هذه الدرجة من الحساسية (٨٨).

وفي هذه المراسلات مع القائد العام، يوضح موراء أنه قد حدد الجماعة اليهودية المسئولة من الهجوم على النصورة، عرب سنباط. ومن سوء الحظ أن الفيضان يمنعه من شن هجوم مباشر عليهم. ويقدم لوجيبير المعلومات اللجنة الأولى حول هذا العدو ومنشأه، منذ نحو خمس سنوات وجد في هذه القرية فريقان متصارعان. وعلى مدار الأيام، دارت معارك أزهدت لأرواح عديد من السكان. وسعيًا إلى وضع حد لهذه المشقات المحلية، قام أيوب بك، سيد هذه القرية، بإحضار نحو مائتي عربي للقيام بأعمال الحراسة فيها. وفي المقابل، وزع عليهم أراضى. لكنه يتهببتهم هناك، لم ينجح مع ذلك في محو روح أعمال السلب والنهب المميزة لأمتهم. وكافة القرى المجاورة تشكو يومياً من أعمالهم التكبيرية ولا تتحذى سوى القضاء عليهم (٨٩).

وينقل نوجا إلى بوناهارت هذه المعلومات بشكل شبه حرفي. وهو يضيف أنهم عرب منحدرين من دوتة في طرابلس الغرب (وهو ما يوحي بأنهم من أولاد علي، نفس الذين يواجههم كليهر في البحيرة). ويؤكد أنه إذا كان سكان سنباط حلفاء للبدو، فإن سكان القرى المجاورة سوف يبدون الحياد أو حتى سوف يشاؤكون في العمليات إلى جانب

الفرنسيين (٩٠). ويأمر بونابارت نوجا بأن يرد: «عرب قرية سنباط الأشرار إلى صوابهم. أحرقوا تلك القرية؛ اضربوا مثلاً رهيباً ولا تسمحوا بعد لهؤلاء العرب بالعودة إلى سكنى هذه القرية إن لم يسلموا لكم عشرة رهائن من الأشخاص المهمين ترسلونهم إلى احتجازهم في قلعة القاهرة» (٩١).

وبعد حصوله على الخسائر الضرورية لاستئناف عملياته، يكلف نوجا الجنرال فيردييه على رأس خمسمائة وخمسين رجلاً مزودين بمدافع عيار ٢ وطل للقنبلة بالهجوم على سنباط. ويقع الهجوم في ١٤ سبتمبر ١٧٩٨. ويتم تدمير عربن الهندو، ويشير فيردييه في تقريره إلى الدور الرئيسي الذي لعبه الشيخ موسى من قرية حنوت والذي واصل للسير على رأسنا، محمداً لنا بسرور الطرق التي من شأنها أن تقودنا بأصغر ما يمكن إلى العدو» (٩٢).

وهذا الشيخ نفسه ينهّ الفرنسيين إلى أن العرب يحسبهم إلى التجمع من جديد للثأر (٩٣). ويصدر بونابارت الأمر إلى مورا وإلى لانوس بمحاربة عرب درن وحيثما وجدوا (٩٤). ويلحق بهم الجنرال خسائر فادحة، لكن قرية حنوت قد تعرضت مع ذلك للإحراق على أيدي الهندو الذين ينقضون على جميع مجموعات الفرنسيين الصغيرة المعزولة في المنطقة (٩٥). وفي النهاية يتعين على مورا مواصلة صدهم عن طريق عمليات محدودة (٩٦).

والحال أن بونابارت، البعيد عن أفكار شبابه الرومانسية، يصف على النحو التالي لحكومة الإنارة هذا العدو الصريح الحركة: «إن العرب في مصر هم كالبهاريت في كونتية نيس، مع هذا الفارق الكبير الذي يتمثل في أنهم بدلاً من العيش في الجبال، يمتطون كلهم الجبال ويحيون وسط الغبالى. وهم يذهبون ويصلون الأتراك والمصريين والأوروبيين سواء بسواء. وتسألونهم كقصيدة الحياة التي يحيونها، فهم معرضون على مدار أيام بأكملها في الرمال للحرق لأوار الشمس، نون ماء يرووهم. وهم بلا شفقة وبلا عهد، إنهم يشع مثل الإنسان للتوحش يمكن للخيال تصوره» (٩٧).

بشايخ البلد

• ينتهى مورا إلى إزالة الجانب الرئيسي من الضغط البدوى بإجباره القبائل المنتهكة على توقيع اتفاقات سلام. وهكذا ينجح الفرنسيون تدريجياً في كسر التحالفات بين الهندو وبعض الجماعات الفلاحية. وبالنسبة لمهاجرين البلاد، فإن هذا العمل يتناسب مع استعادة

لنظام العام يخشونها من صميم انديتهم، وهو ما يؤدي إلى تصارع ولاه جزء معظم من هذه الفئة الاجتماعية جد المؤثرة في الأرياف. ويوضح موراً تلك جهنك ليونابارت، وإن عديداً من زعماء القرى يجيئون ليشهدوا لى باننا عثرنا على الوسيلة التي من شأنها جعلهم [العرب] أكثر رقة في التعامل معهم؛ وهم يقولون أنهم يمرون اليوم أمامهم منكسرى الأعين وسائليهم حمايتهم، (٩٩).

وصوف يعتاد المشايخ على اللجوء بصورة منتظمة إلى العسكريين للقضاء على بدو القلتا. وصوف يشكل ذلك العمل الرئيسي للطواوير للتحركة التي ستكفل النظام خلال سنوات الاحتلال الثلاث. ويتطور عقد لاجتماعي ضمني بين المشايخ، الذين يكفلون سداد الضرائب وخضوع السكان، والفرنسيين الذين يخشون على الخطر البدوي (١٠٠). وفي هذا العمل، الذي يجذب للمرة الأولى إلى الفرنسيين جماعة لاجتماعية أساسية، تبدو السلطة الجديدة مواصلة للعمل النشط الذي قام به على بك الكبير ومحمد أبو الذهب اللذان حافظا بنشاط على هذا النظام العام الذي كثيراً ما تمناه الفلاحون. وهكذا فإن معركة سدباط تشكل أحد للنقطات الحاسمة في تاريخ حملة مصر. لكن الفرنسيين، قبل أن يقطفوا ثمارها بالكامل، يضطرون إلى مواجهة خطر رهيب في شرقي القلتا.

حسن طوبار

بمجرد عودة فيرديه من حملته في سدباط، يرسل لوجا الجنرالين داماس وديستان للزحف على قريتي المنية والقباب القريبتين من المنزلة واللتين كانتا قد رفضتا دفع الضرائب والإعان للمصاليك. وهو يشتبه في أن هيهاتهما على تقاوم مع حسن طوبار، السيد القوي لبحيرة المنزلة. ويتمين على العملية أن تعمل على تخفيف هذا الأخير الذي يشتبه في أن يعد لانتفاضة واسعة (١٠١). وفي ١٩ سبتمبر، يصطدم داماس بمقاومة قوية في قرية الجمالية. وبعد معركة شوارع رهيبة تؤدي إلى سقوط عدد كبير من الضحايا بين صفوف المصريين (١٠٢)، ينسحب داماس إلى المنصورة محرقاً في طريقه قرية هتيمها بالاشتراك في الانتفاضة (١٠٣).

ومنذ ١٧ سبتمبر، فإن فيال نفسه هو الذي يضطر إلى صد هجوم على سدباط في حين أن المراكب التي تكفل للواصلات بين مختلف أماكن تولد الفرنسيين، تتعرض للهجوم من جانب الفلاحين. ويتخذ السكان مواقف الانتظار والترقب ويرفضون الانضمام

إلى العرب والفلاحين. ويشتكب العرب مسيحيي المدينة، الذين يتلفون بشكل أسلسي من الكاثوليك اليونانيين، ذلك أن المهاجمين يهتدون بذبهم. وفي اليوم التالي، يتمركز المتمردون في قرية شوارا على مقربة من دمياط، ويهتدون في الحصول على تعزيزات قاسمة من بحيرة المنزلة. والحال أن للمسيحيين الذين يشتبهون في أن الفرنسيين يريدون الجلاء عن المدينة بما يؤدي إلى تركهم في مواجهة المتمردين، يتلفون الجنرال أن يهتدون. وهم يحملون السلاح ويقاتلون إلى جانب الفرنسيين (١٠٥).

وبعد أن طمأنهم فيال الذي حصل على تعزيزات لأنه يهتدون الهجوم في ٢٠ سبتمبر بالاشتراك مع الجنرال أنتريوس الذي يهتدون أسطولاً صغيراً على البحيرة. ويجري دفع العرب من إقليم دمياط. والحال أن الأمر اليومى العسكرى للتدخ في ٢ فينديمير من العام الثامن (٢٤ سبتمبر ١٧٩٨) يحول هذه العملية إلى مآلة حربية مجيدة؛ إن الفرنسيين لم يهتدون غير قتيل واحد وأربعة جرحى في حين أن العرب قد خهتدون أكثر من ألف وخمسمائة بين قتيل وغريق (١٠٦). ثم إن ما بين أربعمائة وخمسمائة فرنسى قد هاجموا وغلبوا ما بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفاً من العرب (١٠٧). والشىء الأكثر إزعاجاً هو المعلومات التى قدمها الأمين القبطى، إن حسن طوبار هو الذى يهتدون وراء التمرد بالرغم من نفيه للتكرار لذلك؛ وقد تلقى وسائل من سوريا والبرص تبلفه بأن الجزائر يهتدون لإنزال في تلك المنطقة؛ ثم إنه على اتصال مع إبراهيم بك (١٠٨). والأمر اليومى، الذى نشرنا إليه بالفعل، يوضح تماماً ضرورة تحرك الفرنسيين بسرعة ضد العرب الدعائية التى تبدأ في هتدلى البلتا والتى تتهتدون بالامتداد إلى مصر كلها. «إن طوابير متحركة عديدة تجوب كل لرى دمياط والمنصورة، لإنزال العقاب الحصارم بقيادة المتمردين، وإنزال ثار نمونجى بهؤلاء النساء، الذين خدعتهم مكاتبات إبراهيم بك ووعوده الزائفة».

والواقع أنه لا يمكن بدء العمليات إلا مع عودة القوات التى لوصلت إلى القاهرة، خلال عهد الجمهورية، للتأثير بعددتها على سكان العاصمة. ويحصل نوجا على القيادة العليا لإقليم المنصورة ودمياط ويحصل إلى هذه المدينة الأخيرة. وهو يهتدون بقسوة إنارة فيال الذى لم يتمكن من الاضطلاح بالأعمال الضرورية لتحصين الموقع ومن كسب ود السكان. وسوف يحصل الأمر ببعض الضباط إلى حد الاعتقاد بأن اختلاسات فيال الملقية وأعمقه الوحشية تجاه السكان تعتبر مسئولة جزئياً عن القلاقل في المنطقة (١٠٩). ويجري تكليف أنتريوس بالعمليات البحرية وتكليف ناماس بالعمليات البرية، حيث يتمثل هدفها المشترك في الاستيلاء على المنزلة. ويبدأ تحركهما في ١١ فينديمير من العام السابع (٢

أكتوبر ١٧٩٨). وهما في سياق مع الزمن، فقد كلتا تصورات أن قوات الجزائر لابد وأن تبدأ الوصول اعتباراً من ٤ أكتوبر (١١٠).

ويبلغ حصن طربار الفرنسيين بمواقفه حول مصالحة تلقية، وإنني لا أريد رؤية الفرنسيين لا من بعيد ولا من قريب. ولذا ما قدموا لي برهان استعبدانهم لتركى وشأنى بكون مضايقات، فسوف أطلع لهم الضرورة التي كنت أرفعها دائماً، لكننى لا أريد البتة الاتصال بهم، (١١١).

ويصطدم أندريوسى بمعكسات قوية في البحيرة، الأمر الذي يقوده إلى تغطية سمياط بهجوم جديد. ويقع الحب الرئيسى من العمل على عائق تامس. ويتزايد إراكه للشعبية الكبيرة التي يتمتع بها الشيخ في الإقليم: «على جعل الطريق حتى المنزلة، بل وفي هذه الناحية، لقتننا كلنا بأن حسن طوبار يتمتع بحب المصريين. إنه لرى بملك عدة ملايين، أكان ذلك من خلال أراضيه أم منتوجاته القطنية لم تجارتها» (١١٢).

وفي ١٥ فينديمير (٦ أكتوبر)، يستولى تامس بون قتال على للمنزلة. ويتمثل الشاغل الرئيسى للضباط الفرنسيين في منع القوات من الإغارة من أجل السلب والنهب. وفي اليوم التالي، يتمكن أندريوسى من اللحاق به وتجهز القوات احتلال منطقة البحيرة. ويلجأ حسن طوبار وأسرته إلى غرة، بينما يستأنف السكان وسيلة عيشهم الرئيسية، الصيد. وعبر السيطرة على سمياط والمنصورة، يهيمن الفرنسيون على منافذ هذا النشاط الاقتصادي الحيوى بالنسبة للسكان. كما أن التهديد تتم بسرعة. ويعين فيال شيخاً جديداً للإقليم، هو المدعو عبد الفتاح، وهو عدو لحسن طوبار تعاون منذ البداية مع الفرنسيين (١١٣). ويأخذ رهائن من الضواحي ويأمر بإحراق أبواب القرى المحصنة في الإقليم (١١٤). ويبقى أندريوسى على البحيرة حتى نهاية أكتوبر. ويستكشف بشكل منهجى كل تعرجاتها؛ وعلاوة على الاهتمام العلمى، فإن مثل هذا التحديد للمعالم ضرورى، بالنسبة للعمليات القتالية في اتجاه سوريا.

الشواهدية

في الشرقية (الجزء الشرقى من الدلتا)، يجد ريشيه، بوجه عام، مصاعب أقل بكثير من تلك التي يقابلها زملاؤه. وعدا حفظ النظام وجباية الضرائب، فإن مهمة الرئيسة تتمثل في مراقبة ما يجرى في سوريا، وإقامة مواقع حصينة ومستودعات عسكرية. ويتعين على هذه المنشآت أن تساعد على مواجهة غزو محتمل لمصر قادم من سوريا لو أن تكون مواقع حشد لجيش فرنسى يتحرك في الاتجاه المضاد. (١١٥)

وعند وصول الفرنسيين، يلجأ فلاحو الأقاليم إلى الصحراء مع مواشيهم وأقوات
نباعتهم. ويكرر ريتيه التذات العلمية إلى موطنهم، مستخدماً التعبيرات المألوفة للدعابة
الفردسية، لكنه لا يستطيع منع جنوده، الذين تعوزهم الأغذية، من زيادة للمصادر
التعسفية ومن ثم إخاله السكان (١١٧). ويتحالف هؤلاء الآخرون في روابط قروية حقيقية
لحماية أنفسهم من القرابة (١١٨). ويلحق الجنرال للتجمعات ويأخذ رهائن يهدد بقتلهم رمياً
بالرصاصة إن لم يجر تنويعه بالجهد الضرورية لركوب الفرسان.

ويقوده نقص الإمدادات الغذائية إلى ترك الصالحية والمركز في بلبيس الأفضل من
حيث توافر الإمدادات بها (٢٧ أغسطس ١٧٩٨). ويخضع الفيضان من تنفيذ للمصادر،
ولذا فإن يسمح للملاحين بالاحتفاظ بجواهرهم حتى لا ينضموا إلى الثائرين الآخرين في
الصحراء. ويتيح السماح للمنوح إحصاء الجهاد من أجل عمليات تجهيد تتم في
المستقبل (١١٩). وهو يواصل إرسال جواسيس إلى سوريا، يبلغونه بأن إبراهيم بك
ومعاليه يرايطون في غزة، وأن الجزائر قد منعهم من الصعود إلى مسألة أبعد إلى حين
وصول أوامر من القسطنطينية. ومن جهة أخرى، فإن عملاءه يبلغونه بالانتقال المتواصل
للمرسل بين سوريا ومصر العليا للاتصال بمراد بك (١٢٠). ويرسل بوناپارت قائد الأسطول
الصغير بوفوازان، الذي عاد من مهمته في فلسطين، لساندة ريتيه حيث يتولى قيادة
بلبيس (١٢١). ويأمل القائد العام في الاستفانة من فيضان النيل لإرسال لاحتياطيات مهمة
من المئن إلى الصالحية وبلبيس، استعداداً لعمليات تالية في سوريا. إلا أنه يجرى تأجيل
للمشروع لعدة أسابيع بسبب نقص الزواقي وضرورة تهئية الأقاليم أولاً. وبسبب التخلف
وبطء هبوط مياه النيل، فإن مستودعات الشوكية تجد نفسها من جديد ذات لاحتياطيات
غير كافية بالكرة لجيش في الهمدان. (١٢٢)

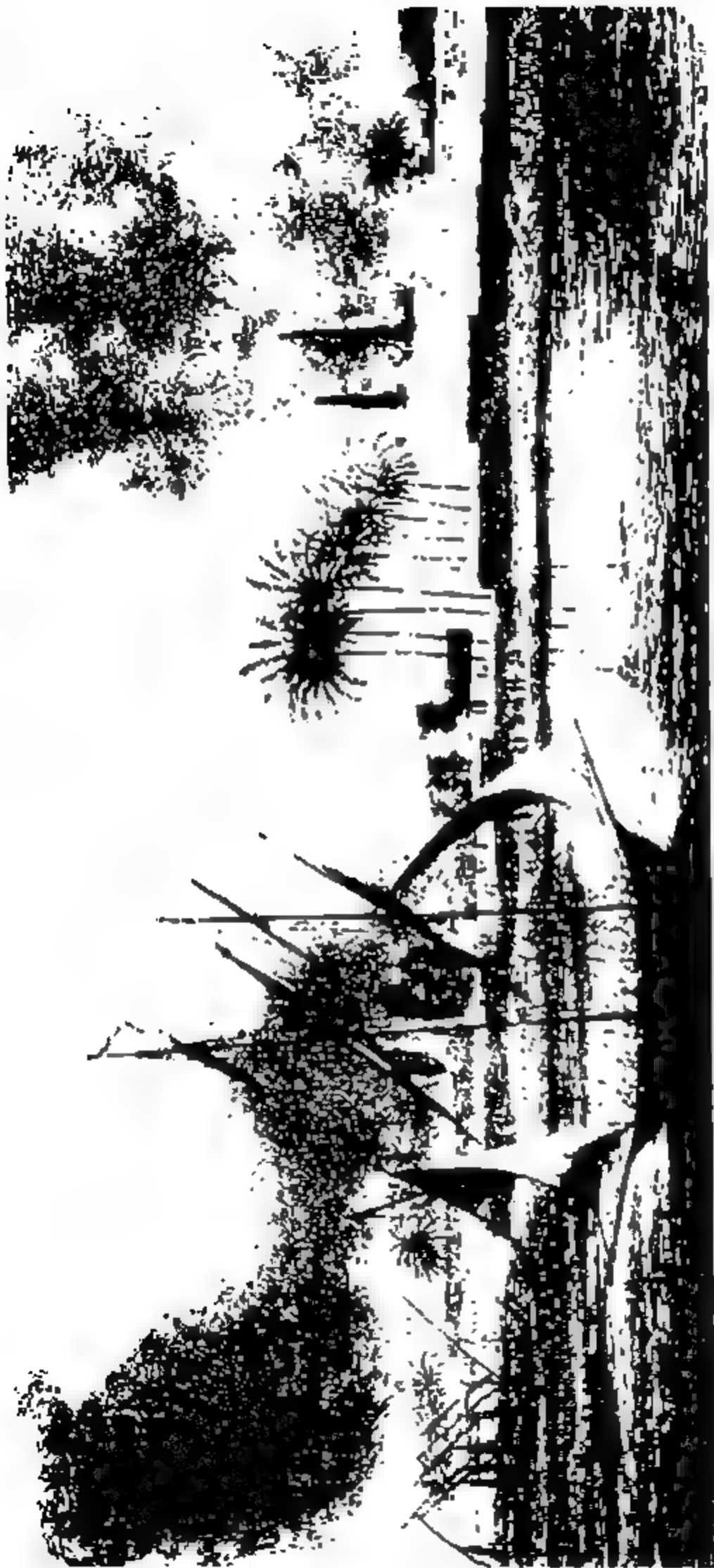
والحال أن مرعوسى ريتيه، بوفيه وبوفوازان، القاصمين إلى القاهرة، يشكون علناً
من الحالة للمادة الكارثية التي توجد فيها فرقتهما. وعندئذ يستغل بوناپارت أول ذريعة
لإقصاد بوفوازان ويعيده إلى فرنسا. أمّا بوفيه، الذي يتضامن مع زميله، فإنه يلقى للمصير
نفسه. ويبدو أنه علاوة على الضرورة المشروعة للمتمثلة في الحيلولة دون ترويج شائعات
من شأنها تهديد معنويات الجنود، فإن بوناپارت قد استفاد من الفرصة لمعاينة بوفوازان
على فشل مهمته لدى الجزائر (١٢٣). وفيما عدا ذلك، فإن ريتيه، شأنه في ذلك شأن قادة
الأقاليم الآخرين، ينشغل بإنجاز التهئية، أي بمحاربة قبائل البدو والتفاوض معهم (١٢٤).

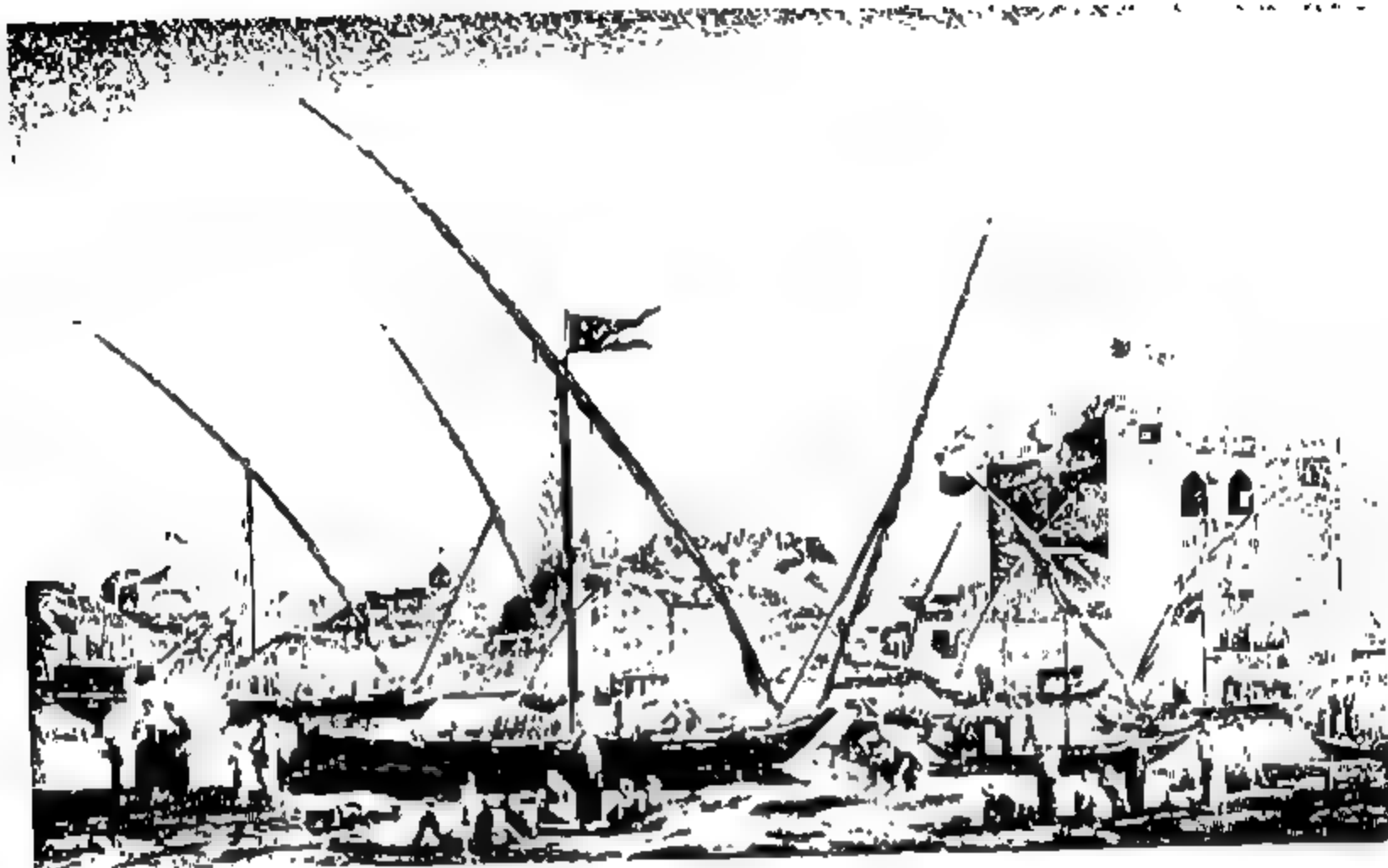
الإدارة الجديدة

إن أهداف فتح الدلتا ليست ذات طابع عسكري بشكل وحيد. بيوتنهارت يفكر بالفعل في إقامة إدارة جديدة تحمل محل إدارة الماليك. وعلى المستوى الشرقي، تجرى إقامة نظام قائم على تعاون أمين قبلي ووكيل فرنسي. ومشاركة الأقباط لا تخفى عنها، فهم وحدهم الذين يعرفون التعقيدات الموروثة من الإدارة العثمانية. وولايتهم للفرنسيين هو بالدرجة الأولى ولاء موظفين يواصلون ممارسة وظائفهم الإدارية. ويضاف إلى ذلك على الأرجح شعور بالتحديد والتأثر من وضعية «الذميين»، التي كانت وضعيتهم في العصر الإسلامي، كما تضاف إليه، بدرجة يصعب قياسها لكنها واقعية، حساسية خاصة تجاه «الزعة المصرية» التي طردوا الفرنسيون. ومن حيث أصلهم التاريخي، فإن الأقباط يعتبرون - ويعتبرون أنفسهم - للممثلين الأصديق لمصر. لكن قدرًا من سوء الفهم يتولد، لأن الفرنسيين لا يدرون في البداية فيهم غير قوات ضرورية لاستكمال درايتهم بالعلاقات الضرورية والإدارة للبلد. وإقامة تنظيم البلد، المفهومة وفقًا لنموذج الإدارة العقلانية الذي طوره الثورة الفرنسية، لن تمنح لهم في المستقبل غير دور ثانوي. ومن جهة أخرى، فإن ضرورات سياسة بيوتنهارت «الإسلامية» وواقع أن الفرنسيين يدرون، بوجه عام، أن المسيحيين سوف ينجحون دائمًا إلى جانبهم، إنما تنفع مصلحة مصر الجدد إلى تجاهل المطالب الخاصة للأقليات، خاصة في مجال المساواة.

كما تستند السلطات العسكرية إلى نظام عواوين إقليمية على غرار ديوان القاهرة. وقوامها أكثر أصالة. فمن الواضح أن الطعام يدعون على الفرد إلى للمشاركة فيها، لكن الفرنسيين يضيفون إليها الأعيان، وأغلبهم من التجار المنتمين إلى الميليشيات العثمانية (١٢٥). وليس في ذلك ما يثير الانزعاج بشكل خاص وذلك بقدر ما أن كبار ضباط الميليشيات كانوا ينتمون بالفعل إلى الإدارة. ويكاد ذلك يمثل عومة للفترة الفرائضة التي كانت الميليشيات تشكل فيها مراكز سلطة مستقلة عن مراكز سلطة الأمراء الماليك، وفي نسق الأفكار نفسه، يجري تشكيل قوة شرطة مجهزة بشكل خاص من قوة الانكشارية المسابقة تحت المراقبة الدقيقة من جانب مسئولين فرنسيين.

ويظهر التغير الكبير مع مشاركة مشايخ البلد في الديوان. ويقدر ما هو متوافر لدينا من معلومات، فإن ذلك لم يك نتيجة فكرة مسبقة لدى الفرنسيين، بل نتيجة إصرار

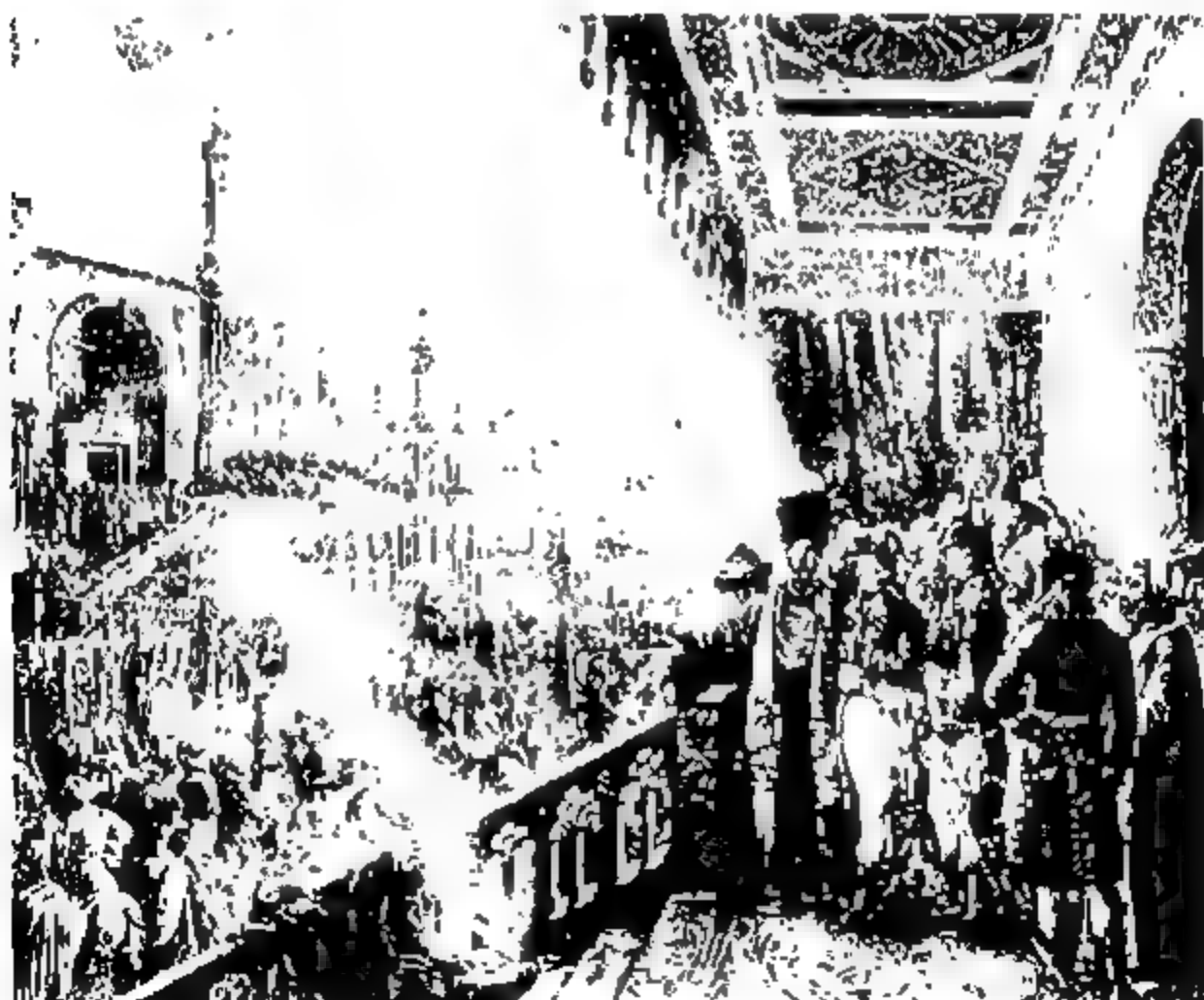




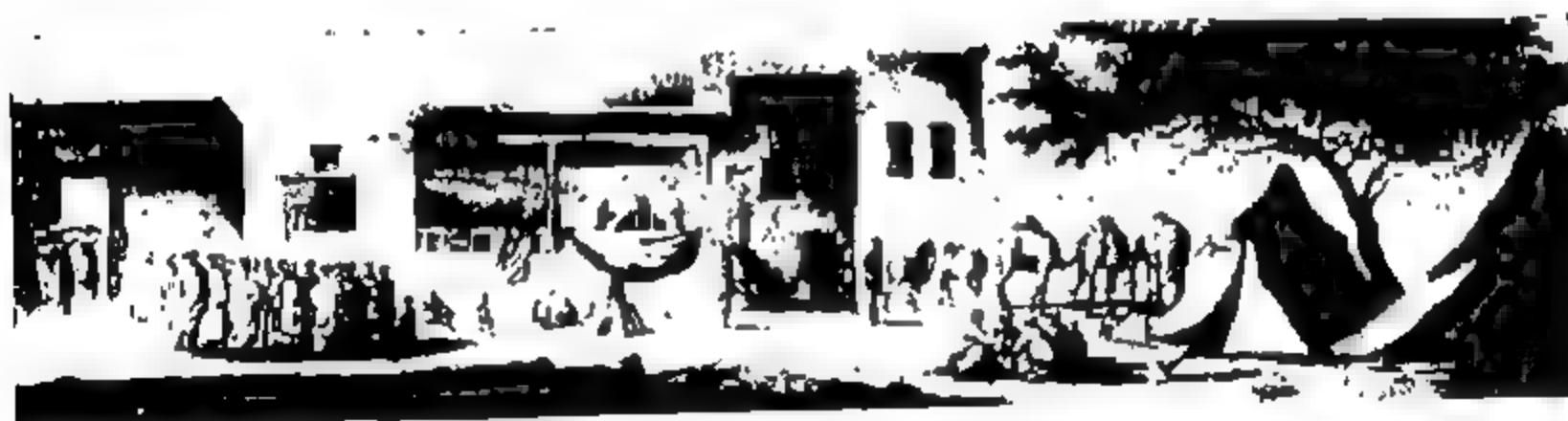
٢٦ - مأخذ الماء من قناة القاهرة.



٢٧ - (١) الوشاح الثلاثي
اللون يهدى بوناپارت إلى
أحد بكوات مصر.



(ب) بوناپارت يشهد عهد مولد النبي محمد.







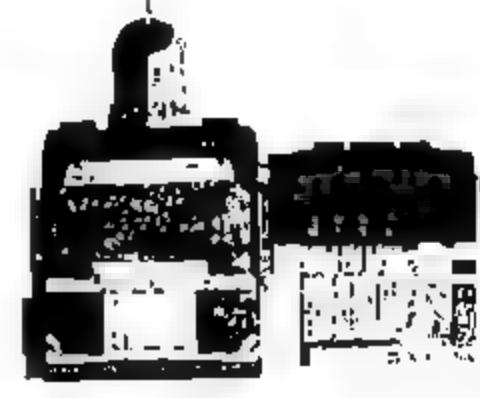
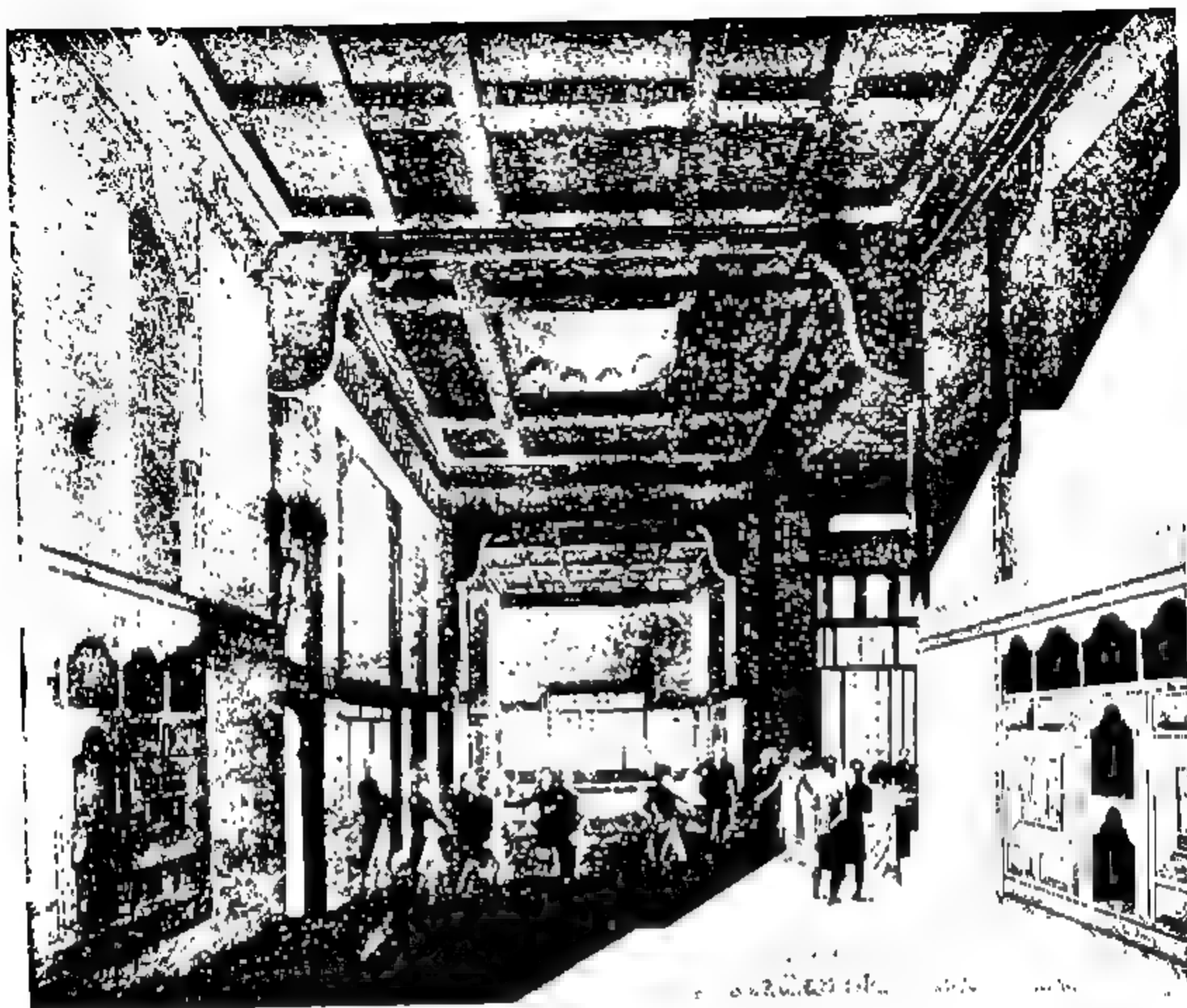
۳۰ - ثلاث قری علی نرع بمیاط.



٢١ - (١) بورتريه سليم الثالث.



(ب) قصر الأبراج المسبعة.



من جانب السلطات الجديدة للدور الأساسي لهذه الجماعة الاجتماعية في الأرياف. وإذا كانت لشكل المقارعة الإلهمية والفلاحية للاحتلال قد نهت بشكل خاص من كبار مشايخ العرب، الذين كانوا يكتفون وظائف متواضعة إدارة الأراضى، للالتزم، وكانوا رؤس القسامات القبلية والعائلية (المصنعات) الفلاحية والبنوية. فإن مشايخ البلد قد أتركوا بسرعة مهمة التحالف مع العسكريين الفرنسيين للقضاء على الضغط البدوي. ولم يك من شأن إقتفاء الجزء الأعظم من الالتزامات، التي جرى تحويلها إلى ممتلكات عامة كما حدث لممتلكات أمراء الثورة (في فرنسا - للترجم). والوجود الملتبسة التي لديها الفرنسيون (١٧٦) الذين تركوا الناس يتصورون إمامة توزيع تلقية للملكية العقارية، إلا أن تشجع على هذا الولاء الذي يتعارض معه بشكل طبيعي شعور بأن الفرنسيين أمراء للإسلام.

ومعذ البداية، يتصرف الفرنسيون في اتجاه استعانة النظام. ولا يعنى ذلك مجرد القضاء على عمليات السلب والنهب التي تقوم بها البدو، بل يعنى بوجه أشمل استعانة تأسس النظام الهيدروليكي للوادي، الذي تنمو خلال فترة الفتن التي بدأت بعد موت أبو الذهب. والأمر الهوى الصادر في ٦ أروكتيدور من العام السادس (٢٣ أغسطس ١٧٩٨) يوضح جيداً طموح هذا البرنامج :

«إن نجاحات فيضان النيل إنما تتوقف على صيانة القنوات أو على الأقل الحفاظ عليها. وملايات الجيش، شأنها في ذلك شأن مالهات للمصريين، من مصلحتها أن يتم توزيع المياه بنظام وبراعة واتصاف وتسار.

«وعندما يصل فيضان النيل، يسعى للزارعون متنقلين إلى الاستحواذ على مياه القنوات وإلى تحويلها لحسابهم.

«وبناءً على ذلك فإن القائد العام، إنراكا منه لوجود عدة محاولات تمت الفشل، يأمر جميع الجنرالات ومساعدى الجنرالات الذين يتولون القيادة في الأقاليم أن يقدموا في التو وال حال إلى أمراء الأقاليم المذكورة يد العون التي قد يحتاجون إليها، وأن يوفروا الحراس الذين قد يكونون ضروريين.

«ويأمر القائد العام بوجه خاص قائد إقليم القليوبية بحراسة ومراقبة ترعة أبو منهي، وهي إحدى أهم الترع في مصر. فقد اعتاد العرب على مدار الأعوام بذل كل جهودهم لتحريك مياهها؛ وأن يأخذ بعين الاعتبار أنهم إذا نجحوا في ذلك، فإن الجزء الأعظم من الأرض الذي ترويه هذه التربة سوف يظل مجدياً» (١٧٧).

الإسكندرية ورشيد

من الطبيعي أن هذه الاستعمارة للنظام أكثر تقدماً في إقليم غرب الدلتا التي سقطت بشكل مبكر أكثر في أيدي الفرنسيين. ومنذ رحيل الإنجليز، يهتم كليبر بإقامة ميون (١٢٨)، الذي يتولى أموره حزب العلماء، وعلى رأسه الشيخ المسيرى. وهو يأمر باحتفال مهيب بمولد النبي (٢٢ أغسطس ١٧٩٨). ويواصل إنشاء تحصينات جديدة. وتتزايد ضرورة ذلك بقدر ما أن السفن البرتغالية تنضم إلى السفن البريطانية التي بقيت لغرض الحصار على المناء. وتحدث قنارات لنهران المدافعية، حيث يسعى الإنجليز بشكل خاص إلى رصد مواقع البطاريات الفرنسية (٢٩ أغسطس ١٧٩٨). ثم إن الخيلق البحري، للمشكل من البحارة القساة الناجين من أبو قير، يحل محل للوحدات الموجودة في أبو قير (٢ سبتمبر ١٧٩٨).

والشرافل الأساسية ذات طابع مالي. فالأعمال التي يجري الاضطلاع بها في الإسكندرية تكلف غالباً، ثم إنه يجب تأمين النفقات الضرورية لتوجيه مسار المياه خلال فيضان النيل، وشراء حبوب لسكان المدينة التي تجازف بأن تشهد مجاعة. ومن ثم فإن يتعين فرض ضرائب إلزامية جديدة على التجار واستغلال الأموال التي خصصها بونابارت للبحرية في أغراض أخرى. وكل ذلك يجر على كليبر توجيهاً قاسياً من جانب القائد العام الذي يتهمه بالتبذير البالغ. ويثور الأناضلى (كليبر - المترجم) على ما يعتبره ظلماً ويرد بإباء :

«لقد نسيت، أيها المواطن الجنرال، وأنت تكتب تلك الرسالة، أنك تمسك بإزميل التاريخ وأنت تكتب إلى كليبر، على أنني لا أظن أنك قد راوشتك أدنى فكرة غير الفكرة التي أمرت عنها، وإلا فإن الله لن يصنعك.

«إننى أنتظر، أيها المواطن الجنرال، هجر عودة البريد، الأمر بإعطائى من وثائلى ليس فقط في موقع الإسكندرية وإنما أيضاً في الجيش إلى أن تتكون لديك فكرة أفضل عما يجرى وما جرى هنا. إننى لم أت البتة إلى مصر لكي أكون ثروة. وقد تمكنت إلى الآن من احتلالها بعدما كنت. على أنني لن أسمع أبداً مع ذلك بإحاطتى بأية شبهة».

ويسمى بونابارت إلى تدارك وقع رسالته باستعادة كلمات مخاطبه: «إذا كنت أمسك بإزميل التاريخ، فإن آخر إنسان يمكنه أن يخشى من ذلك هو أنت» (١٢٩).

وكان بونابارت قد أرسل مارموت إلى البحيرة وإلى الإسكندرية لتلقى الوضع. والواقع أن القائد العلم كان ينوى الاستجابة لمطالب كليبر الذي كان يريد استئناف قيادة

فرلته، وكان يفكر في أن يحل محله الهنرال مانسكود، الذي وصل مع مارمون إلى الإسكندرية. ويرى مارمون، وهو لم يخطئه في ذلك، أن البديل للرفح غير كاف. وليس من غير المرجح أنه قد فكر في نفسه لهذا المنصب (١٢٠). والنتيجة المباشرة للصدام الأول بين بوناپارت وكليبر هي تأخير استهلال الثاني في الإسكندرية.

ويشهد هذا للميناء توالد الحجاج المغاربة العائدين من مكة والذين لا يستطيعون ركوب البحر بسبب الحصار الإنجليزي. ويأمل بوناپارت بترحيلهم عبر الطريق البري وذلك بالرغم من الخطر الذي يتهددهم من جانب البدو (١٨ سبتمبر ١٧٩٨). ومؤلاء البدو أنفسهم، تحت قيادة عبد الله باشي، يهتمون في سد القناة التي يتعين عليها نقل المياه إلى الإسكندرية. وهم يهاجمون أولئك الذين يتعهدون، لدى الفرنسيين، بتأمين انتقال المياه، الأمير إبراهيم النمنهوري وأتباعه. وأمام هذا الخطر الذي يندر بهلاك للمدينة بالكامل، يحث جنود الديوان ويطلب على الفور إلى كليبر اتخاذ أكثر التدابير صرامة. ويقرر هذا الأخير القيام بحملة قذيفة ضد قرية بركة غيطاس المتحالفة مع لولاء علي. ويتم نهب القرية وتدميرها بينما يجري نهب جانب من السكان (١٤ - ١٥ سبتمبر ١٧٩٨). وعندئذ يعود مارمون طابوراً متحركاً مكلفاً بضمان الأمن على طول القناة. ولا يمنع ذلك الأمير إبراهيم، الذي كان قد طلب مع ذلك بهذا الإجراء، من الانتقال إلى صف عبد الله باشي (١٢١).

أما فيما يتعلق بكليبر، الذي لم تنجح رسالة بوناپارت في تهينة خاطره، فهو يتلحح بعودة الألام، الناشئة عن الجرح الذي أصيب به خلال الاستيلاء على الإسكندرية، لكي يسلم قيادته للهنرال مانسكود الذي يبدو مع ذلك جد متردد في قبولها (١٨ سبتمبر ١٧٩٨). وبعد ذلك بوقت قصير، يطلب عودته إلى فرنسا. وكان لابد من تدخل كاتاريللي لمصالحة الهنرال الأكرامى مع بوناپارت. وعندئذ يرحل كليبر إلى القاهرة التي يصل إليها لحظة الانتفاضة الأولى للمدينة. وفي رشيد، يصطدم مينو بالمشاكل ذاتها تماماً التي يصطدم بها كليبر في الإسكندرية: التهديد البحري الإنجليزي، انعدام الأمن الذي يتسبب فيه البدو، والارتباكات المالية للمحونة. لكنه يرد على ذلك بشكل مختلف، فهو يتحسس لفتح مصر، التي يريد لها أن تتحول إلى مستعمرة فرنسية هنية، تحل محل مستعمرات جزر الأنتيل الضائعة. وسوف تفتح مصر وفرة من البن والسكر والقطن والذيلة والقرمزية. وبفضلها سوف تصبح فرنسا سيادة تجارة البوقيا والهند (١٢٢) وهو يتمسك بانتهاج سياسة نموذجية تجاه أهل البلاد. فهو يحدد مبادئ تاجنة للديوان، الذي أنشأه في رشيد، حيث يسرف في تقديم نصائح حسنة إليه بشأن ضرورة معارسته لهمة برانصالة (١٢٣). وهو يقوم بحولة استطلاعية داخل إقليمه مع مارمون وفيلان بينون

ودبلوماسي للتوصل إلى تأكيد السلطة الفرنسية وتأمين الاتصالات مع القاهرة (١٢ - ١٩ سبتمبر). ولما كان قد تحرك دون حذر، فإن سقط في كمين في قرية كفر شماس هاجر (شماسي الملح ٢) التي يتم إحراقها انتقاماً. (١٢٤)

وفي ٢٠ سبتمبر يبدأ مرمون عملياته على طول قناة الإسكندرية. وهو يتمتع بقوة مؤلفة من ألفي رجل. ويقوم بتوزيع جزء منهم على مواقع ثابتة بينما يكرس الجزء الآخر لأداء مهام طابور متحرك. وهو يجد هنا لتخلي الأمير إبراهيم (عن الفرنسيين - المترجم) «ولمّا لكل ما تستنى لي جمعه من معلومات، إزدني أعتقد أن إبراهيم الشوربجي ليس متهماً إلا بالخوف. لقد كان موقفه صعباً، وكان مواجهواً في وسط يهيمن عليه العرب» ولم نقدم إليه أية حماية، وكان يواجه مخاطر عظيمة. إن كثيرين من الشجعان كان من شأنهم أن يتصرفوا بالشكل الذي تصرف به». (١٢٥)

وفي ٣٠ سبتمبر، تصل المياه إلى الإسكندرية، ويجرى البدء بعمل الخزانات. وخلال هذه الأيام تصبح القناة نفسها صالحة للملاحة، الأمر الذي يسمح بنقل الجزء الأكبر من اللدائع والعتاد الحربي الذي ظل في الكويت بعد النزول إلى القاهرة.

عقد الديوان الشهير

منذ بداية سبتمبر، يبدو فتح القلعة، بالرغم من العمليات التي ما تزال جارية، متقدماً بما يكفي في نظر بونابارت، بحيث يتسنى له اتخاذ قرار بعقد ديوان عمومي في القاهرة لعموم مصر. ويتعين على كل إقليم أن يرسل إليه وفداً مؤلفاً من ثلاثة وفلاحين من مشايخ البلد وزعماء العرب. ويتعين على الجنرالات اختيار هؤلاء الأعيان «من بين الأشخاص الأوسع نفوذاً بين الناس، والأكثر تميزاً في البلاد بمعارفهم ومواقفهم وأسلوب ترحيبهم بالفرنسيين؛ وعليهم أن يحرصوا على عدم اختيار أحد من أولئك الذين يقفون ضدياً بشكل صافٍ» (١٢٦). وموعد الاجتماع هو العاشر من فيفريير من العام السابع (الأول من أكتوبر ١٧٩٨). وبسبب تأخر وصول بعض الوفود، يجرى تأجيله إلى ١٤ فيفريير (٥ أكتوبر).

وفي ذلك اليوم، تبدو عملية تهوية القلعة ناجزة وتسمح أمور كثيرة بتوقع انحناء علم إلى صف الفرنسيين. على أن الحدث الرئيسي، والذي يتحمل في دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحملة الدعاية التي تلتها، سوف يلقب الوضع.

دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحرب الطعنة سليم الثالث

خلال الشطر الثاني من القرن الثامن عشر، أترك المسئولون السياسيون العثمانيون انقلاب علاقة القوى بين الدول الأوروبية والإمبراطورية الإسلامية العظمى. وقد أوضحت لهم حرب ١٧٦٨ - ١٧٧٤ أن مصير دولتهم نفسه قد صار مهدداً. على أنهم كانوا مؤمنين إيماناً صليفاً بالتفوق للتأصل للمضاربة الإسلامية، القائمة على الدين الحق، وانتهوا إلى تفسير الرضع القائم بوصفه نتيجة لانحطاط المؤسسات السياسية، الصحيحة من حيث أساسها، ومن ثم فإن المصلحين الأوائل يثبون على عودة إلى روح وأشكال السلطة التي عرفها عصر السلاطين الفاتحين العظام في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ومثل هذا البرنامج، على الرغم من أنه لا يمثل محاكاة لأوروبا، هو بالفعل برنامج ثوري، بقدر ما أنه يهدد الاستحواذ على مفاهيم ضخمة من جانب جماعات اجتماعية وسياسية مختلفة.

وفي المجال العسكري بالتحديد يبدو الإصلاح أكثر ضرورة. لكن التحرك في هذا القطاع ينطوي على مغازلات سياسية كبرى. فالمؤسسات العسكرية القديمة كمؤسسات الأنكشارية (المرتبطة كما في القاهرة بطبقات التجار والحرفيين للدينية) ترفض أية دعوة إلى الانضباط القديم كما ترفض أي تكيف مع التقنيات القتالية الجديدة. وهي مستعدة للتصدي بالسلاح لأي تغيير سياسي يهدد هيمنتها في المجتمع ويمكنها تبرير تحركها باسم الدفاع عن المجتمع الإسلامي ضد تصف صليحة مستبدة. وهذا النطاق عن الإسلام، يتحرك به أنصار الإصلاحات بدورهم عندما يطلقون بتزويد الدولة بالإمكانات اللازمة لمقاومة الدول الأوروبية التي تتزايد خطورتها باستمرار كما يشهد على ذلك ضم القرم إلى روسيا.

وقد أتركوا أن المقاومة لا يمكن أن تتم إلا عبر اللجوء إلى الفئتين العسكريين الأوروبيين، لكنهم يطمنون لصر هذا اللجوء إلى أوروبا على مسائل التقنية الخاصة حتى لا يضطروا إلى نهج ليس مجتمعهم حينها. وأياً كان الأمر، فمن الخطر بما يكفي بالفعل للجهوم على التنظيم العسكري التقليدي. وهكذا، فعلى مدار القرن، بذلت محاولات مختلفة لاستخدام الأوروبيين، متحولين بهذه الدرجة أو تلك من الإخلاص إلى اعتناق الإسلام، في النهاية، ثم باستخدام خبراء مؤلفين من جانب دول أوروبية، كفرنسا.

ويتجلى هذا الوضع في لزمة النموذج الوزاري للحكم، الذي يتمثل في تخفيف عجز السلاطين، من خلال عمل رجال دولة لقياء. والتعاقب السريع للصنوبر العظام في القرن الثامن عشر يترجم بوضوح الارتباك السياسي للمعز للعصر. ويجري إدخال تغيير جذري مع صعود سلطان يملك نية الحكم، أو، على أية حال، إعطاء جهاز الدولة توجهات جديدة، وهذا السلطان هو سليم الثالث. (١٢٧)

والحال أن سليم الثالث، الذي ولد في ٢٤ ديسمبر ١٧٦١، قد تلقى تعليمًا مفتوحًا بشكل غير عادي على العالم الخارجي بالنسبة لأمير عثماني جرت العادة على أن يكون معتكفًا في السواي. وبسيرة بالغة، فإنه يحيط نفسه بمجموعة من الشباب الذين يشاطرونه الحس الإصلاحى عينه. بل إنه قد قام في عام ١٧٨٦ بإرسال أحد رفاقه، إسحق بك، إلى بلاط فرساي لطلب عون لويجس السادس عشر ضد الخطر الروسى. وقد ذكر بون طائل بالصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية، فهو لم يتلق غير رفض مذهب من جانب بلاط فرنسا. وعلاوة على ذلك، فإن الحكومة الفرنسية تأمر بحسب مستشاريها لحظة بدء الحرب الثانية. وهكذا فعندما يرتقى سليم الثالث للعرش، في إبريل ١٧٨٩، تجد الإمبراطورية نفسها منخرطة، بون حليف حقيقى، في حرب مشنومة مع النمسا وروسيا. ويتعين إيلاء الأولوية للمسائل العسكرية، والسلطان الجديد هو أحد الأنصار الأكثر عزما لسياسة مقاومة الغزوات الأوربية. على أن الوضع يتزايد تدهورا في أواخر عام ١٧٨٩.

وتؤدى الثورة إلى الإسراع بلك ارتباط السياسة الفرنسية بالمسائل الشرقية، الذي بدأ بعد موت فيردينان. ومن ثم يتعين على العثمانيين الاتجاه إلى حلفاء جدد. وتمهيدا لما سوف يشهده القرن التاسع عشر، فإن مصير الإمبراطورية يستند بشكل مطرد على الآليات للعقبة للترانز الأوربى. وفي عام ١٧٩٠، كان أبطال للشهد هما بولنا بالشمال، إنجلترا وروسيا الثانية لأنها لا تستطيع السماح بتوسعات بون تعويضات من جانب جيرانها النمساويين والروس، والأولى لأن التوسع الروسى على حساب الدول الإسلامية يهدد إمبراطوريتها الهندية الأخذة في التشكل. وهذه الدوافع التى تقود إلى تقارب مع الإمبراطورية العثمانية تجعل هذا الالتقاء شكا تلمعا، لأن هذه الدول، بمجرد تحقيق مصالحها، مستعدة للتخلى بون أسف من مصالح الإمبراطورية العثمانية. وسيدرك الباب العلى ذلك إبراكا اليما في السنوات التالية.

والحال أن الثورة والتقسيم الثاني لبرلندا يدفعان دول الغارة الأوروبية إلى التخلي مؤقتاً عن المسألة الشرقية. كما أن عودة إنجلترا إلى البحر المتوسط تسهم في ذلك إلى حد بعيد. وترتبط هذه اللحظة الجوهرية بأزمة لوشاكوف الدولية في ربيع عام ١٧٩١. فإذا ما استولى الروس على هذا الحصن العثماني، فإنهم يصبحون سادة لجميع المضايف الشمالية للبحر الأسود. وكان بيت ودونس (المتحدث بلسان المصالح الأنجلو - هندية) على استعداد لإرسال أسطول إنجليزي إلى البحر الأسود للتصدي لذلك الخطر. وفي نهاية الأمر، يتغلب الروس، ويسمح التدخل الإنجليزي بالتسوية النهائية لصالح يامس في يناير ١٧٩٢. ولأول مرة، يضطر المسئولون الإنجليز إلى العمل في نزاع بين مصالحهم المباشرة في أوروبا، وهي هنا تجارة البلطيق المهمة، ومصالحهم الطويلة الأجل في الشرق. ويستهل اللورد إيلجين عندئذ بداياته السياسية، بتحليره من مخاطر سيطرة روسيا في البلقان والقوقاز، ومن مخاطر سيطرة فرنسية في البحر المتوسط كما يستهل بداياته الدبلوماسية بالتفاوض مع بروسيا على المعون الذي يجب تقديمه إلى العثمانيين، ويبدأ الدفاع عن وحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية في الاندراج في المذهب السياسي للمسئولين الإنجليز، إن حماية الهند إنما تمر عبر البحر الأحمر ومصر وشرق البحر المتوسط. (١٢٨)

الإصلاحات والثورة الفرنسية

إن عودة السلم بالنسبة للإمبراطورية العثمانية معاصرة لنشوب حروب الائتلاف الأول. وتسعى لجنة الخلاص العام وخليفاتها إلى الحصول من الباب العالي على نود إلهاء فعال ضد النمسا وروسيا. كما أنها تسعى إلى انتهاج سياسة شرقية تدفع الإمبراطورية إلى التدخل في الحرب (١٢٩). وبشكل حكيم، يرفض الباب العالي ذلك مع احتفاظه بصلات صداقة مع الدولة العثمانية. الأمر الذي يظهر عظيم ضغط دول الائتلاف الأول.

والشيء الأهم، بالنسبة للسلطان، هو تكوين جيش جديد، النظام الجديد، وفق النموذج الأوروبي وفي توازن مع القوات العسكرية التقليدية التي يجري الإبقاء عليها بسبب ثقلها السياسي. واعتباراً من عهد حكومة الإنارة، تقبل فرنسا أداء هذا العمل بإرسال مستشارين مدربين إلى القسطنطينية. (١٣٠)

كما أن جهد الإصلاحات يجد ترجمة له في الظهور، الحاسم والنهائي هذه المرة، للطباعة باللغة التركية في القسطنطينية وفي افتتاح أعظم على العالم الخارجي. ولأول مرة، تنشئ الإمبراطورية سفارات دائمة في أوروبا. فمؤد عام ١٧٩٢، يجرى افتتاح سفارة في لندن؛ وفي عام ١٧٩٥، يجرى القدور على برلين وفيينا، ثم يجرى القدور على باريس في عام ١٧٩٦. وهؤلاء السفراء، خاصة في فرنسا، يستثمرون فصولاً عظيمة من جانب الجمهور. (١٤١)

بل إن الثوار الفرنسيين قد حاولوا الاضطلاح بجهد دعائي (١٤٢). فسفارة فرنسا تتمتع بدار نشر صغيرة تصدر بشكل هرجسي، بالفرنسية، صحفاً تورد أخبار أحداث فرنسا؛ ثم إن للنصوص الأكثر أهمية، مثل إعلان حقوق الإنسان أو مختلف الدساتير الفرنسية، قد ترجمت إلى للتركية، بالرغم من الصعوبات الواضحة في العثور على مصطلحات (تركية) مفاظرة بدقة لبعض المصطلحات (الفرنسية). والحال أن عناصر الأقليات المسيحية، خاصة اليونانيين والأرمن، يبدون جد متجاوبين مع هذه الأفكار الجديدة ولا يترددون في ارتداء الشارات الثورية كالشارة للثلاثية الألوان. ويستثير هذا للولف الانزعاج الحكومة العثمانية.

ويتزايد الانزعاج عندما يقوم فرنسيو جيش حملة إيطاليا خلال صيف عام ١٧٩٧ بتدمير البندقية والاستيلاء على الجزر الأيونية. إن بونابارت الذي يلكر في الشرق، يجرى اتصالات مع حكام الولايات البلقانية الأقوياء ومع يونانيي الإمبراطورية. وهذا التحرك لا يمر دون رصد من جانب الباب العالي. فهو يحتج رسمياً لدى السلطات الفرنسية ويعيد غالبية للمستشارين العسكريين الفرنسيين ويرفض الاعتراف بمعاهدة كامبو - فورميو التي تكرر لاختفاء البندقية. إنها ثلثي شريك ثقلي لدى للباب العالي يختفي (حيث كانت هولندا أول شريك يختفي). ويرى العثمانيون في ذلك محققين نذير خطر جديد، وتبدو فرنسا بالنعصية لهم قوة عظيمة توسعية إضالقية قائمة على حدودهم وذات الطماع إقليمية خطيرة. ومع موت أوبير - دوباييه، سفير فرنسا، يتأخر تاليران في تعيين خلف له، ويترك بيبير يوفان، وهو ترجمان يملك دراية عظيمة بالشئون العثمانية، كقائم بالأعمال. فوفقاً للخطة التي وضعت بالاشتراك مع بونابارت، يتعين على تاليران نفسه الذهاب إلى القسطنطينية، وهو يحذر تعليماته الخاصة التي يقدمها إلى حكومة الإدارة في ١٦ مارس ١٧٩٨.

«إن كل ما قيل في هذه التعليمات يجب أن يفتح للمواطن...» (١٤٢) بأن حكومة الإدارة لا تريد لا الحرب ولا القطيعة مع الإمبراطورية العثمانية. إنها، في واقع الأمر، عازمة على احتلال مصر للدفاع للهيئة أعلاه، ولأنه وسيلة أكيدة لإضعاف وتدمير الإنجليز في الهند؛ لكن ذلك لا يمكنه على أية حال أن يدفعها إلى اللجوء بحقوق السلطان في الأجزاء الأخرى من إمبراطوريته. فهي تفكر جيداً أن دمار هذه الإمبراطورية لا يمكن إلا أن يصبح في صالح النمسا وروسيا. ومن ثم فإن وجودها، من أكثر من زاوية، إنما يتدرج ضمن المصالح الواضحة للجمهورية، شريطة أن تظل هذه الأخيرة حائزة لمصر. ومن ثم فإن المواطن... سوف يبدل كل ما في وسعه لفتح الباب العالي إلى سهل التصالح والإقناع بأن حكومة الإدارة التنفيذية ليس لديها أي مخطط للاتحاد مع أعدائكم الطبيعيين في أوروبا وإنما مستعدة أكثر من ذي قبل لأن تقدم إليه البراهين المقنعة على ذلك». (١٤٤)

والحال أن الاستعدادات في طولون في ربيع عام ١٧٩٨ قد فسرها الباب العالي، خطأ، بأنها خطر أكيد على أرض عثمانية، بينما حصل بوناپارت من تاليران على تأكيد بأن يؤخر لأطول وقت ممكن التحرك الدبلوماسي سعياً إلى الحفاظ على سرية مشروعة، وسرعان ما تتكشف قائمة الشبكة الجديدة من السفارات، فيالرغم من ذلك الفرنسيين للتكرد، يحذر العثمانيون جميع الولايات من خطر العدوان، ويوضحون أن من شأن عمل كهذا أن يستتبع بالضرورة دخول الإمبراطورية إلى الحرب (١٤٥)، ولا يصل التحذير إلى المحالين والفرنسيين إلا في أواخر يوليو ١٧٩٨ (١٤٦).

ومما يزيد من تعقيد الأمور أن الإمبراطورية تضطر إلى التصدي في الفترة نفسها لتمرده باسطنبولو الرهيب في بلغاريا الغربية. بخلاف السلطات شبه المستقلة الأخرى، ينتهج باسطنبولو سياسة حرب سائرة ضد الباب العالي ويسعى إلى أن يحشد حوله جميع خصوم الإصلاحات. وتتدخل الجيوش العثمانية الرئيسية بمحاربتها، وتم محاصرت في عاصمتها فيدين، عندما حصل نيا الاستيلاء على ملطية. (١٤٧)

القطيعة مع فرنسا

تكثف السفارة الإنجليزية تحركاتها لدى العثمانيين للتقنعين بالفعل بالخطر الفرنسي. وفي ١٧ يوليو حصل نيا الاستيلاء على الإسكندرية عبر شهادات شفهية. ويتأكد بمزيد من التفاصيل عبر رواية لبطان ميته الإسكندرية (لهمان ريس) الذي تمكن من

الهرب إلى قبرص. وينقسم المستوطنون العثمانيون إلى من يريدون الفخول في حرب ضد فرنسا، ومن يحلمون بالتوصل إلى تسوية مع الفرنسيين ويستعدون لتبني جانب من مبادئهم. (١٤٨)

لكن ترتيبات الحكومة العثمانية لا تستمر طويلاً. ويهدى سكان العاصمة سطهم، فيما هذا لنصار فرنسا، «حكمة الشارة الثلاثية الألوان» وانصار باسفانوغلو الذين يتهجون لظهور جبهة جديدة تحول الأنظار من جبهة بلغاريا الغربية. وكانت جميع فرنسا قد شلت طريقها إلى شريحة من النخبة البيروقراطية الإمبراطورية، لكن خطر التمرات الشعبية، وضغوط الدول الأوروبية الأخرى، وعزم السلطان قد حسنت الموقف (١٤٩). وبوجه خاص، فإن الباب العالي يرى في إتهامات الدولة العظمى التي حتم القدر أن تصبح حليفة له. ومنذ أول أغسطس، يقترح على سبنسر سميت عقد معاهدة تحالف إبدى تضمن حرمة أراضي الإمبراطورية العثمانية ووحدتها. وعلى الرغم من أن القوائم بالأعمال الإنجليزي لا يملك الصلاحيات الضرورية لعمل كهذا، فإنه يؤيده بحماسة. (١٥٠)

ويتدهور موقف الفرنسيين بسرعة، فهم يجدون أنفسهم مجبرين على عدم الخروج من منازلهم، إكان ذلك في العاصمة أم في الولايات، ثم يجرى احتجاجهم ببساطة لاستغلالهم كرهائن لضمان أمن المصريين (١٥١). ومن ثم فإن عمل بوناپارت قد يمر بالكامل كل شبكة النفوذ التجارية التي كانت الثورة قد أربكتها بالفعل. وتامر السلطات بإعداد فتوى من جانب العلماء ضد الفرنسيين إلى جانب رسالة باهرية من جانب بطريرك القسطنطينية اليوناني؛ (١٥٢) والحال أن بيانات بوناپارت التي زعمت أنه يتصرف بناءً على رضاه من جانب الباب العالي إنما تعزز السخط الشعبي ضد السلطة، (١٥٣) وتضطر هذه الأخيرة إلى اتخاذ الموقف الأكثر تشدداً لإثبات صلابتها. ومن المؤكد أن بوناپارت لم يكن يتوقع هذا الأثر السيء لدعايته، وصعباً إلى التدخل ضد العدوان الفرنسي، يدعو الباب العالي إلى تضامن كافة المسلمين.

البهاق العثماني

إن نها تدمير الأسطول الفرنسي في أبو قير، والذي وصل إلى القسطنطينية نحو ٢١ أغسطس ١٧٩٨، إنما يعزز إرادة القتال لدى العثمانيين. وفي ٢ سبتمبر، يجرى

احتجاز الدبلوماسيين الفرنسيين، وفقاً للمعرف، في قصر الأبراج المسبعة. والحال أن
تاليران، الذي كان قد أدرك بسرعة أن وضع سفير في القسطنطينية يثير بالأى يكون سعيداً
الهيئة، كان قد تخطى منذ وقت طويل من هذا المنصب وعين فيه السفير السابق للمؤتمر،
بيكورش، دو سان - كروا. (١٥١) وكان هذا الأخير قد أجرى استعطفك. لكن قطع العلاقات
الدبلوماسية بحول دون وحيله. والواقع أن الباب العالي ينشر في ٩ سبتمبر ١٧٩٨ بيان
الحرب، إن فرنسا قد خانت بفظاعة الصداقة التقليدية التي كانت تربطها بالباب العالي؛
وهذه الخيانة جد مشينة، بقدر ما أن الإمبراطورية العثمانية، خلال انقلاب بول أوروبا ضد
فرنسا، قد تمسكت بحيل عطف وسمحت بإملاك فرنسا التي تتهديها للهامة بالمؤن.
وكان جزاء ذلك أن فرنسا قد انتهجت سياسة تخريب في الولايات الأوروبية للإمبراطورية،
ثم تقدمت على مهاجمة مصر مع سعيها إلى كسب الوقت عبر مناورات تسويقية لدى
الباب العالي.

واستناداً إلى ما شهدناه حتى الآن من تصرفات تعسفية وتمكينية من جانب
حكومة الإدارة، فإنها لا تهدف إلا إلى زعزعة نظام وانسجام العالم برمتى وتمزيق الأواصر
التي تربط بين الشعوب والأمم. وتبعاً لما يناسبها، فإنها تستخدم تارة النحاس الصرعى
وتلجأ إلى الوسائل المستترة، وتستخدم الحديد والدار على المكشوف تارة أخرى، لكي
تطيع بدساتير الدول، وتقيم، كما فعلت في إيطاليا، كثرة من الجمهوريات الصغيرة التي
تود فرنسا أن تكون الجمهورية الأم لها، ومن الواضح أنها تنقزع لنفسها في كل مكان حق
تسوية الشؤون العامة على هواها.

ولما كانت مصر هي بوابة للبهنتين للقدسيتين، المدينة ومكة، فإن هذه المسألة تتميز
بالنسبة للمسلمين بالأهمية الكبرى وفقاً للبيانات التي أصدرها الباب العالي بالفعل في
هذا الشأن [...] فإن الهجوم الجائر والمهاجمة والأعمال الحربية من جانب فرنسا يجب،
بموجب شرائع العدل والرحمة وعمون الله سبحانه وتعالى، دفعها بالقوة، وعلى ثقة تامة
من رحمة وكرم الله سبحانه وتعالى، لقد اتخذنا ترتيباً على ذلك جميع التخليد لنقطع
الاعتداءات برأ وبجرأ، وتقصد، لقهر وسحق الأعداء، أن من الواجب للدين على كل مسلم
الخروج للحرب ضد فرنسا (١٥٥).

وبإعلان الجهاد على هذا النحو، فإن الباب العالي يتعين عليه تحديد سبل تحركه.
ويجرى إرسال سلسلة بأكملها من الأوامر (١٥٦) إلى مختلف الأقسام الإدارية
للإمبراطورية لتجهيز القوات. (١٥٧)

وصاعته. يصبح الشيء الأهم هو التعرف على رأى أحمد باشا الجزار. فإذا ما اختار هذا الأخير التوافق مع الفرنسيين، فإن وضع الباب العالي سوف يصبح صعباً. ومما يسعد هذا الأخير، أن سيد مكا قد أدرك أن الفرنسيين في مصر يشكلون خطراً أعظم بكثير على سلطته من خطر الباب العالي، الأبعد بكثير، والذي يحتفظ معه دائماً، بوجه عام، بعلاقات طيبة. وهو يتصل من تلقاء نفسه بالإنجليز الذين يهدى لهم رغبته في القتال. (١٥٨)

التحالف مع روسيا وإنجلترا

تأثر قرار الدخول في الحرب بالضغط الروسية أيضاً. على أن يول الأول كان قد أبدى في بداية عهده رغبته في اتباع سياسة سلمية وصاعية إلى تضميد الجراح بعد الحروب الطويلة التي خيضت في زمن كاترين العظيمة. لكن وجود الفرنسيين في البحر المتوسط، وخاصة في البحر الأدرياتي، إنما يشكل في نظر حكومته خطراً على الأطماع الروسية في المنطقة. وقد جرى تفسير حشد القوات في طرلون بوصفه علامة تهديد وشيك لروسيا، ويتم وضع أسطول البحر الأسود في حالة استنفار. ويقود الاستيلاء على مالطه إلى انخراط قرار بحاربة فرنسا، فمن اللازم حشد جيش يتكلف من ستين ألف رجل على الحدود الروسية - العثمانية، ويتمركز الأسطول البحري الروسي على مقربة من المضائق، ومنذ ٢٤ يوليو يجرى اقتراح تحالف على إنجلترا. (١٥٩)

وهكذا يجد الباب العالي نفسه مدفوعاً إلى التعامل مع روسيا وترسو السفن الروسية قبالة القسطنطينية في ٢ سبتمبر ١٧٩٨ وتبدأ للعمليات العسكرية في ٥ سبتمبر. وبالرغم من المطالب الإنجليزية، فإنه يجرى إيلاء الأولوية للهلبان. والحال أن الجزء الرئيسي من الأسطول العثماني، الذي أصبح من جديد مهماً بفضل عمل سليم الثالث، يجرى إرساله للاستيلاء على جزر البحر الأبيض، بالتعاون مع الأساطيل الروسية. وينجز الفريقان حشدتهما في ١٩ سبتمبر في عرض الدردنيل الذي يخبرانه في الأول من أكتوبر. وتسقط الجزر بسرعة في أيدي الأتراك والروس (سيرجيو في ١٢ أكتوبر، زانت في ٢٤ أكتوبر، سيفالونيا في ٢٨ أكتوبر، سانت - مور في ١٢ نوفمبر، وإيثاكا في ١٥ نوفمبر). وعندئذ يجرى حصار كورفو، القاعدة الفرنسية الرئيسية. (١٦٠) وسوف يقارمه الجنرال شامو حتى ٢ مارس ١٧٩٩.

وكانت إنجلترا قد ألقت الأمانة للدفاع عن الهند. وبمجرد تلقي خبر رحيل الفرنسيين في لندن، سارع مونتان، الذي كان آنذاك وزيراً للحربية، بإصدار الأمر بإرسال تعزيزات إلى الهند. وبما أن قوات إنجلترا البرية ضعيفة، فإنها تضطر إلى سحب قوات من البرتغال، بالرغم من التهديدات الفرنسية لهذا البلد. (١٦١) والساعة جد طويلة لأنه يتعين للرد عبر طريق رأس الرجاء الصالح. ويأمل البريطانيون في أن تصل قواتهم إلى الهند قبل الجيش الفرنسي الذي تصوروا أنه سوف يتجه إليها عبر البحر الأحمر. ومن ثم فمن باب الاحتياط يتعين حصار ذلك البحر. والباب الأعلى نفسه هو أول من يقترح إرسال أسطول إنجليزي إلى البحر الأحمر بالرغم من قرب الهندتين للفرنسيين، ومن ثم فإن الحظر العثماني القديم يختلف بسبب الظروف. (١٦٢)

والحال أن انتصار أبو قير (الذي سمىه الإنجليز بمعركة النيل) يوم البريطانيين بأن الجيش الفرنسي قد بات محكوماً عليه بالهلاك بسرعة. ويؤكد ديلسون بقوة أنه قد تجهز من الناحية العملية على الخطر الذي يمثله جيش بوناپارت. ورسائل الفرنسيين، التي يعترض الأسطول البريطاني سبيلها ويستولى عليها والتي يصارع الإنجليز إلى نشرها (١٦٣)، تعطي صورة مبالغاً فيها عن جيش يائس ومتفلسخ بالكامل. وحتى نهاية الحملة، سوف تظل حكومة لندن من شأن القدرة القتالية للجيش بالعصاج لنفسها بأن تنخدع بمظاهر مزاج الجنود الفرنسيين للانحرف. إلا أنه يتعين عليها الآن إنجاز سد منخل شرق البحر المتوسط بمحاصرة مالطة. وهذا أمر سهل بقدر ما أن اللطفيين يتمربون من تطلق أنفسهم ضد الفرنسيين الذين يقودهم الجنرال فويوا في ٢ سبتمبر ١٧٩٨، ويحاصرونهم في لافاليت. ثم أن الأسطول البرتغالي، المعاند من سواحل مصر، وبعد وصوله في نابولي، سوف يقدم دعمه إلى الثمرديون في ١٩ سبتمبر. وفي ٢٤ أكتوبر، ينضم إليه ديلسون الذي كان عليه أن يصلح أولاً في نابولي الأعطاب التي أصيبت بها سفته خلال معركة أبوليد. على أن فويوا سوف يقاوم في لافاليت حتى ٤ سبتمبر ١٨٠٠. (١٦٤)

والحال أن الانتهكات الناتجة للحياض من جانب مملكة نابولي والصقليتين لا يمكن اغتفارها من جانب الفرنسيين، وذلك بقدر ما أن الحزب الداعي إلى الحرب والذي تقوده للملكة قد أصبح الحزب المهيمن في نابولي. وهو يلجأ إلى جنرال نمساوي، هو الجنرال ماك، لتنظيم جيش نابولي. وبالرغم من تحفظات ماك على حالة جيشه، فإنه يضطر إلى

الانتقال إلى القتال. ومنذ ٢٣ نوفمبر ١٧٩٨، يهاجم جمهورية روما. وهي دولة تابعة للجمهورية الفرنسية (١٦٠). ويطلق مسرح جديد للعمليات في جنوب إيطاليا.

حكومة الإطارة وحملة مصر

لنت كارتة أبو قير والقطيعة مع الباب العالي إلى إتمام حكومة الإدارة إنه لم يعد من الوارد إرسال تعزيزات إلى مصر. فالوارد البحرية للهزلة للتوالت في البحر المتوسط يجب تخصيصها للجزر الأيونية. والتعليمات للصنادرة إلى بونابارت والتي تمت الموافقة عليها في ٤ نوفمبر ١٧٩٨ لا تفعل سوى الاعتراف بواقع فعلي. إن جيش الشرق معزول بالكامل عن للتروبول في حين أن الحرب تعاود التشوب في أوروبا. ولما كانت حكومة الإدارة عاجزة عن إصدار أوامر موحدة إلى بونابارت، فإنها تترك له حرية اتخاذ قرار بشأن ما يجب عليه عمله: البقاء في مصر بالصمود في وجه الهجمات التركية، أو مواصلة طريقه إلى الهند بهدف إثارة الانتفاضة الهندية الكبرى ضد إنجلترا أو الزحف على القسطنطينية لتعجيل بالانقسام العظيم للإمبراطورية العثمانية (الأمر الذي يمكنه أن يؤدي إلى شقاق بين أعضاء الائتلاف الأخذ في التشكل)، إن عليك الاختيار، بالاتفاق مع نخبة البواسل والرجال المتميزين المحيطين بك، إلا أثناء أي كانت الوجهة التي تتجه إليها جهونك، لا ننتظر من هبلرية وحظ بونابارت غير توتيهات واسعة ونتائج باهرة. (١٦٦) والعزلة شديدة بحيث أن البرقية للتاريخ في ٤ نوفمبر ١٧٩٨ لن تصل إلى الشخص المرسل إليه إلا في ٢٥ مارس ١٧٩٩...

وفيما يتعلق بشوقي البحر المتوسط، فإن الحكومة الإنجليزية تقرر أن ترسل إلى هناك سيدني سميث، أخ سبنسر سميث، لتولى قيادة حصار مصر والتنسيق العمليات مع العثمانيين. وهذا التدخل للمهمات سوف يكون مثقلا بالمراقب بقدر ما أن اللورد إيلجين يعين، في الوقت نفسه، سفيرا لدى القسطنطينية. لكن هذا الأخير سوف يتأخر في تسليم مهام منصبه، تاركاً حرية التصرف في تلك الأثناء للآخرين سميث.

الصعابة العثمانية

وهكذا، على غضون أشهر قليلة، تجد أعداء حملة مصر ترجمة لها في تشكيل ائتلاف ثان ضد فرنسا الثورية يوحد إنجلترا والإمبراطورية العثمانية وروسيا والصقليتين. ومن للمارقات أن المؤتلفين يضطرون إلى إهمال مصر لأن الجزء الرئيسي

من أسطولهم يوجد في البحر الأبيض المتوسط ولأن إنجلترا لا تحوز قوات كافية لجيشها البري. ومن جهة أخرى، فإن الإمبراطورية العثمانية تحتاج إلى وقت لكي تصعد قوات مهمة وتهاجم مصر براً. ولا يعني ذلك أن العثمانيين لا يفعلون شيئاً من أجل تحرير مصر. على العكس تماماً، ففي مراجعة الدعاية للرئاسة من جانب الفرنسيين الذين يصرون أنفسهم على أنهم إنما يتصرفون بالاتفاق معهم، سوف يرون سلاح الدعاية إلى صيوره.

لهم يوزعون في جميع أرجاء الشرق الأدنى نصاً يزعم أنه «صورة ما وقع من الاتفاق بين طائفة الفرنسة القراصة الأبالسة والأمر الذي بهروه، والمجلس الذي لبروه وحده، وإجماعهم في ذلك على أخذ إقليم مصر وغيرها، بأنواع الحيل ومكرها، وأبواب الحرب والقتال، والظعن والجدال» [...] نقلت هذه الصورة عنهم بيد بعض عيون المسلمين بالتركية، فعريت بالعبارة العربية. (١٦٧)

وتبدأ هذه المناولات المزعومة باستعانة الأفكار الرئيسية، ثراء مصر، الحكومات البسيطة ومظالم للماليك، ضرورة محاربة الإنجليز في الهند. وبعد تأكيد صحة نسب النص على هذا النحو، يجرى الانتقال إلى صميم الموضوع، حيث لا يعلو الأمر كله أن يكون خداعاً من جانب الفرنسيين، «وتوسلون أخباراً إلى أمراء مصر البهيبة، وتعرفونهم بطريق للكر والخديعة، إننا مقصدين بأمراء مصر وأعيانها، أن نعمل معكم كل خير، ونبعد عنكم كل ضرر، ونجعلكم مستقلين ومنفردين بأحكامكم في سائر إقليمتكم، ولا نجعل لأحد عليكم سبيلاً، وتكونوا أقوى قبلاً، ونخرجكم من تحت يد من يحكمكم من الأنام، من كل خاص وعام، بحيث لا تكون عليكم يد من أحد وتكون وإياكم حالة واحدة إلى الأبد، وإذا أخذنا بلاداً أخرى من غير بلادكم، جعلناها لكم، فأنتم تولي بها وأخرى، ونفوض أمر البلاد إليكم، ونعتمد في أمورنا عليكم، فإذا كنتم أيها الأمراء على هذا للنوال، حصل لنا ولكم المقصود الأعظم وامتنع الاختلال، ومعلوم عننا أن فيكم قوة لذلك، واستعدنا لما هنالك، بل هممكم أعلى، ورأيكم أجلى، لأنكم موصوفون بالقوة والشجاعة، معروفون بالمهابة والبراعة، فهذه على ذلك أربنا أن نكون معكم أيها الأمراء على هذا للجال [كذا]. ومعينين لكم في سائر الأحوال» (١٨٦).

والواقع أن نوايا الفرنسيين شيطانية، «لقد اتفقت لوائهم وارتبطت أسوارهم على الهجوم على سائر بلدان المسلمين وأتظار عباد الله الموحدين [...] فإذا وصلنا أقطارهم

وحللنا ديارهم، فلضعيف منهم ديارهم بالحرب والفسوب، والقتل والنهب، والقوى منهم تنصب له شرائك للكر والحيل حتى تطمئن خواطرهم وتأمين ضمائرهم، إلى أن يقعوا في لشراكنا ونعمل فيهم ما شئنا من مقاصفنا ونلبي بين سائر المسلمين للكائد الخفية بالفساد، لإيقاع المناورة للباينة للاتحاد، في أحوالهم وأنيانهم [...] فإن أعظم ما يشتت جموع الإسلام ويقل حد سذائهم عن الانتظام، هدم قبائلهم، وحرق مساجدهم، وإذا ظفروا بانتظارهم وهدمت كهبتهم، ومسجد نبيهم، وبيت مقدس لهم، انقطع أملهم وتلرق شملهم، وملكنا ديارهم، فإن الأمور لا يدركها إلا اتفاق الجمهور، لنقتل جميع رجالهم، ومن يعقل من صبيانهم، لحيثئذ تقتسم ديارهم وأموالهم وأملاكهم ويحول بقية الناس إلى أصولنا وتواعفنا وإسائنا وبيننا، فيمتحن الإسلام وتواعده وشرائعه، وتدرس رسومه وآثاره من وجه الأرض من شرقها وغربها، وجنوبها وشمالها وعربها ومجمها.

وبالرغم من حاجة التعبيرات، فإن مراسي برنامج الحضارة في الأجل الطويل يجري إبراكها بوضوح.

وختاماً، يدعو العثمانيون جميع المسلمين إلى الاتحاد في مقاومة الفرنسيين، وإلى التزام الحذر وتغادي الشراك التي ينصبها هؤلاء الأخيرون لبث الفرقة بين صفوفهم، وفي تلك الأثناء، يجهز الباب العالي للمساعدات لتحرير مصر: «ونحن في طرف السلطنة السنية، نشرنا وأياتنا العلية وبحول الله وقوته وباهر عظمته، تملكهم عساكرنا المنصورة، وتقطعهم سيوفنا المشهورة، وقد سيرنا عليهم شجعان لا يبالون بالموت لإعلاء كلمة الله، وغزاة يحمون على النار محبة في دين الله، لنتملق بقدره الله أنبارهم، نعل الله تعالى يوزلنا بهلاكهم ودمارهم، لنجعلهم إن شاء الله هباءً منثوراً، كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً [...] إياها بفضب من الله [...] أمين، أمين» (١٦٩).

وعلاوة على المواجهة العامة بين الإسلام والثورة الفرنسية، فإن الهدف المباشر واضح. وهو يتمثل في مواجهة انعقاد الديوان العمومي الذي دعاه بونابارت إلى الانعقاد. والحال أن شهر أكتوبر ١٧٩٨ سوف يشهد المواجهة بين دعايتين، وسوف يسمع بمعرفة الاتجاه الذي يميل إليه الرأي العام المصري.

حواشي الفصل الرابع

- 1 - Bonaparte au Directoire, le 2 fructidor an VI (19 août 1798), - ١
Correspondance..., IV, pp. 503 - 504.
- ٢ - *Campagnes...*, XIX, p. 547 - ٢
 مراسلاته كذلك، فإن مصطلح الأمور العظيمة يوجد فيها في مناسبات عديدة.
- ٣ - *Courier de l'Égypte*, n° 1, le 12 fructidor an VI, 29 août 1798. J'ai - ٣
 maintenu l'orthographe du texte. Voir aussi B6 6, le procès - verbal de la
 rupture du canal du Caire fait en présence du général en chef Bonaparte (en
 arabe et en français).
- ٤ - عهد بوناپارت إلى مارمون، في الأول من ثوبوكتيدور من العام السادس (١٨ أغسطس
 ١٧٩٨)، بقيادة طهوب متحرك بجمع قوات ثوموي وديوب ومكلف بظامين وحول للياه البحر إلى
 الإسكندرية ومراقبة الأسطول الإنجليزي.
- ٥ - *Mudda*, pp. 25 - 26.
- ٦ - Récit équivalent dans les *Aja'ib et la Mudda*.
- ٧ - LA JONQUIÈRE, II, pp. 481 - 482.
- ٨ - *Histoire Scientifique*, III, pp. 376 - 376.
- ٩ - Texte dans B 6 6. Il est analogue à celui du *Courrier d'Égypte* et a - ٩
 été imprimé à Alexandrie.
- ١٠ - B6 6, copie datant de l'an VII à Toulouse d'une lettre du général - ١٠
 Dupuy au citoyen Deville négociant à Toulouse
- ١١ - Arrêté portant création de l'institut d'Égypte, *Correspondance...*, - ١١
 IV, pp. 534 - 539.
- ١٢ - Liste dans la *Correspondance...*, IV, pp. 539 - 540.
- ١٢ مكرر - ١٢
Décade Égyptienne, 1, 15. Cela correspond au début de l'an - ١٢
 VII (fin septembre 1798). *La Décade Égyptienne* s'inspire de la *Décade
 Philosophique, Littéraire et Politique*, organe des idéologues. Ce journal
 salue d'ailleurs la naissance de sa cadette : "C'est une sœur que notre *Décade*
 a en Égypte, comme l'Institut national y a un frère.: (an VII, 1^{er} trimestre,
 pp. 563).

Étude essentielle sur la question, Amin Sami WASSEF, - ١٢
L'information et la presse officielle en Égypte jusqu' à la fin de l'occupation française, Le Caire, I.F.A.O., 1975 et Ahmad Husayn AL SAWI, *Fajr al saḥāfat, dirāsāt fī i' lam al Hamla al firansiyya*, Le Caire, 1975 (L'aube de la presse en Égypte : étude sur les moyens d'informations de l'expédition française).

N°2, le 16 fructidor an VI (2 septembre 1798). - ١٤

N° 3, le 20 frimaire (sic pour fructidor) an VI (6 septembre 1798). - ١٥

N°4, le 24 fructidor an VI (10 septembre 1798). - ١٦

JABARTI, COUQ, p. 50 et *Mudda*, p. 40. - ١٧

١٨ - الجبرتي، المدّة، ص ٤٠ : من المحتمل أن الهبوط قد انتقل من ٢٢٠٠٠ بارة يومياً إلى ١٠٠٠ بارة. ويحدد قرار أصدره بوناپارت في ١٨ بروكتيدور من العام السادس (٤ سبتمبر ١٧٩٨) مرتبات أعضاء الدويوان بـ ١٥٠ فرنكا في الشهر. أما نفقات عمل الدويوان ونفقات شرطة المدن فقد غطيت عن طريق ضريبة على العمور، *Correspondance...*, IV, p. 641.

١٩ - إن برسيلج هو الذي يوجه بوناپارت إلى هذه السياسة، *Histoire Scientifique*, III, p. 146.

٢٠ - في المدّة، يتهم الجبرتي الأتباط بالتصرف كـ «الحكام» والتكثيف المتعمد للمعاملات السيئة ضد المسلمين (ص ص ٤٠ - ٤١). وفي هجائب الآثار، تختل الإشارة الطائفية. (COUQ, p. 50). Cuoq traduit hukkam par gens de tribunaux, il me semble qu'il s'agit là de gouvernants comme l'a traduit Moreh (rulers).

٢١ - المدّة، ص ص ٤٤ - ٤٥. تختل هذه الملاحظات من هجائب الآثار (COUQ, p. 150) بل إن موت محمد كريم لا يشار إليه إلا في وفيات سنة ١٢١٢ وليس في سياق تداريل الأحداث.

٢٢ - بل إن نظراً لترك يرى في ذلك سبباً رئيسياً لسخط المسلمين، حيث إن محمد كريم هو من نسل النبي. (WIET, p. 32).

٢٣ - إننا ما تابعنا تسلسل أحداث المدّة الذي وضع الحالت في اليوم نفسه (وليه). أما كتائب هجائب الآثار، فإنه يتضمن الصحيفة نفسها، لكن الإشارة إلى موت محمد كريم لا يجرى إدخالها فيها بعد، ومن هنا تاريخ سابق بخمسة أيام. ويعرّض ذلك القرائن حدوث تعديلات متأخرة لهذا النص الأخير وإمكانية حدوث ارتباك في تحديد التاريخ. ومن جهة أخرى، لابد من الإشارة إلى أنه، وفقاً لمراسلات نابوليون الأول، فإن الأمر الخاص بارتداء الشارة الوطنية الفرنسية إنما يرجع إلى ١٨ بروكتيدور من العام السادس (٤ سبتمبر ١٧٩٨) (IV, p. 647).

Mudda, p. 46. - ٢٤

٢٦ - اليوم الثاني للمعم للعام السادس (١٨ سبتمبر ١٧٩٨). يستمر النص على النحو التالي : إن الدجاج الذي لمرزه بوناهارت في هذه للسافة إنما يثبت أن جميع الخنس، حتى الأقل تعليمًا ومن ثم الأكثر عرضة للأوهام والتحييزات، ليسوا غير مستجيبين لهذه اللغة للعقل والحكم، خلسة عندما ينطق بها من يملك بين يديه القوة والسلطة. إلا أنه ما أكثر الدم الذي أريق من أجل آراء ومن أجل التباسات فهم في التعاقب الطويل لمصور والتورات الإمبراطوريات : إن توسع ذهنية القرن الثامن عشر، الرائعة تمامًا بالمآثر العسكرية لأمة عظيمة، إن تكون رائعة أيضًا بوجهة اللغة بالاتصال للتواصل للعقل على الأوهام والتحييزات.

Detroye, cité par LA JONQUIÈRE, III, p. 16. - ٢٧

Correspondance..., IV, p. 585, à Marmont le 28 août 1798. - ٢٨

Ibid, p. 586. - ٢٩

Correspondance inédite..., Égypte, II, p. 5. - ٣٠

B6 7, 1^{er} septembre 1798, *Courier (sic) de l'Égypte*, du 2^e jour - ٣١
complémentaire de l'an VI (18 septembre 1798).

Correspondance..., IV, pp. 528 - 529. - ٣٢

Correspondance..., IV, pp. 621 - 622, le 31 août 1798. - ٣٣

Instructions dans LA JONQUIÈRE, II, pp. 534 - 535 et - ٣٤
Correspondance... IV, pp. 529 - 530. يقدم حيدر الشهابي النص العربي للرسالة للرسالة إلى الجزائر (Asad RUSTUM et Fouad E. BOUSTANY, *Le Liban à l'époque des émirs Chéhab de l'émir Haidar Ahmad Chéhab*, Beyrouth - Jounieh, 1984, II, pp. 239 - 240 وهو جد مختلف عن النسخة الفرنسية الواردة في مراسلات نابوليون بالرغم من تشابه القام مع أسلوب الدعاية الفرنسية آنذاك (لقد تحرك الفرنسيون بناءً على طلب من الباب العالي لإخضاع المملوك للثوريين. وهم يريدون بعد ذلك الزحف على الهند...)).

Texte du rapport de Beauvoisins dans LA JONQUIÈRE, II, pp. - ٣٥
536 - 539 et B6 7.

WIET, texte arabe, pp. 34 - 35 et RUSTUM, II, pp. 329 - 240. - ٣٦

Courrier de l'Égypte, du 24 fructidor an VI (10 septembre 1798), - ٣٧
وصول هبة قلعة من حكا إلى دمياط : حملت نيا أن الجزائر بلغا دعا شعب بالشايكة إلى مواصلة تجارة مع مصر، وإلى التعاضد في ود مع الفرنسيين.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 66 - 68. - ٣٨

B6 8, septembre 1798 Réponses du Douanier de Damiette aux – ٢٩
demandes qui lui ont été faites.

٤٠ – Correspondance..., IV, pp. 679 - 680. إن ملكي هو الملك يحمل هذه
الرسالة.

٤١ – Le 13 septembre, Correspondance..., IV, p. 681.

٤٢ – LA JONQUIÈRE, III, p. 10 et Correspondance..., IV, pp. 667 - 670.

٤٣ – Histoire Scientifique, IV, p. 93. كان هناك ثلاثة أشخاص على الأقل يحملون
اسم مصطفى في خدمة الفرنسيين : أمير الحج، والشيخ الحارثي وأحد لغوات الإنكشارية، إلا أنه
لا بد وأن الأمر يتعلق هنا بموظف عثمانى من موظفي الشؤون المالية.

٤٤ – Ensemble des textes dans la Correspondance..., IV, pp. 705 - 716.
إن إجمالي التحصيلات في لواخر العام السادس يرتفع إلى أقل من ثلاثة ملايين، جزء واحد فقط
منها هو الذي يتألف من نفود، وهو ما يعتبر غير كاف إلى حد بعيد بالنظر إلى نفقات الجيش
المضخمة. (LA JONQUIÈRE, III, p. 39)

٤٥ – الجبرتي، المقدمة، ص ٥٢ - ٥٤. ويستعيد كتاب ههنا الأثار النص نفسه، لكنه لا
يتضمن العبارة الواردة هنا. وحتى نفهم جيداً اتساع الهوة، فإن بعض المجالات التي جرى للمساكن
بها لن تسحب من اختصاص القلتون الإسلامى (المحرقة) إلا بعد ثورة ١٩٥٢. كما يظهر
الجبرتي إلى أن نهوان القاهرة، خلال تلك الفترة، لم يدع إلى الانعقاد من جانب الفرنسيين وأن
أعضائه قد كلوا من الذهاب إليه. على أن بونابارت كان قد عين تلميذاً موطناً لدى النهوان لكي
يخلف بونابارت، في ١٤ فبروايبر من العام السادس (٢١ أغسطس ١٧٩٨)،
Correspondance..., IV, 622. وكان عليه أن يقدم إلى بونابارت تقريراً يومياً عن المشكيات
والملاحظات في الديوان.

٤٦ – الو كانت حكمة الإداريين الفرنسيين قد فعلت في كبح حملاتهم، لما بقي في
القاهرة شخص ثرى واحد إلا واعتبروه عميلاً للمماليك. Histoire Scientifique, IV, pp. 96 - 97.

٤٧ – يؤكد نابوليون أن الرسالة كانت فرمان إعلان حرب من جانب الباب العالي وأنه عندما
أوجد [نابوليون] نفسه وحده معه، طلب منه أن يسلمه أصل فرمان. وقد دلى المسلمات أن لديه
أي علم به، وتردد ولزته، وأخيراً سلمه إليه. (XDK, p. 594)

٤٨ – JABARTI, Aja'ib, 3 Rabi al Thani et Mudda, pp. 48 - 49. La
Mudda ne mentionne pas la réponse à Bonaparte, mais donne les paroles de
la foule.

٤٩ – JABARTI, Mudda, p. 39. C'est l'Histoire Scientifique (IV, p. 96) -
qui mentionne les Coptes et fit le lien avec Sitt Nafisa et la seconde affaire.

- JABARTI, *Mudda*, pp. 50 - 51. *Correspondance...*, IV, p. 649. — ٥٠
- Mudda*, pp. 61 - 63. — ٥١
- Je suis l'avis de C.F. Beckingham, le mystérieux "Rashitruh al — ٥٢
 afranji" présent aux côtés de Mourad ne peut être que Rosetti et non un
 certain "Rachiteau" que traduit avec un point d'interrogation Moreh (compte
 rendu de la *Mudda* dans le *Bulletin of the School of Oriental and African
 Studies*, 1977, pp. 655 - 656).
- LA JONQUIÈRE, III, pp. 12 - 15 — ٥٣
 حملة إيطاليا. وكانت قلعة نور حراسة وديار للبلاد العلم. لها السيرة التركية، التي ابتدأتها
 وابتدأتها كرائر فرنسية، فيبدو أنها قد أصبحت بالكامل في قوة للرهبان في يونيو ١٧٩٩.
 (VERNET et MICHALON, p. 22 et p. 28).
- ٥٤ [لا يعود الأصل الفرنسي هذه الحاشية. - للترجم]
- JABARTI, *Mudda*, p. 55. — ٥٥
- LA JONQUIÈRE, III, pp. 37 - 38 et VERNET et MICHALON, — ٥٦
 pp. 37 - 38.
- VERNET et MICHALON, p. 42. — ٥٧
- LA JONQUIÈRE, III, p. 47. — ٥٨
- LA JONQUIÈRE, III, pp. 57 - 58. — ٥٩
- Mudda*, pp. 55 - 56. — ٥٩
- Ordre du jour du 6 fructidor an VI (23 août 1798). — ٦٠
- Ordre du jour du 16 fructidor an VI (2 septembre 1798). — ٦١
- Ordre du jour du 29 fructidor an VI (15 septembre 1798). — ٦٢
- Ordre du jour du 7 fructidor an VI (28 septembre 1798). — ٦٣
- Histoire Scientifique*, III, pp. 384 - 385. — ٦٤
- Courrier de l'Égypte*, n° 8, du 6 vendémiaire (27 septembre — ٦٥
 1798).
- LA JONQUIÈRE, III, p. 27. — ٦٦
- Joseph - Marie MOIRET, *Mémoires sur l'expédition d'Égypte*, — ٦٧
 Paris, 1983, pp. 63 - 64.

٦٩ - تزكده هذه النية رسالة إلى أخيه جوزيف في الفترة نفسها.

٧٠ - Sur la place du 13 vendémiaire dans les fêtes républicaines, voir
Mona OZOUF, *La fête révolutionnaire*, Paris, 1976, pp. 217 - 218.

٧١ - *Courrier de l'Égypte*, n° 11, le 20 vendémiaire an VII (11 octobre - 1798).

٧٢ - Voir le rapport du capitaine de génie Sabatier à Caffarelli, LA -
JONQUIÈRE, II, pp. 305 - 306.

٧٣ - Rapport du Lazowski au même et surtout lettre de Zayonchek à
Bonaparte du 26 thermidor an VI (13 août 1798) (SKALKOWSKI, pp. 75 -
77 et pp. 80 - 82).

٧٤ - ٢٩ ثيرميدور من العام للسلم (١٦ أغسطس ١٧٩٨) *Correspondance*, IV, p. 488.
وهو ينهى رسالته قائلا: «إفنى احسن أن وضحك حرج غالباً، ولذا على ذلك تامة من حسن
نواياك ومن برأيك بطلب الإنسان، كن على ثقة من أنني لمضحك الإنصاف الذي تستحقه».

٧٥ - Voir le journal de Damas sur la marche vers Munsoura, LA -
JONQUIÈRE, II, pp. 385 - 388.

٧٦ - Voir le récit du survivant dans le journal de Laugier, LA -
JONQUIÈRE, II, pp. 467 - 470.
دمياط بشهر ونصف الشهر، قد كتب انصافاً بأربع الأسلوبية، بحسب التعبير ويت: «لم يكن يوسع
للمصريين أبداً احتمال الفرنسيين، وذلك بسبب الاختلافات في الدين واللغة والملبس، ذاهيك عن
مناوة القديمة كانت موجودة بين الفرنسيين والمصريين منذ زمن السلطان الظاهر بيبرس، ولقد
خللت ذكرى ذلك من خلال الاسم الذي سميت به المدينة، للنصورية» (أعدنا الترجمة إلى العربية
من الفرنسية لتعذر العثور على نسخة من مذكرات نقولا الترك. - للترجم [pp. 35 - 36 de la
traduction de Wiet).

ويقدم كتاب *L'Histoire Scientifique* (III, pp. 321 - 322) تفصيلات شميعة. لقد
استفاد المهلجسون من يوم سوق كى يدخلوا بحدود كبير دون أن يؤذى ذلك إلى الإحساس بالخطر.
ومنظم الهجوم هو شيخ عربي اسمه أبو قورة، من القبيلة البكرية. وكان هناك ثلجهان آخران، الفتاة
صفيرة في الثانية عشرة من عمرها، وأميها، وهي زوجة جندي خيال. والحال أن أبو قورة قد
اشتري الفتاة الصفيرة بمائة تقرر ثم تزوجها بعد ذلك. (في الحاشية: مات أبو قورة في عام
١٨٠٨. والحال أن لرملة، ابنة الجندي الخيال الفرنسي، قد ورثت ممتلكاته ونفوقه، بوصفها وصية
على الأبناء الذين أنجبتهم منه. وهذه المرأة، للبهجة من جانب عربيها، والمحرمة من جانب فتاة
الإقليم، ما تزال تحكم حتى اليوم (١٨٢٠) القبيلة البكرية. وعدد جميع سكان الضفة اليمنى للنيل
لا يكون التدرج باسمها بلا ملل أبداً.

والواقع أن موريا يخبر دوجا، في ١٧ فيكتوريور من العام السابع (٨ أكتوبر ١٧٩٨)، بأن
الزعيم العربي قد اشترى امرأة فرنسية سبيت في المنصورة. وهذه المرأة حبلى (B6 9).

Le diwan de Mansoura au diwan du Caire, B6 4. Comme l'a - ٧٧
remarqué LA JONQUIÈRE, ce texte comporte une erreur de date de 10
jours (II, pp. 470). VIAL écrit à Dugua le 4 fructidor (21 août 1798) qu'il
ne croit pas à la véracité du rapport du diwan (B6 6).

LA JONQUIÈRE, II, pp. 471 - 472. - ٧٨

Ibid, II, pp. 545 - 546. - ٧٩

Ibid, II, pp. 548 - 549. - ٨٠

ANDRÉOSSY, "Mémoire sur le lac Menzaleh, d'après la - ٨١
reconnaissance faite en vendémiaire an 7", *Décade Égyptienne*, I, p. 188.

٨٢ - Nicolas TURC, p. 21 : ليل إلى دوجا، ١١ فيروكتوريور من العام السابع B6
6. وفي ٧ فيروكتوريور، في رسالة إلى دوجا أيضاً، يصبح بالاتصال بمصطفى لقا، مدير الديوان،
للحصول على التفاصيل بشأن ثمره للمنصورة. والحال أن مصطفى لقا هذا قد ولد نمساوياً وهو
يتحدث بالإيطالية بطلاقة تامة. ومن جهة أخرى، فإنه يكتب إلى مهنو، في الأول من فيروكتوريور
(١٨ أغسطس ١٧٩٨)، ويعبر عن القور همته بسبب مناعه وفضاح مثله على الأسطول، وهو
يفكر في أن يطلب إمانه إلى فرنسا (B6 6).

٨٣ - فوجيور إلى دوجا، ٩ فيروكتوريور من العام السابع (٢٩ أغسطس ١٧٩٨). والقري
الأربع في محلة دهاى وجيناي وجمجمون ونسوق (B6 6). وقد أمر باستجواب شهود عن حالت
للمنصورة. وأرسل إليه دوجا قائد الكتيبة كازال مع وحدة قوية لتعزيمه (Dugua à Bonaparte,
le 28 août 1798, LA JONQUIÈRE, II, pp. 545).

٨٤ - فوجيور إلى دوجا، ١٧ فيروكتوريور من العام السابع (٣ سبتمبر ١٧٩٨)، B6 7.
والقري هي بين وبين وبيلا ويهوت وكفر يهوت والمسيرة وبميرة وكفور.

Vial à Dugua, le 21 fructidor an VI (7 septembre 1798), B6 7. - ٨٥

٨٦ - Murat à Dugua, le 10 fructidor an VI (27 août 1798) من جهة أخرى،
LA JONQUIÈRE, II, مطلقه في مسكه في ١٢ فيروكتوريور على مسكه في مطلقه،
pp. 550 - 551.

Murat à Bonaparte, le 15 fructidor (1^{er} septembre 1798), B6 7. - ٨٧

Murat à Bonaparte, le 18 fructidor VI (4^{er} septembre 1798), LA - ٨٨
JONQUIÈRE, III, 132. وكان موريا يسمى بـ «سواد بيك»
الفرنسية، P. 25.

Fuglère à Dugua, la 13 fructidor an VI (30 août 1798), B6 6. – ٨٩

Dugua à Bonaparte, le 18 fructidor an VI (4 septembre 1798), – ٩٠
LA JONQUIÈRE, III, 130.

Bonaparte à Dugua, le 20 fructidor an VI (6 septembre 1798), – ٩١
Correspondance..., IV, p. 656.

Rapport de Verdier, LA JONQUIÈRE, III, pp. 134 - 136 (autre – ٩٢
l'original, on trouve un texte un peu différent venant de la collection
Napoléon en B6 7). « إن هذه الحملة قد أحدثت لنا (ممتازاً) في البلاد باجتماعها لنا ثمة السكان (٢٠ فيروكتيدور من العام
العالم، ١٦ سبتمبر ١٧٩٨) . B6 8 .

Fuglère à Dugua, le 5^e jour complémentaire de l'an VI (21 – ٩٣
septembre 1798), B6 8.

Bonaparte à Berthier, le 5 vendémiaire an VI. L'ordre du jour du – ٩٤
1^{er} vendémiaire an VII (le premier jour de l'année républicaine, 22
septembre 1798) rapporte le fait d'armes de Verdier.

٩٥ – في ٥ فينديمير (٢٦ سبتمبر)، يرى لاملان القرية وهي تحترق، عند زيارته لدمياط،
لاملان إلى بوتاهارت، ١١ فينديمير (٢ أكتوبر) . B6 9 .

Ensemble de la correspondance militaire dans LA JONQUIÈRE, – ٩٦
III, pp. 170 - 176. Voir aussi le rapport de Crespin sur les opérations de
Murat et Lanusse, le 10 vendémiaire an VII (1^{er} octobre 1798), B6 8.

Au Directoire, le 26 vendémiaire an VII (17 octobre 1798), – ٩٧
Correspondance..., V, p. 91. استضافات القبائل العربية فوراً من الفوضى التي أدى إليها
وصول الفرنسيين، وولغا لكتب *Histoire Scientifique* (IV, p. 55). فإن الهلالي راحوا
ينشرون !

«عاش الشعب الذي طرد مراراً من القاهرة !

«عاش الشعب الذي أتاح لنا رؤية القرى !

«عاش الشعب الذي أتاح لنا أكل الخبز !

[أمينا ترجمة النضيد من الفرنسية لتعود العنود على الأصل العربي – المترجم].

٩٨ – إن أنتريوس، الذي يسأل أحد المشايخ عما إذا كانت قريته قد شهدت الطامون في
تلك السنة، يسمع الرد التالي : « لقد شهدنا الطامون والحرب... » *Histoire Scientifique*, IV, p. 51.

٩٩ - مودا إلى بوناپارت، ٢٥ فيفيمبير من العلم السابع (١٦ أكتوبر ١٧٩٨)، B6 10. إن
الشيخ موسى، الذي يبدو أنه هو الذي ياتر بهذا العهد للولاء للسلطة الفرنسية، سوف يرحل
لتقديمه إلى بوناپارت. فوجبير إلى بوناپارت، ١٧ فيفيمبير من العلم السابع (٢٧ نوفمبر ١٧٩٨) ،
وليس هناك مصري أكثر حزمًا في تحلقه هنا من هذا الرجل (B6 12) .

١٠٠ - وهكذا، فإن الفلاحين في بشبيت هم الذين يقومون في ١١ برومير من العلم السابع
(الاول من نوفمبر ١٧٩٨) بإرشاد الجنود الفرنسيين مباشرة إلى البهوت التي يوجد فيها الهدى ،
فوجبير إلى بوناپارت، ١٢ برومير من العلم السابع (٢ نوفمبر ١٧٩٨)، B6 11 .

Les instructions sont du 16 septembre 1798, LA JONQUIÈRE, - ١٠١
III, pp. 138 - 139.

١٠٢ - انظر تقرير كانال إلى كالماريلي : إنه ياتر خسائر الفرنسيين بخمسة قتلى وخمسة
مشر جريحاً وياتر خسائر العرب بخمسة حاج قتيل، B6 8 .

Extraits du journal de Damas dans LA JONQUIÈRE, III, pp. 139 - ١٠٢
- 152.

١٠٤ - 24 - 22 Nicolas TURC, pp. مجرد تحرير دمياط من جميع التهديدات، لا
يتكرر الكتب بعد اسم حسن طويار.

Histoire Scientifique, IV, p. 7. - ١٠٥

١٠٦ - في رسالته إلى دوجا في يوم المعركة، ياتر فيال بشكل أكثر تواضعاً خسائر العرب
بثلاثمائة قتيل (B6 8) . ويستخدم كتاب *Histoire Scientifique* هذا الرقم، IV, P. 8 .

Le texte est signé de Berthier, B6 8. - ١٠٧

Lettre du 21 septembre 1798, B6 8, texte arabe et traduction - ١٠٨
française.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 154 - 155. - ١٠٩

١١٠ - فيال إلى بوناپارت، ١١ فيفيمبير B6 9. ، في هذه الرسالة، يحدد على تواميل
مهمات الفلاحين على مراكب الاتصال والتي تكبد الجنود الفرنسيين خسائر جسيمة في الأرواح.

Dugua à Bonaparte, le 14 vendémiaire an VII (5 octobre 1798), - ١١١
B 6 9.

Journal de Damas, LA JONQUIÈRE, III, p. 164. - ١١٢

Damas à Dugua, le 21 vendémiaire an VII (12 octobre 1798), B6 - ١١٢
9.

Vial à Bonaparte, le 23 vendémiaire an VII (14 octobre 1798), - ١١٤
B6 9.

Bonaparte à Reynier, le 26 thermidor an VI (13 août 1798), LA - ١١٥
JONQUIÈRE, III, pp. 382 - 383.

١١٦ - لقد جاء الفرنسيون إلى مصر لتخليص الشعب من العبودية والظلمة على استبداد المماليك، إننا لا نريد إلحاق أي أذى بسكان هذا البلد. والحال أن عدداً من بينهم قد لجأوا إلينا، بينما حمل آخرون السلاح ضمتنا. وببوت هؤلاء الآخرين وحدها هي التي قام الفرنسيون بنهبها. إننا نعرف أن عدداً من المشايخ قد هربوا بجهلهم. ومنذما تصل هذه الرسالة إلى علمهم، فإنه يجب عليهم أن يعودوا للعمل على إحياء رفاهية بلدهم... B6 5, B 6 5, proclamation du mois d'août 1798, texte arabe et français.

Reynier à Bonaparte, le 30 thermidor an VI (17 août 1798), B6 - ١١٧
105 (correspondance du général Reynier), publication partielle dans LA
JONQUIÈRE, II, pp. 526 - 527.

١١٨ - رينيه إلى بونابارت، ٢ فريكتيدور من العام للسلم (٢٠ أغسطس ١٧٩٨) من
المماليك،

إن العرب الملاحزين المراكبيين للجهاد من لدى عشرة قرية قريبة من هنا بمسافة أربعة أو خمسة فراسخ قد اجتمعوا وشكلوا قوة من مائة فارس والزموا السكان الآخرين بحمل السلاح دفاعاً عن قراهم. وقد طلبت إبلاغ الشيخ صميحة زعيمهم، بالمجرم والتحدث معي، إلا أنه لم يأت.

Reynier à Bonaparte, le 14 fructidor an VI (31 août 1798), B6 - ١١٩
105.

Reynier à Bonaparte, le 20 fructidor an VI (6 septembre 1798), - ١٢٠
B6 105.

LA JONQUIÈRE, III, p. 182. - ١٢١

LA JONQUIÈRE, III, p. 191. Voir aussi la lettre de Reynier à - ١٢٢
Bonaparte du 7 vendémiaire an VII (28 septembre 1798), B6 105 et B6 8.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 189 - 190. - ١٢٣

Voir par exemple sa lettre du 24 vendémiaire an VII (15 octobre - ١٢٤
1798), B6 105.

١٢٥ - إن لقب الشوردهي، «مقيده للإيليشيا، واسع الانتشار. وهو أعلى رتبة يحوزها غير
المماليك.

١٢٦ - على سبيل المثال، هذا البيان الصادر من رينيه والموجه إلى سكان الشرقية في ١٩
فريكتيدور من العام السادس (٥ سبتمبر ١٧٩٨) والذي يعطى فكرة واضحة عن التنظيم الجديد
ومن علاقاته بمشايخ القرى : «إنكم تصلون في لحظة سوف تضرعون فيها بغوائد طرد للمماليك
وبغوائد الحكم الشعبي الذي يقيمه الفرنسيون في هذا البلد. لقد جرى تنظيم إدارة للإقليم، وأنتم

في بلبيس ديوان مؤلف من هيد الرحمن القندي وبلور والشيخ إبراهيم شحاته والشيخ هيد الرحمن محمدى والشيخ محمد ثروت والشيخ على المالكى وشمس الدين آخريين سوف اختارهما من بين مشايخ قري الإقليم، وهذا الديوان مكلف بالسهر على مصالحكم وتنفيذ القوانين وإعلامى على الشكاوى التى قد يتلقاها عن المضايقات التى تحدث من جانب الموظفين ومأمورى الإدارة وجهاية الخسائر وكذلك إيرادات ممتلكات المالكات التى تنتمى الآن إلى الجمهورية الفرنسية، كما إن مكلف بالإشراف على التوزيع المناسيب لياه الفيضان ومنع هدر التجار فى الموازين والمكاييل وكذلك فى أسعار المواد المختلفة وقيمة النقود، ومنع العرب التى تنود بين قري وأعمال للصومانية وقطع الطرق ومعاينة الأشجار والقري التى تلجأ إلى التمرد. وسوف أزيد [الديوان] بالقوة المسلحة اللازمة لذلك.

إن سرية من الإنكشارية بقيادة أحد الأقوات سوف تكلف بالانصياع للديوان وتنفيذ أوامرى.

وسوف يكلف الأمن المعلم جرجس فيلاتوس بجهة الإيرادات التى كانت تخص المالكات فى السابق وبجهة الخسائر.

وسوف يتواصل مشايخ القري مع هذه السلطات المختلفة ويظفون أوامرها فى النجالات التى تتحمل للمسئولية عنها. وإذا ما رفض البعض ذلك، فإننى أنذرهم بأننى سوف أعاقبهم بقسوة.

عاشت الجمهورية الفرنسية، للهد لله وإنهيه محمد. B6 105 ، مما يلىس له أن الملك لا يضم النص العربى.

١٢٧ - B6 6 ، يحظر الأمر الهوى أيضاً على قادة الإقليم فرض مصاريف دون تصريح من القائد العام.

Ensemble des textes dans *Kléber et Bonaparte...*, I, pp. 238 - 244.

Kléber à Bonaparte, le 21 fructidor an VI (7 septembre 1798), - ١٢٩
Kléber en Égypte..., pp. 300 - 302 et réponse de Bonaparte, *Correspondance...*, IV, pp. 672 - 673.

١٣٠ - تقرير مارمون إلى بونابارت، ١٩ فركتيدور من العلم السادس (٥ سبتمبر ١٧٩٨)
«إن مدينة الإسكندرية، فى الحالة التى تمر بها اليوم تكون من ثم قاهرة على الدفاع، لكنها تحتاج إلى نشاط ومواهب فى الشخص الذى سوف يعهد إليه بالمسئولية عنها. إن هناك حاجة إلى شخصية قوية قاهرة على قيادة سكان القريين وعلى إدارة جمعية كبيرة حيث لا يوجد جنود [بريون] ولا بد أخيراً من منح عزيمة لهؤلاء الجنود البحريين الذين حل لتود الهمة ليهم محل الاختيال».

«لارد إن أضيف أيضاً إن قائد الإسكندرية يجب أن يتولى بالحصانة والبراعة وذلك بسبب العلاقات التى تنشأ يومياً مع العرب ويبدو لى أن ذلك الذى يبدو موهباً للحلول محل الجنرال

كلير لا يملك أيًا من الخصال التي تعتبر ضرورية. إن الإسكندرية إنما تتميز بأهمية جد عظيمة اليوم خاصة وأنها تضم جميع ذخائر الجيش، بحيث إنني أرى أن من واجبي أن أحذرك من الهذال مانسكود؛ لقد اتبعت لي الفرصة لكي أحكم عليه مباحرة في الأيام القليلة التي قضيتها معه وأنا اعترف بأنني قد أصبت بالهلع عندما خطر ببالي أن من المحتمل تكليفه بتولى مسؤوليات هذا المرفق B6 7.

وكان مرمون قد عرف بوثاهرات في طواوين وكان مساعده في إيطاليا، الأمر الذي يفسر مثل هذه الرسالة الإعلامية. وهو من جهة أخرى بالغ الثناء على عمل كلير في الإسكندرية الذي أقدم للجمهورية خدمات لا حد لها.

Kléber et Bonaparte..., I, p. 340. — ١٢١

Lettre à Bonaparte, le 15 fructidor an VI (1^{er} septembre 1798), — ١٢٢
LA JONQUIÈRE, III, p. 108.

Menou au Diwan de Rosette, le 22 fructidor an VI (8 septembre — ١٢٢
1798), B6 7.

Rapport de Menou à Bonapart, le 23^e jour complémentaire (19 — ١٢١
septembre 1798), LA JONQUIÈRE, III, pp. 113 - 116.
المفكرة بتوبيخ من جانب بوناپارت.

Marmont à Menou, le 5 vendémiaire an VII (26 septembre — ١٢٠
1798), LA JONQUIÈRE, III, p. 125 et B6 8.

Ordre du jour du 20 fructidor an VI (6 septembre 1798), B6 7; — ١٢٦
c'est le même ordre du jour qui rend obligatoire la cocarde tricolore.

L'ouvrage essentiel dont je suis ici les analyses est le livre de — ١٢٧
Stanford J. SHAW, *Between Old and New, The Ottoman Empire under Selim III*, Harvard University Press, 1971.

Sur cette question, voir Allan CUNNINGHAM, "The Oczakoc — ١٢٨
Debate", *Middle Eastern Studies*, I, 1965 et A.I. BAGIS, *Britain and the Struggle for the Integrity of the Ottoman Empire, Sir Robert Ainslie's Embassy to Istanbul, 1776 - 1794*, Istanbul, Editions Isis, 1984.

Sur cette question, les ouvrages de référence restent E. de — ١٢٩
MARCÈRE, *Une ambassade à Constantinople, la politique orientale de la révolution française* (surtout consacré à Descorches de Sainte - Croix), Paris, 1927 (2 volumes), A. DRY, *Soldats Ambassadeurs sous le Directoire* (le général Aubert - Dubayet), Paris, 1906, et H. DÉHÉRAN, *La vie de Pierre Ruffin, orientaliste et diplomate*, Paris, 1929.

Voir Frédéric HITZEL, *Le rôle des militaires français à* - ١١٠
Constantinople, Mémoire de maîtrise, Paris IV, 1987 et Avigdor LEVY,
"Military Reform and the Problem of Centralization in the Ottoman Empire
in the Eighteenth Century", *Middle Eastern Studies*, 18, 1982.

Voir l'ouvrage classique de M. HERBETTE, *Une ambassade* - ١١١
turque sous le Directoire, Paris, 1902.

Voir en particulier Bernard LEWIS, "Les répercussions de la" - ١١٢
Révolution française en Turquie", in *Le retour de l'Islam*, Paris, 1985.

١١٣ - هناك بيلغى محل اسم السفير لأن القرار لم يكن قد اتخذ بعد.

١١٤ - LA JONQUIÈRE, II, p. 592 إن حكومة الإنلرة مستعملة لأن تعرض على
الباب العالي تحالفا لاسترداد القرم، أى لخوض حرب مع روسيا.

١١٥ - بين الحرب العظمى ضد فرنسا ، «بمجرد إبلاغ الباب العالي باعتزال فرنسا
مهاجمة مصر، استقدمى السيد بولان [...] على الفور إلى اجتماع وسائل رسمياً من هذا الأمر.
وقد لجأ بلكة ليس لديه أى علم من مشاريع حكومة الإنلرة، وإن كان رايه الخاص هو أنه إذا
خاضت فرنسا بالفعل هذه الحرب، فمن الأرجح أن ذلك لن يكون إلا للفر من البكوات ولإيذاء
تجارة الإنجليز فى الهند. وقد جرى الرد عليه بأنه إذا ما هاجم الفرنسيون مصر بهذه الطريقة أو
استناداً إلى أى نالغ أياً كان، فإن الباب العالي سوف يعتبر هذا التحرك إعلاناً للحرب؛ وأن السلم
والصيانة القائم بين الدولتين منذ زمن طويل سوف يتحولان من التلميحين القانونيين
والسياسية إلى حرب وعداوة وأنه، بما أن الباب العالي لا يمكنه البقاء للقتال من شهر واحد من
أرض ولايته المصرية، فإن الأمة الإسلامية سوف تهب عن بكوة ليها لإنقاذ هذه الأماكن المقدسة؛
وأنه، إذا كان بكوات مصر يستحقون عقاباً ما، فإن إنزاله بهم يجب أن يتم من جانب الباب العالي
الذى يتبعونه، وأن تدخل فرنسا فى هذا الشأن سوف يكون مخالفاً تماماً لحقوق الأمم؛ وأن بلاط
إنجلترا، لكونه الصديق جد الصميم للباب العالي، لن يكون بوسعها البقاء السكوت على مرور
الجيوش الفرنسية عبر ولاياته لإيذاء تجارة الإنجليز، وأنه، بناءً على ذلك، حتى وإن لم يكن لإنزال
الفرنسيين فى مصر من هدف آخر غير هذا المشروع، فإنه سوف يتيح للجال لإعلان حرب؛ وأن
عليه أن يترك ذلك تماماً وأن يصارع إلى إبلاغ حكومة الإنلرة به» (HERBETTE, *OP. CIT.*, pp. 319 - 320).

١١٦ - SHQW, *Between Old...*, pp. 255 - 256. L'envoyé ottoman doit
être celui signalé par Kléber (*Kléber et Bonaparte*, I, p. 249) et par JABARTI
(*Mudda*), pp. 48 - 49.

١١٧ - سبتمبر سميت (القائم بالأعمال الإنجليزى) إلى لندن، ١٠ يوليو ١٧٩٨ ، وبما أن
الصمت الغريب نفسه يجرى التمسك به باستمرار فيما يتعلق بحصار فيدين، فإن القلق العام فى

اللحظة الحاضرة موزع أساساً بين ذلك وتلقم حملة طولون؛ والتي لا تعرف عنها بأي شكل مؤكد
ظهر نجاحها الأول في ملطية الذي وصلتنا أخباره عن طريق أزمير. - Public Record Office, FO 78 19.

١٤٨ - سبنسر سميث، ٢٥ يوليو ١٧٩٨. تقرير مخبر يوقع بالحرف م ويكتب
بالفرنسية، عن ملولات الديوان العثماني: «قبل يومين، كان الأتراك يريدون القضاء على
الجمهوريين وكان هؤلاء يريدون الهروب» (العودة إلى السكينة بفضل الشرطة وانخفاض أسعار
المواد الغذائية) «الأسباب التي ساقها أحد أعضاء الديوان الرئيسيين لبيان أن الباب العالي لا يجب أن
يعزل العرب على الفرنسيين إن لم ينهبوا إلى سوريا إلا للتشظى من البكوات الذين أمانوهم وإن
لم يكونوا يريدون غير اللورد بمصر للذهاب إلى الهند». FO 78 19. من الممكن أن يكون م هو
مراسله دوسون، التوجمان الأرمني لسفارة السويد، صاحب الكتاب الشهير *Tableau général*
de l'Empire Ottoman (Paris, 1788 - 1824) ومستشار سليم الثالث ونصير
فرنسا. (SHAW, p. 429, note 35).

١٤٩ - يخترع ناپوليون قصة ضابط من ضباط الصراى، قريب من سليم الثالث، جاء إلى
مصر عبر طرابلس الغرب بفضل قافلة الحج، «رأى القائد العلم؛ وأطلعته على المواقف الحقيقية
للباب العالي. وطلب - وهو ما أجبته إليه في الحال - أن يتم التأكيد له على جميع حقوق الملكية في
مدينة مكة؛ وأن يجرى تعيين أحد العثمانيين في منصب الأمير - أفا وأن يتم تجهيد قوة من جنود
مسلمين لحراسة قافلة مكة؛ وأخيراً أن يقدم له القائد إيضاحات حول مشاريعه، مؤكداً له أن الباب
العالي ملزم على عدم عمل شيء دون ترو وعلى عدم السماح لنفسه بأن تتغلب عليه أية عاطفة.
وقد أقم هذا الضابط أكثر من أربعين يوماً في مقر القيادة العامة. وقد حدث أنه ارتاح إلى ما قاله له
للشايخ عن مواقف السلطان الكبير [بونابارت] والفرنسيين؛ ودخل عن طريق البحر الأحمر،
بحجة الذهاب إلى مكة، ووصل إلى القسطنطينية خلال شهر ديسمبر - (XXIX, PP. 565 - 566)
وهذا الأمر لا يتطابق مع التسلسل الزمني للأحداث (إن الفرنسيين يصلون لحظة صودة
الحجاج) ولا تؤكد حدوثه أية شهادة أخرى. إن الرسول العثماني الوحيد هو ذلك الذي وصل بعد
قوات الأمان إلى الإسكندرية للتحذير من هجوم الفرنسيين (انظر أعلاه). وهذا المثال مميز لأقوال
ناپوليون في سانت - هيلين حول الحملة، والتي غالباً ما تتطابق مع رغبات ناپوليون بأكثر مما
تتطابق مع الواقع.

Spencer Smith, le 3 août 1798, FO 78 19.

- ١٥٠

١٥١ - على سهيل المثال، تلك اللقطات من فرمان الباب العالي إلى سلطات روميليا: «إذني
أصدر الأمر إليكم بأن تقوموا بإلقاء القبض على وحس جميع الفرنسيين الحقيقيين ومحسبهم
- مع تخصيص أماكن مناسبة لهم بحسب الحاجة - المتواجدين في مدن وقرى ولاياتكم
وبواضركم، والذين صنوت إليكم الأوامر باحتجازهم، وذلك في مقابل الرعايا والتجار العثمانيين
المتواجدين في مصر في مقابل سكان مصر، وكذلك ممتلكات وسفن [الفرنسيين]؛ وبأن تقوموا
بجرد وضع الأختام على متاجرهم دون السماح بضياع أي شيء منها، وبإيداع كل شيء في مكان
أمن وحراسته وإرسال سجل له على وجه السرعة إلى القسطنطينية؛ وبعدم السماح لأحد
بزيارتهم وعدم السماح لهم بالاتصال سراً أو علناً أو بالتواصل مع أي كان، وبالسهر بحرص

Joseph KABRDA, "Quelques firmans concernant . خامس على حراستهم ليل نهاره . les relations franco - turques lors de l'expédition de Bonaparte en Égypte (1798 - 1799). *Cahiers de la Société Asiatique*, T.X, 1947, pp. 72 - 73. وزير العلاقات الخارجية عند الفرنسيين للوجودين في ثغور الشرق بـ ١٨٤٢ (LA JONQUIÈRE, II, p. 237).

Sur la réaction de l'Eglise Orthodoxe et sa condamnation de la - ١٥٢ Révolution Française, voir Richard CLOGG, "The Dihdhaskalia Patriki (1798) : an Orthodox Reaction to French Revolutionary Propaganda", *Middle Eastern Studies*, V, 1965.

Ruffin à Talleyrand, le 23 thermidor (10 août), LA - ١٥٢ JONQUIÈRE, II, p. 601.

١٥٤ - كان يوسع حكومة الإنارة إلزام تاليران بالذهاب إلى القسطنطينية، حيث إن وزير الشؤون الخارجية ليس شهر موظف وليس سياسياً في نظام يصدر العام الثالث. وإذا كانت حكومة الإنارة لم تفعل ذلك، فمن المرجح أن ذلك يرجع إلى أنها رأت أن وجود تاليران في باريس أكثر فائدة، في لحظة عرفت فيها فرنسا أزمة سياسية خطيرة مع الولايات المتحدة. وكان تاليران يعرف الأمريكيين بشكل أفضل من معرفته للعثمانيين. ومن جهة أخرى، فإن بيكودش كان المتخصص في الشؤون العثمانية الذي كانت هناك حاجة إليه. Voir Carl Ludwig LOKKE, "Pourquoi Talleyrand ne fut pas envoyé à Constantinople", *Annales Historiques de la Révolution Française*, X (1933), pp. 153 - 158.

HERBETTE, op. cit., pp. 322 - 323.

- ١٥٤

١٥٦ - من الناحية النظرية، يعتبر الفرمان أمراً رسمياً يحمل شعار (طغراء) السلطان، خلافاً للبريولارودو (القد لقرى)، القرار الصادر عن الوزراء وعن موظفين من درجة أدنى. ومن الناحية العملية، جرت العادة على أن تسمى بالفرمانات أيضاً الأوامر الصادرة عن أهم الوزراء، بمن في ذلك والي مصر. (SHAW, *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution*, p. 115).

١٥٧ - انظر FO 78 22، موزع لجنة أوامر صابرة من الباب العالي وموجهة إلى الباشيات مهر - مهران والسلطات الأخرى المكلفة بالعمل على إنقاذ مصر وحراسة الجزر والسواحل والأماكن الأخرى التي تحتاج إلى حماية والاضطلاع بالاستخبارات المقررة قرب الباشيا وإحصاء اللياليهيات المخصصة لهذا الهدف وفق العدد المقرر تهنيده حصراً من جانب الزعماء والتمباريين والعسكريين الآخرين في مختلف ولايات الإمبراطورية الذين تلقوا أمراً بالزحف.

Lettre de Samuel Hood commandant la flotte anglaise devant - ١٥٨ Alexandrie le 16 septembre 1798 FO 78 20.

INGRAM, *Commitment to empire...*, pp. 69 - 78.

- ١٥٨

SHAW, *Between Old...*, pp. 263 - 266 ; Boris MOURAVIEFF, - ١٦٠
L'alliance russo - turque au milieu des guerres napoléoniennes, Neuchatel,
 1954; p. PISANI, "L'expédition russo - turque aux Iles Ioniennes", *Revue*
d'Histoire Diplomatique, II, 1888, pp. 190 - 222.

CHARLES - ROUX, *L'Angleterre et l'expédition française en - ١٦١*
Égypte, I, I, p. 27, Le Caire, 1925.

Ibid, pp. 65 - 68.

- ١٦٢

Copies of original letters from the Army of General Bonaparte - ١٦٣
in Egypt, intercepted by the fleet under the command of Admiral Nelson,
Londres, 1798 - 1799, 2 volumes et plusieurs éditions, édition française à
Hambourg en 1799 et à Paris (avec des observations de E. Th. Simon), en
 VII

LA JONQUIÈRE, III, pp. 246 - 252.

- ١٦٤

Albert SOREL, *L'Europe et la Révolution française*, V, - ١٦٥
Bonaparte et le Directoire, pp. 345 - 349.

Texte intégral de la lettre du Directoire à Bonaparte dans La - ١٦٦
 Jonquière, III, pp. 261 - 268.

B6 5. Ce texte a été publié par la première fois par Martin en - ١٦٧
 1815 (I, pp. 243 - 251) et par *l'Histoire Scientifique* (IV, pp. 142 - 153).
 Bernard Lewis en a traduit des extraits (*La Révolution Française...*, pp. 93 -
 94) à partir d'une biographie arabe de Jazzar Pacha conservée au British
 Museum, Karal en a donné le texte turc (*Fransa Misir...*) p. 108 et suivante.
 Plus récemment, une version arabe a été publiée. Sayyid Mustafa Salim
Nusus yamannyya an al hamla al firansiyya ala Misr (textes yéménites sur
 la campagne française d'Égypte), Le Caire, 1975. Michel TUCHSCHERER
 a traduit l'ensemble de ces textes yéménites dans son mémoire de D.E.A. à
 l'Université d'Aix - en - Provence en septembre 1982, *Présentation et*
traduction commentée de textes du chroniqueur yéménite Lutf Allah Jihaf,
relatifs à l'expédition de Bonaparte en Égypte. Je suis ici deux versions qui
 se complètent, l'une venant des archives françaises et l'autre étant celle de
 Martin.

Texte de B6 5.

- ١٦٨

Texte de Martin dans les deux dernières citations.

- ١٦٩

الفصل الخامس

توطيط الوجود الفرنسي

التمردات والتشدد

ثقة الفرنسيين

من الواضح تماماً أن الفرنسيين على علم بوجود رسائل وخطابات مرسلة من جانب العثمانيين، لكنهم، من الناحية الرسمية، يكتفون بتكذيب محتوياتها، لإعلان الحرب من جانب العثمانيين ليس غير فرية اخترعها للمالك لأجل خداع الشعب المصري (١). على أنهم إذا ما نجحوا في إلقاء القبض على حملة الرسائل، فإنهم ينزلون بهم عقوبة - عبرة، هي الإعدام (٢). ويجرى اتخاذاً لتدابير تصب في إضفاء كمنع التحدث في الشؤون السياسية، وطرد غير المصريين، خاصة للخارجية (وهو إجراء سرعان ما يجري التخلي عنه بسبب استحالة تطبيقه، فمصر لم يعد لها اتصال بالعالم الخارجى)، وإرغام سكان القاهرة على تعليق للمصابيح ليلاً في الشوارع على حسابهم (٣).

لكن هذه هي تدابير التحسب الوحيدة التي يجري اتخاذاها. فمن الواضح أن بوناپارت يثق في رسوخ سيطرته على مصر وفي كفاءة دعايته. واجتماع وفود الأعيان القادمين من كل أرجاء مصر المصطفى هو في نظره برهان هذا النجاح. وقد قرر عقد الديوان العمومي الذي سيشارك فيه مفوضان فرنسيان هما مونج وبيرتولليه (٤). وهو يعرض على هذين الأخيرين مقاصده :

«إن الهدف من عقد الديوان العمومي [...] هو التسمي إلى تعويد أعيان مصر على انكار الاجتماع (النيابي) والحكم. وعليكما أن تبيننا لهم أننا قد دعوتهم إلى الاجتماع لأخذ مشورتهم ولتعرف ما يجب عمله من أجل سعادة الشعب، وما سوف يقومون به هم أنفسهم إذا ما ذالوا الحق الذي منحنا إياه اللتح».

وسوف يتوجب مناقشة شئون تنظيم الدواوين الإلهمية، والفضاء المدني والجنائي والميراث وحقوق الملكية، وجاهلية الضرائب؛ وسوف يتعين عليهما إطلاعهم على أننا نرغب في عمل كل ما من شأنه الإسهام في سعادة البلد، الذي يتعرض لإرهاق وكدر من جراء نظام سيء للضرائب أكثر سوءاً من دفعها بالفعل^(٥).

اجتماع الطيوان

يعقد الديوان اجتماعه الأول في أحد بيوت حي الأزيكية في ٧ أكتوبر ١٧٩٨. ويعرض المفوضان، أمام القنابل، خطاباً يدعو للجبرتي كلاماً جد مزخرف وجد حائل بالتحريفات كالعامة^(٦)، أي مرأة باختصار، ولابد من الإشارة إلى أن جمهوراً عربياً بهذه الأهمية إنما يستمع، للمرة الأولى على الأرجح، لموجز قصير للفلسفة التاريخ التي صاغها مصر التنوير؛ إن قطر مصر هو مهد الفنون والمعلوم والقرابة والكتابة؛ وقد ملكته إمبراطوريات عظمى؛ أهل بابل واليونانيون والعرب والترك. وهؤلاء الأخيرون هم الأسوأ بين جميع الفاتحين، فقد خربوا البلد خراباً تاماً. وقد جاء الفرنسيون لتحريره، وهم ينتظرون من المجلس نصائحه حول التنوير الواجب اتخاها من أجل ازدهار البلد.

والخطاب قليل الوضوح بالنسبة للمستمعين، فصرهم هم الذين واثقهم فلاحون بليدو الحسن وجهلاء^(٧). وبالنسبة للجبرتي، فإن القسراً الأكثر إثارة للاستغراب في هذا الكلام هو الحديث عن جهل وغباء الحكومة التركية وعن حصن ملوك الجيش الفرنسي^(٨).

وعندئذ يقترح المفوض الفرنسي اختيار رئيس للاجتماع ولجانا شئون الديوان. ويعرض أحد الأعضاء على الفور اسم الشيخ الشرقاوي. لكن الفرنسيين يوضحون أنه يلزم إجراء اقتراح مكتوب. ويتبع للشاركون هذا الأسلوب الغريب والمعقد في الاختيار، وبطبيعة الحال، فإن الشرقاوي هو الذي يتم انتخابه.

والحال أن الشرقاوي، المنحدر من أسرة متواضعة بإحدى قرى الشرقية، والمولود في عام ١١٥٠ للهجرة (١٧٣٧)، قد حلق صموئلاً وظيفياً رائعاً بفضل الأزهر الذي التحق به في البداية كتلميذ. وعندما أصبح استاذاً، فإنه يكتب تعليقات عديدة على أعمال لها قدسيتهما ويصبح زعيماً صوفياً كبيراً. الأمر الذي يعود عليه بهبات ملحوظة تضع نهاية

للبرؤس الذى عاش فيه حتى تلك الحين. وهو يصل إلى مودة شيخ (عميد) الأزهر السلمية، بفضل سائس معلقة، وذلك بالرغم من منافسة الشيخ النصارى. ولما كان محدث نعمة على المستوى الاجتماعى، فإنه يحيط نفسه بأبهة تجعله مثيراً للفضيحة، إن ضخامة عمامته تصبح مضروب الأمثال. على أنه يعرف كيف يتصدى للمماليك، باسم الدفاع عن الفلاحين، وخاصة لللتزمين الذين ينتمى هو نفسه إليهم. وهو يستفيد من الوظائف التى يمنحه إياها الفرنسيون لكى يزيد ثروته عبر الحصول على ألعاب من أسر العسكر للتوسط لدى السلطات وعبر الاستيلاء فى هذه الفترة المضطربة على ممتلكات النازحين أو الأموات للهجرة^(٩). وهو لا يتريد فى إبلاغ القائد العام بوجود وصل من طرف أحمد باشا لجزائر مكلفين بالدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين^(١٠).

ولى عام ١٨٠٩، لحظة هوية العثمانيين، سوف يبرر تحولونه مع الفرنسيين بهذه الكلمات: «وحقيقة حال الفرنسية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طباعية يقال لهم نصارى قاتوليكية [كاثوليك]، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين ويقولون إن الله واحد لكن بطريق التعليل ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرون يدبرون الأحكام يضعونها عقولهم ويسمونهم شرائع ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار قواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر فإنهم جعلوا فى جملة ديوانها جماعة من المشايخ وصابوا برأىهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع والسبب الذى أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال وأنهم عند قدومهم كتبوا كتباً وقرأوها فى البلاد ونكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون إن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث وإنهم يعظمون محمداً ويحترمون القرآن وإنهم يحبون العثمانيين ولم يأتوا إلا لطرد المماليك الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا فى شيء»^(١١).

وهذه الشهادة شهر البريئة من الحرص على المصلحة الشخصية ولقى تجد تكملة لها فى وصف اللطائف لقتى لقرنها الفرنسيون، إنما تشير، حتى فى المبهريات التى تسوقها إلى النجاح الأول لنعابة بوناپارت. ومن الواضح أن الحجة للرئيسية - علوة على الخيانت

الخطيئة من جانب المالك للعاجزين عن حماية الأمة المسلمة - إنما تتمثل في الشعور بأن العمل الذي أقدم عليه الفرنسيون قد تم بموافقة الباب العالي. ويوسع المرء التعاون مع الفرنسيين لتخفيف الأضرار التي تلحق بالمسكان والاستفادة من ذلك في تنمية مصالحه الشخصية أو مصالح جماعته الاجتماعية. ولم يك كبار العلماء مستأثين بالمرة من تصددهم للمسرح السياسي؛ إن تصفية شركائهم للمالك إنما تبرز هذا الدور الذي كان صعودهم الاجتماعي والسياسي في العقود السابقة قد سمح بتوقعه.

وفي اليوم التالي، يفتح الاقتراح جديد يتكون ديوان خاص مؤلف من ٢٨ عضواً، ثم من ١٤ عضواً مكلفين بالإعداد لمناقشات للديوان العمومي. وعلاوة على الشرقاوي، فإن أربعة علماء آخرين يلعبون فيه دوراً مهماً: البكري، الحساوي، الفيومي، للهدى (١٢).

أما الشيخ البكري فهو متعاون بحكم المصلحة. والحال أن عائلته المنحدرة من كافة أسلاف الإسلام الكبار، أبو بكر، الخليفة الأول، علي، وفاطمة، ابنة النبي، وعمر، الخليفة الثاني، قد أصبحت بعد ثقتها أخوية (طريقة) صوفية قوية، هي البكرية. ومنذ عام ١٧٨١، أصبح زعيم الطريقة نقيباً للإشراف أيضاً. وقد تميز خليل البكري في شبابه بسوء سلوكه؛ ولذا جرى إيثار ابن عم له لتولي قيادة البكرية وعمر مكرم كنقيب للإشراف. وهو لا يصعد إلى قيادة الطريقة إلا بعد موت ابن عمه. ثم يستند إلى دعم الفرنسيين لكي يحصل في أن واحد على منصب النقيب والدخول للمهمة للترتبة على ذلك. وهو يصبح شخصية مهمة ومؤثرة، لكنه يصبح أيضاً رمزاً لتعاون جد مفرط، الأمر الذي سوف يكلفه غالياً عندما ينقلب اتجاه الرياح (١٣).

وأما الشيخ مصطفى الحساوي، فهو أساساً مثقف نكي وأستاذ كبير. وقد كان ضحية في الأزهر لناديات الشرقاوي، ويبدو أنه يلعب دوراً جد باهت في مختلف نوازين الفرنسيين (١٤). أما الفيومي، فهو بوجه خاص وصيطن أصيل، وعلى الرغم من كونه أزهرياً، فإن مؤامراته الجامعية محدودة، وقد اكتسب أهمية ما بانشغاله بطنون الأمراء. وخلال الحملة العثمانية، تولى حماية نسلهم اللاتي بقين في القاهرة. وهو يستأنف هذه المهمة عند وصول الفرنسيين. ولا يتردد في دعوة الفرنسيين مراراً إلى تناول العشاء في بيته ويلهمهم ثلة مبررة. وهذا الرجل الغزير الكريمة والمحبوب من الجميع لا يترك عند موته غير ديون (١٥).

والمؤكد هو أن الشيخ للهدى هو الشخصية الأكثر إثارة للاهتمام بين الجميع، فهذا

الرجل القبطى الأصل يهجر عائلته وديارته فى الثانية عشرة من عمره لى يتحول إلى اعتناق الإسلام ويصبح تلميذاً ومجاهداً لأحد أساتذة الأزهر الكبار، وسرعان ما يبرز بوصفه واحداً من ألكى شيوخ الجامع وأكثرهم بلاغة. ولما كان على جانب كبير من جمال الجسم، فإنه يترك انطباعاً جدياً قوى فى نفوس معاصريه. وهو يحيا حياة شخصية زائدة تماماً مع مضاعفته للأعمال التى تعود عليه بثروة ملحوظة. وسرعان ما يتصل بالفرنسيين ويصبح الشخصية الأوسع نفوذاً فى الدواوين الدعائية. وأجبرتى بحبيبه على تمكنه من تهتة الفرنسيين بأقواله الملتزمة متدماً لفظت الأمور تسير سيراً سيئاً بين الفرنسيين والمصريين. وهو يتمكن من كسب إعجاب بونابارت الذى يتحدث عنه ممتدحاً له فى مناسبات عديدة، وينجح فى تمسين أسلوب البهائيات الفرنسية. وهو يصبح صديقاً للمستشرق ج. - ج. مارسيل الذى سوف ينشر حكايات عربية برده نسبها إليه (١٦).



القراءات

هؤلاء العلماء الكبار كلهم ملتزمون. ومن ثم فإنهم ليست لهم مصلحة فى تغيير نظام الضرائب فى مصر. ^{والمحال أن يكونوا بالثقة من عهد جبرائيل إلى النقاشات الأساسية لهذا الديوان العمومى.} أما مهايخ البلاد، فهم يبنون أنصاراً لإلغاء الالتزام الذى سوف يكونون من بين المستفيدين منه. ومن ثم فإن هناك صراعاً عنيفاً حول هذه المسألة (١٧). أما المسائل الأخرى فهى لا تثير جدلاً كبيراً.

ويتم تثبيت تنظيم الدواوين المحلية مع الوجود الدائم لديوان عمومى لمصر كلها سوف ينبثق أعضائه من هذه الجمعيات. ويتعين إبقاء القواعد الخاصة بالمواريث على حالتها لأنها معتمدة من القرآن. وينطبق الشيء نفسه على تنظيم القضاء، وينتصر للملتزمون إذ يجرى الإبقاء على النظام مع الاكتفاء بإلغاء الأعباء الإضافية التى أروضها للملك فى العقود السابقة، وإذا وجد القائد العام أن من المناسب العمل على تنظيم الأقاليم لحساب الجمهورية، والوفاء باحتياجات صندوق الخزنة العامة [...]، فإن عليه الأمر بجباية الضرائب وفقاً للأعراف القديمة، مع إلغاء للظالم التى فرضت بشكل متتابع فى ظل حكم للملك الاستبدادى. والرعايا يتوسلون إليه أن يسمح بتخفيف أعبائهم لما فيه خير وأزدهار الحكم، لأن للظالم للتراكمه هى التى خربت القرى ومحت ثروة الرعايا البؤساء وتصببت فى دمار الأقبية وفى شقاء للزارعين الذى لا حد له.

ويعتزل الحل الوسط في القضاء على الأتواة البدوية، «عندما يغير العرب وقطاع الطرق الرئيسية على الطرق في جزء من الإقليم، سوف يتولى المساعد المسلم إبلاغ ذلك فوراً إلى القائد وإلى مستشار الحكومة، اللذين سوف يرسلان القوات الضرورية لوقف المفوضى، وإذا ما تعين ذلك، فإن القائد نفسه سوف يخرج على رأس الجيش لمعاقبة الأشرار بحسب جرائمهم؛ الأمر الذي سوف يعود بالازدهار على البلاد؛ وبالسكينة على السكان ويكفل سهولة جباية الضرائب».

ولابد من مطالبة الهندو بالخضوع للسلطات عبر تقديم رهائن. أما أولئك الذين سوف يرفضون ذلك فسوف يجرى اعتقالهم متمردين؛ «إن القائد ومستشار الحكومة سوف يتخذان تدابير لنفهم إلى التكفير عن تفردهم، مع استخدام جميع الوسائل التي تجهيزها الأعراف القديمة». وتبقى المسألة الملحة الخاصة بتسجيل الملكيات. ويرى الديوان أن ذلك مستحيل في الوقت الحالي؛ «لأبد من مراعاة أن استعراض الحجج والاطلاع عليها يتطلبان الكثير من الجهد والوقت من جانب المنوبين ويصعبان متاعب للملاك؛ لأنه لمراجعة جميع حجج القاهرة، لن تكفى عدة سنوات إلا بصعوبة».

ويقترح الديوان حلاً مؤقتاً، «ومن ثم فإن الديوان العمومي يرى أنه إذا كان من الضروري تدبير أموال لنفع وياتب الجيش، فسوف يكون من الأنسب إلى أبعد حد فرض ضريبة ثابتة، تتناسب مع أهمية الملكيات والمواقع الذي توجد فيه. وهذه الملكيات في مدينة القاهرة تتكلف من الوكالات والحمامات والبور والمساكن والمعاصر والسرجات والمطاحن والملكيات للسورة والمكاكين والقهاوى [...] وهذه الملكيات لن تدفع غير نصف هذه الضريبة في الإسكندرية ووشيد وبمياط؛ لكن مدن وقرى مصر الأخرى لن يجرى إخضاعها لها نظراً لأنها تدفع ضرائب أرض أعلى بالفعل من قدراتها» (١٨).

ويصارح بوناپارت إلى تطبيق التدابير التي يوصى بها الديوان. ويصدر الأمر في ٢٥ فيفري من العام السابع (١٦ أكتوبر ١٧٩٨)؛ «لا يجرى الأمر بإجراء تعداد لقرى لدور القاهرة من جانب الهندوسيين للمعاريين ويتعين على الجبله الأكلباط البدء بجباية الضريبة الجديدة» (١٩). وبعد يومين، يتوجه بالشكر إلى الديوان من خلال المفوضين الفرنسيين ويطلب إليهما أن «يرجعه خطاباً إلى سكان البلد، لإشعارهم بمدى أهمية الأ حقوق إلى الأقاليم القائمة والمفرضة التي يردج لها امدانهم حول وصول للمالك، إن ذلك ليس من هلكه غير إزعاج الفرنسيين والتسبب في خراب قراهم. لليجر نصيحهم بعدم الإصغاء لهذه

المشائعات الفائرة والتي لا أساس لها؛ وليهدوا الطائفة ويحيوا في انسجام حسن مع الفرنسيين وليوحدوا جهودهم مع جهودهم من أجل القضاء على العرب قطاع الطرق ومنعهم من تخريب الأرياف ومضايقة الفلاحين للتعملاء؛ ولا يمكن تمضى هذه النتيجة للسعي إلا عبر الانسجام الحسن مع الفرنسيين (٢٠).

اتزهاج سكان القاهرة

هذا الانسجام الحسن لا يدوم طويلا. وخلال انعقاد المهرجان العمومي، يتزايد الاتزهاج في القاهرة. فالتدابير المتخذة ضد الطامعون، خاصة الإلزام بتبوية جميع الأمثلة والملابس، والمصحوبة بزيارات منزلية للتحقق من تطيبتها، وتصرفات الفرنسيين الغربية كظهور أعلام بهضاء على القلعة، ثم هذه التفتيشات التي يقوم بها الهندسون المعماريون (٢١) إنما تذكك خصوصية الأسرة والتي تعد عنصراً رئيسياً من عناصر الحياة الإسلامية. وبالنسبة للمسلمين، فإن كل هذه العلامات تذكر بالمذبحة الشاملة التي تدبأت بها الدعاية العثمانية.

وكان قد جرى نشر هذه الدعاية في مساجد العاصمة من جانب المعممين، علماء المرتبة الأدنى. والواقع أن الفرنسيين عاجزون عن فهم ما يقال في خطب الجمعة أو في التداوات الداعية إلى الصلاة. وشيئا فشيئا، كان كبار العلماء قد لقوا مرجعيتهم. ومسألة فرض ضرائب على نور القاهرة توضح ذلك جيدا؛ فبالنسبة لهم، كان ذلك تخفيفا ملحوظا بالقياس إلى الضريبة الأولى، وهو تخفيف تم الوصول إليه بفضل روحهم للتصالح؛ أما بالنسبة للمعممين، فإن هذه الضريبة ليست غير حزينة لفرى، وهي الضريبة القاصرة من الناحية الخطرية على غير المسلمين. وجميع الاستعدادات التي اتخذها الفرنسيون لكفالة أمنهم، كنزع سلاح السكان، إنما يجرى النظر إليها من جانبهم على أنها إنزال للمسلمين إلى وضعية الذميين، المعممين غير المسلمين، الأشخاص الذي يتميزون بمكانة أدنية واجتماعية أدنى. والسخط عظيم بقدر ما أن المسيحيين واليهود قد استغلوا من تعاونهم مع الفرنسيين لأخذ نوع من الثأر الاجتماعي ولإدلال المسلمين بدورهم، وقد حاول المستولون الفرنسيون تجنب هذا المسار للمسيء إلى سلطتهم. ولكن شكايات المسلمين لا تصلهم في أغلب الأحيان لأن الترجمات تختارون أساساً من بين هؤلاء الذميين

السابقين^(٢٢). ومن ثم فإن للعممين «يدعون السكان إلى الجهاد ضد الكفار» ويمكن للفتنة القاهرة الأولى أن تبدأ (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) (٢٣).

الفتنة

إن مصطلح «الفتنة» والذي يعنى فى الأصل «تجربة» ومن ثم «امتحان - محنة» إيمان شخص ما، قد أشار فى البداية، فى التاريخ الإسلامى، إلى القلاقل الأهلية للجماعة، خاصة تلك التى قامت إلى ميلاد المذهب الشيعى. ومنذ ذلك الحين، فإنه يكتسب معنى «تصدع» نظام الجماعة. وعلى الرغم من أنه يفقد نسبياً مفهومه الدينى ليعنى مجرد «التمرد»، فإنه مفهوم بالغ السلبية فى حد ذاته. وسوف يستخدم فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر للإشارة إلى الثورة الفرنسية (الفتنة الفرنسية)^(٢٤). أما إن الجبروتى يستخدمه فإن ذلك إما له دلالة، فذلك بشكل جزئياً من شجبه للفتنة الأولى التى جرى الانخراط فيها بون مراعاة لنسبة القوة العسكرية.

ويستحضر كاتب الأخبار للمصرى بشكل محدد جماعتين اجتماعيتين فى هذه الفتنة. فمن جهة، نجد «العممين»، علماء للرتبة الأدنى وطلاب الأزهر، ومن جهة أخرى، نجد سكان الأحياء الشعبية ومقاربة القاهرة، الذين يشكلون فى نظره «رعاءاً إساقلاً» حقيقيين، إلا ما استمعنا عبارة شهيرة لسياسى فرنسى من القرن التاسع عشر. ويؤكد الكتاب الفرنسيون هذا التحليل^(٢٥). ويقول الجبروتى صراحة أنه لا يوجد زعيم حقيقى لقيادة التمرد^(٢٦). وتحدث المصادر الفرنسية عن مجلس من ثلاثين شخصاً وتمطى لعدد الأول لهنرى طائفة عريان الأزهر، سليمان الجوصلى^(٢٧).

وهذا الرجل يصوره الجبروتى بأنه شخص متسلط وطموح، حوّل طريقته إلى تنظيم حقيقى لاقتصاب الأموال. ولما كان يحب الترف والحياة الفسادة البهيجة، فإن تورطه فى الزامرة سوف يكون نتاج إفراط فى الطموح^(٢٨). أما الزعيم الآخر فهو أحد الأشراف، للعهد بدر المقدسى، الذى لا تتوافر عنه غير معلومات قليلة^(٢٩). وعلاوة عليهما، كان هناك علماء شبان يتحدث منهم الجبروتى بتعاطف.

وتظهر الحركة فى البداية كفتنة كلاسيكية من فتن الاحتجاج على المظالم، كما فى زمن الأمراء، ولكن مع الفارق المهم الذى يتمثل، هذه المرة، فى عدم وجود علماء للتوسط،

على العكس، إن التحرك يتم ضد رأى كبار المشايخ الذين يفضلون الحذر والترقب. ومن ثم تروى النكاكين أبوابها وتفتح للمظاهرة إلى مقر القاضى العمى السطة العليا فى الهراركة القضاة العثمانية، وذلك لطلبه بالتوصل إلى إلغاء رسوم التسجيل. ويضطلع هذا الأخير بمهمة دفع الجمهور إلى التعلق. ليجرى الاعتداء عليه ونهب داره (٢٠). وتشكل مظاهرات أخرى انطلاقاً من جامعى الحسين والأزهر الكبريين. وعندئذ فإن قائد المولى، الجنرال بيبوى، إذ يجرى إخماده بهذه المظاهرات، يسعى إلى إلغاء القاضى حتى يتمكن من تهدئة الجمهور. وولاً للجبروتى، فإنه لو كان قد نجح فى الوصول إلى القاضى، لكان من الأرجح عندئذ أن تنتهى المسألة (٢١)، لكنه يصاب فى الطريق جماعة من الثائرين الذين يهاجمونه وحراسه، ويتم قتله، كما يتم قتل عدد من رفاقه ويسحب الناجون جثته.

والحال أن إعلان مصرع جنرال فرنسى، يحسبه هديون بوناپارت، هو الذى يؤدى إلى تعميق الانتفاضة. ويتم ذلك نحو الساعة العاشرة من صباح ٢١ أكتوبر ١٧٩٨. وفى كل مكان تقريباً من المدينة، يجرى الهجوم على دور الأروبيين والمسيحيين، باستثناء الأماكن التى كان ما يزال يوسع للرجعية الأنبية لكبار المشايخ أن تلعب دورها فيها [الأنكية (الشيخ البكرى)، هابين وقيسون (الشيخ الفيومى)، قناطر السبع (أمير الحج)] وساحلى بولاق والقسطاط للماورتين. كما أن وجود جنود فرنسيين بأعداد مهمة فى تلك الأماكن يلعب دوراً هاماً. وفى المقابل، فإننا إذا ما صدقنا ما يذهب إليه كتاب التاريخ العلمى، فإن الثوار يحتجزون الشيخ الصانات، ويحلقون شعره على نحو مهين، ويلبسونه بزة جندى [فرنسى] قتل ويبيعونه فى السوق بثلاثة عشر قرشاً (٢٢). ولابد من الإشارة إلى أن جيران الفرنسيين يفعلون كل ما فى وسعهم لإيقاعهم من هجمات السكان، مخاطرين بأرواحهم هم أنفسهم فى أغلب الحالات (٢٣). أما بيت كاناريلى، حيث توجد الأبرار العلمية للجنة، فهو يتعرض للهجوم من جانب الثوار الذين يسمرون بشكل منهجى كل الأشياء الفرنسية. وتكثر أعمال النهب، على حساب المسيحيين كما على حساب المسلمين.

القمع

كان بوناپارت قد هاجر القاهرة لزيارة الروضة، فى الساعات الأولى من النهار، وذلك

بالرغم من بدء التجمهرات (٢٦). وهو يرجع إلى الأنيكية في منتصف النهار ويعد بخلافه
ديبوى إلى الجنرال بون. ولما كان منشغلا باستعادة الاتصالات بين مختلف النقاط
المنفصلة التي يتواجد فيها الفرنسيون، فإنه يدع الانتفاضة تتطور. وكما في ١٢
فبراير، فإنه يكرس الجانب الرئيسي من جهده لإقامة مواقع للمنطقة لسحق مراكز
التمرد.

وصباح اليوم التالي، يقترب بدو مشارف القاهرة من المدينة. ويرسل بوناپارت
فرسانه لاحتوائهم. ويلقى الهولندي الرائد سولكوفسكى، معاون بوناپارت، مصرعه لدى
هويته من مهمة جمع معلومات عن الوضع الخارجى. ومنذئذ يمثل مشايخ اللهبوان أمام
القائد العام. وفي البداية يستقبلهم هذا الأخير بغضب، ثم يلين ويطلب إليهم تنظيم بعثة
مصالحة لدى الثوار الذين يتخذون من الأزهر مقراً لقيادتهم. ويفسر الثوار هذه البادرة
على أنها البرهان على ضعف الفرنسيين ويرفضون استئصال المشايخ.

وتبيل الظهيرة، يبدأ القصف الفرنسي الذى لا يرحم، ويجرى ضرب جميع المناطق
التي يحتلها المتمردون ضرباً قاسياً. ويركز الفرنسيون بشكل خاص طلعاتهم على حى
الأزهر، ولما كان المتمردون قد زلزلهم بالكامل طوفان النار الذى يحدث دماراً جسيماً، فإنهم
يتخلون تدريجياً عن مواقعهم للجند الفرنسيين الذين استأنفوا الآن الهجوم، ويصعدون
إلى التفاوض. ويرفض بوناپارت أية ترضية. ونحو الساعة العاشرة مساءً يستسلم زعماء
التمرد؛ فهم يريدون تجنب أن يقع المتمردون الآخرون ضحايا للقمع، وتهدر طلقات متفرقة
أيضاً في الساعات الأولى من الليل (٢٧). وفي فجر ٢٢ أكتوبر، يهيمن النظام على
القاهرة (٢٨). ويتلقى بون الأمر بلجتيح الأزهر (٢٩).

ويقرر الجبرتي من هذا العمل البربرى: «ثم دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون
الخيول، وبينهم للشاة كالأعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورتها، وريحطوا خيولهم بقبلة،
وحاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين
والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاص والوسائط والمخبآت بالدواليب
والخزانات، وشقروا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم ناسوها،
وأحدثوا فيه وتغوطوا وبألوا وتمخطوا وشربوا الشراب، وكسروا أوانيه ولفقوها بصحنه
وتواحيه، وكل من صانعه به عرود ومن ثيابه أخرجوه» (٣٠).

ويهرول مارسيل وسط الجنود لينتقل قدر الإمكان للخطوط المهمة، وسوف ينجح
بذلك في الحفاظ على مصحف رائع مكتوب على جلد الجمل (٣١). لقد أدت الفتنة إلى

مصرع ما بين مائتين وثلاثمائة فرنسي ويبدو أنها أتت إلى مصرع ما يزيد عن ذلك العدد بعشر مرات بين صفوف المصريين^(١١).

الاعتقالات

يجرى إعلان علني عام، إلا بالنسبة للزعماء وأن قاموا بأعمال السلب والنهب. ويلاحق بارتيليمي وأغا الأنكشارية هؤلاء الآخرين، ويكتفان الاعتقالات التعسفية ولا يترددان في اللجوء إلى التعذيب للحصول على معلومات. كما أنهما يبحثان عن الأسلحة^(١٢) ويطلب بوناپارت نفسه من مشايخ الديوان أن يقدموا إليه أسماء «المعممين» المتهمين بتحريك التمرد. ويحاول المشايخ للرافعة، لكنهم سرعان ما يدركون أن الفرنسيين قد حدثوا بالفعل أسماء الزعماء واعتقلوهم فيما عدا السيد بدر القدسي الذي كان قد نجح في الهرب، وشيخ العميان، الذي مات خلال القصف. ويطلب المشايخ معاملة هؤلاء العلماء من زاوية مكانتهم العلمية، ويقبل بوناپارت احتجاجهم في بيت الشيخ البكري^(١٣).

لما سكان القاهرة، الذي أثار القمع خوفاً، فإنهم يسارعون إلى ارتداء الشارة الثلاثية الألوان، لكن السود يجرء على الفرنسيين فيحطرون عليهم ذلك بسبب مروقهم^(١٤). وبناءً على طلب من القائد العام، يشجب المشايخ فرمانات السلطان بوصفها أحابيل حاكها المماليك. ويجري إصدار الأمر إلى جميع السلطات بتسليم جميع الكتابات المخزنة على التمرد إلى الفرنسيين^(١٥). والواقع أن بوناپارت يريد إبقاء القمع عند أدنى مستوى له، وذلك بالرغم من احتجاجات الجيش الذي يطلب بإزالة عقوبات قصوى. والموقف الأكثر حدة هو موقف العلماء والفنانين مثل فيثان بينون الذي يكتب إلى مينو: «إن الأول من برومير قد مضى إلى حد ما حجاب حب البشر الذي أوتينا نشره على وجه مصر. وأنا أعتقد أننا مغمورون بلا رياء إلى أن نكون الأقوى؛ ثم إن هذا مهبط من مبادئ القرن؛ أما الكاثوليكية فهي جد مرئية وهم مصريون على اعتبارنا كاثوليك...»^(١٦)

ويصدر الحكم بإعدام «المعممين» الستة المقبوض عليهم، لكن بوناپارت، بدلاً من الاتجاه إلى إعدام علني كما فعل في حالة محمد كريم، يأمر بإعدامهم بشكل شبه سري في القلعة (١٤ برومير من العام السابع - ٤ نوفمبر ١٧٩٨)^(١٧). ولا يتمكن المشايخ من الحصول على شيء من بوناپارت عبر الوساطة.

وما يجهلونه هو أن القائد العام يرى - مخطئاً على الأرجح - أن السلطات نفسه هو ملهم التمرد، ولتنتسب أسرة السلاط إلى النبي، عن طريق الحسن والحسين، حليتيه، في كن واحد، ومنذ القرن الرابع عشر، تقود طريقة السلاط الوفاكية الحرفية جد للهمة.

وكان محمد أبو الأنوار السلاط قد حصل على تعليم جد فاجز كلفيه شرمى وكصولى، وأصبح زعيماً للطريقة في عام ١٧٦٩. ومع احتفاظه بالشكل الوافر للميزة للعلماء، برز بوصفه رجل أعمال عديم الذمة، حيث أساء استخدام مكانته الاجتماعية القوية لتحقيق الثراء لنفسه. وهو يظهر خوفاً عظيماً في حضور خصومه ومرموسيه، ولما كان ملتزماً، فإنه يبدو بالغ النسوة تجاه قلاحيه بشكل يتجاوز ما هو معتاد في هذا الوسط، وقد تمكن من التصدي ظاهراً لحسن بلاها الجزائري في عام ١٧٨٦، عندما أراد هذا الأخير بيع أفراد أسر للمالك الذين لجأوا إلى مصر العليا في سوق النخاسة. وبالرغم من تحفظه تجاه الفرنسيين، فإنه موضع اهتمامات كثيرة من جانب بوناپارت، وقد أتجه إلى بصوتهم إلى زيارته في بيته، والجبرتي يحميه عندما يزور الفرنسيين، وهذا الأخير يستفيد من ذلك لكي يتفرج على تحفهم الفنية وخاصة الرسوم واللوحات التي تستثير إعجابه (٤٩).

وعلى النحو التالي يقدم بوناپارت الشيخ لكثير الذي جاء لثوره من الإسكندرية،
«هذا هو زعيم التمرد».

«لماذا إذا لا تلمر بإعلانه ومياً بالرمصاص؟»

«لا، إن هذا الشعب جد غريب هنا، عن حياتنا. ولا بد له من زعماء؛ وأنا أريد أن يكون له زعماء من نوع مماثل لهذا النوع، الذي لا يستطيع امتطاء صهوة جواده، ولا استخدام السيف، بدلاً من أن يكون له زعماء من نوع مراد بك [...] إن إعلانه هذا العجوز العاجز لن يؤدي إلى أية فائدة ومن شأنه أن تتوكل عليه عراقيب أسوأ مما تتصور» (٥٠).

ولم يثر الانتفاضة، يتخذ القائد العام تدابير لتأمين سلامة الفرنسيين، ويصبح أعيان القاهرة ضامنين لحفظ النظام العام ويتعهدون بإخطار السلطات بأبسط عامل من عوامل تكدير الأمن (٥١).

ويجرى تعزيز الانضباط، ويتعين على الجنود أن يكونوا مسلحين ومستعدين دائماً للوجود في مراكز التجمع في حالة نشوب للاقبل. ويتم إنشاء ثلاث وحدات يونانية لتأمين سلامة الواصلات النهرية. وهي تتألف من بحارة أسطول مراد بك السابق، الذين أثبتوا ولائهم للفرنسيين خلال أحداث (التمرد). ويوجه خاص، يعزذ بوناپارت تحصينات

القاهرة ويميل إلى تركيز التكتلات الفرنسية في جزيرة الروضة وفي الجزيرة، وهي أماكن تقع خارج المدينة في ذلك العصر^(٥٢). وهناك نهد صورة مصقرة لمدينة كولونيلية (استيطانية) في أرض الإسلام^(٥٣).

وح الفحل في الأقاليم

تمثل أحد الشواغل الأولى لبيوتيه في إخطار الهنرالات الذين يقودون الأقاليم بما جرى في القاهرة، وذلك سعياً إلى تهديد الشائعات التي تتحدث عن مصرع بوناپارت وعن اختصار المتمردين والتي انتشرت في كل مكان تقريباً^(٥٤). كما يتعين تجنب امتداد الحركة إلى مجمل البلد. ويجري إصدار أوامر في جميع الأقاليم بأن يسلم مشايخ البلاد إلى الفرنسيين جميع حملة للفرمانات العثمانية للندارة.

فالدعاية العثمانية كان لها أيضاً تأثير خارج القاهرة، والمشارف للباطرة للمدينة هي دائماً قليلة الأمن بالنسبة للفرنسيين. وزيارة الهنرالات الفرنسيين إلى الأهرام لا تتم إلا بحراسة عسكرية جيدة تصبأ لهجوم محتمل من جانب البدو الذين التروا من جهة أخرى اقتراباً خطيراً من العاصمة خلال الفتنة. ويجري تكليف بارتيليمي بتخليص الضاحية من هؤلاء الجيران للزعميين. وهو يفعل ذلك بطريقته ويرجع من كل غارة من غارات بهضع رؤوس للبدو. وعندما لا يجد بدواً، فإنه يرك على الفلاحين الذين يلحقون المصير للحدود للبدو. والحال أن الفرنسيين، بالرغم من علمهم بفعاله، يدعون يتصرف كما يحلو له^(٥٥).

إلا أنه أساساً في إقليم طحطا، وهو موقع كبير مزار حولي في مصر، هو مزار السيد البدوي، بدأت الفتنة، وحتى قبل أن تبدأ فتنة القاهرة. وكما في العاصمة، فإن مصكة جباية الضرائب تكمن في منطقتي الفتنة. والحال أن الأعيان يرفضون للثول أمام السلطة الفرنسية. ويلجأ الفرنسيون في النهاية إلى الليرة ولا يدخلون للمدينة، بينما يراهن السكان على «مرد القسطنطينية المزموم» الذي وعد به رومان زائف من باشا سوريا. وتتخلل وحدة فرنسية في المدينة في ٧ أكتوبر، وهو يوم سوق يجذب سكان الأرياف. ويهاجم الجمهور الوحلة التي تضطر إلى الانسحاب إلى خارج المدينة. ومن ثم يطلب فوجيهر تعزيزات^(٥٦). ويرد بوناپارت بأنه يجب مراعاة هذه المدينة للقسمة قدر الإمكان وأنه سوف يعمل على

تدخل الدبوان العمومي من أجل تهديد الخواطر؛ ويرسل الجنرال لانوس مع تعزيزات لتهيئة هذا الإقليم الواقع في البلتا تهمة كاملة (٦٩).

والمهمة الأكثر إلحاحاً هي القضاء على البدو الذين يدعمون المتمردين. ويعتمد فوجيبر على مشايخ القبائل المحليين، ضحايا المالك والعرب (٦٠). وينجح لانوس في تصفية أبو شامو، شيخ العرب القوي، الذي كان قد حوكم المقاومة ضد الفرنسيين منذ البداية. وهو يستولي على خزائنه (أكثر من اثني عشر ألف جنيه من الفضة)، وتسقط في أيدي الفرنسيين قوى هذا الشيخ العشويين (٦١). ويؤدي هبوط النيل إلى إبطاء العمليات، ويتركز الاهتمام على جبهة الضرائب من القوي. وترخي طنطا دون مقاومة خاصة، لكن الفرنسيين يفضلون عدم احتلالها بشكل دائم وذلك بسبب طابعها القيني وسعيها إلى تجنب بعثرة قواتهم (٦٢).

وفي بلبيس، يضطر دينيه هو أيضاً إلى التصدي لهجوم في ٢١ أكتوبر. وهو هجوم منسق قامت به عدة جماعات من البدو. وينجح دينيه في صدده بسهولة (٦٣). وهو يرى أن هذا الهجوم قد نظمته ممالك إبراهيم بك وأنه يوجد فلاحين وبنو (٦٤).

وإمام صد الفرنسيين لهم، ينسحب البدو إلى داخل الأراضي. ولما كان هبوط النيل ما يزال غير مناسب، فإن الفرنسيين يجهزون صعوبة في ملاحقتهم. ومن ثم فإن الجنرال الفرنسي ينهمك في عمليات تخريب للسكان سعيًا إلى التوصل إلى إعادتهم النهائية. ويستمر هذا الوضع على مدار شهر نوفمبر. وتتكون لدى الفرنسيين باطراد قناعة بأنه لن يكون بالإمكان الوصول إلى أي شيء دائم ما دام إبراهيم والجزار ينجحان في إرسال عملاء لإثارة الإقليم (٦٥). وتتوقف قوة المقاومة على أهمية الروابط بين الفلاحين والبدو والتي لم يتمكن الفرنسيون بعد هذا، خلافاً للحال في بقية البلتا، من فك عراها.

الإنجليز قبالة الإسكندرية

لكن الأحداث الأهم تدور في إقليم الإسكندرية. ففي ١٩ أكتوبر ١٧٩٨، يعين بوناپارت مينر قائداً لجمل منطقة البحيرة والإسكندرية ورشيد، جامعاً بذلك تحت قيادته العليا كل حرب البلتا (٦٦). وفي اليوم نفسه تنضم سفن عثمانية إلى سفن هود الإنجليزية التي تحاصر الميناء. ووجودها يجد تفسيراً له في الدوافع السياسية بأكثر مما في أسباب

عسكرية، فلهذه هو إشعار الفرنسيين والسكان المحليين على حد سواء بأن العثمانيين قد دخلوا الحرب (٦٧).

ويترك مارمون القذاة لكي يضم قواته إلى قوات مانسكور. وكان القائد العثماني قد بلغ القبطان لاويال، النهائية دائماً في ميناء الإسكندرية، بأن عليه الحصول على تصريح من الفرنسيين للانضمام إلى أسطولهم (٦٨). ويحتل القبطان للأمر ويجري اتصالات مع المحتلين. وولداً لهما، فإنه ما ظمت الإمبراطورية العثمانية لم تدخل في حرب ضد فرنسا، فليس هناك ما يمنعه من الانضمام إلى السفن العثمانية للوجود خارج الميناء. على أن مغرضيه، الذين لا يهتمون غير تصديقه، يرفضون السماح له بمغادرة الميناء.

وكان هو قد اتصل بالمقاومة الداخلية خاصة بعد الله باشي الذي انتقل في أحد الأوقات إلى سفينة، وحاول التوفيق بين مراد بك والعمانيين (٦٩). وينظم مارمون شبكة تجسس مضطربة على الساحل بهدف القبض على عبد الله الذي كان قد رُصد في المنطقة (٧٠).

واعتباراً من ٢٤ أكتوبر، يقصف الأسطول الأنجلو - عثماني الإسكندرية وأبو قير بحسب الترتيب؛ وتعتبر الخسائر تافهة، لكن بوناپارت يدخل إرسال مورا لمراقبة مؤخرات الإسكندرية وأبو قير. وهو يخشى بشكل خاص من تهريب انتفاضة في هذه المدينة الأخيرة (٧١). والواقع أن مورا يجد منطقة هامة بشكل عام، وذلك بالرغم من أن الإنجليز والعمانيين كانوا قد نجحوا في تأمين اتصالات مع السكان.

وكما هي القاعدة في ذلك العصر، لمجرد انتهاء القصف، يتم اتصال بين الفريقين للتفاصيل. وبوناپارت بحاجة ماسة إلى معلومات عن وضع مصر الخارجي وقد لود الترجمان براسيڤيتش وموظفًا عثمانيًا اسمه إبراهيم باشا وضابطين فرنسيين إلى الأسطول (الإنجليز - العثماني) للفترة. ويواصل المسئولون الفرنسيون الاعتقاد بأن دخول العثمانيين الحرب ليس غير شائعة كالتة يروج لها الإنجليز والماليك. ويتمشى هذا الاعتقاد كثيراً مع أمانهم وقد عززته تأكيدات قبطان لاويال (٧٢).

وفي ٥ نوفمبر، يصعد المتطوعون إلى الأسطول حيث يتم استقبالهم أحسن استقبال، ويكرر لهم الجميع أن الباب العالي قد دخل بالفعل في حرب ضد فرنسا، وأن ملطه محاصرة وأن أسطولاً روسياً عثمانياً قد اتجه إلى مهاجمة الجزر الأيونية. لكن مارمون ومانسكور يرفضان تصديق هذه الأخبار (٧٣). ولا يملك هو إلا أن يتكلم لعمى الفرنسيين غير للتوقع (٧٤).

سياسة المصالح

في بداية نوفمبر ١٧٩٨، اضطر الفرنسيون إلى الاعتراف بأنه ليس من السهل الحصول على ولاء المصريين. وإذا كان من الواضح أن هناك حركة ثورية في مصر، فإنها تتجه ضدهم. وبأعلى التناهي الضرورية التي فرضها إفلاس الجيش، مثلما تتجه ضد الأحكام الإدارية العسكرية التي اضطروا إلى اعتمادها لإعادة تنظيم مصر ولتأمين سلامة الفاتحين. وهذه الأعمال كلها تترجم بوصفها انتهاكات واعتداءات على الشريعة الإسلامية وهو ما يلغى إلى إضفاء شرمية دينية على التمردات. ومن الواضح أن بونابارت كانت لديه مبررات لكي يتبنى في بياناته خطاباً إسلامياً، لكنه - لصوء حظه - يبدو أنه لم يلنح للسكان المصريين للبهت.

إن دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب وحرب الدعاية الفعالة التي تخوضها، يؤديان إلى تحييد العمل السيكولوجي الذي يقوم به الفرنسيون، والذي خطط تخطيطاً جيداً على أية حال، إن كثيرين من المصريين قد صدقوا بالفعل أن الفرنسيين قد جاءوا لمحاربة المماليك بموافقة من الباب العالي، وهم الآن يتصرفون من لؤثامهم. والفشل السياسي تام على هذا المستوى. وفي المقابل، فإن السيطرة الفرنسية قد وجدت دعماًها الضرورية في القبول السلبي أو الإيجابي من جانب جماعات اجتماعية كمشايخ البلاد وكبار العلماء الذين تتمثل الأولوية المطلقة بالنسبة لهم في استعادة النظام العام الذي تحلل بشكل خطير من جراء أكثر من عقدين من الفتن. والحق أن حزب النظام هذا لا يقبل الفرنسيين إلا على مضض، لكنه يسمح بدعم السيطرة على البلاد على أحسن راسخة.

ومن الطبيعي أن هذه السيطرة يجب أن تهدد امتداداً لها في فتح مصر العليا سعياً إلى القضاء على الخطر الدائم الذي تمثله عودة هجومية من جانب مراد بك. وعلى هاتق ميزته تقع هذه المهمة الصعبة.

مصر العليا

مهمة روزيت

بعد معركة الأهرام - وتمشيا مع مخطط الحروب للملوكية - ينسحب مراد بك إلى مصافة جد بعينة في مصر العليا. وكان بوناپارت قد أرسل إليه روزيتي للتفاوض على (شروط) ولائه للفرنسيين وأصدر أوامر من أجل احتلال الأقاليم الجنوبية الأكثر قرباً من القاهرة. ومنذ بداية شهر أغسطس ١٧٩٨، تصطدم العناصر الفرنسية الأكثر تقدماً، تحت قيادة الجنرال رامبون، بمقاومة مهمة فجرتها، بين أمور أخرى، مصابرات الهيك (٧٥).

ويستقبل مراد بك روزيتي استقبالا حسناً للغاية، لكن الأول، في أثر أخبار معركة أبو قير على الأرجح، يرفض مقترحات الفرنسيين ويعلم استعداد له لدفع تكاليف رحيلهم (٧٦). والحال أن هزيمة الفرنسيين البحرية تشجع مراد بك على إعادة تجميع القوات المملوكية في مصر العليا. وهو يتصالح مع حسن بك الهنداوي، الملوك السابق لعلى بك، والذي يسيطر، بشكل مستقل عن العاصمة، على جزء من مصر العليا ويطلب تقديم يد العون له من جانب مسلمي مدينتي مكة والمدينة المقدستين.

اليوم

في ١٦ أغسطس، يهدد بوناپارت إلى بيزيه وفراقته، وكذلك إلى الأسطول النهري الذي يلوذ العميد البحري بيريه، بمهمة العمليات ضد مراد بك. ولا يضم فيلق حملة بيزيه أكثر من ثلاثة آلاف رجل. وهو يخرج من القاهرة في ٢٥ أغسطس على متن الأسطول النهري ويصل إلى بني سويف في ٢١ أغسطس ١٧٩٨. وتتمثل التعليمات الصادرة إلى بيزيه في مهاجمة مراد بك بمجرده عثوره عليه وبالحشد الأقصى من القوات. ويصل إلى علم الجنرال الفرنسي أن المماليك يحتشدون في اليوم، تلك الواحة الشاسعة التي تغذيها ترعة متفرعة من النيل، هي ترعة بحر يوسف. وهو يشن غارة جسيمة لتدمير أسطول مراد بك بعيداً عن ملتقى بحر يوسف والنيل. ثم يتدفع حتى أسبوط، في ١٥ سبتمبر ١٧٩٨، لكنه يفشل في محاولته ويرجع إلى القواء لكي يتمركز عند مدخل بحر يوسف حيث يحشد قواته. وفي ٢٤ سبتمبر، تدخل الفرقة إلى الترعة.

وخلال الأيام الأولى، تنشأ المصائب الوحيدة عن بداية هبوط الغنيل. واعتباراً من ٢ أكتوبر، تبدأ الاشتباكات مع للماليك بينما يغادر الجنود زوارقهم للهبوط على البر. وفي ١٦ أكتوبر، يقاتل مراد بك الفرنسيين في سيدمنت. ومرة أخرى، ينكسر سلاح الفرسان المملوكي الرائع على المربعات الفرنسية. فالآن يعرف الجنود بشكل تام قواعد المناورة وقد توقعوا أن للماليك سوف يكونون أكثر قرباً لإطلاق وصلاتهم القتالة. وفي إحدى اللحظات، تخلف (الجنود الفرنسيون) قليلاً (عن تشكيل المربعات) وتم اجتياح أحد المربعات، إلا أنه سرعان ما يتم تشكيكه (٧٨). على أن ديزيه قد اضطر إلى ترك عدد من الجرحى للماليك لكي يتسنى له تشكيل المربعات (٧٩).

وعندئذ يغادر للماليك الفيوم متنسحين إلى الدنيا بينما يستولى الفرنسيون على المركز الأهم في الواحة، مدينة الفيوم (١٢ أكتوبر ١٧٩٨). وفي الأسابيع التالية، ينظم ديزيه ذلك الإقليم. ويحصل زايونشيك على قيادة إقليم بني سويف. وتظل الاتصالات صعبة مع القاهرة: فمراد بك يغير تكتيكه ويحفر الكثير من التمردات القروية الصغيرة. وكانت فرمادات معادية للفرنسيين صابرة عن الباب العالي قد وزعت في كل مكان تقريباً في الإقليم (٨٠). وكما في البلتا، فإن العرب هم الذين يخوضون القتال، لكنهم يطلقون هذا دعماً مباشراً من جانب للماليك، وهم يهاجمون مدينة الفيوم نفسها في بداية نوفمبر. وتحل حرب العصايات محل الصدام على جبهة محدودة. وما أن يبدو أن الفرنسيين هم الأقوى، فإن للماليك والبدو يتركزون الفلاحين ضحية للقمع الذي يمارسه الغزاة. ولا يتردد ديزيه في أن يقدم عبرة بدميره قرية سيرميني (٨١)، وتؤدي الأعمال الانتقامية التي يمارسها الفرنسيون وكذلك الانضباط الذي يفرضه ديزيه على جنوده سعيًا إلى منع كل نهب وكل سلب إلى تهينة سريعة للبلاد. ثم إن ديزيه يحصل من بونابارت على جانب من التعزيزات بقيادة بيليار.

المعلم يعقوب

يتكشف مراد بك عن خصم عنيد ورهيب. ثم إنه، بفضل عهد الله باشي، يتصل بالإنجليز (٨٢). أما ديزيه فهو يجد عوناً في شخص الأمين القبطي الذي أرسله بونابارت، وهو المعلم يعقوب. وهذا القبطي، الذي ولد في عام ١٧٤٥، في القاهرة، وفقاً لبعض المصادر، وفي ملوى في مصر العليا وفقاً لمصادر أخرى، حصل إلى أروع الممارج التي يمكن

أن يطمح إلى بلوغها واحد من بنى جلسته. وبفضل قدراته، يصبح أمين سليمان بك، أحد أهم ممالك على بك ثم إبراهيم بك. وكان سيده يحوز كل إقليم أسيرى على شكل التزام. وبما يشكل فعلا استثنائياً بالنسبة للقبلى، شارك والصلاح بيمينته، إلى جانب سيده، فى المعارك ضد العثمانيين فى مصر العليا فى عام ١٧٨٦. وقد اقتنوا فى عام ١٧٨٢، فى زواج ثانٍ، بحليبة مسيحية، من المرجح أنها كاثوليكية يونانية من حيث الأصل، وهو ما يجعله على اتصال بهذه الطائفة جد الدينامية. ومن المؤكد أنه قد تأثر بالنزعة المصرية لكبار الحكواتى للممالك المتأخرين، وذلك بالرغم من أنه قد انماز فوراً إلى الفرنسيين بعد الاستيلاء على القاهرة (٨٢). وهو ينظم الشئون المالية لحملة ديزيه بفضل درايته الثامنة بالآليات الخريبية المصرية ويلعب دوراً رئيسياً فى تكوين شبكة مخابرات مكلفة بإبلاغ الفرنسيين بتحركات الممالك.

مصر الوسطى

يزود ديزيه القاهرة بالتعجيل بإرسال التعزيزات ويعهد إليه بونهارت بالجانب الرئيسى من سلاح الفرسان الذى جرى تشكيله بمهقة فى ذلك الوقت، ألف فارس تحت قيادة جنرال اللواء دافو (٨٤). وفى ١٥ ديسمبر، يتسنى لديزيه أن يخش فى بنى سوف الجانب الرئيسى من قواته، أربعة آلاف رجل مع فرسان دافو وتسع قطع منطعية. ويمكن لنحله نحو الجنوب أن يبدأ فى صباح اليوم التالى.

ويتجنب مراد فى البداية كل معركة وينسحب، تاركاً الفرنسيين يصلون إلى المنيا فى ٢١ ديسمبر وأسيرى فى ٢٥ وجرجا فى ٢٩. ويعتبر يعقوب عظيم الفائدة بالنسبة للفاتحين؛ وفقاً لشهادة بيليار: «إن السكان يعتبرونه السلطان الكبير وفرقتنا، التى تشكل جيش مصر العليا، يجرى النظر إليها على أنها جيش المعلم يعقوب، ويستفيد الجنرال من ذلك لتوفير المؤن لقواته والمحصل على معلومات عن الأعداء. والعرب (المعلم يعقوب - المترجم) له حليمة وفيرة للعد وهو يحرس، إذ يعمل لحسابنا، على ألا ينسى مصالحه».

ويسعى سليمان بك إلى دفعه إلى العودة إلى معسكر الممالك، لكن المعلم يرد عليه بأنه مستعد للتوسط لحسابهم لدى الفرنسيين (٨٥).

ويبدو ديزيه في آن واحد في مظهر الفاتح وفي مظهر السامى إلى التهمة، وهو لا يتردد في وقف زحف فرقته لتصوية النزاعات القروية، «جمع الجنرال ديزيه المشايخ؛ وقدم كل منهم أسبابه» ثم جرى وضع ما لكلٍ وما عليه في ميزان العدل، ولنتهى الرجال، الذين كانوا قبل ذلك ينصف ساعة، يريدون محو أعتابهم الآخو، إلى استحصان الأفكار المحكمة أو الأوامر التي صدرت عن الفاتح ورجعوا أصدقاء متحابين (٨٦).

وفي جوجاء، يمتد ديزيه التوقف قليلا. لكنه جد بعيد عن الأسطول النهري ويتوجب عليه ترقب وصوله حتى يستأنف زحفه. وهو يكفل سلامة مواصلاته بقمعه عدة حركات فلاحية في مصر الوسطى. ويوجه خاص، يجرى إحراق قرية طهطا الكبيرة وذبح جانب من سكانها في ٢١ نيفوز من العام السابع (١٠ يناير ١٧٩٩) (٨٧). وهذا التوقف الطويل يسمح لمراء بك بإعادة تنظيم قواته كما يسمح له على نحو خاص بالحصول على عون متطوعين قادمين من الحجاز، إقليم مدينتي مكة والمدينة للمدستين.

إمارة مكة

منذ القرن السادس عشر وإمارة مكة تشكل جزءا من الإمبراطورية العثمانية، ثم إن السلطان هو حامى للمدينتين المقدستين، وهي حماية تمثل إحدى وظائف الخليفة. لكن السلطة المحلية كانت بيد أمير يتم اختياره دائما من بين صفوف أقطاب النخب، الأشراف. وكان هؤلاء الأخيرون عديدون عبيدين بشكل بالغ في ذلك الإقليم. وفي القرن الثامن عشر، امتدت حركة لا مَرَكَزَة السلطة إلى الحجاز وأصبحت السلالة الحاكمة للخريفية مستقلة ذاتيا تجاه العثمانيين. ولم تعد السلطة الإمبراطورية تتجلى إلا من خلال الوجود - خلال الحج - لأميرين للحج، هما قائمًا قافلة مصر وقافلة الشام. أمّا باشا جدة، وهو موظف يعين كل سنة من جانب الباب العالي، فلم تك له سلطة تزيد عن سلطة زميله في القاهرة.

لكن سلطة أمير مكة كانت هي نفسها جد ضعيفة. وفي شبه الجزيرة العربية نفسها، كان عليه أن يواجه صعود الوهابيين. وكان العثمانيون قد رموا بالهرطقة دعوة محمد بن عبد الوهاب، بتزعمها البيروقراطية الراسخة ورفضها لكل ما يبعد الإسلام عن التوحيد للطلق. وقد رأى الأمير أن من المناسب فرض ضريبة على الحجاج الوهابيين، وهو إجراء كان قاصرا حتى ذلك الحين على الحجاج الشيعة. الأمر الذي أثار غضب الوهابيين. والحال أن هؤلاء الأخيرين، بفضل تحالفهم مع إمارة نجد التي يتزعمها آل سعود، قد

استهلوا حرباً ضد الأشراف. وقد انحلت قوات آل سعود للهزيمة بالشريف غالب، الأمير منذ عام ١٧٨٨، بينما وجد الباب العالي نفسه عاجزاً من تقديم العون له. وفي عام ١٧٩٨ عقدت هيئة وأصبح توسع الوهابيون أن يؤدوا حجهم إلى مكة دون تفرقة. على أن الجميع كانوا يدركون أن ذلك الوضع وضع هش.

لكن الأمير أيضاً لم يك غير الأول بين أشراف متعاونين. فكل عشيرة شريفية (أو هاشمية) كان لها جيشها الخاص المؤلف من الرابعا ومن حلفاء بدو ومن مرتزقة يمنيين ومن مبيد سود. وكان الصراع على السلطة واقعاً دائماً (٨٨).

وكان الحجاز يعتمد اعتماداً شديداً على مصر على المستوى الاقتصادي وذلك بسبب إيرادات الأوقاف التي تمويل صيانة الأملكن للخدمة وسبب قافلة الحج الأتريكية ودور حده في تجارة البن. وينزعج الأمير غالب من خطر الوهابيين. وإذا شعر بالمرارة تجاه غياب العون من جانب الباب العالي ضد هؤلاء الآخرين، فإنه يرى أن الفرنسيين يميلون إلى تنصيبه كمراجع ديني متميز، بل وممثل للسلطان - الخليفة الذي يهيمن على الباب العالي. وعندئذ فإنه يختار مراعاة جانب سلامة مصر الجديد.

وكما سوف يفعل خلفته الأبعد، حسين، في عام ١٩١٤، فإنه يرفض إعلان الجهاد ضد خصوم الباب العالي. لكنه لا يستطيع منع المعشائر الشريكية الأخرى من الدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين. والحال أن شخصاً يدمي محمد للفريسي الهيلاني الهلشمي هو الذي يعلن الجهاد في المسجد الحرام في مكة، المكان الأكثر قدسية بالنسبة للإسلام. وبعد الخناء صدى مبلشاً بين سكان الحجاز الذين يزيرون التبرعات بينما يتدلق للتطوعون على موانئ البحر الأحمر. وهم أكثر من خمسة آلاف، وهو رقم ضخم قياساً إلى سكان الإقليم (٨٩). والحال أن هذه الحركة، الشعبية بلا جدال، إنما تترجم بشكل واضح البحث الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر والفاعل بشكل خاص في الإقليم مع الدعوة الوهابية.

الرحل على أسوان

هؤلاء إذا هم الخصوم الجدد اللذين يواجههم دينه عندما يستأنف رحله إلى الأمام في ٢١ يناير ١٧٩٩. ويتنظره مراد بك في سمهود ومعه، على ما يبدو، نحو ألفين من المماليك ومئة ألف من البدو والفلاحين، والمتطوعين الحجازيين، حيث لابد أن العدد الإجمالي يصل إلى أربعة عشر ألف رجل. وإذا كانت للريعات الفرنسية، كالعامة، تصنع

للمعجزات، فإن هذه هي المرة الأولى التي يجرى فيها طع فرسان فأثو ضد المماليك. والحال أن هؤلاء الأخيرين، وفقاً لتاكتيكهم المعتاد، ينسحبون بسرعة، الأمر الذي يجر إلى تلكك جيش مراد الضخم (٢٢ يناير ١٧٩٩) (٩٠).

ويرتحل ديزيه بالنصى سرعة ممكنة صوب الجنوب سعياً إلى إبادة المماليك وحلفائهم إبادة نهائية حاسمة. ويهجم للتطوعون الجزائريون بحساسة على الفرنسيين، لكنهم، إذ يتمرسون في إحدى القرى، يجرى تعزيزهم إرباً على أيدي فرسان الفلوج. وينضم إليهم الفرنسيون جانباً، لأنهم لا يهتمون إلا بمراد بك الذي يواصل الاختفاء. وقد تغلّى الآن عن خوض أية معركة وأصبح من الصعب الإمساك به. وعلى سبيل الاحتياط، يأمر بإعدام الحفيد الأخير للشيخ همام، ذلك الزعيم الهنوي الذي جعل من نفسه، قبل هزيمته على يدى بك، سلطة مستقلة في مصر العليا. وهكذا فإن الفرنسيين لن يتسنى لهم الاعتماد على الدعم القوي من جانب هذه العائلة المعادية للمماليك، وهم يكتفون بتأبين الضحية (٩١).

ولى ٢٤ يناير، يمر الجيش أمام دندره، وبالنسبة للفرنسيين، فإن آثار دندره التي تكاد تكون على حالتها الأصلية والتي لا يشتهرون في تاريخها السحيق، تبدو إلهماً ووحياً. ويشهد فيلمان فيدون على هذه الثورة الجمالية: «سرعان ما علمتني دندره أنه لا يجب البحث عن جمال العمارة إطلاقاً في مجرد الأنساق القوية والأيونية والكورنثية، وأن الجمال يوجد في كل مكان يوجد فيه انسجام الأجزاء. وقد قادني الصباح إلى هذه الآثار وأخضني للساء منها شاعراً بالإثارة أكثر من شعوري بالإشباع. لقد رأيت مائة شيء وغاب عني ألف شيء؛ لقد دخلت لأول مرة إلى محفوظات العلوم والفنون [...] إن العلوم والفنون، التي يوحد بينها الذوق الحصن، قد زينت معبد إيزيس؛ وعلم الملك والأخلاق والمهتلفين تجد هنا أشكالاً. وهذه الأشكال تزين الأسقف والأفاريز والأركان، بقدر من الذوق والجمال يذكر بتزيين أرابيسكاتنا الرشيق والصغيرة لصالوناتنا» (٩٢).

ويشير كل شيء إلى أن اكتشاف مصر القديمة، وإن كان يؤدي إلى تهديد احتكار اليونان الجمالي، لا يتم إلا ضمن وهب غرام التنوير العلمي بالأسرار.

* ولى ٢٦ يناير، يحاذي الجيش آثار الكرك والأكصر. وهذه المرة، فإن الجيش هو الذي يلجأ حملته، أمام ملمح هذه الأطلال الهائلة، هذه الانقراض الضخمة والمدمرة والتي تحتل مكانة جد ضخمة في تاريخ العصر القديم، توت كل صفوف الفرقة الفرنسية

بالتصديق. فالصقوف تتشكل بشكل عفوى وتحمل وتوقع الأسلحة تحيةً على نقات الطبول والألحان للموسيقية،^(٩٣).

ولا يملك ديزون وقتاً إلا للقيام ببعض الرسوم ويستأنف الزحف معبرته، ويواصل مراد محاصرة الوادى صوب الجنوب على الضفة اليسرى للنيل سعياً إلى تأمين الاتصال مع الألفى بك الذى لجأ مع جزء من المماليك إلى واحات الصحراء الليبية. وفى ٢٨ يناير، يترك ديزون جزءاً من قواته فى إسنا تحت قيادة فريمان، وإذا أصبح أكثر قدرة على الحركة العريضة، فإنه يأمل أخيراً فى الإيقاع بالمماليك. وفى ٣٠ يناير، يصل إلى إداو وفى ٢ فبراير يصل إلى أسوان حيث ينتقل إلى الضفة اليمنى. ويحصل بيلهار على مهمة للتمركز فى هذا الموقع لمنع عودة للمماليك. وبالرغم من مقاومة قوية من جانب السكان، فإنه يحتل جزيرة فيله فى ٢٩ فبراير، بما يشكل فرصة جديدة للإعجاب بالآثار. ويتوقف الزحف هنا، لأن مراد ينسحب وراء الشلال الأول. والحال أن الفرنسيين، وإن كانوا من الناحية الاسمية سادة لمصر كلها، إنما يطمعون عليهم تأمين اتصالاتهم، وذلك بقدر ما أن حسن بك الجنوى قد بدأ من جديد بالفعل حركة عبور صوب الشمال، بمحاولة الضفة اليمنى. كما أن ديزون، منذ ٥ فبراير، يرتد مع الفرنسيين إلى إسنا، بعد أن قسم قواته إلى وحدتين تهيطان فى كن واحد خلفى النيل. وهو يصل إلى إسنا فى ٩ فبراير دون أن يدخل فى اشتباك مع للمماليك.

وبشكل رمزى، يقيم الجنود الفرنسيون عند مخرج أسوان عموداً حربياً يحمل النقش التالى «طريق باريس، رقم ١١٦٧٣٤٠»^(٩٤). وشأنهم فى ذلك شأن العثمانيين قبلهم بثلاث عشرة سنة، فإنهم قد وصلوا إلى حدود مصر والبنوة، لكنهم، شأنهم فى ذلك شأنهم، لم ينجحوا فى القضاء على محاليك مراد بك؛ وكل ما هناك أن هؤلاء الآخرين قد تفرقوا، الأمر الذى لا يستبعد الخطر إلا بشكل مؤقت للغاية.

تخليص الفتح والمحاولة الأخيرة للتفاوض

القباض

تزدى عمليات ديزون إلى تحرير بوناپارت من أى انزعاج فيما يتعلق بمصر العليا. أما فى القاهرة نفسها، فإن شيئاً من التوتر يستمر مائلاً فى بداية شهر نوفمبر ١٧٩٨.



٢٢ - الشيخ الشمرلاري.



٣٤ - الشيخ الهدى -









٢٨ - ميناء الإسكندرية الجديد.



٢٩ - (١) نيزه في اسير.



(ب) النيران العسكرية.



Fighting for the DUNGHILL. or Jack Tar and the BLOODY MAN. C.P.

والحال أن الهنرال فيستان، الذي خلف ديبوى في قيادة المدينة، يتلقى عدة تقارير استخباراتية عن تورط نشوب انتفاضة شعبية (٩٥). ومجرد رغبة الشيخ السادات في ترك منزله القريب من الأزهر تكفى لإثارة الخواطر، ويتعين على الفرنسيين مطالبتة بالتخلي عن عزمه (٩٦). ويجرى اتخاذ تدابير وقائية عسكرية ويتم تكثيف الدوريات في المدينة وضواحيها. أما للسكان، فيجرب إرهابهم دوماً بالقمع، وكما في مجمل فترة الاحتلال، تتكاثر اللوشايات. ولا يفلت الأقباط من هذه اللوشايات. إذ يجرى اتهامهم بإخفاء ممتلكات للمماليك على الرغم من تعاونهم مع الفرنسيين. لكن بوسيلج، أمين الشئون المالية للحملة، يتدخل دفاعاً عنهم، «إننى أجرب على تنكيركم بأن صمت الأقباط عن استثمارات المماليك يظل نتيجة للإرهاب الذى نشره المماليك؛ وبأن الأقباط، كما اتبع لى أن أكون شاهداً على ذلك عدة مرات [...]، يخافون من الأعمال الانتقامية الخاصة من جانب المؤتمنين على ممتلكات المماليك ومن أن يصبحوا ضحايا لهم إذا ما أعلنوا عن أسمائهم. وإذا كانوا هم أنفسهم قد حازوا أشياء لم يعلنوا عنها، فإن بالإمكان رد صمتهم إلى جشعهم. ومن المؤكد بالنسبة لى أن الخوف وحده أو المصلحة هى التى يمكن لها دفعهم إلى ذلك وليس تعلقهم بالمماليك الذى يحول بونه بما يكفى لاختلاف الأديان وذلك بشكل مستقل عن الفائدة التى يمكنهم الحلم بجنيها من حكومة جديدة. وهناك حسد للأقباط؛ وقد كانوا عملاء للاستبداد؛ ولابد أن لهم كثيراً من الأعداء ومن ثم الرشاة بهم، وإذا لم يجر إرغام هؤلاء الآخرين على إثبات صدق وشاياتهم، فإن الأقباط سوف يلقون بشكل متتابع ثقتكم وسوف تفسرون عوناً يمكن أن يكون ضرورياً لكم على مدار فترة تالية» (٩٧).

والواقع أن الأقباط يتطلعون إلى تحرر تام من وضعيتهم الأسرى. وقد تدخل البطريرك تسخلاً مباشراً لدى القائد العام فى هذا الاتجاه، لكن هذا الأخير يرى أن عليه مراعاة للرأى العام المسلم وهو يميل بالأحرى إلى وقف هذا التطور. وهكذا فإن حق ممارسة العبادة القبطية علناً لا يتم منحه البتة. وفى المقابل، فإن العلاقات العلنية للخضوع كمنع امتطاء الجهاد أو حمل الأسلحة أو ارتداء ملابس كملايس المسلمين يجرى إلغاؤها. ويؤكد بوناپارت بشكل واضح على المقابل الذى ينتظره من الأقباط: «إذا كانت كل الأيام قد تميزت من جانبى بأعمال الخير، وإذا كنت قد رددت إلى الأمة القبطية كرامة وحقوقاً لا تنفصل عن الإنسان، فإن لى الحق، بلا ريب، فى أن أطالب الأفراد الذين يشكلونها بالكثير من الحماس والوفاء فى خدمة الجمهورية» (٩٨).

وبالرغم من تولف اجتماعات ديوان القاهرة، فإن بونابارت يستخدم العلماء للتأثير على الرأي العام. وفي ١٠ نوفمبر، يجرى بأمره إلصاق بيان موقع من جانب هؤلاء الآخرين في شوارع القاهرة يشيد برحمة بونابارت الذي، لحبه للمسلمين، منع جيشه من ذبح السكان ومن تدمير المدينة (٩٩). وفي الأسبوع التالي، يجرى التنكير على النحو نفسه بأن الفرنسيين هم أصدق أصدقاء المسلمين وديانتهم، وبأن الروس يريدون القضاء على الإسلام، وبأن إبراهيم ومراد هم أعداء الباب العالي، وبأن هذا الأخير قد قبل الوجود الفرنسي في مصر (١٠٠).

وهذا كله لا يحول دون مراصلة أعمال تحصين القاهرة وفق خطط كانارييلي. ويهدى الجبرتي إعجابه بأدوات العمال الفرنسيين وخاصة تلك الآلة العجيبة التي تولد جانباً كبيراً من جهد النقل، العربة ذات العجلتين (١٠١).

تطور الفونسيين

كما يتعين على القائد العام أن يهرس سياسته أمام الفرنسيين، المتأثرين دائماً بذكرى انتفاضة القاهرة، والذين يطالبون بقمع أكثر صرامة. وهو يستخدم صحيفة لوكوربيه بوليجيهيت لتقديم روايته للأحداث: إن الفرنسيين لا يمتلكون فكرة بقيقة عما حدث ولأن قليلين جداً منهم هم الذين يعرفون مجمل الحقائق التي يعتبر النظر فيها ضرورياً لتأسيس حكم خال من الأخطاء إن رجال دين مروعين، ملأ صدورهم الحسد تجاه المزايا الممنوحة لكبار المشايخ، هم الذين قابوا الحركة. وقد استخدموا أعداداً كبيرة من أولئك الأفراد، للعتاد وجودهم في المدن الكبرى، إما أملاً في النهب، أو رغبة في التغيير، أو إشتهاء لكل ما هو مثير، والذين يعتبرون مستعدين دائماً لتعزيز التجمهرات والمشاركة في التمردات (لا يمكن لذلك إلا أن ينشط الذكريات جد المحبة بالنسبة للفرنسيين ١٧٩٨). أما جميع الأعيان وجزء كبير من السكان فقد كانوا مخلصين للفرنسيين.

وفقاً لهذه الاعتبارات ولعطف من الاعتبارات الأخرى التي تنهيب عن الأفراد والتي وصلت إلى علم الشرطة، فمن الثابت أن جزءاً جد ملحوظ من سكان البلد قد قدم خدمات إلينا أو التزم الحياد، ومن ثم فمن غير العدل ومن الوحشية بشكل لا حد له إنزال عقاب

ليس جماعى نون الاجتهاد فى تمييز الجنة فرداً فرداً، فمثل هذه الأعمال الخاضعة قد تستولى على الحكومات الضعيفة والجهالة التى، خلال سيااسة السكينة، ترضى كل روابط الأمن ثم تضطر إلى التضحية بالجنس البشرى على مذبح خوفها ما إن يهددها أبسط خطراً ولا يمكن (مثل هذه الأعمال الخاضعة) أن تكون لائقة بالفرنسيين المستعدين استعلاءً طبيعياً للرحمة والمغرمين بالشجاعة. إن الفرنسيين يضربون أعداءهم بقوة، لكنهم لا يستسلمون لغضب لعمى. إنهم يتصرفون على مرأى من التاريخ وهم يعرفون بآية قسرة حكم (التاريخ) على الأعمال الوحشية التى ارتفلها الأسبان فى أمريكا والإنجليز فى الهند (١٠٢).

المطالبات بالعودة إلى فرنسا

لا يجهل بوناپارت أن العداء لسياسته الخاصة بالثوارب مع المسلمين ليس غير ترجمة لرفض أعم، عند العدد الأكبر من الفرنسيين، لوجودهم فى مصر، والعوامل الرئيسية لهذا الرفض هى خيبة الأمل التى فجرتها مجريات الفتوح، والمصاعب المادية الناشئة عن الأزمات المالية الدائمة والإحساس بالعزلة الذى خلقه الحصار الإنجليزى. وتتكاثر بين أوساط الضباط مطالبات بإجازات وبالعودة إلى أوروبا، وذلك بالرغم من مخاطر الرحلة. والحال أن الأطباء، الذين يصرون شهادات تبرر هذه الطلبات، إنما يجرى توبيخهم علناً من خلال الأمر اليومى الصادر فى ١٩ فريمبر من العام السابع (٩ ديسمبر ١٧٩٨). أما أولئك الذين يقدمون طلبات غزو مبررة فيجرى التشهير بهم علناً وبالاسم أمام الجيش. على أن بعض القريين من بوناپارت يطلبون الرحيل. ويتردد بمرتبة كثيراً، موزعاً بين حبه لمدام فيسكونتى وصحبته لبوناپارت. وهذا الأخير هو الذى يفوز فى نهاية الأمر. لما سوسى، الآن العام بالصوف، وهو صديق للقائد العام منذ ما قبل الثورة، فإنه يحصل على التصريح جد للمشتكى (١٠٣). ويحل محله دور الشاب (الأول من فريمبر من العام السابع - الأول من نوفمبر ١٧٩٨). وحين ترسو السفينة فى مقلية نون علم بالحرب بين نابولى وفرنسا، فإن الركاب الذين يهبطون على البر (ومن بينهم سوسى) يجرى لبعهم على لهدى السكان (٢٠ يناير ١٧٩٩).

أما برلوميو الذى لا يحتل تسلط بوناپارت والذى فصل مذكورة مكرسة لأطلال

الإسكندرية، تم تقديمها إلى المعهد (الجمع العلمي) للمصري تحت عنوان «الزمن يهمر الأشياء»، وهي مياصرة اعتبرها الجميع استغراباً ضد بونابارت، فإذ يحصل على إجازته بمجرد طلبه لها (١٠٤). وإذا برحل وحيداً سافراً بعد وقت طويل من رحيل موسي، فإن سفينته يجرى اعتراضها من الأخرى على سواحل إيطاليا الجنوبية. وعند إلقاء القبض عليه، تساء معاملته إسامة بالفة وذلك بسبب الدور الذي كان الخارس القديم من لوسان مألطه قد لعبه في استسلام أخوية الفرسان. وعند الإفراج عنه، يموت بعد ذلك بوقت قصير، لأن الأسر كان قد فوض صحته. أما الجنرال ديما، والد (الكاتب) الكسندر، والذي جمع بشكل غير متماسك بين نزعة جمهورية معارضة لبونابارت والبحث عن الكنوز المملوكية، فهو يحصل هو الآخر على الإجازة التي يطلبها (١٠٥).

اللهو والتسلية

يلعب بونابارت كل شيء من أجل تقليل سأم الفرنسيين. وهو يشجع المشاريع التي يمكنها إلهاء الجيش. وتحبى فرق الموسيقى العسكرية حفلات موسيقية في جميع الأيام بعد الظهر، قرب المستشفيات العسكرية، سعياً إلى بث البهجة في صدور المرضى. ويجرى تشجيع الفرق للمسرحية المؤلفة من الهواة. وهي، في التو والحال، سوف تسلى الجنود، و، في المستقبل، سوف تكون وسيلة فعالة لتقنين المصريين (١٠٦). ويتم تزويد القوات بإمدادات غذائية كافية لأن تهديد قدر الإمكان شعورها بالاعترا ب (١٠٧). ويجرى التصريح بإنشاء مقام على الطراز الأندلسي. وفي ٢٠ نوفمبر يتم افتتاح منشأة للاستمتاع بوقت الفراغ على غرار تيفولي في باريس حيث توجد حديقة فرنسية الطراز وقاعات للعب ولحفلات الاستقبال، وقاعة للمطالعة.. إلخ. وفي تلك المناسبة، يلحظ بونابارت بولين فوريه، وهي زوجة ملازم في قوة القناصة (١٠٨).

وكمصدر آخر للإلهاء، تعاود للمسوتية الظهور على شكل محائل غير منظمة. والواقع أن الثورة كانت قد قضت على ماسونية النظام القديم ويتواجد كثيرون من الماسون القدماء في صفوف كواكب الجيش. ويصبح بوسعهم الاستغاثة من الانفراج السياسي لإمادة إنشاء محائل مستلهمين الأعراف القديمة. ولدى عودتهم من مصر سوف ينظمون وضعهم بمطالبة للراجع الأعلى بمنحهم نساتير منظمة، وهو ما سوف يحصلون عليه. وفي ظل الإمبراطورية، فإن انشاء أصل مصري سوف يعود على هذه المحائل، وقد أصبحت

أدوات للسلطة الإمبراطورية، بهيئة سرية مؤكدة وبشهادة ولاء لشخص ناهوليون في أن واحد. كما سوف يجرى الإكثار في هذه الأوساط من دعاوى الارتباط بجيش الشرق والمسيحة إليه لحيلته، وهو جيش مؤلف على الأرجح من ماسون سابقين ولاحقين بأكثر مما هو مؤلف من ماسون حاليين. وسوف يجرى التأكيد، نون أن ينفي الإمبراطور تلك، على أن الجنرال بوتاهارت قد استلزام هو نفسه من إقامته في مصر لكي يكون ماسونياً (١٠٩).

التدابير الصحية

كما يهتم القائد العام بالحالة الصحية للجيش، وهو يهدي في مصر اهتماماً بالخدمات الصحية سوف يفقده عندما يصبح إمبراطوراً. والحق أن الفرنسيين في مصر يتعين عليهم مواجهة أمراض غير معروفة في أوروبا، ومرض الرمد - النكاسي عن ارتداد الضوء والذي يسبب عمى مؤقتاً أو دائماً - إنما يصيب عدداً كبيراً من الجنود. والطامون خطو مثل باستمرار، ويجري تكثيف تدابير الوقاية، وذلك على الرغم من عدم الدراية دائماً بأسباب هذا الداء (١١٠). والإجراء الوحيد الفعال، وهو الحجر الصحي، يتخذ طلباً منهجياً مع إنشاء محاجر صحية في اللواتي والمدن الكبرى. ويجري تكثيف لجان قضائية بإصدار الأحكام بشأن المخالفات للقواعد الصحية. وقد تكون عقوبة الإعدام ضرورية ضد أولئك الذين لا يراعون الحجر الصحي، وعزل المرضى وإعدام أفرادهم. وهكذا سوف يتم التوصل إلى منع انتشار الوباء في البلاد، وليس إلى منع انتشاره داخل مدينة كبرى عندما يدخلها. ويجري إنشاء ثلاثة مستشفيات عسكرية، حيث تقام واحدة في قلعة القاهرة، وتقام الأخرى في منخل الحى الأودوى قرب النيل. ويسهر القائد العام بشكل خاص على ضرورة حصول المرضى على رعاية جيدة ويتم إنزال عذاب صارم بالموظفين للمهملين أو للخطسين. (١١١)

المعهد [الجمع العلمي]

يشكل المعهد المصري مركزاً للتقارير حول مختلف الأمراض في البلاد وينشر التعليمات من أجل منع هذه الملل وعلاجها. وهذا جزء من نشاطاته، التي لم تكف لتوقف من جراء تمرد القاهرة، الذي كان قد تسبب مع ذلك في مقتلان عديد من الآلات العلمية (١١٢). ويجري تكثيف رحلات التدقيق عن الآثار في أثر الجنود الذين يقومون بالفتح. كما تجرى دراسة الزراعة والحرف المصرية بهدف تسجيلها ونظمها في أن واحد،

بالاهتمام باستغلال أكثر عقلانية ماثل باستمرار. وهكذا يقترح المعهد إنشاء حديقة للنباتات مكرمة للمحاصيل الكولونيلية (القطن، البن، الذيلة، قصب السكر.. إلخ)، تحت إشراف مستوطنين سابقين في سانتو دومينجو وسوف تكون بمثابة مدرسة زراعية بالنسبة للمصريين (١١٢).

إلا أنه لا يجرى الاهتمام إلا بالأشياء. وكان يجهز قد ارتأى تنظيم خدمة طبية بالنسبة للمصريين. وصحياً إلى احتواء تحفظاتهم تجاه اللقاحات الأوروبية. فإذ يرى هو وزملاؤه التحرك عبر المؤسسات الخيرية الإسلامية. وقد أدت هذه الأخيرة، والتي أعاد الفرنسيون تنظيمها، إلى توريد السكان على الطب الجديد. وهو يؤكد بشكل خاص على ضرورة إنشاء مدرسة للحكيمة ونشر الطعام. كما أن الملاهي سوف تصبح مراكز لتعليم ونشر اللغة الفرنسية. وتبقى لهذا التعليم أنواع من المدارس الأولية (١١٣). على أن غياب الإمكانيات المالية يحول دون تحقيق هذا المشروع الذي لن يتجسد إلا بعد ثلاثين سنة، في عهد محمد علي.

والمعهد هو أداة الحضارة بامتياز. ومكتبته ومعامله مفتوحة للمصريين الذين يجرى استقبالهم بأقصى حد من الحفاوة. وقد زاره الجبرلي عدة مرات. وتحتته المكتبة التي تسمح بالوقوف على جميع العلوم. ويحوز الفرنسيون حشوداً تمثل عديداً من الموضوعات، من النسي والخلفاء الراشدين وأماكن الإسلام للخدمة إلى الأدوات التقنية وإلى اللوحات النباتية والتشريحية. وهم يجرعون تجارب علمية أمام زائريهم، دون أن يتربصوا في التأثير عليهم بتلاعبات على الكهرباء (١١٤). إلا أنه إذا كان العلماء يعتبرون ذلك كله، محققين، غير علمي، فإن بالنسبة لهم ليس غير نتائج العقل الذي يعتبر، في ترتيب المعرفة، أدنى منزلة من الرحي. وهكذا فإنه الشيخ للهدى، عند حضوره مناقشة في المعهد حول اسمك للنيل، يطلب الكلمة لكي يقول: إن النسي قد أعلن أن هناك ٣٠٠٠٠ نوع من المخلوقات، ١٠٠٠٠ على الأرض وفي السموات و ٢٠٠٠٠ في الماء. ومن ثم فإنه لا يجب التهوريل من شأن وضع العلوم الأوروبية، في عصر كانت الثقافة الإسلامية التقليدية ما تزال مهيمنة في سيطرة تامة (١١٥).

ولا يهمل المعهد الثقافة العربية. ويعرض مارسيل أمام زملائه في خطوط هريضة لشكل الأنبياء العرب، ترجمة للنسوة الاستهلالية للقوانين (الفاتحة)، مقتطف من كتابات الجغرافيين العرب من مصر، لوحة عن الحكايات العربية. وبالنسبة للشمع، يعرض قصيدة لنفولا الترك حول فتح مصر مهيبة إلى بونلهارت:

الشهم بوناهارته	ليث الوغى والاعتدار
من فاني قدراً ولدتني	لوج العلا وسما الفخار
تعب توحد بالورى	بشهامه ذات امتبار
نهر المالك حمة	وغنا البلاد مع الديار

وهذا المثال يسمح لمارسيل بأن يفسر لزملائه عناصر الكتابة الشعرية العربية (١١٨). ويتهج بوناهارت بهذا النص الذي يفكر في إحدى اللحظات في نشره مستقلاً ليتم توزيعه في الشرق كله (١١٩).

والحال أن مارسيل، المستشرق الشاب والمثقف، وصديق نقولا ألتون والمهدي، هو أيضاً مدير للطبعة الوطنية التي تنشر صحيفتي الحملة والبهانات الرسمية والأوامر اليومية والوائح التنظيمية والتنبيهات الطبية. وهو يقوم بتشغيل أول مطابع بالعربية وبالفرنسية تقام في القاهرة، ويدرب في هذه للهيئة متدربين مصريين من الشبان. وهكذا فإن الطباعة هي من عمل الفرنسيين في مصر في حين أنها من عمل الحكومة العثمانية في اسطنبول ومن عمل الرهبان المسيحيين في جبل لبنان. وعودة الطباعة إلى الظهور في مصر في عهد محمد علي سوف تكون نتاج كل هذه المؤثرات (١٢٠).

المنطقة

كما يشهد العلم استخدامات سياسية له. ويريد بوناهارت التأثير على المصريين بإطلاق منطاد في ساحة الأزكية (٢٠ نوفمبر ١٧٩٨)، ويعطو المنطاد لبضع دقائق، إلا أنه بسبب خلل فني، يسقط على الأرض. وبالنسبة للجبرتي فإن هذه المجزة التي يجرى القيام بها على الملأ ليست أكثر من «الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والأمراح» (١٢١) ويجري استئناف التجربة في ١٦ يناير ١٧٩٩، حيث يقطع المنطاد شوطاً أبعد لكنه يسقط على الأرض في مدى بصر للتفوجيين، وهو ما يلهم للجبرتي هذا التعليق الجديد: «لو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لامت الحيلة وقالوا أنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم» (١٢٢).

ويضطر الفرنسيون إلى الاعتراف بالفشل التام لهذه المحاولات، ولقد صعدنا من

الانعدام المطلق للفضول من جانب بعض الأكراد وأسمنا الوحيدين الذين رصدنا ذلك؛ وقد رأينا منهم من يجتازون ساحة الأنيكية دون أن يتكروما بتوجيه أنصارهم إلى الموقع الذي شد أنظار الجميع. (١٢٢)

الأحوال المالية

كما رأينا فإن الصور الإمكانات المالية هو الذي يحد بشكل ملحوظ من مشاريع الفرنسيين التمديدية. وكان بوناهارت قد نظم إنارته للشئون المالية على هيئة إنارتين تتبعاته بشكل وثيق. فمن جهة، فيما يتعلق بالنفقات، نجد خزينة الجيش التي يرأسها الآن العام بالصرف سوسى والذي خلفه نور. وهو يأتى بصرف النفقات لأمين الصندوق العام استيف، الذي يقوم بمراركية صرافى الفرق، ويتعين على القائد العام باستمرار أن يحظر على الجهنرالات تجاوز الاعتمالات للخصصة لهم من أجل قيامتهم الإقتصادية أو تعديل بخود صرفها. وهذا واحد من بواعث الخلاف الأول بين بوناهارت وكليبر. ومن جهة أخرى، فإن الإنارات تتبع الإنارة العامة للشئون المالية، وهى الإنارة المندية الرئيسية للحملة، والتي عهد بها إلى بوسيلج. وإنارته مخططة لهى تضم الأملاء الأكتباط والموظفين الفرنسيين إلى جانب موظفى الشئون المالية العثمانيين (١٢٣).

والوضع معقد بقدر ما أن الفرنسيين بحاجة إلى عدة أشهر لهم ليات النظام الضريبي لمصر العثمانية. والحلجز القوي والثقافى والتخصص لضيق للموظفين المحليين الذين يفتقرون إلى النظرة الكلية يجعلان المهمة صعبة، وذلك بالرغم من المساعدة التي لا تقدر بثمن والتي يقدمها عدد من الأكتباط كالمعلم محسوب، وخاصة للعلوم التي يقدمها المندية عثمانيون كحسين الهندى (١٢٤).

ومن ثم فإن الفرنسيين لا يسمعون إلى تعديل مبادئ إنارة لا يحسنون فهمها. وهم يكتفون بإضافة إنارة التسجيل التي تنطوى علوة على ذلك على ضريبة عقارية وضريبة مهنة على التجار والصرفيين، والقروض الإجبارية. وبما أن ثلثى الالتزامات قد أصبحت ملكيات عامة، فإنهم يعرضونها لى مزلزلات. ويعنى هذا العرض بإخفاق تام يهدد مجمل نظام الالتزام. ومن ثم يتعين اتخاذ إجراء تحفظى، وتمشيا مع منطق السياسة البريطانية للفرنسيين والتي تملئها الظروف، يقود بوناهارت بموجب أمره اليومى الصادر لى ١٢

هلوفيوذ من العام السابع (الأول من فبراير ١٧٩٩)، جعل جميع مهايخ القرى غير
للمنوحة كالتزامات ملتزمين للراهم. وعلى الرغم من أن ذلك يعتبر بالأحرى نقلاً بأكثر
مما يعتبر تحولاً، فإن الدولة تصبح من جديد مخاطب الفئة الأعلى بين فئات المجتمع
الريفي ويتم وقف التطور نحو تأسيس طبقة من كبار ملاك الأرض فعلياً وإن لم يك بحكم
قانون. ومعياً إلى حماية الفلاحين، لا يمكن للملتزمين الجدد أن يطلبوا من دافعي
الضرائب إليهم أكثر مما كان مطلوباً في العام السابق. وهذا التدقيق لحسابات الالتزام
يرافق مع انتهاء تقويم ضريبي، وهو إجراء مؤات للفلاحين لأن الملتزمين السابقين كانوا
قد امتدوا أن يقدموا بشكل متزايد موعد سداد الضرائب إلى درجة أن السنة الضريبية
تقدمت ستة من السنة الفعلية (١٦٦). ومن الواضح أن الفلاحين يواصلون مقاومتهم
السلبية التقليدية لجباية الضرائب، التي لا تتم في أغلب الأحوال إلا بفضل الوجود الفعال
لوحدة فرنسية.

وهكذا فإن الفرنسيين، دون خطة حقيقية موضوعة مسبقاً، وبسبب الضرورات
الأكثر إلحاحاً، قد بدءوا في تعديل هيكل مصر الريفية بشكل ملحوظ. لكن الأزمة المالية
تستمر في المدى للباشر، جارةً إلى تاخرات طويلة بشكل متزايد في دفع للرتبات
والمستحقات. حتى أن انتهاء هبوط النيل يسمح بالعودة إلى ظروف حركة طبيعية في الالتقا
ومن ثم يسمح بجباية أسهل للضرائب؛ ويجري تنظيم إحصاء للممتلكات العامة
بشباط (١٢٧). ويتم تأسيس شركة مصر، للكلفة بجميع للمضاربات التجارية، والجيش
مساهم فيها لكن التجار المسلمين والمسيحيين مساهمون فيها هم أيضاً. وهؤلاء الآخرون
يرون فيها بشكل خاص شكلاً جديداً لانقزاع ضرائب منهم (١٢٨).

والواقع أن حصار مصر كان قد توقف تجارة الترانزيت أو التصدير للربحة.
والخاسرون الكبار هم كبار التجار المسيحيين والمسلمين. وفي المقابل، يبدو أن أسعار المواد
الغذائية تنخفض في تلك الفترة وأن النشاط الاقتصادي الذي ولده وجود الجيش إنما يهد
الطبقات الشعبية من باعة التجزئة والحمالين والصوفيين والحمارين والقولدين
والمرمسات.. إلخ، والمتصلين بالجنود على نحو دائم (١٢٩). وهؤلاء الآخرون يعتادون بلع
ما عليهم وهم، بدرجة خاص، لا يقيمون علاقات «حماية» مع التجارة للدينية الصغيرة،
خلافاً لنظرائهم العلمانيين. وحتى إذا كان عوام المدن قد قدموا الجمهور المحرك لانقضاة
للخامرة، فإنهم الفائزون على المستوى الاقتصادي. ومن جهة أخرى فإنهم يستفيدون من

الوضع، بما يثير عظيم سخط علماء متنزّتين مثل الجبرتي، لإحياء عهد من الاحتلالات الصولية الخارجة على السنة إلى هذا الحد أو ذلك (١٢٠).

استعادة الديوان

في لواخر ديسمبر، يشعر بوتاهارت أن الوضع في القاهرة ملائم لاستعادة الديوان. ويهاج إلى سكان المدينة يشير إلى الصورة شبه الخلاصية التي يمتصوها من رسالته الشرقية وذلك قبل للحملة على سوريا.

«العامل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته وقضائه، ومن يشك في ذلك فهو لحق وأعمى البصيرة. وأعلموا أيضاً أمّتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكمير الصليبان على يدي، وقدر في الأزل بعد ذلك أن أجيء من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وأجرا الأمر الذي أمرت به ولا يشك العامل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه. وأعلموا أيضاً أمّتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات أخر إلى أمور تقع في المستقبل [...]».

«وأعلموا أيضاً أنني أقدر على إظهار ما في نفس كل واحد منكم لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وإن كنت لا أتكلّم ولا أنطق بالذي عنده ولكن يأتي وانت يظهر لكم بالمعانيّة أنني كلما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد وأن اجتهد الإنسان بغاية جهده ما يمنعني من رضا الله الذي قدره وأجره على يدي، فطوبى للذين يمارعون في اتعابهم واهتمامهم معي مع صفا النية وخلص السريرة» (١٢١).

ويوضح الجبرتي أن القائد العام بحسب نفسه للهدى أو النبي نفسه في حين أن مسلكه يثبت العكس (١٢٢).

وسوف يتلقف الديوان العمومي الجديد من ستين شخصاً، من علماء وموظفين منبهذين من الميليشيات ومن تجار القاهرة ومن الأقباط (١٢٣). وسوف ينتخب أعضاؤه ديواناً مصغراً وباناً من أربعة عشر عضواً حيث يشكل العلماء الأغلبية ويستأنف دور المهلّغ والوسيط لدى السلطات الفرنسية ودور مندوب رعاية هذه السلطات نفسها لدى المصريين.

تنظيم القضاء

في الفترة نفسها، يضطر بوناپارت إلى إضفاء تنظيم انتقالي على القضاء. وكانت أحكام الإعدام قاصرة على قضاة المالكات المباشر وليس على قرارات القضاة. والحال أن ميتو كان قد حضر أمام مجلس عسكري خادماً يهودياً كان قد قتل سيده، وهو أخ له في الدين. وعلى الرغم من أن للمجلس العسكري قد أعلن أنه غير مختص بالنظر في القضية، فإن ميتو قد أمر بإعدام المتهم ومياً بالوصاص (١٢٥). وسعياً إلى تجنب عودة حالة مماثلة، فإن بوناپارت، في أمره اليومي الصادر في ٢٠ نيفوز (١٢ يناير ١٧٩٩)، يقرر أن جرائم سكان مصر إنما يرجع اختصاص النظر فيها بشكل طبيعي إلى المحاكم الإسلامية. إلا أنه إذا كانت هذه الجرائم تهدد الأمن العام لو إذا ما قرر قائد الإقليم تحويل القضية إلى محكمة فرنسية، لسوف تتشكل عندئذ لجنة قضائية مؤلفة من أكبر ثلاثة ضباط في الإقليم ومفوض حربي ورئيس الديوان والمنسوب الفرنسي. ولن يكون بالإمكان تنفيذ أحكام الإعدام إلا بعد تصديق القائد العام عليها. والواقع أن الدواوين الإقليمية وديوان القاهرة سوف يكون لها دور نشيط في العمل القضائي. وهكذا فإن للفرنسيين سوف يضطرون إلى مراقبة عمل المحاكم وسوف يكتشفون أهمية حكم النية الذي يحول العدد الأكبر من أحكام الإعدام بسبب جرائم القتل إلى تعويض مالي يدفع لأسرة الضحية، وتهدف هذه القاعدة إلى الحد من أعمال اللُصا الطويلة والدموية بين مختلف العشائر الفلاحية. ويأمل الفرنسيون في القضاء يوماً ما على هذا التعويض الذي يفسرونه على أنه زلل بربري.

انضباط الجيش

كما يسهر بوناپارت على صون الانضباط في الجيش. وهو يسعى إلى تجنب كل ما من شأنه أن يهدو في نظر السكان المصريين على أنه استغزازات من جانب الجنود الفرنسيين. فكفالة حماية للسكان تبدو بالنسبة له وسيلة دعائية رائعة. وهكذا، فإن لا يتردد في الحكم بالإعدام على ثلاثة جنود متهمين بقتل مصرية خلال محاولة سرقة. وكان الديوان قد عرض القضية على بوناپارت (١٢٦). والأرجح أن المحكوم عليهم كانوا أبرياء ويعرف الجنرال ذلك، وفقاً لما تضمنه به ليدجينييت: «إن أي قائد عام يجب أن يتمتع بسلطة هائلة. فكيف يمكن بحق الشيطان معالجة رجل تعهد إليه الدولة أحياناً بأرواح مائة ألف

رجل ويحق معاقبة الجرائم باللغة الجسامة بما يتراعى له... فعاندا بعد ذلك؟ لقد اتعنت هؤلاء للمتعبين قبل الحكم عليهم. وعندما جذبت أنطوان من ياقة قميصه وقلبت له، اتعل، ليها للشقى، حتى أواجهك بشريكك، كان غير مصدق؛ ومع ذلك ليالهم من رجال، يالهم من أناس يتعين عليهم وحدهم كسب معركة [...] كما أن الأتراك كانوا بحاجة إلى أن أقسم عبدة [...] ألا تعرف كيف مات هؤلاء للدفعيون؟ لقد ماتوا كقياصرة، بل وهم يبدون حبهم لى، وقد ذهب أحد زملائهم لشرب النبيذ معهم فى السجن. وهناك قال لهم: وهناك على لية حال شيء ما حقيقى فى كل ذلك، وإلا ما كان بوناپارت قد حكم عليكم فى نهاية الأمر، لتأجيله، وأسكت، إنك لا تفهم ما تقول، لقد جانتبه للصواب هذه المرة أيضاً كما فى مرات أخرى كثيرة، والأمير سيان، لنشرب نخباً فى صحته». (١٣٧)

وفى غرب الدلتا، يظل الاضطراب متوطناً بفضل عمل عهد الملك بلشى الذى ينجح فى إبعاد اتصال بين بنو أولاد على والإنجليز والمماليك (١٣٨). ويحدد الفرنسيون دمنهور بوصفها المركز الرئيسى للمقاومة (١٣٩). وتعرض للهجوم سفينة نهرية تقطع للسافة بين رشيد والقاهرة. وينجح الفرنسيون فى الإغلات ويستقبلهم شيخ بلد قرية الجداى الذى يدافع عنهم بالسلاح (١٤٠). ويقود ميتر العقاب بقسوة ويأمر بإلقاء القبض على المتصلين بالإنجليز وبالمماليك وإعدامهم رمياً بالرصاص (١٤١). وهكذا فإن مشايخ قرية إيكو، قرب أبو قير، يجرى إعدامهم رمياً بالرصاص علناً فى رشيد فى ٢٢ برومير (١٢ نوفمبر ١٧٩٨) (١٤٢).

ولمض بعد ارتياح ميتر إلى هذا القمع، يقرر إرسال مورا وطابوره للتحرك إلى دمنهور التى يتم احتلالها فى ٢٧ نوفمبر. ويجرى إعدام الزعماء المشتبه فيهم رمياً بالرصاص وفرض خرائب باهظة على المدينة (١٤٣). وبعد ذلك مباشرة، يتحرك مورا لمطاردة البدو (١٤٤). ويجرى إحراق عدة مخيمات عربية، لكن الشخصيات الأكثر أهمية تنجح فى الإغلات. ولا يجد لوتيرك أعياناً يمكن أن يصبحوا مسئولين عن دمنهور غير لشخاص بلا مرجعية حقيقية (١٤٥). وبعد تهديته البلد بهذه الطريقة، يستدعى بوناپارت مورا إلى القاهرة ويخلف الوجود العسكرى فى المنطقة.

وفى الإسكندرية، كان مافسكور قد أثبت أنه لا يمتلك الفضائل المطلوبة لتولى قيادة مواقع على هذه الدرجة من الأهمية. فهو يبدو عاجزاً عن إنزال العقاب الصارم فى الوقت المناسب فى مسألة اختلاس فى الإبرة. وكان ميتر ومارمون قد أهلكا القائد العام بالعدم كلمة قائد الإسكندرية. وكان هذا الأخير قد لاقم قضيته بإرساله رسولا إلى الأسطول

الإنجليزى دون أن يحصل على تصريح بذلك (١٤٦). ومن ثم يقرر بونابارت تعيين رفيقه مارمون لتولى هذه القيادة. ومينو هو الذى يبلغ مارمون بترقيته (١٤٧). ويتوصل مانسكود إلى الحصول على موافقة بإعاقته إلى فرنسا شأنه فى ذلك شأن دولومير.

بعثة بوشان

إذ يبدأ بونابارت فى الانزعاج من الوضع الأوروبى، إثر أخبار قليلة الوضوح تصل إلى مصر، فإنه يقرر إرسال رسول إلى الأسطول الإنجليزى. وهو يختار ملازم جنود الطليعة جيبير الذى يكلف بأن يعرض بشكل حذر إمكانية عقد صلح بين فرنسا وإنجلترا. ويتم اللقاء فى ٢٢ نوفمبر. ولا يحصل جيبير إلا على القليل من المعلومات الجديدة لكنه يقدم عروضاً يفتون محاوريه يستقبلونها استقبالا إيجابيا (١٤٨).

ولا يجد بونابارت فى هذه العلامات تشجيعاً، فإنه يقرر عندئذ إيفاد القنصل وملم الفلك بوشان إلى القسطنطينية. وكان هذا الأخير قد وصل فى الوقت المناسب إلى مصر بعد رحلة سياحية فى الإمبراطورية العثمانية لكى يتولى قيادة مواقع أرساد فلكية. وهو يرحل على متن سفينة «الريال» العثمانية الشهيرة التى تنتظر منذ شهور التصريح لها بمغادرة الإسكندرية ولتى تتصل منذ البداية بحركات المقاومة. ويتعين على بوشان التأكيد على الصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. والواقع أنه يتعين عليه إجراء تفاوض حيث يجد الفرنسيون أنفسهم فى مركز القوة: «إذا طرح عليك فى أى وقت السؤال: هل سيوافق الفرنسيون على الرحيل عن مصر؟ فعليك الرد بأنه ليس هناك ما يحول دون ذلك، شريطة أن يتمكن الإمبراطوران من إنهاء تمرد باسغان - أوغلو وأن يتخلوا عن مشروع تقسيم تركيا الأوروبية؛ وأنتا، من جهتنا، سوف نفعل كل ما من شأنه أن يكون مؤاتياً للإمبراطورية العثمانية ويحميها من أعدائها؛ لكن المدخل الأول إلى أى تفاوض، كما إلى أية مصالحة، هو صدور فرمان يأمر بالإفراج عن الفرنسيين فى أى مكان تم فيه إلقاء القبض عليهم، خاصة فى سوريا.

«ويجب عليك قول وفعل كل ما من شأنه أن يكون مناسباً للوصول إلى هذا الإفراج؛ ويجب عليك أن تعلن أنك لن تهيب بأذى لن أقزو سوريا، ما لم يجر الإفراج عن جميع الفرنسيين الذين تم إلقاء القبض عليهم، و. فى حالة ميلهم إلى احتجازك، سوف يكون بوسعى الاتجاه إلى غزة». (١٤٩)

والواقع أن السفينة تجد نفسها عاجزة عن الخروج إلى عرض البحر ولا ترحل إلا فى

١٢ فبراير ١٨٠٠، في لحظة كانت فيها الحملة على سوريا قد بدأت بالفعل. ويتم اعتراض سبيلها قبالة رودس من جانب الإنجليز الذين يقبضون على للمبعوث الفرنسي. وهذه العروض تثير غضبهم، فهم يخشون من أن يأخذ العثمانيون العروض للفرنسية ملأخذ الجهد. وهم يوضحون للعثمانيين أن بوشان ليس غير جاسوس فرنسي وأن رحلته السياحية في الشرق في السنوات الماضية إنما كانت تهدف إلى التحضير لحملة بوناپارت. وهم مستعدون للحكم عليه بالإعدام بتهمة التجسس ويطالبون بعتوبت ضد القبطان العثماني الذي وافق على أخذه على متن سفينة (١٥٠). وفي نهاية الأمر يتمكن العثمانيون من تهينة الإنجليز. وفي ٢ مارس ١٧٩٩، يتم تسليم القنصل لللكي، وربما الجاسوس، في رودس، إليهم. ويجري التحقيق معه من جانب الروس الذي في القسطنطينية ثم إرساله للحاق بالديبلوماسيين الفرنسيين الآخرين المحتجزين في قصر الأبراج العبيدة (١٥١).

كما يرسل بوناپارت إلى فرنسا فوراً حاملاً رسائل أصبح إرسالها ملحقاً بقدر ما أن القائد العام يريد الانفراج بزوجة اللازم للفرنسي. ويرحل الرسول في ٢٨ ديسمبر من ميناء الإسكندرية وفي اليوم التالي يجد نفسه أسيراً لدى الإنجليز. وبعد نقله في البداية إلى نابولي، تجرى إعادته إلى الإسكندرية حيث يتم الإفراج عنه بناء على وعد بالآ معاود للمحاولة، الأمر الذي أثار عظيم ارتباك البعض في مصر. إلا أنه لا يبدو أن الإنجليز كانت لديهم نية خبيثة، نظراً إلى بطء انتشار المعلومات في تلك العصر. والواقع أن القائد العام كان قد تمكن، في غيابه، من أن يجعل منام فوراً عشيقته له، تون مقاومة كبيرة، على ما يبدو، من جانب للمنية. وبفضل سلطاته كقاض، يأمر بوناپارت عندئذ بطلاق الزوجين. وعندئذ فإن الجنود الذين يملكون سارية بالتاريخ يلقبون العبيدة بـ «كليوباترا».

ملاحون الإسكندرية

تنزل كارثة حقيقية بالفرنسيين اعتباراً من ١٥ ديسمبر ١٧٩٨، إن الطاعون يعاود الظهور في الإسكندرية. وإذا يأخذ مارمون علماً بجسامة الموقف، فإنه يأمر بمرض حجر صلب (١٥٢). كما يسعى إلى تعزيز هيئة السلطات للسلمة، وذلك، على الأرجح، لكي يتمكن على نحو أفضل من الإمساك بزماء للمنية في هذا الوضع الصعب (١٥٣) وفي ١١ يناير، كان الفرنسيون قد لقنوا بالفعل خمسة وتسعين رجلاً، بالرغم من الاحتياطات

للتخلف، وكانت نسبة الولادات عالية بشكل خاص بين الفريق الطبي؛ وما يدعو إلى الاستغراب، أنه لا تحدث وفيات بعد بين المسلمين^(١٥٦). وتؤدي حالة المواصلات التي أصبحت صعبة بسبب الوباء إلى مطالعة الوضع الغذائي للمدينة وتجهيز مازمون على طلب العون من ميناء «بحق الرب» عزيزي الهندال، لا تتخل هنا وأرسل المال إليها. إن الجميع يصرخون من البؤس... أرسل إليها قمحا، فنحن لا نملك منه إلا ما يكفي لثمان وأربعين سلعة. إن سخط القوات لا حد له، ولن يكون من الغريب أن تتور. ولذا يجب أن ترسلوا إليها عونا، إنهم يموتون من الجوع^(١٥٧).

إلا أنه ينهى مواصلة منع الاتصالات بين عملاء للماليك والأسطول الإنجليزي. ويتم إلقاء القبض على مشهور مغربي في ٢ يناير قرب أبو قير. وبعد ذلك بثلاثة أيام يجري إعدامه رميا بالرصاص. ويتم رصد جماعة من للماليك مع عبد الله باشي بصبيها إلى الاقتراب من أسطول العدو، إلا أنه لا يتم النجاح في اعتراض صبيها^(١٥٧). وسعيًا إلى وقف الاتصالات بين الإنجليز والمقاومين، ينظم الفرنسيون عندئذ أسطولاً صغيراً من الزوارق الخفيفة بين الإسكندرية ورشيد وذلك بالرغم من الدوريات البحرية البريطانية. ويتم على الفور نصف أي تجمع مريب على الساحل^(١٥٨).

وفي شرق الدلتا، يستكمل بوناپارت فتح مصر باحتلال السويس. ويستولي الهندال بون على المدينة بون مقاومة ملحوظة (٧ ديسمبر ١٧٩٨). وينهك الفرنسيون على الفور في إمانة فتح للبناء أمام تجارة البحر الأحمر، أي أمام البين الذي ينقل عبر جده. كما يحلمون بالتمكن من الدخول في اتصال مع الجزر الفرنسية في المحيط الهندي.

نوايا الهنماليين

على ساحل البحر المتوسط، يواصل رينييه النضال ضد العدو ويواصل بشكل خاص مراقبة ما يمكن أن يجرى من سوريا. وأحال أن تقارير الجواسيس، على الرغم من تناقضها في أغلب الأحوال، تزيد المزشرات على نوايا إبراهيم بك وأحمد باشا الجزائر الهجومية. وينجح رسل ماليك عديون في اجتياز الخطوط الفرنسية والانضمام إلى مراد بك في مصر العليا^(١٥٩). على أن إحدى هذه الرسائل (التي ينقلها الرسل) يتم اعتراض صبيها وتوفر معلومات ثمينة.

إنها رسالة من الصدر الأعظم نفسه، يوسف باشا، مؤرخة في أول ديسمبر ١٧٩٨ وموجهة إلى إبراهيم بك (من الأرجح أن نسختها للموجهة إلى مراد بك هي النص الذي تم

اعتراض سهيل). وبعد استعراض لتمرد القاهرة حيث تجرى المبالغة بشكل زائد عن الحد في حجم الخسائر الفرنسية، يهني يوسف باشا الزعميين الملوكيين على مقاومتها الشاملة للفرنسيين، ويعلم التحضير لتحرك مشترك ضد مصر تحت قيادة والي دمشق، عبد الله باشا،

«من الضروري إننا لن نتهيأوا للسير في مصر مع هذا القائد وأن تحشدوا معاً خير الإمكانيات لسحق هؤلاء الكفار [...]؛ وسوف يجرى، من جهة البر، إرسال جيوش عظيمة إلى القائد المذكور سوف تنضم إلى القوات التي لديه بالفعل وسوف يجرى، من جهة البحر، تزويده على نحو بالغ السرعة بكل اللؤلؤ [...]، ولذا ينهني عليكم أن تواصلوا بحماسة كاذبة استعانتكم، وأن تستثمروا حماية البكوات والكشاف والقوات والعرب بإلهامهم مدى جلال القتال في سهيل الله بالنسبة لهم (١٦٠)».

الرحلة إلى السويس

كل هذه المعلومات تقنع بوناپارت بأن الخطر جدى، ولقيام بحملة وقائية على سوريا بفرض نفسه. وهو يفكر في البداية بأن يعهد بقيادة العملية إلى كليبر حيث أنه وضع قيادة عملية مصر العليا بين يدي بهزيه (١٦١). وهو يكتف ريثبه بالبدء في تهيئة للمستودعات في اللواتج الحدودية المصينة. والحال أن قطية، التي تسيطر على مدخل ساحل البحر المتوسط في سيناء، سوف تخدم كقاعدة انطلاق للجيش الفرنسي. والمشكلة الأكثر حيوية هي مشكلة نقل اللؤلؤ والذخيرة؛ ففيضان النيل، ثم هبوط النيل، وأخيراً أمطار الشتاء الشديدة في الدلتا وغياب طرق سالكة، كل ذلك يجعل من الصعب نقل كميات ضخمة من الأشياء الضرورية لجيش يخوض حملة. ويرى بوناپارت الاستخدام للمنهجى للجمال كنواب نقل (١٦٢). ويتقدم زحف الجيش.

كما ينهني التلكد من حياة بدو سيناء، وكان الزحف على القاهرة قد أثبت أهمية ذلك، ثم أنهم هم الذين يملكون الجمال الثمينة. وفي ٢٩ فريمبر (١٩ ديسمبر ١٧٩٨)، يعين رئيساً لجميع حرب مصر يحمل لقب الأغا، هو محمد إفا بن عبد الرحمن. ويتعين عليه التعرف على جميع القبائل التي تحارب الجمهورية، وأن يكون لديه جواسيس لمراقبتها في تحركاتها، سعياً إلى التمكن من إخضاعها وإجبارها على التزام الطاعة. (١٦٣) ويقرر القائد العام زيارة منطقة السويس بنفسه.

ولسبب هذه الرحلة استراتيجية في المقام الأول. فلأبد من صون اتصالات مع الدول المحلة على البحر الأحمر والتي يمكنها نقل رسائل إلى الجزر الفرنسية في المحيط الهندي

بل وإلى أولئك الأمراء الهنود المشاهير الذين من المتصور أن المرء قد جاء لتقديم العون لهم. ويجب السهر في الليلان على التعابير المتخلفة بشأن الهند. إلا أن هناك أيضاً الرغبة في دراسة إمكانية ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط عن طريق قناة وفي التعرف، في لحظة أولى، على خط الدفعة القديمة التي كانت تربط البحر الأحمر بالنيل. ويحرص بوناپارت حرصاً مطلقاً على ربط اسمه بهذا العمل الضخم.

وهو يعهد بقيادة القاهرة ونواحيها إلى كليبر خلال فترة غيابيه ويقامر المدينة في ٢٨ ديسمبر برفقة بيرتييه وكلفاريلي ودومارتان وجانتوم وبور، أي الأركان العامة، الهندسة والمدفعية والبحرية ومعتمدة الجيش الإدارية. ويوجد للعهد (للمجمع العلمي) ممثلين له في الأشخاص مودج ونيترور وديكوتيل ولويير وكوستاز ومما له دلالة أن شيخ تجار القاهرة المحروالي يشاركه في الرحلة مع تجار آخرين، وتتاح لهم الفرصة للإعجاب ببساطة وبامتثال حياة القائد العام (١٦٤).

وفي السويس، يتحدث بوناپارت مع قباطنة سفن البحر الأحمر وهو يبشر آنذاك باستئناف للعلاقات التجارية، خاصة مع الحجاز. والحادث لهم الوحيد هو أن القائد العام بعيداً من رفاته، الذين يضلون طريقهم خلال ليلة ٢٨ ديسمبر، يفلتون بالكاد من الفرق بحيث يصعد مد البحر بسرعة بالغة في تلك المنطقة. وهو يشير بنفسه إلى أن ذلك كان من شأنه أن يمثل موقفاً جدياً رائعاً لوحظة تدور حول فكرة فرعون جديد (١٦٥). ويجري عقد اتصالات مثمرة مع بنو سينا وعلى طريق العودة، يتفقد بوناپارت تحصينات بلبيس، ويستفيد من وجود حرسه القوي لمهاجمة مخيمات البدو للتمرديين. ويصل إلى علمه أن القوات العثمانية الأمامية قد احتلت القريش، ويرجع إلى القاهرة مساء ٦ يناير.

الاستعدادات لحملة سوريا

منذ تلك الساعة، يجري تكريس بقية شهر يناير للتحضير لحملة سوريا. ويكلف بوناپارت الطواشير للتحركة على طول الدلتا. لكي يخضع البدو بشكل حاسم ونهائي و، خاصة، لكي يستولى على مؤنهم وجمالهم. ويبرز فيردييه ومورا بشكل خاص في هذا النشاط. ويجري أخذ رهائن عديدين لضمان سكية مصر. ويتمثل تجديد تقني مهم في إنشاء القائد العام لفوج من راكبي الجمال يقصد من وراءه أن يكون سريعاً سرعة البدو ومن ثم يمكنه أن يكون أقدر على صددهم (١٦٦). كما أنه سوف يكتل النقل السريع

للمرسائل وتنوير الخطوط الأمامية للجيش ومراقبة المناطق الحساسة. ويجيء الولاء من صفوف المشاة، إلا أنه يجري معهم سلاح الفرسان. والزي العسكري لرجاله شبه أوروبي، شبه شوقي.

ويفكر بوناپارت في إنشاء مطبعة عربية يمكن نقلها ويصدر التعليمات للترتبة على ذلك (١٦٧). وهو يأمر بتدقيق قوائم الجمل على الساحية وقطية. فقد حدثت تصدعات للمشحن مع النقل بالنزول في بحيرة للنزلة. أما العتاد الأثقل، خاصة مدافع الحصار، فيعتبر نقلها برًا بسبب عدم كفاية الإمكانيات. ومن ثم يقرر القائد العام النقل بحرًا، وذلك بالرغم من خطر اعتراض الدوريات الإنجليزية.

وهو يعيد توزيع القيادات الإقليمية بتوسيعها وذلك بقدر ما أنه يسحب قوات متزايدة لتعزيز جيش حملة سوريا. وهو يشكر من القبط الذي يهديه مارمون في إرسال قوات إليه. والحال أن هذا الأخير يتمسك بمراعاة حصاره للقواعد الحجر. وفي المقابل، فإن القبط، الذي ظهر في الوقت نفسه في دمياط والذي يهدى ثلث الأعراف التي يهددها البناء في الإسكندرية، لا يجري تعريضه إلا بأنه حمى وبائية أو معدية بالرغم من وجود الدبيلات الطاعونية (١٦٨). ولا يستطيع بوناپارت أن يسمح لنفسه بفرض حصر دمياط في الوقت الذي يتجه فيه إلى تركيز قواته في شرقى القلعة...

ويتمركز لاجرانج في قطية (١٦٩)، في ٧ يناير ١٧٩٩، ويشرع على الفور في تحصين موقعه، خوفًا من هجوم محتمل من جانب العثمانيين من العريش. وينضم إليه بعد ذلك بوقت قصير رينيه وبقية لفرقة. وفي ١٧ يناير، يتلقى كليبر الأمر بتولى قيادة لفرقة المسابقة وإقليم دمياط. ويعتبر عليه إعداد تحرك قواته صوب قطية. أما لوجاء، الذي حل محله كليبر، فإنه يحصل على قيادة إقليم القاهرة. وهذا وضع مؤات لأن مينو قد عين لتولى هذا الموقع المهم خلال مدة حملة سوريا. وفي المساحة، يدرك كليبر الصعوبات الهامة التي يواجهها إمداد الجيش (١٧٠). وهو يصل إلى قطية في ١٦ فبراير ١٧٩٩. وسرعان ما يتحرك رينيه في اتجاه العريش. ويعتبر على فرق الجيش الأخرى التحرك بالانتاح نحو مواقع حشد الجيش.

وبوناپارت هو آخر من يغادر القاهرة فهو ينتظر التاجر هاملان الذي وصل تمًا إلى مصر، حاملًا أنباء جديدة من أوروبا. والحال أن تردى مركز فرنسا في أوروبا مع بدء حروب الائتلاف الثاني إنما يثير الانزعاج. وعشية الرحيل إلى سوريا، يبلغ بوناپارت

حكومة الإنلرة باستعداده للعودة إلى فرنسا، «إنا نلكنك، خلال شهر مارس، صحة تقرير للواطن هاملان وحملت فرنسا السلاح ضد الملوك، فسوف أرجع إلى فرنسا. وأنا لا أسمح لنفسى فى هذه الرسالة بأية تأملات حول مواقع أحوال الجمهورية، إذ لم يصلنى أى خبر، منذ عشرة أشهر. ونحن كلنا على ثقة تامة فى حكمة وقوة القرارات التى سوف تتخذها». (١٧١)

والى ١١ فبراير، يخبر القائد العام للقاهرة ليلحق بهيئة الصغير المؤلف من ثلاثة عشر ألف رجل (١٧٢) كلهم من للخضرمين القانرين على حمل السلاح، والذين يشكلون قوة صليبية نادرة الخصال. لكنه يستعد فى الوقت نفسه للعودة إلى فرنسا. وهذا هو عين ما يصور قسرتة على إجراء حسابات دقيقة للإمكانات وعلى تقدير مختلف الاحتمالات وصولاً إلى «تلك النتائج العظيمة التى يستحقها الخيال الجامع والمتحمس». (١٧٣) والعودة ليست غير باب للخروج يدهم مفتوحاً فى حالة فشل للحلم الشرقى. فمصر الواقعية ليست مصر التى يحلم بها الفاتح. وعلاوة على الضرورة الواضحة التى تتمثل فى تدمير الحشود العثمانية الخطرة فى سوريا عبر عملية وقائية، فإن حملة سوريا - أوبالأحرى حملة فلسطين - إنما تجد تفسيراً لها فى الحسابات وفى الأحلام على حد سواء. وهى تمسك بأسرار للمستقبل بأكثر مما تمسك بالعلائق الواقعية الحاضرة. إنها افتتاحية لوبديلة اللعبة كبرى، لم تنته بعد.

حواشي الفصل الخامس

١ - على سهيل اللال، رسالة مبنو إلى بونابارت، بتاريخ ٢٠ أيلول من العام السابع (١١ أكتوبر ١٧٩٨) : «سوف يكون لزاماً علينا أن نوزع، بهذه المناسبة، عددًا من المكاتبات بالمصرية، سعياً إلى نهاية هؤلاء السكان العصاة وسعيًا إلى إطلاعهم على خبث مراد وإبراهيم بك، وذلك بقدر ما أن هذين الأخيرين يوزعان هما أيضاً مكاتبات لها تأثيرها : إنني أبحث عن هذه المكاتبات؛ والحال أن ديوان رشيد هو الذي ينبغي إليها...» *Correspondance inédite ... Égypte*, II, p.105.

٢ - الجبرتي، المدد ومهاقيب الأتراك، ١٦ ربيع الثاني (٢٧ سبتمبر ١٧٩٨)، الإعلام العلني لأتدين من حاملي الرسالة.

Ibid. CUOQ comment, semble - t - il, un contresens en traduisant : - ٢ "avis est donné aux gardiens de l'ordre public de s'abstenir de plaisanteries et de lazzis sur les affaires qui touchent à l'autorité", au lieu d'"interdire au public de faire des plaisanteries ..." (p. 59).

Arrêté du 12 vendémiaire an VII (3 octobre 1798), - ٤ *Coorespondance*, V, p.36.

Aux commissaires ..., le 13 vendémiaire an VII (4 octobre 1798), - ٥ *Coorespondance*, V, pp.41 - 42.

٦ - المدد، ص ٦٠، لابد أن الجبرتي، الذي لم ينتم إلى الديوان الأول، قد شارك في الديوان العمومي. ويمكن استنتاج ذلك من بقية التامصيل التي لا يمكن أن تقرأ إلا لشاهد عيان.

Jabarti donne tels quels ces noms qui diffèrent grandement, on l'a - ٧ vu, des ethniques utilisés dans l'Empire Ottoman. C'est probablement pourquoi il parle de galimatias.

Dans les *Aja'ib* seulement. Cette phrase n'existe pas dans la - ٨ *Mudda*.

JABARTI, nécrologie de l'année 1227 ; il note que l'on mit sur son - ٩ cercueil un turban encore plus grand que celui qu'il portait de son vivant.

Le 6 octobre 1798, NAPOLEON, XXIX, P.596.

- ١٠

١١ - Extrait de *Tuhfat an - nazirin fi man waliya Misr ...*, édition de 1281, pp. 182 - 183. La traduction est de Gilbert DELANOUE, *Moralistes et politiques musulmans ...*, I, p. 85.

JABARTI, *Mudda*, p. 63.

- ١٢

JABARTI, nécrologie de l'année 1223. DELANOUE, I, pp. 251 - 254.

١٤ - الجبرتي، وفيات سنة ١٢١٦. لا يجب الخلط بينه وبين الحنولي أحمد الحنولي للعصر له (DELANOUE, I, pp. 185 - 242).

١٥ - الجبرتي، وفيات سنة ١٢٢٤. انظر أيضاً رسالة تليان إلى مينو، بتاريخ ١٨ أيلول من العام السابق (٩ أكتوبر ١٧٩٨)، والتي جاء فيها أن الفهمي هو من القلائد الذين يعتبرون أصيلة للفرنسيين (B6 9). ويتعلق الأمر بمطالب حول ممتلكات الوالد، انظر في ٢٠ أيلول من نفس سنة من القرن للطلع (B6 9).

JABARTI, nécrologie de l'année 1230. NAPOLEON. *Campagnes d'Égypte, Correspondance ...*, XXXIX, p. 575 :

«إن الشيخ المهدي، الأكثر بلاغة والأوسع علماً والأكثر شهاباً بين مشايخ الجامع الأزهر، كان أيضاً الأكثر لمة. لقد ترجم البيانات في أبيات شعرية عربية. إن أبياتاً شعرية قد جرى استظهارها ولا تزال ترد في أصناف صحراء أفريقيا وشبه الجزيرة العربية، (التأكيد نفسه في P.582) : ويظهر ذلك إلى مدى نجاح المهدي في مغالبة رومانسية بونابرت الاستشرافية.

١٦ - إن رواية نابليون موحية فيما يتعلق بهذه المسألة، حتى وإن كان نابليون يشوه الحقائق ويرتكب تشويشات تتعلق بالتسلسل التاريخي للأحداث : «لم يتردد نابليون الكبير؛ لقد أعلن بالإجماع أن قوانين الغرب تنحصر مع روح كتب الحقيقة [القرآن] وإن بلاد العرب كانت معكومة بهذه المبادئ في زمن الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين؛ وإن لهذا الإقطاعي، الذي ينهب إلى أن الأرض كلها تخص السلطان، قد جاء به المثل والقتال والأتراك؛ وأن أجدانهم لم ينضموا له إلا مكرهين. وقد أجرى مناقشة حامية حول القضاء على الملتزمين وتحرير أراضي الأثر. وكان الأثمة خائفين على ممتلكات للساجد. وكان الملتزمون إقليمية في النيران، لما مشايخ البلد للرسول منسوبين عن القرى لهم وحدهم الذين أكتوا على تحريرها» *Campagne d'Égypte, Correspondance ...*, XXIX, p. 592. وفي بقية نصه، يتحدث من الإلغاء للنوى للالتزام، والذي لن يتكرر إلا بعد ذلك بكثير.

١٨ - رسد نيلون مصر العمومي على الأسبلة التي وجهها إليه الملك العام. *Correspondance Inédite ...*, Égypte, I, pp. 412 - 419.

Correspondance ..., V, pp. 87 - 88.

- ١٩

٢٠ - *Correspondance ...*, p. 95. ٢٠ أكتوبر يجرى نشر القرار المتعلق

بالنوازين، إن ثلثها سوف يتكلم من علماء وسوف يتكلم الثلث ثان من توار، بينما سوف يتكلم الثلث الأخير من مهايخ البلد (PP. 107 - 109).

JABARTI, *Mudda*, pp. 64 - 65. - ٢١

JABARTI, *Mudda*, pp. 67. *Histoire Scientifique ...*, IV, pp. 137 - ٢٢
- 141.

JABARTI, *Mudda*, p. 67. - ٢٣

Sur ces questions : voir Bernard LEWIS, "Les concepts - ٢٤
islamiques de Révolution", in *Le retour de L'Islam*, Paris, 1985, pp. 51 - 67;
From Fitna to Thawra", *Studia Islamica*, 1987, pp. 149 - 174 ; Leon
ZOLONDEK, "French Revolution in Arabic Literature", *The Muslim Word*,
vol. 57, n° 3, 1967, pp. 202 - 211.

Histoire Scientifique ..., IV, pp. 182 - 183. - ٢٥
الكبراء وضمرة الأشياع قد هونوا في التمرد من خلال ارتكاب فظائع خسية، فإن الطبقة المتوسطة
قد بدت أكثر عقلًا وأكثر إنسانية.

Mudda, p. 68. - ٢٦

Histoire scientifique ..., p. 154. - ٢٧

Nécrologie de l'année 1213. - ٢٨

- ٢٩ - هجائب الآثار، ربيع الثاني ١٢١٩، فلم بوساطة غير مثمرة بين محمد علي والأمراء.

- ٣٠ - تتلق رواية للبدع ورواية التاريخ المعاصر، تلمح حول سهر الأحداث، بما في ذلك حول
شعارات كشعار الموت للكفار.

- ٣١ - للبدع، ص ٦٨. إن الشيخ الحرفاوي، المعتقل، قد رفض الانضمام إليه منكرًا وجوده
في بيت.

IV, p. 159. JABARTI ne mentionne pas cet incident. - ٣٢

Ibid, pp. 182 - 183. - ٣٣

La JONQUIÈRE, III, p. 279, qui cite le journal de Detroye. - ٣٤

- ٣٥ - إن حوليات الجبهتي تصبح مشوشة في تلك اللحظة وتعمل إلى الخلط في يوم واحد
بين ما حدث في اليومين. وتعتبر المصادر الفرنسية دقيقة، فقد تم استقبال المهايخ بعد موت
سولكرافسكي. *Histoire Scientifique ...*, pp. 175 - 176.

Bon à Bonaparte, à dix heures du soir, B6 10. - ٣٦

Bon à Bonaparte, le 2 brumaire an VII, B6 10. - ٣٧

Berthier à Bon, le 2 brumaire an VII, B6 10. - ٢٨

Traduction de CUOQ, p. 73. La Qibla est une niche qui indique la - ٢٩
direction de la prière.

Histoire Scientifique, IV, p. 180. - ٤٠

LA JONQUIÈRE, III, p.282, *Histoire Scientifique*, IV, pp. 181 - ٤١
182.

JABARTI, *Mudda*, p. 76. - ٤٢

JABARTI, *Mudda*, p. 77. - ٤٣

JABARTI, *Mudda*, p. 78. - ٤٤

Histoire Scientifique..., IV, pp. 187 - 190. LA JONQUIÈRE, III, - ٤٥
pp.287 - 288.

Le 9 brumaire an VII (30 octobre 1798), LA JONQUIÈRE, III, - ٤٦
p.284, III, p. 284. Sur Denon, voir Ibrahim Amin GHALL, *Vivant Denon ou
la conquête du bonheur*, Le Caire, I.F.A.O., 1986.

٤٧ - يقول الجبرتي إنهم قد اهتموا رمياً بالرماس، أما «التاريخ العثماني» ... فهو يزعم أن
بارتيليمي قد تولى قطع رؤوسهم (IV, P. 191). وتؤكد صحيفة لوكسبورغية نو ليهبيت قطع
رؤوسهم (٢٠ يومه من العام السابع). ولا نعرف أين دفنوا. وفي نسخة لوفيات سنة ١٧١٣،
يعتبرهم الجبرتي شهداء؛ وهو ما يشير إلى تصور تال ليه، أقل عنارة للمصريين مما في الحقيقة.

٤٨ - Shaykh al Sadat signifie shaykh des Sayyid, des descendants du -
Prophète. Anwar al Sadat s'appelait originellement al Sadati, ce qui signifie
"suivant de la confrérie des Sadat", c'est après la révolution de 1952, qu'il a
transformé son nom en Sadat probablement plus noble à ses yeux
(Mohammed HEYKAL, *L'automne de la colère*, Paris, 1983, p. 21).

٤٩ - JABARTI, nécrologie de l'année 1228, c'est une des rares -
occasions où le chroniqueur parle de lui - même; DELANOUE,
Moralistes..., I, pp. 254 - 256.

NAPOLÉON. *Campagnes d'Égypte...*, XIX, p. 602. - ٥٠

٥١ - محضر بالفرنسية والعربية لتعهد تجار القودية (بمى الأزهر) أمام الجنرال
بونابارت : «إننا نتعهد أمام الملا بأن [...] نحفظ هوارع حينما خالية من أية فتنة، وبأن توجه كل
عنايتنا إلى دفع الأشوار والأوباش، وبأن نهضم عنا، وبأننا في حالة علمنا بأن غرباً ما من حيننا
يود إثارة الفرنسى، سوف تكون ملزمين بأن توجه إلى ذلك خطر قائد الموقع أو انما الإنكشارية.
[...]». وإذا ما حدث، لسوء الحظ، أن نب في حيننا اضطراب ما دون أن يتسنى لنا الإبلاغ عنه قبل

والوجه، فإننا سوف نكون كلنا معروضين لأن نعتبر مسؤولين عنه فرداً فرداً، ٢٦ أكتوبر ١٧٩٨، B6 10 [أمدنا ترجمة التعهد من الفرنسية لتعذر العثور على النص العربي. - المترجم].
لنظر أيضاً في المصدر نفسه القائمة الكاملة لمهاجر الحياة القاهرة، والمسؤولين عن ضمان سكة
الحكماء في أحيائهم.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 289 - 291. - ٥٢

٥٣ - وربما فقد خطوط ليهونهارت الفكرة، غير المعروفة في عصره والتي تتمثل في
الأهمية التي يكتسبها، بالنسبة لمن يروسون الاحتلال وأن يخلصون له، عدم الاختلاط في قداخل
مزيج للطرفين، والتي تكتسبها، خلافاً لذلك، إقامة مقر وحى الطرف الأول بعيداً من سكنى
الطرف الآخر. والى أن الهيئة الفرنسية، بـ مراقبها الرئيسى للوجود في الروضة وبالخدمات
التي أقامتها بالعمل بشكل منفصل في قصر العينى وإلى الهيئة، قد فشلت خارج وعلى جانب
الهيئة الأهلية، تماماً مثلما حدث ذلك منذ ذلك الحين في مراكش.

CHARLES - ROUX, *Bonaparte gouverneur d'Égypte*, Paris, 1936, p. 251.

LA JONQUIÈRE, III, p. 285 - 286. - ٥٤

٥٥ - على سبيل المثال، بيان مهنو بشأن تمرد القاهرة. إن المهليخ الذين لن يخاصوا لهذا
الأمر وسوف يعتبرون شوكاه للبكات ولعملائهم وسوف يعالون بالإعدام، B6 11.

٥٦ - *Histoire Scientifique...*, IV, pp. 129 - 131. لقد اختير للعب دور الجلاء
بسبب براعته في قطع الرؤوس.

Fugière à Bonaparte, le 15 vendémiaire an VII (6 octobre 1798), - ٥٧
B6 9.

Fugière à Bonaparte, le 19 vendémiaire an VII (10 octobre 1798), - ٥٨
B6 9.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 293 - 295. - ٥٩

Fugière à Bonaparte, le 30 vendémiaire an VII (21 octobre 1798), - ٦٠
B6 10.

Lanusse à Bonaparte, le 2 brumaire an VII (23 octobre 1798), B6 - ٦١
10.

Lanusse à Bonaparte, de Tantan, le 3 frimaire an VII (23 - ٦٢
novembre 1798), B6 12.

Reynier à Bonaparte, le 2 brumaire an VII (23 octobre 1798), B6 - ٦٣
105.

Reynier à Bonaparte, le 6 brumaire an VII (27 octobre 1798), B6 - ٦٤
105.

Reynier à Bonaparte, le 9 frimaire an VII (29 octobre 1798), B6 – ٦٥
105.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 318 - 320. – ٦٦

Manscourt à Bonaparte, le 28 vendémiaire an VII (19 octobre – ٦٧
1798), LA JONQUIÈRE, III, pp. 311 - 314.

Dépêche de Pisani (drogman de Hood à Spencer Smith, FO 7820 – ٦٨

et LA JONQUIÈRE, III, pp. 312.
lettre turque au capitaine de la ، الذي جاء للتحذير من خطر هجوم فرنسي،
carabelle, du 19 octobre 1798, B6 10.

Hood à Spencer Smith, le 26 octobre 1798, FO 78 20. – ٦٩

Correspondance de Napoléon, V, p. 94 : à Marmont, le 26 vendémiaire an
VII (17 octobre).
«إن المتكبر عبد الله، مساعد مراد بك، قد مر، منذ ثلاثة أيام، بقربة الشعراء،
مع ٣٠ من العرب، ويعتقد أنه قد ذهب إلى مشارف الإسكندرية، وأنني لو كان بوسعك إلقاء
القبض عليه؛ إنني على استعداد تام لطع ألف ريال فرنسي مكافأة على تسليمه؛ إنه الشخص
تلقاه الذي كان على متن سفينة الأميرال الإنجليزية. وإذا كان بوسع المرء التحدث إلى العرب، فإن
مؤلاء الناس سوف يفعلون أشياء كثيرة في مقابل ألف سكين» [عملة ذهبية إيطالية. - المترجم].

٧٠ - مرمون إلى بونابارت، ١٢ برومير من العام السابع (٢٣ أكتوبر ١٧٩٨) : اجازني

عرب مسالمون لإبلاغي بأن عبد الله باهي كان القارحة بالقرب من هنا مع حلازمين؛ وقد تحدث
إليهم طالباً تزويده بالقرب للذهاب إلى الأسطول الإنجليزي. وقد وعدتهم بخمسة سكين إذا ما
ساقوه إلى. وفي الرسالة نفسها، يشير إلى أنه بعد ربع ساعة من مغادرة مواقعه على القناة، قام
الفلاحون بصفائات في كل مكان، وبعد ذلك بخمس عشرة ساعة، جفت القناة.

Bonaparte à Murat, le 9 brumaire an VII (30 octobre 1798), LA – ٧١
JONQUIÈRE, III, pp. 190 - 191.

٧٢ - مرمون إلى بونابارت، ١١ برومير من العام السابع (الأول من نوفمبر ١٧٩٨) : إن

تيطان السفينة مفتوح تماماً بمنطقة الباب العالي لنا، وهو لا يفكر في أي عمل مفيد وهو يزعم أن
الفرقة التركية الموجودة أمام ميناء الإسكندرية قد تم حشدها في جزر الأرخبيل من جانب الإنجليزي
وأنها تخضع الآن لأخطائهم. وهو يعلن خبر الوصول الرشيك للقاهولان بلان إلى الإسكندرية
للإطلاع على واقع الأحداث المصرية ويطلب السماح له بالخروج لذلك. B6 11. Les mémoires
du duc de Raguse (Marmont) donnent la même lettre mais datée
inexactement du 2 octobre 1798 (Paris, 1857, I, p. 419.

Ensemble des textes dans LA JONQUIÈRE, III, pp. 334 - 339. – ٧٢

FO 78 20, le 11 novembre 1798. – ٧٤

Chef de bataillon de génie Souhait, mémoire sur la marche de la - ٧٥
colonne du général Rampon sur Attieh, B6 5 (une autre copie en B6 2) et
lettre de Donzelot à Belliard le 24 thermidor an VI (B6 6).

WIET, Nicolas Turc, p. 28. - ٧٦

Bonaparte à Desaix, le 18 fructidor an VI (4 septembre 1798), LA - ٧٧
JONQUIÈRE, III, pp. 197 - 198.

Mémoires du duc de Rovigo (Savary), édité par Désiré Lacroix, - ٧٨
Paris, 1900, I, p. 83.

Ensemble de textes sur la bataille de Sediman dans LA - ٧٩
JONQUIÈRE, III, pp. 208 - 220.

٨٠ - زاپونشيك إلى بوناپارت، ٥ برومير من العام السابع (٢٦ أكتوبر ١٧٩٨) : « ظهر لي
القرى بيان من السلطان، جرى فيه إهمار سكان مصر بأن يبدأ من الباشاوات مع عدد كبير من
الجنود سوف يصلون لمساعدتهم ضد الفرنسيين ». SKALKOWSKI, p. 108

Desaix à Bonaparte, le 21 brumaire an VII (11 novembre 1798), - ٨١
B6 11.

٨٢ - بوناپارت إلى بيروز، ٣٠ برومير من العام السابع (٢٠ نوفمبر ١٧٩٨) : « إن مساعد
مواد بك، عهد الله بأفنى، والذي كان على الأسطول الإنجليزي، قد مر أسس ٢٩، بجانب الأهرامات،
وكان معه سبعة من العرب والثان من المالكة ». LA JONQUIÈRE, III, p. 357

La base des études sur Yaqoub reste Le Livre de Gaston - ٨٣
HOMSR, son lointain descendant, *Le général Jacob et L'expédition de
Bonaparte en Égypte*, Marseille, 1921.

٨٤ - كان من المقرر أن يشارك الرجل الذي سوف يصبح فيما بعد مارشالاً في عمليات
بيروز منذ البداية، إلا أنه اضطر إلى البقاء في القاهرة بسبب أزمة إسهال؛ وقد استخدم بوناپارت
أثناء كلامه في تكليفه بإعادة تنظيم سلاح الفرسان وخلفه تدهور الخيل. voir VIGIER,
67 - 68. *Davout, Maréchal d'Empire*, Paris, 1898, pp. 67 - 68. وإذا ما صدقنا يوميات
بيليار، فإنه يبدو جدياً طموح : « إن الجنرال د. [ناتو] شديد الغيرة على القيادة التي منحت له؛ وهو
يخشى كثيراً من أن يتوصل الجنرال بيما إلى وضعه تحت إمرة؛ وهو يطمح إلى أن يكون قائد
فرقة، ويعتمد على الواقع إن كان سعيداً بالحد؛ وإذا لم يتم النجاح ضد للمالك باستخدام سلاح
الفرسان، فإنه يبدو عازماً على الانتحار بإطلاق الرصاص على رأسه. وإذا ما نال ترقية، فإن ذلك
سيكون إنصافاً له؛ إنه منذ وقت طويل قائد لواء وهو ليس عديم الإمكانيات ولذا لراى قائد الفرقة

الفرسان؛ إلا أن عليه على الأكل حبيب طموحه. وإذا ما حدث انتصار، فسوف يشعر بالارتياح، ونحن أيضاً؛ وإذا لم يحدث انتصار، فإنه سوف يواصل قناته دون تنفيذ للمشروع الذي ارتكبه.

Journal de Belliard, LA JONQUIÈRE, III, p. 510. - ٨٥

٨٦ - يوميات بيليار، LA JONQUIÈRE, III, p. 512 إنه يرى أن الفرنسيين سوف ينجحون في القضاء على عمليات الثار القروية.

٨٧ - سوف يولد رفاعة الطهطاوي الشهير بعد ذلك يستدين في تلك الناحية.

L'étude essentielle sur cette question est l'article de M. ABIR, - ٨٨
"The Arab rebellion of Amir Ghalib of Mecca, 1788 - 1813", *Middle Eastern Studies*, VII, 1971.

Michel TUCHSCHERER a traduit le passage du chroniqueur - ٨٩
yémenite concernant la prédication et l'expédition des volontaires en Égypte,
op. cit., pp. 47 - 64.

٩٠ - LA JONQUIÈRE, III, p. 528 يدين الجبرتي هذه الضيافة الجديدة من جانب
المعاليك قيساً إلى واجبه (نهاية شعبان ١٢١٢).

NAPOLÉON, *Campagne d'Égypte*.. XXXX, pp. 628 - 629. - ٩١

Discours du citoyen Denon, pour être lu à l'Institut du Kaire, à - ٩٢
son retour de la Haute - Égypte, *Décade Égyptienne*, II, pp. 282 - 283.

Mémoires du général baron Desvernois, édité par Albert- ٩٣
Dufourcq, Paris, 1898, p. 164.

Vivant DENON, *Voyage dans la Basse et la Haute - Égypte*, - ٩٤
Paris an X - 1820, p. 129.

Destaing à Bonaparte, le 15 brumaire an VII (5 novembre 1798), - ٩٥
B6 11.

Destaing à Bonaparte, le 20 brumaire an VII (10 novembre 1798), - ٩٦
B6 11.

Destaing à Bonaparte, le 19 brumaire an VII (9 novembre 1798), - ٩٧
B6 11.

Bonaparte à l'intendant général de l'Égypte, le 17 frimaire an VII - ٩٨
7 décembre 1798), *Correspondance*, V, pp. 238 - 239. في هذه الرسالة، يتأهل من
جهة أخرى بين مسلك مشايخ (القوية أم الحى ؟) المسارمين إلى تسليم ممتلكات المعاليك وسوء

نية متدين من الأكلط في هذا المجال.

JABARTI, 1 jumada al akhira 1213.

- ٩٩

JABARTI, 8 jumada al akhira 1213; *Courrier de l'Égypte* du 24 - ١٠٠
brumaire an VII (14 novembre 1798).

Fin du mois de jumada al akhira 1213.

- ١٠١

١٠٢ - *Courrier de l'Égypte*, 7 frimaire an VII (27 novembre 1798).

هذا النص غير موقع، لكن كل أسلوبه يسمح بتصور أنه يرجع إلى قلم بوناپارت خاصة وأن الإشارة الخمدية إلى القس رينال واضحة، وكان بوناپارت الشاب محباً كبيراً بكتاب *L'histoire philosophique et politique des Européens dans les deux Indes* ويبدو أن لوريه قد انخرع عن هيئة تحرير صحيفة الكورويه بسبب هذا النص. ونحن لا نملك غير رواية بيهينيت لرد فعل بوناپارت على هذا النص : «إنه لحق ولود أن أقول لكم مثلاً، إن هذا الرجل، الذي لم يطلب قط ولن يطلب أبداً وأيه، قد جاء إلى هنا، في صالوتي، لكي يتحدث حديثاً طلياً عن التمرد وعن أسبابه ونتائجه التي يخشى منها و، أخيراً، جاء لكي يهتفي بما يجب على عمله. وبوسعكم أن تتصوروا بأي شكل استجعت إليه لقد هونت له بادئ ذي بدء أن للسكّة قد انتهت، وأن التناهي للصارمة التي يقترحها على لا هي سياسية ولا هي إنسانية وأن الضالين بالتمون دائماً هذه المشورات للطرفة وأن المرء لا يجوز له إنشاء رأي في الانتفاضات لجود أنه قد شارك في حركات بلوس، وأنتى أملك عنها التصور الذي كونه بشأنها».

١٠٣ - Sur ce personnage, voir Jacques DECOURSAC, *Un ami dauphinois de Napoléon Bonaparte, Simon de Sacy, ordonnateur en chef de l'armée d'Égypte, 1764 - 1799*, Paris, 1932.

Voir Kléber et Bonaparte, II, p. 541.

- ١٠٤

١٠٥ - LA JONQUIÈRE, III, pp. 391 - 392; *Correspondance inédite, Égypte*, I, p. 511.

١٠٦ - في رسالته الخامسة بنقل السلطات إلى كلوبير في عام ١٧٩٩، صوف يحدد بوناپارت على هذه النقطة : «لقد طلبت بالفعل في عدة مرات فترة من الكوميديين! وصوف أؤلى اعتسلاً خاصاً لإرسال فترة منهم إليك. إن هذا الأمر جد مهم بالنسبة للجيش وبالنسبة للبلد في تغيير حالت البلد». Kléber et Bonaparte, II, p. 514.

Campagnes d'Égypte..., XIX, p. 605.

- ١٠٧

١٠٨ - LA JONQUIÈRE, III, p. 385 لم يكن مسموحاً للعسكريين الفرنسيين، الجنود والضباط على حد سواء، بالصطحاب زوجاتهم معهم. وقد جرى التجاوز عن عدد معين وقامت السيدات عموماً بالرحلة من أوروبا إلى مصر متنكرات في ملابس الذكور.

١٠٩ - Le seul témoignage certain est un diplôme d'initiation accordé à

Marc - Aurel, l'imprimeur de l'armée et ami de jeunesse de Bonaparte, publié par Georges de FROIDCOURT, "Une loge inconnue à l'armée d'Égypte en 1799", *Annales Historiques de La Révolution Française*, 1937, pp. 557 - 560. Pour l'ensemble de la question, voir les travaux de François COLLAVERI, *La Franc Maçonnerie des Bonaparte*, Paris, 1982 et *Napoléon, Empereur Franc - Maçon*, Paris, 1986.

Sur la peste, voir le grand livre de Daniel PANZAC, *La Peste - ١١٠ dans l'Empire Ottoman, 1700 - 1850*, Louvain, 1985, en particulier les pages 327 à 333. لم يكن الطاعون متواصلاً في مصر (سوف يصبح متواصلاً بعد ذلك بـعشرين سنة)، لكن البلاد كان يصاب بالعدوى دائماً عن طريق موانئ البحر المتوسط. وسوف يظل الطاعون هناك خلال مجمل مدة الحملة وسوف يتبين أن التلاعب المتخذة منبهة الفعالية إلى حد بعيد.

Sur les questions médicales, voir DESGENETTES (le médecin - ١١١ chef de l'armée), *Histoire médicale de l'armée d'Orient*, Paris, trois éditions, 1802, 1830 et 1835; Larrey (le chirurgien - chef), *Relation historique et chirurgicale de l'expédition de l'armée d'Orient*, Paris, 1803; HOUDARD (L), "Le service de santé de l'armée d'Égypte", *Revue des Études Napoléoniennes*, février - octobre 1934.

١١٢ - وهو ما يأسف له الجبرتي، ١ جمادى الآخرة سنة ١٢١٢.

Décade Égyptienne, I, pp. 81 - 82 et 104 - 109. Voir aussi, - ١١٢ l'article de C.L. LOKKE et G. DEBIEN, "L'expédition d'Égypte et les projets de cultures coloniales", *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Égypte*, XX (1940), pp. 337 - 356.

Rapport sur le Môristan ou hôpital du Caire, Rapport sur le plan - ١١١ d'organisation d'un hospice civil au Caire, *Décade Égyptienne*, I, p. 272 et II, p. 5. Le second rapport est cosigné en plus de Desgenettes par Monge, Caffarelli, Daure, Berthollet et Larrey.

JABARTI, fin du mois de jumada al akhira 1213. - ١١٥

NAPOLEON, *Campagnes d'Égypte...*, XXIX, p. 589 - ١١٦ المقصورة هي جلسة ١١ ترميدور من العام السابع، وتشير روايات أخرى إلى ٥٠ ألف نوع من الأسماك في طنز المهدي، voir GOBY, *Le Premier Institut d'Égypte...*, Paris, 1987, p. 51.

Dans un article qui a constitué une véritable révolution dans – ١١٧
l'historiographie de l'expédition d'Égypte, Anouar LOUCA a bien montré
l'échec immédiat de l'entreprise de Bonaparte, "La renaissance égyptienne et
les limites de l'œuvre de Bonaparte", *Cahiers d'histoire égyptienne*, 1955,
VII, pp. 1 - 20.

Décade Égyptienne, I, p. 83 et suivantes. – ١١٨

DESGENETTES, *Souvenirs...*, pp. 48 - 51. – ١١٩

١٢٠ - إن باسما مصر، خاصة في العقود الأولى لحكمه، إنما يستلهم أساساً أفكار
المصلحين العثمانيين في القرن الثامن عشر. وينسب إنشاء مطبعة بولاق جزئياً إلى شخصية
يوفائيل أنطون زاخود الرافعي، المسمى بدون رافاييل، وهو كاثوليكي يوناني ولد في القاهرة في
عام ١٧٥٩، وحصل على دراسات إكليريكية في روما في عام ١٧٧٥، ورسم قساً في عام ١٧٨٢.
وهو يوزع آنذاك وقته بين سوريا وإيطاليا ومصر التي يتواجد فيها عند وصول بونابرت. ويصبح
العضو الشرقي الوحيد في المعهد (للجمع العلمي) المصري. ويعمل مترجماً للوثائق الرسمية
وترجمتاً للديوان في ظل ميتر. وهو يمكث في القاهرة حتى عام ١٨٠٣ حيث يجرى إلى فرنسا.
وعندئذ يصبح أسقفاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية حيث يكون من بين تلاميذه شامبوليون
ولما كان معروفاً بميوله البونابرتية في بداية عهده الملكية، فإنه يتعرض لمضايقات إدارية، الأمر
الذي يلجئه إلى العودة إلى مصر عام ١٨١٦. وعندئذ يدخل في خدمة محمد علي ويصبح مؤلف
أول كتاب تنشره مطابع بولاق، وهو عبارة عن القوس الإيطالية - عربية. وهو يترجم الأمور
الأكثانيات إلى العربية بناءً على طلب صريح من البابا. وفيها بعد، يشارك في تأسيس مدرسة
الطب في ليو زميل إلى جانب كلوت بك. وهو يموت في عام ١٨٢١ في القاهرة. والحال أن للسيرة
العملية لهذا الكاثوليكي اليوناني إنما تمثل إحدى الفئات المهاجرة النادرة للمفظة بين الحملة
ومحمد علي مع إشارتها أيضاً إلى الدور الدينامي المسيحي الشرق في النهضة العربية.

Charles BACHATLY a disposé des papiers personnels de Don
Raphael qui ont fourni la matière de ses deux excellents articles dans le
Bulletin de l'Institut d'Égypte, "Un manuscrit autographe de Don Raphael"
(XIII, 1931, pp. 26 - 35) et " Un membre oriental du premier Institut
d'Égypte, Don Raphael" (XVII, 1935, pp. 237 - 260).

Traduction de CUOQ, p. 87 (20 jumada al akhira 1213). – ١٢١

Traduction de CUOQ, p. 105 (9 sha'ban 1213). – ١٢٢

Courrier de l'Égypte, 21 nivôse an VII. – ١٢٣

L'étude la plus globale des questions financières est celle de M. – ١٢٤
CHEVALIER, "La politique financière de l'expédition d'Égypte", *Cahiers
d'histoire égyptienne*, VII (1955) pp. 165 - 185, 223 - 243, VIII (1956), pp.

47 - 68, 176 - 197, 213 - 240. Il a pu utiliser le fonds Marcel (papiers de l'orientaliste) alors conservé à l'Institut d'Égypte et qui est actuellement indisponible.

L'étude essentielle est celle de S.J. SHAW qui a traduit du turc - ١٢٥
ottoman les réponses de Husayn Effendi aux questions des Français, dans
son étude *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution*, Harvard
University Press, 1966. كان لقب الألباني يتم حمله أساساً لذلك من جانب
موظفي الشؤون المالية، والذين كانوا في هاليهاتهم عثمانيين. وقد شكلت هذه الوثيقة أساساً
لجميع العروض المالية حول الشؤون المالية لمصر، بما في ذلك عروض «وصف مصر».

١٢٦ - إن هذا التحديث لا يحدث إلا بشكل تدريجي للغاية خلال السنوات الثلاث للحملة،
على أن الجبرتي يشهد على نتيجة : «إن الفرنسيين لما استلزموا منهم بمصر ونظروا في الأموال
للبرية والخراج فوجدوا ولاية الأمور بالقبضون ستة مئة ومئة ونظروا في النفقات القديمة وأطلعوا على
العوائد الصالحة ودلوا أن ذلك كان يقبض ثلاثاً مع الزكاة في ربي الأراضى وعنده، فاختاروا
الأصلح في استباب العمار وقاروا ليس من الإتصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بمئة وأعملوا
وتركوا ستة خمس عشرة فلم يطلقوا للتزمتين بالأموال البرية ولا للفلاحين بالخراج فتخلصت
الفلاحون وداج حالهم وتولجست أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المصارف والكلف وبحق طرق المعينين
ونحو ذلك». ربيع الآخر ١٢١٦.

١٢٧ - ٢٥ برمود من العلم السابع (١٥ نوفمبر ١٧٩٨)، إنشاء لجنة مكلفة بالاعتماد
لنطقة القاهرة. ٢٢ برمود (١٢ ديسمبر ١٧٩٨)، تعيين أخ الجبرتي رينيه مفتشاً للممتلكات.
LA JONQUIÈRE, III, p. 372.

LA JONQUIÈRE, III, p. 373. - ١٢٨

NICOLAS TURC, P. 31. - ١٢٩

JABARTI, 6 sha'ban 1213 et fin sha'ban 1213. - ١٣٠

Aux habitants du Caire, le 1^{er} nivôse an VII (21 décembre - ١٢١
1798), *Correspondance*, V, pp. 287 - 288.

١٣٢ - الجبرتي، المنة، ص ٩٥، في جهات الآثار، يكتفى بالتشديد على حملة هذه الآثار.

١٣٣ - Liste nominative dans le *Courrier de l'Égypte*, le 9 nivôse an -
VII (29 décembre 1798). نجد أربعة عشر علماً، ليس من بينهم الجبرتي أو الحسابات.

١٣٤ - لم أنجح في إعادة رسم قائمة الأربعة عشر. إن هاليهه مراسلات للديوان لا تعمل
كتوايح غير تواتر الرئيس الشرقاوي وتواتر أمين السر المهدي. ويضم الجبران المنشور لدى حودة
بوتاهارت من سوريا علاقة عليهما أسماء الهكري والصاوي والقويومي كمهاجرين، وعلى كتفها
ويوسف باشا - تشاروش كموظفين وأحمد الصروقي كتاجر، بما يمثل خمسة علماء من ثمانية

المعلم. ومن المرجح إلى أبعد حد أن الديوان تلقياً ما كان يهتف به عدد كبير من الأعضاء.

LA JONQUIÈRE, IV, p. 19. - ١٢٥

IABARTI, fin rajab 1213. - ١٢٦

DESGENETTES, *Souvenirs d'un médecin de l'expédition d'Égypte*, Paris, 1893, pp. 10 - 12. - ١٢٧

Rapport fait par le nommé Ahmed Mager, fellah de Rahmanieh - ١٢٨
en date du 19 brumaire an VII (9 novembre 1798), B6 11.

Leturcq (qui a remplacé Bribes à Rahmanieh) à Menou, le 19 - ١٢٩
brumaire an VII (9 novembre 1798), B6 11.

Courrier de l'Égypte, le 20 brumaire an VII (10 novembre - ١٣٠
1798). يهتف الأمر اليومى الصادر إلى الجيوش في ١٦ برومير علناً هذا الشيخ الذى سوف يحصل
من يد القائد العلم على عبادة مبهطة بالقرآن.

Menou à Dumuy (Aboukir), le 20 brumaire an VII (10 novembre - ١٣١
1798), B6 11.

Courrier de l'Égypte, le 14 brumaire an VII (4 décembre 1798). - ١٣٢

Murat à Bonaparte, le 10 frimaire an VII (30 novembre 1798), - ١٣٣
B6 12.

Détails dans le *Courrier de Égypte*, du 25 frimaire an VII (15 - ١٣٤
décembre 1798).

Leturcq à Bonaparte, le 19 frimaire an VII (9 décembre 1798), - ١٣٥
B6 13.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 419 - 428. - ١٣٦

Menou à Marmont, le 12 frimaire an VII (2 décembre 1798), B6 - ١٣٧
13.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 393 - 400 et B6 11. - ١٣٨

Instructions pour le citoyen Beauchamp, le 21 frimaire an VII - ١٣٩
(11 décembre 1798), LA JONQUIÈRE, III, pp. 406 - 409.

Spencer Smith au ministère ottoman, Constantinople le 17 mars - ١٤٠

1799, FO 78 21.

Voir Albert ESPITALIER, "La mission de Beauchamp à – ١٥٩
Constantinople en 1799", *Revue d'Histoire Diplomatique*, 1911, pp. 591 -
606.

Règlement officiel imprimé en arabe et en français daté du 18 – ١٥٧
nivôse an VII (le 7 janvier 1799) B6 16.

١٥٢ – مرمون إلى مينو، ١٢ نيلوز من العام السابع (الأول من يناير ١٧٩٩) ١٠ إله يريد
تزويد الجورباني، القائد المسلم، بقوة حراسة من ٢٠ فارساً كالقوة الموجودة مع إبراهيم
الشوريحي في مدهور، وذلك للتقيام بجولة في إقليم البحيرة. B6 16.

Marmont à Menou, le 22 nivôse an VII (11 janvier 1799), B6 – ١٥٤
16.

Marmont à Menou, le 3 pluviôse an VII (22 janvier 1799), LA – ١٥٥
JONQUÈRE, IV, p. 39.

Dumuy (Aboukir) à Menou, le 13 nivôse an VII, réponse de – ١٥٦
Menou le 15 nivôse et annonce de l'exécution par Dumuy le 17 nivôse (6
janvier 1799), B6 16.

Menou à Bonaparte, le 3 pluviôse an VII (22 janvier 1799), LA – ١٥٧
JONQUÈRE, IV, p. 41.

١٥٨ – إن سائجليه - لبريهو الذي يقود أحد هذه للراكب يشهد على تعسف التعليمات
إننا بالتصرف على هذا النحو، كنا نتجارب مع التعليمات الصادرة إلى، إلا أنه لا بد لي من
الاعتراف بأنني قد استسلمت كثيراً إلى حد ما لتقديرات بحارتي الذين رأوا في أبسط تجمع للعرب
أشراً، حتى يتمتعوا بهذه مطايرتهم. ويبدو أنني ملوم بالمسؤولية من موت عدد من الفلاحين.
"Souvenirs de l'expédition d'Égypte", *Revue des Etudes Historiques*, XIV,
1912, p. 416.

Voir le registre de correspondance de Reynier, B6 105. – ١٥٩

١٦٠ – B6 13 . يشهد الصدر الأعظم في حاله على توزيع البعثات على العرب ، إن
عليكم الاهتمام بتوفير توسع تأكيد لكان ذلك للمكاتبات الموجودة في مطروفي لم للمكاتبات
الأخرى. وسوف تضيقون إليها بحسب الحال مكاتبات من صنعكم في الاتجاه الذي تتطلبه
الظروف وسوف توزعون جميع [هذه الأوراق] على العرب. إننا نجهل حتى الآن المسلك الذي
لتخونه والأحوال التي هم عليها الآن.

Kléber et Bonaparte, II, p. 537. – ١٦١

- LA JONQUIÈRE, III, pp. 477 - 478. - ١٦٢
- Correspondance...*, V, pp. 286 - 287. - ١٦٣
- La source essentielle pour cet épisode est dans le *Courrier de l'Égypte* du 27 nivôse an VII (16 janvier 1799). - ١٦٤
- Campagnes d'Égypte...*, XXIX, pp. 610 - 611. - ١٦٥
- Ordre du 20 nivôse an VII (9 janvier 1799), *Correspondance...*, V, pp. 311 - 312. Le dromadaire est le nom du soldat, chameau est celui de sa monture. - ١٦٦
- Ordre du 25 nivôse an VII (14 janvier 1799), *Correspondance*, V, pp. 331 - 332. - ١٦٧
- ١٦٨ - ٤٢ - ٤٣ LA JONQUIÈRE, IV, pp. 42 - 43 يبدو أن الوباء كان مع ذلك أقل فتكاً من وباء الإسكندرية وإن مدينتين من المسؤولين الفرنسيين كانوا ذريعتين عندما تلقوا أن الوباء وباء طاعون.
- ١٦٩ - إن لاجرانج، الذي ولد في عام ١٧٦٢، كان قد برز خلال حملة إيطاليا. وخلافاً لكثيرين من قلمى المحاربين في مصر، فإنه لا يبدو أنه قد تعرض لنزع الحظوة منه في ظل الإمبراطورية، بالرغم من أنه كان قد خدم الملك جيروم في ويستفاليا. وسوف يموت كوجيه الفرنسي في عام ١٨٣٦.
- Sur toute cette période, voir *Kléber et Bonaparte*, II, pp. 346 - 377. - ١٧٠
- Le 22 pluviôse (10 février 1799), LA JONQUIÈRE, IV, p. 143. - ١٧١
- ١٧٢ - ١٢٩٤٥ بالضبط وفقاً للاهونكيير (IV, P. 149).
- ١٧٣ - انظر الفصل الخامس بالإعداد للحملة.

الفصل السادس

فلسطين أو بطايات اللعبة الكبرى

اللعبة الكبرى

الإنجليز والفرنسيون

إن الجيل نفسه الذي شهد الثورة الصناعية والثورة الفرنسية، قد شهد حدثاً ثالثاً، لا تكاد تكون له هو الآخر سابقة، هو فرض الهيمنة الأوروبية على العالم. ونظرة للمستشرق الأمريكي الكبير مارشال ج. ص. هوجسون هذه تجد تأكيداً لها في السنوات الثلاث لحروب الائتلاف الأولى الذي خرجت عليه حملة مصر، وهي لحظة أساسية يكتسب فيها كامل مفزاه تحول للصالح الأوروبية من العالم الجديد صوب العالم القديم، وهو التحول الذي بدأ في منتصف القرن الثامن عشر. والهند هي مفتاح جميع الأبواب. ومن الواضح أن الهدف الاستراتيجي للفرنسيين، في الأجل القصير كما في الأجل الطويل، هو تدمير القوة الإنجليزية في شبه القارة (الهندية)، لكن المسئولين الإنجليز في الساحة كانوا قد توقعوا تحرك الفرنسيين.

إن ويلسلي، منذ مستهل عام ١٧٩٨، يتذرع بالخطر الفرنسي لكي يبرر مشروعه الرامي إلى القضاء على التوازن الهندي وإقامة إمبراطورية إنجليزية. وبدا الحملة الفرنسية يبرر بشكل عملي تصرفه. وهو يتذرع به للقضاء على القوتين اللضادتين للقوة الإنجليزية، سلطنة ميسور التي يلقب على رأسها تيهو صاحب أفغانستان التي يلقب على رأسها زمان شاه، واللتين يجرى تصويرهما كحليفين، ليس فقط ممكنتين بل وحليفين، لفرنسا ثورية كان يمكنها من ثم تطوير القوة الإنجليزية في الهند. وسعياً إلى مواجهة التهديد الألماني الذي يستهدف الأندلس - الواقع أن الألمان كانوا قد بنوا من تلقاء أنفسهم زحلاً على دلهي في خريف عام ١٧٩٨ ووصلوا إلى لاهور - يعتمد ويلسلي على

عمل يحول الأنظار عن الصلحة الرئيسية قائم من فارس التي تملك على رأسها السلالة الحاكمة القاجارية. ويتمكن الصيخ في يناير ١٧٩٩ من وقف الفارة الأفغانية وتؤدي الضغوط الإنجليزية والتهديدات الفارسية إلى إجبار زمان شاه على الانسحاب إلى كابل. ومن ثم فإن أمن الهند إنما يستند على سياسة تصدوعب أفغانستان وفارس. لذلك هو الطريق البري إلى الهند.

وبعد تحرره مؤلفاً من التهديد القادم من الشمال، يتجه ويلسي إلى الجنوب لمهاجمة ميسور، نقطة نهاية الطريق البحري. وبعد معركة قصيرة، يلقى تيبو صاحب الهزيمة ويلقى حتفه في سيرينجاتام في ٤ مايو ١٧٩٩. وعندئذ تصطف الدول الهندية الأخرى بشكل نهائي تحت النفوذ الإنجليزي إلى هذا الحد أو ذاك بأن تُصدوعب أو بأن تصبح محميات^(٧). وعندئذ يمكن لويلسي أن يفكر في التحول صوب الشمال لمواجهة غزو فرنسي محتمل، لأنه يعلم الآن أن بونابارت قد غادر مصر للزحف على سوريا.

اللعبة الكبرى

وهكذا فإن السياسة الإنجليزية الموضوعة في الهند تمتد شعاع فعلها حتى فارس. ويتمين عليها بالضرورة مواجهة السياسة الموضوعة في لندن وفي السفارة (الإنجليزية) في القسطنطينية. ولا تعود هناك سياسة أرض لا تنافس عليها بين الهند والبحر المتوسط. فكل طرف يرسل عملاءه على طول الطريق البري إلى الهند. إنها اللعبة الكبرى التي سوف يصلها كيهلينج فيما بعد بكثير في كهم. فالسيطرة الأوروبية لن تكون أبداً مشروعاً مشتركاً، بل لعل قوى متنافسة تتحارب فيما بينها. وهذه الحرب هي صراع على النفوذ.

وسوف ينقل الأوروبيون صراعهم إلى مجمل العالم القديم. والفعل إنما يعنى بالدرجة الأولى مواجهة الفعل المتوقع من الخصم، لكنه يعنى أيضاً اللعب على الأوتار السياسية والثقافية والاقتصادية والأيدولوجية للمجتمعات الشرقية. والحال أن مستشرقاً، أي مجموع المعارف التي يراكها الغرب عن الشرق، إنما يصبح السلاح دسائسي لعملاء كل دولة. وهو لا يخدم إلا بشكل ثانوي في تبرير الواقع الإمبريالي.

ومصرح هذه اللعبة هو سلسلة الدول الإسلامية الممتدة من البحر المتوسط إلى الأندلس. ولا عبر الأنوار هم دبلوماسيون ومغامرون وسياسيون وعلماء. والخاصية

العربية هي أن اللعبة الكبرى تدور أولاً بين صفوف البريطانيين، وسوف يستمر ذلك حتى بداية القرن العشرين. فانتلاقاً من مركزين لاتخاذ القرار هما الهند وبريطانيا العظمى، سوف يعمل الموظفون الإنجليز بعضهم ضد البعض الأخرى وسوف يكون لكل فريق منهم مرشحوه الشرقيين نحو الأطماع المتناقضة.

ومكلاً فإن لندن ترسل هارفورد جونز مندوباً إلى بغداد، مكلفاً بأن ينظم على المستوى المحلي المقاومة لزحف فرنسي محتمل على الهند. وعندما يصل إلى الموقع في ٢٠ سبتمبر ١٧٩٨، فإنه يصطدم على الفور بمعارضة السفارة (الإنجليزية) في القسطنطينية. فكل عمل سينصر سميت إنما يستند إلى تعزيز الهيكل الداخلي للإمبراطورية العثمانية. وهو لا يستطيع قبول عمل يسير في الاتجاه المضاد، التشجيع الممنوح لشبه دولة للملك للهمة في العراق، والتي يتزعمها سليمان الأكبر، الذي يعتبر استقلاله الذاتي أكبر بكثير من الاستقلال الذاتي لمالك مصر. والحال أن هارفورد جونز، المشتبك مع سينسو سميت بشأن هذه المسألة، يقرر، في المقابل، التحالف مع الاعتراض على السياسة الهندية. فالرجلان يريان أن أفغانستان السنية، لا إيران الشيعية، هي التي يجب أن تشكل العقبة الرئيسة في وجه زحف بونابارت للفرض.

وقد تمكن سينسو سميت من تمويل التحالف الفعلي، القائم بين روسيا والإمبراطورية العثمانية، إلى حلف قانوني، تم التوقيع عليه في القسطنطينية في يوم ٢ و ٥ يناير ١٧٩٩. وتكفل للعاصمة وحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم إعادة دمج مصر بها، وتنص على تضيق عمل الدول الثلاث، أي - بالدرجة الأولى - حظر أي صلح منفرد. ويعني هذا الحلف في الحبل الأول التمهيد المؤقت للأطماع الروسية في الإمبراطورية العثمانية لحساب نضال ضد الخصم المشترك. لكن الجميع يعرفون أن روسيا، بمجرد القضاء على الفرنسيين، سوف تستأنف مخططاتها الرامية إلى تقسيم الإمبراطورية. وفي الأجل المتوسط، فإن الدفاع عن الطريق البري يجب أن يشمل استمراراً للقوة أمام الخطر الروسي.

الإسلام السياسي

والأناة المباشرة لهذا الفعل ليست شيئاً آخر غير الشكل الأول للإسلام السياسي والذي يبرزه العثمانيون منذ بداية سبعينيات القرن الثامن عشر، فكرة الخلافة. ويرى

سبنسر سميث وهارلورد أنهما قد علنا على الرسالة الأكثر فعالية لولف بوناپارت في زحفه إلى الهند. وقد أشرقا كلمة حرب الدعاية التي يخوضها الباب العالي منذ خريف عام ١٧٩٨. وشأنهما في ذلك شأن جميع للمستولين الأوروبيين، لأنهما لا يستطيعان تصور الخلافة إلا بوصفها نوعاً من بايوية إسلامية (٢). ومن ثم فإن هدف سياستهما سوف يتمثل في تأكيد هيمنة الخلافة العثمانية على مجمل الطريق إلى الهند. وبما أن الإسلام السياسي يتغذى إلى حد بعيد على الإيمان للتراجع لدى الغربيين عن قوته، فإن من الواضح أن العثمانيين يحذرون من تصدير للمستولين الإنجليز من خلال إيمانهم. واللعبة الكبرى هي أيضاً لعبة التصورات التي يكوئها الغربيون عن الشرق والتي يعيدها الشرق بالتالي إليهم.

وهكذا فإن سليم الثالث يصعد بالكتابة إلى تيهو صاحب لإبلافة بالمدون الفرنسي، زهر المبرر بالمرّة، ضد الإمبراطورية العثمانية، ويوضح له الخطر الرهيب الذي تتعرض له للمدينتان للقدسستان في شبه الجزيرة العربية والتهديد القاتل الذي تشكله الثورة الفرنسية بالنسبة للإسلام. وللإسهام في الخصال ضد هؤلاء «المنصرين» إلى جانب الأخوات المسلمين، يتعين على سلطان مهسود أن يتوصل إلى نظام يتسرع ما يمكن مع الإنجليز وأن يرفض جميع عروض الفرنسيين الزائفة (١). وبشكل متعلل من جهة أخرى، لا يستخدم السلطان (العثماني) في هذه للرسالات صفة خليفة جميع المسلمين التي يسبقها الإنجليز عليه بهالغ السخاء.

وهذه السياسة الإسلامية الخاصة بإحياء الخلافة لا يمكن أن تجد مجالاً لها إلا في عالم الإسلام الصنّي ومن ثم فإن أفغانستان والدول السنية في شبه القارة الهندية هي مرتكزاتها. أما فارس الشيعية - العصر التقليدي للعثمانيين - فإنها مستبعدة من منظومة النفوذ هذه. إلا أنه بينما يتحرك إنجليز الإمبراطورية العثمانية للتوصل إلى تحالف لغاني ضد نزو لفرنسي قائم من البحر للمتوسط، فإن إنجليز الهند يسعون إلى تحالف فارسي ضد أفغانستان التي يجري تصويرها على أنها حليف لفرنسا. والحال أن الخطر الحقيقي، منظوراً إليه من كلكتا ومن بومباي، إنما يجرى من الأفغان. وليس الخطر الفرنسي غير فزاعة يراد بها التهديد لدى لندن لسياسة توسع منهجية. ومن ثم يتعين على لندن أن تلعب دور الحكم بين السياستين المتعارضتين. وفي عام ١٨٠٠ يحرز خط القسطنطينية القلبة، وسرف يجري استخدام القوات التي يعدها ويلسلي لفتح أفغانستان في البحر الأحمر.

وفي مرحلة أولى، يتمثل العمل الإنجليزي ضد حملة مصر في دعم نهاية الجلب العالي الإسلامية ومنها إلى الهند، بما يشكل بوهناً إضافياً على أن إنجلترا تأخذ مأخذ الجهد تماماً خطر زحف برى على الهند في أوائل عام ١٧٩٩. وعلى المستوى البحري، يقرر الإنجليز إتمام حصار مصر، بالتمركز في البحر الأحمر واحتلال جزيرة بريم، لمنع خروج الفرنسيين انطلاقاً من السويس. كما يجرى التخطيط لمراقبة المخليج الفارسي في حالة اتجاه الفرنسيين، بعد اجتياز سوديا، إلى استخدام ميناء البصرة. وهذا المجهود للمحوظ بقود إلى سحب الأسطول الإنجليزي من المحيط الهندي، بما يؤدي إلى ترك التجارة مع الصين عرضة للتهديد من جانب أسبان مانيللا، كما يقود إلى التخلي عن المشاريع الرامية إلى فتح للمستعمرات الهولندية والفرنسية في المحيط الهندي وفي المحيط الهندي وهذه نتيجة غير متوقعة للحملة.

الخطط السبع

بشكل مباشر أكثر، سوف يُعهد بالانضال ضد بوناپارت إلى أغ مبدسر سميت، سينتى سميت، وهو شخصية تتميز بأمانة قوية. وهذا الرجل، الذي ولد في عام ١٧٦٤، والذي يكبر بوناپارت قليلاً، يدخل البحرية في عام ١٧٧٧. ويحصل على رتبة رائد، يحقق صعوداً سريعاً، ويصبح قبطان سفينة في التاسعة عشرة من عمره ويشارك في حرب استقلال الولايات المتحدة. ثم يتولى مهمات استطلاعات بحرية على سواحل نورماندى ثم على سواحل مراكش وسيكون مستشاراً بحرياً لملك السويد جوستاف الثالث في حرب السويد ضد روسيا. وإذا جرى منحه لقب النبالة والشرف بسبب مآثره الحربية، فإنه يشارك في عملية رصد لسواحل الإمبراطورية العثمانية في اللحظة التي تنشب فيها الحرب مع فرنسا، ويشارك في حصار طولون. وهو يجمع مع إمرائه الأسطول الفرنسي خلال سقوط الدنية إثر عمليات نصف بوناپارت لها.

وبعد هذه المأثرة يخدم على طول السواحل الفرنسية للمحيط الأطلسي والمانش لكي يؤمن الاتصالات مع مختلف التمردات الملكية. ويتم أسره في أبريل ١٧٩٦، خلال غارة على مصب السين. ويتواجد معه سكرتيره الملازم رايت ومهاجر فرنسي هو الكونت بو تروملان الذي يتظاهر بأنه إنجليزي اسمه بروملى. ويجرى احتجازهم في سجن تامبل ومصرعان ما يدخلون في اتصال مع اللقطات السورية الملكية جد القوية في هذه الفترة من

تاريخ حكومة الإنلرة. وهم يتابعون بانتباه التطور السياسى الذى يقود إلى انقلاب ١٨ لروكتيدور. ويكتب سيدنى سميت إلى بوناهارت طالباً الإفراج عنه فى تبادل للأسرى، لكن هذا الأخير لا يتدخل. وفى نهاية الأمر، يهرب مع رفاقه فى فبراير ١٧٩٨، فى عملية قام بها فيليپو، وهو ملكى وزميل دراسة لبوناهارت (٥).

والحال أن خبرته المتنوعة، وواقع أنه حر من كل ارتباط وتغفل أسرته سوف تساعد على ترشيحه للخدمة فى الإمبراطورية العثمانية فى مواجهة بوناهارت. وهو يحصل فى أن واحد على وظائف دبلوماسية وعسكرية. وهذا التداخل للسلطات، غير المؤدى عندما يكون أخوه سينسر سميت قائماً بالأعمال فى القسطنطينية، سوف يكون سبب نزاع متصل مع اللورد أيلجين عندما يتولى هذا الأخير مهامه كسفير، وسوف يقود إلى كارثة حقيقية بالنسبة للسياسة الإنجليزية.

ويحصل سيدنى سميت على قيادة سفينة حربية، هى التيجر (النمر) (وهى سفينة فرنسية سابقة كان قد تم الاستيلاء عليها فى عام ١٧٩٥). وهو يأخذ فى خدمته حاشية فيليپو، شارل فروتيه، الأخ غير الشقيق للجنرال فروتيه، إلى جانب اثنين آخرين). ويصل إلى القسطنطينية فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٨، فى الوقت المناسب تماماً لحضور توقيع معاهدة التحالف مع الإمبراطورية العثمانية. وهو يدخل على الفور فى تفاوض مع العثمانيين لتحديد مسلسل العمليات. وفى ١٧ يناير ١٧٩٩، يقابل الرئيس الفندى، المتحدث بلسان الباب العالى فى مجال الشؤون الخارجية. ويعرض فكره الأساسية. وبفضل درايه التامة بالحالة الذهنية للفرنسيين فى لواخر الفترة الثورية، يبدو له أن من الممكن القضاء على خطر جيش الشرق من خلال مجرد حرب سيكولوجية. وسلاحه السرى ليس شيئاً آخر غير حاشيته من الملكيين وخاصة فيليپو الذى يحضر الاجتماع، «تابع للفارس (سيدنى سميت) حديثه موضحاً للوزراء المهتمين أن أحد الأساليب الأكثر أهمية والتي يمكن للكولونيل فيليپو أن يكون مفيداً فيها لمصالح الباب العالى، إنما يتمثل فى أن يجتنب بتأثيره غالبية الضباط الساخطين فى جيش بوناهارت، والذين يرى أن العديدين منهم ينتمون إلى الحزب نفسه الذى ينتمى هو إليه. ومن ثم سوف يكون من السهل تحقيق ردتهم، أما وسيلة جعلهم نالعين بعد ذلك للقضية السامية فهى لا تعتمد إلا على التشجيع الذى يرى الباب العالى تقديمه بأن يعرض عليهم فى أن واحد الخدمة فى الجيوش المشتركة لوجع العودة بحرية إلى حيث كانوا فى وطنهم حيث سوف يسارعون، إلا يجدون أنفسهم

محل اضطهاد لوه على الأقل، محل انزعاج من جانب حكومة الإدارة، إلى التوحد مع الصلخطين ومن ثم زيادة عدد أملاكها الصلخطين. وعندما أخذ الكولونيل فيليبو الكلمة هو الآخر، أضاف أن مثل هذه العروض من شأنها أن تكون لها نتائج جيدة وأن هناك عديدين من الضباط مع بونابارت كانوا في الصالح تحت إمرته وأنهم لا يريدون شيئاً أحسن من خدمة قضية الملكية؛ ومن الطبيعي أن صاخطين آخرين على الحملة يتمنون العودة إلى حيث كانوا في فرنسا، وأنه بين صفوف الجنود أنفسهم هناك من سوف ينتهزون أول فرصة تسبح لهم للعودة إلى حيث كانوا مع ذويهم، فهم لا يوجدون هناك (في مصر - للترجم) لبنة إلا بحكم الإلزام والإجبار^(٦).

ويرد المسترلون العثمانيون للترزعجون بأنهم لا يمكنهم استخدام جميع الضباط الفرنسيين في جيشهم. لكن سيبنى سميت يسارع إلى طمأنتهم، إن المقصود بشكل خاص هو إقناع العدد الأكبر بالعودة إلى فرنسا عن طريق تبادلات لأسرى سوريين سعيًا إلى تكوين بؤرة قوية للضغط ضد حكومة الإدارة. ولتأمين نجاح هذه الخطة، يجب على العثمانيين قبول العادة الأوروبية الخاصة بتبادل الرسل بين المتحاربين. وفي التو والحال، بطرح سيبنى سميت مشروع هجوم على الإسكندرية سعيًا إلى منع الفرنسيين من تعزيز مركزهم في مصر. ويعلن العثمانيون أنهم لن يكونوا مستعدين إلا في شهر مارس للتحرك انطلاقًا من سوريا، ويقولون فكرة عملية مشتركة برًا وبحرًا. وبعد العميد البحري نفسه وقد حصل على قيادة العمليات من العثمانيين أنفسهم. وسوف تكون روس قاعدة الانطلاق. وينال من شاغل إنساني حقيقي، وينال من روح التضامن الأوروبي وسعيًا إلى كسب سمعة مؤاتية لمخططاته، ينجح في الوصول إلى تحسين ملحوظ لأحوال حبس الفرنسيين المحتجزين في العاصمة^(٧). وفي ١٧ فبراير، يشار القسطنطينية متجهًا إلى شرق البحر المتوسط. وفي ذلك التاريخ، كان الجيش الفرنسي قد بدأ بالفعل زحفه إلى فلسطين.

حسابات بونابارت

يصدق الإنجليز إمكانية حملة فرنسية على الهند. فما هي في الواقع طموحات بونابارت؟ إنه، من جهة، يحتفظ بإمكانية العودة إلى فرنسا، ومن جهة أخرى، فإنه قد زعم طيلة حياته أنه كان يستهدف إما الهند، أو إمبراطورية الشرق أو العودة إلى فرنسا عن

طريق القسطنطينية. والشواهد عديدة، فقد أوردها في مذكراتهم للقرىون إليه من زمن
القنصلية ومن زمن الإمبراطورية مثل سيهور أو منام أو ريموسا أو كولانكور؛ وقد كبر
ذلك في مناسبات جد عديدة في سانت هيلين؛ وأكد في روايته لحملة سوريا. إن التوازن
مع الإسكندر الأكبر نائم في جميع هذه الأحاديث. على أن غالبية المؤرخين لا يؤمنون
بواقع هذا المشروع (٨).

ولا يجب أن ننسى أن جموح الطموحات عنده يراعى دائماً حسب ملائكت القوة،
خاصة في تلك الفترة. ومن ثم يجب البحث عن عناصر هذا الحساب.

إن السياسة «الإسلامية» التي امتدتها منذ النزول إلى الإسكندرية قد فشلت في
تحقيق مخططه الأكبر؛ أن يحدد حوله. كنتاج شرقي جديد، كإلهة للسلمين، كحرب الدعاية
التي شنها الباب العالي، والتي من المؤكد أنه لم يتوقعها، قد خربت هذا المشروع.
والاستعراض الوحيد الذي تسنى له للتوصل إليه، هو تأكيد السلطة الدينية المستقلة
لشريف مكة والسعي إلى رفعها إلى مستوى سلطة مضادة لسلطة خليفة القسطنطينية.
وسوف يعلو الفرنسيون والإنجليز إجراء المناورة نفسها خلال الحرب العالمية الأولى (٩).
لما تأكيد شخصية سياسية مصوية أصيلة فهو فكرة ثانوية في نهائيه وهو لا يمكنه
بحال أن يخدمه في زحفه على الهند.

الذخيرة العربية

بما أن بونابارت لا يمكنه بعد اللعب بورقة الإسلام السياسي، التي يحتكرها
العثمانيون والإنجليز، فإنه يتجه عندئذ إلى جانب آخر من جوانب البرنامج الذي رسمه
قولني، تحرير شعوب الشرق. وسوف يسعى إلى وضع النخبة العربية في مواجهة
الإسلام، وذلك هي الفكرة الرئيسية لفكرة من أكثر الفترات غرابة في كتابه وحملتنا مصر
وسوريا. وهو لم يترسخها بشكل محدد لكنه وضعها في روايته قبل الحديث عن حملة
سوريا. وهي تبدو بوصفها محصلة للنقاشات التي أجراها بونابارت مع العلماء.

المس السلطان الكبير (بونابارت) وتر للوطنية العربية، لما تخضع الأمة العربية
للأتراك؟ كيف تهيمن على مصر الخصمية، وشبه الجزيرة العربية للقنصة، شعوب جامت
من القوقاز؟ وإذا ما هبط محمد اليوم من السماء على الأرض، فإلى أين سوف يذهب؟ هل
يذهب إلى القسطنطينية؟ لكن هذه مدينة نبوية، بها من الكفار أكثر مما بها من
أمنين؛ وجوده هناك يعني أنه يضع نفسه وسط أعدائه. كلا، إنه سوف يفضل مياه

النيل المباركة؛ وسوف يجرى للإقامة في مسجد الجامع الأزهر، ذلك المفتاح الأول للكعبة
للنيسة؛ عند هذه الكلمات تهلت وجوه أولئك الشيوخ الأجلاء، ومالت أجسامهم، ورددوا،
مكتولى الأيدي، «طبيب، طبيب، أه! هذا صحيح تماماً».

«ومنذما تم عزل مراد بك عزلة تامة، قل لهم ناهوليون؛ «إننى أريد إعادة ملكوت
العرب؛ لمن الذى يمنعنى من ذلك؟ لقد سمعت للعالم، للبابشيا الأكثر حسارة في
الشرق. ومنذما يمسود لفافهم بيهتنا، ومنذما ترك شعوب مصر كل الخير الذى أريد عمله
من أجلها، فإنها سوف تتعلق بى بإخلاص. «إننى سوف أحيى زمن مجد الفاطميين (١٠)».

وربما على بوناپارت الذى يطلب مساعدة العلماء، يشير هؤلاء الأخيرون إلى ضرورة
تحول الجيش الفرنسى لولا إلى اعتناق الإسلام. وعندئذ يرد بوناپارت بالإشارة إلى عقبتى
الختان وتحريم الخمر. فيرد العلماء بأن الختان ليس غير عمل محبب لكنه ليس إلزامياً،
وبأن المرء يمكنه شرب النبيذ مع بقاءه مسلماً لكنه - نتيجة لذلك - بعد الموت لا يدخل
الجنة. وعندئذ يتوصل الشيخ للهدى إلى حل وسط مبدئى على استشارة شريف مكة. وبعد
مناقشات طويلة، يجرى اعتبار إثم شرب الخمر إثمًا يمكن التكفير عنه بالإكثار من أعمال
الخير.

وهذه الرواية لا تجد أى تأكيد لها في المصادر العربية، لكن الإشارات إلى أصول
الشريعة الإسلامية والدور المنسوب إلى الشيخ للهدى إنما تصحح بتصديق صحة جزء على
الأثر من هذه الرواية التى رويت في سانت - هيلين. ويتفق ذلك تماماً مع العلاقات التى
انتهى الأمر بها إلى التعمد بين بوناپارت والعلماء. وفي روايته التالية، يتفاخر الأول بإمكانه
من كسب ولائهم المخلص بهذا النوع من الكلام، أى بإمكانه من خداعهم، لكنه يعرف كيف
يتدارك مبالغاته ويعترف بالواقع؛ «لقد كان المشايخ يعرفون جيداً أننى لست مسلماً وأنهم
لن يتوصلوا إلى جعلى مسلماً، لكن المحكمة السياسية وحدها هى التى تجعلنى أحاببيهم
وأتلفهم وأساندهم. ولم يك للمشايخ يريدون الكثير منى؛ وكانوا معتنين لمواقفى الخيرة،
لأشكال المراجعة التى أهديتها. وكانت السياسة تملئ على ذلك...» (١١).

هنا نصل إلى مفارقة نزع بوناپارت العربية. إنها من حيث الأساس علمانية
وتاريخية. وهى تتبع الفكرة الرئيسية الكبرى لمخطط التاريخ الذى رسمه التنوير، العرب
من حيث هم شعب - محطة للحضارة بين العصر القديم والرينسانس الأوروبى. وهنا
التصور لغير مفهوم لمن يتحدث إليهم. فبالنسبة لهم، لا توجد عروبة غير عروبة النصب،

إلى الانتماء إلى القبائل الكبرى لهبه الجزيرة العربية، وأساساً من تأوية زمن الفتح العربي،
لو فتح العالم على الإسلام، لو إننا عروية إسلامية لأن اللغة العربية هي لغة القرآن وهو ليس
شيئاً آخر غير كلام الله نفسه.

وعندما يُنمى القائد العام في ٢١ فبراير من العام السابع (١١ ديسمبر ١٧٩٨) إلى
زيارة الشيخ السانك بمناسبة عيد مولد السيدة زينب، فإن الرد يشهد حوار طرشان
حقيقياً، سبق الحديث تناول العشاء وتلاه. وقال الجنرال بوناپارت للمشايخ، إن العرب قد
رعوا الفنون والعلوم في زمن الخلفاء، لكنهم اليوم في جهل عميق وأنه لم يبق لهم شيء
من معارف أسلافهم، ورد الشيخ السانك بأنهم يبقون لهم القرآن الذي يحوى جميع
المعارف، فتسأل الجنرال عما إذا كان القرآن قد بين طريقة سبيل المنافع. وعندئذ أجاب
جميع المشايخ الحاضرين بحسرة أن نعم (١٢).

وبالرغم من اطمئنان بوناپارت الشديد إلى تحليله، فإنه لا يدرك أنه عندما يتحدث
عن العظمة التاريخية للعرب، فإنهم يرون عليه قائماً بالحديث عن الإسلام. وهو يرى أن
من الواضح أن تمرداً عربياً ضخماً على وشك الانشوب في سوريا وأن من الواجب تعينه
لتولى قبيلته. وبعبارة عن العرب أيضاً، فإن مجمل الفئة الثالثة الشرقية تعتبر عدوة للأتراك
كما أن الفئة الثالثة الفرنسية، المنحدرة من أصول غالية - رومانية هي عدوة
الارستقراطيات ذات الأصل الهرماني. ومن ثم فإن الهدف الأول لحملة سوريا، ملادة على
القضاء على خطر الهيول العثمانية، هو تعزيز الإمبراطورية نفسها، على الأقل في
جزئها الآسيوي، عبر تمرد شعوبها. ومن ثم فإن أسوأ اللعبة الكبرى ماثلة بالفعل،
لإنجليز يستخدمون الإسلام السياسي والفرنسيون يستخدمون النزعة القومية، مع
تشديد خاص على النزعة العربية.

فلسطين

من الواضح أن هذا التصور العام إنما يستند إلى تفسير أكثر تحديداً للحقائق
السياسية لسوريا الطبيعية، بلاد الشام. ويبدو أن هذه المنطقة الشاسعة قد صرقت في
القرن الأول للقرن الثامن عشر نحواً اقتصادياً وبموجهاً قوياً، خاصة في الجزء
الجنوبي منها، فلسطين (١٣).

للسكان الحضريون هناك مهمون، إذ تصل نسبتهم إلى نحو ٢٠ في المائة، أي أعلى من المتوسط الذي عرفت أوروبا الغربية في تلك الفترة. وهذه الظاهرة الكلاسيكية في المنطقة تجد تعزيراً لها عبر إغلبة فتح الساحل. وسعيًا إلى التحول من حوزة للصليبيين، كانت السلطة الملوكية قد منعت من الناحية العملية أي انقراض حضري ساحلي وكانت امتيازات القراصة الفوتجة (خاصة للملطيون) قد كرست هذا الوضع. ومنذ بداية القرن الثامن عشر، ينتهج العثمانيون سياسة مخالفة ويقادرون تدعيم المدن الساحلية. وعندئذ فإن حوزة الأمن تسمح بالتطور السريع لمجمل المدن الساحلية، وهي مدن جديدة، بالرغم من إنشائها في مواقع قديمة^(١٤). وهذا التطور يقود إلى تكثيف للعلاقات الاقتصادية مع أوروبا، التي تصبح سوقاً متزايدة الأهمية للمنتجات الزراعية للمنطقة، خاصة القز والتمغ والقطن. وتتأسس سلطات محلية على إرثات الزراعة للتنامية التي تسيطر عليها من خلال الائتمانات الطبرية. ويحصل تكوين جيوش محلية، تندرج هذه السلطات في استعانة الأمن الداخلي بصنفا للتزايد العملي للبدو، ويتوسيعها كذلك للمساحات المزروعة ومن ثم زيادة دخولها. وهذا الوسط المناسب يسمح بنمو أكثر أهمية للسكان الريفيين والمصايف.

والواقع أن الزراعة الفلسطينية إنما تتميز بوجود قري على المرتفعات وذلك بسبب الانعدام التقليدي للأمن. ويهجر استغلال الأرض القريبة بشكل دائم من جانب أسر مستقلة. أما الأرض البعيدة، والتي تتمثل في الوديان والسهول الساحلية، والأكثر عرضة للأخطار بكثير، فهي تستغل بشكل جماعي (مشاعة) من جانب جماعات تربط بين القرىها وحدة اسم السلف الأعلى (حَمُولَة) توزع فيما بينها الأراضي بشكل دوري، وذلك عمومًا، في نهاية فترات إرلحة الأرض. وبحكم البعد، تظهر مراكز ثانوية، على أنقاض مراكز موجودة بالفعل في الخلب الأحيان. وخلال الفترات الطويلة لانتعاش الأمن، يهجر السكان الأرض الزراعية البعيدة لكي يتركزوا في المنطقة القريبة من القرية - الأصلية^(١٥). ووجود هذه الأطلال يعطي للرحالة الأوروبيين انطباعًا بانتعاش الزراعة قياسًا إلى الفترات السابقة. ويجب لللتزم الحضري العقاري يجعله الجماعة القروية مستولة بشكل تضامني من مجموع للبالغ التي يجب دفعها. كما أن تأكيد الأمن المتعلق من جراء صد البدو يعتبر استثمارًا اقتصاديًا جد مربح لأنه يسمح باستغلال الأراضي المنخفضة.

الجزائر

إن أول من استفاد من هذا التطور هو ضاهر العمر الزيداني، حليف وصديق على بك، فهو إذ يجمع لحسابه الالتزامات الضريبية من الجليل إلى البحر وإذا يدخل في علاقة وثيقة مع للتجار الفرنسيين، يتجح في تأسيس قوة إقليمية حقيقية حول عكا، عاصمتها وعين رمز لحياة موانئ الساحل السوري - الفلسطيني. وقاعدة سلطته محلية وتستند إلى تحالفات عديدة مع الأعيان. ولم يك يوسع الباب العالي أن يقبل تكوين كيان مستقل كهذا غير ناشئ، خلافا لأشبهاء نول الإمبراطورية العثمانية الأخرى، عن جهاز الإمارة الإمبراطورية نفسه. ولذا لقد صلت منذ البداية لحمد باشا الجزائر الرهيب الذي أنرك تماما، وهو الغريب عن المنطقة، ضرورة البقاء على الدوام ضمنى إطار للشرعية العثمانية، بل والاستفادة منها إلى أقصى حد لك قوته مع احتفاظه برتبة ملائمة تجاه بعض السلاطة المركزية^(١٦).

وإذا جرى تقليد الجزائر في عام ١٧٧٥ مجرد صلاحيات حكم مدينة عكا، فإنه ينكب - أولا - على القضاء على آخر آل الزيداني. وهذه الخدمة التي يؤتيها تسمح له بالحصول على قيادة ولاية صيدا التي يواصل حكمها من عكا. وعندها يجرى تكليفه بالتوصل إلى إخضاع جميع الكيانات المستقلة المحلية لحساب الباب العالي ولحسابه هو نفسه. واعتباراً من عام ١٧٨٥، في زمن أزمة، خاصة عندما لا يتم تأمين قافلة حجاج آسيا، فإنه يحصل على مقاليد ولاية دمشق. وهو ينجح من جهة أخرى في مد سلطته إلى جنوب فلسطين. وهكذا فإنه يجمع مجمل مكونات القيادة السورية - الفلسطينية في ديسمبر ١٧٩٨ لمواجهة التهديد الفرنسي.

وممارسته للسلطة تتميز بوحشية نادرة. وهو الأكثر أهمية بعد القضاء على آل الزيداني من حلفهم الأقرب، شيعية جبل عامل (جنوب لبنان الحالي). وكان هؤلاء الآخرون قد استفادوا من حلفهم لم يسيطرتهم إلى الأراضي المجاورة. ومن عام ١٧٨١ إلى عام ١٧٨٢، يدمر الجزائر كل البلد الشيعي، ويتسبب في خراب ومجازر لا تنسى أبداً. وتحتاج هذه الجملة إلى عقود حتى تفريق من الخسريات التي وجهها إليها عكا. وبعد ذلك بوقت قصير، يجرى الدور على القبائل البدوية لكي تلقى معاملة مماثلة تؤدي، لفترة طويلة، إلى تولد اعتماداتهم على السكان المستقرين. ثم يتقلب على إمارة الجبل اللبناني.

ومن الناحية الشكلية الرسمية، فإن أمير الجبل ليس غير ملتزم مكلف بجهاية الضريبة من سكان الجبل، وهو يجمع نتائج امتيازات ضريبية، هي المقاطعات، التي تعوزها عائلات من أعيان النروذ والمراثة. وهذه البنية الحقوقية لتتوج الواقع الاجتماعي بهيكلية سلطات وجماعات عائلية، فالأمير والأعيان هم في آن واحد ممثلو السلطة المركزية ومظهر شخصية محلية قوية (١٧). وفي اللحظة التي يمد فيها الجزار نفوذه إلى الجبل، تبدأ المغامرة الحكومية للأمير بشيخ شهاب. والحال أن هذا الممثل لسلالة حاكمة ذات أصل مسلم سني، إنما يعتبر هو نفسه مارونياً ويخفى عن الجميع الديانة التي يمارسها. وإذا كان مرشحاً من جانب الجزار، فإنه يتولى الحكم في عام ١٧٨٨. والواقع أن سيد عكا يساند بالتتابع جميع المرشحين لهذا المنصب، الأمر الذي يسمح له بالحصول على هبات مالية ملحوظة وبأن يملك بئساً وسيلة للضغط على الأمير. ويتمكن بشيخ من تأكيد سلطته في تسعينيات القرن الثامن عشر، لكنه يظل تحت سيطرة الجزار بشكل وثيق.

وما كان لكل هذا العمل للمركز حول عكا أن يتم دون تكوين جيش قوي من المرتزقة، خاصة المغاربة، الذين يتجاوز عددهم عشرة آلاف رجل في أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر. ولتغطية مثل هذه النفقات، يمد الجزار سيطرته على الامتيازات الضريبية ويضغط على الفلاحين إلى درجة استنثاره، على ما يبدو، لنزوح ريفي يؤدي إلى إفقار الأرياف واختزال للحاصل. ثم إنه يفتن احتكاراً، لحسابه، لبيع المنتجات الزراعية للأوروبيين. والحال أن التجار الفرنسيين، الذين يفتنون بذلك إمكانية الشراء بسعر أرخص من المنتجين، هم أعضاء فرنسيون لهذا الوضع. وعندئذ يتطور تناحر بينهم وسيد عكا يعود إلى طردهم في بداية تسعينيات القرن الثامن عشر. وبالنسبة لحكومة باريس، فإن الجزار هو عين النموذج الأولى للمستبد الدموي والوحشي، الذي يجهل القوانين الليبرالية للاقتصاد السياسي والمشيح بكراهية خاصة للفرنسيين.

لكن شخصية الرجل أكثر تعقيداً. فمن المؤكد أنه سياسي عظيم بشكل نموذجي لولي محمد علي، خاصة في سياسته الاقتصادية. وهو متاور رهيب يجيد اللبث ضمن الحدود التي يفرضها اللبث العالي. وهو يزن تأخير مدفوعات للخزينة، وهي إيرادات ضرورية للخزينة الإمبراطورية، وذلك بشكل يمثل معه تسليمها خسارة لتأخرات ملحوظة. والوعب الذي ينشره في ممتلكاته هو وسيلة المحبة في الحكم، لكنه يعوق بذلك في تلك المنطقة صعود الأعيان المحليين الذي نهج في كل الإمبراطورية العثمانية. وهو، من حيث عمله وعزمه، يكرنا بمؤسسي تلك الإمبراطورية.

والحال أن صراعه مع بونابارت سوف يتخذ بعداً لا يقبل الشك. إنه سوف يصبح
صيف الإسلام وسوف يبنو، في ثورة المعركة، بوصفه للهدى الذي ينتظره جميع
المسلمين^(١٨).

خطة بونابارت

بالنسبة للفتاح الفرنسي، يمثل الجزائر العقبة الأخطر أمام طموحه إلى السيطرة على
الشرق. ولما كان بونابارت على علم تام بالوضع السياسي في سوريا - فلسطين، فإنه
يعرك أن الوسيلة الوحيدة لإثارة السكان السوريين هي أن يحشد حوله جميع ضحايا
الجزائر أنصار آل الزيداني في الجليل، شعبة جبل عامل والأمير بشير مع تروذه وموارثه
الجهليين. وهذا البرنامج السياسي للعروس تامة، لأنه لا يدعو أن يكون إعادة تشكيل
للاحتلال السياسي الذي يشهده ضاعف العمر وعلى بك في أوائل سبعينيات القرن الثامن
عشر، إنما يجري تفسيره بشكل أصم على أنه ثورة العرب على الأتراك، حركة سوف تعطى
دفعة إلى انتفاضة تشمل بكثير من جانب الأمم الخاضعة للعثمانيين، خاصة الأرمن
واليونانيين. إن ربيع الشعوب هذا سوف يشهد انهيار الدولة العثمانية^(١٩). والزحف على
القسطنطينية، على رأس جميع هذه الشعوب المتحالفة، إنما يعنى بالنسبة للإسكندر
الهديد تحقيق مشروعه، تأمين دوام الوجود الفرنسي في مصر واتحاد الفرنسيين
والشرقيين.

هذا التصور للأمور، يستعبد بشكل حثوي للرهبة الفكرى لبونابارت، فوالى
(الذى عاد من الولايات المتحدة بعد رحيل الجيش الفرنسي إلى مصر)، ويعرضه في
الصحافة الفرنسية في ٢٦ برمودور من العلم السابع (١٦ نوفمبر ١٧٩٨). فهدف بونابارت
لا يمكن أن يكون هو الزحف على الهند، ذلك أن العقبات الجغرافية والبشرية ضخمة،
خاصة في غيلب البحرية. وعلى تيهو صاحب وزمان شاه تحرير البلد وحشها، وفى
المقابل، فإن بونابارت سوف يتولى إصلاح مصر، بالقضاء على علامات الاستبداد
وتشجيع الزراعة والصناعات وتنشيط التعليم. «إنه، بالختصار، يخلق أمة و، باستخدامه
لطاقات الصالحين القوية، يعيد إلى العرب مجد أسلافهم» ويوضح لهم أن الجيش الفرنسي هو
الأداة المعجزة للدمرة إلى تطبيق أوامر العناية الإلهية، التى تريد إحياء قوة العرب القدماء،
وتخليصهم من نير المهابرة العثمانية، وتقوية شريعة النهى التى حرلها الجهلاء والزناينة،
وتطمين مصر جديد لآسيا من العظمة والعلم والمجد.

وهذه هي أولا إنشاء «مستعمرة فرنسية - عربية». وبمجرد تعزيز وضعه في مصر، فإنه يزحف على سوريا حيث يتربص الدروز والموارنة والعرب. وجنبا إلى جنبهم، يشهد الأكراد والأرمن والفرس والتركمان ويستولون على القسطنطينية. ومن هناك، يرجع إلى لوردوا ويحرق اليونان والبانها ثم بولندا، مجهزا على القوة الروسية، ويصبح بوسع الحكومات أن تحصل على السلام، وقد سئمت أخيرا من كل هذه الحروب، والمعارك والحرائق والجرائم والحصانات التي أضنتها». (٢٠)

إلا أنه لكي يتحقق الحلم، لابد له أولا من أن يمر بعكا، حيث ينتظره الجزار.

حملة سوريا الحويش

تلقى رينيه وجنود فرقته أمر الزحف قبل الآخرين وتشكيل طليعة للجيش. وهم يصلون أمام العريش في ٧ فبراير ١٧٩٩. ومنذ البداية، يصطدمون بمقاومة قوية من جانب الوحدات العثمانية، التي تتلأ حصون المدينة، وتنزل بهم خسائر مهمة. والحال أن كليبر - الذي يستدعي لتعزيزهم - ينضم إليهم مع فرقته في ١٢ فبراير. وينظم رينيه هجوماً في ليلة ١٤ - ١٥ فبراير ويحتاج للمعسكر العثماني، مجبراً الجانب الرئيسي من قوات العدو على الانسحاب وترك قلعة العريش لقواته هو. ويصبح توسع الفرنسيين بدء الحصار دون اللجوء بالتعرض لانتفاضات عليهم من الخلف. وسوف يصف نابليون، في سائت - هيلين، هذا الهجوم المفاجئ بأنه «واحد من أجمل العمليات الحربية التي يمكن شنها» (٢١). إلا أن بونابارت عندما يصل مع بقية الجيش في ١٧ فبراير يلوم رينيه على خسائره وعلى التنظيم السيء للإمدادات. والواقع أن قائد الفرقة ليس مسئولاً عن هذا التقصير، الراجع إلى سوء إمدادات الحملة، ففي اللحظة التي يجرى فيها الجيش حشد في العريش، لا يملك من الناحية العملية إمدادات تسمح له بمواصلة زحفه. ويحتاج رينيه على ما يعتبره ظلماً (٢٢).

ولذا كان العثمانيون، منذ بداية القرن الثامن عشر، وخاصة في حروبهم مع الروس، قد قصروا في حروب الحركة في مواجهة الجيوش الأوروبية، فإنهم على العكس من ذلك خطروا في حرب الحصار (يمكن استعانة هذا التأكيد بالنسبة للقرن التاسع عشر مع حصار بليشنا الشهير بل وبالنسبة للقرن العشرين مع معركة السريدل) (٢٣). وهكذا، فإن المقاومة غير المتوقعة من جانب الفرنسيين والتي تهيئها قلعة العريش إنما تضع جيش الغزو في وضع صعب. ويخاطر بونابارت إلى طرح شروط لاستسلام جد ملائمة، لتوسع الحامية الانسحاب بكل أشكال الشرف الحربي، وذلك بشرط التعهد بعدم الخدمة في سوريا لمدة سنة وخاصة بشروط ترك مؤناتها للفرنسيين.

وفي مساء ٢٠ فبراير، يستسلم العثمانيون ويخاضون القلعة. وعلى الفور، يحتلها الفرنسيون وينتهكون الاتفاقات، إذ يجرى توزيع سلاح الرجال الألف ومائة. ويجري إرسال

للملك (التابعون لإبراهيم بك) إلى مصر، وتجهيز للارتقاء المغاربة (عدة مئات) بالقوة للعمل في الجيش. وعندئذ يرحل من تبقى من الجنود إلى سوريا، معتبرين أنهم غير ملزمين بعد باتفاق لم يحترمه الفرنسيون منذ البداية. وتسمح الإمدادات التي تم الاستيلاء عليها في العريش بالتحرك حتى مخرج سيناء. ويحتد كليبر على انعدام مسئولية القائد العام الذي، إذ يثق في حظه السعيد، يرهق مصير الجيش بمغامرة القفرة على التزود بالإمدادات بفضل مستودعات الخصم (٢٤).

ويستأنف الجيش زحفه منذ ٢١ فبراير. وتتشكل الطليعة من كليبر وفرقة التي تعززها قوة الفرسان التي يقودها مورا. وتجرى إمداد رينيه ورجاله إلى مؤخرة الجيش، ويعهد إليهم بأن ينقلوا بأسرع ما يمكن العتاد والإمدادات للتروكة في مصر. وتتوه فرقة كليبر، بعد أن ضللتها طليعتها، لما بوناپارت الذي يتبعه بعد ذلك مباشرة، مع حاشية صغيرة، فإنهما يخامران بأن يحسبا حملة من للملك، وفي ٢٤ فبراير، يستولى الفرنسيون على غزة حيث يجعون مخزونات مهمة من الإمدادات الغذائية والذخيرة، الأمر الذي يثلج صدورهم إلى أبعد حد، وتنقسم القوات العثمانية؛ فالوحدات العثمانية بالمعنى الدقيق للمصطلح تنسحب إلى يافا، بينما ينسحب للملك والقوات المحلية إلى القدس ونابلس. وبمسيرة ثقلة، يفضل الجزار على الصدام الجبهوي، غير اللاتم بالخصبة له، استراتيجية صد باستخدام الحصون الساحلية. وصوف يسمح ذلك له بتأخير الفرنسيين وإجبارهم على البقاء على الساحل. وعندئذ يمكن لسيد هكا أن ينتظر وصول التعزيزات العثمانية وأن يخوض حرب عصابات، انطلاقاً من داخل الأراضي، على خطوط مرافلات الفرنسيين. وهو يعرف أنه ما دامت قواته الأساسية لم تتعرض للدمار، فلن يكون هناك انحياز مهم للقوة.

يافا

في ٢٨ فبراير، يستأنف الجيش زحفه ويستولى على الرملة في أول مارس. وهناك يتم العثور، مرة أخرى، على مؤن ملحوظة، وهو ما لا يحول دون هزات سلب للحاصلات من جانب الجنود وعند من عمليات النهب التي لا تبرزها أية مقاومة. وفي ٢ مارس ١٧٩٩، يصل كليبر أمام يافا ويتمركز في شمال المدينة سعياً إلى عزلها عن هكا ونابلس. والحال أن عملية استطلاع، قام بها الجنرال دافنس في اتجاه تلك المدينة الأخيرة، إنما تشير إلى

صعوبة التسلل داخل الأراضي، فالواقع الدفاعية الراسخة للقرى القائمة على المرتفعات ومجموعات الانتصار التي نظمها الجبلون بشكل أقوى تعدُّ من المجال الذي يحتله الفرنسيون في السهل الساحلي (٢٥). ويسمى الفرنسيون بوجه عام أولئك الجبلين بالذاهليين.

وتبدأ محاصرة يافا منذ ٣ مارس. وكانت المدينة مشهورة بحصار دام عدة أشهر تمتعت ضد على بك في عام ١٧٧٣ وبالمذابح التي ارتكبها هناك أبو الذهب في عام ١٧٧٦، بعد أكثر من شهر ونصف شهر من الحصار. وهي القائمة الأساسية لتراجع العلمانيين. ويتهاجم كاتاريللي الذي يقود سلاح للهندسين وبومارتان للسطول من المنطقة لتحديد خطة الهجوم. ويرد المحاصرون على أعمال المحاصرة بفارات قوية. وفي صباح ٧ مارس، يأمر بوناپارت بالهجوم. وتسلط المدينة بعد الظهور ويتركب الجنود على نهب منهجي. ومن بين جنود الحامية الذين حصل عندهم إلى خمسة آلاف، يسقط ألفان في المعارك، بينما تستسلم الآلاف الثلاثة الباقية لمساعدى بوناپارت. يوجهن دو بوكنيه وكوروازييه، في مقابل وعد بالإبقاء على أرواحهم. وعندئذ يندرج واحد من أكثر أحداث الأسطورة النابوليونية سوانة. فبوناپارت يخرج من المجموعة للمصريين، الذين حصل عندهم إلى نحو خمسمائة رجل، ويعيدهم إلى بلدهم. ثم يتدور بوجود مقاتلي حامية العرش الذين حملوا السلاح بالرغم من اتفاق الاستسلام (الذي لم يحترمه الفرنسيون أنفسهم) والذين لابد أن عندهم لم يك ليزيد من ثلاثمائة إلى أربعمائة (٢٦)، لكي يحكم على جميع الأسرى الآخرين بالإعدام. رمياً بالرصاص. والحجة الأخرى التي تساق هي أنه لم يك لديه ما يكفي من القوات للسيطرة عليهم وإرسالهم إلى مصر. على أن عدة مئات من المصريين قد ظلوا بالرغم من ذلك إلى مصر. والناطق الحقيقي للقرار ليس عسكرياً، بل هو نافع سياسى. إذ لا يجهل بوناپارت أن أبو الذهب قد استولى على فلسطين بهذا الشكل. ويورد ثولنى قصة ما حدث آنذاك: «لقد هانت المدينة ويلات السلب والنهب، فالتساء والأطفال والشيوخ والرجال البالغون قد مروا كلهم على حد السيف، وأمر محمد (أبو الذهب)، الذي لا يقل جهته عن بربريته، بتشديد حرم من جميع رؤوس هؤلاء التعساء، تحت ناظره، ليكون أثراً باقياً لانتصاره: ومن المؤكد أن عدد هذه الرؤوس قد وصل إلى ألف ومائتين. وهذه الكارثة، التي تمت في ١٩ مايو ١٧٧٦، تنشر الرعب في البلاد كله. بل إن الشيخ ضاهر يهرب من مكة. (٢٧)».

إن مذبحة يافا تخفيه بالدرجة الأولى كوسيلة للاستيلاء عبر الرعب على بقية الفلسطينيين، وخاصة عكا. ولا بد من إضافة أن استشراف بونا هارت يهدى جوانب جد محيرة. فهو إذا كان يصور نفسه مخلصاً على أنه يظل تمدينياً، فإن الشرق هو أيضاً بالنسبة له، وفقاً لما باح به ليلام في ريموسا، فرصة للتخلص من حضارة جد مزعجة. فعند بداية الحملة، يستخدم الفرنسيون في سياستهم القمعية عدفاً قهر معتاد في الأراضي المحتلة في أوروبا. لقد استعملوا بشكل متروى تماماً علقات الإرهاب (اليعاقوبى - للترجم) وحرب القناديل. ومنذ بداية العصر الاستعماري، فإن حقوق الإنسان، التي دشنت في أوروبا لأجل الأوروبيين، كان من الصعب أن تنطبق على الشرقيين؛ فإيا كان ما حدث، لم يعود هؤلاء الأخيرين على عتف الاستبداد ؟ وهل عرفوا شيئاً آخر غير الإكراه ؟ لقد قدم هو وصفاً شهيراً لمذبحة يافا، «عندما وصلوا أخيراً إلى الكتيبان الرملية في جنوب - غربي يافا، جرى إيقالهم أمام بركة ماء ركدة. وعندئذ أمر الضابط الذي يقود القوات بتقسيم الحشد إلى مجموعات صغيرة؛ وبعد توجيه هذه المجموعات إلى عدة نقاط مختلفة، جرى قتلها هناك رمياً بالرصاص. وقد استغرقت هذه العملية للربعة الكثير من الوقت، بالرغم من عدد الجند المخصصين لهذه التضحية للشهوة والذين، ولا بد لي من إعلان ذلك، لم يتحملوا، إلا بهالغ القدر، تلك الطقوس القهية المفروضة على أيديهم الظلمة. والحال [...] أن الأتراك [...] يتوسلون في هذا للاء الرائد [...]، ثم لا يشعرون على الأيدي فيما بينهم، بعد أن يضعوها على قلوبهم وأقوالهم، شأن المسلمين في تبادل التحية، يتبادلون وداعاً أيدياً. لقد بنا أن أرواحهم الجسورة تتحدى الموت. [...]

«كان جنودنا قد استنفدوا خرطوشاتهم؛ وكان لابد من ضرب [المصلوف الأخيرة] بالحرية وبالسلاح الأبيض. وتشكل - لأنه لابد من قول ذلك - هوم موصب من الموتى والمحتضرين الذين تتزك منهم الدماء، وكان لابد من سحب الجثث التي قضت بالفعل للإجهاد على التمساء الذين كانوا لم يتم الإجهاد عليهم بعد، في حصى هذا المتراس للرعب، المخيف». (٢٨)

ولا بد أن العدد الإجمالي لضحايا للجزيرة يرتفع إلى ألفين وخمسمائة. وفي ٩ مارس، توجه بونا هارت بياناً إلى سكان فلسطين؛ إنه لم يأت لحاربة السكان، بل لحاربة الجزاء، وهو بعد بكلفة حرية ممارسة العبادات والحياة الكاملة للممتلكات. ويواصل تصوير نفسه في صورة كائن فوق بشري؛ «يجدر بكم أن تعرفوا أن جميع الجهود البشرية غير

مجدبة ضدى، لأن كل ما تقدم عليه لابد أن يكتب له النجاح، ولولئك الذين يصالكوننى سوف يكسبون ولولئك الذين يمانوننى سوف يهلكون. ومثل ما حدث فى يافا وفى غزة لابد له من أن يجعلكم تعرفون أننى إذا كنت لا أرحم أعدائى فإننى كريم مع أصدقائى، وأننى رؤوف ورحيم خاصة مع الفقراء (٢٩).

ويخاطب، بالأسلوب نفسه، سكان القدس والنابلسيين طالباً منهم الإذعان، وإننى رؤوف ورحيم مع أصدقائى، لكننى رهيب كالصامقة تجاه أعدائى (٣٠).

كما يجد الجيش فى يافا متاعاً حربياً مهماً وإمدادات عظيمة. وكان توسع الجنود أن يمارسوا النهب على مهل، لكن الطامعون مائل بالعمل، وتظهر الحالات للقاتلة الأولى منذ اليوم التالى للاستيلاء على المدينة. والتجذب إلى دهر، يجرى عزل للرغى والتكذيب العلنى لخبر أنهم قد أصبحوا بالعلم الذى يظهر الرعب. والتأثير على الجنود، فإن بوناپارت، الذى يهدى ثقتى فى نفسه والذى يريد على ما يبدو إظهار الفرات خارجة عن النكوف، شأنه فى ذلك شأن ملوك فرنسا فى الأزمنة السابقة، يقوم بزيارة طويلة للمصليين بالطامعون، وهو مشهد سوف يلهم لوحة جنوس الشهيرة (١١ مارس ١٧٩٩). وإذا كان بوناپارت لا يصاب بالعلم، فإن يافا تصبح مع ذلك بؤرة دائمة للطامعون فى مؤخرات الجيش.

بخطبة حصار عكا

فى ١٤ مارس، يجرى استئناف الزحف ويحاذى الجيش فى الأيام التالية جبل الكرمل. وعندما يصل إلى حيفا فى ١٧ مارس، يكتشف وجود نحو جديد، سفينتين حربيتين إنجليزيتين. إنه مهدى سميت مع السفينتين «لوتيجورا» و«الوفيسيه»، ويمثل وصول الإنجليز كثرة بالنسبة للفرنسيين. فأسطولهم الصغير للكلف ينقل مدفعية الحصار، جد الثقيلة بحيث يصعب نقلها عبر الصحراء، يتم اعتراضه على الفور وأسره، مما يحرم بوناپارت بذلك من عتقه للخصم الحصار (٣١). ويتعين عليه إصدار الأمر بإرسال ثلاثة جديدة من الإسكندرية لتحل محل العتاد المفقود. وفى يومى ١٩ و ٢٠ مارس، يبدأ الجيش مع تلك محاصرة عكا بينما يعطى لأن وفوقته للوقع من جهة الجليل.

ومنذ ١٩ مارس، يمثل عباس خيام، حفيد ضاهر العمر، أمام بوناپارت، وهذا الأخير يوليه فوراً على النحال التقليدى لال الزيدانى، إلهيم طبرية، ويرسل رسائل إلى شيعه جبل عامل ويكتب بنفسه إلى الأمير بشير، مبدلاً إياه بحصار عكا ويعزمه على القضاء على استبداد الجزار.

«إن نهى تتمثل في جعل الأمة الفرزية مستقلة، وتخفيف الخزينة التي تلعبها وتسليم ميناء بيروت لها إلى جانب المدن الأخرى التي تعتبر ضرورية لها لثقل تجارتها. وأرجو أن تهيتوا بأنفسكم، بأمر ما يمكن، أو ترسلوا رسولا للاجتماع في هذا، أمام عكا، حتى تتخذ جميع الترتيبات الضرورية لتخليصكم من أماننا المشتركين. ووبسببكم أن تعلموا، في جميع قوى الأمة الفرزية، أن أولئك الذين يريدون أن ينقلوا إلى المعسكر مؤداً غذائية، وخاصة النخيد والعرق، سوف يحصلون على أمانها غير منقوصة» (٣٢).

والواقع أن مبدأ من الجبليين يحضرون فوراً إلى المعسكر الفردي لبيع مؤن من كافة الأنواع للفرنسيين واشراء أسلحة. ويرى الضباط الفرنسيون في ذلك علامة تحالف سياسي أخذ في التشكل مع الفرز. والواقع أن الأمر يتصل أساساً بأمن آل الزيداني وبالشيعة بأكثر مما يتصل بالفرز وبالموارنة. ويكتفى الأمير بشير بالتفاوض عن تجارة يصعب عليه منعها على أية حال (٣٣).

وكان الوصول الأسطول الإنجليزي الصغير أثر ملحوظ على حصار عكا. وإذا كان العثمانيون قد استعادوا بالفعل من إمكانية التزود بالإمدادات عن طريق البحر (لعلوا ذلك في أماناً عندما انقطعت الاتصالات البحرية) بشكل مستقل عن الإنجليز، فإنهم سوف يحصلون على مساعدة من عمليات القصف التي تعارضها السفن الإنجليزية وخاصة من وجود متخصصين مثل فيليپو، عهد إليهم فوراً بالعمل لدى الجزائر. وهم لن يشعروا بأنهم وحدهم في اللصقة. إن سيدني سميث، الراغب في الإغلاء من دوره الخاص، سوف يتفخر بأنه قد رفع معنويات سيد عكا الذي كان يستعد للاستسلام. ولا يخلق ذلك بالمرّة مع ميكولوجية الرجل الذي كان يهوى، منذ البداية، للقاومة بقواته الخاصة. وعلاوة على وحداته للآفونة من المرتزقة، فإن معه جميع سكان المدينة الذين لم يتردد في تسليمهم. وهو يأمر بذهاب للمسيحيين لتجنب أي مظهر خامس محتمل وخاصة لإظهار إصراره. ومصير يافا، بدلا من أن يربح للدافعين، يوضح لهم أنه ما من مخرج هناك سوى الموت في المعركة أو النصب. وليس أمام الجزائر أكثر من اللعب على وتر الذود عن الإسلام لكي يتسنى له الوصول إلى إثارة حمية قواته. وهو، من جهة أخرى، متأوى لوجود وحدات مهمة تتبع الباب العالي في إقليمه، الأمر الذي يوضح أنه يهتم فعلا بالمستقبل. ويبدو الإنجليز له أكثر حيانا ونلقين في نهاية الأمر لإبقاء سكان الجبل اللبناني في قلبه السياسي.

ويمر الأسبوع الأول للحصار دون حوادث مهمة. وينشئ الفرنسيون خطوط تحصينهم ضد الخنادق إلى الحصون الخارجية للمدينة. ويتم إنشاء هذه الخطوط بقدر كبير من العيوب. ويحتج كليبر على ذلك، فهناك جهل بتوزيع انتشار الخصم، وبومارتان وكافاريللي لا يتفقان على الخطة التي يجب اتباعها، ويفضل بونابارت خطة صديقه كافاريللي ولا يأخذ في الحصان المشاريع التي يقدمها قائد المنطقة. ولا يتردد المحاصرون في شن غارات لتهديد أعمال التحصين. ويتجه مورا إلى الجليل سعياً إلى تعزيز أنصار آل الزيبلي بفرسانه، ولتغطية الجيش ضد هجمات محتملة من الشمال (دمشق) أو من الجنوب (نابلس). وتجرى إقامة مستشفيات الجيش في قرية شفا عمرو، حصن ضاهر القديم، والتي تبعد عن عكا مسافة ثلاثة فراسخ.

ويجرى شن الهجوم الأول في ٢٨ مارس ١٧٩٩. وينجح الجنود في اجتياز الخندق الواقع أسفل الحصون للاستيلاء على ثغرة في السور الخارجي، إلا أنه يتكشف أن هذه الثغرة غير سالكة وأنها معروضة تماماً لنبيران للمحاصرين. إن العثمانيين يربون بسهولة على المعابر. وتحدث خسائر فادحة، مائة رجل من بينهم عدد من الضباط المهمين (٣٦). وأحال أن الجزائر، الذي انزعج للحظة على مصير مدينته، يقرر الاعتماد على نصائح فيليبو والإنجليز (٣٥). وهو يأمر بإنشاء خط ثانٍ للتحصين خلف السور القديم ويجري نشر جانب من مدافع البحرية الإنجليزية (ومن بينها مدافع كان قد تم الاستيلاء عليها من الفرنسيين) على البر. ويدرك المهاجمون أن الحصار قد أصبح مسألة خطيرة وطويلة وأن زمن الانتصارات السهلة قد ولى.

وفي ٣٠ مارس، يجيء الدور على المحاصرين لشن غارة عنيفة على المواقع الفرنسية. ويجرح عدد من الضباط الإنجليز، من بينهم رايت، مكرتير سيدني سميث. ويعد الفرنسيون لعملاً يجب الانتجازه أن يسبق الهجوم الثاني. ويجري شن هذا الهجوم في الأول من أبريل. وبالرغم من طولته لأن الذي يتولى القيادة في الساحة وعلى الرغم من أن الخندق قد أصبح الآن شبه مدموم بالانقراض المختلفة، فإن الثغرة تظل دائماً غير سالكة أيضاً. ويتعين على بونابارت انتظار وصول ما تبقى من تلك الحصار لاستئناف الهجوم. ويعد الفرنسيون استخدام القنابل التي تطلقها السفن الإنجليزية (٣٧). ويجري إعداد لغم جديد. ومن الجهة الأخرى، يشن الإنجليز غارة أخرى في ٧ أبريل، وينشأ نوع من الدوتين،

إذ يجري تبادل القصف، وتتقدم الخطوط الفرنسية ويكثف المحاصرون الدارات الصغيرة لعرقلة هذا التقدم.

الجليل

كان الجزار قد دعا جميع سكان الإقليم إلى أن يهربوا ضد الفرنسيين باسم النود عن الإسلام. وهو يعتمد بشكل خاص على النابلسيين وعلى السكان السنيين للساحل بدءاً من صيدا. ويرسل بوناهاوت ليل في هذا الاتجاه مع طابور متحرك. ويحقق اتصاله بالشعبة الثائرين تحت قيادة الشيخ نصور ويستولى على صو. وتتمركز حامية صغيرة من الشيعة والفرنسيين في اللبنة، بما يغطي عكا على الطريق الساحلي (٢ - ٥ أبريل ١٧٩٩).

وفي الوقت نفسه، يصل مورا حتى الأردن ويتوقف أمام مرتفعات الجولان. وإذا لا يجد مخاطر وشيكة في المنطقة، يرجع إلى عكا بعد أن عين أعداء للجزار مسئولين عن المنطقة.

وكان جونو قد سار في اتجاه الناصرة حيث يرحب به السكان الذين يعتبرون في غالبتهم مسيحيين. ويتعين عليه البقاء في اللو، وذلك بسبب خطر تركز مهم للنابلسيين في جنين. وينضم للاحون هديون من منطقة القدس إلى فلاحى نابلس. وفي ٨ أبريل، يصد جونو في كفر قانا هجوماً للفرسان بفضل مناورة الانتشار على شكل مربع. وهذه المأثرة الحربية الرائعة، بالنظر إلى أن الخصوم كانوا أكثر عدداً بكثير، سوف يسميها بوناهاوت بـ «معركة الناصرة»، لاعتبارات الدعاية الأوروبية. لقد كان مضطراً إلى الاعتراف بأن قانا لا تبدو ثورانية بما يكفي. وهو يقرر أن يرسل إلى الجليل على سبيل التعزيز كليبر وفرقة، المعززة بفرسان مورا.

ويصل كليبر إلى الناصرة في ١٠ أبريل (٢٨) وفي اليوم التالي، يصد بدوره للخصم قرب قانا. إلا أنه لما كان لا يعرف من أي اتجاه سوف يصل العدو، لأن مرشديه يخبرونه بوصول قوة مسلحة مهمة قادمة من دمشق، فإنه يفضل الحفاظ على مواقفه في منطقة الناصرة، بينما يسيطر مورا مع فرساته على طريق دمشق. وبعد نجاحات رائعة، يستولى على طبرية في ١٧ أبريل، حيث يجد مستودعات مهمة للملح الغلاتية. وخلال قيامه بهذه

العملية، التي أمرت بها الأركان العامة، بكتشف كليبر الذي يتحرك بدوره على طريق دمشق سعياً إلى الهجوم على جيش العدو من الخلف. وإذا علم بونابارت بهذه الحركة، فإن يقرر عندئذ أن يوجد هو نفسه مع فرقة بون في منطقة الناصرة (١٥ أبريل ١٧٩٩).

وفي صباح ١٦ أبريل، تتعرض فرقة كليبر لهجوم في سهل إيسندرون، وعلى الفور يجرى تشكيل المروحات، وهي تقاوم بثبات الهجمات العديدة التي يشنها جيش معاد، يتألف من البدر ووحدات دمشق وثألس المحلية، الأعلى بكثير من حيث العدد (لم يقتل من فرقة كليبر غير رجلين بينما جرح ستون). وفي منتصف ما بعد الظهر، يصبح وضعه حرجاً بسبب خطر نفاذ الذخيرة، وفي تلك اللحظة تعلن طلقة مدفع وصول قوات بونابارت. وعلى الفور يدفع كليبر قواته إلى الأمام بينما يتخستت شمل الجيش العثماني ويقرر في اتجاه دمشق، بعد أن وجد نفسه محاصراً بين الفرقتين الفرنسيتين اللواتي من أربعة آلاف رجل. وهذه المعركة، للصوفا باسم معركة جبل طابور، تتيح للفرنسيين السيطرة على الجليل. ويجري على الفور إحراق ثلاث قرى، من بينها جنين. وعندئذ يوقف الدابلسيون حرب عضلاتهم. وعتردد بونابارت للحظة في الزحف على دمشق نفسها، لكنه يتخلى عن الفكرة بسبب خطرها. ويعيد معه جزءاً كبيراً من القوات، تاركاً لكليبر ولعباس ضلوع مهمة الإمساك بزماء الجليل. ويمر بالناصرية حيث يحتضر لينتور نو هاراني، ترجمانه ومستشاره الشرقي، متأثراً بالإجهاد والمرض. ويحل محل الترجمان المعوز تلميذه، الشاب كميديه جويبر. والآن يمكن استئناف حصار عكا دون خطر التعرض لهجوم قادم من الداخل.

بشور والإنجليز

يبدو أن الحظ يبتسم من جديد لبونابارت، فخلال شبابه، كانت القافلة البحرية الفرنسية الثانية قد نقلت إلى يافا هتاد الحصار. إلا أنه يبدو أنه يستسلم آنذاك لفكرة الاكتفاء بالاحتفاظ بالمدينة والرجوع إلى مصر (٢٩).

إن الانتفاضة الشوتية الشهيرة لا تتحقق، بالرغم من ولاء آخر أنصار آل الزيداني وبعض الضميمة. والشخص الوحيد، القادر بالفعل على شن حركة واسعة، هو الأمير بشير. والحال أن هذا الأخير يتخذ موقفاً حكيماً قوامه الترقب والانتظار. وقد رفض الرد على رسائل بونابارت. وهو يعرف بالفعل أن الجهاز يأخذ عليه عدم مجيئه لتقديم المعون إليه في عكا. ومن جهة أخرى، فإن الدروز يبدون معانين بقوة لأي تعاون مع الفرنسيين.



٤١ - معركة الأهرام.



٤٢ - بوتاهارت يعطرون متمردي القاهرة.



۴۲ - پوناپارت پند عیون موسی.



٤٤ - معركة جبل طابور.



۴۰ - پوناپارت امام اسوار عكا.



١٧ - (أ) عودة برناباوت إلى القاهرة.



(ب) الانتحاب من سوريا.



وبلجها للبعض إلى إقليم حلب وإلى حوران السورية (١٠). ويستفيد سبيدي سميث من الفرصة التي يتيحها أسر اثنين من للمسيحيين الذين كانوا ينقلون العرق إلى الفرنسيين لكي يدخل في اتصال مع زعماء الجبل. وفي ١٤ أبريل، يحذروهم من مشاعر بوناپارت الحقيقية،

«مع العرب، يريد بوناپارت للتظاهر بأنه مسلم، متفاهراً بأنه قد هدم الكنائس، وكسر الصليبان وخرب كروسي القباب، ولذا فلا غرابة في أن يعلن مكس ذلك لسكان الجبل، إنه بعد دون أن يتمسك بوعوده، وعندها يصل إلى غايته، يتخلى عن كل شفقة.

«أما فيما يتعلق بنا، فإننا نتعسك بما نقول، لأننا من أصل كريم وعلى ديانة المسيح، إن سياستنا مخصصة؛ وهي ضد الظالم ومن أجل إغاثة للظلم [...]

«إننا ننصحكم بعدم الدخول في أية علاقة مع الفرنسيين حتى لا تثيروا ضيق الدول. لا تثقوا بهم على الإطلاق ولونوا بحمايتنا. ورغبة منا بدفع الصداقة في الدخول في محادثات معكم، فإننا نطلب إليكم أن ترسلوا إلينا رسولا سوف نبلغه مخلصين بكل ما هو في صالحكم ولما فيه خيركم». (١١)

ويستخدم سبيدي سميث للسلطات التي منحها له الباب العالي لكي يطمئن الأمير بشير، ويرسل هذا الأخير إلى عكا وسلا مكلفين بالإعداد لمصالحة مع الجزائر. ويقيم سميث حمايته لمسيحيي لبنان ويرسل علانية لللازم رايت للشفاء من جراحه لدى الأمير بشير (١٢). والرسالة إلى بشير واضحة: «قبل إرسال رسالتي السابقة، كنت قد تحدثت عنكم مع أخى أحمد باشا الجزائر، الذي أود أن تكونوا على علاقة طيبة به. وقد قررنا أن تكون علاقاتنا صداقة معكم إنا ما أعلنتم عداكم للفرنسيين. والحال أنني، وقد بينت ذلك، أرى عرض الأمر على المصدر الأعظم وإبلاغه بأنكم حليف لنا والمصالح من على فرمانات تسير في الاتجاه الذي نتمنونه.

«إننا نطلب إليكم أن تكونوا على استعداد مع رجالكم قريباً لوصول المصدر الأعظم ومن المناسب نصيح السكان للمسلمين والمسيحيين على حد سواء بالنأي عن الأمة للملحمة وبالرلاء للحكومة العثمانية. فالويل لمن لا يصغون إليكم! إننا نعتبر أمتكم امتنا وأمركم لأمرنا».

والحال أن الأمير بشير، بسماعه بذلك يتدخل الإنجليز لتسوية نزاعه مع الجزائر، إنما يدخل للمرة الأولى الدول الأوروبية في السياسة الليتانية، وهو واقع سوف يصبح دائماً...

وكعلامة لا جدال فيها على سيطرة فكرة الانتفاضة الشرقية على ذهن بوناپارت، سوف يلجأ ناپوليون في سانت - هيلين إلى تشويه صورة الواقع وسوف يبتدع في مذكراته وجود اتفاق سرى مع الأمير بشير ، «لقد كان لحركة جبل طابور الأثر للرجوع منها: إن الدروز واللواتي وسكان سوريا المسيحيين و، بعد عدة أسابيع، مندوبي أرمينيا المسيحيين، قد تطلعتوا على المعسكر الفرنسي. وبموجب اتفاق سرى مع الدروز، تم الاتفاق على أن يأخذ القائد العام لحسابه ٦٠٠٠ درزي و ٦٠٠٠ ماروني تحت قيادة ضباطهم، لمشاركة الجيش السوري في الزحف على دمشق» (٤٣).

وهو يضيف في مكان آخر أن الاتصالات تمتد أيضاً إلى فارس، وأنها بداية علاقات مع بلاط طهران (٤٤). والأرجح أنه لم يحدث شيء من ذلك، إن رفض الأمير شهاب كان كلياً لإغراق حلمه الشرقي. وسوف تكون لهذه المسألة نتيجة غير متوقعة: فسوف يُعزى إلى بوناپارت مشروع إنشاء دولة يهودية في فلسطين. والواقع أن القائد العام لجيش الشرق لا يبدو أن هذه الفكرة قد راوتته في أي وقت من الأوقات. لكن مناخ نهاية العالم الذي يرافق الثورة الفرنسية قد شجع الحركات الألفية اليهودية والبروتستانتية والحركات الخلاصية اليهودية في أوروبا. واستناداً إلى بعض النصوص التوراتية، يجري التنهؤ بتجمع للشعب اليهودي في الأرض المقدسة. كما أن وجود جيش فرنسي في فلسطين قد بدأ للبعض بداية لتحقيق تلك النبوءة. والمصافحة الأوروبية، الإنجليزية والفرنسية على حد سواء، سوف تعلن الخبر في وقت حملة سوريا تلك (٤٥).

عمل الإنجليز السيكولوجي

يطبق سيدني سميت خطة عمله التي تتألف من إشعار أبطال الأمة العظمى بأن أفضل ما يمكن أن يحدث لهم هو أن يصبحوا أسرى له حتى يمكنهم العودة إلى أسرهم. وكذلك سوف يصبحون أعداء للسلطة التي قاتلتهم إلى مثل هذه المفارقة (٤٦). وهو يستفيد من العلاقات الدبلوماسية لترويج أخباره للدمرة للروح المعنوية من الوضع الأوروبي وبناء في نقل الأفكار الرئيسية لعملياته: إن حكومة الإنلرة قد نفت الجنود عمداً لتوردهم موارد الهلاك، وإن جيشاً عثمانياً ساحقاً ينحط عليهم لإبانتهم، إلا أنه مازال بالإمكان إنقاذهم. «إن أولئك الذين يريدون من بينكم، أيها كانت رتبهم، الإغلات من الخطر الذي

بتهديهم، يجب عليهم، دون اقل تأخير، إعلان نواياهم لقادة القوات البرية والبحرية للدول
للتحالف، وليكونوا على ثقة من أنهم سوف يجرى إرسالهم إلى الأماكن التي يريدون
الذهاب إليها وأنه سوف يجرى تزويدهم بجوازات سفر كي لا يتعرضوا للإزعاج خلال
رحلتهم من جانب الدول للتحالف أو من جانب السفن المسلحة التي تهوب للبحر
فليصارها من ثم إلى الاستفادة في الوقت المناسب من نوايا البلب العالي الخيرة
والمعتدوها فرصة ملائمة للإفلات من الهاربة للربعة التي جرى معهم إليها،^(٤٧).

والحال أن كل الإنسانية التي أهلها للعميد البحري تجاه الجرحى والأسرى
الفرنسيين، يبدو أنها تضمن تنفيذ هذا الوعد للفرى. وإلى وجه هذا الخطر، لا يرى
بونابارت غير حل واحد، فضع مسلك سيدي سميت هنا. فأمره لليومى الصابر فى ١٩
أبريل، على شكل رسالة إلى بورتيه، يتهم للعميد البحري بنقل أسرى فرنسيين على
سفينة يوجد الطاهرين على متنها. وبالتواطؤ فى قتل مسيحيى عكا وبتطع رؤوس جثث
الجنود الفرنسيين الذين ألتوا خلال الهجمات. والهدف الفعلى لهذا النص هو منع أى
اتصال مع الإنجليز، وبما أن هذا الضابط يرفض من جهة أخرى تنفيذ أى بند من بنود
اتفاق التبادل المعتود بين الدولتين، وبما أن أقواله فى جميع الاتصالات التى جرت، ومواقفه
مذ أن خرج إلى البحر، هى أقوال ومواقف معتوه، فإن مرادى هو أن تصدر الأوامر إلى
مختلف قادة الأسطول بالتوقف عن أى اتصال مع الأسطول الإنجليزى، الذى يتجهل حالها
فى هذه البحارة^(٤٨).

وهذه الرسالة تصيب العميد البحري فى أعماق أعمقه. وهو يعلن استعداداته للثأر
لشره بالسلاح فى مبارزة. ومن الواضح أن ذلك فهو وارد وتستمر المبارزة الحقيقية
للمثلة فى حصار عكا.

الفشل

تشهد الأيام التالية لعونة بونابارت إلى عكا مواصلة أعمال الحصار. ويرسل
للمحاصرين منقذين عسكريين ضد محاولات تلقيح الحصون. وينجحون من الناحية
العملية فى وقف أعمال الفرنسيين. وهذا يلقى بونابارت شن هجوم جديد. ويبدأ
للقصف فى ليل ٢٢ أبريل وشن الهجوم فى صباح ٢٤. إنه فشل جديد. اللخرة تظل دائماً

غير سالكة بينما تتأكل احتياطات ذخيرة المدفعية تآكلًا ملحوظًا. وفي ٢٧ أبريل، يموت كافاريللي من جرح أصيب به قبل ذلك بعدة أيام. وبعد خسارة فينتور، يعتبر ذلك خسارة فادحة بالنسبة للجيش (٤٩). ويستمر الجمود في الأيام التالية. وأخيرًا، تصل مدفعية الحصار في ٣٠ أبريل من يافا. وفي أول مايو، يُعنى هجوم جديد بفشل جديد. وفي اليوم التالي، يموت فيليبو من الإنهاك وعسيرة الشمس. وفي ٤ مايو، لا يعود هجوم ليلى بشن جديد أمام مقاومة العثمانيين والإنجليز. وتصبح الخسائر الفرنسية في الضباط ملحوظة.

وفي ٧ مايو، بعد نصف المحاصرين للمخيم الذي أعده يومارتان، الذي حل محل كافاريللي، يترك بوناپارت شن هجوم شامل. ويؤدي وصول أسطول عثمانى تعزيزي إلى اختزال القصف. وهو يحمل فرجًا بأكمله من قوات الحظام الجديد التي شكلها سليم الثالث، وهي قوات جديدة تربت تدريبًا أوروبيًا في السنرات السابقة على أيدي ضباط فرنسيين. ويصبح من اللازم بالنسبة للفرنسيين الاستيلاء على المدينة قبل دخول العثمانيين إلى الميناء. وفي هذه المرة يتغلب الفرنسيون على الخط الخارجي للمحصون. ويقاتل سيدني سميث والجزار في الصف الأمامي لرجالهم. ويتبارى العثمانيون والإنجليز في التنافس على القتل. وتتميز معنويات اللدافعين بوصول العثمانيين وذلك بالرغم من نفور سيدنكا من السماح بوجود قوات الباب العالي في علمته (٥٠). وفي اليوم التالي، تقود فرقة لان الهجوم. بل إن وحدة تتمكن من الدخول إلى المدينة، لكنها لا تتأخر في الاضطرار إلى التهازل بخسائر جسيمة. ويصاب الجنرال بجراح ويتم قتل عدة ضباط آخرين.

ويدرك سيدني سميث وبوناپارت وهان الهجوم القريب. فالأول، في رسالة وقعت في أيدي الفرنسيين، يكتب: «ما لا شك فيه أن بوناپارت سوف يشن هجومًا جديدًا، حيث يمكن لجهيز الثغرة من جانب مائة رجل في المرة الواحدة. والحال أن المدينة ليست ولم تكن قط قابلة للدفاع عنها وفق قواعد الفن (العسكري)؛ إلا أنه وفقًا لترتيب مختلف تمامًا، سوف يتم الدفاع عنها، ليس لأنها تستحق الجهد في حد ذاتها، وإنما لأننا نرى أن بوناپارت يريد الزحف إلى فتوحات جديدة عبر هذه الثغرة. وعلى نتيجة هذه المعركة يتوقف رأى حشد للمشاهدين على الجبال المجاورة. والذين لا ينتظرون غير وقوع الحدث لكي ينحازوا إلى المنتصر؛ وبمثل تلك التعزيزات للخصم لتقليد مشاريعه المعروفة، فإن القسطنطينية بل وفيينا سوف تتحسمان هزات عنيفة» (٥١).

والثاني يدلي بأسرار معاملة لبوريين: «إلا نجحت، كما أعتقد، فإنني سوف أعتز في المدينة على خزائن الهاشا وعلى أسلحة لثلاثمائة ألف رجل. وسوف أثير وأسلح كل سوريا،

التي طالما احتجت على وحشية الجزاء، الذي رأيت أن السكان كانوا يدمون بسقوطه إلى الله في كل هجوم. وسوف أرحف على سحق وحلب. وسوف أزيد حجم جيشي، في التقدم عبر البلاد، بجميع السلفطين؛ وسوف أعلن للشعب إلغاء العبودية وحكومات الباشاوات الاستبدادية. وسأصل إلى القسطنطينية على رأس جماعير مسلحة. وأطرح بالإمبراطورية التركية. إنني سوف أؤسس في الشرق إمبراطورية جديدة وعظمية سوف تغلظ مكانتي في التاريخ، وربما أعود إلى باريس عبر أورو أو عبر فيينا، بعد القضاء على بيت النمسا (٥٢).

ولكن هذا الهجوم الأخير، يستدعي بونابارت فرقة كليبر التي ترجع من الجليل. ولدى وصوله، يحتج الأكراسي على الأسلوب الذي فرض به الحصار. فبالخسائر جد جسيمة بالنظر إلى التهورين اللئيم من قوة هذا العدو. وبونابارت ليس (غير جنرال يحتاج إلى عشرة آلاف رجل كل يوم). وكليبر، الذي كان حريصاً على عمله جنود والذي فقد أصدقائه عديدين في للهجمات المتتالية، لا يستطيع قبول هجرة هذا العنار (٥٣).

وهو الذي يقود القوات في ١٠ مايو. ويخبر هجرمان متتاليان ومكلفان في الرجال إلى أن عكا تظل دائماً منبهة بالرغم من الدفعة التي تمكن كليبر من منحها لرجال. وفي مساء اليوم نفسه، يقرر بونابارت رفع الحصار. فهو يعرف أن القوات منبهة ولها سوف ترفض القيام بمحاولة جديدة. والطامعون مائل بشكل دائم منذ الاستيلاء على يافا. وكان يجهينيت، بتطعيمه نفسه بحديد خراج، قد نجح في التأثير على معنويات الجنود الذين أصبحوا لا يخالون من الداء كثيراً. إلا أنه بالرغم من كل شيء، لا طائل من مواصلة تعريضهم لهذا للخطر.

ويحاول بونابارت معرفة ما إذا كان بوسعه نقل الجرحى والدفعية بحراً، لكن الأسطول الفرنسي، أمام التفوق الإنجليزي القوي، كان قد أثر الانسحاب والعودة إلى السواحل الفرنسية. واعتباراً من ١٢ مايو، تتعرض عكا لقصف عنيف، هو الوسيلة الوحيدة للتوافرة للتخلص من الذخيرة التي يتعذر نقلها على أية حال. ويتم الجلاء عن الجليل وتركه لأنصار آل الزيداني. ويترك هؤلاء الآخرون أنهم لن يتمكنوا من الصمود في الساحة ويفضلون السير في ركاب الجيش الفرنسي.

واعتباراً من ١٥ مايو، يأمر سيديتي سميت بالتوزيع الواسع لبيان الباب العالي الذي يدعو الجنود الفرنسيين إلى الفرار من الخدمة. والحال أن ردة فعل الجيش الأولى تتمثل في حركة غضب. على أن خيبة الأمل للرهيبة المترتبة على الإقامة في مصر ومصلك لائده

الذي لم يولر، في عكا، فداء جنوده. كانوا قد زعموا معنويات الجيش بدرجة ملحوظة. وسوف تقوض الوعود الإنجليزية، بلا خجيج، عزم الجنود. وفي ١٧ مايو، يعلن بوناپارت للجيش إنهاء الحصار. وهو يستتر على فشله بإفهام أنه قد تم القضاء على أي تهديد لمصر من فلسطين؛ وأنه لابد من العودة إلى مصر لمواجهة موسم عمليات الإنزال الذي كان قد بدأ مع نهاية الربيع. والواقع أن حين خطر إنزال عثمانى إنما يعتبر - بشكل واضح - دليلاً على أن القدرة العسكرية للمعوي لم تصب بسوء، ثم إن الجيش للعثماني الجرار - الذي يتشكل منذ السنة السابقة - لم يصل بعد إلى سوريا. ويستثناء وحدة قوات النظام الجهود، فإن بوناپارت لم يواجه غير القوات المحلية. واعتباراً من اللحظة التي لا ينشب فيها التمرد الكبير، فإن وضعه إنما يصبح مكشوفاً لكثير فأكثر، أكان ذلك في مصر لم في سوريا. وهو يدرك ذلك، ويتعين عليه التحدث عنه بكلمات ملتوية للجيش: «أبها الجنود، إن إمامنا مسيرة مجابهة مشاق وأخطار؛ وبعد أن نجحت هذه الحملة في حرمان الشرق من القدرة على عمل شيء ضئيل، ربما تعين علينا صد جهود خصم من الغرب. عندئذ ستجدون فرصة جديدة للمجد، ولما ما تميز كل يوم، وسط كل تلك المعارك، بمصرع مقاتل جهور، فلا بد أن ينهض مقاتلون جسودون جديرون ويأخذوا مكانهم بدورهم وسط ذلك العدد الصغير الذي يهب للصمة وسط الأخطار ويمسك بصلصبة النصر» (٩٩).

وهو يصور الأمر بتدمير الذخيرة والمخلف التي يتعذر نقلها، ولما لم يك لديه أي مورد لتوفير الذخيرة، فإن قصف عكا يتواصل بعنف، الأمر الذي يعود بفائدة إضافية تمثل في الإيحاء بهجوم وشيك. وفي ليلة ٢٠ - ٢١ مايو، يطوى الجيش الخيام ويتجه صوب الجنوب. ومنذ الوصول إلى حيفا، ثور مشكلة المصابين بالطاعون. لكن الجيش لا يملك مستوصفات كافية ومخاطر العدوى شديدة (في عصر لا نواية فيه بالياتها الحقيقية) بحيث أنه يجري التبدد في ترك المرضى. ويندفع سيدني سميث إلى مؤخرات الجيش الفرنسي لالتقاط الرجال للتروكين. وهو يهدف إلى نقلهم إلى عياط ليصبوا دواء متحمسين له (١٠٠).

الأساطيل

يضمي الفرنسيون بالجزء الأكبر من المخلف ويكرسون جميع وسائل النقل للجرحى والمرضى؛ أما بقية الجيش، بمن في ذلك القائد العام - بشكل لافت للأنظار - فإنهم يسهرون على الأكلام. ويبدأ النابلسيون والبدو في ملاحقة الجيش، لكن الجزار مع

قواته يفضلون البقاء في مكان، الأمر الذي ينقل الفرنسيين من كارثة قريبة من كارثة الانسحاب عن روسيا في عام ١٨١٢. ويرصد كليبر في يومياته مشاهد الهجر والتخلي، «يؤلف مريض من الكتيبة ٢٥ مصلاً بالطاعون متروكاً على الطريق، ويقطع زناره. ويتوصل إليه المريض أن يترك له الليرات الأربعة الذهبية التي يحتويها الزنار؛ إنني لو قدمتها إلى مريض، فلربما أبقى على حياتي؛ ويرد عليه العريف: «إنك تخدع نفسك، دع لي على الأكل هذا الأمل». ويصل كهرنر ويأمره برد الزنار. [...] وينادي أحد رعاة الكتيبة ١٩، وهو مصاب بالطاعون، أحد رفاقه ويتوصل إليه أن ينهي حياته. وفي ثبات وحزم، يقدم رفيقه إلى هذه الخدمة» (٥٦).

وفي ٢٤ مايو، يتجمع الجيش من جديد في يافا. وبعد إعادة تنظيم لترتيب السير، يستأنف الانسحاب في ٢٦ و ٢٧ مايو. وتثور من جديد مشكلة الجرحى والمرضى الذين يتعذر نقلهم. وهذه المرة، وبالرغم من احتجاجات بيجيذيت، يأمر بوناپارت بتوزيع الأفيون عليهم. وكان قد رفض طلب مساعدة العميد البحري سيبنى سميت. ولا يزيد عدد المهلكين عن ثلاثين؛ لكن الدعاية الإنجليزية والأسطورة النابوليونية السوداء قد ضخمت من عددهم بشكل ملحوظ (٥٧). وسوف يصل سيبنى سميت إلى يافا في ٣٠ مايو وينقل سبعة من الضحايا الذين نجوا من الأفيون (٥٨).

ويقود كليبر للوخرة ويحصل على أمر بتخريب للسطين. ويتعين عليه تدمير للحاصيل وتطبيق سياسة الأرض المحروقة وراءه (٥٩). وفي ظل الإمبراطورية، سوف يهرس نابليون ذلك العمل أمام شابتال كما سوف يهرس بوجه عام كل عملية تخريب: «أذكر أنني سمعته مرة بشيد بحوكة ويلينجتون العسكرية عند انسحابه إلى لشبونة، الذي نقله أمام ماسينا؛ لقد نمر هذا الجنرال كل شيء في طريقه؛ دمر الطواحين، وأحرق المواد الغذائية واقتاد معه السكان والبهائم. وقال الإمبراطور: ذلك رجل مضطر إلى الهرب أمام جيش لا يجرؤ على الصمود في وجهه، لكنه يُوَجِّدُ صحراء تمتد ثمانين فرسخاً بين العدو وبينه؛ إنه يعوق مسيرته؛ ويضعفه بحرمانات من كل نوع؛ وهو يعرف كيف يدمره دون أن يحاربه. وليس هناك في أوروبا من هو قادر على تنفيذ هذه التدابير خير ويلينجتون وأنا. إلا أن هناك ذلك الفارق بينه وبينى، وهو أن فرنسا هذه، التي تعتبر أمة، تلومنى، بينما تؤيده إنجلترا. إننى لم أكن قط حراً إلا في مصر. فهناك أيضاً سمحت لنفسى باتخاذ تدابير مماثلة. لقد نلر حديث كثير عن حريق بالاتينات وما زال مؤرخونا للتعماء يلتقون في هذا

للمسد على الرئيس الرابع عشر. إن مجد هذا العمل لا يخص البتة ذلك الملك. إنه يخص
برمه وزيد لولوا، وهو، في نظري، نوع عمل قام به في حياته» (٦٠).

والحال أن مرور الجيش الفرنسي التيميري سوف يتلوه على نحو مساق، في
المستقبلين التاليين، مرور الجيوش العثمانية التيميري. إن الجزائر سوف يعتصم أغلب
الوقت بمكاء، غير منشغل بعد بالهفاج عن التخوم الصحراوية. وهذا التدهور للنظام العام
سوف يولد لثاماً ملحوظاً من جانب بدو سيناء والقبائل للمنطقة الزراعية لجبل
السلطين (٦١). وهكذا فإن نتيجة ما يزيد عن نصف قرن من إعادة الفتح البشري للسواحل
الساخنة سوف تجد نفسها اثر بعد عين إلى حد كبير، شأنها في ذلك شأن النمو
الديموغرافي الذي واكبها. والحال أن الفلاحين الفلسطينيين لن ينجحوا إلا في النصف
الثاني من القرن التاسع عشر في معاودة الاستقرار في الأراضي المنخفضة، وذلك بفضل
استعادة سلامة للنظام العام ترافق العودة الأخيرة للنظام العثماني. لكن ذلك سوف يكون
من أجل مكابدة منقصة المستوطنين الصهيونيين الذين سوف يجبرون الفلاحين تدريجياً
من جديد على الارتداد إلى خط المرتفعات. ومن ثم فإن عواقب تفلغل بوناهايت في
فلسطين سوف تنيخ بكلكتها بشعة على مستقبل ذلك البلد.

وطبعاً أن اجتياز سيناء في بداية شهر يونيو يعتبر مرهقاً. إن الجنود على حالة
التمرد وهم يلعنون القشعر العام علناً. لكن كليبر، بفضل هيئته الشخصية وشعبية
المتزايدة، ورغم أنه ليس بعيداً عن مضطرة رأى الجنود، بنجح دون قمع في منع التمردات
الواحدة (٦٢). ويترك بوناهايت قوة جبهة من الجنود في العريش التي سوف تصبح الموقع
الأمامي الذي يحمي مصر التي يعيد إليها بقية الجيش. وقد جعله يستريح في الدلتا قليلاً
قبل أن ينظم سقولا ظافراً إلى القاهرة، فيما عدا فرقة كليبر التي تحصل على مهمة الدفاع
من شرق الدلتا. ويأمر القائد العام بعقوبات قاسية ضد المهيجين يمكن أن تصل إلى حد
الإعدام فوراً إذا ما حدث تحلل للانضباط خلال عملية ضد العدو (٦٣).

وهذه العلامة واضحة الدلالة، لقد فقد ثقة رجاله.

مصر خلال حملة سوريا تحول بيلو إلح اعتناق الإسلام

كانت خطة الإنجليز الأولى تتمثل في نصف الإسكندرية، على أن يطلوه إنزال للقوات العثمانية التي تجمعت في دويس. وفي اللحظة عينها - التي يبدأ فيها الفرنسيون اجتياز سيناء - يتم تنفيذ الجزء الأول من الخطة. فالهجوم الإنجليزي يبدأ في ٣ فبراير ١٧٩٩ ويستمر لثلاثة أسابيع مع انقطاعات ترجع إلى حالة البحر، لكن اللشل تام بسبب رموخ التحصينات التي ألقاها الفرنسيون في الشهور السابقة، فالبطاريات التي نصبها مارمون، المنهلق من صفوف سلاح المدفعية، ورغم السفن الإنجليزية على التزام البعد إلى مسافة معتبرة. وخسائيا للهجمات الإنجليزية أقل من ضحايا الطاعون الذي يواصل بلاءه خلال تلك الفترة. وهذه الهجمات مصحوبة بعدد من انتفاضات الفلاحين والبدو المحبوبة. وتخرج الطواوير الفرنسية لورا نجمع هذه الحركات التي لا تتميز بأهمية كبيرة (٦٤). ويترك سينى سميت، الذي تولى قيادة الوحدة البحرية الإنجليزية في ٣ مارس، أن مصرح العمليات الحقيقى هو للسطين ويقطع في وقت مناسب بما يكفى للاستيلاء على للمافع الفرنسية للمنقولة بحراً. وهكذا ينفذ الاتصال مع الوحدات العثمانية التي لن تصل إلى عكا إلا متأخرة.

والحال أن الهجوم الإنجليزي لم يزعج البتة الفرنسيين الباقين في مصر. ومينو، الذي كلفه بوناپارت بقيادة البلاد مع تركه قيادة حرب البلتا لمارمون، يستفيد من وجود سلف العدو لكى يلقى في رشيد. وهو يكثف التسللات والنصائح الطبية للوجهة إلى أعيان المدينة (٦٥). أمّا دوجا، الذي يمارس النهاية في القاهرة، فإنه يحتفظ بمنصبه. وينضج السبب العميق لتخلف مينو عندما يجرى إعلان نها تحولهِ إلى اعتناق الإسلام ونزواجه من مصرية تنتسب إلى الرسول، وهذه الزيجات من مسلمات ليست نادرة، فالعسكريون الفرنسيون يقيمون في هزوة اضطرارية والبعض لا يكتفون بالمومسات اللاتى تلاحقهن السلطات، بسبب الأمراض التناسلية. وحتى تتم الزيجات، يتوجب التحول إلى اعتناق الإسلام، ويحتج الجبرتى من جهة أخرى على هذه الأعمال غير النزيهة، لكن نوافع مينو بالدرجة الأولى نوافع سياسية. وهو يشير بذلك إلى تعلقه بفكرة إنشاء مستعمرة

مؤسسة على التقارب بين الفرنسيين والمصريين، بما يتطابق مع فكرة بوناپارت العميقة. وهو نفسه، شاته في ذلك شأن كثيرين من جيله ومن وسطه، يتبنى نزعة تاليهية (تسلم بوجود الله وتفكر الاتصالات والبحث)، تقوده إلى النظر إلى الإسلام بتعاطف. وسوف يمارس من جهة أخرى بعض طقوس العبادة. ويبدو أنه، في فترة المصرية على الأقل، كان يكن حبا حقيقيا لمسلميه التي سوف تنجب له ولدا^(٦٦). وكما يمكن للمرء أن يتوقع، فإن هذا التحول إلى اعتناق الإسلام سوف يجر على الجنرال الفرنسي كثيرا من التهكمات من جانب رفاقه في السلاح، الذين لا يحترمونه احتراما كبيرا بالفعل.

وهذا التخلي الجديد يقود بوناپارت إلى تثبيت نوجا في مناصبه كحاكم لمصر. وسوف يهدر هذا الأخير سياسيا مائلا وإداريا حكيما في ظروف سوف تصبح صعبة أكثر وأكثر. أما مينو، فهو يحصل على إدارة فلسطين التي جرى البدء في فتحها. ومن جديد، يزيد من تخلفاته^(٦٧) ولن يكون على وشك اجتياز سيدها إلا في لحظة عودة الجيش. وسوف يواصل بوناپارت إنشاء تسامح غير عادي مع هذا الجنرال الذي لم يصل إلى موقع مسئولية مرتين متتاليتين.

نوجا

تبدأ إدارة نوجا في أفضل الظروف. لقد تطابق رحيل الجيش مع بداية رمضان، فاختزال عند الفرنسيين يُنقل للطمأنينة على حضور سكان القاهرة الذين يمكنهم أن يواصلوا الحياة الليلية الحافلة لشهر الصوم هذا فالاحتفالات الدينية شأنها في ذلك شأن لقاءات الأسر والأصدقاء تقم كما لو كان ذلك في زمن سلم، ويشجع على هذا المناخ الطيب انخفاض الأسعار فيما عدا أسعار السلع المستوردة. ويشارك الفرنسيون في مأرب الإطار بل ويعتونها لأجل مدموهم المصريين^(٦٨). وتتميز نهاية تلك الفترة بتبادلات للمجاملات بين الضباط الفرنسيين والأعيان. وتتميز فترة غياب بوناپارت بوصول بلاغات تتحدث عن انتصارات الجيوش الفرنسية في سوريا وفي مصر. ويحسن أسلوبها العربي تحسنا ملحوظا منذ تكليف الشيخ المهدي بإعادة تحرير ترجمات الترجمات^(٦٩).

ومن المؤكدة أنه تشور عدة حوادث بين المسلمين والمسيحيين ولكن الفرنسيين يحكمون لصالح هؤلاء الآخرين ويجبرون الأوائل على احترام قواعد مراعاة للشعور العام

المفروضة عليهم تقليدياً خلال شهر رمضان. أما الأعمال الهمجية أو التعدييات التي يرتكبها الجنود الفرنسيون فإنهم يلقون منها عقاباً قسياً ويجري دفع تعويضات لضحاياها (٧٠). وفي الأرياف، تستمر زعزعة استقرار الموقف من جراء غارات الهنود في غربي الدلتا ومن جراء الفتن الفلاحية في الشرق، والراجعة إلى سوء إدارة قائد الكتيبة سوهيه في الصالحية، وإلى وحيل الحاميات الفرنسية من إنقلهم المنصورة والذي يؤثر على استعادة النظام هناك، وأخيراً في مصر الوسطى من جراء هبوط للمعاليك الذين ألقوا من مطاردة دهنه (٧١). والحال أن الطواهير الفرنسية المتحركة، بالرغم من ضعفها من حيث الفرسان والناشر عن عمليات سحب الفرسان للعمل في سوريا ومصر العليا، تبدو مؤثرة في مجال القمع. وحتى أواخر مارس ١٧٩٩، يمكن لتوجا من ثم أن يرى أنه لا يواجه مشكلات كبرى.

تهوط أمير الحج

في النصف الثاني لمارس ١٧٩٩، يأخذ الموقف في التدهور، ويرجع ذلك أولاً إلى مشكلة أمير الحج. وكان بوناپارت قد عين في هذا المنصب أهم موظف عثمانى بقي في مصر، وكان هذا الأخير قد تعاون في البداية تعاوناً سافراً مع الفرنسيين، غير متردد في الاحتفاظ بعلاقات شخصية معهم (٧٢). وكان بوناپارت قد أمره بالتحاق به في سوريا مع عدد من مشايخ ديوان القاهرة سعياً إلى ضرب مثل طيب للسكان المحليين. وبدلاً من اجتياز سيناء، يكتفئ الأمير الفرائح للبقاء في شرق الدلتا الذي تسوده الفلافل بالفعل، بعدما يبحث للمشايخ الذين يصحبونه عن كل المبررات الممكنة للعودة إلى القاهرة، ويشير هذا للموقف رغبة نرجا، الذي يأمره بالثول فوراً أمام القائد العام. وهذا القرار مبرر لأن الفرنسيين يعلمون أن الأمير يدعو بشكل صافٍ إلى التمرد وأن انتصاره قد شتتاً للتو هجوماً على طاهور فرنسي. ويأمر نوجا بالقبض على أفراد بيته في القاهرة ويبلغ الأمير بأنه لن يجري إطلاق سراحهم إلا عندما يصل إلى سوريا (خلال النزاعات بين المعاليك، لم يك يتم الهجوم على العائلات معوماً). وهو يرسل على الفور طاهوراً متحركاً ضده وضد انتصاره. وفي العاصمة، تروج الشائعات عن عمل مشترك بين المعاليك والهنود والأمير، لكن أعضاء الديوان الرئيسيين يتحركون لحفظ النظام، وفي معسكة أمير الحج، أحسن المشايخ

البكرى والشرقي والمهدى وكل الديوان التصرف تلمأ، وقد لکنوا لی علی هدوء القاهرة
وعلى جهاز الأمير عن أن یسبب فیها أبسط مناصب، حتى وإن كان علی رأس قواته (٧٢).

وينشط المهدى التعاون مع الفرنسيين وينشغل باعتراض سبیل جميع محاولات
التمرد الحضری. وبسرعة بالغة، یجرى تهديد شمل جماعات الأمير ویزرب هذا الأخير إلى
مصریا مع تظاهره أمام الفرنسيين بولائه (٧٤). ولا یوجه نوحا اتهامات إلى الشیخ الخیومی
الذى، خلافاً للمشایخ الآخرين، بقى مع الأمير بینما كان تمرد واضحاً، لكنه یؤكد أنه
عندما أُلزِمَ أن یجد مذاراً لهذا الخائن، قلت له: «إننى أعرف خيراً منك ما كان یجرى فی
معسكر الأمير طوال الفترة التى كنت فیها هناك، إنهم لم یقولوا لك كل ما كانوا یریدون،
وقد غشوك بوجه خاص، لأنه یمن ذلك ما كان لك أن تتبع الأمير وأنت الذى أهدیت دائماً
براهین ولاتك للفرنسیین. لا تحاول تبرئته، إنك لن تفلح فی ذلك. انص الوقت الذى قضیته
معه، وارجع إلى مسلكك السابق وسوف تجد منى الأمن والثقة للذین منحك إياهما القائد
العام». وقد اتفهم برأسه بأن یقطع كل اتصال مع الأمير، وأمرت بمراقبة مدى تمسكه
بوعصمه (٧٥).

وكان یمكن لهذا الحادث أن یكون أكثر خطورة مما یوحى به فشله الذى یدعو إلى
الرتاء. وهو یشكل إنذاراً لبونابارت، «إنكم سوف ترون [...] أن رجلاً یتمكن من حشد
المملوك المبعثرین، والعرب الأعداء، والمساخطین، ویعطى لمركاتهم شيئاً من الوحدة، یمكن
أن یراوده الأمل الذى یستند إلى أسس والعیة فی إلحاق الذى كبیر بنا فی حالة الضعف التى
نمر بها. وأنا على ثقة من أنكم قد فكرتم فی ذلك، حتى قبل رحیلکم، وإن توصلاتی لم تك
مجدية فی حلکم على العودة بسرعة؛ لكن بإمكانى الإمساك من قول إننى أرغب فی ذلك
بحرارة» (٧٦).

وقف الحج

یحس حادث الأمير إلى رحیل قافلة الحج الذى اعتمد علیه بونابارت كثيراً بالنسبة
لسیاسته الإسلامیة. وكان القائد العام قد أمر بوجه خاص بإعلان كسوة رائعة، هى الكسوة
اللى تقدمها مصر بشكل تقالیدی لكساء كعبة مكة. ویهتم سكان القاهرة بمصیر هذه
الهدیة. ولا یوافق نوحا على رحیل القافلة براً ویعلن أن الكسوة سوف یرسلها بحراً،

الأمر الذي يسمح له بحسب الوقت. وهو يأمر بنشر ذلك الخبر عبر قافلة طريقها الشمالية التي تمر دون حواشي كبرى بالقاهرة، وذلك بالوضع من عدد من انزعاجات المسئولين الفرنسيين. ويتوجب على المصريين الرافقين في الذهاب إلى المهنتين المنصبتين أن يصالوا من السويس (٧٧). والواقع أن الشريف مكة كان قد تجاوب مع عروض الفرنسيين وأبدى استعداده لأن يكون وسيطاً في التراسل مع تيهو صاحب (٧٨). وقد أرسل هذا من المركب الشراعية للحملة ياتون إلى السويس، طالباً إعفاءها من الرسوم الجمركية (٧٩)، وذلك بسبب الضرائب التي حصلتها النورية البحرية الإنجليزية التي سمحت للمجازين بمواصلات رحلاتهم. ويؤدي الوجود البحري الإنجليزي إلى طبع الشريف إلى الحد من اتصاله مع الفرنسيين. وفي نهاية الأمر لا يتسنى للكسوة مغادرة السويس و، لأول مرة منذ الفتح العثماني، لا يجرى احترام هذه العادة التي يتمسك بها المصريون تمسكاً شديداً (٨٠).

المهاليك الأسرى

كما يهتم الديوان بمصير المالكين الذين تم أسرهم في سوريا وفي مصر، وهو يتوسط لمصلحة الزعماء الذين لا يحتفلون، بوجه عام، مهانة الهزيمة والأسر. ولما كانوا معطمين معنوياً، فإنه يجرى الاكتفاء بممارسة مراسلة خفيفة عليهم. وفي المقابل، يثير للمالك الشبان مشكلة حرجية. وكان الفرنسيون يريدون دمجهم في الجيش، لكن الدمج يبدو مستحيلاً من الناحية العملية. أما تشكيل وحدات خاصة بهم، فهو يشكل خطراً غير مقبول. ويقترح نوجا على بوناپارت نهاية حل: «بينهم كثيرون من المسيحيين يرغبون في العودة إلى ذلك الدين؛ فليس بالإمكان تشكيل وحدة أو عدة وحدات منهم ثم إلحاقها بالوحدات المختلفة؟ ربما كانت تلك هي الوسيلة لاجتذاب عدد أكبر من هؤلاء الأشخاص حيث يتسنى لهم أن يروا أن رفائهم يتمتعون بحياة تحرك لديهم الأمل في الحصول على مثل لها هم أنفسهم بدلاً من أن يحنوا أنفسهم، كما هو حالهم إلى الآن، في شقاء» (٨١).

ثم إن عدداً كبيراً من المالكين الشبان يقيمون بهذه الدرجة أو تلك من الصرية في القاهرة ويهددون بإثارة الفتن فيها. وينضم إليهم عدد من العجائزين الذين فروا من مصر العليا. والديوان نفسه يطلب فرض حمل أوراق تحقيق للخصخصة للسيطرة على هذه

الجماعة الخطرة. لكن للشايخ أنفسهم، بشكل متناقض، يؤثرون عنهم عدداً من المالك غير المسجلين في الشرطة وغير الحاصلين على حق. وتلك هي حالة الشيخ البكري الذي يرجو بذلك أن يتمكن، في حالة انقلاب الوضع السياسي، من أن يثبت أنه قد مارس لعبة مزوجة. والحال أن للفرنسيين، غير الغافلين، يلقعون إليه ملاحظات ملحة (٨٢).

تموط الطير

في الفترة نفسها، يصطدم نوجا بالديوان في مجال يعتبره هذا الأخير أساسياً، حماية النساء للمسلمات. والقصة، الكاشفة بما يكفي للعلاقات بين الفرنسيين والمصريين، تستحق إيرادها من خلال رواية نوجا لها (ولذلك بقدر ما أن الجهرتي لا يذكرها).

إن محظية اسمها خديجة، كانت تخص سليمان كاشف البواب، قد جرت الوشاية بها لدى قائد الموقع على أنها تدبر نوعاً من مكان مشبوه، ولم تك هذه المرة تحوز صك حصانة كان قد منح لها منذ وقت بعيد ولم تبرزه، وغداة اقتيادها إلى قائد الموقع، مع جارتين أخريين، يوم ٢ مساءً [كذا]، أخذت تصيح عبر نافذة، يوم ٢، عندما دخل الجنود عندها لأخذ الأعلام، أيها المسلمون، أخرجوني من هنا، إنهم يقتصبونني، ولم ينتبه أحد من نوار الجنرال إلى هذه الصيحة، ولم ينتبه أحد إليها. لكن هذا الكلام تكرر وشكا رجال ونساء إلى الديوان من أن محارم النساء قد انتهكت وأنهن لم يعدن في أمن. وفي يوم ١، في جلسة الديوان، قدم الشيخ المهدي عن هذه المسألة، دون التحقيق فيها، تقريراً ساخناً، نهى إليه المواطن فورييه، ولما جاني بقدر ما أننى لم أسمعته يتحدث عن شيء، أنا الذي كنت قد دعوت جميع للشايخ في الليلة السابقة إلى تناول العشاء عندي حيث مر كل شيء على ما يرام بالنسبة للجميع. وقد ذهبت فوراً إلى نوار قائد الموقع لأتعرف هناك على هذه المسألة. ووجدت هناك الشيخ المهدي والمواطن بانوف، وطلبت إحضار الجارية وحقت معها وجعلت الشيخ يحقق معها. وقد تبين من إجاباتها أنها كانت لها تعاملات كثيرة مع الفرنسيين منذ إقامتهم في مصر بحيث أنها كانت تلهم كل ما نقوله وترد عليه بالعربية قبل ترجمته، وأتوالتها تكفى لإثبات أنها لم تك تدافع عن شرقها، عندما صاحت، بل كانت تريد إطلاق سراحها. وقد انتهزت تلك الفرصة لكي أوضح للشيخ المهدي الخطر الذي يكمن في القيام بتهجمات متعجلة دون التحقيق في الوقائع، وانعدام حكمته في عدم تحدته معي في مسألة من شأنها التأثير على سكينه المدينة وتقديم ذرائع لغوى لنوايا السيئة. وقد

شرحت له مبراركية السلطات العسكرية، وأن سلطتي أعلى من سلطة ألهنرال بهستان، وهي فكرة لم يك قد تمكن بعد من استيعابها، وتم الاتفاق على أن يجرى في المستقبل إبلاغ من جانبه ومن جانب المشايخ الآخرين بكل ما من شأنه تعزيز السلام الذي يعود التمتع به هنا. وفي المساء، طلبت إعادة خديجة عندي مع جاريتها. وتمدثت إلى لأول مرة عن صك الحصانة للوجود عند لقائنا الانتكشارية. وصرفتها هي وجاريتها مع الأمر بتزويدهن بسكن يمكن أمنات فيه و، لتوفير أسباب عيشها، بمرت الأمر بحيث يمكنها التمتع بعدة قرارات (٨٢) استردتها لقاء مقابل.

أويوجد في هذه المسألة كلها تعجل في إلقاء القبض على نساء صدر لهن صك حصانة واستهتار بتركهن بمسجن، وخيفت من جانب خديجة واشتبهاء من جانب المشايخ إلى إزعاج قائد المواقع إننا ما أتتحت الفرصة للملائمة (٨٤).

وتنفسا مسافة ذات طابع مماثل عندما يتم التوصل إلى اكتشاف مدفعين بصلابة عند محظية سابقة أخرى لأحد للمالك، هي الست جولسافه. ومن سوء حظ بهستان أنه يأمر بالاحتجازها في ناره، الأمر الذي يستثير تدخلًا جديدًا من جانب الديوان. وينصح بوسيلج بنقل المرأة إلى بيت أحد الأعيان ويختار نوجا للشيخ البكري (٨٥).

وعلى الرغم من أن نوجا قد اصطف بحساسيه أعضاء الديوان حول هذه المسألة، فإنه يتولى حماية مصالحهم للمادية. وهكذا، فإنه يتدخل لمصلحة للشيخ السرسى، اصدیق الفرنسيين، ويجمع إيرادات التزاماته التي يربض الفلاحون دفعها (٨٦). ويبدو من الواضح أن الفلاحين لا يحترمون بعد التوجيهات نحو الالتزامات الأخيرة. والواقع أن جباية الضرائب تتم مباشرة على أيدي الفرنسيين وإدارتهم الضريبية. وبوجه عام، فإن السلطات الجديدة في الساحة ترى أن مطالب للمتزمين جائرة، ويحظرون، في أغلب الأحوال، كل نقل للحيازة إلى ملتزمي للضرائب السابقين (٨٧).

والديوان أيضًا أداة نافعة لتنظيم الوثاقية من الطامعون، الذي يظل دائمًا في موانئ الدلتا وفي سوريا خاصة، خلال الأشهر الأولى من عام ١٧٩٩. ويتعين مدح الولاء، عن طريق تدابير حجر صحي فعالة، من الوصول إلى العاصمة. كما يتعين على الديوان إبلاغ مجموع السكان بالتعليمات الصحية. وهو مكلف بتنظيم شبكة تطهير من الماء عند مشايخ البلاد. وسعيًا إلى تجنب العدوى، يجرى حظر البقاء بالنسبة لجميع فئات السكان (٨٨).

مهاجر صليبي

إن فترة التقلبات الأنطلس التي تلتو المع تعمد الأمير، هي فترة جد قصيرة، وفي أواخر أبريل، يضطر موجا إلى مواجهة خطر أكثر أهمية بكثير. وهو خطر حركة مهدية (الدية)، تعتبر واحدة بين أوائل سلسلة طويلة سوف تتميز وادي النيل في القرن التاسع عشر. والحال أن مقربيا، يدعى الانتماء إلى العائلة الشريفة في مراكش، ويقدم نفسه على أنه رسول لله تاجر على جعل أنصاره غالبيين، ينجح في إثارة غريب ملتا النيل وخاصة إنليم بمنهور، بؤرة للمقاومة منذ بداية الاحتلال الفرنسي. ومنذ البداية تصور للصنادير الفرنسية الرجل على أنه «مشعوذ يهودي» [...] يعتبر نفسه قائدا لأولاد علي، القبيلة العربية التي تمكن الآن مربوط. وهو يزعم امتلاك سر استخلاص الذهب من أي شيء يضع يديه عليه، والقدرة على شل القرمصات والقنابل التي تطلق عليه وعلى جماعته والقدرة على إلقاء القنابل معلقة في الهواء (٨٩).

والأقل انتماء إلى عالم السحر، هو هجومه المفاجئ على بمنهور في ليلة ٢٤ - ٢٥ أبريل ١٧٩٩. إن الحامية الفرنسية، التي تكلف مما يزيد قليلا عن مائة رجل، تبدأ عن آخرها. وعندئذ ينضم آلاف من الفلاحين إلى الحركة، وبعد معركة قصيرة يموت فيها إبراهيم الشويجي (٩٠)، فتسحب القوات الفرنسية التي كانت قد جاءت لمساعدة حامية بمنهور، ويطلب مارمون بشكل فوري إرسال تعزيزات تعتبر ملحة بقدر ما أنه يخشى من هجوم بحري إنجليزي ومن وصول جيش مغربي أبلغه مرشدوه بسيره في الصحراء، في اتجاه الإسكندرية. ويصبح الوضع أكثر إلحاحا أيضا لدوجا لأن مساعد مراد بك، محمد بك الألفي، الذي جاء من مصر الوسطى مع قوة من المماليك، ينجح، في اللحظة نفسها، في الالتفاف حول القاهرة لكي يبعث لسانا في شرق الملطا بينما يقوم الأسطول الإنجليزي بمطاردة بحرية لملم السويس.

لكن رد الفرنسيين سريع. إن دافو ينجح في تعقب الألفي وفي تشتيت شمل قواته بينما يجري إرسال تعزيزات إلى السويس. ويوجه خاص، يجري توجيه للجهد الحربي إلى دمنهور حيث يمارس طاهور متحرك تمت قيادة لانوس أعمالا انتقامية رهيبة في ٩ مايو ١٧٩٩. إن الجندي يأخذ ثاره من مدينة دمنهور ومن سكانها. ففي البداية، جرى قتل ٢٠٠ لو ٢٠٠ من هؤلاء السكان على مشارف المدينة وهم يلودون بالفرار؛ وبعد ذلك، أبحث

هذه للديته الشائنة المسلك لأموال الذهب والقتل. إن دمنهور لم يعد لها وجود، وقد تم إحراق ما بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ من سكانها أو إعدامهم رمياً بالرصاص» (٩١).

وتؤدي قوة القمع وعجز المهدي إلى دفع الفلاحين إلى التخلي عن قضيته. ويعيد هذا الرجل جميع انتصاراته الآخرين ويندفع إلى التلصق على أمل الارتباط بقوات الألفى للملوكية. لكن لانوس الذي يخرج لمطارقته، يشتت بشكل حاسم قوات المهدي في ٤ يونيو ١٧٩٩ في كفر نجوم. وعلى الرغم من أن المهدي يشار إليه على أنه لم يمت، فإنه يختل بعض الوقت من المصابير الفرديسة للمعاصرة. ويزعج ناپوليون في سانت - هيلين أن المهدي قد مات خلال معركة دمنهور. وكانت جثة الملك المهدي نفسه بين جثث القتلى، على الرغم من أن إسماعيل قد زعموا لوقت طويل أنه حي وأنه سوف يظهر عندما يحين الوقت لذلك. إن المصريين، في جميع الأنحاء، كان من السهل تحريكهم باسم المعبر، وكان الحديث يدور عن العجل أبيس أم عن لوزوريس أم عن محمد (٩٢).

وهذه الرواية للأحداث جد مماثلة لرواية الحكاية الشرقية، «قناع الذهب» التي كتبها في ١٧٨٨ - ١٧٨٩ والتي يثير فيها البطل الجمهور عبر تكثيف الحيل والخيال. ففي تلك الحكاية، نجد أن القناع الزائف يعتمد أكثر من ذي قبل على هذيان الشعوب، عندما تؤدي خسارة معركة إلى تخريب أصالة واختزال انتصاراته وإضعاف إيمانهم. عندئذ لا يبقى له غير الإمكانية الوحيدة في أن يموت متخفياً الاستعدادات لكي لا يتم العثور على جثته حتى يصود الاعتقاد بأنه قد رفع إلى السماء وبأنه سوف يعود (٩٣). وهناك حلق بوناپارت لقاء غريباً مع أساطير شهابه التي ربما تكون قد جسدت، بشكل أفضل منه، وهمه للشرقي.

والحال أن وجود إبراهيم الشوريجي وأولاد على وجود المغاربة في هذه المسألة إنما يذكران على نحو غريب بأعمال عهد الله بالقي في السنة السابقة في الإقليم نفسه. فهل كان المهدي والممثل السابق لمراد بك في الإسكندرية شخصاً واحداً؟ إن أي مصدر مباشر لا يشير إلى ذلك بشكل واضح. فالفرنسيون لم يقوموا بالفتنة والجهري ونقولاً الترك كانا لا يكانيان ببرحان القاهرة بحيث يتعذر عليهما تقديم تفاصيل محددة. لكن نصاً غريباً لسيدني سميت، يتصل بمحاولاته الرامية إلى الاتصال بمراد بك في عام ١٨٠٩، يشير إلى مصرع عهد الله بالقي في تاريخ شهر محدد، على أيدي الفرنسيين، وهي معلومة يؤكدتها مصدر فرنسي (٩٤). وفي المقابل، يشير الجبرتي ومصلح آخرى إلى أن أحد محركي تمرد القاهرة الثاني ليس لحداً آخر غير قائد تمرد البحيرة في السنة السابقة (٩٥). ويبدو من

الواضح أن للهدى وعبد الله باشى شخصان مختلفان؛ حيث لقي الأول مصرع
للثانى فى معركة دمنهور.

وخلال عيد الأضحى الإسلامى للكبير، فى ١٥ مايو ١٧٩٩، أثار حريق
عظيم اهتمام نوجا. وتم افتتاح فرنسى فى حى الإفرنج. ويسمح تحقيق
وبدشلم مساعدا الشرطة اليونانيون، بإلقاء القبض على الجانى. وهو مملو
العشرين من عمره تصرف بمفرده بدافع من حماسة للعهد الدينية. لكن هذا الـ
بخشى الفرنسيون من أن يروا فيه بداية لتفاضة بينما بخشى للقاهريون من أن
بداية لقمع شديد، يتضح أنه ليس غير عمل معزول بلا عوالب جسيمة، الأمر
الجميع (٩٦).

تشاؤم نوجا

إن تجربة إدارة مصر فى هذه الظروف الصعبة قد جعلت نوجا متشائما
بمستقبل الوجود الفرنسى على الرغم من نجاحاته. وهو يطلب بإلحاح من
العونة من سوريا مع جيشه. وهذه المعلومات هى أحد نواحي رفع حصار عكا.
المؤقت، الذى هزه مصرع أمستله عبيدين فى سوريا ومصر العليا يرى بشكل
الفرنسيين يندفعون صوب القسطنطينية [١٠٠] إلى الليل والليل والليل، وإلى
والنخبة والخشب والسلاح وصداقة السكان. فهل سوف تعالج عونة الجيش
كل ذلك؟ إننى أتمنى ذلك من كل قلبى، لكننى أعترف لك إننى أنتظر بنفاد صبرا
للحياة التى تذهب كل يوم بأرواح بعض أبطالها الرئيسيين [١٠٠] إننا نلقد
يوم، كان بالصلاح أم بالأمراض ونحن لا نرى كيف يمكن أن يأتينا أناس من نوا
يمكن تجهدهم من هذا البلد، باستثناء عدد غير كبير من اليونانيين، لن يكونوا
يمكن الاعتماد عليهم (٩٧).

وليس بوسع نوجا أن يدرك أن الحركات التى مصت ليلتنا خلال ربيع ١٧٩٩
حركات بهذا الاتساع. وبالمستثناء إقلم دمنهور، فإن الفلاحين لم يشاركوا فى هذا
الذى حدثت أساسا عندنا من الهدو والمخاربة والمعاك. وقد وجهت المعارك ضربة
إلى الهدو الذين يترددون الآن فى محاربة النظام الفرنسى والذين يقبلون بشك

معاهدات الصلح المعروضة عليهم. وكان مشايخ البلاد، في غلبتهم، مخلصين للنظام الجديد الذي عاد عليهم بالأمن ويقتصر معين فيما يتعلق بهيكل الالتزام. ومن ثم إن السيطرة الفرنسية تمر بعدة مراحل، فتح سريع لتلوه انتفاضات جد عنيفة ثم تأسيس نظام جديد.

مصر العليا

وهذا التطور يوجد من جديد في مصر العليا، مع قدر من التأخر ومع التعقيدات الراجعة إلى وجود المماليك الدائم.

وفي بداية شهر فبراير ١٧٩٩، يدرك ديوييه أنه، في مطارته لمراء بك حتى الذوبة، قد ترك خلفه وحدات من الحجازيين وجماعات مسلحة من المماليك تتحرك بنشاط متزايد. ومنذ ٩ فبراير، يصطدم نافر بعثمان بك في معركة فرسان عنيفة حيث تعتبر الخسائر شبه متساوية في الفريقين. وهو يجمع في طريقه إلى الصحراء العربية (٩٨) حيث لا يمكنه مطارته. وفي ١١ فبراير، فإن الحجازيين هم الذين يهاجمون الحامية الفرنسية في الداء، ويتم صدقهم بخسائر جسيمة، ويقيم ديوييه مركز انتشاره في قوص لكي يتمكن من التدخل بسرعة في كل مصر العليا، وذلك بقدر ما أنه يجري إشعاره برصول متطوعين جدد من الحجاز. وهو يدرك أنه لن يكون سهلاً للمنطقة إلا إذا سيطر على ميناء القصير على البحر الأحمر، وهو المو الذي لا مفر منه بين مصر العليا وشبه الجزيرة العربية (٩٩).

وفي فبراير، تفشل محاولة لاحتلال ذلك الميناء عن طريق حملة بحرية، تنطلق من السويس، وذلك بسبب مقاومة الحامية وضعف الأسطول الفرنسي الصغير. ولا يمكن تحقيق العملية إلا عن طريق البر، لكن ديوييه، الذي يتعين عليه مواجهة كثير من الأعداء في الرادي، لا يستطيع الآن بعثرة قواته. وهو يطلب تعزيزات مهمة، إلا أنه لا يحصل على شيء وذلك بسبب حملة سوريا. ومن ثم فإنه ينشئ تشكيل طواوير متحركة، تتحرك على طول الرادي، مدعومة بأسطول نهري يحمل المؤن لمطاردة أعدائه الذين يشنون الهجوم انطلاقاً من الصحراء. وهو يحارب بشكل خاص حشود الفلاحين، الذين يتخلى عنهم المماليك والحجازيون، بعد أن دفعوهم إلى الثورة، عندما تشتت قوة الضغط الفرنسي. وفي ٣ مارس، يشن الحجازيون هجوماً خاطفاً على أسطول ديوييه الصغير، الذي سمح لنفسه بالابتعاد عن القوات البرية. والحال أن سفينة ليتالي، وهي السفينة الفرنسية الرئيسية، يتم

إحراقها. والخسائر جسيمة، نحو خمسمائة بحار وجندى ناهيك عن الكون (١٠٠). ومن ٨ إلى ١٠ مارس، مصطفى بيلهار، الذي يقود أحد الطوابير، بالحجازيين في معركة عنيفة قرب قوص، ويلحق بهم خسائر جسيمة، خاصة بعد معارك متلاحمة. لكن موقفه خطر، لأن استهلاك الجزء الأكبر من ذخيرته. وقد قدم فيليان دينون، الذي يرأسه، وصفا مؤثرا لتلك الفترة من حملة مصر العليا.

إننا، نحن الذين كنا نتأخر بأشياء أكثر عدلا من للماليك، قد ارتكبنا بشكل يومي وبشكل شبه اضطراري عدداً من المظالم؛ إن صعوبة تمييز أعدلنا من حيث الشكل واللون قد قادتنا إلى قتل للاحين أبرياء كل يوم؛ فالجنود، المكلفون بالذهاب في عمليات تفتيشية، لا يفرقون أن يعتبروا مكين لتجار التعساء الذين يصلون في قافلة، وقبل محاكمتهم [عندما يكون هناك وقت لمحاكمتهم]، يتم إعدام اثنين أو ثلاثة منهم رمياً بالرصاص، ويتم نهب أو تهديد جزء من شخصيتهم. [...] ونصيب السكان، الذين لا شك في أننا جئنا إلى مصر من أجل سعادتهم، ليس أحسن حالاً، فإذا كان العرب يظفهم، لدى اقترابنا، إلى ترك بيوتهم، فإنهم عندما يعودون بعد رحيلنا، لا يجدون فيها غير القرباب القطيدية التي تتألف منها الجدران. [...] وإذا ما قمنا في قراهم، فإننا ندعو هؤلاء التعساء إلى العودة، وإذا فإنهم سيعاملون كمتهمين متحالفين مع أعدائنا، ومن ثم فإنهم سوف يتعرضون لمضايقة العبد الضوبي؛ وعندما يستسلمون لهذه التهديدات، ويجيئون لدفع الميرى، يحدث أحياناً أن نتصور أن عددهم الأكبر تجمهر، وأن مصيهم أسلحة، وبالتالي ما يتعرضون لإطلاق النار بشكل عشوائي عليهم من جانب الرماة أو من جانب رجال الدوريات قبل أن يتسنى لهم توضيح مقصدهم. [...] وصحيح أنهم إذا ما أُلزموا بدورهم ودفعوا للميرى واستجابوا لكل احتياجات الجيش، فإن ذلك يجنبهم مشكلة الرحلة والإقامة في الصحراء؛ وقد شهدوا استهلاك مؤنهم على نمو منتظم، وكان يوسعهم استهلاك حصتهم، وكانوا يحتفظون بجزء من ممتلكاتهم، ويبيعون بعضهم للجنود، ولم يقتصب غير عدد قليل من نسائهم أو بناتهم؛ لكنهم وجدوا أنفسهم أيضاً مذنبين بالتعلق الذي أبدوه نحونا، وذلك بحيث أن للماليك عندما كانوا يحلون محلنا كانوا لا يتركون لهم مالا أو جواً أو جملاً؛ وغالباً ما كان شيخ البلد يدفع رأسه ثمناً للانحياز للزعوم الذي يتهم به (١٠١).

التهمة

اعتباراً من أواخر مارس، يبرز الانتشار العسكري الفرنسي كفاءته. إن الخصوم يتم

الاشتباك معهم فور نزولهم إلى الوادي- وفي أبريل، يستخدمون بالقوات التي يتوعدوا
 ديزيه نفسه في بير البر، وإذا تقدم الجنرال فون تيسو، فإن قرصان دافو ينتقلون
 ويضعون ثمنًا لذلك خسارة عند من الضباط للهمين. وفي الأيام التالية، يجرى ضرب
 الحجازيين من جهة طهطا ومن جهة حرجا على التوالي. والحال أن دافو، الذي يطارده
 المماليك، يضطر إلى هبوط الوادي لكي يدخل إلى الدلتا بحثًا عن الأمان، كما رأينا من قبل.
 وفي أوائل مايو، يمكن لـديزيه أن يعتبر أن الوادي قد أصبح هادئًا تقريبًا، ويرسل ليهلبار
 لاحتلال القصير، ويقضي هذا الأخير وقتًا في الأعداد لحملته ولا يرحل إلا في ٢٦ مايو،
 وبعد مسيرة مرهقة لمدة ثلاثة أيام في الصحراء، يستولي فون مشقة كبيرة على الحصن،
 سادًا بذلك مدخل مصر من طريق البحر الأحمر. ويحصل فونزلو على قيادة المواقع
 الجديد، الأمر الذي يعود عليه بمرتبة جنرال لواء بصفة مؤقتة (١٠٢). وبعد تشتيت شمل
 الحجازيين ودحيل الأمان إلى سوريا، فإن الخطر الباقى هو معظم ممالك مراد بك، الذين
 يظلون طلقاء يصعب النيل منهم في واحات الصحراء الليبية.

وعندئذ يمكن لـديزيه أن يبدأ في إدارة منطقتة. وهو يكتفب الإغلاقات الضريبية
 بسبب الخراب الذي أحدثته المعارك. ويشجع استئناف التجارة ويسعى بشكل خاص إلى
 الاعتماد على مصانع البلاد. وهو يجمعهم في مجلس حيث تتم، وفقًا لفيضان ديتون،
 مناقشة مصالح الحكم والمزايا للمنوحة للمزارعين، والمكافآت التي يجب منحها لأولئك
 الذين يحققون تميزًا في السنة التي توشك على البدء [...] وأوضح ما توصلت إليه حول
 محاولات هذا المجلس هو أنه لم يتم هناك اقتراح تجديلات فون لخذ رأى السكان، وأنهم قد
 وعدوا بكافة أنواع التشجيع، وأنهم قد قالوا، تشريفًا لهؤلاء الرجال الشجعان، لدى اختتام
 المجلس، «إن هذا المجلس يشبه مجلس زمن الأمير همام حيث لم يك الحديث يدور عن
 فرض ضرائب تعسفية، بل عن ما يمكن أن يكون أكثر نفعًا للجميع» (١٠٣).

وكما في الدلتا، فإن الفرنسيين يسعون إلى استعادة النظام بمنع تعديات البدو،
 وبالنسبة لـديزيه، فإن الحل الدائم الوحيد هو تحويل البدو إلى سكان مستقرين. وهذا هو
 ما يوضحه ليهلبار، في ١١ يونيو، «إننى أود أن تحيا جميع القبائل في وفاق. وللتوصل إلى
 السيطرة عليها، فإن هناك طريقتين: أما الطريقة الأولى، وهي طريقة للمماليك، فإنها تتمثل
 في إضعافها من طريق الانقسامات المستمرة، ومن ثم، دفعها دائمًا إلى حمل السلاح. لكن
 الطريقة الثانية هي الطريقة التي يجب لها أن تكون مناسبة لنا، إنها تتألف من تهدئة جميع

القبائل والحفاظ على سيادة المسلم فيما بينها كلها، حتى يمكن للبند كله، بعد تحويلها إلى مراعاة للمسلم بهذا الشكل، أن يكون هادئاً وغير معرض لأي خطر. إن الهدف الكبير لسياستنا هو إما القضاء على العرب بالقوة - وتلك وسيلة يهبرية - أو تمديدهم، وجعلهم مزارعين لكثير ما يمكن. وهذه الوسيلة تتماشى مع إنسانيتنا وتقاليدنا. وإذا ما تمت تهديته جميع للعرب، ومنحهم ملكيات تقرب فيما بينهم، وتشجيع الزراعات، وتحريك النفوس بينهم من الاعتماد على الماشية، لسرحان ما سوف تراهم مرتبطين بأرضهم... وعند إخضاعهم، سوف يدفعون الضرائب ويقومون بتسميد الأرض... (١٠١)،.

وفي النصف الأول من يونيو، يبدأ ديزيه في التحضير لحملة ضد مراد بك، لكن تدابير الأمن التي يجب فرضها على القبائل البدوية تحول دون تحقيق مشروعه، ويصل إلى علمه نبأ وصول بونابارت إلى مصر ويرى أن عليه التحسب لمواجهة جماعات المماليك المسلحة المتواجدة في الدلتا والتي من المؤكد أنها سوف تجبر على التقهقر مع عودة القوات الفرنسية. وفي تلك اللحظة حينها يقرر مراد بك ترك الواحات المهبط على مصر السفلى، ومن المؤكد أنه يسعى إلى ضم قوات إلى قوات الجيش العثماني التي يتراقب الجميع نزولها للوحدانية.

وحيل بونابارت

الحرب ضد البحر المتوسط

الحرب في البحر المتوسط هي إحدى الصعقات المميزة للائتلاف الثاني. وهي نتيجة للتحالف الفرنسي - الأسباني ضد إنجلترا ولحملة مصر في آن واحد. وفي إيطاليها، فإن هجوم نابولي ضد الفرنسيين مع احتلال روما كان حدثاً هاماً فقد تمكنت الجيوش الجمهورية بسهولة من القضاء على هذا الخصم للفرور واستولت على نابولي في ٢٤ يناير ١٧٩٩. وعندئذ يلجأ البوربون إلى صقلية بينما ينشئ الفرنسيون جمهورية شقيقة جديدة، هي الجمهورية الهارتيتوية. ومنذ تلك اللحظة، تنصب المهمة الرئيسية للأسطول البريطاني في البحر المتوسط على الدفاع عن صقلية ومحاصرة الموانئ الأسبانية. وهذه الأنباء للشجعة تدفع حكومة الإنارة إلى إعداد مجهود بحري جديد: عمل مشترك بين الأسبان والفرنسيين تحت قيادة بروي. وسوف يتولى هذا الأخير قيادة أسطول بريست، ويتغلغل في البحر المتوسط، وينضم إلى الأسطول الأسباني، ويحمل تعزيزات إلى مالطة وإلى الجزر الأيونية ثم إلى الإسكندرية (١٠٥). والحال أن الأميرال، وهو منظم ممتاز، ينجح في تحريك أسطول بريست وعلى متن سفينة مؤن غذائية تكفي لستة أشهر، في ٢٦ أبريل ١٧٩٩. وفي ٤ مايو، يصل الأسطول قرب مضيق جبل طارق الذي يجتازه دون مشكلة، حيث يهرب الإنجليز أمام تفوق الفرنسيين العددي. وفي المقابل، فإن الانضمام إلى الأسبان لا يخلق ذلك بسبب الأوامر المتضاربة الصادرة عن الحكومتين.

وحتى لو كان هذا الأسطول القوي قد تحرك على الفور متوجهاً إلى شرق البحر المتوسط، لواصل جد متأخر بالنسبة لحسم حصار عكا. وأياً كان الأمر، فإن بروي يفضل التحرك للرسو في طولون، التي يصل إليها في ١٣ مايو، لإصلاح بعض أعطال سفينة. ويؤدي تفاقم الوضع العسكري الفرنسي في إيطاليا وخسارة موانئ البحر الأيوني إلى دفع حكومة الإنارة إلى تعديل تعليماتها: فانتظاراً لإتمام الانضمام إلى الأسبان، يتولى بروي تأمين دعم الإمدادات للفرنسيين في إيطاليا في شرق البحر المتوسط. وبعد ذلك سوف يتحرك الأسطول المشترك إلى مصر، ولكن من أجل تحقيق مهمة مختلفة تماماً.

وفي بداية مارس، جرى استئناف الحرب ضد النمسا التي تنضم إلى الائتلاف

الثاني. وقد اجتازت الجيوش الفرنسية نهر الراين حيث حاربت وأجهزت على الانسحاب إلى الضفة اليسرى للنهر. وفي إيطاليا، في أوائل أبريل، تبدأ الانتكاسات. وتطلب بعض الأوساط الباريسية بالفعل، بتحريك من أخوة بوناپارت، عودة البطل إلى فرنسا لتولى قيادة الجيوش الفرنسية. والحال أن معروفًا خاصًا مؤلفًا من جانبهم، وصل إلى مصر في ١ مارس، قد أبلغ في مكان القائد العام لجيش الشرق بالمصاعب السياسية وبالاستئناف العام للحرب الأوروبية (١٠٦).

إن الجهد الذي يجب بذله في أوروبا نفسها لا يسمح بعد بحسب قوات لإرسالها إلى مصر. على العكس تمامًا، إن حكومة الإدارة تدرس للجلاء وعودة جيش الشرق إلى فرنسا. وهذا هو معنى التعليمات الصادرة إلى بوناپارت، والمصدرة في ٢٦ مايو ١٧٩٩. إلا أن «عليك أنهما للراطن الجنرال أن تنظر في ما إذا كان بوسعك أن تترك في مصر باطمئنان جزءًا من قواتك. وفي هذه الحالة، فإن حكومة الإدارة تخوّلك أن تعهد بقيادتها إلى من تراه مناسبًا» (١٠٧).

ويتلقى بروي الأمر بالاتجاه إلى مصر ومعه هذه التعليمات، ولكن بعد تحقيق الانضمام إلى الأسبان. ولا يحقق بروي هذا الانضمام إلا في ٢٢ يونيو في قرطاجنة. والواقع أن أسبانيا ليست في حرب إلا مع إنجلترا، وليس مع النمسا وروسيا والإمبراطورية العثمانية (١٠٨). وهي لا تقبل اتحاد الأسطولين إلا لاسترداد مينوركا من الإنجليز وهي مستعدة للعمل في مقابل ذلك فيما يتعلق بمالطة، وليس أكثر من ذلك. ويساوم بروي وحدة من أجل وحدة العمل. لكن النتيجة النهائية هي أن الأسطول المشترك المؤلف من إحدى وأربعين سفينة سريعة الحركة يتحرك إلى الأطلسي وأن السفن الفرنسية تدخل بريست في ٨ أغسطس ١٧٩٩... وهذا الانقلاب أسار الأسطول يزيل كل إمكانية للجلاء عن مصر بينما لا يتلقى بوناپارت تعليمات حكومة الإدارة.

الهزائم الفرنسية

خلال تلك الوقت، يزدى وصول قوات روسية إلى إيطاليا وإلى سويسرا إلى التعجيل بهزيمة الفرنسيين. وتؤدي انتفاضة شعبية قادها الكاردينال رونو إلى بحر القوات الفرنسية للتركة في الجمهورية الهارتينوية (كان الجانب الرئيسي من الجيش الفرنسي يواجه تهديدًا في إيطاليا الشمالية). وتهبط قوة من الجنود الروس - العثمانيين المدعومين بالأسطول الإنجليزي قرب نابولي (وهذا فإن الإمبراطورية العثمانية، المهددة في وجودها،

تقوم بأمر عملية عسكرية لها في إقليم كثير ما عدته في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (١٠٩). ويمنح الكاردينال دوفو اتفاق جلاء للفرنسيين ولأنصارهم. ففي مقابل الرحيل عن نابولي، سوف يجرى نقلهم إلى صولون أو العفو عنهم بالنسبة لما قلموا به من نشاطات سياسية. ويذهب نيلسون وآل هاميلتون والزوجان الملكيان لتتفق الاستسلام بالرغم من احتجاجات الكاردينال ويتجهون إلى قمع رهب. والفرنسيون وحدهم هم الذين يمكنهم مغادرة الإقليم، وهذا التنازل للاتفاق من جانب نيلسون لا يتعرض للوم على إلا من جانب لوكس، زعيم المعارضة البرلمانية، والملك جورج الثالث. بل إن اللوردين جرنفيل وسينسر، العضوين في الحكومة، سوف يحصل بهما الأمر إلى حد تأييد مصلك البطل القومي (١١٠) (يونيو ١٧٩٩).

وفي يوليو وأغسطس ١٧٩٩، يلقى الفرنسيون الجزء الأكبر من إيطاليا، وتهبط قوة أنجلو - روسية في هولندا وينتصب تمرد ملكي في الجنوب الغربي بينما يهدد الثاندييه بالتمرد من جديد. ويجري اعتلاء حكومة الإدارة مسئولية عن مسلسل الهزائم هذا. وفي المجلس، يؤدي لوردان مقهى جديد، استخدمته جماعة «المراجعين» القريبة من الأيديولوجيين الذين يتمنون تغييراً للمؤسسات، إلى خروج أغلبية حكومة الإدارة التي تعتبر متهمه بالمسؤولية عن تفور الوضع. وحملة مصر تمثل أحد العناصر الأساسية في قرار الاتهام. فهناك استياء شديد من غياب الجيش الفرنسي الأفضل وقائده، وفي معمان السجال، يجري اتهام حكومة الإدارة بأنها كانت تريد «أن تخلص وتلحق في صحراء العرب صفرة جيش إيطاليا وقائده الأشهر على مر الزمان وأكثر قادة جيوشنا كلاماً» (١١١). وهذه الهجمات المتكررة، والتي تعود إلى سقوط فاليران في ٢٠ يوليو ١٧٩٩ (يمارس لعدة أسابيع عمله بصورة مؤقتة)، والأنباء غير المباشرة التي تصور حملة سوريا على أنها كارثة دموية (كان قد تم اعتراض سبيل رسل بريد بوناپارت وأدى ذلك إلى الاقتتار على قراءة الأخبار التي تورطها الصحف الإنجليزية والألمانية) إنما تعود إلى التخلي عن أي أمل في مخرج إيجابي للمشروع، وإلى التمسك إلى الجلاء عن مصر بكل الحمل. والعمل الأخير لتاليران في وزارته هو اقتراح بدء مفاوضات مع الباب العالي، من خلال م. دو بوليتي، القائم بأعمال إسبانيا في القسطنطينية (١١٢).

وفي ٢٤ فبروكتيدور (١٠ سبتمبر ١٧٩٩)، تقر حكومة الإدارة الجلاء عن مصر، ولو بالقسوى الشروط، إلا يخدم الجيش وقائده بعد ذلك في عمليات الحرب الجارية. وسوف

يكون بونابارت حراً في قبول أو عدم قبول هذا الاتفاق. وحلاوة على الفائدة المباشرة في السياسة الداخلية لهذا الإصرار على هزيمة بونابارت، فإنه يسمح بتصور وجود مقاصد خفية من جانب تليران وسييس وبارا (إن الأخيرين يظنان عضوين في حكومة الإدارة). وفي ١٨ فينديمير من العام الثامن (١٠ أكتوبر ١٧٩٩)، تكتب حكومة الإدارة إلى بونابارت إنها ما تزال مهتمة بمصر وأن الوساطة الأسبانية غير مجدية وأن الباب العالي، من جهته، قد أبلغ فرنسا باستعداده لمناقشة الجلاء دون وسيط وأن القائد العام لجيش الشرق يملك الصلاحيات الكاملة لإجراء هذه المفاوضات (١٣٣). وفي عشية ذلك اليوم، هبط بونابارت في فريجى، لكن الخبر لن يُعرف في باريس إلا في ٢١ فينديمير، حيث يتأهل بمظاهر الفرحة من جانب السكان...

إعادة تنظيم الجيش

إن بونابارت الموجود في مصر معزول تماماً عن أوروبا. فلم ينجح في الوصول إليه أحد من رسل حكومة الإدارة الرسميين وشبه الرسميين الذين أرسلوا إليه في الفترة الأخيرة (١١٤). ومن ثم فإن عليه اتخاذ قراره على ضوء المعلومات المتوفرة في الساحة وحدها. وكان فشل حصار عكا قد أثقله جانباً كبيراً من حماسه للشرق. وهو لم يعد يجد مصرة في التحدث مع المشايخ (١١٥). إنه يفكر في أوروبا. إلا أنه يتعين عليه أولاً توطيد الوجود الفرنسي في مصر ودفع خطر الجيش العثماني، الذي احتشد في روس، والذي شكلت وحداته المؤلفة من قوات النظام الجديد، والموجودة في عكا، طبيعته. وهو يفعل كل شيء لكل يخطئ عن سكان القاهرة فشل حملة سوريا ففي ١٤ يونيو ١٧٩٩، تدخل القوات الفرنسية إلى المدينة دخولا مهيئاً، في مشهد استعراضي يشارك فيه بنشاط أعضاء الديوان للكلفون باستقبال الأبطال (١١٦). لكن مراقباً ذكياً كالجبرتي يمكنه أن يلاحظ حالة الإنهاك التي تهيمن على الجنود (١١٧). وبعد ذلك مباشرة، ينهمك بونابارت في إعادة تنظيم لجيش الشرق؛ إذ يجرى تفقد المستشفيات والتمهينات؛ ويجرى تشكيل طوابير متحركة لكي تجوب الأقاليم وتجهز الخرائب المتأخرة؛ ويتم إسفال تعديل على أشباه ألوية المشاة مع اختزال عدد العسرايا في الكتيبة الواحدة، وتكوين سرايا استطلاعية مكلفة بالقتال في الخطوط الأمامية وضم مدفعية إلى كتائب المشاة. أمّا الفيلق المالطية والبحرية، التي يعتبر أدؤها من أكثر الأداءات قصوراً، فيجرى حلها ودمج رجالها بوحدات المشاة الأخرى؛ بل إن

القلعة العلم بنوى شراء عبيد سود من السويان لصد الغارات الثلاثية من الخصائر الفرنسية. لكنه، بما يشكل علامة ليهما على آرائه الجديدة، يصدر الأمر، منذ ٢١ يونيو، بتسليم الفرنكيتين، «لا مودون» و«لا كاربيو»، للوجوبتين في ميناء الإسكندرية (١١٨).

والى جانب تدهور إمانة تنظيم الجيش، فإن توطيد الوجود الفرنسي يمر عبر تدهور فتح صلوة سمياً إلى إثناء السكان عن المقاومة، إن جميع المغاربة والمجاهدين، الذين جاءوا إلى مصر لمحاربة الفرنسيين، والذين تم أسرهم، وجرى الحكم عليهم بالإعدام، كما جرى إعدام للملك الذين عادوا إلى القاهرة دون تصريح. وبالنظر إلى العدد الكبير للإعدامات في القلعة، فإن درجا يحصل من القلعة العام على تصريح بالاستعاضة عن الإعدام رمياً بالرصاص بالإعدام بقطع الرقوس، وهو ما سوف يسمح بتوفير للخبرة. ولابد من الإشارة إلى أن الفرنسيين يستخدمون جنودين محليين. وهم لا يستودون الإجراء الأحدث والأكثر تمناً والذي يتمثل في الإعدام بالهيلوتين. لما للموسسات جد للعمليات، والثلاثي ينشرون بين الجنود الأمراض التناسلية، فيجرى إغراقهم في النيل من باب الإعمال للمراعى للشرعية الإسلامية التي تحرم على مسلمة العلاقات مع كافر (١١٩).

مخاطبة النزعة القومية المصرية

بعد أن كان يونانبارت قد وجه دعايته في اتجاه الإسلام السياسي ثم في اتجاه النزعة العربية، وبعد هذا الفشل للزواج، فإنه يتحول إلى النزعة المصرية، فعشية إنزال للقوات العثمانية، يصبح من غير للعقول الحفاظ على أسطورة وجود فرنسي يستند إلى تصريح من الباب العالي. على العكس، فهو، على المستوى الرمزي، سوف يجهز على الصلة الأخيرة للتبعية الإنارية والتي تربط مصر بالباب العالي، ففي ٢٦ يونيو ١٧٩٩، يأمر بإلقاء القبض على ابن القاضي العسكري، رئيس الهيكلية القضائية في مصر، والحال أن هذا للنصب كان يعود، نلماً، منذ القرن السادس عشر، إلى عثمانى يعينه الباب العالي. وكان حائزه الأخير قد شارك في تمرد أمير الحج ثم لجأ إلى سوريا. ويتدخل الدهوان على الفور ويثبه الشيوخ السانكت الفرنسيين إلى انعدام المنطق لديهم: «إنكم تقولون دائماً أن الفرنسية أحبب العثمانية وهذا ابن القاضي من طرف العثمانى. فهذا الفعل مما يعسء الظن بالفرنسارية ويكذب قولهم وخصوصاً عند العامة».

ويقبل الفرنسيون أن يكونوا متسامحين، بشرط أن يعين الديوان قاضياً جديداً.

وبشكل منطقي، يتم انتخاب أحمد للعريشي، فقيه للذهب الحنفي (الحنفية هي المذهب الرسمي للدولة العثمانية، على الرغم من أن سكان مصر يتبعون في غالبيتهم مدارس أخرى للتفسير الشرعي). وعندئذ يكشف بوناپارت، في بيان إلى العلماء، للمعنى العميق لمباشرته:

«وانتم يا أهل الديوان تهتدون الناس إلى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول. وعرفوا أهل مصر أنه انقضت ورفقت دولة العثماني من أقاليم مصر وبطلت أحكامها منها. وأخبروهم أن حكم العثماني أشد تعبا من حكم الملوك وأكثر ظلما.

«والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتبوير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية. يصلحون للفضلاء أكثر من غيرهم في سائر الأقاليم.

«وانتم يا أهل الديوان عرفوني عن المدافعين والمخالفين أخرج من حقهم. لأن الله تعالى أعطاني القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم. فإن سيئنا طويل ليس فيه ضعف.

«ومرادى أن تعرفوا أهل مصر أن الصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم، مثل ما هو بحر النيل الفحل الأنهار وأسعدنا كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق أجمعين» (١٢٠).

وهذا العمل من جانب بوناپارت يتمّ تطوراً جرى البدء به في مصر على يد حيث يبدأ تصير الهيراركية القضائية. ويتولى الفرنسيون عزل آخر للقضاة العثمانيين ويحصل الموظفون الجدد على راتب منتظم. لكن العثمانيين، بالنسبة لجمهرة السكان، إنما يبدون عندئذ بوصفهم المحرومين الوحيديين من السيطرة الفرنسية. ويجرى النظر إليهم بشكل أساسى كجنود للإسلام وللجهاد. وسوف تجرّ خيبة الأمل بعد ذلك، مع رحيل الفرنسيين.

كما يحافظ بوناپارت على سياسته الخاصة بالانفتاح على أفراد للصفوة السياسية المصرية وهو ينجح في إعادة شخصين مهمين إلى مصر، الأول هو عمر مكرم، نقيب الأشراف السابق، الذى كان أسيراً في يافا. ويجرى تقديمه إلى القائد العام من جانب الشيخ للهدى ويتم رد ممتلكاته المصروفة إليه (١٢١). أمّا الثانى فهو حسن طوبار الذى أعلن خضوعه. وهو أيضاً يسترد ممتلكاته، إلا أنه يتعين عليه ترك ابته رهيناً في القاهرة. وهو يتعهد بأن يضع نفسه في خدمة الفرنسيين في إقليم ليبيا (١٢٢).

البحيرة

لكن الوضع في الأرياف، خاصة في البحيرة، جد مختلف تماماً. وهكذا فإن جماعة مسلحة من الماعليك، تدهمك في تعديات على الفلاحين، يتم الوشاية بها من جانبهم عند الفرنسيين الذين يحبسون أرواحها ويعذبون بعضهم (١٢٢). على أن الوسيلة النشيطة من جانب القسيس المسيرى، الذي يرأس فيوان الإسكندرية، تسمح بالتوصل إلى تهدئة عامة لجميع القبائل البدوية في الإقليم (١٢٣).

والواقع أن قبيلة الهنادي وحدها هي التي تعترم الاتفاق، بل وتشترك إلى جانب الفرنسيين في مطاردة المخلعين، إلى درجة أنه يجري تلقيب الرادها: بـ «البدو الفرنسيين» (١٢٤). وبالرغم من كل شيء، يتم في الإقليم نفسه الهجوم على سفينة نهرية تقل الجنرال نومارتان ويشارك في الهجوم فلاحون وبدو. وينجح الطاقم في الهرب، لكن الخسائر الفرنسية تعتبر جسيمة. إذ تصل إلى خمسة عشر قتيلًا، بينهم الجنرال نومارتان نفسه، الذي يلقي حتفه متأثرًا بجراحه. ويغضب كليبر لعدم تكريم رفيقه. وهو عدم تكريم يرجع إلى موقفه في مكا (ما كان لدومارتان أن يكون بلا جريرة حين يثبت أنه كان على حق في معارضته لكاتاريللي فيما يتعلق بالخطة التي يجب اتباعها بالنسبة للحصار) (١٢٥).

بوناهارت وديجيت

تتجلى آثار حملة سوريا حتى تدخل للمعهد (الجمع العلمي) قذافي استأنف جلساته، التي كانت تلك الحملة قد أوقفتها. ويطلب بوناهارت إعداد دراسة عن الطاعون، مستهدفاً من وراء ذلك على الأوجه رد للمستولية عن فشل حصار مكا إلى تلك المرض. وهو يبدو مدبراً بشكل خاص تجاه الأطباء، الأمر الذي يثير غضب ديجيت، وتتصاعد حدة النبرة. ففي بداية الحملة، كان رئيس الأطباء، بناء على طلب من بوناهارت بلا ريب، قد أكد علناً أن الوباء ليس وباء طاعون، سعيًا إلى عدم نشر الخوف في صفوف الجيش. أما وأن الظروف قد تغيرت، فإن الجنرال يريد الآن التعرف على البناء الذي لم يتمكن هذا «السجل» ديجيت من التعرف عليه. ويرد هذا الأخير بوصف زميله في المعهد بأنه «مستبد شرقي» يستخدم

أحرصاً مصلحاً حتى فخل حرم جمعية مصالحة وأبوية. (١٣٧) ويشير أصل هذه الحادثة إلى عزيم بوناپارت على العودة إلى فرنسا سليم الهيبة.

وهذه الرغبة في مغادرة مصر وهذا الجهل بالوضع الأودوي يظهران من جديد في تقريره إلى حكومة الإنارة والمؤرخ في ٢٨ يونيو ١٧٩٩. ومن المؤكد أنه يبدى تفاؤلاً مصطنعاً، ولكن لكي يطلب تعزيزات، لقوامها خمسة عشر ألف رجل على الأقل، وإلا فإن فتحه معرض للهلاك. وإذا كان مستحيلاً عليكم إرسال كل هذه التعزيزات، فلا بد من الجئح إلى السلم، لأنه لا بد من حساب لئنا، من الآن وحتى شهر ديسمبر، سوف نلقد ٦٠٠٠ رجل آخرين [...] وسوف يختزل عدتنا في الفصل القادم إلى ١٥٠٠٠ رجل، وإذا ما طرحنا منهم ٢٠٠٠ رجل في للمستشفيات، و ٥٠٠ رجل من المحاربين القدماء، و ٥٠٠ عامل غير مقاتلين، فلن يبقى لنا غير ١٢٠٠٠ رجل يشملون الفرسان وسلاح المنطعية والمحاربين وضباط الأركان للعلمة، ولن يكون بوسعنا مقاومة إنزال مصحوب بهجوم من طريق الصحراء، (١٣٨).

هبوطه مواط بك

إن فترة الهبوء الهش التي تعقب عودة الجيش من سوريا لا تنوم إلا أقل من شهر. فبعد أولخر يونيو، تفيد الأنباء أن مراد بك قد غادر الواحات وأنه يتحرك بمحاذاة الوادي. وينشئ نهزيه على الفور تشكيل طوابير متحركة مكلفة برد القائد للحلوكى إلى الصحراء. وهذا الأخير جد سريع في هبوطه إلى الدلتا وهو يتواجد اعتباراً من ٢٥ يونيو على تخوم اليوم. والحال أن كل ما يمكن لنهزيه أن يهني نفسه عليه، هو أنه قد نجح، عبر الذكرى المشتركة لعنف معارك الشهور السابقة ولندعومة إدارته، في تطادي نشوب انتفاضة عامة في مصر العليا. وإذا وصل إلى علم بوناپارت أن مراد بك يقترب من مصر السفلى، فإن ينشئ بدوره طوابير متحركة تتحرك لاعتراض طريق خصمه. وبعد عدة مكائد ومعركة مع الفرنسيين في ٩ يوليو، حيث يلقط مراد بك متاعه، ينجح هذا الأخير في الدخول إلى إقليم الجيزة وفي إقامة معسكر قرب الأهرام في ١٢ يوليو. ويصبح مقصده واضحاً، فهو يسعى إلى الانتقال إلى البحيرة. وفي اللحظة نفسها، يتم العلم في القاهرة بحرور أسطول مهم للمعمر أمام العريش ثم أمام دمياط.

ويتولى بوناپارت نفسه قيادة طابور متحرك لقوامه ألف رجل. ويجبر وجوه مراد بك على الانسحاب إلى اليوم. وهناك يطارده الطابور المتحرك الذي يقوده الجنرال فريان

وفي نهاية الأمر، مع استمراره مطلق السراح، وخطر إلى العودة من جديد إلى مصر العليا.

سياسة سميت والعثمانيون

بينما كان بونابارت يعيد تنظيم تشكيل الجيش الفرنسي، لم يبق سيني سميت بلا نشاط. فبعد أن تابع انسحاب الجيش الفرنسي، عاد إلى داخل فلسطين وزار الأماكن المقدسة. ومن هناك، زار لبنان ليقضي طابعاً ملموساً على التعهدات التي كان قد أبدعها خلال حصار عكا تجاه الأمير بشير. وهو يتجهج، لكي يتعنى له التصرف، بسلطات حولها له سليم الثالث، ويعلن عن ترتيب عام للسلطات في المنطقة مع الوصول القريب لجيش عثماني يقوده الصدر الأعظم نفسه. وهذا التدخل في نطاق سيطرة الجزار يثير سخط الأخير الذي ينسحب عنيفاً من المعركة مع الفرنسيين وينهمك في تحصين عكا، هذه المرة ضد هجوم محتمل من جانب الجيش العثماني.

وينتقل العميد البحري بعد ذلك إلى قبرص حيث يتعين عليه التصدي لتمرد من جانب السكان، لأسباب تتعلق بالخرائب، ضد السلطة العثمانية. وهو يتدخل من أجل تهدئتهم (١٢٩). وما أن يطمئن إلى تباعد خطر أسطول بروي، فإنه يحصل على تجاوب الباب العالي مع مطالب مختلفة له. إلا أن من المستحيل منحه قيادة القوات العثمانية التي تقرر إنزالها في الإسكندرية، لكن قائدها، مصطفى باشا، سوف يتلقى أكثر التعليمات حزمًا باتباع نصائح الإنجليز. أمّا فيما يتعلق برؤساء الجبل، فسوف يجري إرسال إشعار إليهم مفاده أن الأمير بشير ونخاه وكذلك الأمير جنبلاط، أمير الدروز، لكونهم خدماً مخلصين للباب العالي، سوف يجري توظيفهم في مصر، وأن معك الشيخ [...] (١٣٠) - الذي كان مخلصاً على الدوام للباب العالي، والذي كان خلافاً لكل توقع، حيث اضطر إلى التقصير بشكلٍ ما - إنما يرجع إلى أنه قد لجأ على ذلك من جانب الفرنسيين، وأنه يستحق العفو عنه، وأن سكان جبل لبنان، لما كانوا معذرين وجديرين بتعطف الباب العالي عليهم، يجب إعادة الطمأنينة إليهم ومعاملتهم معاملة إيجابية (١٣١).

وهكذا، فإن الباب العالي، نزولاً على طلب سيني سميت، يمد حمايته إلى أمراء الجبل. ومن المؤكد أن مقصده الخاص إنما يتمثل في استعادة ثقل مضاد لقوة سيد عكا التي تعززت بانتصاره على بونابارت.

ويعد أن تمكن سيدنى سميث من حشد القوات العثمانية في قبرص، فإن بوسعه للمشاركة في الهجوم المقرر في منطقة الإسكندرية. ويصل أسطول الإنزال قبالة المدينة في ١١ يوليو ١٧٩٩، لكن إنزال القوات لا يبدأ إلا في ١٤ يوليو في أبو قير. وفي مواجهتها، فإن للمستول من المرقع الفرنسي، قائد الكتيبة جوبلر، لا يمتنع إلا بقوة قوامها ثلاثمائة رجل ويحصون مزيعة. ومن الواضح أن مارمون، بصحبة الهنرال ديستان، الذي جاء إليه بظهوره للتحرك، يحارل القيام باستعراض للقوة، لكنه يدرك بسرعة عدم التناسب جد الهائل للقوى. ويتطلب الأمر من العثمانيين ثلاثة أيام لإحاطة الهزيمة بالحامية الفرنسية الصغيرة التي تقاتل بهسكة قبل أن توضع. وبالنسبة لخصوم الفرنسيين، فإن الحملة تبدأ بداية جيدة إذ يتسنى إتمام بقية عملية الإنزال دون مصاعب.

موقعة أبو قير البحرية

ما أن يتلقى بوناپارت نبأ الإنزال العثماني في ١٥ يوليو، حتى يصدر الأمر إلى الطواوير المتحركة بالتنسيق على الرحمانية. وهو، في الحركة نفسها، يتأهب لأن يرسل إلى هناك الجانب الرئيسي من القوات المبعثرة في البلاد، بما في ذلك القوات المتمركزة في مصر العليا. والشئ الأكثر إلحاحاً، في اللحظة التي كانت فيها القوات مبعثرة لتأمين حفظ النظام في البلاد، هو التمكن بأسرع ما يمكن من تركيز الحد الأقصى من القوات. وكلما كان الفوز بالذو سريعاً، كلما كان أثر غلب الحاميات الفرنسية للخلطة أقل فعالية. فمن شأن معركة طويلة أن تكون ضارة إلى أقصى حد بالوجود الفرنسي، لأنها سوف تستوجب، حتى في حالة النجاح، إعادة فتح البلاد من جديد. وسمياً إلى تأمين مؤخراته، يحدد بوناپارت أيضاً واحداً من بياناته البراقة للموجهة إلى العيون، حيث يصور نفسه على أنه البطل الذي اختاره الله للثورة عن الإسلام ضد المسيحيين (الفائلين بأن الله ثالث ثلاثة).

وفي هذه العمارة خلق كثير من اللوسلو [الروس - المترجم] الإنرج الذين كراهمتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ويؤمن برسول الله، يكرهون الإسلام ولا يحترمون القرآن، وهم نظراً لكفرهم في معتقدتهم، يجعلون الآلهة ثلاثة وأن الله ثالث تلك الثلاثة، تعالى الله عن الشركاء. ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة وأن كثرة الآلهة لا تنفع. بل، إنه باطل لأن الله تعالى هو الواحد الذي

يعطى النصر لمن يوحده، هو الرحمن الرحيم، للمساعد للمعين، للقوى للعاملين الموحدين، للملاحق رأى الفاسدين المتهربين. وقد سبق فى علمه القديم وقضائه العظيم أنه أعطانى هذا الإقليم، وقدر وحكم بحضورى عنكم إلى مصر لأجل تغييرى الأمور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل ذلك بالعمل والراحة مع صلاح الحكم. ويروى أن قدرته العظيمة ووحدايته المستقيمة أنه لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا، لأنهم ما قدروا أن يعملوا الذى عملناه، ونحن للمعتقون وحدانية الإله ونعرف أنه العزيز القادر والقوى القاهر للسير للكائنات والمحيط علمه بالأرضيين والسموات القائم بأمر المخلوقات هذا ما فى الآيات والكتب للنزلات. ونخبركم بالمسلمين إن كانوا صحبتهم يكدوا من المضروب عليهم لمخالفتهم وصية الله عليه أفضل الصلاة والسلام بسبب اتفانهم مع الكافرين للجرة اللثام، لأن أعداء الإسلام لا ينصرون الإسلام. ويروى من كانت نصرته بأعداء الله وحاشا لله أن يكون المستنصر بالكفار مؤمناً أن يكون مسلماً، ساقطهم المقايير للهلاك والتدمير مع السفالة والرنانة. وكيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بهيق الصليب ويسمع فى حق الواحد الأحد الفرد الصمد من الكفار كل يوم تخريف واحتقار. ولا شك أن هذا المسلم فى هذا الحال أتبع من الكافر الأصل فى الضلال (١٣٢).

والواقع أن سكان القاهرة يتربصون بتحريك ذبا تحريرهم. وتحدث صدامات مع المسيحيين ويلجأ الشيخ المهدي إلى شتى الحمل لكى يقتل إلى أننى حد أمام السلطات الفرنسية من شأن الوشائيات للسندة إلى المسيحيين والتي تتحدث من انتفاضة وشيكة الوقوع (١٣٣). ويفضل وساطة المشايخ، لا يجرى اتخاذاً أى تدبير من تدبير القمع.

ويرى بعض المسئولين الفرنسيين أن استقلال الديوان زائد عن الحد وأن تدخله فى الأمور يتم دائماً على حساب للتعاونيين للباشرين مع الفرنسيين. وفى ٦ أغسطس، يكتب بومبيج ذلك إلى بوناپارت:

«إن الشيخ السادات هو الرجل الذى أرتاح إليه أكثر من سواء. ولسيد عمر [عمر مكرم] يتصرف بشكل جيد للغاية. والشيخ البكرى رجل خائف، أما الآخرون فهم خونة أو متعصبون. والشيخ المهدي رجل طموح يسعى إلى كسب الشعبية والشهرة، وهو مستعد لأن يضحى بجميع الفرنسيين بدلاً من أن يفقد درجة واحدة من مكانته. على أنه يواصل الاجتماع بهذا باستمرار» (١٣٤).

ويشكو أيضاً الأنكشارية من هذه الإعاقة لعمله و، لدى عودة بوناپارت، فإنه يوجه توجيهات إلى المهدي والصلوى اللذين لم يكونا «مؤمنين» (طبيين). وسوف يتمكنان بسهولة

من تبرئة نفسيهما والعودة إلى كسب الحظوة لدى القائد العام بطلبهما إليه أن يحلثهما من انتصاره. ولا بد من قول أن أعضاء الديوان قد تمكنوا بجلاء من رصد انتصار أبو قير بمسارعتهم إلى تهنئة الفرنسيين (١٣٦).

وسوف تكون معركة أبو قير مباراة في السرعة سوف يتكشف فيها بوضوح احتراف الجيش المنبثق عن الثورة. إن الحشد يتم في الرحمانية من ١٩ إلى ٢١ يوليو، باستثناء فرقة كليبر التي، إذ تجيء من مياط، تقطع الشوط الأطول. وفي اليوم التالي، يبدأ الجيش تحركه ويتمركز في بركة غيطاس، التي تقع في منتصف الطريق بين الإسكندرية ورشيد، حيث أن القائد العام لا يعرف ما إذا كان الجيش العثماني ينوي الزحف على المدينة الأولى أم على للمدينة الثانية وهو يعرف عندئذ أن العدو يكتفي بتحصين رأس الجسر الذي أقامه نون للرجعة في الشروع بالتحرك. ويقرر بوناپارت الزحف مباشرة على أبو قير، نون أن ينتظر كليبر الذي لا يصل إلى الرحمانية إلا في ٢٢ يوليو بعد أن اجتاز الدلتا في ثلاثة أيام. ويجري تكريس يوم ٢٤ للاقتراب من مواقع العدو. ويتمتع بوناپارت بقوة قوامها عشرة آلاف رجل على الأقل وبصلاح فرسان قوى نسبيا يتألف من ألف رجل، لكن القوات العثمانية لا تتمتع بتفوق عددي حقيقي. وكان العثمانيون يفتقدون بشكل خاص الحساسة، يدل على ذلك إثارهم لحرب الحصون التي يجنون أنفسهم فيها بشكل مريح على الحركة والزحف إلى الأمام الذي كان من شأنه تفجير انتفاضة هامة في الدلتا. وخط الاتصال الوحيد الذي يقطع هو الخط بين الإسكندرية ورشيد. ويتوسل أعيان هذه المدينة الأخيرة إلى الفرنسيين طالبين منهم البقاء، بل ويعرضون محاربة العثمانيين. وفي حالة جلاء الفرنسيين، فإنه يبدو أنهم سوف يحملون السلاح ضدهم سعياً إلى تجنب الأعمال الانتقامية (١٣٧).

ويبدأ الهجوم في فجر ٢٥ يوليو. ويتم التقدم بصعوبة وذلك بسبب التحصينات العثمانية. وعندئذ يشن مورا واحداً من أنواع هجمات الفرسان في حياته ويحطم دفاع العدو. وينتاب الجيش العثماني الذعر ويندفع صوب البحر. ويصل عدد الفرقة إلى آلاف وينجح مورا في أن يأسر بنفسه مصطفى باشا، قائد الجيش العثماني. وفي ساحة المعركة يعينه بوناپارت قائد فرقة. والحال أن هجوم الفرسان هذا الذي يستغله سلاح المشاة فوراً سوف يتكرر في مارينجو. فالفرسان لم يعد نورهم الوحيد هو الاستطلاع قبل المعركة أو استقلال النصر. ثم إن الهجوم، الذي أشير إليه في القواعد العسكرية في أواخر زمن النظام القديم، لم يك بالرقم من ذلك ممارسة مألوفة، وذلك بسبب الخسائر في الجهد في

زمن كان فيه التزود بالجهاد مكلفاً وصعباً. ويمكن للمرء التراضى تأثير واثق إلى هذا الحد أو ذلك بالممارسات المملوكية. أما فيما يتعلق بأغواق العثمانيين، فإنّه يشكل نموذجاً تمهيدياً لإغراق الروس في أوستيوليتز (١٢٨).

ولا يصل كليبر إلا في المساء. وتجعله الحماسة بسبب النجاح الرائع الذي أحرزه قائده يعلن هذه الحماسة، «قال له كليبر في لحظة حماسة، وهو يعلنه: «أيها الجنرال، إنك عظيم كالعلم، وهو ليس مثلياً بالقدر الذي يتسع لعظمتك» (١٢٩).

ويظل هناك ثلاثة آلاف عثماني متحصنين في قلعة أبو قهر، ويوجه بوناپارت إليهم إنذاراً بالاستسلام، لكن تكبري يالها ما تزال ماثلة بما يكفي لمنع المتناهبين من الاستسلام. ويحصل لأن على مهمة خوض الحصار، لكنه، إذ يصاب بجراح، يخلي المكان لمينو (٢٨ يوليو). ويشير هذا التكليف إلى رغبة بوناپارت في أن يعطى لهذا النصير المخلص فرصة لكي يخوض أخيراً معركة على قدر من الأهمية. ويجري تنفيذ الحصار وفقاً لأصول الفن الحربي بفضل النصائح الذكية التي يقدمها للمستولون عن اللطيفة وعن سلاح الهندسة. وبعد مقاومة رائعة، ومن جراء الإتهك الناضج عن الحرمانات، وخاصة العطش، يضطر العثمانيون إلى الاستسلام في ٢ أغسطس ١٧٩٩.

ويلقى سيني سميت المسئولية من الهزيمة على القادة العثمانيين الذين لم يتبعوا نصائحه الثمينة، خاصة النصائح الدامية إلى الاستيلاء على رشيد فوراً للتمكن من عزل الإسكندرية. والشيء الأكثر أساسية في نظره، هو أن العثمانيين لم يخصصوا قوات كافية بالمقاييس إلى الهدف المنشود، وهو الاستيلاء على الإسكندرية. والحال أن عدد الجنود العثمانيين لم يتجاوز سبعة آلاف رجل، ينتمي ألفان منهم إلى قوات النظام للجهاد، وذلك في مواجهة جيش فرنسي أكثر تفوقاً بكثير من حيث العدد والتنظيم (١١٠).

ويمتد نجاح أبو قهر للفرنسيين عدة أشهر من التقاط الأنفاس. لموسم عمليات الإنزال قصير في مصر، وخلال الشتاء، يكون البحر بالغ السوء، وبعد شهر أغسطس، يجعل فيضان النيل كل محاولة للإنزال عبثية لأنه يشل التحركات نحو الداخل (وهذا هو ما حدث للقنيس لوريس) [للك لوريس التاسع الذي أسر في المنصورة - المترجم]

والحال أن هزيمته، الذي لم يفعل غير تدشين حركة جلائه عن مصر العليا، يبدأ من جديد مطاردة مراد بك. ويحاول هذا الأخير كسب الوقت بعرضه إجراء مفاوضات. وبعد أن

فاجأ الطابور المتحرك الذي يقوده قائد اللواء موبان (١١ - ١٢ أغسطس ١٧٩٩)، يظل القائد للملوكي مطلق السراح لكنه يصبح أقل خطورة لأن انتصاره يتفرقون.

وفي ١٧ أغسطس، تتعرض القصير لتصف من جانب الأسطول الإنجليزي في البحر الأحمر ولم يك من شأن الخصائر للندية للجسيمة إلا أن تؤدي بشكل خاص إلى التفاف السكان حول الفرنسيين مستعدين لحمل السلاح ضد إنزال إنجليزي. لكن الهدف (الإنجليزي) إنما يتمثل بمصاطة في وقف تجارة الندية والحد من اتصالات الفرنسيين مع قوى البحر الأحمر.

السياسة السميث وبوناپارت

يتمثل أحد شواغل بوناپارت الأولى في إرسال رسول إلى فرنسا مكلف بإعلان نبا انتصار أبو قير الرائع. وتصل السفينة في ٢٥ سبتمبر إلى مرسيليا ويتم إعلان للآلة الحربية في ١ أكتوبر ١٧٩٩. ويحدث هذا الإعلان في لحظة يتعزز فيها النفوذ الفرنسي؛ فانتفاضة الجنوب - الغربي كانت قد سحقت في موريه في ٢٠ أغسطس، وكان برين قد لحق الهزيمة بفيلق أنجلو - روسي كان قد نزل في هولندا (١٩ سبتمبر) بينما أحرز ماسينا انتصاراً حاسماً في زيوريخ على سوفوروف (٢٩ سبتمبر). على أن الواقع الذي سعى بوناپارت إلى إحيائه وتحقيقه، فسوف يجرى نسيان (هزيمة) عكا وسوف يصبح اسم الفتاح من جديد مرادفاً للنتصر.

وقد أجرى سميث التحليل نفسه. إن شيئاً لم يعد يدعو بوناپارت إلى البقاء في مصر وبوناپارت وحده هو الذي يهلي الجيش الفرنسي في تلك البلد. وبالنسبة للعميد البحري، فإن على السياسة الإنجليزية أن تختار. فإذا كان هناك اعتقاد بأن الدفاع عن الإمبراطورية الاستعمارية، الأخذ في التشكل في الهند، أكثر أهمية من الحرب الرامية إلى استعادة التوازن الأوروبي، فلابد من ترك بوناپارت يخامر مصر، بالرغم من احتجاجات الحلفاء الأوروبيين. وسوف يستتبع رحيل الجنرال الفرنسي في الأجل القصير الجلاء عن مصر، بالنظر إلى مزاج الجيش والذي يرمز إليه كليبر. ويحيل مسلك سميث سميث إلى توليد أمن للهند قبل شن الحرب ضد الثورة. ويمكن للعميد البحري أن يرى أن رؤسائه يوافقون على ذلك، إن كل الحرب السيكلوجية التي يخوضها منذ وصوله إلى شرق البحر المتوسط تميل إلى خاتمة كهذه للمقاومة الفرنسية في مصر وقد أبلغ رؤسائه على نحو منتظم بتفاصيل عمله.

والى ٢ أغسطس، يبدآن مفاوضات من أجل اتفاق لتبادل الأسرى ويرسل
سكرتيره جون كيث للتحدث مع بوناپارت ويسلم كيث القائد العام صمداً حديده تسبباً
ويجرب فيها استعراض الهزائم الفرنسية بالتفصيل وهو ينقل إليه شلها معلومات
إضافية. وإن يعرف أحد أنها للحتوى الدقيق للمناقشة^(١٤١)، لكن المراقبين للعاصرين قد
شعروا على الفور بأهميتها . والى ٥ أغسطس، يخاف بوناپارت الإسكندرية إلى القاهرة
والى ٩ أغسطس يتصنى لسيدي سميت أن يكتب إلى اللورد سينسر : لقد أرسلت
السفيتين ليسيهوس وكامليون مع سفيتين حربيين تركيتين كبيرتين، للتجول على
مسافة بعيدة من غرب الإسكندرية، سعياً إلى منع باي بنغازي من إرسال مؤن إلى
بوناپارت وسعياً إلى اعتراض سبيل الأميرال جانتوم الذي، ولدى أسباب لا اعتقد ذلك،
سوف يحاول التحرك مع لرقاطين وحركة وسفينة شرامية. وربما ينجح بوناپارت نفسه
في الإفلات برقبته من الطوق تاركاً القيادة لكليهر. وإذا ما حدث ذلك، فإن كليهر سوف
يرضع أمام نداءات الجيش ويتفاوض من أجل إعاقته إلى الوطن، عندما يتم حشد قوة كافية
لضده لتحرير مثل هذا الإجراء... إنه جندى وهو لا يراهن على فتح الهند أو على خصوبة
للمستعمرة الجديدة؛ وهو يفضل لو كان على ضفاف الراين على أن يكون في أى مكان آخر
وكل الباقين يحبون لو كانوا في أى مكان على أن يكونوا في مصر. وقد حصلت على
برامين على ذلك خلال الاتصالات التي أجريتها مؤخراً معهم، وسوف يكون من الخسران
الأ نتمكن من ممارسة ضغط بالغ القوة عليهم لنطعمهم إلى اتخاذ قرار بالجلاد. ^(١٤٢)

لقد جرى من ثم إبلاغ بوناپارت بوضع فرنسا العسكرية الصعب والحال أنه كان قد
أشار بالفعل لحكومة الإنارة إلى أنه سوف يسارع إلى العودة في ظرف كهذا . وهو يعرف
بالتركيد من الإنجليز أن حكومة الإنارة تطلب استدعاه (إن البريطانيين وهو على حد
سواء يجهلون أن حكومة الإنارة مستعدة لقبول استسلام يحدد جيشه والى نهاية الأمر
شخصه حتى انتهاء الحرب). وتصبح معركة أبو قير البحرية له بالرجوع مرفوع الرأس. وأما
كان الأمر، فإن حلمه الشرقى قد انتهى إلى الفشل، حتى وإن كان (الجنرال) بوناپارت، وقد
أصبح (الإمبراطور) نابليون، يواصل حتى نهاية حياته الاحتفاظ بحنين إليه. وبما أن
إمبراطورية الشرق مراب، فإنه ما تزال تبقى له إمبراطورية الغرب.

وكانت النية الأولى لسيدي سميت هي أسر بوناپارت. وهو يصدر الأمر بذلك إلى
مختلف الوحدات البحرية الإنجليزية في البحر المتوسط، التي تنهك في تفتيش السفن
للمحايدة وخاصة في تفتيش أى بحار يمكن أن يشبه جنرالاً كورسيكياً لصيراً. لكن الحميد

للبحرى لا يمكنه ان يعرف فى أية لحظة محددة سوف يقود بوناپارت الرحيل. ومن الواضح ان هذا الأخير سوف يختار السرية الأتم لهذا المشروع، فعلاوة على خطر احتمال أسره من جانب الدوريات البحرية الإنجليزية، سوف يجازف بتعمد عام للجيش، إنا ما علم هذا الأخير بمشروع قائده.

وخلال إقامته الأخيرة فى القاهرة، يتعين من ثم على القائد العام ألا يسمح بتصرف شئ عن نواياه مع الإعتناء لتسمية خلف له. وهو يتوجه بالخطاب مرة أخيرة إلى نيوان القاهرة مستعيداً الحديث عن دوره كموسل من الله، «لو ليس حقاً [...] أنه قد جاء فى كتبكم أن كائناً أرقى سوف يحصل من الغرب، مكلفاً بمواصلة عمل النبی؟ [...]»

«لو ليس حقاً [...] أنه قد جاء فيها أيضاً أن هذا الرجل، هذا الوكيل لمحمد، هو أنا؟».

ويبدو للشايخ معجبين بكل الاستشهائات التى يسوقها بوناپارت على نحو مكثف من الكتب المقدسة، لكنهم يواجهون ببرود جليدى كل تطبيق يجريه لها على شخصه (١١٢).

وبشكل جدى أكثر، إنراكاً من لواقع أن الخطر الحقيقى إنما يجرى من الجيش العثمانى الكبير، الذى دخلت عناصره الأولى سوريا منذ قليل، يتوجه بالخطاب إلى الصدر الأعظم الذى يقوده. وهو يرسل إليه رسولا هو رشدى القندى، سكرتير مصطفى باشا؛ ويذكر بمشاريع اقتسام الإمبراطورية العثمانية من جانب حلفاء الباب العالى، كروسيا والنمسا، وبالصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. وهو يقترح قلب التحالفات وقيام فرنسا والباب العالى بشن حرب مشتركة ضد روسيا، وذلك مع إيهامه بأكثر الأشكال غموضاً بإمكانية التوصل إلى ترتيب بشأن مصر (١١١).

تسمية الخلف

وكان عليه اختيار خلف له. ولما كانت لديه مشاريع محددة بشأن استيلاء على السلطة فى فرنسا، فقد قرر أن يأخذ معه الجانب الرئيسى من أنصاره، الذين سوف يكونون مفيدین له فى مواعده مع القدر، بهرتيه، أنتريوسى، مارمون، لان ومورا ومن بين اللذين مونتج وبيرتوليه. أما جونتو وبيزيه، غير المتوفرين فى التو والحال، فيتمين عليهما الانضمام إليه فيما بعد. وسعيًا إلى الغاية نفسها، فإنه يأخذ معه حرسه الشخصى، وهو جزء من قوة طلائع الجيش. وسوف يقصر السبب فى ذلك فى سانت - هيلين، الذى كانوا ضروريين لى. كان لدى مشروعى. وكان على حمايتهم، ولا شك أن ٢٠٠ رجل يمكن الاعتماد عليهم وينتمون إلى الصفوة كانوا شيئاً بالغ الأهمية. (١١٥)

ومن ثم لا تبالى غير ثلاثة أسماء يمكن ترشيحها للخلافة: مينو وكليبير ودينبيه. أما الأول، بالرغم من كل التسامح الذي يثيره لدى بوناپارت وبالرغم من مواهبه الفعلية كإلبرى، فإنه لا يمكن أن يكون مناسباً للمهمة، وذلك بسبب لتعليم تجربته فى قيادة وحدات مهمة، وبسبب لالتزامه إلى الهيبة بين صفوف الجيش. وأما دينبيه فإنه يملك بلا جدال ملكة قيادة الرجال ودينية استراتيجية من الطراز الأول، لكنه صغير (إنه أصغر من بوناپارت بمئتين) وهو علاوة على ذلك سريع الغضب. وأما كليبير فهو وحده الذى يملك الكفاءة العسكرية (على الرغم من كونه قائد فرقة، فقد قاد فى ألمانيا قوات كانت أهم أحياناً من قوات جيش الشرق)؛ وهو متوج بهالة هيبة غير عادية أمام الجنود (لهذا الرجل المصارع فيما يتعلق بالانضباط، معروف بأنه يميل إلى توافير نعله وجعله وبأنه حريص على راحتهم)، وهو، برغم نظفه لذلك، يهدى كفاية عظيمة فى الشئون الإدارية، وكان يمكن لدينبيه أن يكون منافساً له، لكن بوناپارت يحتاج إليه فى فرنسا، وربما كان هناك أيضاً فى اختيار بوناپارت نوع من الضبط من جانب بوناپارت الذى كانت له علاقات خلافية دائماً مع هذا الأكراسى، إنه يرفضه على تولى قيادة عامة، وهو الذى رفض دائماً هذا الشرف للحلوف بالمخاطر.

ويوجه إليه بوناپارت سلسلة باكملها من التعليمات حول أسلوب حكم مصر. فهو يؤكد على الاختلاف بين العرب والأتراك. ولا بد للعلماء من أن يحتفظوا بدورهم كوسيط وذلك بالنظر إلى تأثيرهم العظيم على الشعب، ودورهم القومى ورقة طباعهم (إنهم ليسوا جنوداً). والمسيحيون مفيدون إلا أنه لا يمكن تحريرهم تحريراً واسعاً وذلك بسبب تعيزات المسلمين. ويجب الاعتماد على شريف مكة كراوغة مرجعية للسلطان - الخليفة. ويمكن دمج الممالك فى النظام الفرنسى، بمن فيهم إبراهيم ومراء، الذى سوف يجرى عرض لقب الأمير عليه. ولا بد للجيش الفرنسى من أن يتخذ مظهرًا شرقياً من حيث الزي كما من حيث التجنيد حتى يبدو فى أعين السكان جيشاً قومياً.

والخطر الحقيقى الوحيد الذى يهدد جيش الشرق، هو هجوم مشترك لجيش عثمانى يجرى برًا ولاتزال لجيش إنجليزى، لكن الفرنسيين أقوى بما يكفى لإلحاق الهزيمة بالجيشين على التوالى، ولا بد من التمكن من الفصل بينهما. وهنا هو الدور الحيوى لمواقع العريش. وفى وجه الخطر، فإن الأولوية يجب أن تعطى لتركيز حشد الجيش الفرنسى، بما يستتبع احتمال الجلاء عن الجانب الأكبر من البلد. والمواقع الأخير الذى يجب

الحفاظ عليه هو موالع الإسكندرية، الذي يمكنه تحمل حصار طويل بما يسمح بانتظار تغير الظروف السياسي للعالم.

ويجب السعى، من طريق المفاوضات، إلى فك الائتلاف بوضع العثمانيين في مواجهة الروس وبإلزامهم أن هذه الحرب لا تنفذ إلا بالإنجليز. لكن العدو الأكبر هو الطاعون الذي يجب مكافحته بتطبيق التدابير الصحية تطبيقاً صارماً.

ومن ثم: أفلا ما حدث، من جراء أحداث خارج الحسيان، وكانت جميع المحاولات غير مثمرة ولم تترك في شهر مايو أية تعزيزات أو انتهاء من فرنسا، وإذا ما حدث، هذه السنة، وبالفرض من جميع التدابير الوقائية، أن كان الطاعون في مصر وقتل لك أكثر من ١٥٠٠ جندي، وهي خسارة جسيمة لأنها ستكون أعلى من الخسارة التي تسببها لك أحداث الحرب غالباً، فإنني أعتقد أنك في هذه الحالة لا يجب عليك البتة للخامرة بخوض المعركة القريبة، وأنه سوف يكون مسموحاً لك بعقد الصلح مع الباب العالي العثماني، حتى عندما يتوجب للجلاء عن مصر أن يكون الشرط الرئيسي. وسوف يتعين فقط تأجيل تنفيذ هذا الشرط، إذا كان ذلك ممكناً، إلى حين عقد الصلح الشامل (١٨٦).

عصاة بوناپارت

يعرف بوناپارت، من خلال الأسرى الفرنسيين الذين تبادلهم مع الإنجليز، أن سيدني سميت قد استند احتياطياته من المياه والمواد الغذائية وأنه يتعين عليه التحرك فوراً لإعادة التزود بالمؤن من قبرص. ويتعين على بوناپارت الانتظار إلى حين اختفاء الوحدات البحرية الإنجليزية التي تحاصر الإسكندرية، وهو ما يحدث في ١٢ أغسطس. وما أن يتم إخباره بذلك، حتى ينهي استعداداته الأخيرة ويغادر القاهرة في مساء ١٨ أغسطس، تحت ذريعة القيام برحلة تفقدية في مصر السفلى. وهو يدعو كليبر إلى الاجتماع به بسرعة في رشيد في ٢٤ أغسطس، إلا أنه ما إن يصل إلى الساحل، حتى يتم تأكيد اختفاء الأسطول الإنجليزي له. وهكذا، فإنه حتى دون أن يدخل الإسكندرية، يبحر في ٢٢ أغسطس مع رفاقه. وتتاح له الفرصة للتحدث مع مهتر الذي يوجه إليه تعليماته الأخيرة، ويصلحه الرسائل للوجهة إلى كليبر والخاصة بنقل السلطات. وبما أن مارمون يعود إلى فرنسا، فإنه يخوله قيادة الساحل الغربي للبلد بشرط اعتماد كليبر لهذا التحويل. ويتم إبلاغ مهتر بتواها بوناپارت؛ ولقد طبعحت حكومة الإدارة كل شيء، وأساعت إلى كل شيء. إن فرنسا تتأرجح بين الحرب الخارجية والحرب الأهلية؛ وقد تعرضت للهزيمة والإلال وتوشك أن تهلك. وقد نذر نفسه لإنقاذها، مخاطراً بركوب البحر. وإذا ما وصل، فالويل للثورة وهذا

للنهر، ولصائص الزمر. إنه سوف يمسح حساب الجميع. وفي مصر، كان وجوده نائلاً عن الحاجة؛ ثم إن بوسع كليبر أن يحل محله في كل شيء... (١١٧).

وفي أول النهار تبتعد عن الساحل المصري للفرقة البحرية الفرنسية الصغيرة، والتي تتألف من فرقاطتين وسفينتين حربيتين صغيرتين، تحت قيادة العميد البحري جانتوم. والعملة محفوفة بالمخاطر. وإذا كان بوناپارت، في مقابله لمصر، لا يعرف نوايا العميد البحري (الإنجليزي سميت سميت - للترجم)، فإنه يعرف أن الجزء الأكبر من البحرية البريطانية قد دخل إلى غربي البحر المتوسط بحثاً عن أسطول بروي. ومن حسن حظ الفلاح الشلب أن سيدني سميت يضيع وقتاً طويلاً في إعادة التزود بالمؤن، وذلك من جراء سوء نية وفي قبوص (١١٨)، ولا يتم استئناف حصار الساحل المصري إلا بعد شهر من رحيل السفن الفرنسية. ثم إن الغالبية العظمى من السفن الإنجليزية كانت قد عابت، في ٢١ يوليو، إلى المحيط الأطلسي مقلية لثلاثة الأسطولين الفرنسي والأسباني بقدر من التأخر. أما نيلسون، البقي في البحر المتوسط، والذي لم يعد أمامه التحسب لمعركة بحرية، فإنه كان قد نشر قواته بشكل سكوني من أجل محاصرة اللواتي الفرنسية والأسبانية. وهكذا فإن تحرك بروي غير للتوقع قد حذر غربي البحر المتوسط من أي خطر بالنسبة لبوناپارت، الذي يمدون أن يرصده أحد (١١٩).

وفي الأول من أكتوبر، تصل الفرقة البحرية إلى أجاسيو حيث تقام أسبوعاً، ويصبح الخطر أكثر جساماً قرب طولون التي يرى المسافرون أنها تخضع لحصار من جانب بحرية بحرية إنجليزية قريبة، وهكذا، فإن الجميع يتزعجون عندما تظهر في الأفق، في ٨ أكتوبر، سفن شرعية، ويبتهج الجميع لعدم رصدهم من جانب هذا الأسطول الإنجليزي الخطير. وكما أشار نيل، فمن الأرجح أن السفن كانت قافلة من السفن التجارية للملاحة، لأن لم تلك هناك أية سفينة بحرية إنجليزية بين كورسيكا وبروفانس في الأيام الأولى من أكتوبر.

إن بوناپارت، الذي استولت على خياله معجزات يهونا ونكريات مقبرة الأهرام، يجتاز قبحار غير عابى بهوارجها ومهاويرها، فكل شيء يمكن اجتيازه بالنسبة لهذا العملاق، الأحداث وأمواج البحر للتلاطم (١٢٠).

وفي ٩ أكتوبر ١٧٩٩، ينزل بوناپارت في فريجى. ويوجه على الفور مع رفاقه إلى باريس، مجازلاً بإحداث كارثة صحية واسعة النطاق بعدم احترامه للقواعد الحجر الصحي، الإلزامية بالنسبة لكل سفينة قادمة في بلد يعتبر الطاعون دائماً فيه. وعلى امتداد طريقه، يجري الترحيب به كمنقذ. وهو يصل إلى العاصمة في ١٦ أكتوبر ١٧٩٩.





٥٠ - السيد مصطفى باقلا.



F. B. Smith

۵۱ - (ا) بوسیلج.



F. B. Smith

(ب) تالین.



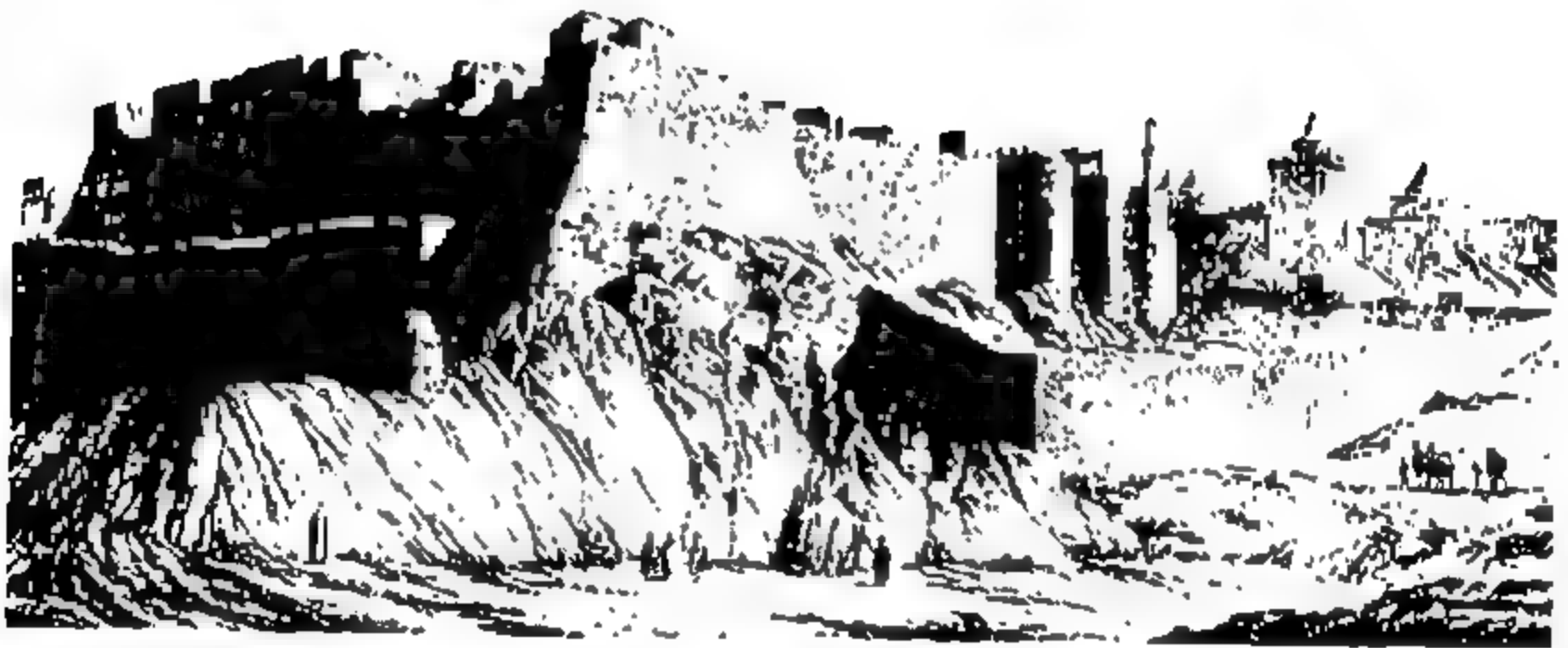
F. B. Smith

(ج) سلیٹی سمیٹ.



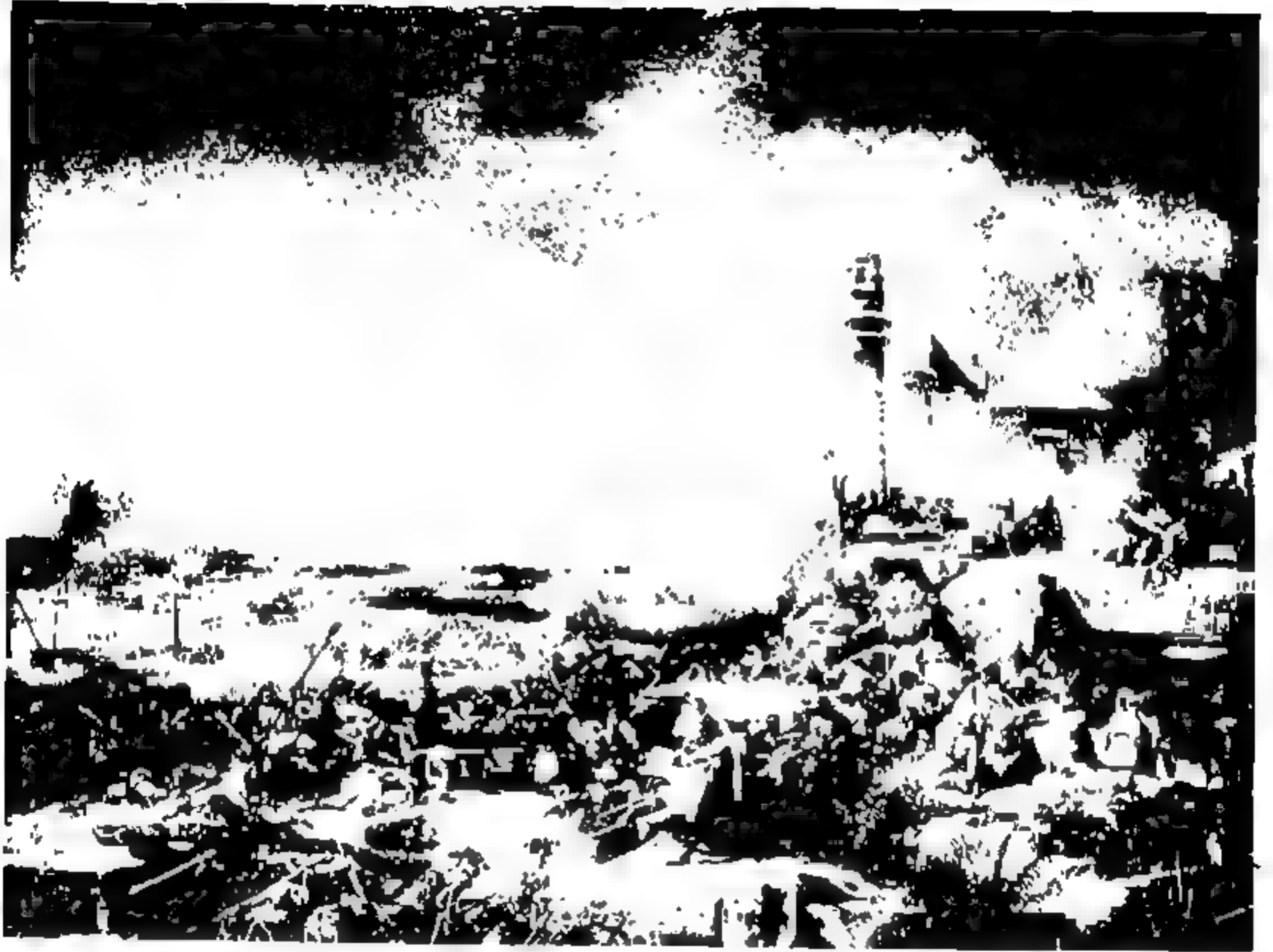
F. B. Smith

(د) کلپو.





٥٢ - خريطة عامة لهولاق والقاهرة وجزيرة الروضة والقاهرة القديمة والجبزة.



٥٤ - معركة هليوبوليس.



Handwritten text in Arabic script, appearing to be a signature or a note, located below the main photograph.

• • • - اعدام سليمان الحلبي على الخازوق -



۵۶ - مینو

۵۶

حواشي الفصل السادس

Venture of Islam, Conscience and History in a World Civilization, - ١
The University of Chicago Press, 1974, T. III, p. 177.

Sur ces épisodes complexes que je ne fais que résumer ici, voir - ٢
INGRAM, *Commitment to Empire...*, pp. 114 - 191. Le développement qui suit s'inspire de l'ensemble des analyses de cet historien de l'Empire britannique.

٢ - هكذا يوضح هورتون أن نشأة صليبي عن سليم الثالث وموجهاً إلى زمان هاه كانت له
الدوة لوامر البابا إلى شعوب وملوك أوروبا في القرن الرابع عشر، وهي لوامر لا يمكن للملك عدم
الانصياع لها إلا مجزئاً بصليباي قلجه، cité par INGRAM, p. 258

Texte anglais dans FO 78 21. - ١

Sur la vie de Sidney Smith, voir sa biographie par Peter - ٣
SHANKLAND, *Beware of Heroel, admiral Sir Sidney Smith's War against Napoleon*, Londres, 1975. Sur l'évasion de la prison du Temple, voir
DESMAREST (Pierre - Marie), *Quinze ans de haute police*, Paris, 1833, pp. 178 - 185.

FO 78 21 : Conférence tenue entre leurs Excellences Ismet Bey, - ٤
Ahmed Hatif, Reis Effendi plénipotentiaires ottomans, Chelebi Mohammad Effendi Ministre de la Guerre, assistés par l'Amedgi Effendi et le Dragoman de la Porte d'une part, et le chevalier Sidney Smith (dans l'absence de M. Spencer Smith par indisposition) assisté de M. Pisani, Interprète et accompagné par M.M. le colonel Phelyppeaux et Keith, secrétaire de l'autre dans la maison du Reis Effendi à Constantinople jeudi 17 janvier 1799 (10 Shaban 1213).

٧ - إن جوزيف فيودور دو بوليني، ممثل إسبانيا، غير المتحالفة مع فرنسا إلا في الصراع
مع إنجلترا، قد أبلغ تاليران بأعمال الآخرين سميت اللذين نجحا أيضاً في العمل على أن يتم اعتبار
العسكريين الفرنسيين الأسرى لإنجلترا خاضعين من ثم للقواعد اتفاق قال لتبادل الأسرى؛
[رسالة] من القسطنطينية، بتاريخ ١٨ يناير ١٧٩٩، A.F., *Correspondance Politique*,
Turquie, Vol. 199 وهذا تطبيق فوري للخطة التي أوتأها سيدي سميت.

Voir la mise au point historiographique dans le livre de Jean - ٨
TULARD, *Napoléon ou le mythe du sauveur*, Paris, 1977.

٩ - إن سياسة القسطنطينية تتمثل في تحقيق أكبر اختزال ممكن للتفوذ الديني الشريف مكة؛ إن السلاطين خلفاء؛ وقد ذهبوا فعلاً في إلغاء [هذا التفوذ] - أما سياسة الجنرال الفرنسي فقد كانت على النقيض من ذلك. لقد كان مهتماً بإحياء الاعتبار الديني لهذا الأمير الصغير، الذي كان يندور في ذلك محروم بمحكم احتياجاته. وقد انتفض هذا التفوذ لتخفيض نفوذ أهل القلوى في القسطنطينية. إنه [الجنرال الفرنسي] لم يفتقر لحسب، بل وشجع بمختلف السبل، اتصال العلماء بالشريف، الذي لم يتلخر من فهم كل ما تشكك هذه السياسة من فوائد لاعتباره والمصلحة. لقد كان الشريف مع التأييد السلطة الفرنسية في مصر، وقد اتخذ مؤلفاً إيجابياً إزاءها باستمرار في كل ما يتوافق عليه. *Compagnes d'Égypte et de Syrie...*, XXXIX, pp. 582 - 583.

Campagnes..., XIX, p. 575. - ١٠

١١ - BERTRAND, *Cahiers de Sainte - Hélène*, Manuscrit déchiffré et annoté par Paul Fleuriot de Langle, Paris, 1959, II, p. 189.

١٢ - *Courrier de l'Égypte*, le 2 nivôse an VII (22 décembre 1798).

١٣ - من الصعب إجراء تقدير للمعد الإجمالي لسكان سوريا في تلك الفترة. والرقم الذي يقترحه حاييم جيربر Haim GERBER (The Population of Syria and Palestine in the Nineteenth Century, *Asian and African Studies*, XIII (1979), pp. 58 - 80)، وهو ١٢٠٠ ٠٠٠ من بينهم ٢١٨٠٠٠ بالنسبة لفلسطين، يبدو لي جد منخفض. أما انطوان عبد الخور الذي يشدد على أهمية التحويلات السكانية دون أن يقدم رقماً إجمالياً محدداً، فيبدو أنه يميل بالأحرى إلى اعتبار هذا الرقم ١٧٠٠ ٠٠٠ في عام ١٨٢٥ (*Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie Ottomane*, Beyrouth, 1982, p. 82). وهو رقم لابد من أن يكون قريباً من رقم عام ١٨٠٠. ويقترح الكسندر هيلوى بالنسبة لفلسطين في عام ١٨٥٠، رقم ٢٥٠ ٠٠٠ (*The Demographic Development of Palestine, 1850 1882*, ٢٥٠ نسخة، *International Journal of Middle East Studies*, XVII (1985), pp. 485 - 505). بعد فترة ركود معينة. ويبدو أن الاتجاه هو اتجاه نمو بالرغم من التذبذبات المعاكسة والظواهر أن فترة أواخر القرن الثامن عشر (كما في حالة مصر) كانت بالفعل مرحلة تميزت بانخفاض السكان.

١٤ - Amnon COHEN, "Ottoman Rule and the Re - Emergence of the Coast of Palestine", *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, n° 39, 1985, pp. 163 - 175.

١٥ - Sur cette question, voir l'article très éclairant de Scott ATRAN, "La Masha'a et la question foncière en Palestine, 1858 - 1948 *Annales, Économies, Sociétés, Civilisations*, 42 (1987), pp. 1361 - 1390.

١٦ - Sur Jazzar, le livre de E. LOCKROY, *Ahmed le Boucher, la Syrie*

et l'Égypte au XVIII^e siècle, Paris, 1888, est très vieilli quoiqu'agréable à lire. La synthèse fondamentale est le livre d'Amnon COHEN déjà cité, *Palestine in the XVIIIth Century*, Jérusalem, 1973.

Sur les structures et les réalités de la société du Mont Liban à – ١٧ cette époque, voir les premiers chapitres de l'ouvrage fondamental de Dominique CHEVALLIER, *La société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe*, Paris, 1971.

JABARTI, nécrologie de l'année 1219.

– ١٨

١٩ – ليس بونابارت هو الوحيد الذي يجرى تحليلاً كهذا : إن تقريراً مفصلاً من التواريخ أرسل إلى نابليون في يوميه من العلم السابع (أواخر أكتوبر – نوفمبر ١٧٩٨) لا يرى، بالنسبة لجيش الشرق، غير إمكانية واحدة للقهر الإمبراطورية العثمانية، «الثورة» : إن بونابارت استوف يجد في سوريا اللوز وشعوب جبل لبنان الأخرى. وسوف يدعوها إلى الاستقلال وإن تكون صملاً تجاه بعثته. وفي هذه الفترة نفسها، تشجع حكومة الإنارة الدار اليونانيين وتغني وكافة أنكون المكلفة بالتحضير للانتفاضات في البلدان البلقانية العثمانية (A.E., *Correspondance Politique, Turque*, Vol. 199).

Le Moniteur, 26 brumaire an VII : le texte est repris avec éloge – ٢٠ dans le *Courrier de l'Égypte* des 3 et 12 thermidor an VIII, malgré l'échec de l'expédition.

Campagnes..., XXX, p. 20.

– ٢١

Reynier à Bonaparte, le 29 pluviôse an VII (17 février 1798), LA – ٢٢ JONQUIÈRE, IV, pp. 185 - 187.

٢٣ – يتناظر العثمانيون بذلك، ويورد ناصر هذه الجملة عن واصل : «صحيح أن الجندي للمسلم إذا لم يكن محتجباً بسور ثياباً ما يقتل بكل البسالة التي هو أهل لها. إنه يذعن عندما يرى طريق النجاة مفتوحة حوله. لقد أثبتت التجربة ذلك كثيراً، وهذا ما أدى إلى دفع بونابارت، لتفصل الفرنسيين الأول الآن، إلى القول بأن عشرة آلاف جندي جيدي الانضباط يكفون للانتصار في أرض مكشوفة على جيش من مائة ألف مسلم؛ لكن جوهراً من مائة ألف رجل لا يكفي لقهر عشرة آلاف مسلم محتجبين بإحدى القلاع» (*Histoire de l'Empire Ottoman*, XVI, p. 361).

Kléber et Bonaparte, p. 55.

– ٢٤

Rapport sur la reconnaissance faite par le général Damas sur la – ٢٥ *rouse de Naplouse*, LA JONQUIÈRE, IV, pp. 245 - 246. مبدئية بشكل جيد رائع على ممتلكات ذات مدخل صعب. ووسط الصخور والأحراش، نجد حقول قمح، بما يشكل برهاناً على أن استبعاد الباشاوات لم يمتد أبداً إلى هذه الجبال، التي تتمتع بطابع جيد سهل.

«إن سكان الجبال هؤلاء يطلقون النار بإحكام بالغ، دعويين ومختبئين دائماً. وعندما ينزل
للره إلى المكان الذي تنطلق منه النيران، فإنه لا يعثر عليهم البتة ويتعرض لطلقات البنادق من
الأحراش المجاورة» وهذا نوع من الحرب جد قاتل. [...]»

«إنهم يتوالفون منذ الأحراش الأخيرة ولا يجترئون البتة على الخروج إلى الأرض المكشوفة.
[...]»

«ولذا ما نرى المرء التفتل في هذا البلد، فلن تكون هناك حاجة لا إلى للدافع ولا إلى
الفرسان، لأنهم سوف يجبرونك على المرور بشعاب صعبة إلى أقصى حد؛ لكن الهجوم يؤدي
متملاً إلى الارتباك»

٢٦ - لابد أن حامية المعيش كانت تتألف على أقصى تقدير من ألف ومائتي جندي؛ وقد
جرى إجهاد جزء لا بأس به على الخدمة في الصفوف الفرنسية؛ وإذا كان جميع الآخرين قد
تواجدوا في يافا، فلابد من أن تنقل في الهجوم نسبة من الخسائر مساوية لنسبة بقية الحامية.
ومن ثم فإنهم لا يشكلون غير جزء طفيف نسبياً من الأسرى، والحال أن نابوليون سوف يزمع
في سانت - هيلين أن الرحيمين الذين أعصموا رمياً بالرصاص في يافا هم أبناء مقاتلي المعيش
(LA JONQUIÈRE, IV, pp. 268 - 269).

VOLNEY, Voyage..., p. 93. - ٢٧

J. MIOT, *Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en - ٢٨*
Égypte et en Syrie, Paris, 1814, pp. 146 - 149. C'est le frère de Miot de
Melito, voir le *Dictionnaire Napoléon*.

Correspondance..., V, p. 456. - ٢٩

٢٠ - 458 - 459 *Correspondance...*, V, pp. 458 - 459. المرفوع والرحيم؛ من صفات الله ...

٢١ - Voir la lettre de Sidney Smith à Saint Vincent, devant Acre le 23
mars 1799, dans BARROW (John), *Life and Correspondence of Admiral Sir*
Sidney Smith, Londres, 1848, I, pp. 266 - 269.

٢٢ - *Correspondance...*, le 30 ventôse an VII (20 mars 1799), pp. 477 -
478 في ذلك الزمن، غالباً ما كان الأوروبيون يخلطون بين العوذ والوارثة. ولحق أن التناحرات
بينهم لم تكن بعد من النوع الذي سوف يظهر في القرن التاسع عشر.

٢٢ - LA JONQUIÈRE, IV, p. 318 et Yassine SOUBID, *Histoire*
militaire des Muaqata'a libanais à l'époque des deux Émirats, Beyrouth,
1985, II, pp. 561 - 562.

٢٤ - خاصة، العميدان لوجهيه وإيسكال؛ وقد أصيب قلنا كتيبة الهندسة ساي (أخ جان - بالهتيس ساي)، وسوهيه وفندق السموية لوجهيه إسلية جسيمة وماتوا بعد ذلك مثلثين بجراحهم.

٢٥ - Sidney Smith à Saint - Vincent, devant Acre, le 4 avril 1799, - BARROW, I, pp. 273 - 275.

٢٦ - بل إن نظام مكانة لالخط [الخط قنبل الأعداء] قد لدش للجند : LA JONQUIÈRE, IV, p. 368.

٢٧ - *Histoire Scientifique...*, V, pp. 278 - 281.

٢٨ - Sur la campagne de Klébre en Galilée, voir *Kléber et Bonaparte*, - pp. 433 - 476.

٢٩ - Lettres de Berthier et de Bonaparte à Dugua, le 19 et 20 avril 1799, LA JONQUIÈRE, IV, pp. 434 - 437.

٤٠ - Haïdar CHEHAB, II, p. 197.

٤١ - Haïdar CHEHAB, III, pp. 399 - 400 et Michel CHEBLE, *Une histoire du Liban à l'époque des Émirs*, Beyrouth, (réédition) 1984, pp. 170 - 173; même référence pour la seconde lettre de Sidney Smith.

٤٢ - سيدهي سميت إلى سينتر سميت، ١٤ مايو ١٨٠٠ : «لدي رسولان من فرد مسيحي جبل لبنان، جاءا طلبية لوصالتي إليهم والندامية إلى إرسال رسل، وهما يعلناني بأن كل ما يطلبه منهم سوف يجري عمله عند العدو، بعد أن رأوا مدى قوتنا وقدرتنا على حمايتهم». BARROW, I, p. 298 انظر أيضاً رسالته إلى نيلسون بتاريخ ٢٠ مايو ١٧٩٩ حيث يوجز سياسته : «لقد بعين الاعتبار أن انكار السوريين فيما يتعلق بهسالة هؤلاء الفرقة للزعموة التي لا تظهر لابد وانها قد تغيرت منذ أن رأوا الخيبات التي تعرض لها الجيش للعاصم يوماً إثر يوم في عملياتك أمام مدينة عكا، فقد كتبت رسالة تميمية إلى أمراء وزعماء مسيحيي جبل لبنان وكذلك إلى مشايخ النروز، داعياً إياهم إلى حجب الإمدادات من المعسكر الفرنسي؛ وقد أرسلت إليهم في الوقت نفسه نسخة من بيان بوناپارت الكافر الذي يتفخر فيه بالإطاحة بالبابا، وهي رسالة مرقد عديم المبادئ» وقد كان لهذه الرسالة كل الوقع الذي تضمنته : فقد أرسلوا إلى علي الفرد رسولين يعلنان لا الصلوة وحدها، بل والطاعة ويؤكدان لي أنهم، بوهذا على الطاعة، أرسلوا مجموعات لإلقاء القبض على الجبلين الذين يحتر عليهم حاملين ذبيحاً ويأروود مدافع إلى المعسكر الفرنسي ويضعون تحت تصرفي ثمانين سجيناً من هذا النوع. وهكذا فإنتي ألتع بالاحتياج إذ لهد أن زحف بوناپارت إلى مسالة أبعد شمالاً قد تم والله عملياً من جانب هعب مقلتل يسكن بلدك ويستحيل لغيرك» Ibid, p. 308

وتتحدث المصادر العربية عن ابن أخ لسيدهي سميت. ومن المؤكد أن هذا الأخير كان عليه أن

يقدمه بهذه الصلة لكي يبدو في صورة هروية أكثر ولكي يضل أهمية أكبر على النكسة التي يريد إبداءها للجلبين. أما واقع أن هذا الشخص هو راييت، فيجرى الإشارة إليه في رسالة من سيدنى سميت إلى أخيه تصل تاريخ ١٤ مايو ١٧٩٩ : « راييت في بيروت، الفضل: HOWARD, ٧ يقول النص الذي يورده بارو إلا : « راييت على العظمى، الفضل: »

Campagnes..., XXX, p. 60. - ٤٢

Campagnes..., XXX, p. 44. - ٤٤

Voir H. LAURENS, "Le projet d'État juif en Palestine attribué à - ٤٥
Bonaparte", à paraître dans la *Revue d'Études Palestiniennes* en fin 1989.

٤٦ - « إننى هنا استمتع تماماً بطريقتى للفضلة، وذلك بتكدير أبطال الأمة العظمى وجعلهم يشعرون أن الفضل شيء يمكن أن يحدث لهم هو أن يصبحوا أسرى لى، لأنهم بهذه الطريقة سوف يملأون بطونهم ويرجعون إلى عائلاتهم حيث سيقيمون بطريقة الحال بهتم ومعارضة أولئك الذين أرسلوهم إلى هذه المهمة الحمقاء، إلى راييت، ٧ مارس، I, BARROW, p. 270.

٤٧ - « Histoire Scientifique..., V, pp. 392 - 394. تشير غلطية للمصادر إلى أن توزيع بيان الباب العلى قد تم نحو منتصف مايو، إلا أن رد فعل بوناپارت أصبح غير مفهوم إن لم نلتزم أن عمل سيدنى سميت السيكولوجى قد بدأ قبل ذلك بشهر.

٤٨ - LA JONQUIÈRE, IV, pp. 440 - 441. وجد المؤرخ العسكرى الكبير أن الظروف التى ألهمت هذا الأمر اليومى لم تعد بشكل جيد. على أن التناظر واضح بما يكفى بين أمر بوناپارت اليومى وبيان الباب العلى بحيث يتعذر عدم الاعتراف بانتشار الأفكار من طريق الاتصالات بين الحاصرين والحاصرين. وحلوة على ذلك، فإن ذاهوليون يذكر ذلك بوضوح فى سانت - هيلين ليوتران (الذى كان مع الحملة) : « لقد تحدثت مع سيدنى سميت بوصفه معتوها، لأنه كان يرصحنى فى الصميم، لأنه كان ناساً، بذل جهده فى بث وتشجيع روح خبيثة فى الجيش بتكراره أنه سوف يسهل العودة إلى فرنسا. أما الشيء الجيد الذى فعله فهو أنه أخذ معه، خلال حصار عكا، فيليبس الذى قدم إليه نسلح جيدها

٤٩ - مما له دلالة أن هاتين المبتين هما اللتان همتا انتباه الجبرنى (٧ نو الحجة و ٢ محرم سنة ١٢١٢).

Sidney Smith à Saint - Vincent, le 9 mai 1799, BARROW, pp. - ٥٠
284 - 219.

٥١ - A Evan Napean, le 9 mai 1799, LA JONQUIÈRE, IV, p. 483. هذا ثالثاً : « لا تجرى الإشارة هناك على سبيل المثال إلى وصول شخص مع قوات الباب العلى ونصى السيد ثروت وهو ليس لحدك آخر غير ثروتية، وهى معلومة جرى التأكيد عليها فى رسالة سيدنى سميت التى سبق الاستشهاد بها.

Mémoire de M. Bourrienne sur Napoléon, édité par Désiré – ٥٢
Laroix, Paris, I, pp. 363 - 364.

Sur cet épisode, voir *Kléber et Bonaparte...*, I, pp. 57 - 61 et II, – ٥٢
pp. 475 - 478.

Proclamation à l'armée, devant Acre, le 28 floréal an VII (17 mai – ٥٤
1799), *Correspondance...*, V, pp. 553 - 554.

٥٥ - ولقد أرسلتهم إلى سمياط حيث سوف يحصلون على العون الإضافي الذي تتطلبه
حالتهم والذي لم يكن يوسعي منحه لكثيرين. إن إعراباتهم من الاعتراف بالجميل لذا كانت
ممتزجة بإلقاء اللعنات على اسم قائمهم الذي عرضهم بهذه الطريقة، كما قالوا، إلى الهلاك، بدلا
من أن يستأنف التفاوض بشكل مائل ومشرف مع الإنجليز، والذي قطعته بزعم زائف وخبيث
مؤله أنني عرضت الأسرى السابقين عمدا للإسالة بحسب الطاعون. ومما يشرف الجيش
الفرنسي أنه قال إنه لم يحصل هذا الزعم وهكذا فقد ارتد على من أطلقه. وقد تأكد وصول
الجرحى إلى مصر من خلال رسالة من ألبراس إلى بوجا، أرسلت من سمياط بتاريخ ١٢ بروريل
من العام السابع (٣١ مايو ١٧٩٩)؛ وكان عندهم ١٥٠. ويستفيد سيدي سميث من ذلك لكي
يرسل بيان الباب العالي ويضيف: «إن كل شيء يدفعكم إلى الاستعداد للجلاء عن الإمبراطورية
العثمانية دون تأخير، مستفيدين بذلك من السبيل الوحيد المقترح لإنقاذ الجيش الفرنسي». L.A.
JONQUIÈRE, IV, pp. 591 - 593.

Kléber et Bonaparte..., pp. 543 - 544. – ٥٦

٥٧ - حول أحداث يافا، انظر التحليل الحاسم الذي قام به LA JONQUIÈRE, IV, pp. 575 - 583.
وسوف يجرى رفع عدد الضحايا إلى أكثر من ٥٠٠، ومن هنا اتساع المناظرة
بإخلاص للدافعين عن هزائرات الذين شاركوا في حملة مصر، إنهم لن يحاولوا معرفة كنه حقيقة
المسألة.

Lettre à Nelson du 30 mai, BARROW, I, p. 308. Curieusement, – ٥٨
les archives militaires (B6 23) conservent une traduction de cette lettre. La
présence du calendrier révolutionnaire montre qu'il s'agit bien d'une
traduction d'époque. C'est peut-être une indiscretion calculée de la part du
commodore. LA JONQUIÈRE, la donne in extenso, IV, pp. 588 - 592.

Bonaparte à Kléber, le 9 prairial an VII (28 mai 1799), – ٥٩
Correspondance..., V, pp. 568 - 569.

CHAPTAL, *Mes souvenirs sur Napoléon par le comte Chaptal* – ٦٠
publié par son arrière - petit - fils, Paris, 1893, pp. 303 - 304.

Amnon COHEN, *Palestine...*, pp. 108 - 109; Clinton BAILEY, - ٦١

"The Negev in the Nineteenth Century : reconstructing history from bedouin oral traditions", *Asian and African Studies*, XIV(1980), pp. 35 - 80.

LA JONQUIÈRE, IV, p. 597.

- ٦٢

LA JONQUIÈRE, IV, pp. 612 - 613.

- ٦٢

Dugua à Bonaparte les 26 pluviôse et 29 pluviôse (14 et 17 - ٦١

février 1799), B6 108. (Dugua à Leclerc, le 3 ventôse an VII "21 février 1799").

٦٥ - يضم الملف B6 18 مراسلات جزيرة المنو مع المسلمين. وهي ذات طابع تكراري

مصرف ولا تقدم الكثير، ووصلته إلى مارمون بتاريخ ٦ فيكتوز من العام الثامن (٢٤ فبراير ١٧٩٩) هي مجرد حكايات على الأقليات التي تشكل البنية التحتية للمنية مصر، وهو يهاجم بشكل خاص اليهود. إنهم جنس ملوث وحليز لا يقدم أية خدمة وهم يحكم مهنهم لكبر سارقين للجنس الإنساني [...] إن هؤلاء الناس جميعهم قد خضعوا ويخضعون يومياً إدارة القاهرة، ولقد وصلوا إلى هناك، سوف انهيأ لهم حرب حتى الموت عليهم لأنني أكن فوق كل شيء الكراهية الأكثر حسماً للمحتلين»

L'étude la plus complète sur le mariage de Menou qui rassemble - ٦٦

toutes les informations que nous possédons, y compris les actes originaux du mariage découverts au siècle dernier, est l'article de René KHOURY, "Le mariage musulman du général Abdallah Menou", *Egyptian Historical Review*, XXV (1978), pp. 65 - 93.

٦٧ - إنه لا يعلن رحيله لليونان رشيد إلا في ١٠ مايو ١٧٩٩. B6 22.

JABARTI, ramadan 1213.

- ٦٨

Plusieurs mentions dans la correspondance générale de l'envoi de - ٦٩

textes à al Mahdi : voir par exemple, B6 108, lettre de Dugua à Poussielgue le 27 pluviôse an VII (15 février 1799). JABARTI note avec plaisir l'élégance des textes obtenue grâce aux demandes insistantes des membres du diwan (14 shawwal 1213).

JABARTI, ramadan 1213 et B6 108, Dugua à Poussielgue le 26 - ٧٠
pluviôse (14 février 1799).

Dugua à Bonaparte, Précis de la situation des provinces de - ٧١

l'Égypte au 19 ventôse an VII (9 mars 1799), LA JONQUIÈRE, V, pp. 23 - 27.

٧٢ - *Kléber et Bonaparte...*, p. 537. حتى سهيل اللال، تبايل زيارات مع كلهر

Dugua à Bonaparte, le 6 germinal an VII (26 mars 1799), LA - ٧٢
JONQUIÈRE, V, pp. 36 - 37 et B6 109.

٧٤ - وقد أطلقوا التركة، فإن لها الإنكشارية مصطفى لها قد منحه إلى سوريا وقد أعيد
الجزائر بومسك جاسوساً (WIET, p. 38) والواقع أن حواريات هؤلاء التركة هي واحدة من أكثر
الحواريات تشوهاً أما حواريات حيدر الخهلي فهي أفضل إلى حد ما (II, 253).

Dugua à Bonaparte, le 18 germinal an VII (7 avril 1799), B6 109. - ٧٥

Dugua à Bonaparte, le 14 germinal an VII (3 avril 1799), LA - ٧٦
JONQUIÈRE, V, p. 45.

JABARTI, Ramadan et Shawwal 1213; Dugua à Bonaparte, le 14 - ٧٧
germinal an VII (3 avril 1799), LA JONQUIÈRE, V, p. 44.

٧٨ - لقد نشر سلفيستر بوساسي رسائل الشريف في كتابه *Chrestomatie Arabe*,
Paris, 1827, III, pp. 319 - 327 انظر أيضاً الجبرتي، ذو الحجة ١٢١٣ و B6 183، رسالة
بوسليج إلى الشريف، والمؤرخة في شهر جهريمينال. وقد قدم هذا الأخير له شرحاً حقيقياً للثورة
الفرنسية، منذ عشر سنوات، يعلن الفرنسيون ويريدون مبادئ الحرية المدنية والدينية. وقد
راهم في كل مكان عقلت الشعوب؛ ولم يهاجموا غير لتعليم التسامح وهذا الانعيلم للتسامح هو
العدو الأكثر تحديداً للمسلمين. إن الفرنسيين هائهم شأن للمسلمين لا يؤمنون إلا بالله واحد وهم
مثلهم مسلمون بالقدر ويخضعون لأوامره القاطنة. وتتألف قوانينهم من كل ما هو معروف بفعل
في قوانين الشعوب الأخرى. وهم رغبون في الحرب وكرماء في النصر وفاعلون للخير في
السلام.

٧٩ - Le texte imprimé de Jabarti, aussi bien dans les *Aja'ib* que dans le -
Mazhar porte la forme erronée *ibn* (fils), au lieu de *bunn* (café), ce qui
conduit CUOQ (p. 136) à traduire : "quant aux Français, ils exonérèrent le
fils du Chérif de toute taxe", alors que le sens évident dans le contexte est
bien le "café du Chérif". Les erreurs de transcription ou même d'écriture
dans les manuscrits originaux de Jabarti sont nombreuses, et il est
regrettable de ne pas disposer d'édition critique de cet auteur (sauf pour la
Mudda).

JABARTI, fin dhu al hijja 1213.

- ٨٠

Dugua à Bonaparte, le 1^{er} floréal an VII (20 avril 1799), B6 109. - ٨١

٨٢ - B6 109 : توجه إلى بوسليج، ٢٠ فلوريال من العام السابع (١٧٩٩) :
« يجب، أيها المواطن النحرير، إلهام الشوق البكري إلى أي مدى وتعارض هذا المسلك مع مصالحه
الخاصة ومع سلامته الشخصية. إلى أي مدى سوف يكثر القائد العام الذي يمكن [لهذا المسلك] أن

يسرى إليه في نظره والخير فإنه لكون الأمر يتعارض مع السكينة العامة، فإنه لا يجب أن ينعش إذا ما أصدرت أوامر بإلقاء القبض دون تمييز على الأشخاص الذين يوجدون في القاهرة دون تصريح مناسب بصرف النظر عن الشخص الذي يحميهم. وبما أن ترجمانك الفضل من ترجماني، فلتعمل على أن يستجيب الشيخ البكري عن طيب خاطر لتحريرك لأنه بحاجة إليك، ولتعمل على إلزامه جادة الصواب هو ورفاقه أيضاً. إنهم يسعون كلهم إلى تلمين حيل لاستغلالها في حالة حدث غير متوقع.

٨٢ - إن جارية للمملوك السلطنة هذه تحوز من ثم جزءاً من التزام، وهو شيء مكشوف في هذا الوسط.

Dugua à Bonaparte, le 6 germinal an VII (26 mars 1799), B6 109. - ٨٤
Le commandant de la place est le général Destaing. J'ai retranscrit les noms arabes du texte.

B6 21 : Destaing à Dugua, le 2 floréal an VII (21 avril 1799), - ٨٥
Poussielgue à Dugua, le 3 floréal an VII (22 avril 1799) et B6 109 : Dugua à al Bakri, le 3 floréal an VII. Jabarti, là encore, ne mentionne pas cet incident.

B6 109, Dugua, à Lanusse, le 6 germinal an VII (26 mars 1799). - ٨٦
٨٧ - هذا هو موافق مارمون، الذي أصدر بياناً بهذا المعنى، في ٢ جيرمينال من العام السابع (٢٢ مارس ١٧٩٩)، بالنسبة لكل عربي الملقا (B6 20). وقد ألقى نوحاً هذا القرار بعد ذلك بأنهم ظفيلة (B6 109).

Jabarti, 17 shawwal 1213, fin dhu al qa' da; Dugua au diwan du - ٨٨
Caire, le 5 floréal an VII (24 avril 1799), B6 109.

Dugua à Bonaparte, le 11 floréal an VII (30 avril 1799), LA - ٨٩
JONQUIÈRE, V, p. 73. لا يقدم الجبرتي ودقولا أترك غير معلومات جد طفيلة عن أصل الرجل، ويبدو أن مؤشرات تالية تشير إلى أنه من فارس.

Lefebvre à Dugua, le 23 floréal (12 mai 1799), LA JONQUIÈRE, - ٩٠
V, p. 89.

Lanusse à Dugua, le 21 floréal an VII (10 mai 1799), LA - ٩١
JONQUIÈRE, V, p. 87.

Campagnes..., XXX, p. 78. - ٩٢

Voir mes *Origines intellectuelles de l'Expédition d'Égypte*, en - ٩٣
particulier les pages 252 - 253.

٩٤ - المقصود هو إرسال رسالة إلى مراد بك، «تأملت طويلاً قائمة الزعماء العرب التي

قدمها إلى الصير حموييل مود والعميد البحري تويريدج، سلفاى للبلشون فى المركز البحرى قبله الإسكندرية واللذان كنت قد اعليتهما هناك فى الصحة النفسية، فور معركة النيل مباشرة، واللذان وجدنا فى اتصالهما بالشاطئ، رجالا ثوى نفوذ غير متمسكين للسيطرة الفرنسية. وقد اخترت بعد إمعان التفكير اسماً من هذه القائمة جرت الإشارة إليه على أنه ابن عبد الله باشا، حاكم بيموتون، بين الإسكندرية والنيل، والذي كان أحد ضحايا تنظيم الإرهاب الذى أقمه بوناپارت، والذي شغل منذ بداية هبوطه إلى الإسكندرية؛ دون أن يأخذ فى اعتباره، وإن كان من المحتمل أن كثيرين قد استسلموا للخوف من جراء ذلك، إن اقارب الناجين سوف يشعرون بالضغط وهو أمر من المؤكد أن من شأن كورسيكى أن يذكره.

«وكان اسم العربي هو إبراهيم بن عبد الله باشا، وهو معروف بأنه قد انسحب من حطام بيت والده ودخل إلى قبة، على الساحل المواجه لكاتبها، بعيداً من السلطة والأسلحة الفرنسية».

وعند الإنزال البريطانى، يقابل سيدنى سميث رجلاً الذى يعلن له أنه سوف يحمل بنفسه الرسالة إلى مراد بك : «إننى لن أرسل رسالتك، إننى سوف أحملها بنفسى، فهذا هو واجبى، لأن الفرنسيين قتلوا والذى فى سانتريوس، وأنتم تطاردون من قلوبهم. ويشير سيدنى سميث إلى أنه هو الذى سلم الإسكندرية للإنجليز فى عام ١٨٠٧ (BARROW, II, pp. 38 - 44) لما كتب *Victoires, conquêtes, désastres et revers des Français*, Paris, X, 1818, pp. 304 - 306 فهو يشير إلى موت عبد الله باشا فى تلك الوقت الذى يموت فيه إبراهيم الشورى، لكنه يشير أيضاً إلى موت المهدي فى المعركة نفسها. ولا نجد بعد ذكر عبد الله باشا بعد ذلك التاريخ.

JABARTI, shawwal 1214.

- ٩٥

LA JONQUIÈRE, V, p. 93 (lettres de Poussielgue et de Dugua), - ٩٦
B6 22, Interrogatoire du coupable; JABARTI, 14 dhu al qa' da 1213.

Dugua au général Damas, le 17 floréal an VII (6 mai 1799), B6 - ٩٧
109.

٩٨ - الصحراء العربية هى الصحراء للمتعة بين وادى النيل والبحر الأحمر خلافاً للصحراء القلبية التى فيها عند الضفة اليسرى للنيل.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 553 - 569.

- ٩٩

١٠٠ - عندما حصل الخبر إلى علم بوناپارت فى مكاء، ينتقله شعور داخلى بقرب ضياع إيطاليا. وفقاً لهوريان، فإن : «هذا الخبر للحزن، بتفاصيله المريعة، واسم المركب، قد أثار تأثيراً قوياً فى نفس القائد الذى قال لى بنبرة نهوتية : «عزيزى، إن فرنسا قد خسرت إيطاليا، لقد قضى الأمر، إن حدسى لا يخدعنى أبداً». وقد أوضحته له أنه لا يمكن أن تكون هناك فى الواقع أية علاقة بين إيطاليا ومركب جرى تسميته على بعد ثمانمائة فرسخ منها كان قد منحه اسم ذلك البلد. ولم يكن بوسع شىء أن يحوله عما استشعره فى البداية؛ وسوف يتحلق الحرس بعد قليل،

Vivant DENON, *Voyage....*, pp. 158 - 159.

- ١٠١

١٠٢ - إن دونزيانو هو جندي جاء من صفوف جيش النظام القديم. وقد خدم في البداية على الراين وسرعان ما سوف يصبح من المخلصين لبوناهارت.

Vivant DENON, p. 190. - ١٠٣

LA JONQUIÈRE, V, p. 262. - ١٠٤

Instructions du Directoire à Brulx, le 25 ventôse an VII (15 mars - ١٠٥ 1799), LA JONQUIÈRE, V, pp. 136 - 138.

١٠٦ - المقصود هو شخص اسمه بطرس بويكتي، وهو تاجر سودي ولد في مصر وربي في فرنسا، تعهد على وجوبه للمصادر الفرنسية (LA JONQUIÈRE, V, pp. 666 - 668) ونقلوا الترك (WIET, p. 64) وقد جرى الخلط بينه وبين يوداني اسمه بويكتي الذي يقال إنه قد أرسل بعد ذلك بوقت طويل من جانب جوزيف بوناهارت والذي لن يصل أبداً. ولهما بعد سوف يتولى آل بوناهارت رعاية أسرته، إن ابنه سوف يخدمان في الجيش الإمبراطورية وحظيه ليس شخصاً آخر غير الهنري بويكتي الذي خدم في ظل الإمبراطورية الثانية.

LA JONQUIÈRE, V, pp. 166 - 168. - ١٠٧

١٠٨ - بالشكل نفسه، لم تدخل الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى في حرب ضد الإمبراطورية العثمانية، وخلال الحرب العالمية الثانية لم يعلن الاتحاد السوفييتي الحرب على اليابان إلا في الأسابيع الأخير للحرب.

١٠٩ - ثم إن تعزيزاً غير متوقع حصل عندئذ للكاردينال من جهة أخرى؛ فبعد الاستيلاء على كورفو مباشرة، يظهر جزء من الأسطول الروسي - التركي في مياه خابولس. [...] ويضع [...] سوريكين تحت تصرف الكاردينال خمس مائة وستين رجلاً، تحت إمرة القائد بيل، وينضم إليهم أربعة وثلاثون تركياً تحت قيادة أحمد بك. ومن الواضح أن هذا الدعم من جانب الكفار والمقيم إلى جيش الدين المقدس قد سبب بعض القلق للكاردينال؛ على أن بعض الهرطقة والمنشقين كانوا قد قدموا له بالفعل عوناً جيداً وقد قال أحمد بك بطرف بالغ: «إننا نشرب الخمر ونبالغ عن المسيحيين».

وبعيداً عن الطريقة، فإننا نجد بهلاء برنامج التضامن الديني بين المل للمسيحية الرئيسية والإسلام ضد إلحاد الثورة.

SYBEL..., p. 79. - ١١٠

LA JONQUIÈRE, V, p. 179. - ١١١

Le 3 septembre 1799, extrait du mémoire dans LA - ١١٢ JONQUIÈRE, V, pp. 184 - 185.

A.E., *Correspondance politique*, Turquie, Vol. 201. - ١١٣

Le comte BOULAY DE LA MEURTHE, dans son livre *Le Directoire et l'Expédition d'Égypte* (Paris, 1885) a fait un relevé précis et minutieux de toutes les tentatives de communication du Directoire avec l'armée d'Orient et a montré que le dernier messenger est arrivé comme on l'a vu le 3 mars 1799.

BERTRAND, *Cahiers de Sainte - Hélène...*, II, janvier 1819, p. - ١١٥

263. «عندما مات فيكتور في مصر، كان ذلك خسارة كبيرة بالنسبة لي. ولم أجد اتحدث مع الأتراك بالاهتمام نفسه. وقد قال لي الصايغ «إننا لم نجد تفهمك. مع فيكتور كان كل ما نقوله يثير الخيال ويملأنا. والآن ما زلنا نفهم، لكن الأمر لم يعد كما كان عليه»؛ ولم يكن بالإمكان بعد تقريباً إجراء مناقشات من القرن»

Description dans *l'Histoire Scientifique*, VI, pp. 4 - 7. - ١١٦

JABARTI, 10 Muharram 1214. - ١١٧

Détails de toutes ces mesures dans LA JONQUIÈRE, V, pp. 191 - ١١٨
- 226.

LA JONQUIÈRE, V, pp. 230 - 232. - ١١٩

١٢٠ - الجبرتي، ٢٤ محرم ١٢١٤؛ CUOQ, pp. 165 - 166 ذلك هو النص العربي الذي قدمه كاتب الوثائق المصري. أما النص الفرنسي فهو يبرز اختلافات. بالنسبة للجملة الأخيرة «يترتب من ثم على اليونان وشعب مصر أن يريا في هذا المسلك برفاهة جد خاص على الخيام التي أكتنوا في قلبى إسماعيلهم ولاذبحارهم» وإذا كان النيل هو النهر الأول في الشرق، فإن شعب مصر، في ظل حكمي، يجب أن يكون أول الخصوبة. ٩ موسينود من العلم الصايغ (٢٧ يونيو ١٧٩٨).

JABARTI, 3 safar 1214. - ١٢١

LA JONQUIÈRE, V, pp. 236 - 237. - ١٢٢

JABARTI, 6 safar 1214. - ١٢٣

Histoire Scientifique, VI, pp. 169 - 170. - ١٢٤

Courrier de l'Égypte, 3 thermidor an VII (21 juillet 1799). - ١٢٥

LA JONQUIÈRE, V, pp. 246 - 251. - ١٢٦

LA JONQUIÈRE, V, pp. 240 - 243 et Jean Edouard GOBY, - ١٢٧

Premier Institut d'Égypte..., pp. 45 - 48. وقع الحادث في ٤ يوليو ١٧٩٩ وسوف يطلب نييجينيت أن يعود إلى فرنسا وهو طلب لن يجلب إليه. وسوف تتشاك هذه المسألة مع مسألة المصابين بالطاعون في يافا. والحال أن الكاتب الإنجليزي ويلسون هو أول من تحدث عن هذه المسألة في عام ١٨٠٢. وسوف يلهم نييجينيت الرواية التي ظهرت في كتاب *Victoires*.

conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français. والذي ظهر في الأشهر الأخيرة من وجود بونابرت، وهو ما سوف يستقبح هذا التعليق في يوميات برتران، « مارس ١٨٢١ (III, PP. 90 - 91) » «قرأ الإمبراطور الجزء الخاص بعمليات مصر (في) *Victoires et Conquêtes* » إنها [الحملات] لا تروى بشكل سيء... [...]. إن الشهيد الوحيد الذي منعتني هو أن أجد على لسان نيهيڤيت أنه قد دخل في شجار معي، خلال إحدى جلسات المعهد، بدعوى أنني أريد منه أن يعلن أنه «الولا الطاعون»، لما انتسب الجنرال من سوريا؛ وأدنى بعد ذلك لم أظفر له [شجاره]؛ وأنه، نيهيڤيت، مدعوماً من الجيش، قد أحتد على بالكلام، بالرغم من وجود جنديين أمامي، إلخ. وأنه لمن الزيف أن يقال أنني قد وضعت جنديين في أي وقت من الأوقات أمام مقعدي وأن مثل هذه المناقشة قد حدثت؛ إن هذا واضح للعيان، وخلال الجلاء من مصر، يبدو أن نيهيڤيت قال لويلسون إنه قد عانت في المعهد جلسة سرية وأنها قد تناولت تسميم الجرحى في يافا. وعندما رأيت ذلك الكلام في رواية ويلسون، في باريس، كان من اللطيف أن أعزل نيهيڤيت فوراً. وكنت أريد أن أعمل ذلك، لكنني، بوصفي رجلاً طيب القلب، كما هي صانتي، والتقت على استخدامه كرئيس لأطباء الجيش. وربما تحت إلحاح من محرر العمل بأن يخرج ما نرى في جلسة المعهد تلك التي تحدث عنها إلى ويلسون، قدم هذه الرواية القوية تماماً عن استقصاء ما حدث في يافا.

«والحقيقة أن للمشاجرة مع نيهيڤيت كانت الثقيلة» لقد قال نيهيڤيت لأدري إن الجلاء ليس هو الطاعون؛ وأن الإمبراطور لم يزد ولم يمس «المصابين بالطاعون» في يافا إلا لأنه كان يعتقد أن الجلاء ليس هو الطاعون؛ وأنه لدى هومة الجنرال، قال له بورتوليه إنه لم يكن حذراً بالمرة؛ وأنه لم تكن هناك ضرورة لأن يخطر بحياته على هذا النحو ولا لأن يعرض نفسه لضعفه لتترك الجيش دون قائد، وذلك دون مبرر، دون فوائد فعلية. وقد أجاب ثيولونيون بأن الرواء ليس وباء الطاعون، وبأن نيهيڤيت قد أكد له ذلك. وقد أكد بورتوليه العكس؛ وأنه لا شك هناك بالمرة في أن نيهيڤيت قد عرض له خطأ جد عظيم وجد خطيراً؛ وأن يوسعه أن يسأل أدري. وقد أمر ثيولونيون باستدعاء أدري الذي رأى أن الرواء هو في الواقع وباء الطاعون؛ ثم أمر باستدعاء نيهيڤيت. وجرت مناقشة جد حامية، وكانت المناقشة بين نيهيڤيت وبورتوليه، وليس مع الإمبراطور. وكان نيهيڤيت غيوراً من بورتوليه، الذي كان طبيباً والذي كان يتناول المعشاء، هو ومونيخ، مع الإمبراطور، الأمر الذي كثيراً ما أثار غضب نيهيڤيت الذي لم يكن يتناول المعشاء هناك.

«إن كل الرواية عن جلسة المعهد زائفة وهناك شهود على قيد الحياة. أنني لم أؤخذ معي قط جنوداً إلى المعهد، هذا غير صحيح. وأنا أعتقد أنه لم يجر قط تسميم أحد في يافا. وعندما رحلنا، كان جميع المصابين بالطاعون قد ماتوا».

١٢٨ - Le 10 messidor an VII, *Correspondance...*, V, p. 623.

١٢٩ - في ٣٠ يونيو ١٧٩٩، توجه غناه إلى سكان الجزيرة، بدعوى أنه إلى الإلمان مع اقتراح التوسط لأجلهم، FO 78 23.

١٣٠ - بهانس في المخطوط، إلا أن من المؤكد أن المقصود هو الشيخ بهانس ضامر، الذي انضم إلى سيدني سميت بدلاً من أن يتبع الفرنسيين كبعض أنصاره.

١٢١ - FO 78 24 ، تسلسل الرسالة المذكورة تحت شكل آخر بعد ذلك ، مثلما أصرتم وطلبتم تملأ ، فقد جرى توجيه رسائل مختلفة من جانبنا إلى قادة الدروز للذكوريين وإلى آخرين من اللاتميين إليهم ، حيث وجهنا رسالة إلى كل واحد منهم على حدة ، قبلناهم من خلالها أنكم قد بهتتم أنه إذا كان أي أحد منهم قد قصّر تجاه الباب العالي ، فإن ذلك إنما يرجع إلى أن الفرنسيين قد أجبروه على ذلك ، وإلهم سوف يبدون من الآن فصلاً خطوهم وولاءهم للشيعة والأوامر الباب العالي ، وأنكم قد طلبتم العفو عنهم واستخدامهم في شدة ومصر وأنه نتيجة لما ذكرتموه ، فإننا توجه إليهم للرسائل المذكورة لكي تؤكد لهم على حسن معاملتنا وعلى ترحيبنا بهم وكذلك لكي نطمئنه ونحللهم إلى القتال.

Le 3 thermidor an VII (21 juillet 1799), *Correspondance...*, V, - ١٢٢
pp. 624 - 625; texte arabe dans JABARTI, 16 safar 1214.

١٢٣ - الجبرتي، ١٦ صفر ١٢١٤ إن نوحا، وقد أصبح قائداً للقاهرة، يخدع في رسالته على سكية للشيعة. (LA JONQUIÈRE, V, pp. 387 - 394)

١٢٤ - *L'Histoire Scientifique...*, VI, p. 229. يخيف مرسيل هناك نظاماً من صديق : «لها بعد حاز الشيخ المهدي تقديراً أفضل» وقد أدى مسلكه في عدد من الظروف الصعبة إلى تهديد كل نوع من الشك فيها يتعلق بارتباطه للخلاص بفرنسا. وكانت حرب مصالبات النيران ضد المتعاونين قد بدأت قبل ذلك بعدة أسابيع، انظر على مذهب القتال رسالة نوحا إلى بونابارت بتاريخ ١٩ سبتمبر من العام السابق (٧ يوليو ١٧٩٨) : «إن أعضاء النيران يرتبون كل يوم عملاً ما ضد سلطة الأتباع. والحال أن المعنويين الأنشط في هذا التحرك هما البكري والمهدي. ويختتم نوحا رسالته بما يلي : «لقد دعوت أعضاء النيران بالفعل إلى الانسحاب على ممارسة وظائفهم، وأرجوكم، أيها الجنرال، أن تفسر أمر إليهم بذلك وإلا فإن الأتباع يرتجون أهدأ» (B 6 110)

JABARTI, 9 rabi al awwal 1214. - ١٢٥

١٢٦ - B 6 28 ، النيران إلى نوحا (٢٣ تيرميدور - ١٠ أغسطس ١٧٩٩) : «طلبنا رسالتكم التي تبلغنا بخبر الاستيلاء على حصن أبو قير والملاهيقات التي أحاطت به. لقد أدى هذا الخبر إلى عظيم فرح النيران [...] . وقد ترجمنا رسالتكم إلى العربية وهي موجودة في المطبعة منذ البارحة. وبمجرد حصولنا عليها، سوف ننقلها إليكم. وإذا ما وصلكم رسالة ما من القائد العلم، فإننا نرجوكم أن تقوموا بإرسالها إلينا على الفور حتى نكون فرحنا قداماً بالولوف على نجاحه وحتى نجد عزاء من غيابه. حفظكم الله» [أمنا ترجمة النسخ من الفرنسية لتعذر الوصول إلى الأصل العربي. - المترجم].

١٢٧ - *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français de 1792 à 1815*, Paris, 1818, XI, pp. 21 - 22. L'auteur de la partie concernant l'expédition d'Égypte est un ancien officier de l'armée d'Orient.

Napoléon fera lui - même l'analogie pendant cette bataille; - ١٢٨

général comte DE SÉGUR : *Histoire et mémoires*, Paris, 1873, II, p. 474 :
 "En un instant nous vîmes ce miroir, blanchi par les frimas, se noircir de la
 multitude éparse de fuyards aventurés sur ce dangereux appui, que brisaient
 sous leurs pas nos boulets impitoyables. A cet aspect, l'Empereur, resté sur
 les hauteurs, s'écria : C'est Aboukir!"

Vivant DENON, p. 220.

- ١٢٩

Sidney Smith à Nelson, le 2 août 17799 et causes de la défaite - ١٤٠

d'Aboukir (sans date), BARROW, I, pp. 364 - 369.
 العثمانية تصل إلى ثلاثة اشغال تنهيات سيدنى سميت. وكما يشير هذا الأخير في رسالة أخرى
 إلى نيلسون، فإن العثمانيين لم يكونوا يعرفون صدم الحلفاء : «لم يكن الأتراك يعرفون أي
 شيء عن أهدافهم، وكانوا يتألمون كل المحاولات الرامية إلى التنتظيم، الذي قد يؤدي إلى الامتثال
 للانضباط» (BARROW, I, p. 379)

١٤١ - يقدم كتاب «التاريخ العلمي» هذه الرواية من النقاء : إن الإنجليزى اقد تطول مع
 الجنرال موزمور للفتوحات المباشرة واسهب في التحدث إليه عن الخطر الذي تواجهه فرنسا،
 وخيبات الكهرباء التي منيت بها للتو، والمستقبل الخطر الذي يحلق بها، ثم اتجه إلى الحديث عن
 استعمار مصر وعن قلة أهميته بالنسبة للجمهورية الفرنسية في الأزمنة الراضة : «وأخيراً، وعلى
 سبيل تلخيص كل شيء، انتهى إلى دعوة الجنرال إلى التخلي من فتحة حتى يتمكن من الذهاب
 لاسترداد إيطاليا من الروس. وقد تنظمر بونهارت بالانزعاج : «لكننى بطلب إرجاء للمفاوضات إلى
 حين هويت من رحلة سوف يقوم بها في مصر العليا» (VI, P. 264). ولابد من الإشارة إلى
 أننا نجد بين مصريى الكتاب تروملان الذي كان، تحت اسم بروملى، أحد المقربين من سيدنى
 سميت. وقد شارك في الإنزال في أبو الهول وورد اسمه في النص قبل ذلك بقليل.

١٤٢ - خلا عن Georges DOUIN, "Le retour de Bonaparte d'Égypte en

France", *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, XXIII 1941, pp. 184 - 216.
 للمقال، غير المشهور، يعتبر أساسياً لفهم هذا الحدث منذ الجدل. وقد تمكن دوان، عبر تعليقات
 مختلة، من استنتاج أن جون كيث قد أبلغ بونهارت بأن حكومة الإدارة قد استلمته رسمياً، بل
 والعكس أنه سوف يحصل على قيادة جيش إيطاليا. والواقع أن هذه الشائعة الأخيرة قد راجت في
 الأوساط الدبلوماسية الأوروبية وكان بالإمكان من الناحية المادية لطلاع سيدنى سميت عليها.

Histoire Scientifique, VI, pp. 273 - 275.

- ١٤٣

Correspondance..., V, pp. 723 - 726.

- ١٤٤

١٤٥ - BERTRAND, I, pp. 96 - 97. الأوجه أنهم كانوا أقل من ذلك إلى حد ما. وفي

التو والحال، فإن بوسمهم لقاء خدمة في حالة صدام مع سفن إنجليزية.

١١٦ - Ensemble des textes dans LA JONQUIÈRE, V, pp. 593 - 606. إن استخدام التلويح الجريجوري غريب (شهر مايو) • ويبدو أن ذلك يشير بوضوح إلى أن التلويح الثوري، حتى في حالة بونابارت، لم يكن قد أصبح الإيقاع الحقيقي للزمن.

١١٧ - *Histoire Scientifique...*, VI, pp. 292 - 293.

١١٨ - سيختي سميت إلى خيلسون، ٨ نوفمبر ١٧٩٩ ، ولقد اقلت الهارب بالعبودية من اليهوس ومن وحدة الأسطول التركي التي كانت مرابطة غربي الإسكندرية، تحسباً لرحيله، بهدف اعتراض سبيله، والأهم من ذلك بكثير، بهدف الحيلولة دون وصول إمدادات من فرنسا إلى مصر، ومن سوء الحظ بالنسبة للهدف الأول، أن اليهوس قد تأخرت لأيام قليلة في بحثها عن اللؤلؤ، وذلك من جراء هناك الرأى التركي في بلقا في حجه إمدادات كان هناك وعد بالحصول عليها. وقد جرى اختبار الهارب العالي بمسلكه وسواء يتم التحقيق فيه على النحو المتاسبه (BARROW, I, p. 380).

١١٩ - Georges Douin, dont je suis ici l'exposé, a dépouillé tous les journaux de bord des navires de guerre anglais présents en Méditerranée dans la période considérée.

١٢٠ - CHATEAUBRIAND, *Mémoires d'Outre - Tombe, III^e partie*, - *Vie de Napoléon, l'Expédition d'Égypte*.

الفصل السابع

كليبر

نقل التركة

سقط حوجا

يرجع كليبر إلى مياط بعد فشله في الاجتماع مع القائد العام، وبحسب تعبيره، فإن «المصنوع قد طر من العنق». وهو لا يعرف بعد أنه قد ميتة خلفا له. ويبلغه ميتة بذلك في ٢٤ أغسطس ويحصل بدوره على اعتماد قبيلته للبحيرة وللشاحل الغربي. وفي التو الحال، لا يعترض كليبر على رحيل بوناهاوت، إنه يعرف للجازقات التي يتطلبها اجتياز البحر للتوسط، لكنه يشعر بالصدمة تجاه الشكل السري للرحيل^(١).

ويسارع القائد الجديد إلى التوجه إلى القاهرة لتولى قيادة جيش حرم بضرية واحدة من جزء ملحوظ من قوته. وهو يصل إلى العاصمة في ٢١ أغسطس ١٧٩٩. وكان حوجا قد كفل النهاية المزعومة بكفالة للمهوية. لكن كليبر يجد فيه شخصا غامضا على بوناهاوت. القائد القاهرة لم يجر إبلاغه بقرار قائده ولم يصدق هذا القرار حتى اللحظة الأخيرة، بل وقام بتكذيبه في أمر يومي، مهددا كل من يروج لهذه الشائعة بمعاملة معاملة العصاة. إلا أن ما يجعله مبرورا ليس واقع أنه قد جرى الجزء به، حوجا يشعر أنه خضية لمتهان حقيقى للثقة من جانب شخص كان يكن له الاحترام^(٢). فهنا على طلب من بوناهاوت جاء هذا القائد العسكري الذى ياترب من الستين من العمر (ولد في عام ١٧٤٤) إلى مصر، مضحيا بمنصب جديد (كان قد انتخب لتوه نائباً) وتاركا أسرته. وهو غاضب لأن لم يك من الفريق الصغير من المهيزين الذين رحلوا مع بوناهاوت. وقد جرى تركه في القاهرة لأكثر من عشرة أيام، مع هيئة أركان تعرضت للفوضى من جراء رحيل بيرتبه ومع خدمات مالية مشلولة،

«لم تعد هناك هيئة أركان هامة، والتزود بالكساد متوقف، والأموال قاصرة، وآكن

الصرف ليست لديه موارد لتسيير خدماته. وربما لمكن لعدة أيام في وضع مماثل أن تلحق ضرراً لا يمكن إصلاحه... [...] ولنا لرفق هنا نسخة من المعلومات التي تلقيتها من سوريا. وعلى الرغم من أنها لا تشير إليه إلى خطر جد ملح، فإنها تسمح بتصوير حشد يمكن التعجيل بتحريك اعتماداً على الأمر الذي يمكن أن يحدث رحيل بوناهارت. [...] ولا يجب أن نعمل شيئاً حتى يتسنى لنا التصدي له على نحو جيد. إننا ننقصنا الأسلحة، وإن كان بوسعنا إنتاج شيء منها في الجزيرة، كما ننقصنا الجمال لنقل ذخائر المدفعية، وننقصنا القنابل وينقصنا أخيراً البارود، ما لم يجر على الفور تنشيط المنشأة للجزيرة بالفعل لإنتاج ذلك؛ والأوامر الضرورية لكل ذلك لا يمكن إصدارها إلا من جانب قائد عام (٢).

تولى كليبر لمنصبه

يرمز وقع تولى كليبر لمنصبه إلى حسن اختيار القنصل الأول. فقد تم تخليفه بالفعل على الرحيل تخليفاً واسعاً لدى الجنود بشعبية كليبر جد الضخمة ويمكن وصف انهيار المعنويات. وترى غالبية الجنود في رحيل بوناهارت اعترافاً باستحالة إقامة دائمة في مصر دون إرسال عون ملحوظ (٣). أما كليبر، الذي يعرف أن الجيش قد مل وجوده في مصر - لأنه هو نفسه ليس ببعيد من أن يرى، منذ تلك اللحظة، أن إطالة أمد الحملة لم يعد بوسعها أن تعود بشيء على الوطن - فإنه يتكلم في أمره اليومي الأول باللغة التي يطمح الجنود سماعها :

«أيها الجنود،

«إن نوافع قهري قد دفعت القائد العام بوناهارت إلى السفر إلى فرنسا.

«والحال أن الأخطار التي تمثلها ملاحقة تتم في فصل غير ملائم تقريباً، في بحر ضيق ومغطى بالأعداء، ما كان بوسعها أن تواف هزمه؛ فهو يسأل من أجل خيركم.

«أيها الجنود، إن عوناً قوياً سوف يصل إليكم؛ وإلا فإن صلحاً مجيداً، صلحاً يليق بكم وبأعمالكم، سوف يعينكم إلى وطنكم» (٤).

ومكذا، منذ اليوم الأول، يتصور القائد العام الجديد إمكانية العودة إلى فرنسا، وهو ما يعزز شعبيته. كما أنه يهتم بتأمين معاملة متساوية في دفع الرواتب. وهو يعلن وخبته في استقبال مندوبي الأعداء الذين يجيئون لعقد اتصالات لتبادل الأسرى مع إبداء

لارتياحه في الدوايا الإنشائية، إذا ما أخل أي مندوب بمهمته وأحدث في صفوف الجيش أو في البلد استعرازا غائرا ما للتكليف على الانضباط أو على التمرد، فسوف يعتبر منذ تلك اللحظة بلحاظ من تهديد عملاء أو زعماء لؤامرة، وسوف يخشى في الساحة على أول شجرة (٦).

والتكثير على للصوريين، يهدى القائد العلم أسلوب تصرف قائم على القوة والهيبة. وفي مناسبات خروجه على الملأ، يحيط نفسه باستعراض متفاخر صاخب، يهدف إلى التأثير على السكان. وفي مواجهة الديوان، يهجر الهذيان الإسلامي - الذبوي - القومي الذي تميز به سلفه ليعود بشكل متزن بالاهتمام بخير السكان (وهو مخلص في ذلك لكن مصلحة الجيش هي بالنسبة له أول الأولويات).

«أنتم أيها العلماء وأنتم الذين تستمعون إلي جميعكم،

إنني أود من خلال أعمالي الاستجابة لطلباتكم والتماساتكم، لكن الأصل بطيئة ويبدو أن الشعب جد تواق إلى معرفة للصير الذي ينتظره. حسنا قولوا له إن حكومة الجمهورية الفرنسية، بتكليف بحكم مصر الخاص، قد كلفتني على نحو خاص بالسير على رفاهية الشعب المصري، وهذه المهمة، من بين جميع مهام حياتي، هي الأهم على قلبي.

إن الشعب المصري يؤمن برفاهيته على يده خاصة؛ ومن ثم فإن العمل على احترامه هو أحد واجباتي الأساسية. وسوف أعمل ما هو أكثر من ذلك؛ إنني سوف أعمل على صون كرامته وسوف أسهم، قدر استطاعتي، في مزقه ومجده.

وبعد أخذ هذا التعهد على نفسي، فإنني لا أقيم اعتبارا يذكر للأشياء، إن أهل الخير سوف يرايونهم وسوف يطلعونني على تصرفاتهم. وبهذا يمكن للذين والخير أن تشمل الحماية، فإن الشرير لابد من أن يرتعد؛ إن السيف مسلط على رأسه.

«لقد كسب بوناپارت، سلفي، حقوق ولاء من جانب العلماء والمشايخ والكبراء من خلال التمسك بمسلك نزيه ومستقيم؛ وسوف أتمسك أيضا بهذا للمسلك، وسوف أسهر على خطاه وأحصل منكم على ما منحتموه له. فلترجعوا من ثم إلى بني شعبكم ولتوحدوهم حولكم ثم قولوا لهم: «اعلمتوا؛ إن حكم مصر قد انتقل إلى أيدي أخرى، لكن كل ما يمكن أن يتعلق بصالحاتكم ورفاهيتكم سوف يكون متصلا ومستمرا» (٧).

وهو يحاول التخريف وينجح في ذلك. والجبرتي يقول لك بوضوح، فالمشايخ لا

يحدثونه باسمنا ونظريتنا كيونتا هارت الذي نجح في إراحة جليستك الشرقيين (٨). ويؤكد بقولا
الترك: «هم لهم الاندماش من هيبتة والانظمال من صولتة. إذا كان هذا للمقدم أسدا برغام، ذا
قوام وامتنال، [...] له صورة ترمش للكهود وترعب الأسود. فنزلوا من أمامه وهم في
خشية من كلامه (٩)».

والحال أن عيد أول فيفيسيمير (٢٢ سبتمبر ١٧٩٩) التقليدي، وهو بداية العام
الثامن وتكري لتأسيس الجمهورية، إنما يوضح هذا التوجه للزواج لكليبر. ففي مواجهة
المهاجرين، يحشد كل صولة ممكنة. وأمام الكهود، يعلن اقتراب الربيع الأخير من السامة، «لقد
سائنتم الجمهورية، والمعلم منها ببساتنكم؛ وفي الشمال، وفي الجنوب، وفي الشرق وفي
الغرب، وسعتم حنوتنا، أما الأملاء، الذين راحوا بالفعل، في حمى الضرور، يخططون
للتقسيم مقاطعاتنا، فإنهم لم يكف يتاح لهم الوقت لكي يحصبوا، مرهوبين، الحدود التي
يمكن لكم التوقف عندها».

«لكن راياتكم، يارفاق السلاح الهواصل، مكللة بتكليل الفار، وما أكثر الأعمال التي
تحتاج إلى إنجاز، وما أكثر الأمجاد التي تتطلب تمكنا. لحظة مثابرة أخرى، وأنتم مستعدون
لبلوغ ذيل الإنجاز والجد؛ لحظة أخرى، وسوف تمنحون للعالم سلاما دائما، بعد أن
حاربتموه (١٠)».

حاشية كليبر

سرعان ما تشكل حول القائد العام الجديد حملة من الأسفقاء والشركاء للكلفين
بدراسة وضع الجيش. وهذا ضروري جداً بقدر ما أن كليبر، الذي خدم أساساً في الأقاليم
وسوريا، لا يعرف اللغات معرفة جيدة. وتتألف الحاشية من رجال ممتازين كنيجينييت،
للحبوب والمحترم من الكهود؛ والجنرال فلامس، القائد الجديد للأركان العامة، وهو
جمهوري متحمس، كان قد دخل الخدمة العسكرية في حرس لانييت الوطني في ١٢
يوليو ١٧٨٩ (ولد في عام ١٧٦٤)؛ وهيكتر نور، الشاب للمعجزة للإبلارة (أثن الصوف
العام للجيش وهو في الرابعة والعشرين من عمره) بالغ الزهو بمواهبه الحقيقية؛
وهوسيلج، المدير العام للشؤون المالية ودخل الحكومة الذي اضطر، شاكته في تلك شأن
نوجا، إلى الشكوى من عدم عرقان يونتا هارت بالجميل؛ وفورييه، عالم الرياضيات الذي
رأس المعهد (المجمع العلمي) والذي خدم لدى الديوان؛ ونوجا، المرتبط بكليبر باحترام
وبحب متباينين، وأخيراً تاليان، محل الريبة إلى حد ما بصحب ماضيه وميله إلى الدساتيس

الصلحية (إن هذا الرجل الذي كان يطمح في مسار حياة عملية ثان من خلال العمل مع بوناپارت، لا يمكنه الحفاظ ما يعتبره تخلياً من جانب حاميه الجديد).

ويتمتع كل هؤلاء الرجال بتواضعهم الكبير وكفاءتهم المعترف بها. وهم يمثلون النخلة ما أنجبت الثورة الفرنسية من رجال جدد مكلفين بأنهم المسؤوليات. إنهم جميعاً جمهوريون مخلصون، خيب أملهم بوناپارت. ولذا فإنهم يصعدون حكماً صارماً على المحصلة النهائية لعمل الفاتح.

ولابد من الإشارة إلى أن بوناپارت، قبل زمن الفصلية، قد تكشف عن إناري متوسط القدرات؛ فبالرغم من جهات الضرائب للمحافظة التي تمت في إيطاليا، كان دفع رواتب جيش إيطاليا لا يزال متأخراً في بداية حملة مصر، وقد استخدم الأموال التي دبرتها حكومة الإدارة في تصفية متأخرات الأشهر السابقة لسلسا. والحال أن مصر أقل ثراءً بما لا حد له من إيطاليا الشمالية، وقد أوقفت الحرب على الفور واحداً من أهم مصادر إيراداتها: تجارة الترانزيت بين قارات العالم القديم الثلاثة. والواقع أن بوناپارت، وهو يتحرك خطوة خطوة، ملتصقا بالحرب بسبب عدم العناية بالمنطق الضريبي العثماني، للعرض لمقاومة السكان الصليبية والتي تعد القوة الكبرى للمصريين في مواجهة الدولة، كان مضطراً إلى مواجهة المهمة للرفعة للتمثلة في تأمين احتياجات جيش، وإعادة تجهيزه بشكل يكاد يكون تاماً، مع إنشاء شبكة من التراجع الحصينة وإنشاء جهاز إدارة يحصل على رواتب ويحظر عليه تمويل نفسه تمويلًا مباشرًا من الملاكين. والنتيجة تدعو إلى الرثاء. إن بيرويس، الذي ترك منكرة ثمينة حول أموال الجيش للقبيلة^(١١)، يقدر بأقل من تسعة ملايين فرنك حجم الضرائب غير العادية التي يمكن لبوناپارت جبايتها في ملطة وفي مصر، ويقدر بما يزيد قليلاً من ثمانية ملايين فرنك الإيرادات العادية في عام ١٧١٢ للهجرة. ولابد من إضافة بعض الموارد التي لا تعرف حصيلتها كرسوم التسجيل، والعجز مثير لأن بوسيلج ونور ينفقان على التكبد لكليبر، في نهاية أشهر سبتمبر ١٧٩٩، على أنه يزيد عن عشرة ملايين من الفرنكات، تمثل متأخرات الرواتب بينها أكثر من أربعة ملايين من الفرنكات (وهكذا فهينما يجري الاقتراب من العام الثامن، تبقى رواتب شهور من العام السادس غير مدفوعة).

ومن الواضح أن عدم دفع الرواتب هو أحد المسائل الأساسية لضيق الجيش، ويعد كليبر على الفور خطة سداد تدريجي للمتأخرات، تعتبر متفائلة إلى حد ما. ويجب أولاً

الدجاج في سداد شبه منتظم للنفقات الجارية وإعطاء الأولوية لمواكب الجنود المحليين. خاصة السرية اليونانية (١٢). وتنشأ المصائب من الخراب الذي أحدثته الحرب. فالمعارك، وخاصة الجنود، يعمرون غالبية المراكب التي تنقل الحبوب على النيل، إذ يستولون عليها لاستخدامها كوقود للتدفئة. ومانض مصر العليا يتعذر نقله، في جانبه الأعظم، إلى مصر السفلى، والحال أن الإقليم الأول، خلافاً للإقليم الثاني، يقطع ممراته حيناً. وقد أسهمت العمليات العسكرية في اختلال شبكة الري الجماعية وهذا هو أحد الأبواب الأولى التي جرى التقدير في اعتماد الرصدة لها. وعلاوة على ذلك، فإن فيضان عام ١٧٩٩ يتكشف أنه أقل من المتوسط بكثير (١٣)، الأمر الذي يعني زراعة أراض أقل في السنة التالية. وبما أن بونابارت قد لعب على مسكوكات الهند، مضجعا سكة عملة منخفضة القيمة، الأمر الذي هاد عليه، في البداية، بإيرانات مكية ملحوظة، فإن مصر تشكو الآن من شح نقدي، حيث تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة. ويقدر بوسيلج إيرانات الأشهر التالية بما يتراوح بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف فرنك في مقابل مليون وثلاثمائة ألف فرنك للنفقات.

وهذه الخسارة للمال يمكن أن تكون قاتلة. إن للوردوين الأوروبيين والمصريين يكفون من بيع الأغذية التي يستهلكها الجيش بالخسارة. وسلاح الفرسان يعوزه الشعر والتبن وهجازف بهسامة تامة بالاختفاء. وأعمال التحصين، بما في ذلك أعمال تحصين المعيش، تتوقف من الناحية العملية من جراء عدم وجود أموال لنفع أجور العمال والتحصينات التي أنشئت في ظل بونابارت يتكشف أنها تهتز، ولا تقاوم هوجاء عام آثار فيضان النيل. والندمية تنتقل إلى البارود. والجنود بلا لحذية وبناتهم ليست في حالة جيدة. أما البحرية فقد خسرت كل ما كان قابلاً للاستخدام فوراً مع عوامة بونابارت ويتوجب بذل نفقات ملحوظة للاحتج بسفن مستعدة للخدمة. ويصيب غهاب الأموال، تهازف للمستشفيات بالتوقف عن العمل. والمهاجر الصحية في حالة يرثى لها، الأمر الذي يجعل تدهور الحجر الصحي جد عذبة. والمسؤولون الصحيون يدعون أن الوسيلة الوحيدة للنضال، في حالة ظهور وباء الطاعون، هي إتصاف الجيش قوماً من المنطقة للوبوء.

استهانة زمام الأمور

وخلال كل شهر سبتمبر ١٧٩٩، لا يتوقف الوضع المالي للريخ للجيش عن مطاوعة كليبر. فمن كل حطب وحبوب، تجرى مطالبته بأموال لأسباب وجيهة، حيوية غالباً بالنسبة

للمستقبل. وعلى القود، يتخذ إعلان تنظيم إدارية، موجهة إلى إحلال التمسك محل الفوضى التي تركها بونابارت. وترمز الأوامر اليومية الصادرة في ٢٨ فبروكتيدور من العام السابع (١٤ سبتمبر ١٧٩٩) إلى بداية الإصلاح: إن مصر يجرى تقسيمها إلى ثمانى دوائر. وفي كل دائرة، يوجد وكيل فرنسى وأمين قبطى ولأول مرة، صراف، يشرف على جميع جبايات الضرائب ويحول على القود جميع الأموال للجهة إلى الصراف العام في القاهرة، والهدف المنشود هو القضاء على كل معسويات محلية:

«إن أى أمين قبطى أو وكيل فرنسى يتبين أنه قد قام ببيع، ولو كان لا يزيد عن خمسة فرنكات، دون إذن من الصراف العام، أو يتبين أنه قد احتفظ عنده بأموال تزيد عن أربع وعشرين سلعة، سوف يجرى عزله وسوف يدفع غرامة قدرها ثلاثة آلاف قار (١٤)».

وسوف يجرى إعداد دفتر القربى والضرائب وإمساكه بصورة منتظمة على نحو تلجئ سعيًا إلى التمكن من الوقوف بشكل دقيق على موارد البلاد (١٥). وبما يشكل قرارا له آثار أكثر أهمية، فإنه يلغى الالتزامات الأخيرة، «لا يجوز تأجير أية قرية على شكل التزام بالنسبة لعام ١٧٩٤» وجميع حجج التجير التي يمكن أن تكون قد صدرت بالفعل في هذا الصدد تعتبر باطلة ولاغية. [...] وسوف يسهر قادة الدوائر بشكل خاص على تنفيذ (هذه الأوامر) ويأمرون بإلقاء القبض على ومعالجة كل لوثك الذين يحاولون - بصفة ملتزمين - جباية ضرائب ما، في كل أرجاء دائرتهم (١٦).

وقبل تنشيط إعلان تنظيم أعمق بكثير للإدارة المصرية، يقرر كليبر إجراء استقصاء منهجى بشأن جميع فروع إدارة الجيش ومصر من زاوية الإيرادات والنفقات، لكننت عينية لم تلبى. وعلى لجنة هذا الاستقصاء، للوزارة من سبعة من كبار مديري الجيش، إجراء مراجعة لمجمل العمليات المالية منذ مغادرة طرابلس. وسوف يجرى نشر نتائج هذا الاستقصاء بمجرد إنجازه (١٧).

وسعيًا إلى جعل إدارة الشؤون المالية أكثر كفاءة، ومعارضة الفساد الدائم في جهاز الموظفين هذا، يجرى كليبر مركزة للقرارات لحساب القاهرة. ويجرى اختزال سلطات الجنرالات قادة الألاليهم، وخاصة في مصر العليا. ويحتج مينو على هذا التجريد، لكنه يفضل البقاء في وشيد، بدلا من الذهاب إلى الإسكندرية، للواقع العسكرى الرئيسى لدائرتهم. ومرة أخرى، يبرز كل ما يتميز به من انعدام للدينامية لكي لا يفلت لأوامر القائد

العام الواضحة. وفي مصر العليا، يتعزز الحد من سلطات فيزيه بالترقية (المشروعة) للريان إلى رتبة قائد فرقة، مع تولي قيادة مصر الوسطى (أقاليم المنيا وبني سويف والقويس) (١٨). ويشكل ذلك الخطوة الأولى نحو عودة فيزيه إلى القاهرة، ففي أواخر سبتمبر، يستدعيه كليبر لتولي قيادة فرقة في شرق الدلتا لمواجهة جيش الصدر الأعظم الذي يقترب من مصر. وفي ١٧ أكتوبر، يصل فيزيه إلى القاهرة، كسفا لعدم نجاحه في القضاء على خصمه الكبير مراد بك الذي يكن له احتراماً كبيراً. ومرة أخرى، في أواخر سبتمبر ١٧٩٩، تنجح القوات الفرنسية في استرجاع مراد بك لرب القويس بفضل استخدام فرج ولكبي الجمال. ويشن المماليك هجوماً ويحشدون ثلاث مرات بالمربع الفرنسي الذي يقوده الجنرال المساعد بوليه. وفي ٢٢ أكتوبر، يهرب مراد بك الذيل لينفل إلى الصحراء العربية. ويتظاهر بالاتجاه إلى السويس، ثم يتحول صوب مصر العليا، موزعاً في سيره بيانات الصدر الأعظم وقرمانات الباب العالي التي تحض السكان على التمرد، دون أن يحرز نجاحاً كبيراً مع ذلك (١٩).

الضغط على كليبر

بالرغم من جميع هذه التعابير، والتي تتطلب وقتاً لكي تترى نتائج إيجابية، يبأس كليبر من مستقبل الفرنسيين في مصر. وفي تلك اللحظة يتعاضد ضغطه على بوناپارت الذي يعتبره معزولاً عن هذه الورطة الراهية، ويتضاعف كل شيء بانزعاجه على مصير فرنسا، فهو لم يلق أنباء من أوروبا منذ تلك الأنباء التي أبلغه بها بوناپارت لتحرير رحيله. وعندئذ فإن استمرار الحملة يبدو له شيئاً عبثياً. فالفرنسيون، بسبب عدم وصول تعزيزات، لا يملكون إمكانيات للبقاء، كما أن الوطن في خطر. ومن ثم فإنه يجب التفكير في جلاء مشرف يسمح بعودة جيش من الخاضعين إلى ساحات المعارك الأوروبية. وكما أن بوناپارت قد بدأ بنية حكومة الإدارة في استبدائه، فإن كليبر، في الظروف نفسها، يرى وهو على حق أن الحكومة تود عودة الجيش.

وسوف يندفع عن هذه القضية في سلسلة يأكملها من الرسائل التي يأمر بإرسالها إلى فرنسا في أوائل فيفريير من العام الثامن (الأيام العشرة الأخيرة من سبتمبر ١٧٩٩). ورسائله للرجة إلى حكومة الإدارة، والتي سوف يخلق عليها بوناپارت في سانت هيلين، ليست غير مرتبطة اتهام طويلة لسلفه (٢٠)، لقد انخفض الجيش الفرنسي إلى

نصف لوت الأصلية؛ وهو عار ومتهك وضحية للأمرأش؛ ولابد من توقع هجوم مشترك من جانب العثمانيين والروس والإنجليز، كما أن للماليك لم يقض عليهم؛ ومن شأن بدء مفاوضات مع العثمانيين أن يسمع، في أسوأ الأحوال، بكسب وقت، و. في لحسن الأحوال، بالتوصل إلى تأمين بقاء الفرنسيين إلى حين عقد الصلح العام، مع الاعتراف بسيادة الباب العالي وبلغ الخزينة السنوية (وهو وضع جد مماثل في نهاية الأمر للوضع الذي سوف تعرفه مصر من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩١٤).

ويرفق كليبر بهذه الرسالة رسالة من بوسيلج تصف حالة الشؤون المالية في مصر بما يبرز استحالة الأمل في موارد إضافية، ورسالة أخرى، من صراف الجيش استيف، تكشف شبه الإفلاس المالي لجيش الشرق. وسوف يكتب تاليان بعد ذلك بوقت قصير، إلى باراً مباشرة، في الاتجاه نفسه.

وهذه الرسائل، بالرغم من أنها قد كتبت في فينديمير، لا تخرج من الإسكندرية إلا في ١٣ برومير من العام الثامن (٤ نوفمبر ١٧٩٩). ويجري اعتراض سبيل السفينة قرب طولون من جانب الإنجليز ويحرم حامل البريد الرسائل إلى الماء بعد قيامه بوضعها في صندوق منديل مربوط بقنبلة. لكن القنبلة تمزق نصيب المنديل، وتطفو الرسائل على وجه الماء. ويمنعها ينتشلها الإنجليز الذين يدون فيها تأكيداً لرايهم، إن جيش الشرق هو من أضعف الجيوش. ويسارع البريطانيون إلى نشر هذه الرسائل لكي يوضحوا لأوروبا والفرنسا الحالة التي ترك فيها بوناپارت جيشه (٢١).

لكن سيدني سميت يجد بالفعل متعة في أن يرسل إلى كليبر صحتاً إيطالية تورد الهجمات، التي ثارت في المجالس، على سياسة حكومة الإنارة بوجه عام، وعلى حملة مصر، بوجه خاص. ويكتب كليبر الهلع تجاه تعارض القناعات السياسية وينشر في صحيفة لوكونرييه دوليهيهت الجانب الرئيسي من المناقشات. وهو يريد بذلك إضعاف موقف أنصار بقاء الفرنسيين في مصر. ومن ثم يمكن للجندوة قراءة التصريحات النارية التي ينقل بها النائب ريل في مجلس الخمسمائة،

أيها المواطنين النواب، مما لا جدال فيه أن انتهاك الأراضي العثمانية، الذي تم من خلال حملة مصر، هو المصدر الرئيسي للمصائب التي يواجهها الوطن، فهو الذي جر الأتراك إلى الانضمام إلى الائتلاف الجديد وأتاح للعثمانيين والروس، الذين تخلصوا من كل انزعاج تجاه تلك الدولة، أن يرسلوا من ثم ضمتنا قوات أكثر تفوقاً، وما يزال بوسعهم

أن يرسلوا قوات حتى أغرق رجل. إن حملة مصر، التي جرى الاضطلاع بها برغم أنف
البحر والتمثيل القوي، هي من ثم للمؤامرة الأكثر واقعية والأكثر خطورة التي ما تزال
قائمة ضد الأمن الداخلي والخارجي للجمهورية. [...] ألا ترى في الواقع هنا نظاماً جلياً
مع الائتلاف ومشروع تسليح كل الأرض ضدنا. ولكن هل تريدون تهديد هذه المؤامرة
[...] هل تريدون دفع الروس إلى العودة إلى بلادهم؟ لعقدوا الصلح مع الأتراك [...] .
وضحوا لهم أن الأمة الفرنسية لا تقبل العنف الذي ارتكب ضدكم... .

وينشر العهد نفسه بيان الجهاز التشريعي إلى الشعب الفرنسي والذي يدعو إلى
النضال ضد الغزو الروسي للتراب الوطني (٢٢).

ويعمل سبديني سميت على نشر بياناته للقوضة للروح المعنوية على أيدي المالكين
أنفسهم الذين يوجهون رسائل مكتوبة بالفرنسية إلى المحتلين، واعدن إياهم بالعودة إلى
فرنسا إذا ما استسلموا أمام الجيش العثماني الذي يماثل في العدد عدد حبات رمل
البحر. ويتصنع الجنرالات احتقار هذه المناورات التي يعزونها محقين إلى العميد
البحري (٢٣).

الإزالة لهذا الطبيب

في الساحل الشرقي للبلقاء، حل محل كليبر فيرديه، الذي يفوز هناك برتبة قائد
فرقة. وهو يتولى المهمة الصعبة التي تتمثل في تأمين المواصلات مع حصن قطية
والعريش (٢٤). وسعيًا إلى ذلك، يستخدم للساعي الحميدة لحسن طوير الذي يسمى الآن
إلى تقديم نفسه في صورة الصديق الأمين للفرنسيين؛ وهو يشكل لهم شبكة لاستخبارات
لجمع المعلومات عن سوريا ويبلغهم بالرسائل التي يتلقاها من العثمانيين (٢٥). ويواصل
هؤلاء الأخيرون الارتباب فيه (٢٦). ومع ظهور العناصر الأولى للجيش العثماني الكبير في
فلسطين، فإن شرق البلقاء يصبح منطقة ذات أهمية حاسمة.

وكان سبديني سميت قد اختار، بالرغم من عدم ملائمة الموسم، تنظيم إنزال عثماني
قرب نهر دمياط في أواخر أكتوبر ١٧٩٩ (٢٧). ومعه هو مواصلة الضغط على الجيش
الفرنسي بملحه إلى إترك أنه من شرط الانتصارات لن يكتب له الوجود، وأن الجلاء
الفضل (٢٨).

ويود فيرندييه بصورة على التهديد العثماني، وفي أول أكتوبر، على رأس قوة قوامها ألف رجل، يهزم هجوماً بالحرايب على الإنكشارية. وينتهي هذا الهجوم للتهور الاتحادي بانتصار رائع، ويجري إلقاء العثمانيين في البحر بخسائر جد جسيمة.

لكن الانتصار - بما يشكل علامة على تلك الزمن - يتلوه على الفور عصيان إحدى الوحدات التي شاركت في المعركة، فهي تطالب برفع متأخرات وواتب عدة أشهر. وينقل فيرندييه للمطالب، لكن كليبر لا يبدى مرونة. فسعى إلى تقديم عبرة، يحل شبه اللواء (بما يشكل إجراءً متطرفاً، لأن الوحدات تعتز اعتزازاً جدياً بالغ بوحدةها)، ويأمر بمحاكمة قادة التمرد عن طريق مجلس عسكري. وسوف يعاد تشكيل شبه اللواء بعد تلك بولت قصير، بعد عملية تطهير. وبالنسبة لكليبر، فإن التحذير واضح: إن الجنود قد نلد صبرهم والجيش على حالة التمرد القلم، ولم يتم احتواء التمرد الآن إلا بسبب الحب العميق الذي يكنه الجنود له.

* وسطى مصر

إذا كان كليبر قد توصل بصورة بالغة إلى إدراك أن الحملة قد منيت بالفشل، فإن بطل عميق التمسك بمكسيها الأكثر بولما، العمل العلمي، وشك في ذلك شأن بيزيه ودينبيه، فإن يحب صحة العلماء وهو لا يرجع لحياته في القائمة الأولى لأعضاء المعهد (للمجمع العلمي) إلا إلى رفض بوناپارت لإشراك قلعة الفرق (٢٩). ويجري إصلاح هذا الفخل في ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ عندما يصبح كليبر وبيزيه ودينبيه أعضاء في المعهد.

ويتواصل اكتشاف مصر. وبعد حودة فيلقان دينون من مصر العليا، فإن لجنة من العلماء، يرأسها فيرندييه وكوستاز، تحمل محله للاضطلاح بعمل مذهبي أكثر، صار ممكناً بفضل للتهنية التي قام بها بيزيه. ويرجع الجانب الرئيسي من الاكتشاف الأركيولوجية إلى صيف وخريف ١٧٩٩. والحال أن كليبر، قبل تعيينه قائداً عاماً، كان قد وصل به الأمر إلى حد التفكير في المشاركة في هذه الأعمال (٣٠).

وعشية معركة أبو قير البحرية، فإن القائد بوشارة المكلف بإجراء تحصينات في رشيد، يكتشف حجراً يحمل نقشا ثلاثي اللغات، من بينها الهيروغليفية والحروف اليونانية. ولد إبداع العلماء على الفور أهمية هذا الحجر الذي عثر عليه في رشيد. ويخطو

ريج ومارسيل خطوة كبرى أولى في لك لغز الحجر بتوضيحهما أن الكتابة الثالثة التي يشار إليها على أنها «غير معروفة»، هي المصرية القديمة المكتوبة بحروف عالية صريحة (٣١).

ويهتم لورديه بالشباب إبراهيم الصباح، حفيد الوزير السابق لضاهر العمر، والذي يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً. وكان كافاريللي قد تعلق به وبدأ في تعليمه اللغة الفرنسية والجغرافيا والرسم. وهو يعمل كأمين مكتبة مسؤول عن الكتب العربية وكرجمان للعلماء. وكان لورديه ومونج وبيرتوللي قد فكروا في إرساله إلى فرنسا حتى يستكمل تعليمه. وسوف يوافق كليبر على التصريح له بذلك (٣٢). والواقع أن الشاب سوف يلحق بالجهش في فرنسا وسوف يكتب بالعربية تاريخاً لضاهر العمر (٣٣). ومن المرجح أنه الشاب الشرقي الوحيد الذي تلقى تعليمًا أوروبيًا خلال حملة مصر. ولابد من الإشارة إلى أنه كان أيضاً كاثوليكيًا يونانيًا.

ويتمثل أول تجديد كبير من جانب كليبر في إضافة لجنة جديدة مكلفة بدراسة مصر الحديثة إلى اللجان التي تدرس مصر القديمة. وهذه اللجنة، التي تتكون في ١٩ نوفمبر ١٧٩٩، تتلف، بين آخرين، من نيجينيت ولورديه وتاليان وروزيتي ودوجا. ووجود جميع هؤلاء اللغزيين إلى كليبر إنما يوضح تماماً الأهمية التي يوليها لها. إن جميع جوانب مصر الإسلامية وأردة في البرنامج، التشريع، الأعراف المدنية والدينية، الإدارة، الشرطة، الحكم والتاريخ، الحالة العسكرية، التجارة والصناعة، الزراعة، التاريخ الطبيعي للسكان، الآثار، النقوش والأزياء، الجغرافيا والهيدروليكا (٣٤). وهذه اللجنة يتم عن اهتمام تطيق من جانب كليبر بالمؤرخين. إن عليها «إعلاء الأجيال القادمة من البحث، تحت إطلال القرون ولي بحر التخمينات، مما كانت عليه مصر في الزمن الذي انتقل فيه الفرنسيون من الملكية إلى الحكم الجمهوري» (٣٥).

ولا يسمح كليبر لنفسه بأن تستولي مصر القديمة على جماع فكره : فهو يفكر في مشروع عمل علمي ضخم يتناول أيضاً كافة الجوانب الأخرى لمصر، وسوف يشكل للعلماء فريقاً تعارضياً. أما التاجر هاملان الذي كان كليبر قد استدعاه من مصر العليا - كان بونابارت قد سمح له بشراء الخرائب العينية في مقابل دفع نقود مباشرة لخزائن الجيوش - فإنه يتعهد بتقديم الأموال الضرورية للطبع والنشر (٣٦). ويتم اتخاذ القرار التأسيسي في ٢٢ نوفمبر ١٧٩٩، ويمكن اعتبار أن الأساس هو بالفعل لب هذا الأثر

الأبى الجدير بالاسم الفرنسي، وصف مصر (٣٧). ويوسعه أن يكتب بالتخار في ٨ يناير ١٨٠٠ إلى حكومة الإنارة.

والقد جرى إصطاه اهتمام خاص لوصف مصر القديمة. والبال أن الخرائط الطوبوغرافية والرسوم التصويرية والخرائط ورسوم العمارة سوف توضح هذه الآثار لأوروبا؛ وترتبط بذلك بحوث جد مسهبة عن التاريخ وعلم الفلك والفنون ومائت المصريين القدماء. وقد طلبت جمع كل أجزاء هذا العمل الأخير للتميز بطبيعة الحال من الملاحظات الخاصة بمصر الحديثة. إن رجال الأنثى والفنانيين الذين يملكون هذه المجموعة مستعدون لأن يجعلوا عملهم متاحاً للجميع تحت إشراف الحكومة. وهم يجدون، في الاتحاد الذي شكلوه، إمكانات التكفل بنفقات النشر. وهذا المشروع الأبى الذى سوف ترحب به كل حكومات أوروبا، سوف يكون محل تقدير أكبر بكثير في بلد تشجع فيه الحرية جميع الفنون. والكتاب الذين يؤلفون هذا العمل التجميعي إنما يتطلعون إلى شرف منح عملهم طابعاً قومياً، وهم معرضون مشروعهم عليكم بشكل محدد.

إن الأبحاث المتعلقة بالصالة الرفاعة والحديثة لبحر إنما تقسم موضوعاً مهماً للفلسفة والسياسة، اللغويين والمائات والتاريخ والحكم والصناعة والتجارة وإيرادات هذا البلد تستحق دراسة تشمل بها لا يمكن انتظارها من الرحلة الفرنسيين أو الأجانب الذين سيقودنا، وقد جمعت الأشخاص الذين يدوا لى أكثر ملائمة للتفلس في هذا العمل، ومنحتهم كل السلطة والإمكانات التي يحتجون إليها، (٣٨).

اتفاق العريش

بعثة نيكوروش

مع نها وصول بوناپارت إلى فرنسا، اخذت حكومة الإنارة إرسال مبعوثها المكلف باستئناف المفاوضات مع العثمانيين، نيكوروش دو سانت - كروا. ومن الواضح تماماً أن بوناپارت يقدم صورة متفائلة نسبياً لوضع جيش الشرق. وهو يوافق على مشروع بعثة نيكوروش، ويدعو إلى إرسال تعزيزات (يجري قبول ذلك من حيث المبدأ على الرغم من الافتقار إلى القوات والمال والسفن)، ويحدد ما كان قد أملاه على كليبر، عقد مفاوضات مع العثمانيين بهدف كسب الوقت، وتقديم وعد لهم ببرد مصر عند عقد الصلح الشامل والاحتفاظ بها حتى تلك الحين كأداة موازنة تجاه إنجلترا (٢٩).

وتجرى تسمية نيكوروش بموجب قرار سري لحكومة الإنارة في ١٤ برومير من العام الثامن. وهو يتركب على العمل فوراً، وفي ١٨ برومير يكتب مشروعاً لعرضه على الحكومة حول النهج الذي يجب اتباعه في المفاوضات. وفي اليوم نفسه (٩ نوفمبر ١٧٩٩) يبدأ انقلاب بوناپارت. ويتعرض كل شيء للتهديد ولن يجد نيكوروش اعتماداً لبعثته من جانب القناصل إلا في ٧ و ١٢ فريمر من العام الثامن. ويتوجب إرساله إلى مصر والاهتمام بإجراء مفاوضات مع العثمانيين. ويعرف بوناپارت، الذي يجمع في يديه الآن كل السلطات، أنه سيكون من المستحيل قبل عدة أشهر إرسال شيء آخر إلى جيش الشرق غير الكلمات الطيبة وذلك بقدر ما إن الإسمهان يرفضون بإصرار أية مشاركة في النزاع في شرق البحر المتوسط. وتستند التعليمات التي يصدرها القناصل إلى نيكوروش في ١٦ فريمر (٧ ديسمبر ١٧٩٩) إلى الأمانى بأكثر مما تستند إلى تحليل للعلاقات الفعلية للقوة؛ إن عليه اقتراح ترتيب يترك مصر الآن وإلى الأبد في قبضة فرنسا مع سيادة إسمية للباب العالي ورفع خزينة، ويجب إبقاء مصر خارج سيطرة قوة أوروبية أخرى، ولن يتم قبول الجلاء إلا إذا فقد الجيش أكثر من ألف وخمسمائة رجل من جراء الطاعون في غياب عون مهم حتى شهر فلوريال (٢١ أبريل - ٢٠ مايو ١٨٠٠). ويجب تأخير هذا الإجراء لأطول أمسد ممكن. ويتعين فصل الباب العالي عن الإنجليز، واستعادة التجارة مع الإمبراطورية العثمانية، مع التوصل إلى فتح البحر الأسود أمام التجارة. ويجب الإلراج عن الفرنسيين الذين يحتجزهم العثمانيون، ويتوجب وقف الأعمال الحربية لمدة ستة أشهر للتوصل إلى التصديق على الاتفاقات.

ولا يتسنى للانصل الأول (بونابارت) إصدار الأمر إلى بروي بالخروج من بريست موحداً الأساطيل الأسبانية والفرنسية إلا في فبراير ١٨٠٠. ويتمين عليه مهاجمة جزر البليار، ثم فك الحصار عن مالطة، وتخصيص أسطول صغير لنقل عدد من الجنود والأسلحة إلى جيش الشرق^(٤٠). ومرة أخرى يهدى الأسبان عزوفهم للعتاد تجاه هذه الحملات في البحر المتوسط فهم يريدون قصر مشاركتهم في الحرب على النزاع مع إنجلترا. أما وجوه روسيا والإمبراطورية العثمانية في عداد خصومهم فإنه - قلما - يبدو ملائماً لهم.

وفي ١ نيفوز من العام الثامن (٢٥ ديسمبر ١٧٩٩)، حصل ديكورش إلى مارسيليا. وإذا لا يجد سبباً للذهاب إلى مصر، فإنه يتجه إلى طولون. وتمر أسابيع دون التمكن من الرحيل، إما لأن فرنسا كانت منهكة بالفعل في هذه النهاية لعام ١٧٩٩، أو لأن السلطة الجديدة كانت لا تزال أضعف مما كانت عليه حكومة الإنارة. وكان النظام السابق قد حاول قدر الإمكان الحفاظ على الاتصال مع مصر. وعلى مدار أشهر، فإن كليبر لن يتلقى من ثم أبناء من فرنسا إلا عن طريق الصحف التي يجد الإنجليز والعثمانيون أن من المناسب توصيلها إليه.

تدشين المفاوضات مع العثمانيين

ما إن يدرك كليبر حالة الانحطاط التي تميز الجيش، فإنه يفكر في استئناف للمبادرة الديبلوماسية التي قام بها سلفه. ولما لم يك قد تلقى ردًا من الصدر الأعظم، فإن يرسل إليه رسالة جديدة. وهو يذكر بضرورة اتحاد الفرنسيين والعثمانيين ويستأنف استخدام كلام الدعاية التي مهزت الأشهر الأولى للحملة؛ فهو يوضح أن للماليك وحدهم هم أعداء الفرنسيين وأن هؤلاء الأخويين قد حافظوا على كل علامات السلطة العثمانية في مصر (وهو ملزم بعد حقيقياً بعد مبادرات بونابارت الأخيرة). ويقترح كليبر تدشين مفاوضات مباشرة حول وضع مصر، قد يكون قلب التحالفات في نهاية الأمر على حساب روسيا نتيجة لها.

إن الفرنسيين لا يخشون لا أعداءهم ولا عدد هؤلاء الأعداء كما أنهم لا يخشون الحرب، وقد قدموا البراهين على ذلك منذ عشر سنوات؛ لكنهم إن خاضوا الحرب ضد

صديقتهم القديم الباب العالي، فهذا يعنى أنهم يخوضونها ضد أنفسهم، بل إننا مضطرون إلى الأسف لانتصاراتنا، لأنها تضعف جيوشكم، التى يجب أن تتحد معها بسرعة، لمحاربة أعدائكم الحقيقيين (٤١)».

ويكلف القائد العام على اغاء أمين خزانة مصطفى باشا، أسير أبو قير، بحمل هذه الرسالة إلى الصدر الأعظم، ويقدم للبعوث تقريره إلى السلطات العثمانية ويقدم بوجه خاص روايته لرحيل بوناهارت، «لقد انتقل إلى أبو قير وتعاثت تحت لويعة ما مع سكرتير القائد الإنجليزي سميت. وقد اتجه السكرتير إلى تقديم تقرير عن المقاتلة إلى القائد الذى سوهان ما رفع للرسالة وأمر بتحريك الأسطول الإمبراطورى وانفذ فى اتجاه دمياط. ومع رفع الحصار عن أبو قير والإسكندرية، فإن بوناهارت، يتبعه خمسة جنرالات وبحو ١٨٠ جندياً، قد رحل من أبو قير ولاد بالقرار. وقد علمنا بالخبر فى القاهرة. ولا شك أن الخوف والذعر قد دفعاه إلى هذا القرار. ولكن هل تفاهم مع القائد سميت لتسهيل هربه أم إنه قد أراد خيلعه لأسره بعد ذلك فى البحر وإرساله إلى للعسكر الإمبراطورى أو إلى القسطنطينية؟ هذا هو ما يجهله الباشا رئيسى [...]».

ولا شك أن بوناهارت قد هرب لكونه يرى استحالة التمكن من مقاومة قوات صاحب الفخامة الصدر الأعظم الذى لم يخطر له قط أنه مهياً للزحف على مصر. أما الفرنسيون الآخرون فإنهم فى قلق وحيرة وإندمال وربما كان ذلك هو الذى ما زال يبقوهم فى البلاد، لكنهم يحاولون فى الوقت نفسه إخفاء قلقهم. ومن المستحيل على أحد الاقتراب منهم والتمكن من معرفة ما يقومون به. إلا أنه يبدو، استنتاجاً إلى ما يمكن تحصيله من خلال التخمينات ومختلف الروايات وجانب من تمركاتهم، أنهم لن يبقوا لحظة واحدة لو كان ساحل الإسكندرية وأبو قير خاليين من الصلح الإنجليزي والعثمانية (٤٢).

والحال أن تصرف كليبر إلى بدء المفاوضات، وتقرير أمين الخزانة والوقوف على الانحطاط العام لمعنويات الجيش الفرنسى إنما تبين للعثمانيين أنهم فى مركز قوة، وهم لم يخطئوا فى ذلك. وفى بداية شهر أكتوبر، يرى كليبر أنه لا يتمتع إلا بقليل من القوات بحيث لا يمكنه مواجهة الجيش العثمانى الكبير :

«مهما فعلت، فإننى لا يمكننى حشد ٧٠٠٠ رجل ضد جيش الصدر الأعظم الأخذ فى الزحف، إن فرقة وينيه قد تركت هنا وحدها، البل رحيله إلى بلبيس، ٩٠٠ رجل غير قانون على التدخل فى معركة، وإن كان قد جرى مع ذلك التعامل معهم على أنهم

موجودون تحت السلاح؛ والشئ نفسه ينطبق على الفترة الأخرى. وقد أحدثت أمراض الرمد كوارث مريعة، ومن باب تعزيتي، تم التأكيد لي البانحة على أن أربعة ضباط قد ماتوا من الطامون في الإسكندرية؛ أرجو إنا لنرى بما إذا كان ذلك صحيحاً (١٣).

والحال أن رشدي أُنشئ يرجع إلى القاهرة في ١٥ فينديمير (٧ أكتوبر ١٧٩٩) ومعه رد للصدر الأعظم على رسالة بوتنهارت، ويتكشف الرد عن هجاء لاذع للعدوان الفرنسي الذي يتم على حساب حليف وصديق، إن الجيش العثماني لا يقهر؛ وهو، علاوة على ما يتمتع به من قوة، يتمتع بحق الأمم المشروع؛ وقد اتضح الله بمعالجة الفرنسيين على اللجان التي لوتكبوها ضد فرنسيين من بنى جليتهم بشكل يتعارض مع الشرائع والقوانين. إلا أنه إذا كان فرنسيو مصر يريدون العودة إلى بلادهم لإنقاذ أرواحهم، فإن الباب العالي مستعد «بحكم شريعة محمد، التي لا تسمح بمحاربة من يطلب العفو والمغفرة» لأن يتيح لهم الجلاء دون شرط.

أومع أن الصلح هو في جميع الأزمنة خير من الحرب، فإن هذا الصلح لا يمكن عقده في مصر بأي شكل من الأشكال. لكنكم إن رحلتم، بركوب سفن الباب العالي، فلن يكون هناك ما يدعوكم إلى الخوف خلال السفر، لا من جهة الروس ولا من جهة الإنجليز حلفائنا وسوف تتجنبون إراقة الدماء البشرية والهلاك الذي لا طائل من ورائه لكثيرين من المتصلين الذين سوف ينسبون تحت سنايك جياد المسلمين.

ورداً على مصطفى باشا ورشدي أُنشئ، اللذين يطلبان من كليبر رده، لا يملك هذا الأخير إلا أن يلوح بالحرب وبالنصر. وعندئذ يتوصل العثمانيان، للنزعجان، إلى بدء المفاوضات هما نفساهما. وهما يشاركان القائد الفرنسي رأيه إلى درجة قبول مبدأ قلب التحالفات؛ أن تتحالف إنجلترا وفرنسا مع الإمبراطورية العثمانية ضد روسيا؛ ثم إن النظام المملوكي في مصر سوف يعتبر لاغياً وسوف يحل محله حكم الباب العالي (١٤). وسوف يتوجه رشدي أُنشئ على الفور إلى الصدر الأعظم لإبلاغه بهذه المفاوضات.

الصلح النهائي والبنان

خلال ذلك الوقت، ينتاب سوفي سميت القلق على حسن تنفيذ خطته. وهو يرتاب في العثمانيين، وصحيح أنه كان قد حصل من الصدر الأعظم على تأمين لأرواح مسيحيي جبل لبنان ضد الجزائر، ينقل الأمير بشير وعدد من أعيان الجبل إلى المعسكر العثماني (١٥). لكنه لا يثق في القوة الفعلية للجيش العثماني الكبير، ويحاول تجنب كل

مواجهة، بين هذا الجيش والجيش الفرنسي. وانقل الإنزال في محيط سوف يعزز اعتقاده هذا.

وهو يخشى، من جهة أخرى، من تدفئة العلاقات بين العنوين. والحال أن العثمانيين لم يطلعوه على الفور باستئناف الاتصالات مع الفرنسيين. ثم إن فرانكفون، ترجمان السفارة الروسية، قد أفاده بأن الصدر الأعظم لم يبالغ على الفور بمراسلاته. وكل ذلك يقوده إلى التدخل بنشاط في المفاوضات (١٦).

وفيما يتعلق بالمسألة اللبنانية، سوف يحصل الأمير من الصدر الأعظم على حق ممارسة السلطة على كل جيل لبذان وعلى جزء من وادي البقاع (١٧). ومنطق الحدث عثمانى؛ لقد أدرك الجزار جيداً أن الباب العالي يسعى إلى الاستغناء من الموقف لاستعادة سلطته للمباشرة على الولايات العربية، وهو يرفض كل تعاون مع الصدر الأعظم. ويسعى هذا الأخير إلى موازنة سلطة سيد عكا بدعم سلطة الأمير بشير. وبذلك، يتجاوب أيضاً مع مطالب حلفائه المسيحيين الأروبيين.

تدخل السلطان الجديد

يلعب بطء الاتصالات دوراً كبيراً في ذلك العصر. وفي ٢٢ أكتوبر ١٧٩٩، يطلق كليبر رد الصدر الأعظم على الرسالة التي حملها أمين خزنة مصطفى باشا، بينما يشق رشدي القندي طريقه لاقتراح قلب التحالفات. والخبرة مختلفة تماماً؛ فالصدر الأعظم يتحدث الآن عن التفاوض على الصلح وي طرح المسألة الجوهريّة الخاصة بصلاحيات كليبر بالنسبة لتفاوض كهذا. وبما أنه لا يثق بالمرّة في أن الجنترال يملك مثل هذه الصلاحيات، فإنه يقترح الاقتصر على مناقشة الجلاء عن مصر، والذي يهدى استعداده لضمان أمته التام (١٨). على أن تشهد الإمبراطورية العثمانية فيما بعد مناقشات حول الصلح مع مفرضين فرنسيين لهم كل الصلاحيات. وهذه للرسالة مصمومة برسالة إلى مصطفى باشا يقصد بها أن يطلع الفرنسيون عليها. ويجري للتأكيد في هذه الرسالة على استحالة اختراق الحصار البحري لمصر - بما يستبعد كل وصول لتعزيزات فرنسية -، وعلى الثقة التي يمكن للمرء أن يلقاها بها الحديث العثماني عن سلامة الجلاء: «إن هدف هذه الرسالة هو إلزامكم بعمل كل ما يعتمد عليكم من أجل إنقاذ أرواح هؤلاء الفرنسيين المتعساء الذين خدمهم الجنترال بوناپارت خدعاً بالغ الخطاظة».

وبالنسبة لسيدنى سميت، فقد حان الوقت للتدخل فى المفاوضات. وفى ٢٦ أكتوبر، يكتب إلى كليبر لكى يذكركم بالإطار الذى تمده معاهدة تحالف الباب العالي مع إنجلترا ودوسيا. فكل اتفاق على جانب من الأهمية لابد من أن يحصل على موافقة الحلفاء، وأيا كان الأمر، فإن المسألة لا تبدو أن تكون مسألة تفاوض على الجلاء من مصر، وليس على الصلح مع الإمبراطورية العثمانية، وهذا الجلاء يحتم موافقة إنجلترا التى تهيمن على البحر المتوسط. والحال أن العميد البحرى، المخلص لتاكتيكه، يلعب على التعارض بين كليبر ويونانهارت، ولقد لجبرت الجنرال يونانهارت بسماحي له بحرية المرور، على تولى قيادة جيش إيطاليا الذى لم يعد له وجود بالفعل. ووصوله دون تصريح مرور من جانبى، سوف يكون واحداً من تلك القروض السعيدة التى يمكن للمحظ تملأاً حرمانه منها. لقد هزف من أن يأخذ معه إلى وطنهم من يمثلون القوات شهمة لطموحه ومن ثم لقد بقى لشخص آخر أن يتولى هذا العمل الإنسانى الذى سوف يجد للمرء أن الباب العلى مستعد للموافقة عليه، إلا أنه لا يجب للمرء أن يستنتج من ذلك أننى أطلب إلى الجيش الفرنسى أن يقبل إحساناً.

وفى ٣٠ أكتوبر، يبلغ كليبر العميد البحرى أنه ليس مهتماً إلا بالصلح الشامل. وهو يرد بإياه على التعريضات التى يقوم بها الإنجليزى من طرف خفى، وإن للمرء رايح فى أى مكان يخدم فيه بلاده، والحال أن من للتأكد أن مصر، البلد الأكثر خصوبة على الأرض، ليست مغلقة أكثر من البحار الهائجة التى اضطرتهم إلى مكناها. وفى ٨ نوفمبر، يأمر مصطفى باشا بأن يكتب إلى الصدر الأعظم أنه مستعد لإرسال ملوطين يملكون كل الصلاحيات للتفاوض على الصلح الشامل. وفى اليوم التالى، ١٨ نوفمبر من العام الثامن (٩ نوفمبر ١٧٩٩)، يتلقى رد الصدر الأعظم على المهمة الثانية التى قام بها رشدى القندى. وقد تعرض هذا الأخير للتوبيخ لتفاوضه على أمور ليست من اختصاصه بالمرّة. ويتعلق وقف المفاوضات دائماً بمسألة الصلح الشامل، فالعثمانيون لا يرغبون إلا فى الجلاء عن مصر. وبالرغم من هذا الاختلاف، فإن كليبر يطلب فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ بدء المفاوضات ويصح إلى أنه مستعد للتراجع.

«إلا أنه أخيراً أياً كانت رهبات فخامتكم وحتى عندما لا يتصل الأمر إلا بمجرد الجلاء من مصر، نعم لا غنى عنه التوصل إلى تفاهم، بل إننى أؤكد أننى سعيًا إلى إجراء مفاوضات فى هذا الصدد قد استمرت إلى مندوبينا تعليمات بحيث لا يمارفونكم دون التوصل إلى التجارب مع الباب العالي وإلى التجاوب معكم».

التعليمات الصادرة إلى المفاوضين الفرنسيين

في ٢٨ نوفمبر، تصل إلى القاهرة رسالة الصدر الأعظم، التي يجرى فيها اقتراح سفينة سيدي سميت، كمكان لإجراء المفاوضات. وهكذا فإن العهد البحري سوف يكون في مركز المفاوضات. ويتصور كليبر أن يوسعه كسب وقت وإضعاف الجيش العثماني الكبير بإجهاره على المراقبة في فلسطين خلال شتاء ١٧٩٩ - ١٨٠٠. وهذا هو ما يكتبه إلى حكومة الإنارة في ٣ ديسمبر ١٧٩٩، مع تنبيهه إلى أنه، دون وصول تعزيزات، سوف يكون في حالة لا تسمح له بهذه المعركة القادمة. ويبدو أن كل شيء يسير في هذا الاتجاه لأن الوقت غير المناسب يرفع السفن الإنجليزية على مفاداة للشارف البحرية للإسكندرية. وعندئذ يقترح سيدي سميت انتظار للمفاوضين الفرنسيين في دمياط، ويعين كليبر هذين للمفاوضين، وهما بوسليج، المؤيد الحازم للجلاء، وديزيه، الذي اختاره كليبر لتوسط في هذه المسألة، متجنباً بذلك معارضة الجندي الأكثر هيبة بعد.

والحال أن التعليمات، الصادرة في ٧ ديسمبر، إنما تتمثل في التوصل إلى وقف القتال، وحل التحالف بين الباب العالي والحلفاء الأوروبيين، ورد الجزر الأيونية إلى فرنسا، ورفع الحصار عن مالطة وعودة العلاقات الطبيعية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية، في مقابل الجلاء عن مصر. وهكذا يتطلع كليبر إلى إنهاء الحملة بشروط جد مشروعة، أو، على الأقل، تأخير الزحف العثماني دائماً.

«لأن إن كان وضعنا في أوروبا مثيراً إلى درجة غزو حدودنا بالفعل والاستيلاء على موانئنا الرئيسية أو مهاجمتها، وهو ما سوف يسهل على المفاوضين الفرنسيين معرفته من الصحف التي لن يتأخر أحد عن إطلاعها عليها؛ فمن المرجح جداً عندئذ أن للمفاوضين الخصوم لن يقبلوا الشروط الواردة أعلاه وأنهم سوف يصرون على العكس من ذلك على مجرد الجلاء عن مصر. وفي هذه الحالة، يجب على المفاوضين الفرنسيين إعلان أن القائد الفرنسي لن يقبل أبداً مثل هذا الجلاء إلا بناء على أوامر من حكومته. ويجب عليهما طلب مرور آمن لإيفاد رسول خير هادي إلى حكومة الإنارة التنفيذية وطلب وقف للأعمال الحربية حتى هودته، أي لمدة أربعة أشهر».

ويجب إجراء مفاوضات إقليمية مع الإنجليز حول حرية العودة الفورية للجنة العلوم والفنون ولجرحى الجيش الفرنسي. ويقبل سيدي سميت ذلك من حيث المبدأ على أمل أن

مثل هذه المفاوضات سوف تضيء الرغبة لدى آخرين في اقتفاء أثرها. ويصل بوسيلج وديزيه إلى سمياط في ١٢ ديسمبر، لكن القوات غير المنتسبة تبقى سيدي سميث بلثما في عرض البحر. على أن العثمانيين لا يريدون التراجع في الفتح الفتح الذي ينصبه لهم كليبر ويواصلون نهمهم.

سقوط العريش

إن طليعتهم تصل أمام العريش في ٨ ديسمبر ١٧٩٩ (٤٩). وعلى الفور، يهجمك تروملان والكولونيل بوجلاس اللذان يرانقان القوات العثمانية في الحرب السيكلوجية التي على سيدي سميث من شأنها، ويمنع بوجلاس الفرنسيين إلى الاستسلام أمام تفوق خصومهم العندى الكاسح ويتمكن تروملان - الذي يلعب دور رسول - من نقل رسالة إلى الجنود تعينهم بحماية العثمانيين والمعونة إلى فرنسا إذا ما تخلوا عن المواقع.

ويرى كازال، الذي يفرد الحصن، أنه لا يملك الحديث عن الجلاء، لهذا للجبال يخص القائد العام. لكن كليبر كان قد أخبر الجيش، من خلال بياناته ومن خلال صحيفة لوكونيه بوليجهيت، بالخطوط العريضة للتفاوض. ثم إن سيدي سميث كان قد تمكن، بعد معركة سمياط، وبفضل تهديدات للمنشويين، من نشر رسائله بين صفوف الجنود الفرنسيين. وليس غريباً في هذه الظروف، عندما يبدأ الحصار العثماني بالفعل في ٢٢ ديسمبر، أن يكون رجال القوة غير متحمسين للفكرة القتال في وضع على هذه الدرجة من العناء، وبينما يبنو الجلاء عن مصر قريباً. وفي مساء ٢٥ ديسمبر، يجري تقديم عرضة موقعة من جانب ثمانين جندياً وصف ضابط إلى القائد :

«الحكمة، الحذر، تذكر ما حدث في يافا

«ن الجنود المكونين لحامية العريش إلى المواطن قائد الحصن

«يحصن بك، أيها المواطن القائد، تسليم الحصن الذي تقوده إلى العدو، في وقت لا يتأخر عن اثني عشرة ساعة. فاعتقاداً منا بأننا لم بعد بوسعنا المقاومة، بالنظر إلى أنه لم بعد هناك لا مصلح ولا أنوية للجرحى، تنصوك إلى إنهاء هذا الأمر وسوف تحظى بتقدير رفائك».

والحال أن كازال وضباطه، الذين أخذ منهم للغضب كل مأخذ، يجمعون الحامية في

الجنود ويحاولون تذكر الجنود بواجباتهم بالوفاء من صيحات التمرد. وفي نهاية الأمر، يأمر المتمردون بالذهاب لتسليم أنفسهم فوراً إلى العثمانيين، في حين أنه واليواسل سوف يلتفون من شرف الجيش. وهذا المشهد يخيف الرجال الذين يحاولون إلى أخذ لمكانهم في الصفوف. وهم يصمتون صموتا مشرقا خلال يومين ثم يبدأون في الفرار. وبينما يحدث الضباط الجنود على القتال، فإن عدداً من الجنود يرفعون راية الاستسلام ويسلمون أنفسهم للعثمانيين، فاتحين لهم الحصن. وبما أن الفرنسيين آخرين يظلون أولياءه لواجباتهم، فإن الفوضى سرعان ما تصل إلى ذروتها. ويوقع كازال في النهاية استسلاماً يتيح له الحفاظ على الشرف العسكري والعودة إلى الخطوط الفرنسية. لكن العثمانيين لا يراعون ذلك ويتمكنون في نهب الأسرى. وعندئذ يظهر مستودع البارود بما يؤدي إلى خصائر مهمة في صفوف المهاجمين (٢٩ ديسمبر). أما الفرنسيون الناجون (نحو مائة وستين رجلاً، ولا بد أن أكثر من مائتين قد لقوا مصرعهم) فيسقطون في الأسر. ويجري إرسالهم إلى يافا وإعلنتهم من هناك إلى دمياط التي يصلون إليها في ١٥ فبراير ١٨٠٠ بعد رحلة مرهقة. وسوف يؤدي مجلس حربي، عقد في مارس التالي، إلى تحديد المسؤوليات وسوف يرد الاعتبار إلى كازال وضباطه.

تفويض الجيش

لست مسألة العريش خير علامة بين علامات أخرى على انهيار معنويات الجيش. جزءاً من متحدي الحامية قد جاء من شبه اللواء الذي كان قد حل في دمياط. وفي القاهرة، يكتشف فوجاً في الشهر نفسه شبكة مصرية لتدريب الجنود الفرنسيين لحساب الماليك^(٥٠). وفي يناير، يحدث في الإسكندرية تمرد عسكري جديد، أكثر خطورة بكثير، منذ مفارقتكم مصر نشبت انتفاضة جديدة للقوات في الإسكندرية، [...]، لقد جرى شهر السلاح، كما جرى الحديث بصوت عال من الاستسلام للإنجليز، وإذا كان هذا للمسمى لم ينجح، فإن ذلك إنما يرجع لحسن الحظ إلى أنه لم تك هناك ساعتها سفين للمعد قبله لليناء^(٥١).

والحادث الذي فجر هذا التمرد هو وصول بقية حاشية بونابارت إلى الإسكندرية، بمن في ذلك مدام فورييه، والتي يسارع كليبر إلى إعانتها إلى فرنسا. وكان الجنود قد ظنوا أن كليبر نفسه قد ترك الجيش وغادر مصر.

ثم إن مراد بك ميناء في أواخر ديسمبر، مربوطاً جديداً صوب مصر الوسطى. وإذا يمر عبر الصحراء، فإنه يظل مطلق السراح، بما يحتم إبقاء قوات في المنطقة، في حين أن من شأن معركة ضد الصغير الأعظم حشد القوات الفرنسية للتوالت في شرقى البلتا. وينبه نوجا كليبر إلى أنه يبدو له أن من الصعب الإمساك بزملم للقاهرة اعتماداً على قوات تقل بنسبة النصف عما كان عليه الحال أثناء حملة سوريا أو معركة أبو قهر. والحال أن جميع منشآت الجيش الكبرى موجودة في القاهرة. وإذا ما تم تدميرها، فإن هذه الخسارة وحدها سوف تستلهم خسارة مصر والجيش الذي لن تكون له هناك بعد لا مستشفيات ولا مستودعاته (٥٢).

أقار الجلاء عن مصر

من الواضح الآن - بالنسبة لكليبر - أن العثمانيين سوف يواصلون الضغط ولن يسمحوا له بكسب الوقت. لكنه، من جهة أخرى، يعلم من طريق الإنجليز أن بوناپارت قد رسا في كورسيكا (٥٣). ولذا فإنه يطلب إلى تاليان العودة إلى فرنسا كمندوب لدى الجرحى العائدين إلى الوطن. والحال أن تاليان، الذي كتب لدوه إلى بارا ليهشرح ضرورة الجلاء عن مصر، إنما يتعين عليه أن يكشف للرأي العام الفرنسي الحقيقة عن الحملة (٥٤). ومن الواضح أن المسؤولين الفرنسيين يجهلون نوا الإطاحة بحكومة الإنارة والتي مو عليها الآن أكثر من شهر. ويواصل مينو وحده كتابة مذكرات حول ضرورة الحفاظ على مصر كمستعمرة، لكنه لا يحظى بالثقات كبير في صفوف الجيش.

وفي الأيام العشرة الأخيرة من ديسمبر ١٧٩٩، يجري استئناف الاتصالات بين المفوضين الفرنسيين والعميد البحري في دمياط. ويقبل الطرفان مبدأ هدنة بحرية مطعولها خلال مدة المفاوضات. وكالعادة، يسلم مينيدي سميت صحفاً أوروبية، وتنتهي قراءتها بإقناع كليبر بعدم جنوى مواصلة المشروع المصري.

«إذا كان لابد من تطهير الفترة الثانية عشرة من رسالة الهنرال بوناپارت على طرف ماء، فمن الواضح أن هذا الطرف هو الطرف المائل: لقد ضاعت إيطاليا، وخرج الجيش البحري من البحر المتوسط وحوصر في ميناء بريست، وسقط الأسطول الهولندي تحت سيطرة الأعداء، ووصل الإنجليز والروس إلى هولندا، وتم دحر مولر على الراين، وجرى

ترك الدفاع من حدود الأناضول لسكانها، واتبعت الفاتحيه من رملها واحترقت ميهنس.
والجهاز التشريعي يفتوح اعتبار الوطن في خطر ثم يتخلى عن هذا الاقتراح، ليس لأن
الخطر غير موجود في الواقع، وإنما لأن للرسوم الذي يمكنه الإشارة إليه لا يتضمن أي
ملاج له، فما الذي يمكن أن يكون أكثر إزعاجاً من ذلك؟

«وبناءً على ذلك وبناءً على الوضع الأكثر من صعب الذي أجده نفسي فيه والذي
يصبح من يوم لآخر أكثر صعوبة، فإنني أعتقد، بصفتي قائدًا وبصفتي مواطنًا، أن عليّ
التحرد من مزاعمي الأولى والسعي إلى الخروج من بلد لا يمكنني، من أكثر من زلوة،
الاحتفاظ به؛ وهو أمر لا يبدو حتى أن هناك من يهتم به في فرنسا، اللهم إلا لمجرد البرهنة
على فتحه، إن الأمل في تعزيز سريع وكاف قد بلغنا إلى العمل على كسب الوقت، إلا أنه
مع بمار الأمل، فإن الوقت الذي نقضيه هنا هو وقت ضائع بالنسبة للوطن، فلنسارع إلى
أن نقدم له عونًا لا يملك هو تقديمه إلينا.

«وترتيباً على ذلك، فإنه ما إن يعرض عليكما مجرد حياض الباب العالي خلال الحرب
وحرية الخروج من مصر مع الأسلحة والمهمات والذخائر، ومع حق الخدمة في أي مكان
وضد أي كان لدى عوبتنا إلى فرنسا، فإن عليكما عقد المعاهدة دون تردد وسوف نسارع
إلى التصديق عليها»^(٥٥).

وتأكيد خبر سقوط العرش بقود القائد العام إلى دفع ممثليه الديبلوماسية إلى
إتمام الاتفاق بأسرع ما يمكن. وفي ٧ يناير، يخاطب الصدر الأعظم لإشعاره بقبوله لهذا
الجلاء الفوري من مصر، في مقابل تقديم وسائل نقل للعودة إلى فرنسا والمؤن الغذائية
اللازمة للجيش الفرنسي في تلك الفترة وانصحاب الإمبراطورية العثمانية من الائتلاف،
ولا يهتم القائد العام إلا بأشكال الرحيل وليس بمبدأ الرحيل. ومن باب الاحتياط، فإنه
يوجد مع جميع القوات المتوافرة في الصالحية حتى يتسنى له أن يكون أكثر قرباً من
الجيش العثماني، ومحاربته في نهاية الأمر في حالة فشل المفاوضات.

وسرعان ما يترك بيزيه ويوسيلج اللتان استهلا للناقشات مع صيدني سميث على
متن البارجة تهجر ولض محدثهما التطرق بأي شكل من الأشكال إلى مسألة تسوية
سلمية، لكنهما يدركان أيضاً سعيه الحثيث إلى تسهيل كل ما من شأنه أن يؤدي إلى
الجلاء، وهما يبرهتان من جانبهما على الإصرار نفسه. ويبلغهما الإنجليز، في ٨ يناير
١٨٠٠، بوصول بوناپورت إلى باريس. ويشته بيزيه في أن إصرار العميد البحري على
التوصل إلى الجلاء إنما ينبع من عدم ثقته في قيمة الجيش العثماني،

«لم تك لدى حاجة لنقل السفير سوينى سميت إلى الصلح. فليس لديه غير هدف واحد، رغبة واحدة، أمنية واحدة، هي التفاوض لكى يثبت لنا أن من الواجب علينا الخروج من هنا بأسرع ما يمكن. فالعهد الذى سوف يعود عليه من وراء ذلك فى بلاده، ولدى الروس ولدى الأتراك، يبدو أنه يهدو أنه يخشى من أن يراه وقد طار منه، فهو يبدو مدزجاً. إن الانتكاسات التى يتعرض لها العثمانية يبدو أنها تجعله أقل تمتعاً بحبهم. وامتقد أنه يكفى أن تحدث بضع انتكاسات أخرى حتى يقبل هؤلاء الطيبون الصلح. اضربوا للسفير الأعظم وسوف يفعلون كل ما يريدون. فالسياسة المتعلقة لن تدخل إلى رؤوسهم إلا بعد كثير من التصحيحات؛ ضربة قوية أخرى وسوف ينتظم كل شيء، وعلى الأقل لهذا هو ما أتصوره. لقد فقد صبر سميت لأنه لا يملك أخباراً عنك؛ إنه يضرب الأرض بقدمه؛ ويصرخ: - «يجب على الجنرال كليبر أن يرد على: إن ما لكه له نزيه؛ ولنا اعتقد أنه أكثر حكمة من الجنرال بوناپارت» - وأنت ترى من ذلك، قائد الجنرال، أنه لا يطلب أكثر من التفاوض. وكل ما يريد هو أن نرحل بأسرع ما يمكن. وعندما يطلب عدو شيئاً ما بالحاج، فإن ذلك إنما يرجع إلى أن ذلك الشيء يملك عليه قواده أو يسبب له كثير من المتاعب؛ وهذا - فى اعتقائى - سبب لعدم تقديم هذا الشيء إليه بسهولة» (٥٦)

والأرجح أن كليبر إنما يرد على هذه الرسالة عندما يقول لديزيه صراحة: إننا لن نطلق أى نبال من فرنسا ببساطة تامة لأنه لا وجود هناك لتعزيزات يمكن إرسالها وأن هناك من سيجد راحة فى أن يترك لى الاهتمام بحل هذه المسألة إنما لكى يتكرم بالشثناء على أو لكى يثبت زيفى. وأياً كان الأمر، فإنه إذا كان قد تم إعطاء تعزيزات، فمن المؤكد أن بوناپارت سوف يصانرها «فهذه هي اللحظة المناسبة الآن أكثر من ذى قبل لكى يعمل على تأمين نجاحاته فى أوروبا، فدونها سوف يخضع ويسقط فى وقت أقل من الوقت الذى ارتفع فيه». ويهدى كليبر استعداد لتوك القيادة إلى ديزيه إن كان هذا الأخير واثقاً من التصرف بشكل أفضل. وتحليله واضح: «بالنسبة لى، لنا الذى لا أريد أن أرى لكه احتيال بقية هذا الجيش جزءاً جزءاً، دون فوائد فعلية بالنسبة للوطن، بالنسبة لى، أنا الذى اعتبرت هذه الحملة فاشلة تماماً، فور حدث أبو القهر الكارثى وإعلان الباب العالي للحرب، فإننى سوف أثار فى قرارى دون أن أزعج نفسى بما إذا كان اللوم أو الثناء فى انتظارى. إن أجعل مكلفاً لى كانت تتمثل دائماً فى راحة ضميرى، وهو يقول لى إننى أفعل الخير. ومن جهة أخرى، فإننى اعتقد إننى أملك الأسلحة الكافية للدفاع عن نفسى ضد أولئك الذين يريدون مهاجمتى» (٥٧)

وفي ١٢ يناير، يجري استئناف المفاوضات، التي تدور هذه المرة في العريش نفسها مع الصدر الأعظم والريس الهندي (المتحدث بلسان الخارجية) - وفي ١٥ يناير، يكتب كليبر إلى مفوضيه أنه يتخلى عن مطلبه العامي إلى انسحاب الإمبراطورية العثمانية من الائتلاف. وهنا أيضاً فإن أخبار أوروبا (التي ترجع إلى أكتوبر ١٧٩٩)، والتي قام الإنجليز بتلخيصها، تلعب دوراً حاسماً. ويرى القائد العام أن من المستحيل الأمل في الحصول على تعزيزات وأن من الأنسب والتفكير في أن تقدم إلى وطننا العرن الذي لا يسعه تقديمه إليها، ولا حتى الوعد بتقديمه إليها. وترتيباً على ذلك، فإنه يتخذ للخطوة الخامسة: «إنني أصرح لكما بالتجاوز والافتصار على التفاوض على مجرد الجلاء مع الاكتفاء بتجنب إضفاء صيغة الاستسلام على هذا الاتفاق والحرص على جاذبتهما، على العكس من ذلك، على إضفاء طابع معاهدة عليه».

الاتفاق

يرى ديزيه وهو سيلج أن قائدهما يقدم للعثمانيين تنازلات من جانب واحد، وبلا طائل، وأن قبول الجلاء - حتى وإن كان مشروطاً - والذي جرى إشعار الصدر الأعظم به، لم يؤد إلا إلى إضعاف موقف الفرنسيين في المفاوضات. وهما يريان - في المقابل - أن فكرة مغادرة مصر سوف تؤدي إلى الوقف الفعلي للأعمال الحربية بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا وأن بالإمكان الأمل في التفاوض على هدنة شاملة وعلى الإفراج عن الفرنسيين المحتجزين ورد ممتلكاتهم إليهم. على أن ديزيه يؤكد لكليبر أنه سوف يكون من السهل ضرب الجيش العثماني ثم استئناف المفاوضات من مركز قوة. لكن كليبر لا يريد معارك. فهو مع ثقته التامة في قيمة رجله، لا يقبل للجازفة بمصير آلاف من الفرنسيين في مناصرة معركة. إن كل شيء في شخصه يرفض أن يكون بوناپارتما يلعب مع التاريخ.

ومنذ ذلك الحين تتقدم المفاوضات بسرعة. وبفضل سيدني سميت، يتم الحصول على الموافقة على مبدأ الإفراج عن الأسرى. لكن العثمانيين، متذرعين بتحالفاتهم، يرفضون هدنة خلال الفترة للمعتقة حتى الوصول إلى الصلح الشامل. والحال أن العميد البحري هو أول من يقترح خطة جلاء تمثل أساساً للمناقشات في مواجهة الاقتراحات للمضايقة التي يقدمها الفرنسيون (١٥ - ١٦ يناير ١٨٠٠). وهي تتصل خاصة بتقديم المؤن

الغذائية للجيش الفرنسي في مقابل ترك الضرائب المفروضة على مصر، كما تتصل بموعد مغادرة القاهرة التي توجد بها مستودعات الجيش. وحول هاتين النقطتين، فإن كليبر، الذي يتابع للمفاوضات من الرب والذي لا تفصله عن المعريش غير مسيرة يومين أو ثلاثة أيام، يبدو مستعداً للذهاب إلى حد قطع المفاوضات. وهو، من جهة أخرى، يعتقد مجلساً حربياً من ثلاثة قادة للفرق وسلة ثلاثة للألوية سحباً إلى الحصول على اللواحق على قراراته. ويتضح بعض الانشغالات، خاصة انشغالات دلفور^(٥٨)، لكن الجميع يوقعون على المخطط الرسمي الذي يحدد مبررات القرارات والذي يسهل في الاتجاه الذي يريده كليبر. وفي ١٨ يناير، يتسنى للمفاوضين إدراك أن المفاوضات تصل إلى مرحلتها النهائية ويرسلان إلى المعسكر الفرنسي آخر صحت يتعلمانها والتي ترجع إلى الفترة الممتدة من ١ إلى ١١ نوفمبر ١٧٩٩. وبما أنها ليست صحتاً فرنسية الأصل، فإنها لا تذكر خبر استيلاء برنابارت على السلطة، والذي حدث في ٩ و ١٠ نوفمبر.

وفي ٤ يوليوز (٢٢ يناير)، يتم توقيع الاتفاق. ويصدق عليه كليبر في ٨ يوليوز مع بعض التحفظات على نقاط في الترجمة التركية. ويتعهد الفرنسيون بالجلء من مصر، في مدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر، على سفن يدوي العثمانيون تقديمها. وسوف تستمر الهيئة ما دام رحيل الفرنسيين لم ينته. وسوف يترك هؤلاء الأخيرون مواقعهم في مصر بدءاً بشرق الدلتا. وسوف يتم الرحيل من القاهرة في اليوم الخامس والأربعين بعد ذلك. أما الساحل الغربي (إقليم الإسكندرية) فسوف يكون لغير إقليم يوجد فيه الفرنسيون. وسوف يوجد الجنود العثمانيون على بعد مسافة معقولة لتجنب أي احتكاك. أما المحتجزون فسوف يجرى الإفراج عنهم وسوف يستردون ممتلكاتهم. ولن يكون أي أحد من سكان مصر عرضة للتكدير بسبب علاقاته مع الفرنسيين. ويلزم الاتفاق حلفاء الباب العالي بما يلي:

المادة ١١

«سوف يجرى تسليم الجيش الفرنسي، من جانب الباب العالي كما من جانب بلاط حلفائه، أي بلاط بريطانيا العظمى وروسيا، جوازات السفر وتصاريح للبريد الآمن والقوافل الضرورية لضمان عودته إلى فرنسا».

المادة ١٢

«عندما يخرج الجيش الفرنسي من مصر، فإن الباب العالي وكذلك حلفاءه يحذون بأن، حتى عودته إلى أرض فرنسا، لن يتعرض الهيئة للتكدير، كما إن القائد العام كليبر

والجيش الفرنسي في مصر بعد أن من جانبهما بعدم ارتكاب أي عمل عدواني خلال المدة المذكورة، لا ضد الأساطيل، ولا ضد بلاد الباب العالي وبلاد خلفائه وأن السفن التي سوف تنقل الجيش المذكور لن تتوقف في أي ساحل آخر غير ساحل فرنسا اللهم إلا في حالة الضرورة القصوى».

ويتمتع العثمانيون بتوافير مبالغ مهمة لإمالة الجيش خلال الفترة الممتدة حتى نهاية إقامته في مصر، وهو ما يحرر المسؤولين الفرنسيين من شغل مهم.

والحال أن سيدني سميت - الذي شارك بنشاط بالغ في المفاوضات - لا يوقع على الاتفاق، لكن أحداً لا يشك في قيمة التعهد للأخوذ باسم إنجلترا. والواقع أن العثمانيين والفرنسيين يفكرون بالفعل في مستقبل علاقاتهم وهم غير مستائين من رؤية غياب العامل الإنجليزي.

لوايا كليبر

يمكن لكليبر من ثم أن يعلن لرجاله للنبا الذي طال انتظارهم له :

«أيها الجنود،

إن التقاء رئيسي للظروف است في حل الآن من إطلاعكم عليه، قد دفعني إلى وقف مسار انتصاراتكم وإلى التفاوض مع أملاككم، بدلا من محاربتهم. وهكذا فموجب المعاهدة التي عقدتها للتو، سوف ترون وطنكم من جديد في غضون أربعة أشهر وسوف تواصلون خدمته بأسلحتكم وجيوشكم بأسلوب أكثر كفاءة مما تصني لكم عمله حتى الآن في هذه البلاد.

«أيها الجنود! لو كنت قد استشرت في تكليفي بحمل العبء الذي خلفه لي الجنرال بوناپارت، فإن من المؤكد أنني ما كنت لأقبل تلك البتة، لأنني أشعر شعورا بالغ القوة بأن قواي لا تتناسب البتة مع أهمية المواقع الذي احتله، في ظروف جد صعبة، لكنكم تعرفون أنني لم يك بوسعي الاختيار.

«على أنني أجد عزاء في الإيمان بأنني إن كنت لم أفل لكم كل ما تستحقه شجاعتكم وإخلاصكم للجمهورية، فإنني قد فعلت على الأقل كل ما كان ممكنا عمله من الناحية الإنسانية في الوضع الصعب الذي وجدت فيه الجيش. إن أولئك الذين لا يسبون

الأكلن من بينكم أمام صوت العجل سوف يعترفون لي بذلك، وأنا لا أشتري كثيراً رخصه الآخرين.

«أيها الجنود ! إن تعهدت رسمية وتبائلية ترويضاً بالجهش العثماني؛ ولدى الاقتناع الأكثر عمقاً بأنه لا يدور برأس الصغر (الأعظم) ولا برأس أحد من قلة المسلمين خيانتها، ولكن هل يمكن لهم دائماً في مؤسساتهم التي تبني كل شيء أن يعتبروا مسؤولين عن مسلكه مريضهم ؟ كلا بالتأكيد، ولذا فإن عليكم أنتم للذين تقيمون في ظل انضباط حكمهم ومعتل أن تتفانوا أو أن تتجنبوا الاحتكاكات التي قد تستتبع أوخم العواقب، وأخطر النتائج. إنني لن أترك بلا عقاب أية إهانة قد تمسكم، لكنني سوف أعاقب أيضاً بموجب كل صرامة القوانين من يكونون سبباً لها من بينكم».

والحال أن ناهوليون في سانت - هيلين وإلى أثره، عدد كبير من المؤرخين الاستعماريين، خاصة شارل رو، قد شجبوا موقف كليبر (٥٩). والواقع أنه يجب أن نذكر مسلكه إلى لحظتين. فهو - في البداية - قد سعى إلى كسب الوقت بقرغم من الصعاب المالية، حيث كان هناك هو ترقب وصول التعزيزات. ثم، وبسبب الانعزال المتواصل للاتصال المباشر مع فرنسا وتحت تأثير تمرينات الجيش القتالية، أراد التعجيل بالأمور سعياً إلى التمكن من التدخل مع رجاله في ساحات المعارك الأوروبية التي يتوقف عليها مصير فرنسا.

ومن المؤكد أن المشكلات العسكرية المطروحة عليه في مصر هي مشكلات واقعية؛ صعوبة تحقيق حشد القوات في مواجهة بكوات مصر العليا، خطر التمردات الحضرية والريفية والخطر الذي يمثله الجيش العثماني الكبير الذي يعتبر عدده أكثر أهمية بكثير من عدد جنود الجيوش التي جرى إلحاق الهزيمة بها في جبل طابور وهو قبر. إلا أنه لم يشك قط في حقيقة الأمر في القدرة على الانتصار على أولئك الخصوم، والخطر بالنسبة له بعد ذلك إنما يكمن في الضعف المتواصل لجيش لا يتلقى تعزيزات.

ومن المؤكد أن كليبر، سعياً إلى تهرير قراراته، قد قلل من قيمة الإمكانيات العسكرية لقواته. فأعبد القوات للقاتلة التي يعلنها في مراسلاته مع فرنسا والتي امترض الإنجليز سبيلها، هي أعداد أقل من الأعداد المتوافرة في الواقع بكثير. والبرهان على ذلك إنما يكمن ببساطة تامة في تفكيره المتواصل في المشاركة في المعارك الأوروبية في ربيع ١٨٠٠، وهو أمر من شأنه أن يكون مستحيلاً لو كانت القوات الواقعة تمت إمرته في الحالة التي يصلها في مراسلاته بالفعل.

لقد حصل كليبر في العرش على شروط أفضل بكثير من الشروط التي كانت حكومة الإنارة مستعدة لقبولها في أواخر صيف ١٧٩٩. وانقطاع الاتصالات مع فرنسا والصواب العديدة التي توجه إلى بوناپارت نفسه منذ عام ١٧٩٧ تهيئ له التصرف بمثل هذه الدرجة من حرية الحركة. وتمثل سفرية التاريخ المتساوية في أن كليبر قد تصرف، حتى النهاية، من زاوية حكومة كان يكن لها الاحتقار، هي حكومة الإنارة، ومن زاوية مثل أعلى كان يعز، هو الجمهورية. والحال أن الحكومة والمثل الأعلى لم يعد لهما وجود بعد انقلاب ١٨ برومير، وهو من عمل رجل لحتومه في البداية ثم اختلف معه - ليس بسبب أعماله للبشورة بقدر ما كان ذلك - بسبب الخطر الذي يمثله، وهو خطر التضحية بالوطن في سبيل طموح شخصي.

هيليو بوليس

لبنان ١٨ يونيو

يسمى كليبر مصاعبه وصديقه. لوجوست داملس (شقيق الجنرال داملس)، لحمل اتفاق الجلاء إلى جانب مبررات مسئلة إلى حكومة الإنارة. أما هو فإنه يرجع إلى القاهرة التي حصل إليها في ٢ فبراير ١٨٠٠. وبعد ذلك بأيام قليلة، يرسل إليه سيدنى سميت صحيفة ذي صن الإنجليزية التي تروى انقلاب ١٨ برومير. ويتروجم تيهينيت المقال الإنجليزي، بينما أخذ كليبر «يريد في كل لحظة وهو في حالة من التأثر والذهول» هذا هو مشهد كرومويل تماماً (٦٠). أما ميتو، للوجود في الإسكندرية، فإنه يسارع إلى إبقاء لوجوست داملس ليتمكن من حذف الالتفاتات للوجهة إلى عمل بونابارت في الرسائل. وعلى العكس من ذلك، وتمسك كليبر بعدم حذف شيء من رسائله ويحث رسوله على التسرع بسرعة. «إن ما كان صحيحاً البارحة هو صحيح اليوم أيضاً وسوف يظل صحيحاً على مر القرون. وليس هناك ما يدعو الجنرال بونابارت إلى الخوف مني؛ فهو الآن - بدلاً من أن يكون طرفاً، أصبح قاضياً في مسألة يعرفها مثلما أعرفها تماماً. وإذا كان عدلاً، فلا بد للجيش ولي أيضاً من توقع الاستتبال الأكثر تميزاً. وإذا كان غير عادل، فإنه سوف يجر العار على نفسه بالرغم من قوته وعندئذ فإن جريمة ذلك ستكون من عمله» (٦١).

إن ما يزلزل كليبر في أعماق أعماله، ليس هو مصير مصر - فهو متأكد من أنه قد اتخذ القرار الصحيح -، بل هو بالأحرى مصير الجمهورية. وشأنه في ذلك شأن كثيرين من الجمهوريين المخلصين، فإنه يجد نفسه موزعاً بين رفض الديمقراطية التي تعني الإرهاب، ورفض البونابارتية التي لا تعني سوى الديكتاتورية. وهذه المعضلة تجد تعبيراً عنها في الملاحظات التي يكتبها في تلك اللحظة في مذكرته الشخصية :

« - ما رأيك في أحداث ١٨ برومير ؟

« - إن فرنسا ما كان يمكن إخضاعها على يد مهرج أحقر من هذا المهرج.

« - من ثم فإنه لن ينقذ الوطن البتة ولا بد لي من أن أستنتج أيضاً ما تقوله إنك

لست نصيراً للمستور على الإطلاق ؟

« - إنه (المستور) ليس غير قناع خبيث. رأي الطاغية أن من المناسب التستر به

مؤلفك وسوف يلتقي من الناحية إن لم يجر القتال هو نفسه منها، قبل أن يصبح غير مجدٍ بالنسبة له...

د - إحدى لم التفتط قط من الوحد شارة العلاقة الحموية والد وجدت إن مما لا يليق بي - بعد الدور الذي أجهزني القدر على لعبه في هذه الثورة - تأمين سيد ولو للعبيد.

هـ - أنت لا تؤمن إنني بأن يوسع الجمهورية إن توجد ؟

و - بلى، لأنها لم تعد موجودة، على الأقل وفقاً للمعنى الذي يرتبط بهذه الكلمة، (٦٢).

والحال أن جيش الشرق - الجمهوري للبول - ليس شديد التعلق بهونابارت الذي سحب، من جهة أخرى، الضباط الذين يشكلون حاشيته العسكرية للباشرة. وهو يشكل خطراً بالنسبة للنظام الجديد، البالغ الهشاشة، كما سوف تبين ذلك للسائس السياسية الدائمة حتى مارينجو. ويرى كثيرون في باريس أن كليبر يمكن أن يشكل معارضة جمهورية انطلاقاً من جيشه. وتروج شائعات مفادها أن كليبر قد عقد مجلساً حربياً جرى فيه اعتبار هونابارت متهماً بالتخلي عن جيشه (٦٣). ولذا فإن الاتصال الأول (هونابارت)، غير المهم ببعثة بيكوردش - الموجود نائماً في طولون في انتظار سفينة - يهتم بإمكانات إرسال رسول عسكري إلى مصر (٦٤). وهذا الرسول هو الجنرال المساعد لاتور - موريو، الذي يصل إلى القاهرة في ١٤ فينتوز (٥ مارس ١٨٠٠). وهو يحمل معه رسائل من بورتيه، وزير الحربية، ومن الجنرال كلارك، مدير للمستودعات الحربية، لكنه لا يحمل أي رسائل من الاتصال الأول. وتشهد الرسائل بإصلاح أحوال فرنسا الذي تم بفضل عمل القناصل، لكنها لا تقدم أية تعليمات حول المسلك الذي يجب اتبعه. ويصل الأمر ببورتيه إلى حد قول: «لقد علمنا عن طريق التسطنطينية أن الصدر الأعظم قد تراجع إلى دمشق دون أن يظهر أمام جيشكم. وهذه أمجاد جديدة يحول دون كسبها».

وتثير هذه الوقاحة غضب كليبر الذي يرد بشكل جازح على بورتيه، «لقد كنت أنتظر بعض التعليمات الجديدة، وتأكيدي إيجابياً بإرسال عون من الرجال والأسلحة، وبدلاً من ذلك، فإنني لا أقرأ غير استبشارات مبهمة بالذكريات».

«إنني امتنع، أيها المواطن الوزير، عن إبلاغك بالتأملات التي لوحى إلى بها هذا المسلك، وبوسعك أن تخمنها بسهولة تامة. كما أنني امتنع عن إبلاغك بقتناء من هذا البلد،

لا يبدو أن بوسع القسطنطينية أن تخضع بشكل بالغ الروعة. لكن مالا يمكنني الامتناع عنه، هو إني أعتقدكم بتسلم الرسالة التي تفضلتم بكتابتها إليّ عند سفركم إلى فرنسا، وبما أن الظروف قد تهيأت، فإني أملككم اليوم بإخبار الجمهور الحاضر بما عرضتم توضيحه بقوى الألوان لحكومة الإنارة^(٦٥).

لكن كليبر يفعل ما هو متوابع منه وينظم حشد ولاء الجيش للدستور الجديد وإليك تدرك جهنماً أيها المواطن الهنرالي، أن الدستور الجديد هو أكثر ما يهمنا من بين كل ما أرسلته إليّ من صحف وكتب وكراسات. لقد قرأته وتسنّى لي أن أدرك أن الشجرة قد غرست بشكل بالغ الرسوم؛ لكن هذه هي الشجرة الرابعة التي نزرعها منذ عشرة أعوام. والحال أن الشجرات الأولى لم تؤت ثماراً لينة لو أن ثمارها كانت مرة تماماً. وأنا أرجو الكثير من هذه الشجرة الأخيرة، على أنني قبل أن أقدم لها طريفة منيحية، أود أن أتدق بولكير ثمارها. إن الجيش، ولا يجب الشك في ذلك بالمرة، سوف يقبل هذا العقد الاجتماعي للعام الثامن، وسوف قبله معه. وسوف يجري تقديمه إليه ما إن يجد نفسه أكثر وحدة إلى حد ما^(٦٦).

ويسارع ميتر إلى العمل إلى الكتابة إلى بوناپارت لشجب ترك مصر وتفنيده الأسباب التي قادت إلى ذلك^(٦٧). وإذا كان جميع الضباط لا يتفلسفون رأي ميتر، فإن البعض يبدعون في الانزعاج على مستقبل حياتهم العملية؛ ويبدو مستقبل فرنسا أقل عرضة للخطر وذلك بفضل النجاحات التي أحرزتها حكومة الإنارة في آخر عهدنا وبفضل وجود سلطة أقوى في باريس. وحتى إذا ما حانظ كليبر على قراره، فسوف يبرز توتر للوضع الفرنسي عندما تبدأ المصائب.

اللوزة إيلجين والكوان سميت

لكن الفرنسيين ليسوا الوحيدين الذين يعرفون نزاعات الأشخاص والسياسات. فعندما كان شقيق سيني سميت قائمٌ بالأعمال في القسطنطينية، كان هذا الأخير يتمتع بكل هامش للنارورة الضروري للتصرف كما يحلو له. واتفاق العريش هو محصلة سياسة متعاسكة تماماً جرى اتباعها منذ وصوله إلى شرقي البحر المتوسط. ويتميز وضع العميد البحري من جراء الهيبة التي اكتسبها خلال حصار عكا، وهو النجاح العسكري الإنجليزي

الوحيد في حرب الائتلاف الثاني كما أنه عزاء للرأي العام من إخلالات الإنزال في هولندا. والحال أن المؤتمر الأخير الذي عقده سبنسر سميت مع الرئيس القندي في القسطنطينية، في ٣٠ أكتوبر ١٧٩٩، كان قد وُلِّق على بدء المفاوضات مع كليبر مع إشارته بالفعل إلى تناقض السياسة الإنجليزية، فالواقع أن سبنسر سميت يدرك الخطر الذي تشكله عودة جيش الشرق، بالنسبة لحلفاء إنجلترا الأوروبيين، ويختار للتوهم عدم تقرير شيء وإيلاج الصدر الأعظم والعميد البحري بذلك (٦٨).

وبعد ذلك بوقت قصير، في مستهل نوفمبر ١٧٩٩، يصل السفير الإنجليزي اللورد إيلجين أخيراً إلى القسطنطينية. وشاغله الأول هو إعفاء سبنسر سميت من وظائفه الدبلوماسية. ويكتب هذا الأخير على نطاقاته في شوكة شرقى البحر المتوسط ويعلن حرب عصابات إنارية ضد اللورد إيلجين. ويكتشف السفير الجديد أن سيدنى سميت يتطلع هو الآخر إلى اللقب الدبلوماسي لوزير مفرض. ولذا فإنه يكتب فوراً إلى الرئيس القندي ليؤكد له أن صلاحيات العميد البحري لا تسرى إلا على توقيع معاهدة التحالف إلى جانب أخيه (٦٩). وعند وصول نها وصول اللورد إيلجين، يسأل الصدر الأعظم العميد البحري عن الدور الذي لابد له من لعبه. ويحاول سيدنى سميت طمأنة العثماني موضحاً له أن إيلجين هو مالك أرض اسكتلندي كبير له نفوذ بالغ على الحكومة الإنجليزية. ويلهم الصدر الأعظم أن الإنجليز لهم أيضاً أملاك جهل، يجب مراعاتهم، لكنه يجد أن اسم إيلجين يعنى بالعربية النجس، مما يعد ذلير شؤم (٧٠).

ومنذ ١٧ ديسمبر ١٧٩٩، يكتب العميد البحري إلى اللورد إيلجين ليرسم له لوحة من اللوائف، وهو يؤكد على عدم انضباط الجيش العثماني الذي يعتبره عاجزاً عن خوض معركة جادة ضد الفرنسيين (٧١). وبسرعة بالغة، يقف السفير في وجه عمل العميد البحري، خاصة فيما يتعلق بعمليات تبادل الأسرى. ويرد عليه سيدنى سميت بأنه يجازف بذلك بفتح الجيش الفرنسي إلى اليأس وإطالة أمد الحرب (٧٢). لكن إيلجين يخشى من أن العثمانيين قد يفكرون، بعد الجلاء من مصر، في قلب التحالفات.

ومنذ ما قبل التوقيع على الاتفاق، يعرف العميد البحري معارضة السفير الذي يرى أن هناك من يعمل على إفتصاب صلاحياته. وعندما يصل نها الاتفاق إلى القسطنطينية، في منتصف فبراير ١٨٠٠، يدخل إيلجين معركة ضد سيدنى سميت. فهو يرى أن هذا القرار يتعارض مع مصالح السياسة البريطانية التي يجب لها أولاً أن تسعى إلى الحل

دخل فرنسا في القسطنطينية وهو ما يستلزم إطلاق أمد الحرب. وبالرغم من كل شيء فإنه معتمد لاحترام التمهيلات للتخنة ويهتم بوسائل النقل التي يجب إرسالها إلى مصر. ويفكر البعض في حاشيته في عدم تطبيق للاتفاق أو على أية حال في تهديد جزئي للشروط الممنوحة للفرنسيين (٧٢). ومثال نابولي، ممالك نيلسون في السنة السابقة، مائل لتسهيلهم. وسعيًا إلى السيطرة على نحو الفضل على العميد البحري، فإن اللورد إيلجين يرسل سكرتيره جون فيليب موريه للانضمام إلى السفن الإنجليزية في شرفي البحر المتوسط والعمل كمفاوض لدى اليهودي العثماني (٧٣).

ويبدو من الواضح أن موريه يقترح على سيدني سميت تطبيق خدعة حربية تتألف من أسر الفرنسيين، ما إن يركب هؤلاء الآخرون البحر، وهم مصنفون للاتفاق. ومثل هذا الاقتراح يثير غضب العميد البحري. وهو يكتب إلى اللورد إيلجين في ٢٠ فبراير ١٨٠٠ أنه قد أدى دائماً واجباته على النحو الذي يليق بسلطان إنجليزي وأن مثل هذه الحيلة غير شريفة. وسوف يعارض بكل قوته هذا الحدث بالعهد (٧٤).

خروج الحكومة البريطانية

إذا كان إيلجين يبدو معانٍ لتطبيق الاتفاق، فإن اللقائمة الرئيسية تجيء من لندن. على أن سيدني سميت كان قد أبلغ حكومته بحالة منظمة بسياسة عمله السيكولوجي الذي يعتبر قرار الجلاء محصلتها. لكن أعضاء الوزارة كثروا انجذاباً إلى صورة الأحداث التي رسمها لهم نيلسون. فالرجل الظافر في أبو القير يرى أن انتصاره البحري قد حكم على الجيش الفرنسي بالدمار على نحو لا سهيل إلى علاجه. وهو لا يستطيع قبول فكرة جلاء بسيط ويعارض منذ البداية مشروع العميد البحري (٧٥). والحال أن هذا الأخير، وهو من الناحية النظرية مؤيد لنيلسون، لم يتبع تعليمات رئيسه متذرعاً في ذلك بالمهام الدبلوماسية التي يعتبر مسؤولاً عنها من جهة أخرى.

وكان نيلسون قد احتج منذ البداية على هذا الخلط للمهام العسكرية والدبلوماسية (٧٦). وهو يرى أن سياسة سيدني سميت، خلاصة في تصوية للمملكة اللبنانية، إنما تجر بريطانيا العظمى إلى التدخل في أعمال لا تخصها وتهدد بجرها إلى عمليات عسكرية لا طائل من ورائها كحمارية أحمد باشا الجزائر (٧٨).

وقد هاجم نيلسون باستمرار عمل العميد البحري. ولم يك من شأن رسائل الفرنسيين التي تم اعتراض سبيلها، والحافلة بالشكايات، سوى إراحة المسؤولين الإنجليز إلى هذا الرأي. وأخيراً، فإن الصورة الكارثية التي تستند من التقارير التي يرسلها كليبر، إنما تبرز هذا التصور. ويوجد الإنجليز لدى خبيثة في نشر هذه النصوص المهيئة لبونا هارت وترويجها في أوروبا.

وبناءً على إشعار من خلال رسائل اللورد إلجين الأولى، فإن الأميرالية الإنجليزية تقر في ١٥ ديسمبر ١٧٩٩ عدم الاعتراف بقيمة جوائز السفر التي منحها سيدي سميت وتقرر أن تعيد إلى مصر كل فرنسي يحاول العودة إلى بلاده في هذه الظروف (٧٩). ويرى المسؤولون الإنجليز أن اتفاقاً وقعته العثمانيون وحدهم ليس ملزماً للأعضاء الآخرين في الائتلاف. ومن ثم فإن الاتفاق، قبل أربعين يوماً من التصديق عليه، يجري اعتباره باطلاً. وأحال أن نيلسون، المعادي للفرنسيين بعنف بالغ دائماً، يوافق على هذا القرار ويؤكد في ٢٢ ديسمبر: «لقد قرأت بسرور كل ما دار بين بونا هارت وكليبر والصدر الأعظم وأنا أرسل إلى اللورد إلجين بعض الوثائق البالغة الأهمية التي تشير إلى وضع الفرنسيين جد المؤسف. إلا أنني لا أستطيع إرغام نفسي على الاعتناع بأن توسعهم مغامرة مصر تماماً؛ وإنما ما فعلوا ذلك، فإنني لن أقبل أبداً أن يعود واحد منهم إلى القارة الأوروبية خلال الحرب. إنني أريد في أن يهلكوا في مصر وفي أن يقدموا بذلك للعالم مثلاً عظيماً على عدالة العلي الكبير (٨٠)».

والحال أن اللورد كيث، وهو رئيس نيلسون في البحر المتوسط، الأمر الذي يشير عظيم ثم هذا الأخير من جهة أخرى، إنما يسارع مخلصاً إلى الكتابة إلى كليبر، منذ تلقي تعليمات الأميرالية في ٨ يناير ١٨٠٠، لكي يذهب إلى النوايا الإنجليزية. وسوف يتعين على سيدي سميت نقل الرسالة فوراً. لكن عوامل تأخر النقل كثيرة بحيث إن كل شيء يحدث بعد تبادل أوراق التصديق. وعندما يبلغ سيدي سميت نيلسون، في ٢٠ يناير ١٨٠٠، بإبرام الاتفاق، فإنه يعيد عن الشك في أهمية المعارضة التي أثارها (الاتفاق) بالعمل لدى مسؤولي بلاده. وفي المقابل، فإنه يوضح جيداً رهائنه الحقيقية: «بما أن الهدف للعظيم لعملياتنا في هذه المنطقة هو رد مصر إلى حليفتنا (الإمبراطورية العثمانية) ورد الأمن إلى للممتلكات البريطانية في الهند، وهي مزايا لا تقارن بعدد من التضحيات الزهيدة، فإنني لا أشك في أن سياستكم سوف توافقون معي في أننا قد حصلنا من طريق المفاوضات على كل

ما كان يمكن الحصول عليه عن طريق انتصار (عسكري)، في الوقت الذي لا يمكن فيه للمرء أن ينوي إبادة أو حتى إلال عدو شعاع بوتما ضرورة لذلك. وبشكل مستقل عن ذلك، فإنه لا يجب أن يقرب عن النظر أن جيشاً مضبوطاً من الخاضعين، حتى وإن كان مستأً من وضعه، إنما يمكنه، إذا ما دفع إلى اليأس، أن يحافظ لمدة طويلة على امتلاك بلد شبه محصن، ملء بالسفود والتقنات، التي تجعل من الصعب دخوله، حتى عندما يمكن في نهاية الأمر وضعه في حالة من اللودية، اعتماداً على إمكانات ثلاث إمبراطوريات، عندما يجري استغلالها (٨١).

الحلف أو أوروبا

إن للسالة الحقيقية تكمن هنا. وبالنسبة للعديد البحري، فإن العثمانيين ليسوا لقط عاجزين عن قنمبر الجيش، بل إن وجود هذا الجيش الأوروبي في الشرق، حتى وإن كان ضعيفاً، إنما يعتبر عامل زعزعة لاستقرار الموالع البريطانية على طريق الهند. وما إن يفكر المرء من زاوية للمصالح الحيوية للإمبراطورية البريطانية الآخذة في التشكل، فإن الأولوية يجب أن تولى لجلاء الفرنسيين عن مصر. وبالنسبة للثمن، لقد حانت لحظة الاختيار، إن الاعتراف بالحل الذي يقترحه سيدني سميث إنما يعنى الإعلاء من شأن للمصالح الإمبراطورية على حساب التوازن الأوروبي (٨٢). وعند وصول خبر الاتفاق، فإن الحلفاء في الائتلاف يحتجون بقوة لدى حكومة لندن (٨٣). وبالنسبة لهم، فإن الاضطرار إلى محاربة جيش فرنسي إضافي ليس منظوراً بالغ الجاذبية، خاصة إذا كان تحت قيادة كليبر.

ومن ثم فإن الحكومة البريطانية سوف تتردد طويلاً. إن مالم يك توسع كليبر لقط أن يحلم به في حساباته الأكثر مكرراً بسفاجة يوشك أن يحدث، إن مصير الائتلاف ذاته هو الذي يصبح عرضة للخطر. وفي نهاية الأمر، فإن السلطات البريطانية تفضل اللجوء في أن واحد إلى التنصل علناً من سيدني سميث وتحمل المسؤولية في الوقت نفسه عن قراراته. فاجتماع مجلس الوزراء المتعقد في ٢٨ مارس ١٨٠٠ يوافق على الاتفاق بقدر ما أن سيدني سميث قد نلف كلام بريطانيا العظمى، بالرغم من أنه لم يك يملك صلاحيات لذلك، ويقدر ما أنه لم يعد هناك وقت للتراجع. وسوف يتعين على الدبلوماسيين البريطانيين أن يشجروا بشدة أمام الحلفاء مسلك العديد البحري وأن يعتذروا.

ومن المؤكد أن الأساليب التي جرى التذرع بها للتصديق على الاتفاق كانت فاعلة. لكن السبب الأكبر، مع كونه على ما يبدو أقل وضوحاً، هو إنراك مجمل مشكلات طريق الهند التي تكشفت خلال أشهر النشاط الدبلوماسي المحموم بين البحر المتوسط وخليج البنغال. فقد إنراك للسؤولون البريطانيين أن روسيا تهدد أيضاً مصالحهم الشرقية (٨٤). وقد أعلن حول الأول نفسه راعياً كبيراً لأخوية ملحة ومطالب بالجزيرة. وبوجه خاص، فإن مزاعم سوفوروف في مستهل خريف ١٧٩٩ قد قادت القيصرة إلى استدعاء القوات الروسية من أوروبا الغربية. وهذا الاتصال يسمح بالتفكير في عودة من جانب روسيا إلى سياستها الشرقية، إمّا على شكل وضع الإمبراطورية العثمانية تحت الحماية بحجة الدفاع عنها ضد الفرنسيين الموجودين في مصر، أو عبر حرب توسع على حساب فارس (سوف تبدأ هذه الحرب بعد ذلك بأربع سنوات). ومن ثم فإن إنهاء الوجود الفرنسي في مصر يصبح أكثر إلحاحاً.

وحتى إرسال التعليمات التي تصرح بعودة الجيش الفرنسي إلى اللورد كيث ولورد إلجين وسينج سميث. لكن الوضع في مصر، في تلك الأثناء، كان قد تبدل تماماً.

تطبيق الاتفاق

على أن الأمور كانت قد تحركت بالفعل. فبمذا تواقع الاتفاق، قدم الصدر الأعظم عرضاً إلى الفرنسيين. فهو يرى أن الصلح قد تحقق ويقترح وساطة عثمانية في النزاع الأروبي. وهو يطلب إرسال مفوض فرنسي إلى القسطنطينية، تتمثل مهمته الرسمية في مناقشة رد للملكات الفرنسية، بينما تتمثل مهمته الفعلية في مناقشة الصلح الشامل (٨٥). ويسمح مصطفى باشا لكثير بلهم أن الباب العالي يمكن تماماً أن يكون بحجة إلى فرنسا لمراجعة أطماع روسيا (٨٦). ويحدد بوسيلج مذكرة بناءً على طلب الصدر الأعظم. ومن الضروري الحصول على موافقة إنجلترا، ولابد لذلك من أن يكون أكثر سهولة اليوم بقدر ما إن إنجلترا مهتمة اهتمام الباب العالي بالتصدي لتوسع روسيا، لأن هذا التوسع سرعان ما سوف يهدد ممتلكاتها في الهند.

والأمر أن فرنسا سوف تجد نفسها مجبرة على التحالف مع روسيا. ومن ثم فإن على الباب العالي أن يلعب دوراً دبلوماسياً كبيراً في أوروبا.

«إذا ما لابت كل دولة تلهم مصالحها أخيراً، فسوف يكون من السهل التوصل إلى

صلح شامل وثمانه هـ نظام جديد للتوازن السياسي يجب للباب العالي ان يكون مركزه.

«ويجب على إنجلترا وفرنسا تقديم قدر من التضحية ويتعين على النمسا، من أجل توازن أوروبا، ومن أجل صالح الباب العالي، ألا تكون بالغة القوة في إيطاليا، ويتعين عليها ان تعيد دولة البندقية لو ان تتنازل عن فتوحاتها التي تمت منذ استئناف الحرب، مع حفظ الحق في رؤية ما سوف يكون من الأنسب عمله من بين هذين الأمرين، حتى تتخلي روسيا عما تحتله في البحر المتوسط.

اوسوف يكون من السهل إحكام تواط هذا النظام، بتوحيد الدول التي ينسبها كالباب العالي وروسيا وإنجلترا وفرنسا وأسبانيا.

«تلك هي الأفكار التي يمكن للباب العالي بموجبها ان يقرر ضرورة الصلح وأن يهيئ الأطراف المتحاربة لهبة شاملة، يتم العمل خلالها في مؤتمر لجميع دول أوروبا على إقامة هذا الصلح على الأسس التي من شأنها أن تجعله دائماً (٨٧)».

وهكذا فإن الباب العالي، الذي يبدأ بالكاد في الانحياز في اللعبة الدبلوماسية الأوروبية، يتصور أنه قادر بالفعل على أن يصبح للحدود الأساسية لأوروبا متصالحة. ويذكر كليبر ويوسيلج على حد سواء إسرائيل جيداً أنهما غير مفوضين لمناقشة مثل هذه المنظورات الضخمة؛ ويحيلان المسألة إلى الحكومة الفرنسية (وهي حكومة الإدارة بالنسبة لهما دائماً، في تلك اللحظة)، إلا أن بومسهما أن يريا أن الاتفاق يقود إلى اتفاق ملائمة بالنسبة للسياسة العامة لبلدهما.

والآن، يخاطب كليبر ديوان القاهرة لإبلاغه بعودة السلطة العثمانية. وهو يبرر هذا الاتفاق بتذكيره بأن هزات هارت لم ينازع قط السيادة العثمانية على مصر. وهو يهني الديوان على عمله في تهدئة النزاعات، لكنه ينتبه إلى أنه لن يجرى اغتلاز أية فوضى خلال فترة الجلاء (٨٨). وبالنسبة لأعضاء الديوان، فإن أول اتصال مع السلطات العثمانية يمثل خيبة أمل مريرة. فالموظفون المرسلون إلى القاهرة هم موظفو الضرائب المكلفون بحماية الضرائب المرجحة إلى تغطية نفقات جلاء الجيش الفرنسي. ويهبر الجبرتي عن أنه من هذه المصيبة الجديدة (٨٩).

لكنه يلاحظ بعد ذلك أنه لم يحدث قط دفع للضرائب يمثل هذا السرور. والأعيان

والعوام لا يخلون فرحتهم ويكبلون الإهانات للفرنسيين الذين يعنون للرحيل. كما أن نقولا الترك يتحدث هو أيضاً عن الفرحة التي لا توصف والتي استولت على جميع المصريين (٩٠). على أن النهضة لا تقوم إلا لعنة لسابغ، وهو ما يسمع بأن يمر صيام رمضان دون حوادث، إذ تجلو القوات الفرنسية في نظام جيد عن شرق الدلتا ومصر العليا، وتتجمع في غرب القاهرة، في مشغل الحى الأودوى الذى ظهر بين المدينة والقيل. وفى تلك الأثناء، يحتل العثمانيون الواقع التي يتركها الفرنسيون لما مراد بك، المنزعج على مصيره بالرغم من كلمات العثمانيين للطمئنة، فإنه يقيم معسكره على الضفة الغربية للنيل (٩١). بينما يبقى إبراهيم بك مع الصدر الأعظم.

وتجىء الحوادث الأولى من تمركز المظبقة العثمانية في المطرية، في شمال شرق المدينة. ويؤدى القرب الشديد جداً إلى زيارة جنود الصدر الأعظم للمدينة وينشب احتكاك مع الجنود الفرنسيين. والحال أن مصطفى باشا، الذى يحكم المدينة باسم الصدر الأعظم، يتدخل على الفور ويأمر بتطوع رؤوس الجنود المسؤولين عن الحادث (٩٢) بينما يكثف الضباط الفرنسيون تعليمات التحلى بالحكمة والانضباط الصارمة إلى رجالهم. وفى المقابل، يطلب العثمانيون جلاءً أسبق عن القاهرة. ويرفض الفرنسيون مذكرون بأن الانسحاب من مصر العليا لم يستكمل وبأنهم لا يمكنهم ترك مستودعات الجيش الرئيسية (٩٣).

وتجىء الأخبار السيئة من جهة الإنجليز. فى ١٧ فبراير، تظهر أمام الإسكندرية دورية بريطانية جديدة. ويرسل الجنرال القائد للمدينة إليها مثنوياً لإبلاغها بحرب رحيل سفينة حراسة فرنسية وفقاً لشروط الاتفاق، لكن محدثه يدون بأنهم مزودون بأوامر أعلى من أوامر سهدنى صميث وبأنهم سوف يمهنون لرفض حصار تام للميناء. ويطلب كليبر تدخل فوراً من جانب الصدر الأعظم لتهديد سوء التفاهم هذا ويعلن أنه سوف يرفض الجلاء عن القاهرة مالم تهر تسوية مسألة حرية مرور الجيش الفرنسي (٩٤). وفى الأيام التالية، يتمسك الفرنسيون بهذا القرار. بالرغم من سماحهم للعثمانيين بإرسال وحدة إلى مصر العليا. على أن يوزع ورفاقه (دافو، سافارى، واپ، كولبير...) يتمكنون، بسبب اختفاء السفن الإنجليزية، من مغادرة الإسكندرية فى ٣ مارس ١٨٠٠. ويستعد نوحا وأبيال وهوسيلج للحاق بهم.

رسالة اللورد كيث

في ١٠ مارس ١٨٠٠، يتلقى كليبر رسالة مزعجة من سيدني سميث، مرسله من قبرص في ٢٠ و ٢١ فبراير. والحال أن جون كيث، سكرتير سيدني سميث، هو الذي يحملها. ويسارع الفرنسي فوراً إلى إبلاغ الصدر الأعظم بمضمونها ويعلن له أنه يوافق جميع تدابير الانسحاب فلم يسمح مؤتمر جديد بتصوية المشكلات الجديدة^(٩٥). والواقع أن سيدني سميث كان قد نقل رسالة اللورد كيث للوجهة إلى القائد الفرنسي والمكتوبة في أوائل يناير ١٨٠٠:

«على متن سفينة صاحب الجلالة الملكة شارلوت»، في ميونخ، في ٨ يناير ١٨٠٠.

سيدني

«بالنظر إلى أنني قد تلقيت أوامر مؤكدة من صاحب الجلالة بعدم الموافقة على أي اتفاق مع الجيش الفرنسي الذي تكونونه في مصر وفي سوريا، اللهم إلا في حالة إلحاح للمصالح واستسلامه كأسير حرب وتخليه عن جميع السفن وعن جميع الممتلكات في ميناء ومدينة الإسكندرية للدول المتحالفة وفي حالة حدوث استسلام بعدم السماح لأي جنود بالعودة إلى فرنسا فلم يكونوا مهالين، فإني لوى لزاماً على إيلاحكم بأن جميع السفن التي يوجد على متنها جنود فرنسيون والتي تبحر من هذا البلد بموجب جوازات سفر مراقبة من جهات أخرى غير الجهات التي تملك حق منحها، سوف يجبرها ضباط السفن التي أقربها على العودة إلى الإسكندرية، وأن السفن التي سوف تقابل عائداً إلى أوروبا، بموجب جوازات سفر ممتوحة بناءً على اتفاق خاص مع إحدى الدول المتحالفة، سوف يجري الاستيلاء عليها وسوف يعتبر جميع الأفراد الموجودين على متونها أسرى حرب^(٩٦)».

ويؤكد سيدني سميث أنه سوف يحترم الآن الهدنة، فعندما تعلم حكومت اللورد الذي لعبه في المفاوضات، لن يكون بوسعها سوى الاعتراف بمشروعيتها. وهو الآن يحضر أمام الإسكندرية على أمل تنظيم لقاء مع كليبر. وعند وصوله، يجد هناك هوسيلج الذي يتحدث معه. ويتناول الرجلان عدداً معيناً من القرارات:

«في هذه الحالة التي تمر بها الأمور، يرى السيد سميث أن الجلاء يجب أن يبلى عند اللحظة التي وصل إليها الآن، باتخاذ ترتيبات في هذا الاتجاه مع الصدر الأعظم؛ وهو يود أن

تتاح له إمكانية التحدث معك بشكل مباشر حتى يتحقق توافق بينكما. وهذا يبدو مستحيلا في هذا الطرف، فأنت لا يمكنك مقابلة القاهرة، وسميت لا يمكنه مقابلة الصليبية (تيجو) لكي يقرب بعيداً جداً من نوريته البحرية، فهو يريد أن يظل هناك لكي يتصدى لجميع الحالات التي قد تنشأ، وهو يريد بحزم تنفيذ الاتفاق على نحو ما تم الاتفاق عليه. وقد لطمعنى على الرسالة التي كتبها بناءً على ذلك إلى الصدر الأعظم والتي تتمشى تماماً مع هذا الاتجاه. وهو يكلف السيد كيث سكرتيره بالتفاهم معكم على ما تعتبره ملائمة - أي التروي - مع بقاء الأمور على ما هي عليه، حتى يتمكن من إزالة جميع المصائب، وهو ما لن يؤدي إلى تهديد وقت كثير، ما دام أنه لم يتم بعد من جهة أخرى إبعاد شيء من الأشياء الضرورية للجلاء ولا من الأشياء التي يجب على الأتراك تقديمها. ولابد من الذهاب للبحث عن السفن وعن البراميل وعن الف شيء آخر في صقلية ومن جانب القسطنطينية. فلا شيء يوجد لا في قبرص ولا في سوريا.

وصوف يمارس بوسيلج مهمة موازنة مهمة سكرتير العميد البحري وسوف يمثل أمام اللورد كيث لرده إلى رغبته (٩٧).

مهمة جون كيث

منذ وصول جون كيث إلى القاهرة، مهمة استطلاع إمكانات تأمين للدعوات للجيشين العثماني والفرنسي، فإنه يقوم بزيارة الأعيان الرئيسيين المرتبطين بالفرنسيين. ويبدو الأتباط الأكثر انزعاجاً. ويرى كيث أنهم كانوا مهبرين على التعاون مع الفرنسيين وينصح للمعلم يعقوب بالذهاب إلى معسكر الصدر الأعظم لعرض خدماته. وهو يحصل على ضمانات من جانب إبراهيم بك، الذي أصبح من جديد شيخ البلد على مصر ومن نصوص باشا (٩٨). الرأى السعى للحلول محل مصطفى باشا في القاهرة. وينزعج الجميع من إمكانية انتفاضة معادية للمسيحيين من جانب سكان المدينة. كما أن سكرتير العميد البحري يخشى من تعارض عنيف بين مراد بك والعثمانيين. ولذا فإنه يحاول التفاوض على ولاء الزعيم المملوكي الكبير بالاجتماع مع الست نفيسة ودوزيتي (٩٩).

وفي ١٠ مارس - بعد لقاء مع كليبر - يزود جون كيث المعسكر العثماني، ويشدد على ضرورة وقف زحف الجيش إلى المطرية حيث توجد الطلعة. والشيء الأساسي

بالنسبة له هو تجنب حدوث اتصال بين الجيشين. وفي ١٢ مارس، يلتقي مرة أخرى بكليبر الذي يهتف على أمانه واستقامة سيدني سميث. وفي اليوم التالي، يسارع إلى فحص مراقب مراد بك مع القسمة تقيسة وروزيتي. وبعد ذلك بوقت قصير، يتحفظ عليه الفرنسيون في مقر مراقب، مع الكثير من وجوه للراحة من جهة أخرى. وإن يجرى الإفراج عنه إلا في ١٦ مارس، مع وصول رسول بريطاني جديد، هو اللازم رابت.

والحال أن جون كيث، وهو مراقب ممتاز، كان قد رصد خلال إقامته القصيرة وجوه قوية ووجوه ضعف الوجود الفرنسي. وهو يختم تقريره بالإشارة إلى أن الفرنسيين سوف يأسف على رحيلهم الفلاحون وجميع مشايخ وعلماء مصر لأنهم لم يرتكبوا للظلم للثروة من الأتراك ومن للماليك ولأنهم قد عملوا بوجه علم على تخفيف العبء الضريبي من الأرياف. كما أن للصيحيين، على الرغم من أنهم قد تعرضوا لعبء ضريبي جسيم وإن كانوا قد استفادوا من سلم وأمن لم يسبق لهم الإحساس بهما، يبدو أن نصارك لبقاء الفرنسيين. وفي المقابل فإن أعداء الفرنسيين هم البدو، المتمردون دائماً بحكم طابع حياتهم، والماليك الذين جربوا من سلطاتهم وامتنانهم، والطبقات للتوسطة في المدن الكبرى والتي جرى إخضاعها لانضباط وانظام لم تعرفهما من قبل. والجيش الفرنسي يتميز بمعنويات جيدة؛ فهو سعيد بالعودة إلى الوطن، لكنه مستعد، وهو جيد التسليح، للقتال تحت قيادة قائد يثق به ثقة عظيمة. والحال أن ذبا ١٨ برومير قد ترتبت عليه إرادة تنشيط اتجاه مزيد للبقاء في مصر (١٠٠).

الاتصالات مع مراد بك

الواقع أن كليبر - على الرغم من اعتزاله بأمانه سيدني سميث - إنما يشعر بسخط عميق على تهديد اتفاق الحريش. وبحسب التعبير الرائع الذي استخدمه نقولا الترك، فإنه أخذ يمعج عجيح الدهرش بصوت ألف من صوت الوحوش؛ (١٠١). وهو يتخذ على الفور تدابير احتياط ويضع على أهبة القتال جيشه، الذي أصبح الآن محتشداً بالكامل في الجزيرة، باستثناء حاميات الساحل الغربي للدلتا. وهو يشعره بتأجيل الرحيل ولسبابه، ويطلب منه التلة،

«أيها الجنود الإننى مكلف بالسهر على حمايتكم بالدر ما إننى مكلف بالسهر على

فياكم للهد. وسوف أحقق أملكم، لكننى أطلب منكم، فى جميع الأحوال، الثقة والطاعة^(١٠٢).

ويرسل كليبر فوراً إلى الست نفيسة سعياً إلى اقتراح حلول حازمة، إن الفرنسيين على وشك القطيعة مع العثمانيين، ويجب على مراد بك الانحياز إليهم. وعند تحقيق الصلح الشامل، سوف يجلو الفرنسيون عن مصر وسوف يصبح سيداً لها. والحال أن زوجة مراد بك قد ماتت، إن زوجها سوف يقضى بلا شك إن لم يتلق ببالغ العسرة إشعاراً على هذه الدرجة من الأهمية، وأنه الآن جد الريب من القاهرة، وأنها قد أرسلت إليه هذا الصباح خصيها الأول الذى لم يعد بعد على أية حال. [...] وأنها سوف ترسل إليه فى الساعة رجلاً موثقاً به سوف يحمل إليه بأمانة الاقتراحات للمشار إليها، وأنها لا يمكنها أن تعرف تماماً نوايا زوجها حتى تراه بأنه سوف يقبلها، لكنها تعرف أنه مستعد بشكل خاص للتوصل إلى ترتيب مع الفرنسيين. [...] وأضافت أنه لو كانت الظروف قد سمحت بهذا هذا للسعى قبل ثمانية أيام خلت، لكان نجاحه مؤكداً. [...] وأنها صلاوة على ذلك لا يمكنها أن تستقبل إلا بالسريور اقتراحاً يميل إلى منع زوجها من القتال، بالنظر إلى أنه قد يهلك فى ذلك العمل. وقد أضافت بعض الأكرال الأخرى وقالت إنها تفضل على أى شيء آخر الصلح بين الفرنسيين والعمانية والمماليك والإنجليز، وأنه إذا ما أصر هؤلاء الآخرون على مد طريق البحر، فعلى الصدر الأعظم أن يخرج بنا عن طريق البر^(١٠٢).

والحال أن كليبر - شأنه فى ذلك شأن الرسول البريطانى - يرى أنه يجب - قبل كل شيء - التوصل إلى أن يوافق الجيش العثمانى زحفه على القاهرة، وفى ١٥ مارس يراد كمفروض لدى الصدر الأعظم الجنرال داماس وجلوتيه، الذى حل محل بوصيلج فى الإشراف على الشؤون المالية، ويتعين عليهما التوصل إلى بقاء الفرنسيين فى القاهرة وفى البلتا وكذلك التوصل إلى دفع النفقات الإضافية لإعاشة الجيش الفرنسى خلال هذا التمديد غير للتوقع لإقامته فى مصر. ومن غير الوارد التساهل فيما يتعلق بهاتين الخططتين وإن يجلو الجيش إلا عندما يتلقى تعهداً من قادة الأساطيل الإنجليزية والروسية بضمان اجتيازه الحر للبحر المتوسط^(١٠٤).

ويكتب مينو من جهة من وشهد إلى كليبر أنه مستعد للموت إذا كان ذلك ضرورياً فى سبيل الجمهورية. وعلى ذكرى الفتية الرحيل هذه، سوف يرد كليبر من خلال داماس فى الأسبوع التالى بأن مينو، لكونه لم يأت إلى مواقع القاهرة الذى انتخب إليه قبل ثلاثة



۱۷ - (۱) لاسکاریس.



(ب) رهبان القباط.



Reynier

(أ) رينيه.



Damas

(ب) داماس.



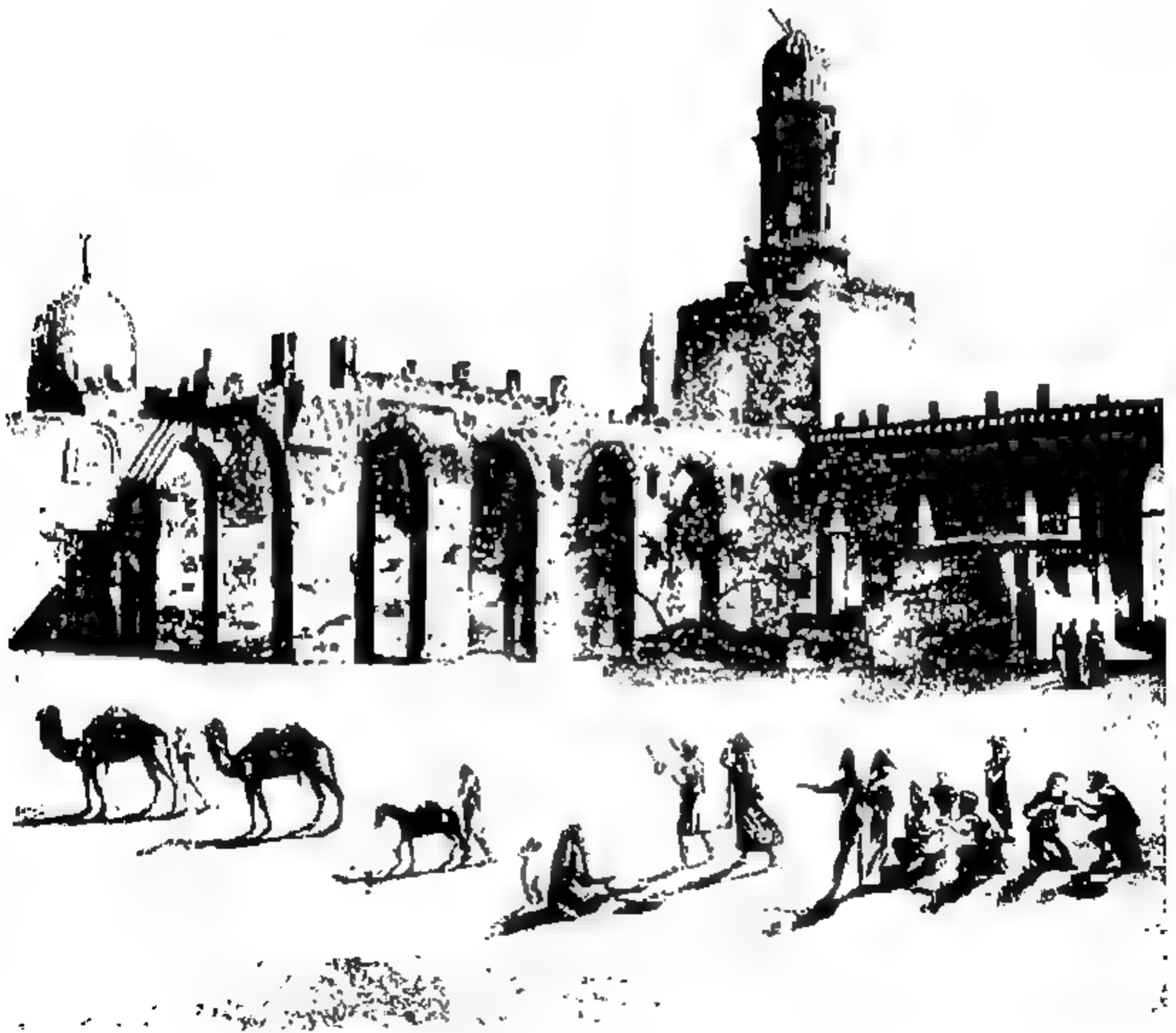
Lirion

(ج) ليريان.



Lanros

(د) لانروس.



٦٠ - مسجد القديم لأبي باب النصر (مسجد الحاكم بأمر الله الفاطمي).



٦٩ - سیمین سمیت و اجزای دیگر



٦٦ - مورخہ ١٩٨٠ء





٦٤ - معركة كلنوب.

اشهر، قد أصبح نسباً منسباً وجري تركه لذكراته من الاقتصاد السياسي^(١٠٥). والحال أن مينون لن يغير لعلما هذا لرد الهين.

ملامحات الفرقة الأخيرة

في تلك الأثناء، يتوجه المصدر الأعظم بالخطاب إلى سيدني سميت ويوضح له همهم للموقف البريطاني. وهو يحثه بالتحاح على أن يرسل إلى كليبر رسالة تطمئن هذا الأخير إلى أنه ليس هناك ما يهدد إلى الخوف. ومن الصعب أن نحدد هذا ما إذا كان المصدر الأعظم قد أدرك بالفعل خطورة الموقف أو ما إذا كان يدبر خدعة للتوصل إلى رحيل الفرنسيين (إن نسخة من الرسالة للوجهة إلى العميد البحري جري نقلها إلى الفرنسيين)^(١٠٦). والحال أن موريه، الموجود في المعسكر العثماني بحث محدثه على الحزم وينصحهم بالتمسك بصرامة بنود الاتفاق خاصة فيما يتعلق بمواعيد الجلاء عن المنى المصرية.^(١٠٧) بل إنه يقترح تكذيب رسالة اللورد كيث. وسوف يؤدي هذا الموقف للتناقض للرسائل الإنجليزية إلى تعقيد الموقف تعقيداً خاصاً.

ويصل للملازم رابت إلى المعسكر العثماني في صباح ١٥ مارس. وهو يخاف المصدر الأعظم إدراك خطر استئناف المعارك، ويؤكد أن الجيش العثماني إنما يوجد في وضع غير مؤات على المستوى العسكري. لكن موريه ينصرف في الاتجاه المضاد، ويدفع العثمانيين إلى المطالبة بالجلاء عن القاهرة، وتتركز جميع القوات الفرنسية في الجزيرة على الضفة الغربية، حيث يعتبر النيل بذلك الخط الحاصل. لكنه عاجز عن ضمان تطبيق الاتفاق باسم اللورد إلجين. ويطلبه رابت في أن فرانكيني، ترجمان السفارة الروسية، يستخدم دوره لهم كمتوهم لمنع الأمور إلى استئناف الأعمال الحربية سعياً إلى السماح بإرسال جيش روسي إلى مصر^(١٠٨). وفي هذا التشوش الذهني والتحديق، يدخل العثمانيون المؤتمرون الأول مع الفرنسيين، حيث لم يدع الرسولا الإنجليزيان إلى المشاركة فيه.

ويؤكد العثمانيون في ذلك المؤتمر لقتناعهم بأن البريطانيين سوف يرفعون قريباً الحظر الذي فرضوه على الخروج. وفي المقابل، يتهم الفرنسيون سيدني سميت بسوء النوايا، ويرفضون الجلاء عن القاهرة وإقليمها، بالرغم من مطالبات محدثهم للملحة. ويطلب هؤلاء الآخرون الطلب الخاص بتقديم الأموال والمؤن الغذائية الإضافية. وسرعان ما

يتم الوصول إلى طريق مسدود، «ما الضمانات التي سوف يقدمها الأتراك إلى الفرنسيين وما طلبها؟»

١ - سوف يتم تسويتها في مؤتمر آخر.

٢ - إذا أصر الإنجليز على منعنا من الخروج من مصر، فما السبل التي سوف يتخذها الصدر إن؟

٣ - إن الهدف العالي يضمن بالكامل سلامة رحلة الفرنسيين من الإسكندرية وحتى فرنسا. وهو يضمن أيضاً جميع نقاط معاهدة المعيش. وإذا كانت هذه الوعود تلهمكم الثقة، فلا يلزم إثارة للمصائب، إن لم يك كل كلام لا داعي له.

٤ - إن حسن نوايا الأتراك لا يدع أي مجال للشك، لكن للفوضين الفرنسيين بتكروهم برسائل الأمورالات الإنجليز ويهينون لهم أنهم لا يمكنهم البتة الإبتعاد عن التعليمات الصادرة إليهم وأنهم سوف يبلغون القائد العام بملاحظاتهم (١٠٩).

ولمّا هذا الوضع، يقرر المتفاوضون رابع الجلسة إلى اليوم التالي حيث سوف تجرى دعوة الرسولين الإنجليزين إلى الحضور. ويقرر رايث وجون كيث على الفور للعسكر الفرنسي. ويجري استقبال الأول استقبالا ودياً جداً من جانب كليبر الذي يملك بانزعاجه، إذا كان الجلاء سوف يؤخر إلى الخريف انتظاراً للرد النهائي من جانب الحكومة البريطانية، فإنه لن يصبح محل اهتمام كبير من جانب الفرنسيين. وهذه الثقة توضح تماماً الأهمية التي يمتثلها بالنسبة لكليبر الدور الذي يمكن لعبه إن يلعبه في الحرب الأوروبية. وتستمر للحادث خلال الحساء. ويقرر الجنرال الفرنسي عن إعجابه باستقرار النظام السياسي الإنجليزي. وهو لا يخاف من أن يرى فرنسا يوماً ما متمتعة بمثل هذا النظام. كما أنه لا يدافع عن بوناپارت عندما يعرض له رايث، بناءً على طلبه، تصور الرأي العام البريطاني للرجل. وفي الحساء، عندما ترجع للحادث إلى تناول مصر، يشدد كليبر على رفضه ترك القاهرة، ويطلب انسحاب العثمانيين حتى الحد الشرقي للدلتا.

ولدى هوية رايث إلى للعسكر العثماني، في اليوم التالي، فإنه يرجع إلى الحديث عن خطر استئناف القتال. ولا يهمل الصدر الأعظم بقاء الفرنسيين في القاهرة إلا لمدة ثمانية أيام إضافية. ويشرح مورييه لرأيث أهمية القضاء على الجيش بفضل خدمة حربية، فعلاوة على القضاء على الخطر الفرنسي على الهند، سوف تؤدي هذه العملية إلى إفساد الأمور

بشكل نهائى بين الفرنسيين والعثمانيين (١١٠). وتبدأ الجلسة الثانية للمفاوضات بين اللغوزيين لدى الصلاحيات الكاملة، لكن المأزق هو هو دائماً، فالعثمانيون يطالبون بالتسحاب الفرنسيين إلى الجزيرة ومزلاء الآخرين يتمسكون بمواقفهم.

روح كليبر بالأشوار

فى مساء يستقبل كليبر رايته. ويتأقده هذا الأخير الإبقاء على سوريا معلول الاتفاق، لكن الجنرال يرد عليه بأن موقف اللغوزيين للعثمانيين لا يدع له غير القليل من الأمل. بيد أنه قبل أن يواصل رايته التحرك بين العسكرين. وفى ١٧ مارس، يجرى استئناف الحديث بين الرجلين. ويتحدث كليبر عن خلافاته مع بوناپارت خلال حصار عكا، ثم يتحدث عن لرائه حول الثورة، وهو يتكلم بكره عن روبسبير وعن حربه، ويستفسر عن أخبار بيشييرو (هذا الجنرال من جنرالات الثورة الذى انتقل إلى للعسكر الملكى، وتم ترحيله إلى جوايانا بعد ١٨ فركتيدور، ولجأ فى النهاية إلى لندن بعد أن تمكن من الهرب). وهو يتناول المسألة الملكية، إن للملكيين مويون تقريباً كاليمانية، وقد فقد الأمراء اعتبارهم لرفضهم القتال إلى جانب انصارهم فى القانديه أو فى أى مكان آخر (فيما عدا الأمير لو كونديه). وكان لابد من إقصاء فرع الأورليانيين من العرش بسبب موقف زعيمهم فى السنوات الأولى للثورة. وإذا كان لابد لعودة (الملكية) أن تحدث، فلابد لذلك من اختيار عائلة غريبة عن فرنسا، ليست بحاجة إلى إشباع روح الثار (١١١). أما فيما يتعلق ببوناپارت، فإنه يقول: «إن الأوامر بيننا ليست جد حميمة». إلا أنه لا يمكن للمرء بعد أن يحكم على طابع حكمه وإنما ما رأى، لدى عودته إلى فرنسا، أن الشرفاء يؤيدون الحكم الجديد، لسوف ترويه عندئذ أقال ماغى أن يرى لغيراً قيام حكم مستقر.

وإذا يرجع كليبر إلى الحفيت عن المسائل للباشرة أكثر، فإنه يعبر عن رغبته تجاه ترجمان سفارة روسيا وتجاه موربيه. أما فيما يتعلق بجيش الصدر الأعظم، فإنه، من الناحية العسكرية، لا يسلوى أكثر من قافلة كبيرة. والجيش الفرنسى مستعد للمعركة والانتصار اكيد. ويحاول رايته أن يثنيه من ذلك بتكثيره بأن جيشه، حتى فى حالة انتصاره، سوف يكون دائماً عرضة لأن يصبح أضعف إلى حد ما وذلك بسبب غياب العون. إلا أنه يجرى التاكيد له على أن بوناپارت سوف يرسل بالتاكيد تعزيزات على سفن منفصلة يمكنها اختراق الحصار الإنجليزي. ويبدو كليبر واثقاً من إمكانية الإبقاء على مصر ويبين له أنه قد اتخذ قراراً بخوض المعركة فور تلقيه رسالة اللورد كيث. والتحول

السيكولوجي الآن كامل. ويسأل رايت كليبر إن كان، بعد استئثار القتل وفي حالة قبول الحكومة البريطانية للاتفاق، سوف يقبل تطبيعته. ويرد عليه القائد العام بأنه إذا ما هزم، فإنه هو ورجاله سوف يموتون وهم يقاتلون لأنهم لا يمكنهم التفكير في الحصول على أي عفو من جانب أعدائهم، أما إذا انتصروا، فإنه لن ينسى أبداً مسلك الإنجليز ولن يصفى بعد إلى مقترحاتهم. وهو ينهي حديثه بتوجيه الشكر مرة أخرى إلى سيدي سميت لإشعاره في الوقت المناسب.

ويدرك رايت أن الجيش الفرنسي مستعد بالفعل للقتال وأن بعض الزعماء للماليك قد ألغوا الفرنسيين بأنهم على وشك التحالف معهم ضد العثمانيين. ويصدر كليبر الأمر بإلقاء القبض على العثمانيين الموجودين داخل الخطوط الفرنسية (١١٢).

موقعة هيلوبوليس

في ١٨ مارس، يجتمع المفوضون الفرنسيون والعثمانيون مرة أخرى. ويشدد العثمانيون دائماً على الجلاء عن القاهرة لأن الجنود متحمسون ويهددون بعدم الانصياع لأوامر قائمتهم. ويطلب ممثلو الجانب الفرنسي ضمانات ويتكبرون بأن الإمدادات الموعودة بموجب الاتفاق لم تسلم حتى الآن إلا بحسرة غير منتظمة إلى حد بعيد. ووفقاً للجانب الآخر، فإن حالات عدم الانتظام هذه إنما ترجع بالفعل إلى واقع أن العثمانيين لا يحتلون عاصمة مصر. وإذا كان قد تسنى تصور حل ممكن للإمكانيات، فإن المأزق يظل كلياً دائماً فيما يتعلق بالنسبة للفرنسيين إلى الساحل الغربي لمصر. وفي اليوم نفسه، يتخذ كليبر خطوة أخرى وينشر في الأمر اليومي للجيش رسالة للورد كيث مع التعليق الموجز والشهير: «لها الجنود، إذا سوف نرد على مثل هذه الرسالة الواقعة بإحراز انتصارات؛ فلتتهيئوا للقتال».

وهذا الإعلان للوجز الرابط الجيش يشمل حماس الجيش، الساخط سخطاً عميقاً على غدر الإنجليز. إن التمسح الذي كان قد أدى إلى مصيانات يتلاشى مرة واحدة ولا يتطلع الجميع إلا إلى القتال. ويعقد كليبر في صباح اليوم التالي مجلساً حربياً يوافق على استئثار القتال ويكتب إلى المصدر الأعظم لإبلاغه بالطبيعة، «إن النزاهة التي أبديتها في تنفيذ البقية لاتفاقياتنا سوف تعطى لسموكم فكرة من حجم الأسف الذي أشعر به من جراء قلبية غير عادية إلى هذا الحد في هذه الظروف تتعارض مع الفوائد المشتركة لمصالح الجمهورية الفرنسية والباب العالي». وقد برهنت تماماً على عمق رغبتي في أن أرى بعضاً

لأواصر المصالحة والصلابة التي جمعت منذ زمن طويل بين الدولتين. ولقد فعلت كل شيء لتوضيح صفاء نواياي. إن جميع الأمم سوف تشهد بذلك وسوف يؤيد الله بالنصر عدالة قضيتي. والدم الذي نحن مستعدون لإراقته سوف يرتد على المسؤولين عن هذا الشقاق الجديد.

ويكثف المصدر الأعظم للفرمانات الدعوة للمسلمين إلى الجهاد ضد الفرنسيين ويرفض الانسحاب مع جيشه إلى شرقي الغلطة. وفي مساء اليوم نفسه، يتخذ الجيش تشكيل قتال. ويتجهل الجنود القتال. والحال أن كليبر يتمتع بفرقتين، هما فرقتا لريان وريديه، وقوامهما نحو أحد عشر ألف رجل مع الفرسان. وفي الساعة الثانية صباحاً، في ٢٠ مارس ١٨٠٠، يجري تشكيل مربعين بكل فرقة. وفي الساعة الرابعة، يبدأ الزحف على المعسكر التركي. ويبقى مراد بك ومجليكه بلا حركة على مقربة من ساحة المعركة. ويتم التغلب على المعسكر العثماني بسرعة. ويقبل كليبر التفاوض مع خصومه، لكن هؤلاء الآخرين يقضون على المساعد بوبو، المكلف بالتفاوض، ويحسبون معاملته. وهندسة يجري استئناف القتال. ومرة أخرى ينكسر سلاح الفرسان الشرقي على المربعات الفرنسية. على أن قائده، نصوح باشا، ينجح في حشد جانب منه ويهرب إلى القاهرة. وفي المساء، تلحق الهزيمة بالجيش العثماني. ويرسل كليبر لإجرائه مع لواء لتعزيز حامية القاهرة ويبدأ مطاردة الجيش العثماني مع بقية قواته.

وفي اليوم التالي، ٢١ مارس، يدخل بلبيس. وتستسلم الحامية العثمانية في اليوم التالي وتحصل على الإنان باللعاق ببقية الجيش في المصالحة. ويحاول المصدر الأعظم إجراء مفاوضات جديدة، لكنه، أمام صلابة كليبر، يتخلى عن جيشه ويهرب مع قوة حرس ممتازة إلى سوريا. ويؤدي رحيله إلى التفكك التام لكل ما بقي من جيشه الكبير. وهنئذ يذهب العرب في نهب واذبح جامع لكل ما هو عثماني، الأمر الذي يثير عظيم خيبة أمل الجنود الفرنسيين الذين لا يحدون بعد من الناحية العملية ما يمكن الاستيلاء عليه. وتشير استطلاعات الفرسان، الذين تم إرسالهم إلى الخطوط الأمامية، إلى أنه لم يعد هناك شيء غير الجثث حتى في فخل الصحراء. لقد تم القضاء على الخطر العثماني. لكن التقارير تتدفق من الوضع في القاهرة حيث نشبت للتو ضد الفرنسيين انتفاضة قوية، اعنف بكثير من الانتفاضة الأولى. ويضطر كليبر إلى العودة إلى العاصمة بينما يتولى جزء من قواته محاربة الانتفاضة التي نشبت في الغلطة.

إعادة الفتح

الانتفاضة القاهرة

كان سكان القاهرة على غير علم بالمحادثات التي أدت إلى انهيار الاتفاق. وعندما يسمعون طلقات مدافع معركة ميليوبوليس، فإن شعورهم بالمفاجأة يبلغ كثر مدى له. وسرعان ما يتحول إلى انتفاضة ضد الفرنسيين، وإلا ما صدقنا الجبرتي. فإن الحركة تنبع أساساً من تلك الطبقات الخطرة المميزة لأكبر مدينة في مصر. وبعد ذلك بوقت قصير، تبدأ الحركة في اتخاذ طابع منظم تحت تأثير عمر مكرم، نقيب الأشراف السابق، وأحمد المصري، شيخ التجار.

وفي الساعات التالية، تصل العناصر الناجية من المعركة. فيحصل - أولاً - إبراهيم بك ومماليكه، ثم تصوح باشا وعدد من المسؤولين العثمانيين - وفقاً للجبرتي - فإنهم هم الذين يعطون الأمر بالهجوم على المسيحيين، لكنهم - وفقاً لنقولا الترك - يفعلون على العكس من ذلك كل شيء لتهدئة السكان باسم المبدأ العثماني التقليدي الخاص بحماية جميع رعايا السلطان (١١٣). وتبدأ المذبحة التي تشكل إبناناً حقيقياً بنهاية الزمان وفقاً للكاتب الكاثوليكي اليوناني. وبمساعدة من الفرنسيين، يقاوم المسيحيون بالتمترس في بيوتهم وبإطلاق النار على المعتدين عليهم. ويتضامن الجنود الأرمن في الجيش العثماني مع إخوانهم في الدين ويحاربون العامة.

وفي البحر القبطي، ينظم المعلم يعقوب المقاومة، وبفضل عمله، لا ينجح المهاجمون في الدخول. ولا يتردد الجبرتي في مقارنة شجاعته بشجاعة لكثير القبطات المماليك جسارة، حين بك الجناري (١١٤). وسوف ينجح في الصمود لعدة أيام وفي استمالة الاتصال مع القوات الفرنسية. وفي ٧ أبريل ١٨٠٠، سوف يعينه كليبر في منصب «الحاكم الأمام القبطية» وسوف يمنحه قوة حراسة من ثلاثين جندي فرنسي «للنطاق من سلامته الشخصية ولتأمين احترام سلطته» (١١٥). أما الأعيان الأقباط الآخرون فإنهم يلجأون إلى ضباط عثمانيين يكفلون سلامتهم، وكما حدث في الانتفاضة الأولى، لقد لوحظت أيضاً أعمال شغب من جانب مسلمين سعوا إلى إنقاذ للمسيحيين من المذبحة، ويشير كليبر إلى ذلك في تقريره.

وخلال هذا العصيان، تسببت الشكالك الكثرة بين الأفراد في عدد من أعمال الاغتياال؛ كما لوحظت أيضاً علامات سفاه وولاء، وهذا الدين نفسه الذى يبدو لك يرفع العدد الأكبر إلى الانتقام، إنما يلهم آخرين العزم على التمسدى للمذابح، بما يعرض أولاهم للخطر^(١١٦).

وفى ٢١ مارس ١٨٠٠، تهرى إقامة متاريس فى شوارع القاهرة، ويبحث المقاتلون بنشاط عن كل ما يمكن أن يصلح كأسلحة، وفى الأيام التالية يجرى إخراج جميع الأسلحة التى كانت مخبأة، والتى أفلتت من عمليات التفتيش التى قام بها الفرنسيون، وتجرى تعبئة العمال لإصلاحها، بل ويجرى سبك مدافع جديدة، وهذه المعرفة للتقنية التى تشتهر بعثة الفرنسيين إنما ترجع فى جانب كبير منها إلى معارف صناع الأسلحة اليونانيين الذين كان مراد بك قد جلبهم. والحال أن القناصل التى تطلقها المنافع الفرنسية يجرى رباها وهى ما تزال ساخنة على من يطلقونها، ويحاول جزء من السكان - خاصة الأعيان - الهرب إلا أنه يجرى منعهم عن ذلك. وينظم المقاتلون أنفسهم بحسب الأحياء، وعلى هذا الأساس يتحد سكان القاهرة والممالك والجنود العثمانيون. ويوجه عام، فإن قادة الأحياء هم كبار للمالك المنتمين إلى حزب إبراهيم بك، وهذا التنظيم العفوى والكفاء يدهش الفرنسيين ويستثير إعجابهم^(١١٧). وتنضم مدينة بولاق إلى الانتفاضة، أما مراد بك، الذى جرت بصوته إلى الانضمام إلى المعركة، فإنه يرفض كل تحرك، ومما يدهو إلى العسكرة أنه يرد بأنه يهتم بحفظ النظام فى قطاعه وأنه قد حلول الحصول على أوامر من الصدر الأعظم، لكن رسوله كان بطيء التحرك إلى الشرق ولم يجده.

ويخلى قادة العثمانيون عن السكان خبر هزيمة الصدر الأعظم ويؤمنون أن هذا الأخير سوف يهب سريعاً لتقديم العون إلى المدينة. ويجرى البحث عن المتعاونين مع الفرنسيين وإعدامهم. بل إن الشيوخ البكرى يتعرض للإذلال وتنهال عليه الشنائم، ومن المؤكد أن اغتصابه لمنصب نقيب الأشراف هو السبب فى ذلك. ويهتم التجار والبورجوازيون بتوفير المؤن للسكان. للمتعلمون ملحوظ، لكن الفرنسيين ينجحون تدريجياً فى فرض حصار قاس حول المدينة وسرعان ما ترفع المجاعة رأسها. ويكسب للمقاتلون الأولية فى الحصول على الطعام^(١١٨). وهوى الأعيان التقليديون سلطتهم وقد أصبحت محل استهزاء. إن قادة أكثر شعبية يظهرون كذلك للمفرى للشهير الذى من المرجح تعلماً أنه مهدى البحيرة السابق^(١١٩). وهو يحشد حوله قوة يأكملها من المتهرسين

وكذلك من الحمازيين الناجين من معارك مصر العليا. وهم يرتكبون أسوأ الفظائع ويكثفون عمليات النهب على حساب للسحيين - ووفقاً للجبرتي - فإن مسلكه لا يليق بالمرّة بمسلك مقاتل من مقاتلي الجهاد (١٢٠).

وتنصحب القوات الفرنسية الباقية في القاهرة إلى مقر القيادة العامة، في قطاع الأنكية الذي دمّرت المعارك تماماً، وهو الأمر الذي أثار عظيم حزن الجبرتي. وخارج هذا المقر، يمسك الفرنسيون بزمام الحصون الخارجية والقلعة. وانطلاقاً من هذه المواقع، يصفون المدينة الثائرة. ويحاول المتمردون اقتحام هذه النقاط التي تطوق المدينة، لكنهم يفشلون متكبدين خسائر ملحوظة أمام قوة نيران خصومهم. ومنذ ذلك الحين، يصبح محكوماً عليهم بأن يظلوا في وضع دفاعي في وجه جيش فرنسي يتزايد أهمية، مع عودة القوات التي كانت قد خرجت لمطاردة الصدر الأعظم. وفي ٢٢ مارس بعد الظهر، تصل طوابير اللجنة الأولى إلى القاهرة وتلك الحصار عن مقر القيادة العامة. وفي ٢٤ مارس، يجرى إريان بتعزيزات جيدة ويتولى قيادة العمليات. وتصطدم محاولاته الرامية إلى دخول المدينة بمقاومة شرسة من جانب السكان وتمنى بالفشل. ويكثف الخصمان الحرائق وأعمال التخريب.

مرويض كليبر

يرجع كليبر في ٢٧ مارس. وهو يدرك على الفور أن حرب الشوارع تنذر بأن تكلله أرواح الكثيرين من الرجال. وتفتقر مدفعيته إلى الذخيرة ويتمين عليه انتظار إرسالها إليه من الإسكندرية ورشيد. ومن ثم فإنه يوقف الهجمات ويعد لتطويق منهجي للأحياء المتمردة. ومنطقه هو خوض حرب حصار حقيقية. كما أنه يسعى إلى اللعب على تدهور الوضع وانقسام خصومه. وهو يستغفم في ذلك مصطلح باشا الذي أصبح من جديد أسيراً في هيليوپوليس. ومن خلاله يكتف التهديدات والوعود. ويرد للمشايخ الرئيسيين على رسائلهم ويذكرون بأنهم مدينون بالطاعة للسلطان. وسواء كان ذلك من باب الجهل أم من باب الهزل، فإنهم يظلون بذلك في الوضع الذي كان سائداً قبل هيليوپوليس، ويعبرون عن استعدادهم للعمل على تأمين انسحاب سلمى للفرنسيين من القاهرة (١٢١).

وهذا الموقف يدفع كليبر إلى تعديل سياسته المصرية. وهو يقدر عدد المتمردين بنحو تسعة آلاف إلى عشرة آلاف عثماني وهو رقم من المؤكد أنه مبالغ فيه إلى حد بعيد

ويكفي من المالك ويثلاثة آلاف من مصري الأرباح وخمسة عشر ألفاً من سكان القاهرة (بون حساب العمال)»

«إن هؤلاء السكان قد قرر بهم الشيخ للصناعات، وشجعهم ومولهم للمروني وتجار البن وعدد آخر من هذه الطبقة، لكن الشيء الملحوظ بشكل خاص، هو أن جميع الرجال الذين كانوا مرتبطين بخدمتنا، والذين شملناهم بالمراعاة وأغدقنا عليهم الجميل، هم الذين بأسرها بالفعل يتزعم للمصريين وأصبحوا أشرس أعدائنا. وربما كان ذلك هو الأسلوب الأكثر فعالية لنيل الحق عنهم. وإذا كان ذلك هو واقعهم، فحسب لا شك فيه أننا سوف نشهد عودتهم إلينا بانصياع أكثر، عندما نسترد السلطة. وفي هذه الحالة للأمور، كان الشيء الرئيسي هو فصل المالك عن الحزب العثماني، والحال أن العداوة القائمة منذ زمن طويل بين هاتين الطبقتين من الرجال، يبدو أنها تجعل الأمر سهلاً، لكن الفرحة التي يستشعرها للمالك في العودة إلى رؤية العاصمة، مقر حكم إمبراطوريتهم، بعد نفي دام نحو عامين، والأنصار العبيدين الذين سوف يجدونهم من جديد، والفكرة التي كونوها من أنفسهم والتي تجعلهم يتصورون أنهم لا يمكن محوهم، تحول الآن بون تطور هذه العداوة، وإذا ما وصلوا اعتبار العثمانيين أعداء، فإنهم يعتبرونهم مع ذلك قتل خطراً منا. وسوف يقولون لي بأي حق تود استبعادنا من أرض نملكها منذ خمسمائة سنة ١٢».

التهافت مع مواط بك

إذا كانت عروض كليبر تمنى بالفشل مع مالك إبراهيم بك، فإنها تجد صدى إيجابياً من جانب حزب مراد بك. والحال أن هذا الأخير، الذي شجعت الاتصالات التي جرت من خلال الست نفيسة والمنزعج لنزعاجاً مشروهاً من نوايا العثمانيين، قد أثر الحفاظ على حياد متعقل خلال معركة هيليوپوليس. وما يعرضه كليبر عليه هو تسوية ماثلة تماماً للتصيرية التي كان العثمانيون قد قدموها إليه بعد فشل محاولتهم الرامية إلى إعادة الفتح قبل ذلك بعدة سنوات. وكل شيء متماثل: فمن الواضح أنه بسبب الفشل في القضاء على قوته بالرغم من مطاردة حتى الشلال الأول يتوجب التفاوض معه، بشرط التخلي عن الدرائع المستخدمة لغزو مصر، كتحرير الشعب المصري من طغيان للمالك.

وبعد عدة أيام من التفاوض، يجري عرض المقترحات الفرنسية (١٢٢) ويقبلها الزعيم للملوكي الكبير. والمفاوض هو عثمان بك البرديسي. ويعلن الفرنسيون تقديرهم لهذا الخصم الذي قنومهم بهذه الدرجة من الشجاعة. ويجري الاعتراف له بصفة الأمير الحاكم

لمصر العليا كما يتم التنازل له بهذه الصفة من الأرض على كل من الضفتين، بدءاً من وبما في ذلك ناحية بلصفورة، بإقليم جرجا، وحتى أسوان، مع الالتزام بأن يطلع إلى الجمهورية الفرنسية لليرى المقرر لحاكم مصر. وهو يتعهد من جهة أخرى بأن يدع الفرنسيين يهيئون احتلال ميناء القصير على البحر الأحمر وبأن يزود حاميته بالإمدادات الغذائية.

ومذا الحكم لا يعنى امتلاك امتيازات ضريبية لهذه سوف تظل من اختصاص الدولة، بما أن التمتع بالإيراد وحده هو من اختصاص حاكم مصر العليا، فإنه لن يتمتع بملكية أية قرية لحساب أشخاص مرتبطين به، مع حفظ حقه في تدبير إعاشتهم بالشكل الذي يراه مناسباً.

وتكفل الحكومة الفرنسية للملكيات التي حصل عليها الأفراد بشكل شرعى ولا يجوز اقتراف أى تعد عليها.

ويتعهد كل من الطرفين على نحو تبادلى بإعادة الفارين والملاحين الساعين إلى الهرب من الضرائب. وسوف يقدم المماليك المساعدة إلى الفرنسيين إذا ما تعرض هؤلاء الأخيرون لخطر عدوان معاد لهم. ويلتزم الفرنسيون بالدفاع عن مصالح مراد بك عند التوصل في نهاية الأمر إلى تسوية عامة للمصالحة المصرية. (١٢٤)

وفي التو والحال سوف يحل مراد بك إغراء أقصى عدد ممكن من ممالك بيت إبراهيم بك للقتال في القاهرة بالفرار، وسوف يتعاون مع المعلم يعقوب في نقل أكبر كمية ممكنة من الحبوب من مصر العليا، كما أنه سوف يطرد من تلك المنطقة جميع العثمانيين المتراجدين فيها، بمن في ذلك القائد العثماني، الذي أرسل لجباية الضرائب (مع قوات مهمة) قبل انهيار اتفاق الحريش. وفي اللقاء الأخير (لأن مراد بك سوف يذبح في مذبحة القاهرة ويولاق خبر الصلح الذي تعاند عليه مع القائد العام وسوف يكون بوسع أن يعد من جانب هذا الأخير بالعفو العام والفردى عن كل الذين ينصلون من العثمانية للانضمام إما إلى حزبه أو إلى حزب الفرنسيين (١٢٥)).

وسوف ينفذ مراد بك بشكل صارم جميع بنود المعاهدة وسوف يحرص على أن يعلن على الملأ، في مناسبات عديدة، صداقته وإخلاصه للفرنسيين.

تحتو الأنتفاضة

مع تنازله مع ممالك مصر العليا، يواصل كليهر سياسته الخاصة بالفرقة وذلك باتصاله بالقادة العثمانيين في القاهرة. والحال أن هؤلاء الأخيرين، أمام تدفق القوات

الفرنسية حول العاصمة، قد أتركوا أن جيش الصدر الأعظم قد أبعد. وعندئذ فإن التمرد يبدو بالنسبة لهم بلا طائل وتهدو للمفاوضات للفصل. وهم يكلفون مشايخ الديوان بالتفاوض على خروجهم الحر إلى سوريا. وهؤلاء الوسطاء يلقون، في مراسلاتهم مع الفرنسيين المسؤولية عن الانتفاضة على العثمانيين. ويتم التوصل إلى الاتفاق في ١٠ جهرمينال (٣١ مارس ١٨٠٠)، إن القوات العثمانية يجب أن تجلو من المدينة في ٢ أبريل، وسوف يقدم الفرنسيون المؤن الضرورية لاجتياز الصحراء. ولا بد للمعارك أن تتوقف فوراً (١٢٦).

وعندما يعلم سكان القاهرة باستسلام قادتهم، فإنهم يتودون ويسهئون معاملة عدد من المشايخ. والمغامر المقري من بين أنشط قادة التمرد. وبالنسبة للكثيرين، فإن عرض الفرنسيين هو برهان ضعفهم. ويخطر العثمانيون إلى إبلاغ كليبر بأنهم قد فقدوا السيطرة على الموقف. أصبح تماماً، كما تقولون، إنه بعد توقيع معاهدة فإنه يتعين بذل جميع الساعي لتنفيذ بنودها، لكن هناك استحالة من جهتنا. فمذ حركة هذه الليلة، وصل الغليان الذي يسود في القاهرة إلى مدى بعيد لا يسعى وحده لكم. إن جميع الجنود قد جاموا لمهاجمتي [...] والجنود لا يتحدثون إلا عن تمزيق القناة إرباً. ومذ هذا الصباح، فإن جميع سكان القاهرة، حتى النساء والأطفال، يملأون الشوارع ويهتفون بأنهم لن يسمحوا بخروج أحد [...] وقد توحد السكان والجنود معاً؛ ويجري التهديد بقتل كل من يتحدثون عن الخروج؛ إنها فرضى يستحيل وصفها. والجنود جد عبيدين بحيث لا يمكننا الآن معاقبة أحد منهم على هذه القلاقل. وفي ظرف كهذا، لا بد من التحلي بالصبر والسماح بمرور يوم أو يومين، (١٢٧).

ويرفض كليبر السماح بأي تأجيل إضافي. وبينما يقوم بهذه الدبلوماسية الفعالة، يباشرو مساعده إعلنة فتح القلعة. ويتم الاستيلاء على صياط من جانب بهليار الذي يسمق تمرداً من نفس نوع تمرد القاهرة. ويحدث الشيء نفسه في اللحظة الكبيرة وفي طنطا. ويحكم على المدن الثلاث بنزع غرامات حرب جد باهظة. وتؤدي السرمة التي تم بها قمع الانتفاضات الحضرية الإقليمية إلى منع تعميم الحركة. والواقع أن الأرياف كانت قد عانت من غياب النظام الفرنسي بأكثر بكثير من معاناتها من إعلان الفتح. والحال أن زوال وضع السيطرة على البلد كان قد جر إلى هوة هجومية من جانب هؤلاء الأخيرين الذين كثفوا التحركات على حساب الفلاحين وسكان الراكز. ووفقاً للجبرتي، فإن الفوضى كانت شاملة؛ فلم يك يوسع أحد أن يخرج من المدن، واستولى النهابون على الدواب وصورت

ثمارة للحاصل، وعمارة الفرنسيين هي التي تصحح بطرد هؤلاء الأعداء للسكان للمستقرين^(١٢٨). وفي هذه الظروف، فمن الواضح تماماً أن من المستبعد أن تكون هناك إمكانية لانتفاضات ريفية ضد الفرنسيين الذين يجرى استقبالهم لهم كمنقذين.

المحور الأخير

في نهاية الأسبوع الأول من أبريل ١٨٠٠، يمكن لكثير إنّا أن يعتبر أنه يمكّن في يديه بجميع الأرواق، لقد أعيد فتح مصر للسفلى؛ وسوف يهتم مواد بك بمصر العليا؛ ولم يعد هناك خطر عثمانى؛ والتنصير الضرورية من أجل إعادة الاستيلاء على القاهرة قد وصلت. وفي ١٠ أبريل، يرجع رهنه مع فرقة من الشرطة. إن كل شيء جاهز للمرحلة الأخيرة لإعادة الفتح. وبما أن المقاومة تظل دائماً جد شرسة، فإن كثير يقرر أن يقدم عبدة وأن يركز مجهوده على ضاحية بولاق^(١٢٩). وكانت هذه المدينة قد رفضت الاستسلام برغم ورود العفو للتكورة. وفي ١٥ أبريل^(١٣٠)، تتعرض للمدينة لقصف مكثف، ثم تهجم القوات الفرنسية عليها. ولا يكتفي ذلك لزعة عزم المدافعين. وعندئذ يمارس الفرنسيون أعمال الحرق للنهجي للبيوت. والمال أن للمدينة التي يتم الاستيلاء عليها هي مدينة مدمرة بالكامل. وتتلق روايات الجبهتي وروايات نقولا الترك فيما يتعلق بأعمال النهب والاعتصامات العديدة التي ارتكبت عندئذ من جانب المهاجمين. ومن جهة أخرى، فإن كثير يأخذ ذلك في الحسبان بالنسبة للهجوم التالي على القاهرة. والأمر لليومى الصادر في ١٦ أبريل يتميز بنبرة فلسية :

«إلى الجيش،

«أيها الجنود، إنكم سوف تهاجمون بعض أحياء مدينة القاهرة. وأنا ما أقدمتم على النهب فستكون تلك نهايتكم: إن كل بيت سوف يصبح قبرا لكم. إن الخنيفة لن تطوتكم البتة، إننى أملك بها؛ إلا أنه قبل ذلك لابد من قهر وتدمير أعدائنا.

«وبناءً على ذلك، فإننى أصدر الأمر بمعاينة كل من يضبط متلبساً بالنهب بالإعدام»^(١٣١).

وتؤدى عاصمة عذيفة، وهي حدث غير متوقع في هذا الفصل، إلى تأخير الهجوم الأخير على القاهرة. وعند هذا الهجوم، فإن بيليار ورجاله، الذين وصلوا في ١٨ أبريل، هم الذين يعتبر قدامهم مهموناً. ويحدث هذا الهجوم في الليلة نفسها مع تفجير لغم يدمر المركز الرئيسى للعثمانيين في الأزبكية. بينما يضطر المدافعون عن المدينة إلى التراجع.

والحال أن المشايخ، الذين دخلوا من جديد في اتصال سوى مع كليبر، إنما يحثون نصوح باشا على الاستسلام (١٢٧). وكان مراد بك قد أرسل عثمان بك الهريسي إلى القاهرة للتفاوض على الاستسلام. ويوجه إعلان خبر التحالف بين مراد والفرنسيين خربة بالغة السيرة إلى معنويات المالك الآخرين، وكذلك الحال بالنسبة لخبر إرسال الضباط العثمانيين الذين تم أسرهم في القلعة. ويؤدي ذلك إلى تكذيب وسائل العدو الأعظم للزائفة، التي لختلقها المصري، والتي كانت تتحدث عن الوصول للقوشيك للجيش العثماني. ويدفع ذلك السكان إلى لحتقار العثمانيين الذين يعتبرونهم مسؤولين عن هذا الوضع الكارثي. ويحاول المصري من انتفاضة شعبية جديدة، ضد الاستسلام الذي يتوقع اقترابه، لكن الضباط العثمانيين ينجحون هذه المرة في جمع الحركة. وفي ٢١ أبريل، يجري قبول الاستسلام؛ ويلزم على العثمانيين والمالك الجلاء عن المدينة في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام، ويتم منع العدو عن السكان. على أن قادة التمرد الرئيسيين يفضلون الرحيل مع العثمانيين وكذلك الحال مع عدة آلاف من السكان (١٢٨).

ويخبر رينيه وفاقته القوات العثمانية. ويثير نظام الجيش الفرنسي عظيم إعجاب نصوح باشا. فكل شيء يتم دون حوادث وجلاء العثمانيين ينتهي بسرعة. ويبقى إبراهيم بك رغباً في الانضمام إلى الفرنسيين، بشروط مشابهة لشروط مراد، لكنه يتخلى عن ذلك في آخر لحظة (١٢٩). ويجري استكمال إعادة فتح مصر عن طريق حملة صغيرة على السويس حيث كان البريطانيون قد نزلوا مع حجازيين. وفي أوائل فبراير من العام الثامن (٢١ - ٢٦ أبريل ١٨٠٠)، يرد الفرنسيون خصومهم بسهولة ويترك الإنجليز للموت بعد إحراق السفن التجارية ومنشآت للموت. وينكر التقرير: «إن الإنجليز، بتدميرهم ثروة لرجال الذين دفعوهم إلى القتل من أجلهم الباردة، وبخلفهم عنهم، صرعان ما سوف يحاولون إلى تأييدنا ألمان السكان، للذين فوجئوا بأن يهدوا في تصرفات المنتصرين عليهم مروعة تقابل ما كابده من خطر من جانب حلفائهم». (١٣٠).

الظروية الاستثنائية

كانت القاهرة مدمرة تماماً عندما عاد الفرنسيون إلى دخولها، في ٢٦ أبريل ١٨٠٠. وعلى الفور يدعو القائد العام المشايخ إلى الاجتماع به ويعطى لهم لته يمنح علواً عاماً لجميع السكان. ويهني الجميع أنفسهم على شهامة الفرنسيين. لكن السكينة لن تدوم طويلاً. إن كليبر، الذي نجح في استعادة السيطرة الفرنسية بكفاءة تشهد على امتياز قدراته كرجل

حرب وسياسة، إنما يقرر الاستقالة من الوضع لكي يسوى المسألة للملقة تسوية نهائية. ومن باب العقلب على التعرّبات الضريبة، فإنه يفرض ضريبة استثنائية بامطة؛ والهدف من هذه الضريبة هو الوصول إلى اللبلغ الضروري، الذي يسمح بتصفية المتأخرات ويتمين النفقات على اختلاف طابعها، حتى نهاية العام الثامن. والحال أن إجمالي الضريبة، التي يجب دفعها عدة مرات تلقاً وعتداً، سوف يبلغ نحو ثمانية عشر مليون فرنك، يقع عبء أكثر من عشرة ملايين فرنك منها على القاهرة وحدها. أما للسهيحيون واليهود، الذين تم إعفاؤهم من الضريبة، فسوف يجبرهم مبدو على دفعها بدلاً على طلب المسلمين. ومن جهة أخرى، فإن بعض التخفيضات سوف تؤدي إلى تخفيضها إلى سبعة عشر مليون فرنك (١٣١).

وفي الاجتماع غير العادي للدهوان في ٢ مايو ١٨٠٠، يجري إبلاغ المشايخ بالمصير الذي ينتظرهم. إن كليهم يلومهم من جهة على تعاونهم مع العثمانيين، ويلومهم، من جهة أخرى، على عدم منعهم لتعبد السكان؛ لكنهم يدعون بأن الفرنسيين هم الذين أعانواهم إلى الانضواء تحت سلطة السلطان وبأنهم قد تم تجاوزهم بالكامل. وهم أول من سوف يدفعون الضريبة، خاصة للسكان، الذي يجري إلزامه بدفع نصف مليون فرنك. أما البكري، بسبب إشكال سوء المعاملة التي تعرض لها، والمهدى، الذي نجح، كعادته، في مداراة الفريقين في أن واحد، فيجري إعفاؤهما من دفع الضريبة. ويجري كل شيء بمظاظفة بالغة وفي مناخ تخويف جسدي (١٣٢).

ويكلف المعلم يعقوب بجباية الضريبة المفروضة على المدينة، بينما يقرر المهدي والأقباط توزيع الضريبة بحسب فئات السكان. وتخدم نقابات الحرفيين والتجار في جمع الضريبة. ولا يمر ذلك دون مغانم بالنسبة للبعض ودون حركات احتجاج شعبية على الجهة. وهكذا فإن نقابة الإسكافية قد ألزمت بدفع لثنى عشر ألف وثلاثمائة وخمسة وثمانين قرشاً أسبانياً؛ ويتولى رئيسها التحصيل والضرائب إشرافاً، وتجتمع النقابة من تلقاء نفسها، وتختار لنفسها رئيساً آخر وتطلب حصانات الرئيس السابق. وبما أن هذا الأخير يرفض، فإن الإسكافية يطلبون حماية الفرنسيين، الذين يجرون تحقيقاً ويلزمون الرئيس السابق بدفع مبلغ ألف ومائتي قرش كان قد احتفظ به دون وجه حق (١٣٣).

التفريع للسكانات

لكن أول دفع للضريبة في مصر هو الذي يبدو عمومياً أكثر من سواء. وقد رأينا أن

كثير قد اختبه في كه للسؤل من انتفاختي القاهرة. على أن الجبرتي، الذي لا يراعي جانبه بشكل خاص، لم يعطه دوراً مميّزاً في روايته للأحداث. ويجري إلقاء القبض على الصلوات، وسجنه في القلعة، وخمسه مائة في اليوم لإجهاله على دفع ضريبة الضخمة. وهذا العجز الذي يبلغ من العمر ثمانية وستين عاماً يتوصل إلى كثير أن يجنه هذه العلامة للهيئة، «تقسم لك باله الذي خلق كل شيء وجعلك سلطاناً منصوراً»، إن كل ما قيل لك عنى هو نتائج سائس أمثالي وإنه زائف. وقد كنت على النوم منذ وصول القائد العام بونهارت والفرنسيين إلى القاهرة صديقاً لهم. «تقسم باله أنني أميل إليهم». وعندما دخل العمالدية وسلكوا سبيل القتل، لم تكف من تمنى انتصاركم. والجميع يمشون على ما أقول، ومن بينهم الشيخ للهدى. والمال الذي أخذوه، إنما أخذوه بالقوة وباحتفال كالمال الذي أخذته أحمد للحرواني [...]».

أولم يحدث قط أن والدي ولا من ربيوني قد ضربوني. على العكس، إن الكبراء والعلماء قد كرموني واحترموني دائماً. وقد أبدى الأمراء الاحترامات نفسها [...]».

«إنما ما أمتنى لما هي الثمرة التي سوف تأتي من موت عجوز عاجز له أطفال وهاظة، إن استقامت أنفسهم سوف ينجسون من ذلك، وسوف يكون دمار بيت الصلوات للكرم منذ خمسمائة سنة هو نتيجة ذلك وسوف يكتب في التاريخ أن الجبرال كثير قد سمر أول بيت في القاهرة، وهو مالا تردونه بالتأكيد. لما ليما يتعلق بأولئك الذين يؤمنون أنني دفنت للمل، فليجيئوا إنك لإخراجه ما يلزموا عليهم بالأمراء (١٢٩)».

ويشهد الجبرتي على مناخ الاضطهاد واليأس الذي يصيب جامعة مصر في أثر تدبير كثير. إن السكان يشارون للهيئة لكي يقيموا في الريف، لكنهم لا يستطيعون البقاء هناك طويلاً بسبب غياب اللورد، ويصارهون إلى العودة بقدر ما أن الفرنسيين يهددون بمصادرة ممتلكات الغائبين. ويهدو المسيحيون متجهين ويتصرفون كما لو كانوا يريدون القضاء على الإسلام. ويمر عهد الأسمى دون إحساس به فالسكان جد مرهقين. ومن خلال أمره اليومي الصادر في ٢٩ فلوريال من العام الثامن (١٩ مايو ١٨٠٠)، بحلول كثير الحد من أعمال العنف هذه :

«إن القائد العام يتلقى يومياً شكاوى من سكان مدينة القاهرة حول المظالم والتعديت الأخرى التي يرتكبها في حقهم بأكثر الأشكال تعسفاً قاتبة الألسام؛ وإلى هذه الشكاوى، يضيفون اليوم الشكاوى من تعد ليس أقل استحقاقاً للعقاب. إن عدداً من الإنجليز والمسيحيين الآخرين المحاولين إلى هؤلاء القادة، يحدون لهم زيلاً، لو صنفاً،

اليهود للممديّة التي يجري فيها إطفاء الأشياء التي كانت قد تهبّت منهم. خلال التمرد، واستناداً إلى هذه الوثائق، يأمر قائد الأقسام، اعتماداً على سلطتهم الخاصة، بزيارات تفهّمية إلى المنازل، ويسمحون للمسيحيين بأن يأخذوا - دون أي إجراء آخر - الأشياء التي يقولون أنها كانت ملكهم. وحيث إن مثل هذه الإجراءات لا يمكن إلا أن تثير الذعر والخوف في الصدور، بدلاً من أن تعيها إلى السكينة والثقة اللذين تستند عليهما الراحة العامة، فمن الملح القضاء عليهما (١٤٠).

كما يحظر كليبر على قادة الأقسام اتخاذاً أي إجراء من هذا النوع دون تصريح من قائد اللواء. وتجب الإشارة إلى أن اثنين منهم يؤكّنان برأيهما ويقنعن شهادات من الأعيان المسلمين في اسميهما لتدافع عن شرفهما (١٤١).

تشكيل قوات محلية

تفرض إعادة الفتح توقع إقامة طويلة الأجل في مصر. والحال أن للمشكلة الأساسية، بسبب غياب إرسال تعزيزات، هي مشكلة الأعداء. وسوف يتجه كليبر إلى تعزيز قوات محلية. وهو لا تخافه أية أوهام فيما يتعلق بقهرتها العسكرية بالمقارنة مع القيمة العسكرية للقوات الأوروبية. ويمكن للفائتتها أن تكون عظيمة، بالنسبة لحفظ النظام الداخلي، بما يسمح بإرسال الجانب الرئيسي من القوات الفرنسية إلى حدود مصر، في حالة هجوم أنجلو - عثمانى. وهو يشكل فيلقاً يونانياً انطلاقاً من السرايا الموجودة بالفعل، ويعهد بقيادته إلى بلناس أوغلو، الرجل الذي كان في السابق محل ثقة مراد بك، أما فلسطينيو الجليل الذين كانوا قد هبوا لنصرة قضية آل الزيداني، ولذين لحقوا بالجيش الفرنسي، فإنهم يشكلون نواة قوة إنكشارية ووكالة للجهاد. ويجري ضم للمالك الذين انتقلوا إلى خدمة الفرنسيين إليها. وسوف يصبح هؤلاء كلهم، في ظل ميثاق كتيبة للمالك، التي يتردها اليوناني بارتيليمي سيوا. وينتقل عدد من الإنكشارية الذين كانوا يخدمون في وظائف الشرطة إلى وحدات قتالية أكثر. كما أن عدداً من العبيد السود للجلوبين من السودان، والذين تم شراؤهم لكي يصبحوا جنوداً، يجري دمجهم في شبه لواء فرنسي ويخدمون كرماة بالبنائيق وضاربين للطبول وثانخين للمزامير. وأخيراً يكلف كليبر المعلم يعقوب بتشكيل فيلق قبطي. وكان هذا الرجل الأخير قد اضطلع بنشاط عظيم جداً في المجال المصري. وكان ذلك فيما يتعلق بإطلاع الفرنسيين على أحوال نظام

الضرائب الذي خلفه العثمانيون لم فيما يتعلق بجباية الضرائب. وهو مرتبط بواحد من فرسان ملحة السلاطين، هو تيودور نو لاسكاريس، الذي استولى عليه حب مصر وتعلم العربية. وقد أصبح لاسكاريس مستشاراً للمعلم وهو يساعد على أن يصوغ في لغة سياسية لوروية، ما يستشعره القبطي. بهذه الدرجة أو تلك من التطوش، بالنسبة لمستقبل بلاده، وقد أصبح هذا الارتباط جد وثيق بحيث إنه من غير الممكن أن نميز، في المشاريع المتعاقبة لكل من الرجلين، ما يخص الأول وما يخص الثاني (١٤٢). ويتم الاضطلاع بتجديد هذا القيليق بشكل نشيط في مصر العليا. وهكذا فإن أكثر من ألف من الأقباط يشكلون وحدة مشهورة بتسلحها وانضباطها. وقد تباينت أعداد هذه القوات الهرالية بحسب الفترات، لكن العون ملحوظ ويلاحظ دوراً عظيماً في النمو العددي للقوات المجهزة للقتال، فهي تصبح خمسة عشر ألفاً وثلاثمائة وسبعة وثلاثين رجلاً في ٢٥ مايو ١٨٠٠، ثم تصبح ثمانية عشر ألفاً ومائتين وستة وستين رجلاً في ٢ أكتوبر ١٨٠٠، ثم تصبح عشرين ألفاً ومائة وثلاثة وسبعين رجلاً في ٢٠ فبراير ١٨٠١ (١٤٣). وكثيرون من هؤلاء الشرقيين سوف يلتحقون بالفرنسيين في عام ١٨٠١، عند الجلاء عن مصر، وسوف يخدمون في الجيوش الفرنسية للإمبراطورية. وسوف نجد، من جبرار إلى جوياء، شواهد كثيرة عليهم في مجموعة الرسوم الخاصة بالجيش العظيم، والتي تشكل مقبلة للرسم الاستشراقي في القرن التاسع عشر.

إعادة التنظيم المالية

وهذه الضرورة الخاصة بالاندراج في الاستثمار إنما تجد نفسها مرة أخرى في استئناف إعادة تنظيم الهيكل المالية التي كان قد جرى البدء بها بعد رحيل بوناپارت والتي تركت عند التوصل إلى اتفاق العريش. وتسمح الضرائب الاستثنائية بتصفية متأخرات الرواتب والديون المختلفة ويؤمن للقطاعات خلال عدة أشهر، ويضاهي إلى تلك مصلحة السفن العثمانية، مع شحناتها، والتي كانت قد دخلت إلى موانئ مصر وثلاثة من سريان مفعول اتفاق العريش. ويلغى الأمر اليومي الصادر في ٨ فلوريال من العام الثامن (٢٨ أبريل ١٨٠٠) إنارة الشؤون المالية. ويجري تكليف آبن الصراف العام لاستيف بالإشراف على الإيرادات العامة. ويتم إلغاء تواجد وكلاء فرنسيين في الأقاليم. ويجري الخلط بين جميع مكونات الضرائب الخاصة بالأرض تحت المسمى الشامل الخاص بالضريبة العامة النقدية. ولا يتصل ذلك إلا بالأراضي التي انتقل فيها الالتزام إلى الفرنسيين (الغلبة

الكبرى). وسوف يجرى تصعيد الضرائب مدفوعاً من زاوية نتائج لفيضانات النيل. والأمناء الأقباط هم الذين سوف يتولون جبايتها، لكن جميع اللطوعات سوف تكون مضمومة بمسوغات، ولتغطية نفقات الأمناء، فسوف يكون لهم الحق في ثمانية في المائة من ناتج الضريبة، هي الكافالة الوحيدة لهم. ولن يكون هناك بعد تأجير التزامي للقري المنتحية إلى للجال العام (١١١). والقري، التي لم تسجل على أنها التزامات، تصبح ملكية للجمهورية (١١٢).

ومن ثم فإنه يجرى الانتقال من الامتياز الضريبي العثماني إلى ضريبة مباشرة حقيقية. والحال أن الرسوم العديدة التي لفت، بحجة نفقات الإدارة الإقليمية أو الجباية، إلى زيادة ملحوظة للضريبة التي تطلبها الدولة (للهدى)، قد جرى دمجها بهذه الأخيرة. وهذا القضاء على الوسطاء يسمح بالأمل في قلة أعظم للضريبة. ولا يحدث محاسن بالالتزامات الأخيرة إلا أن بالإمكان طلب دفع رسومها نقداً (يجيء الجانب الرئيسي من اللطوعات العينية من مصر العليا التي عهد بها إلى مراد بك الذي لا يجب عليه أن يدفع للفرنسيين غير المهري). ويمكن اعتبار أن الالتزام قد اختفى، بالفعل، في جزء كبير من مصر بالنسبة لسنة ١٢١٤ الضريبية. كما أن الرسوم الضريبية الأخرى تدار بشكل مباشر إلا في بعض الحالات التي يجرى الحفاظ فيها على نظام المزايدات. ويحصل حسن طوبار على معاملة خاصة ويحتفظ بالتزاماته الضريبية. ومن المؤكد أن كليبر لا يرى في عمله الإداري غير عمل ظاهري يهدف إلى تأمين الحصول على المزيد من الإيرادات النقدية. لكنه يجرى بالتوازي مع ذلك تحقيقاً للتعرف بدقة على إيرادات مصر. وهو يشرح مقصده لسانالهييل، فارس مألطة السابق، الذي أصبح وكيلاً فرنسياً وخبيراً في مجال الشؤون المالية لمصر:

إن إجراء إصلاحات عظيمة في الإدارة إنما يتطلب إعادة تنظيم عظيمة، وليس نهني متفتحاً جداً لجهة لا يتكرر عمل كهذا في أربع وعشرين سنة، حتى وإن طلبت عوناً معرفياً من بعض الأشخاص العظمين. [...] لقد قطعنا بالفعل شوطاً بعيداً في إعداد تلك الكتاب للشهير الخاص بطبيعة الضرائب في مصر؛ ولم يعد أمامنا غير معرفة مالا حد له من تلك الرسوم الصغيرة غير المسجلة بالمرّة والتي يبدو أنها مكروسة بحكم العرف فقط، ثم معرفة حصّة كل قرية ومسميات هذه الأخيرة؛ وكل ذلك يحتاج إلى وقت جد طويل، ما دام يجب العمل مع الأقباط (١١٦).

خموض موفقة كليبر

وتشير كل هذه الأعمال إلى الخموض البالغ للأسابيع الأخيرة في حياة كليبر، ومن

الصعب للغاية تصديق نواياه الحقيقية بعد هيليوپوليس. ومن المؤكد أنه يجهز نفسه
بوسائل امتلاك جد طويل الحمر. إن جانباً كبيراً من العوامل التي كانت قد قادتته إلى الرغبة
في الجلاء قد تلاشى، لقد جرى القضاء على تفسخ القوات بإحساس كل جندي بأن
الإنجليز قد أمانوه شخصياً، والمسألة الكلية تجد تسوية لها لعدة أشهر؛ والجيش العثماني
قد كف من أن يكون خطراً. وأياً كان رأى كليبر في نظام بونابارت، فإنه يدرك أن التفاوض
قد بدأ في الأشهر الأخيرة لحكومة الإنلرة. وأن بونابارت يملك إمكانيات مواصلة وقد عمل
بمخاط من جهة أخرى على حشد ولاء جيشه للنظام الجديد.

أيها الجنود !

إن مصالح الجمهورية قد جعلت من الضروري تأكيد دستور جديد، وأنا مكلف
بعرضه عليكم لقبوله. وأنا أود أن يكون قبولكم إجماعياً وأن تعملوا بالرغم من المسألة
التي تفصلكم عن مواطنيكم، على توحيد كرائكم ومضامركم وأمانتكم مع أراء ومشاعر
وأمانى الأمة بكاملها (١٨٧).

ومع انهيار الاتفاق، يجد جيشه نفسه في استراحة التدخل في أوروبا، في المعارك
الكبرى التي تنهيا للواقع. إن كليبر محكوم عليه بالبقاء في مصر. ولمى بياناته إلى
الجيش، لا يتحدث بعد عن العودة، لكنه لا يقدم كذلك أى مؤشر على نواياه في الأجل
الطويل. ويشير حواره الأخير مع مينو إلى نوايا تحفظاته. إن قائد رشيد السابق لم يصل
أهنأ إلى العاصمة بالرغم من مظاهرات كليبر الملحة له بالحضور، وهو يرفض الآن عرض
تولى قيادة القاهرة. وعندئذ يقترح عليه كليبر تولى قيادة مصر الوسطى، ويتكبد
الرفض. وهو لا يصل إلى المدينة إلا بعد الاستيلاء على العاصمة. وأمام ذلك صبر كليبر
الذى يوضح له أنه، فيما عدا تولى القيادة العامة، لا يعرف ما هو للنصب الذى يمكن أن
يقترحه عليه، فإنه يقبل تولى قيادة مصر الوسطى، كعادته، لا يصل إلى مواعده. على
العكس، إنه يستغل إقامته في القاهرة لكي يحول كليبر إلى قبول الفكرة الاستعمارية.
وهو يفعل ذلك بشكل بالغ السوء، حيث يحسف اتفاق العرش بأنه خطأ سياسى. ويجر
على نفسه هذا الرد الناسى من الأناسى:

إن تمولى لا حد له لأننى مازلت إلى اليوم لا أعتقد أن اتفاق العرش كان خطأ
سياسياً، ولأننى لا أعتقد أن الانتصار الذى لمرزى الجيش يمكن أن يكون موضوعاً
للنشوة، ولأننى مازلت إلى اليوم على إيمان بالغ العمق بأننى قد تمكنت، عن طريق هذه

للعمامة، من إجهاد مخرج محقول من المشروع الأكثر تدهيراً، ولأننى مازلت إلى اليوم على اقتناع باننا لا يمكننا الأمل فى أى عون من فرنسا وباننا لن نتمكن مستعمرات فى مصر أبداً، لو على الأقل خلال هذه الحرب، ولو لجرد أن ندعى القطر ودعاه النخل لن يتجوا بسرعة جنوباً وحدها مسبوكة. [...] وفى جميع الحالات، ستنهى عند هذا الحد مناقشاتنا السياسية. إلك، أيتها الجنرال، تدبر وجهك صوب الشرق، أما أنا، فإندى أبصر وجهى نحو الغرب؛ ونحن لن نلتق أبداً (١٨٨).

مشاريع السيف والسيوف

أما سيدنى سميت - للتألم لفشل عمله - فإنه يتطلع إلى استثنائه بإعطاء اتجاه إضافى له، إنه لا يمكنه بعد انتظار شىء من الإمبراطورية العثمانية، إن للجانب الرئيسى من قواتها المسلحة قد سمو فى معركة هيليوپوليس وفى الأيام التى قضاها، أما الجزائر، الساخط على إعلان ترطيد سلطة الأمير بشير، فإنه يتصرف كملك مستقل ويرفض التعاون مع الصدر الأعظم. بل إنه يبدو مستعداً لإعلان الحرب عليه. وأياً كان الأمر، فإن الجيش العثمانى الكبير نفسه، بسبب عدم انضباطه، ما كان ليقتدر على أن يمثل خطراً جدياً بالنسبة للفرنسيين. والحال أن العميد البحرى كان قد فكر بالفعل، قبل الهزيمة العثمانية، فى العودة إلى فكره الأولى الخالصة باستخدام جنود جيش الشرق فى الصراعات السياسية الداخلية فى فرنسا وما نلم بوقايات يتصرف ككرومويل جديد، كديكتاتور جمهورى، فإن كليبر سوف يكون مونكا ممتازاً، جنرالاً يعيد للكلية (١٨٩). وتستند هذه الفكرة إلى تصريحات كليبر لوسل العميد البحرى عشية معركة هيليوپوليس، ويلاحظ سيدنى سميت أن الجنرال قد أسقط اسم الشرق من التسمية الرسمية لجيشه إلا أنها تتعلق بخاتمه، وهو يحلل الحالة الذهنية للجيش الفرنسى فى اتجاهين: حزب «الاستعماري» يؤيد إقامة داتمة فى مصر، ويستشعر تعزناً بانتصار هيليوپوليس، وحزب مؤيد للجلاء، يحكم للكل من مصر ويحكم الرغبة فى الخدمة فى لورينا، حيث تدور المعارك الحاسمة. ومن شأن وصول جنود فرنسيين أن يعزّز الاستعماريين. والحال أن العميد البحرى لا يملك السفن الضرورية لمنع هذا الإرسال. ومن ثم يجب استئناف المفاوضات مع كليبر (١٩٠).

وتصبح المسألة معقدة بشكل خاص. فمن جهة، يتتاب العثمانيون الغضب مما حدث

في مصر، ويعود أن استئناف الأعمال الحربية كان حثاً عليهم من جانب الفرنسيين وخيانة حقيقية، وقد يرفضون أي اتصال جديد مع الفرنسيين. ومن جهة أخرى، فإنه لو جرى استئناف هذه الاتصالات، فلابد من مراعاة أن كل شيء سوف يجرى هذه المرة من غير الإنجليز وأن العثمانيين سوف يقترحون على الفرنسيين جلاءً برياً مصحوباً في نهاية الأمر بقلب التحالفات، إن جيش الشرق سوف يحارب الروس إلى جانب العثمانيين. ويعرف سيدي سميت الانتهاء العام للمقترحات التي قدمها كليبر قبل معركة هيلوبوليس وهو لا يجهل أن هذه الأفكار تسر أكثر من مسئول مثماني. ومن جهة أخرى، فإنه بحلول يوم طائل كسب مراد بك إلى صف القضية العثمانية، ويعرف أن القوة التي استعانها الزعيم للملوكي الكبير توضح الباب العالي إزهاجاً ملحوظاً (١٥١).

القطيعة مع الإنجليز

على أن الصدر الأعظم كان قد سعى، منذ وصوله إلى سوريا، إلى استئناف الحوار مع كليبر، ولكن لكي يثاقب، بخبرة تهادنية، بالتطهيق اللوري لاتفاق العريش. وقد أهد كليبر الرسالة مع التعليق التالي: «حيث إن الرسالة أعلاه غير لائقة في تعبيراتها وزائفة وبلا معنى في مزاعمها، ومثيرة للسخرية في تهديداتها، فليس بالإمكان الرد عليها» (١٥٢). إلا أنه لابد من التحدث ولو لمجرد تسوية حالة الرهائن. فالعثمانيون يحتجزون عدة ضباط من بينهم بربر، مساعد كليبر، والفرنسيون يحتجزون وجهاء مثمانيين، من بينهم مصطفى باشا (١٥٣). ويجري إرسال هذا الأخير إلى بعباط، لبايكت، لكنه يموت في هذا المناء. وسوف ينفن هناك بمظاهر التكريم العسكرية من جانب الفرنسيين. والحال أن مسألة التبادل هذه سوف تتأجل كذلك لبعض الوقت قبل أن يتسنى تحقيقها.

وعلى الرغم من أن كليبر يعترف لسيدي سميت بأمانة مصلك، فإنه يقرر عدم الحفاظ على الاتصالات مع الإنجليز، أو على الأقل، الحد من هذه الاتصالات قدر الإمكان. وعندما يبلغ اللورد كيث كليبر بأنه قد حصل على تصريح بالسماح بانتقال الجيش الفرنسي إلى سوريا، فإن الأمر يصل بكليبر إلى حد عدم الرد. ويمتد من هذا الموقف الاكتشاف الذي يتم في بعباط لأوراق مورييه، التي تركها هذا الأخير وراءه، بعد معركة هيلوبوليس. ففي تلك الأوراق يظهر في عدة مواضع إلى مشروع «الخطة الحربية» الذي لا يمكن أن يكون غير لمر الفرنسيين خلال جلائهم عن طريق البحر. ويجري نشر هذا

النص في صحيفة لوكوندييه بوليجيهيت مع الإشعار بأن أى شخص يجرء من طرف مورييه إلى جيش الجمهورية سوف يعتبر جاسوساً ويشتق على شجرة. والشيء نفسه سوف يحدث له إذا ما جاء هو نفسه (١٥٤). والحال أن مورييه كان قد كلف من جانب اللورد إيلجين بتوضيح أنه لم تعد هناك عقبة أمام تنفيذ اتفاق العريش. والإشعار واضح ويصف سيدينى سميت لرفض كليبر (١٥٥). وفي أوائل يونيو، يحاول العميد البحري استئناف الاتصال ويرسل للملازم وايت إلى الإسكندرية للتحديث مع كليبر. على أن لانوس الذى يقود الميناء يحظر عليه الذهاب إلى القاهرة ويعينه إلى الأسطول الإنجليزى (١٥٦).

المفاوضات مع العثمانيين

على أن كليبر يحرص على الحفاظ على علاقات مع العثمانيين. وهو يخشى من عودة هجومية لجيش الصدر الأعظم. وعندما تشير معلومات إلى وجود حشود عثمانية إلى سيده، فإنه يرسل رينيه مع تعزيزات إلى شرق البلقا (١٥٧). لكن ذلك ليس خبر إنذار زائف، وبعد ذلك بوقت قصير، يخطر سيدينى سميت إلى التخليص من حصار الإسكندرية لإعادة تزويد السفن بالمؤن وإجراء بعض الإصلاحات. ويحل محله الأسطول العثمانى، الذى يقوده القابولان باشا. لكن هذا الأخير معاد لسيدينى سميت الذى يعتبره مسؤولاً عن الكارثة العثمانية الأخيرة. وتبدو هذه الحركة مزعجة ويقرر كليبر للوجود بنفسه مع تعزيزات في منطقة الإسكندرية. وبما أن رينيه لم يك قد عاد بعد إلى العاصمة وبما أن ميديو لم يك قد ذهب أبداً إلى مواقعه في مصر الوسطى، فإن كليبر يعهد إلى الثانى بقيادة القاهرة (٢ يونيو ١٨٠٠)، مع أمره بالتنسيق مع رينيه حول التناهيى التى يجب اتخاذها عندما يعود. والواقع أن ذية الأميرال العثمانى مختلفة تماماً فهو هناك من أجل بدء مفاوضات مستقلة عن المفاوضات التى يخسطلع بها الصدر الأعظم من جانبه من أجل تطبيق اتفاق العريش (١٥٨). وفي أول يونيو، يرسل القابولان باشا إلى قبر، إسحق بك، صديق سليم الثالث في شبابه، والذي اعتاد التردد في السابق على بلاط ترساي.

وما أن يعرف ميديو الخبر حتى يبلغ كليبر بأنه قد سمع من إسحق بك من صديقه السابق، فراسول - جواييه، السفير الأخير للملكية في القسطنطينية. فهذا الموظف العثمانى الكبير، وهو أحد أول للتكلمين (العثمانيين) بالفرنسية بطلاقة، هو وصولى

خطير صار، بعد أن كفلت له فرنسا معاشاً، في إثر هوانسول - جوفيه في خدمة روسيا^(١٥٩). ويطمئن كليبر ميتو على الفور، إنه يعرف منذ وقت بعيد سمعة إسحق بك، الشهيد الود والشهيد التآمر. إنه لن يجد هذه المرة الفرصة للاستخفاف صيفه الجميلة وملاذته الليرة^(١٦٠). إلا أنه يبدو من الواضح أن كليبر يتوى استئناف المفاوضات، وهذه هو إجراء مراسلات مع القسطنطينية، سعياً إلى تحريك الريبة فيما بين الإنجليز والعثمانيين وإلى التوصل إلى الفوز بحياد الإمبراطورية العثمانية إلى حين عقد المصلح الشامل^(١٦١).

مضغوع طابله

في الوقت الذي يسبق انهيار اتفاق العريش، تصدى لعدة مسؤولين فرنسيين مغامرة مصر. وهكذا فإن نوجا قد عاد إلى فرنسا، وكذلك بوسيلج، بعد مهمتهما لدى اللورد كيث. أما بيزيه فقد رحل هو الآخر، بناء على تعليمات من بوناپارت، مع حاشيته للمباشرة في ٣ مارس ١٨٠٠. وبعد اعتراض الأسطول الإنجليزي لسبيله، عومل معاملة لينة من جانب اللورد كيث الذي أقرج عنه في نهاية الأمر، بحسب القبول للتأخر للاتفاق من جانب الحكومة البريطانية. وهو ينزل في طولون في ٥ مايو، ويتخلى مدة طويلة في الصحر المصحى ثم يصل إلى مقر القيادة العامة للجنرال بوناپارت في إيطاليا، في ١١ يونيو. ويعهد إليه القنصل الأول بقيادة فرقتين، تشكلان قوة منفصلة عن بقية الجيش الفرنسي. وفي صباح ١٤ يونيو ١٨٠٠، فإن بوناپارت، الذي لا يصدق وجود الجانب الرئيسي للقوات النمساوية، لم يك قد بدأ بعد حشد القوات الفرنسية، وعندئذ يتم الهجوم عليه في مارينجو. وفي أوائل ما بعد الظهور، يخطر الفرنسيون إلى التفكر بنظام جيد، لمنم مطاردة جد فائرة من جانب النمساويين. لكن بيزيه، الذي سمع نوى للدافع، يصل مع رجاله. ويلتزم مجلس حربي سريع أن جنود بيزيه، مدعومين بمنطعية مارمون والقوات التي أمكن إعادة تشكيلها في ترتيب قتالي، سوف يخوضون معركة مؤخرة تهدف إلى السماح بالفلات الجيش الفرنسي. والحال أن بيزيه بمهاتته، وكيليرمان بفرسانه، بهجمان بالدفاع على الجيش النمساوي الذي لم يتوقع مثل هذا الانقلاب. وتتحول الهزيمة إلى انتصار غير متوقع. ويلقى بيزيه مصرعه في بداية المعركة، لكن سلطة بوناپارت التي كانت حتى تلك الحين مزعومة، تصبح الآن راسخة بشكل حاسم^(١٦٢).

الاحتلال لكليبر

في اليوم نفسه، وتقريراً في تلك الساعة التي يظهر فيها بيزيه في ساحة معركة مارينجو، فإن كليبر، الذي يتنزه في حدائق مقر القيادة العامة بالقاهرة مع المهندس المعماري بروتان، يرى قرناً يقترب منه. ولما كان قد حسبه صاحب الشمس، فإنه يمد إليه يده. وعشيد يجرى طعته هو ورفيقه عدة طعنت بسكين. ويندفع جنود الحراسة الذين استنفرتهم الصرخات ويجهدون قلائدهم العلم مشرباً على اللوت (١٦٦). ويتشرب منها فوراً في القاهرة. ويخشى السكان من مذبحة شاملة، انتقاماً من الاحتلال، بينما يتصور الفرنسيون أن الاحتلال هو إشارة لهذه الانتفاضة الجديدة. ولحسن الحظ يتم العثور على القاتل الذي كان قد لاذ بعتيقة مهجورة. وهو حلي اسمه سليمان. ويجري على الفور التحقيق معه وتعذيبه على يد بارتيليمي الذي يحصل على كل حقائق المسألة.

لقد تصرف الرجل بمفرده. وقد اكتفى بكشف مشروعه لشاريخ من الأزهر حاولوا ثنيه عنه دون أن يقوموا مع ذلك بإبلاغ السلطات الفرنسية. ويجري دعوة الشبهخين الشرقاوي والعريشي إلى الاجتماع فوراً وتصدر إليهما الأوامر بالتحرك لإلقاء القبض على عدد من الأزهريين. وتجتمع محكمة عسكرية في ١٥ و ١٦ يونيو، وتحكم على الحلي بقطع زنده، وبخزنته علناً. ولا يحق للأزهريين غير الاكتفاء بقطع رؤوسهم. والحال أن الجبرتي، وهو محور النسخة الأخيرة من حواشيك في عصر لفتن وأعمال تدمير، سوف يعلن الجانب النمونجي للإجراءات التي اتبعتها الفرنسيون، إن هؤلاء القنصل الذين لا يستوشدون إلا بالعقل، قد سلكوا مسلكاً أكثر لياقة وأكثر عنفة من مسلك المسلمين للمزعمين الذين يخربون مصر. وخلافاً لبعض التعليقات، فإن ذلك لا يعني تأكيداً لتفوق العقل على الوحي الإسلامي، بل هو مجرد إدانة أدبية لأولئك الذين يحكمون مصر في وقت التحرير النهائي للمحاولات (١٦٦).

ومع مصرع البطل، يطلق المدفع طلقة كل نصف ساعة. وفي صباح ١٧ يونيو، تعلن سلسلة من طلقات المدفعية الصادرة من القلعة ومن مختلف الحصون بداية التراسم الجنائزية. والحال أن الجثمان، الذي يجرى نقله على عربة مغطاة بعطرس مغطى أسود موشى بعبرات فضية، والمحاط بمجموعة من الأسلحة تذكراً للنصر وبخونة ويسيف الهنرال، إنما يخرق أولاً شوارع القاهرة ثم يتوجه إلى مزرعة إبراهيم بك في مدخل الحى الأندلس خارج المدينة. ويملأ فوراً القنايين، ثم يتابع الجيش، وهو يضع أكاليل الغار

والصنوبر. وبعد الدفن، يتحرك الحاضرون لمشاهدة عذاب إعدام القاتل. ويجرى البدء بقطع رؤوس للشايخ المرتعنين، ثم يحرق بارتياح زبد القاتل ويتجه إلى خوزقته. ويتصرف الحلبي بهشاعة، مريدًا الشهائتين وآيات من القرآن. ويمج الحاضرون للشهد بصرمة ويتفرقون. على أن الحلبي يحيا مع تلك أربع ساعات. والحال أن جنبها فرنسيا شلوفا، ما إن يفادر الجميع للمروج، يتناول الشاي كئيبا ليغروب منه بما يحجل، وهو على علم بالسبب، يموت في الحال.

وهذه الطقوس الغريبة، حيث تجتمع العناية الكلاسيكية الجديدة للأبطال القتلى في سبيل الوطن مع الشعائر الإسلامية، من المرجح أنها آخر تجلٍ جنائزي للجمهورية. فبرحيل كليبر، يختفى مفهوم جمهوري معين عن الوطنية والثورة. وينسب له، فإن صعود بوناپارت ليس هو سبب انتهاء النظام، بل هو عرض من أعراضه. وشك في ذلك شأن كثيرين من الجمهوريين للخلاصين والمتقنين، كان قد وصل إلى تسنى تجربة ملكية ليبرالية واستورية.

وبما أن الروح العلمية لا تهب أبداً، فإن لاري ينجح في أخذ جثمان سليمان الحلبي لضمه إلى مجموعته. وعلى مدار سنوات سوف يجرى عرض جمجمة قاتل كليبر على طلبة الطب سعياً إلى تمكينهم من رؤية علامة الجريمة والتعصب، قبل أن تنتهي إلى متحف الإنسان (١٦٥).

حواشي الفصل السابع

Kléber et Bonaparte..., II, pp. 506 - 508 .

- ١

٢ - من هنا منك رسالته إلى بوناپارت والملاحظة في ٢٦ أغسطس ١٧٩٩ : «امن للممكن أنك لم يكن لديك ما يكفي من الثقة في أحد ممن تركتهم هنا لكي تقول لهم إنك تتركهم هنا وإن الأحوال في أوروبا قد تغيرت ذلك ولعلنا ؟ إن جميع أولئك الذين جاءوا إلى هنا لم يفعلوا ذلك إلا لأنك كنت قائد الحملة وانهم بسبب تعلقهم بك قد شعروا أيضاً بأنهم ما لديهم وذلك دون إبقاء شكوك. إن الأمل في رؤية عائلاتهم من جديد، وصمتك ومريتك قد أصابهم باليأس لأنك لم تقدم مبررات لذلك. لقد كان يوسمك أن تفعل ذلك وأنا على ثقة من أن ذلك كان واجباً عليك. B6 100

Capitaine de LA GREVERIE, *L'armée d'Orient sous Kléber*. Cet - ٢ officier avait été désigné après la mort de La Jonquiére pour continuer la grande entreprise. Ce travail a été certainement interrompu par la guerre mondiale. On ne dispose que d'une étude préliminaire, concernant les deux premiers mois, parue dans la *Revue d'Histoire Rédigée à l'Etat - Major de l'Armée*, en 1911 et 1912. l'auteur y marque un intérêt plus grand pour la psychologie des personnages que La Jonquiére, qui était plus intéressé par une stricte érudition militaire. On ne peut que regretter l'inachèvement de cette entreprise. Citation de Dugua, 1911, p. 186.

٤ - (pp. 270 - 271) MIOT يرصد ميرو جيداً المراحل المختلفة لربود فعل الجيش على رحيل بوناپارت : «لقد كانت ثقافتنا فيه جد عالية بحيث إننا رأينا أننا قد كتب علينا الموت في إفريقيا، عندما علمنا أنه قد أبحر من الإسكندرية. ذلك هو الاضطراب الأول الذي تركه لدى الجيش رحيل القائد العظيم. وسوف يحل مزاج سييء بعد الأسف وسوف يصبح هذا المزاج عاماً. لقد تذكر البعض ما قاله عندما علم بطغيان أسطولنا وأخذوا عليه فأسله مصيره من مصير الجنود الذين فعلوا كل شيء من أجل مجده؛ وسمى بعضهم الآخر إلى إيجاد حذر له بالحديث عن نوايا قوية لرحيل جد سييء وجد سريع إلى هذا الحد؛ إن هؤلاء متطبعة هي وجمعا التي يمكن أن تكون قد دفعت إلى ترك مصر؛ لقد ذهب لإطلاق فرنسا؛ لكن بعض الأشخاص الأكثر ذكاءً رأوا أن لديه إمكانيات طموحة، على أن الجميع، من خلال تأمل مواقفنا السابقة، قد اتهموه بنكران الجميل وبسوء النية. وذلك هي مصيرة البشر الإنساني، فهو بعد أن يستنفذ جميع الميقاتيات الأكثر انجذاباً للإيجابية، جميع إمكانيات مستقبل محزنة، يتعلق تعلقاً طامحاً بالخصيص الأكثر خلوفاً لأمل طامحاً ما يكون كلاًها، وهكذا فإن الأمل، في تقدير مؤات في فرنسا والأمل الأكثر خلوفاً أيضاً في سلام قريب وكريم قد انبأ شيئاً فشيئاً إلى تهمة القتل الذي كنا فيه. لقد وهنت بوناپارت بعون عاجل، وقد اعتمدنا على ذلك مراقبين على الأهمية التي لابد وأن سوف يوليها للحفاظ على قبحه.

وأخيراً، فإن اسم كليبر قد ألهجته تهمة الخواطر الأكثر انزعاجاً؛ لقد كان يتمتع بالاحترام والثقة من جانب الجنود، وقد كان أملاً لهما.

Kléber à l'armée, Le Caire, le 14 fructidor an VII (31 août 1799), - ٥
ROUSSEAU, *Kléber et Menou en Egypte depuis le départ de Bonaparte*, Paris, 1900, p. 8.

Ordre du Jour du 19 fructidor an VII (5 septembre 1799), - ٦
ROUSSEAU, p. 14.

Kléber aux membres du diwan du Caire, le 17 fructidor an VII (3 - ٧
septembre 1798), ROUSSEAU, p. 10.

JABARTI, 29 rabi al awwal 1214. - ٨

WIET, p. 83. - ٩

Courrier de l'Égypte, le 10 vendémiaire an VIII. - ١٠

"Les finances de l'Égypte pendant l'occupation française", *La - ١١*
Revue Britannique, 1882, pp. 437 - 497.

Kléber à l'ordonnateur en chef, le 3 vendémiaire an VIII (25 - ١٢
septembre 1799), B6 113.

JABARTI, 7 jumada al ula 1214 - ١٣

Textes dans ROUSSEAU, pp. 31 - 34. - ١٤
في ٢٢ بروكتيبر، اعتبر كليبر
بالفعل الصراطين والوكلاء اللقيين مسؤولين مالياً عن جميع تعويلات الأمور (PP. 24 - 25).

Ordre du jour du 30 fructidor an VII (16 septembre 1798), - ١٥
ROUSSEAU, pp. 41 - 42.

Ordre du jour du 2^e jour complémentaire an VII (18 septembre - ١٦
1799), pp. 52 - 53.

Ordre du jour du 2 frimaire an VIII et *Courrier de l'Égypte* du 10 - ١٧
frimaire an VIII (1^{er} décembre 1799).

١٨ - ١٩ بروكتيبر من العام السابع (٥ سبتمبر ١٧٩٩). إن فريان، الذي ولد في هام
١٧٥٨، كان قد قام بخدمة عسكرية أولى في ظل النظام القديم، ثم دخل الحرس الوطني. وقد خدم
على الراين ثم في إيطاليا. وسوف يخوض جميع الحملات الإمبراطورية حتى بوتللو
(*Dictionnaire Napoléon*).

Histoire Scientifique, VI, pp. 411 - 413. Kléber au Directoire, le - ١٩
25 Brumaire an VIII (16 novembre 1799), ROUSSEAU, p. 114.

Je l'ai publiée en l'annotant dans *Kléber et Bonaparte*, II, pp. 515 – ٧٠ - 532.

Cela constitue tout le tome III des *Copies of Original Letters from – ٧١ the French Army*, Londres, 1800.

٢٢ - *Courrier de l'Égypte* du 9 brumaire an VIII (31 octobre 1799). لم يصل رسل إلى مصر في تلك الفترة. ومن ثم فلم يكن بالإمكان تقديم المصحف إلا من جانب الإنجليز، وهو ما يتطابق تماماً مع استراتيجية التدمير المعنوية التي ابتدعها سميث. ومن جهة أخرى، فإن كليبر يكتب إلى مينو في ٢٦ أكتوبر أنه قد تلقى الفتوة المصرية التي تضم رسائل جون كيث الخاصة بالطلاق قبل الأسرى. (ROUSSEAU, p. 100).

B6 110, Dugua à Lagrange, le 16 vendémiaire an VIII (8 octobre – ٢٣ 1799).

٢٤ - إن [فرنسيه] الذي ولد في عام ١٧٦٧، ودخل الخدمة في عام ١٧٨٥، قد خدم في جيش البيرينيز، ثم في جيش إيطاليا. وسوف يكون مفيداً من مورا وسيبقى جزءاً كبيراً من خدمته التالية في إيطاليا فيما هنا مشاركة في حرب إسبانيا ومشاركة أخرى في حملة روسيا. (*Dictionnaire Napoléon*). وكانت زوجته من أصل إيطالي، ومعروفة من جانب الجنود، خاصة خلال حملة سوريا. وقد زعم البعض أنها كانت عشيقة لكليبر في مصر.

٢٥ - على سبيل المثال B6 31, 16 et 21 septembre 1799، رسائل زعيم عرب الحريش، الحسم يعقوب، إلى زعيم عرب الفلجا، حسن طوبار، ورومان الباب العالي ضد الفرنسيين. إن مضمون النص هو مضمون النصوص السابقة : إن الفرنسيين هم أعداء المسلمين والمسيحيين، ولا يجب الانسياق لكلامهم للمسؤول. وإن الجيش الذي لا يلهو والجرار الذي يفوده الصبر الأعظم سوف يخلص مصر قريباً.

٢٦ - B6 133، كليبر إلى فرنسيه، ٢ برومير من العلم الثامن (٢٤ أكتوبر ١٧٩٩) : إن حسن طوبار يلهو بتصاصات ورق ذهبية يقدمها إلينا على أنها رسائل مهمة ويطلب تصاريح بتصدير بعض الأقمشة. في حين أنني على يقين من أن القرائل التي تذهب إلى سوريا تعمل كلها تقريباً لصالحه. إلا أنه يجب التحلي بالصبر والاستقامة من الرجل لعدم وجود بديل أفضل. لا تسمح إن بالتكشاف شيء.

٢٧ - انظر FO 78 24 : Minutes du conseil de guerre tenu à bord du vaisseau de sa Majesté Britannique le Tigre, à l'ancre devant Limassol, le 8 octobre 1798. إن تروملان (بروملي) هو الذي يلعب دور الرسول بين سميث والصدر الأعظم في دمشق. وكان على سميث إن يهدى في الأيام التالية عصيلاً من جانب الإنكشارية الذين اغتالوا باترونا بك، مسؤوليته عن هزيمة أبو القور (FO 78 24 : Sidney Smith au Caimacam Pacha le 10 octobre 1799).

٢٨ - سميث سميث إلى تيلسون، ٨ نوفمبر ١٧٩٩ : إن إلناهم بأن الاتصالات

كالانتصارات على قوات سوف تقتل معهم قتالا تلاحميا، بالرغم من أنها غير نظامية، لابد وأن تكلفهم غالبا في نهاية الأمر، هو حقيقة اسمي، بطبيعة الحال، إلى إظهارهم بها من أجل حثهم على التصالح مع الجلاء دون مزيد من إراقة الدماء. BARROW, I, p. 379.

Bonaparte avait proposé la désignation de Berthier, mais Monge - ٢٩
s'y était opposé en rappelant les railleries de ce dernier savant. Pour ne pas vexer son chef d'état - major, Bonaparte avait alors décidé de ne désigner aucun général de division (GOBY, *Le Premier Institut d'Égypte...*, pp. XIII - XIV).

Kléber et Bonaparte..., II, p. 504. - ٣٠

Histoire Scientifique..., VI, p. 435. - ٣١

Note concernant le jeune Ibrahim Sabbach par Fourier, secrétaire - ٣٢
de l'Institut, mars 1800, B6 42.

Notre Ibrahim Sabbagh doit être le Mikhael Sabbagh auteur de - ٣٣
cette biographie, voir Abdul Karim RAFEQ, *The Province of Damascus*, Beyrouth, 1966, p. 331.

Histoire Scientifique..., VI, pp. 417 - 418 et *Courrier de L'Égypte*, 10 frimaire an VIII et 10 nivôse an - VIII (31 décembre 1799). - ٣٤

Kléber au président de la commission, le 4 frimaire an VIII (25 - ٣٥
novembre 1799), ROUSSEAU, p. 122.

Kléber au président de l'Institut, le 1^{er} frimaire an VIII (22 - ٣٦
novembre 1799), ROUSSEAU, pp. 123 - 124.

HAMELIN, " Douze ans de ma vie", *La revue de Paris*, - ٣٧
novembre - décembre 1926, pp. 830 - 831 :
عليهم الفتيمة التي كانوا معتزين بها من حق، كانوا يحسون في حذر متواصل أحدهم من الآخر
وكانوا يرفضون تبادل بحوثهم فيما بينهم. وقد قال لهم فوروييه دون طائل إن هذه الأعمال للمبادرة
لا تصمد للخطر وأن من الضروري جمعها وتنسيقها حتى يتسنى تحويلها إلى هيكل عمل كبير
من مصر. والحال أن الجنرال كليبر الذي كان يرى الرأي نفسه قد جمعهم عدة مرات منذ توفى أن
يتمكن من التوصل إلى شيء حاسم؛ وفي نهاية الأمر، خطر له أن يقترح عليهم أن يكون ناشرا لهذا
العمل المهم. وقد رافقوا على ذلك، وأرسل الجنرال في طلبهم. وجرى الاتفاق على عقد اتفاق يفضل
فيه كل واحد من زوايا أهمية ومساحة أعماله. وكان هذا التقييم هو النقطة الأصعب. إلا أنه بفضل
قوة كلام الجنرال، أمكن التخليص عليها. وقد تعهدت بتقديم الأموال اللازمة وخصص لكل واحد
جزء من الأرباح يتناسب مع العمل الذي سوف يسلمه إلى فرنسا. وقد وقع الجميع على هذا
الاتفاق كما وقعت عليه. توجد نسخة من الاتفاق في (B6 62) .

M. A. E., *Correspondance politique, Turquie*, Vol. 201 et - ٢٩

BOULAY DE LA MEURTHE, *Le Directoire...*, pp. 215 - 217.

Détail de toutes ces mesures dans Jean THIRY, *L'aube du* - ٤٠

Consulat, Paris, 1948, pp. 235 - 239.

B6 111, Registre secret du général Kléber (contient toutes les - ٤١

pièces de la négociation dont un grand nombre d'inédites, sauf indications contraires, je renvoie à ce registre), le 5e jour complémentaire an VII (21 septembre 1799).

FO 78 24, Extrait du rapport du Capigi Bashi Ali Aga, Haznadar- ٤٢

de Moustafa pacha, ci - devant seraskier d' Ahranone (?) et aujourd'hui prisonnier au Caire, envoyé au camp impérial avec des lettres.

B6 111, Kléber à Menou, le 12 vendémiaire an VIII (4 octobre - ٤٣

1799).

B6 111, Notes de la conférence tenue le 20 vendémiaire an VIII - ٤٤

(12 octobre 1799) entre le général Kléber et l'Effendi Mahmed Ruchdy en présence du citoyen Poussielgue, administrateur général des finances, et de Moustafa Pacha, le citoyen Brasewich ayant servi d'interprète.

FO 78 22 - ٤٥ ، سيني سميت إلى سيني سميت، ٢٠ أكتوبر ١٧٩٩ : «لرجو أن

تراتب الوزارة الجلية بسائس الفرنسيين عن قرب حيث إنهم يستأنفون الآن نظامهم الخيرية الأولى بالإسلام مع أن بومسي أن يؤكد وألقا أن معظمهم لا دين له. أما وإن الحال كذلك، فإنني أحاول إبعاد المسيحيين عنهم بتحريرهم من الضريبة لهم يدعون الأمور تضر عندما تأخذ الصراخ لون الأرض. وأرجو أن تكون قد نجحت في إبعاد كل أنصارهم عنهم بين مسيحيي جبل لبنان والقدس ويمكنني ألزهم بأن ولاءهم وانصياعهم للسلطة الشرعية سوف يتميزان بالثبات والاستمرارية إذا ما واثق صاحب الجلالة الإمبراطورية على الإتصاف لرجائي بأن يشمل برعايته هذا النوع من رعاية، بحيث يتم منع مظالم ووحشية الولاة البعيدين الذين يتتبعون الفرمانات الخيرية التي أصدرها لأجل راحتهم. إن قانون وتاريخ للمسيحيين ليسا غير معروفين للوزارة العلمية والجليلة، إنهما يومئذيانهم بالتحلي بالصبر واطاعة حكومة البلد الذي يسكنونه وأنا على ثقة من أنه لا يمكن لأي «سوى التفكير أن يدفعهم إلى إحتشاء تير كالنير الفرنسي بدلاً من الحكومة الأتورية للإمبراطور السلطان سليم الأكثر عدلاً والأكثر شهامة».

FO 7823, Franckini à Sidney Smith le 27 octobre et Sidney Smith - ٤٦

à Spencer Smith le 9 novembre 1799.

Dominique CHEVALLIER, *La société du Mont Liban...*, p. 96. - ٤٧

يخبر إلى أهمية دور سيندى سميت في هذه المسألة وأكثر هذا العمل على المدى الطويل ، إنه سوف يكون عنصراً تاريخياً مهماً لطلاب إتليمية في تصور نظرية.

Quand Kléber parle de préliminaires de paix bien qu'il ne soit pas - ٤٨
mandaté par le Directoire, il a à l'esprit le précédent de Leoben où en avril 1797, Bonaparte, en même temps qu'un armistice avait conclu des préliminaires de paix sans en avoir reçu les pouvoirs du gouvernement.

Gaston WIET a publié en 1945 au Caire le journal du capitaine - ٤٩
Bouchaud (l'inventeur de la pierre de Rosette rédigé en 1805 sur la prise d'El Arich. Il l'a complété d'un certain nombre de pièces. Il faut y ajouter le récit du commandant du fort, Cazals (B6 38), les dépêches de Tromelin et du colonel Douglas à Sidney Smith (FO 78 23) et une traduction en français d'un journal de marche d'un membre de l'entourage du Grand Vizir (FO 78 29). On possède rarement autant de documents sur un événement de ce genre.

٥٠ - B6 36 . نوجا إلى كليبر، ٤ نيفوز من العلم الثامن (٢٥ ديسمبر ١٧٩٩) : علمت مساء البارحة مند هونتي إلى منزلي من للوطن صليبياء، حارس مستودع اللحوم، إن شخصاً غير معروف له قال في للهي لامي وإمام للوطنين أوميتي وبيرجون للفرنسيين الذين تركوا في يافا قد انضموا إلى الأتراك للزحف ضدنا، وأن عديم إريعملة وانه قد جرى تجنيد فرنسيين للعمل لحساب المماليكة. وفي اليوم التالي، تسمح عمليات تفتيش بإلقاء القبض على عدد من الفرنسيين الفارين والمصريين الذين يوافون لهم للولي. ويكتب كليبر في اليوم نفسه إلى نوجا امرأ بقطع رؤوس للمصريين ويحول الفارين إلى مجلس حرمي وانه قد توصل بنفسه إلى اكتشاف مؤامرة أخرى ليست أقل أهمية وأكثر سرية. ويشتبه في أن روزيتي يريد التدخل في اتصال مع الإنجليز ويتلقى تمثيلاً بشأن ملاقات الاجتماعية (بالنسبة إلى نوجا، ١٩ نيفوز - ٩ يناير ١٨٠٠). ومن للتأكد أن حالات الفرار تصبح كثيرة في تلك الفترة. وسوف تشكل أساس حملة «المماليك الفرنسيين» الذين سوف يلعبون دوراً مهماً بعد عام ١٨٠١.

Kléber au général Desaix et au citoyen Poussielgue, Au quartier - ٥١
général de salahieh, le 29 nivôse an VIII (19 janvier 1800).

B6 36, Dugua à kléber, le 15 nivôse an VIII (5 janvier 1800. - ٥٢

B6 38, Friant à Kléber, le 2 nivose an VIII (23 décembre 1799). - ٥٣

B6 38, Tallien à Kléber, le 10 nivôse an VIII (31 décembre 1799). - ٥٤

Kléber à Desaix et Poussielgue, le 13 nivôse an VIII (3 janvier - ٥٥ 1800).

Sans date, Desaix à Kléber, *Histoire Scientifique...*, VII, pp. 15 - ٥٦ 16.

Rousseau, pp. 190 - 191. - ٥٧

٥٨ - VII, pp. 72 - 73. *Histoire Scientifique...* للواقعون هم سانسون، سونجي، روبين، ناكور، لاجرانج، رامبون، فريان، رينيه، تلمس، كليبر وبيور. سكرتير المجلس.

Voir en particulier son article "La Convention d'El Arich", *Revue - ٥٩ d'Histoire Diplomatique*, XXXVII (1923), pp. 48 - 88 et 304 - 347.

DESGENETTES, *Souvenirs d'un médecin...*, p. 32. - ٦٠

A Auguste Damas, le 25 pluviôse an VIII (14 février 1800). La - ٦١ copie qui se trouve en B6 41 porte en marge une annotation du général Damas évidemment postérieure : lettre du général Desaix au général Bonaparte d' Alexandrie le 2 ventose pour s'excuser d'avoir signé le traité d'El Arich, faire sentir la différence de cette lettre avec celle par laquelle le général Kléber écrivait dans le même temps sur le même sujet telle que la réponse ci - jointe.

Kléber et Bonaparte..., II, pp. 556 - 557. - ٦٢

٦٢ - نشر أولاً في كتبه *Paris sous le Consulat* تقرير الشرطة. وجد بينها في ٢٥ جبرميثال (١٥ أبريل ١٨٠٠) ،

« إن بعض متحزبي الجنوب، اللاجئون في باريس، يبدو أنهم يحلجوا إلى زعيم لشدة متهمي وساخطين المتهربين الجنوبية. وقد تطلعو بالصلوهم إلى الجنرال كليبر و، دون أن يعرفوا رايه، يقولون إن بلادهم سوف تزود بثلاثمائة ألف رجل للإطاحة بالحكومة الحالية. (I, P. 269) ؛ وكذلك في ٦ فلوريال من العام الثامن (٢٥ أبريل ١٨٠٠) ،

« إن المرحضين الذين يعرفون أن بوسعهم أن يجنوا في الأموال الفاضحة التي يتفوه بها العمال الذين بلا عمل، دلائل على الاستعداد للحركة، يلمحون إلى أن جيش مصر سوف يوجه جد سلطه، خاصة الضباط؛ وإنه قد انعقد مجلس حربي بعد رحيل الجنرال بوناپارت، برئاسة الجنرال كليبر، تقرر فيه أن هذا الرحيل قراره (I, p. 292).

٦٤ - إن غياب معلومات بشأن مشروع عودة اسطول بريست إلى البحر المتوسط قال بالنسبة للسرعة التي جرى بها إرسال لاغور - مويور. وقد قام أموري فيقر دليسييه بإعداد قائمة بالسفن المرسلة إلى مصر بعد ١٨ يومور حتى نهاية الحملة. ومن بين إجمالي ٤٢ سفينة قبل أغسطس ١٨٠٠، لم يرحل إلا سفينتان في يناير ١٨٠٠. ولا يدل ذلك على التفات للاهتمام من

جانب الفصل الأول، للسفن الـ ١٠ التي ترحل بعد ذلك إلى أقل من ستة توشرح ذلك تماماً، بل يدل على العجز الذي يواجهه عن إرسال رسائل، ولا حتى تعزيزات، في الفصل الأنسب لاختراق الحصار الإنجليزي، والأسعوب بكثير دائماً على مواصلة خلال الشهر، *Réflexions sur la perte de l'Egypte, 1798 - 1801*, maîtrise, paris I, 1985 (bibliothèque Albert Soboul), pp. 192 - 194.

Kléber au ministre de la guerre Berthier, le 16 ventôse an VIII (7 - ١٥ mars 1800).

Kléber au général Clarke, directeur du dépôt de la guerre, le 16 - ١٦ ventôse an VIII (7 mars 1800).

٦٧ - B6 42, ٢٨ فيكتور (١٩ مارس ١٨٠٠). لا يجرى الهجوم على كليبر بالاسم. ويجري إلقاء المسؤولية الرئيسية على كامل إدارة الاكباط الذين حاولوا دون الاستفانة من مليات مصر. وقد أدخل برتلبرت إشارات ومليات فطب على النص.

٦٨ - FO 78 23.

٦٩ - FO 78 28, sans date mais début de l'année 1800.

٧٠ - BARROW, I, p. 381 : « عندما أعلن السير سيدي سميت خبر تعيين اللورد إيلجين للصدر الأعظم، انتابه الأسى الشديد لاستبدال صديقه وتساءل : « ولكن لماذا يجب أن يكون هناك أي تغيير ؟ لقد سارت الأمور بيننا على خير ما يرام، سارت الأمور على خير ما يرام. وقد أبلغه السير سيدي أن السفير للمعين الجديد هو من كبار ملاك الأرض في اسكتلندا، وأنه يتمتع بنفوذ قوي وأن الحكومة الإنجليزية قد امتلكت إرضاء مثل هؤلاء الأشخاص، بتعيينهم في مناصب رامية، وهو أفضل شيء يمكنها تقديمه. وعندما قال الصدر : « آه ! يمكنني أن أقدم من ذلك إذا كان حكرمتكم لها أيضاً زعماء جهالها الذين ينعين عليها إرضائهم. »

ثم سأل من اسمه : ما هو الاسم. وذكر له سير سيدي الاسم بالعربية، فقال : « آه ! لكن إيلجين اسم سيدي جداً - إنه «الجن» - إنه الشيطان. كيف يمكن للحكومة الإنجليزية أن ترسل إلينا شخصاً كهذا ؟. وكان «بكوات الجبال» (مهرجانات) أحياناً ولايات تعربوا عليها من سلطة الباب العالي في الأناضول.

٧١ - FO 78 23.

٧٢ - A Lord Elgin, d'El Arich le 18 janvier 1800, FO 78 29.

٧٣ - CHARLES - ROUX, *La Convention d'El Arich...*, pp. 305 - 309.

١ - كانت أسيرة مورييه مستقرة في أزمير. وقد احتل إيزاك مورييه هناك منصباً. وكان له أربعة أبناء من بينهم سكرتير إيلجين وجيمس جوستيانيان، مؤلف الكتاب أجي بابا. انظر Georges KROTKOFF, "Hammer - Pugstall, Hajji Baba

and the Moriers", *International Journal of Middle East studies*, XXIX (1987), pp. 103 - 108.

Sidney Smith & Lord Elgin, le 20 février 1800, BARROW, II, pp. - ٧٥
19 - 23.

٧٦ - على سبيل المثال، رسالة نيلسون إلى سيدني سميث بتاريخ ١٨ مارس ١٧٩٩، بشأن منح تصاريح سفر للفرنسيين المغتربة بمصر : «إن هذا يتعارض تحليفاً مباشراً مع رأيي والذي يتحمل في عدم السماح لأي فرنسي بمغادرة مصر. ولذا فإنني أجد لزاماً علي أن أتكلمك بأن أصدر إليك الأمر بالاحتجاج ليه سفينة فرنسية أو أي رجل فرنسي تصريحاً بمغادرة مصر» *Letters From Lord Nelson*, compiled by Geoffrey Rawson, Londres, 1949, p. 222.

٧٧ - نيلسون إلى سيدني سميث، ٨ مارس ١٧٩٩ : «إن منصبك كوزير مشترك لدى الباب العالي يحتم بصورة مطلقة أن تعرف من الذي يخاطبني - ولذا فإن علي أن أوجهك، متى كان عليك إبلاغ أمور وزارية، إلى أن يتم ذلك بالاشتراك مع أخيك الموقر، وعدم خلط الأمور البحرية بالأمور الأخرى، لأن ما قد يكون لغة جد لائقة بالنسبة لمنسوب لصاحب الجلالة، قد يكون مغريباً لظك المرافعة للاحترام من الصفوف المختلفة في خدمتنا. إن توسع مندوب أن يستخدم نبرة إملاء مع أحد الأمراء لكن ضابطاً بروتية تقبى سوف يتعرض للتوبيخ لو فعل الشيء نفسه» (Ibid, p. 220).

٧٨ - نيلسون إلى اللورد كيث، ٢٠ مارس ١٨٠٠ : «إنني لا يمكنني الموافقة تحديداً على تدخله كضابط بريطاني في النزاعات بين الحكومة العثمانية وهاجا حكا، ودون أي اتصال آخر مع اللورد إيلجين، لا يمكنني الموافقة أبداً على أن يهاجم حكا، لكنني قد كودت رأياً حول هذا الموضوع، وإنني لأجزم على القول بأنه سوف يكون منطقاً مع رأيك» (Ibid, p. 281).

٧٩ - Texte dans H. G. PERIN and C. LLOYD, *The Keith Papers* : - ٧٩
Selected From the Letters and Papers of Admiral the Viscount Keith, Londres, Navy Records Society, 1927 - 1955, III, pp. 203 - 204 et BARROW, II, pp. 9 - 11.

Cité et traduit par CHARLES - ROUX, p. 343, d'après *Dispatches - ٨٠
and letters of Vice - Amiral Nelson*, Londres, 1845, IV, p. 157.

Traduction de CHARLES - ROUX, p. 315 et texte original dans - ٨١
BARROW, II, p. 78.

INGRAM, *Commitment to Empire...*, pp. 356 - 357. . - ٨٢

Keith Papers, III, p. 214. - ٨٣

INGRAM, pp. 364 - 366. - ٨٤

Desaix et Poussielgue à Kléber, le 5 pluviôse an VIII (25 janvier – 80
1800).

Notes de la conversation qu'a eue le général Kléber avec Moustafa – 81
Pacha le 10 pluviôse an VIII (30 janvier 1800).

Mémoire remis le 8 pluviôse au Grand Vizir sur la demande qu'il – 82
en avait faite au citoyen Poussielgue.

Kléber au diwan du Caire, à ceux des différentes provinces de – 83
l'Égypte, quartier général de Salheyeh, le 12 pluviôse an VIII (1^{er} février
1800).

JABARTI, 3 ramadan 1214 (29 janvier 1800). – 84

WIET, p. 95. – 85

Curieusement, CUOQ (p. 200) traduit "Khayyama" par "couvrir – 86
d'honneurs", au lieu d' "établir son camp".

JABARTI, 5 shawwal 1214, Wiet, p. 96. Le récit de Nicolas Turc – 87
pour cette période est très précis et correspond parfaitement au contenu des
archives françaises.

Damas au Reis Effendi, le 28 pluviôse an VIII (17 février 1800). – 88

Damas au Reis Effendi, le 7 ventôse an VIII (26 février 1800). – 89

Kléber au Grand Vizir, le 19 ventôse an VIII (10 mars 1800). – 90

Traduction de la lettre de Lord Keith, commandant en chef la – 91
flotte anglaise de la mer Méditerranée au général en chef Kléber recue dans
la lettre de Sir Sidney Smith du 21 février. L'original en B6 42 et le registre
B6 111 portent tous les deux le soulignement indiqué ici.

Poussielgue au général en chef Kléber, le 19 ventôse an VIII (10 – 92
mars 1800).

Selon les sources européennes comme arabes, la graphie de ce – 93
nom prend des formes différentes et souvent très éloignées les unes des
autres, voir les exemples donnés par WIET, p. 99.

John Keith à Sidney Smith, le 10 mars 1800, ADMI 402. – 94

John Keith à Sidney Smith, le 16 mars 1800, ADMI 402, voir - ١٠٠
aussi une traduction française d'une lettre de John Keith au même le 12 mars
1800 en B6 42.

WIET, p. 97. - ١٠١

Kléber à l'armée, le 20 ventôse an VIII (11 mars 1800), - ١٠٢
ROUSSEAU, pp. 238 - 239.

Fourier à Kléber, le 23 ventôse an VIII (14 mars 1800), 6 42. - ١٠٣

Kléber à Damas et Gloutier, le 24 ventôse an VIII (15 mars - ١٠٤
1800).

ROUSSEAU, p. 239. - ١٠٥

Le texte turc avec la traduction française se trouve en B6 42. - ١٠٦

Morier à John Keith, le 13 mars 1800, ADMI 402. - ١٠٧

Rapport de Wright à Sidney Smith, ADMI 402. ce document - ١٠٨
extrêmement riche est, à ma connaissance, totalement inédit. Il permet de
suivre l'évolution psychologique de Kléber.

Conférence tenue le 24 ventôse an VIII entre les commissaires - ١٠٩
français et les commissaires turcs, le Reis Effendi et le Defterdar, à la
mosquée de Sibilli Hallem en avant de la Coubée.

١١٠ - تقرير راييت، لم يكن على علم باجتماع ١٦ مارس بين الفرنسيين والعثمانيين. وفي
نهاية الأمر، قرد الطرفان الاجتماع دون للمبعوثين الإنجليز.

١١١ - يمكن الاعتقاد بأن راييت يخترع هذا الجزء من الحادثة في تقريره، لكن هذه الأفكار
تجد تعبيراً عنها في كراس يوميات كليبر.

١١٢ - كليبر إلى نابلس، ٢٦ فينتوز من العلم الثامن (١٧ مارس ١٨٠٠) : «يجب إلقاء
القبض على عثمانلية بولاق والقاهرة القنينة والقاهرة متى كان ذلك ممكناً دون حرمانهم من
الزراعة ودون تعريضهم لأيّة معاملة سيئة» (B6 42).

١١٣ - يحدد نقولا الترك بصورة منتظمة على رفض ممثلي السلطة الشرعية فوفى أي
مصير سيء على الأقليات. وقد رأينا أنه قد اتهم عمر مكرم بأنه كان يريد نهج للمسيحيين عند
إعلان نزول الفرنسيين. ولابد من الإشارة إلى أن الجبرتي قد حمل العثمانيين مسؤولية الجهاد
عند المسيحيين لكان ذلك في «مظهر القديس» لم في «جغرافيا الآثار».

وتتحدث الملاحظات حول انتفاضة القاهرة عن بيان «باسم الباشا» يدعو إلى مراعاة
للمسيحيين والمسلمين والأقباط واليونانيين واليهود والأرمن، تلعب الشعب إلى مهاجمة

الفرنسيين، *Revue d'Égypte*, 1895, pp. 203 - 218. وهي ترجع جزئياً إلى قلم كليبر وتشكل مسودة للتقرير، الذي بدأه كليبر وأتمه بلماس، والمقدم إلى الحكومة الفرنسية من الأحداث التي جرت في مصر، منذ حادثة معاهدة العريش وحتى نهاية بربريال من العام الثامن. وقد نشر هذا النص الرسمي في القاهرة بعد موت كليبر. كما أن كتاب *Revue d'Égypte* ينشر يوميات معركة هيليوپوليس وحصار القاهرة، والتي كان سكالكوفسكي قد أعاد نشرها ناسباً إياها إلى لازوفسكي (PP. 371 - 405).

١١٤ - في مجانب الآثار، لكت في مظهر التقديس، خلافاً لذلك، لعين كرية.

١١٥ - B6 43, Ordre du général Kléber le 17 germinal an VIII (7 avril - 1800).

١١٦ - *Rapport fait au gouvernement...*, p. 30.

١١٧ - *Victoires, Conquêtes...* XII, pp. 124 - 125. «إن الجهود الأكثر خروجاً على اللغز، الأمر الذي ما كان يمكن لأحد قط توقعه من أناس جد متأخرين في الحضارة والصناعة، قد شملت في هذا الظرف طهر المعادى إلى أبعد حد. لقد طرد الأتراك والسكان نشاطاً لا يمكن لأحد آخر أن يمنحه أبداً بربري غير التعصب، حيث محل محل حب الوطن».

١١٨ - يزعم كتاب «التاريخ العلمي» أن الثوار وحدهم هم الذين سوف يستفيدون من الحصص البرمية (VII, P. 413).

١١٩ - ماذا هو ما يؤكد الجبروتى، ويؤكد «التاريخ العلمي» جزئياً، «إن بعض الروايات ذات الصلة الضعيف، لا بد من قول ذلك، قد تمتعت من وجود في القاهرة لذلك للولى محمد أو الرسول للهوى، الذي كان قد حوّل سكان البحيرة. وهذا يعنى أن الرسول للهوى لم يهلك في مذهب بطلان مدعى أن رجلاً آخر من النوع نفسه قد احتمل اسمه وأعماله» (VII, P. 414).

١٢٠ - في مجانب الآثار، لما في مظهر التقديس، فإنه يجرى تسويره بشكل محلي أكثر ويتم الاعتراف بغيرته كمنطق، انظر. *Delanoue Moralistes...*, I, p. 61. وهذا التفسير معال للتفسير الخاص بالمعلم يعقوب.

١٢١ - (B 6 42) ٢٩ مارس ١٨٠٠، الواقعون هم السانبات والكرى والشرقاوى والصاوى واللهى والقيومى والعروانى وأحمد محرم وإبراهيم ملطى.

١٢٢ - Notes..., pp. 214 - 215

١٢٣ - Le général en chef Kléber à Mourad Bey, le 12 germinal an VIII (2 avril 1800).

١٢٤ - *Traité avec Mourad Bey*, le 15 germinal an VIII (5 avril 1800).

١٢٥ - Note officielle de la part du général en chef Kléber, concernant

la conduite à tenir par le très illustre et honoré Mourad Bey, en conséquence de la convention du 15 germinal an VIII.

Conditions convenues entre le général en chef Kléber – ١٢٦
commandant l'armée française et Nessif Pacha, commandant l'armée turque
pour l'évacuation du Caire, le 10 germinal an VIII.

B6 43, Nassouf, gouverneur d'Égypte à Moustafa Pacha, 6 Zai el – ١٢٧
Cade 1214 11 germinal an VIII (1^{er} avril 1800).

Jabarti, événements de l'année 1214. – ١٢٨

Sur l'histoire de Boulaq, voir Nelly HANNA, *An Urban History of Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods*, Le Caire, I. F. A. O., 1983. – ١٢٩

١٣٠ – من الخريب أن الجبرتي في مظهر التقديس كما في هجائب الأكلر يعطى تاريخ ١٧
أبريل ويخلط تاريخ الهجوم على بولاق بتاريخ المعاصرة للكعبة، في حين أن كتاب *Victoires et conquêtes* يوضح أن الاستيلاء على بولاق قد سبق المعاصرة (XII, P. 736). ونسمح ونيفتان في الملف (B 6 43) بالتحقق من تاريخ ١٥ أبريل : أمر من كليبر بتاريخ ١٥ أبريل إلى الجنرال قائد سلاح الهندسين بشأن الهجوم على بولاق والعفو للمدحج للسكان في ١٦ أبريل.

B6 43, Kléber général en chef à l'armée, Au quartier général du – ١٣١
Caire, le 16 germinal an VIII (16 avril 1800).

Victoires et Conquêtes..., XII, p. 138. – ١٣٢

١٣٣ – الجبرتي، ذو القعدة ١٢١٤. إن التقرير، المكتوب بقلم دلماس في هذا الجزء، يذكر
ممد القامرين الذين ساروا في أثر العثمانيين بخلافة إلى أربعة آلاف.

Histoire Scientifique..., VII, p. 462. – ١٣٤

p.55. – ١٣٥

PEYRUSSE, *Les finances de l'Égypte...* pp. 459 - 461. – ١٣٦

١٣٧ – الجبرتي، ٨ ذو الحجة ١٢١٤. يرفع كتاب «التاريخ العلمي» الخيرية للمروضة على
المسلمات إلى ٨٠٠ ٠٠٠ فرنك (VII, P. 470).

PEYRUSSE, op. cit., p. 460. – ١٣٨

B6 45, lettre du shaykh al Sadat à Kléber, original arabe et – ١٣٩
traduction d'époque.

ROUSSEAU, P. 293.

- 111.

B6 45, Déclaration en faveur du capitaine Gervais par les notables du 8^e arrondissement, idem pour le capitaine Giraud (3^e section).

Sur la question très controversée des rapports de Lascaris et du mu'allim, voir mon essai de mise au point : "Le chevalier de Lascaris et les origines du Grand Jeu", *Cahiers de l'Orient*, 7 1987), pp. 189 - 210.

MICHALON et VERNET, op. cit, p. 33.

- 112

ROUSSEAU, pp. 273 - 277.

- 111

Ordre du 23 prairial an VIII (12 juin 1800), B6 45.

- 110

Le 2 prairial an VIII (22 mai 1800), ROUSSEAU, p. 296.

- 111

Ordre du jour du 18 floréal an VIII (8 mai 1800), B6 44 et ROUSSEAU, p. 286.

- 117

Le 3 prairial an VIII (23 mai 1800), Rousseau, p. 301.

- 118

ADMI 402 : Sidney Smith à Nelson, le 1^{er} mars 1800, à Lord Keith, le 8 juin 1800. Voir aussi Historical Manuscripts Commission : *Reports of the Manuscripts of J.B. Fortescue, Esq, Preserved at Dropmore* (vulgairement) *Dropmore Papers*, VI, pp. 161 - 162.

- 119

Sidney Smith à Lord Keith le 5 avril 1800 et à Lord Elgin le 21 avril 1800, BARROW, I, pp. 390 - 393 et pp. 403 - 411.

- 100

FO 78 29 : Sidney Smith à Morier (et par là à Lord Elgin), le 20 avril 1800, au Caimacam Pacha le 9 juin 1800; extrait d'une dépêche du Grand Vizir à la Porte, le 1^{er} avril 1800; Morier à Elgin le 12 et le 13 avril 1800 et le 28 avril 1800.

- 101

B6 43 : Le Grand Vizir au général en chef Kléber, au quartier général de Jaffa (sans date), arrivée au Caire par un Tartare le 30 germinal an VIII (20 avril 1800) et réponse à la lettre ci - dessus, mise en bas non signée et expédiée par le même Tartare, parti le 8 floréal (28 avril 1800).

- 102

B6 44 : Kléber à Sidney Smith, le 16 floréal an VIII (6 mai 1800), à Damas, le 1^{er} prairial (21 mai 1800).

- 102

Courrier de l'Égypte du 21 prairial an VIII, du 18 messidor et du 27 messidor (10 juin, 7 et 16 juillet 1800). B6 45 : correspondance entre Morier et Kléber.

- 101

B6 45 : Sidney Smith à Kléber, devant Jaffa, le 9 juin 1800. - ١٥٥

B6 45 : Lanusse à Kléber, le 25 prairial an VIII (14 juin 1800). - ١٥٦

La lettre arrivera après la mort de Kléber.

B6 45 : Kléber à Reynier, le 20 floréal an VIII (10 mai 1800). - ١٥٧

B6 45 : traduction d'une lettre du Grand Vizir arrivée au Caire le 8 juin 1800. - ١٥٨

B6 45 : Menou à Kléber, le 17 prairial an VIII (6 juin 1800). - ١٥٩

B6 45 : Kléber à Menou, le 19 prairial an VIII (8 juin). - ١٦٠

Mémoires du Comte Reynier, 11^e édition, Paris, 1800, pp. 88 - ١٦١

٨٨

Dictionnaire Napoléon, articles Desaix et Marengo. - ١٦٢

١٦٣ - أما بروتان فسوف يشفى من جراحه.

١٦٤ - الجبرتي، ٢١ محرم ١٢١٥ و 82 - 81 pp. I, *Moralistes...*, DELANOUE,

يجب وضع المسألة كلها في سياقها، لقد استخدم الفرنسيون التعليل ليدفع الحلبي إلى تقديم اعترافات. وما يهم الجبرتي هو انتظام الإجراءات وعدم إنزال عقاب بأحد غير الأشخاص المتهمين.

١٦٥ - كانت لدى لاري مجموعة من جماعات من الجاني إلى الاختيال السياسي. وقد حصل من القنصل الأول على جمجمة كليونال التي لن ترد إلى أسرته إلا في ظل دولة الملكية.

الفصل الثامن

میلو

الخيار الاستعماري

تسمية ميلو

لم يكن قد جرى التصيب لاختيار خليفة لكليب. والمسألة جد بعيدة، بحيث لا يمكن لباريس تسمية أحد، وكل شيء يعود بين قادة الفرق في القاهرة، أو بشكل أدق بين الأكبر سنًا بينهم؛ رينيه الذي تعتبر قراراته العسكرية معادلة لقرارات أكثر جنرالات الثورة روعة والذي رقى إلى هذه الرتبة في عام ١٧٩٦ وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ومينو الذي لم يتميز قط حقًا في القتال مع أنه كان قائد فرقة في الثالثة والأربعين من عمره، في عام ١٧٩٣. ومنذ وصول نيا الاغتيال، يتألى كل من الرجلين على القرارات التي يجب اتخاذها. وفي نهاية الأمر يذبح رينيه مينو قليل الحماس بتولى القيادة العامة بصورة مؤقتة إلى حين وصول قرار من باريس. وكان مينو قد قدم حجة جديدة، إن تغييره ليدنه قد جعله قليل الشخصية بين الجنود، وهو لا يحوذ خبرة حربية حقيقية. لكن القواعد العسكرية محددة؛ فمن الواضح أن مينو هو الأكبر سنًا في الرتبة الأعلى، ويعلن رينيه وجميع الجنرالات استعفائهم لتقديم للشورة إليه في مجال العمليات العسكرية...^(١)

وفي الظاهر، فإن هذا الحل الوسط قد يبدو ممتازًا. أما في الواقع، فإنه يهمل تمامًا التعامل بين الخيارات الكبرى لحكم مصر، خاصة بين إدارة البلاد والعمليات العسكرية. ثم إن رينيه سرعان ما بأسف لتنازله عن المواقع لمينو ويتصرف كعناقد متزايد الحدارة لخليفة كليب. بل إنه، خلال جنازة كليب، يلغضب من المكانة البروتوكولية الأعلى التي اختص بها مينو نفسه من دون قادة الفرق الآخرين^(٢). وعندما يتخذ مينو قراره الأولي بصقلته لثالثًا

حلاً مؤقتاً، فإنه (روحيه - للتوهم) يهدى علناً لاستيهاده من تلقى أوامره، ويؤكد أن على
مهند أن ينتظر تنهيته من جانب جنرالات مجتمعين في مجلس حربي. وبالنسبة له، فإن
ذلك هو السبيل الوحيد الذي يمكنه من خلاله إخفاء الشرعية على سلطته، فالبعد عن
التدويل وصعوبات الاتصال تحول دون تلقى أوامره. وهو يقول: «ومن جهة أخرى، فإن
كل حقوق الأتمية قد أبطأها الدستور الجديد، وجميع التعيينات يجب أن تتم
بالاختيار» (٣).

وهذه الحملة

إن مصرع كليبر، هذا القائد للحبوب وجد المحترم من الجنود، قد وجه ضربة بالغة
للصورة إلى معنويات الجيش. فالنظور الذي كان يكتسب دائماً لمصر، وتحول إلى كره حقيقي.
والحال أن الرغبة في العودة (إلى فرنسا)، والتي اجتجت مؤقتاً بعد انتصار هيلبروليس
إنما تعود الانبثاق بدرجة أكبر وذلك بقدر ما أن القائد العام الجديد لا يتمتع بخصال سائس
الرجال الضرورية لنفع الجنود إلى نسيان مشاق للنفي.

والحال أن معنى الحملة لم يك وانحساراً قط للجنود. لقد قيل لهم إنهم قد جاءوا إلى
مصر لتحريرها من المماليك. إلا أنه قد تم للتو عقد اتفاق معهم. وقد جرى التأكيد لهم
على أنهم حلفاء للإمبراطورية العثمانية، وما هم يقاتلون جيوشها منذ عامين. والتفسير
الذي بنا لهم أكثر منطقية والذي دعمه مواقف كليبر في الأشهر الأولى لقائه، هو أن
حكومة الإنارة قد أرسلتهم إلى مصر للتخلص من بونابارت، وبما أن هذا الأخير هو الآن
السيد الجديد لفرنسا، فإن البقاء في مصر لم يعد له أي معنى.

ويعرف مهند هذا القلق الذي ينتاب الأنهار. وفي بيان موجه إلى الجيش، في
ميسيدور من العام الثامن (٢٤ يونيو ١٨٠٠)، بعد عشرة أيام من مصرع كليبر، يشرح له
السبب في وجوده في مصر: لقد كانت الحملة عملية وقائية تهدف إلى منع أعداء
الجمهورية من الاستيلاء على مالطه وعلى مصر؛ وكان لابد من إنقاذ تجارة شرق البحر
للتوسط للهمة (والتي ترتفع مكاسبها سنوياً) إلى نحو خمسين مليوناً (من الفرنكات. -
للترجيم)؛ وما يلزم له أن يلبى العلى قد خدع من جانب أعداء فرنسا وشن الحرب
عليها؛ وقد أنت انتصارات جيش الشرق إلى تدمير أماله، وهذا هو السبب في أنه قد لجأ إلى
الاحتلال حتى تنب الفوضى في صفوف الجيش؛ واليوم، لا يمكن أن يكون من الوارد
التفكير في معاهدة للجلاء. بونابارت هو وحده الذي يمكنه إخلاء مثل هذا القرار. (٤)

وهذا النص يخدمه كدعوى عندما يسلكه ضباط شبه لواء جامعا للاضطلاع بمسمى جماعي، متى ينوى إعانة الجيش إلى فرنسا. ويحاول داملس، في الفترة نفسها، أن يبين له أن حالة الجيش لا تسمح بالبقاء في مصر وأنه يجب الاستقالة من اللوائح للتفاوض على جلاء في أحسن الشروط. والحال أن مينو، الذي يأخذ على هذا الجندال أنه قد أثار كليبر عليه، إنما يحيل مرة وإلى الأبد إلى بيانه. وينحاز ريتيه، في مواجهة مينو، إلى صف داملس (٥).

ويامر مينو بنشر بقية أوراق مورييه ويتهم الباب العالي علناً بأنه مسؤول عن اغتيال سلفه، وذلك سعياً إلى تمويل الجندل عن الأموال الزائلة التي اشتملتها الدعاية الأنجلو - عثمانية. ثم إن اللازم وأيت، الذي كان قد طرد من الإسكندرية بناءً على أمر من كليبر، والذي عاد عبر طريق سوريا كمفاوض بلشما، إنما يطرد مرة أخرى من مصر. وكان قد ضبط متلبساً بجريمة إغراء جنود فرنسيين وكان بالإمكان القبض عليه كجاسوس (٦). وقد أترك سيدي سميت على الفور أن يعود مينو إلى القيادة العامة إنما يعني انتصار الحزب الاستعماري (٧) ولا يدهش لرفض مينو أي نقاش إلا أنها تتعلق بمسألة الأسرى. على أن الحصر الأعظم ما يزال يحلم باستئناف المفاوضات، وهو يوجه بياناً إلى الجيش الفرنسي ينفي أية مسؤولية عثمانية عن اغتيال كليبر (٨). وهو يصطنع بذات الدافع بعدم القبول، كما أن العروض التي يقدمها القاهويلن باشا وإسحق بك تقابل بالرفض، والاتصالات الوحيدة للسجود بها إنما تتعلق بإطلاق سراح بونو الذي هو الآن أسير عند القاهويلن باشا. ويمطى ذلك مهالاً لتبادل الرسائل والهدايا بين مينو والقاهويلن باشا حتى عودة بونو إلى مصر (٩).

تصالح الجيش مع الواقع

وهذا الرفض الراضح والبات لاستئناف المفاوضات حول المسائل الأساسية إنما يضع نهاية لالتباسات سياسة كليبر، لكنه يضع أيضاً نهاية لدعاية الغرضيين التسريحية، وإذا كان لم يعد هناك ما يدعو الإنجليز إلى الانزعاج من قلب للتحالفات يتم في نهاية الأمر من جانب العثمانيين، فإنهم يجهلون أنفسهم مرغعين على هجر العمل غير المباشر العزيز على قلب سيدي سميت. وحتى إذا كانت الحكومة البريطانية تضطر، في استرجاعها لما كان، إلى الاعتراف للعميد البحري بأنه كان يتميز ببعد النظر في مسألة اتفاق العرش،

لأن الحرب الإنبارية ضد الأخوين سميت والتي يخوضها اللورد إيلجين، تجد ترجمة لها، بعد بضعة أشهر، في سَحب سبنسر من القسطنطينية (١٠) وفي تجهيم لوضع سيدنى والتهمة للنطالية في تورط عسكري أكبر لبريطانيا في مصر وذلك بسبب إغلاقات العثمانيين للتتالية.

وفي التو والحال، فإن تأكيد سياسة واضحة، إنما يبدو أنه قد لقي استقبالا طيباً من جانب جمهوره الجيش. وعلى الأقل، فإن قرين يؤكد، إن كل فرد، وقد انتزع بأنه سوف يظل في مصر لفترة طويلة، قد سعى إلى نسيان فرنسا قدر الإمكان. وفي كل مكان، فإن الضباط القادة والعسكريين لم يهتموا إلا بتزيين مساكنهم. وقد أقيمت الحفلات والمآكب وأعيد فتح قاعات العروض للصحبة، وأخيراً، ساد القول بأننا ما نحن مستعمرون (١١).

ويشير غياب المعصيات في الأشهر التالية إلى أن الجنود قد تخلوا عن الأمل في عودة قريية وأنهم غير قادرين على ممارسة ضغوط على القيادة. والحال أن معركة ميلهوبوليس كانت قد حوت لدى الجيش العلم من الأوهام. لكنه ليس متحمساً على الإطلاق للمشروع الاستعماري. فالرفض للأمر الواقع هو الشعور السائد الذي أثاره نزاع الجنرالات، ويرتكب منهو الخطأ الجسيم الذي يتمثل في اعتبار هذا الموقف ثابتاً. إن تصور الاحترام الشخصي الذي يتمتع به يؤدي إلى أن تبجح خطابه لا يثير البتة أرواح الجنود الذين يتذكرون بلاغة كليبر البسيطة والمؤثرة.

والحال أن ميديو، للتورط بالفعل في مشاحنات مع المقربين من كليبر، سوف يزيد من احتداد سخريتهم الخبيثة عندما يطلب تسليم شركة الجنرال القليل إلى خزائن الجيش. فداماس يعارض ذلك بتأكيد أن هذا الإجراء إنما يتعارض مع القوانين ويعلم أنه مسؤول عن خلق ثورة. ويريد ميديو تمرير المسألة بإصدار أمر إلى اللجنة الإنبارية ببيع متعلقات كليبر الشخصية. لكن اللجنة ترفض مشيرة إلى أن ذلك لا يدخل في اختصاصاتها. وبعد مدة أيام من المناقشات، يتصور داماس، إن تصفية للممتلكات تتم على يد نور، إلا فيما يتعلق بالأشياء التي يحتفظ بها ميديو، لكن الثمن يسلم إلى داماس، ممثل الثورة الذي يجري تسليمه أيضاً عشرون ألف فرنك، هي الثمن التقديرى للأشياء التي يحتفظ بها القائد العام. لكن ميديو يحاول أن يعرف ما إذا كان كليبر قد دفع من راتبه ثمن الأشياء للشار إليها (خاصة الكتب) ويقتزل بنحو ثمانية آلاف من الفرنكات التعويض المقرر. وفقاً لرئيسه، على أية حال، فإن هذا التعويض لن يسلم أبداً إلى داماس (١٢). ومن جهة أخرى، فإن هذا الأخير يخلي كتابات كليبر الشخصية لأنه يخشى - وهو على حق في ذلك - من أن يحاول ميديو وفيما بعد هوناهات الاستيلاء عليها، وذلك بسبب صراحة الأكراسي المعروفة تماماً (١٣).

المشروع الاستعماري

إن الرغبة في الاحتفاظ بمصر وولفس مواصلة التلاعب بالكلمات بمحاربة العلمانيين مع لبعاء للجهل لاستعادة سلطتهم، إنما يسمحان لينو يرفع الستار عن الهدف الحقيقي للمشروع المصري: إيجاد مستعمرة. وعلى الفور، يرى رينيه ويلامس في ذلك اختصاراً جديداً، لأن الحكومة الفرنسية وحدها هي التي تملك الحق في تأكيد قرار كهذا، وأن من الأفضل الحفاظ على ضبابية فكر سلفيه حول هذا الموضوع. ولا يتصل النزاع بمجرد مجرد الوجود الفرنسي في مصر، بل يتصل كذلك بالتحديد الحقوقي لصلاحيات مهنو. فإذا كانت مصر مستعمرة، فإن مهنو حينئذ هو حاكمها الذي يمثل التنازل. وبسبب انقطاع الاتصالات مع فرنسا، فإنه يملك حق سن القوانين كوثيس دولة والاضطلاع بإصلاحات أساسية. وبالمناسبة لخصومه، فإنه لا يحارس غير مهام حكم مؤقت، انتظاراً لتسمية الحكومة الفرنسية لخليفة حقيقي لكليبر. ومن ثم فإن عليه الحد من قراراته والأ يتصرف إلا بالتشاور مع نظرائه، تلك الفرق.

الشؤون المالية

في مرحلة أولى، يستأنف مهنو فحص إدارة مصر الذي بدأه كليبر ومطاردة الأعمال التعسفية. وفي أول يوليو ١٨٠٠، يحضر الأوامر إلى أننى المصرف وإلى القجندرات الذين يتولون صلاحى للنفعية والهندسة، وإلى مسؤولى مختلف الخدمات، بأن يقدموا إليه تقريراً تفصيلياً عن حالة مجالات كل منهم، يتضمن عدد الأفراد ووظائفهم ورواتبهم وعدد الحصص الغذائية اليومية التي يتمعون بها. وسوف يسمح ذلك «بالتوصل إلى إيجاد نظام حكم ومقتصد للإدارة»^(١٤).

وتؤدي سلسلة بأكملها من الأوامر اليومية الصادرة من أغسطس إلى نوفمبر ١٨٠٠ إلى تحديد إجراءات التحقيق المنتظم من النفقات كما تؤدي إلى مراجعة عامة لهذه النفقات منذ بداية الحملة. ويطلع القائد العام الجديد إلى أن يسوى بصورة نهائية مسألة تجهيز الأموال التي اشتكى منها سلفاه - ومرة أخرى يجرى حظر للصايرات التي تتم دون تصريح من القائد العام^(١٥). ويجرى تغيير وظيفة الصراف العام للجيش إلى وظيفة مدير هام ومحاسب لجميع إيرادات مصر العمومية. والحال أن المدير الجديد، استيف، معاون محصل رنيسى وصراف رنيسى^(١٦).

ومسألة الإيرادات الضريبية هي المسألة الأصعب على التصوية، فهي تطرح مسألة

مكانة الأقباط. والحال أن مينو لا يكن لاحتكامها بذكر لهم هؤلاء الآخرون غير مرتلحين لتحويله إلى امتناع الإسلام. ويتعين من جديد على المعلم يعقوب وموظفي المظلة الآخرين أن يرسموا لوحة للإدارة المالية لمصر (١٧). وسوف يجرى التحقق من صدق حسابات الأمراء الأقباط وسوف يتعين على الأمراء الخمسة الكبار أن يردوا إلى السكان جميع المبالغ التي تجهى دون وجه حق من جانب رؤوسهم (١٨). لكن الصراف العام استيف يتولى الدفاع عن موظفيه، إن شكايات الفلاحين لها ما يبررها، لكن الفرنسيين هم الذين يتحملون المسؤولية وذلك بسبب الضريبة العامة التي فرضوها. ويجرى إلزام الأقباط بتوزيع عبء الضريبة على الأراضي المروية بمياه الفيضان كما على الأراضي غير المروية والمغارة عامة من دفع الضرائب. ويرى استيف أن من المناسب تركهم يتصرفون حتى لا يتوقف تحصيل الإيرادات من جراء الاصفاء في هذه اللحظة لشكايات الفلاحين التي امتدوا تقديمها (١٩). ويتمسك مينو بمواقفه مجبراً الأقباط على المشاركة بمستوى مليون ونصف للمليون فذلك في الضريبة غير العامة التي فرضت على المدن بعد انتفاضات مارس - أبريل ١٨٠٠ (٢٠).

للاسكارييس

يسمح قرار البقاء في مصر بحودة مشاريع إعادة تنظيم البلد إلى الظهور. وفي أوائل يوليو ١٨٠٠، نجد أن لاسكارييس، رفيق المعلم يعقوب، يقترح على مينو وسيلة بقائنا بشكل دائم في مصر عبر مجرد مدام التعصبات للتعارضة لسكانها. وهو يرى، اعتماداً على واقع أن مصر كانت دائماً «مهد التعصب» أنه إذا كان الدين الجمهورى لا يستطيع، في التو والحال، أن يجد أتباعاً له بسبب بساطة ممارساته، فإنه بالقضاء على جميع أشكال التفرقة الدينية من خلال رفع جميع الطوائف (الدينية) إلى درجة واحدة من النفوذ السياسي، سوف يتسنى لتلك (الطوائف) التي نال منها الإسلام وحط من شأنها أن تزدهر على حسابها، إلى الدرجة التي تمكنها من الوصول إلى عدد مساوٍ من المشايخين. ومنذ تلك اللحظة، فسوف يكون بوسع الفرنسيين أن يحكموا عبر هذا التوازن للتعصبات للتعارضة. وفي المرحلة الثانية، فإن الانحياز للجدد للفلسفة سوف يصبحون عديدين بشكل متزايد إلى درجة تحويل المصريين «إلى طائفة واحدة ومتماثلة هي طائفة الفرنسيين». ومطبق هذه السياسة الرائعة لا يمكن أن يكون غير القائد المعلم الذي،

باجتلابه ثقة السكان، سوف يعمل على إعادة هذا البلد الشهير «إلى ما كان عليه في الزمن الماضي، مركزاً للتجارة والمعارف والتجارة العالم».

ويرد عليه مينو بأنه لا ينوي أن يصبح زعيم طائفة وأن «ديانته العقلية الصغيرة» تكفيه. والشهادة مثيرة للاهتمام فيما يتعلق بالوقوف على مدى إخلاص مينو إلى اعتناق الإسلام.

على أن لاسكاريس لا يفقد الأمل، وفي ٢٥ ثيرميدور من العام الثامن (١٣ أغسطس ١٨٠٠)، يكتب من جنيد إلى مينو. وهو يعترف بأنه وضع المشاريع كما يصنع الآخرون للفتوحات والأحذية وكما يضعون الدساتير والأطفال، إلخ. وهذا للمشروع الجديد، الذي لا يمكنه أن يعود عليه إلا «بشهادة حمالة بمنحني الجميع إياها بالفعل»، إنما يتمثل في بناء سد ضخم عند رأس النيل، يجتمع معه بناء عاصمة جديدة لمصر، هي مينوبوليس، التي سوف تكون نقطة اللقمة بين منتجات أفريقيا ومنتجات البلدان التي تطل على البحر المتوسط، وستكون موقع الانصهار بين الغرب والشرق. وهذا المشروع يستحق القناطر الشهيرة، التي شيدها محمد علي، لتنظيم رى النيل.

والواقع أن اللغز يكشف في بقية نصه عن هذه الحقيقة. إنه يدرس إمكانية تخلي فرنسا من مصر إثر مساومة على الصلح الشامل، «في هذا الفرض، سوف يكون من المهم للغاية ترك حزب قوي، يمكنه البقاء هناك مصلحاً لكي يحافظ هناك على نفوذنا السياسي والتجاري ومساندة الفرنسيين في نهاية الأمر في حالة تعرضهم للهجوم من جانب الحزب الآخر».

والحال أن الحديث إنما يدور عن الاضطلاع في مصر العليا بتوحيد جميع أهوان الفرنسيين مع ممالك مواد بك. كما أن هؤلاء الأهوان سوف يبقون مراد بك في الحزب الفرنسي. وحتى يتم ذلك، فإنه يجب في التو والحال تعزيز القبط القبطي الذي يقوده يعقوب تعزيزاً ملحوظاً. لأن كل شيء، مرة أخرى، إنما يتوقف على القبطي. ولاسكاريس يعرفه وفقاً لموضحة بحث مصر، وهي الإيديولوجية الرسمية للحملة، إنه حفيد أولئك المصريين القدماء الذين منازلوا يثيرون دهشة العالم بأثارهم، يالها من ذكريات تستحضرها هذه الآثار يالها من معارف يالها من سياسة باختصار، يالها من حضرة تهوج بها للشعوب التي تتخيل هذه الأمور، هذه المعاهد، هذه التحيرات، هذه القنوات... ويمكن أن نرى في لاسكاريس واحداً من أسلاف النزعة الفرعونية للسياسة التي هزلتها لواخر القرن التاسع عشر.

ويرد عليه ميتو بأنه ليست لديه أية ثقة في الأكتاف. وعتبت بواسل لاسكاريس مشروعه القبطى بعد تعديله وذلك فى رسالة إلى القائد العام مؤرخة فى ٢٩ فبروكتينور من العام الثامن (١٦ سبتمبر ١٨٠٠). فهو بواسل النطاق من صديقه ويقتراح هذه المرة إرساله، مع بعض الجنود الفرنسيين وخمسة آلاف أو ستة آلاف من المسيحيين الشرقيين إلى الذوبة لإنشاء مستعمرة دائمة هناك ومريحة بالنسبة للفرنسا. فهناك سوف يكون للحزب المصرى للمالى لفرنسا قائمة راسخة فى حالة جلاء الفرنسيين من مصر، وسوف يكون لاسكاريس هو مفوض الحكومة الفرنسية هناك، ومن ثم فإن عودة الفرنسيين سوف تكون سهلة.

والحال أن ميتو، الذى يكن قسراً من التعاطف للفرنس مألوفة السابق، يعينه، فى الشهر نفسه، مديراً للرسوم الإلزامية. وبواسل لاسكاريس الإصرار على مشروعه الدوى ويرسل إلى بوناپارت مرسية يعقوب المترجمة على روح نيزيه. وخلافاً لما يؤكد نص التقديم للشور فى الأمر اليومى والذى ينصب القصيدة إلى المعلم، فإن المعجم المستخدم والإشارات الضمنية إلى العصر الإغريقى الرومانى الكلاسيكى إنما تسمح بالتراض أن كاتبها الحقيقى هو لاسكاريس.

«إلى الأبد ستحيا فى الأجيال القادمة وفى عرفانى بالجميل، إن طيفك العزيز يرفرف بالفعل فى رحابة الفضاء مع طيف أبطال العصر القديم، وهو يتحد بالفعل مع روح بوناپارت الحارسة، ومن هذا الاتحاد الذى يحرك شديد رهبة الأعداء وشعوب الأرض سوف تولد رفاهية وحضارة الشرق» (٢١).

مشاريع الإصلاح الموعود

ينتهز خصوم ميتو الخيال الظاهر لمشاريع لاسكاريس للإحياء بأن مشاريع القائد العام ليست أفضل حالاً (٢٢). ويرسل أشخاص آخرون إلى ميتو مقترحاتهم الإصلاحية الخاصة بمصر. إن لرهيو، مدير الجسور والطرق، يقترح إعادة حفر القناة التى تربط الإسكندرية بالنيل، والبدء فوراً فى عمليات المصاحة (٢٣). وهذا المشروع، الذى ينسب مبادرت إلى كليبر، لن يتحقق إلا فى بداية حكم محمد على تحت اسم ترعة للممودية.

وفى ٢٥ ميسينور من العام الثامن (١٤ يوليو ١٨٠٠)، يوجه شخص يدعى بالمس،

وهو وكيل فرنسي سابق في إقليم البحيرة، متكرة حول إدارة ملكيات مصر. وهي من حيث الجوهر عبارة عن لوحة جد مثيرة لوضع الزمامة. ويقترح للناس نظاماً جديداً لضرائب الأرض يسمح بالاستغناء عن خدمات الأقباط ويزيادة إيرادات الفرنسيين. وينطوي هذا الإصلاح على تعداد الأراضي وتصنيفها بحسب القيمة وإيراداتها، كما ينطوي على علاقات مباشرة بين الفرنسيين والفلاحين. ويقرر للناس عدم التناسب للمهم بين إيرادات المالك العقارية وفئة الضرائب في العهد الفرنسي بمسلك الوكلاء الأقباط .

«لا بد أن أولئك الذين اطلعونا على موارد مصر كانوا غير أمناء إلى حد بعيد تجاهنا ولا بد من إرجاع الصعوبات التي يجدها الشعب في دفع ضرائفه، ليس إلى عجزه، بل إلى سوء نيته، وتعصبه، والتعويضات الفاسدة التي قام بها لصداؤنا، وخاصة إلى الضرائب السرية التي يطعها (الشعب) للبهكات وللعرب والتي يمكن للمرء أن يشتبه في أن الأقباط قد قاموا بجبايلتها لحسابهم» (٢٤).

أما المدير السابق للقوات، باجليانو، فهو يقترح من جانبه مشروع امتيازات خاصة بالأرض يسمح بمكافأة الجنود وأولئك الذين تعاونوا معهم في فتح مصر، نون تجريد السكان للخليصين للفرنسيين من ملكية الأرض. والحال أن الحديث إنما يدور عن جعل الفلاحين مالكيين تماماً لأراضيهم في مقابل دفع رسم إضافي. ولما كانوا أكثر اهتماماً ببيع محصولهم، فسوف يكون موضعهم لقاء هذا الرسم بسهولة. وينطوي هذا للمشروع على الإلقاء النهائي للالتزام، وفي الأجل الطويل في نهاية الأمر، الانتفاء من خدمات الأقباط، وهو سوف يربط الفلاحين على نحو حاسم ونهائي بالقضية الفرنسية (٢٥).

ولمناقشة كل هذه المشاريع، واستخلاص مشاريع أخرى منها وإعداد تصور شامل للتنظيم الذي يجب إعطاؤه للمستعمرة الجديدة، ينشئ مهنر مجلساً خاصاً بالمساهمة على تحمل العبء الذي كلف به مؤلفه، إلى حين وصول أوامر حكومة الجمهورية الفرنسية، (٢ سبتمبر ١٨٠٠). وسوف يضم المجلس جميع قادة الفرق والألوية، وأقدم الضباط لقادة مختلف الأسلحة ورؤساء الخدمات الإدارية الرئيسية. ولا يجب على المجلس الخاص أن يناقش مسائل الحرب والسياسة الخارجية. لهذا مجال محفوظ للقائد العام، بل يجب عليه أن يناقش جميع الأمور الأخرى والمتصلة بالتجارة والزمامة والشؤون المالية وبالتشريع المدني والجنائي والعلوم والفنون والعلاقات التي يجب أن تنشأ بين المتوطين ومصر، وبين سكان البلد والفرنسيين للقيمين فيه (٢٦). والواقع أن مهنر قد

بالغ في تقدير شعبية برنامجهم بين صفوف المسؤولين الفرنسيين من الحملة وهو يدرك بسرعة أن هذا للجلس الخفيف العدد يهدد بأن يصبح مواقع لاحتشاد جميع معارضي سياسته الذين يتزعمهم رينيه. ولذا فإن للجلس أن يتعقد في الموعد الذي تحدد له (٢٧). وفي المقابل، سوف يدعو مينو جميع الفرنسيين الموجودين في مصر إلى أن ينضموا إليه بشكل سرى جميع مشاريعهم ومقترحاتهم الخاصة بتنظيم البلاد (٢٨).

مشايخ القرى

لكن مينو لا يفتح يده ويطلب ومناقشة المشاريع، فهو يبدأ في التصرف. إن الضرائب غير العادلة التي فرضها كليبر قد سمحت، كما هو متوقع، بتصفية متأخرات الرواتب، ويتكوين فائض طفيف. لكن الوضع سرعان ما يصبح مزعجاً من جديد، إن نفقات الجيش تتجاوز الإيرادات إلى حد بعيد. ثم إن مينو، الذي لا يملك لا هيبة بونابارت ولا هيبة كليبر، لا يمكنه الأمل في تأمين شعبيته لدى الجنود إلا بتأمين راحتهم و دفع مرتباتهم. ولابد له من استخلاص موارد جديدة.

وهو يتجه عندئذ إلى مشايخ القرى. وفي ٢٢ أغسطس ١٨٠٠، يحدد نظاماً ضريبياً جديداً خاصاً بهم. وهو يزمم، بشكل مرار، أنه إنما يتصرف باسم حماية مصالح الفلاحين ضحايا تعديات المشايخ ويرى أن الهدايا التي جرى العرف على أن يقدمها للمشايخ للمتزمين، إنما تشبه ضريبة شخصية. واعتباراً من بداية العام التاسع، سوف يتعين على المشايخ، بمن في ذلك أولئك الذين لا يزالون في الالتزامات الخاصة، إنشاء رسم سنوي يدفع نقداً حتى يتسنى تثبيتهم في وظائفهم وسوف يحصلون على فرمان بتقليدهم هذه للوظائف. وال حال أن القرى التي يصل عددها إلى ألفين ومائتين وثلاث وخمسين قرية والخاضعة للسلطة الفرنسية قد جرى تقسيمها إلى ثلاث فئات، وسوف يتعين على المشايخ الدفع تناسباً مع ذلك، بحسب إيراداتهم (٢٩). وسوف تجرى مضاعفة الرسم السنوي بالنسبة للعام التاسع وذلك سعياً إلى تدارك عدم الدفع الذي ميز السنوات السابقة.

وسوف يجرى تشكيل جهاز مفتشين من مشايخ البلد سعياً إلى الإشراف على دفع الرسوم وتلمين حسن سلوك المشايخ تجاه فلاحهم. وسيتم إنشاء موقعين للمديرين العموميين للمشايخ، مواقع يحتلها فرنسي وآخر يحتلها مصري. وهما اللذان سوف يشرفان على نشاطات المفتشين (٣٠). وسيكون الشيخ الفيومي هو أول حائز للمصب (٣١).

ويتواصل التطور الذي جرى البدء به في الستينين السابقتين. وتتمثل قوة الأهمية في أن
مشاريع القرى يصبحون تدريجياً موظفين في الدولة.

التدابير المالية المخوطة

٤ يتواصل العمل في مجال الزراعة بإنشاء لجنة للزراعة تتبع للمعهد (الجمع العلمي)
وتتألف من شامبي ودوليزل وتيكتو. وهي مكلفة بإنشاء حديقة عليها تبنى حبوب مرسلة
من فرنسا وتخصيص النباتات الأصلية في مصر (٢٧). ومن جهة أخرى، يكلف القائد العام
لويهر بأن يأمر مهندسيه بإجراء فحص شامل لشبكة الري في وادي النيل وتحديد الأعمال
الأكثر إلحاحاً التي يجب الاضطلاع بها، وأن يتم اتخاذ أي قرار بشأن الأعمال غير المأكوفة
من موانعة مينو الذي سوف يستشير هو نفسه مهندسي الجسور والطرق (٢٨). ويثير
ذلك ضغط المهتمين الذين يرون، بحكم كونهم أعضاء في لجنة العلوم والفنون، أنهم
ليسوا مدعوين إلى تسوية عملهم طبقاً لتعليمات القائد العام. وأمام احتجاجاتهم، يرد
مينو على لويهر:

«إنني أقول إن بيترون، عندما كان ولياً على مصر، كان يعتقد أنه لن يتمكن من أداء
خدمة أكبر للجمهورية الرومانية إلا ببحث زراعة البلد الذي تحتله الآن. وقد تم ذلك عبر
إنشاء شبكة ري بالطبع.

«ويبدو أنني قد أخطأت في التدابير التي اتخذتها، فقد نصبت أنه لا يجب على المرء
أبداً إصدار أوامر إلى العلماء، وسوف أصبح خطئي؛ وسأكتفى بإصدار الأوامر إلى الجنود
الذين لا يملكون، كما لا أملك مثلهم، لا المواهب ولا الأدوات (٢٩).

وسمياً إلى تنبيه إيرادات إضائية دائمة، ويتدع مينو رسوماً جديدة غير مباشرة،
وبحجة مكافحة غش السبائك، يجرى فرض رسم دمقة على أعمال الصياغة، قيمتها ٥ في
المائة من قيمة السبائك المشغولة. وسوف يتولى بيترون نقش ثلاث سككات تمثل النيل
على شكل عجوز مضطجع يستند إلى جرة ينبثق منها هذا النهر، وأباً الهول ورأس
إيزيس (٣٠). واختيار هذه الرموز، التي تعتبر من الناحية العملية انتهاكاً للمقنعات في نظر
المسلمين، إنما يكشف عن المسافة الفاصلة بين مينو - برغم تحوله إلى اعتناق الإسلام -
وبين رعاياه المصريين.

وتتعلق بتدابير أخرى بتحديد رسوم جمركية جديدة على الواردات والصادرات مع
سيطرة بيروقراطية على توزيع السلع (٣٦). ويجرى طرح ضرائب للمخ في مزايمة: وسوف
تجبي الضريبة في مواقع الإنتاج بحيث لا يتسنى لأحد فرض احتكار على تجارة هذا المنتج.
ويجوز فرض ضرائب على القطن وعلى صيد الأسماك (٣٧). أما الضرائب المفروضة على
إنتاج القمح فيعهد بها إلى ملتزمين، وهو ما يجرى إلى إنشاء جهاز من المفتشين على
المشروعات مكون من بين أكثر أفراد الجيش إصابة بالعجز (٣٨).

كما يفرض مينو ضرائب منتظمة على الاستهلاك (سوف يتم اختيار المفتشين هذه
للمرة من بين سكان البلد) (٣٩)، وعلى سفن النقل في وادي النيل (ومن هنا التسجيل
الضري لل سفن وتعبئة الملاك) (٤٠). أما وظائف المصرف والقباني والكهال فيجوز
تحويلها إلى وظائف عمومية، حيث يتعين على حائزيها دفع عمولة سنوية حتى يتسنى
لهم مزاوله مهنتهم (٤١). وسعيًا إلى توزيع الضريبة توزيعاً أفضل على مجموع السكان
المصريين، يفرض مينو ضريبة سنوية على طوائف الصرافيين والتجار (١٢٩٤٠٠٠ فرنك
بالنسبة لكل مصر، من بينها مليون فرنك بالنسبة للقاهرة وحدها) وعلى الطوائف الدينية
لغير المسلمة (١٢٧٠ ٠٠٠ فرنك من بينها مليون فرنك بالنسبة للأقباط) (٤٢). وتنزع كل
هذه القرارات إلى إيجاد إنارة عقلانية من طراز لودوي في مصر.

وفي نسق الأفكار نفسه، يحول مينو نظام بيت المال القديم (جباية متعسفة إلى هذا
الحد أو ذاك لضرائب على التركات) إلى ضريبة منتظمة ذات معدل موحد نسبته ٥ في المائة
على التركات مع الإلزام بالإعلان الفوري لجميع الوفيات التي تؤدي إلى تركة (٤٣). ولما كان
القائد العام يعتبر مصر مستعمرة، فإنه يطبق الإجراء على جميع الأفراد الموجودين دون
تمييز على أساس الجنسية أو الدين؛ وفي زمن المماليك، كانت كل أمة تسعى إلى نيل
امتيازات خاصة. وفي ظل حكم حائل ومسترشد بقوانين مصلحة، فإن هذه الامتيازات
تعتبر لاغية، وكل من يملك ذات الحق في أن تصفيه القوانين والحكومة لابد له من دفع
حصته من النفقات العامة وأن يخضع من ثم لذات الضرائب (٤٤).

وجميع المزايدات ومزايدات الضرائب المتاحة للملتزمين سوف تعلن عن طريق
ملصقات بلغتين، العربية والفرنسية. وسوف تجرى قراءة قائمة الشروط باللغتين قبل
الفتح للمزايدات. ولا يسري مفعول مجمل للقرارات الضريبية إلا مع بداية العام التاسع
وسوف يتطلب الأمر مرور عدة أشهر حتى تعود بإيرادات مهمة. وبما أن إيرادات الزراعة

تجد نفسها في الوضع نفسه بسبب نقصان الذيل وبما أن دفع الرواتب قد استهلك بسرعة ما تبقى للنفقات الجارية في الخزنة، فإن مينو يأمر بالسحب من الاحتياطي غير العادي الذي راكمه كليبر لمواجهة الاحتياطات غير المتوقعة لمعركة عسكرية. وذلك لأن القائد العام الجديد، الراغب في ربط الجنود به، لا يمكنه أن يسمح لنفسه بوقف دفع المرتبات ولو بصورة مؤقتة (٤٥).

ميلو والجيش

يتوجه مينو إلى الجيش بلغة مزعومة. فهو يذكره بكون توقف بأنه قد حصل على رواتبه بصورة منتظمة بفضل (٤٦). وهو يبدو مهتماً بحسن إدارة المستشفيات (٤٧)، ويتوفير الثياب (٤٨) ويمنح الخبز المقسم إلى الجنود (٤٩). وهو يشدد على المراقبة الصارمة للأحكام الصحية وذلك بقدر ما أن الطاعون يعاود الظهور في الإسكندرية (٥٠). لكنه يهاجم أيضاً مسلك الجنود السيئ تجاه السكان وهو يعلن أنه سوف يعاقب بقسوة المصادرات غير المشروعة، والاعتداءات على النساء، وخاصة السرقات التي يبدو أنها تصبح الظاهرة الأكثر انتشاراً. وبما أن هذه التحذيرات لا تكفي، فإنه يعيد التذكير بها في أمر يومي مصوب يعبر فيه عن استيائه من مصلحتهم.

«أيها الجنود، فلتكونوا إزاء نبلاء في تعاملكم مع المصريين. ولكن، ماذا أقول؟ إن المصريين اليوم فرنسيون؛ إنهم إخوتكم. فلتحرصوا على مراعاة الشيوخ؛ ولتحرصوا على احترام النساء، ولتحرصوا تحيلاً على أن تكونوا عادلين. ما هو اللحد الذي سوف تكسبونه عندما تسيئون معاملة رجل يرتعد من مجرد مظهركم، عندما تخطئون أو تهينون امرأته؟ فلتعاملوه إزاء مثل ما تريدون منه أن يعاملكم به، إن كنتم في مكانه وكان في مكانكم. أيها الجنرالات، يا قادة الأسلحة، أيها الضباط من جميع الرتب، فلتكرروا بلا توقف هذه اللغة على الجنود الذين يأترون بأمركم؛ قولوا لهم إنهم عندما يضطرون إلى استخدام أساليب القسوة، فإنني أكون أكثر حزنًا من أولئك الذين لعاقبهم؛ وقولوا لهم إنني بينما أقضي الأيام والليالي في الاهتمام بما قد يعود عليهم بخير ما، فإنهم مدينون لي، بل ودرجة أكبر، مدينون لشرفهم هم، بأن يتصرفوا كجمهوريين حقيقيين ونبلاء» (٥١).

وهذه المسألة بين الفرنسيين والمصريين، وعلى مينو من شأنها حتى في المجال الاقتصادي. ففي أوتل شهر يوليو ١٨٠٠، يدفع نقص القماش الثياب مسؤولي الجيش إلى اقتراح إنشاء مصنع في مصر. ويرى مينو في ذلك على الفور فرصة لتحويله إلى مركز تعليم لتدريب المصريين على الطرق الحديثة. لكن المنهيين، الذين يخشون من منافسة في

المستقبل للصناعة الفرنسية، يرفضون ذلك. ويؤكد كوتيه على الملأ أنه لن يعلم المصريين شيئاً وأنه لا يقبل الاشتراك في المشروع إلا بشرط السماح للفرنسيين وحدهم بدخول الورش وأن يتم، في حالة الجلاء عن مصر، إخراج المعدات أو تدميرها. ويضطر مينو إلى التراجع أمام احتجاج العمائين (٥٢).

صيف ١٨٠٠

إذا ما قرأنا الجبرتي، لتبين لنا أن الشاغل الرئيسي للمصريين، أو للقاهريين على أية حال، خلال صيف عام ١٨٠٠، كان هو دفع الضرائب غير العادية. والحال أن التدابير الضريبية الجديدة، التي من المتوقع سريان مفعولها في الخريف، قد قوبلت كمصائب جديدة. بل إن الأمر سوف يصل بكاتب الحواريات المصري إلى حد القول بأن الفرنسيين وأهلهم الأقباط هم تبايسة حقاً. إن للترمين أنفسهم لم يتصرفوا بمثل هذا الشكل مع رعيته... (٥٣)

وكان الأثر المباشر لهذه التدابير هو تخفيف التبادلات واستثارة ارتفاع للأسعار، في حين أن الفترة السابقة كانت قد تميزت بأسعار جد منخفضة (٥٤). كما أن الجنود الذين يحصلون الآن على رواتبهم نقداً يصبحون ضحايا لهذا الارتفاع. والواقع أن الاقتصاد الحضري منهك تماماً من جراء الضرائب جد الباهظة، أما مزارع مينو بشأن رفاهية البلاد في ظل حكمه فهي لا تتماشى مع أي شيء في الواقع، وتستفيد الأرياف استفادة أفضل من الوضع، لكن أزمة للواصلات تحول دون مراكمة احتياطات مهمة من الحبوب الغذائية التي يحتاج إليها الجيش.

والأقلهم المصرية هادئة. وحسن طوبار الذي يموت في ١٠ سبتمبر من العام، الثامن (٢٩ يونيو ١٨٠٠)، يحمل معه دون صعوبات أحد تقاريره (٥٥). أما البند لهم محزون دائماً من جانب الطوابير المتحركة وقد عثقت معاملات تهنت جديدة مع القبائل. ويرجع محمد بك الألفي مرة أخرى إلى الصحراء الشرقية ويؤكد أنه يريد اللحاق بمواد بك في مصر العليا. وبما أنه لا يقرر الذهاب للحاق به، فإن مينو يرسل ركبتي الجمال لاقتناء لثمه. وهم لا ينجحون في اعتراض سبيله، لكنهم يستولون على متاعه ويرغمونه على الانسحاب (٥٦). وبعد ذلك يردى الفيضان إلى جعل كل حركة من المستحيلات.

وبما أن إملاء تنظيم مصر قد قطعت في نظر مينو شوطاً بعيداً، وبما أن البلد والجيش يبديان سكوناً تاماً، فإنه يصبح بوسع الانتداب من الجناح الثاني لسياسته والذي يتمثل في استعادة سياسة التعاون مع المصريين.

السياسة المصرية

الخطباء

إذا كان مينو يهدف الدافع إلى الرأىة الخريوية فى حوصه على خير السكان للمصريين، فإنه لم يستأنف بعد سياسة بوناپارت، وهذه السياسة، المبنية على التعاون بين المصريين والفرنسيين، لابد لها من أن تؤدى فى الأجل الطويل إلى صهر الشعبين فى إطار الحضارة الطائفة، وتحول إلى امتناق الإسلام إنما يبدو له وسيلة إضافية تسمح بتحقيق هذا الهدف، وهو، فى اللقام الأول، يجهز له إصلاح للتؤسسات الإعلامية. وهذا هو تطبيق الإصلاحات الثورية على مصر، وهو يكاشف الجيش بهذا الهدف منذ بداية شهر أغسطس ١٨٠٠. «إن مدينة القاهرة هامة للغاية، والضرائب فيها تدفع بشكل جيد ممتاز - حتى وإن كان توزيعها بالغ الصوء -، إن أرستقراطية الثروات تهيمن فى هذه المدينة هامة ربما تكون أقوى مما فى أى مكان آخر، وذلك بشكل يؤدى معه نفوذ الأتوية فيها إلى سحق لا يتوافق للشعب الذى يتحمل مجمل عبء الضرائب تقريباً. ويندرج بقوة فى مقاصد القائد العام لاختزال هذا النفوذ إلى أقصى حد ممكن وإنهاض طبقة الفلاحين العاملة» (٥٧).

وفى ٢٢ أغسطس ١٨٠٠، ينشئ لجنة فرنسية مكلفة بدراسة سير عمل القضاء والتحسينات التى يجب إدخالها عليه. ويشكل لوميس «التنظيم الداخلى للبلد والعلاقات المدنية التى يجب أن تنشأ بين الحكومة الفرنسية والسكان». ثم إن لجنة ثانية مؤلفة من المشايخ الأوفى علماء سوف تهتم بالإجابة على تساؤلات المفوضين الفرنسيين (٥٨). والخطوة التالية فى الأمر اليومى الصادر فى ١٠ فيفريير من العام التاسع (٢ أكتوبر ١٨٠٠) والذى يحدد تنظيم إدارة القضاء.

واعتباراً من ذلك التاريخ، فإن محاكم كل مصر (بما فى ذلك للمحكّم للوجودة فى الأراضى التى تم التنازل عنها لمراد بك) سوف تمارس عملها القضائى باسم الجمهورية الفرنسية. وسوف يكون على جميع القضاة، أياً كانت ديانتهم، تيل تعيينهم فى وظائفهم من الحكومة الفرنسية. ويجوز إلغاء شراء وظائف القضاة. وتتم استعانة بهوان مؤلف من مسلمين فقط ومهمته هى الصهر على كل ما يتعلق بصهر عمل للتؤسسات الإسلامية (تعيين القضاة الشرعيين، المساجد، الأوقاف، التعليم، الحج...). وسوف تكلف القرة العامة



٦٥ - سيدنى سميت عند الانزال قرب الإسكندرية.



محمد علي
 محمد علي

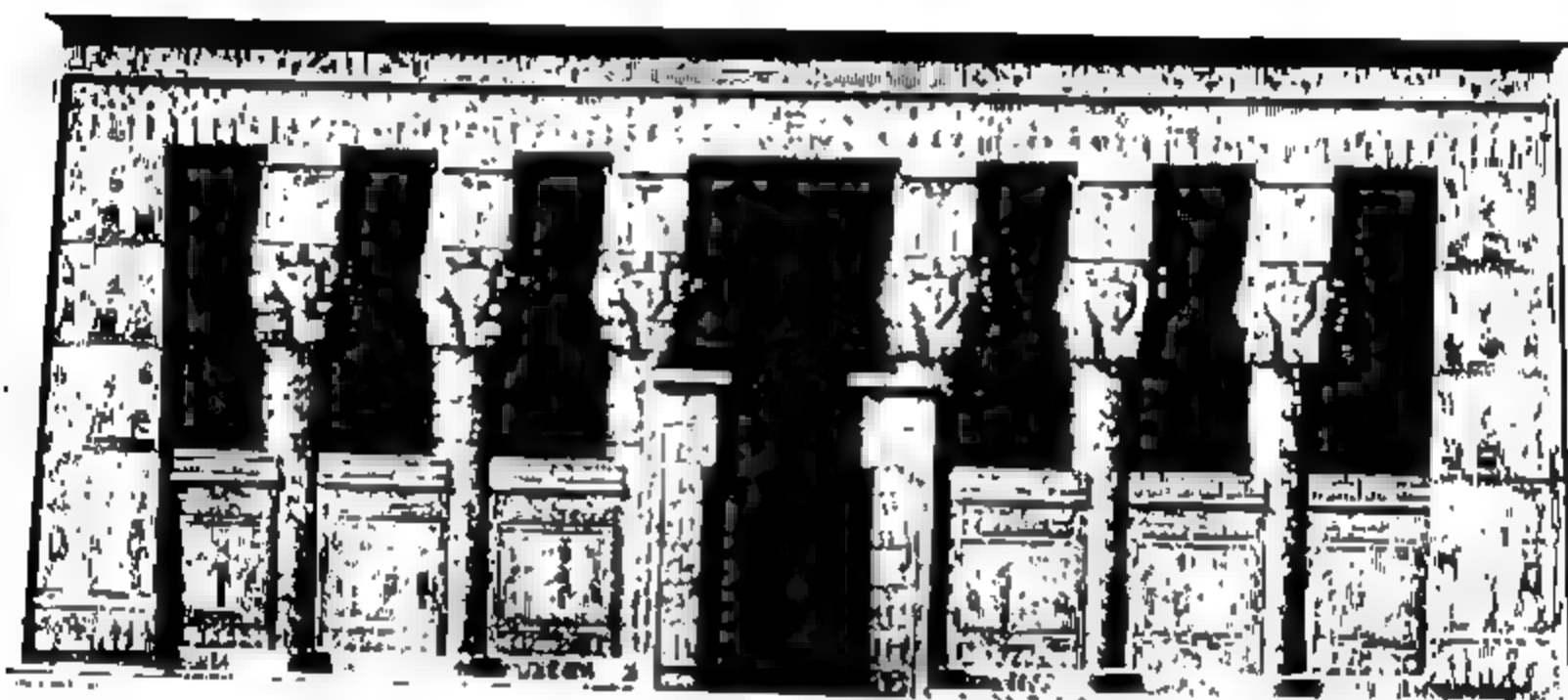
٦٦ - (أ) محمد علي، ولي مصر.



(ب) جنديان من فيلق راكبي الجمال.



٦٧ - واجهة معبد دندره. استرجاع ليقان دهنون.



٦٨ - واجهة معبد مندرة. استرجاع پولوا وديفيليه.

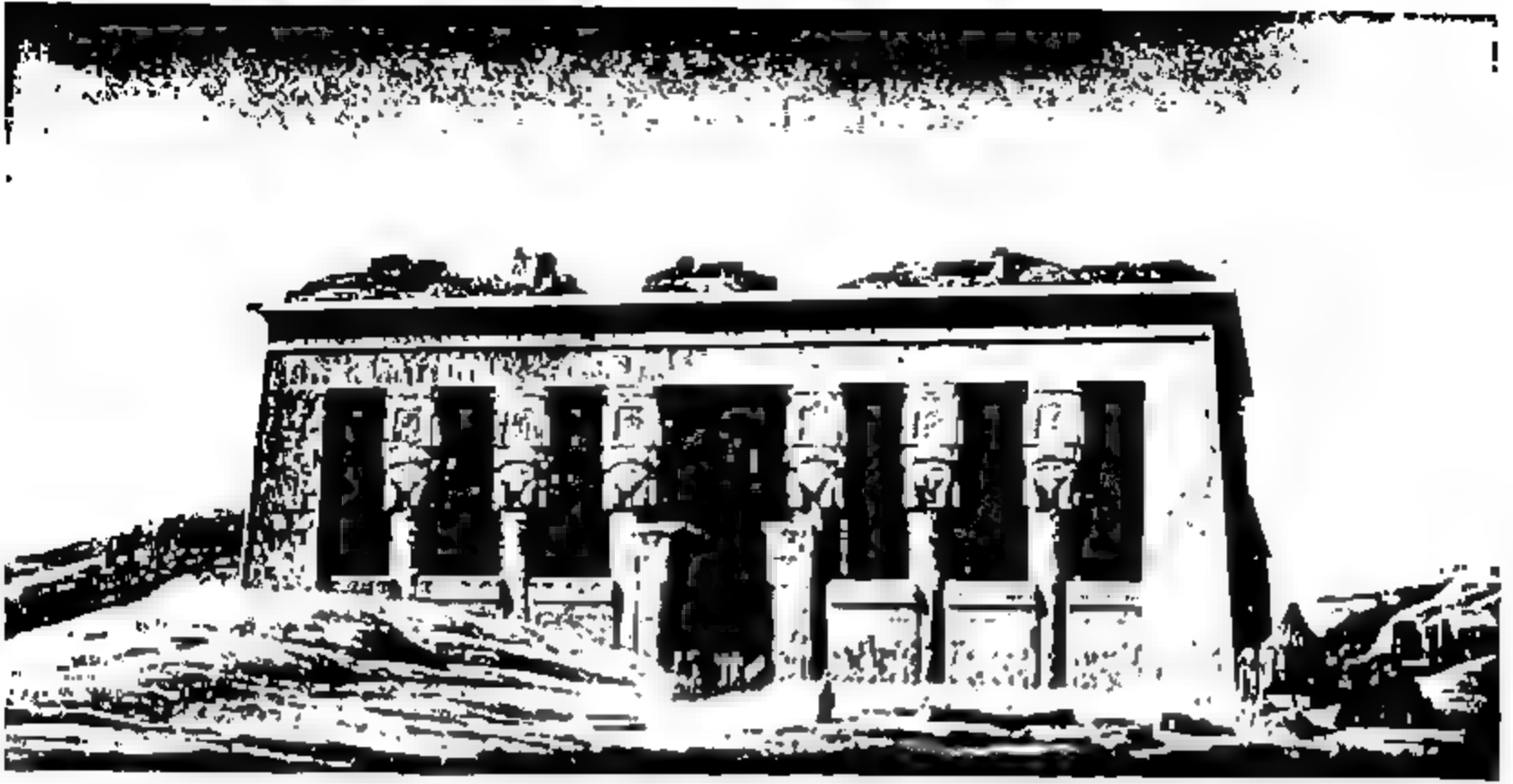




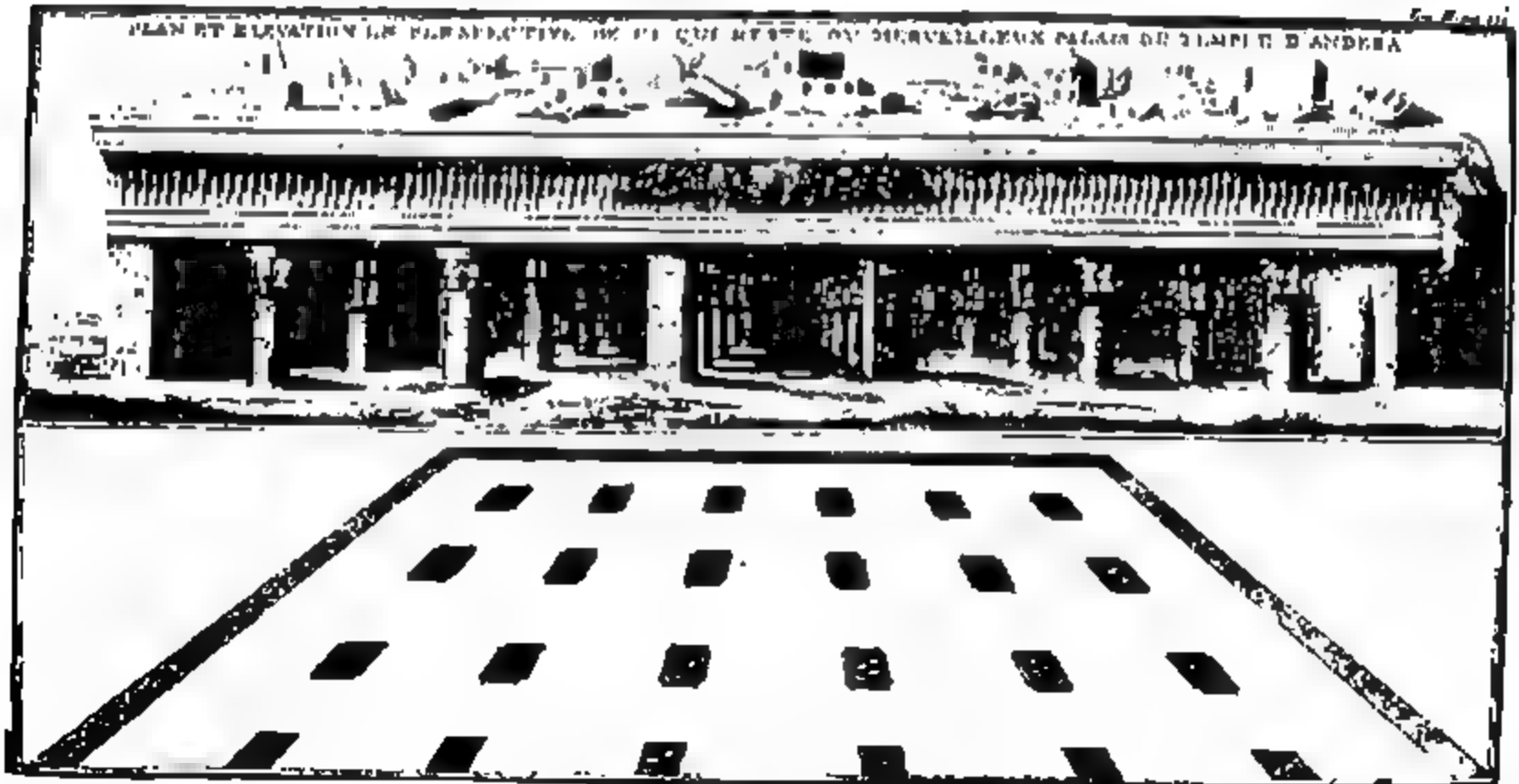
٧٠ - الكرنك. بوابة ايليجريت ومعد خونسو كما صورهما دينون.



۷۱ - الكرك. دالة البهرجيت ومعد خرنسو كما سورهما سوريل.



(أ) رسم سيسيل في عام ١٧٩٩.



(ب) رسم لوكاس في عام ١٦٩٩.

بتطبيق القانون، لكنها سوف تكون تابعة على نحو صارم لقرارات القضاة الشرعيين. وسوف يتمتع غير المسلمين بمحاكمهم الخاصة للنظر في لحوائهم المدنية. أما جرائم القتل فسوف يجرى إصدار الأحكام فيها بموجب التشريع المصري، وسوف تنفذ السلطات الفرنسية عقوبة الإعدام. ويجرى على نحو صريح إلغاء العانة، جد للتأصلة في الأرياف المصرية، والخاصة برفع اللحية، أو تقليم تعويض مالي للأسرة التي يتعرض أحد أفرادها للقتل، سعياً إلى تجنب ظهور مسلسل ثار بمصر. وأما السرقات وأعمال العنف المرتكبة بين فرنسيين ومصريين، وبين غير مسلمين من طائفة واحدة أو من طوائف مختلفة، فسوف يحكم فيها عن طريق لجنة خاصة يسميها القائد العام. لكن الجرائم ذاتها في حالة ارتكابها بين مسلمين وغير مسلمين سوف تتبع محاكم القضاة الشرعيين.

الديوان الجديد

كان عدد أعضاء الديوان الجديد تسعة، للشيخ الشرفاء والفهومى والأمير والمهدى والبهكرى والسرسى والجهرتى (كاتب المصالحات نفسه) والشريف السيد على الرشيدى^(١٩). وكان مينو قد أخرج عن الصادات، إلا أن هذا الأخير قد جرد من الجزء الأعظم من ممتلكاته وهو لا يمارس بعد تدخلا عاماً. ومن جديد يصبح فوربيه مفوضاً فرنسياً لدى الديوان.

وجنباً إلى جنب إعادة تكوين الديوان، يوجه مينو بياناً مطولاً إلى سكان مصر، لقد جاء الفرنسيون لجلب الصناديق إلى مصر. وهو مينو. يتعهد بالعمل على الزوال النهائي للمظالم، ويؤمن إنارة منتظمة تحترم حقوق السكان، وحماية الفلاحين من تعديات المزارعين ومهاجر البلد الذين لن يكون بوسعهم طلب أكثر مما يبيحه القانون وإلا فإنهم سوف يقعون تحت طائلة تهريبهم من ممتلكاتهم، ولن تتكرر بعد كافة الاختلاسات التي تتحمل المسؤولية عنها الطبقات العليا.

«إلام آلت للممتلكات التي تخص للمساجد؟ إلام آلت الأوقاف الخيرية الضخمة التي أنشأها أجدادكم؟ هل آلت إلى صيانة للمساجد؟ إننى أراها في كل مكان خربة أو على وشك الانهيار. هل آلت إلى إطعام الفقراء؟ إنهم في كل مكان يموتون جوعاً؛ والشوارع والطرق قاصّة بهم، هل آلت إلى رعاية المرضى والعجزة والعميان وجميع من لا مورد لهم؟ إن المورد التي كان من للتصور أن تحصل عليها هي كالمساجد في القدح اختلال؛ والتعميم

للمعزولون فيها إنما يشبهون بالأحرى ضحايا حكم عليهم بقتل الحياة، يشبهون رجالاً مجتمعين لتلقى ما يخلف نكبتهم. فمن إنّا الذى استهلك كل هذه الممتلكات، كل هذه الأوقاف؟ إنهم رجال أكرهوا نجحوا حتى الآن فى خداعكم، وقد انقضى هذا الزمن. كما أننى أكرر لكم لئلى قد تلقيت الأمر من الجمهورية الفرنسية ومن القنصل بوناپارت بأن أعمل على مساعدتكم؛ وأنا لن أؤلف من عمل ذلك، لكننى أتيهكم أيضاً إلى أنكم إن لم تكونوا مخلصين للفرنسيين، وإن سولت لكم أنفسكم من جديد - مدفوعين بنصائح خبيثة - أن تهو ضعداء، فإن ثارتا سوف يكون رهيباً، وأشهد الله ونبيه على أن جميع اللصائب سوف ترتد على رؤوسكم. هل تتذكرون ما حدث فى القاهرة وفى بولاق وفى للحلة الكبيرة وفى مدن أخرى فى مصر؟ إن مياه كباثكم وأخوتكم وأبنائكم ونسائكم وأصدقائكم قد سالت كأماج البحر؛ وقد دمرت بيوتكم، وخربت ممتلكاتكم والتهمت النار. فما الذى كان سبباً فى كل ذلك؟ النصائح الخبيثة التى استمعتم إليها، الرجال الذين خدعوكم. فليكن هذا الدرس عبرة لكم إلى الأبد! كونوا حكميين، وودعاء؛ اهتموا بأعمالكم، بتجاريتكم؛ أحرثوا لأرضيتكم؛ وفى جميع الأمكن لن تهبطوا فى الفرنسيين غير أصدقاء كرماء، وحماة ومدايعين؛ ألقم لكم على ذلك باسم الله الحى القيوم، باسم الله الذى هو على كل شيء شهيد، الذى بيده أمر كل شيء، والذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور (٦٠).

وبالنسبة للمطابخ، فإن استمارة الديوان هى وسيلة للتمكن من جديد من التوسط لدى الفرنسيين وتخفيف معاناة السكان إلى حد ما. وفى الجلسة الأولى، فى ٣ نوفمبر ١٨٠٠، يسترد الشرفاوى والمهدى وظيفتهما كرئيس وكأمين بحسب الترتيب، ويترك المشايخ بسرعة بالغة أن مجال اختصاصهم قد أصبح محدوداً أكثر مما فى السابق. فالديوان الجديد ليس أكثر من محكمة مستئناف فى مجال القضاة الإسلامى. والمسائل المالية كالمسائل المتعلقة بالالتزام ليست من اختصاصهم (٦١).

وأحد الأعمال الأولى التى يطلبها مينو منهم هو كتابة رسالة إلى بوناپارت، والأرجح أن المهدى هو الذى يحررها، وليس النص غير تقرير طويل لعمل بوناپارت وبالتعبية لعمل مينو.

نحن أصدقاء الفرنسيين، الذين نسعد لمساعدتهم، كما يسرهم ما يسرنا، غمرنا الفرح حين علمنا أنكم قد سرتم لإحراز نصر مبین، وأنكم قد اجتزتم الجهال مع قوائكم ومنفعتكم، وإن سرعة زحفهم لم تدع لأحد أية برهة لالتقاط الأنفاس؛ وأنكم قد انضمتم

إليهم بشخصكم في اللحظة التي كان وجودكم فيها ضرورياً لهم لإحراز النصر، وأنكم قد
شملتكم رعاية السماء؛ وأن بشهر النصر قد أعلن انتصاراتكم؛ وأن الطاف السماء قد
لاحظت بكم بون أي انقطاع؛ وأن الحملة الإلهية قد صاحبت كل مساعيكم. ومن ثم فقد
أحرزتم النصر. إننا نحمد الله على نجاحاتكم ونسبكم سيف الله، الذي يصيب نصله
أعدائكم ومن يفلومونكم. واليوم نؤكد لكم بأكمل الإخلاص وبصرامة تتناسب مع ثقتكم
أن الطائفتين للصورية والفرنساوية ليستا بعد غير شعب واحد توحده الصلابة الوثيقة
والمخلص؛ وهذا الاتحاد لم يكف من التزايد يوماً بعد يوم، وذلك برعاية صديقنا المشهور
مهد لله مينو، للتميز بين جميع الرجال، والذي تجعله حكمته ونبل مشاعره جديراً
بالاحترام بين جميع أهل زمانه. إننا ندعو العلى القدير أن يتكرم وأن يشبه على رحمت
وحكمة إدارته.

وسوف ينتفى بونا بارت انتشاءً عظيماً بهذا النص بحيث أنه سوف يأمر بنشره
بالعربية مع ترجمة فرنسية بقلم سلفستر دوساسي في اللوفيتير^(٦٢). ويؤثر مينو بتر
للجاءلات الموجهة إليه في مقتطف الرسالة الذي يقدمه في أمره اليومي الصادر في ٢
نومبر من العام الثلث^(٦٣) (٢٣ نوفمبر ١٨٠٠).

ولم تكن تنبيهات مينو كلاماً في الهواء. إن تاجر زيت، تمت الوشاية به، وفقاً
للجبرتي، لإدلائه بعبارة مشؤومة ضد الفرنسيين، يجرى الحكم عليه فوراً بالموت ويتم
إعدامه^(٦٤). وفي بيان جديد إلى السكان، يستشهد القائد العام بهذا المثل لكي ينكر
بإصراره على إنزال العقاب القاسي بكل من يعلو بالقول من شأنها التحريض على
التمرد^(٦٥).

القضاء على الالتزام

إن موضوع الانزعاج الرئيسي بالنسبة للطبقات المصرية العليا هو مصير الالتزام .
وقد فسر الفلاحون المصريون بيان مينو بأنه دعوة إلى الكف عن دفع أي شيء للترمي
للضرائب. والحال أن هؤلاء الأخيرين كانوا قد تعرضوا لعبء ضريبي جسيم فرضه
الفرنسيون عليهم خلال فرض الضرائب غير العادية وكانوا مضطرين إلى الاستئذان. ولما
كانوا قد خنقوا مالياً، فإنهم يوجهون عريضة جماعية إلى ديوان القاهرة ويوضحون أن

الالتزام يجب أن يعتبر ملكية حقيقية، إن السادة، يدفعهم للميرى للطلب العالي، قد أصبحوا ملاك القرية وليس الفلاحون والبرهان على ذلك هو أنهم قد تمتعوا بحق التصرف في هذه الممتلكات وبيعها أو شراؤها خلال حياتهم، وبعد موتهم، تصبح هذه الأراضي حرة، ومنفذ، كل أقرب الميت يستردونها بدفع رسوم التسجيل ويتصرفون فيها بالشكل الذي يحلو لهم، وهذا هو السبيل للتبع في مصر وفي البلدان الأخرى لمراعاة جانب الرعية لا تهريبهم من أسباب هيشهم.

والا لم يدفع الفرنسيون لهم ما يحدون به، فإن الملتزمين مستعدون لمخافة مصر والعيش كمتسولين^(٦٦). ويعلن الديوان عدم اختصاصه بمعالجة الأمر ويحيل المسألة إلى السلطات الفرنسية^(٦٧). ويرد ميتو من خلال قورييه بأنه لا ينوي القضاء على الالتزام، لكل ما يهدف إليه هو العمل على مراعاة حقوق الشعب المصري^(٦٨). وكما هي العادة مع ميتو، فإن كل شيء ينتهي بتوجيه بيان إلى سكان مصر يوضح فيه مقامي العريضة، للشعب في أنهم يكتون مشاعر عصيان بل وتمرد، ويوضح الديوان الذي نعى واجباته، على قبول العريضة^(٦٩).

والواقع، أن احتجاجات الملتزمين إنما تدفع الفرنسيين إلى إعادة فتح ملف الضرائب الريفية، ويذكر استيف أن من الاستحصال تمييز الضرائب، التي يحصل عليها ملتزمون الضرائب بشكل شرعي، من الجبايات غير المشروعة؛ إن كل شيء مشروع ووفقاً لهم ووفقاً للعرف ولا شيء يبل على ذلك. على أن استيف يرى أن الدخل الحقيقي للملتزم يرتفع في المتوسط إلى ثلث الضريبة الإجمالية التي تؤديها القرية وهو يقترح ترك $\frac{7}{10}$ من الضريبة للملتزم، وهو ما لا بد له من أن يكفيه. بل إن هناك كثيرين منهم يكسبون من النظام الجديد للأمور^(٧٠). وبعد ذلك بوقت قصير، فإن قائد الكتبة توسار الذي لا يعرف جيداً غير مصر العليا يقترح إلغاء الزراعة الجماعية والتوزيع العشوي للأراضي كما يقترح جعل جميع الفلاحين ملاكاً، الأمر الذي سوف يسمح بزراعة أكثر كثافة. ولا بد لذلك من القضاء على سلطة الملتزمين ومشاريع البلاد؛ وبعد ذلك بوقت قصير، سوف يجري العمل على جلب مستوطنين فرنسيين وسوف يحملون إلى المصريين بذرة وقنوة الجد والنشاط^(٧١).

ويحظر استيف على الملتزمين التواجد في أراضيهم. وهو يخشى من أنهم، بحجة البحث عن متأخرات الميرى من عامي ١٢١٣ و ١٢١٤، سوف يبحثون بالعمل عن جباية للميرى من عام ١٢١٥ في حين أن الفرنسيين لم يتخذوا - بعد - قراراً نهائياً. وبعد ذلك

بأربعة أيام، يفرغ مينو من مخزونه الخاص بالإصلاح الشامل للضرائب الريعية، الذي يبدؤانه لم ينشر قط في الأوامر اليومية. على أن هذا المشروع هو المحصلة المنطقية للتطور المتبع منذ بدايات الحملة (٧٢).

وبهذا النص بالخطوب صلياً من الماضي، إن جميع الرسوم المستحقة والمنطوقة حتى اليوم، تحت أي مسمى ولأي سبب أي كان، من جانب فلاحى قرى مصر، تعتبر وتظل ملغاة بالكامل اعتباراً من عام ١٢١٥ للهجرة (٧٤).

ولن توجد بعد غير ضريبة واحدة وسوف يخضع لها جميع الملاك بلا استثناء. وسوف يجرى تقسيم الأراضي إلى ثلاث فئات بحسب نوعياتها. وهذه المرة يعتبر الالتزام ملفياً تماماً؛ إن قرى مصر التي تخص ملتزمين خالصين سوف تخضع بالمثل لأنباء واحد للضريبة المشار إليها ولن ترفع بعد أي من الرسوم القديمة التي كانت مدينة بها، لكن الجمهورية الفرنسية [...] سوف تترك لدى الحياة لحساب هؤلاء الأفراد [الملتزمين] معاشاً سنوياً، مأخوذاً من ضريبة هذه القرى، وذلك ليحل محل جميع الرسوم العينية والنقدية التي يتمتعون بها الآن على أراضي فلاحى قراهم.

وسوف يتم تحديد المعاش كما أعلن استيف ذلك بنسبة $\frac{7}{24}$ من الضريبة المحصلة. وسوف يتعين على الملتزمين الامتناع عن أي تدخل في شؤون القرى. وسيحصل مشايخ البلد على نسبة $\frac{3}{24}$ من الضريبة التي سوف تتم جباية ورسومها للقرية عليها من المنبع. أما شيخ البلد للمكلف بجباية الضريبة والمعاون القبطي الذي يساعد، فسوف يحصلان على نسبة $\frac{1}{24}$ من الضريبة (بنسبة $\frac{2}{24}$ للشيخ وبنسبة $\frac{1}{24}$ للأمين). والحال أن المعلم هو الذي سوف يعين الشيخ الذي سيأخذ اسم الأمين، والمعاون القبطي. وسوف يجرى تكريس نسبة $\frac{1}{24}$ لأعمال القرى. ويتم إلغاء أعمال الصخرة للجانية تماماً، وسيجرى الاضطلاع على الأفراد بمصير عام للأراضي حتى يتسنى تحديد الملاك وإنجاز تصنيف الأراضي. ويتم إلغاء المنطوعات العينية ويتوجب دفع كل شيء نقداً. وتقتصر الزراعة من كل نظام جماعي.

لكن فترة الأشياء سوف تحول دون تطبيق إصلاح مينو. لكن هذا الإصلاح يؤذن بإصلاحات مستهل حكم محمد علي، خاصة فيما يتعلق بإلغاء الالتزام وإيجاد مساحة للأراضي، وهي الإصلاحات التي سوف تحدث بعد ذلك بعشر سنوات. على أن منطقها لن يكون هو نفسه وذلك بقدر ما أن محمد علي سوف يسعى على العكس من ذلك إلى القضاء على أي اتجاه نحو ملكية الأرض (في العقود الأولى لعهد علي الأكل). وليست

هناك ضرورة لاستدعاء أواصر نسب مباشر بين عمله وعمل مينو. ومن حيث الجوهر فقد استفاد محمد على من الضربة القاضية التي وجهت إلى الالتزام خلال السنوات الثلاث لسيطرة الفرنسيين. وحتى إذا كان الالتزام سوف يحاول، بعد رحيلهم، إعادة التشكل، فإن الاستنزاف المالي للطبقة السائدة القديمة واستمرار الفتن حتى عام ١٨١١، سوف يقودان إلى إيجاد نظام جديد سيخضع الدولة، مثلما وضع نظام الفرنسيين، في علاقة مباشرة مع مشايخ القرى. وخلافًا للحال في الأنظمة الأخرى للإمبراطورية العثمانية، فإن عائلات الملتزمين في القرن الثامن عشر لن تكون هي عائلات كبار ملاك الأرض في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر (٧٥).

مينو والمشايخ

إلى جانب المسائل الضريبية، يهتم مينو بنشر المعارف. وهو يخطط لإنشاء صحيفة عربية تحمل اسم التنبيه، التي ستوجب تحريرها والإشراف عليها من جانب أعضاء الديوان. وسوف يكون عليها نشر مراسيم الحكومة الفرنسية، ومراسيم الديوان، وأخبار الأحداث الأوروبية والآسيوية، وبعض المناهج المتصلة بالفنون والعلوم. وبطبيعة الحال، فسوف يتعين إضافة مقالات حول الأخلاق ومبادئ كل حكم صالح (٧٦). ويبدو أن هذا المشروع لم يصل إلى شيء، ويرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى لا مبالاة أعضاء الديوان.

وينصب اهتمام مينو أيضًا على الحشيش. ويجري فرض حظر صارم على التعاطي على شكل مسائل مركز أو على شكل عشب للتبخين. ولا يستهدف ذلك سوى المسلمين. وسوف تجرى معاقبة المخالفين بالسجن لمدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر (٧٧). ومن هذا النوع من العلامات تدرك ظهور الدولة في مصر.

وفي المقابل، فإن أعضاء الديوان يشكرون مينو على الإصلاحات التي أدخلت على مقياس النيل، والأرجح أن للهدى هو الذي كتب هذا النص للملء بالمندائح للجنرال الفرنسي: «إن هذا الإصلاح هو نصب تذكاري لكم حتى آخر الزمان، فليحفظ الله صنيعكم للشعوب، ولهمد في عمركم وليخلق الاستقرار إلى الأبد لأسلوب إدارتكم وليأمن بأن تكونوا دائمًا موفوري الفضيلة والرحمة من أجل شعوبكم. ولتعلموا أنكم للثناء أهل كقائد وكنسان» (٧٨).

وفي ذات الوقت الذي يوجه فيه الديوان إليه المديح والثناء، فإن الديوان يطلب إلى مينو إنزال عقاب قاس باحتفالات الطرق الصوفية المسرفة، ويسارع مينو إلى النزول على رغبات

الديوان ويأمر السلطات العسكرية بتوقيف وحبس «الرجال الذين، كما يوضح ذلك ديوان القاهرة، يزعمون أن لهم قداسة ويجوبون الشوارع عرايا أو شبه عرايا، وينتمكون على الملأ في أعمال تدان وتقمع بهالغ العرص في جميع البلدان التي يتواجد فيها أبسط احترام للأداب العامة» (٧٩).

وتتواصل العلاقات الطيبة مع للتهنئات التي يوجهها الديوان إلى مينو بمناسبة مولد ابنه سليمان مراد چاك مينو. والحال أن مينو، الذي تأثر بذلك تأثراً مخلصاً، إنما يغتنم تلك الفرصة ليوجه خطاباً مطولاً تجرى قراءته في الديوان. وقد سجل الجبرتي نصه للعربي. ويجرى فيه تمجيد القرآن الذي يلمصع عن النظام الذي فرضه الله على الكون، إكان ذلك في الطبيعة أم في أخلاق البشر. وهو يعلن إنشاء سجل مدني حقيقي للمصريين «إلى جانب التسجيل الإلزامي بالفعل للوفيات سوف يضاف تسجيل المواليد والزيجات وحالات الطلاق» (٨٠). ويرد الديوان برسالة مطولة يجرى فيها الثناء من جديد على مآثر مينو: إن للسجل المدني سوف يكون في الواقع جد مفيد على نحو خاص فيما يتعلق بتسوية مسألة التركات (٨١). والحال أن مينو، المنتشى، يأمر بنشر هذا النص الذي يجرى فيه تصريحه على أنه الرجل الذي يبدو أنه «قد قُدرَ له أن يواصل، في بلاد مصر، وأن ينجز جميع المشاريع المجيدة لبوناپارت ولخليفته الأول (لتكن العزة لاسميهما على الدوام)» (٨٢).

السلطات الثقافية

من جديد، يتردد المشايخ وأعضاء الطبقة السائدة على مؤتمرات الفرنسيين. وهم يترددون بشكل خاص على الأوبرا التي أقامها الفرنسيون للثو (٨٣). ويرد المعلم يعقوب على ذلك بإقامة مأدبة عظيمة لكهار ضباط الجيش، يقدم بعدها تمثيلاً كوميدياً عربية (٨٤).

ولعل الشيء الأكثر أهمية بالنسبة للمستقبل، هو أن المشايخ يزورون للطبعة الوطنية التي يديرها مكوسيل. ويتردد عليها المهدي والفيومي والصاوي عدة مرات. ويندهش الشيخ محمد القاسي، الذي عرف مطبعة القسطنطينية، وعدد من السوريين الذين شهدوا مطبعة كسروان في لبنان، من سرعة وبقة العمال الفرنسيين، ويكتشف للشيخ البكري عالماً جديداً :

«إنه، بين أسئلة أخرى، يصل ما إذا كانت فرنسا تعوز للكثير من المطابع، وما إذا كان

هناك عدد كبير منها في الأجزاء الأخرى من أوروبا، وفي أي بلاد تعتبر أكثر كثافة، إلخ. وعند إجابته على جميع هذه الأسئلة، فإنه يتعامل أيضاً عما إذا كانت هناك منشآت طباعية في روسيا، ويبدو جد مستغرب من الإجابة التي قدمت إليه وهي أن هذه الدولة لم تبدأ التمدن بالفعل، ولم تبدأ لتتخصص إلا عندما أدخلت المطبعة إليها. وهو يتعامل عندئذ عن الأثر الذي يمكن أن يكون للمطبعة على حضارة شعب، ويبدو أنه قد فهم واستحسن الأسلوب التي قدمت إليه، خاصة تلك للمستعمدة (لولا) من سهولة النسخ الطباعي وتوزيع عدد كبير جدا من نسخ المؤلفات الجيدة التي عندما تظل مخطوطات لا يمكن أن يطلع عليها غير عدد قليل من الأشخاص، والمستعمدة (ثانياً) من استحالة خضاع كل هذه النسخ أو معارها لتمام من جراء أي نوع من الأحداث، وهو ما يمكن أن يحدث لأفضل المخطوطات. وهو يقول عندئذ أن هناك هناك كتباً كثيرة من الكتب الجيدة العربية التي سوف يكون طبعها مديناً إلى أبعد حد في هذا البلد؛ وأنها مجهولة من جانب العدد الأكبر من الناس وأنه يتمنى مخلصاً أن يكون بالإمكان نشرها عن طريق الطباعة. ثم خرج وهو يقول إن جميع العلوم مصدرها الله وأنه إذا ما شاء الله، فلن يكون هناك أي شيء يتعذر على الناس الاضطلاع به أو يتعذر عليهم النجاح فيه، (٨٥).

ومبر الإيفال البطيء لهذا النوع من الأفكار في أوساط العلماء، للتجارية بالفعل فيما يتعلق بالعلوم، وبالنسبة للآداب، وهي الأوساط التي يسميها هيلبير ديلاو بالعلماء انصار التنوير (٨٦)، تنهيا النهضة الثقافية التي سيخشيها القرن التاسع عشر. إن الطهطاوي الشاب سوف يجد أساتذة منفتحين على أفكار وعلى لوضاع أوروبا. وسوف يشجعونه على زيارة فرنسا وعلى تسجيل قصة رحلته، التي تعتبر معلماً أساسياً في تاريخ الفكر العربي (٨٧).

الأقليات

يكن مينو هدوة مهمة للأقليات المسيحية واليهودية التي يعتبرها متطفلة على الاقتصاد المصري. وبين الأقباط، فإنه لا يحترم إلا المعلم يعقوب. وهدف سياسته هو القضاء في نهاية الأمر على أقباط المال والضرائب. ومينو، الرجل الذي ينتمي إلى زمن التنوير، يتخذ موقف التشجيع للتجارة ومصر تعاني معاناة شديدة من انقطاع العلاقات التجارية. على أنه يهاجم مباشرة الكاثوليك اليونانيين ويأمر بمراقبة نشاطاتهم في دمياط من جانب الجنرال رامون. ويتيح ذلك له الفرصة لكي يعبر بوضوح عن رأيه في المسيحيين.

«سأقول لك، بهيئنا، إنتى قد عرفت، منذ أن جئت إلى مصر، إن المسيحيين هم أكثر سكان هذا البلد خسة وحفارة وبين المسيحيين، يحتل للشوام اللقام الأول. بخلاء، مخادعون، جهنماء، حقودون، وخسيسون إلى أقصى حد، تلك هى صورتهم [...] ومهمتى هنا هى أن أجلو تقريباً كل وجه مصر، بالتوفيق نائماً بين مصالح الجمهورية ومصالح الجيش ومصالح السكان. ولا بد للوصول إلى تلك من القضاء على تلك الروح المدمرة والتي تمثلت نتيجتها، فى ظل حكم البكوات، فى تركيز كل الثروة العامة فى أيدي عدد صغير من الأفراد». [...] [وعندما] جئنا إلى هنا، فإنهم [للمسيحيين] قد تصوروا أننا لسنا غير مملوك فرنسيين ومسيحيين سوف يحلون محل ممالكك جمهوريين ومحمدين. وقد تصوروا أن السادة الجدد سوف يستخدمونهم بالشكل نفسه الذى استخدمهم به السادة السابقون، وهنا بالتعديد بنلوا يخطئون لأول مرة فى حياتهم، لأننى أريد تأسيس للمستعمرة الجديدة على الأمانة والأخلاق، (٨٨)

مواطن بك

بما أن مينو قد قرر أن يجعل من مصر مستعمرة، فإنه لا يسعه ألا يرتاب فى مراد بك. وكان هذا الأخير قد توصل إلى اتفاق مع الفرنسيين لأنه يخشى، وهو محق فى ذلك، من نوايا العثمانيين، ولكن أيضاً لأن كليبر بدا له راضياً فى إعادة جيشه إلى أودها فى مستقبل قريب، الأمر الذى يضع الزعيم للملوكى فى وضع ممتاز لإعادة الاستيلاء على مصر بسهولة.

ويلوم مينو كليبر على أنه قدم كثيراً من التنازلات إلى مراد (٨٩). وهو لا يستطيع سوى الحفاظ على الاتفاق الذى وقع عليه صلفه مع تمسكه بتطبيقه تطبيقاً صارماً وبمراقبة تحركات الزعيم للملوكى الكبير. ولا يمكن أن يكون هناك، بين مراد، الاحترام للتبادل الذى وجد بين هذا الأخير ومقاتلين مثل ديزيه وكليبر.

وينصب الخلاف على درجة استقلال مراد عن الفرنسيين. وقد أراد مينو توضيح نواياه علناً بسعيه الصائر إلى مد تطبيق لحكامه العبيدة إلى أراضي الزعيم الملوكى لكى يوضح تماماً أن هذا الأخير إنما هو تابع لفرنسا. على أن العلاقات كانت طيبة فى بداية حكم مينو: وقد سارع مراد إلى تهتة الجنرال الفرنسى على صعوده إلى المنصب الأعلى (٩٠).

ويجرى الاضطلاع بمفاوضات سعياً إلى إدخال تعديلات على الشروط المالية المتعلقة بالزعيم للملوكى ويتم التنازل له عن قوى إضافية فى مقابل زيادة للخزينة التى يدفعها

سيد مصر العليا (٩١). وفي المقابل، وبالرغم من رأى بلانس للملك، يرفض مينو أن يسلم له للدافع المشورة التي يطلبها من أجل الدفاع عن القصور ما إن ظهرت صلفن بريطانية في مرضى البحر لباله هذا للهنداء. فهو يخشى من انقلاب للمالك في حالة إنزال إنجليزى في البحر الأحمر (٩٢). على أن مراد بك يتعهد بتأمين مصر العليا في حالة هجوم عثمانى (٩٣) ويؤكد أن جميع للمالك، بمن فيهم معاليك إبراهيم، مستعدون للانضمام إليه، وإن إبراهيم بك وحسن بك لا يريدان بعد أن يعاود الانضمام إليهما أحد من أولئك الذين معنا، ويعون الله، فإن أولئك الذين معهما سوف يجيئون إلينا، إنهما الآن تحت تحفظ العثمانية، مع أولئك الذين كانوا معهما من جماعتهما في يافا. ولولا أنهم مراقبون نهائياً وليلاً، لكان الجزء الأعظم قد جاء بالفعل. وعندما تتحرك القوات، سوف يتمكنون بمشيئة الله من الهرب والمجيء إلينا. إنهم موجودون الآن [هناك] مرغمين وليس من باب الصداقة، فهم يعرفون أن العثمانيين لا يريدون خيراً للمعاليك. إننا نقول لكم الحقيقة نون أى لك أو نودان. وما نخبركم به صحيح، إننا لن نصحب أى شيء خاص أو عام، وليس لدينا أى سر نخفيه عنكم لأننا ننتظر كل الحماية من الجمهورية ودونكم لن نتمكن من أن نكون في سلام مع العثمانية (٩٤).

والحقيقة المباشرة، التي تظهر لمينو، هي أن مراد قلدر على أن يوحد خلفه جميع للمالك، وأنه على اتصال بهم ومن ثم بالمعسكر العثماني، وأنه يستطيع، عن طريق البحر الأحمر، التدخل في اتصال مع الإنجليز. ومنذ ذلك الحين، فإنه يطلب إلى نونيلو، للراسل الرئيسي لمراد بك، أن يراقبه بانتباه (٩٥). ويعلم مراد بك بذلك ويعلم رامت؛ وهو يرى أنه قد تعرض للافتراء عليه (٩٦). على أنه يواصل تقديم معلومات عن القوات العثمانية في سوريا (٩٧)، الأمر الذي لا يمكن له إلا أن يلقى رغبة القائد العام.

وفي مستهل بلوغيوز من العام التاسع، يعاود مهدي البحيرة الظهور في ذلك الإقليم الذي يسعى إلى دفعه إلى الثورة مرة أخرى. لكن الهدوء، للرهبين من قسوة عمليات القمع السابقة، يرفضون مشايعته. وإذا تطارد الطواير للتحركة الفرنسية للمهدي؛ فإنه يضطر إلى الهرب إلى الجنوب ويدخل في أراضي مراد بك. وبحال أن الزعيم المملوكي، المخلص لتعهداته، إنما يتمكن بسهولة من تهديد شمل الجماعات للسلطة الأخيرة التي تتبع للمهدي القديم، ولكن نون أن يتمكن من الإمساك بشخص للراكشى الملقب (٩٨).

وبتوسط مراد بك لدى مينو من أجل الألفى، الذي انتهى أخيراً إلى الانضمام إلى معسكره، ويرسل عثمان بك البرنيسى إلى مينو (١٨ بلوغيوز من العام التاسع - ٧ فبراير ١٨٠١). ويلوم القلتد العام مراد بك على عدم تسليحه إليه عنو الفرنسيين هذا. والبرنيسى مكلف برسالة أخرى. فهو يخبر مينو بقرب إنزال جيش إنجليزى على ساحل

للبحر المتوسط، والذي سوف يتزامن معه اجتياز سيناء من جانب الصدر الأعظم مع القوات العثمانية. ومن المقرر أن يتم إنزال ثانٍ للقوات أنجلو - هندية في السويس. ويرى مراد أن الفرنسيين لا يمكنهم الصمود أمام هجوم ثلاثي، أو أنهم، على أية حال، سوف يخرجون منه ضعفاء بشكل لا يمكن إصلاحه. ولذا، فإنه إذا اختار مينو التفاوض، فإنه يرجوه ألا يخشى مصالحةه. أما إذا اختار مينو القتال، فإن مراد على استعداد للانضمام إليه مع ممتلكاته للذهاب ضد الغزاة. وقد نقلت إليه هذه المعلومات الثمينة عن طريق إبراهيم بك نفسه، الذي ما يزال يتواصل معه. ويحدد مينو على عثمان بك البرديسي ويتصنع عدم تصديق صحة المعلومات المنقولة. ويرد عليه، «بأنه ليست لديه حاجة لا إلى العون ولا إلى وساطة أحد؛ وبأن من الأفضل لمراد أن يبقى هادئاً في الأقاليم التي منحت له والأ يتواصل مع سوريا. وقد ذكره عثمان بأن مراد بك قد احتفظ بعلاقات خفية مع جيش الصدر الأعظم، بناءً على طلب الجنرال كليبر نفسه، وإبلاغه بمخططات العدو المشترك؛ وقد رد مينو بأنه لا يفتدى بمصالحه كليبر وبأنه لا يريد مثله بيع مصر؛ وبأن هذه للرسائل التي يجريها مراد بك لا تسره، وبأنه يشك في وجود مخططات شريرة لديه وبأنه لا ينظر دون انزعاج إلى استقباله وتسليمه للمماليك الذين يجيئون من سوريا للانضمام إليه. وقد رد عليه عثمان بك بأن مراد قد سمح له دائماً بأن يستقبل أولئك الذين ينتمون إلى بيته، وكذلك أولئك الذين مات بكرائهم، وذلك سعياً إلى لاختزال جيش الصدر أيضاً» (٩٩).

ومكنا فإن مينو يهمل اتخاذ احتياطات خاصة عشية الإنزال الإنجليزي ويحرم من المساعدة الثمينة من جانب مراد بك الذي كان يوسعه استخدامه مع مرابطته عن قرب. ويرجع ذلك إلى أن الزعيم المملوكي، في تصوره، ليس مجرد غلبة أمام سياسته الاستعمارية، بل هو أيضاً رمز لسياسة كليبر. والحال أن مينو قد نجح في خلق شقاق لا علاج له مع جميع رفاق كليبر الذين يشكلون قيادة الجيش.

تهوط الجنرالات

الزمو العسكرية

في كتبهم الخاصة بالفكريات أو بالمذكرات، غالباً ما يذكر من كانوا من قبل في مصر بأن الجيش كان منقسماً إلى فريقين كبيرين يجمع أحدهما أولئك الذين جاءوا من جيش (حملة) إيطاليا ويجمع الآخر أولئك الذين جاءوا من جيش (حملة) ألمانيا. وهذا التمايز، الواقع في النهاية بالتأكيد، خاصة فيما يتعلق بالجنود العابرين السريعين إلى اكتساب روح الفريق، إنما يخفي واقع المسألة. فالتباين الأساسي يتعلق بعالم الضباط، خاصة في المراتب

العليا. إن تشكل وظيفة عسكرية حقيقية، بدءاً من التجنيدات الضخمة التي شهدتها الفترة الممتدة من عام ١٧٩١ إلى عام ١٧٩٤، إنما يقود إلى تشكل زمر من الضباط تلتف حول قائد كبير. ومن الواضح أن زمرة بوناپارت كانت تتألف ممن سبق لهم العمل في جيش (حملة) إيطاليا، على الرغم من أن المرء يجد في هذه الزمرة بعض الجنرالات للتنميين إلى جيوش أخرى، والذين اختلفوا حول الجنرال الشاب. كما هي الحال مع ديوييه. والواقع أن بوناپارت، حتى يتسنى له تحقيق طموحاته الشخصية، كان قد أعاد معه إلى فرنسا الجانب الرئيسي من رجاله وأيدوا لدينا مدى قوة خيبة أمل أولئك الذين لم يقع عليهم الاختيار. ويشكل مينو استثناءً. وعلى الرغم من أنه جد مخاطر للأوساط السياسية الجمهورية، فقد أثار بوناپارت تركه في مصر وذلك على الأرجح لأنه قدر فيه حماسه للمغامرة المصرية والذي صار نادراً.

أما كليبر، دون أن يوصى إلى ذلك بالفعل، فقد شكل حوله، خلال قيادته، زمرة جديدة من الضباط، يعتبر بامباس وديوييه أفضل ممثلين لهم. والحال أن الهيبة والمحبة اللتين نجح الجنرال الأكراسي في بثهما في صفوف أفراد حاشيته، كما في صفوف جميع أفراد الجيش، قد تحولتا بعد الاختيار إلى عبادة حقيقية. ومثلما يحدث غالباً في مثل هذه الظروف، فإن الإخلاص تجاه شخص ميت إنما يحول إلى جسدٍ مثمري جامدٍ ومقدسٍ ما كان، في حياة البطل، مؤلفاً ومسلحاً عمليين، أو على أية حال قابلين للتعبيل، تبعاً للظروف. وهكذا فإن تكون ولاء الكري كليبر إنما يعني أن تصبح تصوراً لإجراء مفاوضات مع الباب العالي لإيجاد نهاية مشرفة لمشروع سييء الترتيب، باختصار أن تكون «معادياً للاستعمار».

ولا يستثير مينو احتراماً كبيراً في صفوف رفاقه في السلاح. إن لاحتقارهم المتزايد للقيادة السياسية المدنية للثورة قد دفعهم إلى إبانة ماخبيه كرجل سياسي. وعمله العسكري يخلو من مآثر حربية بالرغم من رتبة قائد الفرقة التي وصل إليها. وهو يبدو بوجه خاص جنرالاً سياسياً. وتظلله لبوناپارت إنما يستثير التقزز. ومسلكه في مصر، تحوله إلى اعتناق الإسلام وامتناعه أو تخلفه عن المسؤوليات التي كانت تعهد إليه، ليس من شأنها تجميل الفكرة التي يمكن للمرء أن يكونها عن شخصه. وحماسه للاستعمار ومنكرات الاقتصاد السياسي للمسببة التي حورها تصور في اتجاه مضاد للسياسة التي اتبعها كليبر. وقد بدأ منذ وقت مبكر بوصفه زعيم اتجاه «الاستعماريين». وبينما كان

يتحدث بالبعد عن المسؤوليات خلال الأشهر الأولى للقيادة كليبر أخذ يتكلم بنبرة ظفيرة وحاسمة عندما علم باستيلاء بوناپارت على السلطة ومن المعروف أنه قد حافظ على إجراء مراسلات خاصة بخارج الطريق الهيراركي، مع الانفصال الأول. ومن السهل استنتاج أنه قد شجب فيها سياسة كليبر.

على أن التواعد العسكرية واضحة. وهي تجعل منه ثالث قائد هام لجيش الشرق. وعند صعوده إلى ذلك للنصب، كان قد أعلن أنه سوف يعتمد على نصائح كبار الضباط. وسرعان ما يدرك هؤلاء الآخرون أنه لا مجال لشيء من ذلك. لمينو يعتكف في مكتبه الخاص بمختلف الوثائق، موحياً بأنه منكب على العمل ليل نهار وبأنه يفعل كل شيء بخلصة. ويضطر زائروه إلى للكوث طويلاً في قاعة الانتظار وينتهون أحياناً إلى عدم إجماله لقاء. ولذا فإن الزيارات تصبح نادرة وتقتصر على مسائل الخدمة (١٠٠).

إن التأكيد القوي والمفاجئ لتحويل مصر إلى مستعمرة إنما يقابل بوصفه هجراً لسياسة كليبر وشجياً لها. وفي هذا الاتجاه نفسه يسير إعلان ٥ ديسمبر من العام الثامن حول أسباب الوجود الفرنسي في مصر. وإعلانه تنظيم الإدارة تتم دون استشارة الكوادر العليا للجيش التي لا يتم إبلاغها بالقرارات للتخلة إلا عبر نشرها في الأوامر اليومية. والوعود الكثيرة للخدمة إلى الجنود والخلصة بتحسين حالتهم للرأفة إنما تبدو بالقدر نفسه كلوم لعمل سلكه. ثم إن النبرة الخطابية والمتعمسة بالفصائل والتي يستخدمها القائد العام الجديد إنما تبدو بامتة على الصغرية ومزوية بالمقارنة مع اقتضاب ووضوح كلام كليبر.

الخلاف السياسي وتنازع الأشخاص

إن النزاع بين مينو وجنرالاته مزيج، فهناك أولاً المسائل الواضحة التي تتعلق بالأشخاص، خاصة مع رهنبيه، الذي يأسف بمرارة لأنه لم يك حاضر الذهن بما ينبغي له تولى القيادة عند مصرع كليبر، إلا أن هناك أيضاً، وبسرعة بالغة، خلافاً كلياً وعميقاً حول السياسة التي يتبعها مينو، والتي تعتبر كارثية من جميع زوايا النظر. وكما هو معتاد في هذا النوع من المواقف، فليس من شأن لاختلاف الرأي إلا أن يزيد من احتداد التوتر ويجري تفسير كل شيء على أنه تهجمات شخصية ومباشرة. وعيب مينو الأكبر سوف يتمثل في تحريك ما لا يبدو أن يكون في البداية غير تصورات سياسية متناقضة إلى عدوات تؤدي إلى استحالة سير العمل الصحيح للألة الحربية وتصبح سبباً للفشل النهائي.

وقد رأينا، خلال جئازة كليبر، أن رينيه يحتج على الدور الذي يفتصبه مينو لنفسه، ثم رأينا أن تركة الهنتال الأكراسى تصبب سبب جنل عتيف بين داماس والقائد العام. والبال أن رينيه وداماس لا يخليان، فى الشهور التالية، معارضةهما للهنتال، وهما ينتقلان علناً لتدبير المتخذة، والتي تعتبر عموماً حماقات، خطرة أحياناً. على أن تسوية الحساب الأولى قد حدثت بين مينو ولانوس الذى كان قد خلفه فى قيادة الإسكندرية وغرب البلتا.

كان لانوس قد هذا القائد العام الجديد بحلابة عتد توليه لمنصبه (١٠١)، إلا أنه بينما كان خصماً لاتفاق العريش، فإنه يهتمك الآن فى الشناء على الجلاء عن مصر، ويدرجه مينو على الدور فى زمرة خصومه (١٠٢). وتزدى مسألة زادت من تعقيدىها الاختلاسات والتحايلات (وهى تتعلق بعمليات بيع الشحنات المصانرة من السفن العثمانية التى دخلت ميناء الإسكندرية بعد انهيار اتفاق العريش) إلى إلهاب الموقف، ويرى لانوس أنه قد أهدى فى شرفه ويطلب لجنة تحقيق. وسوف تنتهى هذه اللجنة إلى تبرئته من الاختلاسات للزعومة، لكن مينو، فى تلك الأثناء، ينحى لانوس عن قيادة التى يعهد بها إلى لريان (مستهل أكتوبر ١٨٠٠) (١٠٣).

وسعى إلى تدعيم مبرر محقول لهذا القرار، فإن القائد العام يأمر بالمناسبة نفسها بالتبديل الكامل للقوات للرابطة فى الإقليم، وهو إجراء يعتبره البعض عديم للمسؤولية بسبب عودة الطامون إلى الظهور فى الإسكندرية، فهذه التحركات تبدو لهم أفضل وسيلة لتدحر الزلاء. وعندما يرجع لانوس إلى القاهرة فإنه يصبح العدو الشخصى لمينو. ويرى فريق من الجيش أن مينو قد أساء استخدام مناصبه للرابطة لكى يصوى مسألة شخصية، إنه ما كان لهفله للانوس أبداً أنه قد حل محله فى قيادة وشيد والإسكندرية هذه التى كان شيد الفرام بها (١٠٤).

وفى القاهرة، يتواصل ظهور العلاقات بين مينو وداماس الذى أصبح المدافع الشرص عن تركة كليبر المالية وتراثه السياسى. إن داماس، قائد الأركان العامة للجيش، يخذل حوافياً لأوامر مينو مع انتقاده لها ومع إسطاره لها بالسخرية علناً (١٠٥). ويرد مينو على ذلك بالاعيب حقيرة على أمل إرغام مرؤوسه على التنى. لكن هذا الأخير يعاند:

«إننى أحببك علماً [...] أنه بالرغم من أنك لن تفلح فى زيادة لشتمزلى بأكثر مما فعلت، فإنك لن ترغمنى على ترك موقعى إلا بأن تجعلنى لتعلق من عدم لفرتى على هذله، إلا أنه بما إننى قد ولعت بتبعائه على نحو مشرف منذ سنة، وبما إننى لا أبدو خيال

مائة [كذا] أيضاً في أعين الجميع، فسوف يكون عليك محلكمتي قبل تجريدي منه. وإذا ما أمكنني، من خلال التوقف عن الخدمة تحت أوامرك، تفادي الاضطهاد الذي ينتظرني، فإن ملاقاتنا سوف تنتهي سريعاً.

وبالإضافة إلى ذلك، أيها المواطن الجنرال، فإنه أياً كانت اللضايفات التي تعدها لي، فسوف تكون لدى الشجاعة لتحملها، بون أن تتأثر بذلك الخدمة التي كانت بها (١٠٦).

وبلغاً مينو العمل بفتحته باملس من وظائفه في ٥ سبتمبر ١٨٠٠. ويطلب هذا الأخير تحويله إلى للثول أمام مجلس هريس. ويتدخل لريان ورينيه، و، سعياً إلى إظهار أن باملس لم يجره من الاعتبار، يتم منحه قيادة مصر الوسطى. إن كل شيء واضح، بالنسبة لخصوم مينو: لقد قرر القائد العام اضطهاد جميع أصدقاء كليبر القدامى. وبالنسبة لكثيرين فإن مينو قد أظهر برهان ضعف يسمح بإمكانية مناقضة قراره، إنها رخاوة كان من المستحيل تصورها في ظل سلفه (١٠٧).

لوطط وضع مينو

على أن مينو يستشعر تعزز وضعه من جراء وصول لوجوست باملس في أواسط سبتمبر ١٨٠٠ حاملاً رسائل من فرنسا. إنها موجهة إلى كليبر. ويقدر معين من سوء النية، كتب وزير الحربية، كارنو، إلى كليبر أن اسطول بريست سوف يتحرك متجهاً إلى مصر مع تعزيزات قوامها أربعة آلاف رجل ومعد من الذخيرة، وذلك في الوقت الذي ذاع فيه خبر معاهدة العريش. وتؤدي معركة هيليوپوليس إلى تعديل للتوقف ويلزم القنصل الأول كليبر رسمياً بالحفاظ على فتحه حتى الصلح القائم ليكون وسيلة مقايضة. وهو يرى أن العثمانيين مستعدون لترك الجيش الفرنسي في مصر كتوة مساعدة بدلاً من ترك الاستحواذ عليها للإنجليز. وسوف تصل خلال الشتاء تعزيزات قوية. وتجرى تهنئة كليبر على انتصاره ويتم إبلاغه بمصرع بيزيه (١٠٨). والواقع أن بوناپارت لم تكن لديه الوسائل لإرسال بيكورش وحده إلى مصر (١٠٩)، وتحليل مواقف العثمانيين إنما يبدو صدى لرغبات القنصل الأول بأكثر مما هو صدى للواقع.

ومن جهة أخرى فإن مينو، الذي تتسلط عليه فكرة الاستعمارية، لا يتجه إلى استئناف الاتصالات مع العثمانيين كما تدعوه الرسالة إلى ذلك ضمناً. وفي خطابه في الأول من أيلول من أيلول من العام التاسع (٢٣ سبتمبر ١٨٠٠)، عيد الجمهورية، يتذكر علم

الحرية الذي يردف في الشرق بفضل الجنود الفرنسيين» هذه الأعلام الثلاثة التي أراها وسط كتلتكم، ليست هي إشارة الحضارة بالنسبة لجزء من العلم، كان مرموقاً في الأزمنة الفائرة، ثم محاء الاستبداد وقضى عليه، لكنكم سوف تعملون على بعه من زمانه ١٩

وهو يكتف للصبح لهوتاهارت: «أيها الجنود، لا تخافوا كثيراً إننا على الحرية ؛ إن هبقرية بوناهاارت وسواعد الفرنسيين قد كسبتها إلى الأبد، فالجمهورية موجهة وسرعان ما سوف يقوكم السلم إلى غلبة لعمالككم».

وهو يستند إلى رسالة كاونو محاولاً الإيحاء بأنها من بوناهاارت ويشير إلى أهمية إقلمة جيش الشرق في مصر بالنسبة لمجد ومصالح الجمهورية (١١٠). وفي اليوم نفسه، يرقى ستة ضباط كبار إلى رتبة قائد اللواء، متجهاً بذلك إلى تكوين زمرة العسكرية الخاصة (تؤثر التعيينات على مجمل الهيراركية). وبالنسبة لكثيرين من الطموحين فإن اللواء لينو يبنو برصه وسيلة لترقى السريعة. إن له الآن حظه في الجيش (١١١).

وسعيّاً إلى مواصلة تكثيف حس الكرامة لدى جنوده، ينشر مينو مقتطفات من بيانات الوزير الإنجليزي فاندلس أمام مجلس العموم، ففي هذه البيانات يجرى التهم بعنف على الجيش الفرنسي ؛

«إن هذا الجيش الفائر يجب أن يكون هبة، لمصلحة الجنس البشري تتطلب بحاره. ولا بد لنا من أن نأمل أنه، إذ يتعرض للمضايقات على جميع الجبهات، وإذا تدخل في صراع مع الأوتة وتثير المناخ، لن يرجع لئمة ناعم الهال إلى الخصلة التي بدأ حملته منها» (١١٢)

ومن الواضح أن بوسع مينو بعد ذلك أن ينفذ بالوزراء الإنجليز الذين ارتكبوا «حقيقة ترجيه الإمانح إلى جيش الشرق في مهاتراتهم للبرلمانية» (١١٣).

مطوّر

في أوامره اليومية، خاصم مينو بصورة منتظمة الإدارة المالية ومصالحه الجيش الإدارية. ومن الطبيعي أن أذن الصوف العام دور قد استشعر أنه مستهدف من وراء هذه التهمات واحتج على ذلك بقوة. وعندئذ يحاول مينو كسب مودته، لكن الاهتمام الذي يوجهه القائد العام إلى المسائل الإدارية إنما يختزل بطبيعة الحال استقلال أذن الصوف الشباب والطموح، والمناوى لروح الإصلاحات التي يجرى الاضطلاح بها. وهو يشكك في

فعاليتها وينقل للناتجة إلى التقييم التي يجب اتخاذها من أجل استئناف العمليات العسكرية؛ إن الأموال التي كان كليبر قد خصصها لهذا الاحتمال توشك على أن تستهلك للصماح بالدفع الفوري للمرتبات ومخازن المواد الغذائية التي كان كليبر قد أرتأى إنشائها لا يتم إمدادها بالمؤن؛ والإسكندرية التي كان عليها تخزين ما يكفي كل الجيش من المواد الغذائية لمدة عام، تجد أن المخزون لا يكفي إلا لمدة شهرين. لقد أصبح لمن الجيش مهدداً (١١٤).

وعندئذ يعرض عليه مينو وظيفة للفتش العام على المراجعات، وهو ما يعادل ترقية. وقبل نور هذا التقييم ويتولى سارتيلون في ٢٢ أكتوبر ١٨٠٠ وظائف آتن للصرف العام. وعندئذ يكتشف سلفه أن مينو قد عينه في وظيفة مفتش عادي، وهو يفضى على هذه المعاملة غير الشريفة، ويطلب تحويله للممثل أمام مجلس حربي ليحكم ما إذا كان قد فقد اعتبره. وعندئذ يتعهد مينو بالوفاء بوعده. لكن نور لا يحصل في الواقع على أية مسؤولية ولا يطلع له وأتبه بسبب عدم تولي الأموال، وهو يتهايا لمنازعة سلطة مينو الذي، وفقاً له، لكونه قائداً عاماً لا يملك السلطة الشرعية لكي ينحيه أو لكي ينقله دون تصريح من الحكومة. ويرد مينو بأنه بوصفه حاكماً للمستعمرة، فإنه يمثل تلك الحكومة، وأن الشرعية إلى جانبه. وفي هذه المناقشة القانونية، يبدو أن نور قد حصل على المشورة من تاليان الذي يطور الفكرة التي تنهب إلى أن مينو لا يمثل الجمهورية إلا تجاه السكان المغلوبين وليس تجاه الفرنسيين. ومن ثم فإن هؤلاء الأخيرين، مدنيين كانوا أم عسكريين، إنما يخضعون لقوانين المنزول وليس للأحكام التي يصدر بها مينو مواسم. وهكذا، على سبيل المثال، فإن للرأسم المتعلقة بحقوق الوراثة لا تنطبق على الفرنسيين، بالرغم من قرارات مينو للعكس (١١٥).

المخطط [المجمع العام]

كما ينجح مينو في إثارة استياء أعضاء لجنة العلوم والفنون. فعند التوصل إلى اتفاق العريض، كان مينو قد منحهم الأولوية، مع من أصبحوا يعجز ما في الجيش، في الرحيل عن مصر. إلا أنه لم يتسن تحقق هذا الرحيل. وإذا بقيت في مصر مرفعين، فإنهم يقدرون تنظيم حملة استكشاف جديدة في مصر العليا كان عليها أن تقوهم حتى النوبة، بل والحبشة. ويحكم عليهم مينو بالانتظار وقتاً طويلاً ويرفض في نهاية الأمر تقديم موانعته على هذا المشروع. وهو يريد استخدام العلماء في مشاريعه الاستعمارية. والحال

إن للمهندسين، خاصة مهندسي الجسور والطرق، يدون أنفسهم وقد جردوا من حرية اختيار موضوعات دراساتهم لكي يجرى إلحاقهم بالمشاريع الكبرى الخاصة باستغلال مصر. ومنذ ذلك الحين، فإن العلماء يستأثرون بشكل فريد بحوثهم التي يركزونها على الدلتا ومصر الوسطى. على أن مهنة وواصل الإيمان بمشروع وصف مصر الذي دشنته كليبر. وهو يلقي عقد هاملان الذي جعل منه عملية تجارية خاصة، ويلزم أن تتحمل الدولة جميع تكاليف النشر. (١١٦)

تهوك لحظة الفتح

إن استيلاء كواتر الجيش العليا هو من ثم استيلاء عام. والأمر اليومي الصابر في ٦ برمود من العام التاسع (٢٨ أكتوبر ١٨٠٠) يشمل البارود. فميدوا. في تعليقه على الأنباء الطبية الواردة من فرنسا، ومستوحياً إلى نجاحات بوناپارت، يهجم معارضة: «أيها الجنرالات والضباط والجنود، وأنتم بالجميع الفرنسيين للوجودين في مصر، خلوا عبدة مما يحدث في فرنسا؛ إن كنتم هناك بينكم، وأنا بعيد عن تصور ذلك، لحزاب وحساس وخلافات في الآراء وفي الوثبات فيما يتعلق بالشأن العام، فلتنسوا كل ذلك. ولتذكروا أن هذه الشكائات لا تطبق بالجمهوريين، الذين لا يجب لهم أبداً أن يفكروا إلا في الكرامة والوطن. [...] وإذا كان هناك بينكم بعض الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم أعداء شخصيين لي، فإنني أصح عنهم سلفاً، إلا أنه إن كان هناك أعداء للجمهورية، فإنني سوف أكون صارماً تجاههم، وسوف يجهون أنني لنهز بقسوة لا يمكن لشيء قهشتها؛ إنني إن لم أتصرف على هذا النحو، فلن أكون أملاً لأن أكون قاتلاً لكم».

ولا يشعر ناس ودينيه بأنهما قد تعرضا لهجوم، لأنهما يجران قناة الطرق الآخرين للوجودين في القاهرة، فيرييه ولانوس وبيليار، إلى تحرك جماعي للتقديم احتجاج إلى القائد العام. ودون إعلان ذلك، فإنهم يقتحمون من الناحية العملية مكتب مهنة ويعرضون شكراهم، لا يمكن منع مصر اسم للمستعمرة دون الحصول على تصريح بذلك من الحكومة الفرنسية؛ إن مثل هذا الإجراء الذي يزعم السكان يهدد بتعزيز الانتداب للعادي لفرنسا؛ وإصلاحات الضرائب تزعم السكان ومن شأنها استثارة تمردات، يجب تخفيف وتلويح التلويح التعسفية لا القضاء على ما هو قائم. إن العديد من الرسوم الجديدة غير هائلة، وجائرة، وباهظة. وذلك هو حال الرسوم المفروضة على الصرافين وعلى الوذائين وعلى الطوائف ومن بينها بشكل خاص الرسم المفروض على مشايخ البلد.

والذين يعتبر تنظيمهم قويًا، بما يتيح لهم امتلاك الوسائل الأكثر ملامعة لتحريك الثورة التي يريدونها في مصر.

والفرنسيون لا يجب أن يخطعوا لذات القوانين التي يخضع لها السكان المظلومين. بل إنه يجري الاعتراض على حين أسلوب الحكم الذي يمارسه ميتر.

إن اللغة التي كتبت بها غالبية الأوامر اليومية غير لائقة من جميع النواحي، فالجيش وجميع الفرنسيين الذين جاءوا في أثره يجري يومياً تصويرهم كزمرة من قطاع الطرق، كرجال لا شرف لهم، ويبدو كما لو أن هناك شيئاً سيئاً حثيثاً إلى تهديد تهجمات نانديس وكما لو أن هناك رغبة في دفع أوروبا وفرنسا إلى اشتهاه أن يتأوه الجيش كله في هذه المداخلات.

إن الجيش لا يمكن أن يتأد بالأسلوب الذي يتأد به أحد الأندية، فالجيش له قوانينه ولوائحه الإنارية الداخلية ومن ينتهك هذه القوانين واللوائح مذنب كدم.

أولا مرآة في أن سلطة قائد جيش ما هي سلطة عظيمة، لكن الحكومة تضع في مقابلها عناصر ثقل مضادة وعناصر مقابلة لها، وهذه العناصر تتمثل في أن الصرف العام وبشكل خاص في استقلال الخزنة؛ والحال أن الجنرال ميتر قد تلاعب بهاتين السلطتين، بل وقام بإفنائهما.

ويجري النظر إلى تدابير النقل والعزل على أنها غير مشروعة، في غياب حكم صادر من مجلس حربي. ولا بد من إلغاء الجانب الرئيسي من التدابير التي اتخذها ميتر (١١٧).

ويبدو الجنرالات تمركزهم الجماعي بضرورة الاحتجاج على الشائعة الرائجة التي تنسب إلى أنهم يشكلون تكتلاً معادياً للجنرال ميتر وخاصة للفنصل الأول، وبضرورة الصبر على سلامة الجيش التي تهددها تدابير ميتر؛ فالتعهدات، خارج صاحة للمعركة، لجنرالات القوية، إنما تلحق الضرر بانضباط الجيش؛ وتعيين الفيومي مسؤولاً عن مشايخ القرى غير مناسب وذلك بسبب موقف الرجل في الماضي (انتفاضة القاهرة الأولى وتمرد أمير الحج)، وموقف ميتر تجاه تكوي كليبر موالف شائن؛ وعندما عُلم في القاهرة إنه قد جرى فتح اكتتاب في فرنسا لإقامة تمثال للجنرال دوزيه، انضم كثيرون من الأشخاص إلى ذلك مولعين على اكتتاب مماثل، ومترشحين إرسال اكتتاب آخر إلى فرنسا لإقامة تمثال للجنرال كليبر أيضاً. وقد قدمت هاتان القائمتان اللتان تضمنان توثيقت عدد كبير من المكتتبين إلى الجنرال ميتر الذي رفض التوقيع على القائمة الخاصة بالجنرال كليبر، ولم يدرج في جدول الأعمال غير القائمة الخاصة بالجنرال دوزيه.

ويرد مينو على جميع هذه المطالب بالإشارة إلى ضرورة مدحه وقتاً للتفكير ولا يتزحزح إلا فيما يتعلق بمسألة الاكتساب في إقامة تمثال لكليبر وبمسألة حقوق الوراثة (١١٨). والواقع أن المحصلة الوحيدة للمقابلة إنما تكمن في زيادة احتياد العلاقات إلى حد ما بين القائد العام وقادة الفرق. ويتلقى مينو رسائل بلا توقيع تدعوه إلى محاربة «كاثوليكت» (خونة) الجيش (١١٩).

ويخشى بلمسي من أن يكون مينو قد صائر التقرير الأخير لكليبر الذي حذر خاتمة؛ وهو يرسل نسخة منه إلى موردو في ألمانيا حتى يعمل على نشره خارج فرنسا في حالة منعه من النشر (١٢٠). وهو يفسر هذا المنع برغبة مينو في أن ينسب إلى نفسه تأثير آراءات كليبر المتعلقة بالضرائب غير العادية ومن بين هذه التأثير دفع متأخرات الجنود وتكوين وحدات عسكرية محلية. ويكتب رينيه من جهته إلى موردو شككاً من مصداك مينو، ويؤكد اختيار موردو بجلاء إن معارضي مينو إنما يهتمون إلى ذلك للتأخر من الجيش الذي لا يميل بشكل خاص إلى بوناپارت.

تثبيت مينو

تصل علاقة القوى فجأة إلى صف مينو مع وصول رسالة إلى القاهرة تثبت في وظائفه كقائد عام للجيش. ويخبر مينو الرسالة فوراً في الأمر اليومي الصادر إلى الجيش (١٣) برومير من العام التاسع - ٤ نوفمبر ١٨٠٠). ويرفق كلودو بهذا التعمين خلاصة موجزة عن الوضع الأوروبي؛ إن فرنسا الظالمة تعرض للصالح على أوروبا.

«إنكم سوف تعجلون بهذه اللحظة للنشوة، أيها المواطن الجنرال، بسيروكم على خطى سلفكم ويتدعيمكم بحزم لا يتزعزع، وباستكمالكم بكل ما لديكم من إمكانات، للقراهد الراسخة لعموم وازدهار مصر، إلى أن يحسم الصلح الشامل بشكل نهائي مصير هذا الفتح التاريخي والشمين. ولتكونوا على ثقة بأن الحكومة لا تهمل على الإطلاق ما يمكن أن يهم جيش الشرق: إنه موضع اهتمامها الثابت» (١٢١).

ويبدو أن بوناپارت قد تردد في تسمية خليفة لكليبر. رينيه، على الرغم من كونه جندياً ممتازاً، لا يبدو له (لبوناپارت) أنه يملك مواهب سائس الرجال الضرورية للقائد. أما مينو فإنه لا يملك خبرة عسكرية كافية لقيادة جيش مقاتل. وهو يفكر للحظة في لانوس،

الثالث في ترتيب الأقسام، والذي كان يمكن أن يكون اختياراً مناسِباً (وبشكل حكيم في الخطوة نفسها، كان يمكن له - ليونهارت - أن يستدعى مينو ورينيه إلى فرنسا). لكن مينو يحتل للنصب بالفعل، وقد كان خصماً لاتفاق العريش، وقد تحول إلى اعتناق الإسلام، الأمر الذي لابد له من أن يحل علاقاته مع السكان، وهو يملك قدرات الإناري الضرورية لمثل هذا النصب وهو بوجه خاص أحد الاتباع الأوفياء الأكثر جهاً بالولاء للفنصل الأول (١٢٢). ورسائل مينو التي تقدم رؤية من أكثر الرؤى تفلؤلاً من المشروع الاستعماري، إنما تدل على حد بعيد أحلام ليونهارت العميقة بحيث يصعب ألا تؤثر على اختياره.

ومع سعي مينو وأنصاره إلى الوصول إلى تسوية مع قادة الفرق بعرض جوائز سفر عليهم للعودة إلى فرنسا - وإن كان هؤلاء الآخرون يرفضون، مؤثرين أمر استثناء من باريس بطلبونه بإلحاح من الفنصل الأول - (١٢٣)، فإنهم يفاقمون الموقف بقتهم على لكري كليبر. إن شامبيه، قائد اللواء، يكتب إلى الفنصل الأول متحدثاً عن عدم كفاية واختلاسات كليبر ولانوس ورينيه وآخرين (١٢٤). ولاجرانج، الذي أصبح رئيساً للأركان العامة بعد تنحية بلانس، يكتب إلى ليونهارت أن كليبر لم يتصرف إلا بدافع الحسد، وأنه ليس له أي فضل في انتصار ميليووليس وأن أنصاره، خلاصة بلانس، يتآمرون على تسليم مصر إلى العثمانيين (١٢٥). والرسائل النافذة الموجهة إلى فرنسا مليئة بالشائعات للتبليغ.

ويراكم مينو الشائعات تجاه رينيه ويتجسس على خصومه. ومن جراء الرهونة أن التحدي، يسمى ابنه الذي ولد للتو، سليمان، وهو عين اسم قاتل كليبر...

ملاوكة سيدك سبيث الأخيرة

وهكذا فإن الرجل قد أصبح مهيقاً تماماً لكي يكون ضحية لواحدة من تلك المخابرات التي أصبح سبيث سبيث استناداً فيها (١٢٦). فالعميد البحري ينقل إلى فريان (١٢٧)، الذي يتولى القيادة في الإسكندرية، أعداء من صحيفة جازيت دو فرانس. وهي تنقل رسائل من صحيفة كوربيه فولندر، خاصة مقتطفات من رسائل إنجليزية مؤرخة في ١٠ و ١٥ يوليو ١٨٠٠ قادمة من سولحل سوريا (١٢٨). وتقدم هذه الرسائل تقريراً جد دقيق عن وضع جيش الشرق عند موت كليبر وتفتي إلى ما يلي: «يبدو اليوم أن اتفاق العريش لا يمكن

إحباطه من جديد إلا عبر ثورة الجنود الفرنسيين يعزلون من خلالها الجنرال ميتو ليحلوا محله قائداً مستعماً للجلاء عن مصر (١٢٩).

ويحتد غضب ميتو عند قراءة هذه الوثيقة ويكتب إلى بيرتييه، الذي أصبح وزيراً للحربية، أنه قد وجد في صحيفة جازيت دو فرانس خطاً أمياً: «لقد أرسلت إلى هذه الصحيفة من فرنسا، ولا أعرف من الذي أرسلها. ويبدو أن لرائك الذين يريدون زعزعة مصر قد وجدوا وسيلة لنقل مشاورتهم إلى أوروبا سعياً إلى معرفة ما إذا كانوا سوف يجدون فيها اتصلاً» (١٣٠).

وفي الوقت نفسه، تصل انتهاء محاولة اغتيال اللاتصل الأول في شارع سان - نيكيز والاتهام الموجه إلى إنجلترا بأنها قد نظمت، أو على أية حال شجعت، محاولة الاغتيال هذه. والحال أن ميتو، في أمره اليومي الصادر في ٢٣ يوليو من العام التاسع (١٢ فبراير ١٨٠١)، يورد للمعلوماتين خلطاً الحابل بالذابل ويهاجم خصومه: «أبها الجنود، بلى، لا مرأى في أنني لابد وأن أكون مستبهماً لهذه الزمرة الغريبة؛ فلنا، منذ اللحظة الأولى التي شركت فيها بقلائكم، قلت لكم إنه لا أحد سوى حكومة الجمهورية هو الذي يمكن إصدار الأمر إليكم بالجلاء عن مصر؛ وقد قلت لكم إن الإخلاص الذي تدينون به لوطنكم إنما يلزمكم بهل كلفة التضحيات؛ وقد قلت لكم وأكثر من جديد إن الموت هو بالنسبة للجندي أفضل ألف مرة من خياع الشرف. وإذا كان علينا أن نهلك في مصر، فلننا سوف نموت كجمهوريين صائقين يوفون بواجبهم؛ أما إذا رحلنا عنها دون أمر من الحكومة، فلننا سوف نفتقد كرامتنا أمام العالم».

ويخبر قائده الفرق أنهم مستهدفون بهذه التمريضات، وهو لم يحسم في هذا الأمر اليومي غير الإنجليز: «إنهم يريدون محاولة دفع الجيش إلى العصيان؛ وقد ألقوا بيانات تدعو إلى الثورة في مدينة القاهرة. وكما أبلغنا بذلك الجنرال لوريان، فإن لهم مكاتبات في الإسكندرية. ومن الواضح أنهم هم الذين كتبوا للقتال المنشور في العدد ١٠١٧ من الجازيت دو فرانس» (١٣١).

وهو ما يرد عليه ورتييه، محقاً في ذلك، بأن ميتو قد لعب لعبتهم بنشره القتل في الأمر اليومي (١٣٢).

ومن ثم ففي مناخ العداء السائرة هذا بين ميتو وقادة ثورة بيلن لوريان ظهور سفن شراعية إنجليزية عديدة قبالة الساحل الغربي لمصر.

أوروبا ومصر

لم تكن الدول الأوروبية قد نصبت مصر. وثيا معركة هيلوبوليس وإعلان فتح مصر يصل إلى فرنسا بعد انتصار مارينجو، وتبدأ مفاوضات مع النمساويين. وهي تقطع في نوفمبر ١٨٠٠، لكن مرور يلقى بالنمساويين بعد ذلك مباشرة هزيمة حاسمة في هوهينليندين (٣ ديسمبر ١٨٠٠). وتعهد هنري ستير (٢٥ ديسمبر ١ٸ٠٠) وصلاح ليونفيل (٩ فبراير ١٨٠١) بين فرنسا والنمسا الوضع الذي أوجده صلح كامبو فورميو. لما القيصر پول الأول الذي أخذ منذ لواخر ١٧٩٩ يشعر بخيبة الأمل من جراء موالف النمساويين الذين يعتبرهم مسؤولين عن الهزائم الروسية في سويسرا، فهو يرى في صعود بوناپارت عربة إلى النظام الملكي. ومنذ لوائل عام ١٨٠٠، يتقارب مع فرنسا ويوحد دول الشمال (روسيا، النمسا، السويد) ضد دعاوى إنجلترا بحق السيطرة على البحار. ومن المبادرات أنه على الرغم من حفاظه على معاهدة التحالف مع الإمبراطورية العثمانية، والتي تبدو له وسيلة لفرض حماية حقيقية على تلك الدولة. يعقد الصلح مع فرنسا ويقرر في حمل ضد الهند. وأحال أن رفض الحكومة البريطانية للتنازل له عن مالطة، بالرغم من أنه قد أصبح راعياً كبيراً للأخوية، صاحب السيادة الشرعي الوحيد على الجزيرة، هو الذي دفعه إلى ذلك الطريق (١٣٩). وتصبح المخاوف التي ساورت بريطانيا خلال اتفاق الحريش واقعاً. ويشكل ملائم بالنسبة لبريطانيا العظمى. سيتم اغتيال القيصر في ٢٤ مارس ١٨٠١، وسوف يغير سياسته ابنه وخليفته الكسندر. وأحال أن مصرع پول الأول، بعد اغتيال كليبر، ومحاولات اغتيال القنصل الأول، سوف تبدو في نظر الفرنسيين بوصفها ممارسة منتظمة يلجأ إليها أعدائهم. وهكذا، فإن عام ١٨٠٠ قد شهد التفتك التدريجي للائتلاف، الذي تشكل كره فعل للحملة على مصر.

الفصل الأول

إن بوناپارت، وقد أصبح الآن أكثر لطمئناناً إلى وسوخ سلطته في فرنسا، يمكنه أن يكرس قوى أكثر لإنقاذ المشروع الشرقي. وفي سبتمبر ١٨٠٠، يحاول توسيع الهيئة البحرية، التي تم التوصل إليها عن طريق معركة مارينجو، حتى تشمل العمليات البحرية، الأمر الذي من الواضح أنه كان من شأنه أن يسمح بتعزيز حامية ملطة وجيش الشرق. ويرفض البريطانيون هذا الاقتراح، غير المناسب إلى حد بعيد بالنسبة لهم. ويجدون

تعزيتاً لإصرارهم في سقوط مملكة في الشهر نفسه. وتجاه العثمانيين. فإن استئلاف التحركات من أجل صلح يهين مصر تحت الاحتلال الفرنسي مع سيادة نظرية الباب العالي، إنما ينتهي إلى الفشل، وذلك بالرغم من أولام بوناپارت المتكررة في هذا الصدد (١٢٧). على العكس، إن الإمبراطورية (العثمانية)، بالرغم من عزلتها في السنوات السابقة، تنهك في مجهود جديد من أجل استرداد مصر بمساعدة الإنجليز.

ومنذ ذلك الحين، لا يبقى بعد سوى إرسال تعزيزات تخترق الحصار الإنجليزي. ويشكل ضياع مملكة صعيدية إضافية، لكن فصل الشتاء يقلل كفاءة الانتشار البريطاني ويصعب مرور عدة سفن. ثم إن استيراد إيطاليا يتيح إمكانية استخدام موانئ في وسط البحر المتوسط. وهكذا يتسنى إبلاغ جيش الشرق على نحو منتظم بنجاحات السياسة الفرنسية في أوروبا. ويصل إلى علمه أن الجهاز التشريعي والمحكمة الدستورية قد أجازا قانوناً يشهد له بخدمة الوطن على نحو مرموق. وتشهد خطب بارين - ريال وجان - باپتيست ساي (١٢٨) بمآثر الجيش - للمستوطنة، الذي يحمل أمل الحضارة. (١٢٩)

وعلاوة على هذه التشجيعات الأنيبة، فإن السفن تنقل تعزيزات (أقل من ألف رجل) وبعض الذخيرة. لكن هذه السفن هي طليعة أسطول فرنسي عهد بقياته إلى جانتوم، البحار المقرب إلى بوناپارت منذ أن كفل عروفته من مصر. وفي ٢٢ يناير ١٨٠١، ومستفيداً من المناخ غير المناسب الذي هشتت الأسطول الإنجليزي، ينجح الأميرال مع سفته الحربية السبع في الخروج من برصت. إلا أنه كما هي حالة القوات البحرية الفرنسية، فإن الأسطول الفرنسي، بدلاً من أن يتوجه إلى مصر مباشرة وفقاً للتعليمات الصادرة إليه وبينما كان الساحل المصري خالياً من السفن البريطانية إنما يتحرك إلى طولون. وكان لابد من صدور أوامر متكررة من الانفصل الأول لإجبار جانتوم على العودة إلى اجتياز البحر في ٢٥ أبريل ١٨٠١. وإلا يخشى حذم من أن يجد الأسطول البريطاني وقد عاد مع الربيع، فإنه يفرد إنزال القوات الفرنسية في برفه حيث يمكنها الزحف من هناك على مصر، ويتم الإنزال على مقربة من برفه في ٢٣ يونيو. وعلى الفور، يدرك المسؤولون الفرنسيون أنهم لا يمكنهم العثور هناك على وسائل اجتياز ستمائة ألف مائة المصراوية التي تفصلهم من مصر، ويعيدون رجالهم بحكمة إلى السفن، وترجع الحملة الصغيرة إلى طولون في ٢٠ يوليو ١٨٠١ (١٣٠).

القوار الإنجليزية

بالنسبة لإنجلترا، فإن خروج روسيا من الائتلاف ومعركة مارينجو ومعركة

هيايوليس إنما تشير بشكل حاسم إلى ترتيب الأولويات. إن الائتلاف الثاني، أي حلفاء بريطانيا العظمى، قد فشل في أوروبا كما في مصر. ولما كانت لا تستطيع من ثم التصرف بشكل مباشر، خلافاً لعلفتها، فإن عليها تسوية المسألة المصرية قبل التوصل إلى الصلح الشامل الذي يتوقع الجميع عقده في عام ١٨٠١. وإلا فإنها سوف تضطر إما إلى الاعتراف بهيئة الجيش الفرنسي في مصر، والتهديد الدائم الذي يشكله بالنسبة للهند، أو إلى مواصلة حرب أصبحت عبءاً شعبياً.

وفي ٢٠ أكتوبر ١٨٠٠ يتم اتخاذ قرار باستخدام القوات التي عادت إلى الوطن من هولندا ثم أرسلت إلى إسبانيا، من أجل القيام بحملة على مصر. وسوف يكون على هذه القوات تعزيز القوات العثمانية. ثم إن مصر سوف تكون ملتقى طرق بين أوروبا والهند مع إرسال حملة أنجلو - هندية مكلفة بإنزال إضافي على سواحل البحر الأحمر. ولن يكون بوسع الباب العالي إلا أن يقبل هذا القرار الثاني، لأنه يجمع بممارسة ضغط كاف على شريف مكة الذي تحلل إلى حد بعيد من ارتباطاته بالسلطة المركزية. وهو مشهور بالرغبة في إيجاد توازن إقليمي في الشرق الأدنى على حساب الباب العالي، سوريا تحت حكم الجزائر، مصر السفلى في أيدي الفرنسيين، مصر العليا تحت سيطرة مراد بك وحجاز مستقل ومتجهز مع الثلاثة الآخرين^(١٤١). وترمز خيارات خريف ١٨٠٠ إلى تنويع الاتجاه الذي تم تبنيه في السنوات السابقة، والإرسال للترامن لجيش قائم من الهند، ومن ثم من الشرق، ولجيش آخر قائم من أوروبا، ومن ثم من الغرب، إنما يعني أن كل ما هو موجود بين البحر المتوسط والأنديز يصبح مجالاً جغرافياً موحداً في نظر المسؤولين السياسيين الإنجليز.

الأميرال

الحملة الإنجليزية

على الرغم من أن معركة هيليوپوليس قد برزت التحليل السياسي الذي قام به سيدنى سميث، فإن خيبة أمل العثمانيين وعدوة اللورد إيلجين تقوّلان السلطات البريطانية إلى تدخّله جانباً. بل إنّه كان بالإمكان سحقه من شرقى البحر المتوسط لو لم تكن درايته بالساحل المصري قد جعلت وجوده ضرورياً. والحال أن قيادة العمليات البحرية إنما يعود بها إلى اللورد كيث، القائد الأعلى للأسطول البحر المتوسط (كان نيلسون قد أرسل إلى بحر الشمال وإلى البلطيق لمحاربة عصابة للحياد للسلاح التي تستمدّ الوحي من روسيا). ويحصل أهيركرومبي على قيادة قوة الحملة. وهو جندي محترف، مجرب (ولد في عام ١٧٣٤)، ومحترم من جانب أقرانه. وهو يتخذ كمستشار له باليونان، القنصل البريطاني السابق في الإسكندرية والنصير للتحصن لسياسة إنجليزية في مصر، وكان سيدنى سميث، من جهته، قد جند هامر، المستشرق النمساوي الشهير فيما بعد، وأعدّ إياه بالسماح له بزيارة مصر فور انتهاء العمليات العسكرية.

والحال أن ملطة، التي تم الاستيلاء عليها مؤخراً، إنما تخدم كموقع حشد للقوات البريطانية اعتباراً من أواخر نوفمبر ١٨٠٠. وكما فعل بوناپارت من قبل، فإن الإنجليز يجنّدون قوة من الجنود اللاطين تتكفّل من خمسمائة رجل. ولا يرفع لك عند القوات البريطانية إلا إلى خمسة عشر ألف رجل من بينهم اثنا عشر ألف رجل من المقاتلين. ويجب أن نضيف إلى ذلك لورد جيش المصدر الأعظم والقوة الأنجلو - هندية التي يتعين عليها الوصول عن طريق البحر الأحمر، ويجيء الجانب الرئيسي من القوات للجنة من الهزائم المتتالية في هولندا وإسبانيا. إن الإنجليز ليصوّا معتلين على النصر كخصومهم. وتراهن الوزارة البريطانية كثيراً على حالة التدهور للميزة للجيش الفرنسي، والتي أكتنّها بصورة منتظمة وسائل الفرنسيين التي تم اعتراض سبيلها، وهي ترى أن الفرنسيين، بعد هضم انتكاسات، سوف يطلبون الاستقالة من اتفاق قريب من اتفاق العريش. وبما أن الحرب قد انتهت في القارة (الأوروبية)، فإن الحكومة البريطانية لا ترى هناك أي اعتراض. ويمكن للخطر أن يجرى من الخارج، من أسطول جانتوم ومن عودة هجومية للأسطول الروسي إلى البحر المتوسط (١٨١٢).

ويتم الاتحاد مع الوحدات العثمانية في خليج مرمريس، في جنوب مطل الأناضول

على بحر إيجة، في أوائل شهر يناير ١٨٠١. وعلى طريقه، يعترض اللورد كيث السفينة
فتنسى تعهد تليان إلى فرنسا. والحال أن تقدير قوة الجيش الفرنسي الذي يقدمه العضو
السابق في المؤتمر إلى الإنجليز إنما يبدو لهم مبالغاً فيه إلى حد بعيد (١٤٣).

وفي مرمريس، يجرى إنزال القوات إلى البر سعياً إلى تمكينها من الاستراحة.
ويجرى تدريبها على تقنيات الإنزال. ويشعر الفرسان بخيبة أمل عظيمة في الجهاد التي
يقدمها لهم العثمانيون. ولا يمكن استخدام غير مائتي جواد بالنسبة للفرسان وخمسين
بالنسبة للمدافعية، لما يقتضي قبحاد بهمة أو يجرى إعداده، ويمكن تفسير هذه المفاجأة
السيئة بالمشاق بين اللورد إيلجين وسينسر زميل. فهذا الأخير، الذي يمثل شركة
للشرق (لبنات كورماني)، كان قد حذر على موظفيه التعاون مع السفارة، الأمر الذي أدى
إلى إصابة نشاط هذه المؤسسة بالشلل التام (١٤٤). وهكذا فإن الفرنسيين يمتنعون بتفوق
قوى في سلاح الفرسان.

كما إن الأنباء الأخرى مزعجة للإنجليز. فجهش الصدر الأعظم يبدو أقل وزناً مما
كان متوقعاً وهو يبدو، في نظر العسكريين البريطانيين، في حالة متقدمة من التفتك.
وبالنسبة للإنجليز، فإن العيوب العثمانية الكثيرة هي أيضاً علامات على انحلال
الإمبراطورية (١٤٥). وقد حصل الفرنسيون على تعزيزات وهم أوفر عدداً من الإنجليز
بكثير.

على أن أبهركومبي يظل مخلصاً للتعليمات الصادرة إليه ويعيد قواته إلى ركوب
البحر في ٢٢ فبراير. ويصيب ضعف الجيش العثماني، فإنه لا يصحى إلى انتقاء سريع بين
الحملتين، كان يعنى العمل في منطقة دمياط. وهو يفضل العمل في منطقة الانتشار
الفرنسي البحرية، أي منطقة الإسكندرية - أبو قير - رشيد (١٤٦). وفي أول مارس، يرى
الساحل المصري، وفي اليوم التالي، يدخل الأسطول، ومجموع سفنه مائة وخمسة
وتسعون (١٤٧)، إلى خليج أبو قير. ويحول اللناخ السوء نون أي إنزال قبل ٨ مارس ١٨٠١.

الإنزال الإنجليزي

يؤدي مشهد السفن الإنجليزية الأولى، التي سبقت وصول الأسطول بإيام قليلة،
إلى إثارة انزعاج فرعان في الإسكندرية. لكن مينو يهون من الخطر. فهو يعتقد أنه لا
جهد كبير من جانب الإنجليز الذين يعرفون صلحتنا مع الروس وتحرك إسطنبول (١٤٨).
وهو يوجه بيانات طنانة إلى القديران بأسلوب الرعب من أسلوب بونابارت: «إن الله هو الذي

يقود الجيوش، وهو الذى يعطى النصر ان يشاء. وسيف ملائكته الوهاج يمسك الفرنسيين دائماً ويجهز على أملاكهم (١١٩).

وهو يحذر من أن القمع سوف يكون مريعاً في حالة سوء السلوك، فهو سيكون كالقمع الذى لمقب انتفاضة القاهرة الثانية. والديوان بدوره يتبع مخابر الأحياء إلى أنهم مسئولون عن حفظ النظام. وبما أن الضرائب غير العادية تجرى دائماً، وبما أن الفرنسيين، من جهة أخرى، يكتفون بالتأخير للقمعية لمحاولة وقف انتشار وباء الطاعون الذى وصل إلى العاصمة، فإن الخوف من نشوب انتفاضة شعبية يدفع كثيرين من المصريين إلى مغادرة القاهرة. ويلاحظ الجيوش أن الفرنسيين يفعلون الشيء نفسه بالانسحاب إلى القلعة التى يجرى إليها عدة أحيان كرهائن من بينهم الشخص الساعات وعيداً من أعضاء الديوان (١٢٠).

ويعتقد مينو أن الهجوم الإنجليزي ليس غير عمل ثانوى لتحويل الأنظار، وأن العمل الرئيسى سوف يحدث في شرقى الدلتا، مع وصول جيش الصدر الأعظم. وهو يقلل من قيمة القيادة البريطانية (١٢١).

أما فريمان فهو يخطئ لأنه لا يطلب على الفور إرسال تعزيزات مهمة. بل إنه يوافق على آراء القائد العام. لكن مينو ينسى أسلوب بوناپارت الأساسى، الذى طبق خلال معركة أبو قير البرية وأشهر إليه مجدداً في العمليات المسيرة إلى كليبر؛ في حالة هجوم متزامن، يجب حشد جميع القوات للتوالية لمقاومة القوات للعانية، قوة بعد الأخرى، مع إهلاك الأولوية لمقاومة القوات التى تهبط من البحر. ولا يمكن أن يكون له حذر بقدر ما أنه يعرف ضعف الجيش العثماني ويقدر ما أنه يرى أن القوات البريطانية قليلة. ومع وجود ثلاثة وعشرين ألف رجل تحت السلاح، فإنه يتمتع بقوة تساوى تقريباً ضعف قوة الإنجليز.

ثم إنه، بدلاً من أن يركز القوات الفرنسية، يبعثرها بين شرق وغرب الدلتا حتى يواجه الهجوم للزورج. ويؤيد رينيه وثيقة الفرق على هذه الأوامر التى يعتبرونها خرقاً وإجرامية ويتوصلون إلى مينو أن يركز جميع القوات في أبو قير (١٢٢). فهم يرون أن الصدر الأعظم لن يجتاز سهواً إلا بعد تبا انتصار إنجليزى. ويقتل مينو أصم تجاه نصائح مرسوميه. والحال أن التأخر الذى اتخذته الإنزال البريطانى يبدو له برهاناً على امتياز الأسلوب الذى نشر به القوات. ويكرر رينيه للحظة في خلق مينو، لكنه يتغلى من تلك من باب المراعاة للانضباط (١٢٣). وهذا النزاع الجديد بين الجنرالات، في مثل هذه الظروف،

إنما يستلزم انزعاج الجيش. وخبر النزاع واسع الانتشار بحيث أن الجبرتي نفسه يتحدث عنه، بشكل بالغ الدقة.

ويرسل فريان بضع قوات لدعم السيطرة على رشيد وذلك سعياً إلى تجنب وقوع هذه المدينة ضحية لهجوم عسكري إنجليزي مفاجئ ويتمركز مع ألف جندي في أبو قير، تاركاً الدفاع عن الإسكندرية للعاجزين وللبحارة. وهو يخوض معركة غير متكافئة ضد الإنزال الإنجليزي في ٨ مارس، وبالرغم من آيات الجسارة التي تهبها قواته فإنه يضطر إلى الانسحاب إلى الإسكندرية. ويدين الإنجليز بتجاههم إلى العدد الكبير لزوارق المنطعية والتواب والذي سمح باجتياح الخطوط الفرنسية (١٥٤).

وعند وصول خبر نجاح الإنزال الإنجليزي، يقرر مهوو الزحف على أبو قير مسلحاً بقيادة القاهرة ليهيلار. وهو يوجه ترك قوات مهمة للتماس وإرغيبه للسيطرة على طريق سوريا، لكن هذين الجنرالين يخالفان أوامره ويعيدان كل قواتهما إلى القاهرة (إن هذا الطريق، بالرغم من كونه أطول، إلا أنه أسرع للزحف على منطقة الإسكندرية، وذلك بتجنب الاجتياز العمودي للبلدات). ويخاطر معظم الجيش العاصمة في ١٢ مارس. ويعتقد مهوو أن غيابه لن يدمر طويلاً وأن «الروح الطيبة التي ترف على فرنسا وحظ بونابارت» لن يتغلبا عن الفرنسيين (١٥٥).

الحفافات الفرنسية الأولى

بعد رحيل مهوو، يكتب بهيلار إلى مراد بك لإبلاغه بالسحق الوشيك للقوات الإنجليزية وإبلاغه، في التو والحال، بصحب القوات الفرنسية من مصر الوسطى والتي يقودها بونزيلو. ويتلقى الزعيم المملوكي تعليمات بتأمين الحفاظ على النظام في المناطق التي يجلو عنها الفرنسيون (١٥٦). ويرسل فوديه إلى مهوو رسالة من الديوان. ووفقاً له فإن الرسالة بنت تحرك عسوى تعاماً، وهو مالا يتمشى مع رأى الجبرتي. ويشدد الفرنسيون على واقع أن الإنجليز مسيحيون وأن غايتهم هي إعاقة الصليب إلى مصر (١٥٧).

وفي تلك الأثناء، كان لافوس، مع فرقته، قد انضم إلى فريان في الإسكندرية، في ١١ مارس ١٨٠١. وترتفع القوات التي يمتنع بها الجنرالان إلى خمسة آلاف رجل، وقد أتر

فريان انتظار وصول مينو حتى يتحرك (١٥٨)، لكن لانوس يلقته بمهاجمة الإنجليز فوراً. لهما إن لم يقوموا باحتواء الإنجليز في شبه جزيرة أبو قير، فإن هناك خطر قطع الاتصالات مع بقية الجيش.

وفي ١٢ مارس، يتطلع لانوس إلى مهاجمة القوات الإنجليزية التي تنجح في استيعاب الصدمة. وبعد عدة ساعات من المعارك العنيفة (١٥٩)، يضطر الفرنسيون إلى الانسحاب إلى الإسكندرية. وفي رسالة إلى لان، ينتقد لانوس مينو وشأنه في تلك شأن بيزيه عشية معركة مارينجو، يستشعر نهايته القريبة، «إن وضعنا ليس ميؤساً منه، لكنه ليس جميلاً. ولعل مغامرة القاهرة، قلت أنا والجنرال رينيه للقائد العام إنه يجب أن يتطلع جيشه إلى أهر قير كون إضامة للوقت، إلا أنه لم يتكرم بالإنصات إلينا. وليست هذه هي اللحظة المناسبة للبكاء على ما فات. إن ما ن فكر فيه هو القتال. وليت طلعي أن أكون محفوظاً في المعركة القائمة مثلما كنت محفوظاً للبرحة، إنني لم أمان إلا من كلمة قوية في الكتب أصابتنى بها وصاصة كروية عند ملاصقتها لي» (١٦٠).

وفي ١٧ مارس، فإن حصن أبو قير، العجز عن الصمود أمام القوات الإنجليزية، يستسلم بحامية المؤلفة من مائة وتسعين رجلاً (١٦١). وفي اليوم التالي فقط، يصل مينو إلى الإسكندرية مع الجيش. وقد استغرق وصوله وقتاً أطول بكثير من الوقت الذي استغرقه وصول بوناپارت في عام ١٧٩٩ (وإن كان صحيحاً أن هذا الأخير قد جمع بشكل خاص الطواوير المتحركة التي كانت تتحرك بالفعل). ويتمتع القائد العام بعشرة آلاف رجل مع ألف وخمسمائة من الفرسان. ويستفيد الإنجليز من تفوق عددي طفيف ومن مواقع أقوى (لقد تحصنوا قرب المدينة بين المعينة والبحر)، لكن الفرنسيين لديهم سلاح فرسان مهم، وهو سلاح غير موجود من الناحية العملية لدى خصومهم.

مهرجة مكأنوب

يقترح رينيه ولانوس على مينو مهاجمة الأعداء بأسرع ما يمكن. بالرغم من عدم مؤاتاة الموقع (بالنسبة للفرنسيين). إن أي تأخر إضافي سوف يفيد الغزاة الجدد. ويوافق مينو ويلتزم اتباع خطة قائد الفرق. وكان على المعركة أن تحدث في ٢١ مارس. وكان على رينيه الذي يقود الجناح الأيمن أن يشن هجوماً رائفاً مع راكبي الجمال، بينما كان على

للهجوم الحقيقي أن يحدث بعد ذلك بوقت قليل اعتماداً على الجناح الأيسر الذي يقوده لانوس، والمقصود بالقلب الموزعة قيادته بين رامبون وديستان. ويتمثل الهدف في عزل الإنجليز عن البحر ونفخهم إلى بحيرة للعدية، وسوف تبدأ العمليات قبل الفجر سعيًا إلى تضليل الإنجليز فيما يتعلق بنوايا الفرنسيين.

ويبلغ زعيم بنوى سيدهن سميت بوصول مينو ويقراره عن الهجوم في ٢١ مارس ولا يصدق للسؤولون البريطانيون صحة المعلومة بالرغم من إلحاح العميد البحري على صحتها (١٦٢). إلا أنه يجري تعزيز بطاريات المدفعية الإنجليزية.

ويبدأ الهجوم الفرنسي في الساعة الثالثة صباحاً. ويبدو هجوم رينيه جد ضعيف في نظر الإنجليز (١٦٣). وهم يتهيئون لتلقى الصدمة الرئيسية على ميمنتهم. ويشن لانوس هجومه، لكن طوابيره تصطدم بتحصينات أقوى من المتوقع وتتحرف عن الاتجاهات المحددة لها. وفي سعيه إلى ضمها وإلى ردها إلى محور الهجوم المناسب، يعرض لانوس نفسه لتهديد الإنجليز ويسقط جريحاً جرحاً قاتلاً. ويؤدي اختفاؤه إلى تردد معين وإلى قدر من الارتباك في الهجوم الفرنسي.

ومنذ الساعات الأولى للمواجهة، والتي سوف تأخذ اسم معركة كانوب، لا تفلح الخطة بالشكل المتوقع. فرينيه لم يهاجم بقوة بالغة أما لانوس فقد كان شديد الحذر. لكن ما هو أساسي لا يخفى. فبعد فشل المناورة، تبقى لمينو إمكانية الانسحاب إلى الخط الذي انطلق منه وتجريب الحظ بعد ذلك بوقت قليل. وهذا هو ما يقترحه عليه رينيه. لكن مينو لا يريد الإصغاء؛ فما دام مساعده الرائفون قد فشلوا، فإنه سوف يثبت لهم قيمته العسكرية الحقيقية. وإسراكاً منه لواقع أن الفرنسيين أكثر تفوقاً في الفرسان خاصة، فإنه يريد محاولة تكرار هجوم الفرسان الذي كان موداً قد شنه في أبو قير والذي كان كيلبرمان قد شنه في مارينجو. وهو يأمر الجنرال رواز الذي يقود سلاح الفرسان بمهاجمة الإنجليز. ويختار رواز المنعول لهذا الأمر الأخرق والذي يتمثل في مهاجمة التحصينات البريطانية على طول الجبهة. وهو يطلب تكرار الأمر على مسامحه ويقول لرجاله: «إنهم يرسلوننا إلى للحد والموت، فلنتقدم» (١٦٤).

وبأكثر مما فعلت الهجمات الفرنسية السابقة له مباشرة، فإن هذا الهجوم بشكل سابق لهجوم ناي في ووترلو. وفي لحظة من اللحظات يتم كسر الخطوط الإنجليزية ويسقط أبيركردهي بنوره جريحاً جرحاً قاتلاً. لكن الجهود البريطانيين ينجحون في إعادة

تشكيل وحيلتهم وفي إهانة الفرنسيين بنيران المدفعية وديران للشاه. وكما في
ووترلو، فإن أية معضلة فرنسية لم تتبع للفرسان. والواقع أن رينيه مع رجاله لم يكن قد
ولكب التحرك. ولكي يبدو موافقاً، فإنه يؤكد أن ميتو لم يخطره بتحريك الفرسان، وهو أمر
يبدو مرجحاً لأن أمر الهجوم الصائر إلى الفرسان كان غير متوقع تماماً. ويهلك رولز وجزء
من ضباطه في هذا الهجوم البطولي. ويواصل ميتو إصدار الأوامر إلى رجاله بالقتال
بالرغم من تحذيرات رينيه من عدم جدوى مواصلة العمليات. ولا تنسحب القوات
الفرنسية إلى الإسكندرية إلا في العاشرة والنصف صباحاً. ولا يطاردها الإنجليز المنهكون
والذين تموزهم الذخيرة.

١ وإذا كانت الخسائر مرتفعة، نهر إلى وجل وجزء كبير من الفرسان (بلغ عدد قتلى
الإنجليز مائتين وتسعة وثلاثين بينما بلغ عدد جرحاهم ألفاً ومائتين وخمسين) (١٦٥)، فإن
الأضرار المعنوية تعتبر أهم بكثير. لقد لقد الفرنسيون فرصة تعمير الجيش البريطاني
قبل أن يعززه الأنجلو - هنود والعثمانيون. وبالنسبة لكثيرين فإن المعركة قد انتهت ومن
العبث مواصلة القتال. والقناعة العليا أكثر انقساماً عن ذي قبل. وكل واحد يلتقي على كامل
الآخرين للمسؤولية عن الهزيمة. لعمري ودامبو وديستان يتهمون رينيه بالتسبب فيها
بملاء إرادته وذلك بتخلفه عن دعم هجوم الفرسان. ورينيه وناماس وانصارهما يندبون
بالتقصير الإجرامي الذي أبداه القائد العام. ويجمع الجنود بين مطامع البريطانيين ويدون أن
هناك ما هو صحيح في كل هذه اللزائم، وهو ما لا يعتبر مشجعاً إلهة بالنسبة
لستقبلهم... (١٦٦)

أزمة القيادة

يمكن تسمية الفترة التي تلت معركة كانوب بأنها فترة عدم الحسم، إن رينيه
وناماس ينعوان إلى تركيز القوات الفرنسية انطلاقاً من القاهرة سعياً إلى التمكن من
مواجهة الجيش الإنجليزي مرة أخرى في ساحة المعركة. ولا مفر من أن يتوقف على نتيجة
هذا الصدام الجديد قرار الاحتفاظ بمصر أو الجلاء عنها (١٦٧). أما بيليار، الذي بقي في
القاهرة، فإن عزيمته تضمد من جراء الروايات للحزنة لما حدث في معركة كانوب والتي
يبلغها بها وفاته. خلاصة ناماس ورينيه، ومن جراء غياب تعليمات من ميتو، وهو يأمر
بالجلاء عن الحى الأبدوى ويحشد جميع السكان الفرنسيين في القلعة، ثم إنه يكتب إلى
مراد بك أن يرسل إليه واحداً من البكوات يملك صلاحيات كاملة لإجراء مفاوضات شاملة

تالية (١٦٨). ومشروعه هو ترك القاهرة والانضمام إلى ميتو في الإسكندرية مع جميع قواته، بحيث يصبح مراد آنذاك ضامناً للوجود الفرنسي. «عندما يهبط مراد، سيدي الجندل، سيكون بالإمكان، إذا ما قررتم إصدار الأمر إلينا بالخروج بجميع إمكاناتنا، أقول، سيكون بالإمكان السماح له بالوجود في الجزيرة، قلناً للقاهرة ولجمل مصر العليا نهاية من الفرنسيين خلال غيابهم وسيكون بالإمكان إجباره بهذا النوع من الثقة التي سوف نهيئها تجاهه على أن يمثل ولياً لتعهداته، وعلى أن يعمل، إن لم يكن على الاتحاد معنا في القتال، فعلى الأقل على صون وتأمين وصول الإمدادات العثمانية» (١٦٩).

وفي هذا الوضع الحرج، يتكرر بأن بونتا هارت لم يتوحد في اللامسي في عقد مجلس حربية وفي إقرار خطة موزوسيه... وهو يخبره من جهة أخرى بأن جيش الصدر الأعظم في طريقه إلى اجتياز سيناء. والمشروع الذي يقترحه هو الجلاء عن كل شرقي النلتا وتركيز قواته لمقاتلة الجيش العثماني الذي لا يمثل خطراً رئيسياً (١٧٠).

والواقع أن ميتو كان قد فقد كل ثقة في قادة لفرقة الذين يعتبرهم خونة، وهو لا يرى خلاصاً إلا في وصول جانتوم مع التعزيزات، وهو ما لا يبدو أن يكون وهماً علاوة على ذلك، حيث إن عند القوات التي غطرت طولون ليس غير الفين وخمسمائة رجل (١٧١)، ويبدو له أن الحل الوحيد إنما يتمثل في كسب الوقت بالتحصن في القاهرة والإسكندرية. اللامسي الرئيسى هو الحفاظ على وجود فرنسي في مصر إلى حين عقد الصلح الشامل، وتخلفه الأوهام من جهة أخرى فيما يتعلق بوضع الإنجليز، وهو على ثقة من أن الروس يزحفون ضد الأتراك وأن السلطان قد أرسل أوامر بالامتناع في هذه الولايات عن تقديم مواد غذائية إلى الإنجليز (١٧٢).

وبعد ذلك بوقت قصير، يبلغ بيليار بـ «إننا على عتبة خاتمة كبرى، لأن السيد بيت واللورد جرانثيل قد عزلا من الوزارة [...] وهو ما يدل على الصلح بوضوح. وترقباً لذلك [...] نلجأ عن أنفسكم إلى قصي مدى ضد العثمانية، على فرض أنهم سوف يهجمونكم، وهو ما أشك فيه تماماً» (١٧٣).

سقوط وشيخ

إن ما يدعّم أوهام ميتو هو مواقف الجيش الإنجليزي. وتمثل معركة كانوب أول نجاح بريطاني كبير للجيش الإنجليزي منذ عقود. لكن الجيش يعاني من مشكلات إمداد ضخمة ويأمل سيدي سميت في أن يقبل الفرنسيون في التفاوض على الصلح.

اتفاق الحريش. ومنذ ٢٣ مارس، وبفضل هذه، يسمى العميد البحري إلى هذه المفاوضات. لكن مينو يرد بعدم الموافقة.

وفي ٢٥ مارس، يصل القابولان باشا مع ستة آلاف رجل من الجيش العثماني. ويمثل ذلك تعزيزاً ملحوظاً بالنسبة للإنجليز. وفي ٢٩ مارس، يجد مينو سميت محاولته الرامية إلى إجراء مفاوضات. ويرافقه إسحق بك الذي يعمل ترجماناً للقابولان باشا. وتشل هذه المحاولة كسابقتها. وفي اليوم نفسه، يموت أهيركرومبي متأثراً بجراحه. ويخلفه الجنرال هتشنسون. ووضعه الشخصى صعب: فنجاح الحملة كله سوف ينسب إلى سلكه، لكن الانتكاسات للمعنة سوف تعزى إليه هو. وهو يرى أنه لا يملك إمكانيات الاستيلاء على الإسكندرية. ويرفض اقتراح نصائح مينو سميت الذي يحثه على التقدم بأسرع ما يمكن سعياً إلى استثمار الكسب المحرز في كانوب (١٧٤). ويستأنف العميد البحري علاقاته مع زعماء الليبو ويتوصل إلى الدخول في اتصال مع مراد بك. ويطلب إليه التزعم للملوكى الكبير المتوسط له لدى العثمانيين وتهيئة انضواء مملكتك. والحال أن ابن عبد الله باشا، للسمى في النصوص الإنجليزية بعدد أقل للمفري، هو الذى يلعب دور الوسيط (١٧٥).

ولا يرسل هتشنسون قواته للاستيلاء على رشيد إلا في ٨ أبريل، أى بعد أسبوعين من معركة كانوب ١ وعلى الفور، يجلو عن المدينة فوجبير الذى يقود رشيد مع قواته الهزيلة، لكن الإنجليز يخشون من مواجهة مقاومة قوية ويتراجعون في التقدم. وبعد يومين من المناوشات، يستولون على المدينة. أما حصن جوليان الذى تغلغ منه حامية صغيرة فعرف بصمد عشرة أيام أخرى. وينسحب فوجبير إلى الرحمانية. وهو يطلب الحصول على تعزيزات لتأمين للواصلات بين الإسكندرية والقاهرة ولتضع الإنجليز من دخول الدلتا. ويرسل مينو إليه لاجرانج مع فرقة رينيه. ومنذ تلك اللحظة فإن هذا الأخير يجد نفسه مجبراً من أية قيادة، الأمر الذى يدفعه إلى مضاعفة هجومه العلنى على الأسلوب الذى يدير به مينو الأمور. ويكلف القائد العام من الترفيات إلى رتب قائد الفرقة وقائد اللواء، مسعياً إلى التمتع برجال مخلصين له.

دوال الحظوة من سلك سلك

في أواسط أبريل ١٨٠١، نجد أن الجيش الفرنسي، بعيداً عن أن يحقق تركناً ما، قد أصبح موزعاً إلى ثلاث مجموعات: خمسة آلاف مع بيليار في القاهرة لمواجهة العثمانيين،

أربعة آلاف مع لاجوانج في الرحمانية في مواجهة الجانب الرئيسي من الجيش الإنجليزي، وستة آلاف مع مينو للدفاع عن الإسكندرية، وعدة حاميات مبعثرة في الدلتا. لكن هتشنسون ليس مريضاً على شن هجوم مباشر على الفرنسيين. وفي ١٢ أبريل، يأمر بكسر السدود بين بحيرة للمعدة (ذات الماء المالح) وبحيرة مريوط للجلجلة القديمة. وتلك كارثة بيئية، فالإسكندرية تحاط عملياً بالمياه فهما هنا كورديون ساحلي خسيق (١٧٦). والحال أن الهيئة الطبيعية تجعل من الصعب على لاجوانج وبيليار الاتصال بالإسكندرية.

والر الاستيلاء على رشيد، نجد أن العثمانيين، بالرغم من بيان من السلطان يمدح علماً هاماً لسكان مصر، إنما يكتفون للعامة السيرة على حساب المسيحيين. ويحتج سينس سميت على ذلك ويتدخل في الأمر بقوة. والحال أن القاهودلان باشا الذي لم يغفر للعميد البحري المسؤولية من معركة هيليوپوليس، إنما يطلب محبه. ويقبل ذلك هتشنسون، الذي لا يتردد من جهة نشاط العميد البحري الزائد عن الحد. وعندئذ يتعين على بطل عكا البقاء بلا حراك على متن سفينته (١٧٧)، مما يستثير عظيم أسف الجيش الإنجليزي الذي يتمتع في صفوه بشعبية بالغة. ويجري إعادة كل جماعته من المهاجرين الفرنسيين إلى القسطنطينية.

تواكب الأخطاء

عندئذ يعلم الإنجليز والفرنسيون على حد سواء بموت مراد بك الذي حدث نحو ٢٠ أبريل ١٨٠١ (١٧٨). وكان الزعيم المملوكي قد بدأ هبوط الوادي مع رجاله، لكن وباء الطاعون الذي يعمت سحاراً في البلد قد أرغمه على تفريق مملوكيه، الذين أصبحوا إصاباً قاسية بالوباء (١٧٩). ومع دخوله في اتصال مع الإنجليز، فإنه قد أحترم احتراماً دقيقاً تعهده تجاه الفرنسيين بتقديمه لهم إمدادات غذائية من مصر العليا. ويجتمع البكوات ويعينون عثمان بك الطنبورجي زعيماً لهم. وهو يوافق الهبوط سعياً إلى التمكن من توحيد جميع الحملات المسلحة للمملوكية وربما لمراقبة تطور الوضع في مصر السفلى (١٨٠).

وفي بداية شهر مايو، يزحف الأنجلو - عثمانيون على الرحمانية في طابورين موحدى الاتجاه. حيث يأخذ الطابور الأول طريق دمنهور، بينما يأخذ الطابور الثاني، والأكثر أهمية، للساو الحادي للنيل انطلاقاً من رشيد. ويصممهم اسطول نهري جد قوى

وعلى الطريق، ينضم إليهم مهدي معتمد السابق الذي يقاتل إن مراد بك هو الذي أرسله (١٨١). ويواصل لاجوائج سد طريق القاهرة، لكنه يجد نفسه الآن في دونية عديدة سائرة. وهو لا يمكنه أن يأمل إلا في حركة هجومية من جانب مينو تأخذ خصومه من الخلف. والحال أن الانتشار الأنجلو - عثمانى، الذي لا يتبع مبدأ التركيز الأولى بأكثر مما يتبعه الفرنسيون، إنما ينقسم الآن إلى أربعة أجزاء: أبو قير، دمنهور، رشيد، بلبيس (جيش الصبر الأعظم). ويمكن القول إن الفرنسيين والإنجليز والعثمانيين يراكمون الأخطاء الاستراتيجية دون قلق ما، لكن هتشنسون، بالرغم من حذره وتمهله، وهو ما يؤدي إلى تعرضه لانتقادات عنيفة كتلك التي يتعرض لها مينو، لا يتردد في تحريك رجاله. لما مينو، بعد أن كان قد وعد لاجرنج بالتحرك، فإنه لا يتحرك من الإسكندرية.

وكان بيلهار قد تلقى من مينو تعليمات بتدمير الجيش العثماني في مصر السفلى؛ فعلى أية حال، لم يتمكن ألف وخمسمائة فرنسي من إلحاق الهزيمة بعشرين ألف عثمانى في جبل طابور ١٩ (١٨٢) لكن بيلهار يرى أنه لو سحب من القاهرة الجزء الأكبر من حاميتها للتصدي للعثمانيين، فإن المدينة سوف تصبح بلا دفاع وهو يرى أن العثمانيين سوف يكون بوسعهم الاستيلاء عليها عن طريق هجوم عسكري جسور تدعمه انتفاضة محلية. ومن ثم فإن سحب من المواقع الفرنسية في الدلتا حاميات فرنسية هزيلة ويترك إمكاناته للدفاع عن عاصمة مصر. وهو يبرر قراره عن طريق مجلس حربي يجمع كبار الضباط، الأمر الذي يسمح له بدعوة مينو إلى ضرورة تحقيق الانسحاب في صفوف القيادة (١٨٢). وفي تلك الأثناء، يواصل استنفاذه في الإسكندرية للوشاية له بمسلك مينو، إن هذا الأخير يبدو أنه يذوى معاملة بيلهار بالطريقة التي عامل بها رينيه ولاماس (١٨٤).

ويحاول لاسكاريس اللعب بورقة المعلم يعقوب ويقترح على مينو تعيين القبطي رسولا خاصا للفرنسيين مكلفا بالتوفيق بين الفصائل المملوكية للختلفة وزيادة عدد عملاء فرنسا في مصر العليا (١٨٥). وهو يرجع إلى فكرته الخاصة بتشكيل حزب مصري يضمن للمصالح الفرنسية، ويكلف حول يعقوب وسليمان بك، الحامي السابق للقبطي (١٨٦).

لما عثمان بك فإن يجدد إمارات صلاته للإنجليز والفرنسيين. ويصرح له هؤلاء الآخرون بالدخول مع رجاله إلى مصر الوسطى (١٨٧). ولما يعقوب، الذي نظم شبكة استخبارات فعالة، فهو يبلغ الفرنسيين بأن الطليعة العثمانية التي تمركزت في بلبيس

تتألف من ستة آلاف رجل، بينما يتمركز المصدر الأعظم في الصالحية مع الفين من الانكشارية (١٨٨).

والحال أن بيليار، إذ يرى نفسه مهدداً في أن واحد بحشد القوات الإنجليزية التي تحتل المسار المحاذي للنيل عن طريق الرحمانية والقوات العثمانية التي تصل من شرق الدلتا، فإنه يطلب إلى مينو التحرك مع قواته إلى القاهرة لكي يواجه جيوش الأعداء في الأرض المنبسطة للكشوفة (١٨٩). إلا أن الوقت كان قد تأخر كثيراً، فإمام الضغط الأنجلو - عثماني، يترك لاجوانج الرحمانية وينسحب إلى القاهرة (١٠ مايو ١٨٠١). ويصبح الجيش الفرنسي منقسماً بشكل نهائي إلى جزئين، وتتأثر بذلك تأثراً ملحوظاً معنويات القوات (١٩٠).

توسط بيليار الغريب

تتضاعف الانتقانات والتهجمات ضد مينو. ويعبر هذا الأخير أن يبدو نشيطاً، وذلك بقدر ما أن الإنجليز، المعتادين تماماً على الحرب الصيكولوجية دائماً، قد روجوا إشاعة مفادها أن رينيه قد عين للقو من جانب القنصل الأول قائداً للجيش، بينما لا يحتفظ مينو إلا بإدارة مصر (١٩١). ويأمر مينو بإلقاء القبض بالقوة المسلحة على رينيه وداماس وبور وحدة ضباط ومسؤولين آخرين عن الجيش (١٣ - ١٤ مايو ١٨٠١). ويجري احتجازهم على سفن سوف تبحر إلى فرنسا وبعد ذلك بعدة أيام، يغادرون مصر نهائياً. وسوف يعترض الأسطول الإنجليزي سبيل السفينة التي تقل داماس وبور، وسيتم أسر الرجلين، في حين أن رينيه سوف يصل دون مشكلات إلى فرنسا، وهو ما سوف يسمح له بمواصلة حملته ضد مينو.

والحال أن التعزيزات التي جاء بها لاجرانج إنما تسمح لبيليار بمحاولة القيام بحملة ضد الطليعة العثمانية في بلبيس، ويمكنه الآن توحيده نحو ستة آلاف رجل مع ترك حامية مهمة في القاهرة، وهو يخرج في ١٥ مايو ويقابل العدو في اليوم التالي، ويختفى العثمانيون ويتجنبون أية معركة حاسمة. وهكذا فعندما رأيت أن العدو قد عازم على عدم الرحيل عن مصر، وأنتى إن حاربت بهذه الطريقة، فسوف استخدم جزءاً من ذخيرة مدفعيتي، وسوف أخسر رجالاً دون أن يتسنى لي انتزاع أي مكسب، ولأنني كنت أخشى من أنني لو تقدمت فإن كل سلاح الفرسان التركي سوف يستدير من وراء ظهرى لمحاولة

عمل شيء في القاهرة، ولأنني كنت أعتقد أن الإنجليز سوف يواصلون زحفهم، لقد قررت العودة إلى القاهرة للعمل على سد طريق النيل ووضع بطارية قوية قاهرة على وقف الأسطول النهري الإنجليزي وتهيئة الجيزة للدفاع (١٩٢).

والحال أن تردد بيليار الغريب، والذي تبرده جزئياً لكرى متلوبة سلاح الفرسان العثماني خلال معركة هيليوپوليس، إنما يؤدي إلى ضياع آخر فرصة لضرب القوات الأنجلو - عثمانية بالتتالي. والواقع أنه لا الضباط ولا الجنود يريدون القتال. إن الخلاف في صفوف القيادة العليا وعجز مينو الواضح من توجيه العمليات العسكرية قد جرد الجنود، الذين تهاوت عزيمتهم بعد هيليوپوليس، من أي إصرار على مواجهة معركة جديدة.

ويجد هذا الانهيار للجيش الفرنسي تعبوراً جديداً عنه في استسلام كتيبة واكبي الجمال. لالكتيبة - التي شاركت الإسكندرية في ١٤ مايو تحت قيادة قائد اللواء كافالبييه للبحث عن بعض اللؤلؤ للمدينة المحاصرة - واللؤلؤة من خمسماية رجل تصانف الجيش الإنجليزي قرب الرحمانية (١٧ مايو ١٨٠١). وهي تتخذ تشكيل استعداد للقتال وتستفيد للحظة من تفوق عددي واضح على القوات التي تواجهها. ولذا فصيحاً إلى كسب الوقت، يبدأ الضباط الإنجليز مفاوضات ولا يجدون، لعظم نهضتهم، غير صعوبة قليلة في التوصل إلى استسلام الفرنسيين. ويكفي طمأننتهم على العودة القوية إلى فرنسا وحرية التصرف في ممتلكاتهم الشخصية حتى يستسلموا (١٩٣).

الجيش الإنجليزي في القاهرة من المستعمرات

وهذه النجاحات الأخيرة ترفع معنويات الإنجليز والعثمانيين إلى أعلى مستوى، أما البدو فإنهم - طموحاً منهم إلى للمشاركة في عمليات سلب ونهب مريحة، ينضمون بأعداد كبيرة إلى جيش الصمد الأعظم. ويؤرد إبراهيم بك هتشنسون ليطلب إليه تأمين حماية إنجليز له (١٩٤). وفي ٣٠ مايو، ينضم إليه عثمان بك مع مملوك مصر العليا، المرتابين هم أيضاً على الدرام في النوايا العثمانية (١٩٥). ويجتمع المسؤولون الإنجليز والعثمانيون لتحديد بقية العمليات، بينما يجلو الفرنسيون عن مواقعهم الأخيرة في الدلتا. وبالنظر إلى عدم تمكنهم من الذهاب إلى الإسكندرية أو القاهرة، فإنهم يركبون البحر متجهين إلى لورديا. ويسر الإنجليز بعضهم لكن آخرين ينجحون في الوصول إلى موانئ إيطاليا.

وعلى خلاف رجل كهوتاهارت تعلماً، فإن هتشنسون يتقدم ببطء بالغ ويحتاج إلى خمسة أسابيع لقطع المسافة من الرحمانية إلى القاهرة، وهو يخشى دائماً من عودة

هجومية للفرنسيين ويحرص على تأمين تنسيق تحركات جيشه مع تحركات جيش
الصدر الأعظم. كما أنه ينتظر انتهاء من القوة الأنجلو - هندية.

وكان ويتشارد ويليسلي، الذي أصبح مركيزاً في عام ١٧٩٩، قد هدد إلى الجنرال
بيرد وإلى أخيه هو، آرثر، ويلينجتون فيما بعد، بقيادة هذه الحملة (الأنجلو - هندية).
لكن آرثر ويليسلي يضطر إلى ترك الجيش لمرضه، وسوف تتاح له فرص أخرى لكي يلعب
في الحرب ضد الفرنسيين، وبما أنه لا وجود هناك لخطر بحري، فإن السفن تتحرك بشكل
معتدل ولا يتسنى تحقيق أي اجتماع لها لا في مخا ولا في جده. ولا يتم تركيز السفن إلا
في القصير في لوانل مايو ١٨٠١، مع وصول وحدة أخرى من القوات قائمة من مستعمرة
الكاب الجديدة. وهذا الجيش القادم من المستعمرات والذي يتكلف من نحو سبعة آلاف رجل
يحتل الصحراء مكثفاً للاحتياطات لتجنب المعاناة من العطش، ثم يهبط بهبط وادي النيل
وإن يصل إلى مصر قسلي إلا بعد أن يكون كل شيء قد انتهى (١٩٦). وعلى الرغم من أن
الجيش الأنجلو - هندي لم يشارك مباشرة في المعارك، فإنه قد لعب دوراً بالغ الأهمية في
إثراء ممالك مصر العليا من البقاء في الحلف الفرنسي. كما سمح أيضاً بممارسة ضغط
بالغ القوة على شريف مكة. بل إن الإنجليز، الذين يعتبرونه قريباً من الفرنسيين، قد
فكروا في إحدى اللحظات في تجريده من وظائفه (١٩٧).

استسلام القاهرة

خلال أشهر عدم النشاط العسكري هذه، لا يحاول مينو الخروج من الإسكندرية،
ويتولى بيليار دون اقتناع فعلي تعزيز تحصينات القاهرة. والآن يصيب الطاعون مصر
كلها. وما يدعو للاستغراب أنه يبدو أن الساحل، الأكثر تعرضاً للإصابة بالأوبئة في العادة
هو الذي أقلت من الإصابة، بما يشكل مكسباً عظيماً للإنجليز. وعدد الوفيات كبير للغاية،
ويرى الجبرتي أن ثلث سكان مصر العليا قد سقطوا ضحية لوباء الطاعون (١٩٨). أما
فرنسيو القاهرة، بالرغم من الاحتياطات المتخذة، فإنهم يتكبدون خسائر جسيمة من جراء
الوباء، إن أكثر من خمسمائة من بينهم يموتون في غضون أسابيع قليلة (١٩٩). ويجر
تلاشى النظام الفرنسي إلى عودة هجومية من جانب العدو الذين يقطعون الطرق ويكثفون
عمليات السلب والنهب على حساب الفلاحين. أما مهدي بمنهور السابق، فقد نجح من
جهته في دفع القرى المجاورة للقاهرة إلى الثورة (٢٠٠).

وفي القاهرة، يكتف استيف التصريحات المطمئنة والكتابة الموجهة إلى الديوان.

والحال أن المشايخ، الذين لا يمكن تضليلهم فيما يتعلق بجسامة الوضع، إنما يردون بالعزف على الوتر نفسه (٢٠١). ويلتزم سكان المدينة للهوى. وكان الفرنسيون قد كثلوا التهديدات والجميع يتذكرون القمع الرهيب الذي شهدته العام الماضي.

ولا يهتمك الأنجلو - عثمانيون في حصار حقيقي لعاصمة مصر، ولا يتركزون قرب المدينة إلا في أواسط يونيو ١٨٠١. وهم يكتفون بفرض حظر على الدخول والخروج تتزايد صرامته كما يكتفون بترقب ود فعل من جانب الفرنسيين. ويواصل مينو إمداد هؤلاء الأخيرين بالأنباء الزائفة، «إن جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً من الجنود الفرنسيين قد استولى على أيرلندا، وفي البحر المتوسط يتحرك جيش بحري فرنسي وأسباني»، ويواصل توجيه نصائح لم يطبقها قط مثل: «فلتطاردوا الإنجليز والعثمانيين؛ ولا تنسوا لهم لحظة الالتقاط لنفوسهم» (٢٠٢). وهذه المعلومات التي تحصل في ١٥ يونيو يجرى الاحتفال بها على الفور بإضاعات ليلية، الأمر الذي يدفع الإنجليز إلى تصور أن الفرنسيين يتهبئون للخروج في غارة (٢٠٣). ويقلو استيف رسالة من مينو في فيوان يجمع كل أعيان القاهرة ويعلن لهم «إننا قد تلقينا رسالة من [...] مينو و [...] هو يبلغنا بأن فخامته قد تلقى أنباء من القنصل الأول بوناپارت تقول إنه قد احتل جزءاً كبيراً من بلاد الإنجليز وأن أسطولاً فرنسياً وأسبانياً يوجد جهة الأرخبيل [بحر إيجة].

ولا يرى الجبرتي في ذلك إلا أحلام يقظة وأوهاماً وكاذباً تهدف إلى تهينة السكان (٢٠٤). وهو ليس الوحيد الذي يرى ذلك، فبيليار يكتب تلك حيلة إلى مينو: «ما عاد من الجائز للمروء، سيدي الجنرال، أن ينخدع فيما يتعلق بوضعنا. فلما اعتقد أن انتظار وصول عون إنما هو من قبيل التعلل بالأوهام، إن الحكومة التي تعلم منذ ثمانية أشهر بحملة الإنجليز، كان يوسعها أن ترسل إلينا مثل هذا العون لو كان ذلك ممكناً [...]». وحملة أيرلندا التي تتحدث عنها في رسالتك لا بد لها من أن تهدد أي أمل في رؤية أسطول مشترك في البحر المتوسط.

ويمكن الصمود حتى للنهاية في الإسكندرية فسوف يجرى الجلاء بعد ذلك مباشرة إلى أوديا. أما في القاهرة، خلافاً لذلك، «فلننا إننا ما أجبرنا على إلقاء السلاح، فكيف يمكن اجتياز الطريق من القاهرة إلى البحر، ونحن محاطون بجيش من الفرسان الأتراك، الذين لا نمة لهم ولا شفقة عندهم، ومعرضون للهجوم من جانب العرب، ومطوفون بجميع سكان البلد الذين هم أعداء أيضاً» (٢٠٥).

إن الإنجليز لا يحوزون إمكانات لقامين انضباط للعثمانيين، ويرى بيليار أن «جيش

مصر قد أدى واجبه. ولما كانت الأحداث، فإنه سوف يكسب دائماً احترام العظم. لمدة ثلاثة أعوام، قتل نون أن يتزود بمجنتين جدد، ومدة ثلاثة أشهر ونصف الشهر، لحبط عدو وأمر العدد وإتاج للحكومة وقتاً لإرسال نون. وإذا كانت لم تفعل ذلك فهذا يرجع إلى أنها لم تتمكن من ذلك. لأن الهنرال بوناپارت، الذي يعتبر هذا الجيش أسرتة، كان سيفعل كل ما هو ممكن من أجله، لو كان ذلك بمقدوره (٢٠٥).

ومكناً، وحتى قبل استئناف المعارك، كان قائد القاهرة مستعداً للاستسلام بشروط الحصول على شروط قريبة من شروط اتفاق العريش. وهو يعقد مجلساً حربياً بحضور جميع الضباط القادة. وهو يشير أمامهم إلى المخاطر (الفعالية) التي يمثلها الطاعون، وإلى حالة الإمدادات (التي لا تكفي إلا لأسابيع قليلة)، وإلى صعوبة الدفاع عن محيط بهذه الدرجة من الانسحاب استناداً إلى قوات جد قليلة كهذه، وإلى خطر نشوب انتفاضة شعبية، وهو يميل إلى الاستسلام. أمّا لاجرانج، نصير مينو، فهو لا يعترف بحق التفاوض مع الإنجليز، نون تصريح من القائد العام؛ وأما دونزيلو، للتخصص في شؤون مصر العليا، فهو يقترح الانسحاب وشن حرب ممالك ضد الإنجليز؛ ولما دهاه قائد القلعة، فإنه يدعو إلى المقاومة حتى آخر رجل. لكن جميع الضباط الآخرين أنصار للاستسلام؛ إن الفرنسيين أقل عدداً بكثير مما في وقت معركة هيلينوبوليس وأصلوهم الآن أوروبيون جدد التنظيم؛ ومن ثم فإن مواصلة القتال لن تخفي شيئاً. والنتيجة مقروءة سلفاً (٢٠٦). ولا يشير أحد إلى واقع أن هناك ما يكفي من الإمدادات حتى بداية فيضان النيل (٢٠٧)، والذي كان يمكن له أن يجعل وضع الأنجلو - عثمانيين مزعزجاً. وعلاوة على ذلك فإن ذلك كان هو ما يفضاه هنريسنون أكثر من أي شيء آخر (٢٠٨).

وفي ٢٢ يونيو ١٨٠١، يرسل بيليار ومولا لطلب وقف للقتال. وتتم الاستجابة إلى هذا الطلب على الفور. وتبدأ المفاوضات في اليوم التالي. ويتم توقيع الاتفاق في ٢٧ يونيو. وتعتبر الشروط مماثلة لشروط اتفاق العريش إلا فيما يتعلق بالآجال، (إلا يجب للجلاء أن يبدأ) بعد عشرة أيام من التصديق على الاتفاق؛ وفيما يتعلق بالشروط المالية؛ فقد رفض العثمانيون بكرة تقديم أية مساهمة. وهم يتذكرون التضحيات المالية الجسيمة التي فرضها اتفاق العريش وليسوا على استعداد لتكرار المعاناة. وفي المقابل، فإن الفرنسيين، خاصة العلماء، يمكنهم أن يأخذوا معهم كل الأشياء التي تخصهم، وسوف يجري إرسال ضابط فرنسي إلى مينو لكي يقترح على حامية الإسكندرية الاستقالة من معاملة معاملة.

وفي الأيام التالية لذلك، يجري الإفراج عن جميع الأسرى المسلمين، ويرفرف العلم

العثماني على أسوار القاهرة. أما بهان العفو العام الذي نص عليه اتفاق الاستسلام فيجوز
إحصائه على الجدران. ويمكن لجميع المصريين الراغبين في الرحيل مع الفرنسيين أن
يفعلوا ذلك. ويلقى استيف خطبة وداع أو بالأحرى خطبة وعد بلفاء جديد أمام أعضاء
الديوان.

«أيها المشايخ والعلماء. لا تسمحوا للشكوك أن تخامركم. لفرانكا لا يمكن إلا أن
يكون مؤقتاً. إنني على أتم ثقة من ذلك. ذلك أن بولتينا لن تفشلا، مع الوقت، في إعادة
نسج أواصر الصداقة القديمة التي وجدت بينهما والباب العالي العثماني، الذي وصل إلى
شفير القهارة التي حفرها له الإنجليز، حيث لن يرى بعد لغيراً في استسلام مصر الذي أراد
الفرنسيون غير الرغبة الواضحة التي أبدوها في الاتحاد مع من أجل إزلال كهرياء ونزوات
أولئك الخاصين للكون البحار وتجارة العالم» (٢٠٩).

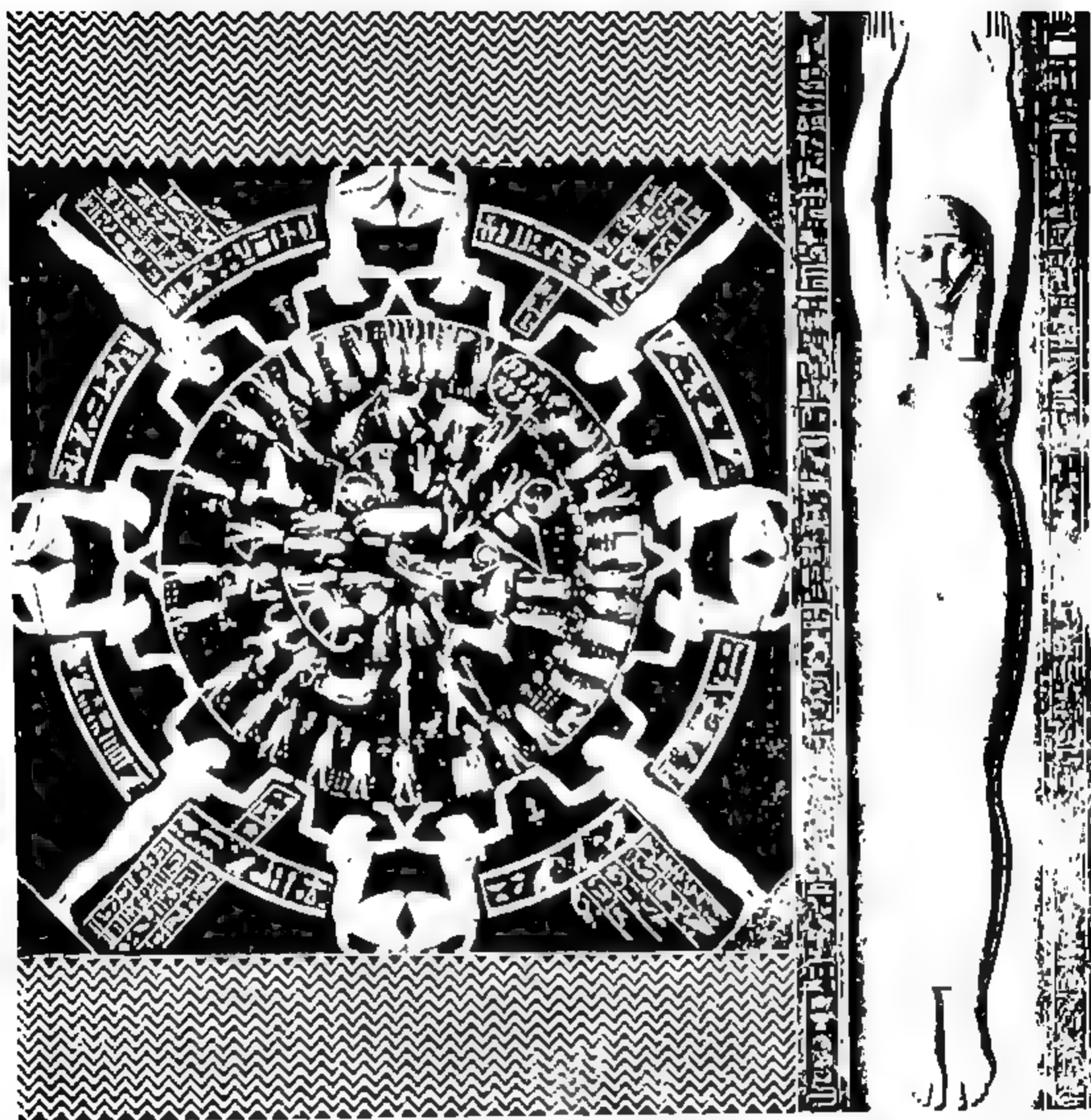
ويلاحظ الجبرتي أننا إزاء نسج من البلاغات والأقوال الاحتياطية التي لا تائدة من
إبرادها (٢١٠). وفي اليوم نفسه، يزور المشايخ الصدر الأعظم الذي يصحب إبراهيم بك
والحقوقي وعمر مكرم.

وفي تلك الأثناء، يخرج الجيش الفرنسي جنمان كليهر من مقبرته. وتقام مراسم
جنائزية تأبينية جديدة بينما يبكي الجنود أمام تابوت قائدهم المحبوب. ومرفوع يعبثونه إلى
فرنسا، لكن ناهولبون سوف يتركه على مدار عهد، معتقلاً سياسياً حقيقياً في قهو قلعة
إيف بمرسيليا (٢١١) وسوف يتعين الانتظار إلى حين عودة الملكية حتى يتم دفن الجنرال
الأكزاسي في ستراسبور.

وفي ١٤ يوليو، يغادر الفرنسيون القاهرة ويهبطون النيل حتى رشيد، وينتهي
ركوب السلن الإنجليزية في ٩ أغسطس ١٨٠١. ويرتفع عدد الراحلين إلى ثلاثة عشر ألف
وستمائة رجل من بينهم تسعة آلاف جندي عامل، أما الباقون فإنهم يتكلمون من المرضى
ومن موظفين مدنيين ومن مصريين (٢١٢).

مشروع استئصال جسر

كان لاسكاريس ومحقوب ومارسيل قد فكروا في إحدى اللحظات في تطبيق مشروع
بوتزيلو الخاص بالانسحاب إلى القوية، إلا أنه بما أن أحداً لا يريد السير معهم، فإنهم

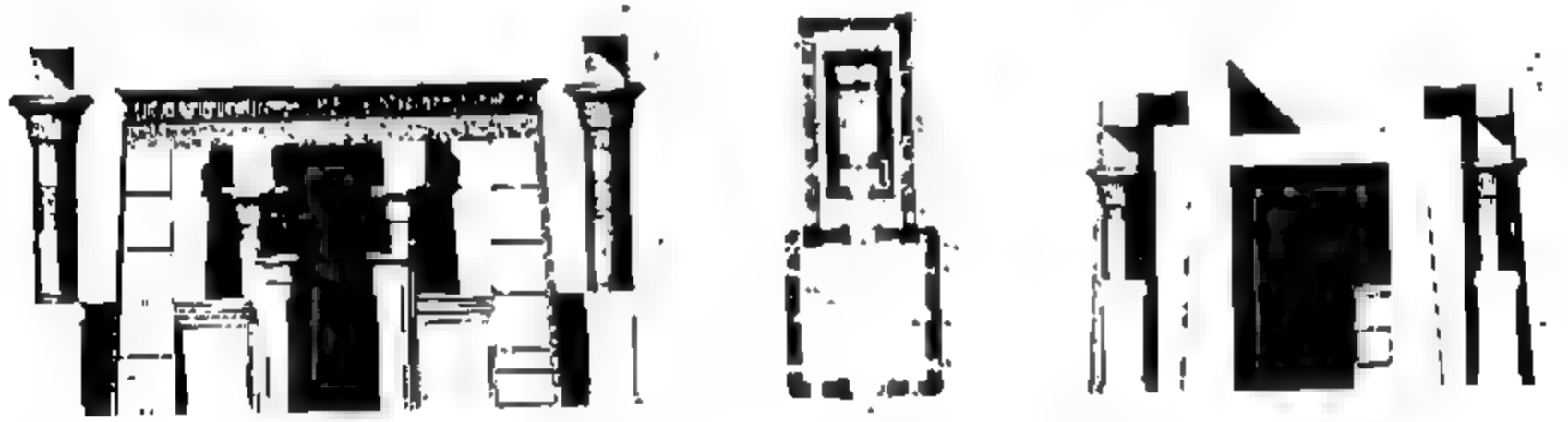
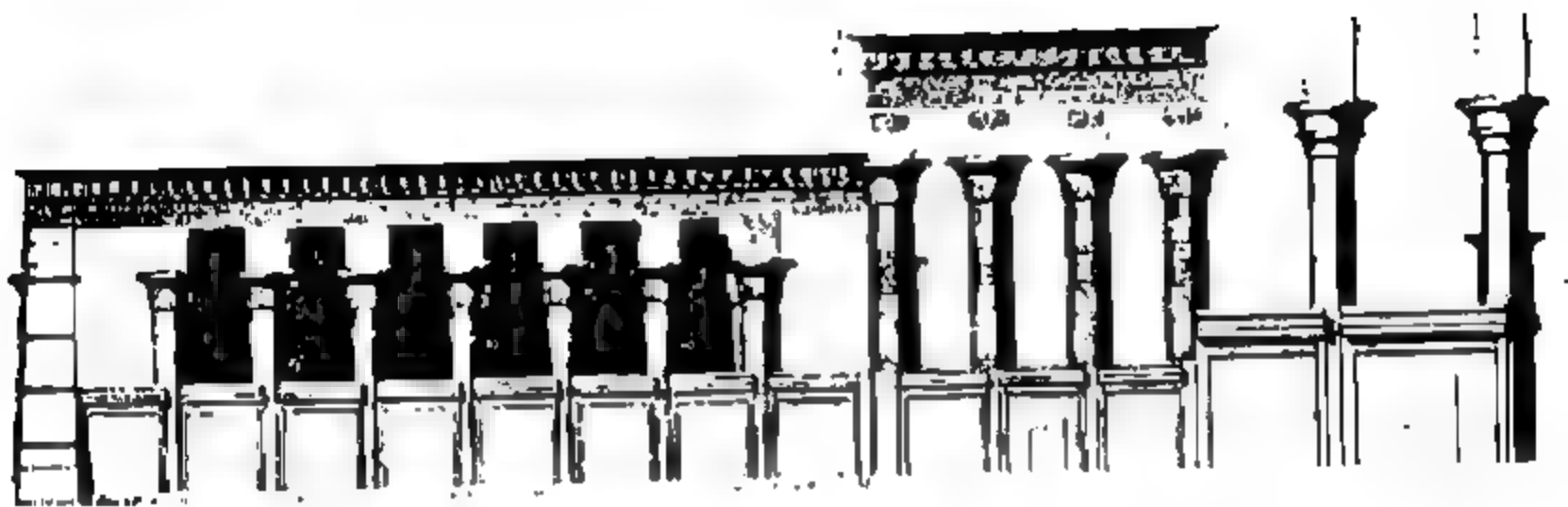




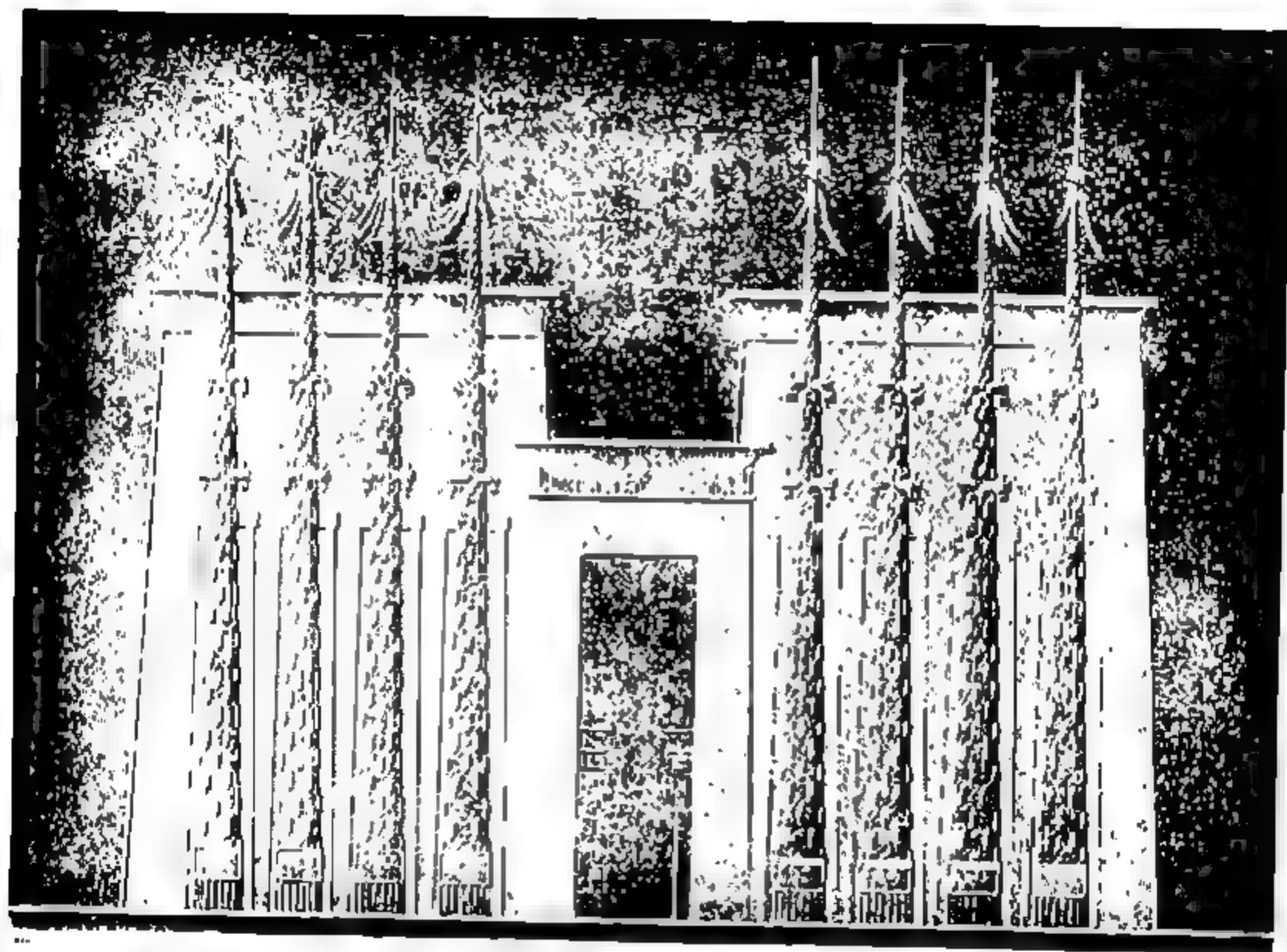
(۱) رسم لوتیرتر. ۷۴ - معبد ارمنت.



(ب) رسم لوكاس.



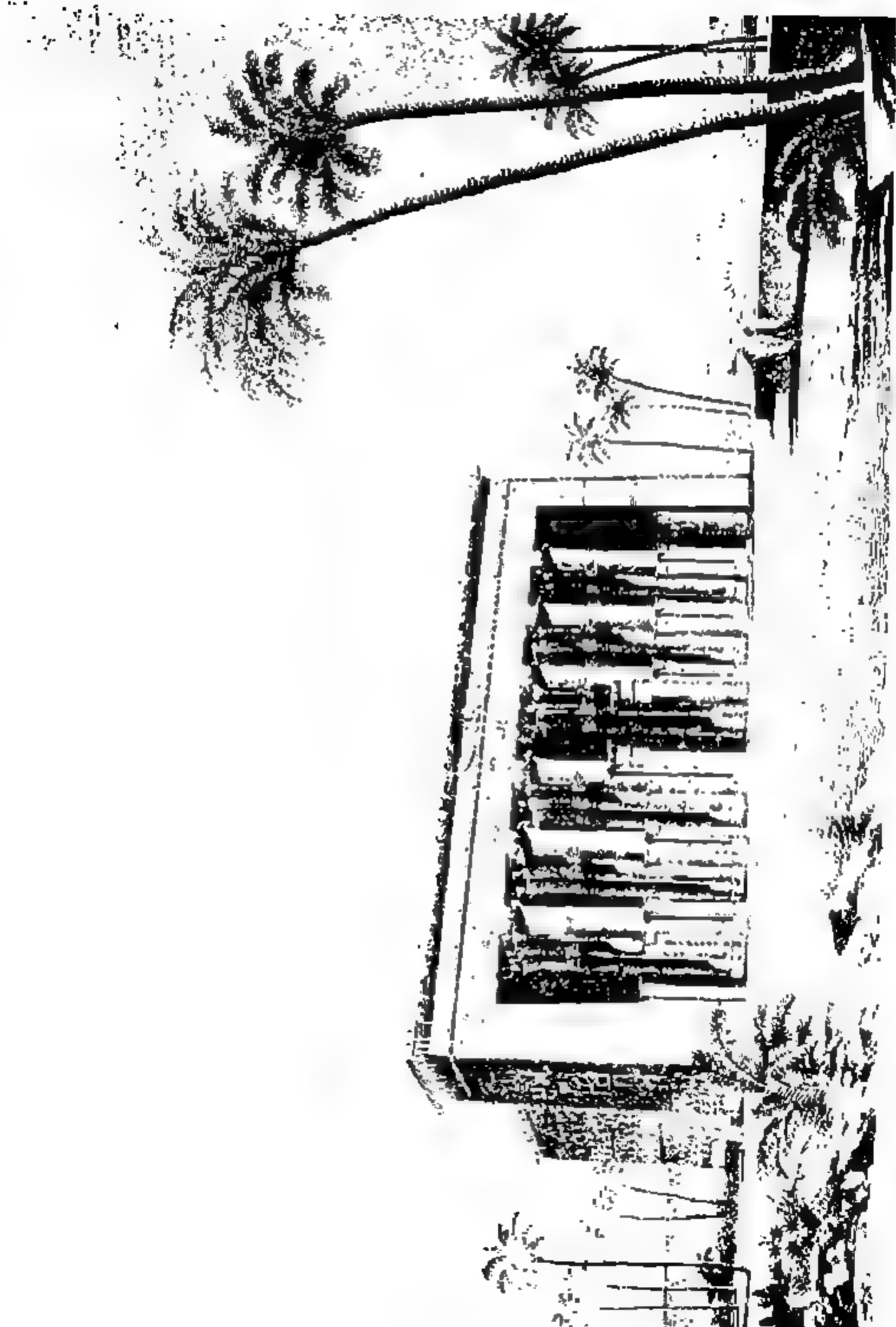
٧٥ - مخطط ومقطع ودرج معبد ارمنت.

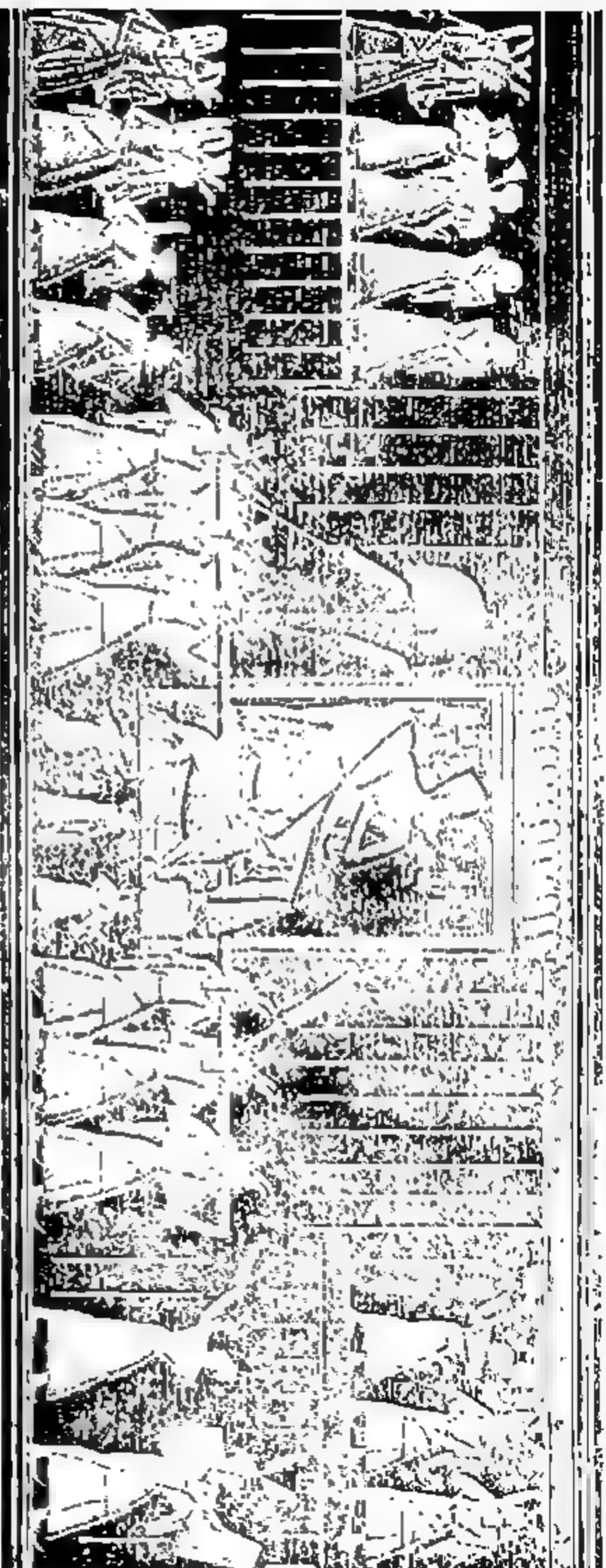


۷۶ - نقش معبد خرنس.



٧٧ - معبد قاو الكبير. رسم حالة الأماكن.





٧٩ - الملك محمود لا على كرسيه.



٨٠ - الملك محمولاً على كرسيه. استرجاع حديث.

يضاطرون إلى السير مع بقية الجيش. ويقوم العثمانيون بجهود لدى المعلم حتى يدخل في خدمتهم (٢١٣). لكنه يرفض. وهو يركب البحر مع لاسكاريس على متن السفينة ولا يبالس، في ١٠ أغسطس ١٨٠١.

ومنذ إقلاع السفينة، أجرى لبطانها، جوزيف لاموندو، لقاءات عديدة مع المعلم، حيث كان لاسكاريس يقوم بالترجمة. وسوف يلخص لاموندو لرؤسائه مناقشاته على النحو التالي:

قال لي إنه يرى أن أية حكومة مهما كانت إنما تعتبر أفضل لبلاده من حكومة الأتراك، وأنه قد انضم إلى الفرنسيين انطلاقاً من الرغبة الوطنية في تخفيف معاناة مواطنيه [...] وأنه ما زال يتطلع بالاستماع بالدول الأوروبية إلى عمل الخير لبلاده وهو يتصور أن رحلته إلى فرنسا سوف تؤدي إلى هذه النتيجة. وقد دفعه الفرنسيون إلى تصور أن بلده يتمتع بقوة مهيمنة في أوروبا؛ وهو لا يكاد يعلم شيئاً عن قوة إنجلترا البحرية العظمى، على أنه يدرك أن غيبته في أن يرى مصر متمتعة بالاستقلال، هي رغبة محكوم عليها بالفشل، في غياب تأييد من جانب بريطانيا العظمى. وقد قال لي صديقه لاسكاريس [...] الذي تولى ترجمة كلامه في محادثتنا، أن الجنرال المعلم يعطوب هو رئيس مفوضية حصلت على سلطات أو هنت من جانب أميان مصر بهدف التفاوض مع دول أوروبا على استقلال هذا البلد (٢١٤).

ويعتوب يعطوب بعد أيام قليلة من وكوب البحر، وقد جرى اتهام العثمانيين بأنهم قد أسوا لهم له قبل رحيله (٢١٥). ولا تخمد هزيمة لاسكاريس من جراء ذلك ويكتب مذكرة موجهة إلى الإنجليز يستعيد فيها الأفكار الرئيسية التي تم الإعراب عنها في المباحثات على إنجلترا حماية مصر مستقلة تشتري المنتجات الإنجليزية، فهي ليست غير قوة زبانية. وسوف تكون الحكومة الجديدة سلطة مستقلة، تستند إلى سكان معتزلين بالانتماء للمستعبد. وسوف تتحرك في اتجاه استعادة الحضارة في مصر. ويقترح لاسكاريس إشراك المفوضية المصرية في المفاوضات العامة التي لا بد وأن تكللوا بإنهاء الأعمال الحربية للاعتلاف الثاني.

ويشير مجمل الأفكار للمستخدمة إلى أن واضعها هو الفارس المالطي السابق، لمعجمها هو معجم الاتصال السياسي لأواخر القرن الثامن عشر، ومفهوم الحضارة هو الذي قدم التبرير الأيديولوجي لعمل بوناپارت في مصر. ومن الصعب للغاية معرفة ما

كان بوسع يعقوب أن يكرر فيه بالفعل، والضمير اللهم هو أنه للمرة الأولى يعزى معجم سياسي غربي إلى أحد الشرقيين. وسوف يتعين الانتظار عشرين سنة حتى يستخدم محمد علي بدوره مفهوم الحضارة.

ويأمل لاسكارس في أن يهتدى على اتصال بالإنجليز. والواقع أن تقرير القبطان اسمونتن سوف يهجم لأكثر من قرن من الزمان في الأرشيفات الإنجليزية حتى اللحظة التي سوف يكتشفه فيها جورج دوان وينشره في عام ١٩٢٤. وسوف يرجع لاسكارس إلى الشرق بمشاريع جديدة لاستقلال لبنان ثم لاستقلال العالم العربي.

والحال أن مشروع استقلال مصر، الذي يعاد اكتشافه في اللحظة التي سوف تؤكد فيها مصر بصوت عالٍ وبقوة إرادتها في التحرر من السيطرة البريطانية، سوف تعتبره مدرسة باكملها من المؤرخين المصريين أول نص قومي مصري عظيم. لكننا لا نعرف بدقة كائية فكر المعلم يعقوب لكي نعرف ما كانت عليه نواياه الحقيقية.

الدواعي الأولى بين العثمانيين والبريطانيين

في التو والحال، وبرغم العفو الذي أعلنته العثمانيون (٢١٦) وضمنته اتفاق القاهرة، يجرى إعدام بعض المتعاونين مع الفرنسيين. لكن غضب السلطات ينصب بشكل خاص على النساء اللاتي اعتدن التردد على الفرنسيين. ويتم الحكم على عدد من بينهن بعقوبة الإعدام، ومن بين هذا العدد ابنة الشيخ البكري. ولم يفعل والدها شيئاً من أجل الدفاع عنها. والحق أنه يهتم بالأحرى ببقاء حياته هو. وهو الشيخ الوحيد الذي يتحول إلى ضحية للملاحظات. ويجري تجريده على التوالي من منصب نظيب الأشراف الذي يتم تسليمه إلى عمر مكرم، ثم من منصب رئيس الطريقة البكرية. ويتم مصابرة جزء كبير من ثروته ويضطر إلى أن يحيا حياة متواضعة ومنزوية (٢١٧).

ويجرى رد للسحبيين واليهود إلى وضعيتهم السابقة، لكن السلطات العثمانية تسارع إلى التذكير بأنهم تحت حمايتها. ومنذ دخول الجنود العثمانيين، وبالرغم من أوامر النهي المتكررة المصاحبة عن قتلهم، فإنهم يعمدون لرضى علاقات الحماية على تجار وحرفيين القاهرة في مقابل مبلغ مالي، وبسرعة بالغة يتم إبراك أن هناك خطر استئناف الحرب بين المماليك والعثمانيين وأن عودة النظام العام لن تتم بسهولة (٢١٨).

ويتدخل الإنجليز بالفعل لحساب المالك. فالقادة العثمانيون يطردون الصمت نفيسة من بيتها ولا يتمكن إبراهيم بك من العودة إلى بيته، وبناءً على نصيحة من روزيتي، يطلب متشنسون أن يسترد البكوات جميع حقوقهم ومناصبهم. ويَقْدِمُ إليه فرعان بهذا المعنى. كما يحصل من المالك على تعهد يدفع الخزينة للباب العالي بصورة منتظمة وباحترام سلطة الباشا العثماني. ويتفاخر الإنجليز بهذه المناجاة كارتاء، لكن للمالك الذين لا يثقون في العثمانيين، محقين في ذلك كما سوف يثبت ذلك المستقبل، يفضلون الإقامة في جزيرة الروضة بدلاً من الإقامة في القاهرة (٢١٩).

تلطط جيلو

ترتلع معنويات حامية الإسكندرية عندما تصل إلى الميناء في ٩ يونيو الحارقة «هيليوبوليس» التي انفصلت عن أسطول جانتوم. ويجري إبلاغ الحامية بقرب وصول تعزيزات. والواقع أنه يجري إبلاغ مينو بفشل الإنزال في درته وبعودة الأسطول إلى طولون (٢٢٠). لكنه، لعدم استعداده للتخلي عن لوهامه، يرفض استقبال الرسول الذي بعث به بيليار لنقل نص اتفاق الاستسلام. وهو يندد بالاتفاق في أمره اليومي: «إن القوات الفرنسية التي كانت في القاهرة والحصون المجاورة قد استسلمت دون قتال، ودون أن تتعرض المدينة والحصون للهجوم بشكل منتظم. وأنا لا أجهز لنفسي إصدار أي حكم على هذا الحدث، الذي وبما كان أقرب حدث يحدث في الحرب، لأنني أخشى أن أحيط بالعار رجالاً أثبتوا استحقاقهم لأن يسموا فرنسيين وجمهوريين» (٢٢١).

وفي رسالته إلى بوناپارت، يبدو أكثر عنفاً بكثير: «إن للؤامرة التي حيكت منذ رحيلك من أجل الجلاء عن مصر قد وصلت أخيراً إلى ثروتها [...] ويبدو أن جزءاً من معاهدة العرش قد استخدم كأساس لهذا الاتفاق الاستسلامي. وكان بوسع الجميع أن يعرفوا أنك وأنا أعلن ذلك مرة أخرى أمام العالم بأسره إنني قد أهديت احتجاجي على معاهدة العرش للشعبة تلك، وهي ثمرة الكراهية التي كان بعض الأفراد يكتنونها للجمهورية ولذلك الذي هو اليوم رئيسها الأول بكل ما يستحقه من تشريف، وهي أيضاً ثمرة انعدام الأخلاق وعشق للنال الذي وراد نقله بأمان إلى فرنسا، إنني أحتج أيضاً على اتفاق القاهرة الاستسلامي وسوف أدافع من نفسي حتى نهاية النهاية داخل أسوار الإسكندرية، إنني أعرف الموت لكنني لا أعرف الاستسلام».

وهو يعرف أن بوسعه الصمود أيضاً لنحو ثلاثة أشهر ويطلب إرسال ما بين خمس

وعشرين وثلاثين سفينة حربية كبيرة وما بين عشرة آلاف وأثنى عشر ألف رجل حتى يتسنى له استرداد مصر (٢٢٢). ولا تملك فرنسا إمكانات إرسال كل هذه القوات إليه، أما هو فمن المؤكد أنه لا يملك قدرات قيامتها.

والحال أن تشدد مهنو سوف يقوده إلى مسلك غريب على أقل تقدير تجاه أعضاء لجنة العلوم والفنون. هؤلاء، الذين كانوا قد أمروا بالفعل من رغبتهم في مغامرة مصر خلال فترة قيادة كليبر، يجدون للقائد العام طلبهم منذ بداية حصار الإسكندرية. فليس هناك ما يمكنهم عمله في مدينة محاصرة. وبالنسبة لمهنو، فإن هذا الطلب إنما ينطوي على اعتراف بالفشل النهائي ويقترب الجلاء عن مصر. وهو يبدو معانياً، وإذا كان يقبل مبدأ رحيلهم، فإنه يفعل ذلك لكي يحظر عليهم أن يأخذوا معهم مجموعاتهم الشخصية وأبحاثهم، فالمجموعات تخص الحكومة لا الأفراد، أما الأبحاث، فإنها إن وقعت في أيدي الأعداء، سوف يكون بإمكانها تزويدهم بالكار مفيدة عن البلد، من الناحية السياسية أو العسكرية أو المالية (٢٢٣).

ومن ثم فإن العلماء يرحلون على متن السفينة الخراعية «لوانوا»، تاركين في مستودع بالإسكندرية أشياءهم. ولما كان مهنو لا يريد التصديق على اتفاق القاهرة، فإنه يرفض السماح بتطبيقاته على العلماء (وهو أمر كان ممكناً تماماً). ولذا فإن لا يجرى إشعار الإنجليز بخروج السفينة. لكن قبطان السفينة يستسلم على الفور لأول سفينة بريطانية يقابلها دون أن يحاول الهرب. وبما أن العلماء ليسوا مدرجين في اتفاق استسلام، فإن اللورد كيث يعيدهم إلى الإسكندرية، فهو لا يستطيع قبول خروج أي كان من موقع محاصر (١٥ يوليو ١٨٠١). ولدى عودتهم إلى المهلاء، فإن مهنو، الذي يريد معاقبتهم على استسلامهم للإنجليز، يحظر عليهم النزول إلى البر ويأمرهم بالعودة إلى الأسطول الإنجليزي. لكن كيث، بالرغم من تدخل سيدي صبيح لحساب الفرنسيين، يرفض مرة أخرى السماح لهم بالممرور (٢٢٤). وفي هذه المرة، يلزمهم مهنو بالبقاء على متن سفينتهم لمدة أيام قبل أن يسمح لهم بالنزول إلى البر حيث يجرى ضمهم إلى الحرس الوطني.

الشكايات الإنجليزية

ليست الشكايات حكرًا على الفرنسيين. فعلى الأسطول البريطاني، يتهم بعض الضباط حلفاء اللورد كيث بالإثراء من وراء شراء تجهيزات للبحرية. وبعض قباطنة

السفن يأخذون عليه عدم الاهتمام بتزويد أطقم السفن بالأغذية للطازجة وانه مسئول بحسب إعماله عن انتشار مرض الإسهل بين البحارة. وتتلر حرب عصابات إدارية حقيقية ضد الأميرال الذي يضطر إلى رفع الأمر إلى لندن لتبرئة ساحته. وسوف تبرى لجان التحقيق التالية ساحة اللورد كيث، لكن هذه المتاعب تؤثر على معنويات الأسطول، وعلى البر، تدشب الأزمة بين أنصار سيدنى سميث وأنصار هتشنسون. إن للمستشرق هامر - مدير المعهد البحرى - يظل فى الجيش ويلعب دور مترجم رسمى، لكنه يكتب رسائل إلى عدد من الأساقفة، يوجه فيها اللوم إلى مسلك هتشنسون، الذى كان قد طرد سيدنى سميث فى ثور سنة شائنة، والذى يتخاضى عن إبتزازات العثمانيين الكثيرة التى تتم على حساب للمسيحيين والمصريين عموماً. ويجرى نقل هذه الرسائل إلى اللورد إيلجين الذى يجد متعة فى إرسالها إلى هتشنسون وفى اتهام المعهد البحرى بالتمتع بشبكة تجسس شخصية. وعلى اللورد بطرد الجنرال للمستشرق للمترجم ويجد نفسه مضطراً إلى استخدام الترجمات الإسطنبوليين الذين جاوروا مع الجيش العثمانى (٢٢٦). ويكتب المعهد البحرى عدة رسائل احتجاج على المعاملة للشائنة التى تعرض لها صديقه وبشكل اعم، على خطر تلويث شرف الجيش البريطانى بالسكوت على مسلك الجيش العثمانى الشائن (٢٢٧).

وإذا كانت هذه المشاهدات بين الإنجليز لا تنحط إلى مستوى أزمة فى القبلية، بالرغم من عنف الشتائم للتهابلية، فإن ذلك إنما يرجع إلى أن الجيش الإنجليزى، خلافاً للجيش الفرنسى، يسير من نجاح إلى نجاح.

استسلام الإسكندرية

ترمز عودة هتشنسون من القاهرة مع رجاله إلى استئناك المعارك حول الإسكندرية وفى يومى ١٧ و ١٨ أغسطس ١٨٠١، يشن الأنجلو - عثمانيون هجوماً ثورياً سعيًا إلى إحكام وضع الحصار الذى اتخلوه فى الحرب الإسكندرية. وفى ٢١ أغسطس، يستولون على حصن مريوط، وهو ما يفتح الطريق أمامهم إلى ميناء الإسكندرية القديم. وفى ٢٥ أغسطس، يستأنفون الهجوم ويردون للواقع الفرنسية إلى السور للمضى بـ "برج العرب" وفى هذه المعارك، خسر الفرنسيون ما بين ثمانمائة وتسعمائة رجل.

ويصبح وضعهم حرجاً بشكل متزايد ويخشى كثيرون من أن يطبق مينو نيته فى

الموت في الإسكندرية مع رجاله، ويعارض نابونشيك وديستان أي اعتناء على مينو، ويرى
هريان ورامبون وسونجيس أنه يجب التخلص منه. وهم يوافقون رامبون لمطالبته بالتفاوض
مع الإنجليز. وبعد انتصار مينو على هذه الضيافة الجديدة فإنه يقبل عهدا للتفاوض. وفي
٢٦ أغسطس يطالب بهدنة مدتها ثلاثة أيام ويحصل عليها.

وفي ٢٨ أغسطس، انعقد مجلس حربي. ويتصلح الصبح المقصود تأييدا للاستسلام
بالعند الكبير للمرضى (خاصة المرضى بالإسقيوط)، ويخطر انتشار الطاعون ويضعف
الإمدادات. ويجري إلقاء المسؤولية من الفشل النهائي على استسلام القاهرة الذي سمح
للعمر بتركيز جميع إمكاناته ضد الإسكندرية. ويحاول مينو كسب الوقت ويحصل على
تمديد طفيف للهدنة. لكن هتشنسون يرفض تقديم مهلات جديدة ويستسلم مينو في ٣٠
أغسطس ١٨٠١. وكان يوسعه أن يقاوم لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى، لكن ذلك ما
كان يمكن أن يعرّضه إلا بمعاناة لا طائل من ورائها. ومنذ عدة أشهر يتمتع الإنجليز بوضع
بالغ القوة في مصر بحيث لا يمكنهم احتمال بقاء الفرنسيين فيها في إطار للمفاوضات
الجارية في لندن. وفي هذه المفاوضات، كانت بريطانيا العظمى قد جعلت من الجلاء عن
مصر للشرط الأساسي للصلح وسوف يتم توقيع الاتفاقات المبدئية على الصلح في لندن
في أول أكتوبر ١٨٠١، أي قبل ثمان ساعات من وصول نيا إرسال مينو لمندوب إلى
الجيش الإنجليزي (٢٢٨).

ومن للشكوك فيه، حتى في حالة انتصار فرنسي على القوات الإنجليزية، أن حكومة
لندن كانت ستقبل تحول مصر إلى مستعمرة فرنسية. والتفوق للبحري البريطاني كاف
لثمين حصار دائم لمصر وكان من شأن الجيش الفرنسي أن يتعرض لضعف مستمر، على
الأقل من جراء معارك ١٨٠١ ووباء الطاعون المريع. والحال أن الإصرار الإنجليزي على
عدم قبول مصر فرنسية سوف يتجلى بوضوح في السنوات التالية، فاستئناف الحرب في
عام ١٨٠٣ سوف يكون سببه هو رفض البريطاني للجلاء عن مقلعة بالرغم من التعهد
للتخذ في معاهدة كمينان؛ فالخوف الذي تستثيره مشاريع بوناپارت الشرقية كاف، وسوف
يكون كافيا، لأن يلهم قرارا على هذه الدرجة من الخطورة. والحال أن الاحتفاظ بمصر
وعقد الصلح مع بريطانيا العظمى إنما يشكلان هدفين يستبعد أحدهما الآخر (٢٢٩).

الغوصة إلى فرنسا

يقبل الإنجليز أن يعود إلى فرنسا عشرة آلاف وخمسمائة وثمانية جنود وستمائة

وسنة وثمانون مئياً استسلموا في الإسكندرية. وخلال حملة ١٨٠١، قوتلخ الخسائر الفرنسية إلى ثلاثة آلاف قتيل ماتوا متأثرين بجراحهم في المعارك المختلفة وألف وخمسمائة ملتحق من المرض وثلاثة آلاف وخمسمائة أسير (٢٢٠). ومن ثم فإننا نقتل بعينين من القرايين الجماعية التي لسمتها الإمبراطورية (الفرنسية) في أعوامها الأخيرة.

ثم إن متشكسون بتعرض من اللصو هاملتون، يطلب تسليم مجموعات العلماء إليه والتي لا تعتبر أشياء شخصية، وتترتب على ذلك مراسلات نشطة مع مينو الذي يتنازل في نهاية الأمر بعد أن كان قد جرب عدة تعاميلات (على سبيل المثال تصوير حجر رشيد على أنه تذكرو لإقامته في مصر) (٢٢١). ويحتج العلماء. بل إن بعضاً منهم سوف يصل بهم الأمر إلى حد التفكير في الذهاب لاسترداد أوراقهم في إنجلترا نفسها. وعندئذ يتخذ جيفروا سانت - هيلير قراراً قوياً ويرد على هاملتون الذي جاء ليطلب تسليم المجموعات: كلا، كلا، إننا لن ننصاع لهذا، إن جيتكم لن يدخل الموقع إلا في غضون يومين. حسناً، من الآن إلى ذلك للعين ستكون التوضحية كلية. وسوف يكون بوسعكم بعدئذ أن تتصرفوا في أشخاصنا كما يحلو لكم. كلا، أقول لك، إنه لن يبال إن مثل هذا التسليم قد أمكن له أن يتم، إننا سوف نغرق بأنفسنا ثرواتنا. إنكم تصمون إلى أن ينكركم التاريخ. حسناً إن التاريخ يمكن أن ينكركم بالفعل، لقد كان بوسعكم أيضاً أن تصرفوا مكتبة في الإسكندرية، (٢٢٢).

وهذه الكلمات تهز هاملتون الذي يقنع متشكسون بالتراجع فيما يتعلق بالأبحاث وعدم التمسك إلا بالتحف الفنية كحجر رشيد.

ويتم جلاء الجيش من الإسكندرية في سبتمبر وأكتوبر ١٨٠١. ومينو، الذي أصيب بدوره بالطاعون والذي يسهر لارى على علاجه، هو آخر الراحين. والحال أن وصول آلاف من الرجال، كثيرين منهم مصابون بالطاعون، إنما يرفع السلطات الصحية على تعبئة لجميع الإمكانيات للتولقة في موانئ جنوب فرنسا. ومرة أخرى تقدم كفاءة نظام الحجر الصحي ألتها ولا يتجاوز الداء متاهر الحجر في الموانئ.

وفي باريس، يدرك بوناپارت أن الفصل النهائي للحملة إنما يرجع إلى خلاف الجنرالات. وهو يتردد في إنزال العقاب القاسي بسبب التوزع للتكافؤ للمسؤوليات عن الأزمة. وفي نهاية الأمر يصدر حكماً هاماً، إن جميع القادة المتورطين في الخلاف مقرهون من مورو، منلقس بوناپارت في الجيش، والذي يصل مجده إلى عتات السماء مع انتصار

موميليندين الحاسم. لكن رينيه يريد الثأر لنفسه وينشر مذكراته التي تعتبر مراقبة
لأعماله عنيفة ضد مينو. ويصدر الاتصال العام قراراً بحظر الكتب. ويقرر ديستان ورينيه
تسوية المسألة بالصلح ويتقاتلان في مبارزة في ١٥ مايو ١٨٠٢. ويلقى ديستان مصرعه،
الأمر الذي يستثير غضب بوناپارت. ولا يمكن السماح برؤية قلعة للفرق يتقاتلون في
مبارزات. ويتم نفي رينيه بصورة مؤقتة.

أما مينو، فسوف يحتفظ حتى موته، في ١٨١٠، بحظوة بوناپارت، فسوف يعهد
إليه هذا الأخير بوظائف إدارية مختلفة في إيطاليا مع الحذر تماماً من توليته مسئوليات
مسكرية حقيقية. ويوجه عام، فإن زمرة كليبر العسكرية (باماس، رينيه، بلهار
ومشايهم...) والتي يجري التوحيد بينها وزمرة موروسوف تستبعد من السلطة
الإمبراطورية. وسوف تدخل في خدمة إخوة وأصحاب بوناپارت، وفي خدمة موراً خاصة،
ولن تشارك في حروب الإمبراطورية إلا في جيوش الدول التي تنود في تلك فرنسا (٢٢٢).
وسوف يصل سافاري وفالو إلى أعلى للراتب، بعد أنهما كان ينتميان إلى حاشية ديزيه. أما
برتران، الذي اتخذ موقف العداء لتسلهم الإسكندرية، فسوف يكون الضابط الوحيد للقرب
إلى ناپوليون من بين الضباط الذين خاضوا معارك ١٨٠١.

ويحرص بوناپارت على اختتام الحملة ببيان يذكر بمطامحها للتمدين، ولقد تركوا
[الجنود] لمصر ذكريات لا تموت، لعلها تؤدي يوماً ما إلى بحث الفنون والمؤسسات
الاجتماعية هناك. والتاريخ، على أنه حال، لن يورد موارد النسيان، ما فعله الفرنسيون لنقل
حضارة ومعارف أوروبا إلى هناك. وسوف يروى بأية درجة من الانضباط حافظوا عليها
طوال تلك المسة ولعله سيكشف على ضياعها بوصفه نائبة لفسري للث بالجنس
البشري (٢٢٤).

حواشي الفصل الثامن

Mémoires de Reynier, pp. . 90 - 91 et *Journal de Reynier*, - ١
Vincennes, Mr. 571.

٢ - *Journal de Reynier* : « لم يكن في القاهرة بخير أربعة من ثلاثة الفرق، بمن فيهم
مينو، وكان عليهم أن يتحركوا على الزوايا الأربع لعربة الموتى، إلا أن مينو، لدى تحرك الطابور،
والتف بمفرده خلف العربة وعهد إلى قائد لواء الحمول محله في الزاوية الرابعة ».

B6 147 : rapport du général Friant sur l'évacuation de l'Égypte. Le- ٢
soulignement vient du manuscrit.

Courrier de l'Égypte, le 18 messidor an VIII. - ٤

Rapport de Friant. - ٥

Mémoires de Reynier, pp. .96 - 97. - ٦

John Keith à Mr. Tooke, le 27 juin 1800, BARROW, I, p. 393. - ٧

Texte non daté dans FO 78 30. - ٨

٩- في رسالة إلى القابونان باشا بتاريخ ٢٢ ثورميدور من العام الثامن (١٠ أغسطس
١٨٠٠)، يشير مينو إلى علاقته مع إسحق بك : « لقد تأملت كثيراً لأن الظروف لا تسمح لي
باستقبال إسحق بك الذي عرفته في الماضي والذي أكن له تقديراً خاصاً تماماً » (B 6 122).

١٠ - سوف يجرى تعيين سينسور سميت في ألمانيا. وسوف نجهده متورطاً في قضايا
مؤامرة كابونال وإعدام النوبق ميتجانين، كما أن القذيف رأيت قد سجن في عام ١٨٠٤، متهماً بنقل
كابونال وببشيجو إلى فرنسا وقد عثر عليه « منتحراً » في السجن في ٢٦ أكتوبر ١٨٠٥. انظر .

ويحمل قبره في بيبير لاشيز شاهدة لاتينية كتبها سيدني سميت تنتهي بما يلي : « إن
القذيف، وسط التنازعين والمعاملات الأكثر هولا من التنازعين، قد وجد في الصباح قتيلاً في
سريره، في سجن الهيكل، السجن الشهير باللغة الليبيين » (pp. 175 - 176). وبعد عام ١٨١٥،
سوف يلهم العميد البحري في فرنسا وسوف يحرك بالتحديد محفل هيكل مسونياً... وبحسب
علمي، فإن المؤرخين لم يهتموا بالذكريات التي تركتها، في حاشية القنصل الأول، نساتس
الإنجليز في مصر، والتدور الذي لعبه المهاجرون الملكيون فيها وواقع أننا نجد الأسماء نفسها في
المؤامرات التي عرفت في الفترة الأخيرة للقنصلية.

Rapport de Friant, soulignement dans le manuscrit. Voir aussi les- ١١
témoignages réunis par Georges RIGAULT, *Le général Abdallah Menou et
la dernière phase de l'expédition d'Égypte*, Paris, 1911, pp. 100 - 101. Dans

cet ouvrage, l'auteur a voulu réhabiliter Menou et a, en tout cas, remis un certain nombre de choses en place.

Journal de Reynier et rapport de Friant. B6 122, Menou à Damas, - ١٢
le 6 thermidor an VIII (25 juillet 1800).

١٣ - (B 6 49), Damas à Menou, ١٠ thermidor an VIII (٢٩ يوليو ١٨٠٠) :
« لقد تركت لحسن تقيدي اختيار الأوراق الخاصة للجنرال كليبر؛ واعتقد إنني سوف أكون مخالفاً
للتقاليد الرسمية وألجئني إن لم أسلمك جميع الأوراق التي من شأنها مساعدتك على الوقوف على
جميع الأحداث التي جرت بحسب ترتيبها الزمني وبأكبر قدر من التفاصيل خلال المدة التي كان
فيها الجنرال كليبر قائداً عاماً للجيش». وهو يحتفظ بالأوراق الأخرى، خاصة كراسات اليوميات
الشهيرة ذات النبرة الانتقائية الحادة لبرقيات الذي سوف يبحث عنها في مناسبات مختلفة في
ظل القنصلية والإمبراطورية لإعالمها. وقد نشرتها في كتاب «كليبر وبعثاته»...».

Ordre du jour du 12 messidor an VIII (1^{er} juillet 1800). - ١٤

Ordre du jour du 20 messidor an VIII (9 juillet 1800). - ١٥

١٦ - الأمر اليومي الصادر في ١٢ ثرميدور من العام الثامن (٢٠ أغسطس ١٨٠٠). لقد
جرى تحديد مجالات اختصاصات موظفي الخزائن المالية الرئاسيين في مخطوط تجميعي أصدره
استيف في ٢٠ ثرميدور من العام الثامن (١٧ سبتمبر ١٨٠٠).

١٧ - B 6 47, ١٤ ميسيدور من العام الثامن (٢ يوليو ١٨٠٠)، مذكرات واردة من حسين
القنصلي والمعلم لطف الله والمعلم يعقوب حول أسلوب حياة الأراغبي.

Ordre du jour du 21 messidor an VIII (10 juillet 1800). - ١٨

B6 47, Estève à Menou le 24 messidor an VIII (13 juillet 1800). - ١٩

PEYRUSSE, *Les finances de l'Égypte...*, p. 458. - ٢٠

Sur Lascaris et ses projets, voir AURLANT, *La vie du chevalier- ٢١*
Théodore de Lascaris, Paris, 1940, et mon article dans *les Cahiers de*
L'Orient no 7, "Le chevalier de Lascaris et les origines du Grand Jeu".

C'est ainsi que Reynier dans ses *Mémoires* cite in extenso l'un des- ٢٢
projets de Lascaris.

B6 47, Lepère à Menou, le 17 messidor an VIII (6 juillet 1800). - ٢٣

B6 47, *Observations sur l'administration des finances de l'Égypte.*- ٢٤
Comme l'auteur, ce travail s'appuie surtout sur sa connaissance de la
situation en Bahireh.

B6 50, Pagliano à Menou, le 2 fructidor an VIII (20 août 1800). - ٢٥

- Ordre du jour du 15 fructidor an VIII (2 septembre 1800). - ٢٦
- RIGAULT, pp. 121 122. - ٢٧
- Ordre du jour du 21 fructidor an VIII (8 septembre 1800). On- ٢٨
trouve en B6 53 plusieurs de ces notes confidentielles concernant
généralement la fiscalité rurale.
- ٢٩ - ٨٢٨ قرية من الفئة الأولى مع خيرية بالنسبة للمهاجرين حجمها ٢٥٠ قار: ٦٨٠ قرية
من الفئة الثانية مع خيرية حجمها ١٧٥ قار: ٧٢٥ قرية من الفئة الثالثة مع خيرية حجمها ٧٥
قار. وحيثما يوجد عدة مهاجرين، فإن السداد سوف يكون جماعياً.
- Ordre du jour du 5 fructidor an VIII (23 août 1800). - ٣٠
- Ordre du jour du 20 fructidor an VIII (7 septembre 1800). - ٣١
- Ordre du jour du 3 fructidor an VIII (21 août 1800). - ٣٢
- Ordre du jour du 4 fructidor an VIII (22 août 1800). - ٣٣
- Menou à Le Père, le 6 fructidor an VIII (24 août 1800), - ٣٤
ROUSSEAU, p. 342.
- Ordre du jour du 14 fructidor an VIII (1^{er} septembre 1800). - ٣٥
- Ordre du jour du 16 fructidor an VIII (3 septembre 1800). - ٣٦
- Ordre du jour du 18 fructidor an VIII (5 septembre 1800). - ٣٧
- Ordre du jour du 20 fructidor an VIII (7 septembre 1800). - ٣٨
- Ordre du jour du 24 fructidor an VIII (11 septembre 1800). - ٣٩
- Ordre du jour du 7 vendémiaire an IX (29 septembre 1800). - ٤٠
- Ordre du jour du 16 vendémiaire an IX (8 octobre 1800). - ٤١
- Ordre du jour du 20 vendémiaire an IX (12 octobre 1800). - ٤٢
- Ordre du jour du 20 fructidor an VIII (7 septembre 1800). - ٤٣
- ٤٤ - الأمر اليومي الصادر في ٢٨ فروكتيدور من العام الثامن (١٥ سبتمبر ١٨٠٠).
ويوضح الأمر اليومي الصادر في ١٩ فيفيمبير من العام التاسع (١١ أكتوبر ١٨٠٠) أن هذا
يشمل الفرنسيين، بمن في ذلك العسكريين.
- RIGAULT, pp. 134 - 135. - ٤٥
- ٤٦ - Ordre du jour du 12 messidor an VIII (1^{re} juillet 1800). لا بد للجيش
من أن يشعر بأن الرواتب تشكل الجزء الأكثر أهمية في الدين؛ لكن القائد العلم يلتزم بأنه،
بمجرد دفع المرتبات بالكامل للجيش، سوف يصدر أوامر بالوفاء بجميع التعويضات ومتأخرات

الرواتب أو المستحقات المطلوبة الأخرى التي تنفذ شرعيته. 20 messidor an VIII (9 juillet 1800), du 25 messidor an VIII, du 4 thermidor an VIII (23 juillet 1800).

Ordres du jour du 7 messidor an VIII (26 juin 1800), du 9 - ٤٧ messidor (28 juin 1800).

Ordre du jour du 20 messidor an VIII (9 juillet 1800). - ٤٨

Ordre du jour du 2 thermidor an VIII (21 juillet 1800). - ٤٩

Ordres du jour du 11 messidor VIII (30 juin 1800), des 27 et 28 - ٥٠ thermidor an VIII (15 et 16 août 1800), du 9 fructidor an VIII (27 août 1800).

٥١ - Ordre du jour du 18 fructidor an VIII (5 septembre 1800). يضيف

النص : لقد وصلتني شكايات حول بعض التجاوزات المرتكبة في الحمامات العامة. إن عبداً من الرجال يريدون اقتياد نسائه إلى هناك والاستحمام معهن. وإلى جميع البلاد المتحضرة، تنال هذه الجريمة وتعالق القوانين عليها ، إنها مدمرة للأطب العامة؛ وبدون أطب عامة، لا يمكن أن يوجد مجتمع. وبناءً على ذلك، فإنني أصدر الأمر إلى جميع الجنرالات والقادة العسكريين أن كانت رتبهم بأن يمنحوا ويعاقبوا بأكبر قدر من القسوة، مرتكبي جميع الجرائم المذكورة أعلاه.

RIGAULT, pp. 170 - 172. - ٥٢

٥٣ - الجبرتي، جمادى الأولى ١٢١٥. كما في جميع فقرات القنوط الشديد والسلام، يكتفى كاتب الأخبار بإشارات قصيرة.

Histoire Scientifique, VIII, p. 82. - ٥٤

Courrier de l'Égypte, le 9 thermidor an VIII. - ٥٥

Histoire Scientifique, VIII, pp. 58 - 59. - ٥٦

Courrier de l'Égypte, 18 thermidor an VIII (6 août 1800). - ٥٧

Ordre du jour du 4 fructidor an VIII. - ٥٨

٥٩ - وفقاً للجبرتي، فإن هذا الرجل هو أخ زوجة الجنرال مينو.

٦٠ - B 6 60، بيان بتاريخ ٦ برومير من العام التاسع (٢٨ أكتوبر ١٨٠٠). على الرغم من أنه قد ترجم ورفض بالعربية، فإن الجبرتي لا يذكره.

٦١ - الجبرتي، ١٥ جمادى الآخرة ١٢١٥. لكنهم قد تناولوا على سبيل المثال شكايات مرفوعة إلى القاضي في الأمور الخيرية كما تشهد على تلك تلك الرسالة غير المؤرخة والمرسلة من الديوان إلى رئيسه حاكم الشرقية : «نهضكم، أيها الجنرال، أن الشكوى الصادرة من سكان قرية موصلا والتي يهتمون فيها إبراهيم عاشور، شيخ قرية بلفس، لم تصل إلينا بعد، وأنه إذا كان حكم

محكمة القاضي الذي وافقت إليه هذه الشكوى غير مرفوض للشاكين، فإننا سوف ننظر في مطالبهم بعين العدل وعدم التحيز، وكان ذلك في صالحهم أم ضدهم، بحسب ما يتطلبه العدل. إن منمنا هو أن تتبع في كل شيء القواعد التي تؤسس العدل تأسيساً محكماً، ولثقتين، إلا تتصرف على هذا النحو، من عدم الخروج على رغباتكم وتأييدهم (B 6 50، مدرجة في أكتوبر ١٨٠٠، لكن النص العربي لا يحمل تاريخاً غير عام ١٢١٥) [أعدنا ترجمة النص من الفرنسية لتعذر الوصول إلى الأصل - للترجم].

٦٢ - Supplément au *Moniteur*, no 184, an IX, B6 56. Jabarti se contente de mentionner l'existence de la lettre sans en donner le contenu.

٦٣ - الجهرتي، ٢٩ جمادى الآخرة (١٧ نوفمبر ١٨٠٠). ينكر الجهرتي، بالنسبة لليوم نفسه، أربعة إعدامات أخرى لا يعرف أسبابها. والحال أن الأمر يتعلق بأربعة من قطاع الطرق الرئيسية ويتلوع ميتو بالقرآن لتبرير حكمه (الأمر اليومي الصادر في ٢٠ برومير من العام التاسع (٢١ نوفمبر ١٨٠٠)).

٦٤ - «يا أهل مصر، تفكروا ما حدث خلال حصار القاهرة الأخير. إن أناساً اشتركوا قديماً إليكم نصائح مفيدة وتم جرّكم إلى التمرد؛ وسالت بملأكم. إنني أريد تهنيتكم كوارث مكالمة، والبارحة، أمرت بقطع رأس المنصور يوسف، فاجر الزبد. لقد أراد إدارة الخوفا بين سكان القاهرة، بإملائه بأعلى صوته أنه لا يجب بيع شيء للفرنسيين، لأن العثمانيين سوف يصلون. إن الأشخاص الذين يريدون إثارة حوكة هم أعداء لكم؛ إنهم يحسون إلى جرّكم إلى التمرد، لأنهم يعرفون جيداً أن ثلث الفرنسيين سوف يكون مريعاً، وأن الآلاف من بينكم سوف يهلكون. كونوا ولثقتين من التحذيرات التي أوجهها إليكم؛ إنني خير صديق لكم. تفرغوا لأعمالكم، ازدهوا لأراضيكم وانهبوا جميع النصائح المفيدة. إن كل من سيتصرفون تصرف الفاجر يوسف، سوف يعالون بالأعلام (أمر يومي صادر في ٢٠ برومير من العام التاسع (٢١ نوفمبر ١٨٠٠)). لا يورد الجهرتي هذا الأمر اليومي الذي يتضمن مع ذلك بياناً إلى المصريين والذي يتصل بحديثي تحدثت عنهما. النص العربي المطبوع موجود [أعدنا ترجمة النص من الفرنسية لتعذر الوصول إلى النص العربي - للترجم].

٦٥ - الجهرتي، ٩ رجب ١٢١٥ (٢٦ نوفمبر ١٨٠٠) و ٢٧ رجب ١٢١٥ (٩ ديسمبر ١٨٠٠). قام ميتو في بيانته الصادر في ١٦ برومير من العام التاسع (٧ نوفمبر ١٨٠٠) بتذكير السلطات العامة بضرورة الاهتمام بالأشخاص الملحقين بالأعلى على ما هو مخصوص عليه في النصوص القانونية.

٦٦ - بقلم الجهرتي، ٢٧ رجب ١٢١٥ (١٤ ديسمبر ١٨٠٠)، تلخيصاً للشكوى التي يوجد نصها في الملف B 6 58 (١٤ برومير من العام التاسع). ومما له أهمية ملاحظة أن الترجمة يترجمون للالتزم بالعقيد، إن التوحيد يتم بسرعة بين نظام الامتياز الضريبي ونظام الإقطاع، الأمر الذي يعتبر ضاراً بالنسبة للملحقين في فترة ثورة فرنسية.

٦٧ - B6 59 : le diwan du Caire à Menou, le 27 frimaire an IX (18 - décembre 1800).

٦٨ - B 6 123 : مينو إلى فوريه، ٢٥ ربيع من العام التاسع (١٦ ديسمبر ١٨٠٠) ،
 يجب أخيراً أن يبدأ الخشب في التمتع في مصر بحقوقه الحقيقية، لكنني في الوقت نفسه لا
 تراوحت ولم تراوحتي وأن تراوحتي النية ولا الرقبة في تجريد أي فرد مما يخصه شرعاً. الجبرتي،
 الأول من شعبان ١٢١٥ (١٨ ديسمبر ١٨٠٠).

B6 59 : Proclamation de Menou du 1 re nivôse an IX (22- ١٩
 décembre 1800).

B6 59 : Estève à Menou, le 30 frimaire an IX (21 décembre 1800).- ٧٠

B6 59 : Tousard à Menou, le 10 nivôse an IX (30 décembre 1800).- ٧١

B6 62 : Estève à Menou, le 26 nivôse an IX (16 janvier 1800). - ٧٢

Le manuscrit daté du 30 nivôse an IX (20 janvier 1800)- ٧٢
 commence par "Menou, général en chef, ordonne". Il se trouve en B6 62.
 Certains articles sont rédigés deux fois. Rousseau l'a publié sans en donner
 les variantes (pp. 382 - 393).

٧٤ - بنات سنة ١٢١٥ في ٢٥ مايو ١٨٠٠.

Pour une vision de ces problèmes voir, le livre d'Afaf LUTFI al- ٧٥
 Sayyid MARSOT, *Egypt in the reign of Muhammad Ali*, Cambridge
 University Press, 1984 et ma critique de cet ouvrage dans *Bulletin Critique
 des Annales Islamologiques*, III, Le Caire, I. F. A. O., 1986, pp. 127 - 130.

Ordre du jour du 5 frimaire an IX (25 novembre 1800). - ٧٦

٧٧ - الأمر اليومي الصادر في ١٧ فينيمير من العام التاسع (٩ أكتوبر ١٨٠٠). ويحالب
 ر اليومي نفسه على الإصرار في تناول الحصول عند الفرصيين. وكان قد ظهر من
 A. CHUQUET, " Menou et le Hachich ", *Feuilles d'Histoire*, 1909, I,
 pp.81 - 82.

B6 83. Non daté, mais une lettre de Fourier à Menou du 6 nivôse- ٧٨
 an IX (27 décembre 1800) évoque l'envoi de ce texte à Menou (B6 59) ainsi
 que la demande de répression des manifestations des Santons. La réponse à
 Fourier est du 9 nivôse et se trouve dans B6 123.

٧٩ - الأمر اليومي الصادر في ٩ نيفوز من العام التاسع (٢٠ ديسمبر ١٨٠٠). يزعم
 الجبرتي أن للبلنرة جاءت من مينو (شعبان ١٢١٥)، لكن رسالة فوريه تظهر إلى العكس.

Jabarti, texte arabe 25 sha'ban 1215 (11 janvier 1801); B6 (minute- ٨٠
 du texte français) et B6 83 (copie); pas de variantes significatives entre les
 textes français et arabe.

٨١ - B 6 61. ٢١ ثيريدز من العام التاسع (١١ يناير ١٨٠١): رسالة الإرتفاق من لودفيغ الذي يشير إلى ملاحظات للخارج ، ولقد لاحظوا فقط أن العدد الكبير لحالات الطلاق يزيد من مصائب هذا التسجيل وأن الحالات لم تسجل حتى الآن بقدر كبير من الحرص لأن مقدمي البيانات تجرى مطالبتهم برسم طفيف لصالحاً لتقليل عدد حالات تقديم البيانات.

٨٢ - *Courrier de l'Égypte*, le 6 pluviôse an IX (26 janvier 1801).

٨٢ - الجبرتي، ١١ شعبان ١٢١٢ (٢٨ ديسمبر ١٨٠٠). *Courrier de l'Égypte* في ٦ ثيريدز من العام التاسع إلى لويس صغيرة ألفا في مصر بلذك ووضع موسيقاها ريجيل، اسمها «الطحلطان»، إلى جانب مروض مسرحية مزلية وتوضع ، «إن مدداً من كهلو شخصيات القامرة بين الأتراك وكثيرين من المسيحيين والسيدات الأوروبيات قد حضروا هذه العروض المختلفة».

٨٤ - *Courrier de l'Égypte*, le 24 pluviôse an IX (13 février 1801).

٨٥ - *Courrier de l'Égypte*, le 24 pluviôse an IX (13 février 1801).

٨٦ - *Moralistes et Politiques....*, II, pp. 343 - 379.

٨٧ - Anouar LOUCA, *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIX^e siècle*, Paris, 1970.

٨٨ - B 6 123، مينو إلى رامبون، « ثيريدز من العام التاسع (٢٦ ديسمبر ١٨٠٠). رسائل رامبون موجودة في الملف B 6 59، وهي تتعلق خاصة بالتاجر الكبير بانيل آخر.

٨٩ - في رسالتك إلى وزير الشؤون الخارجية، بتاريخ ٢ فيبرير من العام التاسع (٢٤ سبتمبر ١٨٠٠)، يبحث عن أمثال لكثير في الوضع العسكري وقت حصار القامرة. (ROUSSEAU, pp. 357 - 359)، وهو ما يعني اعتبار الوضع الحالي مؤسفاً.

٩٠ - B 6 47، مراد بك إلى مينو، ١٥ صفر ١٢١٥ (٨ يوليو ١٨٠٠) : «تقول لنا في رسالتك أن الجمهورية الفرنسية قد وضعت الحكم بين يديكم. وهذا مما يزيد من فرحتنا لأننا قد سمعنا عنكم من قبل بالفعل أنباء طيبة والثناء عليكم على الصحة الجميع، [أمننا ترجمة النص من الفرنسية لتعود الوصول إلى الأصل. - المترجم].

٩١ - B 6 47، معاهدة موقعة من جانب استيف ويلماس مع ممثل مراد بك (ميسينور من العام الثامن).

٩٢ - B6 118, Damas à Mourad Bey le 1^{er} thermidor an VIII (20 juillet- 1800) et B6 122, Menou à Donzelot le 2 thermidor an VIII.

٩٣ - B6 49, Mourad Bey à Menou, le 9 rabi' al awwal 1215 (31 juillet- 1800).

٩٤ - B6 61, Mourad à Donzelot, 26 safar 1214 (19 juillet 1800, daté par- erreur dans les archives au 2 août 1800).

- B6 123, Menou à Donzelot le 13 vendémiaire an IX (5 octobre – ٩٥ 1800).
- B6 55, Donzelot à Menou, le 8 Brumaire an IX (30 octobre – ٩٦ 1800).
- B6 59, Donzelot à Menou, le 25 frimaire an IX (16 décembre – ٩٧ 1800).
- B6 63, Delegorgue à Menou le 12 et 13 pluviôse an IX (1 et 2 – ٩٨ février 1801), Friant à Menou, le 13 pluviôse; *Histoire Scientifique*, VIII, pp. 110 - 111.
- Mémoires de Reynier*, pp. 153 - 155. – ٩٩
- Journal de Reynier*. – ١٠٠
- B6 46, Lanusse à Menou, le 2 messidor an VIII (21 juin 1800). – ١٠١
- RIGAULT, pp. 102 - 104. – ١٠٢
- ١٠٣ B6 123, RIGAULT, pp. 187 - 190. مبدئياً إلى لانوس، ١٢ فيفيمبير من العام الثامن (٥ أكتوبر ١٨٠٠)، إنه يستخدم مصطلح «منازعات الزوجين» لوصف نزاع مع لانوس.
- Histoire Scientifique*, VIII, pp. 59 - 61. – ١٠٤
- Rapport de Friant. – ١٠٥
- B6 118, Damas à Menou, le 8 fructidor an VIII (26 août 1800). – ١٠٦
- Histoire Scientifique*, VIII, pp. 63 - 66. – ١٠٧
- B6 47, le ministre de la guerre au général Kléber, le 13 messidor – ١٠٨ an VIII (2 juillet 1800). L'arrivée au Caire d' Auguste Damas, le 1^{er} jour complémentaire de l'an VIII (18 septembre 1800), est annoncée dans le *Courrier de l'Égypte* du 3^e jour complémentaire de l'an VIII et la mort de Dessaix est indiquée dans le numéro suivant.
- ١٠٩ – كان قد أصدر الأمر بالفعل إلى بروي بالتواجد في البحر المتوسط مع أسطول بريست، لكن ذلك كان بهدف فك حصار مالطة، وإذا أمكن، إرسال تعزيزات إلى مصر، *Correspondance de Napoléon*, VI, pp. 181 - 182 : à Bruix, le 3 ventôse an VIII (22 février 1800). وفي أواخر مارس، يظل الأسطول الفرنسي – الأسباني في بريست بسبب الحصار الإنجليزي الذي لا يجتريء البحارة على محاولة كسره ويفكر بونهارت في استخدام القوات للبحر في القيام بعمل في الأندلس. (Ibid, pp. 262 - 263). وعند وصولها

ألكساندري، لمر بإبلاغ الصحف بأن قوات التعزيز قد ارتفعت إلى ستة آلاف رجل (p. 358).
ولد كتب كارنو رسالته بإيجاز من بونابارت، الذي كان آنذاك في ميلادو (1re messidor an VIII)
(20 juin 1800, pp. 476 - 477).

Courrier de l'Égypte, le 6 vendémiaire an IX (28 septembre- ١١٠
1800).

Histoire Scientifique, VIII, pp. 67 - 68. - ١١١

Courrier de l'Égypte, le 30 vendémiaire an IX (22 octobre 1800). - ١١٢

Courrier de l'Égypte, le 6 brumaire an IX (28 octobre 1800). - ١١٣

Histoire Scientifique, VIII, pp. 74 - 75. - ١١٤

RIGAULT, pp. 194 - 198. A. DE TARL'E, "Menou et Daure en - ١١٥
Égypte", *Feuilles d'Histoire*, 1910, I, p. 517 - 525.

Histoire Scientifique, VIII, pp. 90 - 93; Menou à Bonaparte, le 2- ١١٦
vendémiaire an IX (24 septembre 1800) (ROUSSEAU, pp. 345 - 347) ; B6
62, lettre de protestation de Hamelin (retré en France), le 26 nivôse an IX
(16 janvier 1801) ; B6 124, Menou à l'Institut le 16 pluviôse an IX (5 février
1801) : « إن التاريخ إذا ما تحدث للأجيال القادمة عن معارك واتصالات الجنود الفرنسيين في
مصر، فلابد له من أن يحدثها أيضاً عن أن فرنسيين آخرين جديرين بالاحترام لما لديهم من علم
ومعرفة قد أوجدوا في القوت نفعه الحضارة وأمانوا العلوم إلى ذلك كما لو كانوا يمدونها إلى
مهدبا القوم. إن تاريخ حملة الفرنسيين الصليبية الحديثة في مصر لن يكون من ثم كتاريخ حملة
القرن الثالث عشر الصليبية، وهو تاريخ جنون ديني؛ إنه سوف يصبح تاريخ بحث لشعب ربما
كلت جميع الشعوب الأخرى منبهة له بعناصر جميع العلوم، وجميع المؤسسات. »

١١٧ - B 6 55. ملاحظات ظهت على الجنرال مينو من جانب قلعة الشرق في القلعة به
في ٦ برومير من العام التاسع (٢٨ أكتوبر ١٨٠٠). إن لويان للوجود في الإسكندرية يوافق على
تحرك قاذبة الشرق وهو يتخذ موقفاً معادياً لتجهيزات مينو، لويان إلى باريس، الإسكندرية في ٢٦
برومير من العام التاسع (١٩ نوفمبر ١٨٠٠) B 6 57. أما في تقريره الخاص بالهلاء عن مصر،
فإنه، خلافاً لذلك، يوجه اللوم إلى التحرك الجماعي ويتهم روثيه بأنه كان يريد إقصاء مينو.

١١٨ - B 6 55. مذكرة تفسيرية للأسباب التي بلغت قلعة الشرق [...] إلى عقد اجتماع
مع الجنرال مينو في ١٦ برومير من العام التاسع حول مصالح جيش الشرق ومرد ما حدث في
هذا الصدد.

B6 56, le 11 brumaire an IX (2 novembre 1800). - ١١٩

B6 118, Damas à Moreau le 12 brumaire an IX (3 novembre- ١٢٠
1800).

Ordre du jour du 15 brumaire an IX (6 novembre 1800). - ١٢١

١٢٢ - *Campagnes d'Égypte...*, XXX, pp. 153 - 156. يزعم تهابيون أنه لم تكن لديه أية فكرة من هذا الاعتبار القم إلى أية مؤامرات عسكرية والذي جرى تمييزه منذ ذلك الحين في مينو. وهو يسكت من خلافات الجيش ويرى أن الحزب للزيد للجلاء قد تمكن ليندو تشتيت عمله في غضون أسابيع قليلة.

١٢٣ - Par exemple, en B6 118, Damas au Premier Consul, le 6 frimaire an IX (27 novembre 1800). لا يدجج مينو إلا في التخلص من تليان الذي يتهمه بأنه مسئول من كل شيء. إن هذا الرجل، الخليل جيداً في نظرية التمردات إن لم نقل ما هو أكثر من ذلك، قد أراد إثارة شغب هنا. إن هناك من الرجال الذين كان عليهم بحكم مواقعهم أن يكونوا القوة للجيش، قد أصفوا الصمغ إلى تلميحاته، لكن الجنود وبسائطهم قد ظهروا في كل مكان بالمظهر الذي يجب عليهم الظهور به، متمسكين بلا حدود بالانضام الأول وبالشرف وبالسطة الشرعية، B6 83, au Premier Consul, le 7 frimaire an IX (28 novembre 1800).

١٢٤ - B 6 55، الأول من برومير من العام التاسع (٢٢ أكتوبر ١٨٠٠)، لكن الرسالة لا ترسل إلا في ١٥ ديسمبر ١٨٠٠. ويقدم ريدييه نسخاً في مذكراته، مستعيفاً بشكل جزئي عن الأسماء بأحرف أولى (pp. 183 - 190).

١٢٥ - B6 62, le 29 nivôse an IX (29 janvier 1801), repris dans les *Mémoires de Reynier*, pp. 172 - 176.

١٢٦ - لا توجد أية مباشرة في الأرشيفات على عمل من جانب العميد البحري، لكن رسائل سيدي سميت نافرة في الأشهر الأولى من عام ١٨٠١. ومثل ما قبل مصرع كليبر، كان قد حلل انقسام الجيش إلى استعماريين ومطهرين للاستعمار. وقد أترك بسرعة أنه لن يمكن الحصول مباشرة من مينو على شيء، و، منذ بداية يوليو، اقترح استراتيجية للثمة على التعارض بين مينو وكبار ضباطه، بحيث إنني أعرف مواقف الضباط الرئيسيين، الذين سوف يكون من السهل فصلهم من رجل لا يمكنهم احترامه، وذلك في لعبتنا الوحيدة (à Lord Elgin, le 3 juillet 1800, BARROW, II, p. 64).

١٢٧ - من الواضح أن فريان هو الذي تلقى النص، انظر رسالة الشكر للوجهة من مينو بتاريخ ١٠ يوليو من العام التاسع (٣٠ يناير ١٨٠١) في الملف B 6 124. ومن جهة أخرى، فإن الجهراني يشير إلى توزيع قصص بالفرنسية من أربع وثلاث من جانب عملاء عثمانيين في مصر وذلك، في ٩ رمضان ١٢١٥ (٢٤ يناير ١٨٠١) : إن التزامن هو أكثر من مزيج...

١٢٨ - وهو ما يتطابق من حيث التاريخ والمكان مع رسالة سيدي سميت التي أشرنا إليها بالفعل.

١٢٩ - Texte intégral du document dans RIGAULT, pp. 272 - 274.

١٣٠ - B6 63, Menou à Berthier, le 18 pluviôse an IX (7 février 1801).

١٣١ - B6 63, le 25 pluviôse an IX (14 février 1801).

- B6 63, le 26 pluviôse an IX (15 février 1801). - ١٢٢
- RIGAULT, p. 281. - ١٢٢
- Mémoires de REYNIER*, pp. 178 - 179. - ١٢٤
- B6 63, Friant à Menou, le 30 pluviôse an IX (19 février 1801). - ١٢٥
- ١٢٦ - بعيداً من تأثير شخصية بول الأول الغربية الأطوار، فإن السياسة الخارجية للتبعة في هذه هي من وضع حكمة من كبار المدهرين الروس للمعنيين لدور الأجنبي في تعهد السياسة الإمبراطورية، انظر. Boris MOURAVIEFF, *L'alliance russo - turque au milieu des guerres napoléoniennes*, Paris, 1954, pp. 67 - 74.
- ١٢٧ - يبلغ العثمانيون الإنجليز بتفاصيل الحوادث التي أجراها قاهران مع العسكر العثماني الموجود في باريس. م. ٣١، FO78 31, protocole de la conférence entre M. Talleyrand, ministre des Affaires étrangères de France, et Seyd Ali Effendi, ci - devant ministre de la Sublime Porte de l'autre, tenue en conséquence de l'invitation du premier le 19 de la lune de Gemaziel Evel (8 octobre 1800).
- ١٢٨ - سوف يصبح هذان الرجلان في المستقبل معارضين للإمبراطورية، انظر للمحتين اللتين للمهما. م. تولار في *Dictionnaire Napoléon*. إن جان - باپتيست ساي، عالم الاقتصاد الكبير، هو أخ موريس ساي، رئيس هيئة لوكات سلاح للمهندسين، الذي مات في عكا.
- ١٢٩ - الأمر اليومي الصادر في ١٢ فينتوز من العلم التاسع (٢ مارس ١٨٠١). يظهر مصطلح الحضارة في خطاب الخطيبين.
- ١٣٠ - Sur cette affaire, AURIANT, "Le contre - amiral Ganteaume et l'Égypte", *Revue Bleue*, pp. 647 - 652 et Charles - Roux, *Bonaparte et la Tripolitaine*, Paris, 1929.
- INGRAM, *Commitment...*, p. 383. - ١٤١
- Instructions de Lord Keith, in *Keith Papers*, p. 241. - ١٤٢
- Robert Thomas WILSON, *History of the British Expedition to- Egypt*, Londres, 1803, p. 3. - ١٤٢
- Lord Elgin à Lord Grenville, le 21 novembre 1800, FO 78 30. - ١٤٤
- Lord Elgin à lord Grenville, le 9 février 1801, FO 78 31. - ١٤٥
- Abercromby à Lord Elgin, le 21 janvier 1801, FO 78 31. - ١٤٦
- Détail des bâtiments dans les *Keith Papers*, pp. 267 - 269. - ١٤٧

B6 125, Menou à Reynier, le 14 ventôse an IX (5 mars 1801). - ١٤٨

B6 125, Menou au diwan, le 14 ventôse an IX (5 mars 1801), - ١٤٩
JABARTI 20 shawwal 1215.

JABARTI, shawwal et dhu al qa'da 1215. - ١٥٠

B6 126 et B6 64, Menou à Reynier, le 16 ventôse an IX (7 mars - ١٥١
1801). « إنتنى أميل دائماً إلى الاعتقاد بأنه إذا ما حدث تحرك حقيقي ما، فإنه سوف يجرى من
جهة سوريا. ولا يود الإنجليز شيئاً الفصل من أن تتم إعادة الصدر الأعظم، لأنهم يريدون التدخل
في عملية لتقسام والأرجح أن تلك كانت غايتهم عندما استقروا في روسيا.

أولاً وصل إلى علمي أيضاً أنه لا يوجد اتفاق بين جنرالاتهم البريين والبحريين. إن اللورد
أبهركرامبي الذي يقود القوات البرية هو رجل قليل الخبرة لا يريد الإسراع إلى سمعته ويعتبر
السيد سيني سميت مفاسداً.

B6 64, Reynier à Menou, le 13 ventôse an IX (4 mars 1801). - ١٥٢

١٥٣ - 205 - 202, *Mémoires de REYNIER*, pp. 204 - 205, لا شك
أنه لما كان مصر على البقاء في القاهرة وعلى شق صفوف الجيش، فإن الوسيلة الوحيدة لإزالة
مصر كانت تتمثل في اختيار قائد آخر؛ وربما كان توسع الظروف وبعد الحكومة أن تسمح بقرار
كهناء، لكن ذلك كان سيشكل مثلاً خطيراً بالنسبة للاستيلاء، ما كان يمكن إلاً لنجاحات كبيرة أن
تبرره، ولم يكن هناك ما يسمح بنيل هذه النجاحات، ولم يكن بالإمكان التنبؤ بأن الإنجليز سوف
يمكرون سبعة أيام بلا نزول، ومن جهة أخرى، فإنه كان سيكون بالإمكان القول، بعد النصر، إن
الجنرال مينو هو الذي لحظه أيضاً.

١٥٤ - قنوت خسائر الفرنسيين بأربعمائة الفيل وجريح، (*Victoires et Conquêtes*,
XIV, p. 41)، أما خسائر الإنجليز فقد قنوت بأكثر من خمسمائة - 15 (WILSON, pp. 15 -
16).

B6 126, le 20 ventôse an IX (11 mars 1801). La formule se - ١٥٥
retrouve dans plusieurs lettres de Menou.

B6 132, Belliard à Mourad Bey, le 24 ventôse an IX (15 mars - ١٥٦
1801).

B6 64 : Fourier à Menou, le 28 ventôse an IX (19 mars 1801) et - ١٥٧
lettre du diwan. JABARTI, 3 dhu al qa' da 1215 : "le commissaire donne
ordre aux membres du diwan d'envoyer une lettre au général en chef pour le
saluer, ce qui fut fait" (CUOQ, p. 297).

١٥٨ - تقرير فريمان الذي يلقى كل المسؤولية عن أحداث اليوم على كامل لانتوس، غير
للوجود بعد للدفاع عن نفسه.

١٥٩ - في رغبته الرامية إلى الدفاع عن سمعة ميون، يصل الأمر برعجو إلى حد التلميح إلى أن الجنرالين قد تصرفا بالامهالة وتنصل معينين وأن ما حدث في ١٢ مارس هو بالأحرى مظهر معركة (pp. 298 - 299). وهذا ليس رأي ويلسون الذي يقدر الفسائر الانجليزية بـ ١١٠٠ جريح والتهيل في مقابل ٥٠٠ عند الفرنسيين (p. 23) ، وهذا ليس شيئاً تافهاً بالقيل إلى الأمداء المخدرة في المعركة...

Lanusse à Lannes, le 23 ventôse an IX (16 mars 1801). - ١٦٠

WILSON, p. 29. - ١٦١

WILSON, p. 29. - ١٦٢

١٦٣ - WILSON, p. 30. « كان كل شيء مائتاً في الثالثة والنصف صباحاً، عندما سمع نوري رصاصات متلقية على طرف الجهة اليسرى. وبعد ذلك مباشرة أطلق أحد المدافع نيرانه، ولحق ذلك طلقات متناثرة من البنادق، ثم بدأت طلقات مدافع آخرين. وللحظة تحول الانتباه إلى تلك الجهة. وكان الجميع على ثقة من أن مجوماً عاماً على وشك الوقوع، إلا أنه سرعان ما اتضح أن الديران كانت جد ضعيفة على الجهة اليسرى بحيث يصعب أن تكون الجهة التي يستهدفها العدو بشكل أساسي. والواقع أن هذا كان هو الشعور العام؛ والحال أن الجنرال مورد، الذي كان الضابط العام في تلك الليلة، والذي تحرك إلى الجهة اليسرى لدى أول إنذار، قد تأثر تأثيراً كبيراً بهذه الفكرة، بحيث إنه تحول إلى الجهة اليمنى. »

RIGAULT, pp. 304 - 405. - ١٦٤

WILSON, p. 37. - ١٦٥

١٦٦ - هذا على سبيل المثال هو ما يمكن فهمه من موقف فيجو - روسيون الذي يلقى اللوم بالتتابع على ميخو وريتييه ، - "Fragment des mémoires militaires du colonel Vigo - Roussillon (1793 - 1837)", *Revue des deux Mondes*, août 1890, pp. 745 - 746.

Rigault, pp. 311 - 312. B6 65, Damas à Belliard, le 6 germinal an IX (27 mars 1801). - ١٦٧

B6 133, le 5 germinal an IX (26 mars 1801), Belliard à Mourad Bey et à Donzelot. - ١٦٨

B6 133, Belliard à Menou, le 6 germinal an IX (27 mars 1801). - ١٦٩

B6 133, Belliard à Menou, le 14 germinal an IX (4 avril 1801). - ١٧٠

١٧١ - ٢٥٩٠ رجلا بالضبط ، Amaury FAIVRE D'ARCIER, *Réflexions sur la perte de l'Égypte, 1798 - 1801*, mémoire de maîtrise, Paris, I, 1985 (bibliothèque Albert Soboul), p. 187.

B6 127, Menou à Belliard, le 15 germinal an IX (5 avril 1801). - ١٧٢

B6 127, Menou à Belliard, le 19 germinal an IX (5 avril 1801). - ١٧٢

SHANKLAND, Beware of heroes..., pp. 135 - 136. - ١٧٤

BARROW, II, pp. 42 - 43. - ١٧٥

Gratien LE PÈRE, "Extrait d'un mémoire sur les lacs et les - ١٧٦
déserts de la Basse - Égypte", *Description de l'Égypte*, T.XVI, Paris, 1825,
pp. 202 : « قطع الجيش الأنجلو - تركي سدود قناة الإسكندرية على بعد سبعة آلاف وخمسمائة
متر من بوابة رشيد، الواقعة إلى شرقى الصور القديم لتلك المدينة، إن مياه هذه البحيرة، للراحة
ملوحة مياه البحر، والذي يرتبط بها من طريق المعينة، قد تعلقت بشكل متعاقب من خلال ثلاث
أو أربع التحات، حتى نهاية شهر يوليوس (١٥ يونيو ١٨٠١) واحتلجت إلى ستة وستين يوماً لكي
تتلا تماماً حوض ماريوتيس القديمة.

١٧٧ - هتفخسون إلى كيث، ٢٠ أبريل ١٨٠١، كيث إلى القلايدان بلاشا، ٢١ أبريل ١٨٠١.
كانت الطريقة في عرض الصلح الثلاثية التي قدمها الحميد البحري إلى الفرنسيين دون التشاور
مع الأميرال العثماني.

١٧٨ - يندم رينيه و «التاريخ العلمي» تاريخ ٢ فلوريال من العلم التاسع، أي ٢٢ أبريل
١٨٠١، لكن الجبرتي يشير إلى ٤ ذو الحجة، أي ١٨ أبريل ١٨٠١. ويصرف الخبر في القاهرة في ٦
فلوريال من العلم التاسع (B 6 133، يوليوس إلى ميديو). أما رسالة عثمان بك الطنبورجي إلى
سيفي سميث والتي يعلن فيها موت الزعيم فهي مؤرخة في ٢١ أبريل.

B6 67, Belliard à Menou, le 4 floréal an IX (24 avril 1801). 5 mai- ١٧٩
1801), BARROW, II, p. 46.

Uthman Bey al Tanbourgi à Sidney Smith le 21 avril 1801. - ١٨٠

١٨١ - WILSON, pp. 69 - 70 : « على الطريق، انضم إلينا مولاي محمد، أمير فارس،
الذي جاء من طرف مراد بك؛ وكان ملازمه الفيلين، لكنهم رجال جد واثقين، مجهزين تجهيزاً
جيداً وكان هو نفسه على صهوة فارس عربية، جد ممتازة. كان السكان يعتبرون الرجل الغريب
قديمًا، وقد اكتسب وده هذا الطابع، ولا يمكن إرجاع شعاعته إلا إلى إحساسه بأنه لا يظهر، ولما
كان على الدرام عنوا حازماً للفرنسيين، فقد قاد الانتفاضة في مذهبو، عندما كان بونابارت في
سوريا، وقد أسهم بالكثير في تأخير استسلام القاهرة التالي. وتم تخصيص مكافأة لمن يلقى
برأيه، لكنه لحرز من ولاء جماعته انتصاراً اعظم : إن هيئته السوفاوين حالتان بشكل ملحوظ،
ورجيه متوردة، وهو أنيق إلى أبعد حد : وهو يرتدي عملة وعباءة بيضاوين، لهما حواف مذهبة،
ويتنلى من على كتفيه بحزام حريص مقصب باللذهب كعس موشى باللون الأحمر ومقصب
بالذهب : ولزاعله بأرغان بشكل فائق؛ وفروسيته ورشاقته جديرتان بالإعجاب : والواقع أن كل
حركة من حركاته تتميز بالرشاقة؛ وهيئة المتواضعة ولكن النobile، وتعبير معين عن القناعة في
كل عمله، بل كنان فكرة مباشرة من مزاعمه وشخصيته. وقد تنبأ بالذخاج للإنجليز، وظل صديقاً
متحمساً لهم؛ إلا أنه بعد سقوط القاهرة، انزعج الجشع له أعداء، واضطر إلى الهرب من الاضطهاد

التركي. وقبل أيام قليلة، جاء في طلب الهنرال، الذي حصل منه على كل آيات المحابة والاحترام، لكنه الآن قد ذهب إلى القاهرة لسوء الحظ. وقد فقد صحابه حيويته، وتبدت روحه كسيرة.

ومن المحتمل أنه قد جاء مع العثمانيين في مصر السفلى، ويرصد بيليار بين ضحاها معركة قرب بلبيس، دامت في ساحة المعركة خمسة من قادة الأعداء من بينهم الناصر ملاً محمد، وهو مدرس كان في القاهرة في العام الماضي خلال الحصار. B 6 133، بيليار إلى مينو، ٢٤ جيرمينال من العام التاسع (١٤ أبريل ١٨٠١).

B6 67, Menou à Belliard, le 30 germinal an VIII (20 avril 1801). – ١٨٢

B6 67, Belliard à Menou, le 4 foréal an VIII (24 avril 1801), – ١٨٢
plusieurs lettres.

B6 67, Plusieurs lettres dont celle de Minot, aide de Friant, le 5 – ١٨٤
floréal an IX (25 avril 1801).

B6 67, Lascaris (du Caire) à Menou, le 6 floréal an IX (26 avril – ١٨٥
1801).

B6 67, Lascaris (du Caire) à Menou, le 7 floréal an IX (27 avril – ١٨٦
1801) مات سليمان بك في تلك الوقت الذي مات فيه مراد بك (الجبرتي، ونبات سنة ١٢١٥).

B6 133, Belliard à Uthman Bey, le 11 floréal an IX (1^{er} mai – ١٨٧
1801).

B6 133, Rapport de Mallem Jacob du 18 floréal (8 mai 1801) – ١٨٨
transmis au général en chef.

B6 133, Belliard à Lagrange, le 18 floréal (8 mai 1801). – ١٨٩

١٩٠ – *Victoires et Conquêtes...*, XIV, p. 67. «إن هذا الحدث يهدم كل شهامة، وقد انتهر الجيش في مصيف النمر ضد الهنرال الذي أعمل وسائل نوره كارهة من هذا الخروج. والحال أن مينو، بالرغم من طمأنينته العادية، يبدو هلعاً من النتيجة المأساوية لتراخياته السابقة. لقد فقد المصدر الأخير الذي بقي له لإمداد الإسكندرية وكان على وشك أن يرى هلاكاً من الجوع للجنود ولجميع الفرنسيين المحاصرين معه في هذا الواقع».

Mémoires de REYNIER, p. 251. – ١٩١

B6 134, Belliard à Menou, le 28 floréal an IX (18 mai 1801). – ١٩٢

١٩٣ – إن رواية ويلسون هي رواية نظيفة بقدر ما أنه هو الذي حصل على استسلام راببي الجمال، «لخبراً أعلن الكولونيل كالاتيه أنه إذا ما سمح له بإلقاء سلاحه في مقر القيادة وليس في الصحراء أمام العدو، وإذا ما سمح للضباط بالاحتفاظ بممتلكاتهم الخاصة وسمح للجنود بالعودة إلى فرنسا مبهرة، فون أن يعتبروا بعد وصولهم إلى هناك أسرى حرب، وإذا ما سمح بإرسال ضابط إلى القاهرة لتأمين مقاصمهم من أجل سلامة المرور بالمعسكر البريطاني، فإنه سوف

يوافق على هذه الشروط. وبما أن كل هذه الشروط كانت تتطابق مع تعليمات الحكومة الصادرة إلى الهنرال متفحصسون، وكانت كالتسوية للشروط على الهنرال حينئذ، فإن المهجور وليسون قد قبلها وصديق عليها الهنرال متفحصسون بنفسه عند وصوله. والحال أن العرب، الذين كان بعضهم قد ساروا في أثر الطالبور بمجرد مغادرتهم الإسكندرية، قد صعدوا عندما رأوا العدو يرفض بهذه السهولة، وسرف تبنى فكرة هذا الحدث في ألمان الباطلهم لأجيال الفكرة (p. 105).

إن قرار استسلام كاتاليفيه المصدق عليه من متفحصسون موجود في الملف 69 B 6.

ويوجد مؤلفو كتاب (XIV, p. 69) *Victoires et Conquêtes* (XIV, p. 69) لكاتاليفيه الذي نجح بذلك في حفظ أرواح عدة مئات من الجنود وفي إعانتهم إلى فرنسا بدلا من أن يبقوا في الأسر عند الإنجليز.

WILSON, p. 113, le 25 mai 1801. - ١٩٤

WILSON, p. 119. - ١٩٥

Maurice BESSON, "Un corps anglo - indien en Égypte en 1802", - ١٩٦
Revue d'Histoire des Colonies Françaises, 1933, pp. 71 - 78.

Keith Papers, pp. 324 - 325 : Home Popham à Elgin, le 26 juin - ١٩٧
1801، استناداً إلى الطابع العام للشريف، الذي أظن أنك تعرف أنه مقتضب وأن التورث الشرعي صحيح، لا يمكنني أن أراجع الكثير من أي اتصال به، خاصة وأن الفرنسيين قد وعدوا بأن يظلوا صالحة لمصر [...]...

إن مسئلك هذا الرجل كان معادياً بشكل صريح للقضية العامة وبشكل محدد في كل شأن إنجليزي بحيث إنني أعتقد بالفعل أن بالإمكان استصدار طلب احتياطي من الباب العالي إلى التورث وليسلي بإزالة هذا المقتضب ووضع التورث الشرعي على العرض في الوقت الذي نتمتع فيه بكل هذه الفترة في البحر الأحمر؛ وبدلاً من أن يكون ذلك عملاً منهم الشخصية يمثل تدخلاً ضد رئيس الديانة للصدي، فإنه سوف يحوز قبولاً عاماً لأنه مكروه من الجميع بسبب مسئلك الاستبدادي والتوحشي.

Pour une étude d'ensemble des relations entre les Anglais et le chérif voir Mordecai ABIR "Relations between the Government of India and the Sharif of Mecca during the French Invasion of Egypt, 1798 - 1801", *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1965, pp. 35 - 42.

١٩٨ - أحداث سنة ١٢١٥.

Histoire Scientifique, VIII, p. 241. - ١٩٩

Histoire Scientifique, VIII, p. 255 - 256. - ٢٠٠

Jabarti, 17 dhu al Hijja 1215 (1^{er} mai 1801); 70, le diwan du - ٢٠١
Caire à Menou le 16 prairial IX (5 juin 1801). Extrait du discours d'Estève

du 12 juin 1801 dans Jabarti, 30 muharram 1215, avec son commentaire, "Un aveuglement sans borne comme l'Océan" et texte français et arabe complet en B6 70, ainsi que dans les actes du diwan du Caire (B.N. fonds arabe 2455).

Be 70, Menou à Belliard le 19 prairial an IX (8 juin 1801). — ٢٠٣
WILSON, p. 124. — ٢٠٢

J'ai suivi le texte des actes du diwan du Caire. Dans les *Aja'ib*, — ٢٠٤

Jabarti a transcrit de façon incomplète le texte en le rendant incompréhensible d'où de longues discussions chez ses exégètes à propos de ses connaissances géographiques. Ainsi la traduction de Cuoq donne "Il ajoutait qu'ils avaient appris l'arrivée d'une flotte française dans la mer Caspienne (Bahr al Khazar) et que bientôt cette flotte parviendrait à Alexandrie, car elle avait attaqué le territoire anglais et s'en était emparé d'une bonne partie", p. 341. Le passage de mer Caspienne (Bahr al Khazar) à mer Egée (Bahr al Juzur) s'explique par un déplacement de points diacritiques. Le reste de la transformation se comprend par le fait que probablement Jabarti ne disposait pas du texte original lors de sa rédaction et qu'il a restitué de mémoire le texte de la lettre.

B6 134, Belliard à Menou, le 26 prairial an IX (15 juin 1801). — ٢٠٥
Histoire Scientifique, VIII, p. 258 - 262. — ٢٠٦

٢٠٧ - لتحرير الاستسلام، تحرير الخموص اللاحقة إلى احتياطيات تكلى حتى ٥ يوليو ١٨٠١ (Victoires et Conquêtes, XIV, p. 83)، لكن بيليار في رسالته جد للفتاحة إلى ميتر والتؤرخة في ٢٦ يوليول (١٥ يونيو) يقول: «إن لدينا أغذية تكلى لهبرين، لكن ذلك من المحبوب أم من الأرز لم من التديق لم من الخبز». وفي تقريره إلى القنصل الأول، ١١ ميسيدور من العام التاسع (٢٠ يونيو ١٨٠١)، يتحدث عن أغذية تكلى ١١ بين ٢٠ و ٢٥ يوليا (B 6 71).

WILSON, pp. 152 - 153. — ٢٠٨

B6 71, 17 messidor an IX (6 juillet 1801), discours d'Estève au- ٢٠٩
diwan du Caire.

٢١٠ - ٢٦ صفر ١٢١٦.

THIBAudeau, préfet des Bouches du Rhône sous l'Empire, — ٢١١

utilise l'expression de "prisonnier d'État" pour le séjour de la dépouille de Kléber au château d'If (*Mémoires*, Paris, 1913, p. 288) En raison de la

publication tardive du texte, il est difficile de savoir si cette comparaison est en partie inspirée par le Comte de Monte Cristo.

٢١٢ - انظر في الملف 187 B 6، مختلف جداول الأمتلاك الإجمالي في الملف B6 73.
١٣ ٦٧٢ من العسكريين و٨٥ من المدنيين.

٢١٣ - B 6 71، القاهريان باشا حسين إلى بيليار، ١١ يوليو ١٨٠١، «إنه ليس الوحيد الذي خدمكم، لقد خدمكم أناس من الجميع وخاصة من الأمة الإسلامية؛ لكنهم يستحقون العفو».

٢١٤ - L'ensemble du dossier a été publié par Georges Douin en 1924 au Caire sous le titre *L'Égypte indépendante, le projet de 1801*, imprimerie de l'I.F.A. O.

٢١٥ - يقال إن المعلم، الذي دعى من جانب القاهريان باشا عشية رحيله، قد شرب نوبة مسمومة، انظر رواية فيجو - روسيون الذي شهد اللقاء مع القاهريان باشا (pp. 748 - 749).

٢١٦ - رجع المعلمون بياتاً لدى دخولهم مصر، ولا يشير إليه لا الجبرتي ولا نقولا الترك، والنص التركي المطبوع في القسطنطينية موجود في FO 78 31 مع مخطوط ترجمة فرنسية. وهو موجه إلى سكان مصر الذين يجب عليهم وقف التعاون مع الفرنسيين.

JABARTI, nécrologie de l'année 1223. - ٢١٧

JABARTI, suite de l'année 1216. - ٢١٨

WILSON, pp. 168 - 169 et lettre de Hutchinson à Sidney Smith - ٢١٩
sans date, mais juillet 1801, BARROW, I, pp. 433 - 434.

RIGAULT, p. 354. - ٢٢٠

Victoires et Conquêtes..., XIV, p. 101 : ordre du jour 20 messidor an IX (9 juillet 1801). - ٢٢١

B6 71, Menou à Bonaparte, le 21 messidor an IX (10 juillet 1801); ROUSSEAU, pp. 412 - 413 (texte partiel). - ٢٢٢

Menou à Fourier, le 1^{er} prairial an IX (21 mai 1801), - ٢٢٣
ROUSSEAU, p. 405.

Voir la lettre de Lord Keith à Menou, *Keith Papers*, pp. 334 - 335. - ٢٢٤

Sur toutes ces affaires, voir les *Keith Papers*, en particulier - ٢٢٥
l'introduction du chapitre sur l'Égypte, pp. 235 - 237.

SHANKLAND, pp. 141 - 142. - ٢٢٦

Ensemble de lettres de juin à août 1801, dans BARROW, I, pp. – ٢٢٧
425 - 438.

Rigault, pp. 381 - 382. – ٢٢٨

Sur cette question, voir mon article, "L'Égypte en 1802 : un – ٢٢٩
rapport inédit de Sébastiani", *Annales Islamologique*, Le Caire, I.F.A.O.,
XXIII (1987), pp. 99 - 116.

B6 73 : État de la distribution de l'armée française en Égypte par – ٢٣٠
les forces combinées de la Grande - Bretagne et de la Turquie.

Cette correspondance se trouve en B6 74. – ٢٣١

Histoire Scientifique..., VIII, p. 421. – ٢٣٢

٢٣٣ - إن حالة الجنرال البارون ديسفيرنو في حالة نموذجية ، إن سلاح ضباط الهرسار
الصالح قد فقد الحظوة ، بسبب تعلقه الديني بذكرى قائده للجيد (كليهر) . إن لحناً منهم لم يدع إلى
الخدمة لا في الحرس القنصلي ولا في الحرس الإمبراطوري ، وقد أرسل إليهم من باريس القائد
وإدريس سراليا في حين أن الضباط الذين كانوا يختارون لهذه الوظائف كانوا منذ وقت طويل
يجيئون من بين الضباط العائدين من مصر. والحال أن الفوج نفسه لم يتأخر في تخصيص دفعة
ناپليون الثانية ، لأنه (الفوج) أعوب بصوت عال من السخط الذي لحس به . وجرى حل الفوج
وبتجه ديسفيرنو إلى نابولي للعمل تحت إمرة جوزيف بوناپارت ثم موراء

Mémoires du général baron Desvernois publiées par Albert Dufourcq, Paris,
1898, p. 273.

Correspondance de Napoléon, le 22 novembre 1801. – ٢٣٤

خاتمة

الثورة الفرنسية والإسلام

إن فاعلي الثامنا، شعوباً كانوا أم أمراء، إنما يريدون ألا تمثل إمبراطوريتهم غير أنهم لرض موحد، ترونو إليه عين السلطة للتكبرة، نون أن تصانف أي ثباين يجرحها أو يحجب نظرها. القانون الواحد، التناهي الواحد، القواعد الواحدة، وإلا ما أمكن الوصول إلى ذلك، اللغة التي تفرد تدريجياً واحدة؛ ذلك هو ما يجري اعتباره تمام كل نظام اجتماعي. والدين يهكل استثناءً، وربما كان ذلك بسبب كونه عرضة للازدراء، حيث يجري النظر إليه بوصفه زيفاً بالياً، يجب توكه يموت في سلام. لكن هذا الاستثناء هو الاستثناء الوحيد، ويمكن الاستعاضة عنه بالعمل على فصل الدين عن المصالح الدنيوية، إلى أبعد حد ممكن.

وفيما يتعلق بكل ما عدا ذلك، فإن شعار اليوم العظيم، هو التجانس، وإنه لأمر مؤسف أنه لا يمكن عدم جميع المدن، حتى يتسنى إعادة بنائها كلها على مستوى واحد، كما أنه مما يؤسف له أنه لا يمكن تسوية جميع الجبال، حتى تصبح الأرض مستوية في كل مكان، وإني لأعش لعدم صدور الأوامر إلى جميع السكان بارتداء لباس موحد، حتى لا يحصل السيد بعد برقشة متخلفة وتهايناً مزعجاً، ويترتب على ذلك أن للفريرين، بعد التواثب التي كابدها في هزائمهم، لابد لهم من مكابدة نوع جديد من التواثب، إنهم في البداية ضحايا لوهم البطولة، وهم بعد ذلك ضحايا لوهم التجانس.

بنجامين كونستانت

من روح الفتح والاحتصاب، ١٨١٤

المحطلة

إن حملة مصر هي المحطلة للانطلاق لسياسة التوسع الثوري، التي أكنها انقلاب ١٨ لروكتيلور. وبما أن الفضل يجب أن يستمر ضد بريطانيا العظمى وأن الاستطلاع يزال

في إنجلترا مستحيل بسبب التفوق البحري البريطاني، فإن حكومة الإدارة لا يمكنها تصور خيار آخر غير فرض حصار قاري أو الاضطرار بعمل ضد الهند. والحال أن تصور تاليران لتوسع في البحر المتوسط من جانب فرنسا وحلم بوناپارت الشرقي قد قانا إلى الخيار الثاني. وقد رأى الإنجليز أن التهديد الفرنسي هو في واقع الأمر بالغ الخطورة بالنسبة لممتلكاتهم في الهند ولتجارتهم مع تلك المنطقة من العالم. وأياً كان الأمر، فإن الحل المتمثل في الحصار القاري كان يمكن له، هو أيضاً، أن يجر بالضرورة إلى تشكيل ائتلاف ثان ضد فرنسا.

ومن المؤكد أن هيلب واحد من أفضل الجيوش الفرنسية كان محسوساً بصورة قاسية خلال المحطات الحرجة لهزائم صيف ١٧٩٩. على أن حكومة الإدارة قد نهجت، حتى قبل عودة بوناپارت، في صد خطر الفوز، وفي عام ١٨٠٠، أنجز القنصل الأول هذا العمل بإرغام نول القارة (الأوروبية) على الانسحاب من الائتلاف. ولم تكن هناك حاجة لاستدعاء جيش الشرق خلافاً لتصور كليبر.

وبما أن الجيش قد هلك أساساً على موارد البلد [مصر]، فقد كانت التكلفة المالية للحملة جد متواضعة. أما الخسائر البشرية فهي بعيدة عن أن تكون جسيمة؛ في ثلاثة أعوام، ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة ضابط وجندي وإداري وموظف يجب طرح نحو ألفين منهم عائداً إلى الوطن. ومن المؤكد أن السبب الرئيسي للوفيات هو الأوبئة، وخاصة الطاعون^(١). إننا بعيدون عن المذابح الجماعية التي شهدتها الفانتييه والحروب النابوليونية. وحملة سانتو دومينجو وحدها، في عام ١٨٠٢، سوف تجر، في وقت أقل بكثير، إلى موت واحد وعشرين ألف جندي بسبب الوباء وصبعة آلاف جندي في المعارك^(٢). أما آثار معركة أبو قير البحرية فهي أكثر جساماً؛ ليس بسبب تدمير عدد معين من السفن الحربية الفرنسية بلدر ما هو بسبب فقدان روح المبادرة والرغبة في تجنب المعارك واللتين سوف تميزان مسلك ضباط البحرية الفرنسية في السنوات التالية.

وقد اشلت الحملة أخيراً بسبب رغبة بريطانيا العظمى المتصلبة في عدم التسامح مع هذا التهديد الدائم لإمبراطوريتها الأخذة في التشكل في الهند، وبسبب إصرار الباب العالي الشرس على الدفاع عن وحدة أراضي الإسلام، وبسبب استحالة إرسال تعزيزات إلى مصر من جراء غياب الأسطول، وبسبب الأزمة المعنوية للجيش، لولا بين صفوف الجنود العاديين ثم في داخل القيادة. والحال أن موقف بريطانيا العظمى وحده هو الذي كان محل دراسة من جانب من شجعوا على الحملة. وسوف يدرس ناپوليون، وقد أصبح

إمبراطوراً، الاضطلاع بحملة جديدة ضد الهند، لكنها في هذه المرة قارية بشكل خاص، مع تعاون الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية (٣). ولابد أنه قد استوعب دروس حملة مصر.

الحملة الاستعمارية

إن للتركة الأساسية لحملة مصر هي تركة علمية وإيديولوجية. ونحن ندين لها أولاً بهذا الأثر المهم، اوصاف مصر، وهو عمل يثير الإعجاب ويكمن في أساس أية معرفة علمية عن مصر لكادت مصر القديمة لم مصر الإسلامية. وبعد ذلك بهضيم سنوات، سوف يسمح اكتشاف حجر رشيد تلك أسوار الهيروغليفية من جانب شامبوليون. وهكذا، سيتم الانتقال من إحييتومونها أواخر القرن الثامن عشر إلى إحييتولوجيا القرنين التاسع عشر والعشرين. ثم إن الفن الفردي والأدبي في القرن التاسع عشر سوف يتميز بالتهيمات المصرية والشرقية، خاصة في ميداني الرسم والنخرفة.

وسوف تجرى استعادة التجربة للمصرية مع فتح الجزائر، إن عدداً كبيراً ممن سبق لهم أن خدموا في مصر سوف يخدمون هناك وسوف ينقلون خبراتهم، لكن الأزمات لا بد وأنها قد تغيرت؛ فهدلاً من الرغبة في إنشاء مستعمرة فرنسية - عربية قائمة على صهر الشعوب في إطار الحضارة الظاهرة كما أراد ذلك بوناپارت بوصفه تلميذاً نجيباً لفرنسي، سوف يجرى تشكيل نظام سيطرة واستيطان مع تشديد على المحتوى للمسيحي. والحال أن ناپوليون الثالث وحده هو الذي سوف يتمكن من استعادة فكرة مع مشروع المملكة العربية، لكنه لن يتمكن من تحويله إلى واقع ملموس. وفي الجزائر، سوف يجرى الابتعاد من ثم من أفكار الثورة الفرنسية.

وفي المقابل، سوف تسمح حملة مصر بنسج علاقات مركبة بين فرنسا ومصر على مدار القرن التاسع عشر.

نقل الإيديولوجيات

لقد كانت لدى الفرنسيين بشكل واضح رغبة في أن يطبقوا في مصر برنامج التجديد الاجتماعي العزيز على الفئة الثوار. وقد حالت قوة الأشياء دون تحقيق ذلك البرنامج من الناحية العملية. فالأرياف وحدها هي التي استفادت لمدة جد قصيرة من

استعادة النظام العام. على أن مياكل ملكية الأرض، أي نظام الالتزام، قد تعرضت لانقلاب حاد بحيث إن العودة إلى النظام الزراعي القديم سرعان ما تتكشف استحالتها. إن مشاريع القرية سوف يصبحون من الآن فصاعداً في علاقة مباشرة مع جهاز الدولة.

وصعود محمد علي إلى السلطة إنما يتم وسط انتفاضة للفلاحين ضد سلاطتهم العثمانيين. وحدث ١٨٠٥ هو المحصلة المنطقية للتداعيات الموجهة إلى المصريين لولا من جانب العثمانيين ضد المماليك في عام ١٧٨٧ ثم من جانب الفرنسيين. وبشكل مشوش يبدأ في الظهور وعي القوم، إلا أن الأمر سوف يتطلب عدة عقود أخرى حتى يتسنى له التعبير عن نفسه بوضوح. إن السيد الجديد لمصر هو قبل كل شيء مصلح عثماني ووريث عن جدارة لأحمد باشا الجزائر ولعلى بك الكبير. والواقع أن الجزء الأول من عمله الداخلي (للقضاء النهائي على الالتزام، وفرض احتكارات اقتصادية على الإنتاج الزراعي والحرفي، والأشغال العامة الكبرى) إنما يعد عودة إلى ممارسات مؤسسية الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم فإنه يشكل نخباً لثلاثة قرون من التطور السياسي والاقتصادي. وبناء صرح إمبراطورية توحد الجزء الأكبر من الشرق العربي ليس غير استئناف على نطاق أوسع لمشاريع عظماء ممالك القرن الثامن عشر.

لكن الأزمات قد تغيرت هنا أيضاً. فمحمد علي، السياسي العظيم، قد أدرك بسرعة بالغة أن عليه أن يأخذ في الحسبان السياسات الأوروبية في المنطقة. إن حملة مصر قد انتهت إلى الأبد هزلة مصر وإلا كانت فرنسا تبدو أكثر من محبذة لمشاريعه، فإن إنجلترا، منذ عام ١٨٠٧، تعلن أنها خصم لها. وذلك الذي يسمى الآن وإلى مصر يحب مجالسة القناصل والرحالة الأوروبيين. ومنذ بداية عشرينيات القرن التاسع عشر، يدرك ضرورة البحث عن سند من جانب الرأي العام الأوروبي وخاصة الفرنسي، وهو ينظم عملاً دعائياً منهجياً يهدف إلى تصويره في صورة اللواصل للسلم لعمل بونابارت. وهو يستعيد لفته، فهذه هو أن يوطد أركان الحضارة إلى الأبد في مصر وبوجه عام في الولايات التي يحكمها. وبينما يصور نفسه في العالم الإسلامي على أنه المنقذ عن الإسلام، فإنه يسعى إلى الظهور في أعين الأوروبيين بوصفه المخلص للثورة الفرنسية. بل إن ابنه ومساعدته إبراهيم باشا سوف يعضى إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير وسوف يتفاخر بأنه المعيد لجبروت العرب.

وإذا كانت كل هذه الأفكار الرئيسية قد وجهت بشكل أولى إلى الرأي العام الأوروبي، فإنها لن تتأخر عن أن تصبح حقائق شرقية. إن محمد علي يرسل بعثات دراسية إلى

فرنسا، وأحد التلامذة الشبان المؤيدين للعلماء أنصار التنوير، رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣)، يكتب قصة وحلته إلى فرنسا. وقد أمر الوالى بنشرها فوراً بالعربية (١٨٢٤) وبالتركية (١٨٢٩)، كما يأمر بتوزيعها على موظفيه؛ وهذه القصة هي بالدرجة الأولى تبرير لسياسة «الحضارة». إن الدال عتقنا نلجأ، فالإيديولوجية التعدينية تصبح الفكرة الرئيسية، الإيديولوجية الكبرى المبررة لسلالة محمد على. لكن الإسلام عند دعائها الشرقيين، بدلا من أن يكون عدو الحضارة، إنما يصبح مكوناً أساسياً من مكوناتها. وهكذا نصل، في أواخر القرن التاسع عشر، إلى الإصلاح الإسلامى للشهيد الذى مثله السلطنة التى، مع منزلتها لهيمنة أوروبا السياسية، لا ترفض بالضرورة مكتسباتها الفكرية والأخلاقية.

ولذا كان من الواضح أن فكرة «الحضارة» هي الفكرة الرئيسية الأولى من بين تهاجلت الفكر الثورى التى يتم تبنيتها في الشرق، فإن فكرة الوطن سوف تتلوها بسرعة. إن الطهطاوى يعلن بصوت عال أن الجماعة المسلمة التى يريد العمل على تلقيها، إنما هي الوطن، مصر (٤). واستقلال مصر الذاتى للتزايد، والتمصير التدريجى لجهاز دولتها والاتصال بالأفكار الغربية إنما تلخص كلها هذا التجديد التام الذى يترج تطوياً جرى تدشينه في الربع الأخير من القرن الثامن عشر. وسوف يسمح اكتشاف مصر القديمة بإضافة بعد «مرونى» إلى هذه النزعة القومية المصرية الوليدة.

ويتواجد هذا التأكيد لفكرة الوطن بين جميع شعوب الإمبراطورية العثمانية. إلا أن تحديد إطار جغرافى سوف يبدو صعباً من جراء تناخل الشعوب واختلافات الدين، خلافاً لما هو عليه الحال في مصر، وهنئذ فإن اللغة سوف تصبح معياراً للتجمع وسوف نشهد ظهور نزعة جامعة تركية ونزعة جامعة عربية. وسوف يتمثل حل آخر في مطابقة الدين ليس بطلالة بل بأمة؛ تلك حالة الجامعة الإسلامية. والحال أن محاولات إقليمية محدودة أكثر، كالنزعة القومية القبطانية التى يجرى مطابقتها غالباً بالطائفة المارونية، أو كالمسيحية القائمة من الخارج، سوف تكون فتاح هذا للزيج من الدين والأمة.

إن «الحضارة» و «الأمة» سوف تكونان الفكرتين الأساسيتين من بين أفكار الثورة الفرنسية اللتين يتم تبنيهما من جانب شعوب الشرق. وسوف توجد هاتان الفكرتان الرئيسيتان العظيمتان بشكل دائم في خطابات فرنسيين حملة مصر. فهل يعنى هذا أن الكتابة التاريخية الليبرالية في القرنين التاسع عشر والعشرين محلة في اعتبار أن هذه السنوات الثلاث تكمن في أسس إدخال الحدالة إلى الشرق؟ الواقع أن الفكرة مغربة وقد

أشار إيديولوجيو هذه الحركات المختلفة إلى هذا الأصل، إيديولوجيو النزعة المصرية في القرن التاسع عشر بالنسبة للحضارة وللامة وإيديولوجيو النزعة الليبانية الذين اختلفوا تفاهماً لم يوجد قط بين بونهارت والأمير بشير^(٥)، وإيديولوجيو النزعة العربية الذين أشاروا إلى نشاطات بونهارت إلى الوطنية العربية، وإيديولوجيو الصهيونية الذين نسبوا إلى البطل نفسه مشروع دولة يهودية. كما أن الإسلام السياسي للباب العالي ولإنجليز، والذي طرح بهدف مواجهة أفكار الثورة الفرنسية، هو أيضاً الاتجاه المهيمن لنزعة الجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر والحركات الإسلامية السياسية للعاصرة. وفي كل مرة تنوطد فيها حركة إيديولوجية وسياسية في الشرق العربي، يمكننا أن نجد ابتهاجاً مهيماً لها في هذا الحدث المذيق عن الثورة الفرنسية. إلا أنه من الواضح، قلهم إلا إذا سلمنا بأنمته كمون جد طويلة أحياناً (نحو قرن بالنسبة للصهيونية وبالنسبة للنزعة العربية)، أنه يجب الاعتراف بأننا لا ندرك جيداً النسب التاريخي بين معاصري الحدث وإيديولوجيات أحفائهم البعيدين.

ولابد من العودة إلى أصل للمشكلات، وإذا ما رأى المرء أن حملة مصر هي أيضاً نتاج استشراق، هو استشراق التنوير، الذي هو سياسي بقدر ما هو علمي، وإذا ما اعترف المرء بأن الاستشراق ليس مجرد لغو إيديولوجي، فإن الحل يتكشف. إن رجال التنوير لم يفهموا الشرق للعاصر لهم -، ولشل دعايات الحملة المختلفة بثبت ذلك بوضوح -، لكنهم قد فهموا الشرق في صيرورته إلى المستقبل. وعندئذ فإن ما جرى بين عامي ١٧٩٨ و١٨٠١ في المكان الممتد بين البحر للتوسط والإنديوس إنما يظهر بوصفه مختبر سياسات للمستقبل، مدغلاً يجرى فيه إعلان كل الأفكار الرئيسية الكبرى. وفي أوروبا، كانت الثورة الفرنسية هي أيضاً ذلك الإسقاط الضوئي الفارز لصيغ المستقبل السياسية وبهذا المعنى أيضاً فإن حملة مصر إنما تنتمي إليها تماماً.

حواشي الخاتمة

- 1 VERNET et MICHALON, p. 34.
- 2 Paul ROUSSIER, *Lettres du général Leclerc, commandant en chef de l'armée de Saint-Domingue en 1802*, Paris, 1937, p. 8.
- 3 Voir sur toute cette question, Édouard DREAULT, *La politique orientale de Napoléon*, Paris, 1904.
- 4 DELANQUE, *Moralistes et politiques...*, II, p. 451.
- 5 Voir à ce sujet, le remarquable article de Joseph MOUAWAD, "Bonaparte et les communautés libanaises", *Cahiers de l'Orient* n° 14 (1989), pp. 225-241.

الفصل التاسع

الحملة الفرنسية ضد مصر العليا بحثاً عن مواقع الآثار أو

كشف العمارة الفرعونية

بقلم : جان - كلود جولفان

من المؤكد أن مصطلح «الكشف» هو للمصطلح الذي يصف على أحسن نحو رد العمل للتميز بالانبهار من جانب أفراد الحملة عندما يكتشفون للعابد العظيمة في مصر العليا. وهو يعبر أيضاً وبالدقة نفسها تماماً عن الواقع الذي يحدث في أوروبا لاكتشاف لوحات وأوصاف سوف تتمكن، بقوة لأول مرة، من عرض مصر القديمة الفاتنة هذه والتي هي ماثولة وغنية بالأسرار في آن واحد.

واتصاع العمل الذي أنجزته الحملة هو من الرحابة بحيث أنه لن يتسنى لنا استحضاره إلا في سماته المريضة. وإذا كان واقع إن تقديم صورة إجمالية جد أمينة له في صفحات قليلة ليس بالأمر السهل، فلنحاول على الأقل الإشارة إلى أهميته وأصلته.

والعنوان الذي اخترناه يعبر دقة واحدة عن خيار لا يمكن لطابعه الاختزالي أن يفي به عن البال. وهو لا يبرر نفسه إلا بالولعية في تركيز اهتمامنا على العصر ومن باب التفضيل على الهند أيضاً، واللذين كانا آنذاك من بين العصور والبلاكن غير المعروفة بشكل جيد، لكنه قلما يهدف إلى اتخاذا موقف يتجاهل عن عمد جودة الأعمال للجزء الأخرى، خاصة دراسة العمائر القبطية والإسلامية. ومن ثم فلن يكون بوسعنا ذكر اللوحات الرائعة المكرسة للمساجد والقصور القاهرة أو لعمائر الكثير من المدن المصرية الأخرى، وهي لوحات سوف تكون هي أيضاً، في أوروبا، مصدر كشف، كما أننا لن نشير أيضاً إلى تلك

اللوحات التي تستحضر للمشاهد الطبيعية والنشاطات البشرية التي لا حصر لها والتي تصور أيضاً في إطارها اليومي. وإذا كنا نضرب صفحاً إسفين عن الصفحات الخاصة بالفترات الأحدث في التاريخ المصري، فإننا سوف نفضل لقفلة أثر الحملة في إكتشافها لأقدم آثار وادي النيل. إلا أنه لا بد لنا من التذكير على نحو موجز بما كانت عليه حالة المعارف المتعلقة بالآثار الفرعونية في عتبة هذا الحدث.

الأسلاف

لقد أتاحت لنا الفرصة لكي نشير إلى أهمية أعمال رحالة عتيدين قادتهم الأقدار، في ظروف مختلفة، إلى زيارة مصر العليا وتسنّى لنا أن نوضح أنها قلما سمحت بتكوين فكرة محددة عن الواقع^(١). والحق أن هؤلاء الكتاب لم يكن بوسعهم في أغلب الأحوال أن يكتفوا بطولاً في مواقع الآثار أو حتى مجرد أن ينزلوا إليها. وكان على الكثيرين أن يكتفوا بتسجيل مجرد ملاحظات سريعة وقليل من الرسوم الكروكية. ولم يكن بوسعهم أن يستحضروا إلا بشكل تقريبي ما لموه في اجتيازهم لهذه البلاد^(٢) من أجل غاية مختلفة تماماً عن القيام بما نسميه اليوم بالآركيولوجيا.

وتلك، على سبيل المثال، هي حالة القبطان الدانمركي ف. ل. دوردن الذي وجد لزماً عليه العزم، في ١١ ديسمبر ١٧٢٧، على رسم معبد آمون رع في الكرنك من سفينة^(٣). على أن رسماً رسمه بعد ذلك بشهر و. بوكوك، النفس البريطاني الشاب، يقدم بالفعل صورة للمواقع الأثرية تحدد جيداً الجانب الأساسي من خصائصه. ولا بد من قول إن بوكوك، وهو محارب أنكى من سلطه المباشر، قد توصل إلى التجول في الأماكن وإلى إعداد وثائق، وسوف تسمح له هذه الوثائق بنشر لوحات تعتبر جودتها مدعشة خاصة إذا ما تذكرنا قصر إقامته في الصحابة^(٤). وقد تسنّى له أن يقدم لهذا المعبد رسوماً ولوصالاً لا مثيل لها آنذاك. على أن هذه الأعمال، بالرغم من مآثرها التي لا يمكن الشك فيها، لم تكن كافية لكي يتمكن المرء في أوروبا من تكوين فكرة كاملة عن العمائر ومن تكوين نهاية عميقة بجميع مواقع الآثار.

على أن صورة الظروف الواقعية التي اصطدم بها الرحالة آنذاك قلما تتطبع من كتابة لحد للمجهين بروسو، وهو كلود سافاري الذي قضى ثلاثة أعوام في مصر (١٧٧٦ -

(١٧٧٩) نون أن يفكر القاهرة. وقد لا لسألتني أن يترجم عشقه للطبيعة وإن يقدم صورة مثالية للبلد، من شأنها إغراء جمهور شعبي، مهياً لتقدير اللاتن. والحال أن كتابه «وسائل من مصر»، والذي يشرح هذا التهيؤ، سوف يعرف لهذا السبب ترحلاً واسعاً، لكن كل ما يتعلق بمصر العليا ما كان يمكن أن يتلخص إلا على أعمال سابقة. إن البلد، الفارق في حرب أهلية، يجري تصويره كما لو كان قريوفاً أرضياً حقيقياً حيث كل شيء هو حسن وجمال ورفاهية ميسرة. (٥)

وفي مقابل اللام اللاتن الذي جعل سقاري معاصريه يحلمون به، نجد تصور فولبي الذي قضى سبعة أشهر، في عام ١٧٨٢، في مصر مختلفة تماماً بشكل بات ا للصورة، في هذه المرة، هي صورة بلد مترو يسود فيه البؤس والفوضى والتجهيل. وتظهر العمارة سلبية بقدر ما أنها تبدو له منبع طغيان ملوك القماء وتعبيراً لتفكاريك عن سلطة استبدادية بغيضة. وبالنسبة لفولبي، فإن هذه العمارة لم تنتج غير الأعمال البربرية، وهو يريد إخلاء الشرعية على تدميرها، الذي يجري النظر إليه إجمالاً بوصفه انتقاماً عادلاً من جانب الشعب المضطهد في مواجهة أعمال تثنى على فطرسية المستبدين القداماء. (٦)

والشعور الذي يعبر عنه أ. س. كاترمير نو كوينسي في عمله، «عن العمارة المصرية»، قلما يعتبر إيجابياً أكثر، وصحيح أن الكاتب الذي لم يستطع الرجوع إلا إلى أعمال نودين وهوكوك يعترف بالطابع القاصر للمصاغر، «إن رسوماً على هذه الدرجة من المسطحية لعمائر اليونان كرسوم الرحلة التي سوف تظهر إليها لا شك أن من شأنها حفظ أفكار جد قاصرة أو جد خلطت عنها». لكن هذا الاعتراض قلما يجعله أكثر تسليماً؛ ومن الواضح أن المقارنة مع العمارة اليونانية، استندت إلى مثل هذه الوثائق، لا يمكنها إلا أن تكون ظالمة. إن كل شيء في العمائر المصرية، التي ينظر إليها بهذه الطريقة، إنما يبدو له خليقاً بالإبادة، التماثل للمل، الثقل الهسيم، القباحة، لتعلم نسق الأبعاد، الزخرفة التي لا تبدو أن تكون نتاج المصانعة، وتعبيراً عن نوعي مثالية. وليست هناك كلمات التي من هذه الكلمات لترجمة تقدير عام يظل سلبياً، وشبه تجريحي. وهو يضيف أن من المؤكد أنه يجري القضاء على كل تنبه للشعور بالجمال لدى الإنسان «إلا ما حكم عليه بمشاهدة التماثيل المصرية، أو حتى بمشاهدة تيجان أعمدة العمائر، إذ ليس هناك تاج عمود واحد بينها يمكن للنظرة للتدولة تحمل مشاهدته» (٧).

باختصار، ليست هناك رغبة لا في تقدير هذا الفن، ولا في بذل جهد لتكوين دراسة أفضل بهذه العمارة، والحال أن هذا التصور للشعره الأمور، هذا الانعكاس للشك في نسق القيم للتمسك على قواعد الفن الأخرى التي لا تتألف، هو الذي يحسود في مشية الحملة. ويجرى الاعتراف للفن المصري بالحياة والرسوخ في لحسن الأحوال، وهو اعتراف نادر تماماً، وتعارض كراه سافاري وفوانيس من البلد نفسه لا يمكنه هو الآخر أن يسهل فهماً، من أوروبا، لواقع ما يزال معزولاً بدرجة بالغة السوء. وأخيراً فليس هناك غير معنى واحد يمكن فيه لهذه العمارة الفرعونية، وهي النتاج الفاضل للاستبداد والتي كانت منذ قليل جديرة تماماً بالاحتقار، أن يكون لها فضل في نظر فوانيس. (إن أمة صديقة للفنون الجميلة... سوف تجد هناك موارد للوقوف على العصر القديم... لأن هذه العناصر المدفونة في الرمال تحافظ على نفسها هناك كودعة للجيل القادم؛ وهو يستشعر أن «من الواجب تعليق تمنياتنا وأملنا على هذا الزمن الذي ربما كان أقل بعداً مما يحسب للمرء» (أ).

وبعد أقل من خمس عشرة سنة، يجري الاضططلاع بالحملة وكان المرادها قد اطلعوا على كتبات هؤلاء الكتّاب، ولكن أي مصر التي سوف يتم اكتشافها وخاصة في أية حالة ذهنية، من تلك البلد الفاتن الذي صوره سافاري لو من تلك الواقع القاسي الذي تحدث عنه فوانيس؟

فيضان تلخون

إن غزارة الوثائق تفرض، هنا أيضاً، القيام باختيار صعب وفرض علينا الاستناد من باب أولى إلى شهادة أفراد الحملة الأكثر اهتماماً بالمسألة.

ومن بين هؤلاء، يحتل فيضان فينون مكانة فريدة. فهذا الرجل الأكبر سنّاً بكثير من غالبية رفاقه، سوف يهبط بسنوات عمره الإحدى والخمسين شيئاً لو لم يكن قد حافظ على فضوله الفكري ومواهبه المتنوعة كرسام وكراوية، وشجاعة ودوح مباشرة لفيضان هشاب. إن ثقله الراسعة، وسمر شخصيته ولطافته أيضاً كجلبس ملوك سابق تمكن دائماً من أن يجتاز بترويق جميع انتقالات عصره، والتمكّن أخيراً، قد جعلت من هذا الفولتيري الجسور رجلاً سوف يتمكن من فتح جميع الأبواب أمامه، ومن أن يجتلب دفعة واحدة عطف ورمية مينو الذي يقترب عمره من عمره أيضاً، ومن أن يلتفت أيضاً العسكريين للذين سرعان ما سوف يتحرك معهم إلى مصر العليا. والحال أن شخصيته

القوية وعمره ومسيرته العملية للتقدم تماماً بالفعل إنما تجعل منه مراقباً نكياً، يتميز أساساً بتنوع نظره إلى الأشياء وإلى الناس وأكثر مما يتميز بالحرص على الدقة العلمية. وخلافاً لأفراد الحملة الشبان والذين غالباً ما يشكلون فريقاً، فإن هذا الرجل سوف يعمل منفرداً.

وهذا الاستقلال الذهني جد الراسخ بخصي، هو أيضاً، لصالة على تجربته في هذا البلد الذي يحب فهم جميع جوانبه. وهكذا، فإن العمائر، بعيداً عن أن تشكل بالنسبة له موضوع اهتمام وحيد أو رئيسي، سوف يجرى استحضارها في الوقت نفسه جنباً إلى جنب الأحداث التي تقوده إلى الأملكن، في سياقها للعلم، على نحو ما تبدو له. وفي القاهرة، وأينما يهتم بأي القبول لدى اهتمامه بالسكان للجائدين. إن دينون يلقى دائماً حوله نظرة انضوائية تبدو، مع موعاة جميع الاختلافات، اقرب اليوم إلى نظرة مسحلي منها إلى نظرة لحد علمه الأركيولوجيا. وفي مصر العليا أيضاً، سوف يبدو منجذباً بقدر واحد من الدقة إلى العمائر القديمة كما إلى العائلات والأشياء والحكايات التي يرويها دائماً بقدر كبير من الرحلة ومن الصبور. ومن ثم فإن عمله يتميز بالحيرة والتنوع ويحتلب المتعاطف. إنه عمل شامد بجيد الرؤية وجيد الرواية. وقد تمكن أن يقال عنه : إنه يفكر ككاتب، كفتان وليس كعالم. الأمر الذي يجعل قراءة مخطوطه أكثر لمتلماً من قراءة مذكرات للمعهد المصري (٩).

ومن خلاله، يمكننا أن نتبع التحول الحقيقي لنظرة أوديسي مثقف يدخل في اتصال مع واقع جديد عليه. والواقع أن من الواضح أن العمارة الفرعونية تثير لديه، في البداية، تأملات تتناسب مع أفكار قراني التي تشوبها، فالأمراء، على سبيل المثال، قلما تستحق ثناء : إن حجم المقطرة الذي أدى إلى الاضطلاع بينائها إنما يبدو أنه يتجاوز حجمها للمدى : ولا يعرف للرد ما الذي يجب أن يكون أكثر إثارة للمعشقة في هذا الأثر، الجنون الاستبدادي الذي لجأوا على إصدار أمر بتنفيذ، أم الرخسوخ الأحق من جانب شعب مد سواعده من طيب خاطر إلى بناء مثل هذه العمائر.

إلا أنه لن يتأخر في تغيير رأيه خلال الرحلة التي قام بها بعد ذلك بوقت قصير في مصر العليا في أثر جيش بيزيه، لأنه قد تمكن من أن يرى ومن أن يتحسس. وسوف يتطور رأيه وسوف تعبر استجاباته من نفسها بكل الاستقلال الذهني الذي يميزه. ولما كان منخرطاً في سياق الحملة وناضجاً تماماً بحيث لا يمكنه ألا يحكم بموضوعية على حدود

هذه الحملة وجوانبها الواضحة، فإنه لا ينظر إلى هذه الحملة الوضوح وأحوال الحرب إلا على أنها مجاوزة للحد. ولا يستثمر طاقته بشكل كبير من ذي قبل في الانكباب على فئة، كما لو كان لكي يفسى الجانب الأليم لهذه الحملة، فإنه يلتقط بقدر كبير من الاهتمام كل ما يمكن لاصر الحياة هذه أن تمنحه إياه. وقد جرى التعبير عن مجمل موقفه الثابت بهذه الكلمات: «ما الذي يفعله في معمران للمعركة؟ إنه يراقب. وما هو سلاحه؟ قلم رصاص... لأنه لا يحارب للماليك بل يحارب للنسيان» (١٠).

ولمأم عمائر طيبة، يتقاسم بحماسة فتية انفجار البهجة الحقيقى الذى يستولى على الجيش ويترجم تطور شعوره تجاه تلك العمارة، التى يتم النظر إليها هذه المرة في إطار طبيعى ملائم لأهميتها، في حين أماكن عظمتها. لقد كانت هذه اللوحة أيضاً أشبهًا بلغ الضخامة بالنسبة لخيالنا بحيث إن الجيش، لملم مظهر هذه الأطلال للبعثرة، يتوافق من تلقاء نفسه، وبحركة عفوية، يصفق، كما لو أن احتلال آثار هذه العاصمة كان هدف أعماله للجبهة، وكما لو كان قد أنجز فتح مصر.

ويجرى تدشين الانسحاق إلى تقدير كامل لمشهد هذه العمائر وسوف يجد دينون من جانب الجنود، بحسب كلماته نفسها «ركباً يستخدمها كمسندة وأمسكاً توفر له الظل».

ولم يثنوه، كان العهد الكبير هو الآخر قد أثار فتنة الجميع والرأى المعبر عنه يتعرض بشكل صارخ بالفعل مع الأفكار التى كان مشهد الأهرامات قد تمكن من انتزاعها من دينون فأعرب عنها: «منذ اللحظة الأولى التى رايت فيها هذا الأثر، فإن ما لا يمكننى الشك فيه، هو أن الإغريق لم يهتكروا شيئاً ولم يهدموا شيئاً يتميز بطابع أعظم من طابع هذا الأثر».

وليس بالإمكان التعبير بشكل أفضل عن التحول الحقيقى الذى يحدث في ذهنه بحرف المنتثر عما في كلامه من مهالفة، تعتمد اللجوء إليها بلا شك لكي يترجم بشكل أفضل الدهشة التى أحس بها.

إلا أنه سرعان ما نجد أن السورة ظروف الحياة وسط حملة معرضة للمخاوف والخطايا ما تنجر إلى التمتع خلال مطارفتها لمراد بك الذى يتعرض الإمساك به، والمحن، والصن والحر للزنج، تصل دينون إلى حد الاستنزاف. وفي طريق عودته من أسوان، يكف عن الضعور بهجة الاكتشاف الأول لطيبة. فعندما يرى أطلالها من جديد تعالوه الكرامة القديمة، «ألهة وثابة» [...] ألهة كأية «إننى أستقرب برعب نظام حكم كهذا» إن الآثار التى خلفها تخيلنى وتروعنى «».

لكنه سوف يواصل بلا كلل عمله، فهو يعثر في مرات كثيرة أيضاً على أسباب للتحمس ويبقى مثلباً كأن في الواقع على منظر حياته «متكباً دائماً على التعلم، وتوافقاً إلى أن يزيد بلا توقف لخيرة معارفه الوافرة».

وعندما يرجع إلى فرنسا مع بوناپارت منذ يوليو ١٧٩٩، فسوف يكون بوسع أن يفكر بشكل أسرع من لفرانك للحملة الآخرين في نشر أعماله، لكنه، إذا كان يصل بذلك إلى استباق الجميع، فإنه يدرك أيضاً حدود عمل شخصي يعرف أنه لا يمكن أن يقارن بالنشر التالي لأعمال فريق يكمله. ولا يمكن اتهامه، على أية حال، بأنه قد تباعد عن رفائه عندما قرر النشر، لأنه ما من شيء كان يسمح بمعرفة ما إذا كانت ظروف الحرب سوف تتيح بعد إنجاز أعمالهم أو مودة واثقتهم. وإذا كان الوضع قد كان، لسوء الحظ، جد كارثي بالنسبة للحملة بالدرجة التي كان يمكن معها الخوف من ذلك، ألقن نكون على أية حال مرتاحين إلى التمتع، بفضل، بشهادة قاهرة على أن تقدم لنا فكرة تكمل بكثير من مصر؟

وعندما علم أن العلماء سوف ينشرون أخيراً عملهم، قرر يبنون أن يجرّد عمله من كل ما يشكل «مغامرة بالبحث»، وقد فعل ذلك بشكل ناجز بحيث أن كتابه يمثل خاصة، واحسن الحظ بلا شك، هوميات وحلة، وهو جنس كتابة تفوق فيه للكتاب بشكل خاص. ويمكننا، فإن هذه «الوحلة في مصر السفلى والعليا خلال حملات الجنرال بوناپارت في مصر»، والتي صدرت في عام ١٨٠٢ من دار نشر ديديو، إنما تعتبر قصة تتميز بتلقائية عظيمة حظيت بنجاح ملحوظ جسده صدور طبعات جديدة عديدة. فهذا العمل، الأسهل والأكثر امتعاً في قراءته من كتاب «وصف مصر» المتعمد للجلدات الذي سوف يليه، قد شهد انتشاراً واسعاً، ومارس تأثيراً ألبياً لا جدال فيه.

لقد شدنا كثيراً على خصال الرجل وخصائص العمل الإيجابية بحيث لا يمكننا التردد في الإعراب عن الانتقادات التي تفرض نفسها من زاوية النظر التي نهما هنا وحدها، للمساهمة المقدمة إلى فهم العمائر الفرعونية. وعلى هذا المستوى، فإنه لابد تماماً من الاعتراف بأن لوحات ديديو قلما تتميز بمأثرة أخرى غير مأثرة نشرها قبل لوحات «وصف مصر» فهي، بالقياس إليها، من زاوية تسجيلية خالصة، أدنى مرتبة للغاية. ومن المؤكد أننا سوف نجد أنها أقرب إلى لوحات بوكوك مما إلى العمل النقي الذي راكمه العلماء الشبان الذين سوف يؤمنون كفريق تقديم بيان دقيق عن هذه العمائر للمعها. وقد قلنا إن يبنون لم تكن لديه اهتماماتهم. إن هذا الرجل الأكبر سناً منهم، ولذا التكوين

المختلف والذي يجمع مواهب الكاتب مع مواهب الرسام، إنما يبدو بشكل خاص بوصفه شاهداً يتميز بخبرة حياتية فنية ومتنوعة. وعمله هو عمل فنان، مستقل ومنفتح في أن واحد على جمال للنظر الطبيعي كما على حياة السكان، وهو ليس عمل مهندس يحسب ويستدبط ويفكر بشكل علمي. والكاتب لا يملك لا الوقت ولا الانتهاء الانكباب على دراسة منهجية لهذه العماثر، وإذا كان قد نشر بعض الخطط الهندسية التي تصور القواعد والارتفاعات التي لا تخلو من أهمية، فإن ذلك إنما يحتل مساحة جد محدودة في عمله. والبيان للوجز الذي يتضمن الأشكال الهيروغليفية والنقوش النبطية إنما يسمح بقياس كل اللون للوجود بين رسومه والواقع. والعلامات فيها جد مشوهة والوجوه والأوضاع ليس فيها شيء مصري حقا ولا حتى أشبه مصري في الأغلب؛ وتكثر الفن الإغريقي الذي لم ينجح الكاتب في التخلص منه واضح فيها.

وفي الحلية، يخلط التفاصيل الأكثر تنوعاً خلط العايل بالذابل، دون نظام. وهكذا فإن اختيار الأشياء للتضمنة في بعض لوحاته هو انعكاس لجموح خياله بأكثر مما هو تعبّر عن تصديق منطقي. (١١) ولا تجرى مراعاة النسب الواقعية لعناصر العمارة، وإذا ما استثنينا لوحتين جد جميلتين تستعاض فيهما واجهات العمائر، فإن جميع الرسوم الأخرى تتضمن تشويهات، وأخطاء قياس مهمة أو اتجاهات خاطئة. وميل جدران أبواب المعابد وميل جدران أبواب العمائر مبالغ فيهما دائماً تقريباً، وذلك بحيث إن هذه اللوحات لا يمكنها أن تكلم عن العمارة التي تصورها غير فكرة تقريبية (١٢).

والحق أن الكاتب يكتفي في الأغلب بتمثيل العمائر من حيث هي عناصر منظر طبيعي. وهو حريص على استحضار البيئة المحيطة بالأطلال بأكثر من حرصه على أن يتتبع بدقة شكل الكتل للبيئة. ويتخذ الأثر مكاناً في لوحة إجمالية غالباً ما يكون بهاؤها المثير مبالغاً فيه بشكل مقصود. وهكذا يكتشف للره «منظر معبد الأقصر وسط عاصلة»، أو الأقصر «عند بزوغ النهار»، أو كذلك أشعة الشمس المشرقة على قبة (١٣)

ولابد من الاعتراف بأن هذه الأعمال لا تتميز إلا بالقليل من القيمة على المستوى الأركيولوجي منذ ظهور «وصف مصر». إلا أن من المؤكد أنها كان بإمكانها إشباع الجمهور متى كانت الأعمال الوحيدة المنشورة. ولابد من القول إن غزارة اللوحات والتصويرات، والتي لا يلتفت كثير منها إلى الجمال (١٤) وبشكل خاص حيوية النص إنما تتميز بطيء فائن، إلا أن من المؤكد أن للره لا يمكنه أن يجد هناك وثائق جد مرضية على المستوى العلمي.

المهندسون

يختلف من ذلك تماماً العمل الذى جرى الاضطلاع به بمبصرة من جانب أفراد الحملة الشبان الذين يرأسهم هيرار، مهندس الجسور والطرق. وكان هذا الفريق مكلفاً بجمع معلومات نافعة من الزراعة والتجارة والفنون ولد حدد لها كهدف رئيسى دراسة نظم النيل ونظام الري فى الإقليم. وهذا الفريق المؤلف من « جوليا وديفيليه دى تيراج وديويا - كيميه ودوشانوا (مهندسى الجسور والطرق)، وديكوستيل ودوزير وديوى (مهندسى المناجم) وكاستيه (التحات)، لا يزيد للتوسط العمري لأفراده عن عشرين سنة. و«يوميات» و«كبريات» ديڤيليه، التى نشرها حليده، تقدم عبر لتجربة التى عاشها شلب فى التاسعة عشرة من عمره، قصة لطيفة ومؤثرة عن حياة الحملة فى مصر العليا، منذ مغادرتها القاهرة فى ١٩ مارس (٢٩ فيبروتوز) وحتى عودتها فى ٢٧ أكتوبر ١٧٩٩ (٥ برومير من العام الثامن). وسوف نذهل من هذه القصة لكى نقدم، على نحو مباشر قدر الإمكان، فكرة عن الظروف الصعبة التى جرى فيها الاضطلاع بأهم عمل ينجز حتى الآن فى مثل هذا الوقت القليل عن عمائر مصر القديمة (١٥).

« ويتلقى ديڤيليه من رئيسه أمر رحيل محدد بشكل خالص « (لحيطك علماً أيها المواطن بأن يوم رحيلنا إلى مصر العليا قد تمتد الآن بيوم غد ٢٩. وترتيباً على ذلك أرجو منكم التواجد فى الجيزة فى الساعة التاسعة صباحاً للاستفادة من قافلة مرسلة إلى الجندل بيزيه للتواجد الآن فى أسيوط « وأرجو أن تهتموا اليوم بأن تنهروا حصولكم على الأشياء الآتى بهاها « عدد من أقلام الرصاص؛ « رزم ورق؛ « أنابيب لاصق؛ ٦ أقلام. ومن للحد أن نصل إلى أسيوط بعتكم، ولذا الصوف يكون من المناسب أن تكفلوا المؤن الضرورية لهذا الجزء من رحلتنا. تحية وأخوة، هيرار. »

ويجد للره صعوبة فى أن يتصور أن مثل هذه الإمكانيات الهزيلة يمكن أن تكفى للاضطلاع بعمل على هذه الدرجة من الأهمية كالعمل الذى سوف يلى والذي غالباً ما لابد أن «تؤدى إلى إبطائه عمليات الجيش الذى لم ينجز بعد البتة فتح مصر العليا».

ومنذ الرحيل، فإن جاذبية مواقع الآثار القديمة سوف تفرض نفسها بشكل لا يقاوم على ديڤيليه وصديقه الذى لا يتفصل عنه، جوليا. وسوف يلى الاثنان بسرعة بالغة بمهمتهما الخاصة بتصجيل الصور الجانبية للنيل حتى يسارعا إلى اكتشاف أطلال من

بينها اطلال أنتينوى «المدينة الرومانية التي شيدها الإمبراطور هادريان لى تاناس»
 وفى أسبوط بالتحديد سوف يبدأ حقا، بعد ذلك بوقت قصير، تعاونهما النموذجى،
 بشكل مقبلة لهذا التفتيح النهجى من الآثار المصرية والذي سوف يبارزان به.
 يقودهما إلى تلك المقابر العظيمة للدولة تحت الأرض، تحدياً لأبسط مقتضيات ا
 .. ويعترف نيفيليه «إننا لم نذكر شيئاً من مشاريعنا مخالفة أن يعارض ذلك الموقع خ
 الاستطلاع من باب الحوص على سلامتنا».

* على أن المخاطر لم تكن خيالية كما يشهد على ذلك أنثى ضياع السفينة النهرية ا
 التي هاجمها وحربها «الكليون» بكل الأسلحة الممكنة لى الاشتباكات التي يتعرض
 الجيش لى تلك الفترة لخسائر فاسحة. وعلاوة على هذه النوائب، فإن كثير
 الفرنسيين يصابون بالرمم. والحال أن الاهتمام باكتشاف مواقع الآثار إنما يظل به
 لديفيليه ولجونا الاهتمام الأقوى من سواء وتزيد من تأجيله الأبناء التي تصله.
 بنون، لأنه «ما من ضابط لا يبدى إعجابه بالأشياء الجميلة التي رآها لى طيبة».
 يخشيان خشية عظيمة لى تلك اللحظة من ألا يتمكنوا من الوصول إلى هناك بد
 ويخشى نيفيليه من ذلك، خاصة وأنه يبنى نفسه أيضاً بأن يتمكن من الاضطلاع
 بعمل أكثر أهمية بكثير من العمل الذي لثار للتو قسراً كبيراً من الإعجاب. وبهذا المعن
 الأكل يمكن للمرء تفسير ملاحظته: «إن بنون لى طيبة. وهو لم يسجل غير
 كروكية ومشاهد، دون أن ينقل أى تخطيط متعمق ودون أن يجرى أى قياس». وهو
 بشكل بالغ القرضوح عن الموقف المختلف الذي سوف يتخذه هؤلاء الرجال لهم
 عينه.

وبعيداً من أسبوط، تستمر الرحلة برأ، لكن هذه الفترة هى فترة هبوط مياه
 ويجب اتخاذ قرار بالتردد على ضفافه «الرصعة بالماليك». وما إن يصل صاحبانا إ
 بعد كثير من المتاعب، فإنهما لا يفكران إلا لى هدف واحد : رؤية نهره بأسرع ما يمك
 والقول بأن الحملة التي أبتلها أغلب هؤلاء الرجال الشبان لا تكافأ مكانة
 سوف يكون تهريكاً للأمر، فهم يتعرضون لعقوبات حقيقية. إن عشتهم للآثار القد
 يروق لقائهم بأفراد. فدوروا - كيمية، الذي دخل لى الطريق لى شجار عنيف مع .
 إنما يجرى نفيه إلى القصور على النهر الأحمر. ومن حسن الحظ أن الآخرين يجد
 شخص الجنرال بيليار، للكافا بلقب «الصديق الصديق للفنون»، محاوراً متفهماً

يحصلون على إذن بمواصلة أبحاثهم الخاصة بمواقع الآثار بل ويحصلون على قوة حراسة لحمايتهم. إلا أنه بما أن هذه القوة لا يمكن أن تكون متوفرة في أغلب الأحوال التي يتمنون فيها ذلك، فإنهم يقدرون، عند الضرورة، الاستعانة عنها «بالرغم من أنهي المعلن من جانب الجنرال الذي يعرف» فيما يقول ديفيليه «إن بإمكاننا أن نصادف في خروجنا الاستطلاع أشخاصاً جد خطرين». وحساسية هؤلاء الرجال هي من القوة بحيث إنهم يخشون إلى لزراء الخطر للجائزة بإثارة انزعاج وتطور تلك الرجل حينه الذي لمرب لهم عن تلهم لرسالتهم وساندتهم في مشروهم.

ططوة

يعبر اكتشاف نضرة عن نفسه بلغة تؤدي إلى نسيان جميع التقديرات السلبية التي كان بالإمكان أن تكون العمائر المصرية هدفاً لها قبلهم «... لقد تم اكتشاف للعبد الكبير الذي يشكل أساس أنواع اللوحات. وسوف يكون من الصعب وصف كل ما يستثيره من انطباعات متباينة مشهد تلك الأشكال الضخمة لإيزيس والتي تعمل سلف الرواق. ويبدو أن المرء ينتقل في لمح البصر إلى عالم السحر والفتنة. إن الدهشة والإعجاب يستوليان في أن واحد على المرء».

الا يرجع هذا التسليم بلا تحفظ في جانب كبير منه إلى حساسية هؤلاء الرجال، التي تتشكل بالفعل في اتصال مباشر مع الفن المصري، والذي غالباً ما جرى الخط من ضلته منذ وقت غير بعيد من جانب أولئك الذين لم يروا منتجاته الأصلية في المواقع لقتها ؟ إن فهم هذه العمارة إنما يرجع إلى التسمي أخيراً إلى فهم هذه الحضارة بشكل جديد، دون كثير من التحيزات. ولا مرء في أنه يرجع أيضاً إلى أن أفراد هذا الفريق، الأحصت مناً من نهنون، سوف يتوصلون بشكل أفضل منه إلى التحرر من التفوذه، للمرك أو غير للمرك، للفن الإغريقي والأوروبي «إن ما يراه المرء ليست له أية علاقة بآثار عمارة الإغريق ولا بالآثار التي أنجبتها ثلاثة الفنون الأوربية». والحال أن المرء إذ يدرس مشهداً جد جديد كهذا، إنما يجرب في بداية الأمر شعوراً بالارتياح وبالإشباع...».

وبالنسبة لديفيليه ولجولوا، فإن القراعة ليسوا بعد بالطفلة اللقيتين الذين تحدث عنهم فولني أو نهنون. إن مهتمسينا للشبان، وهم أفراد حملة وتمثل أحد أهدافها المعلنة في تحرير مصر من التجهيل لإدخال «التنوير الأوروبي» إليها، إنما يرجعون إلى عمل

للمصريين القدماء تعبة غير عادية بالمره بالنسبة لزمانهم : «إن قرية عربية، مكونة من أكواخ طينية حقيرة، تهيمن على الأثر الأجل من بين آثار العمارة المصرية، ويبدو أنها موجودة هناك لكي تشهد على انتصار الجهل والبربرية على الرقن من الأنوار رفعت الفنون في مصر إلى أعلى درجات الجمال».

والهدف ليس بعد هو الاكتفاء بالشاعر وبالتقديرات، حتى وإن كانت إيجابية، بل هو الاضطلاع بعمل منهجي وصولاً إلى تعميق، بفضل تحرك علمي حقا، للمعرفة التي لا تزال مليئة بالثغرات عن حضارة يتم الاعتراف بها اعترافاً صادقاً منذ ذلك الحين فصاعداً كواحدة من أعظم حضارات العالم. والمصانة تتحلل في القياس والتحليل والرصف والتركيز على أهداف جد محددة والعمل بشكل منطقي بصرف النظر عن تقلبات العمل.

وبراستهم للزودياك (رسم فلك للهروج) الشهير تجمع تماماً بين المخامرة والصرامة. إن موريه الشاب، الذي يجري إدخاله عبر منفذ ينفذ على الصخرة التي يوجد فيها هذا النقش الدقيق (١٦)، إنما يدرك على الفور أنه يطأ هيكلًا عظيمًا ويتخيل المقتحمون الشركاء بسرعة باللغة أنهم قد صابغوا هناك رفات عاشق ما للفنون، على غرارهم، وفات سلف مجهول لعله قد قتل في هذه الأماكن ضخمة لعماسته ا

والحال أن نيبيليه وجولوا، وقد اتفاقا بسرعة من نشرتهما، إنما يتوليان، بالرغم من انزواء للكان ومن ضعف النور، التسجيل الصعب للزودياك بتقسيمه إلى قطاعات بمساعدة أسلاك معدنية لثقباً على السقف. وهما يريان «التدريج تمثيل أمين له يسمح بدراسة الدقة لمعارف المصريين القدماء الفلكية». وعندما يأخذ المرء في حساباته الصعوبات المادية التي تعين عليهما العمل فيها، فإنه لا يمكنه إلا أن يبدى إعجابه بروعة النتيجة التي تم التوصل إليها، فصروها ما يتقد كل شيء. ويكتب نيبيليه إلى صديقه وهو في القاهرة ويحثه على التحرك لمساعدته :

«إنكم إن لم ترسلوا إلينا اللام وحصان، أيها الصديق العزيز، فلن يكون بوسعنا أن نقدم إليكم شيئاً من رحلتنا. لقد استهلكنا جميع اللامتنا، ونحن يائسون. تحدث إلى كونتية الذي لابد وأنه قد جهزها؛ وإذا كان الأمر خلافًا لذلك، استعز من أصدقائك، واعتبر وجهز ما سوف تجده عند كونتية الذي سيتولى تسليمها إلى الهنرال نوجا، الذي سوف يرسلها مع أحد ركبى الجمال، هذا أمر متفق عليه».

والحال أننا لا نجد إشارة لا على اللوحات التي تزين «وصف مصر»، ولا في

ملاحظات نيبالييه، إلى استخدام مادة مركبة. لقد كانت اللام الرصاص والألواح الخشبية والحبال الرابطة والمساطر والشاقل كافي لإنجاز هذه المهمة بالرغم من انعدام الأمن والمتاعب. ولا شيء يثبط هم أولئك الرجال، ولا حتى نسوا الأتقاء التي تحصل إليهم أحياناً، كدنيا الكارث التي حلت بقوة الحملة المرصلة إلى سوريا.

«أي عدد إذن من رفاقنا لا مفر لنا من أن نراه يهلك في هذا البلد للقدس ؟ لم أنه قد كتب علينا بالفعل أن نخلف كل عظامنا فيه ؟»

وتواصل الرحلة بلا كلل صوب الجنوب. وبعد الطواف بأطلال القوس، تصل الحملة أخيراً، في ٢٨ يونيو، «على مرأى من مواقع مدينة طيبة القديمة»، إلا أنها لا تتمكن من البقاء هناك غير يوم واحد. ويبدى نيبالييه وجهوا إصحابهما في مرة أولى بأطلال الكرنك ويضطرون إلى التحرك من جديد، مع هزمهما على العودة إليها عند أول فرصة تصنع لذلك.

وبعد ذلك بأيام قليلة، يكتشفان في إسنا، بين الأطلال للتراث في وسط المدينة، الإكرين الجميل لمعد «كلن من المحتمل، لولا هذه المناسبة، أن يظل مجهولاً لزمان طويل من جانب الرحالة للعاصرين». وبعد أن سلكا ممراً ضيقاً، تفادى إلى الداخل، وهناك، يحدث الافتتان :

«إن صدارة هذه القلعة... والتي لم تقسم عمائر مصر الأخرى لنا عنها غير فكرة جد هزيلة، إنما تترك لدى كل منا انطباعاً مشتركاً : لقد استولى علينا إصجاب طامض معين لا نهرق على الإفصاح عنه بشكل ما، وبينما نخلنا نجيل النظر بشكل تداوي على الأثر وعلى رفاقنا في الرحلة، أخذ كل واحد منا يحاول التلذذ مما إذا كان قد خدعه بصره أو نعمه، مما إذا كان قد فقد في لمح البصر الذائقة والمباي التي تطلقها في براسه للأثار الإغريقية».

ولا يمكن الإفصاح بقدر أكثر من الصراحة عن القلق الذي أثارته هذه الأشكال، هذه الجمالية الجديدة، عند الألمان الشباب للتأثرة تأثراً عميقاً بالدرعة الهيلينية وإن كانت قد تخصصت بالعمل الطابع الأصيل للعمارة الفرعونية. إنهم يعون تماماً عندئذ أنهم منفتحون على جمال معين، جمال «آخر»، وهم يعبرون عن ذلك بوضوح :

«إن هذا النضال الفعلي الذي تشته العمارة، التي نرتد إليها بأبصارنا، ضد لوها منا للمبالاة إلى النسب والأشكال الإغريقية، إنما يصيبنا بالذهول لوقت معين : إلا أننا سرعان ما اجتاحتنا حركة إصجاب إجماعية».

وكلمة الرسم التي يستخدمها بيثاييه إنما تعبر تلمحاً عن همق التهديد الذي تعرضت له أفكارهم وحمق الجهود اللازمة من أجل فهم حقيقى لهذه العمائر والتي تبدو لهم وظائفها أيضاً، لا مجرد أشكالها، مختلفة عن أشكال وظائف العمائر التي عرفتها أوروبا. ويحد أن وحدوا أن القاعة الكبرى للمعبد مسورة من الجهة الخارجية بأسوار تعلو إلى ثلاث أرتفاعها، يستنتجون «لا بد من التواضع أن المصريين لم يقوموا ببنائها إلا لأن روايات معابدهم ليست لها ذات الوظيفة التي تتميز للعابد الإغريقية». إنها ليست مجرد همى، بل هي «مكان مقدس يجب تحريمه على أنظار الغرباء ذاتها» (١٧).

ولم تعد المسألة مجرد مسألة رسم وتليس، بل هي مسألة بذل جهد لفهم الدور الذي تلعبه القاعات ومختلف العناصر المكونة لهذه العمارة، باختصار، لا يجب إهمال شيء، ويجرى تحليل الأثر وتسجيل عناصره بدقة، أكان ذلك فيما يتصل بهنيته أم بزخرفته التي تشمل هنا أيضاً، في السقف «زويهاك» جميلاً. لقد حدث إنراك قام لواقع أن المشاهد التي تظهر على الجدران لها غاية مختلفة من غاية زخرفة القاعات وإن كانت لها وظيفة محددة وأن بوسع هذه التمثيلات أن توضح الأمور للمراقب فيما يتعلق بدور مختلف أجزاء العمائر. ومن ثم فإن النقوش الدقيقة تستحق الدراسة بالتفصيل الذي تستحق به الهياكل للبهنة. والحال أن بقية الرسوم التي تجرى لها إنما تتعارض بوضوح من هذه الزاوية مع التسجيل للتحرر الذي قام به ييدون، حتى وإن كان الأمر لا يتعلق هنا أيضاً، من جراء خييق الوقت بلا شك، برسوم مطابقة للأصل تماماً.

وتنكب الحملة على إعداد بيان منهجي بجميع الآثار وعلى تسجيل أكبر عدد ممكن من خصائصها. وفي مواجهة إسنا - على خفة النيل الهمنى - يجرى تسجيل معبد كونترا لا تروبوليس، وهو عمل يستدعى اليوم اهتماماً بالغاً بقدر ما أن موقع الأثر قد نمر. ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للمعبد الصغير الذي كان موجوداً آنذاك في شمال إسنا. (١٨) ويتم أثناء كل هذا العمل بهمة، ولكن ما هو جيران يعبر من جديد عن عدم ارتياحه إلى الأعمال التي يقوم بها معارفه من تلقاء أنفسهم. وهو يذكركم بمراجعة النظام ويطلب إليهم التركيز خاصة على مهامهم المتعلقة بقياس وادى النيل. ولا يمتلك هؤلاء لكن الوسط قلما يعتبر متحمساً.

لقد إنكبنا على هذا العمل بسرعة بالغة وأيضاً بعناية بالغة، لكن ذلك، لأننا نتجه بلا توقف إلى رسم ودراسة الآثار القديمة، إنما يحزن جيران، الذي يرى أن ذلك ليس من

«لخصاصنا»، وبلا توقف نهجرى معه مخالفت مزعجة. بل إنه قد أراد مدعنا من الذهاب إلى أسوان، بالرغم من أن كل العمل الذي كان قد حققه لنا كان قد تم ونال الثمرة».

وهم يعززون أنفسهم قدر الإمكان بالكتابة إلى دويوا - أيميه، المنفى في القصير، ويتوجه النقد إلى جيران : «إننى أفتى لك أنه غير محب للآثار، لقد قضى أربع ساعات فى منزله ثم خلاها لمدة ثلاث ساعات»، هكذا يتحدث ديفيلبييه ليس بون خبث. وأخيراً، فإن رد فعل قويا يجرى القيام به بمناسبة وصول دهنون إلى إسنا يسمح بالتفاهم ويتحيد كل نوايا سيئة جديدة. وهكذا، بعد أن قضت العملة عشرة أيام فى هذه المدينة، تستأنف طريقها صوب الجنوب، وفى ١٠ يوليو، يحدث إعجاب فى القروى بالعمائر التى سوف يسجلها فيما بعد جومار، ثم يتم الوصول إلى طريق جبل سلسلة وكوم أمبو، حيث يجرى رصد بقايا معبد جميل يختلف عن جميع المعابد التى رآها هنا حتى الآن من حيث إن له مسطلياً، يلعان جنباً إلى جنب وبوابة ضخمة شبه مهدمة تشبه بوابة منزله.

وفى يوم ٢٥، يتم الوصول إلى أسوان وتجرى زيارة الفنتين، ثم جزيرة فيلة المليئة بالعمائر الهامة ويختار كامبتييه جنيراً من جدران بوابة معبد إيزيس الضخمة لى يسجل عليه نقشاً تذكاريًا (١٩).

ومنذ ٢٦ يوليو، يتعمق الرجوع ويتم الطواف من جديد بمواقع الآثار الرئيسية حتى إسنا حيث يرسل ديفيلبييه من هناك رسالة ملحة جديدة إلى دويوا : «إنك لم ترسل إلى أقلام الرصاص وانت تضيعنى فى ورطة كبرى».

طـيـبة

بعد مرور قصير بأرمنت، يتم الوصول إلى طيبة فى ٨ أغسطس (٢١ فيرميدور). وفى هذه المرة، فإن فرصة التمكن أخيراً من اكتشاف الآثار الضخمة لـ «المدينة ذات المائة باب» والتى تدعى بها هوميروس لن تضيع عن الصديقين اللذين يخيملان فى قرية قريبة من مدينة هابو، ويعترف ديفيلبييه «منذ تلك اللحظة لم أحتفظ بيوميات منتظمة لرحلاتى. لقد كان على رسومي أن تكفى للتكرياتى». وإسراكاً منهما للأهمية غير العادية لعمليهما، فإن حماستهما لا تعرف بعد حداً لها :

«إننا نستشعر سروراً ما عندما نفكر بأننا سوف ننقل إلى وطننا منتجات العلم القديم ومنتجات صنعة المصريين؛ إن هذا لفتح حقيقى سوف نسمى إليه باسم الفنون».

وإناء برنامج كهذا. قلماً يتاح وقت للتفكير في الخطر القريب تماماً ويجرى التصرف كما لو أن هذا الخطر لا وجود له، وذلك بالعمل تحت حرارة شهر أغسطس للتهبة، في ظروف مائية ناشأ ما كانت لقل من أولية. وديفيليه محروم بحيث يمكنه أن يكتب أخيراً إلى ريبو :

«... لقد استخدمت في الساحة الأتلام التي أرسلتها إليّ. وأنا أشكرك على ذلك شكراً لا حد له، لقد وصل بنا الأمر إلى حد عمل أتلام من كريات الرصاص التي تقوم بصهرها وسكبها في القوالب...»

ويجري تكثيف الجهد ويمتد إلى مجمل العاصمة الجديدة :

«لقد إنكبنا منذ على رسم ووصف وتسجيل الخطط الهندسية لجميع العناصر القديمة التي تعيط بنا. وفي أغلب الأحيان، كنت أنا وهوروا نقوم بالعمل وحدها، إلا أنه في عدة مناسبات كان ديكوستيل وروزيير ووشانوا وديبوي وخاصة بوترتر ونيكتو يجيئون للانضمام إلينا وقد قدموا لنا العون» (٢٠).

وسرعان ما يرجع ديكوستيل وروزيير وديبوي إلى القاهرة وتواصل بقية الطريق الصغير مهمتها مضيفة إلى عمل التسجيل بالمعنى المحدد للمصطلح بذل جهد تفسيرى للأثار والسياق الذي تتواجد فيه. ومن اللافت للنظر أنهم قد فسروا آثار الارتفاع العام لواء النيل فيما يتعلق بالانفراس الأصلي للأثار وكذلك توارثها التدريجي تحت تأثير التراكم، سنة بعد سنة، لطبقات رقيقة من الطمي مترسبة عن النهر. ويصرف النظر عن الانفعال أو عدمه فإن النظرة تظل نظرة مهندس يرصد ويفهم ويفسر الظواهر.

وبمجرد الانتهاء من استكشاف جميع عناصر الضفة اليسرى، يجرى الانكباب على دراسة عناصر الضفة اليمنى ويجرى ذل قاعدة العمل إلى الأقصر التي تثير معانها ومسلاتها الأعجاب، لكن «... هذه الأطلال ليست شيئاً بجانب أطلال الكرنك».

إن الكرنك، الذي يجرى النظر إليه دائماً بوصفه مجموع عناصر قصر عظيم، إنما يصبح موضوع دراسة عميقة وإنه لمنهش أن نأخذ في اعتبارنا بأية حدة ذهن جرى تفسير التفاصيل التقنية الحديثة. فتأكل قاعدة الجدران، الملحوظ تماماً في بوابة الهرميت يجرى تفسيره من زاوية النور الذي لعبته الرطوبة في التأثير على الأحجار. والعمارة نفسها يجرى فهمها بشكل محدد. وسرعان ما يدرك ديفيليه أن الفتحات التي تتخذ شكل نوافذ

والتي يلحظها المرء على واجهة البوابات الضخمة إنما تصاعد في الواقع على تسكين ألواح خشبية ضرورية لتعليق صاريات ضخمة كانت مزودة بأعلام عربية في أمتها. وهو يقدم البرهان الذي لا يدحض على ذلك مشيراً إلى نقش دقيق يرجع إلى زمن خونسو، حيث يجرى تمثيل بوابة عظيمة بجميع تفاصيلها الأصلية. وتبدو في هذا النقش الدقيق الصاريات ونظام التثبيت والأعلام العربية الطويلة المرفرفة في الهواء. ليس مما يثير الدهشة أن هذا النقش الدقيق للتكامل والواقع في الطاق صعب النال وسيره الإنارة لم يفلت من نظر القائمين بالإستكشاف ؟ ويلاحظ هؤلاء الآخرون أيضاً أن معبد خونسو قد بنى في جانب كبير منه بمساعدة كتل منتزعة من عمائر أقدم... وأن الكهنة قد نالوا على حمايته رغم تقدمهم... وليس بالإمكان الإشارة إلى جميع الملاحظات التي أبدت لمحاولة فهم موقع آثار الكرنك الضخم. إن عدد وجوه التسجيلات ليست مثيرة لحسب، بل إن لغنية التركيب الفكري التي دل عليها هؤلاء المهندسون الشبان لكشف أسرار حضارة لم يكن بالإمكان بعد الرامة كتابتها ولا فهم تاريخها فهماً جيداً تماماً، إنما هي لغنية غير مألوفة !

وقبل أن هؤلاء الرجال المبتعثين على الفن وعلى الواقع، ولكن غير المخبوئين بإغواء الاستسلام لكل ما يمكن لصر هذه أن يستحضروه بحيث يتولون اكتشافها دون لغنية انتقائية، إنما يتصرفون كأركيولوجيين (علماء آثار) حذرين حقيقيين ولا يخيب عنهم سوى القليل جداً من التفاصيل. وبالإضافة إلى ذلك، فإن إعادة تركيب الشكل للمعاري لعديد من العمائر التي تلاشت ثلاثة أرباعها إنما يثير النقطة بسبب ما تتميز به من دقة. لقد عبروا بالفعل عن أقصى ما كان يمكن رسمه واستخلاصه والتراضه في زمنهم. كما أن المرء يفتنه الحرص الذي أبدوه على تخيل حياة العمائر الكبرى التي طافوا بها، والوسط الداخلي لقاعاتها خلال احتفالات معينة. ومن الواضح أنهم إذ يرصدون النقوش الدقيقة إنما يحاولون أن يكونوا عنها فكرة لأن النصوص ما كان لها أن تمثل أي عون .

وتتجارب مع الأوصاف المصحوبة بالأرقام خطط هندسية ومقاطع موسومة تماماً وتتلوها أحياناً إشارات للشكل المعماري ذات شكل هندسي أو منظوري. ومن المؤكد أن المرء يدهش اليوم إذ يتابع التفسيرات المقدمة للجزء الأوسط من معبد الكرنك الكبير، إلا أنها ليست محلة بقدر ما أن مجمل الآثار قد نظر إليه على أنه الصور. لقد لذ لهم إجابة أن يحلموا بسير عمله وقد ظهرت لهم رؤى وصور : لا شك أن الملوك الذين سكنوا هذا العصر قد انصروا إليهم في القاعات التي تستند أسقفها إلى أعمدة وفي الأبهاء ذات الأعمدة

التي كانوا يتحركون فيها بحرية وكانوا يحتمون فيها من حرارة الجو، وكانوا يأوون بشكل خالص إلى الغرف الجرانيتية».

وبما يجد للره سألحة مثل هذه الظروف، الثانية إجمالاً في مجمل العمل المنجز، في حين أن شامبوليون نفسه، وبالرغم من درايته بالهيدروغرافية، سوف يصف لنا أيضاً الانطباع الذي خلفه لديه «تصراً للكرنك» (٢١).

والآن برأى نيكيليه وجهولوا مهمتهما في طيبة دون أن تثبط همتها الأنباء الأكثر إزعاجاً. لقد استولى الأتراك للتو على حصن أبو قير ويتكرر نيكيليه : «في اللحظة التي نما فيها إلى علمنا هذا النباء، كان مصيرنا ماثراً؛ لأن هذا النباء كان قد مر عليه شهر وكنا بعيدين عن القاهرة بمسافة مائة وخمسين فرسخاً وعن موقع المعركة الفاصلة بمسافة مائتي فرسخ. وقد نظرنا إلى أنفسنا وقلنا : هل ذلك هو جزاء الاستمرار ؟».

إنهم لن يعرفوا إلا فيما بعد أن نتيجة المعركة كانت ظفيرة؛ لكن انعدام اليقين لم يمنعهم إلى التخلي عن عملهم ولم يزد إلى إضعاف عزيمتهم.

اللجان العلمية

في ١٢ سبتمبر يرجعون إلى إسنا التي وصلت إليها للتو اللجنتان العلميتان اللتان كان بوناپارت قد شكلهما، قبل رحيله إلى فرنسا، حتى يتسنى الاضطلاع بدراسة مصر العليا وأثرها، وذلك دون أن تكونا على علم بأن جانباً كبيراً من العمل كان قد جرى البده به تلقائياً من جانب نيكيليه وجهولوا ورفائهما.

وكانت اللجنة الأولى بقيادة كوستان (عالم الهندسة)، بينما كانت عضويتها تتألف من بلزك ولرير (مهندس معماري)، وسان - جينيس (مهندس الجسور والطرق) وكورابوف (جغرافي) ولينوار وكوتيل (المتخصصين في الآليات) ونويه وميشان (عالم الفلك) وفيار (عالم الهندسة) ولاهات (طبيب) وكوكيهر (عالم النبات) وسافيني (عالم الحيوان) وريهو (متخصص في الأناب).

وكانت اللجنة الثانية بقيادة نورييه (عالم الهندسة) وكانت مهمتها، بين مهام أخرى، دراسة النقوش النبطية والسعى إلى تفسيرها. وكانت عضويتها تتألف من : كودوليه وشابول ولانكريه (مهندس الجسور والطرق) وهومار (جغرافي) ولنسان (عالم

الهندسة) وسيسيل (التخصص في الآليات) وريدوتيه (رسام) ولاسيبيير (طبيب) وديليل (عالم النبات) ودييه (الصيلى) وجيهرى سانت - هيلير (عالم الحيوان) وفيلوتو (المؤلف للموسيقى) (٢٢).

وعندما يكتشفون ضخامة العمل الذى انجز قبل وصولهم، سوف يستخلص المسؤولون النتائج التى تتركب على ذلك، ويلاحظ ديفيليه : «... لقد أتركوا لنا بدلا من المشروع من جديد إلى حد بعيد يعمل ما معنا به بالفعل، فإن من الأنسب مضاطرتنا ما كان لا يزال بعد بحاجة إلى دراسة، ومنذ ذلك الحين، واصلنا أعمالنا بالاتفاق معهم».

وهكذا يجرى تقديم دعم جدى إلى المشروع. إن الجميع سوف يتجمعون في طيبة للعمل هناك ثم يهبطون وادى النهر حتى القاهرة، مراكمين وبرة غير عابية من الوثائق. وسوف يجرى تسجيل آثار نضرة وأبيوس وأنتينوى والعديد من مواقع الآثار الأخرى. إلا أنه بدلا من الاضطلاع بالتمديد الطويل لهذه الأعمال وكلها يتفوق بعضها على البعض الآخر في روعته، فإنه يبدو لنا أن اللحظة قد حانت لرسم صورة محصلة العمل وللإشارة إلى الأهمية العلمية للإسهام العلمى لهذه الحملات للثمرة.

إن النتائج المكتسبة مثيرة. فمن آلاف الرسوم والملاحظات المتراكمة نجى اللوحات ١١٩ التى سوف تتناول الآثار الفرعونية في «وصف مصر». وهي تشكل أهم كتلة وثائق نشرت حتى الآن بقعة واحدة حول هذا الموضوع (٢٣).

ولا مرأى في أن تكبر جانب في مائدة هذا العمل إنما يرجع إلى ديفيليه وجولوا، ليس لجردهما أنهما قد مهرا بإمضائهما لكبر عدد من اللوحات، بما لا يقاس، وإنما لهما لأن هذه النتيجة تجسد للمساهمة الشخصية التى مثلتها كاتبة الوثائق الأولى التى أعدت بمبادرتهم وحدهما. ولا بد من الإشارة بعد ذلك إلى الأعمال التى لا تقل روعة من حيث جودتها والتى قام بها جومار وشابروك وديوتر ولوهر، والتى تحتل للرتبة الثانية من حيث عدد اللوحات المنشورة. كما أن سيسيل وريدوتيه ولانكرية قد قدموا مساهمة مهمة في حين أن تدخل أفراد آخرين مثل كوستاز أو لورييه يتجلى بشكل أكثر مراعاة للتحييد. (٢٤)

وتحدث أشكال تعاون بين خبراء قوى تخصصات مختلفة وذلك صعبا إلى الوصول بشكل الفضل أحيانا إلى بعض الأهداف كتسجيل تخطيط هندسى عام لمواقع الآثار الكبرى. وهكذا فإن سان - جينيز وكورابوك سوف يسهمان في إعداد سلسلة خطط

هندسية إجمالية جداً إلى جنب ديفيلوبيه وجولوا (٢٥). والأهمية الوثائقية لمثل هذه الأعمال ملحوظة. وفي في جميع الحالات تصور لنا حالة رائعة للأماكن وتتيح لنا في الوقت نفسه، في أغلب الأحيان، الوسيلة الوحيدة لكي نكون اليوم دراية بتهيئة العامة للمواقع والتي تعرض كثير منها لخراب جسيم. ولابد من الإشارة هنا على سبيل المثال إلى أنتينوى ولومنت لو هيليوهوليس. ونحن هذا العمل لوجدنا مشكلة كبيرة، بل ولنا وجدنا أقل إمكانية لتصور الخصائص العامة التي كانت واضحة كذلك لمواقع الآثار والتي تعتبر أهميتها التاريخية رئيسية. ومثال أنتينوى في هذا الصدد مثال صارخ بشكل خاص. إن رسم المخطط الهندسي الذي قام به جومار وشابرويل واللوحات التي ترجع إلى أفراد آخرين في الحملة إنما تتيح الوسيلة الوحيدة الباقية لدينا لفهم تنظيم المدن والوقوف على شكل العمائر العامة لحاضرة طيبة العظيمة التي أسسها هاسريان.

البيانات

إلا أنه، عبارة على القيمة المكتسبة بهذا العمل التسجيلي للنهج، فإن ما يثير الدهشة أيضاً هو هذا الفضول الذهني وتعهد مواهب بعض أفراد الحملة، الذين يتصرفون على ما يبدو بحرية في إعداد الخرائط ورسم تصميم العمائر، كما يتصرفون بحرية أيضاً تماماً في رسم تفاصيل البناء أو النقوش الدقيقة. والحال أن بيان هذه الأخيرة (٢٦)، إن كان يمثل مصدر معلومات أساسياً، فإنه يتميز على أية حال، بالرغم من كل شيء، بأهمية مباشرة أقل بالنسبة لحيثنا من الأهمية المباشرة للمجموعات الأثرية بالمعنى المحدد للمصطلح، ولتفاصيلها (الأعمدة، تيجان الأعمدة، العتبات وعناصر العمارة الأخرى). إن أهمية وجودة التوثيق الذي تم الاضطلاع به تعتبران فائقتين بحيث يصبح من المناسب أن نتوقف أمامها قليلاً.

ولابد لنا من الإشارة في اللقائ الأول إلى الأهمية الأساسية التي يمثلها، بالنسبة للوقوف على الآثار القديمة، مجموع البيانات التي تعمد الأشكال الهندسية والمقاطع والارتفاعات، والتي قام بتسجيلها ديفيلوبيه وجولوا ولويهر خاصة وكذلك بلزاك ولانكريه وشابرويل في حين أن الأفراد الآخرين لم ينتجوا منها غير القليل جداً بل إن البعض لم ينتجوا شيئاً منها. (٢٧)

والحال أن أعمال لويهر في الكرنك هي التي تقدم لنا هنا لمحة عنه و، بشكل أخص، فإن التخطيط الهندسي المنتشر في «وصف مصر» مقابلاً لمقطع طولى كبير يعيد لنا لأرل

مرة تركيب للشهد الإجمالى لمعد آمن - رع الكبير (٢٨). وهذا التخطيط الهندسى أكثر نقة من رسم بوكوك وترجع بعض هيويه إلى واقع أن أجزاء عديدة من مواقع الآثار كانت كذلك ما تزال مطمورة. ومن ثم فإن المرء لا يجد على تخطيط لوهر الهندسى اثرًا للرواق الذى يوجد فى نهاية بهو الأعمدة الغربى ، فلم يكن هناك ما يسمع بتخمين وجوده. وفى المقابل، فإن للجواز نفسه قد أعيد تركيب صورته على نحو جيد فى حين أن اثنين فقط من تماثيل أبى الهول هما اللذان كانا ظاهرين فوق الأرض. ويظهر عمل لوهر وكذلك الشروح والوثائق التى ترجع إلى ديفيليه وهوروا إلى أن للصيانة ليست مجرد مسألة تسجيل طوبوغرافى، بل هى، بوجه عام، مسألة لتوزيع لجهد فكرى بشأن للمعد.

والحال أنه يجرى تقديم أنسب للملاحظات وتحليل الآثار وتفسيرها وتمثيلها بعناية. ولا يجرى الاكتفاء بتسجيل إلى لهيتها، بل إن هناك رغبة حقيقية فى التفسير قدر الإمكان، وذلك بتخصيص جانب كبير من النص للأوصاف والافتراضات. وعلى سبيل المثال، فإن ديفيليه وهوروا هما أول من فهم أن بناء بوابة الكرنك الضخمة قد ظل غير مستكمل. والبرهان على ذلك يقدمه لهما الشكل جد الخشن للجدران والتى احتفظت بنتوءات بارزة مهمة. ومن الواضح لهما أن هذه الجدران لم تكن قد محرت بعد وإنما لم تكن موضع زخرفة. ويتم استحضار دقيق أيضاً لهذا البناء الأصلي لتيجان أعمدة كشك تراف، والمركبة من قطع متراكبة عديدة (٢٩).

ثم إنهما يؤكدان، وهو ما سوف يتكشف أنه صحيح تماماً، أن معد رمسيس الثالث لابد وأنه قد شهد قبل وراقات الصحن الكبير التى تحتويه، لو إنهما يربطان حالة خراب البوابة الضخمة الثانية إلى كارثة سوف تكون الافتراضاً سيتم إثباته فيما بعد، هى نتيجة ضعف بنائها بأكثر مما هى نتيجة زلزال : ومن المنطقى تصور أن مثل هذا الخراب إنما ينبع من هيب فى البناء (٣٠). وهذا هو السبب، بالرغم من المظهر الفعلى للآثار (ركام من الانقاض لا يتميز بشكل محدد)، فى أن رسم محيطه هو رسم بوابة ضخمة جد منتظمة. والرسم الهندسى للقاعة التى يستند سقفلها إلى أعمدة رسم دقيق وهذه الأخيرة هى أيضاً موضع وصف رائع. ويجرى استعراض أبعادها وعناصرها التكوينية وتدخلاتها ويخلص المرء من أنه كان هناك تمسك للأسباب الحقيقية لانتهابها. وهكذا، فقد تشير إلى أن بعض الأعمدة قد فلتت انتصابها، وهو ما يجب للمرء أن يورده إلى ضعف رسوخ الأرضية والتى تتسرب إليها الآن، كما قلنا، مياه الفيضان. وليس بعيداً جداً الزمن الذى سوف تستسلم فيه القاعة التى يستند سقفلها إلى أعمدة لهذا السبب المدمر الفاعل دائماً (٣١).

لما وضع البراية الضخمة الثالثة وخاصة شكلها، فسوف يجرى أيضاً تخمينهما بأكثر مما سوف يجرى ومعهما، إلا أن محيطها يعد تركيب صورته بشكل جيد، وسوف تكون للهمة أصعب بكثير فيما يتعلق بمنطقة المعبد الوسطى، المعقدة والمطمورة والتي تختلر عليها آلاف الكتل. والحال أن الرغبة في إعادة تركيب صورة مجموعات معمارية في أغلب الأحيان من خلال تحقيق التناظر قد أدخلت هناك لخطأ، لكن للمرء يدهش بالرغم من كل شيء من أن الرسم الهندسي المقترح هو في نهاية الأمر جد قريب من الواقع.

وبعبارة محيرة بشكل حاسم، يدرك بيثيليه وچولوا أيضاً أن الكنيسة الجرانيتية الوسطى (كنيسة فيليب كريدية)، والتي كانت مزينة في قديم للزمان برسوم ملونة انابضة ورائعة، إنما بنيت في جانب منها بالاعتماد على كتل توظيف جديد ضخمة كان بعضها أجزاء من مسلات.

ألك حقيقة تثبت، بإسالتها إلى جميع الحقائق التي أشرنا إليها بالفعل، أن قصر الكركك القديم هذا قد شيد في جانب منه بانقاض آثار قدم منه بكثير.

وهكذا فإن جميع أجزاء المعبد الكبير يجرى التعليق عليها بدقة وحساب وأي ليس من شأنهما إلا أن يثيرا بعضنا اليوم أيضاً.

ويجب أن نحى جهدهم في إعادة تركيب الصورة الأصلية للعديد من معابد الوادي، علاوة على حس للملاحظة غير العادية الذي تدل عليه هذه التأملات وتسجيل تفاصيل العمارة من جانب أفراد الحملة^(٢٢)، ليس فقط لأن الافتراضات التي جرى تقديمها تظل من حيث الجوهر مرفسية، وإنما أيضاً، في كثير من الحالات، لأنها الافتراضات الوحيدة التي انبثت إلى اليوم^(٢٣). والحال أنه لما يتميز بأهمية بالغة في نظرنا أن أولئك الذين كانوا يعرفون العمارة المصرية آنذاك بشكل أفضل قد وانتهم الشجاعة لمحاولة إعادة تركيب شكلها، لأن ذلك قد أسهم كثيراً في المساعدة على فهم ما كان بالإمكان أن تكون هذه العماثر شبيهة به.

وهكذا فإن كشف العماثر الفرعونية قد أضاف إلى مآثر تقويم نتائج بحث دقيق ثمار تأمل فكري عميق قام به رجال تمكنوا من التوفيق بين خصائص الصرامة العلمية المميزة لمهندسي الفضول للؤرخ وحساسية الفنان. وشراء الوثائق المترتبة على ذلك ضخم، خاصة إذا ما قارنه للمرء بجميع الأعمال التي سبقتها، أي كانت مآثر أصحابها.

إن هذه الحساسيات الثلاثة دائماً، بالرغم من الصرامة العلمية للتصويرة، لا يبدو البتة في نظرتنا أنها تهدد تعبيراً عنها الفضل مما في مشاهد البيت المنظورة في أوصاف مصر. وإذا كان نيثيليه وهورا وارهير وظلون راعمين على هذا المستوى أيضاً، فإن ذلك ضروب تميز فيه بترار وسيسيل بالتكيد (٢٤). إن الجميع سوف يسعون إلى أن يستحضروا بشكل ملمح بالحوية اكتشافهم لمواقع الآثار أو إلى أن يستعيدوا تحت إحصارنا مشهداً ما من مشاهد حياة للعابد كما تسنى لهم تخيله. وسوف يفضل المهندسون والمعماريون إعادة تركيب صور المشاهد القديمة على استحضار الجمال والشعر اللذين سوف يكون لهما مع ذلك مواقع بطولون بها خلال رحلتهم المصرية.

ومكنا فإن لره يتأمل بتلك اللوحات التي كرسها نيثيليه وهورا لإعانة تركيب صور مركب الزوايق للقصة وهي تمتاز ملحة هيكل معابد إسنا أو نخيره أو الصور التي قدمها لوهر للجزء الداخلي من معبد دير المدينة الصغير (٢٥). إلا أن الشيء الأكثر جانبية بظل هو تثبيت نظرتنا على الشخصيات التي تضيء حيوية على خلفية مشاهد البيت بشكل ينعنا إلى استرجاع ملحمتها بشكل بسيط وواقعي. وعلى كثير من اللوحات، هنا وهناك، غير بعيد عن قوة الصرامة ذات الزى الرسمي للوحد أو عن خيام الجيش، فإن العلماء الشبان يجلسون على كتل حجرية أو على مقاعد صغيرة، وفي اليد ورق رسم وعلى الرأس قبة ذات الرخين أو اللنسوة واللباس سترة طويلة، وعلى الجنب سيف وبندقية في متناول اليد. وأحياناً ما تذكرنا شمسيات كهيرة بأننا في الفترة الأشد حارة في الست (٢٦). والفيظ للضفاف إلى انصدام الأمن وأحياناً إلى أمراض العينين إنما يجعل أهمية للمائرة المنجزة أبلغ تأثيراً في النفس.

إن ما يقدم إلينا هذه المرة ليس مجرد ريدورتاج، ليس مجرد استحضار عادي للمعائر، ليس شيئاً يتم عمله «على نحو مشابه لها»، بل هو نتيجة عمل انتقادي وعلمهم. وأخيراً، فإن اللوحة «الرومانسية» الصغيرة التي غالباً ما تزين اللوحات إنما تضعنا في العصر تماماً، والأسلوب أو بالأحرى التعبير الذي يجري إضفاؤه على بعض تيجان أعمدة بندرة المحورية أو الملح «الناپوليوني» تماماً لبعض الوجوه الملكية على اللوحات التي تستحضر النقوش البديلة في قاعة الكرنك التي يستند سقفها إلى أعمدة إنما تعتبر بلا جلال أيضاً لنمكسك لذلك (٢٧). وإذا كانت كل حقبة من تاريخنا الحديث تتميز بأسلوبها الأسيل في النظر إلى حضارة قديمة وتشوه بذلك إلى حد ما، بشكل غير واع تعلماً في

أغلب الأحيان، تمثيلاتها للواقع الذي يجري النظر إليه، فإن حملة مصر لا تفلت من هذه القائمة. لكن هذه التبديلات للحملة في اللحظة التي رسمت فيها اللوحات لا تحول بالفعل دون تكوين فكرة منسبة من التيمات الرئيسية والشكل العلم لزخرفة المعابد. وإمام جهد تسجيلي بهذه الدرجة من العظمة وهذه الدرجة من التعلم وهذه الدرجة من الأمانة بالرغم من كل شيء، والذي يذل حتى يتسنى الكشف في أوروبا عن جوانب جديدة مميزة لمصر، فإن الانتقالات المتصلة بمثل هذه التفاصيل لا تبدو أن تكون شكلاً لإبراز درجات شعور الإحباط الفعلي الذي يهيمن تجاه عمل استثنائي كهذا العمل.

وبهذا المعنى وبسبب القيمة العلمية التي يحتفظ بها هذا العمل النموذجي اليوم، فلا مفر من الاعتراف بأن حملة مصر، في هذا المجال المحدد، قد أنهزت ما يمثل دون شك، وبالنسبة لكل العالم اليوم أيضاً، أحد الجوانب الأقل إثارة للجدل في المهمة التي قامت بها. والواقع أن عدداً من الرجال المثقفين، للمركين تماماً للوضع الذي يجدون أنفسهم فيه، والمستذكرون للجوانب شهر الإنسانية للحرب التي استحضرها يهود أو يهودانيون خلقاً وبون موارية، قد وصلوا هناك، بفضل جودة أعمالهم، إلى تحقيق أنبل غاية حديثها الحملة لنفسها : أن تنتقل إلى الأجيال القادمة كل ما يمكنها إسهامه من الميراث للضخم لواحدة من أعظم حضارات العالم.

لكرنك، ١٢ أغسطس ١٩٨٨ .

حوادث الفصل التاسع

- 1 Sur les premiers voyageurs en Haute-Égypte, voir : C. TRAUNECKER, J.-C. GOLVIN, *Karnak, Réurrection d'un site*, Paris, Fribourg 1984, pp. 35-102 et bibliographie pp. 227-229, voir aussi C. TRAUNECKER, *Deux missionnaires franciscains en Haute-Égypte (mai-août 1691)* dans *Orbis Biblicus et Orientalis*, 1989, pp. 171-241.
- 2 JOLLOIS et DEVILLIERS, conscients des avantages dont ils bénéficient, évoquent ainsi les conditions de visite de leurs prédécesseurs : « on s'empresse comme si le monument devait incessamment s'écrouler et disparaître pour toujours. Après cet examen mal dirigé, dont l'esprit et les yeux sont également fatigués, on rentre dans sa barque, plus étonnés que satisfaits », *Description de l'Égypte*, éd. Parakouche, tome II, p. 365 (*Description II*, p. 365).
- 3 F.L. NORDEN, *Voyage d'Égypte et de Nubie*, Copenhague, 1755, p. 164 et p. 101. Sur les dates de passage de F. Norden et R. Pococke, voir TRAUNECKER, GOLVIN, *op. cit.*, pp. 89, 94, 220.
- 4 R. POCOKE, *A Description of the East and some other Countries, I: Observations on Egypt*, Londres 1743, p. 90 et s.
- 5 C. SAVARY, *Lettres sur l'Égypte*, Paris, 1785. Les descriptions des monuments de la Haute-Égypte sont tirées de l'ouvrage de R. Pococke, C. Savary ne s'étant pas aventuré au sud du Caire. Voir à ce sujet le témoignage de SONNINI de MONONDURT dans ses *Voyages dans la Haute et Basse-Égypte*, Paris, 1799, p. 12 et TRAUNECKER, GOLVIN, *op. cit.*, pp. 96-8.
- 6 VOLNEY, *Voyage en Égypte et en Syrie*, Paris, 1783 ; réédité par J. Gaulmier, Paris, 1959, p. 156.
- 7 QUATREMAIRE DE QUINCY, *De l'architecture égyptienne*, Paris, 1803 (rédigé en 1785), passages cités, pp. 5, 210, 224.
- 8 VOLNEY, *op. cit.*, p. 129.
- 9 Pour une bibliographie sur V. Denon, on consultera J.-M. CARRE, *Voyageurs et écrivains français en Égypte*, Le Caire, 1956, p. 143 et J. CHATELAIN, *Doménique Vivant Denon et le Louvre de Napoléon*, Paris, 1973, pp. 347-50 : l'épisode égyptien : pp. 77-95 ; I. A. GHALI, *Vivant Denon, ou la conquête du bonheur*, Le Caire, 1986. Les quelques citations faites ici sont extraites de ce dernier ouvrage, *op. cit.*, pp. 149-185.
- 10 I. A. GHALI, *op. cit.*, p. 163, cette citation est de l'éditeur du *Voyage dans la Basse et la Haute-Égypte*.
- 11 V. DENON, *Voyage dans la Basse et la Haute-Égypte*, Paris, 1802. (Nous citerons les planches selon l'édition de Londres de 1809). Ce mélange d'éléments est évident, pl. L : une palette de scribe a été dessinée à côté de serrures à clé en bois, en usage à l'époque de l'expédition, et des fragments de tissus coptes.
- 12 On doit citer quelques belles restitutions de façades, comme celles du temple de Dendara (pl. XIV) et d'Eana (pl. XXXII). Les erreurs d'échelle sont très sensibles, par exemple sur la représentation de la porte d'Evergète à Karnak (pl. XVIII), les personnages sont beaucoup trop grands par rapport à celle-ci. Les proportions des éléments d'architecture représentés sur certaines planches (pl. XLVI) sont très fausses. L'exagération de la pente des pylônes et des portes est particulièrement sensible sur les planches XIII, XVIII, XX, XXIII. Les édifices ne sont pas correctement orientés les uns par rapport aux autres sur la vue de l'entrée de Medinet Habou (pl. XXI).
- 13 V. DENON, *op. cit.*, pl. XXII, XXVI, XXIX.
- 14 Certaines vues générales sont habilement rendues comme celles du temple de Louqsor (pl. XXV) ou d'Eana (pl. XXI).
- 15 Tous les extraits qui vont suivre proviennent de l'ouvrage de Marc DE VILLIERS DU TERRAGE, dont toute la matière provient des notes et documents d'un témoin direct des événements : E. DE VILLIERS DU TERRAGE, membre de la Commission des Sciences et des Arts, *Journal et souvenirs sur l'expédition d'Égypte*, mis en ordre et publiés par le baron Marc de Villiers du Terrage, Paris, 1899 (DEVILLIERS, *Journal*, pp. 94-216).

En ce qui concerne la bibliographie relative à la Commission des Sciences et des Arts, on pourra se reporter à J.-M. CARRE, *op. cit.*, pp. 162-7 ; et H. MUNIER, *Tables de la Description de l'Égypte*, C.C. GILLISME, dans *Monuments of Egypt, the Napoleonic edition*, pp. 1-39 et bibliographie, pp. 43-45.

- 16 Publié dans *Description de l'Égypte*, Atlas de planches III, pl. 21 (D.E., III, 21). Le cadavre fut découvert dans la seconde chapelle est de la deuxième salle hypostyle (salle B' dans F. DAUMAS, *Dendara et le temple d'Hansor*, Le Caire, 1969, pl. II).
- 17 Voir *supra*, p. 354
- 18 D.E., I, 84.
- 19 DEVILLIERS, *Journal*, pp. 174-5. Sur les inscriptions laissées en Haute-Égypte (Dendara, Karnak, Edfou, Philae) par les membres de l'expédition, voir G. LEGRAND, *Inscriptions françaises de Haute-Égypte*, Paris, 1911.
- 20 Les fonctions de ces membres de l'expédition étaient les suivantes : Descotils (ingénieurs des Ponts et Chaussées), Dupuy et Rozière (minéralogistes), Duchanoy (zoologiste), Dutertre (dessinateur, graveur), Nectoux (botaniste).
- 21 Voir *supra*, p. 355
- 22 Liste donnée par E. DE VILLIERS (*Journal*, p. 213). D'une façon générale, pour tout ce qui concerne la liste des membres de l'expédition et leur fonction on se reportera à : Marc de Villiers dans E. DE VILLIERS, *Journal*, pp. 335-354 ; J.-M. CARRE, *op. cit.*, pp. 148-152 ; et aux travaux de J.-E. GOSY, cités par C.C. GILLISME (*op. cit.*, p. 45).
- 23 Sur ce total, les édifices de Haute-Égypte ont fait l'objet à eux seuls des 330 planches des 4 premiers volumes. Ceux des environs du Caire et les sites du delta représentent seulement 43 planches du V^e volume. Les 46 dernières planches sont consacrées aux documents et inscriptions recueillis.
- 24 Devilliers et Jollois, qui ont presque toujours fait équipe, sont les auteurs de près de 110 planches. Chabrol et Jomard en ont signé près d'une centaine à eux deux (dont une vingtaine ensemble). Dutertre en a fait une soixantaine et Le Père plus de quarante. Cécile et Balzac en ont signé chacun une trentaine, Redouté et Lancret, une vingtaine. Les autres membres n'en ont guère produit plus de dix et même parfois beaucoup moins si l'on exclut Saint-Genis et Corabœuf associés le plus souvent à de Villiers et Jollois.
- 25 Il faut citer ici : le plan général de Thèbes (D.E., II) de Medinet Habou (II, 2) et ceux des secteurs incluant le *Ramesseum* (II, 19), Deir-el-Bahari (II, 38), le temple de Seti I^{er} à Gournah (II, 40), ainsi que les plans de la Vallée des Rois (II, 77), de Louqsor (III, 1), Medamoud (III, 68), Dendara (IV, 2) *Antaeopolis* (IV, 38) et celui des trois enceintes de Karnak (III, 16). Saint-Genis et Corabœuf ont dressé seuls celui d'El Kab (I, 66). D'autres plans généraux sont dus à Le Gentil, Éléphantine (I, 30 en collaboration avec Jomard), Esna et *Constatopolis* (I, 73). Le plan de Behbet el-Hagar est du à Dubois Aymé et Jollois (IV, 30). Jacquin dressa ceux d'Héliopolis (V, 26), de Memphis (V, 1), des pyramides (V, 6) et de Tanis (V, 28). À Jomard revient le mérite d'avoir réalisé ceux d'Abydos (IV, 35 et 37), d'Antinoé (IV, 53 ; aidé de Chabrol), d'Hermopolis (IV, 50), d'El-Tell (Tell el-Amarna) (IV, 63), de *Cusae* (IV, 67) et d'Athribis (V, 27).
- 26 Le dessin des bas-reliefs n'est pas l'exclusivité des artistes (dessinateurs et peintres) tels que Dutertre ou Redouté. Jomard (géographe) en a dessiné lui aussi un grand nombre ainsi que les ingénieurs des Ponts et Chaussées, Chabrol, Lancret, Devilliers et Jollois. Cécile (ingénieur) et Balzac (architecte) en ont exécutés quelques-uns et Le Père (architecte) aucun. D'autres, au contraire, n'ont signé que des planches relatives à des objets ou des bas-reliefs, en petit nombre toutefois, comme Rozière, Bigant, Pomel, Fèvre, Lenoir, Protain, Viard s'est consacré au relevé des cartouches royaux. Le dessin des parois décorées offre un intérêt direct pour la compréhension de la fonction des salles, mais nous ne pourrions pas ici citer toutes les planches concernées. Le relevé du bas-relief du temple de Khonsou par Dutertre, représentant la façade du deuxième pylône en offre un bon exemple (D.E., III, 57), tout comme les scènes de la salle hypostyle de Karnak (D.E., III, 32, 33).
- 27 On doit à Devilliers et Jollois, un très grand nombre d'excellents relevés. Le souci de précision de l'ingénieur y est évident et le plus souvent, un grand nombre de cotes est indiqué. On a été relevé :

les monuments de *Philae* (D.E., I, 5, 6, 24, 25, 29), le temple ptolémaïque d'Assouan (I, 38), Kom Ombo (I, 42), Edfou (I, 61), Esna (I, 72, 85), *Contralatopolis* (I, 84), Médinet Habou (II, 18), les colosses de Memnon (II, 20), les ruines de Qous (IV, 1), Dendara (II, 8, 31) et plusieurs tombes hypogées d'Assiout (IV, 44, 47-49).²⁸

28 Le Père a réalisé le plan du grand temple d'Amon-Ré à Karnak (D.E., III, 21) et celui du temple de Khonsou (D.E., III, 54), ainsi qu'une importante série de plans, coupes et élévations relatives à Edfou (I, 50-54, 62), Erment (I, 94), Médinet Habou (II, 4-6), au *Ramesseum* (II, 27) et aux tombes de la Vallée des Rois (II, 39). On peut admirer aussi la grande coupe de la pyramide de Khéops (V, 14) ou le relevé de l'« aiguille de Cléopâtre » à Alexandrie (V, 33). Balzac a relevé le temple sud d'Éléphantine, aujourd'hui détruit (D.E., I, 35, 38), dessiné les élévations et les coupes de la grande porte de Médinet Habou (avec Jomard II, 16) et des tombes de Gournah (II, 45). Grâce à lui, on connaît la forme du cirque antique d'Alexandrie (V, 39) et celle de la grande enceinte d'Abou Fedah (V, 62) car il n'en reste rien aujourd'hui. À Karnak, Jomard fit le levé du temple d'Opet (III, 58, 65 ; en collaboration avec Chabrol), et il a publié des planches concernant certaines tombes de la Vallée des Rois (II, 45 ; avec Dutertre, Redouté et Cécile), ainsi que l'obélisque oriental de Louqsor (III, 11 ; avec Devilliers, Jollois et Lancrer). Chabrol réalisa les relevés du temple de *Contralatopolis* avec Lancrer (D.E., I, 89), de l'obélisque occidental de Louqsor (III, 12 ; avec Devilliers et Jollois) et une belle coupe la grande porte nord de Dendara (IV, 5). Lancrer a assuré le levé du petit temple de Deir-el-Medineh (II, 34), celui de la porte d'Evergète à Karnak (III, 52-53). En ce qui concerne le plan du grand temple d'Amon-Ré, nous avons pu disposer du dossier de publication du *Plan topographique de Karnak* et de l'étude historique des plans de Karnak, grâce à notre collègue, M. Azim, auquel nous adressons nos remerciements.

29 À propos de cet édifice, on consultera notamment G. LEGRAIN, *Les temples de Karnak*, pp. 64-74 ; P. BARGUET, *Le temple d'Amon-Ré à Karnak*, Le Caire, 1962 ; J. LAUFFRAY, *Kémi XX*, 1970, pp. 111-164 avec bibliographie des travaux de H. Chevrier, p. 111, n. 4.

30 Telle est bien la conclusion à laquelle nous ont conduit les travaux les plus récents concernant ce sujet : M. AZIM, *La structure des pylônes d'Horemheb à Karnak dans les Cahiers de Karnak*, vol. VII, Paris, 1982, pp. 127-146.

31 Devilliers et Jollois avaient pressenti l'événement qui survint effectivement le 3 octobre 1899. Une partie de la salle hypostyle s'effondra brutalement en raison de la faiblesse des fondations dont le grès avait été détérioré par l'effet pernicieux des eaux d'infiltration ; TRAUNECKER-GOLVIN, *Karnak*, pp. 161-168, D.E., Texte (Édition Panckoucke), II, p. 441.

32 On ne saurait faire état ici des nombreux détails d'architecture observés (colonnes, chapiteaux, gargouilles, etc.) et des relevés partiels souvent cotés. Nous sommes heureux de pouvoir parfois disposer ainsi également de documents relatifs à des monuments qui ont disparu. Devilliers et Jollois ont étudié de nombreux détails des édifices de *Philae*, Kom Ombo, Edfou, Esna, Louqsor, Abydos, Anoué, tout comme Le Père à Médinet Habou ou au *Ramesseum*. Jomard et Chabrol en ont fait autant à Médinet Habou, Gournah, Karnak, Dendara, Anoué et Alexandrie. Dutertre, Lancrer, Balzac ; c'est dans une moindre mesure que Redouté et Girard ont contribué à cet effort. Nous ne citerons pas toutes ces planches, mais seulement les remarquables études comparatives des chapiteaux d'Esna faites par Cécile (D.E., I, 75), de *Contralatopolis* par Lancrer (I, 89) et d'Edfou par Devilliers et Jollois (I, 56-57).

33 Les restitutions architecturales en plan, coupe, élévation, perspective, constituent une part importante du travail des auteurs de la *Description de l'Égypte*. Elles représentent bien la synthèse de toutes les observations faites sur le terrain et des hypothèses qu'ils bâtirent pour évoquer l'aspect d'origine probable des témoins majeurs d'une architecture dont les qualités étaient ainsi révélées pour la première fois. Cet effort est d'autant plus méritoire qu'il est resté inégalé. Bien peu de temples ont depuis fait l'objet de recherches en ce sens. Mis à part Karnak dont les principales phases d'évolution viennent tout juste d'être restituées et dessinées à l'ordinateur, on serait en peine de citer beaucoup d'autres exemples de restitutions même « classiques », à part celles de Médinet Habou, faites par U. HÖLSCHER, *The excavations of Medinet Habu*, Chicago 1934.

En revanche, nous pouvons énumérer un grand nombre de restitutions faites par Devilliers et

Jollois (relatives à Kom Ombo, Esna, au *Ramesseum*, au temple de Louqsor, ou à ceux de Medamoud, Dendara et Hermopolis). D'autres ont été réalisées par Le Père, surtout en ce qui concerne le grand temple d'Amon-Ré à Karnak ou le *pronaos* du temple de Dendara (*D.E.*, III, 21-28 et 41, 55 ; IV, 29). La restitution de la grande porte de Dendara par Chabrol et Jomard (*D.E.*, IV, 6), ou de la façade du temple d'*Antaeopolis* (*D.E.*, IV, 41) sont également remarquables.

■ Ces qualités sont nettement celles d'un artiste comme Dutertre, connu en outre pour ses talents de portraitiste des membres de l'expédition ; DE VILLIERS, *Journal*, pp. 355-365. Il n'a livré aucune restitution à caractère trop technique en « géométral », mais une éblouissante série de vues d'ambiance de *Philae* (*D.E.*, I, 18), Edfou (I, 49), Erment (I, 93), des colosses de Memnon (II, 20), du *Ramesseum* (II, 25), de Karnak (III, 17, 20, 54), Dendara (IV, 4), *Antaeopolis* (IV, 43), d'Assiout (IV, 43) et des pyramides (V, 10, 12). De même, Cécile présente toute une série de sites de façon très vivante : le kiosque de Trajan à *Philae* (*D.E.*, I, 25), le temple de Kom Ombo (I, 40), le mammisi d'Erment (I, 94) et de magnifiques vues de Médinet Habou (II, 3), Louqsor (III, 3), Karnak (III, 18, 19, 43, 48, 49), Dendara (IV, 7), *Antaeopolis* (IV, 40), Assiout (IV, 46), *Hermopolis* (IV, 51), Memphis (V, 1), et des pyramides (V, 10, 12). Devilliers et Jollois nous ont offert de belles perspectives de *Philae*, Éléphantine ou du temple de Seti I^{er} à Gourmah restitué, ainsi que de très belles vues intérieures du *pronaos* d'Esna (*D.E.*, I, 80) et de Dendara (IV, 30). Le Père aime à évoquer l'ambiance des monuments, telle qu'il l'imagine dans l'antiquité : nous retiendrons surtout ses vues de la grande salle hypostyle de Karnak (II, 42), de la cour du temple de Khonsou (II, 25), du petit temple de Deir-el-Medineh (II, 37) et du portique du grand temple de *Philae* (I, 18). Jomard a eu plu à évoquer la première cataracte et l'île d'Éléphantine, mais nous citerons surtout les monuments qu'il a dessinés à Antinoé (IV, 54), El Deir (IV, 63), Qasr Qaroun (IV, 69), ainsi que ses vues des pyramides (IV, 72 et V, 16). Balzac a représenté Edfou (I, 48), Erment (I, 93), Médinet Habou (II, 14-15), le *Ramesseum* (II, 24), Karnak (II, 18, 46), Memphis (V, 4) et les pyramides (V, 8). L'unique planche publiée par Conté offre une image saisissante du sphinx et de la grande pyramide (IV, 11). Le peu de planches signé par Dubois Aymé est sans doute une conséquence de l'exil à Qosseir qui lui fut imposé par Girard : citons l'obélisque d'*Héliopolis* (IV, 26) et la forteresse de Babylone (IV, 11). Tous ces travaux sont infiniment plus critiques que les soissonnaises évocations qui allaient suivre au cours du XIX^e siècle : TRAUNECKER-GOLVIN, *Karnak*, pp. 143-152. À la rigueur de savants conscients du rôle scientifique qu'ils devaient jouer s'opposera l'imagination débridée d'auteurs plus récents, pour qui l'Égypte ancienne était devenue un sujet propre à susciter rêves et phantasmes. Les planches de la *Description de l'Égypte*, au contraire, sans être dépourvues de poésie et de sensibilité montrent bien que leurs auteurs ne se sont jamais laissé entraîner à des excès quel qu'ait été leur enthousiasme. Il est rare que celui-ci atteigne le seuil de l'antaisie qui est celui de la restitution de la grande porte d'Evergète à Karnak : *D.E.*, III, 51.

■ À ces vues déjà citées, on comparera celle dessinée par Chabrol représentant la procession de la barque d'Isis à *Philae* (*D.E.*, I, 11).

36 Sur aucune planche on ne peut observer l'emploi d'instruments topographiques perfectionnés. Les dessinateurs n'ont qu'un simple carton sur les genoux et des crayons. Devilliers, *Journal*, évoque bien l'emploi d'une lunette de visée, mais on ne sait si celle-ci provient du matériel qui put éventuellement avoir été récupéré sur les épaves comme celle du *Patriote* coulé à Alexandrie au début de l'expédition ou s'il s'agit d'une fabrication locale due à l'ingéniosité de Conté.

Sur de nombreuses scènes on aperçoit les savants au travail. Citons celles dessinées par Balzac au *Ramesseum* (*D.E.*, II, 24-26), à Louqsor (II, 24) et à Karnak (III, 18, 46, 56). À Gizeh où on les observe en train de relever le sphinx (V, 8). Cécile les a figurés à Louqsor (III, 2), ainsi qu'à Karnak avec leurs parasols (III, 43), où ils parcourent le site en redingote, sabre au côté (III, 48, 49). On les voit encore à Dendara (IV, 7), Assiout (IV, 46), *Hermopolis* (IV, 51), Gizeh (V, 9, 13) et Alexandrie (V, 32). Dutertre en a donné des images très vivantes à Karnak (III, 17, 20), Assiout (IV, 43), et Memphis (V, 3).

37 L'expression particulière des visages des personnages royaux dessinés par Lancroi sur ses planches de bas reliefs de la salle hypostyle de Karnak (*D.E.*, III, 39) rappelle incontestablement beaucoup plus le portrait de l'empereur des Français au moment où furent gravées celles-ci que le profil de Seti I^{er} ou de Ramsès II. L'expression poupine que Le Père confère aux chapiteaux du *pronaos* de

Dendara (IV, 12) ou le visage encore plus bouffi qu'y ont les têtes de la déesse Hathor sur d'autres planches (IV, 29) marquent bien leur époque. Au sujet de ces inévitables altérations selon les époques : TRAUNECKER-GOLVIN, *Karnak*, pp. 99-152 et 205-212. Le Père place dans la salle hypostyle un personnage qui nous évoque plus un éphèbe grec qu'un authentique égyptien (III, 42). D'une façon générale, sur toute les planches, les traits des Égyptiens se trouvent sensiblement « européanisés ».

الفصل العاشر

مصر القطيعة فكل «وصف مصر»

بقلم : كلود توليكر

في ١٦ أغسطس ١٧٩٩، تغادر القاهرة مجموعة من ستة وعشرين شخصاً. هؤلاء هم أعضاء لجننتين، الأولى يرأسها عالم الرياضيات فورييه، والثانية يرأسها المهندس كومستاز. وهاتان اللجنتان مكلفتان بجود آثار مصر القديمة. وهذه الرحلة محصلة لأمنية أعرب عنها بوناپارت منذ يناير ١٧٩٩ : لقد بنا أن القائد العام يرغب في أن يتجه أعضاء المعهد ومختلف أعضاء اللجنة إلى مختلف مواقع مصر، حتى يدرسوا الأشياء الفرعية التي قد يجدونها هناك. والحال أن هذه الرغبة كانت بمثابة أمر. هكذا يروى لنا جولوا، أحد للمهندسين الشبان في اللجنة، أمل هذه الرحلة إلى مصر العليا، في يومياته (١). ولم يكن هؤلاء الرجال هم أول أعضاء في لجنة العلوم والفنون يشاقون طريقهم إلى مصر العليا. فبعد أكتوبر ١٧٩٨، كان فيثان دينون قد صار في وكب جيش فيزيه الذي يطارد مراد بك وأدماره في مصر العليا. ولدى عودته إلى القاهرة، في أراثل يوليو ١٧٩٩، تمكن من إطلاع بوناپارت على حصيلة من رسوم العمائر والمناظر الطبيعية في مصر العليا. ومن المرجح أن وجود هذه الأوراق هو الذي هاد على دينون بامتياز مرافقة بوناپارت عند رحيله عن مصر وعن جيشه بعد ذلك ببضعة أسابيع، في ٢٢ أغسطس ١٧٩٩. والحال أن نشر رسوم وقصة رحلة دينون سوف يكون مفيداً للقضية بوناپارت. لكن هذا الأخير يصبر قبل إبحاره لأمر بأن تتحرك لجنتا مصر العليا بأسرع ما يمكن.

وبعد دينون، ترحل لجنة برئاسة جبرار إلى مصر العليا في ١٩ مارس ١٧٩٩ لكي تتولى القيام بسلسلة من القياسات والملاحظات سعياً إلى تحديد النظام الهيدروغرافي للبلد وتحديد وسائل تحسين الري واستغلال الأراضي. وبين أعضاء هذه اللجنة التسعة

يبرز الشاب دوسيهو جولوا، المهتمس للتعهد التخصصات الفنية الذي يبلغ عمره اثنتين وعشرين سنة والشاب الصغير إنوار ديليبي، تلميذ كلية الهندسة، الذي يبلغ عمره ثمانى عشرة سنة بالكاد عند وصوله إلى مصر (٢). ويهتمس الاثنان معاً لعناصر مصر ويتوليان، بمبادرتهما الخاصة، إعداد بيان بجميع الأطلال التي يمكنهما الاقتراب منها خلال مهمتهما (٣)، ليس دون تعدى ثوابت غضب جبرار، غير المنفتح على ما يبدو على الفن القديم.

وقد بلم هذا التعاون مدة جد طويلة وإلى انقلامهما ترجع فصول عديدة من اوصاف مصر. وأحال أن ديليبي، الهاد والمجتهد، يتأذى زميله الأكبر منه سنًا، والذي يشير إليه كثيراً في يومياته، بصيغة «أنتم». وهما لن يرفعا الكلفة بينهما إلا فيما بعد بكثير، لدى موتهما إلى ارنصا. وكان التخصص الأول لهولوا هو العمارة. ولذا فإن يومياته، الأكثر انتقالاً إلى الحديث عن أحواله الشخصية من يوميات ديليبي، تخصص مساحة واسعة للملاحظات المتعلقة بتقنيات البناء. وعندما يلتقيان باللجنة التي يرأسها كوستاز، ثم باللجنة التي يرأسها لورييه، والتي كانا قد سبقتهما، فإن الجميع يقررون توحيد جهودهم وتنسيق أعمالهم (٤).

ولم تنشب هاتان اللهنتان إلى أبعد من الشلال الأول. وكان من المقرر القيام بحملة إلى النوبة، إلا أنه لم يتسن لها أن تتم. (٥) لما عالم الفلك نيكثو، وهو أحد عمداء اللجنة، لقد تمكن من السير في أثر الهنرال بيليار، في تغلفه القصير في النوبة. (٦) ولدى العودة إلى القاهرة، يجرى توزيع أعضاء اللجنتين على أعمال متباينة، جد بعيدة في أغلب الأحوال عن الأعمال المتعلقة بالعصر القديم، لكن كل واحد يظل حائزاً للبيانات التي قام بإعدادها (٧). وإلى الهنرال كلير ترجع مائدة فكرة نشر جماعى لرسوم ولأعمال وملاحظات لجنة العلوم والفنون (٨).

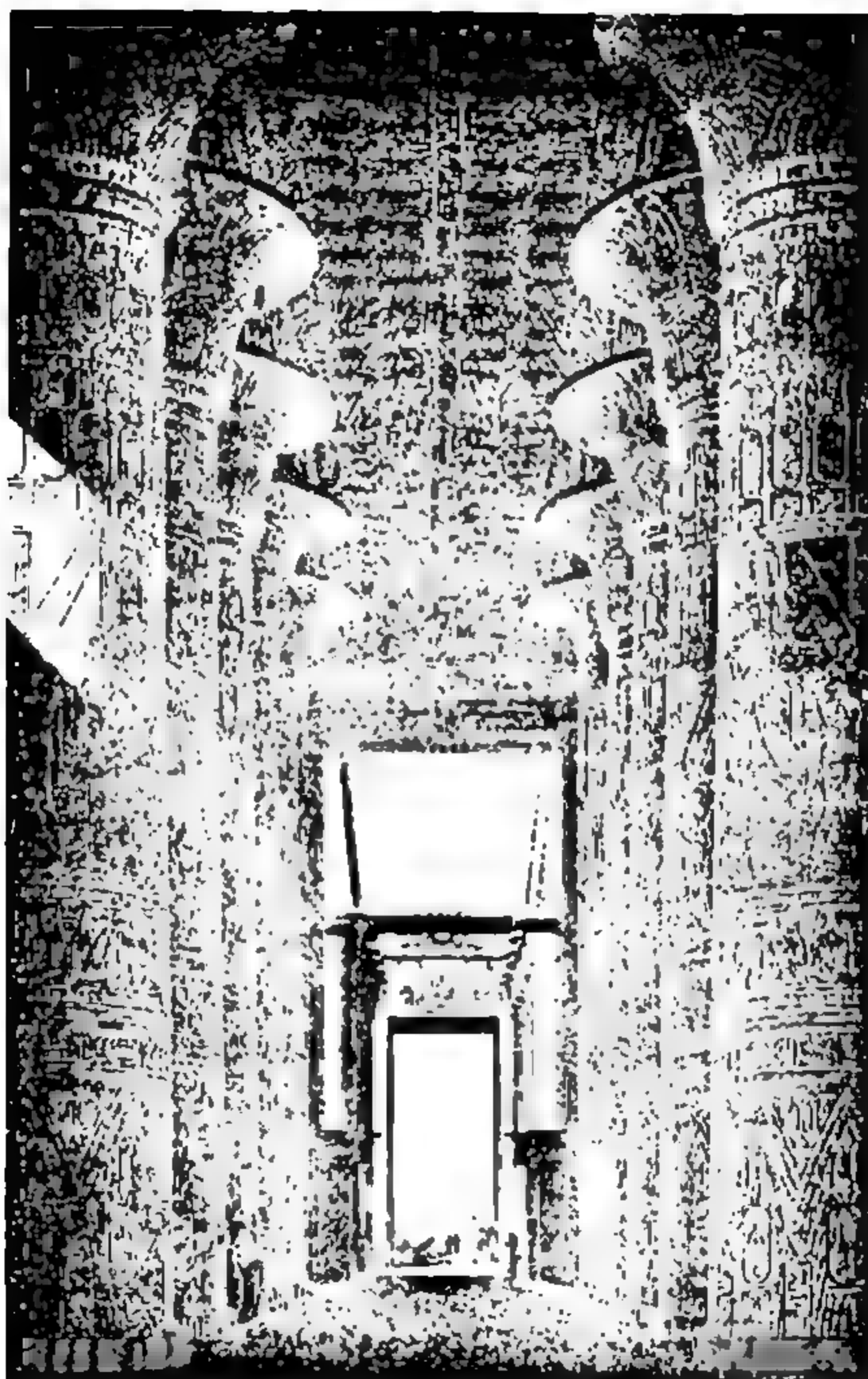
وخلال البحث عن الآثار، يكتشف العلماء والمهندسون الشبان حضارة. لكن استحالة فهم النصوص التي تزين جدران المعابد إنما تمثل عقبة جسيمة. وغالباً ما يكتفى للمهندسون بوصف وتليس ورسم الآثار ويظلون جد حذرين فيما يتعلق بالتفسيرات والتعميمات التي يمكن استخلاصها منها. وهذه الموضوعية (٩) تجعل من اوصاف مصر الضخم مرجعاً لا يزال مستخدماً بين الأركيولوجيين. فهو غنى بالمعلومات المهمة المتعلقة

بالمواقع الأثرية التي اختلفت أو تهتمت اليوم. ثم إنه ينضم بالإشارات وبالملاحظات المعمارية التي تعد في الغالب جد نكية.

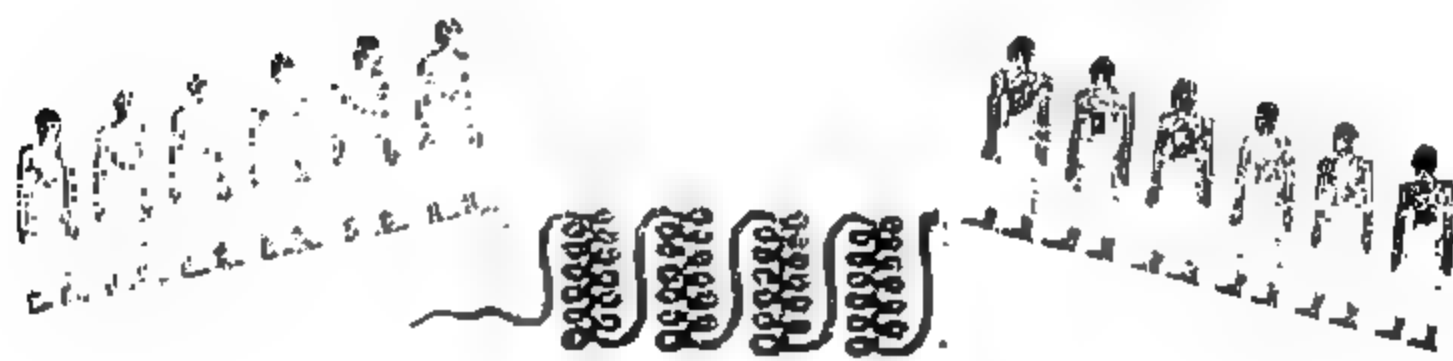
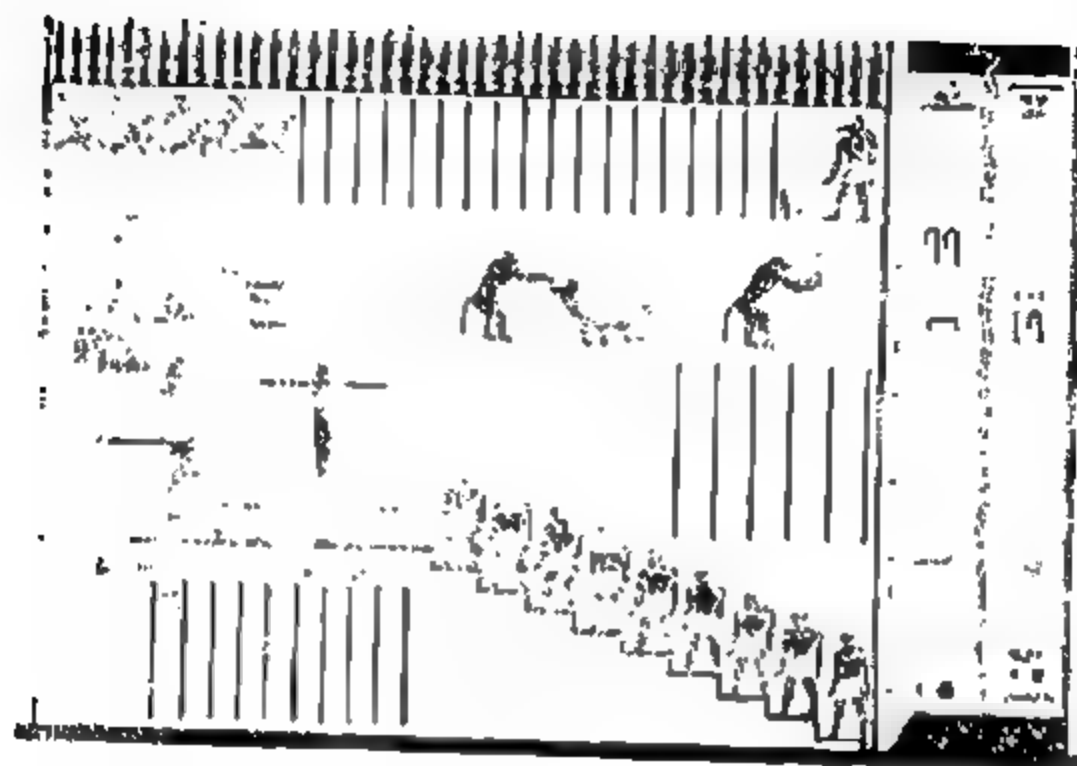
إلا أنه عندما يصافى القارئ للعصر، هنا وهناك، مبعياً إلى التفسير أو محاولة لتحديد وظيفة بنائية ما، بل ونظرة إجمالية تركيبية، فإنه يبتسم ويهز كتفيه ويصرف النظر. فالآن وقد أصبح بالإمكان قراءة الكتابة الهيروغليفية ككثير من الكتابات القديمة الأخرى وحيث يفصلنا نحو قرنين من البحوث الإحييتولوجية عن تلك العصر البطولي، فإن أطروحات حولها وديفاليبيه وجومار ورفاتهم تبدو لنا بالية، إن لم تكن شائعة. على أن التصور الذي قاموا بعرضه على قراء «وصف مصر»، بالرغم من كونه جد بعيد عما نلمح من الواقع القديم، إنما يعتبر متمسكاً بشكل فرود. وهو انعكاس مصر أخرى، مصر التي حملها في أنفسهم هؤلاء الرجال المنتصون إلى أواخر القرن الثامن عشر، وهي نوع من جنة عدن ينتصر فيها للعقل، ملكوت كامل يحكمه ملك حكيم.

ولما كنت مشغول بالبحر بمصر تلك الغريبة والمثالية في أن واحد، لقد وجدت نفسي ملزماً بقراءة كل «وصف مصر»، مبعياً إلى جمع التفسيرات والاستنتاجات النهائية للمقنة. ولابد أن من السهل رسم لوحة للأخطاء والتضليلات الخاطئة، لكن مثل هذه المهمة ستكون ظالة ومضيفة في أن واحد، إن لم تكن خطيرة. فالواقع أن المرء بعد استيعابه بلبسامة رثاء تفسير ما سائجاً بشكل خاص، غالباً ما يضطر إلى الاعتراف بأن الفكرة الرئيسية للمقالة، أيأ كن ما تتميز به من جدية وإحكام، إنما تبدو جد فارغة. وكان يوسى أيضاً أن أبين فقط النقاط، وهي عديدة، التي تمكن فيها للهنصون وعلماء الهندسة والمعماريون من رؤية الأمور بشكل صائب. لكن مثل هذا النهج كان من شأنه أن يكون متهاشراً، في نهاية الأمر، معلوماً من الناحية التاريخية. وفي المقابل، فإن وحدة مصر البريئة الصالحة تلك، المتبثقة من الاتصال بين آثار مصر العليا ورجال لم يكن هناك البتة ما تبرلهم سلفاً الاضطلاح يمثل هذه الغامرة، إنما تحفز المرء على تقييمها كما هي.

ومن ثم فإننى أقتراح، في الصفحات القليلة التالية، إمعة تركيب الخطوط العريضة لمصر تلك التي يتحدث عنها «وصف مصر»، وسوف أقتصر، في هذا التداول الأول، على أهم حقائق الحضارة.

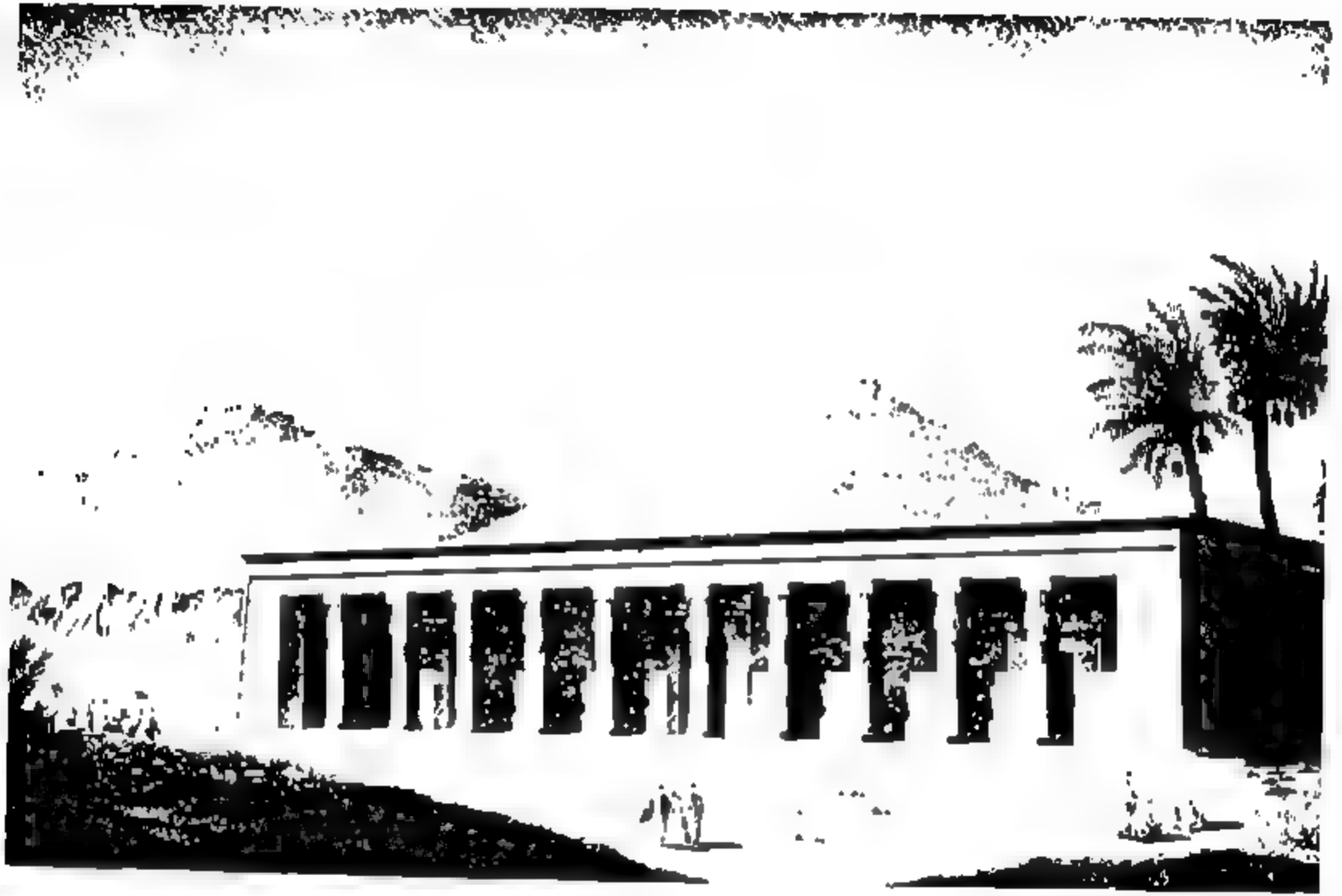


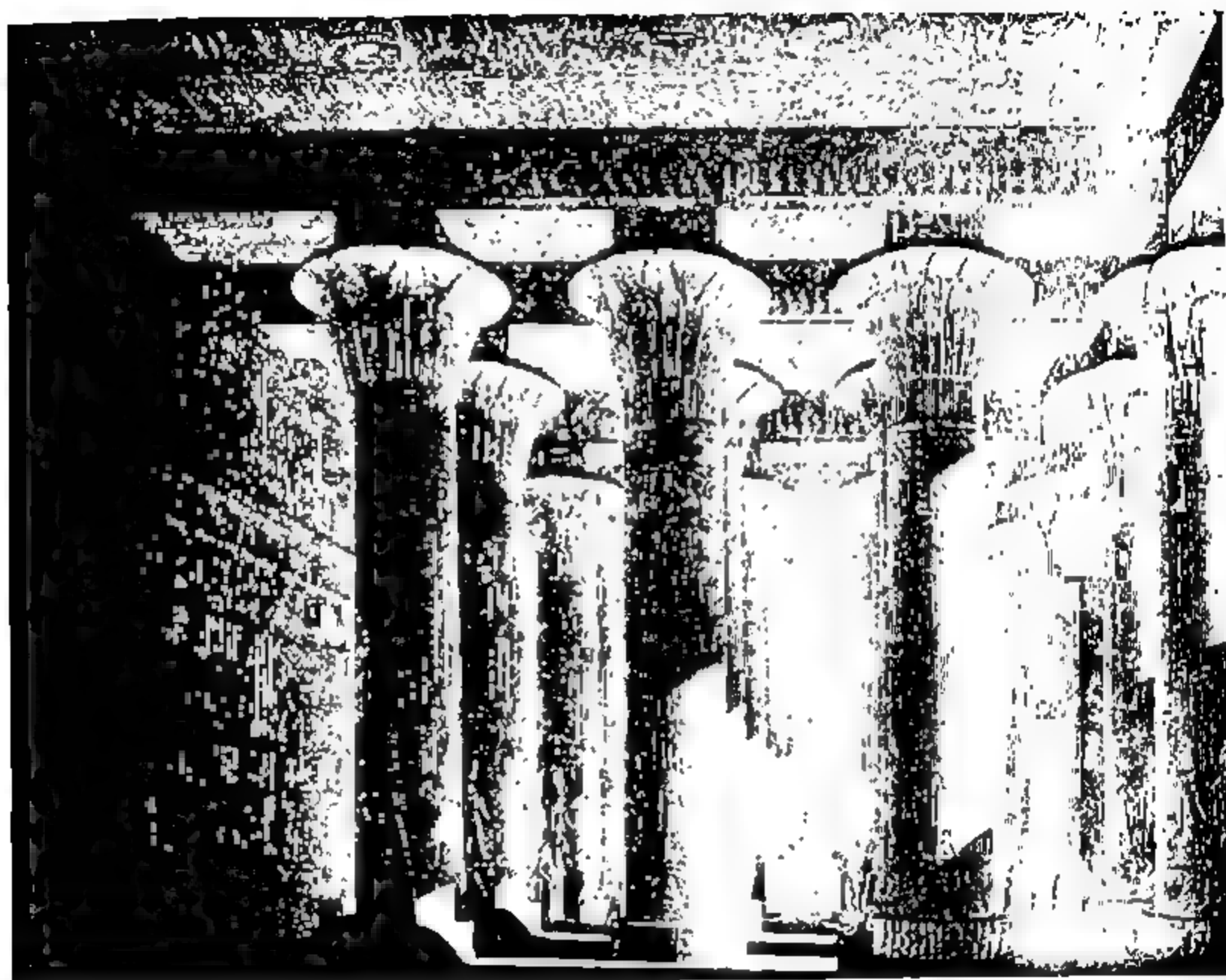
٨١ - القاعة ذات الأعمدة للحمر الكرنك.

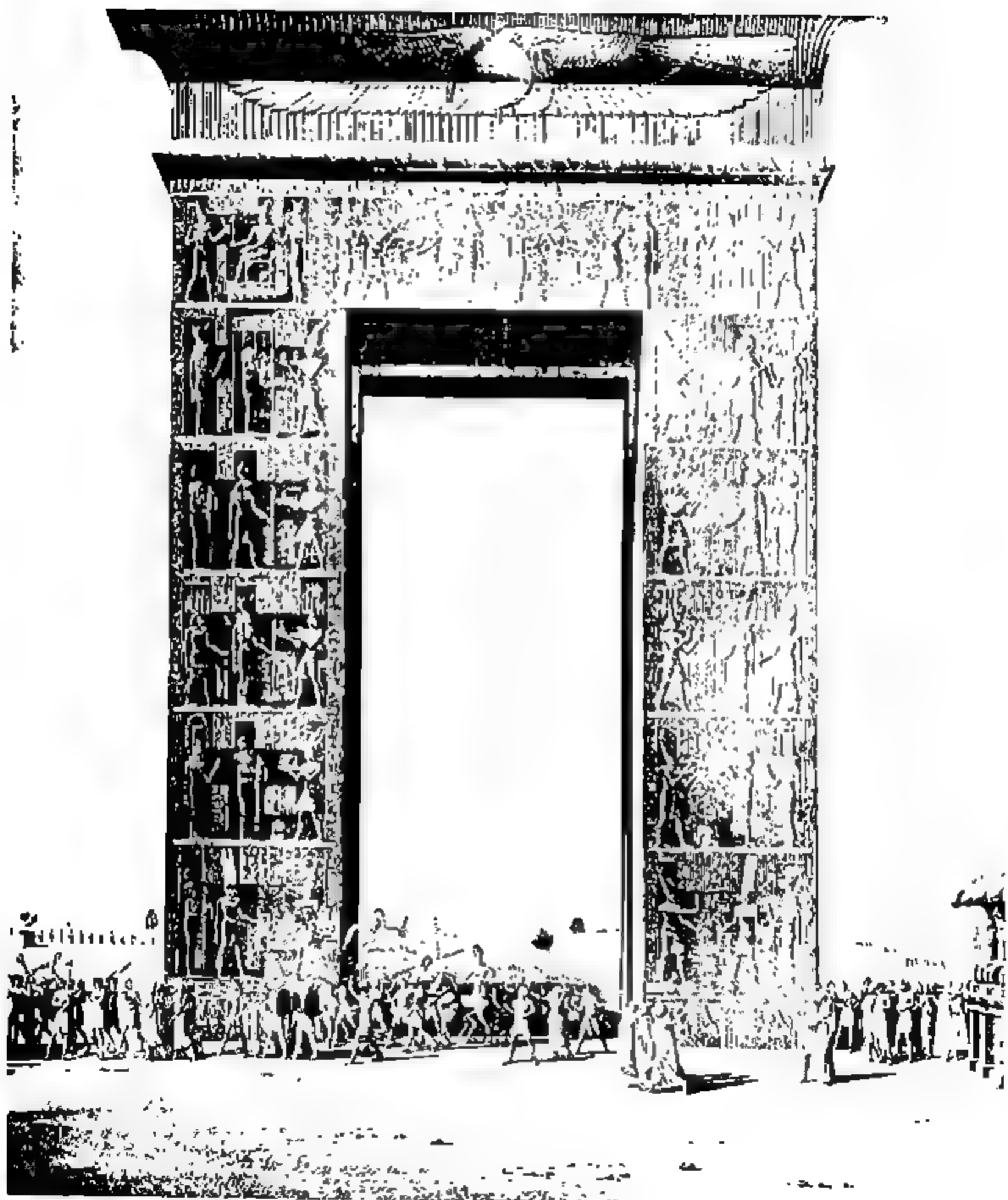




1

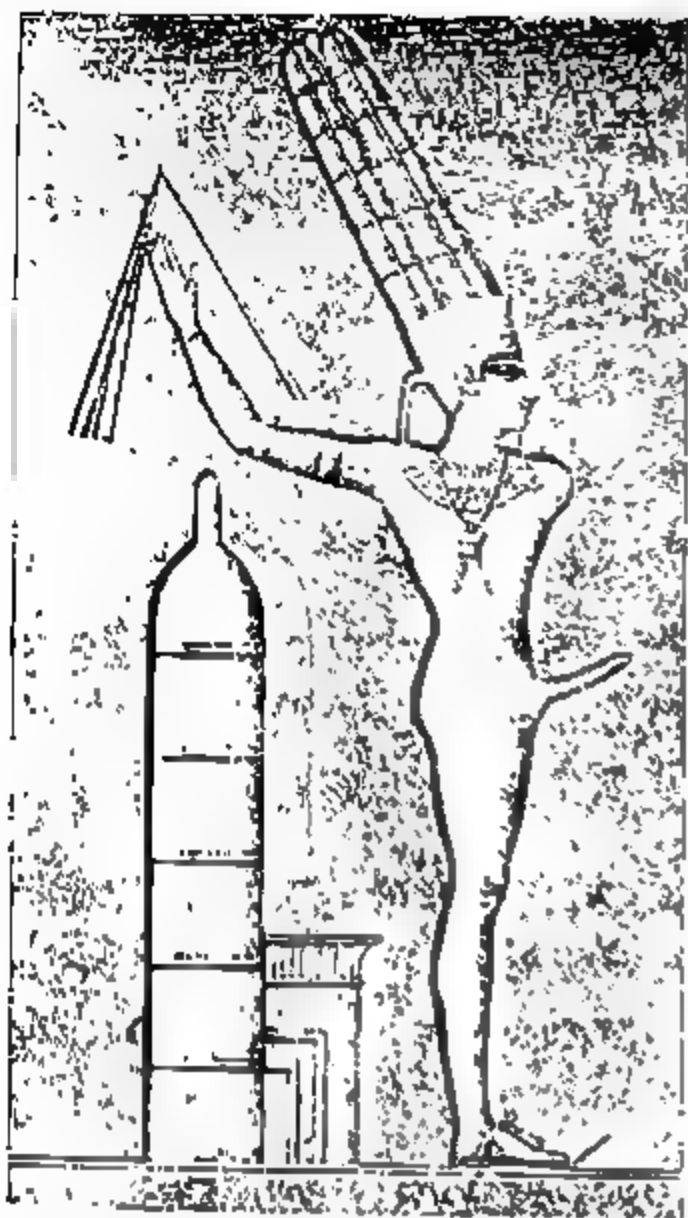






٨٦ - بوابة النصر الجنوبية بقصر الكرنك.

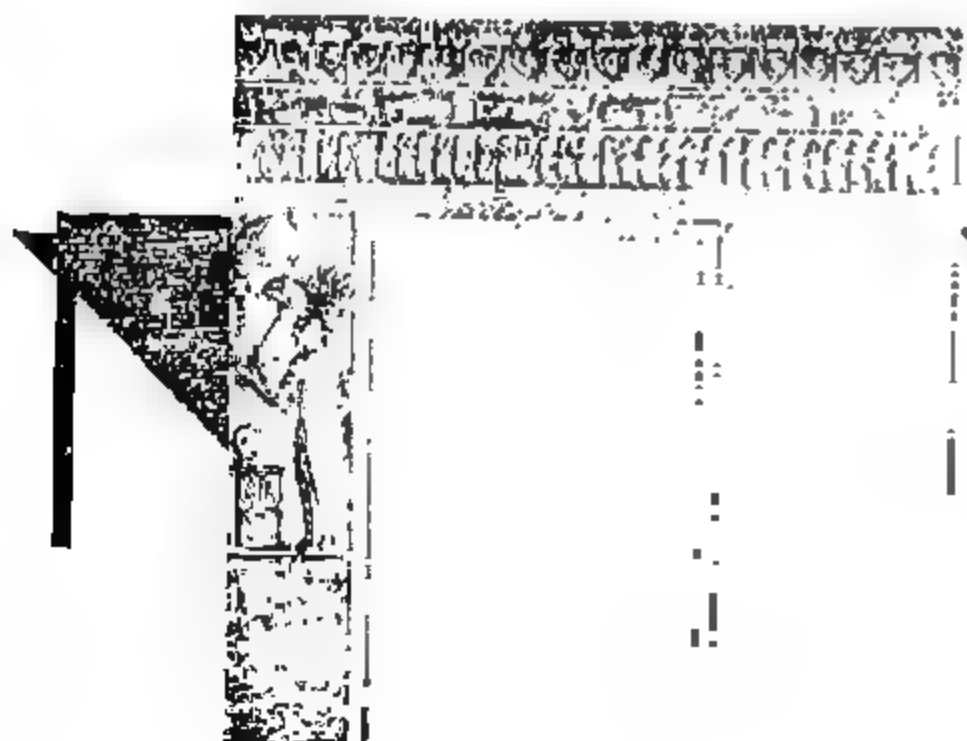




٨٨ - (أ) هارمكرات، إله طيبة.



(ب) أحد الهنود، يحارب فرعون.



(ج) إلهلاك.

الملك الكبير

إن مصر جزلوا وديفيليه وجومار ولانكره ورفلقهم هي بلد تهيمن عليه الحكمة.
إن ملوكها يتحلون بأسمى الخصال :

« على مدار قرون عديدة، تمتعت مصر بحكم مستنير وقوى : فالقوانين والأعراف العامة والعادات المنزلية كانت تتقارن في تحقيق غاية واحدة؛ وكانت مؤسسة على إبداع لطائف الإنسان، وعلى مبادئ النظام والعمل العمومية التي تعمر بها جميع الأمثلة».

وهذا الحكم «كان ملكياً، مؤسساً على قوانين قديمة ومقبضة؛ لقد جرى تحويل الأمثلة التي ضربها لحكم الملوك إلى أعراف ثابتة» (١١). وهذا النص الذي كتبه فورييه إنما يوجز التصور الذي ساء بين صفوف كتاب «وصف مصر» عن الملكية المصرية.

إن الملك، وهو حاكم مثالي، كان قبل كل شيء قائداً عسكرياً يخضع للآلهة. وفي نقش دقيق في مدينة هابو، نجد أن «المتصرف» الجالس على «نوع من محفة مزخرفة زخرفة ثرية»، يحميه على الأكتاف «اثنا عشر رجلاً من الفئة العسكرية» (١٢)، إلا أننا نجد على جانبيه رموز الخصال البارزة التي تميزه : الأسد، الذي يدل على شجاعته؛ الصقر، وهو رمز انتصاراته؛ الثعبان الذي يشير إلى اتساع فتوحاته وسيطرته؛ أبو الهول، الذي يحيل بلا ريب إلى تراثه في كل ما يتعلق بالديانة وبالآلهة (١٣). فبالنسبة لهولوا وديفيليه، كان للملك شجاعاً ومنصراً وقوياً وحكماً وورعاً.

والقوة والشجاعة لا قيمة لهما إن لم يتولوا إلى جانبهما دعم الإله وخاصة كهنته. وتشير لوحة للكرنك إلى : «البطل وهو يتلقى الأسلحة من يدي الإله نفسيهما» ؛ وهكذا فإن جميع أعمال الملوك المصريين كانت ترتبط بالدين؛ وقد كانوا يستشيرون الآلهة للاضطلاع بحملاتهم البعيدة، وأسفل هياكل وقصر القديس المعابد كانوا يقيمون، عند عودتهم، شعارات غلبتهم. ومن ثم فقد كان للكهنة، في جميع شؤون الحكم، نفوذ لا تسمح لنا النقوش الذهبية التي تسنى لنا وصفها بالشك فيه، حتى وإن كانت جميع آثار العصر القديم لن تجمع على تأكيد وجوده (١٤).

ومعبد فناء قصر الكرنك الكبير (١٥) هو في أن واحد مصلى الملك ومكان حفظ الكتابات البطولية التي سوف تملأ عليه مصلكه :

«ربما كان هنا، في حرم القصر، المكان الذي كان الملوك يجيئون إليه لتقديم قربانهم

قبل أن ينكبوا على شواغل الحكم. وهنا، محاطين بكل أقراء بلاطهم، كانوا يحضرون هذه الصلاة للجمعية بالمعرفة، والتي كان الكاهن الأكبر يتضرع فيها إلى الآلهة أن تنعم على الملك بجميع الخصال الملكية الحميدة، داعياً إياها أن يكون متزناً ورحيماً وفاعلاً للخير وعطوفاً تجاه الآخرين، وعدواً للكذب. وهنا، عند فتح الكتب المقدسة، كانت تنلى على الملوك نصائح وأعمال العظماء، حتى تكون قاعدة يلتزمون بها في إدارة الإمبراطورية،^(١٦).

وتترك الأعمدة الأوزيرية في معبد مدينة هابو أثراً عظيماً في نفس جولوا وديفيلبييه: «إن هذه الأنواع من الكريهات [التمثيل التي تستخدم كبديل عن الأعمدة] تضلي على الأثر للمعماري طابع عظمة ورحمته، يستحيل على المرء ألا يتأثر بها؛ ويبدو أنها قد وضعت هناك لكي تذكر للبشر الفانين بالخشوع وبالاحترام الذي يجب على المرء الإعراب عنه، وهو يتغلغل في ملائكت الدين والجلال الملكي هذه»^(١٧).

كيف.. لا يستولي على المرء خشوع ديني وعميق أمام مشهد هذا الجمع للآلهة المجتمعين، بشكل ما، لإملاء شرائع الحكمة وحب الخير للبشر والتي يراها المرء مكتوبة في كل مكان على جدران القصر ١٢^(١٨)

وعلى مسافة أبعد قليلاً، في القاعة العظيمة التي يستند سقفها إلى أعمدة في القصر، إذا كان يجري تطبيق هذه الشرائع للجمعية بالحكمة والتي رفعت مصر إلى درجة جد سامية من الجلال. وهنا، كان الملوك، للنكبون على شواغل الحكم، يهتمون بتسوية مصالح لبسط رعاياهم؛ وهنا، كان الملك الجالس على عرشه، يفصل في المنازعات ويستقبل سفراء الأمم الصديقة وإنعان الشعوب للفلوية؛ وهنا يجري الثناء على الأبطال، وكان يجري إقصاد الأسرى لهم، وكانت الجزية وتقسيمات للتقرب توضع عند إقصادهم،^(١٩).

لكن شواغل الحكم تفرض أيضاً للكتمان والحد، ومن هنا بعض الترتيبات المعمارية الخاصة.

دربما كان بهو الأعمدة هذا المكان الذي كانت تعالج فيه الشؤون الكبرى للعولة، والذي كان الملك يأتى فيه لسفراء الأمم الأجنبية بالاجتماع به، ويتلقى فيه جزية الشعوب للفلوية؛ إلا أنه لم يكن مسموحاً لهبة النخول إلى مسافة أبعد في ملاذ عظمة الملوك هذا وربما كانت كل المنشآت التي تلي بهو الأعمدة مكرسة لما هو سرى ولا بد أنها تدور

بحرص من انظار القرباء. ولامراء في ان تلك هي الأسباب التي تبرز وجود حاجز يهدو لنا
جد مزيج لأول وهلة (٢٠).

وكان للمعد والقصر محبين بسور، وذلك لأنه :

«كان يتجمع هناك كل أولئك الذين كانوا متصلين علي نحو مباشر لكثير بشخص
الملك المقدس وهداية البلد للقطاع من أغلى شيء عندهم: الدين والحكم» (٢١).

بل ويهدو، إننا ما صدقنا أ. جومار وهو يتحدث عن أطلال حورات (٢٢)، أن مصر قد
تمتعت بنوع من برلمان، إلهي ومدني في آن واحد :

«يهدو لنا أن الهدف الرئيسي للمدني كان يتمثل في أن يكون مكان اجتماع لولاية
أقاليم مصر. وبما أن جميع عناصر الأمة كانت تجتمع هناك، فإننا نرى هناك معاهد مقامة
لجميع الآلهة، حتى يجد هناك كل إقليم فرصة لممارسة العبادة التي ينتمي إليها. ومن ثم
لقد كان هذا للمدني في آن واحد نوعاً من مجمع للآلهة ومكاناً يعالج فيه قلادة الدولة الشؤون
السوية. والسرية التي يهدو أنه كان لابد لها من أن تهيمن على مداولاتهم، إنما تتخذ شكلاً
محسوساً في حراسة الممرات التي كان على النواب اجتيازها حتى يصلوا إلى نوابينهم
الخاصة.

«ومن المرجح أن تلك كانت هي الوظيفة الخاصة للتيه [المر السري]؛ وهو ما لا
يحول دون الاعتراف بأنه كان مكرساً لإله الشمس؛ وبأن الملك منبسط أو إمامهم كان له
تبر هناك، لو كذلك للوك الآخرين الذين أسهموا في بثائه؛ كما لا يحول أخيراً دون
الاعتراف بأن قلعت أمني مرتبة قد استخدمت في دفن التماسيح المقدسة» (٢٣).

الملك المنتصر والشعب

لقد كانت الخصال الحربية الحميدة وتقوى الملك أمثلة ثابتة بالنسبة للشعب. إن
مشاهد المعركة التي نقشت على الواجهات الخارجية للبوابات الضخمة لمعد الأقصر
والظلمة نائماً أمام أعينهم [...] كانت تبهت [في صدور المصريين] حب للمجد واحتراماً
محسوساً للوكهم، وتبجيلاً عميقاً للآلهة، في المعابد التي كان هؤلاء الفاتحون يضعون تحت
أقدامها في تواضع وموز انتصار حملاتهم البعيدة» (٢٤).

وفي مدينة هابو، نجد أن زائراً قديماً، لا وراء في أنه «محارب» قد سعى «وقد تأثر

بالمآثر السامية التي نقشت صورها على جميع أسوار القصر، إلى أن ينتقل اسمه إلى الأجيال التالية بنقش اسمه «بالأحرف القبطية» قرب صورة «البطل» (٢٥).

وكانت واجبات الملك تتصل ليس فقط ببلده وإلهته، وإنما أيضاً بأسلافه :

«لقد سجل الملوك الآلهة بتزيين المعابد؛ وقاموا بالتحية إلى ذكرى أجدادهم بترميم وتجميل وتوسيع قصورهم القديمة، وأشبعوا زهوهم الشخصي بالتفوق على أسلافهم في الترف وفي اللبذخ» (٢٦).

وأخيراً، فعندما كان الملوك يموتون، كان قهرهم يصبح «مستودع جميع معارف مصر القديمة... وهناك كان يجرى تصوير الخدمات التي أدوها للوطن، والأعمال التي عادت عليهم بالمجد في الحرب، والجزية التي كانوا يجيئونها من الشعوب المغلوبة، والعلوم والفنون التي قاموا بتشجيعها وب حمايتها» (٢٧).

قصور أم قصور ؟

أين هي نود هؤلاء الملوك جد للمجلىين بحيث إن حكمتهم قد وضعتهم في مصاف الآلهة (٢٨). لم يكن من السهل، بسبب الجهل التام باللغة، تحديد الآثار المعمارية التي يجرى الوقوف أمامها. هل هي معابد أم قصور ؟. واعتماداً على كتابات كتاب قداماء، خاصة كتابات سترابون، يحاول جولوا وديفيليه تحديد الخصائص المعمارية المميزة للمعابد وللقصور :

«إن للمعابد هي، بشكل ما، زوايا معزولة وسرية كانت تعارض فيها الأسوار الأكثر احتياجاً للديانة المصرية؛ إن الصرايب المحفورة تمت بلامطها، وفي الجدران التي تحيط بها لا تدع أي مجال للشك في ذلك» (٢٩).

ووفقاً لهذا التعريف، فإن مجمع الكرنك للمعابد لا يمكن أن يكون معبداً ؛ وبالنسبة لهؤلاء الرجال المنتهين إلى أواخر القرن الثامن عشر، فإن مكان العبادة إما أن يكون مكاناً يمكن فيه للمؤمنين ممارسة عبادة علنية، أو مكاناً سرياً، زاوية مقصورة على اللطمين على أسرار الديانة.

وفي هذه الظروف، فمن الطبيعي تماماً اعتبار الكرنك قصراً كبيراً ،

«إن السؤال الذي يثور لدى المرء بشكل طبيعي تعلماً عندما يطوف بهذا المبنى،

والذى يثير بأبلغ حيوية فضول الرحالة، هو معرفة الوظيفة التى كانت مستهلفة من وراءه. ويبحث المرء، حتى فى ألق التفاصيل، عن كل ما يمكنه إلقاء ضوء ما على هذا الموضوع. ولما كان المرء غريباً عن أعراف وعادات المصريين القدماء، فإنه لا يمكنه فى أغلب الأحيان إلا أن يغامر بتخمين فى الوقت الذى يسعى فيه المرء إلى يقين. وتثبت جميع شواهد التاريخ أن المصريين كانوا شعباً عميق التعيين، وأنهم فى جميع عادات الحياة المدنية قد سمحوا بتغلغل الروح التى تهيمن عليهم، تقريباً : ومن هنا يجب للمرء أن يستنتج أن المساكن الخاصة كان عليها أن تقدم، فى زخارفها، أثراً للعناية للممارسة بوجه عام فى مصر؛ ومن هنا تنشأ، فى كثير من الحالات، صعوبة التمييز بين مساكن البشر ومعابد الآلهة.

حين بدأنا هذه الكتابة، افترضنا تقريباً أن أثر الكرنك للمعمارى عبارة عن قصر : وهو مع المرء أن يرى الآن أن ذلك ينتج بوضوح من الوصف الذى قدمناه له؛ وأنا ما درس المرء الأمور بانتباه، فسوف يجد قليلاً من العلاقات بين هذا الأثر للمعمارى والمعابد المصرية، كذلك التى تسنى لنا بالفعل الإشارة إليها. فما هى العلاقة، فى الواقع، بين توزيع الرواقات وتوزيع القاعات التى تستند أسقفها إلى أعمدة، بين غرف الملوك الخاصة وأماكن العبادة ؟ وهل يوجد، مثلاً، فى الغرف الجرانيتية المفتوحة من جميع الجهات، شيء يذكر بالتوزيعات المعقدة التى تكتنفها الأسوار والتى تتميز بها معابد إدفو ودندره ؟

لكن موضوعات لنحت، بحكم الأسباب التى أشرنا إليها آنفاً، قد تلقى شيئاً من اهتمام اليقين فيما يتعلق بالتمييز بين المعابد والقصور ، على أن هناك قاعدة لا استثناء لها، وهى أن المرء لا يجد فى المعابد غير نقوش دقيقة تتصل بالدين أو بعلم الملك، الذى كان الدين مرتبطاً به ارتباطاً أساسياً؛ وذلك فى حين أن القصور تقدم، بالإضافة إلى تلك موضوعات تتصل بمشاهد ملوكها، ونقوشاً دقيقة تاريخية تشير إلى الحروب وإلى الفتوحات التى قام بها ملوك مصر القدماء.

والنتيجة التى نستخلصها من كل هذه الملاحظات ومن كل المقارنات، هى أنه لا شك هناك فى أثر الكرنك للمعمارى الكبير كان قصراً. ومن المرجح أن الملوك الذين أقاموا فيه كانوا يقضون جانباً من النهار فى القاعات التى تستند أسقفها إلى أعمدة وفى أبنية الأعمدة، حيث كان الهواء يتحرك بحرية وحيث كان المرء يجد ملائمة من الحر؛ وكانوا يأوون خاصة إلى الغرف الجرانيتية (٣٠)

ولكن لما لا يتحدث سترابون، فى وصفه لطيبة، إلا عن معابد ولما لا يشير بالمرء إلى قصر الكرنك ؟

«لا مرأه فى أن ذلك إنما يرجع إلى أن توجد، فى عناصر الكونك والأتصر، زاوية صغيرة، تبدو كما لو كانت معبداً، وذلك من حيث الاهتناء الذى ينتج به ومن حيث اختيار الملوك وشرائه التماثيل. إن هذا للهنى الذى أقام فيه الملوك متى كانت مصر محكومة بملوك مصريين، قد تمكن الكهنة من الاستيلاء عليه فى زمن سيطرة الفرس والبطالة والرومان لتفسيحه للعبادة وحدها...»

وعند زيارة سترايون، أنت الوظيفة الروحية إلى «عدم السماح بدخول الأجانب إليه. ومن جهة أخرى، فكيف يمكن تصور أن الملوك، الذين كان المصريون يجلونهم تيجيلاً بالغ العمق، لم يكن يوسمهم الإقامة فى قصر لا يقل عظمتهم وزهواً وبهمومة عن المعابد نفسها التى أقيمت للآلهة» (٢١)

على أن هذه التفسيرات كانت بالرغم من كل شيء متروكة وأحياناً ما يتواصل الشك فى توصيف هولوا وديفيليه. وهكذا، فلما يتعلق بموضوع «الغرف الجرانيتية» (٢٢)، «يبدو أن كل شيء يشير هنا إلى مكان محاط بالأسرار والتجديد، لم يكن يحق الدخول إليه إلا للكهنة أو لوزراء الملك» (٢٣)

ولما يتعلق بإيفو، يقدم هولوا حجة أخرى: «إن تماثيل الجياد، للذيرة فى زخرفة المعابد، غزيرة فى زخرفة القصور» (٢٤) لكن المقابلة بين عمارة قصر مفتوح يدخل الهواء إليه من جميع الجهات وعمارة المعابد المغلقة والمسمتة، إنما يتم، بوجه عام، التمسك بها عن طيب خاطر، وذلك إلى درجة أن هولوا وديفيليه، عندما تختفى الأسوار الجانبية، يؤثران تجنب اتخاذ موقف (٢٥).

القصور

إن القصور، شأنه فى ذلك شأن المعبد، تؤدى إليه بنايات ضخمة ضخمة كالمداخل التى تصطف على جانبها تماثيل أبى الهول والمسلات. وتعد تأثير النموذج الكلاسيكى، يرى هولوا وديفيليه فى تماثيل أبى الهول فى الكونك - الشمالى وفى الأتصر تماثيل كائنات إنشوية. (٢٦) أما ثورييه فهو، فى يومياته، أكثر حذراً وأكثر نقية فى أن واحد: «رأس بشرى أو رأس حمل، أو جسم حمل برأس أسد» (٢٧). وبالمناسبة لهولوا وديفيليه، فإن «الزخارف ليست للبهمة متجهة الهوى أو للصائفة» على العكس، إن كل شيء هناك إنما يكمن وراءه

دائع، وتتلخيل أبى الهول هذه إنما تمثل من ثم «رموزاً مقعمة بالمعنى وبالحكمة، وهى رموز مؤسسة على مראה عميقة بظواهر الطبيعة». إنها صور زودياكية ولا بد أن هذه المداخل قد بنيت لكى «تذكر بالعصر الفلكى الذى كان فيه الحمل السماوى يحتل اعتدال الخريف، وعندما بنى المصريون هذه الروايات، كان هدفهم من وراء ذلك هو أن «ينقلوا إلى الأجيال التالية مؤشرات الكهنة على معارفهم الرفيعة فى مجال علم الفلك» (٢٨).

لما المسلات القائمة أمام واجهة المعبد الخارجية فهى أنواع من تنوير يقدمها الشعب احتلالاً بانتصار ما :

«إلا أنه يبدو من المؤكد أيضاً أن بعض المسلات كانت نصفاً تذكارية اتبعت تعجيداً للملك عظماء، للحفاظ على فكرى الشعوب التى غلبوها، وعلى ذكرى لشكال للرأى العظيمة التى تمتعوا بها، وعلى ذكرى الجزية التى فرضوها على الأمم المغلوبة، وغالبها ما كانت هذه المسلات المنحوتة من قطعة حجر واحدة هبات تقدمها إلى المعابد شعوب مصر : لقد كانت تشهد على حب الرعايا للملك وعلى تمسكهم بالدين». (٢٩)

ويرفض جولوا وديفيليه الفكرة التى تذهب إلى أن المسلات قد تكون مزولات شمسية، كما كان قد قيل ذلك، فوضعها أمام بناية كان غير مناسب بالمرة لهذا الاستعمال. وفى المقابل، وبما أنهما قد ميزا فى النقوش التى تزين المسلات بعض علامات الزودياك، فإنهما يريان أن من المرجح تماماً أن المصريين القدماء قد سجلوا عليها، بلغتهم الهيروغليفية، معارفهم فى مجال علم الأفلاك السماوية (٣٠).

لما البوابات الضخمة، بوابات القصر للمائلة لبوابات المعابد، فإنها مأخوذة من «قلاع حصينة قديمة، سوف تكون قلعة مدينة هابو آخر شاهد عليها : «لواقع أنها لا بد وأنها سبقت بناء العمائر المقامة؛ وهكذا فإن المصريين قد وضعوا فى آثارهم المصرية لشكالا من العمائر التى كان عليها أن تذكرهم بالحياة العريقة التى عاشوها فى البداية» (٣١). وقد حدد جولوا وديفيليه بشكل جيد وظيفة التجويقات الموشورية الشكل والتحرزات المميزة لواجهات البوابات الضخمة : لقد كانت تختم فى تركيب ساريات مزينة بالأعلام، ويتأسس هذا التحديد على مقارنة العمائر بتمثيل واجهة البوابة الضخمة الثانية للكرك والذى يزين جدار معبد جنوبي (معبد خونسو) (٣٢). وإذا برصد جولوا وديفيليه وجود زخرفة فى اسفل الكرى، فإنهما لا يتربدان فى الاعتقاد بأن هذه «الساريات لم تكن ثابتة وأنه لم يكن يجرى وضعها إلا فى مناسبات خاصة وفى أيام أعياد معينة» (٣٣).

أما الحجرات المرتبة في بعض البوابات الضخمة فهي لا يمكن أن تكون غير مساكن^(٤١). والحال أن لانكويه، في دراسته لبوابات فيلة الضخمة، إنما يرى فيها مساكن الحراس ومستودعات لأجهزة الرصد الخاصة بالكهنة الفلكيين^(٤٢). والواقع أن البوابات الضخمة، في المعابد، إنما تخدم أيضاً كمركز فلكي^(٤٣). وكثيراً ما تم العثور في هذه الحجرات على بقايا مومياوات، أكان ذلك في إدفو أم في فيلة، لكن هذه الاكتشافات لا تكفي لاعتبار هذه الآثار مقابرو^(٤٤).

وفي الكرنك، في الغناء الذي يلي البوابة للضخمة الأولى، ينتصب للمعبود الذي يلعب نور كنيسة صغيرة في قصر :

«لقد حددنا حتى الآن باسم للمعبود الأثر الذي وصفناه؛ ويمكن الآن الاعتراف بكل صواب هذه التسمية؛ فهي تنبع من هون شكل للتخطيط الهندسي، والتوزيع للدخلى، ونظام الحركة. إن التشابه التام لهذا للبنى مع المعبد الجنوبي الكبير لا يدع مجالاً للشك في أنه كان مخصصاً للعبادة المصرية»^(٤٥).

وقد رأينا أعلاه وظيفة هذا للبنى، فهو مكان تلقى الملك للإلهام من الآلهة، كما رأينا وظيفة البهولي الأعمدة والذي كان الملك يعقد الاجتماعات ويستقبل فيه السفراء الأجانب.

لكن للبنى الأوسط في القصر هو القاعة التي يستند سفلها إلى أعمدة. وفي الكرنك، يحيط تماثلان ضخمان بمدخل القاعة العظيمة التي يستند سفلها إلى أعمدة :

«هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن التماثلين الموجودين في مدخل البوابة الضخمة واللذين يبدوان تقريباً، بحكم وضع أحدهما في مواجهة الآخر، حارسين للقصر، إنما يقدمان تمثيلاً للآلهة معينة، أو أيضاً مجرد تمثيل للملك وإبطال لهم صفات إلهية»^(٤٦).

أما فيما يتعلق بالقاعة نفسها فهي في كُن واحد ساحة تنكارية ومقر لحكم الملك المسترشد بوصايا الآلهة :

«هنا، ربما كانت تتلاقى هذه التماثل الثلاثة والخمسة والأربعون للملوك الأحرار، للولدون كلهم أحدهم للآخر، والذين عرضهم الكهنة للمصريين لهيكاتييه لتفنيد الزعم الكاتب الذي رآه لرد نسب عائلته إلى أحد الآلهة (هيروبوليت، الجزء الثاني، الفصل ١٤٢). فما تكبر عظمة المكان التي لا بد وأنها قد تزايدت من جراء اجتماع هذه التماثل الضخمة»^(٤٧).

«لقد أردنا أعلاه الفقرة التي تشير إلى الملك وهو يمارس مسؤولياته في القاعة التي يستند سفلها إلى أعمدة^(٤٨)، «هنا أخيراً كانت تصور جميع المشاهد الجليلة التي مازلنا نراها ممثلة على جدران القصر نفسها»^(٤٩).

ومن بين هذه المشاهد، شد انتباه جولوا وديفيليه المشهد الجداري للدخلى الذى يصور الملك وهو يحتفل بالقياس أمام زورق لمون الذى يتحرك فى موكب، فى الداخل الغربى للقاعة التى يستند سقفها إلى أعمدة، على الجهة الشمالية (٥٢) ،

«ربما [...] لا يعتبر هذا النقش الدقيق كله غير نادر، وربما كان للملك أو الأبطال المصريون قد أمروا بأن تنحت، فى القصر الكبير فى طيبة، لوحات من نوع اللوحات التى وصفناها، عند نجاتهم من خطر محقق، أو عند إحرازهم هدف وغياتهم المشتهاة أكثر من سرائها» (٥٣).

وبعد أن ينجز الملك واجبات مسؤوليته، فإنّه يخلد إلى الراحة فى حجراته الصغيرة «الجرانيتية». وهى «مكان عامر بالأسرار ومحل تقديس» لا يدخله غير عدد نادر من الأشخاص المميزين (٥٤)، وهو مزين «بمشاهد مألوفة» ولوحات «تتصل بالقران وبالصلابة، كما تتصل بموضوعات غرامية» «تصور شخصاً، لا شك فى أنه ملك، جالس إلى جانب زوجته، التى يبدو أنها تعانقه برفقة» (٥٥). ويمكن أن تبدو مشاهد تلقين لأسرار للديانة على أحد الجدران الداخلية لهذا الأثر المعمارى (٥٦).

وكانت خدمة القصر تتطلب عبيداً مهماً من الخدم الذين لابد وأن تحركاتهم كانت جد سرية قدر الإمكان. وهذه الرواقات المخصصة للخدم جد واضحة فى قصر أبيدوس، «التخطيط الهندسى يدل على رواقات جد ضيقة، ومن ثم فإنه يكاد يكون من غير الممكن للمرء متابعة المنحنيات دون أن يتوه. وليس من السهل بدرجة أكبر تحديد الهدف من ذلك... على أن يوسع المرء الفراض أن هذه الأنواع من الرواقات كانت مخصصة لخدمة رجال القصر، شأنها فى ذلك شأن الرواقات الضيقة التى نراها فى قصورنا» (٥٧).

لما فيما يتعلق بالأشخاص البارزين الذين كانوا يحلون فى حاشية الملك، فمن الواضح أنه كان لابد من إسكانهم، وقد خصصت بنايات عديدة من قصر الكرنك لهذا الهدف. وفى المنطقة الوسطى للأثر، رصد جولوا وديفيليه «غرفتين صغيرتين أو حجرتين شبه مربعتين يبدو أنهما كانتا سكناً خاصاً»... «وربما كانتا سكناً للكهنة الذين لم يكونوا يفارقون الملك، أو أيضاً سكناً لمقاتلين كانوا يحرسون شخصه المقدس» (٥٨). وبالنسبة للمهندسين، فإن للبنى الذى يشرف على البوابة الضخمة للعاشرة كان «سكناً خاصاً» (٥٩).

وعندما ينجز سكان القصر مهامهم ويفرغون من واجبات مسؤوليتهم، فإنهم يمكنهم أخيراً أن يخلدوا إلى الراحة. وفقاً لجولوا وديفيليه، فإن القاعة الصغيرة التى يستند سقفها إلى أعمدة والتى تقع شرقى الغرف الجرانيتية «كانت مكاناً لالتقاء جميع

الأشخاص الذين كانوا يسكنون داخل القصر؛ وربما كانت أيضاً قلعة يتم فيها عرض آثار الفنون والمفروشات الثمينة التي ترك لنا المصريون القدماء كملاج منها في مقابر الملوك وفي تلك المنحوتات التي تزين القصر الذي نصله، (٦٠).

إلا أنهم ربما كانوا يؤثرون استنشاق الهواء في الخارج على مصاطب القصر الفسيحة؛ ولقد كان بالإمكان أن تكون رواقات استراحة كان سكان القصر القدماء يجيئون إليها، عند انتهاء النهار، لاستنشاق الهواء العليل؛ ولعلهم كانوا يقضون هناك ليلالي الصيف الجميلة، التي يستريح خلالها حتى أيامنا هذه سكان محرم الحليين على مصاطب بيوتهم، (٦١).

وينطبق هذا الوصف على قصور الكرتك والأقصر الطيبة العظيمة، لكن ملوك البلاد كانوا يتمتعون أيضاً بمساكن أكثر تواضعاً.

وليس هناك شك بالنسبة لهولوا ولديفيليه في أن اثر الجرنه للمعماري كان «سكن» ملكياً، لارتفاع واتساع القاعات واسلوب توزيع الأضواء، فعتبر كلها مختلفة فيه عما يراه المرء في المعابد، (٦٢).

إن المرء لا يجد هنا لا تماثيل لأبي الهول ولا مصلات ولا تماثيل ضخمة... ولا يرى المرء هناك البتة بوابات ضخمة، ولا أبواباً أعمدية واسمة؛ ولا شيء يشير إلى أبهة القصور العظيمة في طيبة؛ إن كل شيء، على الضد من ذلك، بسيط، ويبدو أن المهندس المعماري حرص على بناء سكن ملائم ومناسب لأكثر متطلبات الحياة اعتيادية. ووسط هذه البساطة نفسها، يثير انتباه المرء ملمح عظمة معين، لا يدع مجالاً للشك في أن مبنى الجرنه كان سكناً للملك؛ لاتساعه وزخارفه وطبيعة المواد المستخدمة في بنائه قد تطلبت نفقات تتجاوز إمكانات أغنى الأفراد، (٦٣).

ولضيق، لابد من الإشارة إلى وجود قصور محصنة، كقصر مدينة هابو حيث يدل كل شيء على سكن محصن لفتح مزهو بنجاحاته، (٦٤).

الهياكل

إن المعابد، وهي آثار معمارية صارمة الملامح لديها متخفية وعامرة بالأسرار، إنما تتميز بوجود غرف صغيرة معتمة تحيط بقوس الأكتاف للركنزي (٦٥).

ولا يبدو أن للمهندسين والفنيين لد حاولوا تحديد نمالاج تخطيطات المعابد. ولابد من

معرفة أن قاعات العبادة في عدة عمائر كمعابد إيطو وبندره وخوتسو لم يكن بالإمكان دخولها بالمرّة. ويكتب جولوا وديفيليه «إن توزيع المعابد لابد وأنه كانت له صلة حميمة بالطقوس التي كانت تقام فيها، ومن ثم، بالديانة نفسها» (٦٦). وفيما بعد، عند مقارنة تخطيط معبد بتاج بتخطيط إحدى غرف معبد الجرنّة، فإنهما يتصوران أنهما قد رسدا في التوزيع الثلاثي مؤشراً على مكان عبادة. (٦٧) ولم تكن المعابد ذات وجهة مميزة، على الرغم من أن جومار يرى أن للوجهة العادية هي وجهة الشرق (٦٨). والمصطلحات المستخدمة هي للمصطلحات التي استخدمها سترابون : بروفيليه (معبد يوناني)، ناوس (الجزء الداخلي من معبد روماني)، بروناوس (مقدمة هيكل)، سيكوس، التي يعلق عليها جولوا وديفيليه بإسهاب (٦٩).

أما زخرفة وعمارة للمعبد خاصة للنصوتات التي تزين أعمدة الأبهاء، فهي موجهة إلى «تذكير البشر الفنانين بالخشوع والاحترام الذي يتوجب على المرء إبداءه عندما يدخل إلى هذا الحمى للديانة وللجلالة الملكية» (٧٠). ولما كان المعبد دعامة للدين والملكية، فإنه يجب أن يكون متين البنّيان (٧١)، ويجب حمايته، أحياناً، بسور حصين (٧٢).

فما الذي كان يُعبد في تلك البنّيات ؟ إن جولوا وديفيليه يتصنّان بحذر عن «صورة» الإله الموضوع في كوة في قلب المعبد (٧٣). ويعبر جومار عن الرأي نفسه (٧٤) ويحذر قتل من الاحتراس، فإن لانكره يطابق بين النواوسات الحجرية الباقية في للجال في قاعات العبادة في معبد إيزيس في قبله والأوكار الحجرية للصقر المقدس (٧٥). والحال أن فردييه يتفاسم، في يومياته، هذا الرأي (٧٦).

وكان يجري استخدام القاعات ذات الأسقف المستندة إلى أعمدة في المعابد في عرض الصور الإلهية على الشعب. ويكتب جولوا وديفيليه بشأن معبد إسنا : «كان الكهنة يعرضون هناك صورة الإله محركين خشوع الجماهير؛ وكان هذا المكان مكاناً بسيطاً بين الكهنة والشعب، مكاناً مقدساً، ويجب تحريمه على نظر الغرباء نفسه» (٧٧). وعلى هذا النحو، يفسران وجود جدران بين أبراج الأعمدة، وهو تنظيم جد مميز للعمارة المصرية وأثار بعثة الزائرين كثيراً في عام ١٧٩٩ (٧٨). وفي القصور، رأينا أننا لأن هذه الجدران - الصوترات كانت تستخدم كستارة لحجب الملك ووزرائه عند معالجتهم لشؤون الدولة.

وفي المعابد، لم يكن بالإمكان استخدام المصاطب لراحة الكهنة. ووجود مزاريب ضخمة بشكل نشاز في بلد من الواضح أن مناخه بلا أمطار : «يبدو لي أن الشيء الأرجح

تماماً هو أن هدفها إنما كان يتمثل في صلب الماء الضروري للوضوحات وللتطهيرات التي كانت الديانة توصي بها في حالات معينة ، إن هذا الماء كان يتدفق من المعبد نفسه وكان يعتبر أكثر روحانية وأكثر فعالية (٧٩).

والحال أن البحيرة المقدسة إما أنها كانت تستخدم في وضوحات الكهنة (٨٠)، أو أنها كانت تستخدم كمقاييس للنيل (٨١).

ولم تكن الأكشاك القائمة في القنية المعابد مسقوفة دائماً وذلك بالنظر إلى اتساعها (٨٢). وكانت هذه العمائر القريبة مكروسة للإله ست الذي يزين وجهه الصارم تهجان الأعمدة (٨٣).

وبالنسبة لديانة قائمة لسلساً على تأمل الأفلاك ورصد الظواهر الطبيعية (٨٤)، كان من الطبيعي أن يشكل جزء من المعبد مرسفاً. وفي دندره، فإن «غرفة الزودياك يبدو أنها كانت نوعاً من قنص الناس، نوعاً من مكان مكرس لتأمل الأفلاك ولتمثيل الظواهر الأرضية التي ترتبط بالظواهر السماوية. وربما كانت سكن أحد الكهنة المصريين الذي انشغل بشكل خاص بدراسة السماء، في خدمته لمعبد دندره» (٨٥).

وفي لهلة وإدفو، كانت البواريات الضخمة تستخدم كمراصد (٨٦).

وكما هو الحال بالنسبة للقصور، فقد كان لابد من توفير سكن لخدمة المعبد. ويرى لجومار أن تخيل «الكهنة القدماء [...] للقيمين في المعبد، وهم يتنزهون تحت هذه الرواقات العالية وينكبون على تأملاتهم المكيمة» (٨٧). وهناك أيضاً، كان من الممكن أيضاً للغرف المرتبة في البواريات الضخمة أن تخدم كمسكن (٨٨). بل إن حولها وديفيليه يفكران في تخصيص الزوايا الباهرة في معبد دندره لهذه الوظيفة :

«إن الغرف الصغيرة الغامضة ليست أقل تزييناً بالمنحوتات من الممر. ولكن ما عسى تكون وظيفتها ؟ هل كانت مخصصة لسكن الكهنة الذين يخدمون المعبد ؟ أم أن كل واحدة منها كانت مخصصة لأحد الآلهة الجديدة التي كان الشعب المصري يعبدها ؟ ليس من السهل تحديد ذلك. وربما كانت لها وظيفة أخرى تماماً، لا يسعنا مجرد تخيلها وذلك بالنظر إلى عدم الوضوح الذي تركه لنا القدماء عما كان يجري في الزوايا الأكثر سرية في المعابد المصرية» (٨٩).

ويبدو أن بعض المعابد كانت لها وظيفة تلقي للوحى بشكل لسلس، كما هو حال معبد قصر قارون، الواقع على متفد العرب الذي يقود إلى معبد سيوه الشهير المخصص

لنلقى الوحي (٩٠). ومن المرجح أن القبية للعابد كانت تستخدم في هذه الوظيفة (٩١)، وهو ما ينطبق على بعض الفروقات الفاصلة التي تشكل امتداداً للمعبد كما في الماميزيس للرومان في معبد دندره : «ربما كان حجرى عبر ذلك دخول الكهنة الذين كانوا يتلقون في المعبد وحي الألهة» (٩٢).

وأخيراً، هل من الممكن أن للعابد كانت أماكن للطقن ؟ إن هذا السؤال قد شغل كثيراً جولوا وديفيليبه وزملاءهما. وهم يقترحون، بين أمور أخرى، هذا التفسير لزوية الزودياك في معبد دندره : «ربما كان هذا المكان أيضاً مكان معبد كانت لأوزوريس فيه مقبرة؛ لنحن نعرف، وفقاً لشهادات هيروdotot وديودور الصقلي، أن مقابر هذا الإله كانت جد مقدسة وجد كثيرة في مصر، وأن المدن المهمة التي لم تكن بها مقبرة له هي مدن الليلة» (٩٣).

وربما كان المعبد الصغير في مدينة هابو مقبرة. وقدس اقتباسه يحتوى على منحوت حجرى مقلوب ولم يكن بالإمكان الوصول إلى تحديد، بشكل إيجابي، لماذا إذا كان [هذا للمنحوت] واحدة من تلك الزوايا التي نجدها عادة في للعابد والتي كانت توضع فيها الحيوانات المقدسة. والحال أن عدة رحالة وعدداً من زملاء جولوا وديفيليبه قد حددوه على أنه تابوت حجرى. ويستنتج هذان الأخيران «أنه يترتب على ذلك عندئذ أن الغرفة التي تحتوى كانت مخصصة للطقن» (٩٤).

لما فيما يتعلق بمعبد دير المدينة، فإن المهندسين قد اقتنعا بأنه كان كذلك مقبرة. وتحتوى إحدى القاعات على مشهد وزن الأرواح، وبالاستناد إلى ديودور وهيروdotot، يستنتجان : «إن كل شيء يطلع من ثم إلى الاعتقاد بأنه عندما كان كبار الكهنة يموتون كانت مرميولواتهم توضع في داخل هذه التماثيل الخشبية [التوليبيت] التي كانوا، خلال حياتهم، يضمنونها في المعبد» (٩٥).

المطبخة

من الواضح أن لطلال إقليم الأقصر هي لطلال طيبة. المدينة الملكية الشهيرة التي كان بوسويه يحلم باكتشافها، قبل أكثر من قرن من الحملة [الفرنسية] (٩٦). إلا أنه لا يبقى غير القليل جداً من أشياء المدينة التي كانت تحيط بالقصور والمعابد. فكيف يمكن تخيل

العاصمة الشهيرة من خلال الآثار النادرة الباقية ؟ إن اللوحة التي رسمها مؤلفو «وصف مصر» إنما تجرنا إلى عالم أقرب إلى مدينة إمبراطورية رومانية مما إلى حاضرة شرقية.

وبعد أن جند جولوا وديفيليه الافتراض القهيم الذي ذهب إلا أن «المصريين القدماء لم يشيدوا عمائر إلا للآلهة، وأن جميع السكان كانوا يسكنون خياماً منتشرة حولها» (٩٧)، بوصفه افتراضاً سخيفاً، فإنهما يُلدّ لهما مقارنة طيبة بالمدن الرئيسية القديمة (٩٨)؛ لكن هذه المقارنات تتعلق بالعمائر وأكثر مما تتعلق بالمدينة نفسها، حيث يظل مجمع الكرنك هو النموذج، ويستبعد جومار بجرة قلم الفكرة القديمة التي نهبت إلى أن المقابر كانت مساكن، بما ينصع عن «الطابع السوبوي للأمة». وبما أن يوسع الناس الاستفادة من مساكن مبنية من الحجر، فمن المرجح للغاية أن الآثار القليلة المحيطة بهبو الأعمدة، خارج حرم الكرنك - الشمالي، كانت مساكن خاصة (٩٩). وبالنسبة لجومار، فإن أهل طيبة كانوا يسكنون «بيوتاً من القوميد» جد متواضعة. أما عمائر الشعب الحقيقية فهي المقابر، مثلما كانت للعابد والمقصود هي عمائر الدولة (١٠٠).

ومن المؤكد أن المؤرء يدعش لفيهب سور (للمدينة) : «هل كان لطيبة سور عام، وهل لا تزال توجد بعض بقاياه» (١٠١). لقد كان من الصعب التسليم بفكرة مدينة مفتوحة. على أن جولوا وديفيليه يقترحان أمام عدد وتبعثر الأطلال، افتراض مدينة مكونة من سلسلة من الكفور أو من الضواحي ويمتشدان دعماً لتوضيح افتراضهما ببعض قرى مصر العليا (١٠٢). وقد كانت مساحتها أكثر من ضعف مساحة القاهرة ونحو نصف مساحة باريس (١٠٣). أما فيما يتعلق بالبيوت، فبالإمكان تحديد نموذجها من تمثيلات لسيپساف باليسترينا، ولكن كيف يمكن لهذه الوثيقة التي ترجع إلى فترة انحطاط أن تعيد تكوين صورة البيوت المصرية «في زمن أكثر إيفالا في القدم» ؟ (١٠٤)

وتتمثل وظيفة الجمال في بث مشاعر الإعجاب والخشوع في نفوس الشعب ؛ ويكتب فورييه في مقدمته التاريخية : «لقد كانت العمارة تتميز بطابع وقود وجليل؛ وكان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت وعلم الفلك يهت خشية الآلهة ويهت التقوى والخشوع» (١٠٥). ومن ثم فإن المدينة هي المكان للميز الذي يمكن فيه للجمال أن يؤدي وظيفته الاجتماعية. ومن هنا نعشة لانتكريه امام عمارة كثار موقع جد مقفر كجزيرة فيلة، والتي «تتميز بتنفيذ جد محكم كما لو أن الملك قد أقامها في وسط عاصمته» (١٠٦). ويميل جولوا وديفيليه إلى تصور أن التماثيل العديدة للبعثرة بقاياها على أطراف الصحراء كانت

مخصصة لتزيين المدينة ، ولقد كانت كالمية لأن تزين زينة رائعة جميع الأماكن العامة لمدينة كهره (١٩٧).

وفي المقابل، فإنهما لا يتوبدان أمام آثار مالجاتا ، إن هذه السلحة الواسعة الكبيرة التي تحيط بها سلسلة موزوجة من ركام الأطلال كانت ساحة استعراض للمدينة الملكية : ولقد كانت مضمناً، ساحة شاسعة لإله الحرب، حيث كان يجرى تدريب القوات على استخدام الأسلحة، وعلى سباقات العدو، وعلى سباقات الخيل والعربات، و، بوجه عام، على جميع التطورات العسكرية. ومن هذا المكان كانت القوات المصرية تنطلق، في ظل أسوة لو سمانييلس وأسرة سيزوستريس، إلى فتوحات مؤكدة. وهناك كان عدد كبير من الناس يكرم الشجاعة والبراعة بمكافآت ويتصفهات. وهناك أخيراً كان الناس يتعلمون حسن التصرف وتقديم كل شيء من أجل رفعة الدين والوطن (١٠٨).

أما فيما يتعلق بالمعبد الصغير في شمال الساحة، فإنه ربما كان المكان الذي كان للظافرين في المباريات العلة يجيئون إليه لتقديم الشكر إلى الآلهة عن الانتصارات التي أحرزوها (١٠٩). كما كان بالإمكان عرض الآلهة العسكرية على الجمهور. ومن جهة أخرى، فإن هذه الأطلال ربما كانت بوابات نصر، تدل الرحلة للقائمين من الجنوب على عاصمة مصر القديمة، وذلك بأسلوب مهيب تماماً (١١٠). وفي الاتجاه نفسه، فإن البوابة المقامة أمام معبد الجنوب، في مجمع قصر الكرنك، هي بوابة نصر (١١١). وفي إحدى لوحات اوصف مصر (١١٢)، يصور لانكريه جيش فرعون وهو يتقاطر تحت هذه البوابة بعد أن اجتاز طريق الكباش الذي يسبقها. ثم «يتوزع» المركب في اتجاه الجنوب، ويتحرك الملك على الأرجح للعودة إلى مقره في وسط قصر الكرنك. ويقف ثلاثة من الكهنة، جد متأثرين، لاستقبال الملك. ويحتفى جمع جد قليل بظل البوابة، ويتحرك هاشقان ويختفى طفل بين الكباش. ووراء ذلك، فإن سهل طيبة، شبه المهجور، يتشر طريقه التي لا نهاية لها وهي طرق تماثيل أبي الهول وتماثيل الكباش والتي تتحرك بينها بعض وحدات الجيش.

فلماذا عرفت هذه المدينة المواجهة في مصر العليا مثل هذا المصير ؟ يقدم حولوا وديشيليه سببين. أما السبب الأول فهو نيني : إن طيبة «قد أجتذبت، في عصور محددة، جمعاً من الحجاج : ولابد أنه قد ترتب على ذلك بالضرورة نشاط عظيم في العلاقات، وقد تسنى لقرايين الحجاج الإسهام في زيادة بهاء العمائر. وبهذا الشكل، مثلاً، شهدت روما الحديثة إقامة كاتدرائية القديس بطرس الرائعة بالاعتماد على جميع ثروات الجماعة المسيحية» (١١٣).

ولما السبب الثاني فهو اقتصادي ، إن ازدهار طيبة وكل مصر إنما يرجع إلى التجارة ، وبالأخص التجارة مع الهند ، وإن المصريين قد قلموا بالتجارة مع الهند ، منذ أقدم العصور القديمة (١١٤). ووفقاً لهولوا وديفيليبه ، فإن العاصمة المصرية كانت على نحو ما استشرافاً لبالهرا ، المدينة التي جاء ثرائها أيضاً من التجارة مع الهند (١١٥) ، لكنها بوجه خاص أول وأجمل ثمرة معروفة للقوة والثروات التي تعود بها التجارة على الشعوب التي تنزلها (١١٦).

المجتمع

لما صورة لرفع سارية موني في منفه (١١٧) ، يتصلل هولوا وديفيليبه عن مغزى هذه الصورة الغربية. هل هي صورة للمجتمع المصري ؟ لابد أنهم كانوا يريدون هنا تصوير مشهد الاطلاع على أسرار إيزيس ، مبدأ ومصدر الحكمة والحقيقة ، التي كانت رموزها مرفوعة على السارية. وهذه الشخصيات التي توجد ريشة على رؤوسها ، والتي تنشد إلى أعلى السارية ، هل تتألف من مطلعين على الأسرار يشار إلى درجة علمهم بالمكان العالي الذي وضعوا فيه ؟ وهؤلاء الرجال الذين لا يتميزون بأية ميزة محددة ، والذين يبدو أنهم ينصمون المصرية ، ألا يمثلون الشعب ، الذي ينحصر دوره في مجرد الإبقاء على بديان الدين ، موني أن يكون له أي حق في ادعاء معرفة أسرار هـ (١١٨).

إن الشعب ، على الرغم من كونه قد حكم عليه بالإبقاء في الجهل ، لم يكن على أية حال مستبعداً عن الدين. وصور القوابين التي تزين جدران المطبد والتصور مصحوبة بنصوص هيروغليفية ربما كان بعضها يعبر ، وفقاً لفوربييه ، عن «مشاعر الورع التي كان لابد للشعب أن يتحلى بها» (١١٩). فهذه نسبة له ، لا توجد أية حاجة إلى تأويلات سامية ، لأن مشهد أبهة الملكية ورمزية الطقوس الدينية يكلفان لتربيته. والأعياد الكبرى هي مصدر تسليه له. وأخيراً ، فإن وجود مومياءات الأسلاف في بيت الأسرة إنما يمثل «مشهداً مثيراً ، قائماً على حزنه إلى أن يكون نثراً لأسلافه [...] ناهيك عن الغلبة الأنبية للوجودة لدى المخرج ، بتعويده الألمان على فكرة وصورة الموت وعدم تركه للموت أي شيء يوسع أن يكون مثلاً منه» (١٢٠).

وفقاً لهيرودوت ، فإن المجتمع المصري ينقسم إلى فئات مختلفة على نفسها ،

للمزارعون والعسكريون والكهنة. ومن ثم فإن جومار ينهض إذ يجد في مقبرة واحدة مشاهد زراعية مجاورة لتمثيلات عسكرية. فهل يتوجب وضع المعلومات التي قدمها هيرودوت موضع الشك ؟. يستنتج جومار : «إننا سوف نتوصل إلى فهم الأمر عندما يتسنى لنا أن نقرأ بشكل مناسب الأشكال الهيروغليفية المصاحبة لكل صورة» (١٢١). وإذا كان الأمر، فإنه يرى أن النساء لابد وأنهن كن مستعملات من مجامع الكهنة، لأنه «سوف يكون من السخف تصور أنهن كان يوسعن للمشاركة في الشواغل المعنوية والمهام الخطيرة للكهنة المصريين» (١٢٢).

إن الأشكال الهيروغليفية التي تغطي جدران المعابد والتصور هي كتابة. وولف لجومار، فإن حروف الكتابة العصرية السريعة على البرديات مستمدة من الأشكال الهيروغليفية للوجوه على العمائر (١٢٣). وبالنسبة لهذا الكاتب نفسه، فقد كان يجري استخدام نوعين فقط من الكتابة : الأولى سرية، وتخص الكهنة وحدهم، والثانية يستخدمها الشعب (١٢٤). أما فيما يتعلق بالبرديات التي تم العثور عليها في القاهرة، فلابد من الاعتراف باستحالة تصديق محتواها. لكن جومار يأمل أن تكون متضمنة لجميع علوم ومعارف مصر : القانون، الفلك، التاريخ الطبيعي، الميكانيكا، وهو يعترف بأن كل من يفسرها «إنما يسير على خطى الدراسات التي يميل إليها». وإذا ما حدث، لسوء الحظ «أنه لا يوجد فيها مع ذلك غير نصوص صلوات وشعائر، فسوف ينكب للرد على الأثر على أن يستخلص منها دراسة باللغة الحقيقية للبلد» (١٢٥). وأخيراً، فإن هذا الكاتب نفسه، الذي حيره حجر ممنوع اكتشف في مدينة الأموات، ينسب إلى المصريين فضل تجريب الطباعة (١٢٦).

وقد زعم البعض أن المصريين القدماء كانوا ينتمون إلى الجنس الأسود (١٢٧)، أو حتى الصينى. وكتب آخرون أنهم من جنس الألباط نفسه. ويرفض جومار هذه الافتراضات. فهو يرى أنهم ينتمون إلى ذات الجنس الذي ينتمي إليه عرب مصر العليا الحاليون. وحتى إذا كان المرء يقابل، هنا أو هناك، تمثيلاً لشخص ذي سمات زنجية، فإن المرء لا يمكنه مع ذلك أن يستنتج أن المصريين كانوا ينتمون إلى الجنس الزنجى، «بواصل جولوا وديليبييه سلفرين، «بقدر ما أنه لا يمكنه أن يستنتج أنه كان بين صفوف هذا الشعب إناس لهم بؤوس ابن كوى أو صقر أو إبيس، لأنه يرى هذه الأنواع من الأشكال منحوتة على العمائر. إلا نعرف فرام المصريين بالأشكال الرمزية» (١٢٨).

لقد كان للصريون مسائلهم ومفاهيمهم بالفرقة الإنسانية. وكانت مهابة الحيوانات المقدسة خرافة وترتب عليها على الأكل الأثر السعيد الذي يتمثل في إلهام وصون رقة الأعراف (١٢٩). وحتى في ساحة المعركة، فإن الفرقة الإنسانية لا تلتفت ملها من حقوق : ففي مشهد حربي في قصر مدينة هليو، ترى جندياً مصرياً يحصل به الأمر، في اندماج الرحمة والرفقة، إلى أن يهد يديه إلى عدو يرجو الشفقة. ثم إن للصريين عندما يقطعون أيدي وأعضاء الأعداء التناسلية، فإنهم لا يفعلون غير مسابقة هامة مكلفة في إحضار القتلى ويمتنعون تماماً من استخدام هذه العادة مع الأسرى الأحياء (١٣٠). أما فيما يتعلق بمشاهد ذبح الأملاء، والمثلة كثيراً على واجهات القصور والمعابد، فإن لا يجب النظر إليها إلا على أنها رمز، إما للتذكير بالقرابين البشرية القديمة أو للإشارة إلى ثلر القوانين ومعالجة الجناة (١٣١).

إن مصر للحاجة بالأسرار هذه هي في كل واحد بعيدة وقريبة. بعيدة في الزمان، ولكنها قريبة بتأثيرها، لكل شيء مصدره مصر (١٣٢). وبالمناسبة للأنكوب، فإن معبد فيلة هو دلتا النيل ديانة قديمة، هي الديانة الأم لكثير من العبدات الأخرى (١٣٣) ويحيى كثير من الأشكال المعمارية من وادي النيل، كالتمثيل التي تلعب دور الأعمدة أو النظام المعماري النوري (١٣٤). وأما كان الأمر، فإن مصر أم الحضارات هي الحضارة الأقدم، الحضارة التي ساعدت حجارها على بناء بعض المعالم الحالية، كمعبد خونسو (١٣٥). لكن وجود الأجدى، خاصة الروماني، في الأزمنة الأخيرة لهذه الحضارة، إنما يدل على انحطاط محسوس في الفنون (١٣٦).

الديانة الرومية

إن الديانة المصرية هي قبل كل شيء ديانة طبيعية (١٣٧). ولا يجب أن نسمح لأنفسنا بأن نخدعنا الأشكال الغريبة التي تزين جدران المعابد، فهذه «التكوينات الخيالية [...] قد استحضرها المصريون لكي يصوروا الظواهر الطبيعية ولكن يقدموا صورة محسوسة لها بشكل ماء. والصورة الغريبة لأسد مقرب، والمصحوبة بتمثيل لإيزيس في أرض سبخة ليست غير إجراء تصويري للاحتفال بانقلاب الشمس الصيفي. والصورة الأولى تمثل الأرض ومياه الفيضان، بينما تظهر الصورة الثانية إلى أن الشمس كانت كذلك في برج

الأسد (١٢٨). ونحن نعرف أن دورة الزودياك ليست ثابتة وأن وضع الشمس وقت امتثال الربيع (نقطة الاعتدال الربيعي [حوالي ٢١ مارس - للترجم]) تتزحزح حركته العكسية بمقدار ٢٠ درجة، أي بمقدار برج واحد كل ٢١٥٠ سنة. ونحو بداية عصرنا (بداية التاريخ الميلادي - للترجم)، فإن الشمس، في الانقلاب الشمسي الصيفي، تدخل في برج السرطان. وريط الفخضان، الذي يتزامن مع الانقلاب الشمسي الصيفي، بالأسد، إنما يشهد على وضع الشمس وقت بناء المعبد ويقدم للعناصر التي تسمح بتحديد زمانه. وهكذا، فإن جومار وجولوا وديليبييه وجميع رفاقهم يبحثون بينهم بين صور المعابد عن جميع الأشكال التي يمكن تفسيرها على أنها برج زودياكي، خاصة برج الأسد الذي يزين عرض إله في معبد دير شيلويت (١٢٩) وينتهي إلى تماثيل أبي الهول في الكرنك (١٤٠) موزة بالأسد المقام في معبد لوبيت (١٤١) ومزارع معبد فيلة. وبالنسبة للأنكرية، فإن هذا المثال الأخير هو مثال بليغ، إن مياه للصوف تذكر بالفخضان والأسد ينكر بوضع الشمس وقت الانقلاب الشمسي. ومن ثم فإن معبد فيلة إنما يرجع على الأقل إلى ٢٥٠٠ سنة قبل ميلاد يسوع المسيح (١٤٢).

ويكتب لأنكرية «عند المصريين [...] تعتبر كل زخرفة رمزا» (١٤٣)، ويشهد جومار على هذا الجانب في زخرفة المعبد. إن الثياب للركبة والتيجان والأناط ليست غير رموز تخفي براءة عميقة بالعالم (١٤٤). وأخيرا، فإنه يبدو تماما أن الديانة المصرية التي يتحدث عنها مؤلفر اوصف مصر، تجهل ما هو مفارق للطبيعة بالرغم من قبول فكرة قنسر. ويكتب جومار:

«إن خصائص الحيوانات، وخصائص النباتات والمحاصيل الناقدة للروح، قد تبارت، مع الظواهر الطبيعية والظواهر السماوية، في بناء هذه الديانة الرومزية؛ وهي ديانة يصعب مع ذلك علينا فهمها، بقدر ما أنها، حتى في زمن محبو القهمة، كانت غارقة في ظل العصر» (١٤٥).

على أننا نعرف بعض الآلهة، كأمون الرب الحمل (١٤٦)، وهاروكرات، وهو إله عضو ذكورة غريب يبدو مائلا بشكل خاص في الكرنك وفي طيبة (١٤٧). لكن هذا الإله الذي يجري عرض صورته الذكورية على الشعب الذي يعبد، ليس في الواقع غير رمز كامل للانقلاب الشمسي الصيفي:

يجرى تصوير الإله في كامل قوته مع علامات لا لبس فيها على الرجولة : مساقته ملتصقتان الواحدة بالأخرى. ولا شك أن هذا يرمز إلى أنه لا يسير بعد، إلى أن يلقى في مكانه... فما هو الشكل الرمزي الذي يمكنه أن يعبر على نحو أفضل عما يعبر به هذا الشكل من حالة الشمس التي وصلت إلى أعلى درجات مصيرتها نحو الانقلاب الصيفي، حيث تكون على مدار وقت معين ثابتة وفي كل لكتمال قوتها وحيويتها ؟ إن العضو الذكري المنتصب يشير، كما نعرف، إلى فضيلة الإخصاب والإنتاج؛ والواقع أنه خلال الانقلاب الشمسي الصيفي يبدو فعل الشمس أكثر فعالية (١٤٨).

وتعارضات الآلهة هي انعكاس لطواهر طبيعية متعارضة. ووفقاً لهومار، ففي إنفو يعتبر أونوديس في كن واحد رمزاً للدار وللجواء وللماء وللشمس وللنيل، أما إيزيس فهي رمز وصورة القمر. وأما فيما يتعلق بأسطورة إنفو، فإنها تشير، من خلال نضال حورس، إلى نضال أبواللو [حورس] ضد تيفون [ست]. ويخرج حورس ظافراً من المعركة ويصل إلى أعلى درجات مصيرته السماوية. ويتدفق النهر من فمائه، وتعود الحياة إلى الأرياف (وجميع هذه الآثار الخيرة هي من عمل حورس، أو من عمل الشمس وقت الانقلاب الصيفي) (١٤٩).

ويتصل مصير الإنسان بدرجة معرفته بأسرار الطبيعة. ولاكتساب هذه المعرفة، لابد من تلقين. وهناك سلسلة من اللوحات المنقوشة تصف عملية التلقين :
«إن الشخصية الرئيسية، وهي شخصية ملك بلا ربيب، تمر بدرجات التلقين المخططة.

أولى البداية يجرى تطهيره على أيدي اثنين من الكهنة يرشان على رأسه مياه النيل للجددة.

أولى للشهد الثاني، يجرى لمسح لمباركته، كما يحدث حتى اليوم في بعض طقوس الديانة المسيحية، ويجري وضع تاج كهنتي على رأسه له شكل تاج أسقف كاثوليكي.

أولى للوحة الثالثة، فإن للتلقي، الذي يقوده كهنتان، يتحرك نحو نوع من لباس الناس حيث توجد صور الآلهة؛ وهو ما يعني على الأرجح أنه يصل، بعد كثير من الاختبارات، إلى معرفة الإله والأسرار المقدسة للديانة (١٥٠).

وهذه للشاهد جد مدينة (١٥١). فليس هناك تلخيص في أمكن التلقين الغامضة والصعبة بالضرورة. وفيما يتعلق بإحدى مظاهر أساليب العقيدة، يكتب هولوا وديفيليه: «إن العدد الكبير للروايات والملاحظات، وللآثار العمودية التي تؤدي إلى طرف سفلية، إنما

تقدم مظهر مكان مخصص لعمليات التلقين والاحتفال بالأسرار (١٥٢). وينسب جومار الوظيفة نفسها إلى بعض قلعات الهرم الأكبر (١٥٣)

وليس من السهل تفسير التمثيلات جد الوافدة في التلخيص، لكن مؤلفي «وصف مصر» لا يشكون في أن المصريين القدماء كانوا يؤمنون بالتناسخ (١٥٤). وتصور الزخارف الصغرى في «كتاب الموتى» الاختيارات التي لابد من أن يتعرض لها الميت قبل صدور الحكم الذي يحدد مصيره (١٥٥). ووفقاً لمشهد في مقبرة في وادي الملوك، فإن للدائنين يعنون إلى الأرض على شكل «حيوان نجس»، هو الخنزير هنا (١٥٦).

مصر «الوصف»

كيف يمكن لنا أن نفهم في بضع كلمات مصر «الوصف» القديمة هذه ؟

تتبادر إلى الذهن فكرتان. الأولى هي الدينية، السياسية والفكرية على حد سواء. فالسلطة بين يدي ملك، مستبد معتبر وحكيم، لكنه يمارسها دون التمسك وفي سرية عميلة مع اهتمامه بسماعته أبسط رعاياه. والتراث ومثال الأسلاف هما المرجع. أما الآلهة الملكية فإن المقصود بها هو التأثير على الشعب. والمثقفون والعلماء يتركون الشعب لخرافاته.

والخاصية الثانية لمصر هذه هي هيمنة العلم. فالكهنة باحثون مهتمون بقوانين الطبيعة أكثر من كونهم لاهوتيين. والملوك والمثقفون يجرى تلقينهم العلم في سرية أماكن محتجبة. والآلهة ليست غير تعبير يجرى تلقينهم للعامة عن المبادئ التي تحكم الطبيعة. والذين نفس يجرى النظر إليه بعين الريبة، وما يثير الاستغراب والحيرة يرد إلى الأوهام الدينية. وهكذا فإن لا نكره، إذ لا يتمكن من التصالح مع غياب المنظور في الرسم للمصري، ينسب هذا العيب في الفن المصري إلى نزعة الكهنة للحفاظة (١٥٧). أما جومار، الأكثر تصالحاً، فهو يوافق على أن الوضع الغريب للشخصيات ليس دون نموذج «لهذا هو بالضبط الوضع العادي للمسايفة» (١٥٨). ويعترف جومار بأنه سوف يصاب بخيبة الأمل إلا كانت البرديات تتضمن نصوحاً دينية لا أعمالاً علمية. وأخيراً فإن جولوا وديثيليه يصرران لذلك الحكم في طيبة، خاضعاً لسلطة الكهنة السرية.

وليس من السهل أن نحدد بدقة العوامل التي أدت مؤلفي «وصف مصر» إلى رسم لوحة كهذه للحضارة المصرية.

X ويميل للرء في البداية إلى أن يرى في تصورهم من مصر سمات مميزة للعالم للعصر لهم. والحق أن «الوصف» يتضمن أمثلة كثيرة على الاستقطاعات السائرة إلى هذا

لحد لو ذاك. لكنها تتعلق خاصة بتناول الشكل العمائر أو عدد من التفاصيل. وهكذا، فوفقاً لـجورمار، كان مذهب مصر القديمة ينتمون إلى طبقة أعلى وكانوا يتمتعون بلباس خاص. فهل كان يفكر في زى الأكاديميين، الذى صممه بلقيس فى عام ١٨٠١ بأمر من بوناپارت ؟ ومن الأمور المميزة للغاية أيضاً تلك المقارنات العديدة بين العمائر المصرية والمدن والبنائات الشهيرة آنذاك (١٥٩).

ويمكن للمرء أن يدعى من أن هؤلاء الجمهوريين لم يكونوا مبالين إلى أن وجدوا فى مصر القديمة نوع مجتمع مماثل لمجتمعهم. إلا أنه لا يجب أن ننسى أن النصوص الأولى لـ (الوصف) قد ظهرت فى عام ١٨٠٩، أى بعد تدشين الإمبراطورية بـكثير. أمّا فيما يتعلق بيوميات جولوا وديفيليه، فقد أمهت كتابتها كلها بعد الرحلة إلى مصر العليا. وقد وضع ديفيليه يومياته فى صورتها النهائية فى عام ١٨٠٩، قبيل رحيله إلى فرنسا (١٦٠).

وأحياناً ما تظهر الخلفية السياسية بين السطور. وهكذا فإن الفكرة التى تذهب إلى أن رخاء مصر ينبع من تجارتها مع الهند إنما تستحضر بشكل مؤكد غاية الحملة الفرنسية. اليس بوسع فرنسا أن ترد إلى مصر إمبراطوريتها التجارية القديمة ؟

ولى إحدى فترات الجزء الأول من الطبعة الإمبراطورية، يتعجب جولوا وديفيليه أمام تعاقب الآثار القبطية ثم الإسلامية فى مدينة هابو :

«ربما تخلى الديانة المصرية مكانها سريعاً لعبادة أخرى ما إن يتمكن واحد من أولئك العباقرة ذوى الحمية والتمسسين، واحد من أولئك الفاتحين الذين يظهرون على فترات معينة فى قلبان الشرقى، من أن يستحضر من السماء هرائع جديدة ومؤسسات دينية أخرى». ويلد للمرء أن يتصور أن هذا الفاتح، بالنسبة لجولوا وديفيليه، يمكن أن يكون بوناپارت. والحال أن المقدمة التاريخية التى كتبها فوريه، والتى تُصنّف طبعة هانكوك، قد واجهها وصححها بوناپارت بنفسه. ثم، قبل طبعتها فى عام ١٨٢٩، تعرضت لمقاص الرقيب فى زمن حوطة الملكية، حيث حذفت منها التلميحات الأكثر وضوحاً إلى بوناپارت (١٦١).

وعندما يطوف المرء بمصادر آنية مختلفة، فإنه يضمن للكسائر التى جاءت منها فكرة الملك الحكيم والفاضل، إن المسؤولين الأرائل هم الكتاب القدماء، الذين يجرى الاستشهاد بهم واستغلالهم بوفرة. وفى عدة مناسبات، يستنسخ جولوا وديفيليه النصوص اللاتينية والإغريقية التى استمدت منها حجاجهما. ويعتبر فوريه واحداً من اللهمين الأكثر حضوراً، وإن كان الاستشهاد به لا يحدث إلا فيما ندر. إن رفض جولوا وديفيليه يحلّى أو حتى يتحل، هذا وهناك، ملاحظات كثيرة من مقال حول التاريخ الطبعى، المنشور فى عام ١٦٨١ (١٦٢). وفى الفصل المكرس فى هذا العمل للاسكندر

واللاهوتيين والمصريين (١٦٣)، يجد المرء بالفعل جانباً كبيراً من الأفكار الرئيسية لـ «الوصف» خاصة حكمة وإضائل للثقة. ويعتمد هذا الفصل الجانب الرئيسى من مائة من نصوص نيولور وميرواوت. وفى المقابل، فإن النزعة العلمية والذهبية غائبتان عن نص بومويه.

إن فكرة دين تخبوى هى فكرة قديمة، فهى موجهة بالفعل فى الصفحات التى كتبها كليمن السكندرى وإوسيان الساموساتى (١٦٤). وبالمناسبة للكتاب للصحفيين، فإن الحقيقة المحتجة للخصخصة للملقنين هى الوحيدة (١٦٥). وفى عمله، يبحث حول العائلات (١٧٥٣)، يستعيد قولته، فهما يتعلق بمصر، الأفكار الرئيسية نفسها، وما هو البلد الذى لم يكن فيه جمع من المؤمنين بالخرافات وعدد صغير من الحكماء ١٢، إلا أنه قلما يقرر فكر للمصريين وهو ينزج من «الموضى فلسطينهم» (١٦٦).

إن السمة الخاصة لمصر «الوصف» هى من ثم التناول العلمى (١٦٧). وهى أيضاً السمة الأكثر شخصية. ألا يحوز غالبية المؤلفين تكويناً علمياً؟ ويفكر المرء أيضاً فى سان سيمون، إن هذا الأخير سوف يحس بأنه على راحته فى مصر «الوصف». فبالنسبة له، يجب للسلطة أن تكون بين يدي العلماء، ويجب للشعب أن يظل خارج للمجتمع الجديد. وحتى مع أن السلان سيمونية سوف تلعب فهما بعد دوراً كبيراً فى مصر، فإن الكونت سان سيمون كان غير معروف وقت صوغ «الوصف». على أن مصر «الوصف» تقدم سمات تسمح بمقارنة مع الأسب الطوبوى.

وتد كشف جان سهرليه فى دراسته عن اليوتوبيا عن النقاط المشتركة بين يوتوبيات جميع العصور. وينطبق عدد من معايير على موضوعنا «إن اليوتوبيا هى خارج الزمن، والمجتمعات الطوبوية تتميز بحنين إلى الماضى، والعالم يتحول عن طريق العمل والزراعة، والملوك والحكماء يحتلون الصدارة وينقلون المعرفة، والعلم الرسمى هو وحده المعترف به، والفكر الدينى الطوبوى خامس، والكهنة هم رقباء أنبياء مكلفون بالتوبيخ والتعليم بأكثر مما هم وسطاء لدى الآله. وفى «الطلائع الجديدة» لفرنسيس بيكون، يجتمع العلم والدين معاً فى عمل استيعافى للقرايين يتحول إلى كنيسة صغيرة فى مصر.

إن مصر «الوصف» هى الحلقة الأخيرة فى سلسلة من اليوتوبيات قبل أن تصلح هبلرية شامبوليون على الاتجاه مباشرة إلى هذا الواقع البعيد.

حواشي الفصل العاشر

- 1 P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, publié par P. Lefèvre-Pontalis, p. 84.
- 2 Biographie de P. Jollois par P. Lefèvre-Pontalis, dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, pp. 1-34. L'école polytechnique a été créée en 1794.
- 3 E. DE VILLIERS DU TERRAGE, *Journal et souvenirs sur l'Expédition d'Égypte*, mis en ordre et publiés par le Baron Marc de Villiers du Terrage, Paris, 1899 ; il passe l'examen de sortie de polytechnique au Caire et est nommé ingénieur le 3 novembre 1798.
- 4 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 409. Le texte de la *Description* de l'Égypte sera cité, d'après l'édition Panckoucke 1821-29, avec le nom de l'auteur du passage. L'orthographe du nom de Devilliers est celle de la *Description*. Les planches seront citées sous la forme : Atlas, I, pl...
- 5 Pour une liste des membres de la commission des sciences et arts qui ont voyagé en Haute-Égypte, voir J.E. GOBY, dans *B/E* 35, 1952-3, p. 90.
- 6 Ce projet a été discuté au cours des dernières réunions de l'Institut, voir J.E. GOBY, *op. cit.*, p. 88.
- 7 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 262-263 ; Nectoux avait 58 ans.
- 8 P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, pp. 21, 23, 72.
- 9 P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 23 ; H. LAURENS, *Kléber en Égypte 1798-1800*, V.O.E. 25, 1988, pp. 79-80 ; DEVILLIERS, cité par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 14 et pp. 24-5 ; déjà en 1787, Kléber, alors architecte départemental, avait dessiné les projets des pavillons égyptiens du parc d'Érupe, près de Monthéliard.
- 10 Conventions graphiques pour séparer les faits des hypothèses : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 387 ; voir aussi LANCRAFT, I, p. 112.
- 11 FOURIER, *Préface historique*, I, pp. XII-XIII.
- 12 Atlas II, pl. II n° 18 et 23. Il s'agit d'une scène de la « Fête de Min » : PM II², pp. 499 (96-97).
- 13 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 94-95. Ces animaux font partie du décor habituel du trône royal.
- 14 *Ibidem*, II, p. 484.
- 15 Temple reposoir de Ramsès III : P. BARGUET, *Le temple d'Amon-Ré*, pp. 52-53. Cet édifice servait de station pendant les grandes liturgies de sortie, notamment la « Belle fête de la Vallée ».
- 16 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 428.
- 17 *Ibidem*, II, p. 13.
- 18 *Ibidem*, II, p. 76.
- 19 *Ibidem*, II, p. 435.
- 20 *Ibidem*, II, p. 89. Cette barrière est l'ensemble des murs-rideaux entre les piliers de la façade ouest de la seconde cour du temple des Millions d'Années de Ramsès III, à Médinet Habou.
- 21 *Ibidem*, II, p. 43.
- 22 Ensemble funéraire d'Amenemhat III, à l'entrée du Fayoum.
- 23 JOMARD, IV, p. 513.
- 24 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 378. Identification du « héros » avec le roi : JOLLOIS et DEVILLIERS, III, pp. 374-375 ; P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, publié par P. Lefèvre-Pontalis, p. 111 (scènes du Ramesséum). Le plus fréquemment, les auteurs de la *Description* prennent l'image du roi guerrier pour celle d'un simple « héros » (par exemple, JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 86).
- 26 *Ibidem*, II, p. 401.
- 27 *Ibidem*, II, p. 30.

- 28 *Ibidem*, II, p. 8.
- 29 *Ibidem*, II, p. 579.
- 30 *Ibidem*, II, pp. 487-89.
- 31 *Ibidem*, II, p. 571.
- 32 Reposeoir de la barque processionnelle construit par Philippe Arrhidée. P. BARGUET, *op. cit.*, pp. 136-141.
- 33 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 461 ; voir aussi II, p. 450.
- 34 JOMARD, I, p. 310 ; Atlas, I, 57, n° 8.
- 35 Par exemple, pour les ruines du temple de Médamoud, dont seule une colonnade était alors visible, JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 607 ; Atlas III, pl. 68.
- 36 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 23, 493, 365.
- 37 *Journal de Fourier* publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS *Journal d'un ingénieur*, p. 206. Reculiet : un corps de lion avec une tête de bélier.
- 38 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 511, 513.
- 39 *Ibidem*, II, p. 459.
- 40 *Ibidem*, II, p. 457. Obélisques consacrés au culte solaire, voir p. 459.
- 41 *Ibidem*, II, p. 66 ; Lancet, I, p. 47.
- 42 *Ibidem*, II, p. 525, Atlas III, p. 57, fig. 9.
- 43 *Ibidem*, II, pp. 527 et 501. Cette idée, matériellement impossible étant donnée la masse de ces mâs (voir *Karnak VII*, 1982, pp. 75-92), garde quelque adeptes parmi les guides actuels, locaux ou européens.
- 44 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 414 ; P. BARGUET, *op. cit.*, p. 264.
- 45 LANCET, I, p. 47.
- 46 Edfou : *Journal de Fourier* publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, pp. 189-91.
- 47 LANCET, I, p. 46 ; E. JOMARD, I, p. 276.
- 48 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 428. Il s'agit du temple reposeoir de Ramsès III.
- 49 *Ibidem*, II, p. 431. Statues de Ramsès II : Atlas III, pl. 120.
- 50 Voir *supra*, p. 354.
- 51 *Ibidem*, II, p. 435.
- 52 Atlas III, pl. 33, 1 ; H. NELSON, *The Great Hypostyle Hall at Karnak*, I, n° 151-2.
- 53 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 450.
- 54 *Ibidem*, II, p. 243.
- 55 *Ibidem*, II, pp. 462-3. Voir aussi le journal de J.D. publié par P. Lefèvre-Pontalis, dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 241 ; ces scènes sont en réalité des scènes d'offrande et d'accolade.
- 56 *Ibidem*, II, 467 ; Atlas III, pl. 34. Il s'agit de la série liturgique de l'introduction royale : pl. 23.
- 57 E. JOMARD, IV, p. 29, à propos du palais d'Abydos. Pour Jomard, il s'agissait du palais de Métronon (IV, p. 32).
- 58 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 472. Il s'agit des magasins nord (P. BARGUET, *op. cit.*, pp. 205-209). Même interprétation pour les magasins sud : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 477 (P. BARGUET, *op. cit.*, pp. 159-161).
- 59 *Ibidem*, II, p. 504. Chapelle reposeoir d'Aménophis II, reconstruite par Séthi I^{er} (PM II², p. 185).
- 60 *Ibidem*, II, p. 474. Salle centrale de l'ensemble culturel appelé Akhmenou et connue sous le nom de la « salle des fêtes ».

- 61 *Ibidem*, II, p. 442 et n. 2. Voir aussi II, p. 398 (hypothèse d'un second étage en « charpente et en toile » au temple de Louqsor ; pour le second étage de la salle hypostyle, voir aussi *Journal* de J.D., publié par P. Lefèvre-Pontalis, dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 239. Cette dernière hypothèse avait déjà été avancée par N. GRANGER (*Relation du voyage fait en Égypte*, Paris, 1743, voyage en 1730).
- 62 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 19. Temple des Millions d'Années (dit temple funéraire) de Séthi I^{er}.
- 63 *Ibidem*, II, pp. 352-353. Jollois pensait que ce « palais » était destiné à la « translation des rois », sans préciser toutefois s'il pensait au transport du corps du roi ou plus simplement au transfert de l'autorité royale dans une résidence royale secondaire (P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, publié par P. Lefèvre-Pontalis, p. 109).
- 64 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 66.
- 65 Temple de Khonsou, appelé le grand temple du sud : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 534.
- 66 *Ibidem*, I, p. 374 (temple d'Eana).
- 67 Temple de Ptah : « Nous avons retrouvé dans d'autres temples trois pièces semblables à celles qui existent ici, et qui sont évidemment des sanctuaires » : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 492 ; temple de Gournah : II, p. 359 (chapelles du culte funéraire de Ramsès I^{er}). Cette hypothèse a été confirmée.
- 68 JOMARD, IV, p. 174.
- 69 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 573-78.
- 70 *Ibidem* II, p. 13, voir aussi p. 79.
- 71 *Ibidem*, II, p. 76.
- 72 *Ibidem*, II, p. 318 (temple de Deir el-Médineh).
- 73 *Ibidem*, II, p. 427 (temple-reposoir de Ramsès III à Karnak).
- 74 JOMARD, II, p. 374.
- 75 LANCRET, I, p. 21, pp. 64-65.
- 76 *Journal* de Fourier, publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 193.
- 77 JOLLOIS et DEVILLIERS, I, p. 374.
- 78 LANCRET, devant le mammisi de Philae, souhaite même les supprimer afin que la vue puisse « jouir de toute la hauteur des colonnes » (I, p. 23).
- 79 LANCRET, I, p. 90 (gargouilles de Philae) ; pour JOLLOIS et DEVILLIERS, les deux usages ne sont pas incompatibles, quoique le second soit plus fréquent (Dendara), III, 314.
- 80 SAINT-GENIS, I, 349 (Elkab).
- 81 JOMARD, I, p. 435 (Erment).
- 82 LANCRET, I, p. 94 (kiosque de Trajan à Philae).
- 83 LANCRET compare le kiosque de Philae avec ceux d'Erment et de Dendara. Thyphon est en réalité le dieu Bès, gnome hilare à l'aspect grotesque chargé d'apaiser et de déarmer les divinités hostiles.
- 84 Par exemple, JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 514 ; JOMARD, I, p. 306, III, p. 166.
- 85 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 370.
- 86 Voir *supra*, p. 358.
- 87 JOMARD, I, p. 275 (temple d'Edfou).
- 88 Voir *supra*, p. 358.
- 89 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 351.
- 90 JOMARD, IV, pp. 463, 472.
- 91 LANCRET, I, p. 21 (Philae) ; JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 556 (temple d'Opet à Karnak).
- 92 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, pp. 302-3.

- 93 *Ibidem*, III, p. 370. Cette hypothèse est très proche de l'usage réel de ces chapelles consacrées à la fabrication de la statuette de l'Osiris végétant des fèves de Khoiak (F. DAUMAS, *Dendara et le temple d'Hathor*, pp. 67 et s.).
- 94 *Ibidem*, II, p. 57.
- 95 *Ibidem*, II, pp. 334 à 336. Ils suggèrent que les débris de momies trouvées dans les salles des pylônes de Philae pourraient être en rapport avec cet usage.
- 96 *Ibidem*, II, p. 12 ; C. TRAUNECKER, J.-C. GOLVIN, *Karnak, Résurrection d'un site*, pp. 58-63.
- 97 *Ibidem*, II, p. 571.
- 98 *Ibidem*, II, p. 593 à 598.
- 99 *Ibidem*, II, p. 493.
- 100 JOMARD, III, p. 3.
- 101 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 8.
- 102 *Ibidem*, III, p. 245 ; la ville de Piramès, dans le Delta, semble avoir été composée de hameaux (LA, V, col. 128).
- 103 *Ibidem*, III, p. 240.
- 104 *Ibidem*, III, p. 244.
- 105 FOURIER, p. XIV.
- 106 LANCRET, I, p. 28.
- 107 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 16.
- 108 *Ibidem*, II, pp. 12 et 139.
- 109 *Ibidem*, II, p. 133 ; Temple de Qasr el-Agouz, PM II¹, p. 527.
- 110 Ces monticules sont des buttes de déblais, produits par le creusement du grand bassin-port de Malgata. Jollois et Devilliers rapprochent ce monument des cent portes de Thèbes chantées par Homère.
- 111 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 509.
- 112 Atlas III, p. 51.
- 113 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 279.
- 114 *Ibidem*, III, p. 269.
- 115 *Ibidem*, II, p. 594.
- 116 *Ibidem*, III, p. 269.
- 117 Il s'agit de l'érection de la charpente d'une sorte de tente, sanctuaire archaïque de Min.
- 118 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, pp. 376-7.
- 119 Journal de Fourier, publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 185.
- 120 JOMARD, III, p. 4.
- 121 JOMARD, III, p. 53.
- 122 JOMARD, I, p. 195.
- 123 JOMARD, III, pp. 113, 146-7.
- 124 JOMARD, III, p. 138. Plusieurs auteurs antiques proposent trois types d'écritures, dont les normes sont discutés par Jomard qui n'a pas reconnu le caractère spécifique de l'écriture démotique (JOMARD, III, p. 122 ; Atlas, II, pl. 60 avec les annotations démotiques en marge du papyrus).
- 125 JOMARD, III, p. 110.
- 126 *Ibidem*, III, p. 134.
- 127 J. LECLANT, « La modification d'un regard (1787-1826) : du voyage en Syrie et en Égypte de Volney au Louvre de Champollion », dans *CRAI* 25, 1987, pp. 9-11.

- 128 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 265.
- 129 JOMARD III, p. 88.
- 130 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 115.
- 131 LANCRET, I, p. 69, 49 (Philae); JOMARD, I, p. 310 (Edfou); voir aussi la longue argumentation de COSTAZ: VI, pp. 151-4.
- 132 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 403.
- 133 LANCRET, I, p. 9.
- 134 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 61, 77-79; JOMARD, IV, p. 341.
- 135 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, 537. Sur les réemplois et les interprétations qu'ils suscitent: JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 48, 464, 536; LANCRET, I, pp. 19-20, 111, 118.
- 136 *Ibidem*, II, p. 269 (Les magasins du Ramesseum sont voûtés parce que romains). Les Ptolémées ont au moins respecté la religion, mais sous les Romains, les rites ne sont plus qu'apparence (*Ibidem*, p. 164).
- 137 JOMARD, I, p. 232.
- 138 *Ibidem*, I, p. 335 (Mammisi Edfou).
- 139 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 143.
- 140 *Ibidem*, II, p. 511.
- 141 *Ibidem*, II, p. 556.
- 142 LANCRET, I, p. 115. Pour d'autres raisonnements de ce type, voir JOMARD, I, p. 322 (Edfou), 428 (Erment); JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 398 (Zodiaque de Dendera).
- 143 *Ibidem*, I, p. 113.
- 144 JOMARD, III, p. 59; voir aussi LANCRET, I, p. 66.
- 145 JOMARD, III, p. 166.
- 146 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 305.
- 147 *Ibidem*, II, p. 53, 376, 431. En fait, il s'agit d'Amen-Min.
- 148 *Ibidem*, III, p. 309-310.
- 149 JOMARD, I, p. 319.
- 150 *Ibidem*, II, p. 80 (Médinet Habou), p. 467; Journal de Fourier publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 103.
- 151 *Ibidem*, II, p. 18 (tombe de Padiamanope, n° 33).
- 152 JOMARD, LX, p. 491.
- 153 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 329.
- 154 JOMARD, III, p. 132.
- 155 COSTAZ, III, pp. 211-212: Catacombe de la Métémpsychose.
- 156 LANCRET, I, p. 106.
- 157 JOMARD, I, p. 314.
- 158 Par exemple: JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 436 (salle hypostyle de Kamak et Notre-Dame de Paris); p. 411 (I^{er} pylône et façade de l'Hôtel des Invalides); III, p. 3074 (surfaces de Thèbes et de Paris).
- 159 Marc DE VILLIERS du TERRAGE, *op. cit.*, p. I.
- 160 CAMPOLLION-FIGEAC, *Fourier et Napoléon, L'Égypte et les cent jours*, 1844, p. 169.
- 161 BOSSUET, *Discours sur l'Histoire universelle*, Garnier-Flammarion, 1966, pp. 360-361, à comparer avec JOLLOIS et DEVILLIERS, p. 428.
- 162 BOSSUET, *op. cit.*, pp. 357-373.

- 164 Dialogue de Momos, cité par E. HORNING, dans *Les dieux de l'Égypte*, pp. 7-8.
- 165 B. DE MAILLET, *Description de l'Égypte*, 1735, rédigée par l'abbé Le Masquier.
- 166 VOLTAIRE, *Essai sur les mœurs*, Garnier, 1963, p. 77, 81.
- 167 En 1844, Champollion-Figeac accompagne son édition de la version originale de la préface historique de notes, où il nuance l'approche scientiste de Fourier (par exemple, p. 97, n. 2).
- 168 S. CARLÉRY, *Histoire du saint-simonisme*, Gonthier, 1964, pp. 12-13.
- 169 J. SEVRIER, *L'Utopie*, 1985, pp. 95 et s., 116, 50.

الفصل الحادى عشر

الجوانب العلمية لعمل مصر

(١٧٩٨ - ١٨٠١)

بقلم ، شاول سعد ، جليل

القد أسهمت إقامة الفرنسيين فى مصر إسهاماً كبيراً فى توسيع مجال العلوم كلها . تلك هى الكلمات التى تحدث بها الطبيب العسكرى جابيتانو سوتيرا ، فى مذكرته من الطاهون (١) . لفهم تمثل هذا التوسيع ؟ تلك هى المشكلة التى يهدف هذا البحث إلى التصدى لها .

إن لجنة العلوم والفنون ، وهى أول لجنة من نوعها على الإطلاق نشهد ضمها إلى حملة عسكرية ، كانت تضم فى البداية نحو ١٥١ عضواً ، كان ٨٤ منهم يتمتعون بتكوين تقنى وكان عشرة منهم من الأطباء (٢) . والحال أن المعهد (للجمع العلمى) المصرى ، وهو مثيل لهما وراء البحار للمعهد الفرنسى ، قد افتتح جلساته فى ١٦ فبرواى من العام الأساس (٢٢ أغسطس ١٧٩٨) . وخلال السنوات الثلاث التى بام الاحتلال لهما ، دعى إلى للمشاركة [فى المعهد] ما مجموعه ٥١ عضواً . ومن بين هذا العدد ، التحق ٢٦ عضواً بهذه الشعبة أو تلك من الشعبتين العلميتين ، أى شعبة الرياضيات وشعبة الفيزياء ، وكانت الشعبتان للكونتان الأخرى هما شعبة الاقتصاد السياسى وشعبة الآلب والفنون .

وكان على المعهد أن يجتمع عند الحاجة . وقد عقد ٦٢ جلسة ، انعقدت الجلسة الأخيرة من بينها فى الأول من جبرميتال من العام التاسع (٢٢ مارس ١٨٠١) . وكان الرئيس الأول للجنة هو مونج . أما النائب الأول لرئيس اللجنة فهو بوناپارت ، وقد انتخب الاثنان معاً لمدة ولاية من ثلاثة أشهر . وكان لورييه هو السكرتير الدائم للجنة ، من البداية إلى النهاية . وقد نظمت أعمال اللجنة وفق النواعد التنظيمية لأعمال الأكاديميات الفرنسية .

وتمت تلاوة مذكرات، أو جرى تقديمها مكتوبة، وهُكِّتْ هيئة مراقبين مكلفة بتقديم تقرير عن هذه الأبحاث؛ وكان يوسع الحكومة - وهي، في هذه الحالة، السلطة العسكرية - أن تطلب رأى المعهد حول مشكلات معينة؛ وإلى كل مرة كان يعهد بهذه المهام، وكذلك بنشاطات مختلفة، إلى لجان مشكلة لهذا الغرض (٣).

وكان نشر الأعمال يتم بأشكال مختلفة، إن صحيفة لوكوربيه دو ليجهيت، التي تنقل الأخبار والأمر اليومية الصادرة عن السلطات القائمة، شأنها في ذلك شأن صحيفة المونيتير انيفرسيل، كانت تنشر، عند الحاجة، مقتطفات من تقارير المعهد. أما صحيفة لانيكاد إيجيپسيان، فقد كانت تعتمد نموذج صحيفة لانيكاد فيلوسوفيك. والحال أن بحوث المعهد التي نشرت فيها قد أُعيد نشرها، في غالبيتها، فيما بعد في المجلدات الأربعة التي صدرت تحت عنوان «مذكرات حول مصر» في باريس، عن دار نشر ب. ديرو، من عام ١٧٩٩ إلى عام ١٨٠٢. وقد افترضت هذه المجموعة الأخيرة بعدد من الكتابات التي لم تتمكن من نشرها صحيفة لانيكاد إيجيپسيان، التي تولفت عن الصدور في عام ١٨٠٠. وقد ظهرت بعض المذكرات أيضاً في نشرات علمية محكمة - في «أدال دي ميزيم يستوار ناتوريل» وإلى «بوليتان دو لاسوسييتيه فيلو ماتيكة» وإلى «جورنال دي مين، إلخ. وكتب عدد من أفراد الحملة كتباً عما شاهدوه وما قالوا عليه من معارف، وهذا هو حال ديجهيت، الذي نشر كتابه «التاريخ الطبي لجيش الشرق» (١٨٠٢). أما العمل الأشهر، في هذا الباب، فلا يزال هو عمل فيلان ديون «رحلة في مصر السفلى والعلوية» (١٨٠٢) وأخيراً، الكتاب الضخم، «وصف مصر» الذي ظهر، من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨٢٨، مؤلفاً من «اللمعة التاريخية» التي كتبها لورييه ومن الأطلس الثلاثة التي تضم لوحات والتي نشرت في عشرة مجلدات، ومن المجلدات التسعة التي تتضمن النص المكتوب، والموزعة كلها إلى ثلاثة أقسام، «العصور القديمة» و«الحالة الحديثة» و«التاريخ الطبيعي»، الذي يحوى أطلساً، يضم خريطة طوبوغرافية وجغرافية (٤).

نلك هو العمل المنشور. أما فيما يتعلق بالعلماء أنفسهم، فقد كان خمسة من بينهم شخصيات شهيرة بالفعل، واث ركويم البحر، في مايو ١٧٩٨، وهم مونج وبيرتولليه ولورييه ودولوميو ونويه. وسوف يحوز ثلاثة آخرون الشهرة، عند عودتهم إلى فرنسا، مالميس وجيفروا سانت - هيلير وسافيني؛ ولا مراء في أن لانكريه كان من الممكن أن يحوز الشهرة مثلهم، لولا موته، وهو ما يزال في ريعان الشباب. والحال أن عدداً من المذكرات

التي تليت أمام المعهد من جانب هذه الشخصيات العظيمة لد عاليج موضوعات تتصل
ببحوثهم الشخصية، وأكثر مما تتصل بمصر (٥). ولد أمت هذه البحوث إلى إشباع جدول
الأعمال بنماذج بحث تتصل بالعلم الخالص، ولن تتوقف أمام هذه الأعمال. كما أننا لن
نتوقف، على الطرف المقابل، أمام العلم التطبيقي، من نوع تلك الإجابات على الطلبات التي
كان يجرى إشعار اللجنة بها، لتلبية الحاجات المباشرة للجيش (٦). إن الموضوع الذي يهمنا
إنما يتجلى تحت ملمح مزدوج : في المقام الأول، للعمل العلمي بالمعنى الدقيق للمصطلح،
والذي أُنجز بحكم الوجود الفرنسي في مصر؛ وفي المقام الثاني، الدراسة العلمية لهذا البلد
نفسه.

علوم الرياضيات والفيزياء

من بين المنكرات التي تعالج ظواهر قريبت في مصر، فإن المذكرة الأشهر تظل هي
مذكرة مونيخ حول السراب (٧). وقد قام بتلاوتها في الجلسة الثانية للمعهد، في ١١
فبراير من العام السادس (٢٨ أغسطس ١٧٩٨)، بعد شهر بالكاد من الزحف المؤلم
من الإسكندرية إلى القاهرة. إن شبح قري تظهر كما لو كانت جزءاً مرتعشة ومنعكسة في
بحيرة تأخذ في التراجع شأنها في ذلك شأن الأفق، بقدر تقدم المروء نحوها، قد لخص
الجيش لعذاب الأمل فيما لا يمكن بلوغه، معرضاً إياه لخيبة الأمل للجانية والقاسية. والد
قدم مونيخ تفسيراً لتلك الظاهرة مبيناً أن حرارة الرمل، التي يزيد من سخونتها ضوء
الشمس، في الهاجرة، وسط الصحراء، تمتد للهواء القريب مباشرة من الأرض، وذلك
بدرجة كبيرة بحيث إنه يتميز بكثافة أقل من كثافة غلاف الهواء المحيط. والحال أن أشعة
للضوء القادمة من أجزاء السماء المنخفضة، والقريبة من الأفق، إنما تنعكس، كما في مرآة،
على السطح الأعلى لهذه الطبقة قليلة الكثافة. وينتج عن ذلك أثر مزدوج. فهو يجعل الأفق
يبدو أقرب، من جهة صور مباشرة لقري ولتخللات توجد بعيداً، في ذات الوقت الذي يقلبها
فيه، مكسباً إيها صورة للفرق والانعكاس في مياه ليست غير حد السماء للعكوس. ويرد
علم البصريات الحديث للظاهرة إلى أثر انكسار مزدوج للأشعة - مباشر، ومقلوب -
وسط الطبقة السطحية، وأكثر مما يرد إلى انعكاس على السطح الأعلى لهذه الطبقة، لكن
المبدأ الفيزيائي الأساسي يظل هو مبدأ الأثر الذي تحدث عنه مونيخ.

والحال أن تحولاً حاسماً من جهة أخرى هو الذي تمثله، في المسيرة العلمية لكانها،

وملاحظات بيرتولليه وحول كربونات الصوديوم، والتي تعتبر المذكرة - المترتبة على دراسة مصر - الأكثر إثارة للانتباه، بعد المذكرة السابقة (٨). لقد اتخذت مسيرة بيرتولليه العملية مساراً على نقى النهج المعتاد، فهو يحقق الشهرة في مجال العلم التطبيقي وتنبع مساهمته في العلم الأساسي، ليس من واقع زخم الشباب التجديدي، بل من واقع تأملات رجل في عنقوان العمر، يعتمد على خبرة حياة، في مجال التفاعلات والعمليات الكيميائية. وقد تخصص في البداية في الكيمياء وفي تقنيات الصباغة، وقدم بالفعل مذكرات قصيرة حول استخدام التيلة والحناء والزهر في مصر (٩). ولدى عودته إلى فرنسا، فإن العمل الذي سوف يضطلع به في فترة نضوجه سوف يرسى أسس الكيمياء - الفيزيائية الحديثة. إن البحث حول الاستاتيكا الكيميائية، المنشور في عام ١٨٠٢، يعالج أثر العوامل الفيزيائية - الحرارة، الضغط، الضوء، للكثافة النسبية - من حيث كونها محددة لدى وسرعة استمرار تفاعل ما، بل وفي حالات معينة، لما إذا كان هذا التفاعل سوف يحدث أم لا. ولا يمكننا على وجه اليقين أن نقرر أن تجربة بيرتولليه المصرية هي التي دفعت إلى النظر في هذه المسائل. لقد كان بالفعل خير مرتاح إلى النظرية، الصائدة آنذاك، عن التآلفات الانتحائية، والتي استندت إلى اعتبارات كيميائية بصورة خالصة، ولا مراء في أنه قد انتقل من النقد إلى البحث، على أية حال. لكن مصر كانت الفرصة لذلك، والمشكلة التي طرحت نفسها عليه هي مشكلة التكوين الطبيعي لكربونات الصوديوم في بحيرات المنطرون [كربونات الصوديوم]، التي تستمد اسمها من التسمية اليونانية لهذا المنتج، والذي قامت مصر بتجارة واسعة فيه منذ العصر القديم.

وفي أواخر يناير ١٧٩٩، قام بيرتولليه، برافقه مساعده رينو، بمصاحبة الجنرال أندريوس في الجولة الاستطلاعية والتي قام بها في ستة أيام في الوادي - الواقع على مسيرة أربع عشرة ساعة من غرب القاهرة - والذي يضم هذه البحيرات، وكذلك في الوادي، للجارد، لنهر لا ماء فيه. وقد وجدوا أن التكوينات الكلسية التي تحيط بالبحيرات - والملحة بدرجة عالية - مشبعة بالملح ومغطاة برواسب قلووية. وبشكل واضح، فإن الملح (كلوريد الصوديوم) والكلس (كربونات الكالسيوم) يتخلان في تفاعل تحلل مزيج، بما ينتج الصودا أو المنطرون (كربونات الصوديوم) وكلوريد الكالسيوم. ولا يتكون المنطرون إلا على التربة الكلسية. وإذا كانت التربة طينية بشكل خاص، فإن نجد غير الملح البحري، والقليل لو لا شيء من الصودا (كربونات الصوديوم). ولا تشير الأجزاء الرملية إلى وجود هذا لو ذاك في الرواسب، لأن مياه المطر تحلل الملح وتدفع به إلى البحيرات. وفي أجزاء

البحيرات التي تنصب فيها مياه جريان التربة الكلسية، فإن المياه تؤدي، على أية حال، إلى تحلل الصويا (كربونات الصوديوم) بكثر مما تؤدي إلى تحلل الملح. ويترتب على ذلك أن الكلس، في هذه المناطق الكلسية، يؤدي إلى تحلل للملح، في وجود الرطوبة والحرارة، في حين أن النظرون الناتج بهذه الطريقة يبرز إلى السطح ليلقد عليه مائه ويكون طبقة صلبة. أما الناتج التابع، كلوريد الكالسيوم، لكونه مشبعاً بالرطوبة، فإنه يتشبع بالماء ويغيب في التربة، وما هو مثير في ذلك بالنسبة لبيروتوليه، هو أن التفاعل المعروف جيداً للكيميائيين، في العمل، هو عكس ذلك تماماً. ومن ثم فإن تلك إنما هي حالة نموذجية، حيث تعد الظروف، بدرجة أكثر من العناصر الكيميائية الناتجة، الاتجاه الذي سوف يأخذه التفاعل.

وفي ٤ فبراير ١٧٩٩، قدم أندريوسى تقريراً سريعاً حائلاً عن المنطقة وطوبوغرافيتها وأبرزتها القبطية التي انتهت إلى التدهور وطرق القوافل فيها التي يجوبها الهندس والجوابون (١٠). ثم يتدخل بيروتوليه بعده بتقرير حول ملاحظاته ويعلم اعتزامه تفسير تكرين النظرون، في جلسة قالية. والواقع أنه رحل في ١٠ فبراير مع مونج، لمراقبة بوناپارت في غزوه للأرض للقصة، التي كانت آنذاك جزءاً من سوريا. وفي ٢٩ يونيو، وفي أول جلسة للمعهد بعد عودتهما إلى القاهرة، يتم انتخاب بيروتوليه رئيساً ويتم انتخاب أندريوسى نائباً للرئيس. وكان عليه أن يبدأ بتلاوة للذكرى التي أعلن عنها، وأبحاث حول قوانين التآلف الكيميائية، في ٨ أغسطس، ولم يستكملها قط. وفي ٢٢ أغسطس، اتجه من جديد إلى الرحيل، بصحبة مونج، إلى جانب بوناپارت، وصراً هذه المرة، للعودة إلى فرنسا. وبحكم هذا الواقع، كان عليه أن يتلو مذكرته أمام المعهد الأم، أمام المعهد الفرنسي، خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر. وهذه المذكرة التي ظهرت في عدد نشرة «مهموار» الصادر عن أعمال المعهد في عام ١٨٠٠، والتي نشرت بشكل منفصل بالإضافة إلى ذلك، إنما تشكل مرضاً أولياً للأفكار الرئيسية لـ «البحث حول الامتثالية الكيميائية»، بشكل مكثف، و - لا بد من قول ذلك - أكثر وضوحاً. (١١)

التاريخ الطبعة

إن علماء الطبيعيات هم الوحيدون الذين كان يمكن للمرء أن يتوقع أن تسهم إقامتهم في مصر إسهاماً تليماً في تطوير علمهم، وليس بشكل عرضي، كما هي حالة علماء الرياضيات والفيزياء والكيمياء. والواقع أنه باستثناء للمهندسين، فإن علماء الطبيعيات هم

الذين كانوا يشكلون الوحدة الأخرى هدفاً. وفي النهاية، كان من المتصور أن يكون عددهم خمسة عشر، بحيث يكون لكل فرع علمي كبير خمسة. والواقع أن التي مشر فقط هم الذين سوف يركبون البحر، بالخدمة لعلم المعادن، بولوميو وبرانسون - ميشيل دو روزيير، برانفهما ثلاثة من مهندسي النتائج للشبان، بيير - لوى كوردييه ونيكتور ديوي ولوى ميشانوا (الذين كملوا فيما بعد سلاح الجسور والطرق)؛ وبالخدمة لعلم الحيوان، إيتيان جيلروا سانت - هيلير وجيل - سيزار لولون دو سالفيني، إلى جانب تلميذ ومساعد جيلروا، الكسندر جيلروا؛ وبالخدمة لعلم النبات، أنطوان - فرانسوا كوكبيير دو مونتيري وليم رافينو - ديليل، وإيڤوليت نيكتور وهنري - جوزيف ريديتيه. والحق أن ريديتيه، الفنان - المصور، والمحقق بحدائق النباتات، لم يكن عالماً، بل كان متخصصاً في رسم الزهور، شاك في ذلك تماماً شأن أخيه الأكبر، والأكثر شهرة، والسمي بـ «رومانيل الزهور». ولم يكن سالفيني عالم حيوان من حيث إصابته التعليمي، بل كان عالم نبات، وكان يهتولليه قد طلب من كوردييه، الذي اعتذر، أن يكون عضواً في الحملة مع إلحاحه على سالفيني، الذي كان آنذاك في العناية والمضربين من عمره، بأن يوافق على الحلول محله، مشيراً إلى أنه سوف يتمكن دائماً من تلقين نفسه في هذا العلم. أما جيلروا فقد تكشف أنه شخص غير مهال بالثقة. وأما كوكبيير، الذي لا يبدو أن يكون حدثاً، هو الآخر، فسوف يصبح أميناً لمكتبة المعهد؛ وسوف يموت بالطاعون في ٧ أبريل ١٨٠٦، عشية الجلاء عن القاهرة.

ومن بين علماء المعادن، فإننا ندين بالعمل الأساسي لروزيير، وليس لبولوميو، كما كان متوقفاً بشكل مشروع. والحق أن الحملة سوف تدمر حياة بولوميو. فهذا الفارس القديم من لرمسان لخرية مألوفة كان أحد رسولين - كان الآخر هو مدير الشؤون المالية بوسيلج - أرسلهما إلى البر بوناپارت، قبل نزوله، لكي يطلبها من الراعي الأكبر تسليم الجزيرة. وفيما بعد، تعرض بولوميو للإحساس بضعف ما تجاه بوناپارت، لوضعه إياه بهذه الطريقة في وضع الخائن لأخويته. ولم يكن لديه الاستعداد ولا الأصل لكي يلعب دور جليس لهذا الفاتح الجديد. وإن ارتباطي بمشروع عسكري، وضعني (ولو بشكل غير مباشر)، تحت قيادة جنرال، قد أرق خيالي [...] حتى وإن كان هذا الجنرال هو بوناپارت (١٢). وبعد قضاء ثمانية أشهر في مصر، يرحل عنها مفادراً الإسكندرية مع مساعده كوردييه، في ١٠ مارس ١٧٩٩. ولما كانت العاصمة قد أرغمت سفينة على

الاحتماء بمرسى تاريخت، فقد جرى الإلقاء به فى السجن، ومنعه من مخالطة أحد، على سبيل للعقاب له من جانب فرسان مائدة اللاجئين، الذين تمكنوا من التوصل إلى تفاهم مع البوربون، الرعاة للتحمسين، فى مملكتهم فى نابولى، للثورة المضادة. وقد تم إخلاء سبيله بعد ستة وعشرين شهراً، ذلت من حاله الصحية. وبعد عودته إلى باريس فى مارس ١٨٠١، حيث حاز على كرسي فى للتحف، لم يعش إلا ثمانية أشهر، ومات فى نوفمبر، بعد رحلة أخيرة فى جبال الألب.

إن اللوحة التذكارية الأكثر بلاغة لفتوحات العلم التى سوف تسجلها الحملة فى قائمة إيجابياتها، سوف يجدها للمرء فى القسم الثالث من «وصف مصر»، فى هذه الأبيومات الثلاثة للرحلت، والمصاحبة لمجلدى نصوص، مكرمين للتاريخ الطبيعى. ولنقرر على الفور أن للحصيلة كلها تقدم فى أن واحد أكثر، وأقل، من ذلك التاريخ الطبيعى لمصر الذى كانت هناك رغبة فى تقديمه. فهو يظل نون للرداء، من حيث أنه يظل جزئياً، بالرغم من ضخامة حجمه، ومن حيث إن تركيب النصوص قليل التوفيق، إن لم نقل أنه مشوش، بكثير مما هو منهجى. وتؤكد أهميته بعد ذلك، من زاويتين «أولاً، من حيث إن المشاركين فيه سوف يواجهون مشكلات، وأحوالاً سيئة طرأ عادية، سوف يكون لها صداها على عمل كل منهم وعلى تخصصاتهم، إيجابياً أم سلباً؛ ثانياً، من حيث إن المشروع بأكمله يجمع بين عوامل علمية وعوامل تاريخية واقتصادية واجتماعية وسياسية، أرتق ارتباطاً مما حدث قبل ذلك - لو حتى مما كان يمكن تصوره - بهذا التاريخ، فى دراسة أى بلد آخر.

لما الذى نجده فى التاريخ الطبيعى؟ كما هو الحال مع القسم الأول من «وصف مصر»، للقسم الخاص بالمعصور القديمة، سوف يجرى تناول (التاريخ الطبيعى) بشكل جد مرض بدراسة اللوحات، حيث تظل الإحالة إلى النصوص ثانوية، على شكل تنمة، وسوف يكون الأمر على خلاف ذلك بالنسبة للقسم الثانى الكبير من العمل، والخاص بالحالة الحديثة لمصر، الذى تعتبر مذكراته أكثر أهمية بكثير من لوحاته. وقد تم تسجيل لوحات التاريخ الطبيعى بين عامى ١٨٠٥ و ١٨١٤. وكان أربعة من المشاركين مسؤولين عن ذلك، جيفروا سانت - هيلير وسافيني، بالنسبة لعلم الحيوان، وديليل، بالنسبة لعلم النبات، وريزير، بالنسبة لعلم المعادن. ومن حيث المبدأ، كان كل واحد منهم ملزماً بتقديم سلسلة من «الشروح» الملحقه بلوحاته، فى المجلدات التى تتضمن النصوص. والحال أنه لا

جيفروا ولا سائيني قد قلما بهذه المهمة، جيفروا لأنه لم يعد يريد ذلك، وسائيني لأنه لم يعد يوسعه عمل ذلك. وكان لابد من أن يقوم أخران بتقديم شروحهما، بعد نحو عشرين سنة من إنجاز اللوحات، فقد عهد بتقديم شروح لوحات جيفروا إلى ابنه، إيزيدور، وعهد بتقديم شروح لوحات سائيني إلى عالم طبيعيات ينتمى، هو أيضاً، إلى الجيل التالي، وهو فيكتور لوبان.

ويضم الجزء الأول الفقاريات، في ٦٢ لوحة، جرى تنفيذ ٤٧ لوحة منها وفقاً لمجموعات جيفروا، وجرى تنفيذ ٢٠ لوحة منها وفقاً لمجموعات سائيني. وهي تنقسم بحسب الفئات الأربع: الثدييات والطيور والزواحف والأسماك. وقد تكفل جيفروا بكل ما يتصل بعلم الأسماك، بينما تكفل سائيني بكل ما يتصل بعلم الطيور، وفي تلك الأثناء قدم سائيني، على شكل ملحق للوطاويط والدموس وللأرانب البرية وللكباش ولتعامسيع ولسلحفاة جيفروا الأخرى، ككسرات ولعابين من عنده هو. ويشمل الجزء الثاني لللافقاريات، موزعة في ١٥ مجموعة - ثلاث فئات من الرخويات، قسم الحفريات، ثلاث فئات من شبيهات الإنسان وثلاث مراتب من الحشرات؛ قسم شوكلات الجلد؛ وأربع مراتب تتمشى أيضاً مع اسم للمريجات، الأسلنجات، القربيات، المبيخات والطحالب -، حيث يجرى تصوير المجموع في ١٠٥ لوحات، تضم الآلاف من الأشكال، وترجع كلها إلى سائيني. ويضم الجزء الثاني مكرر ٦٢ لوحة من للملكة النباتية، ترجع إلى ديليل و ١٥ لوحة للمعادن، قام بها روزيهر.

أما اللوحات التي تترك الانطباع الأكثر قوة، من حيث وضوح السمات، وبتة للتفاصيل، ودرشاة الكل، فإنها تظل السلسلة المؤلفة من ١٤ لوحة للطيور، الملونة، في الجزء الأول، ومجمل سلسلة الفقاريات في الجزء الثاني واللوحات الخمس عشرة للمعادن، الملونة أيضاً، في الجزء الثاني مكرر. ومثل هذا الواقع لا يرجع إلى المصادفة، إن سائيني وروزيهر كانا يراقبان بدقة، وقد قلما عونهما التخطيط إلى إعداد لوحاتهما، في حين أنه يبدو أن جيفروا وديليل قد اكتفيا بترك المهمة إلى فنانين وصامين، مكلفين برسم الرسوم الإيضاحية. وفقاً لنماذج من مجموعاتهما، لم تسليم الرسوم إلى نقاشين. وبالنظر إلى المهارة والفن المتقن اللذين تمكن هذان الفريقان للمهنيان من البرهنة عليهما، فإن النتائج تعتبر جيدة، دون أن تدعى أنها ممتازة. والواقع أن قوة الجانبية التي أضفها سائيني على اللوحات التي كان مسؤولاً عنها، إنما تتضح إذا ما اقتصر المرء على مقارنتها

باللوحات التي ترجع إلى جيفروا، في الحالات النادرة التي حدث أن صورا فيها، كلا على حدة، حيوانات واحدة، كالتمسك الأكل للفتران والحيات، أو إذا ما لقنا بمقارنة سلاسل كل منهما الخاصة بالذعابين. والنتيجة عظيمة بحيث إن لوحات ساليني سوف تشكل وصفاً، في علم الرخويات بشكل أفضل، بدلاً من أن تود إلى مرتبة مجرد تصويرات عادية للذخائبات وللحيوانات المصرية مخصصة لرحالة ملازمين لبيوتهم. (١٢)

وبالنظر إلى الأهمية المتنوعة للتاريخ الطبيعي، فإن المرء يمتثل بأدى ذي بدء من أن إسهام علماء الطبيعيات كان لحد أكثر الإسهامات اختزالاً في صحيفة لاديهكاد إيهيبيسيان كما في مذكرات حول مصر. وخلال مناخلة جيفروا الأولى في المعهد المصري، كان عليه تلاوة مذكرة حول النعام، لا تعدو أن تكون مقالاً يتميز بالتبسيط. كما أنه اعتذر لكوالييه من «الكتابة للجيش» (١٤). وخلال إقامة ساليني في مصر، فإنه لم يكتب غير مذكرة واحدة، حول زهرة اللوتس الزرقاء، لا تعدو أن تكون أثراً من آثار تكوينه كعالم نبات. وقد أسهم «أسلوبه جد الحائق» في إقناع زملائه الأكبر سنًا، والذين كانوا حتى ذلك الحين متحفزين، بجدية الشاب وبهفته كعالم طبيعيات - إذا ما استعدنا كلام جيفروا الموجه إلى كوفييه (١٥). ومن جهة أخرى، فإن روزير سوف يكتب مذكرة حول معادن وادي القصير، وقد قسم سيليل تقريرين، حول نبات الصنّاء وحول فرع جديد، هو الليمون البحري المصري، أما جان - لوى - انطوان وينيه، شقيق الجنرال، فقد قسم مذكرتين، واحدة حول نخيل اللبلح والأخرى حول تأبير الجميز.

هذا هو كل ما هناك، وهو ليس شيئاً كبيراً. وأخيراً، فإن علماء الطبيعيات لم يكونوا هناك لنشر مذكرات، بل لأناء مهماتهم الرئيسية، إجراء ملاحظات وجمع عينات. وقد مروا بانتكاسة، حتى قبل أن يتمنى لهم الانكباب على العمل، وذلك عندما حدث، في يوليو ١٧٩٨، إن السفينة لوپاتريوت، التي كانت تنقل معداتهم العلمية، انقلبت بعد الاصطدام برصيف بحري وغرقت. إن للهاضغ والميكروسكوبات وملاقط التشريح والكحول والأوعية والديابيس وكراسات جمع الأعشاب والبراويز وأدوات مد الفراشات - كل أجهزتهم قد استقرت في قاع مرسى الإسكندرية (١٦). وبالرغم من كل شيء، نفيماً هذا الميكروسكوبات، كانوا قادرين على تجهيز أرتجالي لمعدات مرتجلة، وذلك بصعوبة أقل من الصعوبة التي واجهت المهندسين، الذين حرموا هم أيضاً من أدواتهم الدقيقة جداً، للمعدة والمتطورة من جهة أخرى. وينكب الجميع بحماسة على العمل، بالرغم من اللوائح. وقد طاف جيفروا بمجتمع العلماء وصيادي السمك والملاحين والحواة والأسواق والكهوف

تحت الأرضية وساحات عمليات الحرق تحت التربة، لكي يرسم ويشرح ويبين كل ماله - في زمنه لو في الأزمنة الأكثر إيقالاً في القدم - لقار، وتقع بناء عليه. وقد استمرت حملته حتى موته من مصر العليا، في أرائل عام ١٨٠٠. ومثل ذلك الحين، وعلى فترات، سوف يؤدي المرض والإرهاق إلى وقف هذه الاهتمامات. وفي الأشهر الأخيرة لإقامته في الإسكندرية، من مارس إلى سبتمبر ١٨٠١، سوف يكتب بشكل خالص على التامل الفلسفي. ومن بين علماء الطبيعيات، كان سلفيتي هو الوحيد الذي رافق قوة الحملة في سوريا. ومن جهته، لقد حافظ على نشاطه حتى في مرارات الأيام الأخيرة. وعندئذ، فإن خطر استيلاء الإنجليز، كغنيمة، على الرصيد العلمي الذي قاما بجمعه، سوف يولط طاقة جيفروا وسوف يعيده إلى العمل إلى جانب زميله الأصغر سناً.

وما أنقذه هو مجموعات مهمة تماماً. وعند عودتهما إلى مارسيليا، سوف يحتاجان إلى ما بين أربعين وخمسين صندوقاً لتأمين نقلها الكامل إلى باريس. وكان على جيفروا أن يستخدم نحو ٣٠٠ بنتة - ١٥٠ لترًا - من الكحول الجديد، لكي يجدد السائل العكر الذي كانت تحضيراته التشريحية معرضة فيه لخطر التحلل. وقد وصل إلى تحقيق أهدافه وكفل عن طريق زملائه إهداء مجموعات التشريحية من المقاريات للمتحف. وكانت اللجنة المكلفة بفحص المجموعة مؤلفة من كوفييه ولامارك ولا سيبيد. والحال أن هذا الأخير هو الذي قدم التقرير، حيث تولى بشكل أخص أمام واقع أن الأشكال للحنطة تبدو مطابقة لأشكال الأنواع الحالية المماثلة لها (١٧). وبما أن سافيتي لم يكن عضواً في اللجنة، فإنه، من جهته، سوف يحتفظ، في حوزته، بمجموعته الخاصة، وذلك لإعداد اللوحات التي كان عليه تسليمها لـ (وصف مصر). ويبدو أن الحشرات هي التي تشكل الجزء الأكثر ثراءً فيها وأنها هي التي سوف تقدم مادة مساهمته الجليلية في العلم المورفولوجي، دراسة أجزاء أفراد الحشرات والفشريات. وعلاوة على ذلك، فإنه قد ركب الهيكل العظمي لعدد من الطيور، وخاصة إيبيس، وهو موضوع كتاب سوف ينشره في عام ١٨٠٥، وسوف يرسم سمته لدى الجمهور (١٨).

جيفروا وسافيتي

لقد كانت لجيفروا وسافيتي اهتمامات متماثلة واستعدادات متباينة. فلا الأول ولا الآخر قد ارتاح إلى التشريح مجرد غايات علم قوائين التصنيف. وبوصف الأول والآخر من علماء الحيوان، فقد كان عليهما الانتقال من التصنيف إلى المورفولوجيا، لكن جيفروا كان

يستند إلى ذهنية الرومانسية بينما كان سالفيني يستند إلى حرص على البقاء. وكان جيفروا يتميز بطبيعة سخية. ورسائله من مصر تفيض بتجليات التقدير والحب تجاه زملائه في المتحف، وبالأخص تجاه كوفيه، الذي يوجه إليه الجزء الرئيسى من رسائله. وسرعان ما يصبح حماسة حرجاً، بقدر ما أنه يظل دون تجاوب، ودون أن يجد تهديئات له، في المرات - التى لم تكن نادرة الهمّة - التى يحتلبه فيها الانزعاج والتساؤل عما إذا كان لم ينس، وقد بدأ بالفعل تخصص استقطاب اهتماماته الأساسية. على العام ونصف العام الأوليين لإقامته والمثمن ضامها بالكامل في التعرف على البلد، مرتبطاً بالوساطة للمعهد الأكثر امتزالا، ومرافقاً للمهندسين في استكشافاتهم لمصر العليا والسفلى، والمشرط في يديه دائماً، كان مشروباً بعلم الأسماك وعلم الطيور وعلم الزواحف وبالتفصيل الأوكيولوجى للحيوانات للحنطة، للاستخراج من سفارة أو من أماكن أخرى. وفى نهاية المطاف، سوف يتجاوز كل ذلك، في تأمل حول الأسباب النهائية، الأصلية، للأشياء. وما أدى إلى هذا التحول هو الإمساك، في البحر المتوسط، بعينات من الشفنينات البحرية الرمان والأسماك للكهربية. وقد كتب إلى كوفيه، في ٤ فينديمير من العام العاشر (٢٦ سبتمبر ١٨٠١)، أنه فور وصوله إلى المعبر الصحى، سوف يرسل «عملاً جديداً واسعاً حول الفيزياء والكيمياء والفسيولوجيا» إن اكتشاف السائل العصبى والعنصر الحيوى قد قادنى إلى نظرية جد واسعة؛ وأنا أرجو أن أعود إلى فرنسا جديراً بك وبزملائى المرموقين». ويتصل اكتشافه بتماثل السائل العصبى والسائل الحرارى، وينطوى على إمكانية استخلاص الظواهر الطبيعية، بدءاً من تفاعل العناصر للكونة للسائل الحرارى - الذى يتحد مع الأوكسجين، لتكوين الضوء - والسائل الكهربائى. ويشكل لا مفر منه، كان لابد لمثل هذه الجهود [التى بلا طائل] أن تجعل من جيفروا هدفاً لسخرية فورييه الذى تمسك، منذ رحيل بيرتولليه، عن طريق «تهكمات جارحة»، بإثبات أن زملاءه جهلاء وأن تلامذته راحلهم، وهم مهندسون مدنيون، هم الذين يتمتعون بقدر من المعرفة، والحال أن هدف فورييه، لى رأى جيفروا - كما أوضحه من مارسيليا -، كان يتمثل فى أن يكسب فى لوساطة الرأى العام صيته التبحر العلمى للفائق الذى جرت العادة فى باريس على اختصاص لا جرانج ولا بلامس به (١٩).

ذلك تماماً هو التأكيد الذى سوف نجده من جديد، ولكن بحجم أكبر، عندما نوثق تطور جيفروا فى مرحلة النضوج، على مدار عمله العلمى، فى مرحلته الأكثر إنتاجاً. ومنذ عوفته إلى باريس، بدأ لى نشر مذكراته، فى مجلة أنال دى ميترم ومستوار ناتوريل، حول

الاكتشافات التي قام بها في مصر ، حول سمكة تيلية، غير معروفة قبل ذلك، مؤونة بزعنفة ظهرية تتألف من ١٦ إلى ١٨ قرصاً منفصلاً، هي سمكة مزبوجة للتنفس - بشكل أبق، سمكة براشيروپتيريچينية - سماها بالشمية ببشير، نسبة إلى اسمها العربي؛ وحول سمكة مفلطحة، أو سمكة مبططة، هي الأشير باربو [سمكة مصطحة ذات زعانف بشكل اللحمية] التي، بعينها المائلتين على جهة واحدة من الرأس، تصمغان بشكل لا يقاوم بالتفكير في رسم ليهيكاسو؛ وحول الأعضاء الكهربائية للشفويات البحرية الرمادة والأسماك الكهربائية المنملة واللجريات [أسماك نهريّة بلا حراشف] الرماشة؛ وحول تمساح النيل (٢٠)، والحال أن استعمالة عدد لا بأس به من هذه للذكرات، للعرزة بتصوير - السلحفاة النهريّة، أو سلحفاة مصر الكبرى، إلى جانب دراسة إجمالية لمجموعة الطواييط، سوف تشكل الجانب الأساسي من مساهمته الشخصية في كتاب «وصف مصر». ومن الواضح أن إثارته يذهب إلى الحيوانات المثيرة. وفي هذا الصدد، فإنه يرتبط بشخص مثل بولون، وفي هذا أيضاً، فإن أوصاله تنفتح على تصورات، على الحيوانات بوصفها شخصيات، على عاداتها، ومسلكتها، وربما على أخلاقها. إن إحدى مقالاته في مجلة إنال تحمل عنوان «ملاحظات حول المودة المتبادلة بين بعض الحيوانات، وخاصة حول الضفادع التي يقدمها سمك الزامور [سمك صغير يتبع للسفن] إلى سمك القرش (٢١)، على أن تشرحياته هي نتاج عمل بالغ الاحتراف. إن التفاصيل واضحة وضوحاً تاماً. والرسوم والأوصاف جيدة. لقد استوعب استيعاباً عميقاً الأعمال التي تعالج للمسألة. وكان قادراً على أن يميز، بمصر ثاقب، ما تمثله الجودة.

رُحط القوة الحقيقي، الذي وجه اهتماماته، إنما يظهر في سلسلة من ثلاث مذكرات حول تشريح الأسماك في مجملها، نشرها في عام ١٨٠٧. وقد أعلن أنه قد خطر له، وأنا متخفّل، هذه السنة، بمناسبة الإصدار الذي سوف يتم قريباً للعمل الرئيسي عن مصر، أن أضع للمسات الأخيرة على دراستي عن علم أسماك النيل، وحتى ذلك الحين، كان متحاناً إلى الرأي الذي كسب التأييد، بين علماء الطبيعيات، والذي يذهب إلى أن التنظيم الداخلي للأسماك لا يبدى، من نواح عديدة، أي تشابه مع التنظيم الداخلي للقاريات بوجه عام. والحال أنه عند استئناف الدراسة المنتبهة لمجموعة عيناته الخاصة التي عاد بها من مصر، والتي لا تقل عن المجموعة الثرية التي جمعها كوثييه، فإن ما يكتشفه باهتمام هو أن الأعضاء نفسها، التي هدت عصية على أي مشروع للدراسة للمقارنة، إنما تبدى في الواقع تشابهات عميقة مع أعضاء لقاريات أخرى.

والحال أن هذا الانتقال إلى اللورولوجيا سوف يحول جيبروا عن علم التصديق ويقوده، في النهاية، إلى تأليف كتابه الكبير، «الفلسفة التشريعية» (٢٢). وسوف تتمثل نتيجته في اللوحة للباشرة التي سوف تضعه في تعارض مع كوفييه. في عام ١٨٣٠، والتي أثارت الشك في فكرة جيبروا للمحورية، وحدة المستوى التحتي لكل تنظيم عند المقاريات (٢٣). وهو لن يقترب بعد البتة من تعليقاته للخصصة لكتاب (وصف مصر)، أما فيما يتعلق بالمساعمين، فقد تعين عليهم انتظار ذلك. وقد امتد انتظارهم وطال ولم ينته إلا في عام ١٨٢٤. وفي ذلك التاريخ، كان ابن جيبروا، إيزيدور، قد بلغ التاسعة عشرة من عمره، وكان والده هو الذي حوله عن مسيرته العملية كعالم رياضيات، والتي كان الشاب قد استبدلها لنفسه، لكي يجعل من مساعداً له ومعاوناً له في المختبر، ولكي يتولى أخيراً وضع تلك «اللمسات الأخيرة» على علم أسماك النيل، التي كان والده قد وعد بها بينما كان [إيزيدور] في الثانية من عمره بالكاد. وينطبق الشيء نفسه على ما يتعلق بالفصائل الأخرى، الزواحف والثدييات. وفي هذا القسم الأخير، ادّعى جيبروا بنفسه من الجزء الخاص بالطوايط، لكن ذلك هو كل ما حدث.

أما سلفيني، من جهته، فسوف يدخل المسيرة العملية بعمل يتميز باتساع عظيم لوجوه النظر لكي ينتهي، خلافاً لـجيبروا، إلى التخصص الذي يبلغ أقصى مدى له. إن كتاب التاريخ الطبيعي والمثلولوجي لإيبيس (١٨٠٥) هو عمل يتميز برهالة جميلة، يجمع بين التبحر الكلاسيكي وقبضة التي يستخرجها علم الحيوان، في حجم موجز، متناسب تناسباً مرفحاً. ومع حفظ كل النسب، ومع مراعاة الاختصاف العرضي وبساطة الحجم، يمكن للمرء القول بأن سلفيني قد حقق، على الضفة العلمية للصحة، ما شكّن بهنون من تحليقه على الجانب الأركيولوجي، بكتابه «رحلة في مصر السفلى والعلية» (١٨٠٢). لقد أثار خيال الجمهور. ورد الاعتبار إلى هيروdotot وإلى الكتاب الكلاسيكيين الآخرين الذين تحدثوا عن نوعين لإيبيس في مصر، الأبيض والأسود، مع تشكيكه، استناداً إلى نصوص هيرودية، في زعم هؤلاء الكتاب أنفسهم أن هذين الطائرين غير معروفين في الأماكن الأخرى. إن علماء الطبيعيات المعاصرين، الذين لم يتمكنوا من تمييز إيبيس الأبيض، في بيئته الطبيعية الأصلية، قد خلطوا بينه وبين مالك الحزين في مصر السفلى، ولكونهم قد عزلوا عن تعرض أنفسهم للخطر في مصر العليا، حيث كان (الطائر) واسع الانتشار، فقد اكتفوا بأدلة النقوش الدقيقة، حيث تظهر صوره، بدلاً من أن يقوموا بتشريح المومياوات التي كان بالإمكان الحصول عليها بسهولة. أما فيما يتعلق بابن عمه، إيبيس الأسود، فإن علماء

الطبيعية الحديثة لم يكونوا أقل ضلالا، فهم لم يتمكنوا من أن يعرفوا بالمرة النوع للهجر واسع الانتشار، والمعروف بالفرنسية باسم الكورليس، وبشكل أدق باسم كورليس إيطاليا. وهنا أيضاً منحوا لهجات العصر القديم ثقة غير ملائمة بالمرة، من حيث إنهم قد انكبوا على البحث عن طائر يتغذى على الثعابين. إن سمعة إيبيس، في الأزمنة القديمة، قد جاءت إليه من النور الذي أهله تجاه الثعابين والعقارب، ومن الخصمات التي لهاها بالتهام الثعابين، وبالأخص الثعابين للجنة، والتي لولا تلك لغزت بلاد الفراعنة ولما تسمها سكانها. أما في الطبيعة، في واقع الأمر، وهو ما اكتشفه سافيني، فإن معبات إيبيس، لكان إيبيس الأبيض لم إيبيس الأسود، مليئة بالرخويات وبالقشريات. إنها طيور طويلة الساق تدبش بمنقارها الملوى إلى أسفل وحل للمستنقعات وضفاف الأنهر، وهي حاضرة تماماً من قتل الثعابين أو عن ككلها.

فمن أين إننا جامعاً هذا النور الذي تدسبه إليها الميثولوجيا ؟ إن سافيني سوف يحاول تركيب عناصر الموضوع معتمداً على مخيلة تبرز ملامح معرفة راسخة بالكتاب اليهوديين واللاتينيين الذين تحدثوا عن مصر. فالواقع أن هذا الطائر لا علاقة له بالثعابين، التي لا تهدد مصر بحال من الأحوال، اللهم إلا بوصفها رموزاً للشرب. كلاً، لقد كان إيبيس محبوباً لأنه طائر يشتهي المياه العذبة والرطوبة، يصل مع الرياح الموسمية. إنه يجيء إلى حواف الأنهر، مبشراً بصعود المياه الآتية بالخصوبة. وهو يتبعها في انحسارها، حتى القنوات ومصارف المدن والكفور، بوصفه كائناً يتميز بالجمال وبالتعاطف، تذكر انحناءة منقاره اللطيفة بالحياة والإنسانية، سمة اتحاد بين العالم المنزلي والطبيعة. ومن خلال نوره الموسمية، فإنه يدع نفسه يتطابق مع الزودياك ومع توت، الشبه برأس إيبيس عطاره، الحائز لجميع المعارف والعلوم ورسول الآلهة، المختص بالشهر الأول من العام. وإذا كانت لجواف موميאות إيبيس قد تحتوى على بقايا ثعابين، وهو ما يتأكد في أغلب الأحوال، في الواقع، فما ذلك إلا لأن من قاموا بالتحنيط كانوا حريصين على احترام حقائق تتجاوز التاريخ الطبيعي.

والحال أن سافيني، الذي يبلغ الآن الستة الثامنة والعشرين من عمره، ينكب على ذلك بترتيب ودراسة مجموعته الخاصة، نون أن يهمل مجموعات اللافتاريات الموجودة في المتحف أو في أماكن أخرى، وذلك بهدف إعداد لوحات لكتاب «وصف مصر» ويحمل عدد من بينها الإشارة التالية : «رسمت ونقشت في ١٨٠٥ - ١٨١٢». وفي ٢٩ أغسطس ١٨٠٨، قدم تصنيفه الخاص بالطيور إلى الجمعية العمومية للجنة المحررين (٢٤). وهو يولى أكبر

حماسة للمهمة بين عامي ١٨١٠ و ١٨١٤، لأن القسم الخاص بالتاريخ الطبيعي قد تأخر منذ الآن من القسم الخاص بالعصور القديمة، والقسم الخاص بالحالة الحديثة. وكان ينوي إتمام العمل وإرضاء هيئات الإشراف، التي كانت تبدي إشارات تفاد صبر متزايد. وسعى إلى ذلك، فإنه يقرر تأجيل تسليم «شروح» لوحاته، على أساس أنها تبدو أسهل تنفيذًا، ودوتينية تقريبًا، منكبًا بالأحرى على إتمام التصويرات نفسها، وعلى تقديم الاكتشافات المترتبة على أعماله، والمؤثرة على علم الحيوان في مجمله.

وكان عليه أن يجمع هذه الاكتشافات في كتل، يظل كتابه الأهم، وهو «مذكرات حول الحيوانات اللاقارية»، للنشور في عام ١٨١٦، والذي يشكل عملاً من أعمال المورفولوجيا، على غرار كتاب «الفلسفة التشريحية» لجيفروا، والذي يظهر من جهة أخرى في الوقت نفسه تقريبًا، وإن كان يتفصل عنه، لكان ذلك من حيث الروح أم من حيث الموضوع. ويتألف الكتاب من جزءين، حيث يضم الجزء الأول مذكرتين بينما يضم الجزء الثاني ثلاث مذكرات وكانت قد تليت كلها أمام الصف الأول للمعهد [العلمي الفرنسي]، في الفترة الممتدة من أكتوبر ١٨١٤ إلى يناير ١٨١٦. والحال أن للكراسة الأولى، والتي ينحصر فيها الجزء الأول، للتمشي مع العنوان الفرعي «نظرية أعضاء الرءاء الفشريات والحشرات»، إنما تشكل نقطة الانطلاق، في علم الحيوانات، لدراسة للمتماثلات بوجه عام، والتي سوف يواصلها القرن التاسع عشر. ونحن لا نجد في هذه الكراسة أية تخمينات تأملية أو أية معالجة فلسفية حول مخطط الطبيعة أو أدنى قول مأثور أو حكمة أو خروج عن الموضوع. كما أننا لن نجد أي أثر لشيء من ذلك في أي محور آخر من محاور سأليني.

وهكذا فإن سأليني عندما شرع في عام ١٨٠٢ في ترتيب المائة التي جمعت في مصر، كما يبين للتاريخ في تشهيد الموضوع، قد وجد أن من المستحيل عليه أن يحدد، لعائلات الحشرات والفشريات العديدة، خصائص تتطابق تمامًا مع التصنيف الذي حده ليهته، أي نظم أعضاء مرتبة نائماً ترتيباً واحداً، بحيث يمكن للشبه أن يتضح من نوع إلى آخر. وهو يلجأ إلى أنه، بوصفه عالم نبات، هو القادر، بحكم تكوينه العلمي، على أن يفعل ذلك، في حين أن علماء الحشرات يعملون نائماً إلى التنافس في زيادة للملاحظات معتنعين عن تعميمها أو عن إرساء أسس علمهم. والواقع أن ما لم يكن أحد قد حاول القيام به بعد قد اجتراً هو على الاضطلاع به. ولا مراد في أن المهمة كانت فوق مستوى قواه، ولكنني أود بقوة أن أسهم بشيء في إكمال هذا العمل الرائع عن مصر، والذي يعتبر نشره مصدر شرف كبير للفرنسيين» (٢٥).

ولقد بدأ بفصل الأجزاء النحوية والأعضاء الأخرى الخارجية، ودرسها كل واحد على حدة، وقد فعل ذلك بالنسبة لأعضاء الالتهزاء والحواس والتنفس والحركة، في نحو ١٥٠٠ نوع. وكان طول هذه الحيوانات، في أغلبيتها، أقل من أربعة إلى خمسة خطوط (أقل قليلاً من سنتيمتر واحد)، وكان طول بعضها أصغر من ذلك بكثير. وأمام هذه الآلاف من الرسوم للمرتبة أمامه، وجد أن عناصر أجزاء الدم الواحدة تظهر في جميع الأشكال، وأن دراسة تبينها، من نوع إلى النوع التالي، ومن جنس إلى آخر، ومن نظام إلى آخر، هي التي تقدم سلسلة المقارنات الأكثر انتظاماً والأكثر إحصاءً. وتتصل مذكرته الأولى بالفراشات وبالأرليات (٣٦). وهو يتصدى في تلك المذكرة لحالة تعرضت لأنشط جلد، وذلك لأن باحثاً يدعى لا تريبل كان يرى أيضاً أن الحشرات، مع نوات الجناحين، تمثل نظامي الحشرات اللذين تعتبر أعضاء الالتهزاء فيهما مختلفة اختلافاً جذرياً. في الحلقة الأولى وفي الحالة الثانية لوجودها. وقد رأى كرفيه، من جهته، أن لكي نوبة الفراش يختلفان تماماً، عند تحولها إلى فراشة. ووفقاً لما اكتشفه سافيني، الذي وجد أن من يكثرانه مخطئين، فإن الأمر ليس كذلك. فالفراشات وكذلك بوراتها، وكذلك مفدمات الأجنحة وعصبيات الأجنحة وجميع الحشرات للهراسة للأغذية، لها شفتان، شفة عليها وشفة سفلى، ومخطمان ولسان، تحتل دائماً حين اللواضع الخاصة بها. والحق أنها جد متباعدة، وجد مختلفة وجد مصفرة، بحيث أنه قلما يكون قريباً إلا يتمكن للرمز للهيئة من التعرف عليها. إن الفكين، بوجه خاص، يبدوان كما لو كان مرشحاً دقيقاً، ملموماً على نفسه، ومؤلفاً من شفتين لا يشبهان الفكين في شيء. والواقع أن سافيني، بهذا التشخيص، إنما يحدد التعريف المورفولوجي لمجموعة الحشرات بالمعنى المحدد للمصطلح، أي لمجموعة سلسليات القوائم، التي تتميز بصفت قوائم ويقرنى استشعار، المهنحة أو غير المهنحة، الخاضعة للتحول أو غير الخاضعة للتحول.

ويبقى التقسيم الفرعي الثاني للالفقاريات المفصلية (ترجع تسميتها بمفصليات الأرجل إلى زمن نال)، النخيلخيات (كثيرات الأرجل)، والعنكبوتيات والقشريات، والتي كان لينيه قد أعاد تجميعها تحت اسم الحشرات. وهي موضوع مذكرة سافيني الثانية، حيث كان عليه أن يتذرع بالتماثلات، ببراعة وبجرأة تثيران الانبهار، مؤكداً أيضاً، وبرهانة، التشابهات التي حثتها الدراسة الأولى (٣٧). فهنا أيضاً، نجد أن الأجزاء النحوية هي مفتاح التصنيف فيما عدا أن بعض الأعضاء الموجودة في سلسليات القوائم غائبة تماماً في عدد من النظم والعائلات. وفي الحالات المشابهة، فإن الأعضاء التي تساعد على المضغ سوف

تكون مماثلة لتلك الأضواء التي تخصصها نظم أخرى للتحرك. والمثال الأكثر وضوحاً لذلك هو السلطعونات. فهي تتميز بمخطين وزوجين من الفكك، و بعد هذه الهياكل، تتميز كذلك بثلاثة أنواع من الفكك الإضافية. ومن ثم يتضح أن الأضواء للكونة لقوائم سلسيات القوائم قد تحولت إلى فكك في السلطعونات، التي تتميز حلاوة على ذلك بخمسة أنواع من الزوائد للحركة، ومن هنا جاء اسم عشاريات الأرجل، حتى عندما تحوز، إذا ما أخذنا في حسابنا القوائم - الفكك، ستة عشر مضروباً على شكل قوائم، تختص الستة الأولى منها بالاحتذاء. وفي المقابل للمخالف تماماً، فإن النقابات (حيوانات مفصليّة بحرية تنقب الأرض) تتميز، شأنها في ذلك شأن العنكبوتيات، بغياب قرون الاستشعار، كما تتميز بغياب المخطعات والفكك. لكنها تتميز، في المقابل، بزائدين تؤيدان دور الفكين، وتتلوان خمسة أنواع من القوائم للدورة، والتي تشكل، من طريق قواعدها، ما يشبه الفكك، وتشكل، عن طريق أطرافها، كلابات مشابهة لكلات مخطعات ملوية. ويحدث ذلك بشكل كامل بحيث يمكن للمرء القول بأن النقابات تتحرك بمساعدة عشرة فكك، هي في الواقع قوائم أيضاً، يشبه الأولان منها قوائم - فكك العنكبوتيات، وهي محسّات للسمية محرومة من وظيفة التحريك - وتشبه الثمانية الأخرى قوائم هذه الحيوانات نفسها، وهي لا تملك عموماً وظيفة لكل بالمرّة.

وإذا جمعت للذكورات الثلاث التي تكوّن الجزء الثاني من المجموعة في ملزمة تحمل العنوان الفرعي «أبحاث تشريحية حول القرهبات للركبة وحول القرهبات البسيطة»، والحال أن عنداً جد قليل من المذكرات التي ظهت أمام المعهد، في تلك السنوات، هو الذي نال تقارير جد لورية وجد تصنيفية كذلك التي سوف تدرسها لأبحاث سافيني لجان من بين أعضاء مشاهير مثل كوفييه ولا مارك ولا ترييل. وسوف يستفيد كوفييه من المذكرتين الأوليين في هذه المجموعة، لكي يستعرض مهمل مجال المديخات (جنس حيوانات بحرية من للجوفات) والمرهجات (حيوانات نهائية الشكل كالأسفنج وغورده) وقوارض الحجارة، فالحق أن ملاحظت سافيني «تشكل فتحاً في تاريخ الحيوانات المركبة» (٢٨). والخلاصة أن سافيني قد بين أن تنظيم الأسبوتات - وهو اسم يميل إليه منذ تلك الحين، بدلاً من اسم المديخات، الأكثر غموضاً - هو أكثر تعقيداً مما كان متصوراً، وأن عدة أجناس من المرهجات إنما تتصل بحيوانات مركبة، هي، في هذه الحالة، مستوطنتات القرهبات، وأن مجمل نظام هذه الحيوانات يبدو قريباً إلى أبعد حد من الرخويات.

وبالحال أن الجزء الثاني من هذه المذكرات حول الحيوانات التي بلا تقاربات والتي كتبها

سأثيني، وهو الجزء الخاص بالتقريبات - وليس الجزء الأول، الذي لا تزال له أهمية أكبر، حول نظرية الدم - ، سوف يجرى تناقله، لكن يظهر في «وصف مصر»، شأنه في ذلك شأن العمل الأخير الذي تمكن من استكماله، «نظام الحلقيات» (٢٩). وعند مواجهة الأنواع التي كان قد جمعها من البحر الأحمر ومن البحر المتوسط مع تلك الموجودة بالفعل في المتحف، عمل على تطوير تصنيف هذه المجموعة جد الواسعة من الكائنات، والتي تتميز بتشوش معين، والتي كان كوثييه قد جمعها تحت اسم «الدونات ذات الدم الأحمر». وقد قام سأثيني بتلاوة بحثه أمام المعهد، في ثلاث مرات، من مايو إلى يوليو ١٨١٧، قبل أن يقدم نصها للنهائي، في ٢٠ نوفمبر ١٨٢٠. وفي تلك الأثناء، كان قد تعرض للإصابة الأولى بأفة عصبية سوف تصرمه، عملياً، من حاسة البصر، وتجعله عاجزاً مدى الحياة، عندما تعلمه من جديد، في عام ١٨٢٤، «وهو في ريعان العمر، ضحية لإخلاقه للعلم - إذا ما استعينا كلمات لا ترينيل ولا مارك ، في حين أن هذا الأخير قد وجد نفسه هو الآخر، في أخريات أيامه، قريباً من أن يكون أعمى» (٣٠). وقد افترض كل منهما أن سأثيني لابد وأنه قد أصيب بـ «جذومة» آفة في مصر، حتى مع أنه كان، وهذا من سفرات القدر، واحداً من القلائد الذين لم يصابوا البتة بـ «الرمم» جد المنتشر في الصحراء.

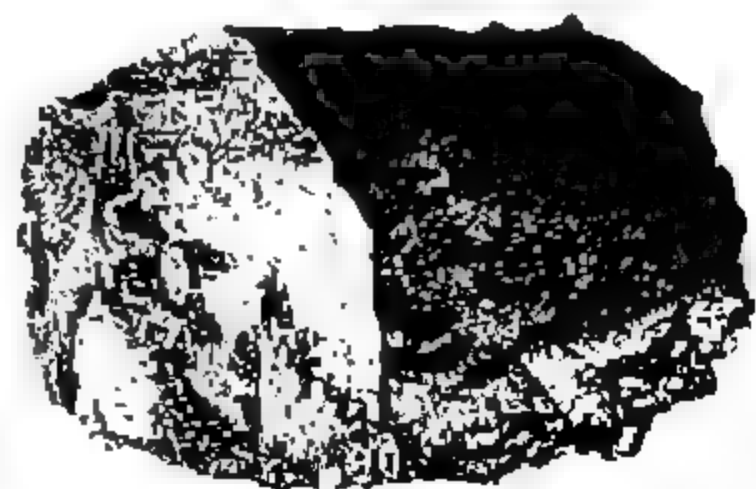
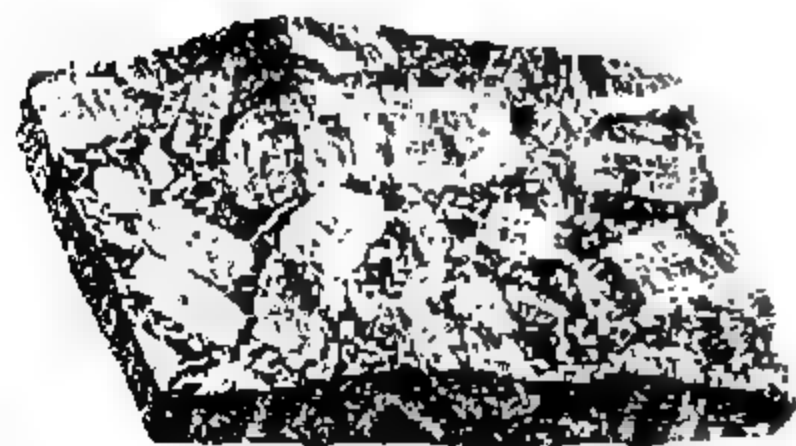
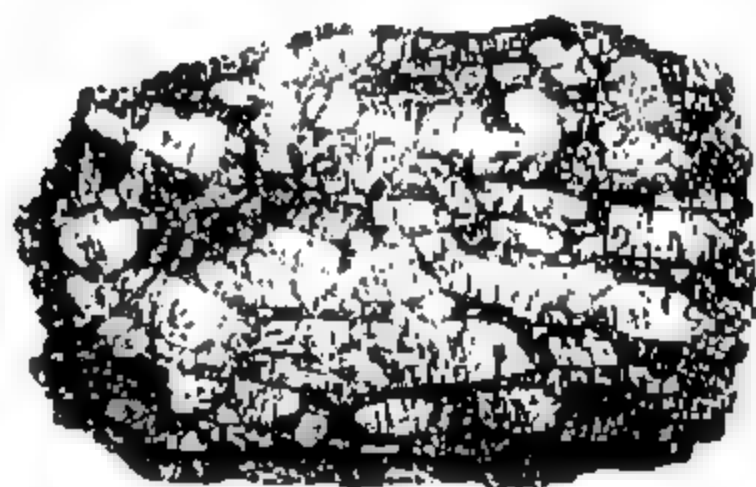
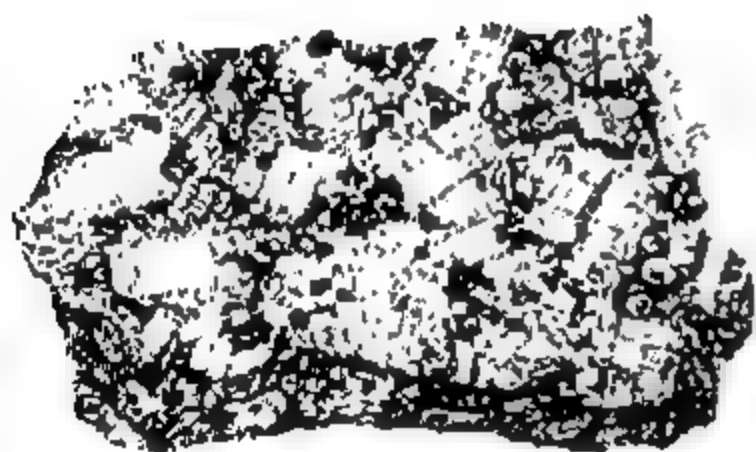
ولم يتسن لسأثيني قط أن يقدم للملاحظات التي كان من الواجب أن تكون مرافقة للوحته. ولا يقتصر الأمر على أنه لم يكن بوسعهم بعد أن يعمل، فلم يكن بالإمكان التحدث إليه عن عمله. وبأساً من القضية، فإن اللجنة المكلفة بالنشر قد قامت، تحت إلحاح من وزير الداخلية، للركيز دو لاكوتيريير، وفي عمل يؤكد ما لها من سلطة، بتكليف عالم الطببيات الشاب، فيكتور لودوان، بالوفاء بمهمة التحديدات والتفسيرات، قدر الإمكان، استثناءً إلى مصادر قانونية وإلى مجرد شهادة اللوحات نفسها (٣١). ويبدو تماماً أن أوليمب لوتيليه نوسانتفيل، الذي صاحب سأثيني في حياته، والذي لم يدخر جهداً في رعايته رعاية مخلصه، قد اضطر إلى الانحياز إلى الفريق الداعي إلى عدم إبلاغه البتة بهذا القرار. والحال أن لودوان سوف يلتزم للعديد من الأخطاء ويهمل أشياء كثيرة أيضاً. أما فيما يتعلق بسأثيني، فإنه لم يصب قط بالعمل التام، بل كان يجد أحياناً سبيلاً إلى القراءة إلى حد ما، وكان بوسعهم أن يدرك ما حدث. وما تزال اعتراضاته وتصحيحاته واضحة، على نحو ما سجلها في نسخته من «وصف مصر» ، والموجودة في المكتبة البلدية لمسقط رأسه، مدينة بروفان (٣٢). ولما كان لم يعد بوسعهم احتمال ضوء النهار، فقد اضطر، على مدار سنوات، وحتى موته في عام ١٨٥١، إلى أن يلف رأسه بحجاب اسود، إذا ما تعين عليه أن

يستريح في غرفة مفتوحة النوافذ. والحال أن المنشور الوحيد الذي بقي عليه الاضطلاع به هو عبارة عن وصف وتصنيف للنباتات، ذات البنية شديدة التميز، والتي نتجت عن الانهيار للتواصل لإمكاناته البصرية (٣٣). وقد عاش حتى آخر أيامه، تقريبا، وفي رأسه نهار دائم.

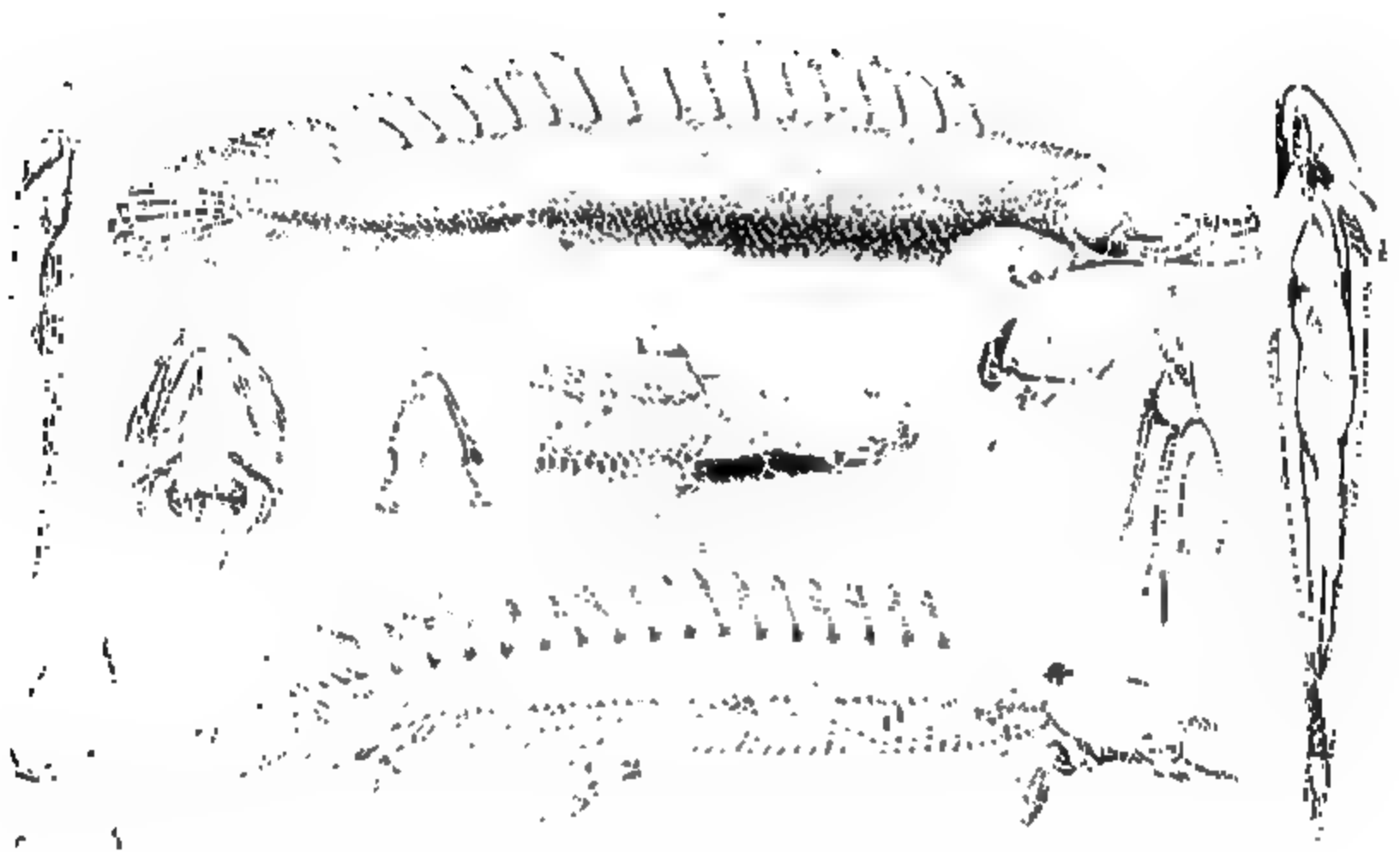
ويظل علم النبات، في صفحات «وصف مصر»، أقل تعاسكا، على للمستوى العلمي، مما هو عليه الحال مع علم الحيوان (٣٤). وسوف يذكر جيفروا، في رسالة مؤرخة في بدايات إقامته، أن علماء النبات سرعان ما أحسوا بخيبة الأمل في أن يجدوا في مصر شيئا لا يعرفون بالفعل في أوروبا (٣٥). وتليل جدا ما نشره عن مصر إيبوليت نيكتو، الذي كان قد مارس وظائف عالم نبات المصري للملكي ومدير بستان المصري الملكي في پورت - لو - برنس (٣٦). أما (الباحث) الشلب كوكيبيو فسوف يهلك من الطاعون، في الأيام الأخيرة للاحتلال. والحال أن مذكرة صغيرة كان قد حررها، مقارنا فيها بين أزهار فرنسا وأزهار مصر، تظهر في «وصف مصر»، من باب تكريمه بعد موته (٣٧). وفيما هذا الاستثناء، فإن كل شيء إنما يرجع إلى تليل. وسوف يحلم ٦٢ لوحة إلى الجزء الثاني مكرر، مصحوبة بـ «شروحها» في المجلد الذي يتضمن النص الذي اتصل به (٣٨). وهو يجري تصنيفا لعدد من النباتات التي عمل على تصويرها، مع إرفاق أسمائها العربية، والتسمية الاصطلاحية التي وضعها لهنّ، إلى جانب مجموعات كبيرة أخرى (٣٩). وقد سلم، علاوة على ذلك، مذكرات حول النباتات البرية وحول النباتات للزراعة. ومذكرة أخرى أيضاً حول شجرة الدوم، كانت موضوع بحث مقتضب كان قد تلاه (٤٠). وكان تليل مجتهدا، دون أن يبدى البتة الحماسة التي أبدىها بلحث مثل جيفروا أو مثل سافيني. وفي عام ١٨٠٢، ذهب إلى أمريكا كنائب النصل، مكلف بالشؤون التجارية في الفصيلة ويلمينجتون في كارولينا الشمالية. وكان قد انهمك في دراسات حول الطب قبل أن يتخبط في حملة مصر، وسوف يستأنف هذه الدراسات، في نيويورك وفي فيلادلفيا، ليصبح أستاذا في الطب في عام ١٨٠٧. وقد جرى استدعاؤه كذلك إلى باريس ليتولى الإشراف على الجزء الخاص بعلم النبات في «وصف مصر». وسوف يقدم، في عام ١٨٠٩، رسالته العلمية النيويوركية (حول الهزال الصندري) أمام كلية الطب، ويتلقى عيانة ويواصل في أن واحد مهنته وإعداد نباتاته المصرية استعجالاً للنشر. وفي عام ١٨١٩، سوف يعين أستاذا كرسي لعلم النبات في كلينول، في مونتبييه، التي أقام فيها حتى موته، في عام ١٨٥٠ (٤١).



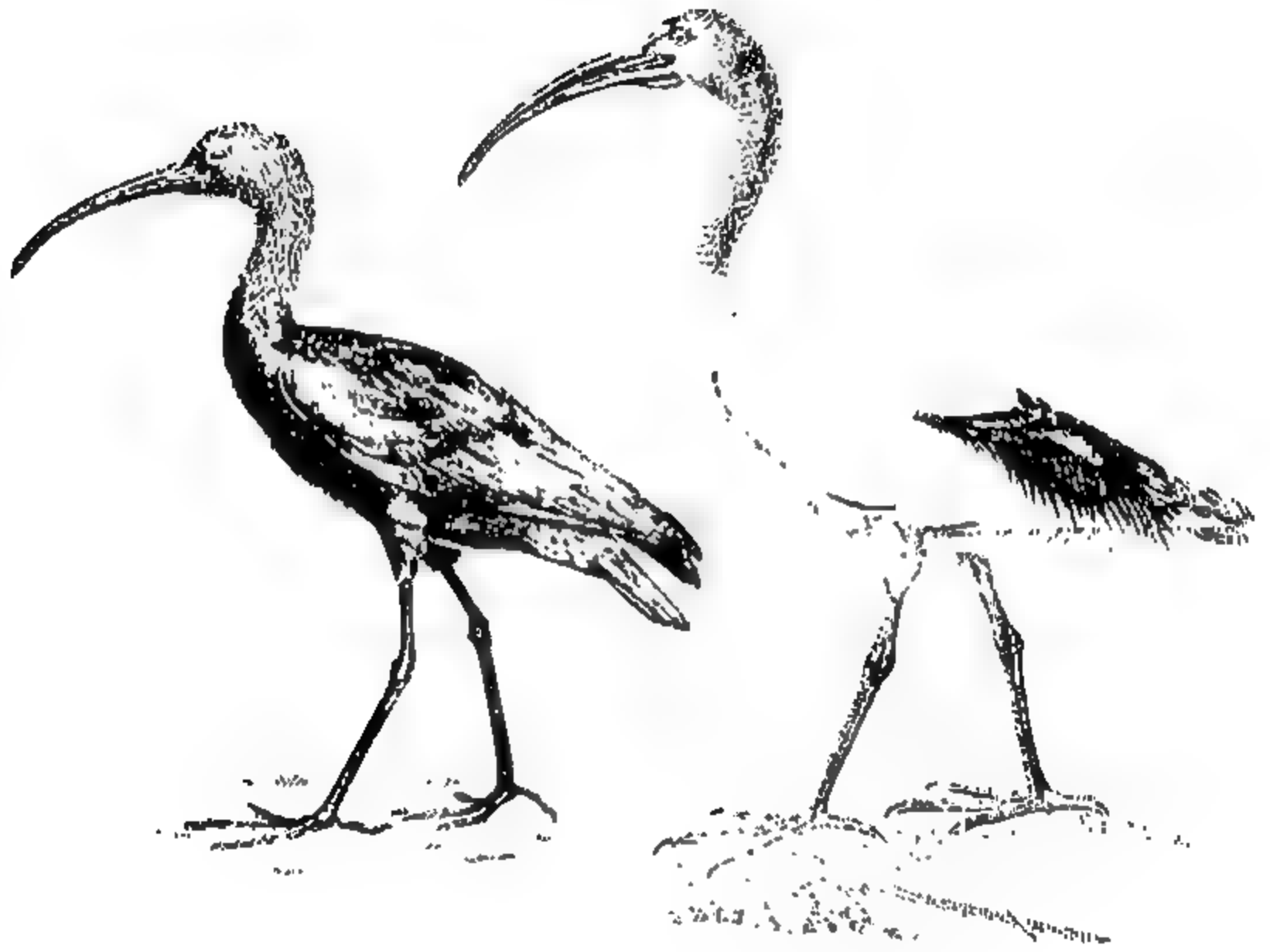
۸۹ - (۱) نمس.

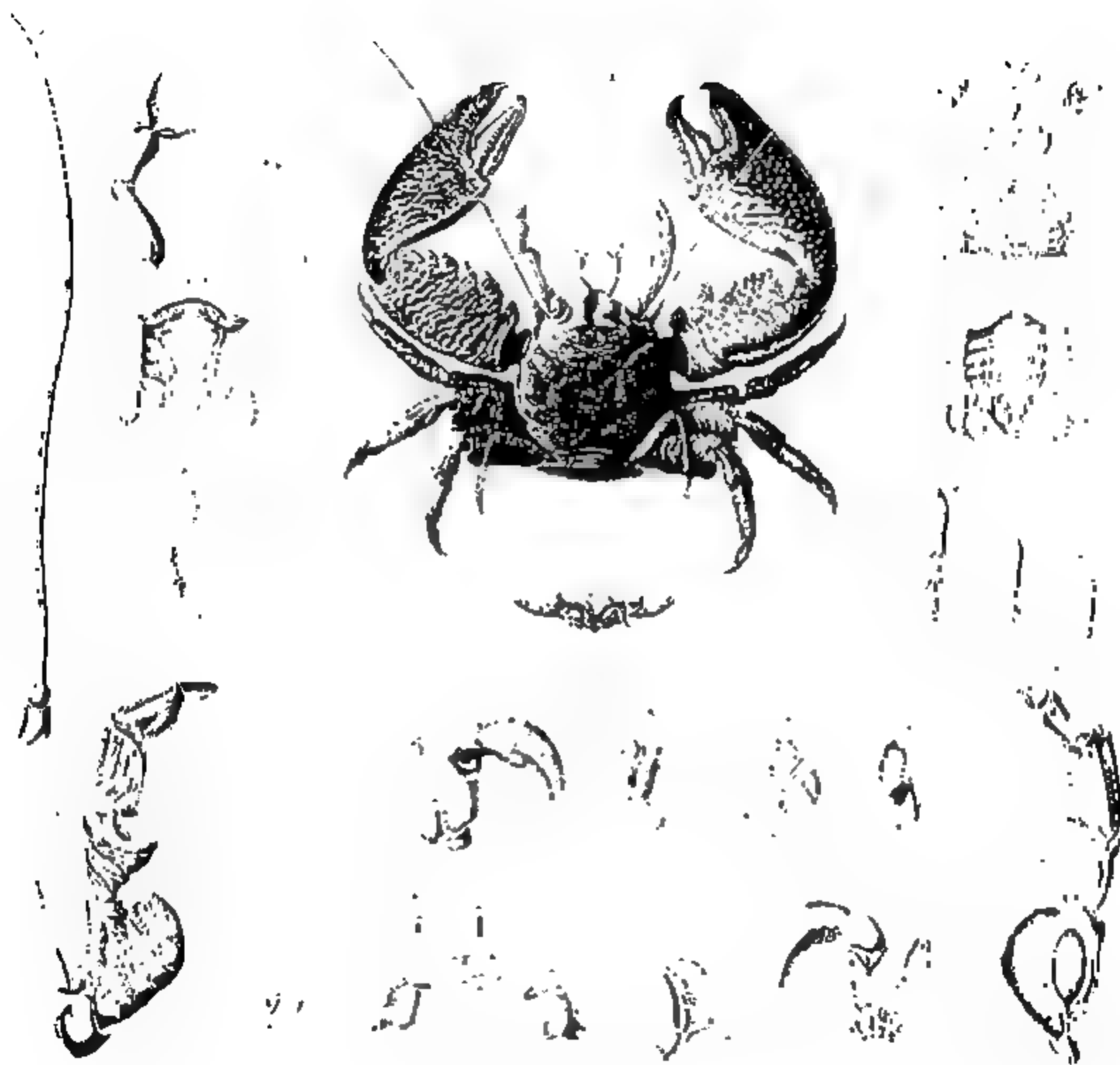


(ب) چرانیت شرقی.



٩٠ - السمكة النهرية الشائعة ببشير.





علم صور الأرض

إن علم المعادن الذي يقدمه «وصف مصر» هو، في المقابل، أكثر إثارة للاهتمام بكثير. فاللوحات الخمس عشرة تتميز بجمال فائق. وهي تتضمن ١١٢ تصويراً، كلها ملونة، تصور الصخور والتحجيرات الرئيسية، التي قويت خلال استكشاف البلد ودراسة آثاره. والحال أن صاحبها، فرانسوا - ميهيل دو روزييه، كان مهندس معادن. وسوف تشكل مساهمته في «وصف مصر»، مساهمته الأولى والأخيرة التي قدمها إلى العلم والبحث. ويبدو تماماً أنه قد تعرض لنسيان كامل، ظالم تماماً بقدر ما أن هذه للمساهمات تعتبر رائعة. لقد كان روزييه، بشكل واضح، رجلاً واسع الاطلاع ومجتهداً في أن واحد، يتميز بثقله وبنوق وبمخيلة غير مكوفة، وإن كان الحديث يدور عن رجل ينتمي إلى جيل لم تكن هذه الخصال شائعة فيه البتة، بين أولئك الذين يحملون إلى فنون الهندس، وقد تمكن من أن يؤمن لنفسه تعاون مهندس آخر للمعادن، هو إيبوليت - فيكتور كوليه - بيكوتيل، إلى جانب تعاون مهندس شاب للبارود، هو جان - نيكولا شامبي.

وفي تلك المرحلة من تطور علم الأرض، كان علم المعادن لا يزال في طريقه إلى الانفصال عن سديم التاريخ الطبيعي، ليتحول إلى جزء لا يتجزأ من علم الجيولوجيا الجديد تماماً. وقد خطط روزييه لوحاته بشكل واضح بحيث تشكل نملاج، موضحاً الخدمة التي يمكن أن يقدمها إلى العلم الجديد رسم الصخور، للنقل تنظيهاً مداسهاً، وكانت فنون الجرافيك، المستخدمة في تصوير أشياء الطبيعة، قد وصلت إلى الكمال، في السنوات الثلاثين السابقة. وقد استفاد روزييه من التباين الواضح، فيما يتعلق بالجمال وبالثقل، بين لوحات واحد مثل هوفون، والتي وصلت إلى الامتياز، في زمانها، والتصويرات الأرتي بكثير، خاصة للزئبقيات، والتي ندين بها إلى رينوتيه الأكبر. وكان لابد أيضاً من أن يتمكن الجيولوجيون من صوغ تصنيف دقيق وتسمية مصطلحية واضحة، تسمح بتعريف الأنواع المعدنية، باستخدام لغة منهجية. وكان يكفي روزييه أن يستشهد بأوصاف مختلفة لصخور مصر - كوصف دو سوسير : «صخرة ناتجة عن خليط من الصوان للشكاف والفيلصبات للصخر والتورمالين الأسود على شكل صفائح صلبة بدرجة متوسطة» - حتى يبين أنه لا رجل العلم ولا الرجل العادي، حين يقرأ هذه السطور، لا يمكن أن يرضى عنها إلا إذا كانت مصحوبة بعينة أو تصوير للمعدن المقصود. وحتى من يمكنه دخول

معمل لعلم المعادن، يمكنه أن يحصل على فوائد معينة من تمثيل تصويرى. ويمكن الاضطلاع بذلك بحيث يبدى السمات المميزة لمعدن محدد، لا مرء فى أن المرء لا يجدها البتة مجتمعة فى لية عينة. وكان بالإمكان، ومن الضرورى من جهة أخرى، توضيح عناصره بالكتابة، لكن الشكل الخاص وحجم كل عنصر من العناصر، والألوان والمواضع الدتية، وخاصة التراكيب، هذه السمات لا يمكن توضيحها إلا عن طريق التصوير الجرافيكى (١٢).

تلك كانت الامتيازات النظرية التى هيمنت على تخطيط ورسم لوحات علم المعادن. والد جرى تنفيذ أغلبها على يدى كلوكيه، استاذ الرسم السابق فى مدرسة المعادن، بينما كانت اللوحات الأخرى من عمل أميدييه وريجنيه. وقد تقاسم ستة نقاشين مهمة إعداد اللوحات، معتمدين فى أغلب الأحيان على تقنيات متنوعة - الرسم بالنقش، الرسم بالنقط، الرسم بواسطة المنحت - لتوضيح أنواع وجه الصخرة الراحنة. وكان الخط جد دقيق بحيث يصعب تصور سحب طباعى ملون عن طريق تحرير لوحات متعاقبة. ومن لم لقد تم اللجوء إلى لوحة واحدة، تصحب فقط اللون المهيمن. وبعد ذلك، كان يجرى إضفاء لمسات جديدة باليد على كل ورقة، كما كانت تتطلب ذلك للتقنية التى أعلى من شأنها ريدوتيه. وفور تجهيز التصاوير، كانت تقدم، ليس البتة وفقاً لنظام تصنيف خاص بعلم المعادن، بل بالأحرى وفقاً لتوزيع الأشياء نفسها، فى مصر، وإجمالاً أن غاية (وصف مصر)، على أية حال، لم تكن تتمثل إلا فى «تقديم نظرة عامة بهذا البلده». وهكذا فإن اللوحة الأولى تبين أنواع الجرانيت، «صوان» الكتاب القدماء، والمحمولة فى منطقة أسوان والشلالات؛ وتبين اللوحة الثانية الرخام السماقى فى الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر؛ وتبين اللوحة الحادية عشرة الأصناف الأحفورية لضفاف البحر الأحمر. ومن جهة أخرى، فى داخل المؤلف، وفى الجزئين الخاصين بالمصور القديمة وبالحالة الحديثة، كما فى الجزء الخاص بالتاريخ الطبعى، فإن مذكرات أخرى مكرسة للطوبوغرافيا أو للزراعة - ويرجع عدد منها إلى روزيير نفسه - قد عالجت من أن لأخر أحوال معادن أقاليم مختلفة، لكن الاستعراض كان بعيداً عن أن يكون تاماً، وقد اضطلع بإسفال الكثير من المعلومات التفصيلية عن الأقاليم للهملة، بحيث تكون «شروح» ملحقة لهذه المذكرات (١٣). وفى عداد هذه المذكرات يبرز، فى مكان مناسب، عرضة الخاص عن «التكوين الطبعى لمصر»، والتى أضاف إليه، من ثم، هذه «الشروح»، على شكل ملحق (١٤).

ويحدد عنوان هذه المذكرة أيضاً : «علاقاته بالمؤسسات القديمة لذلك البلد» . والواقع أن مثل هذا العرض، الذي يتخذ حجم كتاب، للجغرافيا الطبيعية، والذي يرجع إلى مهندس معادن، غير معروف من جهة أخرى، إنما يعتبر جد مميز للمسؤوليات ذات الأهمية البالغة الاتساع التي أخذها المشاركون في «وصف مصر» على عاتقهم. وكان من شأن هذا العمل، لو تولاه آخرون، أو لو جرى الاضطلاع به في سياق أيديولوجي أكثر، أن يبدو عملاً متعجرفاً. ويتمثل الأمر في أن روزييه قد أراد إثبات كيف أن الحضارة تنبع من شروطها للمادية. على أن تحركه يلتزم التزاماً رصيناً بالحقائق. وهو يرى أن مصر، أكثر من أي بلد آخر، تستدعي مثل هذا التحليل وذلك، أولاً، بحكم أهميتها التاريخية، من حيث كونها أصل الحضارة، وثانياً، لأن الظروف الطبيعية، التي تحكم الحياة في المجتمع، إنما تتول هناك بدرجة كبيرة إلى طرف الاعتماد على النيل. فما من بلد آخر يوضح مثل هذا الاعتماد لمجتمع جد متطور، خاضع لمجموعة فريدة من العوامل الطبيعية، التي يمكن دراسة كل منها على حدة. [...] ذلك هو ما أملى بشكل إجباري الأعراف الأولى، وحدد طابعها وذلك أيضاً، على ما يبدو، هو الأقل تغيراً^(١٥). والحال أن الوقوف على الحالة الطبيعية لمصر هو الذي سوف يزيننا علماً، ليس فقط فيما يتعلق بشعوبها الأصلية في العصر القديم، وإنما أيضاً فيما يتعلق بإسراك أعراف الشرق واليونان وشعوب أوروبا القديمة. إن عناصر إنساب كهنتها، ولغونها ونظم مقاييسها وأساليب تقاويمها ومفاهيمها الطبيعية والفلكية، إنما ترجع كلها إلى مصر. وكان روزييه نفسه على علم بما كان معروفاً عن أصول الزودياك وتقسيمات السنة والشهور واليوم والمقاييس ووحدة القياس الخطية ونوات الزوايا. والحال أن بحثه لنظام المصريين للتوى، وهو موضوع يتميز بجدالية شديدة لدى العلماء، والذي سوف يستلقت انتباه مهندسين آخرين من زملائه، إنما يظل بلا مراء للمساهمة الأكثر استحقاقاً للاهتمام في هذه المذكرة الضخمة والتي تعتبر مصدراً غنياً بالإحصاءات للنهرة^(١٦).

الطوبوغرافيا والإحصاء وعلوم الإنسان

في الترتيب الأولي للحدد لكتاب «وصف مصر»، كان من المقرر أن تشكل الطوبوغرافيا القسم الرابع، أو بالأحرى الأول، من العمل، حيث يسبق، إذا ما رسمنا إطاره، العصر القديم والحالة الحديثة والتاريخ الطبيعي^(١٧). لكن هذا الترتيب سوف يتعرض

للاختلال وذلك بسبب ضرورات الأمن العسكري حين جرى إبلاغ اللجنة المكلفة بالعمل، حيث لم يكتب الدوام طويلاً لصالح أمان، بأن الإمبراطور قد أمر بوجود أن «تظل» خريطة مصر «سراً» وأن تكون سرّاً من أسرار الدولة،^(١٨). وفي عام ١٨١٤، يصدر أخيراً التصريح، من جانب عهد عريّة الملكية، بنشر الخريطة الطبوغرافية لمصر ولعدة أجزاء من البلدان المجاورة، على شكل ملحق للعمل فور إنجازه. ولن تظهر إلا في عام ١٨٢٨. ولهذا، فإن للذكرات التي قصد بها أن تشكل ملحقات لها، سوف يجرى توزيعها في مجلدات النص التي تتضمن الأقسام الثلاثة الأخرى، حيث تبرز، في غالبيتها، في نهاية الأمر، في الأجزاء الثلاثة الخاصة بالحالة الحديثة. أما الخريطة نفسها، ومقياس رسمها 1/100 000، فهي مقسمة على ٤٧ ورقة، مرقمة ترتيباً مرتباً، من الجنوب إلى الشمال، حيث تبدأ بالضلالات وتنتهي من خلال التدرج بشكل يشمل النيل وسيناء وسوريا. وفي ارتباط معها، وبشكل يؤدي إلى تحقيق التركيب، تجيء الخريطة الجغرافية للزلفة من ثلاث ورقات، ومقياس رسمها 1/100 000. كما أن «الوحة تجميع»، في ورقة واحدة، تضع كل جزء في مكانه، في مشهد كلي لمصر بأكملها. والواقع أن إجمالي سبعة وثلاثين ورقة من قوة الحملة كانوا قد انتهوا إلى عدد من عمليات قياس، على هذه الدرجة أو تلك من الأهمية، سبعة مهندسين جغرافيين، ثلاثة عشر ضابطاً من ضباط سلاح الهندسة، اثنا عشر مهندساً من مهندسي الجسور والطرق، اثنان من طلبة الهندسة، وثلاثة جنرالات (أندريوس وريتييه وسانسون)^(١٩). ولدى هبوطهم إلى فرنسا، تلقوا كلهم أمراً بأن يعملوا ما لديهم من رسوم كروكية، إلى جانب البيانات التي قاموا بجمعها، إلى مستودع الحرب العام. وقد تم هناك رسم الخرائط ونقش الزنكات، تحت قيادة الكولونيل بيير جاكوتان، من قوة للمهندسين الجغرافيين، والذي كان هو نفسه قد وجه الأعمال في الساحة، في مصر، وسوف يتطلب إعداد الخرائط جهد ٢٢ ثلاثاً.

والحال أن اللوحات تشكل رونقاً رائعاً وإن الأطلس بشكل انتصاراً للمختصين الجغرافية. وعند مقارنته برسم الخرائط المتراثر لذلك، من مصر، فإن المرء يكون محقاً عندما يرى فيه عمل محترفين. والحال أن ما وجه خطوات الحملة هو عبارة عن خريطة جميلة تماماً. وكانت قد رسمت في عام ١٧٦٥ من جانب راسم خرائط غير مهلنى، هو الفارس بانفيل، الذي فعل ذلك من خلال جمع الكتب والخرائط الصالحة. إلا أننا إذا سمعنا إلى تفهيم الخريطة الطبوغرافية لمصر، استناداً إلى القواعد المقررة لرسم الخرائط في عام ١٨٠٠، فإن الحكم سوف يكون مع ذلك بين بين. فالواقع أنها لم تكن، من الناحية الفنية،

على المستوى، ولا يرجع ذلك إلى مجرد أن النموذج المرجعي، خريطة فرنسا التي رسمها كاسيني، كان قد أصبح قريباً من أن يكون بائناً؛ بل إن الظروف نفسها قد حلت دون تطبيق إجراءات ذات دقة مماثلة في الصحاح - وفي المقابل، على مستوى المفاهيم، فإن خريطة مصر، قد مثلت تقدماً على زمانها. فقد ظهرت برسم خرائط للوضوعات الذي سوف يطوره القرن التاسع عشر، استجابة لاحتياجات السلطات العامة، التي لا يمكن أن يلبيها مجرد رفع للقياس الطبيعية - فمن بين هذه الاحتياجات بيان طرق للواصلات، مثلاً، أو للوارد الطبيعية والتوزيعات الممكنة أو التوزيعات الإقليمية للنشاط الاقتصادي.

والحال أن للرجوع، وطبقاً لاعتراف هاكوتان نفسه، في مذكرته، (مذكرة حول تركيب خريطة مصر، كان يتمثل في استخدام الإجراءات العلمية الأكثر دقة للاضطلاع برفع محكم للبلد، ذلك أن الهندسة قد ابتكرت في مصر. وكان لابد من قياس خطوط القياس في الصحاح، وتحديد طول قوس من القواس خط الزوال، وهي عملية لم تستكمل قط، في خطوط العرض التي كان للرد متواجداً فيها، وتكوين سلاسل مثلثات على كل الأرض، على نحو ما فعلت تلك خريطة كاسيني بالنسبة لفرنسا، وتحديد للجمل للصحاح المستتج من الملاحظات الفلكية. ولم يكن بالإمكان تصور شيء على هذه الدرجة من الطموح. وكان لابد لوحداث الطوبوغرافيين أن تطلب إرسال حراسات مسلحة، كما كان ذلك هو الحال بالنسبة للمهمة التي نصبت للمشروع الذي تمتع بتأييد بوناپارت، أي المهمة المحددة للتمثلة في الاضطلاع من جديد بتحديد المسار القديم الذي كان يربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، في المصور القديمة (٥٠). وكان لابد للنتائج من أن تتأثر بضواح معدات التحديد، التي اختفت في أغلبها عند خروج السفينة لوباتريوت، والتي اختفى ما بقي منها خلال ذهاب للقر العام، الذي كان يشغله كلاريفالي، خلال انتفاضة أكتوبر ١٧٩٨. إلا أنه حتى لو كانت هذه المعدات المتقنة متوافرة، لما كان بالإمكان استخدامها لإجراء رفع طوبوغرافي لجمل البلد، فلم يكن هناك توافر لمشغلين مؤهلين لها. ولم يكن هناك وقت. وكل ما كان يمكن تصوره هو الارتكاز إلى الإجراءات الأكثر قصوراً، القياسات أو الرسوم الكروكية للاستطلاع، اعتماداً على مهندسين طوبوغرافيين يعمل كل واحد منهم من جهته.

ويتصل الأمر بمجموعتين من الإجراءات التي لا يستهان بها. وعلى أيدي المطبقين الأكفاء لها، فإنها تنهى بشكل طبيعي متطلبات القضية. ومن مساحة إجمالية قوامها ٣٠١٠ فراسخ مربعة (لأن للهندسين، في مجموعهم، كانوا ما يزالون يذكرون، ويجرون

حساباتهم دائماً، من زاوية الوحدات القديمة، مخصصون النظام المتري للتقارير الرسمية)، كانت مساحة نسبتها نحو ٤٠٪ هكتار وربع بالة المسح وبالمطمار (قياس من ١٠ أمطار) وبمقياس المساحة (مقياس زوايا مدرج، مزود بعضادة (جزء من آلة لمسح الأراضي) متحركة)، في حين أن بقية المساحة قد رفعت بالخطوة، لقياس المساحات، وبالبوصلة، فهما يتعلق بالزوايا. وفي الحالة الثلثية، لرفع منقذ عن طريق التثليث (مسح أرض بالاستعانة بعلم حساب المثلثات تبسيطاً لرسمها)، فإنه يكفي، من الناحية النظرية، تحديد نقطة فلكية واحدة لتحديد إحداثيات (خطوط العرض والطول التي تتعين بواسطتها المواقع على سطح الأرض) الشبكة. وفي الظروف المتواجدة، في مصر، فإن عالم الفلك الأكثر حنكة في اللجنة، وهو نيكولا - أنطوان نويه، قد كثف للملاحظات، لتحديد خطوط عرض وخطوط طول إجمالي ٣٦ موقعاً، لتخفيف الأخطاء للربطة بتحديد عمليات القياس^(٥١).

ومنذ وقت بعيد، فإن نويه، عميد للعهد (للجمع العلمي) المصري، قد ظهر في مظهر كادح، إن لم نقل نابه حمل، علم الفلك، فعمله في مصر، وقد كان عملاً غير عادي، كان مكرساً برمته لتحديد ولتجريب البيانات الفلكية والأرصادية. ويبدو أنه قد تمكن من صون أجهزته، بين أمتعة الشخصية. وهكذا فقد كانت بحوزته باثيرة مضاعفة من طراز بوردوا، قطرها ٢٥ سم، ومنظار أكروماني (منقذ للضوء بلا تحليله) من طراز بولوندي يتميز بانفراج قدره ٣٣سم، موكب على قائم نحاسي، ويرجع باثيرة نصف قطرها ٢٥سم، مركبة على عمود نحاسي أيضاً، ومثبتات من طراز لوي بورتو، رقم ٢٤ في سجلات الصانع، إلى جانب بوصلتين، واحدة لرصد الانحراف وواحدة لرصد الليل. ومن المؤكد أن تحديد خطوط العرض لم يستتبع سوى تدخل العملية البسيطة نسبياً، التي تتمثل في رفع لارتفاع الشمس، في موعد محدد، وبالنسبة لتحديد خطوط الطول، كان لابد من إجراء مقارنة، بالنسبة لتلك الأحداث الفلكية المحددة، بين الساعة التي تحدث فيها في مصر، وساعة ظهورها المتوقع، من زاوية المتوسط الزمني في خط الزوال في باريس. ويلزم تفاوتات المواقيت قياساً للتفاوت في خط الطول، هوامع ساعة لكل ١٥ درجة. وقد استند نويه، من جهة، في أغلب الأحوال، على ملاحظة خسوف توابع كوكب المشتري، ليس دون مراعاة احتجابات كوكب الزهرة وكوكب المشتري بالقمر، وكذلك احتجاب النجم δ من مجموعة برج العقرب. وكان يوصيه الرجوع إلى نسخته من كتاب معرفة الأوقات، إلا أنه لم يتخلف عن التحلق من عدد من تقويماته الفلكية، لدى عودته إلى باريس. وفي أيامنا أيضاً،

يستطيع السائح أن يرى النقوش التي تذكر بتحصيناته، على نحو ما نقشها إزميل الدحات كاستيكس على حجارة معابد فيلة والكرنك. ولابد أنها كانت صحيحة تماماً. لقد حدد موقع الإسكندرية ما إن تمكن من وضع القمم على الأرض، حيث نفذ أيضاً تثلثاً للمدينة والمناطق المجاورة لها، بالاتفاق مع ضابط البحرية فرانسوا - ماري كينو. مثلما فعل بعد ذلك، مع شركاء آخرين، في القاهرة. إلا أنه، قبل وصوله إلى هناك، أدى حدث وقع في رشيد إلى إفساد حركة ميقاته. وقد شاعت الصداقة أن يكون عضو آخر في قرة الحملة، هو عالم الفلك هوزيف بوهان، حائزاً هو الآخر لميقات من طراز بيرتو، رقم ٢٩، والد تركة لثوبه حتى يتسنى له استخدامه. على أن صعوبات درجة الحرارة سوف تؤثر على انتظام حركته، وذلك بشكل يخص خلال حملة سوريا. وسوف يصانف ثوبه رصد مؤشرات المواقف، للرفوعة بعد ذلك، بإحالتها إلى الملاحظات التي اضطلع بها في الإسكندرية، لتحييد التصحيح الذي يجب إدخاله عليها، بما يعوض هذا للصغر الجديد للخطأ، دون أن يتمكن على أية حال من الوصول إلى ذلك، إلا جزئياً. ولدى عودته إلى باريس، وهو بسبيله إلى نقل النتائج التي توصل إليها، اعتمد الإجراء الذي حددته ديونيز نو سيهور بالنسبة لخريطة كاسيني، لحساب الإسقاط على خط الخريطة. وسعيًا إلى ذلك، فإن نقاط تقاطع على فواصل قدرها ٢٠ بقية من قوس الطول أو قوس العرض قد وضعت بشكل تدريجي، وكذلك النقاط الجغرافية الأساسية الست والثلاثين، في نظام الإحداثيات المتعامدة للحد بخط الزوال للار على قمة هرم الجيزة الأكبر، وبخط اللوازي لخط العرض للار على النقطة نفسها. (٥٢)

والحال أن «وصف مصر»، في مذكراته ودراساته المكثفة للطوبوغرافيا، يستجيب بكامل الأشكال لهفته للعلن، على نحو ما يهتبه عنوانه. ويتضح أن للمصطلح إنما يتضمن في أن واحد إعادة تركيب السمات الظاهرة لمكان، ورصد ما يجري في هذا الإطار، لأن الوصف، وهو إلى حد بعيد من عمل مهندسين، إنما يتصل بمجتمع البشر، الذي يعاد وضعه في إطاره الطبيعي. وفي ٢٨ برومير من العام الثامن (١٩ نوفمبر ١٧٩٩)، منذ عودة أعضاء اللجنة للكلفة بدراسة آثار مصر العليا إلى القاهرة، أنشأ كليبر اللجنة للمعلومات حول الحالة الحديثة لمصر، والمؤلفة من أعضاء المعهد. وقد توزعت على عشر لجان فرعية الأعمال التي كان عليها الاضطلاع بها، حيث تألفت اللجنة العاشرة، لجنة «الجغرافيا والهيدرولوجيا»، من جاك - ماري لوپير، رئيس مهندسي الجسور والطرق،

الذى كان قد قاد عمليات رفع ثلاثة القنماء من السويس إلى البحر المتوسط، ومن هير جاكوتان، قائد للمهندسين الجغرافيين. ولا يبدو بشكل واضح ما إذا كان الأمر للصادر بإجراء الاستقصاء يكون جزءاً لا يتجزأ من رفع الخريطة قد صدر بمبادرة منهما أم بمبادرة من لجنة الإشراف. وأياً كان الأمر، فإن جاكوتان وأوبير هما اللذان وضعاً التوجيه الدقيق، الموجه إلى المهندسين الذين اضطلعوا بعمليات القياس.

وينقسم (هذا التوجيه) إلى ثلاثة أجزاء. فقد حدد الجزء الأول الإجراءات التى يجب استغلالها لرفع الخريطة، فى الساحة. وحدد الجزء الثانى متلصور جدول يجب ملؤه، من عشرة خانات. وقد حدد الجدول رقم ترتيب لكل موقع، وقد ورد اسمه بالعربية وبالفرنسية. وكان على المهندس أن يسجل الاسم، من زاوية علم الأصوات لو بالأحرف العربية، بأكبر قدر من الدقة يتيح له إدراكه، وذلك انتظارك لإخضاعه للتصحيح، ما إن يصبح ذلك ممكناً، من جانب شخص قد متخلى فى اللغة العربية. وتتلو تلك الخانات للخصمة لإسراج عند السكان والأسر، وحالتهم، وعملهم ونوع زراعة البلد، وأنواع الأشجار وطبيعة التجارة والصناعة، وأخيراً للملاحظات والإشارات الخاصة. وقد اضيفت إلى تلك كراسة إضافية، مخصصة لوصف جميع الأشياء الجديدة بالملاحظة. أما الجزء الثالث فقد بين للملاحظات، الأكثر عمومية، التى يجب الاضطلاع بها فى الإقليم. ماذا عن وسائل للتواصلات، بركة كانت أم نهيرة ؟ ما هى حالة القنوات ومطافئها ؟ وما هى حالة الجو ومياه الشرب ؟ ماذا عن تربية للماشية، ومدى وفرة الحيوانات البرية والنواحي، مزهجة أو خطيرة ؟ ما الذى يمكن أن يقال عن الأشجار والغابات، والزراعات والأحجار والمناجر والأثرية الصالحة للأعمال الفنية ؟ وكان على للمهندسين أن يتحدثوا قبل كل شيء عن السكان، وعن طابعهم ؛ وأن يوضحوا لماذا يعتبر بلد ملفولاً بالسكان أكثر من بلد آخر؛ وأن يحددوا النبائل البدوية فى الأراضى المجاورة، وعندها، وأماكن تخييمها، وتحركاتها، وكمية الجياد والجمال التى تملكها. ماذا عن تطور الزراعة وكيف يمكن تحسينها ؟ وما هى الفنون والحرف للممارسة فى الإقليم ؟ وهل تتم التجارة بالمقايضة، أم بالنقود، وما هى السلع التى يتم الاتجار فيها ومع من تتم التبادلات ؟

ولم يكن هناك شهر عند قليل من الأقاليم التى توافر فيها ما يكفى من المواد لاستكمال هذا الجدول، فى تمامه، لكن حين مفهوم للشروع لا يصبح مع ذلك أقل استحساناً للاهتمام. وسوف تشهد مسألة اللغة على مدى الجدية ومدى الحماسة للثنين

أهنتهما اللجنة. في حرصها على الاضطلاع بكل شيء وتقديمه بشكل صحيح. ويشد الانتظار فومان من المعلومات، عندما يفتح للره الأطلس. إن الكتابات، التي تبرز على وجه الخرائط، إنما تشير إلى أسماء مواقع ساحات معارك الحملات المتعاقبة، وأسماء المدن والقرى والكفور، حيث تظهر هذه الأسماء بالفرنسية والعربية في آن واحد. وسعيًا إلى تسجيل أسماء للواقع هذه، اعتمدت اللجنة على خيمات نقلش، يدعى ميللر، الذي اضطلع بتعلم الكتابة بالعربية. والحال أن مستشرقًا كان مع العملة، وهو ريمي ريج، سعيًا منه إلى ضمان تعلمه السريع، قد قدم له دروسًا خاصة. ولم يبدأ نقش الأسماء على الزنك إلا بعد أن اجتاز الامتحان الذي أجراه له لانجليه، الأستاذ بكلية اللغات الشرقية، والمستعرب الشهير، سلفستر نوساسي. وعندما تم إنجاز المهمة بسرعة، قام فولني، المعلم بجميع أمور الشرق الأدنى والشرق الأوسط، بزيارة مستودع الحرب. وقد أتى على الخريطة، وعلى رسم الأسماء العربية، لكنه وجد أن النظام المعتمد في التسجيل والنقل إلى القارئ الفرنسي كان معقدًا ومرهقًا للمعينين ومغفلًا إلى التماسك. ويرجع ذلك إلى أنه لم يكن هناك نظام مضبوط ساري المفعول. وقد استغاثت اللجنة من هذا الطرف لكي تستحدث نظامًا كهذا، على شكل تسجيل سوف يظل متصلًا ومفهوماً من جميع للمستشرقين، وساري المفعول في أية لغة أوروبية. وسعيًا إلى هذه الغاية، فإن مدير مستودع الحرب، وهو الجنرال سانشون، قد شكل لجنة خاصة، مؤلفة من باحثين ورجال علم - من بينهم فولني وسلفستر نوساسي ولانجليه ومونج وبيرتولليه ولاكروا، أضيف إليهم عدد من الأعضاء، ناطقون بالعربية كلغة أم. وقد اجتمعوا في أربع جلسات وانطلقوا على التمسك بالنظام الذي اقترحه للدعوى إيلليوس بقطر، المترجمان السابق للجيش. ونجد بيانًا لهذا النظام في ختام مذكرة جاكوتان التي تعالج تركيب الخريطة. والحال أن إجراء جميع التسجيلات من جديد قد تطلب ثمانية عشر شهرًا أخرى من العمل. ويتحمل الأمر بالعمل بحيث تكون الخريطة منسجمة مع النصوص، وبحيث تسهل على الخريطة جميع أسماء الأماكن - أو جميعها تقريبًا - التي تظهر في المذكرات، بحيث يمكن للمرء التعرف عليها بسهولة، بالرغم من أشكال الخط اللطيفة، التي اعتمدها مثل هذا العدد الكبير من الكتاب المختلفين.

وقد استعان الطب، بدوره، بالطوبوغرافيا. ومن المؤكد أن طب القرن الثامن عشر، بشكل عام، قد عبر عما سماه واحد كروزيير بالتكوين الطبيعي لإقليم من الأقاليم،

بإنكباؤه انكباباً خاصاً على الفناخ، والتكوين الفسيولوجي للرجال والنساء والأطفال. وكان
 ليهينيت رئيس لطباء قوة الحملة، بينما كان لارى رئيس جراحيتها. ولما كان الوسط
 المصري قد بدأ بوصفه مثيراً للانتباه، في نظر الأوروبي، على أية حال، فمن الطبيعي تماماً
 أن يهينيت كان يريد، دخولاً إلى الموضوع، رسم «طوبوغرافيا طبيعية وطبية لمصر»،
 سوف يستفيد في إعلانها من تعاون نوبه، فيما يتعلق بالجزء الجغرافي^(٩٣). وعلى مدار
 مدة إقامته، لم يكف عن إبداء اهتمامه بديناميكيا السكان، في مصر، وسوف بعد قوائم
 وفيات المدينة القاهرة، من سنوات الاحتلال الثلاث. ويبدأ كتابه «التاريخ الطبي لجهتي
 الشرق، بمسائل الإدارة، ويعرض تطور السياسة الطبية، في مجال تشهير الرعاية الصحية
 العامة والصحة وتنظيم للمستشفيات. أما لارى فسوف يتناول بالبحث الأمراض خاصة.

وإنها لمدرسة جديدة، في مجال كتابة التاريخ الطبي، تلك التي قلتم تفسيراً ذا طابع
 سياسي، لهذا التحول لنظرة الطبيب، من المريض إلى علم الأمراض. والحال أن المدرسة
 الباريسية هي التي سوف تتحول، وفقاً لهذا للنظرة، إلى مؤسسة تمارس فيها المهنة
 الطبية، للؤلؤة من الآن فصاعداً بهذه الصفة، سلطة على ممثلي الطبقات العاملة المعرضة
 للأمراض، مشيدة بنية معرفتها وسلطانها، على حساب سلامتهم البدنية^(٩٤). ومن المؤكد
 أن لارى كان ينتمي إلى جيل أمثال بيشا وبيديل. على أنه لا يمكن اعتباره منبهاً للأول أو
 للأخير فيما يتعلق بالأوصاف التي ألحقها للأمراض التي صاندها في مصر، كما لا يمكن
 أن نرى في ذلك آثار النظام الجديد الذي جرى تمثيحه في الأوتيل - ديو في باريس،
 والمقابل، إننا ما شئنا الاتجاه إلى مسألة أبعد، لإعادة تحديد لمركز موقع السلطة في بنية
 للمجتمع الفرنسي. أما فيما يتعلق بالأمراض التي قدم وصفاً لها، فإن الأمر يتصل بـ
 «الرمم» (غالباً، نوع من قترالكوما)، والطاعون الببلي، والتيتانوس، والحمى الصفراء،
 وخمور وتضخم الخصيتين، والجذام، وداء الفيل. ولم يكن هناك شك، في تصوره، في أن
 علم أسباب الطاعون والحمى الصفراء والتيتانوس، على أية حال، قد أدخل هاملاً خارجياً،
 سماه ثارة بمصطلح «التيروس» وثارة أخرى بمصطلح «الجرثومة». والحال أن مفهومه
 للمرض لن يجعله يتخلى عن شيء، فيما يتعلق بالنوعية وبالموضوعية، لأي من المفاهيم
 التي سوف تشرق طريقها إلى طب القرن التاسع عشر، وللنبذة من بيئة الممارسة
 الأكاديمية، المؤسسة حديثاً في باريس^(٩٥). ومنذ أن أدى وجوده في مصر إلى إبعاده عن
 كل ذلك، فلا بد من تصور أن المفاهيم التي طبعها لارى، من الممكن أن تكون قد جاءت من
 للملاحظة.

ويضم (وصف مصر) على وجه الإجمال، نحو ١٢٦ ملكة متميزة، ويشكل عدد منها دراسات ذات موضوع واحد، ولا يكاد يوجد بينها غير عدد طفيف من الدراسات ذات الحجم للتواضع. ومن بين هذا الإجمالي، يتصل ٢٠ عنواناً بما جرى العرف على تسميته، منذ تلك اللحظة فصاعداً، بأوكيولوجيا العصور القديمة ويتصل ٢١ عنواناً بالتاريخ الطبيعي، بالمعنى الدقيق للمصطلح. وإذا ما كان على المرء أن يصف المذكرات الخمس والسبعين الباقية، وفقاً لأسلوب مطابق تاريخياً، تبعاً للشكل الذي يمكن به لموضوعها الرئيسي أن يندرج في جدول التخصصات المعاصرة، فإن توزيعها سوف يكون على النحو التالي :

٢	التاريخ	٢٤	الجغرافيا الطبيعية
٤	تاريخ العلوم	٣	الهيروجرافيا
٢	الطب	٢	علم أصول الجو
٢	علم الاجتماع	٢	علم الزراعة
٢	الديموجرافيا	٧	التكنولوجيا
٨	الأنثروبولوجيا - الإثنولوجيا	٤	علم المقاييس والموازن
٢	اللغويات	١	الاقتصاد
٤	علم الموسيقى	٣	العلم السياسي

فهل يمكن القول بأن للعلوم التي تضمها هذه الآلاف من الصفحات تتصل بالعلوم الاجتماعية والإنسانية ؟ كلا على الإطلاق، إذا كان العلم الاجتماعي يتحدد بوصفه معرفة ينتجها رجال علم، جرى تكوينهم لمثل هذا التخصص في العلوم الاجتماعية والإنسانية. ولكن على أي نحو يمكننا أن نصف، هنئذ، المعرفة، الدراية بمجتمع، التي ينتجها عدد مهم من الرجال الذين يحوزون تكويناً علمياً، وتقنياً، والذين يضعون كل طاقاتهم وموهبتهم، في وصفه، وتخليقه ؟ وعندما يبحث الجراح لاري البنية الجسمانية للمصريين، القدماء والمحدثين، هل يقوم بعمل من أعمال الأنثروبولوجيا الجسمانية ؟ وعندما يصف مهندس الجسور والطرق دهبوا - أبيه بدو إقليم القصير، والقبائل العربية التي تسكن الصحراء بوجه عام، هل يتعلق الأمر بالأنثروبولوجيا الثقافية ؟ وعندما يجرى للمهندس الجغرافي إيم جومار دراسة مقارنة لسكان مصر القديمة وسكان مصر الحديثة، هل تعتبر تلك الدراسة دراسة ديموجرافية ؟ وعندما يبحث مهندس الجسور والطرق

ميشيل - أيج لانكريه مسائل الضرائب والإدارة المحلية في السنوات الأخيرة لنظام للماليات، هل يجب على المرء أن يرى في تلك الدراسة دراسة من دراسات العلم السياسي ؟ أو، ربما، دراسة من دراسات التاريخ الإداري ؟ وعندما يكتب رئيس المهندسين جبرار بحثاً حقيقياً من صناعة وزراعة وتجارة مصر كلها، إقليمياً بعد إقليم، ألا يعتبر ذلك بحثاً في الاقتصاد ؟ (٥٦)

من المؤكد أنه توجد بين هذه النصوص بعض النصوص التي كانت من عمل كتاب خبراء بالفعل في الموضوع، فيما يتعلق بالجزء الأدبي من موضوعهم. وهكذا فإن الدراسة التي كتبها الإداري استيف، حول شؤون مصر المالية، إنما تشكل أول دراسة منهجية للإقطاع، في الإمبراطورية العثمانية. والمذكرات الأربع التي، مأخوذة من مجموعها، تعرض مجمل نظرية، وتطبيق، الآلات الموسيقية المصرية، القديمة والحديثة، ترجع إلى الموسيقي فيلوتو، الذي كان قد تعلم العربية وكان من علماء الموسيقى (٥٧). لكن المذكرات قد كتبت، في غالبيتها العظمى، إن لم يكن حرفياً كرد على جدول استفسار طرحه جاكوتان، على مهندسيه الطبوغرافيين، فمن المؤكد على أية حال، إنها قد كتبت في عين روح هذا الجدول. ولا مراء في أن كون الكتاب غرباء، ظلوا خارجيين تجاه ما يعرضونه، يجب أن ينظر إليه على أنه ميزة. لموقفهم يظل موقف المراقب، المنتبه إلى الظواهر. وكان من الطائعات، بالنسبة لهم، أن أي بلد آخر، في العالم كله، لم يكن موضع دراسة جد متصلة كمصر، ولا حتى فرنسا بالتأكيد. لكن الأمر لا يتصل فقط بالثابرة. إن أية مجموعة من الفرنسيين ما كان يوسعها أن تهدي، في دراسة مجتمعها الخاص، مثل هذا التجرد، بالنظر إلى ديناميته السياسية الداخلية. (٥٨)

ولا يمكن القول بأن المعلومات التي جمعت بهذا الشكل قد أثرت تأثيراً مباشراً على قيام العلوم الاجتماعية من حيث هي تخصصات، اللهم إلا فيما يتعلق بالجغرافيا. بالنسبة لهذا التخصص، من المؤكد أن الحالة كانت كذلك. فقد كان استكشاف مصر أشبه بالمدخل، الذي ساعد على اختراق أفريقيا، وكانت الجمعية الجغرافية، المؤسسة في عام ١٨٢١، تضم في عداد مؤسسيها جاكوتان وكوستاز وجومار وفورييه وشابول دو تولفيك (٥٩). إلا أنه، فيما عدا هذا الاستثناء، فإن قيام بوناپارت بإلغاء شعبة العلوم الأدبية والسياسية التي كانت قد تأسست في البداية، خلال التغيير الذي فرضه على المعهد الفرنسي، في عام ١٨٠٢، سوف يكبح، من الناحية الرسمية، تطور العلوم الاجتماعية، ولن

يشهد شيء على الإطلاق، أو تقريباً، على أن المرشحين للقب ممارس العلوم الاجتماعية، الذين تركوا بهذا الشكل لصيرهم الخاص، قد استفادوا من المواد ذات المصدر المصري، على مدار مراحل نموها. وسوف يتبدى أثرها بالأحرى بالنسبة لما يتصل بالمسيرة العملية التالية للمشاركين الذين كانوا قد جمعوها، والذين سوف يبقى عدد معقول منهم في خدمة الدولة. فالأسلوب الذي تحملوا به مسؤولياتهم، إنما ينبع من عين تلك المكونات التي سوف يتمكن واحد كسان سيمون، وكاوجست كوتت من بعده، من استخلاصها من الفلصحات، المثبتة من مبلرية جيلهم - عدد من المهتمين المخول لهم ممارسة السلطة المدنية، إدارة تبحث لحوال الحقائق. والحال أن نوريه قد كتب المقدمة للتاريخية لكتاب اوصف مصر عندما كان مديراً لايزير. وفي هذه الصفحات، يحرص على التذكير بأن سلسلة اللوحات تمثل من ثم الأشياء الموجودة، القابلة لأن تلاحظ وتوصف بدقة، والتي، لهذا السبب، يجب اعتبارها عناصر وطبعية سواء بسواء لدراسة مصر، وكان شابرول دو تولفيك، وهو مهندس للجسور والطرق، في الخامسة والعشرين من العمر في عام ١٧٩٨، قد رسم هناك من هذه اللوحات، بالاشتراك مع زملائه. وسوف يسلم أيضاً بحثاً حول عائلت سكان مصر المحدثين، ويغفل في تعاون مع ميشيل - أنج لانكريه، في كتابة مذكرة حول لداة الأسكنرية^(٦٠). والحال أن شابرول، الذي كان مديراً لنباتة مونتوت من عام ١٨٠٦ إلى عام ١٨١٠، سوف يجمع، بقصد النشر، كل ما اتبعت له معرفته عن الأقاليم الليجورية، التي كان مسؤولاً عنها، في ظل الإمبراطورية العظمى. وقد أصبحت كلمة الإحصاء التي تستعيد عنوان مذكرته، كلمة رائجة، لوصف ما سوف يظل سمة مميزة لإدارة، مفرمة بالإحصاءات وبتعدادات الأشياء، وهذا منذ زمن حكومة الإدارة. (٦١) وسوف ينهي شابرول مسيرته العملية بمنصب مدير العيون. وهناك يبدأ إميلاد طوبوغرافيا للمدينة، على غرار مجموعات الإحصاءات حول مدينة باريس، التي لم تدرس بعد دراسة كافية، والتي مثلت، في مصدر إلهامها نفسه، سجل حالة حديثة لعاصمة لفرنسا. (٦٢)

الحق أنه، حتى بعيداً عن الاجتهاد الضخم في تصنيف البيانات والمعلومات، حول مصر نفسها، حول مصورها القديمة وحالتها الحديثة وإطارها الجغرافي، فإن الجانب الأكثر استحقاقاً للاهتمام في مشاركة العلماء هذه في حملة مصر إنما هو العلاقة التي تبرز بشكل لولي على هذا النحو بين المعرفة المؤسسية على قواعد استنباط والسلطة في

النظام العيسى. والحال أن ما اضطلع به بوناپارت، باحتلاله لمصر، يمكن تماماً اعتباره محاولة لولى لتلك الإمبريالية التى تولد فى القرن التاسع عشر، من حيث إن المشروع كان له مكون ثقافى، تمدنى، كان غائباً حتى ذلك الحين، فى الاستعمار السابق، المنبثق عن الميركانتيلية. وما توصل الفرنسيون إلى تسميته، بعد ذلك، بـ «رسالتهم التمدنية»، إنما يعتمد أصوله من حركة التنوير فى جانب منه ومن أيديولوجية الثورة فى الجانب الآخر. وقد مثلت الدعاية - العملية التقنية للوجه الإجرائى للثقافة، للمعرفة للتمدنية. وقد أبرك بوناپارت كل ذلك، ليس بشكل مجرد، وإنما بشكل حصى، عملى، مثلما فعل ذلك بالنسبة لكل ما بدأ أن له صلة ما بممارسة السلطة. ومن للتأكد أن نهجته الابتكارية هى التى تخيلت حرس فسيحة من فساتل العلم الفرنسى على ضفاف النيل، فى وسط كان لا يزال مختلفاً بشكل جذرى، غير لودوى، خلافاً لما كانت عليه حالة المستعمرات الفرنسية أو البريطانية، فى تلك الأيام. إن الإنجليز، من جهتهم، لم يضطلعوا بشيء من هذا القبيل فى الهند.

وعناصر المعرفة الوضعية التى نهجت عن ذلك ليست عديمة الأهمية - ليزياء الصواب؛ التماثل الذى يسمح بأن تستخدم السلطعونات، فى اغتذائها، أعضاء تخصصها للحيوانات القريبة منها للحركة، أو الذى يسمح بأن تستخدم النقايات، فى الحركة، زوائد لا تستخدم، فى حالات أخرى، إلا فى الاختلاء؛ معدل الوفيات من جراء الطاعون الديبلى، على أنه من غير المحتمل أن العلوم التى نشأ كل منها عن هذه النتائج، كان يمكن أن يتغير تغييراً محسوساً، لو اكتشف هذه النتائج علماء آخرون فى ظروف مختلفة، على أن هذه الظروف سوف تكتسب فى الواقع أهمية، وأهمية حاسمة، بالنسبة لرجال العلم الذين جرى انصافهم (فيها). والحال أن الوضعية الاجتماعية والإدارية والمهنية لعلماء منخرطين بالفعل فى عملهم، من أمثال مونج وبيرتوليه وفورييه وچاكوتان ودينون ولارى وبيجينيت، قد بلغت أوجها، بحكم عين قريهم من هذا المحرك للعملية التاريخية، وهو بوناپارت، لماً ما إذا كانت الحملة قد نالت، فى المقابل، قدراً زائداً من الجهد، من جراء دعوة العلم إلى للمشاركة فيها، فإن ذلك سوف يظل، بلا مرأى، مسألة رأى.

وفيما يتعلق بالعلماء الأقل حنكة، من أمثال جيفروا وسلفيتى ودينيير وماليس وعشرات للهندسين والفنيين الذين اتجهوا إلى عمليات الرافع الطبوغرافية، وإلى رافع الآثار، وإلى تنفيذ رسمها، والذين انكبوا على دراسة البلد، فإنهم قد وجدوا فى مصر لى

الفترة التكوينية من حيواتهم، عندما كانوا لا يزالون، بالنسبة لعدد من بينهم، في مرحلة تلميذ حالي في المرحلة الأساسية الثالثة. والمشكلات التي سوف تؤدي إلى خوضهم لبدلياتهم، على المستوى العلمي، إنما تنشأ من واقع وجودهم في مصر. ومن المؤكد أنه يمكن قول الشيء نفسه عن الظروف التي هيمنت على بدايات غالبية العلماء الشباب. لقد كان عليهم أن يتمكنوا من مواجهة، ومن الرد على كل ما كان من شأنه أن يحدث لهم، على شكل مشكلة يجب حلها. وما ميز التجربة المصرية هو الطابع الاستثنائي للظروف التي تعرضوا لها.

لكن الحوادث التي لا سابق لها قد تحولت إلى مناهات. وهذا التحول يرمز إلى بدايات نشر العلم الأوروبي، وامتداده، وسط مجتمعات أفريقية وآسيا، تحت رعاية الفتح العسكري والسلطة السياسية سواء بعسواء. وبالرغم من صعود النمو السياسي البريطاني، الذي سرعان ما أصبح مهيماً، بعد الفتح قناة السويس - التي أشرف الفرنسيون على شقها - في عام ١٨٦٩، فإن وجوداً فرنسياً دائماً، على المستوى الثقافي والذهلي، هو الذي سوف يصوغ تطور النظام التعليمي، والتنظيم الاقتصادي والإداري، لمصر، وهذا، حتى منتصف هذا القرن الذي مازلنا نحيا فيه.

مواشع الفصل الحاد عشر

- 1 Gassan[?] SQTIRA, « Mémoire sur la peste observée en Égypte pendant les années 7, 8, et 9 », *Mémoires sur l'Égypte* 4 (An XI-1802), p. 156.
- 2 Jean-Édouard GOBY, « Composition de la Commission des Sciences et Arts d'Égypte », *Bulletin de l'Institut d'Égypte* 37, 1^{re} fascicule, 1955-1956, pp. 315-342. M. Goby a publié nombre de mémoires, d'une méticuleuse érudition, portant sur l'histoire de l'expédition. Pour un inventaire détaillé de ces titres, on se reportera à la Bibliographie qui suit mon Introduction historique à l'ouvrage cité *infra*, note 4. Je tiens à signaler ce que je dois à M. Goby, qui a pris la peine de relire une première version de l'essai que je présente ici, et dont la vigilance m'a évité de laisser passer certaines erreurs et inexactitudes. Et je suis également redevable, à cet égard, à M. Jean-François Roberts, qui a su en relever quelques autres, à l'occasion de la présente traduction.
- 3 Les comptes rendus de l'Institut, dont les procès-verbaux furent perdus peu après le retour en France du corps expéditionnaire, ont été restitués par M. Jean-Édouard GOBY, « Premier Institut d'Égypte : Restitution des comptes rendus des séances », *Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* 7 (nouv. série), Institut de France, 1987. Les références renvoyant à ce mémoire se conforment à la numérotation des notices de l'auteur, pour identifier les activités.
- 4 L'ouvrage sera désigné ci-après par l'abréviation *D.E.*, suivie des initiales *A.*, *E.M.*, ou *H.N.* Pour ce qui est de la genèse et de la publication de l'ouvrage, et quant à son importance dans la fondation de l'égyptologie, on se reportera à l'Introduction et aux notes, in Charles C. GILLISPIE et Michel DEWACHTER (éd.), *Monuments de l'Égypte* (Paris, Hazan, 1988), qui reproduit les cinq volumes de planches d'Antiquités. Une deuxième édition de la *D.E.* fut mise en chantier par l'éditeur Panckoucke, avant même que la première n'eût été terminée. La parution s'échelonna de 1820 à 1829. Dans cette édition, les textes sont publiés en 26 volumes in-octavo. Les références du présent essai renvoient toujours à la première édition. Une table des matières détaillée, donnant la localisation des mémoires et explications, avec la concordance des deux éditions, est fournie par Henri MUNIER, *Tables de la Description de l'Égypte* (Le Caire, 1943). Voir encore Michael W. ALBIN, « Napoleon's Description of the Egypt: Problems of Corporate Authorship », *Publishing History* 8, 1980, pp. 65-85. Je remercie M. Robert S. Bianchi, du Brooklyn Museum, de m'avoir indiqué cette référence. [Les planches d'Antiquités sont également reproduites, avec les planches d'Histoire naturelle, et de l'État moderne, in Michel SIDHOM (éd.), *Description de l'Égypte*, t. 1, *Planches*, Paris, Institut d'Orient, 1988 — *N.d.T.*]
- 5 C'est ainsi que, le 11 thermidor an VII (29 juillet 1799), MONGE donna lecture d'une première version d'un mémoire de géométrie infinitésimale, publié par la suite dans le *Journal de l'École polytechnique* (11^e cahier, 1802). C'était là le premier de trois mémoires, réunis par la suite dans son *Application de l'analyse à la géométrie* (1807) ; voir GOBY (1987), n° 313, et René TATON, *L'Œuvre scientifique de Monge* (Paris, Presses universitaires de France, 1951), pp. 221-228. POURIER présenta quatre mémoires traitant de mathématiques pures (GOBY [1987], n° 203 et 221, 263, 274, 533). Le premier, avec l'intitulé de « Notes sur la Mécanique générale », était sans doute issu de l'étude qui avait fait l'objet de sa première publication, un mémoire sur les vitesses virtuelles, paru dans le *Journal de l'École polytechnique* (5^e cahier, 1798), son seul travail publié, en matière de mécanique classique, auquel il avait mis la dernière main peu avant de partir pour l'Égypte. Les titres des trois autres mémoires se rapportent à la théorie des équations, qui devait former le second grand volet de ses recherches mathématiques, le premier volet ayant été constitué par l'investigation de la diffusion de la chaleur. On a souvent dit que ce dernier intérêt était né de son séjour de trois années sous le climat d'Égypte, mais, dans les attestations écrites, rien ne vient soutenir cette hypothèse. Parmi les autres mathématiciens, CORANCEZ, un disciple, somme toute mineur, de Lagrange, devait présenter une communication sur la théorie des équations, ainsi qu'une autre, portant sur la construction du balancier des montres, permettant de minimiser l'effet de la dilatation due à la chaleur (GOBY [1987], n° 171 et 232, 483). MALUS, un élève de Monge, lui-même officier

du génie, et ne faisant pas partie, initialement, de la commission des Sciences et Arts, soumit un mémoire sur les équations différentielles (GOBY [1987], n° 394). Un mémoire sur la lumière, marquant son entrée dans la carrière, dans le domaine où il allait développer l'essentiel de son œuvre, en physique, était destiné à être lu devant l'Institut, mais n'y fut jamais présenté. Arago l'a résumé pour nous (« Malus », in François ARAGO, *Œuvres complètes*, t. III, 1859, pp. 131-134). BERTHOLLET, enfin, devait lire un mémoire sur la formation de l'ammoniac, et un autre sur l'analyse eudiométrique de l'atmosphère. Ce dernier mémoire comparait les proportions d'oxygène et d'azote dans l'atmosphère au Caire et à Paris, mais restait sans autre incidence, pour ce qui est de l'Égypte (GOBY [1987], n° 031, 301). [Pour les autres aspects de l'œuvre accomplie par les scientifiques qui participèrent à l'expédition d'Égypte, ainsi que pour ce qui est du contexte plus général, où s'insèrent leurs travaux, on se reportera à l'ouvrage de Nicole et Jean DROMBAES, *Naissance d'un nouveau pouvoir : Science et savants en France, 1793-1824*, Paris, Payot, 1989 — N.d.T.]

- 6 GOBY (1987), pp. 95-96, dresse l'inventaire des demandes soumises à l'Institut par Bonaparte, portant sur des questions telles que la fabrication de la poudre à canon, l'amélioration des fours pour la cuisson du pain, l'approvisionnement en eau, le remplacement du houblon dans la fabrication de la bière, etc.
- 7 Gaspard MONGE, « Mémoire sur le phénomène d'Optique, connu sous le nom de *Mirage* », *Décade égyptienne* 1, an VII-1799, pp. 37-46 ; repris in *Mémoires sur l'Égypte* 1 (1800), pp. 64-78.
- 8 Claude-Louis BERTHOLLET, « Observations sur le natron », *Mémoires sur l'Égypte* 1, pp. 271-279. Des extraits de ce mémoire furent également publiés in *Annales de Chimie* 33, 1800, pp. 343-348. L'ouvrage de référence sur Berthollet est celui de Michelle SADOUL-GUOML, *Le Chimiste Claude-Louis Berthollet, 1748-1822, sa vie — son œuvre*, Paris, Vrin, 1977.
- 9 GOBY (1987), n° 064, 165, 202.
- 10 Antoine-François ANDRÉOSSY, « Mémoire sur la Vallée des Lacs de Natron, et celle du Fleuve sans eau... », *Décade égyptienne* 2, pp. 93-122.
- 11 Académie des sciences, *Procès-Verbaux* 2 [t. CXIII, an VIII], pp. 18, 20, 21, 38, 39 ; C.-L. BERTHOLLET, « Recherches sur les lois de l'affinité », Institut de France (Sciences mathématiques et physiques), *Mémoires* 3, 1801, pp. 1-96.
- 12 Déodat GRATET DE DOLOMIEU, extrait d'un mémoire rédigé en prison à Mersine, en juillet 1799, in Alfred LACROIX, *Déodat Dolomieu, membre de l'Institut national (1740-1801). Sa vie aventureuse. Sa captivité. Ses œuvres. Sa correspondance* (Paris, Perrin, 1921 : 2 vol.), t. I, p. 3. Pendant son bref séjour en Égypte, Dolomieu devait se montrer plus curieux d'archéologie et d'agronomie, que de minéralogie et de géologie. Les mémoires et rapports qu'il rédigea sont réunis in A. LACROIX et G. DARESSY, « Dolomieu en Égypte, 30 juin 1798-10 mars 1799 », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 3, 1922. Voir encore Tonnes Christian BRUUN-NBERGARD, *Journal du dernier voyage du C^{te} Dolomieu dans les Alpes* (1802).
- 13 Ce sont des considérations d'ordre scientifique, plutôt que d'érudition historique, qui amenèrent Paul PALLARY à reproduire, en 1926, les planches de Mollusques de Savigny, en identifiant les espèces que V. Audouin n'avait su nommer, et en rectifiant ses attributions incorrectes, in « Explications des planches de J.-C. Savigny », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 11, Le Caire, 1926.
- 14 Étienne GEOFFROY SAINT-HILAIRE, « Observations sur l'aile de l'Auruche », *Décade égyptienne* 1, pp. 46-51 ; ID., *Lettres écrites d'Égypte...* (E.-T. HAMY [éd.], Paris, Hachette, 1901), Lettre n° XXIII, 29 vendémiaire an VII (20 octobre 1798), pp. 95-96. Geoffroy devait encore livrer une « Note relative aux appendices des Raies et des Squales », traitant de ces organes sexuels que présentent les mâles, et dont la fonction lui apparut, par l'analogie des structures, de conformation semblable, qu'il avait observées lors de la dissection de reptiles de Haute-Égypte (*Décade égyptienne* 3, pp. 230-233). Il devait par ailleurs solliciter une assistance pour un plan d'expériences visant à déterminer si les sexes coexistent « dans les germes de tous les animaux ». Ce sujet constituerait l'un de ses

thèmes de prédilection, dans les recherches qui occupèrent une période ultérieure de son existence, mais rien n'indique qu'il ait poussé la question plus avant en Égypte. Le Rapport apparaît dans les *Mémoires sur l'Égypte* 3, pp. 385-387.

- 15 Marie-Jules-César LELOGNE DE SAVIGNY, « Description d'une nouvelle espèce de *Nymphaea* », *Décade égyptienne* 1, pp. 69-74 ; repris in *Mémoires sur l'Égypte* 1, pp. 105-112 ; une version modifiée parut sous le titre plus spécifique, « Description du *Nymphaea caerulea* », in *Annales du Muséum d'Histoire naturelle*, an XI-1802, pp. 366-371. La lettre de Geoffroy est celle indiquée *supra*, note 14.
- 16 Pour ce qui est de la récupération des restes de la cargaison, en 1985, voir Patrice BAET, « Opération Patriote : EDF sur les traces de Bonaparte », *L'Histoire*, n° 103, novembre 1987, pp. 88-90.
- 17 Georges CUVIER, Jean-Baptiste DE MONET, chevalier DE LAMARCK, Bernard-Germain-Étienne DE LA VILLE, comte DE LACEPÈDE, « Rapport des professeurs du Muséum, sur les collections d'histoire naturelle rapportées d'Égypte, par E. Geoffroy », *Annales du Muséum d'Histoire naturelle* 1, an XI-1802, pp. 234-241.
- 18 Marie-Jules-César LELOGNE DE SAVIGNY, *Histoire naturelle et mythologique de l'Ibû* (1805). La collection de Savigny, ainsi que cinq volumes des vélins originaux des planches, échut à sa compagne, Olympe Lesellier de Sainteville, qui en fit legs à la ville de Versailles, où ils avaient vécu, et où ils s'étaient éteints, l'un et l'autre. On pouvait encore voir la collection à la bibliothèque de la ville de Versailles, et ce, jusqu'en 1919. Cette année-là, un bibliothécaire indiscret, impatient de faire de la place, et peu soucieux de démarches qui auraient pu en assurer la conservation au Muséum, ou en quelque autre lieu, fit descendre les spécimens à la cave. Et c'est là qu'on les laissait se délabrer, jusqu'à ce que Paul Pallary en identifie les pièces subsistantes, en 1927. Voir P. PALLARY, « Marie Jules-César Savigny. Sa vie et son œuvre », 1^{re} Partie, « La vie de Savigny », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 17, 1931.
- 19 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, *Lettres écrites d'Égypte, op. cit.*, Lettres n° LVIII, 4 vendémiaire an X (26 septembre 1801), et LXII, 29 frimaire an X (19 décembre 1801).
- 20 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, « Histoire naturelle et Description anatomique d'un nouveau genre de poisson du Nil, nommé Polypète », *Annales du Muséum d'Histoire naturelle* 1, 1802, pp. 57-68 ; *Id.*, « Description de l'Achire barbu... », *ibid.*, pp. 152-155 ; *Id.*, « Mémoire sur l'anatomie comparée des organes électriques de la Raie torpille, du Gymnote engourdissant, et du Silure trembleur », *ibid.*, pp. 392-407 ; « Observations anatomiques sur le Crocodile du Nil », *ibid.* 2, 1803, pp. 37-52. Geoffroy écrivait d'abondance. On trouvera une bibliographie complète de ses publications in Théophile CAHN, *La Vie et l'œuvre d'Étienne Geoffroy Saint-Hilaire*, Paris, Presses universitaires de France, 1962.
- 21 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, « Observations sur l'affection mutuelle de quelques animaux, et particulièrement sur les services rendus au Requin par le Pilote », *Annales du Muséum d'Histoire naturelle* 9, 1807, pp. 469-476.
- 22 Le premier tome (1810) confirme ce que l'on s'accorde à considérer comme le chef d'œuvre de Geoffroy. Dans ce volume, il défend la thèse de l'unité de type, en se fondant sur l'examen comparatif de cinq groupes de structures anatomiques chez les Vertébrés de classes et d'ordres fort divers. Le deuxième tome (1822) témoigne d'un déplacement ultérieur de son centre d'intérêt, en ce qu'il s'attache à l'étude des variations au sein même des espèces, en mettant l'accent sur la tératologie, et spécifiquement sur les déformations anatomiques chez l'Homme.
- 23 Toby A. APPEL, *The Cuvier-Geoffroy Debate: French Biology in the Decades before Darwin*, New York, Oxford University Press, 1987.
- 24 Marie-Jules-César LELOGNE DE SAVIGNY, « Système des Oiseaux de l'Égypte et de la Syrie », *D.E., H.N.* (Texte), t. I, 1^{re} partie, 1809, pp. 63-114. Une note liminaire avertit le lecteur de ce que « Ce système des Oiseaux devoit faire partie d'un travail plus considérable. » Cela ne devait jamais être. Il s'agit là de l'un des deux seuls mémoires scientifiques à paraître exclusivement dans la *D.E.*, plutôt que d'y être repris, après une longue existence antérieure, sous forme de publication en

revue. Quant à l'autre mémoire, il s'agit du « Système des Annélides », du même SAVIGNY (voir *infra*, note 29).

- 25 Marie-Jules-César LELOGNE DE SAVIGNY, *Mémoires sur les animaux sans vertèbres* (1816), t. I, pp. III-IV. Pour toutes précisions bibliographiques sur ces mémoires, on se reportera à Henri DAUDIN, *Cuvier et Lamarck : Les classes zoologiques et l'idée de série animale, 1790-1830* (Paris, Alcan, 1926, 2 vol.), pp. 314-315.
- 26 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Observations sur la bouche des Papillons, des Phalènes et des autres Insectes lépidoptères ; suivies de quelques considérations sur la bouche des Diptères, des Hémiptères et des Aptères suceurs », lues à la première classe de l'Institut, le 16 octobre 1814 ; in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres*, op. cit., t. I, pp. 1-37. Le Rapport présenté par LAMARCK figure in Académie des Sciences, *Procès-Verbaux* 5, 24 octobre 1814, pp. 408-411.
- 27 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Observations générales sur la bouche des Arachnides, des Crustacés et des Entomostracés », lues à la première classe de l'Institut, le 19 juin 1815 ; in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres*, op. cit., t. I, pp. 39-117. Voir le Rapport de LAMARCK, CUVIER, et Pierre-André LATREILLE in Académie des Sciences, *Procès-Verbaux* 5, le 3 juillet 1815, pp. 521-526.
- 28 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Observations sur les Alcyons gélatineux à six tentacules simples », lues à la première classe de l'Institut, le 6 février 1815 ; in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres*, op. cit., t. II, pp. 1-23 ; ID., « Observations sur les Alcyons à deux oscules apparents, sur les Bourlilles et sur les Pyrosomes », lues le 1^{er} mai 1815, *ibid.*, pp. 25-66. Voir le Rapport présenté par CUVIER, *ibid.*, pp. 67-81, et in *Procès-Verbaux* 5, le 8 mai 1815, pp. 496-500. Le troisième mémoire de cette série était constitué par les « Observations sur les Ascidies proprement dites, suivies de considérations générales sur la classe des Ascidies », in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres*, op. cit., t. II, pp. 83-132.
- 29 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Tableau systématique des Ascidies, tant simples que composées, mentionnées dans les trois Mémoires suivants ; offrant les caractères des ordres, familles, genres, et l'indication sommaire des espèces », D.E., H.N. (Texte), t. I, 2^e partie, pp. 1-58 ; ID., « Système des Annélides, principalement de celles des côtes de l'Égypte et de la Syrie, offrant les caractères tant distinctifs que naturels des ordres, familles et genres, avec la description des espèces », *ibid.*, 3^e partie, pp. 1-128. Savigny inséra une note, signalant que, après communication de sa monographie à l'Académie des Sciences, il l'avait enrichie de quatre genres nouveaux, et ajouté cinq espèces à cinq autres genres, sans y apporter de modification par ailleurs.
- 30 P.-A. LATREILLE et LAMARCK, « Rapport sur le travail de M. Savigny relatif aux *Annélides* », Académie des Sciences, *Procès-Verbaux* 7, le 6 mars 1820, pp. 22-28.
- 31 Pour les attendus officiels de ces dispositions, on se reportera à la Note introductive à la 4^e partie du premier tome de texte de l'*Histoire naturelle*, qui réunit les « Explications sommaires des planches dont les dessins ont été fournis par M.J.C. Savigny pour l'histoire naturelle de l'ouvrage », dues à Victor AUDOUIN, ainsi qu'un court extrait de l'*Histoire naturelle et mythologique de l'Égypte*.
- 32 Sur la maladie de Savigny, voir Paul PALLARY, « Marie Jules-César Savigny, sa vie et son œuvre », 1^{re} Partie, « La vie de Savigny », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 17 (1937), chapitres XII-XIX ; 2^e Partie, « L'œuvre de Savigny », *ibid.* 20 (1932), pp. 97-107 ; 3^e Partie, « Documents concernant la vie et les œuvres de M.J.-C. Savigny de 1798 à 1845 », *ibid.* 23 (1934), pp. 87-146. PALLARY donne retranscription des notes de SAVIGNY concernant les explications d'AUDOUIN, 2^e Partie, op. cit., pp. 28-38.
- 33 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Remarques sur certains phénomènes dont le principe est dans l'organe de la vue, ou fragments du journal d'un observateur atteint d'une maladie des yeux », *Mémoires de l'Académie royale des sciences de l'Institut de France* 18, 1840, pp. 385-416 ; ID., « Remarques sur les Phosphènes ; Fragments du journal d'un observateur atteint d'une maladie des yeux », Académie des sciences, *Comptes rendus* 7, 1838, pp. 69-75. Selon l'opinion de mes collègues du Wilmer Ophthalmological Institute de l'Université Johns Hopkins, l'affection dont souffrait Savigny n'était pas sise dans les yeux. Ils concluent que les symptômes constituent une « description classique d'épilepsie du lobe temporal ». L'étiologie habituelle, chez l'adulte, se rapporte à l'existence

d'une tumeur, quoiqu'il soit rare qu'un adulte présentant une telle atteinte survive à la manifestation initiale aussi longtemps que le fit Savigny. Une autre éventualité, fort rare, serait un glomé de faible activité. Communication personnelle à l'auteur, du docteur Alfred Sommer, en date du 19 septembre 1988.

- 34 Voir cependant Paul ASCHERSON et Georg SCHWEINFURTH, « Illustration de la flore d'Égypte », *Mémoires présentés à l'Institut égyptien* 2, 1889, pp. 25-260, Avant-propos.
- 35 E. GEOFFROY SAINT HILAIRE, *Lettres écrites d'Égypte*, op. cit., Lettre n° XV, à Antoine-Laurent de Jussieu, 25 thermidor an VI (12 août 1798), p. 67.
- 36 GOBY (1987), p. 107. Je tiens mes informations, quant aux activités antérieures de Nectoux, de M. James E. McClellan III, qui vient d'achever la rédaction d'un ouvrage sur Science et colonialisme à Saint-Domingue. NECTOUX devait cependant publier son bref *Voyage dans la Haute-Égypte au-dessus des cataractes, avec des observations sur les diverses espèces de sté qui sont répandues dans le commerce* (1808), illustré par Redouté.
- 37 Antoine-François-Ernest COQUEBERT DE MONTBRET, « Réflexions sur quelques points de comparaison à établir entre les plantes d'Égypte et celles de France », *D.E., H.N. (Texte)*, t. I, 1^{re} partie, pp. 59-62.
- 38 Alyre RAFFENEAU-DELE, « Flore d'Égypte. Explication des planches », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 145-320.
- 39 Alyre RAFFENEAU-DELE, « *Florae Aegyptiacae illustratio* », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 49-82.
- 40 A. RAFFENEAU-DELE, « Mémoire sur les plantes qui croissent spontanément en Égypte », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 1-10; ID., « Histoire des plantes cultivées en Égypte — 1^{er} Mémoire. Sur les céréales graminées, les fourrages, et les grains de la classe des plantes légumineuses », *ibid.*, pp. 11-24; ID., « Description du Palmier Doum de la haute-Égypte, ou *Cucifera Thebaica* », *ibid.*, t. I, 1^{re} partie, pp. 53-58; voir GOBY (1987), n° 085.
- 41 Sur Delile, voir la notice due à Jean MOTTE, in *Dictionary of Scientific Biography*, vol. IV (1971), pp. 21-22.
- 42 François-Michel DE ROZIÈRE, « Discours sur la représentation des roches de l'Égypte et de l'Arabie par la gravure, et sur son utilité dans les arts et dans la géologie », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 41-48.
- 43 François-Michel DE ROZIÈRE, « Explication des planches de minéralogie », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 683-725.
- 44 F.-M. DE ROZIÈRE, « De la constitution physique de l'Égypte, et de ses rapports avec les anciennes institutions de cette contrée », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 407-682.
- 45 ID., *ibid.*, p. 408.
- 46 ID., *ibid.*, 3^e partie, Section première, pp. 497-534; pour d'autres examens de la question, voir Pierre-Simon GIRARD, « Mémoire sur le Nilomètre de l'île d'Éléphantine et les mesures égyptiennes », *D.E., A., Mémoires*, t. I, pp. 1-48; Edme-François JONARD, « Mémoire sur le système métrique des anciens Égyptiens, contenant des recherches sur leurs connoissances géométriques et sur les mesures des autres peuples de l'antiquité », *ibid.*, pp. 495-802; Samuel BERNARD, « Notice sur les poids Arabes anciens et modernes », *D.E., E.M.*, t. II, 1^{re} partie, pp. 229-248; ID., « Mémoire sur les monnoies d'Égypte », *ibid.*, pp. 321-468.
- 47 Le 18 février 1802, Chaptal, alors ministre de l'Intérieur, convoqua les membres de l'Institut d'Égypte à son bureau, pour procéder à la désignation de la Commission chargée de l'exécution de l'ouvrage. Furent choisis : Monge, Berthollet, Fourier, Costaz, Desgenettes et Conté. Voir Pierre JACOTIN, « Mémoire sur la construction de la carte d'Égypte », *D.E., E.M.*, t. II, 2^e partie, pp. 1-118; pp. 18-19.
- 48 D'HUNEBOURG, pour le ministre de la Guerre, à Berthollet, en 1803 (mais sans date), Bibliothèque nationale NAFr. 3577, Registre 2, où se trouvent réunis les procès-verbaux de la Commission chargée de la D.E.

- 49 Un mémoire manuscrit, dû à P. JACOTIN, donne une liste différente, et plus complète, s'écartant de celle que publie l'Atlas, à la page recensant les collaborateurs : « Exposé des moyens employés pour parvenir à la confection de la Carte de l'Égypte », Bibliothèque nationale, département des Cartes et Plans, GeDD. 2564. Il s'agit, manifestement, d'une première mouture de certains passages du mémoire cité *supra*, note 47.
- 50 Jacques-Marie LE PÈRE, « Mémoire sur la communication de la mer des Indes à la Méditerranée par la mer Rouge et l'isthme de Soueys », *D.E., E.M.*, t. I, pp. 21-186. Sur cette équipée, voir C.C. GILLISSE, *Monuments de l'Égypte*, *op. cit.*, pp. 10-12 ; voir encore Jean-Édouard GOBY, « Histoire des nivellements de l'isthme de Suez », *Bulletin de la Société d'études historiques et géographiques de l'isthme de Suez* 4, 1951-1952, pp. 99-170.
- 51 L'exposé que donne JACOTIN de ces deux procédés, *loc. cit.* (*supra*, note 47), pp. 12-13, est d'une clarté admirable, et pourrait bien figurer, tel quel, dans un traité de topographie moderne. Chaque secteur de territoire, imparti à un ingénieur, était délimité de manière à y faire entrer au moins deux des points de référence de Nouet, en en plaçant un à chaque extrémité, où le secteur adjacent venait s'abouter, en ménageant une marge de recouvrement. Ils permettaient ainsi de contrôler l'exactitude des cheminements effectués dans chaque secteur, tout en les raccordant aux suivants.
- 52 P. JACOTIN, « Mémoire sur la construction de la carte d'Égypte », *loc. cit.*, pp. 29-30 ; Nicolas-Antoine NOUET, « Observations astronomiques faites en Égypte pendant les années VI, VII et VIII [1798, 1799 et 1800] », *D.E., E.M.*, t. I, pp. 1-20.
- 53 René-Nicolas DUFRICHE DES GENETTES, alias DIEGENETTES, « Lettre circulaire... aux Médecins de l'Armée d'Orient, sur un plan propre à rédiger la Topographie physique et médicale de l'Égypte », 25 thermidor an VI (12 août 1798), *Décade égyptienne* 1, pp. 29-33. Voir GOBY (1987), p. 99.
- 54 Telle est la thèse que défendent ceux qui se réclament de Michel FOUCAULT, *Naissance de la clinique, une archéologie du regard médical* (Presses universitaires de France, Paris, 1963).
- 55 Jean-Dominique LARREY, « Mémoires et Observations sur plusieurs maladies qui ont affecté les troupes de l'armée Française pendant l'expédition d'Égypte et de Syrie, et qui sont endémiques dans ces deux contrées », *D.E., E.M.*, t. I, pp. 417-524.
- 56 Les titres de ces mémoires étant parfois fort longs, peut-être suffira-t-il d'en donner les localisations : Jean-Dominique LARREY, *D.E., E.M.*, t. II, 1^{re} partie, pp. 1-6 ; Jean-Marie-Joseph-Aimé DUBOIS, dit DUBOIS-AYMÉ, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 193-202 ; *Id.*, *ibid.*, pp. 577-606 ; Edme-François JOMARD, *D.E., A., Mémoires*, t. II, pp. 80-142 ; Michel-Ange LANCRET, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 233-260 ; Pierre-Simon GIRARD, *D.E., E.M.*, t. II, 1^{re} partie, pp. 491-714.
- 57 Martin-Roch-Xavier ESTÈVE, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 299-398 ; Guillaume-André VILLOTEAU, *D.E., A., Mémoires*, t. I, pp. 181-206 ; *Id.*, *ibid.*, pp. 357-426 ; *Id.*, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 607-846 ; *ibid.*, pp. 1012-1016.
- 58 L'examen le plus intéressant de cet aspect de la question, est apporté par une thèse de 3^e cycle, inédite, présentée par Stéphane CALLENS, « Étude sur la Description de l'Égypte, Histoire d'une enquête (1798-1830) », en septembre 1985. Je tiens à exprimer ma reconnaissance à M. Callens, d'avoir bien voulu me laisser un exemplaire de son étude remarquable.
- 59 Alfred TIERRO, *La Société de Géographie, 1821-1946* (Centre de recherches d'Histoire et de Philologie, Hautes Études médiévales et modernes 5, n° 52, Paris, Librairie Champion, 1983). L'auteur de cette thèse reste sceptique, quant aux prétentions de la Société. À mon sens, son *Bulletin* semble bien montrer une discipline en cours de constitution.
- 60 Gilbert-Joseph-Gaspard-Antonin CHABROL DE VOLVIC, *D.E., E.M.*, t. II, 2^e partie, pp. 361-526 ; GOBY (1987), n° 403 ; CHABROL DE VOLVIC et M.-A. LANCRET, *D.E., E.M.*, t. II, 1^{re} partie, pp. 185-194.
- 61 G.-J.-G. CHABROL DE VOLVIC, *Statistique des provinces de Savone, d'Oneglia, d'Acqui, et de parties de la province de Mondovì, formant l'ancien département de Montenotte* (1824 : 2 vol.). L'histoire de la statistique, en son état pré-mathématique, commence à retenir l'attention des chercheurs, tels Jean-Claude PERRON, *L'Âge d'or de la statistique régionale française (An IV-1804)*, Paris, Société des études robespierristes, 1977 ; Liliane VIRIÉ et al., *La Statistique en France à l'époque*

napoléonienne, Paris, École des Hautes Études en sciences sociales, 1982; et Marie-Noëlle BOURGUET, *Déchiffrer la France : la statistique départementale à l'époque napoléonienne*, Paris, Éditions des archives contemporaines, 1988.

- 62 *Recherches statistiques sur la Ville de Paris et le département de la Seine* (4 vol. : 1821, 1823, 1826, 1829). Fourier avait reçu la charge, à titre essentiellement honoraire, de directeur du Bureau de la Statistique, qui réunissait les données. Sur ce programme, on pourra se reporter au compte rendu, fort intéressant, publié par Edme JOMARD, in *Bulletin de la Société de Géographie*, 1^{re} série, 2 (1824), pp. 305-322 ; ainsi que celui qu'il publia in *Revue encyclopédique* 21, 2^e série, t. I, janvier 1824.

ثبت القرائن والأشكال ومساعدتها

- ١ - مسألة هليوبوليس. ١٠
- ٢ - سلطات القصر والمعايد. ١١
- ٣ - الجذاج للمصري كما رسمه كلبيد، الجدول فيما بعد. ١٢
 - (أ) مشهد جللى.
 - (ب) الواجهة.
- ٤ - (أ) معبد امينوايس الثالث ذو الأمتة فى الستين. ١٣
 - (ب) موكب.
- ٥ - «مجمع الآلهة للجمعين فى فناء معبد مدينة - هبول - إملاء هرائع الحكمة على الملك. ١٤
- ٦ - (أ) بورتوللى. ١٥
 - (ب) نولوميو.
 - (ج) استقبال بوناهلرت فى المعبد.
- ٧ - (أ) كافاريللى. ١٦
 - (ب) بلذك.
 - (ج) هومار.
- ٨ - مشاهد من ملطه. ١٧
- ٩ - خريطة مصر الوسطى والعليا. ٦٠
- ١٠ - خريطة ايلتا ومصر السفلى. ٦١
- ١١ - فلسطين وسوريا. ٦١
- ١٢ - للملوك. ١٠١
- ١٣ - ثياب المصريين. ١٠٢
- ١٤ - زواج مصرى. ١٠٣
- ١٥ - رى الأراهمى. ١٠٤

١٠٥	١٢ - دولاپ الأرمية لوالدة كرى.
١٠٦	١٤ - نحلسون وحلانون.
١٠٧	١٥ - مشهد بلخلى لقصير قاسم بك.
١٠٨	١٦ - شخصيتان مصريتان : القاصو (إلى اليسار) ، عالم الفلك (إلى اليمين).
١٥٨	١٧ - مراد بك.
١٥٩	١٨ - شيخ من القاهرة (إلى اليسار) ، ترجمان مراد بك (إلى اليمين).
١٦٠	١٩ - بَحر من الإسكندرية.
١٦١	٢٠ - بونهارت يمدح سولاً للقائد العسكري للإسكندرية.
١٦٢	٢١ - (أ) عرب بلخية وشهد.
	(ب) طبولان بحكومة الإسكندرية (إلى اليسار) ، رأس عربى (إلى الوسط) ، الشريف كريم ، حاكم الإسكندرية (إلى اليمين).
١٦٣	٢٢ - مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى.
١٦٤	٢٣ - شهد.
١٦٥	٢٤ - خريطة معركة أبو قير .
٢٢١	٢٥ - حريق السيلية.
٢٢٢	٢٦ - ملأخذ الماء من قناة القاهرة.
٢٢٣	٢٧ - (أ) الرشاح الثلاثى الألوان يهديه بونهارت إلى أحد بكوات مصر.
	(ب) بونهارت يشهد عيد مواد الذهبى محمد.
٢٢٤	٢٨ - مشاهد من مصر السفلى.
٢٢٥	٢٩ - مشاهد من مصر السفلى.
٢٢٦	٣٠ - ثلاث قرى على فرع ممياط.
٢٢٧	٣١ - (أ) بورتريه سليم الثالث.
	(ب) قصر الأبراج السبعة.
٢٢٨	٣٢ - المعهد (للجمع العلمى) المصرى.
٢٨٤	٣٣ - الشيخ الهرقلوى.
٢٨٥	٣٤ - الشيخ المهدي.

٢٨٦	٢٥ - الحصن البكري.
٢٨٧	٢٦ - الحصن الكريمي.
٢٨٨	٢٧ - معركة سيمنت.
٢٨٩	٢٨ - مبداء الإسكندرية الجديد.
٢٩٠	٢٩ - (أ) نيزه في لسيوط. (ب) الديوان العسكري.
٢٩١	٣٠ - (أ) و(ب) رسلان كاريكالديريان انجليزيان.
٣٠١	٣١ - معركة الأمام.
٣٥٢	٣٢ - بونابارت يغزو عن مكرمى القاهرة.
٣٥٣	٣٣ - بونابارت يزور هيون موسى.
٣٥٤	٣٤ - معركة جبل طهرو.
٣٥٥	٣٥ - بونابارت أمام أسوار عكا.
٣٥٦	٣٦ - خريطة عكا.
٣٥٧	٣٧ - (أ) حوطة بونابارت إلى القاهرة. (ب) الانسحاب من سوريا.
٣٥٨	٣٨ - القصير.
٤٠٠	٣٩ - شغل الكرك الضخم.
٤٠١	٤٠ - السيد مصطفى بلان.
٤٠٢	٤١ - (أ) بوسيلج. (ب) دقلان. (ج) سيفنى سميت. (د) كليبر.
٤٠٣	٤٢ - قلعة القاهرة.
٤٠٤	٤٣ - خريطة عامة لبرلاق والقاهرة وجزيرة الروضة والقاهرة القديمة والجديدة.
٤٠٥	٤٤ - معركة هليوبوليس.
٤٠٦	٤٥ - اعدام سليمان الحلبي على الخازنق.

- ٥٦ - مينو. ١٠٧
- ٥٧ - (أ) لاسكاريس. ١٧١
- (ب) رعيان القبط.
- ٥٨ - البرابرة للمسماة بيلوب الجبل. ١٧٢
- ٥٩ - قلعة قرب جيل الشرق. ١٧٣
- (أ) رينييه.
- (ب) بلانس.
- (ج) فريان.
- (د) لانوس.
- ٦٠ - مسجد قديم قرب باب النصر (مسجد الحاكم بأمر الله الفاطمي). ١٧٤
- ٦١ - سيني سميت والجزار في مكة. ١٧٥
- ٦٢ - مودا في أبو قير. ١٧٦
- ٦٣ - كليبر، القائد العام. ١٧٧
- ٦٤ - معركة كانوب. ١٧٨
- ٦٥ - سيني سميت عند الانزال قرب الإسكندرية. ٥٣٦
- ٦٦ - (أ) محمد علي، والي مصر. ٥٣٧
- (ب) جنديان من فيلق راكبي الجمال.
- ٦٧ - واجهة معبد نذره. استرجاع فيلطان ديون. ٥٣٨
- ٦٨ - واجهة معبد نذره. استرجاع برلوا وديفيليه. ٥٣٩
- ٦٩ - لرسم المواجه لعنوان كتاب وصف مصر. ٥٤٠
- ٧٠ - الكرنك، برابرة إيفيرجيت ومعبد خونسو كما صورهما ديون. ٥٤١
- ٧١ - الكرنك. برابرة إيفيرجيت ومعبد خونسو كما صورهما سيسيل. ٥٤٢
- ٧٢ - واجهة معبد نذره. ٥٤٣
- (أ) رسم سيسيل في عام ١٧٩٩.
- (ب) رسم لوكلس في عام ١٦٩٩.
- ٧٣ - فويللا نذره. ٥٨٦

٥٨٧ ٧٤ - معبد أرمنت.

(أ) رسم توكياتو.

(ب) رسم لوكلس.

٥٨٨ ٧٥ - مخطط ومقطع ورفح معبد أرمنت.

٥٨٩ ٧٦ - نقش معبد خونسو.

٥٩٠ ٧٧ - معبد قار الكبير. رسم حالة الأماكن.

٥٩١ ٧٨ - معبد قار الكبير.

٥٩٢ ٧٩ - الملك محمولاً على كرسيه.

٥٩٣ ٨٠ - الملك محمولاً على كرسيه. استخراج حديث.

٦٦٤ ٨١ - القاعة ذات الأصدة بقصر الكرنك.

٦٦٥ ٨٢ - الوجه الجنوبي للذبح الزويف الجرانيتي.

٦٦٦ ٨٣ - أبو هول كبشى بالكرنك.

٦٦٧ ٨٤ - قصر الجريت.

٦٦٨ ٨٥ - معبد إسنا.

٦٦٩ ٨٦ - بوابة النصر الجنوبية بقصر الكرنك.

٦٧٠ ٨٧ - عيد في بخره.

٦٧١ ٨٨ - (أ) ماريوكرات، إله طيبة.

(ب) لحد المهنوت بحارب فرعون.

(ج) ملاكه.

٧٢٠ ٨٩ - (أ) دمس.

(ب) جرانيت شوقي.

٧٢١ ٩٠ - السمكة النهرية الفخمية بيهير.

٧٢٢ ٩١ - إيهيس الأبرض أو اللقنس، إيهيس الأسود.

٧٢٣ ٩٢ - سلطعونيات.

المحتويات

٥	إلى القارئ
٦	شكرواقتصر
٧	تمهيد

الفصل الأول - الحملة

١١	جيوپوليتيكا التوحيد
١١	العالم القديم
١١	الإمبراطورية العثمانية
١٤	فرنسا والشرق
١٧	مفهوم جديد : الحضارة
٢٠	بوتلهارت والثورة والشرق
٢٠	إخفاي الجمهورية
٢٢	بوتلهارت والشرق
٢٤	الاستعمار والثورة
٢٦	مفارقة بوتلهارت
٢٦	الانزعااات الرئيسية
٢٧	تاليران
٢٧	القرار
٢٩	بوتلهارت في باريس
٢٩	الجيش وحكومة الإدارة
٣١	إنجلترا ومصر
٣٣	القرار
٣٥	تنظيم الحملة
٣٦	الجيش

٢٨	بوتليارت والعلما
٢٩	القطيعات
٤٩	بوتليارت في طوائف
٥٠	الأسطول
٥٢	لجتهاز البحر المتوسط
٥٢	مالطه
٥٥	الرحلة البحرية
٥٦	نيلسون
٥٧	بيان بوتليارت إلى الجيش
٦٢	حواشي الفصل الأول

٧٢	الفصل الثالث - السلطة والمجتمع في مصر العثمانية
٧٢	الإمبراطورية العثمانية ومصر
٧٢	الفتح العثماني
٧٤	تجارة مصر
٧٦	التظيم السياسي
٧٧	المعاليك
٧٩	المصريين
٨٠	تحرلات التوزيع السليح عفر والتامن عفر
٨٠	التحرلات السياسية
٨٢	الاقتصاد
٨٤	الأرياف
٨٧	الاستثمار الريفي والرعي الجديد
٨٩	على بك ومصر وإنشاء الدولة العنصرية الجديدة
٨٩	على بك
٩٠	إخماد المنازعات في مصر
٩٢	بيان على بك

٩٣	خامس العمر
٩٤	القتل
٩٥	التصور الأدبي
٩٦	أبو العصب والحكم الإسلامي الملائح
٩٦	للخلافة
٩٨	توطيد سلطة أبو العصب
٩٨	العلماء
١٠٠	حملة سوريا الثانية
١١٠	هوية العثمانيين ومشكلة المجتمع الفنى الإسلامى
١١٠	إبراهيم ومراء
١١١	زمن الفلك
١١٢	مجالس
١١٣	الهاب العالي ومصر
١١٤	إخفاء الشريعة الإسلامية على التبريد
١١٦	القتل العظمى
١١٧	هوية إبراهيم ومراء
١١٨	سياسة مراد بك العسكرية
١١٩	التصديع
١١٩	لزمة نهاية القرن
١٢١	حوافى الفصل الثلى

الفصل الثالث - الانتصارات والانتكاسات

١٢١	الاستيلاء على الاسكندرية
١٢١	البیان المرجع إلى العصب المصوى
١٢٣	الإنزال فى الإسكندرية
١٢٥	سياسة الأحرار
١٢٧	رمان برنيلاره
١٢٩	الزحف على القاهرة
١٢٩	رد فعل الحائيك
١٤١	مظهر

١٤٢	وفيد
١٤٢	حظ للجيش
١٤٤	للعاليه والصي
١٤٥	فيراخيه
١٤٧	سلم الجيش
١٤٨	للفراصيه والعاليه
١٤٨	الامرام
١٥٠	استسلام القامره
١٥٢	القامره
١٥٢	بونتاياره في القامره
١٥٢	السياسة الإسلامية
١٥٥	إنشاء إدارة جديدة
١٥٧	الاتر القطي للبيان
١٦٨	إخراج إبراهيم بك من سلحة النزاع
١٧١	الإسكندرية وبغيد وأبناير
١٧١	كثير في الإسكندرية
١٧٢	ميدو في وفيد
١٧٥	مشكلة الأسطول
١٧٧	معركة أبرقير البحرية
١٨٠	إعادة تنظيم الانتشار الفرنسي
١٨١	رحيل الإنجليز
١٨٢	حراسي الفصل الثالث

الفصل الرابع - التهلون والمقاومة

١٩٥	محلولة الإغراء
١٩٥	حظ بونتاياره
١٩٦	عهد وفاة النيل
١٩٧	مولد النبي
١٩٨	إنشاء المعهد المصري

١٩٩	لوكربيما نو ليجيت
٢٠٠	بونابارت والأحيان
٢٠٢	الإسلام والخلافة الثلاثية الألوان
٢٠٣	بعثة بولوازان
٢٠٥	حصار مصر وتزايد الضغط الفرنسي
٢٠٦	النزاح السكان
٢٠٧	المقاربة
٢٠٨	النظام العلم والصحة والضيابط الجيوى
٢٠٩	عيد الجمهورية
٢١٠	نوايا بونابارت
٢١١	فتح النشأ
٢١١	الانقصار الارضى
٢١٢	المصورة
٢١٣	بمياط
٢١٣	الهدى
٢١٥	مشايخ البلد
٢١٦	حسن طوير
٢١٨	الشرقية
٢٢٠	الإدارة الجديدة
٢٣٠	الإسكترية ورغيد
٢٣٢	عقد الديوان العمومى
٢٣٣	نخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحرب النعالية
٢٣٣	سليم الثالث
٢٣٥	الإصلاحات والثورة الفرنسية
٢٣٧	القطيعة مع فرنسا
٢٣٨	الديان العثمانى
٢٣٩	التحالف مع روسيا وإنجلترا

٢٤٠ - حكومة الإدارة وحلّة مصر

٢٤٢ - النجاة العثمانية

٢٤٥ - حواشي الفصل الرابع

٢٦١ الفصل الخامس - توصية الوجود الفرنسي

٢٦١ - القواعد والتطبيق

٢٦١ - في القوانين

٢٦٢ - اجتماع النيران

٢٦٥ - القواعد

٢٦٧ - النزاع سكان القاهرة

٢٦٨ - اللثة

٢٦٩ - القمع

٢٧١ - القواعد

٢٧٣ - رد الطلب في الاتهام

٢٧٤ - الإنجليز قبالة الإسكندرية

٢٧٥ - سياسة المصالح

٢٧٧ - مصر العليا

٢٧٧ - مهمة بديلي

٢٧٧ - الفهم

٢٧٨ - المظن يعطرب

٢٧٩ - مصر الوسطى

٢٨٠ - إمارة مكة

٢٨١ - الزحف على أسوان

٢٨٢ - تنظيم الفتح والمعاركة الأخيرة للتفاوض

٢٨٢ - الاتهام

٢٩٢ - نظم القوانين

٢٩٤ - المطالبات بالعردة إلى فرنسا

٢٩٥ - الهوى والتولية

٢٩٥	التأثير الصحية
٢٩٦	للمعهد (المجمع الطبي)
٢٩٨	للأنطية
٢٩٨	الأحوال المالية
٣٠٠	استعمارة النيجان
٣٠١	تنظيم القضاء
٣٠٢	الضباط للجيش
٣٠٢	بمكة يوهان
٣٠٥	طلعون الإسكندرية
٣٠٦	نوايا العثمانيين
٣٠٦	الرحلة إلى السويس
٣٠٨	الاستعدادات لحملة سوريا
٣١١	حواشي الفصل الخامس

الفصل السادس - فلسطين أو بحارات اللعبة الكبرى

٣٢٧	العبة الكبرى
٣٢٧	الإنجليز والهند
٣٢٨	العبة الكبرى
٣٢٩	الإسلام السياسي
٣٣١	صيدني سميت
٣٣٣	حسابات برتلهاره
٣٣٤	الترعة العربية
٣٣٦	فلسطين
٣٣٨	الجزار
٣٤٠	خطة برتلهاره
٣٤٢	حملة سوريا
٣٤٢	العريش
٣٤٣	يافا

٢٤٦	بداية حصار عكا
٢٤٩	الجليل ..
٢٥٠	بشير والإنجليز
٢٦٠	عمل الإنجليز السيكرولوجي
٢٦١	الفشل ..
٢٦٤	الاتصاف
٢٦٧	حصار خلال حملة سرورها
٢٦٧	تحول مينو إلى اعتناق الإسلام
٢٦٨	نوجا ..
٢٦٩	تمرد أمير الحج
٢٧٠	واقف الحج ..
٢٧١	المالك الأموي
٢٧٢	تمرد النيران
٢٧٤	مهدي ليعتبر
٢٧٦	تفكك نرجا
٢٧٧	مصر العليا
٢٧٨	التهمة
٢٨١	رحيل برنليارت
٢٨١	الحرب في البحر المتوسط
٢٨٢	الهزائم الفرنسية
٢٨٤	إعادة التنظيم للجيش
٢٨٥	مخاطبة النخبة القومية المصرية
٢٨٧	البحيرة
٢٨٧	بوتلارت وإيجيبت
٢٨٨	مبوط مراد بك
٢٨٩	مبنى سميت والمملكتون
٢٩٠	معركة أبو قير البرية

٣٩٤	ميهنلى سميت روتلپاره
٣٩٦	تسمية الخلف
٣٩٨	عودة روتلپاره
٤٠٩	حواشى الفصل السادس

الفصل السابع - كليبر

٤٢٧	قتل التركة
٤٢٧	سخط نوجا
٤٢٨	تولى كليبر المنصب
٤٢٠	حاشية كليبر
٤٢٢	استعادة زمام الامور
٤٢٤	سخط كليبر
٤٢٦	الانزال فى دمياط
٤٢٧	وصل مصر
٤٤٠	اتفاق العريش
٤٤٠	بعثة بيكرديش
٤٤١	تطمين الفارسيات مع العثمانيين
٤٤٣	ميهنلى سميت ولبنان
٤٤٤	تدخل ميهنلى سميت
٤٤٦	التعليمات الصادرة إلى المفلوذين الفرنسيين
٤٤٧	صلوات العريش
٤٤٨	تسليح للجيش
٤٤٩	قرار الهلاء عن مصر
٤٥٢	الاتفاق
٤٥٤	نوايا كليبر
٤٥٧	ميليوبوليس
٤٥٧	نبا ١٨ برسمير
٤٥٩	الورد يلجون والافران سميت

٤٦١	حرج العكرمة البريطانية
٤٦٣	الهند لروندا
٤٦٤	تطير الانتال
٤٦٧	رسالة اللورد كيث
٤٦٨	مهمة جون كيث
٤٦٩	الاتصالات مع مراد بك
٤٧٩	مفاوضات الفرصة الأخيرة
٤٨١	برج كليبر بالاسرار
٤٨٢	معركة ميلينوياس
٤٨٤	إعادة التاج
٤٨٤	لتقاضي القاهرة
٤٨٦	معرض كليبر
٤٨٧	المعاملة مع مراد بك
٤٨٨	تجزر الانتاحية
٤٩٠	الهجوم الأخير
٤٩١	الغريبة الاستثنائية
٤٩٢	الشيخ السادات
٤٩٤	تشكيل قوات مطية
٤٩٥	إعادة التنظيم المالية
٤٩٦	لمؤلف مؤلف كليبر
٤٩٨	مشاريع سبيلى سميت
٤٩٩	التحلية مع الإنجليز
٥٠٠	للمفاوضات مع العثمانيين
٥٠١	مصر نيزيه
٥٠٢	الحتيال كليبر
٥٠٥	حراسي القصل السابق

٥٢١	الفصل الثامن - ميلو
٥٢١	الخيار الاستعماري
٤٢١	تسمية ميلو
٥٢٢	معنى الحملة
٥٢٣	احصائ الجيش مع الواقع
٥٢٥	المشروع الاستعماري
٥٢٥	الشؤون المالية
٥٢٦	لصكاريص
٥٢٨	مشاريع الإصلاح الأخرى
٥٣٠	مشاريع القري
٥٣١	التدابير المالية الأخرى
٥٣٣	ميلو والجيش
٥٣٤	صيف ١٨٠٠
٥٣٥	السياسة المصرية
٥٣٥	التضاء
٥٤٤	البيان الجديد
٥٤٦	التضاء على الالتزام
٥٤٩	ميلو والمهاج
٥٥٠	الصلوات الثقافية
٥٥١	الالتفات
٥٥٣	مراد بك
٥٥٤	نصر الهندللات
٥٥٤	الزمر العسكرية
٥٥٦	الخلاف السياسي وتنازع الأشخاص
٥٥٨	قواعد وضع ميلو
٥٥٩	نور
٥٦٠	المعهد (الجمع الطمى)

٥٦١	تحرك قادة الفرق
٥٦٢	تشيرت ميلو
٥٦٤	مطاردة سيللي سميت الأخيرة
٥٦٦	أوروبا ومصر
٥٦٦	الاقبال الأول
٥٦٧	القرار الإنجليزي
٥٦٩	الانتهيار
٥٦٩	العمل الإنجليزي
٥٧٠	الانزال الإنجليزي
٥٧٢	الإخطاءات الفرنسية الأولى
٥٧٢	معركة كانوب
٥٧٥	لزمة القيادة
٥٧٦	سقوط رشيد
٥٧٧	زوال الخطرة من سيللي سميت
٥٧٨	تراكم الأخطاء
٥٨٠	تريد بيليار الغريب
٥٨١	الجهش الإنجليزي القادم من المستعمرات
٥٨٢	استسلام القاهرة
٥٨٥	مشروع استغلال مصر
٥٩٥	الزواجات الأولى بين العثمانيين والمماليك
٥٩٦	تقليد ميلو
٥٩٧	الطغالات الإنجليزية
٥٩٨	استسلام الاسكندرية
٥٩٩	العربة إلى فرنسا
٦٠٢	مواشي الفصل الثامن
٦٢٢	خاتمة
٦٢٢	الثورة الفرنسية والإسلام

٦٢٣	المحيلة
٦٢٥	الحيلة الاستعمارية
٦٢٥	نقل الأيديولوجيات
٥٢٩	حواشي الخاتمة

الفصل التاسع - الحملة الفرنسية ضد مصر العليا بحثاً عن الآثار أو كشف الغمارة الفرعونية بقلم: جان-كلود جوليان

٦٢٢	الأسلاف
٦٢٤	ليونارد بينون
٦٢٩	المهندسون
٦٤١	بنو
٦٤٥	طبية
٦٤٨	القمان العلمية
٦٥١	البيانات
٦٥٥	حواشي الفصل التاسع

الفصل العاشر - مصر القديمة ضد «وصف مصر»

٦٦١	بقلم: كلود فرانسوا
٦٦٢	الملك الحكيم
٦٦٤	الملك المنتصر والفتوح
٦٧٥	تصميم أم سعيد
٦٧٧	التصميم
٦٨١	المعابد
٦٨٤	المدينة
٦٨٧	المجتمع
٦٨٩	النبالة الرمزية
٦٩٢	مصر واليهودية
٦٩٥	حواشي الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر - الجوانب العلمية لعملية محو

[١٧٩٨ - ١٨٠١] بقلم : هارولد سي . جيليسبي

٧٠١

علوم الرياضيات والفيزياء

٧٠٣

التاريخ الطبيعي

٧٠٥

جغرافيا ومناخ

٧١٠

علوم الأرض

٧٢٤

الطوبوغرافيا والإحصاء وعلوم الإنسان

٧٢٦

حوادث العمل الحاصي محو

٧٢٩

نظريات الخرائط والأشكال ومسابرها

٧٤٧

المسجون في الكتاب

٧٦٦

المساهمون في هذا الكتاب

- هنري لوردنس، استاذ بجامعة السوربون - باريس - فرنسا.
- شارل هيليهسي، استاذ بجامعة برنستون - برنستون - الولايات المتحدة.
- جان - كلود جولقان، مدير بحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي - فرنسا.
- كلود ترونديكر، مسؤول عن البحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي في
ستراسبور - فرنسا.
- هشير السباعي، كاتب ومترجم مصري.
- منير الصمراني (عماد حليم)، فنان وناقد ومصحح للخطوط والمطبوعات
وخبير في الخط العربي والخطاطة.

المترجم

١ - ترويانور الصمد، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤.

٢ - مראה الانطقتينها ، دار النيل ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .

من الأصل المترجمة :

١ - ز. ١٠، ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، دار لبن خليل، ١٩٧٨.

٢ - ز. ١٠، ليفين : التطوير والتنمية، تطور الفكر الاجتماعي العربي الحديث، مكتبة مبدئي، القاهرة، ١٩٨٧.

٣ - تيموثي ميتشل : استعمار مصر، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حسان).

٤ - تيموثي ميتشل : مصر في الخطاب الأمريكي، مؤسسة عياله نيويورك، ١٩٩١.

٥ - جريج حنين : لا مبررات للوجود، أصوات القاهرة، ١٩٨٧ (بالاشتراك مع أنور كامل).

٦ - كريستالين كاتاني : قصائد، دار إيليس، القاهرة، ١٩٩١.

٧ - تزايتان تريويك : فتح أمريكا، مسألة الآخر، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٢.

٨ - روبرت ماتتران (شولف) : تاريخ الدولة العثمانية، جنان، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣.

٩ - فليپ فارج رويسك كريباج : المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركى، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤.

١٠ - انوارو جاليانو : الضرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية ، دار النيل ، الإسكندرية ، ١٩٩٤ (بالاشتراك مع أحمد حسان) .

١١ - توماس ماستاك : الإسلام وخلق الهوية الأوروبية ، دار النيل ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .

أعمال أخرى لهلوج لورنس

- ١ - الأصول الفكرية لحملة مصر، الاستشراق المتاسلم في فرنسا من عام ١٦٩٨ إلى عام ١٧٩٨، دار نشر إيزيس، المعهد الفرنسي للدراسات الاناضولية، اسطنبول - باريس، ١٩٨٧ (بالفرنسية).
- ٢ - كليبر في مصر، كليبر وبوناپارت، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٨ (بالفرنسية).
- ٣ - «عصر التنوير في مواجهة الإمبراطورية العثمانية : صوغ تصور» في كتاب : الإمبراطورية العثمانية وجمهورية تركيا وفرنسا، تحرير جان لوى باكي - جرامون وحيد باطو، دار نشر إيزيس، المعهد الفرنسي للدراسات الاناضولية، اسطنبول - باريس، ١٩٨٦ (بالفرنسية).
- ٤ - «العقل في التاريخ»، في كتاب «المراة المصرية، مارسيليا، ١٩٨٤ (بالفرنسية).
- ٥ - «صورة الشرق في القرنين السابع عشر والثامن عشر» في كتاب : الشرق : المفهوم والتجديد، أعمال ندوة معهد البحوث جولي جيسارات الغرب الحديث، دار نشر جامعة باريس - السوربون، ١٩٨٨ (بالفرنسية).
- ٦ - «الشرق والاصل»، في كتاب : البدائيه واساطير الأصول، ١٦٨٠ - ١٨٢٠، الناشر السابق (بالفرنسية).
- ٧ - «بوناپارت والشرق والامة العظمى» أثال إستوريك دو لا ريفولوشيون فرانسييز، العدد ٧٧٢، يوليو - سبتمبر ١٩٨٨، ص ٢٨٢ - ٢١٤.

الحملة الفرنسية في مصر بوناپرت والإسلام



لتطور المجتمعات الشرقية والأوروبية، وبين توتريهات المشاركين في الأحداث ومسيرة العمل العلمي الملحوظ الذي قام به الفرنسيون في مصر، إننا يُعدُّ تاريخاً كلياً لتلك اللحظة الأساسية في مسار العلاقات بين الغرب والإسلام.

إن قوة استحضار الأحداث الدرامية للثورة الفرنسية الآخذة في الانتهاء، والغموض المحير الذي تميز به بوناپارت المنبهر بالشرق وبتحولات عالم إسلامي يمر بالفعل بتجديد سافر، وهي قوة استحضار تدعّمها وفرة من الصور المندمجة اندماجاً وثيقاً بالنص، سوف تفتن القارئ الراغب في اكتشاف أصول عالمنا المعاصر.

أندريه ميكيل

استاذ بالكوليج دو قرانس